دراسات قرآنية

قبس من نور القرآن الكريم

دراسة تحليلية موسعة بأهداف ومقاصد السور الكريمة



بقلم

محمد علي الصابوني

الأستاذ بجامعة أم القرى في مكة المكرمة

دار القلم

دمشق

دراسات قرآنية
١

قبس من نور القرآن الكريم

من

سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران

دراسة موسّعة تحليلية لأهداف ومقاصد السور الثلاث

بقلم
خادم الكتاب والسنة
الشيخ محمّد علي الصّابوني
الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

قبس من نور القرآن الكريم

ساعدت مؤسسة محمّد بن لادن
في نشر هذا الكتاب بسعرٍ مخفض
الثمن: ٥ ريالات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، منزلِ الكتاب هدى وتذكرةً لأُولي الألباب، والصلاة والسلام على سيِّد ولد عدنان، الذي خصَّه الله بجوامع الكلم وفصل الخطاب، وعلى آله وأتباعه وخاصته وسائر الأصحاب، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فهذه دراسة موضوعية تحليلية موسَّعة لسور القرآن الكريم، تبيِّن مقاصدها وأهدافها، وتضع الخطوط العريضة لما احتوته من آداب، وأحكام، وتشريع، وما هدفت إليه من توجيه وإرشاد، في إطار إصلاح الفرد والمجتمع، وذلك في سلسلة «دراساتنا القرآنية» التي سنتناول فيها بالتفصيل إن شاء الله دراسة سور القرآن الكريم مفصَّلة سورة سورة وقد ابتدأنا بسورة الفاتحة والبقرة وآل عمران، ثم نتبعها ببقيَّة سور القرآن.

والله أسأل أن ينفع به، ويجعله ذخراً لي يوم الدين، وصلَّى الله على عبده ورسوله محمد الأمين، سيِّد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

مكَّة المكرمة ـ غرة المحرم سنة ١٤٠٥ هـ.

وكتبه

الشيخ محمّد علي الصّابوني

الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

«إني لأَعجبُ ممَّنْ يقرأُ القرآنَ، كيفَ يتلذَّذُ بقراءتِهِ، ولم يفهم معناه».
«الإمام الطبري»

دِرَاسَةُ سُورَةِ الفَاتِحَةِ

سُورَةُ الفَاتِحَة

السرُّ في الاستعاذة
«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»

معنى الاستعاذة «أعوذ باللهِ من الشيطان الرجيم» أي أستجير بجناب الله العظيم، وأعتصم به من شر الشيطان الرجيم، العاتي المتمرد، أن يضرني في ديني أو دنياي أو يَصُدَّني عن فعلٍ ما أمرني به ربي، فإن الشيطان لا يكفُّه عن إغواء الإنسان، إلا اللهُ ربُّ العالمين.. وهذه الاستعاذة ليست آيةً من آياتِ القرآن، وإنما هي أدبٌ أدَّبنا الله تعالى به، وعلَّمنا أن نستعيذ باللهِ من شر الشيطان، عند تلاوة القرآن ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ باللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

معنى البسملة «بسم الله الرحمن الرحيم» أي أبدأ بتسميةِ الله وذكره قبل كل شيء، مستعيناً به جلَّ وعلا في جميع أموري، طالباً منه وحده العون والتوفيق، فإنه الربُّ المعبود، ذو الفضل والجود، الذي عمَّ فضلُه وإحسانه جميعَ المخلوقات. افتتح جلَّ ذكره بهذه الآية الكريمة «سورة الفاتحة» ليرشد المؤمنين، إلى أن يبدءوا أعمالهم وأقوالهم، بذكر اسمه جلَّ وعلا، التماساً لمعونته وتوفيقه، ومخالفةً للوثنيين المشركين،

الذين يبدءون أعمالهم بذكر أسماء آلهتهم وطواغيتهم، فيقولون: باسم اللات، وباسمِ العُزَّى، أو يقولون في عصرنا وزماننا «باسم الأمة» و «باسم الشعب».

قال الإمام الطبري شيخ المفسرين: «إن الله تعالى ذكرُه، وتقدست أسماؤه، أدَّب نبيَّه محمداً ﷺ، بتعليمه ذكرَ أسمائه الحسنى، أمام جميع أفعاله، وجعل ذلك لجميع خلقه، سنَّةً يستنُّون بها، وسبيلاً يتبعونه عليها، فقول القائل «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» إذا افتتح تالياً سورةً، يُنبىءُ عن أن مراده: أقرأُ بسم الله، وكذلك سائرُ الأفعال».

«سورة الفاتحة»

هذه السورة الكريمة أول سور القرآنِ في الترتيب لا في النزول، فقد سبقتها في النزول سورٌ وآيات، وهي - على قِصَرها ووجازتها - قد حوتْ أسرار القرآن، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال، ولهذا تسمى أم القرآن، فهي تتناول أصولَ الدين وفروعَه، تتناول العقيدةَ، والعبادةَ، والتشريعَ، والاعتقادَ بالبعث والجزاء، والإيمانَ بصفات الله الحسنى، وأسمائه العليا، وتأمر بإفرادِه بالعبادة، والاستعانةِ، والدعاءِ، والتوجُّهِ إليه تعالى، بطلب الهداية إلى الدين الحقِّ، والصراطِ المستقيم، والتضرع إليه بالتثبيتِ على الإيمان، ونهجِ سبيل الصالحين، وتجنب طَريق المغضوب عليهم أو الضالين، وفيها الحديث على منازل السعداء، ومراتب الأشقياء، وفيها التعبُّدُ بأمرِ اللّهِ تعالى ونهيه، إلى غير ما هنالك من مقاصدَ وأهداف، فهي كالأم بالنسبة لبقية السور المباركة الكريمة، لأنها جمعت مقاصد القرآن، وأهدافه الأساسية، ولذلك قال المصطفى ﷺ «والذي نفسي بيده ما أُنزل في

التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلُها، هي السبعُ المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته»[1].

«توضيحٌ وتفصيل»

تبتدىء سورةُ الفاتحة، بحمد الله وشكره والثناء عليه ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وفي هذا البدءِ الكريم، تعليمٌ للعباد كيفيَّةَ حمدِ اللهِ، والثناءِ عليه، بما يستحقُّه جلَّ وعلا، من الثناء والتمجيد، فالآيةُ وإن وردت بصيغة الخبر «الحَمْدُ للَّهِ» إلَّا أن معناها الأمرُ، والإرشادُ، فكأنه تعالى يعلمنا كيف ينبغي أن نحمده، ونقدِّسه، ونثني عليه بما هو أهلُه، فيقول: قولوا يا عبادي إذا أردتم شكري وثنائي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ اشكروني على إحساني وجميلي إليكم، فأنا ربكم وخالقكم ورازقكم، أنا اللهُ ذو العظمة والمجد والكمال، المتفردُ بالخلق والإيجاد، ربُّ الإنس، والجنِّ، والملائكة، ربُّ السمواتِ والأرضين، فالثناءُ والشكرُ لله وحده، دون ما يُعبد من دونه من الآلهة والأوثان، وفي هذه الآية، من حسن الافتتاح، وبراعة المطْلَعِ ما يأخذ بالألباب، إذْ فيها المبالغةُ في الثناء، لإفادة «أل» للاستغراق، وقصرِ الحمدِ عليه تبارك وتعالى، إذ كلُّ حمدٍ لا يستحقه على الحقيقة، إلا اللَّهُ جلَّ وعلا ربُّ الكائنات. ثم وصفت السورةُ الكريمة الربَّ جل وعلا بصفاتِ الكمال والجلال ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أي الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيء، وعمَّ فضلُه جميعَ الخلق والأنام، بما أنعم على عباده من الخلقِ، والرزقِ،

---

(١) رواه أحمد في المسند من حديث أُبيٍّ بن كعب، وأصله في الصحيحين، ويشير الحديث الشريف إلى قول الله تعالى في سورة الحِجْر ﴿وَلَقَدْ آتيناكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنَ العَظيمَ﴾.

والهدايةِ إلى سعادة الدارين، ثم إنَّ هذا الرب ليس بظلّام، بل هو عظيمُ الرحمة، دائمُ الإحسان، فهو ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ الذي يرحم عباده، ورحمتُه دائمةٌ متجددة لهم، لا تنقطعُ، ولا تزول عنهم، وقد رُوعي في كلٍّ من «الرحمن» و«الرحيم» معنى لم يُراعَ في الآخر، فالرحمنُ بمعنى عظيم الرحمة، والرحيمُ بمعنى دائم الرحمة، وليس ذلك بتكرارٍ للكلام ، وإنما هو للتفصيل والبيان.

ثم يأتي الوصف الثالثُ الدال على عظمة الله وجلاله، وعظيم سلطانه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي أنه سبحانه هو المالكُ وحده للجزاء والحساب، المتصرّفُ في يوم الدين ـ وهو يومُ القيامة ـ تصرُّفَ المالكِ في ملكه والسلطان في رعيته، لا يملك أحدٌ معه شيئاً من الجزاء والحساب ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا، وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

ثم تأتي الآية الرابعة لتنبّه إلى اختصاص الله بالعبادة والاستعانة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ والمعنى: نخصُّك يا أللهُ بالعبادة، ونخصُّك يا ربّ بطلب العون، فلا نعبدُ أحداً سواك، ولا نستعين إلاّ بك، لكَ وحدكَ ربَّنا نذلُّ ونخضع، ونستكينُ ونخشع، ومنك وحدك نطلب العون على طاعتك ومرضاتك، لا يملكُ القدرة على عوننا أحدٌ سواك.

وقد وردت الصيغة بلفظ الجمع «نعبدُ» و«نستعين» ولم ترد بصيغة الإفراد كأن يقول مثلاً «إيَّاك أعبدُ وإيَّاك أستعينُ» وذلك للاعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك جلَّ وعلا، فكأنه يقول: أنا يا رب العبدُ الحقيرُ الذليلُ، لا يليقُ بي أن أقفَ هذا الموقف في مناجاتك بمفردي، بل أنضمُّ إلى سلك عبادك المؤمنين الموحِّدين، فتقبَّلْ دعائي في زمرتهم، فنحن جميعاً في بابك، نعبدُك ونستعينُ بك.

ثم علمتنا السورة كيفية التضرع والدعاء، إلى رب الأرباب لنقول ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ﴾ أي دُلَّنا يا رب وأرشدنا إلى دينك الحقِّ، وطريقِكَ المستقيم، الموصلِ إلى جنات النعيم، وثبِّتْنَا يا ألله على الإسلام، الذي بعثت به أنبياءك ورسُلَك، واجعلنا ممن سلك طريقَ المُقرَّبين ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي طريق الذين تفضلتَ عليهم، من النبيِّين، والصدِّيقين، والشهداء، والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴿غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ أي غير طريق اليهود الذين غضبت عليهم، وغير طريق النصارى الذين حادوا عن الصراط المستقيم، وضلُّوا عن شريعتك القدسية، فاستحقوا الغضب واللعنة الأبدية.. وهكذا تختم السورة بتعليم العباد كيفية الدعاء والثناء على رب الأرباب جلَّ وعلا.

(١)

دَرَاسَة سُورَة البَقَرَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ البَقَرَةِ مَدَنِيَّة

بين يَدَي السُّورَة

سورة البقرة من السور المدنية، التي تُعنى بجانب التوجيه والتشريع، وهي أطول سور القرآن على الإطلاق، وشأنها كشأن سائر السور المدنية التي تعالج النظم والقوانين التشريعية للدولة الإسلامية الجديدة. اشتملت هذه السورة الكريمة «سورة البقرة» على معظم الأحكام التشريعية في العبادات، والمعاملات، والأخلاق، وفي أمور النكاح، والعدَّة، والطلاق، وسائر الأحكام الشرعية من صلاة، وصيام، وحج، وزكاة، لأنَّ المسلمين كانوا في بداية تكوين «الدولة الإسلامية» وهم في أمسِّ الحاجة إلى التشريع الإلَهي، والمنهاج الربَّاني، الذي يعصمهم من الخطأ والزلل، والذي يسيرون عليه في حياتهم الدنيوية، سواءً منها ما كان في العبادات أو المعاملات.

ولهذا نجد جماع السورة الكريمة يهتم بجانب التشريع، وإن كانت هناك لفتاتٌ دقيقة، تتناول جانب العقيدة والإيمان، لكنَّها لا تأخذ مجالاً فسيحاً في السورة الكريمة، في ذلك الإطار العام الذي رسمته السورة، بهدف توجيه المسلمين إلى التشريع والأحكام!

أمَّا الأحكام الشرعية: التي تناولتها السورة الكريمة فهي كثيرة

متنوعة، ويمكن أن نُجملها في الآتي:

«أحكام الصيام، أحكام القصاص، أحكام الحج والعمرة، أحكام الجهاد والقتال، ثم شؤون الأسرة وما يتعلَّق بها من النكاح، والرضاع، والعدة، والطلاق، والخلع، والإيلاء، وسائر الأمور المتعلِّقة بالأسرة كالتحذير من معاشرة النساء في الحيض، وتحريم نكاح المشركات. وكذلك فقد تناولت السورة أحكام الحلف «اليمين» وأحكام الدين، وأحكام القِبْلة، والنسخ في القرآن، وتحدَّثت بالتفصيل عن «جريمة الربا» التي تقوِّض بنيان المجتمع!، وتهدِّم أركانه».

وفي خلال السورة الكريمة: تناولت الحديث عن أهل الكتاب، وبخاصة بني إسرائيل «اليهود» لأنهم كانوا مجاورين للمؤمنين في المدينة المنورة، فنبهت إلى خبثهم ومكرهم، وما تنطوي عليهم نفوسهم الشرِّيرة، من اللؤم، والكيد، والغدر، والخيانة، ونقض العهود والمواثيق، وذلك للتحذير من هذه العصبة المجرمة الطاغية، لئلاَّ يقع المسلمون فريسة كيدهم ومكرهم، وهم الزمرة الأولى من أهل الكتاب، أمَّا الزمرة الثانية وهم «النصارى» فقد تناولتهم سورة آل عمران. وقد ختمت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة، والاعتصام بحبل الله عزَّ وجل.

«المعجزة الإلَهية»

تبتدىء سورة البقرة بالحديث عن «المعجزة الإلَهية الخالدة» معجزة القرآن، التي كانت أظهرَ وأجلى معجزات هذا النبي الأميّ، محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، فلقد أيَّد الله رسوله الكريم بمعجزات ظاهرةٍ باهرة، كان من أعظمها «معجزة القرآن» وفي ذلك

يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿آلم. ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فيهِ هُدَىً لِلْمُتَّقِينَ﴾.. وقد بدأت هذه السورة بدءاً عجيباً غريباً، بدءاً غير مألوفٍ للعرب «آلم» وابتداء السورة بالحروف المقطعة، فيه سرٌّ قرآني عجيب، يلفت أنظار المعرضين عن هذا القرآن، إذ يطرق أسماعَهم لأول وهلة، ألفاظٌ غير مألوفة في تخاطبهم، وذلك لينتبهوا إلى ما يُلقى إليهم من آياتٍ بيِّنات، وليُثير انتباههم وإحساسهم إلى هذا الكتاب السماوي، الذي جاءهم به نبيٌّ أميّ، لا يعرف القراءة والكتابة، وفي هذه الحروف وأمثالها تنبيهٌ على «إعجاز القرآن» فإنَّ هذا الكتاب الذي جاءهم به محمد صلوات الله عليه، منظوم ومركَّب من أمثال هذه الحروف الهجائية، من عين ما ينظمون منه كلامهم، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله ـ وهم فرسان الفصاحة وملوكُ البلاغة ـ فإنَّ هذا العجز أعظم برهانٍ على «إعجاز القرآن».

«كلام الحافظ ابن كثير»

يقول العلاَّمة ابن كثير رحمه الله تعالى: إنَّما ذُكرت هذه الحروف في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن، وأنَّ الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركَّب من هذه الحروف المقطَّعة التي يتخاطبون بها.. ولهذا فكل سورة افتتحت بالحروف، لا بدَّ أن يُذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيانُ عظمته وإعجازه مثل ﴿حمّ. والكِتَابِ المُبِينِ﴾ ﴿آلرَ. تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾ ﴿صَ. وَالقُرْآنِ ذي الذِّكْرِ﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن[1].

«صفات المؤمنين المتَّقين»

ثم تناولت السورة الكريمة الحديث عن صفات المؤمنين،

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٧.

والكافرين، والمنافقين، فوضحت حقيقة الإيمان، وملامح الكفر والنفاق، للمقارنة بين أهل السعادة، وأهل الشقاوة، فذكرت صفات المؤمنين في أربع آيات، وصفات الكافرين في آيتين اثنتين، وأطنبت في صفات المنافقين، بذكرهم في ثلاث عشرة آية، لينبِّه تعالى إلى عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، وفي ذلك يقول الله جلَّ وعلا عن المؤمنين ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فقد وصف الله المؤمنين المتقين في هذه السورة بخمسة أوصاف، ثم ختم لهم بخاتمة الخير والسعادة، بنيلهم للفلاح والنجاح في الدارين ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

«الأوصاف الخمسة»

أمَّا الأوصاف الخمسة فهي: أولاً الإيمان بالغيب، والغيبُ كل شيء مستور لا تدركه الحواس، كالجنة والنار، والحشر والنشر، والصراط والحساب، وغير ذلك ممَّا أخبر عنه القرآن.

الوصف الثاني: إقامة الصلاة وهي الإتيانُ بها على الوجهِ الأتم الأكمل، بشروطها، وخشوعها، وآدابها، ولهذا قال ابن عباس: إقامتُها: بإتمام الركوع والسجود، والتلاوة والخشوع. ونلاحظ في الآية سراً دقيقاً من أسرار القرآن، في قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ فلم يقل تعالى ﴿وَيُصلُّونَ﴾ مع أنها أوجز وأخصر، وذلك لتنبيهنا إلى أنَّ المراد ليس «صورة الصلاة» التي اعتادها الناسُ بل حقيقة الصلاة التي يريدها الله، وهي الصلاة الخاشعة المتدبرة، التي تكفُّ الإنسان عن فعل القبيح كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وهذا

هو السر في تعبير القرآن دائماً عند ذكر الصلاة، أن يذكر لفظ الإقامة ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ أَقِمْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ ﴿ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الْصَّلَاةَ ﴾ فتدبر هذا السرَّ القرآني فإنه عزيز ونفيس..

أمَّا الوصف الثالث: فهو «أداء الزكاة» للفقراء المستحقين، وكثيراً ما يقرن القرآن بين الصلاة والزكاة، لأن الصلاة حقُّ الله، والزكاة حقُّ العبد، ولا يتم إيمان الإنسان حتى يؤدي حق الله، وحقَّ المخلوقين.

والوصف الرابع: هو الإيمان بجميع الكتب السماوية التي أنزلها الله على رسله وأنبيائه، دون تفريق بين كتب الله وبين رسله.

أمَّا الوصف الخامس: فهو التصديق بالآخرة، تصديقاً راسخاً جازماً لا يلابسه شك ولا ارتياب ﴿وبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُون﴾ وقد ختم الله لهم بعد هذه الأوصاف بالنجاح والفلاح ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدَىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُوْنَ ﴾.

وقد تناولت هذه السورة الكريمة في بداية مطلعها صفات كلٍ من المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، ليظهر الفارق الواضح بين كلٍ من هذه الأصناف، على طريقة القرآن الكريم في المقارنة بين الأبـرار والفجار، والتمييز بين أهل السعادة والشقاوة، وبضدها تتميز الأشياء.

«صفات الكافرين»

وصف الله في الآيـات السابقـة المؤمنين، وهنا ذكـر صفات الكافرين والمنافقين، فقال جلَّ ثناؤه عن الكفار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فالآيات الكريمة

وردت مورد التسلية للنبي ﷺ عن تكذيب قومه له، فقلوب هؤلاء الكفَّار مظلمة قاتمة، لا يدخل إليها نور، ولا يُشرق فيها إيمان، لأنَّ الله طبع عليها بسبب ظلمة الكفر والعصيان، فأسماع هؤلاء المجرمين، كأنَّها مغطَّاة بحجبٍ كثيفة، لذلك يرون الحق فلا يتبعونه، ويسمعونه فلا يعونه، كما صرحوا بذلك في قوله تعالى في سورة فصِّلت: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عَامِلُونَ﴾..

«صفات المنافقين»

ثمَّ تحدَّثت السورة الكريمة عن صفات المنافقين بإسهاب وتفصيل، فقد وصفهم تعالى بعشرة أوصاف، كلُّها شنيعة وقبيحة، تدل على رسوخهم في الضلال، وهي «الكذب، والخداع، والمكر، والسَّفه، والاستهزاء بآيات الله، والإفساد في الأرض، والجهل، والضلال، والتذبذب، والسخرية بالمؤمنين» وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُوْلُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِيْنَ. يُخَادِعُوْنَ اللَّهَ وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا وَمَا يَخْدَعُوْنَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ فِي قُلُوْبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ بِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ﴾ وهذا المرض الذي أشارت إليه الآية الكريمة، ليس مرضاً في الأبدان، وإنما هو مرض في الإيمان أي في قلوبهم شك ونفاق، فزادهم الله رجساً فوق رجسهم، وضلالاً فوق ضلالهم، قال عبدالرحمن بن أسلم: هذا مرضٌ في الدين وليس مرضاً في الجسد، وهو الشك الذي دخلهم في الإسلام، فزادهم الله رجساً وشكًّا[1]، ثم تتابعت الآيات الكريمة، تسرد قبائحهم وأفعالهم الشنيعة، لتكشفهم أمام أنظار الناس، فهم فجرة

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٣.

كفرة، قد جمعوا مع الكفر التستر والتخفي بما تلبَّسوا به من النفاق: ﴿وَإِذَا قِيْلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوْا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُوْنَ. أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُوْنَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُوْنَ. وَإِذَا قِيْلَ لَهُمْ آمِنُوْا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوْا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُوْنَ﴾ ومرادهم بالسفهاء أصحابُ النبي عليه الصلاة والسلام، فقد كانوا إذا دُعوا إلى الإيمان الصادق، الذي لا يخالطه نفاق، قالوا مستهزئين ساخرين: أنؤمن كإيمان هؤلاء الجهلة أصحاب محمد، أمثال صهيب، وعمار، وبلال؟ وقد ردَّ الله تعالى عليهم أبلغ ردٍّ وأحكمه فقال: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُوْنَ﴾ ولننظر إلى روعة البيان في تعبير القرآن، فقد جاءت الجملة مؤكَّدة بأربعة تأكيدات. «أَلا» التي تفيد التنبيه، و«إنَّ» التي تفيد التأكيد، وضمير الفصل «هم» ثمَّ تعريف الخبر «السفهاء» ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ ثمَّ ختمت بالاستدراك ﴿وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُوْنَ﴾

«ضرب الأمثال للمنافقين»

وبعد أن أفاض القرآن الكريم في أوصاف المنافقين، ضرب لهم الأمثال، زيادة في الكشف والبيان، وتوضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة النفاق والضلال.. ضرب تعالى لهم مثلين، وضَّح فيهما شقاوتهم وخسارتهم الفادحة بتفريطهم بنعمة الإيمان، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ. صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ **هذا هو المثل الأول**، فقد شبَّه تعالى نفاقهم وحالتهم الغريبة العجيبة، بحالة شخصٍ أوقد ناراً ليستدفىء بها ويستضيء، فما

أن اتَّقدت النار حتى انطفأت، وبقي هذا الإنسان حائراً يتخبَّط في الظلام، تركته في ظلامٍ دامسٍ وخوفٍ شديد، لا يبصر ولا يهتدي، هذا هو مثل المنافقين، في استحبابهم الغيَّ على الرشد، واستبدالهم الضلالة بالهدى.

«روعة التعبير القرآني»

ولننظر إلى سرٍّ دقيق في التعبير في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اَللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ولنتأمل روائع القرآن في الإيجاز والإعجاز، قال العلاَّمة ابن القيّم رحمه الله: تأمَّل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: ذهب الله بنارهم، مع أنه مقتضى السياق، ليطابق أوَّل الآية ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ فإنَّ النار فيها إشراقٌ، وفيها إحراقٌ، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو النور، وأبقى ما فيها من الإحراق وهو النارية.. وتأمل كيف قال: ﴿بِنُوْرِهِمْ﴾ ولم يقل: بضوئهم، لأن الضوء زيادة في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل.. وتأمَّل كيف وحَّد النورَ وجمع الظلمات ﴿ذَهَبَ اَللَّهُ بِنُوْرِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ فإنَّ الحقَّ واحد لا يتعدَّد هو صراط الله المستقيم، الذي لا صراط يوصل سواه، بخلاف طرق الباطل، فإنها متعدِّدة ومتشعِّبة، كما ذكر ذلك في آيات متعددة، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوْا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الْظُلُمَاتِ إِلَى النُوْرِ﴾ وقوله تعالى: ﴿اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الْظُلُمَاتِ وَالْنُوْرَ﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا الْسُبُلَ﴾ فقد جمع تعالى سُبل الباطل، ووحَّد سبيل الحق[1]..

---

(١) انظر محاسن التأويل للشيخ القاسمي.

أمَّا المثل الثاني: فهو قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ، وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ فقد شبَّههم تعالى في حيرتهم وتردُّدهم بمثل قومٍ أصابهم مطرٌ شديدٌ، أظلمت له الغبراء، وأرعدت له السماء، مصحوب بالرعد والبرق والصواعق، فهم من دهشتهم يضعون رؤوس أصابعهم في آذانهم لدفع خطر الصواعق، كأنَّهم يظنون أنَّ ذلك ينجيهم من الموت، ويا له من تشبيه رائع عجيب يأخذ بالألباب(١).

«قصة بدء الخليقة»

كما تناولت هذه السورة الكريمة فيما تناولته قصة بدء الخليقة، قصَّة «آدم وحواء» عليهما السلام، وقصَّة عدوِّهما إبليس اللعين، الذي أغواهما وأوقعهما في الخطيئة والزَّلة، حتى أكلا من الشجرة، وسبَّب لهما الخروج من الجنَّة ومن ذلك النعيم المقيم. وقصَّة آدم مع إبليس، هي قصَّة البشرية بأسرها، قصةُ الحياة كاملة من بدايتها إلى نهايتها، قصة الصراع بين الحق والباطل، بين الهدى والضلال، ممثلةً في آدم وذريته مع عدوهم اللدود إبليس اللعين. ولقد تناولت السورة قصة بدء الخليقة، واستخلاف الله عزَّ وجل لآدم، وإسجاد الملائكة له تعظيماً لقدره وتفخيماً لشأنه، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، قَالُوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) هذا النوع من التشبيه يسمى في علم البلاغة «التشبيه التمثيلي» لأن وجه التشبيه منتزع من متعدد.

«وقفة قصيرة»

وهنا لا بُدَّ لنا من وقفة قصيرة، حول جواب الملائكة في قولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِمَاءَ﴾؟ فإنَّ هذا القول منهم لم يكن على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لآدم وذريته، وإنما هو سؤال استفسار واستعلام عن وجه الحكمة في خلق آدم والبشر، كأنَّهم يقولون يا ربَّنا: ما الحكمَةُ في خلق هؤلاء الناس، مع أنَّ منهم من يُفسد في الأرض، ويسفك الدماء!! وقد جاء الجواب الجامع المانع ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ فلله جلَّ وعلا في خلق آدم حكمة عظيمة جليلة، خفيت حتى على الملائكة، وفي إخبار الله تعالى للملائكة عن خلق آدم، واستخلافه في الأرض، تعليمٌ للعباد أن يتشاوروا في أمورهم قبل أن يُقدموا عليها، فالشورى مطلوبة في أمور الدنيا والدين كما قال تعالى ﴿وأمرهم شورى بينَهم﴾، وكمَّا خصَّ الله آدم عليه السلام بالخلافة، خصَّه كذلك بعلم غزير وقفت الملائكةُ عاجزة عنه، وهذا فيه تكريم عظيم لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أصل البشرية، حيث علَّم الله آدم أموراً لم تعلمها الملائكة، وفي ذلك يقول جلَّ ثناؤه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسمَاءِ هَؤُلاَءِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إنَكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمْ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسَمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إني أَعْلَمُ غَيْبَ السَمَوَاتِ وَالأَرْضِ؟ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُم تَكْتُمُوْنَ﴾.

«السرُّ في استخلاف آدم»

ومن هنا ندرك سرَّ استخلاف الله عزَّ وجل لآدم، فقد خصَّه الله بخصائص دونهم، من معرفة الأسماء، والأشياء، والأجناس، واللغات،

حتى اعترفوا بالعجز والقصور، قال ابن عباس: «عَلَّمَ الله آدم اسم كل شيء، حتى القصعةَ والمِغْرَفة» وذلك كله من فضل الله وبإلهامه، كما قال لسيد الخلق: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تعلمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾.

«سجود الملائكة لآدم»

وكما استخلف الله آدم في الأرض، وعلَّمه من فيوضات فضله وعلمه، كذلك أمر الملائكة بالسجود له، فامتثلوا أمر الله فسجدوا جميعاً له، إلاَّ إبليس فقد امتنع عن السجود جحوداً واستكباراً، واغتراراً بالنفس حيث كان يرى أنه أفضل وأشرف من آدم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيْسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِيْنَ﴾ وسجودُ الملائكة لآدمَ لم يكن سجود عبادة، وإنَّما كان سجود تحيَّة وتكريم، كما سجد «يعقوب» عليه السلام وأبناؤه ليوسف الصديق ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ فلا يقال: كيف يصح السجود لغير الله؟ فإنَّه سجود الملائكة كان بأمر الله، إظهاراً لفضل آدم ولم يكن سجود عبادة كما بيَّنا، فإنَّ العبادة لا تصح لغير الله، وقد قال بعض المفسرين: إن السجود كان في الحقيقة لله، وآدمُ كان كالقبلة أمام الملائكة، فالمصلي يتوجَّه إلى القبلة وصلاته وسجوده لله رب العالمين، وكذلك كان الأمر بالنسبة لآدم، حيث جعله الله قبلة للملائكة الأطهار، وكلا القولين صحيح.

«هل إبليس من الملائكة»؟

أمَّا «إبليس» فقد ذهب كثير من المفسرين إلى أنه من الملائكة بدليل الاستثناء في الآية الكريمة ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيْسَ﴾ وأنه امتنع عن السجود وعصى أمر الله، فطُرِد من حضرة القدس، وهذا القول ضعيف أمام التحقيق العلمي الدقيق، للأدلَّة الآتية:

أولاً: لو كان إبليس من الملائكة لما عصى أمر الله، لأنَّ الملائكة منزهون عن المعصية ﴿لَا يَعْصُوْنَ اَللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

ثانياً: الملائكة خُلقت من نور، وإبليس خُلق من نار، فطبيعتهما مختلفة، وإبليس يقول عن نفسه بصريح عبارة القرآن: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فلو كان من الملائكة لقال: خلقتني من نور، وقد ثبت في الصحيح «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصف لكم».

ثالثاً: الملائكةُ لا ذريَّة لهم، ولا تتناكح ولا تتناسل، لأنهم لا يوصفون بذكورةٍ ولا أنوثة، بخلاف الجن فإنَّهم يتناكحون ويتناسلون كالإنس ولهم ذريَّة، وقد قال تعالى عن إبليس: ﴿أَفَتَتَخِذُونَهُ وَذُرِّيَتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾؟ وقد سُئل الشعبي :هل لإبليس زوجة؟ قال: ذاك عرسٌ لم أشهده؟ قال: ثم قرأت قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَخِذُونَهُ وَذُرِيَتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾ فعلمتُ أنه لا يكون له ذرية إلاَّ من زوجة، فقلت: نعم له زوجة[1].

رابعاً: هناك نص صريح واضح في سورة الكهف على أنَّ إبليس من الجن، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيْسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ وكفى به حجة وبرهاناً.

هذا وقد قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين.. وهذا هو الصحيح الذي دلَّ عليه التحقيق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل[2].

---

(١) محاسن التأويل ٢/١٠٤.

(٢) انظر التحقيق العلمي في كتابنا «صفوة التفاسير» ١/٤٩.

«بنو إسرائيل في القرآن»

لقد تحدَّث القرآن الكريم بإسهابٍ وتفصيل عن بني إسرائيل، وبخاصة في سورة البقرة، فقد جاء الكلام عنهم فيما يقرب من جزءٍ كامل، وذلك يدل على عناية القرآن بكشف حقائق اليهود، وإظهار ما انطوت عليه نفوسهم الخبيثة الشريرة، من كيدٍ، ومكرٍ، وخبثٍ، وتدمير، حتى يحذرهم المسلمون، وقد تفنَّن القرآن في مخاطبتهم، فتارةً دعاهم بالملاطفة، وأخرى بالتخويف، وطوراً بالتذكير لهم بنعم الله عليهم وعلى آبائهم، وحيناً آخر بإقامة الحجَّة عليهم، والتوبيخ لهم على سوء أعمالهم، ولنستمع إلى هذه الآيات البيِّنات، حيث يقول الله جلَّ ثناؤه وتقدَّست أسماؤه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ. وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونَ. وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

«استعباد فرعون لبني إسرائيل»

لقد عاش بنو إسرائيل في الذل والهوان، تحت سلطان فرعون وجبروته وطغيانه، يستذلُّهم ويستعبدهم، ويستعملهم في أرذل الأعمال وأتعبها، وقد بلغ من جبروته وطغيانه، أنَّه كان يذبِّح ذكور بني إسرائيل، ويترك الإناث على قيد الحياة، للسخرية والخدمة، فبعث الله لهم نبيَّاً كريماً من أولي العزم هو «موسى بن عمران» عليه السلام لينقذهم من ذلك الظلم والعسف وفي ذلك يقول القرآن الكريم ممتناً عليهم: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فكيف قابلوا هذا الفضل والإنعام، والجود والإحسان؟ لقد قابلوه بالجحود والعناد،

والسخرية والاستهزاء بآيات الله، وسفك الدماء وقتل الأنبياء، ولهذا ضُربت عليهم الذِّلَّةُ والهوان، واستحقوا لعنة الله وغضبه كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْذِّلَّةُ والْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْنَبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُوْنَ﴾.

«مواقف مخزية لليهود»

ولننظر إلى مواقف اليهود المخزية مع نبيِّهم موسى عليه السلام، الذي خَلَّصهم الله بواسطته من طغيان فرعون وجبروته، فقد تمردوا عن طاعته، واستجابوا لداعي الهوى والشيطان، وطلبوا من نبيِّهم أن يريهم ربَّهم علانية، وهو طلبٌ في منتهى الكفر والطغيان، تقشعر له الأبدان، فما أقبحهم من أمةٍ وما أخزاهم!! وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوْسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، فَأَخَذَتْكُمْ الْصَاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشكُرُونَ. وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّ وَالْسَلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

«طغيان اليهود»

وثَمَّةَ مشهد آخر، من مشاهد طغيان اليهود، وإجرامهم حيث بدَّلوا أوامر الله، واتَّخذوها سخريةً واستهزاء، فقد أُمروا أن يدخلوا البلدة المقدَّسة «بيت المقدس» خاشعين لله ساجدين، وأن يقولوا: «حِطَّةٌ» وهي كلمة استغفارٍ ودعاء ومعناها: حطَّ عنَّا ذنوبنا، وكفِّر عنَّا سيئاتنا، فماذا صنعوا؟ لقد دخلوا بيت المقدس يزحفون على أدبارهم، وقالوا على سبيل الاستهزاء والسخرية: «حبة في شعيرة» فما أتعسهم وأشقاهم، يسخرون من أوامر الله ويهزءون من شرعه ودينه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا

ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً، وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً، وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ. فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ، فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ والرجزُ هو العذابُ والبلاء، فقد أرسل الله عليهم الطاعون، حتى مات في ساعة واحدةٍ منهم سبعون ألفاً كما يقول المفسرون.

«قصَّة إحياء الميت»

ثم تنتقل الآيات في سورة البقرة، لتذكر لنا قصةً من أعجب القصص وأغربها هي قصة إحياء القتيل التي كانت معجزة لموسى بواسطة ضربه بجزء من البقرة والتي سميت هذه السورة بها، تخليداً لذكراها «سورة البقرة» وخلاصة القصَّة أنَّ رجلاً من بني إسرائيل كان له مال كثير، ولم يكن له أبناء يرثونه، فأراد ابن أخيه أن يتعجَّل ميراثه، فقتله ثم ألقاه ليلاً على دار أحد القوم بين قريتين، ثم أصبح يدعي عليهم أنهم قتلوا عمَّه، حتى تخاصم القوم وتدافعوا، وأصبح كل فريقٍ منهم يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فيها وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ثم قال ذوو الرأي منهم والنُّهَى: علامَ يقتل بعضنا بعضاً، وهذا رسولُ الله موسى فينا وبين أظهرنا؟ فأتوا موسى عليه السلام، فذكروا ذلك له، فأوحى الله إليه أن يأمرهم بأن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل بجزء منها، فيحيا بقدرة الله ويخبرهم عن القاتل، وفي بيان هذه المعجزة الربانية يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَة قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالُوا أُدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَهُ يَقُولُ إِنَهَا بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ

فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ . . ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيْكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[١].

«قبائح اليهود وشنائعهم»

وبعد هذا البيان تناولت السورة الكريمة تفصيل ذكر بعض قبائح اليهود وجرائمهم الشنيعة، التي ارتكبوها في حقِّ الله تعالى، وحقِّ رسله، وحقِّ الإنسانية، فطبيعتهم الإفسادُ في الأرض والإجرام، فقد حرَّفوا كلام الله، ونقضوا عهوده ومواثيقه، وقتلوا أنبياءه ورسله، وزعموا أنَّهم شعبُ الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، إلى غير ما هنالك من قبائح وجرائم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ الله ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؟ والخطابُ هنا للمؤمنين والمعنى: أترجون يا معشر المؤمنين أن يُسلم اليهود ويدخلوا في دينكم؟ والحال أنه كان طائفة من أحبارهم وعلمائهم، يقرءون كتاب الله ويسمعونه واضحاً جليًّا، ثم يُحرِّفون وُيبدِّلون آيات التوراة، عن عمدٍ وقصد، لا عن خطأ ونسيان؟ وهم يعلمون أنهم يخالفون التوراة، ويرتكبون جريمةً شنيعة بتحريفهم لكلام الله.

«تحريفهم لكلام الله»

قال العلاَّمة أبو السعود: رُوي أنَّ أحبار اليهود خافوا زوال رئاستهم، فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ في التوراة، وكان فيها أنَّه حسنُ الوجه، حسنُ الشعر، أكحلُ العينين، أبيضُ، ربعةٌ في القامة، فكتبوا مكانها أنَّ النبي المبعوث آخر الزمان طويل، أزرق، سبط الشعر، فإذا سألهم

(١) روى هذه القصة ابن أبي حاتم وذكرها الطبري وابن كثير وجمهور المفسرين.

العامَّة عن ذلك قرءوا ما حرَّفوه وكتبوه بأيديهم، فيقولون للناس: نجد محمداً مخالفةٌ صفتُه لما في التوراة فيكذِّبونه، وفي هؤلاء اليهود يقول القرآن الكريم: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِيْنَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيْهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

«دعوَاهم عدم دخول النار»

ولم يكتف اليهود بذلك التحريف والتضليل، بل افتروا على الله، فزعموا أنَّه لن يعذِّبهم بذنوبهم، لأنَّهم أحبابه وأولياؤه، وأنَّ النار لن يدخلوها إلَّا أياماً قلائل، سبعة أيام بمقدار الأيام التي خلق الله فيها الدنيا[1]، وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة في هذه السورة، حيث يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَنَا النَارُ إلَّا أَيَاماً مَعْدُودَة، قُلْ اِتَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدَاً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقد كذَّبهم الله تعالى وأبطل مزاعمهم فقال: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيْئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْنَارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ. وَالَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الْصَالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ﴾ ومعنى الآية أي بلى تمسكم النار وتُخلَّدون فيها، كما يُخلَّد أيضاً فيها الكافر، الذي اقترف الكبائر والموبقات، وغمرته ذنوبه وجرائمه من كل جانب، حتى سدَّت عليه مسالك النجاة، أمَّا المؤمنون الذين عملوا الصالحات فهم في روضات الجنات يُحبرون.

«تحالف اليهود مع عبدة الأصنام»

ثم تنتقل الآيات الكريمة لتطلعنا على نوع آخر من البغي

---

(١) ذكر هذه الرواية الحافظ ابن كثير عن مجاهد وابن عباس وانظر المختصر ١/ ٧٠.

والعدوان، الذي كان عليه اليهود، حتى مع أبناء دينهم وملَّتهم، فقد كانوا يتحالفون مع الكفرة عُبَّاد الأصنام، على قتال إخوانهم أهل دينهم، مخالفين بذلك لأمر الله، ناقضين لعهده وميثاقه، ثم إذا وقع إخوانهم في الأسر افتدوهم من المشركين بأموالهم، وفي ذلك تناقض عجيب وفيهم يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُوْنَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ. ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُوْنَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..﴾ يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره: كان الأوس والخزرج ـ وهم الأنصار ـ كانوا في الجاهلية عُبَّاد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل «بنو قينقاع» و«بنو النضير» و«بنو قريظة».. و«بنو قريظة» كانوا حلفاء الأوس، وأولئك حلفاء الخزرج.. فكانت الحرب إذا نشبت بينهم، قاتل كل فريقٍ مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه وقد يقتل اليهودي من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، وكانوا يخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الأمتعة والأثاث والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها افتكوا الأسارى من الفريق المغلوب بحكم التوراة، ولهذا قال الله تعالى موبخاً لهم ﴿أفتُؤْمِنُونَ ببعض الكتابِ وتكفُرُونَ بِبَعض﴾[1]؟!.

«بغض اليهود لجبريل عليه السلام»

ومن غرائب جرائم اليهود، أنَّهم يكرهون ويُبغضون بعض

(١) تفسير الحافظ ابن كثير ١/٧١.

الملائكة كجبريل عليه السلام، لأنَّه يأتي بـالشدَّة والعـذاب ـ على زعمهم ـ ويحبون «ميكائيل» لأنه يأتي بالرزق والرحمة، وإلى ذلك تشير الآيات: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدَىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيْلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌ لِلْكَـافِرِينَ﴾ روى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: «أقبلت يهود على رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهنَّ عرفنا أنَّك نبيٌّ فاتَّبعناك، قال: هاتوا، فسألوه عن علامة النبيّ؟ قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه، وسألوه عن المرأة تأتي بالذكر أو بالأنثى كيف ذلك؟ قال: إذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت بإذن الله، وإن علا ماء الرجل ـ أي غلبَ مَاء المرأة ـ أذكرت، ثم سألوه عمَّا حرَّم يعقوب على نفسه فأخبرهم، وسألوه عن الرعد وصوته فأخبرهم كذلك قالوا: صدقت، وبقيت واحدة نتابعك إن أخبرتنا بها قال: سلوا: قالوا من ينزِّل عليك بالوحي والرسالة؟ قال جبريل، قالوا ذاك عدوُّنا، ينزل بالحرب وبالقتال لو قلت ميكـائيل لاتَّبعناك فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيْلَ﴾[1] الآية.

«إبراهيم إمام الحنفاء»

وبعد أن ذكر الله سبحانه في الآيات السابقة نِعَمه على بني إسرائيل، وبيَّن كيف كانوا يقابلون النِّعَمَ بالكفر والعناد، ويأتون منكراتٍ في الأقوال والأعمال، وَصَل حديثهم بذكر قصَّة «إبراهيم» أبي الأنبياء، الذي يزعم اليهود والنصارى إنتماءهم إليه، ويُقرُّون جميعاً بمكانته وفضله، ولو كانوا صادقين في دعواهم، لوجب عليهم اتِّباع هذا النبي الكريم «محمد بن عبدالله» لأنه أثر دعوة إبراهيم الخليل، ثم هو من وَلَد

(١) ذكرها ابن جرير الطبري والحافظ ابن كثير وانظر المختصر ١/٩١.

«إسماعيل» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فكان أولى بالإتباع، والتمسك بشريعته الحنيفية السمحة.

«اختبار الخليل إبراهيم عليه السلام»

ولقد اختبر الله عبده ورسوله إبراهيم الخليل، بجملةٍ من التكاليف الشرعية، فقام بهنَّ خير قيام، وأدَّاهنَّ على خير وجه، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وإِذْ ابْتَلَى إبْرَاهِيْمَ رَبُّهُ بكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِي جَاعِلُكَ لِلْنَاس إِمَامَاً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الْظَالِمِيْنَ﴾.

قال ابن عباس: «اختبره بتكاليف وأوامر شديدة فأتمهنَّ، بفراق قومه في الله حين أُمر بمفارقتهم، وبمحاجة الطاغية نمرود في الله، وبصبره على قذفهم إياه في النار، وبالهجرة من وطنه، وبذبح ابنه حين أُمر بذبحه» وقد أكرمه الله تعالى بعد صبره على هذه المحن الشديدة بالإمامة في الدين، فجعله نبيًّاً ورسولاً، واستجاب الله دعوته فبعث من ذريَّته خاتم الأنبياء والمرسلين، محمداً ﷺ، وكلُّ ذلك ببركة دعائه حين انتهى من بناء البيت العتيق، ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيْهِم رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِيهِمْ إِنَكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمْ﴾.

وبعد أن ذكر تعالى مآثر الخليل إبراهيم عليه السلام، وقصة بنائه البيت العتيق، منارَ التوحيد، وكهفَ الأمن والإيمان، أعقبه بالتوبيخ الشديد للمخالفين لملَّة الخليل، من اليهودِ والنصارى والمشركين، وأكَّد أنه لا يرغب عن دينه، إلَّا كلُّ شقيٍ سفيهٍ، خفيف العقل، متبعٍ لخطوات الشيطان فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيْمَ إِلاَ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ - أي امتهنها واستخفَّ بها - وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الْصَالِحِيْنَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾

فأين اليهود والنصارى من دعوى الإسلام، وزعمهم أنَّهم مقتدون بسيرة إبراهيم الخليل!!

«وصية يعقوب لأبنائه»

وتتحدث لنا الآيات الكريمة عن موقف الوالد الحنون المشفق على أولاده من عذاب الله، الذي يسعى جهده ليغرس في قلوب أبنائه حبَّ الدين، وذلك في قصة يعقوب حين أشرف على الموت، فجمع أولاده وأوصاهم بالتمسك بالإسلام، ودعاهم إلى إخلاص العمل والعبادة لله، وذلك مَثَلٌ صادقٌ للأب الصالح، الذي يرعى شؤون أبنائه، ويحبُّ لهم السعادة الحقَّة، التي لا تكون إلَّا في ظلال دوحة الإيمان، وفي ذلك يقول القرآن: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيْهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي .قَالُوْا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِك إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُوْنَ﴾ ثم يأتي بعد ذلك التعقيبُ المباشر، لتلك الذرية الطيِّبة، والأمة المسلمة بالمديح والثناء: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

«ضلال اليهود والنصارى»

ولعلَّك تعجبُ بعد هذا البيان والتوضيح من تلك الدعاوى الباطلة، التي عليها أهل الكتاب، فلقد زعموا أنَّ الهداية ليست في اتباع الحنيفية، التي كان عليها إبراهيم وإسماعيل والتي جاء بها خاتم الرسل عليه السلام، بل هي في اتباع اليهودية والنصرانية، وإنه لأمرٌ غريبٌ حقّاً، أن يزعموا أنهم على دين إبراهيم، ثم يخالفوا شريعته وملَّته، وقد أكذبهم الله تعالى في ذلك وبيَّن سفههم وضلالهم فقال: ﴿ وَقَالُوْا كُوْنُوا هُوْداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوْا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ حَنِيفاً وَمَا كَان

مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ. قُوْلُوا آمَنَّا باللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوْتِيَ مُوْسَى وَعِيْسَى وَمَا أُوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

«دعوتهم إلى الإسلام»

ولقد أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يدعو اليهود والنصارى إلى الإيمان، بهذا الدين الإسلامي الحنيف، الذي هو الدين الحقُّ، الذي آمن به الأنبياء كلهم، والذي لا يقبل الله ديناً سواه: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيْعُ الْعَلِيمُ. صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُوْنَ﴾ وفي هذه الآيات الكريمة برهان واضح، على أنَّ ضلال اليهود والنصارى لم يكن عن دليلٍ أو شبهة، بل عن جحود وعنادٍ، ولذلك ختم الله هذه الآيات، بما يؤيِّد صدق دعوةِ الرسول ﷺ، ويقيم على أهل الكتاب الحجَّة الدامغة، التي تقصم ظهر الباطل، بطريق الإقناع والإفحام، على أنهم كاذبون على الله مفترون: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّوْنَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُوْنَ. أَمْ تَقُوْلُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوْداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

«السحر من خصائص اليهود»

لا تـزال الآيات الكريمة تحدِّثنا عن جرائم اليهود، عن مخازيهم وضلالهم وطغيانهم، فقد نبذوا العهود، واتَّبعوا طرق الشعوذة والضلال، ونسبوا إلى «سليمان بن داود» أنه كان ساحراً ولم يكن نبيَّاً، وأنَّ ما جاء

به لم يكن من عند الله، وإنما هو من السحر الذي تعلَّمه وأتقنه، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيْقٌ مِنَ الَذِيْنَ أُوْتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُوْرِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ. وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الْشَيَاطِيْنُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الْشَيَاطِيْنَ كَفَرُوا يُعَلِّمُوْنَ الْنَاسَ الْسِحْرَ..﴾ الآية.

روى ابن الجوزي في تفسيره: أنَّ النبي ﷺ لما ذكر سليمان في المرسلين، قال بعض أحبار اليهود: ألا تعجبون لمحمد؟ يزعم أنَّ ابن داود كان نبيَّاً، والله ما كان إلا ساحراً، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الْشَيَاطِيْنَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ الْنَاسَ الْسِحْرَ﴾(١).

«إنكار اليهود للنسخ»

وكما افترى اليهود على نبي الله «سليمان» كذلك طعنوا في القرآن، فزعموا أنه كلامُ محمد اختلقه وافتراه على الله، فقد روي أنَّ اليهود قالوا: ألا تعجبون لأمر محمد؟ يأمر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، فما هذا القرآن إلاَّ كلام محمد، يقوله من تلقاء نفسه، يناقضُ بعضه بعضاً(٢)، فأنزل الله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ الْسَمَوَاتِ والأَرْضِ؟ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

ولقد كان طعنُ اليهود في القرآن والرسول بسبب النسخ ـ نسخ بعض الأحكام الشرعية والآيات القرآنية ـ فبيَّن تعالى أن نسخ هذه الأحكام إنما

(١) زاد المسير ١/١٢٠.

(٢) روائع البيان ١/١٠٠.

هو لمصالح العباد، لما يحقق لهم النفع في العاجل أو الآجل، وهذا النسخ بحكم الله وأمره، وليس كما زعم اليهود أنَّه من فعل محمد، كما ردَّ تعالى عليهم في سورة النحل بقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وقال تعالى هنا في سورة البقرة: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؟

«تحويل القبلة إلى الكعبةَ المشرفة»

ولقد وَجَدَ اليهود لهم منفذاً للطعن في الإسلام، والنيل من رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، وذلك حينما تحـوَّلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، فاتَّخذوا ذلك ذريعة للتشهير والطعن في رسالة النبي ﷺ وقالوا: لقد اشتاق محمد إلى مولده، وعن قريب يرجع إلى دين قومه، فأخبر الله بما سيقوله هؤلاء السفهاء، ولقَّنه الحجة الدامغة ليردَّ على أباطيلهم، ويوطِّن نفسه على تحمل الأذى عند مفاجأة المكروه، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

«ما هي الحكمة من تحويل القبلة؟»

لقد كان رسول الله ﷺ وهو بمكَّة يتوجَّه في صلاته إلى بيت المقدس، بأمرٍ من الله عزَّ وجل، وذلك تأليفاً لقلوب أهل الكتاب، ولكنه عليه السلام كان يتشوَّق لتحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة، لأنها قبلة أبيه إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان يُكثر من ترديد بصره إلى

السماء، يترقَّب نزول الوحي عليه في أمر تحويل القبلة[1]، بلهفةٍ وشوق، حتى حقَّق الله له رغبته، فأمره بالتوجُّه إلى البيت العتيق، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. وهناك سبب آخر لشوق النبي ﷺ لتحويل القبلة، من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، هذا السبب هو أنَّ اليهود الخبثاء كانوا يقولون: ما أغرب أمر محمد، يخالف ديننا ويتوجَّه في صلاته إلى قبلتنا، ولولا ديننا لم يدر أين يتوجَّه في صلاته!! فكان صلوات الله عليه يتمنَّى من ربِّه أن يصرفه عن التوجُّه من قبلتهم إلى الكعبة المشرفة حتى لا يبقى لليهود سبيلٌ للطعن في شخصيته ورسالته، حتى رُوي أنَّه قال لجبريل: وددتُ لو أنَّ الله صرفني عن قبلة اليهود، وجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء، رجاء أن يأتيه الوحي بتحويل القبلة إلى الكعبة فأنزل الله ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾.

وحين حُوِّلت القبلة قال بعضُ الصحابة يا رسول الله: كيف بإخواننا الذين كانوا يصلُّون إلى بيت المقدس؟ وكيف بصلاتنا التي صلَّيناها نحن؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيْمَانَكُمْ - أي صلاتكم - إِنَّ اللَّهَ بِالْنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيْمٌ﴾[2].

«رواية البخاري»

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، صلَّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجَّه نحو الكعبة فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ

---

(١) حادثة تحويل القبلة ذكرها البخاري في صحيحه وأهل السنن.

(٢) رواه الترمذي عن ابن عباس وصححه.

قِبْلَةً تَرْضَاهَا . . ﴾ الآية. فقال السفهاء من الناس ـ وهم اليهود ـ ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فقال تعالى رداً عليهم: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ﴾ وكأنَّ الآية تقول: إنَّ الجهات كلَّها لله تعالى، لا فضل لجهةٍ منها بذاته على جهة أخرى، ولا يستحق شيء منها لذاته أن يكون قبلة، بل إنما تصيرُ قبلةً بأمرِ الله تعالى وحكمه، فلا اعتراض عليه سبحانه بتحويلكم من جهة إلى جهة، وأنَّ العبرة بالتوجُّه إليه جلَّ وعلا بالقلوب، فكيف يعترضون عليك يا محمد!؟

«أدب الرسول ﷺ»

وفي هذه الآية الكريمة تنبيه لطيف على حسن أدبه صلوات الله عليه مع ربِّه، حيث انتظر الوحيَ ولم يسأل ربه أن يحوّله عن قبلته الأولى، بل اكتفى بترديد بصره إلى السماء، وقد أكرمه الله على هذا الأدب بقبلةٍ يحبُّها ويهواها: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِيْنَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُوْنَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

«الأحكام التشريعية في سورة البقرة»

ونتحدَّث الآن عن الجانب التشريعي في سورة البقرة، فبعد أن تحدَّثت الآيات السابقة عن «بني إسرائيل» وذكرت بالتفصيل ما أنعم الله به عليهم، وما قابلوا به تلك النعم من الجحود والكُفران، فيما يقرب من ثلث السورة الكريمة، جاء الحديث بعد ذلك عن الجانب التشريعي، لأنَّ المسلمين كانوا بعد الانتقال إلى المدينة المنوَّرة، في بداية تكوين «الدولة الإسلامية» وهم في أمسِّ الحاجة إلى المنهج الربَّاني، والتشريع الإلَهي، الذي يسيرون عليه في حياتهم العامَّة، سواءً في العبادات، أو المعاملات، أو النظم الاجتماعية، أو المعاملات الاقتصادية، أو السلوك

والأخلاق، ولهذا فإنَّ جِماع السورة قد تناول الجانب التشريعي، وهو باختصار كما يلي:

أحكامُ القتالِ والجهاد في سبيل الله، أحكامُ الحج والعمرة، أحكامُ الصوم، شؤون الأسرة وما يتعلَّق بها من الزواج، والطلاق، والرضاع، والعدَّة، ونكاح المشركات، وحكمُ الرجعة والإيلاء، وحكم التعامل بالربا، وأحكامُ الدين والرهن، إلى غير ما هنالك من الأحكام.

«تذكير المؤمنين بالنعمة العظمى»

لقد ذكَّر الله عباده المؤمنين في هذه السورة، بالنعمة العظمى عليهم، ببعثة السراج المنير، سيدنا محمد ﷺ الذي جعله الله رحمة للعالمين، فهو ﷺ المنقذُ، والهادي، والمرشد، والمعلِّم للمؤمنين، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُوْلاً مِنْكُمْ يَتْلُوْا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُوْنُوا تَعْلَمونَ. فاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِيَ وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ والتشبيه هنا متعلِّق بالآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُوْلاً مِنْكُمْ﴾ والمعنى: كما أتممتُ عليكم نعمتي بالإسلام، كذلك أرسلت فيكم رسولاً معظَّماً مكرَّماً، هو محمد عليه الصلاة والسلام، فاذكروني على هذه النعمة بالعبادة والطاعة، أذكركم بالمغفرة والثواب، واشكروا نعمي ولا تكفروها بالجحود والعصيان، كما فعل بنو إسرائيل رُوي أنَّ موسى عليه السلام قال يا رب: كيف أشكرك؟ قال له ربُّه: تذكرني ولا تنساني فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني.

«منزلة الشهداء في الآخرة»

ثم أمر تعالى المؤمنين بالصبر على شدائد الحياة، وبالمحافظة على الصلاة، ونهاهم عن القول بأنَّ الشهيد ميِّت، فإنه في حياة برزخية أسمى من هذه الحياة، فإنَّه في الجنَّة يُرزق ويُنعَّم، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اسْتَعِيْنُوا بِـالْصَّبْرِ وَالصَّـلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِيْنَ. وَلاَ تَقُوْلُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ وفي حياة هؤلاء الشهداء، وفي نعيمهم وثوابهم يقول رسول الله ﷺ: «لمَّا أُصيب إخوانكم في أُحُد، جعل الله أرواحهم في جوف طيرٍ خضر، ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب، معلَّقةٍ في ظل العرش، فلمَّا وجدوا طيب مأكلهم، ومشربهم، ومقيلهم: قالوا: من يُبلِّغ إخواننا عنَّا أنَّا أحياءٌ في الجنَّةِ نُرزق، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال الله سبحانه: أنا أبلِّغهم عنكم، فأنزل الله: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُوْنَ﴾.

«فضيلة الصبر»

ولمَّا كان الجهاد في سبيل الله، يستلزم وقوع بعض المصائب في النفس والمال، جاءت الآيات الكريمة لتتحدَّث عن «فضيلة الصبر» وفي ذلك يقول جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوْعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِيْنَ. الَّذِيْنَ إذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيْبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ. أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُوْنَ﴾ روي عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أنَّه قال: «ما أصابتني مصيبة إلاَّ وجدتُ فيها ثلاث نعم: الأولى أنها لم تكن في ديني، الثانية: أنها لم تكن أعظم ممَّا كانت. الثالثة: أن الله يثيب

عليها الجزاء العظيم، ثم تلا قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُوْنَ﴾ فإذا كان المؤمن يجد في المصيبة هذا الأجر العظيم، فكيف لا يشعر بالسعادة في هذه الحياة الدنيا؟

«دلائل القدرة والوحدانية»

تنتقل الآيات بعد ذلك، لتبرز لنا أدلَّة القدرة والوحدانية وتأتي بالحجج والبراهين، على وجود الخالق المدبِّر الحكيم، فتبدأ بذكر العالم العلويّ، ثم السفليّ، ثم بتعاقب الليل والنهار، ثم بالسفن الضخمة تمخُرُ عُباب البحار، ثم بالسُّحب والأمطار، التي تنزل بالغيث رحمةً للعباد، وتختم بالأمر بالتفكر والتدبُّر في بدائع صنع الله، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيْهَا مِنْ كُلِّ دَابَّـةٍ وَتَصْرِيْفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فقد ذكر تعالى في هذه الآية من عجائب مخلوقاته ثمانية أنواع، تنبيهاً على ما فيها من الآيات والعبر:

الأول: خلقُ السَّموات البديعة، وما فيها من الكواكب المضيئة، ومن الشمس والقمر.

الثاني: تكوين الأرض وما فيها من جبالٍ، وبحارٍ، وأنهـارٍ، وأشجارٍ، وما فيها من معادن وجواهر.

الثالث: اختلاف الليل والنهار، بالطول والقصر، والنور والظلمة، والزيادة والنقصان.

الرابع: السفن العظيمة كأنَّها الجبال في الضخامة، وهي مملوءة بالأثقال والرجال، تجري بها الريح مقبلةً ومدبرة.

الخامس: المطر الذي جعله الله سبباً لحياة الموجودات، من إنسانٍ، وحيوان، ونبات، وإنزاله بمقدار.

السادس: ما بثّ تعالى ونشر في هذه الأرض من أنواع المخلوقات، من بشر، وأنعام، وطيور، مع اختلاف الأشكال والصور.

السابع: تصريف الرياح شمالاً وجنوباً، حارّة وباردة، وما فيها من القوّة حيث تقتلع الصخر والشجر.

الثامن: السحاب الذي يسيره الله بقدرته بين السماء والأرض، وهو يحمل الأطنان من المياه العذبة، فسبحان الواحد القهّار.

هذه ـ أيُّها السادة ـ بعض آيات الله الكونية، التي تشير إلى وحدانيته وقدرته، ذكرها لنا في هذه الآية الكريمة، لنستدل منها على عظمة موجدها وخالقها جلَّ وعلا.

«وجوه الخير متنوعة»

ذكرنا أنَّ سورة البقرة قد تعرَّضت لكثير من الأحكام التشريعية، لأنَّ المسلمين بعد الهجرة كانوا في بداية تكوين الدولة الإسلامية، ولذلك نجد السورة الكريمة تضع أمام أنظارهم المنهاج العام الذي يسيرون عليه في حياتهم، ومن ضمن تلك التوجيهات الربَّانية التي أرشدتهم إليها السورة الكريمة، هو أنَّ عمل الخير ليس قاصراً على أداء الصلاة، وليس محصوراً في أن يتوجَّه الإنسان في صلاته جهة المشرق والمغرب، ولكنَّ البرَّ الصحيح والطاعة الحقَّة، هو أن يؤمن الإنسان بالله واليوم الآخر، وَيُصَدِّق بجميع الكتب والرسل، وأن يعطي المال على محبته للفقراء والمساكين، الذين اشتدَّت بهم الفاقة والحاجة، ولا سيَّما الأقرباء الفقراء، فإنهم أولى الناس بالعطف والإحسان، وأن يسعى

لتخليص الأسرى والأرقاء من العبودية، ببذل المال لتخليصهم من الأسر، وأن يصبر وقت المحنة والشدَّة في ميدان الشرف والنضال حين الحرب، فإنَّ ذلك هو الإيمان الصادق الذي يريده الله من عباده، لا مجرَّد نطق الشهادة باللسان، أو توجُّه الإنسان في صلاته جهة الشرق والغرب، كما يظنه أهل الكتاب «اليهود والنصارى» حيث حصروا الدين في دائرة ضيِّقة، هي دائرة الصلاة والتوجُّه بوجهه جهة القبلة، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِيْنَ وَابْنَ السَّبِيْلِ وَالسَّائِلِيْنَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُوْنَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِيْنَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِيْنَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُوْنَ﴾.

«الدين لَيس طقوساً كهنوتية»

وبهذا البيان الناصع الساطع، يظهر لنا أنَّ الدين ليس مجرد طقوسٍ كهنوتية، يؤديها الإنسان ضمن المعبد أو الكنيسة، لا صلة لها بالحياة، وإنَّما الدين نظامٌ متكامل للحياة، يرافق الإنسان في جميع خطواته، وفي جميع حركاته وسكناته، في البيت، والسوق، والدائرة، والمكتب، والمسجد، والمحكمة، وهو كشرطي رقيب على عمل الإنسان، وأنَّ الدين ليس بالصلاة فحسب، بل بالإيمان والإحسان، وتقديم كل خيرٍ لبني الإنسان.

«واجب العدل في النفوس والدماء»

ثم تنتقل السورة الكريمة لتحدِّثنا عن واجب العدل الذي قامت عليه شريعة الله، وبخاصة في النفوس والدماء، فقد شرع اللَّهُ القصاص،

ردعاً للمجرمين وصيانةً لدماء الناس، وقضاءً على الفتنة في مهدها، فإنَّ الجاني إذا أيقن أنَّه سيؤخذ بجريرته وجنايته، كفَّ عن القتل، ورجع إلى العقل، فكان في ذلك حياةٌ له، وحياةٌ لأفراد المجتمع وصدق الله ﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ﴾.

«صور من البغي والعدوان»

ولقد كان في الجاهلية بغيٌ وعدوان، فكانت القبيلة إذا كان لها قوَّة ومنعة، وقُتِلَ فيهم عبدٌ، قالوا: لا نقتل به إلا حراً، وإذا قتلت فيهم امرأة قالوا: لا نقتل بها إلا رجلاً، وإذا قُتل واحد من كبرائهم وأشرافهم قالوا: لا نرضى إلاَّ أن نقتل به مائة، فأمر الله تعالى بالعدل بالقصاص، وبقتل الجاني فقط دون التعرُّض لغيره من الأبرياء، فإنَّ ذلك ظلمٌ وعدوان، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ أي فُرض عليكم أن تقتصوا للمقتول من القاتل فقط، بالعدل والمساواة دون اعتداء أو طغيان، ثم فسَّر هذه المساواة وبيَّنها بقوله: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ، وَالأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ أي إذا قتل الحرُّ الحرَّ فاقتلوه بـه فقط، ولا تقتلوا معه غيره، وإذا قتل العبدُ العبدَ فاقتلوا العبد فقط، وكذلك الأنثى إذا قتلت الأنثى فاقتلوها بها، ولا تعتدوا فتقتلوا غير الجاني، فإن أخذَ البريء مع الجاني ليس بقصاص، بل هو ظلم وعدوان، وبهذا التوجيه الإلَهي حقن الله الدماء.

وإذا كـان العدلُ يـوجب القصاص، فـإنَّ القرآن يـدعـو إلى الفضل، إلى الصفح والعفو، فإنَّ ذلك أسمى وأعلى وأكمل، وفي هذه الحالة ينبغي أن يدفع القاتلُ الديَّة دون مماكسةٍ أو مماطلةٍ، ويطالبُه أهل القتيل بها بلا عُنْف ولا إرهاق: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيْهِ شيءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ وقد امتنَّ الله على عباده بتشريعة الديَّة

لهم، فضلاً منه ورحمة فقال: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

«الجمع بين الرحمة والعدل»

وقد جمع الإسلام في «عقوبة القتل» بين الرحمة والعدل، فجعل القصاص حقاً لأولياء المقتول، إذا طالبوا به، وذلك عدل، وشرع الديَّة إذا أسقطوا القصاص عن القاتل، وذلك رحمة وفضل.. وما أسمى ما ختم الله به أمر الجنايات بهذه الآية الجامعة المانعة «ولكم في القصاص حياةٌ يا أولي الألباب» فقد اتَّفق علماء البيان أنَّ الآية بالغةٍ أعلى درجات الفصاحة والبلاغة، وارتقت في إيجازها أعلى سماءٍ للإعجاز، وقد اشتهر عن العرب قولهم: «القتلُ أنفى للقتل» وكانوا يعجبون بهذه الحكمة البليغة، فجاء القرآن بما هو أبلغ وأوجز وأعلى «ولكم في القصاص حياة» فإنَّ القرآن قد جعل سبب الحياة القصاصُ، وهو القتل عقوبةً على وجه التماثل، والمثل العربي جعل سبب الحياة القتلُ، ومن القتل ما يكون بغياً وظلماً وفساداً، فيكون سبباً للفناء لا للحياة ثم في المثل تكرار بخلاف الآية الكريمة(١)، فسبحان من أنزل كتابه المعجز بأفصح العبارات، وأظهر الإشارات.

«الصيام مدرسة تهذيبية»

هذه السورة الكريمة تجمع في ثناياها بين القصص والأخبار، وبين المواعظ والأمثال، وبين الأحكام والحِكَم، وكل ما في القرآن في قمَّة الفصاحة والبيان.. ولكنَّ هذه السورة اختُصَّتْ من بين سائر السور، بالأحكام التشريعية التي فرضها الله على عباده المؤمنين، فهي زاخرة

(١) عدَّ المفسرون عشرين وجهاً من وجوه التفريق، بين الآية القرآنية والحكمة العربية، وقد ذكر هذه الوجوه الدقيقة الإمام السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن.

بالأوامر والنواهي، وبالفرائض والتكاليف، فبعد أن تحدَّثت الآياتُ السابقة عن حكم القصاص، وحكم الوصية، جاءت الآيات الكريمة لتتحدَّث عن فريضة الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ﴾ ناداهم الله تعالى بلفظ الإيمان ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ليحرِّك فيهم مشاعر الطاعة، ويُزكي في قلوبهم جذوة الإيمان، وقد نبَّه تعالى إلى أنَّ الصوم له فوائد جليلة، ومزايا حميدة غفل عنها الجاهلون، وعرف أسرارها العالمون، فالصوم يربي في الإنسان «ملكة التقوى» ويعوِّده على الخضوع والعبودية لله رب العالمين، والصوم يُهذِّب النفس البشرية، بما يغرسه فيها من خوف الله عزَّ وجل، ومراقبته في السر والعلن، والصوم يعوّد الإنسان على حب الإحسان، ويجعل منه إنساناً رقيق القلب طيِّب النفس، يحسُّ بإحساس الفقير، ويمدُّ إليه يد المساعدة والعون، فيمسح دمعة البائس، ويُزيل كربة المسكين، وقد روي أنَّ يوسف الصديق عليه السلام، كان يكثر من الصيام تطوُّعاً، فقيل له: لَمَ تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ فقال كلمته الحكيمة «أخشى إن شبعتُ أن أنسى الجائع»

«سرٌّ دقيق في مشروعية الصوم»

وهذه اللفتة الكريمة من نبي كريم، تلفت انتباهنا إلى سرٍّ دقيق في مشروعية الصيام، ألا وهو شعور المؤمن بحاجة الفقير، فلولا الصيام ما عرفنا ما يعانيه الفقير من ألم الجوع والحرمان، وقد نبَّه تعالى في آية الصيام إلى أمور هي:

أولاً: أَنَّ لهذه الأمَّة المحمَّديَّة في شريعة الصيام أسوة بالأمم المتقدِّمة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامَ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي فرض عليكم الصيام كما فرض على الأمم التي سبقتكم.

ثانياً: أنه ليس طيلة السنة، بل هو مختص بأيام معدودات، هي في مستطاع الإنسان وقدرته، «أياماً معدودات».

ثالثاً: أنَّ الله تعالى خصَّ بالصيام «شهر رمضان» المبارك، تذكيراً للمؤمنين بالنِّعمة العظمى عليهم، وهي نعمة نزول القرآن، الموصل إلى طريق الجنان، وقد علَّل تعالى ذلك بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدَىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وكأنَّه تعالى يقول لنا: إنَّما فرضتُ عليكم صوم شهر رمضان، من أجل أن تعرفوا نعمتي عليكم بإنزال القرآن، الذي فيه فلاحكم، وبه سعادتكم.

«رمضان ليس من الأشهر الحرم»

ومن المعلوم أنَّ رمضان ليس من الأشهر الحرم، ومع ذلك خصَّه الله بفريضة الصوم، تذكيراً لنا بنعمة الرحمن بإنزاله القرآن ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوْرَاً مُبِيْنَاً﴾ روي عن الحسن البصري رضي الله عنه أنَّه قال: إنَّ الله فرض صيام رمضان على اليهود والنصارى، أمَّا اليهود فإنَّها تركت هذا الشهر، وصامت يوماً من السنة، زعموا أنَّه اليوم الذي غرق فيه فرعون، ونجَّى الله فيه بني إسرائيل، وأمَّا النصارى فإنَّهم صاموا رمضان، فصادفوا فيه الحرَّ الشديد، فحوَّلوه إلى وقت لا يتغيَّر من فصول العام هو فصل الربيع، وقالوا: نريد عشرين يوماً نكفِّر به ما صنعنا، فجعلوا صيامهم خمسين يوماً، وفيهم يقول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوْا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابَاً مِنْ دُوْنِ اللَّهِ..﴾ الآية.

«الاستمتاع بالنساء في ليالي رمضان»

ولقد كان الصوم في بدء الإسلام، يمتنع فيه المسلمون عن معاشرة النساء طيلة شهر رمضان، كما يمتنعون عن الطعام والشراب في

النهار، ثم خفف الله عن هذه الأمَّة ورحمها، فأباح لها الاستمتاع بالنساء في ليالي رمضان، بعد أن كان محرَّماً، روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنَّه قال: «لمَّا نزل صوم رمضان، كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ـ أي تخونونها بمخالفتكم أمر الله ـ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ، فالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ. .﴾ الآية أي جامعوهنَّ في ليالي رمضان، واطلبوا بنكاحهنَّ حصول الولد، ولا تباشروهنَّ لقضاء الشهوة فقط.

«أدب سامٍ رفيع شدَّنا إليه القرآن»

ولننظر إلى روعة البيان في تعبير القرآن، وإلى ذلك الأدب الرفيع، الذي يرشدنا إليه القرآن، في أسلوبه السامي، وجماله الفائق، فقد عبَّر تعالى عن العلاقة الجنسية بين الزوجين، بتعبير رائع فاقَ الخيال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ فقد شبَّه المرأة باللباس الذي يستر البدن، ويُزيِّنه ويجمِّله، فالمرأة سترٌ للرجل وسَكَنٌ له، والرجل سترٌ للمرأة وسَكَنٌ لها، وهما حال المعاشرة الزوجية، كأنَّهما جسدٌ واحد بثوب واحد، كالثوب ولابسه، قال ابن عباس في تفسير الآية الكريمة: «هنَّ سكنٌ لكم وأنتم سكنٌ لهنَّ، وأراد تعالى به الجماع، ولكنَّ الله عزَّ وجل كريم حليمٌ يكني» أي لا يأتي باللفظ الصريح، بل يعبِّر عنه بالكناية، وفي هذا تعليم لنا الأدب في الخطاب وفي اختيار أشرف الألفاظ، لأنَّ الدين أدبٌ، وسموٌّ، وأخلاق. . كما أباحت الآية الكرية الأكل والشرب إلى طلوع الفجر، وجاء التعبير عن ذلك باستعارةٍ لطيفة أيضاً، هي من خصائص أسرار القرآن: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ

﴿الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ أي كُلُوا واشربوا حتى يظهر لكم بياض الصبح من سواد الليل، فالتعبير هنا بطريق الاستعارة.. روي أنه لمَّا نزلت هذه الآية قال عدي بن حاتم: فأخذت عقالين - أي حَبْلَيْن - أبيض وأسود، فجعلتهما تحت وسادتي، وكنتُ أقوم من الليل فأنظر إليهما، فلم يتبيَّنْ لي الأبيضُ من الأسود، فلمَّا أصبحتُ غدوتُ على رسول الله ﷺ فأخبرتُه، فضحك صلوات الله وسلامه عليه وقال: إنَّك لعريض القفا - أي غبيٌّ سيء الفهم - إنَّما ذلك بياضُ النهار وسواد الليل»[1].

«الجهاد لإعلاء كلمة الله»

تناولت سورة البقرة فيما تناولته من الأحكام التشريعية، حكمة الجهاد ومشروعية القتال في سبيل الله، وفي ذلك يقول المولى جلَّ وعلا: ﴿وَقَاتِلُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ. وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوْهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوْكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ، وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيْهِ فَإِنْ قَاتَلُوْكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِيْنَ﴾ والمعنى: قاتلوا أيها المؤمنون في سبيل إعلاء كلمة الله، وإعزاز دينه، وفي سبيل نصرة الحق، الذين يقاتلونكم من الكفَّار، ولا تعتدوا وقت القتال، بقتل الشيوخ والأطفال، وقتل الضعفة من النساء ممَّن لا قدرة لهم على القتال، فإنَّ الله يكره البغي والظلم والعدوان، أيّاً كان مصدره، ثم نبَّه تعالى في الآية الثانية إلى ضرورة قتال أعداء الله، حتى نقتلع الشر من جذوره، ونقضي على الفتنة في مهدها فقال: ﴿وَاقْتُلُوْهُمْ

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

حَيْثُ ثَقِفْتُمُوْهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوْكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي اقتلوهم أيها المؤمنون أينما وجدتموهم وصادفتموهم، ولا يصدَّنكم عن قتالهم أنَّكم في بلد الله الحرام، فإن فتنتهم للمؤمنين، وإيذاءهم لهم بالتعذيب والتشريد، وإخراجهم من الوطن، أشدُّ قبحاً وجرماً من القتل، ولكن لا تبدءوا بقتالهم عند المسجد الحرام، حتى يبدءوا هم بالقتال، فإن قاتلوكم فاقتلوهم، كذلك جزاء الكافرين، فإن انتهوا عن عدوانهم فإنَّ الله غفور رحيم.

روي أنَّ رسول الله ﷺ لما صُدَّ عن البيت، ونحر هديه بالحديبية وصالحه المشركون على أن يرجع من العام المقبل، فيعتمر هو وأصحابه، رجع صلوات الله عليه، فلمَّا تجهَّز في العام المقبل، خاف أصحابه ألَّا تفي لهم قريش بذلك، وأن يصدُّوهم عن دخول مكَّة ويقاتلوهم، وكره بعض المسلمين القتال في الشهر الحرام وفي البلد الحرام، فأنزل الله هذه الآيات الكريمة: ﴿وَقَاتِلُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوْا، إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ﴾.

«الصراع بين الحق والباطل»

إنَّ الصراع بين الحق والباطل، وبين الكفر والإيمان، قديم قدم هذه الحياة، لا يهدأ ولا يفتر، ولا ينتهي ولا يزول، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون. ولا بدَّ لكل أمةٍ من أمم الأرض، تريد أن تحيا حياة العزَّة والكرامة، من أن تستعد الاستعداد الكامل، لمجابهة الأعداء، بكل ما تملك من قوَّة وعزم، وأن تأخذ بأسباب النصر، فتهيأ شبابها للجهاد والقتال، لأنَّه لا عيش في هذه الحياة إلَّا للأقوياء، ولا منطق إلَّا للقوَّة، والإسلام دين الله للبشرية، فهو يهتم بدعوة الناس إلى الدخول في هدايته، والانضواء تحت رايته، لينعموا بحياة الأمن

والاستقرار، ويعيشوا العيشة السعيدة الكريمة، التي أرادها الله لبني الإنسان، والأمَّة الإسلامية هي الأمَّة التي اختارها الله لإعلاء دينه، وتبليغ دعوته، وإيصال هذا الهدى والنور إلى أمم الأرض.. فإذا وقف أحدٌ في طريق الدعوة، وأراد أن يصدَّ المؤمنين عن المضي في هذا الطريق، فلا بدَّ من دحره، وتطهير الأرض من شرِّه، لتصل هداية الله إلى النفوس، وتعلو كلمة الحق، ويأمن الناس على حريتهم الفردية والدينية، في الإيمان بالله الواحد الأحد، ولذلك شُرع القتال لدفع عدوان الظالمين، ولتحطيم كل قوَّة باغية تعترض طريق دعوة الله.

«الجهاد تضحية وفداء»

وسُمِّي هذا القتال «جهاداً» لأنَّ فيه تضحية وفداءً، وبذلاً لأسمى ما يملكه الإنسان في هذه الحياة، ألا وهو النفس والمال، لإعلاء كلمة الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ، يُقَاتِلُوْنَ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُوْنَ وَيُقْتَلُوْنَ وَعْدَاً عَلَيْهِ حَقَّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيْلِ وَالْقُرْآنِ﴾ فليس الجهاد في الإسلام للاستعلاء والطغيان، وإنَّما هو لغاية شريفة نبيلة هي إعزازُ الدين، ونصرة الحق، ودفعُ عدوان الظالمين. كما نبَّه تعالى في هذه الآيات الكريمة من سورة البقرة، إلى هذا المقصد السامي والهدف النبيل فقال: ﴿وَقَاتِلُوْهُمْ حَتَى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُوْنَ الْدِّيْنُ للَّهِ﴾ فلا يُقاتلُ إلاَّ الباغي المعتدي، الذي يريد أن يفرض إرادته على الأمَّة بالقهر والسلطان، ويريد أن يصدَّ عن دين الله بقوَّة الحديد والنار، ويفتن المؤمنين بوسائل البطش والتنكيل، ثم لا يكف عن شرِّه ولا يرعوي، فلذلك أذن الله للمؤمنين بالدفاع عن أنفسهم، وبقتال الظالمين المعتدين فقط، أمَّا الشيوخ والأطفال والنساء فلا يُقاتلون، وهذا ما أرشدت إليه الآية الكريمة: ﴿وَقَاتِلُوْا فِي سَبِيْلِ

اللَّهِ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَكُمْ﴾ . . ثم قال تعالى في تتمَّة الآية: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوْا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ﴾.

«الجهاد المقدَّس لغرض نبيل»

ولننظر بفكرٍ وإمعانٍ، إلى سرٍّ دقيق من أسرار القرآن، فإنَّه عندما يذكر القتال أو الجهاد، لا يطلقه إطلاقاً، بل يقيِّده بكلمة «في سبيل الله» وذلك ترسيخاً للمعنى السامي، والمقصد النبيل في النفوس، وهو أنَّ الجهاد في سبيل الله فيه جهد مقدَّس لغرضٍ شريف نبيل، لغايةٍ جليلة سامية، لا للاستعلاء والطغيان، ولا لسلب خيرات البلاد، كما يفعل المستعمرون، ولنتابع آيات القرآن لنرى هذا الهدف السامي النبيل، في جميع المواطن التي ذُكر فيها الجهاد، يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَاتِلُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَكُمْ﴾ ويقول في سورة النساء: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيْلِ اللهِ الَّذِيْنَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيْماً﴾ ثم يقول بعد ذلك: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُوْنَ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِيْنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ، الَّذِيْنَ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ ويقول تعالى في سورة التوبة: ﴿الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَهَاجَرُوْا وَجَاهَدُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُوْنَ﴾ ويقول في سورة الصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ؟ تُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَرَسُوْلِهِ وَتُجَاهِدُوْنَ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ . .﴾ الآية وهكذا نجد القرآن يؤكِّد هذا المعنى في مواطن كثيرة من الكتاب العزيز، كما نلحظ هذا في هدي النبي ﷺ فحين سئل صلوات الله عليه عن الرجل يقاتل حمية، ويُقاتل شجاعة، ويُقاتل للمغنم أي ذلك في سبيل الله؟ فقال قولته الجامعة

المانعة «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1].

«الحج مؤتمر خيري سنوي»

وبعد أن بيَّن تبارك وتعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام، أعقب ذلك بذكر أحكـام الحج والعمرة فقال عزَّ من قائل: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ ذلك لأنَّ الحجَّ يأتي بعد شهر الصيام، وهو أحد أركان الإسلام الهامَّة، وقد أراد الله لأمَّة الإسلام أن تلتقي على الخير والبِّر والطاعة، وأن يكون لها مؤتمر خيريٌّ سنوي، تجتمع فيه وفود المسلمين من أقطار الدنيا، ففرض الحجَّ على عباده المؤمنين، وأوجب عليهم أن يؤدوه على أكمل الوجوه فقال: ﴿ وَأَتِمُّوْا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي أدُّوهما تامين كاملين لوجه الله تعالى، على الوجه الأكمل الذي يُرضي الله تعالى، ثمَّ بيَّن تعالى أنَّ المُحْرِم إذا مُنع من إتمام النسك، بسبب عدو أو مرض، أو مـانعٍ من المـوانع الأخـرى، التي تحول بينـه وبين إتمـام الحـج والعمرة ـ وهو ما يسمى في الشريعة الغراء بـ «الإحصار» ـ فعليه في هذه الحال أن يذبح ما تيسَّر من بعير، أو بقرة، أو شاة، حتى يتحلَّل من حجِّه أو عمرته، ولا يحلُّ له أن يتحلَّل، حتى يذبح ما أوجب الله عليه من الدم فقال: ﴿وَلَا تَحْلِقُوْا رُؤُوْسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ ثم بيَّن تعالى حكم المتمتِّع، وهو الذي يدخل بالعمرة في أشهر الحج، فهذا عليه دم يسمى «دم الشكر» يذبحه ويتصدَّق به على الفقراء والمساكين، فمن لـم يجد قيمة الدم فعليه بصيام عشرة أيام، ثلاثة منها قبل أدائه فريضة الحج، وسبعة إذا رجع إلى وطنه، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

﴿ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾.

ولقد كان بعض الناس يحجون ولا يتزوَّدون ويقولون: نحن المتوكِّلون، فأمرهم تعالى بحمل الزاد من الطعام والشراب، ونهاهم عن السؤال، فإنَّ عزَّة المؤمن تمنعه عن السؤال والاستجداء من أحد، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوْا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ، وَتَزَوَّدُوْا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوْنِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾.

«من عادات الجاهلية في الحج»

وكان عند العرب عادات جاهلية: منها اعتزازهم بالعصبية القومية، وافتخارهم بالأحساب والأنساب، فقد كانت قريشٌ يترفعون عن أن يقفوا مع الناس في عرفة، وكانوا يقولون: نحن أهلُ الله، وسُكَّان حرمه، فلا نخرج من الحرم، ولا نرضى أن نكون مع الناس، فكانوا في حجهم لا يتجاوزون مزدلفة، ثم يُفيضون منها، ويأنفون أن يُفيضوا من عرفات ـ وكانوا يسمون الحُمْس ـ فأنزل الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيْضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ، وَاسْتَغْفِرُوْا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُوْرٌ رحِيْمٌ﴾ فأمر الله رسوله أن يأتي عرفة، ثم يقف بها، ثم يفيض هو والمسلمون منها.

وكان من عادة أهل الجاهلية أيضاً أنهم إذا انتهوا من أعمال الحج، اجتمعوا في «مِنى» يتفاخرون بمناقب ومآثر آبائهم، يقول الرجل منهم، كان أبي يُطعم، ويسقي، ويتحمَّل الغرامات، فأنزل الله عزَّوجل: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرَاً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُوْلُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ أي ليس له حظٌّ ولا نصيبٌ من رحمة الله ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُوْلُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيْبٌ مِمَّا كَسَبُوا، واللَّهُ سَرِيْعُ الْحِسَابِ﴾

«بين فريق الهداية وفريق الضلالة»

ثم تمضي السورة الكريمة، لتذكر لنا نموذجاً عن فريقين من الناس: فريق الضلالة الذي باع نفسه للشيطان، فسار تحت رايته ولوائه، لا هَمَّ له إلا البغيُ في الأرض والإفساد، وفريقِ الهداية الذي باع نفسه للرحمن، فهو يسعى لنيل رضوان الله، وفي الفريق الأول يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ قال المفسرون: نزلت هذه الآية في «الأخنس بن شُريق» أتى النبي ﷺ فأظهر له الإسلام، وحلف له أنَّه يحب الله ورسوله، وكان منافقاً خبيث الباطن، يتظاهر بالدين والصلاح، ثم خرج من عند الرسول ﷺ فمرَّ على زرعٍ لقومٍ من المسلمين وحُمُر، فأحرق الزرع وقتل الحُمُر، فأنزل الله فيه هذه الآيات الكريمة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(١).

أمَّا الفريق الثاني: وهم الأخيارُ الأبرار أهل الهداية، وأهل التقى والصلاح ففيهم أنزل الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي ومن الناس من يبيع نفسه طلباً لرضوان الله.

«مثل رائع للتضحية في سبيل العقيدة»

نزلت هذه الآية الكريمة في «صهيب الرومي» فإنَّه رضي الله عنه لمَّـا أراد الهجرة إلى المـدينة المنـوَّرة، لحقه نفـرٌ من قـريش من المشركين، ليمنعوه من الهجرة ويردُّوه إلى مَكَّة، فلمَّا أحسَّ بهم نزل عن راحلته، ونثر ما في كنانته من السهام، وأخذ قوسه ثم قال لهم: يا

(١) انظر أسباب النزول للواحدي صفحة /٣٤/.

معشر قريش تعلمون أني من أرماكم رجلاً ـ أي لا أخطىء الرمي ـ والله لا تصلون إليَّ حتى أرمي بما في كنانتي، ثم إذا نفِدتْ سهامي أضربُ بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا بي ما شئتم!؟ قالوا جئتنا صُعْلوكاً ـ أي فقيراً ـ لا تملك شيئاً، وأنت الآن ذو مالٍ كثير!! فقال لهم: أرأيتم إن دللتكم على مالي هل تخلُّون سبيلي؟ قالوا نعم، فدلَّهم على ماله بمكَّة ثم انطلق مهاجراً في سبيل الله، فلمَّا وصل المدينة المنورة دخل على رسول الله ﷺ فقال له: «ربح البيع يا صهيب، ربح البيع» فنزلت الآية[1].

«الإصلاح الداخلي»

وبعد أن ذكر تعالى في الآيات السابقة أحكام الجهاد، وبيَّن الهدف السامي من مشروعيته، ألا وهو «إعزازُ الدين» و«نصرةُ الحقِّ» وحماية الأمَّة أن يلتهمها العدو الخارجي.. ذكر تعالى بعدها ما يتعلَّق بإصلاح المجتمع الداخلي، وتشييد دعائمه على أسسٍ من الفضيلة والخُلْقِ الكريم، فلا بدَّ لكلِّ أمةٍ تريد أن تعيش عيشة العزَّة والكرامة، أن تهتم بالإصلاح الداخلي والخارجي، لتقوم دعائمها على أسسٍ متينة من الحق والعدل، والتمسُّك بالآداب الإنسانية التي دعا إليها الإسلام، وتبقى صرحاً شامخاً لا تؤثر فيه الأعاصير، ومن أهم هـذه الآداب والفضائل، اجتناب الموبقات التي حرَّمها الله عزَّ وجلَّ، وأعظمها جرماً وأكبرها إثماً «الخمر والميسر» وفي ذلك يقول الله جلَّت عظمته في سورة البقرة: ﴿يَسْئَلُوْنَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، قُلْ فِيْهِمَا إِثْمٌ كَبِيْرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُوْنَكَ مَاذَا يُنْفِقُوْنَ، قُلِ الْعَفْوَ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

(١) انظر تفسير ابن كثير وأسباب النزول للواحدي.

«أضرار الخمر والميسر»

لقد حرَّم الله الخمر والميسر، لما فيهما من الأضرار الفادحة، والمفاسد الكثيرة، والآثام التي تتولَّد من هاتين الرذيلتيْن المنكرتين، سواءً في الجسم، أو العقل، أو المال، فمن مضار الخمر أنَّه يذهب بالعقل، حتى يَهْذِي الشاربُ كالمجنون، ويصبح أضحوكةً بين الناس، ويُفقِد الإنسانَ صحته، ويُخرِّب عليه جهازه الهضمي، فيحدث له التهابات في الحلق، وتقرحاتٍ في المعدة والأمعاء، أو تشمعاً في الكبد، ويُعيق دورة الدم، وقد يوقفها فيموت السِكِّير فجأة، وقد أثبت الطب الحديثُ، ضرر الخمر الفادح في الجسم والعقل، حتى قال بعض أطباء الغرب: «اقفلوا لي نصف الحانات، أضمنْ لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات والسجون».

«الخمر أم الخبائث»

ويكفي الخمرَ شراً إنَّها «أمُّ الخبائث» كما روى الإمام النسائي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنَّه قال: «اجتنبوا الخمر فإنَّها أم الخبائث، إنَّه كان رجل ممن كان قبلكم متعبدٌ، فعلقَتْه امرأة غويَّه - أي فاجرة - فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنَّا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفقَتْ كلَّما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى[1] إلى المرأة وضيئة - أي جميلة فاتنة - عندها غلامٌ، وباطيةُ خمر، فقالت: إني والله ما دعوتُكَ للشهادة، ولكنْ دعوتُك لتقع عليَّ، أو تشرب من هذه الخمر كأساً، أو تقتل هذا الغلام، قال: فاسقيني من هذه الخمر كأساً، فسقته كأساً، قال زيدوني فزادوه، فلم يبرح حتى وقع عليها، وقَتَلَ النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنَّه والله لا يجتمع الإيمانُ وإدمانُ الخمر إلَّا يُوشك أن

(١) أفضى: انتهى ووصل.

يُخرج أحدُهما صاحبَه»[1] وقال العلاَّمة القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن: «وإنَّ الشارب يصير ضُحكةً للعقلاء، فيلعب ببوله وَعذرته - أي النجاسة التي تخرج منه - حتى رُؤي بعضهم يمسح وجهه ببوله وهو يقول: اللهمَّ اجعلني من التَّوابين واجعلني من المتطهِّرين، ورؤى بعضهم وقد وقع على الأرض، والكلبُ يلحسُ وجهه وهو يقول للكلب يظنُّه إنساناً «أكرمكَ الله كما أكرمتني»[2] وهكذا يفقد الإنسانُ كرامته، ويُضيِّع تلك الجوهرة الثمينة التي خصَّه الله بها ألا وهي العقل، النعمةُ الكبرى التي أودعها الله في الإنسان فيصبح في مرتبة الحيوان.

«المنافع في الخمر مادية»

أمَّا المنافع التي أشارت إليها الآية الكريمة ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ فليست منافعُ صحيَّة أو جسدية كما قد يظن البعض، وإنَّما هي منافع «مادية» فقد كانوا يستفيدون من تجارة الخمر، يربحون منها الربح الفاحش، ومما يدل عليه أنَّ الله تعالى قرن «الخمر بالميسر» ولا شك أنَّ النفع في الميسر ماديٌّ بحتٌ، فكذلك الأمر بالخمر، ويحتمل أن يُراد بالنفع في الخمر، تلك اللذَّةُ والنشوةُ المزعومة التي عبَّر عنها الشاعر بقوله:

ونشربُها فتتركُنا ملوكاً وأُسْداً ما يُنَهْنِهَا اللقاءُ

وما هي بالحقيقة إلاَّ «أوهام» وخيالات، يتخيَّلها شارب الخمر، حتى قال بعض المغرمين فيها:

ما يَلذُّ السُّكْرُ حتى يأكل السكرانُ نعله
ويرى القصعة فيلاً ويظن الفيلَ نملة

(١) أخرجه النسائي في سننه عن عثمان بن عفان موقوفاً.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/٥٧.

ولقد اشتهر من سيرة الخليفة الأول «أبي بكر الصديق» رضي الله عنه أنَّه ما ذاق الخمر في جاهلية ولا إسلام، وسببُ ذلكَ أنَّه من صغره رأى رجلاً سكران، جاء إلى روث بغلة وقد تخيَّله طعاماً لذيذاً ـ يريد أن يأكل منه، فلمَّا أدناه من فمه شعر برائحةٍ كريهة، فجعل يمسح به ملابسه وثيابه فقال أبو بكر: هكذا تفعل الخمرةُ بصاحبها، لا والله لا أذوقها أبداً، فلم يشرب الخمر في جاهليةٍ ولا في إسلام، وما أحسن قول القائل:

رأيت الخمر طالحةً وفيها خصال تُفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربها صحيحاً ولا أشفي بها أبداً سقيماً
ولا أعطي بها ثمناً حياتي ولا أدعو لها أبداً نديماً
فإنَّ الخمرَ تفضح شاربيها وتُجْنيهم بها الأمر العظيما

وأما مضار الميسر فليست بأقلَّ من مضار الخمر، فهو يورث العداوة والبغضاء بين اللاعبين، ويصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة، ويفسد المجتمع بتعويد الناس على البطالة والكسل، بانتظار الربح بدون كدٍّ ولا تعب، ويُهدِّم الأسر ويُخرِّب البيوت، فكم من أسرة تشردت وتحطَّمت، بعد أن كانت ترفل في أحضان الثروة والغنى بسبب القمار، فكان في ذلك الهلاك والدمار، ولا تزال الأيام تظهر لنا من مضار الخمر والميسر ما لم يكن معروفاً من قبل، وبذلك تظهر روعة الإسلام في تشريعه بتحريم هاتين الرذيلتين، وصدق الله حيث يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيْدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوْقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُوْنَ﴾.

«صِلاحُ الأسرة صلاحُ المجتمع»

وبعد أن ذكر سبحانه في الآيات السابقة، بعض الأمراض

الاجتماعية، التي تنخرُ جسم الأمَّة الإسلامية، وتُحلُّ عرى الجماعة، وتوقع بينهم العداوة والبغضاء كالخمر والميسر، وأمر برعاية حقوق اليتامى والمحافظة على أموالهم، جاءت بعد ذلك السورة تتحدَّث عن «الأسرة» وتكوينها، باعتبار أنَّها النواة الأولى لبناء المجتمع الفاضل، فبصلاح الأسرة يصلح المجتمع، وبفساد الأسرة يفسد المجتمع، وقد بدأت بالعلاقة الزوجية، فنبَّهت السورة الكريمة على ضرورة أن يكون الاختيار على أساس الخُلُق والدين، لتظلَّ العلاقة بين الزوجين، موثَّقةً بروابط الرحمة والمودَّة، والعطف والحنان.

«تحريم نكاح المشركة»

فالمشركة التي لا تؤمن بالله، لا ينبغي لها أن تكون في كَنَف الرجل المسلم، والمسلمةُ لا يحلُّ لها أن تكون تحت سلطان الرجل المشرك، فإنَّ الكفر والإشراك بالله يقطع الأواصر، ويدمِّرُ الحياة الزوجية السعيدة، التي ينبغي أن تكون مقرونة بظلال المحبَّة والألفة، مغروسةً في دوحة الإيمان، ولهذا حرَّم الله تعالى الزواج بالمشركات، كما حرَّم تزويج المشركين بالمؤمنات، فقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ، وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا، وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

«اختيار الزوجة الصالحة»

وهذا التوجيه القرآني يلفت أنظارنا، إلى وجوب اختيار الزوجة المؤمنة الصالحة التي تعينُ زوجها على طاعة الله، فالأساس في الزواج هو «الخُلُق» و«الدينُ» لا الحسب والنسب، أو الغنى والجمال، فكل

أولئك عوارضُ زائلة لا تجلب راحةً، ولا تُحَقِّق سعادة، ويؤيد ذلك هديُ النبوَّة، حيث يقول المرشد الأعظم ﷺ: «إذَا جَاءَكم من تَرضونَ دينَه وخُلُقه فزوِّجوه، إلَّا تفعلوا تكُنْ فتنةٌ في الأرض وفسادٌ عريض»[١] ولقد عدَّ المصطفى ﷺ الزوجة الصالحة الكنز الثمين الذي ينبغي أن يحرص عليه العاقل فقال ﷺ: «ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرَّته، وإن غاب عنها حفظته في عرضه وماله»[٢].

«أضرار المعاشرة وقت الحيض»

ثم تناولت الآيات موضوع معاشرة النساء حالة الحيض، فحرَّمت على المؤمنين معاشرتهنَّ في هذه الحالة، لأنَّ دم الحيض دم مستقذر، وفيه ضررٌ للزوجين، ولقد كان اليهود يبالغون في التباعد عن المرأة حالة الحيض، فلا يؤاكلونها ولا يشاربونها ولا يساكنونها في بيتٍ واحدٍ، ويعتبرونها كأنَّها داءٌ أو رجسٌ وقذر، وكان النصارى يفرطون في التساهل فيعاشرون المرأة وهي حائض، ولا يبالون بأمر الحيض، فجاء الإسلام بالحدِّ الوسط، فأباح اللقاء بها والاجتماع معها، والأكل معها والشرب، سوى المعاشرة الزوجية، وهذا من محاسن الشريعة الإسلامية، حيث أمرت بالاقتصاد في جميع الأمور، روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «كانت اليهود إذا حاضت امرأة منهنَّ، لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيت ـ أي لم يجتمعوا معها بل يُفردونها في بيتٍ وحدها حتى ينتهي حيضها وتطهر ـ فسئل النبي ﷺ عن ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيض، قُلْ هُوَ أَذىً

---

(١) أخرجه الترمذي وهو حديث حسن.

(٢) انظر كتاب الترغيب والترهيب.

فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ فأمرهم النبي ﷺ أن يؤاكلوهنَّ ويشاربوهنَّ وأن يكونوا معهنَّ في البيوت، وأن يفعلوا كل شيء إلَّا النكاح ـ أي الجماع ـ فقالت اليهود: ما يريد محمد أن يَدَع من أمرنا شيئاً إلَّا خالفنا فيه، فجاء عبَّادُ بن بشير، وأُسيدُ بنُ حُضَير إلى رسول الله ﷺ فأخبراه بذلك وقالا: يا رسول الله أفلا ننكحهنَّ في المحيض؟ فتمعَّر وجه رسول الله حتى ظننا أنَّه غضب عليهما. ـ أي تغيَّر وجهه ﷺ من أثر ذلك الكلام ولم يُحبَّ سماعه ـ فاستقبلتهما هدية من لَبَن، فأرسل لهما الله فسقاهما، فعلما أنَّه لم يغضب»[1].

«تشبيه رائع في الآية الكريمة»

ومن جمال أسلوب القرآن وروعة بيانه، أن شبَّه المرأة بالحرث، أي أنها مزرعٌ، ومنبتٌ للولد، كالأرض للنبات، فقال تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ فأباح إتيانها في مكان الزرع، وهو «القُبُل» دون الدبُر، يأتيها على أية كيفيةٍ شاء الرجل، قائمةً، وقاعدةً، ومضطجعة، بعد أن يكون في مكان الحرث، وهو ردٌّ على اليهود في قولهم: إذا أتى الرجل امرأته في قُبُلها من دُبُرها جاء الولد أحول، فردَّ الله عليهم ذلك، وأباح الاستمتاع بالنساء بأيّ طريقةٍ شاء الرجل، بعد أن تكون المعاشرة في مكان النسل، ويا له من توجيهٍ كريم!!

«حكم الإيلاء من الزوجة»

ثم تناولت السورة الكريمة موضوع «الإيلاء» وهو أن يحلف الرجل ألَّا يقرب امرأته، ولا يعاشرها مدَّة طويلةً من الزمن، فأمرت المرأة بانتظار زوجها مدَّة أربعة أشهر، فإن رجع إلى رشده، وكفَّر عن يمينه فبها

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

ونعِمتْ، وإن أصرَّ على الامتناع عن معاشرتها، وقعت الفرقةُ والطلاق بمضيٍّ تلك المدَّة، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿لِلَّذِيْنَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاؤُ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيْمٌ، وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيْعٌ عَلِيمٌ﴾.

ولمَّا كان الإيلاء من الزوجة، وهجرُها في المضاجع مدَّة طويلةً لا يُقصد منه إلَّا الإساءةُ إلى الزوجة والإضرارُ بها، وهذا يتنافى مع الأمر بإحسان المعاشرة: ﴿وَعَاشِرُوْهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ويجعل المرأة معلَّقةً، بحيثُ تصبح ليست بذات زوج، ولا مطلَّقة، لذلك جاء التشريع الحكيم بوجوب الإمهال، ثم الأخذ بالشدَّة، والتفريق بين الزوجين، وكلٌّ هذا من محاسن الشريعة، حيث دفعت عن كاهل المرأة الظلم والطغيان، وأمرت إلى البرّ بها والإحسان، وجعلتها شريكة الرجل في الحياة السعيدة الهنيئة الكريمة.

«الطلاق مشروع لمصالح اجتماعية»

ونتابع الحديث عن سورة البقرة، لنستجلي ما فيها من أسرار وأنوار في أمور الأحكام والتشريع يقول الله جلَّ ثناؤه في شأن الطلاق: ﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ، فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ، وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَنْ يَخافَا أَلَّا يُقِيْمَا حُدُودَ اللَّهِ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيْمَا حُدُودَ اللَّهِ، فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيْمَا افْتَدَتْ بِهِ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوْهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

لقد شرع الإسلام الطلاق ـ مع اعتباره أبغض الحلال إلى الله ـ وذلك لضرورات قاهرة، وفي ظروفٍ استثنائيةٍ مُلِحَّة، تجعله دواءً وعلاجاً في بعض الحالات، للتخلُّص من شقاءٍ محتَّم، قد لا يقتصر على الزوجين، بل يمتد إلى الأسرة كلها، فيقلب حياتَها إلى شقاء

وجحيمٍ لا يُطاق.. والإسلام يعلم أنَّ الطلاق فيه هدمٌ للأسرة، وتصديعٌ لبنيانها، وتمزيقٌ لوحدة أفرادها، ومع هذا فقد أباحه لدفع ضررٍ أكبر، وتحصيل منفعةٍ أكثر، وهي التفريقُ بين زوجَيْن متباغضَيْن، من الخير أن يفترقا، لأنَّ الشقاق والخلاف قد استحكم بينهما، والحياةُ الزوجية ينبغي أن تكون قائمةً على أساس الحبِّ والوئام، والسَّكن والاستقرار، لا على التناحر والخصام.. فماذا يصنع الرجل إذا ركبت المرأةُ رأسها، وسارت في طريق الشيطان، وتحت قيادته ولوائه، لا تكفُّ عن غيِّها، ولا ترعوي عن أذاها وشرِّها، وقلبت حياة الرجل إلى جحيمٍ مستعرة؟! وماذا تصنع المرأة إذا كان زوجها سيِّء الأخلاق، فاسقاً شرِّيراً، يسيء معاشرتها، ويضربها ويهينها، ويسلقها بألسنةٍ حدادٍ؟!أليس من الخير والمصلحة، أن نفرِّق بين شخصين، استحكم العداء بينهما؟ وحلَّ الخلاف والشقاق، مكان الوئام والوفاق؟! فالطلاق إذاً علاج ودواء لبعض الحالات الشاذَّة التي تستعصي على الإصلاح.

«الطلاق السُّنِّيُ في الإسلام»

وقد جعل الإسلام الطلاق المشروع، الذي يملك به الزوج الرجعة على زوجته «مرتين» وليس بعدهما إلاَّ الوفاقُ، أو الفراقُ: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوْفٍ أَوْ تَسْرِيْحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ أي فإمَّا أن يمسكها بالمعروف، فيحسن صحبتها ومعاشرتها، وإمَّا أن يُطلق سراحها فيتركها لتتزوَّج بمن تشاء، لعلَّها تسعد مع الزوج الثاني، فيكون لها نعم الزوج ونِعْم العشير، ولقد كان أهل الجاهلية يُطلِّقون بدون عدد، ويراجعون بلا قيدٍ ولا شرط، فنهاهم الإسلام عن ذلك، أخرج الإمام البيهقي في سننه قال: إنَّ أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عدد، فكان الرجل يطلِّق امرأته ما شاء من الطلاق، فإذا كادت تَحِلُّ راجَعَها

فعَمَد رجل لامرأته على عهد النبي ﷺ فقال لها: لا آويكِ ولا أَدعكِ تحلّين لأحد، قالت: وكيف؟ قال: أطلقك، فإذا دنا مضيُّ عدتِك راجعتُكِ، فشكت ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية الكريمة[1] ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ أي فإن طلّق الرجل المرأة ثالث مرة، فلا تحلُّ له بعد ذلك حتى تتزوَّج غيره، ثم يطلقها زوجها الثاني، دون إكراه له ولا إجبار، وبعد أن يذوق عُسيْلتها وتذوقَ عُسيْلته، كما صرَّح به الحديث الشريف.

«السرُّ في الزواج بالثاني»

وفي ذلك زجرٌ عن طلاق المرأة ثلاثاً، لمن له رغبةٌ في زوجته، لأن كل ذي مروءةٍ يكره أن يفترش امرأتَه رجلٌ آخر، وهذا هو السرُّ في الأمر بعدم العودة إلَّا بعد الزواج بآخر، وهناك نوع من الطلاق يسمى «الخلع» وهو أن تفتدي المرأة نفسها من زوجها، فتترك له المهر كله أو بعضه، على أن يطلِّقها، وهو الذي أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوْا مِمَّا أَتَيْتُمُوْهُنَّ شَيْئَاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيْمَا حُدُوْدَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيْمَا حُدُوْدَ اللَّه فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيْمَا افْتَدَتْ بِهِ..﴾ الآية.

«أول خلع في الإسلام»

وأوَّل خُلعٍ حدث في الإسلام، في زمن النبي ﷺ كان في امرأة «ثابت بن قيس» فقد أتتْ رسولَ الله ﷺ فقالت يا رسول الله: لا يجمع رأسي ورأسه شَيءٌ أبداً، والله ما أعيب عليه في خُلُق ولا دين، ولكنْ أكره الكفر بعد الإسلام، ما أطيقُه بُغضاً له، فقال لها عليه

(١) أخرجه البيهقي في سننه.

السلام: أتردِّين عليه حديقته؟ قالت: نعم، ففرَّق بينهما ﷺ. أمَّا إن كان الطلاق بغير ضرورة، وبغير سبب، فإنَّه أمرٌ مذموم يبغضه الله تعالى ويكرهه، فقد روى الترمذي عن النبي ﷺ أنَّه قال: «أيُّما امرأةٍ سألتْ زوجها الطلاق، من غير بأسٍ، فحرام عليها رائحةُ الجنَّة»(١) وجاء في الحديث: «ما أحلَّ الله شيئاً أبغضَ إليه من الطلاق»(٢).

«تحريم الإيذاء والإضرار»

وقد تناولت السورة الكريمة أحكام الطلاق بالتفصيل، فبيَّنت شروطه وآدابه، وأحكامه، ونهت الأزواج عن الإيذاء والإضرار بالزوجات، فقد كان الرجل يطلِّق امرأته، حتى إذا قاربت الانتهاء من عدَّتها، راجعها لا حبَّاً فيها ولكنْ للإضرار بها، ليطوِّل عليها العدَّة، فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ـ أي قاربن الانتهاء من العدَّة ـ فَأَمْسِكُوْهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوْهُنَّ بِمَعْرُوفٍ، وَلَا تُمْسِكُوْهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وكما يحرم الإضرار بالمرأة، كذلك إيذاؤها بمنعها من الرجوع إلى زوجها بعد الطلقة الأولى أو الثانية، وهذا الذي يسمَّى في الشريعة الإسلامية بالعضل وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَا تَعْضُلُوْهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوْفِ﴾. روى الإمام البخاري أنَّ «معقل بن يسار» زوَّج أخته رجلاً من المسلمين على عهد النبي ﷺ فكانت عنده ما كانت ثمَّ طلَّقها تطليقةً لم يراجعْها حتى انقضت العدَّة، فهويها وهويته ثم

(١) أخرجه الترمذي في سننه.

(٢) أخرجه أبو داود.

خطبها مع الخُطَّاب فقال له: يا لكع ـ أي يا لئيم ـ أكرمتك بها وزوَّجتك فطلَّقتها، والله لا ترجع إليك أبداً، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل هذه الآية ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوْهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ..﴾ الآية فلما سمعها معقل قال: سمعاً لربي وطاعة، ثم دعاه فقال له: «أزوجك وأكرمك»(١).

«عناية الإسلام بالأطفال»

ولمَّا كان الإسلام دينَ العدالة والإحسان، يأبى أن يُظلم في كنفه أحد، طفلاً كان أو امرأة أو رجلاً، لذلك نجد عنايته برعاية الأطفال الصغار، لا سيَّما من كان منهم في سنِّ الحضانة والرضاع، فقد يطلق الرجل زوجته ويكون لها منه طفل ترضعه وربما أضاعت الطفل، أو حرمته الرضاع انتقاماً من الزوج، وإيذاءً له في ولده، لذلك وردت هذه الآيات الكريمة في سورة البقرة، تحضُّ الأمهات المطلقات على رعاية الأطفال، والاهتمام بشأنهم، فإنَّ الأطفال الصغار لا ينبغي أن يكونوا ضحيةً للشقاق الذي يحدث بين الزوجين، فليس لهم ذنب حتى يُحرموا شفقة الأم وحنانها يقول الله تعالىٰ: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرِّضَاعَةَ، وَعَلَى الْمَوْلُوْدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُوْدٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوْا أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَاتَّقُوْا اللَّهَ وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيرٌ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

«وصايا القرآن للأمهات المرضعات»

بهذه التوجيهات الربَّانية الكريمة، جاءت تعاليم القرآن، تأمر الوالدات المطلَّقات بإرضاع أولادِهنَّ مدَّة سنتين كاملتين، ولننظر نظر تدبر وإمعانٍ إلى تعبير القرآن، فقد قال: ﴿والْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ ولم يقل: والمطلقاتُ أو النساء المطلقاتُ يرضعن أولادهنَّ، مع أنَّ الحديث إنما جاء عقب بيان أحكام الطلاق، فكان السياقُ أن يقول: والمطلقاتُ من النساء، عليهنَّ أن يرضعن أولادهنَّ حولين كاملين، ولكنَّه عرضه بلفظ «والوالدات يرضعن» لاستعطافهنَّ حول الأولاد، فحصول الطلاق لهنَّ، لا ينبغي أن يَحرِم هؤلاء الرُضَّع من الصغار عاطفة الأمومة. فما هو ذنبُ الصغيرُ؟ وما الذي ارتكبه هذا الطفل من عدوان؟ حتى يكون ضحيَّة الشقاق والنزاع، الذي أودى بالزوجين إلى الفراق؟.

«لفتة بارعة من لفتات القرآن»

وكما نلحظ في الآية الكريمة أيضاً لفتةً كريمة بارعة من لفتات القرآن، فإنه عندما أوجب نفقة الرضاع على الوالد قال: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُوْدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوْفِ﴾ ولم يقل: وعلى الوالد رزق الأمهات المطلقات وكسوتهنَّ بالمعروف، وذلك للتنبيه على لطيفةٍ دقيقة، وهي أنَّ الأولاد يتبعون الأب، ويلتحقون بنسبه دون الأم، فالأمر الذي يوجب الإنفاق على الأمهات المرضعات، كونُ الأولاد للرجال ﴿وَعَلَى الْمَوْلُوْدِ لَهُ﴾ فإنَّ هؤلاء الأمهات إنَّما يرضعن أولاد هؤلاء الرجال، فكيف يبخل الرجال في الإنفاق على المرضعات، وهنَّ قد حبسن أنفسهنَّ لخدمة هؤلاء الصغار، من أجل التربية والرضاع، فكأنَّهن مستأجراتٍ لخدمة

أولادهم؟ وبذلك يربط القرآن بين حقِّ الرجل، وحقِّ المرضعة، ويسعى إلى أن يشدَّ الروابط بينهما بكل أسباب الشفقة والحنان، فالولد ليس أجنبياً عن الوالدين، هذه أمه وذاك أبوه، فمن حقهما أن يشفقا عليه، ويرعياه حقَّ الرعاية، ويحنوا عليه، ولا تكون العداوة بينهما سبباً للإضرار بالولد.

«لبن الأم أفضل غذاء»

بهذا التوجيه الإلّهي الخالد، حثَّ الله الأمهات على إرضاع الأولاد، وحدَّد مدَّة الرضاع بعامين كاملين، لأنَّ هذه المدَّة يستغني بها الطفل عن ثدي أمه، ويبدأ بالتغذي بعدها بالطريق المعتاد، عن طريق تناول الطعام والشراب.. وإنَّما ندب القرآن الأمهات على إرضاع أولادهنَّ، لأنَّه ليس هناك لبنٌ يعادل لبن الأم، لا في جودته، ولا في تركيبه، ولا في موافقته لمزاج الطفل، فهو أفضل غذاءٍ باتفاق الأطباء، لكثرة نفعه، وسهولة هضمه، وخلوِّه من الجراثيم والميكروبات.

ومن ناحية أخرى: فإنَّ هذا الطفل قد تكوَّن في أحشاء الأم، وتكوَّن جسده من دمها، فلمَّا برز إلى الوجود، تحوَّل الدمُ إلى لبنٍ يتغذَّى منه، فهو اللبنُ الذي يناسبه ويلائمه لأنه قد انفصل من الأم، وقد اقتضت «الحكمة الإلّهية» أن تكون حالةُ اللبن في التغذية، ملائمةً لحال الطفل، بحسب درجات سِنِّه، فكلَّما كبرت سِنُّ الرضيع، ازدادت كميَّة الدسم في اللبن، فإذا أرضعته مرضعٌ أخرى، وجب التدقيق في أمرها، في صحتها ومعرفة أخلاقها وطباعها، لأنَّ لبنها يؤثر في جسم الطفل، وأخلاقه، وآدابه، إذ هو يخرج من دمها، ويمتصُّه الولد فيكون دماً له، ينمو به الجسم، وينشز به العظم، فيؤثر فيه جسمياً وخلقياً.

والأم حين تُرضع ولدها، لا ترضعه لبنها فحسب، وإنَّما ترضعه

العطف والرحمة والحنان، فينشأ محبًّاً للخير، مجبولاً على الرحمة، فيه رقةٌ ورحمةٌ ولين، على عكس حال أولئك الخائبين، الذين يُحرمون عطف وحنان أمهاتهم، يكونون غالباً معقَّدين، وتفتعل في نفوسهم نوازع الشرِّ، والقسوة، والانتقام.

وقد فطن علماء التربية في الأمم الراقية، لهذا الأمر، حتى كان نساء الملوك والقياصرة، يرضعن أولادهنَّ بأنفسهن، ولا يرضين تسليمهم إلى المرضعات. فأين هذا مما نراه اليوم، من التهاون في رضاعة الأولاد، من أمهات العصر الحديث، يرغبن عن رضاع أولادهنَّ ترفعاً، وطمعاً في السِّمَن وبقاء الجمال، ويكتفين بإرضاع أولادهنَّ من لبن النعجة أو البقرة، أو أنواع الحليب الناشف، وكل هذا مقاوم لسُنَّة الفطرة، ومفسدٌ لتربية الأولاد، ولسنا نرى ديناً تعرَّض لمحاسن تربية النشىء كدين الإسلام.

«لماذا شرعت العدة؟»

تناولت سورة البقرة فيما تناولته من الأحكام الشرعية، موضوع عِدَّة المرأة حالة الوفاة وحالة الطلاق، وذلك كلُّه من عناية الإسلام بالأسرة، لأنَّها النواة الأولى للمجتمع الأكبر، وفي صلاح الأسرة صلاحُ الأمَّة، وفي فسادها ضياع الأجيال. وإذا كان الإسلام قد راعى حقوق الزوجين في حياتهما، فهو كذلك قد راعى شؤونهما من بعد وفاتهما أو وفاة أحدهما، فشرع الميراث، والمتعة، والحداد على الزوج بعد الوفاة، وأوجب على المطلقة العدَّة، وكلُّ ذلك إنَّما هو امتدادٌ للحقوق التي تجب بين الزوجين، وهو مظهر من مظاهر رعاية الإسلام لشؤون الأسرة، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَالَّذِيْنَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُوْنَ أَزْوَاجَاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَاً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيْمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوْفِ، واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيْرٌ﴾. . ومعنى الآية الكريمة: الذين يموتون من الرجال، ويتركون زوجاتهم بعد الموت، على هؤلاء الزوجات أن ينتظرن أربعة أشهر وعشرة أيام، يمكثن فيها في العِدَّة حداداً على أزواجهنَّ، فلا يتزيَّننَّ ولا يتطيَّبْن، ولا يتعرَّضْنَ للخُطَّاب، وهذا الحكم لغير المرأة الحامل، أمَّا الحامل فعدَّتها وضع الحمل «وأولاتُ الأحمال أجلهنَّ أن يضعن حملهنَّ» فإذا انقضت عدَّتهنَّ، فلا جناح عليكم أيها الأولياء في الإذن لهنَّ في الزواج، وفعل ما أباحه لهنَّ الشرع الحنيف، من الزينة والتطيب والتعرض للخاطبين.

«توضيح الحكمة التشريعية»

ولعلَّ سائلاً يسأل: لماذا شُرعت العِدَّة على المرأة؟ وما الحكمة من وجوبها ومشروعيتها؟ وللجواب على هذا السؤال نقول: لقد ذكر العلماء وجوهاً عديدة لمشروعية العِدَّة نوجزها فيما يلي:

أولاً: لمعرفةِ براءة رحم المرأة بأنها غير حامل، وذلك حتى لا تختلط الأنساب.

ثانياً: إظهاراً للحزن والتفجع على الزوج بعد الوفاة، اعترافاً منها بالفضل والجميل.

ثالثاً: لتهيئة فرصةٍ للزوجين «في الطلاق» لإمكان إعادة الزوجة إلى عصمته بطريق المراجعة.

رابعاً: للتنويه بفخامة شأن النكاح، حيث لا يتم إلا بانتظارٍ طويل، ولو لا ذلك لأصبح بمنزلة لعِب الصبيان.

خامساً: للتعبد امتثالاً لأمر الله عزَّ وجل حيث أمر بذلك نساء المؤمنين ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزَاً عَظِيماً﴾.

«العدَّة بما هو أيسر وأرفق»

ولقد كانت عدَّةُ الوفاة حولاً كاملاً، ثم نسخه تعالى بما هو أيسر وأرفق بالمرأة المسلمة، فجعله أربعة أشهرٍ وعشرة أيام، وفي هذا التخصيص حكمة قد تخفى على الكثيرين من الناس، وهي أنَّ المرأة إذا مات عنها زوجها قد تكون حاملاً، ويخفى أمر الحمل عليها، فإذا انتظرت هذه المدَّة يظهر أمرها على وجه الوضوح والبيان، إذْ بعدَ مضيٍّ أربعةِ شهور، يتحركُ الجنينُ في بطنها إن كان هناك حملٌ، ولهذا أمر تعالى المرأة بالعدَّة هذه الفترة من الزمن، ومع العدة يجب الإحدادُ، وهو تركُ الزينة والتطيب والخضاب، والتعرض لأنظار الخُطَّاب، وإنَّما وجب الحداد على الزوجة وفاءً للزوج، واعترافاً بحقِّه العظيم عليها، فإنَّ الرابطة الزوجية أقدسُ رباط، فلا يصح شرعاً ولا ذوقاً ولا أدباً، أن تنسى ذلك، وقد كانت المرأة في الجاهلية تُحدُّ على زوجها حولاً كاملاً، تفجعاً وحزناً عليه.

«رواية الصحيحين»

روى البخاري ومسلم عن أم سلمة أنَّ امرأةً قالت يا رسول الله: «إن ابنتي تُوفي عنها زوجها، وقد اشتكت عينُها أفنكحلها؟ فقال: لا مرتين أو ثلاثاً، كلُّ ذلك يقول: لا، ثم قال: إنَّما هي أربعة أشهر وعشراً، وقد كانت إحداكنَّ تمكث سنة» قالت زينبُ بنتُ أم سلمة: كانت المرأة إذا تُوفي عنها زوجها، دخلت حِفْشاً ـ أي بيتاً صغيراً مظلماً ـ ولبست شرَّ ثيابها، ولم تَمسَّ طيباً ولا شيئاً حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فتُعطى بعرةً فترمي بها، ثم تؤتى بدابةٍ ـ حمارٍ أو شاةٍ ـ فقلَّما تفتضُّ بشيء إلَّا مات»[1].

(١) أخرجه الشيخان في صحيحهما.

قال ابن قتيبة: ومعنى الافتضاض أنَّ المعتدة كانت لا تمسُّ ماءً، ولا تُقلِّم ظُفُراً، ولا تزيل شَعراً، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر، ثم تفتضُّ بطائر أي تمسح قُبُلها به، فلا يكاد يعيش من نتنها وقبح ريحها، وأمَّا رميُها بالبعرة فللإشارة إلى أنَّ هذه المدَّة التي قضتها في تلك المشقَّة والجهد، هو عندها بمنزلة البعرة، تعظيماً لحق زوجها.

«في العدَّة كرامة الأسرة»

لقد فرض الله تعالى العِدَّة على المرأة المسلمة، حفاظاً على كرامة الأسرة، ورعاية لها من التفكك والانحلال واختلاط الأنساب، وإحداداً على الزوج، بإظهار التفجع والحزن عليه بعد الوفاة، احتراماً للرابطة المقدَّسة «رابطة الزواج» واعترافاً بالفضل والجميل لمن كان شريكاً لها في الحياة، فالعلاقة بين الزوجين علاقةٌ إنسانية متينة، لا ينبغي أن تمر هكذا دون شعور بالحسرة والألم.. ولقد كانت العدَّة في الجاهلية كما أسلفنا حولاً كاملاً، وكانت المرأة تُحدُّ على زوجها شرَّ حِدادٍ وأقبحَه، فتلبَسُ شرَّ ملابسها، وتسكن شرَّ الغُرف وأظلمها وهو الحِفشُ، وتترك الزينة، والتطيب، والاغتسال، فلا تمسُّ ماءً، ولا تُقَلِّمُ ظُفراً، ولا تزيل شعراً طيلة هذه المدَّة، فإذا انتهى العام، خرجت بأقبح منظر وأنتن رائحة، وذلك تعظيماً لحق زوجها عليها. فلمَّا جاء الإسلام، أصلح تلك الحال، فجعل الحداد «رمز طهارة» لا «رمز قذارة» وجعل العِدَّة على نحو الثلث من المُدَّة، ولم يحرم على المرأة النظافة والطهارة والاغتسال فإنَّها شعار هذا الدين، وإنَّما حرَّم عليها التزيين والتطيب وأن تعرض نفسها على الخُطَّاب من أجل الزواج، وأباح الجلوس والاجتماع مع النساء ومع الأقارب من الرجال، ونساء المسلمين، اليوم لا يسرن على هَدْي الإسلام في الحداد، فمنهنَّ من تغالي في الحداد، وتغرق

في البكاء والنواح والندب وبعضهنَّ يقصّرن فيتركن الحداد على الزوج اللهمَّ إلَّا أياماً معدودات، والخيرُ كل الخير في التمسك بشريعة الله، وبالآداب الإسلامية الحميدة، التي جعلت لكل أمر وقتاً وأمداً، ولكل خير وفضيلة طريقاً رشيداً.

«القصص في سورة البقرة»

ثُمَّ قصَّ الله تبارك وتعالى علينا في كتابه العزيز من سورة البقرة، بعض القصص للعظة والاعتبار، وذلك إلى جانب التشريع الذي تناولته هذه السورة الكريمة، فبعد أن ذكر تعالى أحكام الأسرة بالتفصيل، والنظم التي تربط بين أفرادها، وسعى لإصلاحها باعتبار أنها «النواة» واللَّبنة التي يشاد منها صرح المجتمع الفاضل، ذكر بعدها أربع قصص من روائع قصص القرآن: وهي قصة الهاربين من الطاعون، وقصة بني إسرائيل مع جالوت، وقصة الخليل إبراهيم مع النمرود، وقصة الرجل الصالح «عُزَيْر» ثم ذكر أمر الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، وذلك صيانةً للمقدسات، وحمايةً للعقيدة الإسلامية أن تضطهد أو تُقهر، إذ لا صلاح للأسرة إلَّا بصلاح المجتمع، ولا بقاء لها ولا خلود إلَّا ببقاء الحق وأنصاره، ولهذا جاء التشريع الإسلامي الخالد، بتقرير مبدأ الجهاد في سبيل الله، نصرةً للحق ودفاعاً عن المظلومين، وحكى لنا القرآن عن الأمم السابقة، كيف جاهدت في سبيل الحق وانتصرت مع قلةِ العَدَد والعُدَد، انتصرت على الكثرة الباغية مع قوتها وجبروتها، فليست العبرة بكثرة أنصار الباطل بل بصمود أهل الحق والتزامهم له وجهادهم في سبيله: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيْلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيْرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِيْنَ﴾.

«قصة الهاربين من الطاعون»

وقد قصَّ علينا القرآن الكريم، قصة القوم الذين هربوا من الوباء والطاعون، خوفاً من الموت، وطمعاً في السلامة، فلم ينفعهم هذا الفرار، بل عاينوا الموت وشاهدوه، ثم أحياهم الله تعالى بقدرته، لينبِّه تعالى عباده إلى أمر البعث والنشور، وأنَّه حقٌّ لا مناص منه، وفي ذلك يقول الله سبحانه، عن قصة هؤلاء القوم من بني إسرائيل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوْفُ حَذَرَ الْمَوْتِ، فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوْتُوْا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الْنَاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الْنَّاسِ لَا يَشْكُرُوْنَ﴾ قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون، وقيل: كانوا ثلاثين ألفاً، وذكر غير واحدٍ من السلف أنَّ هؤلاء القوم، كانوا أهل بلدةٍ في زمان بني إسرائيل، استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فراراً من الموت هاربين إلى البرية، فأرسل الله إليهم مَلَكَيْنِ، أحدهما من أسفل الوادي، والآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم، فلمَّا كان بعد دهر، مرَّ بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل، فسأل اللَّهَ أن يحييهم على يديه، فأجابه إلى ذلك، فقاموا أحياء ينظرون وهم يقولون: سبحانك لا إلَه إلَّا أنت، وكان في إحيائهم عبرةٌ ودليل قاطع على وقوع المعاد يوم القيامة[1]، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُوْ فَضْلٍ عَلَى الْنَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الْنَّاسِ لَا يَشْكُرُوْنَ﴾.

وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لا يغني حَذَرٌ من قَدَر، وأنه لا ملجأ من الله إلَّا إليه، فإنَّ هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء، طلباً لطول الحياة والسلامة، فعوملوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعاً في

(١) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ١/٢٢٢.

آنٍ واحد، فكما أنَّ الحذر لا يغني من القدر، كذلك الفرار من الجهاد، لا يُقرّب أجلاً ولا يُبعده، ولهذا قال تعالى بعد ذكر هذه القصَّة: ﴿وَقَاتِلُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ﴾ وقد رُوي عن سيف الله المسلول «خالد بن الوليد» رضي الله عنه ـ وهو في سياق الموت ـ قوله: «لقد شهدت أكثر الحروب والمعارك وما في جسدي موضع أربع أصابع إلاَّ وفيه رميةٌ بسهم، أو طعنةٌ برمح، أو ضربةٌ بسيف، وها أنا أموتُ على فراشي كما يموت البَعِيرُ فلا قرَّت أعينُ الجبناء.

«قصة بني إسرائيل مع جالوت»

كما تناولت السورة الكريمة أيضاً قصَّة القوم من بني إسرائيل، الذين كانوا يتمنون لقاء الأعداء، ويرغبون أن ينالوا منازل الشهداء، وكانوا يُلحّون على نبيِّهم أن يجعل لهم أميراً وقائداً، يمضي بهم للجهاد في سبيل الله، ليقاتلوا أعداء الله، ويخفون ما في نفوسهم من الهلع والجبن، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيْلَ مِنْ بَعْدِ مُوْسَى إِذْ قَالُوْا لِنَبِيٍ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ، قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَ تُقَاتِلُوْا، قَالُوْا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا قَلِيلاً مِنْهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيْمٌ بِالْظَالِمِيْنَ﴾ وهذا شأن الأمم المترفة المنعَّمة، تتمنى الحرب أوقاتَ الدَّعَة والراحة، فإذا جدَّ الجِدُّ وحضرت الحربُ، جَبُنت وهَلَعت وانقادت لطبعها، في الشرود والهرب من معارك الشرف، ثم تمضي الآيات الكريمة، تُبَيِّن موقفَ المؤمنين الصادقين، وموقف المنافقين، المتهالكين على الحياة، الذين ضنُّوا بأنفسهم أن يقدموها في سبيل الله، وتصوِّر حالتهم المخزية، من الاعتراض على نبيِّهم في تأميره رجلاً عليهم، لا يملك من أسباب العزَّة والثروة

والسلطان شيئاً: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوْتَ مَلِكاً، قَالُوْا أَنَّى يَكُوْنُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ، قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ﴾ وبعد هذا البيان يأتي دورُ الامتحانِ والابتلاء، فيأمرهم قائد الجيش ألَّا يشربوا من النهر الذي سيمرون عليه في مسيرهم، لأنَّه لا يصلح للقاء الأعداء، إلَّا من وطَّد نفسه على الصبر على الشدَّة والعناء، وتختم القصة بأنَّه لم يصبر مع ذلك القائد الملهم المظفَّر إلَّا فئة قليلة، هم الذين حارب بهم وانتصر على الأعداء: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوْتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾ وبهؤلاء النفر القليل المؤمن الصابر، انتصر طالوتُ على الأعداء وكان درساً للأجيال على مدى الأزمان: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوْتَ وَجُنُوْدِهِ قَالُوْا رَبَّنَا افْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِيْنَ. فَهَزَمُوْهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوْتَ وَآتَاهُ الله الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُوْ فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِيْنَ. تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوْهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ، وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِيْنَ﴾.

«التفضيل بين الرسل»

تناولت سورة البقرة مع الأحكام التشريعية موضوع «النبوة والرسالة» والخصائص التي خصَّ تبارك وتعالى بها بعض الأنبياء والمرسلين، فمنهم من خصَّه الله بالسيادة والقيادة، ومنهم من شرَّفه بالكلام بدون وساطة، ومنهم من أيَّده بالآيات الباهرات، والمعجزات الساطعات. فليس هؤلاء الرسل ـ على جلالة قدرهم وعلو منزلتهم ـ ليسوا بمرتبةٍ

واحدة من الفضل والشرف، بل قد فضَّل اللَّهُ بعضهم على بعض، فجعل محمداً إمام المرسلين، وإبراهيم قدوة الصالحين، وموسى كليم الرحمن، وعيسى بن مريم مظهراً من مظاهر القدرة الباهرة، حيث خُلق من غير أب، وأيَّده بروح القدس جبريل الأمين، وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ، وَآتَيْنَا عِيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوْحِ الْقُدُسِ﴾.فكما جاء التفضيل بين الأنبياء، فإنَّه لا يُستبعد أن يُفضِّل الله بعض الأمم على بعض، فيجعل أمة محمد ﷺ أفضل الأمم في السبق والشرف، مع أنها آخر الأمم في الوجود والزمن، وصدق الله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ﴾.

«شرفَ الأمة بشرف نبيِّها»

ولا عجب أن يكون لأمة محمد ﷺ هذا الشرف والفضل، فلقد رفع الله قدر نبيِّها، فجعله سيد الأنبياء والمرسلين، وحامل لواء الحمد يوم القيامة، وخصَّه بخصائص فاق بها جميع الرسل، فجعل رسالته ناسخة لجميع الشرائع، ودعوته عامَّة لجميع الخلق، ودينه عالياً على جميع الأديان كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُوْلَهُ بِالْهُدَى وَدِيْنِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُوْنَ﴾ وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبيٍ يومئذ آدم فمن سواه إلَّا تحت لوائي، وأنا أوَّل من تنشق عنه الأرض ولا فخر» رواه الترمذي. وروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «جلس ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ يتذاكرون وهم ينتظرون خروج النبي ﷺ للصلاة، قال فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون، فسمع

حديثهم فقال بعضهم: عجباً إنَّ الله تبارك وتعالى اتَّخذ من خلقه خليلاً، اتَّخذ إبراهيم خليلًا!؟ وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى، كلَّمه الله تكليماً! وقال آخر: ماذا بأعجب من جَعْلِه عيسى كلمةَ الله وروحه! وقال آخر: ماذا بأعجب من آدم، اصطفاه الله عليهم، وخَلَقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته! فسلَّم رسول الله ﷺ على أصحابه ثم قال: قد سمعتُ كلامكم وعَجَبكم، إنَّ إبراهيم خليلُ الله وهو كذلك، وإنَّ موسى نجيُّ الله - أي كلِيْمُه - وهو كذلك، وإنَّ عيسى روحُ الله وكلمتُه وهو كذلك، وإنَّ آدم اصطفاه الله وهو كذلك.. ألَا وأنا حبيبُ الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أكرمُ الأولين والآخرين على الله ولا فخر، وأنا أوَّل شافعٍ وأولُ مشفَّع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أوَّل من يُحرِّك حِلَقَ الجنة فيفتح الله لي، فَيُدخلُنِيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر»[1]

هذه هي فضائل الأنبياء والمرسلين، ومراتبهم العالية الرفيعة، وصدق الله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدْ زَبُوْرَاً﴾.

«فضائل آية الكرسي»

ومن فضائل الأنبياء، تنتقل السورة الكريمة إلى فضائل بعض الآيات، فتتحدَّث عن فضائل آية الكرسي، التي هي أفضل آيةٍ في كتاب الله، كما صَحَّ بذلك الحديث عن رسول الله، فهذه الآية الكريمة قد جمعت صفاتِ الجلال والجمال، وتحدَّثت عن عظمة الكبير المتعال، فهو الإِلّه المنفرد بالألوهية، لا ربَّ سواه، ولا خالق غيره، ذو العزَّة والجلال، والعظمة والكبرياء، الباقي الدائم الذي لا يموت،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، ومعنى قوله عليه السلام: «ولا فخر» أي لا أقول ذلك على سبيل المباهاة والفخر، وإنما أقوله تحدُّثاً بنعمة الله.

القائم على تدبير شؤون عباده، بالرعاية والحفظ والإمداد، لا يعتريه نقصٌ، ولا غفلةٌ، ولا ذهول، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، لا يأخذه نعاسٌ ولا نوم، فهي آية عظيمة الشأن، رفيعة القدر: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ روى البخاري في فضل آية الكرسي بسنده عن أبي هريرة قال: وكَّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان ـ أي بحفظ صدقة الفطر ـ فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأخذتهُ وقلتُ: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ ـ أي ليعاقبك على هذه السرقة ـ قال: دعني فإني محتاج، وعليَّ عيال، ولي حاجة شديدة، قال فخليتُ عنه، فأصبحتُ فقال النبي ﷺ: يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟ قلتُ يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمتُه وخلَّيتُ سبيله، قال أما إنه قد كذبك وسيعود، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ إنه سيعود، فرصدتُه ـ أي جعلت أترقب حضوره لأقبض عليه ـ فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني فإنِّي محتاج وعليَّ عيال، لا أعود فرحمته وخليت سبيله.. فعل ذلك ثلاث مرات، وفي المرة الثالثة قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت وما هي؟ قال إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿الله لا إله إلَّا هو الحي القيُّوم﴾ حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله، فقصصت ذلك على النبي ﷺ فقال: إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب من ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة؟ قلت: لا قال ذلك شيطان»[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

«قصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود»

من روائع القصص التي قصَّها علينا القرآن الكريم في سورة البقرة قصَّة خليل الرحمن «إبراهيم السلام» مع الطاغية الجبار «نمرود بن كنعان» الذي جادل إبراهيم في وجود الله، وكابر وعاند، وقد حمله المُلْكُ والبطر بالنعم على إنكار وجود الله جلَّ وعلا، فقابل الجود والإحسان بالكفر والطغيان، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيْمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ والعجيب في شأن هذا الشقيّ الكافر، أن يتحدَّى إبراهيم الخليل، ويطلب منه دليلاً على وجود الله تعالى، فقد كان الطاغية ينكر وجود الله، ويزعم أنَّه لو كان ربُّ العالمين موجوداً لكان مرئياً مشاهداً، وكان يدَّعي لنفسه الألوهية، فلمَّا دعاه إبراهيم عليه السلام إلى الإيمان بالله والاعتقاد بوحدانيته ووجوده، عاند وفجر وطلب الدليل والبرهان: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيْمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيْتُ﴾ أي حين قال له الخليل إبراهيم: من صفات ربي الذي أدعوك إلى الإيمان به، أنَّه هو الخالق هو الذي يحيي البشر من العدم، ثمَّ يعيدهم بعد الفناء أحياءً، فهو القادر القاهر، المحيي المميت، الذي يدبر شؤون الخلق، ويفعل ما يشاء، فهذا هو البرهان على وجود الواحد الديان.. وهنا تظهر سخافة النمرود وحماقته، فقد زعم أنه يستطيع أن يفعل ما هو من صفات الخالق البارىء: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِ وَأُمِيْتُ﴾ أي أجابه النمرودُ بقوله: أنا كذلك أستطيع أن أُحْيَ وَأُمِيْت، دعى رئيس الشرطة فقال له: ائتني برجلين من السجن استحقا القتل، أي رجلين محكومٍ عليهما بالإعدام، فأتاه بما طلب، فأمر أن يُطلق سراح أحدهما فقال: هذا أحييتُه، وأمر أن يُقطع عنقُ الثاني فضُرب رأسُه بالسيف فقال: هذا أمتُّه.. ظنَّ الغبيّ أنَّ هذا يسمى إحياءً وإماتة ولمَّا رأى

إبراهيم عليه السلام مغالطة النمرود، وسخافة رأيه وتفكيره، انتقل معه إلى دليل آخر مفحم، لا يستطيع معه اللفَّ والدوران: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيْمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالْشَمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَائْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ واللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْظَّالِمِيْنَ﴾ أي قال له إبراهيم: ربِّي يُطْلِع الشمسَ كل يوم من جهةِ المشرق، ويجعلها تغربُ من جهة المغرب، فإذا كنت إلّهاً ـ كما تزعم ـ فاجعلها تطلع من جهة المغرب بقدرتك وسلطانك ولو مرةً واحدة، حتى نعترف لك بالقدرة والألوهيةِ، وهنا أُخرس ذلك الفاجر، بالحجة القاطعة التي تقصم ظهر الباطل، وأصبح حيران مبهوتاً دهشاً، لا يستطيع الجواب.. وفي هذه القصَّة التي قصَّها علينا القرآن، نموذج واضح عن تحكم الكفر والطغيان، في نفوس الجبابرة المعاندين، المجادلين في آيات الله بغير حجَّة ولا برهان، كما أنَّ فيها دليلاً على ما أيَّد الله به رسله الكرام من الحجج الساطعة، والبراهين القاطعة، وصدق الله ﴿فبُهِتَ الّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمينَ﴾.

«قصَّة عزير آية باهرة»

وقد تناولت سورة البقرة كذلك قصَّة رابعة، من روائع قصص القرآن، هي قصَّة الرجل الصالح «عزير» الذي مرَّ على بلدة بيت المقدس، بعد أن خرَّبها الجبار الطاغية «بختنصر» فوقف يرقب تلك البلدة بعد خرابها ودمارها، ويتعجَّب من قدرة الله عزَّ وجل، كيف يُحيي البلاد بعد فناء أهلها ويعيدها على حالها، وكان ذلك الرجل الصالح راكباً على حماره، وهو ينظر إلى آثار الخراب والدمار، فأماته الله مائة عام مع حماره، ثم أحياه تعالى ليريه كمال قدرته، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوْشِهَا﴾ أي قد

دُمِّرت بالكامل حتى سقطت جدرانها على سقوفها ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي كيف يحيي اللَّهُ هذه البلدة ويحيي أهلها بعد خرابها ودمارها؟ قال: ذلك استعظاماً لقدرة الله تعالى وتعجباً من حال تلك المدينة وما هي عليه من الخراب والدمار، لا شكّاً في قدرة الله أو ارتياباً قال تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أي أماته الله هذه المدَّة الطويلة، ثم أحياه بعدها ليريه برهاناً من نفسه على كمال قدرته: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمَاً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي لم يتغير بطول هذه المدَّة: ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي وانظر إلى حمارك كيف تفرَّقت عظامُه وبلي جسده، ولنجعلك معجزة ظاهرة تدل على كمال قدرتنا ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوْهَا لَحْمَاً﴾ أي وتأمَّل في عظام حمارك النخرة، كيف نعيد خلقها ثم نركِّب بعضها فوق بعض وأنت تنظر، ثم نكسوها لحماً بقدرتنا: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾.

«كيفية إحياء الموتى في قصة الخليل»

ثم تمضي السورة الكريمة لتذكر لنا قصَّة أخرى على إمكان البعث بعد الموت، وظهور الحياة بعد الفناء، وهي القصَّة الثالثة في هذا الموضوع العظيم الشأن، وذلك حين طلب الخليل إبراهيم أن يريه الله كيفية إحياء الموتى، وسؤاله لم يكن عن شك في قدرة الله، وإنَّما كان سؤالاً عن الكيفية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيْمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ، قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيَاً، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ﴾ وقد رأى الخليل بعينيه كيف أعاد الله

الحياة لهذه الطيور المذبوحة، وكل هذه القصص بهدف الإيمان بالبعث بعد النشور، وفيها البراهين الساطعة على قدرة الله العلي الكبير.

«إحياء الموتى في خمسة مواطن من السورة»

هذا وقد ذكر في سورة البقرة، موضوع «إحياء الموتى» في خمسة مواطن:

الأول: في قصة القتيل الذي أحياه الله بعد أن ضربوه بجزءٍ من البقرة: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوْهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى، وَيُرِيْكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾.

الثاني: في قصة المعاندين من بني إسرائيل الذين طلبوا رؤية الله عزَّ وجلَّ جهرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوْسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُوْنَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ﴾.

الثالث: في قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الطاعون والوباء فأماتهم الله ثم أحياهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ خَرَجُوْا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوْفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوْتُوْا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ..﴾ الآية.

الرابع: في قصة الرجل الصالح «عُزير» التي ذكرناها سالفاً: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ..﴾ الآية.

الخامس: في قصة إحياء الطيور المذبوحة: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ منهنَّ جُزْءَاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيَاً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ﴾ وكلُّ هذه القصص إنَّما ذُكرت بقصد تثبيت العقيدة بالإيمان بالبعث والنشور، وأنَّ أمر البعث حقٌّ لا محالة، ﴿وأنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُوْرِ﴾.

«توجيه رباني للبرِّ والإحسان»

والإسلام دينُ البرِّ والإحسان، فما من مكرمةٍ إلّا دعا إليها القرآن، وما من فعلٍ خيرٍ إلّا حثَّنا عليه الإسلام، لأنَّ هذا الدين دينُ الإنسانية، ودينُ المحبةِ والإخاء، والبذلِ والعطاء، وفي سورة البقرة صورٌ رائعة من صور الإنفاق في سبيل الله، والإحسان إلى عباد الله، وقد نوَّع القرآن الأساليب، في الحضّ على البذلِ والسخاء، تارةً بضرب الأمثال، وأخرى بطريق الترغيب أو الترهيب، وثالثة بذكر مآثر المنفقين أموالهم لوجه الله، وهكذا جاءت سورة البقرة تثني على كرم المحسنين: ﴿مَثَلُ الَّذِيْنَ يُنْفِقُوْنَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ﴾ قال الحافظ ابن كثير: هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأنَّ الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وهذا المثل أبلغُ في النفوس من ذكر عدد السَّبْعِمائَة، فإنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ الأعمال الصالحة، يُنمّيها الله عزَّ وجل لأصحابها، كما يُنمَّى الزرع لمن بذره في الأرض الطيِّبة[1].

«الرياء يفسد العمل»

وإذا كان الإنفاق يتضاعف ثوابه، بالنيَّة الطيِّبة، وإخلاص العمل ابتغاء وجه الله، فإنَّ الإحسان إلى الفقير، وتقديم العون للمحتاج، يتبدَّدُ ويتلاشى بالرياء والنفاق، وبالمنِّ على ذلك الفقير والمسكين كما قال الشاعر:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير الجزء الأول صفحة /٢٣٦/.

أفسدتَ بالمنِّ ما أسديتَ من حَسَن   ليس الكـريمُ إذا أسدى بمنَّـان

ولقد حذَّر القرآن الكريم، من تضييع ثواب المحسن، بالمنِّ والتفضيل على من أسدى إليه المعروف، وبيَّن أنَّ ردَّ السائل بالتي هي أحسن، خيرٌ عند الله وأفضل، من إعطائه ثم إيذائه، أو تعييره بذُلِّ السؤال والنوال فقال سبحانه: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوْفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىً، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيْمٌ﴾ وضرب تعالى المثل لمن أبطل جميله وإحسانه، بالرياء وقصد ثناء الناس، فمثَّل له بالصخر الأملس، عليه ترابٌ ناعمٌ قد كساه، فأصابه المطر الغزير المتدفِّق بقوَّةٍ من السماء، فذهب بذلك التراب حتى لم يُبق له أثراً، وترك الصخر أملس يابساً، كذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً، لاَ يَقْدِرُوْنَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا، وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِيْنَ﴾ وكما يتلاشى ثواب الإنسان بالنفاق والرياء، كذلك يزداد أجر المؤمن ويتضاعف ثوابه، بإخلاص النيَّة وفعل الخير ابتغاء وجه الله، وقد ضرب تعالى مثلاً للمؤمن المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله، بمثل بستانٍ كثير الشجر، بمكانٍ مرتفع من الأرض، نما شجرها، وزكى ثمرها، أصابها مطر غزير، فأخـرجت ثمارهـا جنيَّةً مضاعفة، زاهيةً ناضجة، كذلك حال المؤمن المحسن يوم القيامة يربو عمله ويزيد وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَثَلُ الَّذِيْنَ يُنْفِقُـوْنَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيرٌ﴾

«مثل من روائع الأمثال»

ومن روائع أمثال القرآن في تصوير ضياع حسنات الإنسان، ما صوَّر لنا به عمل الإنسان المحسن، الذي قدَّم من الخير ما يرضي الله، ثم جاءه الشيطان فزيَّن له المعاصي، وحبَّب إليه الشُهرة وحبَّ الثناء، حتى أغرق أعماله الصالحة، وأضاعها حتى لم يبق له منها شيء.. وقد شبَّه القرآن الكريم حسنات هذا الشخص، بحديقةٍ غنَّاء، فيها من أنواع النخيل والأعناب والثمار، ما يُدهش الأبصار، وتمرُّ من بين أشجارها الأنهار الدافقة، وتنبتُ فيها جميع الفواكه والثمار، وقد أصابته الشيخوخة، فضعف عن الكسب والعمل، وله أولاد صغارٌ لا يقدرون على العمل، وبينا هو في هذه الحال، إذْ أصابت تلك الحديقةَ ريحٌ عاصفةٌ مدمِّرة، معها نارٌ ملتهبةٌ محرقة، فأحرقت الأشجار وأبادت الثمار، في وقتٍ هو أحوج ما يكون إلى الانتفاع بغلَّة الحديقة، ليقدِّم ريعها إلى أطفاله الصغار، فكيف يكون حال ذلك المسكين البائس؟ ولنستمع إلى روعة التصوير والبيان، في أمثال القرآن: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُوْنَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيْلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، لَهُ فِيْهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيْهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُوْنَ﴾ روى البخاري في صحيحه عند تفسير هذه الآية: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ فيمن ترون هذه الآية نزلت ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُوْنَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيْلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر فقال: قولوا نعلمُ أو لا نعلم! فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: «يا ابن أخي قل ولا تحقرْ نفسك، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ضُربت مثلاً بعمل، قال عمر: أيَّ عمل؟ قال ابن عباس: لرجل

غني يعمل بطاعة، ثم بعث اللَّهُ له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله»(١) وقال الحسن البصري: هذا مثلٌ قلَّ والله من يعقله، شيخ كبير، ضعف جسمه، وكثر صبيانه، أفقر ما كان إلى جنَّته، فجاءها الإعصار فأحرقها، وإنَّ أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا. .

«الإنفاق من الطيب من الكسب»

دعا الإسلام إلى الإنفاق، والبذل والسخاء، فالمال في يد المؤمن وسيلةٌ لنيل رضى الله، وليس غايةً يحرص على جمعه واقتنائه، لينفقه على ملذَّاته وشهواته، بل هو طريقٌ للإحسان، والفوز برضى الرحمن. . وقد تناولت سورة البقرة موضوع الإنفاق في سبيل الله، فرغبت في إنفاق الطيب منه ـ لأنَّ الله طيبٌ لا يقبل إلَّا طيباً ـ وحذَّرت من إنفاق الرديء الخبيث، الذي لا يرضاه لنفسه الإنسان، فكيف يرضى المؤمن أن يُقدِّم لله جلَّ وعلا، ما تكرهه نفسه من سَقَط الطعام أو المتاع، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا أَنْفِقُوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوْا الْخَبِيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُوْنَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيْهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوْا فِيهِ، وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيْدٌ﴾ ومعنى الآية: لا تقصدوا الرديء الخسيس فتتصدَّقوا منه، والحال أنَّكم لستم تقبلونه لو أُعطيتموه، إلَّا إذا تساهلتم وأغمضتم البصر فيه، فكيف تؤدون منه حقَّ الله؟ وختم الآية بما يدل عن استغناء الله عن مثل هذه الصدقة فقال: ﴿وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيْدٌ﴾ أي هو سبحانه غنيٌّ عن إحسانكم وصدقاتكم، حميد يجازي المحسن أفضل الجزاء.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

«التحذير من طاعة الشيطان»

ثمَّ جاءت الآيات الكريمة تحذِّر المؤمنين، من طاعة الشيطان في وسوسته للإنسان، في البخل والحرص الشديد على المال ومنع الإنفاق فقال تعالى: ﴿الْشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ واللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ﴾ وإذا كان المؤمن يعتقد بأنَّ الرزق بيد الرزَّاق، وأنَّ الله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، حسب الحكمة والمصلحة، فكيف يبخل بالإنفاق في سبيل الله، والله يعده على إحسانه العوض أضعافاً مضاعفة كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوْا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُوْنَ﴾.

«الصدقة في السر أفضل»

ولقد حَرَصَ الإسلام على أن تكون الصدَّقةُ في السرِّ، ليكون الجزاء أوفرَ، والأجرُ أكملَ، ذلك لأنَّ الصدقةَ في الخفاء، أبعدُ عن الرياء، وأحبُّ إلى قلب الفقير(١)، لأنه لا يشعر بالانكسار والذل، الذي يلحقه عند نظر الناس له وهو يأخذ الصدقة والإحسان، وهذا ما رغَّب فيه القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ - أي نعم هذا الشيء الذي تنفقونه - وَإِنْ تُخْفُوْهَا وَتُؤْتُوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَاللَّـه بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرٌ﴾

«الصدقة قرضٌ لله مضمونُ الوفاء»

ولقد بلغ من تعظيم أمر الصدقة والإنفاق في سبيل الله، أن جعل القرآن التصدق على الفقير والمسكين، كأنَّه قرضٌ للَّهِ عَزَّ وجل واجب الوفاء، وصَوَّره بصورة من أودع الله وديعة أو قدَّم له قرضاً، وفي هذا

---

(١) وفي الحديث الصحيح: «صدقةُ السِّرِ تُطْفِىءُ غضبَ الربّ».

يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيْرَةً، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ﴾ وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: ﴿مَنْ يُقْرِضُ غيْرَ عَدِيمٍ وَلاَ ظَلُوْم﴾ أي من يقرض رباً غنياً كريماً، غير مسوِّفٍ ولا ظالم؟

«أمثلة من كرم الصحابة الأبرار»

روي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: لما نزلت ﴿مَنْ ذا الَّذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له﴾ جاء أبو الدحداح الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: وإنَّ الله عزَّ وجلَّ ليريد منَّا القرض؟ قال نعم يا أبا الدحداح! قال أرني يدك يا رسول الله، فناوله يده، قال فإنِّي قد أقرضتُ ربِّي عزَّ وجلَّ حائطي - أي بستاني - وكان له حائط فيه ستمائةِ نخلة، وأم الدحداح هي وعيالها فيه، فجاء أبو الدحداح فوقف عند باب البستان ولم يدخل فناداها: يا أم الدحداح قالت: لبيك. قال اخْرُجي فقد أقرضتُه ربي عزَّ وجل، فقالت: ربح البيع يا أبا الدحداح، وخرجت منه هي وعيالها، بهذه الصورة المشرقة من صور البذل والإحسان، ربَّى الإسلام أتباعه، على السخاء والجود، والبذلِ في سبيلِ الله، حتى رُوي أنَّ النبي ﷺ حثَّ أصحابه يوماً على الإنفاق، فجاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله، فلمَّا سأله ﷺ: ماذا تركت لأهلك يا عمر؟ قال: تركتُ لهم نصف مالي، وجاء أبو بكر رضي الله عنه بكل ما يملك يكاد يخفيه من نفسه، حتى دفعه إلى الرسول فلمَّا سأله ﷺ: ماذا خلَّفتَ لأهلك يا أبا بكر؟ قال: تركتُ لهم الله ورسولَه، فبكى عمر وقال: بأبي أنت وأمي يا أبا بكر، والله ما استبقنا إلى باب خيرٍ قطُّ، إلاَّ كنت سابقاً[1].

---

(١) ذكر هذه القصَّة الحافظ ابن كثير في تفسيره.

«حديث قدسي شريف»

ومن روائع صور الإنفاق ما جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن النبي ﷺ أنَّه قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني؟ قال يا رب: كيف أعودكَ وأنت ربُّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أنَّ عبدي فلاناً مرض فلم تَعُدْه؟ أما علمتَ أنك لوعُدْتَه لوجدتني عنده!؟ يا ابنَ آدمَ استطعمتُك فلم تطعمني! قال يا رب: كيف أطعمك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أنَّ عبدي فلانٌ استطعمك فلم تطعمه! أما علمتَ أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدمَ: استسقيتُك فلم تَسْقِني! قال يا رب: كيف أَسقيك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلانٌ فلم تَسْقه! أما علمتَ أنك لو سقيتَه لوجدت ذلك عندي؟!»[1]. اللهمَّ اجعلنا ممن بذل وأنفق في سبيلك ابتغاء وجهك الكريم، ووفقنا لصالح الأعمال يا رب العالمين.

«الربا جريمة اجتماعية خطيرة»

تناولت سورة البقرة ضمن ما تناولته من الأحكام التشريعية، موضوعاً خطيراً من أهم المواضيع الاقتصادية في عصرنا الحديث، ألا وهو «جريمة الربا» وعقوبتُه في ظلِّ الإسلام، فلقد اعتبرت الشريعة الإسلامية الربا من أكبر الجرائم الاجتماعية والدينية، وشنَّت عليه حرباً لا هوادة فيها، وأوعد القرآن الكريم المرابين عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة جزاء ما صنعوا.

ويكفي أن نعلم عِظَم هذه الجريمة النكراء، من تصوير حالة المرابين، بذلك التصوير الفظيع الشنيع، الذي صوَّرهم به القرآن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

الكريم في سورة البقرة.. صورةِ الشخص الذي به مسٌّ من الجن، فهو يقوم من قبره يوم القيامة، كما يقوم المصروع حال صَرْعه، وتخبط الشيطان له.. يَهْذي ويتخبَّط كالمجنون الذي أُصيب في جسمه وعقله وصدق الله حيث يقول: ﴿الَّذِيْنَ يَأْكُلُوْنَ الرِّبَا لَا يَقُوْمُوْنَ إِلَّا كَمَا يَقُوْمُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوْا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ، وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ، يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيْمٍ﴾

«إعلان الحرب على المرابين»

ولم يبلغ من تفظيع أمرٍ من أمور الجاهلية ـ أراد الإسلام إبطالَه ـ كما بلغ من تفظيع أمر الربا، ولا بلغ من الوعيد والتهديد في منكرٍ من المنكرات، كما بلغ في شأن الربا، فلقد أعلن الله الحرب على المرابين، وتوعدهم بأشد أنواع العذاب الأليم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اتَّقُوْا اللَّهَ وَذَرُوْا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوْا فَأْذَنُوْا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُوْلِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوْسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُوْنَ وَلَا تُظْلَمُوْنَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنه: آكلُ الربا يُبعث يوم القيامة مجنوناً يُخنق، ويُقال له: خذ سلاحك للحرب، وإنما شبَّه القرآن المرابين بالمصروعين، الذين يتخبَّطهم الشيطانُ من المسِّ، لأنَّ اللَّهَ أربى ما أكلوه في بطونهم من الربا فأثقلهم، فصاروا كالمخبولين المجنونين، ينهضون ويسقطون، وتلك سيماهم يوم القيامة يُعرفون بها، قال سعيد بن جُبير: تلك علامة آكل الربا يوم القيامة.

«مقارنة بين الربا والصدقة»

إنَّ الربا في نظر الإسلام، جريمةُ الجرائم، وأساسُ المفاسد، وأصل الشرور والآثام، وهو الوجهَ الكالح الطالحُ، من وجوه الكسب الخبيث، الذي يقابل الصدقة، والبِرَّ، والإحسان، الصدقة عطاءٌ وسماحة، وزكاةٌ وطهارة، وتكافلٌ وتعاون.. والربا شحٌ وقذارة، وَجَشعٌ ودنس، وأثرةٌ وأنانية.. الصدقةُ نزول عن المال بلا عوض ولا ردٍّ، ابتغاء وجه الله الكريم، والربا استردادٌ للدَّيْن، ومعه زيادةً سحتٌ، مقتطعةٌ من جُهد المدين، أو من دمه ولحمه، من جهده إن كان قد عمل بالمال الذي استدانه، فربح من كدِّ يمينه وعَرَق جبينه، ومن لحمه إن لم يربح أو عمل وخسر، أو كان قد أخذ المال للنفقة على نفسه وأهله، أو لعلاج بعض أولاده.

فلا عجب إذاً أن يُعُدَّه الإسلام، أعظم المنكرات والجرائم الاجتماعية والدينية، وأن يعلن على المرابين الحرب السافرة: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوْا فَأْذَنُوْا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُوْلِهِ﴾ فمن ذا الذي يستطيع أن يُبارزَ ربَّ العالمين، وهو القاهرُ الغالب ذو القوَّة المتين؟

«أضرار الربا على الفرد والمجتمع»

إنَّ للربا أضراراً كثيرةً فادحة، لا تقتصر مساوئها وأضرارها على الفرد، بل تتعدَّى الجماعة، وتُهلك الحرثَ والنسل، وتقوِّض بنيان المجتمع، ويكفي أن نجمل هنا بعض هذه الأضرار الخطيرة في جملة فقرات:

أولاً: ضرر الربا من الناحية النفسية.

ثانياً: ضرر الربا من الناحية الاقتصادية.

ثالثاً: ضرر الربا من الناحية الاجتماعية.

أمَّا ضرر الربا من الناحية النفسية، فإنَّه يولِّد في الإنسان حبَّ «الأَثَرة والأنانية» فلا يعرف الشخص إلاَّ نفسه، ولا يهمُّه إلاَّ نفعُه ومصلحتُه، وبذلك تنعدم روح التضحية والإيثار، وتنعدم معاني الحب والخير للأفراد والجماعات، وتَحُلُّ محلَّها حبُّ الذاتِ والأثرة والأنانية، وتتلاشى الروابط الأخوية، بين الإنسان وأخيه الإنسان، فيغدو الشخص «المرابي» وكأنَّه وحشٌ كاسر مفترسٌ، لا يهمه من الحياة إلاَّ جمع المال، وامتصاص دم أخيه الإنسان، واستلاب ما في يده، ويصبح ذئباً ضارياً في صورة إنسان وديع، وهكذا تنعدم معاني النبل، والحب، والخير في نفوس الناس، ويحل محلها الجشع والطمع.

أما ضرر الربا من الناحية الاقتصادية فهو ظاهر كل الظهور، جليٌّ كل الجلاء، لأنَّه يقسم الناس إلى طبقتين: طبقةٍ مترفة، تعيش على النعيم والرفاهية، والتمتع بعرق جبين الآخرين، وطبقةٍ معدمة، تعيش على الفاقة والحاجة، والبؤس والحرمان، وبذلك ينشأ الصراع بين هاتين الطبقتين، وقد ثبت ـ بما لا يحتمل الشك ـ أن الربا أعظمُ عاملٍ من عوامل تضخم الثروات، وتكدُّسها في أيدي فئة قليلة من البشر، فهؤلاء الذين يملكون «الملايين» بل «المليارات» إنَّما تضخَّمت ثرواتهم بسبب الربا، الذي هو سبب البلاء الذي حلَّ بالأمم والجماعات، حيث كثرت المحن والفتن والحروب، وازدادت الثورات الداخلية بسببه.

أمَّا ضرر الربا من الناحية الاجتماعية، فإنَّه يولد العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع، ويدعو إلى تفكك الروابط الإنسانية والاجتماعية بين طبقات الأمَّة، ويقضي على كل مظاهر الشفقةِ والحنانِ والإحسان في نفوس البشر.. فلا عجب أن نرى إعلان الحرب على

المرابين ﴿فَأْذَنُوْا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُوْلِهِ﴾ وأن يلعن رسول الله ﷺ كل من ساعد أو أعان فيه فيقول: ﴿لعنَ الله آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء﴾[1].

«حرصُ الإسلام على الحقوق المالية»

لقد بلغ من حرص الإسلام على الحقوق المالية، أنَّ الله عزَّ وجل أنزل في كتابه المبين، أطول آيةٍ في القرآن على الإطلاق، ألا وهي آية المداينة وفيها تقرير أحكام الدَّيْنِ، والقرضِ الحسن، وأحكام التجارة والرهن، وكلُّها طرقٌ شريفة لتنمية المال وزيادته، بما فيه صلاح الفرد والمجتمع.. يقول الله جلَّ ثناؤه في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوْهُ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ، وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً، فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيْهاً أَوْ ضَعِيْفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيْعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ، وَاسْتَشْهِدُوْا شَهِيْدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُوْنَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا، وَلَا تَسْئَمُوْا أَنْ تَكْتُبُوْهُ صَغِيْراً أَوْ كَبِيْراً إِلَى أَجَلِهِ، ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلْشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوْا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيْرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوْهَا، وَأَشْهِدُوْا إِذَا تَبَايَعْتُمْ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيْدٌ، وَإِنْ تَفْعَلُوْا فَإِنَّهُ فُسُوْقٌ بِكُمْ، وَاتَّقُوْا اللَّهَ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ﴾. أفرأيتم كيف يرشدنا الباري جلَّ وعلا إلى أمور المال والاقتصاد؟! وكيف يعتني

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي عن ابن مسعود بلفظ (لعن رسول الله ﷺ آكل الربا...) الخ.

بموضوع الدين، والبيع، والرهن، وأمور التجارة، ويأمر بالإشهاد عند عقد البيع أو عند دفع الدين إلى المستدين، كما يأمر بكتابة المعاملات المؤجَّلة إلى زمنٍ، ليكون ذلك أحفظَ وأوثقَ لمقدارها وميقاتها. . وكلُّ ذلك من أجل ضمان حقوق الناس، حتى لا يقع حيفٌ أو ظلم على أحد، وبهذا ندرك عناية الإسلام بشؤون الاقتصاد والمال، لأنَّ المال عصبُ الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ أي جعلها قواماً لحياتكم ومعايشكم، فلا تدفعوها لمن يسيء التصرف فيها من السفهاء والصبيان. ولقد أرشدت الآية الكريمة «آية المداينة» إلى وجوب كتابة الدين، وأمرت كذلك بالإشهاد، ليكون ذلك أحفظ لمقداره، وأضبط لميقاته، وأضمنَ لعدم الجحود والإنكار، مع أنَّ الأصل في المسلم أن يتعامل مع إخوانه بالأمانة، فيؤدي الحقوق إلى أصحابها ولو لم يكن ثَمَّةَ شهود، لأنَّ الله تعالى مطَّلعٌ عليه، شاهدٌ على أعمال عباده، وكفى بالله وليّاً وكفى بالله شهيداً.

«من صور الوفاء والأمانة»

ولعلَّ من أروع صور الوفاء والأمانة، تلك القصَّة الرائعة التي حدَّثنا عنها رسول الله ﷺ ورواها لنا البخاري في صحيحه عمَّن سبقنا من الأمم، وخلاصة هذه القصة أنَّ رجلاً من المؤمنين، سأل بعض بني إسرائيل أن يُسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بشهداء أشهدهم على ذلك، قال: كفى بالله شهيداً، قال ائتني بكفيل يكفلك، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقتَ، فدفع له ألف دينار إلى أجل مسمى دون أن يكون هناك شاهد أو كفيل، فخرج في البحر إلى بلده فقضى حاجته، ثم لما حلَّ الأجل، التمس مركباً ليؤدي الدائن حقَّه فلم يجد مركباً، وخشي أن يُخلف وعده فيظنَّ به صاحبه الظنون، فأخذ خشبةً فنقرها فوضع فيها

ألف دينار، ووضع معها صحيفةً، ثمَّ أصلحها بالغِراء، ثم أتى بها البحر فقال: اللَّهمَّ إنك تعلم أنني قد أسلفتُ من فلانٍ ألف دينار، فقال: ائتني بكفيل، فقلت كفى بالله كفيلاً، فقال ائتني بشهيد، فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بذلك ودفع المال لي، وإني قد أجهدتُ نفسي لأجد مركباً فلم أجد مركباً، وإني استودعك هذه الأمانة لتؤديها لصاحبها، ثم رمى بها في البحر، حتى صارت في لجَّته، ثم انصرف إلى بيته، فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينتظر قدوم صاحبه بالمال، فلم يَرَ مركباً، وانتظر طويلاً حتى كادت الشمس تغرب، ثم عزم على الرجوع، فأبصر شيئاً تتقاذفه الأمواج فانتظر حتى وصل إلى الشاطىء، فرأى خشبةً كبيرة، فأخذها حطباً لأهله، فلمَّا كسرها وجد الدنانير تتدفَّق منها، فعدَّها فإذا هي ألف دينار، ووجد الصحيفة معها فعرف عذر صاحبه، ثم إنَّ صاحبه خشي ألاَّ يصل إليه المال، فأتاه بألف دينار أخرى ليوفيه حقَّه، فلمَّا وصل إلى بلدته، جاءه يعتذر فقال له: والله ما زلتُ جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدتُ مركباً قبل هذا الذي أتيتك به، فقال له الرجل مبتسماً: إنَّ الذي بعثتَ معه المال قد أوصلها إليَّ فانصرفْ بالألف راشداً وقصَّ عليه قصَّة تلك الخشبة[1]. . هذه هي خلاصة القصَّة وبهذه الصورة الرائعة من الوفاء، والصدق، والأمانة، كان المسلمون السابقون يتعاملون، فاللَّهمَّ ارزقنا العفَّة والأمانة.

«ختم رائع لسورة البقرة»

وقد ختمت سورة البقرة ـ بعد ذكر آية المداينة ـ بذاك الختم

---

(١) هذه القصة أخرجها البخاري في صحيحه ورويناها بالمعنى.

الرائع، الذي يناسب ما اشتملت عليه السورة من التكاليف الكثيرة، كالصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والجهاد، والإنفاق، والطلاق، وغير ذلك من الأحكام الشرعية، التي كلفنا الله عزَّ وجل بها، وكلٌّ هذه التكاليف في مستطاع الإنسان، وقد علَّمنا الباري تعالى بعد ذلك الدعاء برفع الأغلال عنَّا والآصار: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسَاً إلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرَاً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِيْنَ﴾ صدق الله العظيم.. وهكذا ختمت السورة الكريمة بهذا الدعاء الخاشع المنيب، فكان ختم مسك، اللهم اختم لنا بخاتمة الخير والسعادة يا رب العالمين.

(٢)

دِرَاسَةُ سُورَةِ آلِ عِمْرَان

سُورَة آل عِمْرَان

بين يدي السُّورَة

سورة آل عمران من السور المدنية الطويلة، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على ركنين هامين: أولهما ركن العقيدة الإسلامية الصافية، مع ذكر الأدلَّة والبراهين على وحدانية رب العالمين، والثاني ركنُ التشريع، وبخاصة فيما يتعلَّق بأحكام الجهاد في سبيل الله.

أمَّا الركن الأول: ركن العقيدة فقد تناولت الآيات الكريمة أدلَّة الوحدانية، والنبوَّة وإثبات صدق القرآن، وأنَّه تنزيل الرحيم الرحمن، وردت بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة، على الشبهات التي أثارها أهل الكتاب «اليهود والنصارى».

وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب، وهم «اليهود» فكشفت عن خفاياهم ونواياهم، وأظهرت حقيقتهم وما انطوت عليه نفوسهم الشريرة، من خبثٍ، ومكر، وكيد.. فإنَّ سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب، وهم النصارى، الذين جادلوا الرسول ﷺ في أمر السيد المسيح «عيسى بن مريم» فزعموا بنوَّته للَّهِ، وادَّعوا أنَّه ثالث ثلاثة، بل إن بعضهم غالى في شأنه، فزعم أنَّه هو الله، تجسَّد وتمثَّل في صورة بشر، إلى آخر ما افتراه

النَّصارى، تعالى الله وتقدَّس عمَّا يقول الظالمون علوَّاً كبيراً.

أما الركن الثاني: فقد تناول الحديث عن الجهاد والشهداء، وعن بعض الغزوات وبخاصة عن غزوة أحد وما فيها من دروس وعبر.

«صفات الإلّه الحق»

ابتدأت السورة الكريمة ببيان الرب المعبود الذي أبدع هذه الكائنات، ووصفت ربَّ العزَّة جلَّ وعلا بصفات الكمال والجلال، فهو الحيُّ الباقي، الدائم الذي لا يفنى ولا يموت، وهو القائم على شؤون عباده بالحفظ والرعاية والتدبير، وهو الذي نزَّل القرآن على خاتم الأنبياء والمرسلين، كما أنزل من قبله التوراة والإنجيل، على موسى وعيسى من أنبياء بني إسرائيل، فكيف يكذِّب النصارى بالقرآن، مع أنَّه جاء مصدِّقاً لما بين أيديهم من الإنجيل ﴿آلَمْ. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوْمُ: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيْلَ. مِنْ قَبْلُ هُدَىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ، إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌ، وَاللَّهُ عَزِيْزٌ ذُوْ انْتِقَامٍ﴾.

«الرد على النصارى»

ثمَّ تتابعت السورة تشير إلى صفات الإلّه الحق، الذي أحاط علماً بكل ما في الكون، والذي يعلم الغيب وراء الأستار، والذي خلق البشر في أرحام الأمهات، وصوَّرهم كما شاء في أشكال مختلفة، منهم الأبيض، والأسود، والأحمر، ومنهم الذكر والأنثى، ومنهم الطويل والقصير، وهذا برهان ساطع على تفرُّده سبحانه بالخلق والابداع، وفيه ردٌّ على النصارى في اعتقادهم بألوهية عيسى، فكيف يكون إلّهاً وهو عبدٌ مخلوق؟ مصوَّرٌ في رحم أمه، كما هو شأن جميع العباد؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ

﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِيْ يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰه إِلَّا هُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ﴾ رُوي أن صدر هذه السورة الكريمة نزل في وفد «نصارى نجران» كانوا قرابة ستين شخصاً، فيهم ثلاثة من أكابرهم وأشرافهم، قدموا المدينة المنورة، فدخلوا على رسول الله ﷺ في أبهى زينة وأجمل لباس، فتكلَّم منهم أولئك الثلاثة، وجادلوا رسول الله ﷺ في شأن عيسى، فقالوا تارة عنه إنَّه هو «الله» لأنه كان يحيي الموتى، وتارةً قالوا في مناظرتهم هو «ابن الله» لأنه خُلق من غير أب، فلا بدَّ أن يكون ابنَ الله، وتارة قالوا: إنَّه أحد الآلهة الثلاثة، فهو ثالث ثلاثة لقوله تعالى في الإنجيل «قلنا، فعلنا، أمرنا» قالوا: ولو كان الإلَه واحداً، لقال: قلتُ، فعلتُ، أمرت، وأخذوا يجادلون رسول الله ﷺ ويُبرهنون له أنَّه ليس عبداً بل هو ربٌّ، لهذه الخوارق التي أتى بها، ويجادلون ويناظرون في أمر ربوبيته، فقال لهم الرسول ﷺ: ألستم تعلمون أنَّ ربنا حيٌّ لا يموت، وأنَّ عيسى يموت؟ قالوا بلى. قال: ألستم تعلمون أنَّ ربَّنا قائمٌ على كل شيء، يكلؤه، ويحفظه، ويرزقه؟ فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك؟! قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أنَّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلَّا ما علَّمه الله؟ قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولدٌ إلَّا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أنَّ ربَّنا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ولا يُحدث الحدث، وأنَّ عيسى كان يطعم الطعام، ويشرب الشراب، ويحدث الحدث؟! قالوا: بلى، فقال لهم ﷺ: فكيف يكون كما زعمتم؟ فسكتوا وأبوا إلا الجحود، فأنزل الله من أوَّل السورة ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ إلى ما يزيد على ثمانين آية.

«المعجزة الساطعة»

ثمَّ تناولت السورة الكريمة أمر هذا الكتاب المعجز «القرآن الكريم» وبيَّنت أنَّ الله جلَّ وعلا أنزله على خاتم الأنبياء والمرسلين، يحمل في طيَّاته برهان صدقه، ودليل إعجازه، وفيه آيات بيناتٌ واضحات الدلالة، هنَّ أصل الكتاب وأساسه، كآيات الحلال والحرام، وآيات التشريع والأحكام، وهذه الآيات هي «المحكمات» وفيه آياتٌ أُخرى فيها اشتباه في الدلالة على بعض الناس، وهي الآيات «المتشابهات» فمن ردَّ المتشابه إلى الواضح المحكم فقد اهتدى، ومن عكس فقد ضلَّ ﴿هُوَ الَّذِيْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِيْنَ فِي قُلُوْبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُوْنَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيْلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ وفي هذه الآية ردٌّ على النصارى حيث احتجوا بالآيات المتشابهات، كقوله تعالى في شأن عيسى: ﴿وكلمتُه ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه﴾ فزعموا أنَّ عيسى ابن الله أو هو جزء من الله، فادعوا ألوهيته، وتركوا المحكم وهو قوله تعالى: ﴿إن هُوَ إلَّا عبدٌ أنعمنَا عليه﴾ الدال على أنَّه عبدٌ من عباد الله، ليس إلٰهاً ولا ابن إلٰه، وقد ردَّت عليهم الآيات بهتانهم وضلالهم، بأوضح حجةٍ وأحكم بيان.

«موقف المشركين من القرآن»

تقدم البيان في صدر السورة عن النصارى الذين غالوا أشد الغلو في شأن المسيح «عيسى بن مريم» حتى زعموا أنَّه إلٰهٌ، أو ابن الإلٰه، وعبدوه من دون الله، وقد ردَّت عليهم الآيات السابقة، بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وهنا تتحدَّث الآياتُ الكريمة، عن الكافرين عامَّة، تتحدَّث عن «المشركين واليهود والنصارى» وتُبَيِّن أنَّ سبب كفرهم

هو اغترارهُمْ بما في هذه الحياة الدنيا من بهرج ومتاع، وبما وهبهم الله من الذرية والبنين، ولكنَّ هذا لن ينفعهم شيئاً، ولن يدفع عنهم من عذاب الله يوم القيامة شيئاً يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُوْدُ النَّارِ. كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمْ اللَّهُ بِذُنُوْبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيْدُ الْعِقَابِ﴾ ومعنى قوله تعالى: ﴿كدأب آل فرعون﴾ الآية أي أنَّ حال هؤلاء الكفَّار وشأنهم، كحال وشأن آل فرعون، الذين طغـوا وأفسدوا فأهلكهم الله، فكما أنَّ أولئك لم تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، فكذلك هؤلاء لن تنفعهم الأموال والأولاد.. ثم ضرب تعالى مثلاً لهؤلاء الكفَّار، بما لقيه مشركو مكَّة من الهزيمة والاندحار، في غزوة بدر، تلك الغزوة التي التقى فيها جند الرحمن بجند الشيطان وكانت النتيجة انتصار المؤمنين مع قلَّتهم، واندحار المشركين مع كثرتهم، فليس النصر بكثرة العَدَد، وإنَّما هو بتأييد الله ومشيئته وإرادته ﴿قُلْ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوْا سَتُغْلَبُوْنَ وَتُحْشَرُوْنَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ. قَدْ كَانَتْ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَقَتَا ـ أي قد كان لكم عظة وعبرة في طائفتين التقتا للقتال في بدر ـ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ، وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ العَيْنِ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ روي أن النبي ﷺ لمَّا أصاب قريشاً ببدر، ورجع ظافراً إلى المدينة المنورة، جمع اليهود فقال لهم: يا معشر اليهود أسلموا، قبل أن يصيبكم الله بما أصاب به قريشاً، فقد عرفتم أنِّي نبيٌّ مرسل، فقالوا يا محمد: لا يَغُرَّنَّك من نفسك، أنك قتلتَ نفراً من قريش، كانوا أغماراً لا علم لهم بالحرب ـ أي كانوا جهَّالاً لا يعرفون طرق الحرب وفنونها ـ إنَّك لـو قاتلتنا، لعرفتَ أنَّنا نحن الرجال، وأنَّك لم تلق مثلنا في الحرب، فأنزل الله الآية بشَّرهم فيها بالهزيمة والاندحار ﴿قُلْ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوْا سَتُغْلَبُوْنَ

﴿وَتُحْشَرُوْنَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[1].

«اغترار الناس بشهوات الحياة»

ثمَّ تناولت الآيات الكريمة، شهوات هذه الحياة الدنيا الفانية، فبيَّنتْ اغترار كثيرٍ من الناس بها، فكم خدعت هذه الدنيا من أناسٍ، وكم شغلتهم عن طاعة الله، خدعتهم ثمَّ صرعتهم، وهكذا تفعل الدنيا بأحبابها وعُشَّاقها، تُغريهم بمفاتنها وشهواتها، ثمَّ تذيقهم مرارة الألم، وكأس الحسرة والندم ﴿زُيِّنَ لِلْنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِيْنَ، وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ. قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ؟ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ. خَالِدِيْنَ فِيْهَا، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيْرٌ بِالْعِبَادِ﴾ وإنَّما بدأ تعالى من الشهوات بالنساء، لأنَّ الفتنة بهنَّ أشدُّ، وخطر التعلُّق بهنَّ أكثر، كما جاء في الحديث الشريف «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء»[2] ثمَّ ذكر بعدهنَّ البنين، لأنَّهم ثمرات القلوب، وقرَّة العين، وبهجة النفس، كما قال الشاعر:

وإنَّما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبَّت الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني عن الغَمْض

وأمَّا المالُ فقد ذكره ثالثاً، لأنَّ حب الإنسان لولده، أكثرُ من حبِّه لماله، ولهذا يفديه بالمال، ولو خُيِّر الإنسانُ بين أن يذهب مالُه أو يفقِد ولده، لاختار ذهاب المال، لأنَّ حبَّ الأولاد غريزة، تسبق حبَّ المال. . وإنَّما كان المال محبوباً أيضاً، لأنَّه يحصل به غالبُ الشهوات،

---

(١) انظر سبب النزول للواحدي، وتفسير القرطبي وابن كثير.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

والإنسان يركب الأخطار في سبيل تحصيله.. وبعد أن ذكر تعالى الشهوات وعدَّدها، وهي «النساء، والأبناء، والذهب، والفضة، والخيل الأصيلة، والإبل والبقر والغنم، والحرث والزرع» ختم الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ﴾ أي تلك الشهوات هي زهرة الحياة الدنيا، وزينتُها الفانية الزائلة، والله تعالى عنده حسن المرجع والثواب، لمن أطاعه واتَّقاه. وهنا سؤال لا بدَّ من الإجابة عنه؟ وهو: مَنْ هو المزينُ لهذه الشهوات ﴿زُيِّن للناس حبُّ الشهوات﴾؟ يرى بعض المفسرين، أنَّ المزين هو الشيطان، وذلك بوسوسته للإنسان، وتحسينه الميل إلى هذه الشهوات، ليشغله بها عن طاعة الرحمن، قالوا: ويؤيد ذلك قولُه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيْلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُوْنَ﴾ ويرى البعض أنَّ المزيِّن هو الله تعالى، قالوا: وتزيينُ الله تعالى لهذه الشهوات، إنَّما هو للإمتحان والابتلاء، كما قال تعالى: ﴿إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِيْنَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً. وَإِنَّا لَجَاعِلُوْنَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزَاً﴾ والغرض من هذا الابتلاء أن يظهر عبدُ الشهوة، من عبد المولى، وأن يتميَّز عبدُ النعمة من عبد المنعم، كما هو ظاهر قول عمر رضي الله عنه: «اللهمَّ لا صبر لنا على ما زينتَ لنا، إلَّا بك» ولكلٍ من القولين وجهٌ كما بيَّنا.. ولقد جعل الله ـ تقدَّست أسماؤه ـ هذه الدنيا، دار عملٍ، وجعل الآخرة دار الجزاء، فإنَّ الدنيا فانية والآخرة باقية، والباقي هو الأصل، كما جعل الدنيا دار تكليف، والآخرة دار التشريف، ودارُ التشريف يكون فيها الجزاء والثواب والإنعام، وما أحسن قول القائل:

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسنٍ إذاً لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامةً وقد شبعت فيها بطون البهائم

وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»[1].

«دلائل التوحيد والإيمان ساطعة جلية»

ركَّزت سورة آل عمران، على العقيدة وأصول الإيمان، وأقامت الأدلَّة والبراهين، على وحدانية رب العالمين، وردت بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، على الشبهات التي أثارها النصارى، حول القرآن والمسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم «اليهود» فإنَّ سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية وهم «النصارى» وردَّت عليهم بآياتها الساطعة، وحججها الباهرة، ردَّاً قوياً مُحْكَماً، يُعلي منار الحقِّ ويقصم ظهر الباطل، يقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوْا الْعِلْمِ، قَائِمَاً بِالْقِسْطِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ. إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الْكِتَابَ، إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيَاً بَيْنَهُمْ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيْعُ الْحِسَابِ﴾.

فقد نبَّهت هذه الآيات الكريمة، أنَّ دلائل التوحيد والإيمان ظاهرة جليَّة، لا يرتاب فيها إلَّا من كان أعمى البصيرة، فاقد الشعور والإحساس، فكل ما في هذا الكون ناطق بعظمة الله، شاهد بوحدانيته ووجوده «وفي كل شيء له آية: تدلُّ على أنَّه واحد» وقد شهد تعالى لنفسه بالألوهية والوحدانية، وشهد معه كذلك الملائكةُ الأطهار، والعلماء الأبرار، وكفى بذلك فضلاً وفخراً لأهل العلم، حيث قرن تعالى شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته الأبرار فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا

(١) الحديث أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوْ الْعِلْمِ﴾ قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: شهد تعالى ـ وكفى به شهيداً ـ وهو أصدقُ الشاهدين وأعدلُهم، وأصدق القائلين وأعلمهم، بأنَّه «لا إله إلاَّ هو» أي أنه المنفرد بالإلَهيَّة لجميع الخلائق، وأنَّ الجميع خلقه وعبيدُه، وأنَّهم فقراء إليه، وهو الغنيُّ عمَّن سواه، ثم قرن شهادة ملائكته، وأولى العلم بشهادته، وهذه خصوصيةٌ للعلماء في هذا المقام، ولهذا روي أنَّ النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ يقول: وأنا على ذلك من الشاهدين يا ربِّ! وقد كان بعض السلف إذا قرأ هذه الآية يقول: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي عنده وديعة.

«الإسلام هو الدين المرتضى»

وكما شهد الله لنفسه بالوحدانية، كذلك فقد شهد لدينه ـ الإسلام ـ بالرضى والقبول، فهو الدين المقبول عند الله، الذي لم يرتضِ ديناً سواه ﴿إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ أي إنَّ الدين المقبول عند الله، هو دينُ الإسلام لا غيرُ، الذي ختم الله به الأديان، وجعل رسوله محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، أرسله بالحجة الساطعة، والبرهان القاطع، الذي يدل على صدق نبوَّته ورسالته عليه السلام، وهو هذا القرآن المعجز، الذي جادل فيه اليهود والنصارى، وكابروا وعاندوا فلم يُقروا بأنَّه كلام الرحمن، مع أنَّه أظهرُ من الشمس في رابعة النهار، ولهذا قال تعالى في شأنهم: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ـ أي حسداً كائناً بينهم حملهم عليه حب الرئاسة ـ ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيْعُ الْحِسَابْ﴾.

«شنائع وقبائح أهل الكتاب»

ثمَّ تتابعت الآيات تذمُّ أهل الكتاب، وتشنِّع عليهم جرائمهم ومخازيهم، فقد قتلوا الأنبياء، وسفكوا الدماء، وامتدَّت أيديهم بالعدوان على أولياء الله وأحبابه، الذين يدعون إلى الخير والفضيلة، فلم يَسْلم من شرِّهم نبيٌّ ولا تقيٌّ، وبيَّنت مصيرهم المخزي في الآخرة ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يَكْفُرُوْنَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَيَقْتُلُوْنَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُوْنَ الَّذِيْنَ يَأْمُرُوْنَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيْمٍ. أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِن نَاصِرِيْنَ﴾ روى شيخ المفسرين ابن جرير رحمه الله، عن أبي عبيدة بن الجرَّاح رضي الله عنه أنَّه قال: «قلتُ يا رسول الله أيُّ الناس أشدُّ عذاباً يوم القيامة؟ قال: رجلٌ قتل نبياً، أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: «إنَّ الذينَ يكفرونَ بآياتِ اللَّهِ، ويَقْتلونَ النبيِّينَ بغَيْرِ حَقٍّ، وَيَقْتُلُوْنَ الَّذِيْنَ يَأْمُرُوْنَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيْمٍ﴾. ثمَّ قال رسول الله ﷺ: يا أبا عبيدة! قتلتْ بنو إسرائيل ثلاثةً وأربعين نبياً من أوَّل النهار. في ساعة واحدة، فقام مائةٌ وسبعون رجلاً من بني إسرائيل، فأمروا من قتلهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر، فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله عزَّ وجل»[1]. ثم انتقلت الآيات في سورة آل عمران، تذكر طرفاً من لَجَاج وعنادِ أهل الكتاب، فهم مع جرائمهم الشنيعة، يأبون أن يتحاكموا إلى كتاب الله، ثمَّ يزعمون أنَّهم أحبابُ الله، وأنَّ النَّارَ لن تمسَّهم إلاَّ مدَّة يسيرة من الزمن، هي مدَّة سبعة أيام، وفيهم يقول القرآن الكريم، معجِّباً نبيه ﷺ من أمر هؤلاء الضالين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ أُوْتُوْا نَصِيْبَاً مِنَ الْكِتَابِ، يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ

(١) انظر جامع البيان للطبري.

لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيْقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُوْنَ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوْا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوْدَاتٍ، وَغَرَّهُمْ فِي دِيْنِهِمْ مَا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنه: إنَّ اليهود كانوا يقولون: إنَّ هذه الدنيا مدَّتها سبعة آلاف سنة، وإنَّما نُعذَّب بكل ألف سنة يوماً في النار، وإنَّما هي سبعة أيام معدودة، فأنزل الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوْا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِيْنِهِمْ مَا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ﴾(١).

«بشائر النصر لجند الرحمن»

لا تزال سورة آل عمران، تتناول في آياتها البيِّنات أهل الكتاب، الذين عاندوا وجحدوا رسالة الإسلام، وأبوا أن يُذعنوا للحق، وأرادوا إطفاء نور الله، بما ألقوه من المكائد والشبهات، حول نبوَّة محمد ﷺ وحول القرآن، محاولين بذلك وضع العراقيل، في طريق الدعوة الإسلامية.. ولمَّا كانت الآيات السابقة قد ذكرت دلائل التوحيد، والنبوَّة، وصحة دين الإسلام، أعقبها تعالى بذكر البشائر، التي تدل على قرب النصر لجند الرحمن، وبشَّر بالفتوحات التي سيفتحها الله على المؤمنين، لأنَّ الأمر كله بيد الله، يعزُّ من يشاء، ويذلُّ من يشاء، لا معقِّب لحكمه وهو أسرع الحاسبين فقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ روى المفسرون أنَّ النبي ﷺ لمَّا فتح مكة، ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً، وعد المؤمنين بملك فارس والروم، فقال اليهود والنصارى: هيهاتَ هيهاتَ، من أين لمحمدٍ ملك فارسَ والروم،!! هم أعزُّ وأمنع من ذلك، ألم يكفه مكَّة

(١) هذه رواية مجاهد عن ابن عباس وقد ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره.

حتى طمع في مُلك فارس والروم!؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ ثم ذكر تعالى دليلاً وبرهاناً، يدل على كمال قدرته، في تصرفه في الأكوان، ونزعه عمَّن شاء الملك والسلطان فقال: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فقد جاءت هذه الآية الكريمة كالدليل والبرهان، على قدرته سبحانه، في أن يمنح الملك لمن يشاء، ويسلبه عمَّن يشاء، فهو القادر على أن يجعل مُلك كسرى وملك هرقل للعرب المسلمين، ويمنَّ على هؤلاء المستضعفين في الأرض، فيجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين.

«تعبير بالغ الروعة»

والتعبيرُ بقوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ بالغُ الروعة، وبالغُ الإعجاز، فإنَّ إيلاج الشيء في الشيء معناه إدخاله فيه، فالليل يزيد وينقص، وكذلك النهار يطول ويقصر، وكل ذلك مرجعه النظام الدقيق، الذي وضعه الله عزَّ وجلَّ لتسيير هذا الكون، لتنتظم دورة الفَلَك، وتحصل فصول السنة الأربعة: صيفاً، وشتاءً، وربيعاً، وخريفاً.. يقول سيد قطب في تفسيره الظلال: «وسواءً كان معنى إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، هو أخذُ هذا من ذاكَ، وأخذُ ذاكَ من هذا عند دورة الفصول، سواءً كان هذا أو ذاك، فإنَّ القلب يكاد يُبصر يد الله وهي تُحرِّكُ الأفلاك، وتلفُّ هذه الكرة المعتَّمة، أمام تكل الكرة المضيئة - يعني الشمس - وتقلّبُ مواضع الظلمة، ومواضع الضياء، شيئاً فشيئاً يتسرَّب غَبَشُ الليل إلى وضاءة النهار، وشيئاً فشيئاً يتنفَّس الصبح في غياهب الظلام، شيئاً فشيئاً يطول

الليل وهو يأكل من النهار في الشتاء، ويطول النهار وهو يسحب من الليل في الصيف، كذلك الحياةُ والموتُ، يَدبُّ أحدهما في الآخر في بطءٍ وتدرج، خلايا حيَّة من الإنسان تموت وتذهب، وخلايا جديدة فيه تعمل وتنشأ، هكذا دورةٌ دائبة في كل لحظةٍ من لحظات الليل والنهار، تُديرها يد القادر المبدع اللطيف(١).

«التحذير من مصادقة الكافرين»

ثمَّ تتابع السورة الكريمة الحديثَ، عن أمرٍ عظيم خطير، أَلَا وهو موالاةُ أعداء الله الكافرين، وتُحذِّر المؤمنين عن مصادقتهم لقرابةٍ أو مودَّة، إذْ من غير المعقول أن يجمع الإنسان بين محبَّة الله سبحانه، وبين محبَّة أعدائه، لأنه جمعٌ بين النقيضين، فمن أحبَّ الله أحبَّ أولياءه، وأبغض أعداءه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُوْنَ الْكَافِرِيْنَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنِ الْمُؤْمِنِيْنَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوْا مِنْهُمْ تُقَاةً، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيْرُ﴾ روى ابن جرير الطبري، أنَّ هذه الآية الكريمة نزلت في شأن قومٍ من المؤمنين، كان لهم أصحاب وأصدقاء من اليهود يوالونهم، فقال لهم بعضُ الصحابة: اجتنبوا هؤلاء اليهود، واحذروا مصاحبتهم، لئلا يفتنوكم عن دينكم، ويضلوكم بعد إيمانكم، فأبى أولئك النصيحة، وبقوا على صداقتهم ومصاحبتهم فنزلت الآية الكريمة فيهم. وقد نبهت الآية على أنَّه لا يجوز للمسلم أن يوالي غير المؤمنين، فيتَّخذ من الكفَّار الذين يتربَّصون بالمؤمنين السوء أولياءَ، يصادقهم ويتودَّدُ إليهم، أو يستعين بهم ويترك إخوانه المؤمنين، فليس بين الإسلام والكفر نسبٌ

---

(١) من كتاب «في ظلال القرآن» لسيد قطب ٣/ ١٧٠.

وصلة، اللَّهمَّ إلاَّ في حالة الضرورة، كأن يخاف شرَّهم، ويخشى أذاهم، فيظهر لهم المودَّة بلسانه دون قلبه ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوْا مِنْهُمْ تُقاةَ﴾ قال ابن عباس: «التقيَّة مداراةٌ ظاهرة، وقد يكون الإنسان بين أظهر الكفار، فيتقيهم بلسانه، ولا مودَّة لهم في قلبه»(١) كما رُوي أن مسيلمة الكذاب، أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ ـ أي وقعا في أسره ـ فقال لأحدهما: أتشهد أني رسول الله، فقال نعم، فترك سبيله، وقال للآخر: أتشهد أني رسول الله قال: إني أصمٌّ لا أسمع، فأعادها عليه ثلاثاً، وهو يجيبه إني أَصَمُّ، فضرب عنقه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أمَّا أحدهما فقبل رخصة الله فلا تَبِعة عليه، وأما المقتول فمضى على صدقه ويقينه، فهنيئاً له الجنة»(٢).

«قصة ولادة مريم العذراء»

تناولت سورة آل عمران فيما تحدَّثت عنه من أحداثٍ جسام، وأمور عجيبة غريبة، قصصاً ثلاثة ممتعة: قصة ولادة «مريم البتول» وقصة ولادة «يحيى بن زكريا» وقصة المسيح «عيسى بن مريم» عليهم من الله جميعاً أزكى الصلاة والتسليم، وكلُّ هذه القصص خوارق للعادات، فيها آيات باهرات، وعظات بالغات، تدل على قدرة الله العلي الكبير. وقد بدأت الآيات الكريمة، بالحديث عن قصَّة ولادة مريم بنت عمران، التي سمِّيت السورة باسمه، وباسم أسرته الكريمة الفاضلة «آل عمران» تخليداً لشأنها، وتمجيداً لوشائج القربى، التي جمعت بين أفراد هذه

(١) وروي عن ابن عباس: «ليس التَّقيَّةُ بالعمل، إنما التَّقيَّةُ باللسان»، وفي البخاريِّ من حديث أبي الدرداء: «إنا لنكشِرُ في وجوه أقوامٍ وقلوبنا تلعنُهم» نكشر: أي نَبش.

(٢) ذكر هذه القصة الإمام الجصاص في تفسيره أحكام القرآن ٢ / ١٠.

الأسرة المباركة، التي تحلّت بالإيمان، والتقت على طاعة الرحمن، فأكرمْ بها من أسرة شريفة، يقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوْحاً وَآلَ إِبْرَاهِيْمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِيْنَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَاللَّهُ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ. إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرَاً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ. فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيْذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ. فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُوْلٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً، وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

«أسرة مؤمنة فاضلة»

تلك هي قصَّة هذه الأسرة المؤمنة الفاضلة، قصَّة ولادة العفيفة الطاهرة «مريم بنت عمران» عليها السلام.. التي جعل منها النصارى رمزاً أسطورياً، غريب الصورة والشكل، جعلوها زوجةً وصاحبةً لله، وجعلوا ولدها إبناً لله، تعالى الله عمَّا يقول الظالمون علواً كبيراً قالوا: لا يكون ولدٌ إلاَّ وله أب، و«عيسى» ليس له أب، فلا بدَّ أن يكون أبوه هو الله، وبالتالي جعلوا «مريم» البتول صاحبةً لله، وهذا لعمرُ الحقِّ نهاية الكفر والضلال، وصدق الله حيث يقول: ﴿بَدِيْعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُوْنُ لَهُ وَلَدٌ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ﴾ لقد قصَّ علينا القرآن قصَّة مريم العذراء، التي جعلها الله مظهراً من مظاهر قدرته، وألبسها لباس التقى والعفاف، فقد كان أبوها «عمران» عالماً تقيَّاً صالحاً، من علماء بني إسرائيل، وكانت أمها واسمها «حنَّة بنت فاقوذ» امرأةً طيبةً طاهرة، وكانت عجوزاً عاقراً لا

تحمل، فبينما هي ذات يوم تحت ظل شجرة، إذْ أبصرت طائراً يزقُّ فرخه، فاشتهت الولد وتمنّته، وقالت: اللَّهمَّ إنَّ لك عليَّ نذراً، إن رزقتني ولداً، أن أهبه وأتصدَّقَ به على بيت المقدس، ليكون من سدنته وخُدَّامه، فاستجاب الله دعاءها، فلما عاشرها زوجها حملت منه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرَاً﴾ أي خالصاً مفرَّغاً للعبادة، ولخدمة بيت المقدس، ولم تكن تعلم ما في بطنها، أذكرٌ هو أم أنثى؟ وكانت تأمل أن يكون غلاماً: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي فلمَّا ولدتها قالت على وجه التحسر والاعتذار: يا رب إنَّها أنثى، وأنا نذرتُ المولود لخدمة بيتك، والأنثى لا تصلح لذلك، قال تعالى مرشداً لها إلى علمه بذلك ﴿واللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي والله عالم بما ولدته، قالت ذلك أم لم تقله، لأنَّه هو الذي يصوِّر الأجنَّة في الأرحام ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ أي وليس الذكر الذي طلبتْهُ، كالأنثى التي وُهِبْتها، بل هذه أصلحُ وأفضل[1]، لما سيترتب عليها من جلائل الأمور، والجملة جاءت اعتراضية لتنبيهها على عدم التحسر، فقد وهبها الله أنثى، هي أعظم وأفضل من الذكر.. ولمَّا ولدتها سمَّتها «مريم» وطلبت من الله تعالى أن يحفظها ويجيرها من شر الشيطان الرجيم، هي وأولادها، فاستجاب الله دعاءَها فكانت في حفظ الله ورعايته ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَتَهَا مِنَ الْشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ﴾ روى الإمام البخاري عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما من مولودٍ يولد، إلَّا مسَّه الشيطان حين يُولد، فيستهلُّ صارخاً من مسِّه إياه، إلَّا مريم وابنها». قال

---

(١) وقيل: معنى الآية: ليسَ الذَّكَرُ كالأنثى في القوة، والجَلَد، والنشاط في العبادة، وخدمة المسجد.

أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ (١).

«حفظ الله لمريم التقية»

ولقد كان من حفظ الله تعالى ورعايته لمريم، أن هيَّأ لها من يكفلها ويرعاها، بعد موت أبيها، فسلك بها طريق السعداء، وهيَّأ لها بعض الأنبياء، وهو «زكريا» عليه السلام، ليكون كافلاً لها، ومتعهداً للقيام بمصالحها، وكلُّ ذلك من رعاية الله وحفظه لمريم، لتنشأ النشأة الكريمة الطاهرة، في بيت النبوة، وحِجْر الفضيلة: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبولٍ حَسَنٍ، وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً، وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي جعله كافلاً لها، يرعى شؤونها ويتعهد مصالحها، حتى إذا ما بلغت مبلغ النساء، كانت تنزوي في محرابها تتعبَّد ربها.. وهنا تظهر بعض الكرامات وخوارق العادات، فقد كان «زكريا» عليه السلام، إذا دخل عليها مكان مصلَّاها، وجد عندها العَجَب العُجَاب، كان يرى عندها فواكه الصيف في أيام الشتاء، وفواكه الشتاء في أيام الصيف، فينبهر لهذا لأنَّه لا يوجد في البلدة كلها، ما كان يراه عند مريم، فمن أين جاءها هذا؟ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا؟ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حقاً إنَّها عجائب وغرائب ولكن اللّه على كل شيء قدير..

«قصَّة ولادة يحيى عليه السلام»

الحديث عن سورة آل عمران، وما تناولته من قصص ممتع، فيه العظة والعبرةُ، وفيه الإعجاز الباهر، الدال على صدق نبوَّة محمد ﷺ

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ورواه كذلك مسلم.

وصحة هذا القرآن، ولقد تناولت هذه السورة الكريمة ـ كما أسلفنا ـ ثلاث قصص من روائع قصص القرآن: قصة «مريم» وقصة «يحيى» وقصة «عيسى» عليهم الصلاة والسلام، وقد تناولنا قصة مريم بنت عمران، التي سميت هذه السورة الكريمة باسمه، تخليداً لذكراه العطرة، ونأتي الآن على ذكر قصة «يحيى بن زكريا» عليه السلام.

لقد كان نبيُّ الله «زكريا» عليه السلام، شيخاً كبيراً قد بلغ من الكبر عِتِيًّا، وكانت زوْجَتُه عاقراً عقيماً لا تلد، وقد حدث أن أصبحت «مريم» في كفالته، بتيسيرٍ من المولى وتقديرٍ، وكان يرى عندها العجائب والغرائب، يرى عندها فاكهة الصيف في أيام الشتاء، وفاكهة الشتاء في أيام الصيف، في زمنٍ لم يكن فيه كهرباء ولا ثلاَّجات، لتحفظ الفاكهة والطعام من الفساد، فكان يعجب لذلك ويُدهش، ويسألها من أين لك هذا؟ فتجيبه إنَّه رزق الإِلّه العليُّ الكبير: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ في ذلك الزمن والحين، رأى زكريا أن يطلب من ربِّه الولد الصالح، الذي تَقَرُّ به عينُه، وهو وإن كان ـ بمقتضى السُنن الكونية ـ أمراً مستبعداً مستحيلاً، إذ كيف يأتيه غلام، وسنُّه جاوزت المائة عام، ثمَّ زوجته عقيمٌ لا تلد؟ وكون زوجته عقيماً يكفي وحده لعدم استجابة الطلب، فكيف وقد اجتمع مع العُقْم، كونُه شيخاً هرماً، قد وهنَ منه العظم، ولكنَّه مع هذا كله سأل ربَّه الولد، وناداه نداءً خفيًّاً، فيه الذلَّة والتضرُّع والانكسار، ومن لجأ إلى الله حَمَاه، ومن تضرَّع إليه لبَّاه، فكيف لا يجيب دعاء نبيِّه ومصطفاه!! ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رِبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءَ. فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ

اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِيْنَ. قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُوْنُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾. ولمَّا تحقق زكريا من استجابة دعائه، طلب من ربِّه علامة ظاهرة، تشير إلى قرب ولادة زوجته، ليزداد عبادة لله وشكراً، فأعطاه الله العلامة، وهي أنه لا يستطيع الكلام إلاَّ بالإشارة، مع أنه سويٌّ صحيح، غير مصابٍ بعاهةٍ في اللسان، تمنعه النطق والكلام، وإنَّما يأتيه مانع سماوي، لا يستطيع عنده الكلام مع الناس، مع قدرته على الذكر، والتسبيح، وتلاوة كتاب الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ - أي علامتك - أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً - أي إلاَّ بالإشارة - وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيْراً، وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾.

«إجمال وتفصيل»

هذا ما أشارت إليه الآية الكريمة إجمالاً في سورة آل عمران، وأمَّا في سورة مريم، فقد جاءت قصته مفصَّلةً هناك بعض التفصيل، لينبهنا تعالى إلى سرِّ عظمة القرآن، في الإيجاز والإطناب، يقول تعالى في سورة مريم: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا. إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً. قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً. وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوْبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً. يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً. قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُوْنُ لِي غُلاَمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً. قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً. قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً، قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾.. الآيات

ونلاحظ في سورة آل عمران، أنَّ الله تعالى لمَّا بشَّر زكـريا بيحيى، وصفه بأربعة أوصاف:

أولاً: قوله «مصدِّقاً بكلمةٍ من الله» أي مصدِّقاً ومؤمناً برسالة عيسى بن مريم، وسُمِّي عيسى «كلمة الله» لأنَّه خُلق بُقدرةٍ عجيبةٍ فائقة، بقوله تعالى «كن» فيكون،فقد ولد من غير أب،ولم يخلق من أبوين كبقية البشر، وذلك نهاية الروعة وآيةُ الإعجاز.

والثاني: أنَّ يحيى سيكون عالماً تقيًّاً، يسود قومه ويفوقهم في العبادة والمكانة والصلاح كما قال تعالى عنه: «وسيداً».

والثالث: أنَّه عليه السلام «حصور» أي يحبس نفسه عن الشهوات، عفَّةً وزهداً، ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك، وأمَّا ما قاله بعض المفسرين من أنَّه كان عنيناً فباطلٌ لا يجوز على الأنبياء.

قال الحافظ بن كثير: إعلم أنَّ ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان حصوراً، ليس كما قاله بعضهم إنه كان عنيناً، أو لا ذَكَر له، بل قد أنكر حُذَّاق المفسرين هذا، وقالوا: هذه نقيصةٌ وعيبٌ لا تليق بالأنبياء عليهم السلام، وإنَّما معناه أنه معصوم من الذنوب، أو يمنع نفسه من الشهوات»[1].

وأمَّا الوصف الرابع: فهو أنَّ الله بشَّره بنبوَّته منذ الصغر ﴿ونبياً من الصالحين﴾.

«قصة ولادة السيد المسيح عليه السلام»

ذكرت السورة الكريمة قصَّة ولادة مريم، ثم قصة يحيى،

(١) نقله الحافظ ابن كثير عن القاضي عياض في كتابه الشفاء، وانظر ابن كثير ١/٢٨١.

وتتحدَّث الآن عن قصَّة ولادة السيد المسيح «عيسى بن مريم» عليه الصلاة والسلام كما سَطَّرهـا القرآن الكريم، يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيْهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِيْنَ. قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُوْنُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ، قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ﴾

هذه البشارة من الله تعالى لمريم عليها السلام، بواسطة الملائكة المطهرين، وإنَّما بشرتها الملائكة بهذا الغلام، لأنَّ له شأناً كبيراً، حيث تجلَّت في ولادته مظاهر آثار قدرة الله، وإذا كانت ولادة يحيى من شيخ كبير، وعجوز عقيم، أمراً خالقاً للعادة بمقتضى السُنن الكونية، فإنَّ أمر «عيسى» عليه السلام أعجب وأغرب، حيث وُجد من غير أبٍ، وكيف يُخلق ولدٌ من غير أب؟ إنها قدرة الله التي تقول للشيء كن فيكون، وهذا هو السرُّ في التعبير الدقيق، في المغايرة بين قصتي «يحيى» و«عيسى» ففي قصَّة يحيى جاء التعبيرُ بقوله تعالى: ﴿قالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ وفي قصة عيسى جاء التعبير بقوله: ﴿قالَ كذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ والسرُّ في ذلك أن خلق ولدٍ، من شيخٍ كبيرٍ وامرأةٍ عقيمٍ، مستبعدٌ في العادة، لأنَّ العقم والشيخوخة سببٌ مانعٌ من الولد، لكنَّه غير مستحيل لوجود الأبوين: «الزوج والزوجة» فناسبه ذكرُ الفعل، وأمَّا في قصة عيسى، فإنَّ خلقه من غير أبٍ إيجادٌ واختراع، وهو في العادة مستحيلٌ، فناسبه ذكر الخلق لأنَّ الله لا يعجزه شيء، فتدبر أيها الأخ الكريم أسرار القرآن.

«الخوارق والعجائب التي ظهرت على يد المسيح عليه السلام»

وكان كلامه في حال صغره وصباه رشيداً سديداً، ككلامه في حال الكبر: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِيْنَ﴾ وقد أيَّد الله عبده ورسوله عيسى بآياتٍ باهرات، فكان يُبـرىء الأعمى، ويشفي السقيم، ويُصوِّر من الطين صوراً وأشكالاً، ثم ينفخ فيها فتصبح طيوراً تحلِّق في الجو، ويُحيي الموتى بعد أن فارقت الحياة، وقد أحيا ـ كما ذكر المفسرون ـ أربعة أنفس: عازر، وابن العجوز، وبنت العاشر، وسام بن نوح. . وكلُّ ذلك معجزةً من الله تعالى أيَّده بها ليظهر صدق دعواه للرسالة، ولكنَّ النصارى جعلوا هذه الآيات الباهرات التي ظهرت على يديه من صفاته الذاتية، فوصفوه بصفات الألوهية وزعموا أنَّه هو «الله» لأنَّه كان يُحيي الموتى، ويُبْرِىءُ الأكمه والأبرص، ولو كانت لهم عقول سليمة، وأفهام مستقيمة، لما قالوا مثل هذا الكذب والبهتان، إذ كيف يكون إلّهاً وقد خرج من فرج امرأة كما خرج بقيَّة الولدان؟ وكيف يكون إلّهاً وقد كان يأكل ويشرب وينام، والإلّه لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾؟ ثم كلُّ من يأكل ويشرب لا بدَّ له أن يذهب إلى بيت الخلاء؟ فكيف يكون إلّهاً وهو محتاج إلى التبول والتغوط؟ أفليس لهم عقول يفكرون بها؟! والعجيب في أمر النصارى أنَّهم يعتقدون بألوهيته كما يعتقدون بصلبه؟ فكيف يُصلبُ الإلّه ولا يستطيع أن يتخلَّص من أعدائه؟ ولقد أحسن من قال:

أَعُبَّـادَ المَسِيحِ لنـا سؤالٌ   نَـرُوْمُ جَـوابَـه ممَّنْ وَعَـاهُ
إذَا صُلِبَ الإِلّهُ بفعلِ عَبْدٍ   يَهـوديّ فَمَـا هَـذَا الإِلّـه؟

«المعجزات بمشيئة الله وقدرته»

ولقد نبَّهت هذه السورة الكريمة إلى أنَّ هذه المعجزات التي جاء

بها المسيح عليه السلام، ليست بقدرته ولا من ذاته، وإنَّما هي بمشيئة الله وقدرته، وقد تكرر ذكر لفظ ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ مرتين في هذه السورة، كما تكرَّر لفظ ﴿بإذني﴾ أربع مرات في سورة المائدة، كل ذلك ليؤكد على أنَّ ما جاء به إنَّما هو معجزةٌ من عند الله ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيْلَ. وَرَسُوْلاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيْلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ولننظر بإمعان إلى هذا اللفظ ﴿بآيةٍ من ربِّكُمْ﴾ أيْ بمعجزة من عند الله لا من عندي، ثم قال: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُوْنُ طَيْرَاً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْرِئُ ٱلأَكْمَهَ وَٱلأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُوْنَ فِي بُيُوْتِكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾ وكفى بهذا القول والبيان أنَّه عبدٌ للرحمن، لا كما زعم النصارى أنَّه إلَهٌ أو ابن إلَه.

«تآمر اليهود على قتل السيد المسيح»

تناولت «سورة آل عمران» وهي السورة المباركة الكريمة، الطائفة الثانية من أهل الكتاب وهم النصارى، كما أنَّ سورة البقرة تناولت الطائفة الأولى وهم اليهود، واليهود النصارى هم الذين سمَّاهم القرآن الكريم «أهل الكتاب» لأنَّ الله تعالى أنزل عليهم التوراة والإنجيل، ولكنَّهم لم يشكروا الله على فضله وإنعامه، بل جحدوا وكذبوا وأنكروا بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين، فاستحقوا السخط والغضب، حتى اشتهر اليهود بأنهم المغضوب عليهم، والنصارى بأنَّهم الضالون ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ وقد تحدَّثت الآيات الكريمة التي تقدم الحديث عنها في سورة آل عمران بشارة الملائكة الأطهار لمريم البتول بولادة السيد المسيح عليه السلام، ثم أعقبتها بذكر معجزاته الباهرة، وكلها براهين ساطعة تدل على نبوته عليه السلام، ومع كل البراهين

والمعجزات التي أيّده الله بها فإنَّ الكثيرين من بني إسرائيل ـ وهم الذين أرسل اللهُ إليهم عيسى عليه السلام ـ لم يؤمنوا، وقد عزم أعداء الله اليهود على قتله، فنجّاه الله من شرِّهم ورفعه حيّاً بجسده وروحه إلى السماء، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيْسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِيْ إِلَى اللَّهِ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ. رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِيْنَ. وَمَكَرُوْا وَمَكَرَ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِيْنَ﴾ وقد أشارت الآيات الكريمة إشارة واضحة إلى تآمر اليهود على عيسى وإرادتهم قتله، ولكنَّ الله جلَّ وعلا نجّاه من شرِّهم ورفعه إلى السماء دون أن يُمسَّ بأذى، وألقى شَبَهه على ذلك الرجل الخائن، الذي دلَّ اليهود على مكان عيسى، وسمّى ذلك الإنجاء مكراً على سبيل الاستهزاء بما دبَّره اليهود ﴿وَمَكَرُوْا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِيْنَ﴾ فمكرُ اليهود إرادتُهم وعزمهم وتصميمهم على قتل عيسى، ومكرُ الله تعالى هو إبطاله ما دبَّروا من تآمر، وإحباطُ عملهم الإجرامي، وردُّ كيدهم في نحورهم[1] ﴿وَلَا يَحِيْقُ الْمُكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

«نجاة عيسى ورفعه حيّاً إلى السماء»

ثمَّ تتابعت الآيات الكريمة تتحدَّث عن رفع عيسى إلى السماء، وتخليصه من أولئك الأشقياء فقال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيْسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَجَاعِلُ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوْكَ فَوْقَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيْمَا كُنْتُمْ فِيْهِ تَخْتَلِفُوْنَ. فَأَمَّا الَّذِيْنَ كَفَرُوْا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيْدَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

---

(١) المُكرُ من الله حسنٌ وليس بقبيح، وتسميتُه مكراً على سبيل المقابلة في اللفظ كقوله تعالى: ﴿وجزاءُ سَيِّئَةٍ سيِّئةٌ مثلُها﴾.

وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِيْنَ. وَأَمَّا الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ فَيُـوَفِّيْهِمْ أُجُوْرَهُمْ، وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِيْنَ﴾.

«وقفة أمامَ النصّ القرآني»

وهنا لا بدَّ لنا من وقفةٍ قصيرة، أمام ذلك النص القرآني المحكم ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيْسَى إِنِّي مُتَوَفِّيْكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ فقد زعم البعض أنَّ عيسى توفي ثم رفعه الله إلى السماء، وهذه هي دعوى النصارى، أنَّ المسيح بعد أن صلب ووضع في القبر، بقي ثلاثة أيام فيه ثمَّ انشقَّ القبر وصعد الرب إلى السماء وجلس على عرشه، وهي دعوى باطلة مبنيَّة على اعتقادهم بألـوهية المسيـح، والعجب أنَّهم يعتقدون بـألوهيتـه ويصدِّقون بصلبه، فكيف يكون إلّهاً ويصلب؟ ومن كان يحكم العالم ويدبِّر شؤونه في تلك الفترة التي صُلب فيها الرب؟ تعالى الله عمَّا يقول الظالمون علواً كبيراً، ونحن المسلمين نعتقد بأنَّ الله تعالى نجَّى عيسى من مكر اليهود، ورفعه حيَّاً بجسده وروحه إلى السماء، فهو حيٌّ غير مصلوب ولا ميِّت، ولم ينله أذى أو مكروه من اليهود، فكيف نوفق بين هذا المعتقد الإسلامي، وبين الآية الكريمة التي يوهم ظاهرها وفاة عيسى عليه السلام؟

والجواب: عن ذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيْكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ لا يدل على وفاة عيسى لأنَّ النصَّ لم يأت بلفظ الماضي مثل أن يقول: إنِّي توفيتك، وإنَّما جاء بصيغة الوعد بقبض روحه بعد استكماله بقية أجله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيْكَ﴾ ومعنى الآية كما يقول المفسرون: إنِّي رافعك إلى السماء ثم متوفيك عند انتهاء أجلك، والمقصود من الآية بشارتُه عليه السلام بنجاته من اليهود، ورفعَهُ إلى السماء سالماً دون أذى يلحقه من أولئك الأشرار.

«ردٌّ على النصارى»

كما أنَّ الآية فيها ردُّ صريحٌ على النصارى حيث اعتقدوا بألوهيته، ولو كان إلّهاً ـ كما زعموا ـ لما عَرَضَ له الموتُ، فموتُه بعد انتهاء مهمته من الأرض، دليل واضح على بشريته، وقال قتادة وهو من كبار المفسرين من التابعين: إنَّ الآية فيها تقديم وتأخيره تقديره: إني رافعك إليَّ ثم متوفيك بعد ذلك، وقال شيخ المفسرين الإمام الطبري رحمه الله: المعنى إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إليَّ، ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا، فالنص القرآني إذاً نبَّه إلى رفعه إلى السماء حيًّا ثم إلى وفاته بعد ذلك، لأنَّه عطف بالواو ﴿إني متوفيك ورافعك إليَّ﴾ والواو كما يقول علماء اللغة لمطلق الجمع ولا تفيد الترتيب، ومما يدل على حياة السيد المسيح وأنَّه سينزل في آخر الزمان إلى الأرض، ويحكم بشريعة خاتم المرسلين نبيِّنا محمد ﷺ ما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَماً عدلاً ـ أي حاكماً عادلاً ـ فيكسُرُ الصليب، ويضع الجزية ـ أي لا يقبلها ـ ويفيض المال حتى لا يقبله أحدٌ»[1].

وقد تواترت النصوص في الكتاب والسنة على حياة السيد المسيح منها قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوْهُ وَمَا صَلَبُوْهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وقولُه تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُوْنُ عَلَيْهِمْ شَهِيْدَاً﴾.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، والأحاديث في حياة السيد المسيح متواترة، وسينزل في آخر الزمان ويحكم بشريعة محمد عليه السلام، لأن شريعة عيسى عليه السلام نسخت بالإسلام.

«عيسى مظهر القدرة الربَّانية»

لا تزال السورة الكريمة ـ سورة آل عمران ـ تتحدَّث عن حياة السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ودعوته ورسالته، وما رافق ذلك من أحداثٍ وأطوار، تدل على قدرة الله الواحد القهَّار، فقد خلقه الله جلَّت عظمته من أم بلا أب، وجعله مظهر القدرة الربَّانية، وأيَّده بالمعجزات الباهرة، لتكون كبرهان قاطع على صدق دعوته، وصحة رسالته، ومع كل هذه البراهين والمعجزات الساطعة، فقد تضاربت فيه الآراء، واختلفت فيه الأهواء، واختلف فيه الناس اختلافاً كبيراً وَغَلَـوْا فيه غُلُوَّاً فاحشاً، فمنهم من رفعه فوق منزلته التي بوأه الله إيَّاها، فخلع عليه صفات الألوهيَّة، وزعم أنَّه هو الله، أو أنَّه ابن الله ـ وهم النصارى ـ ومنهم من أنزله إلى أسفل سافلين، فجعله «ابن زنى» واتَّهم أمَّه بالفاحشة وهم اليهود.. وقد كذَّب الله الفريقين، وردَّ عليهم بحججه الساطعة، وبيانه المعجز فقال عزَّ شأنه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيْسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ. اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِيْنَ. فَمَنْ حَاجَّكَ فِيْهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسِنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِيْنَ﴾.

«سبب النزول»

وسبب نزول هذه الآيات كما ذكره المفسرون أنَّه لمَّا قدم وفد نصارى نجران إلى المدينة المنوَّرة، ودخلوا على رسول الله ﷺ جادلوه في أمر عيسى، وقالوا للرسول عليه السلام: مالك تشتم صاحبنا؟ قال ومن صاحبكم؟ قالوا عيسى، قال وما أقول؟ قالوا تقول إنه عبد؟! قال:

أجلْ إنه عبدُ اللّهِ ورسولُه، وكلمتُهُ ألقاها إلى العذراء مريم البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيتَ إنساناً قطُّ من غير أب؟ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيْسَى عِنْدَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ﴾ ومعنى الآية: إنَّ شأن عيسى العجيب في خلقه من أم بلا أب كشأن آدم في الغرابة، بل إنَّ شأن آدم أعجب وأغرب، فقد خلقه الله تعالى من غير أم ولا أب، فإذا كنتم تستبعدون أن يظهر مخلوق بدون أب، وجعلتم عيسى إبناً للّه، فماذا تقولون في أمر آدم، وقد خلق من غير أب ولا أم؟ فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئَاً أَنْ يَقُوْلَ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنَ﴾ وهذه الآية لعمر الحقّ حجَّة دامغة، تقصم ظهر الباطل.. ثم العجب في أمر النصارى أنَّهم يعتقدون بأنَّ عيسى ابنُ الله، وهذا يقتضي أن يكون لله صاحبة «زوجة» لأنَّ الولد لا يكون إلاَّ من لقاء الزوجين، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وهو القائل: ﴿بَدِيْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُوْنُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ﴾.

«الإبن يرث صفات أبيه»

ثم كيف يكون عيسى ابناً للّه، والإبن لا بدَّ أن يأخذ صفات أبيه؟ فكيف كان عيسى مخلوقاً مكوَّناً في رحم امرأة، ثم كان يأكل، ويشرب، وينام، ويتألَّم، وتجري عليه العوارض والأحداث، والإلّه لا يأكل ولا يشرب ولا يُحدث ولا ينام؟! فلو كان عيسى إبناً لله ـ كما زعموا ـ لأخذ صفات أبيه وصدق الله حيث يقول: ﴿وَقَالُوْا اتَّخَذَ الْرَّحْمَنُ وَلَدَاً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئَاً إِدَّاً ـ أي منكراً عظيماً فظيعاً ـ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدَّاً. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدَاً وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدَاً﴾.

«دعوة النصارى إلى المباهلة»

ثم بعد أن أقام القرآن الكريم الحجة على النصارى في شأن عيسى بن مريم، أمر رسوله أن يدعوهم إلى المباهلة، وهي الدعاء باللعنة على الكاذب من أحد الفريقين فقال سبحانه: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيْهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ، وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ، وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ - أي نتضرع إلى الله بإهلاك الفاجر المكذِّب - فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الكَاذِبِيْنَ﴾ ومعنى الآية: من جادلك يا محمد في أمر عيسى بعدما وضح الحقُّ واستبان، ووضحت له المعالم في أنَّ المسيح عبدُ الله ورسولُهُ، وليس إلّهاً ولا ابن إلّه، فقل لهم: هلُّموا يا معشر النصارى فَلْنجتمعْ، وليدع كل منَّا أبناءه ونساءه ونفسه، وأتباعه وأنصاره للمباهلة، ثم نتضرع إلى الله فنقول: اللهمَّ العنْ الكاذب منَّا في شأن عيسى.

روي أنَّه عليه السلام لمَّا دعا النصارى إلى الإسلام، قالوا كنَّا مسلمين قبلك!! فقال: كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث: قولكم اتَّخذ الله ولداً، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب، فقالوا: فمن أبوه إذاً؟ فردَّ الله عليهم وأنزل قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيْسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ..﴾ الآية ثم دعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة، فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم ناراً، فقالوا يا محمد: أما تعرض علينا سوى هذا؟ فقال: الإسلام أو الجزية أو القتل، فقبلوا الجزية وأقروا بها(١) ورجعوا إلى أوطانهم قال ابن عباس رضي الله عنه: «لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً»(٢) وفي ترك

(١) انظر تفسير القرطبي ٤/١٠٣ وأسباب النزول للواحدي صفحة /٥٨/.
(٢) رواه أحمد والنسائي والترمذي وقال: حسن صحيح.

النصارى للمباهلة والملاعنة، دليل ظاهر وشاهد عظيم على صحَّة نبوَّته عليه السلام، إذ لو كانوا واثقين من معتقدهم، لما استنكفوا عن الملاعنة، ولسارعوا إلى ما طُلب منهم، و لكنَّ الله أخزاهم وأذلَّهم، ولهذا قال تعالى بعد تلك الآية: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيْمٌ بِالْمُفْسِدِيْنَ﴾.

«دعوة أهل الكتاب إلى الاقتداء بأبي الأنبياء»

بعد أن أقام القرآن الكريم الحجَّة على النصارى، وأبطل دعواهم في شأن «ألوهية المسيح» في الآيات المتقدِّمة، جاءت الآيات هنا تدعو الفريقين «اليهود والنصارى» إلى التوحيد، والاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن، إذْ كانت ملَّتُه هي الحنيفيةُ السمحة وهي ملَّة الإسلام، وما جاء محمد ﷺ إلَّا ليتمِّم رسالات السماء التي جاء بها الأنبياء، وليكمِّل بناء صرح الإيمان والتوحيد، الذي شاده الرسل الكرام من قبله، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُوْنِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُوْلُوْا اشْهَدُوْا بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ﴾ وفي هذه الآية الكريمة دعوة صريحة رشيدة إلى الفريقين «اليهود والنصارى» لإخلاص العبادة لله وحده، وتنقية العقيدة من شوائب الشرك والضلال، فلا ينبغي لأحدٍ من البشر، أن ينقاد بالعبادة والطاعة لأحدٍ من الخلق أيّاً كان، كما فعل اليهود والنصارى، حيث عبد اليهود عزيراً، والنصارى المسيح بن مريم، وأطاعوا أيضاً الأحبار والرهبان ـ وهم رؤساء الدين ـ أطاعوهم فيما أحلوا وحرَّموا، روي أنَّه لما نزلت الآية: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُوْنِ اللَّهِ﴾ كان عند النبي ﷺ «عدي بن

حاتم» وكان نصرانياً ثم أسلم، فقال له: يا رسول الله ما كنا نعبدهم، فقال له ﷺ: أما كانُوا يُحرِّمون لكم ويُحِلُّون، فتطيعونهم وتأخذون بقولهم!؟ فقال بلى، فقال: فذلك عبادتهم[1].

وهذه الآية الكريمة هي التي أرسل بها رسول الله ﷺ في كتابه الذي أرسله إلى «هرقل» ملك الروم، يدعوه فيه إلى الإسلام، وكان في ضمن كتابه إليه هذه الآية الكريمة، فقد أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه للإسلام وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي، وجاء في نصِّ الكتاب ما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمدٍ عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلامٌ على من اتَّبع الهدى أمَّا بعد: أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنَّ عليك إثم الأريسيين - يعني الفلاَّحين والأتباع - ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُوْنِ اللَّه، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُوْلُوْا أَشْهَدُوْا بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ﴾.

«براءَة إبراهيم من اليهودية والنصرانية»

ولقد زعم اليهود أنَّ إبراهيم كان على ملتهم ودينهم، فقالوا: إنَّ إبراهيم كان يهودياً، وزعم النصارى أنه كان على ملَّتهم ودينهم، فقالوا: إنَّه كان نصرانياً، فكذَّب الله الفريقين وجاءت الآيات الكريمة تسفه عقولهم وأحلامهم، وتردُّ ضلالهم وسفاهتهم، إذ كيف يكون إبراهيم الخليل يهودياً أو نصرانياً، مع أنَّ هذه الأديان ما ظهرت ولا عُرفت إلاَّ من بعده بقرون طويلة، ولهذا قال تعالى منكراً عليهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ

(١) أخرجه الترمذي في سننه.

لِمَ تُحَاجُّوْنَ فِي إِبْرَاهِيْمَ وَمَا أُنْـزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيـلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَـلَا تَعْقِلُوْنَ؟ هَـا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَـاجَجْتُم فِيْمَـا لَكُمْ بِـهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ﴾؟ ثم بعد هذا الإنكار والتقريع، أكذبهم تعالى في تلك الدعوى الباطلة فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيْمُ يَهُوْدِيًّاً وَلَا نَصْرَانِيًّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيْفَاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾ تعريضٌ بأنَّهم مشركون، وليسوا على ملَّة إبراهيم الحنيفية السمحة، التي جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين، قال ابن عباس: اجتمع أحبار اليهود - أي رؤساء الدين - ونصارى نجران عند رسول الله ﷺ فتنازعوا واختصموا في شأن إبراهيم، فقالت اليهود: ما كان إلَّا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلَّا نصرانياً فأنزل الله الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيْمُ يَهُوْدِيًّاً وَلَا نَصْرَانِيًّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيْفاً مُسْلِماً﴾[1] ثم أخبر تعالى عمَّن هو أحقُّ بالانتساب إلى إبـراهيم، وهو من كـان على ملَّته وشـريعته، وهـو محمد ﷺ وأمَّته، فهم الذين يحقُّ لهم أن يحملوا شرف الانتساب إلى أبي الأنبياء إبراهيم الخليل فقال عزَّ شأنه: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيْمَ لَلَّذِيْنَ اتَّبَعُوْهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾.

«مكيدة خبيثة لليهود للتشكيك في الإسلام»

وتتابعت الآيات الكريمة تحذِّر المؤمنين من مكر أهل الكتاب وخبثهم وبوجه خاص اليهود فإنَّهم دبَّروا مكيدة خبيثة لا تكاد تخطر على بال أرادوا أن يصرفوا بها الضعفاء من الناس عن الدخول في الإسلام، وهي أن يؤمن بعضهم بدين محمد ويدخلوا في أول النهار بالإسلام، ثم

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٢٩٠.

في آخر النهار يرتدوا، ليشككـوا الناس في الـدين، وليلبسوا على الضعفـاء في شأن رسـالة محمـد ﷺ، حتى يقول الجهلة وضعفـاء الإيمان: إنَّما ردُّهم عن الإسلام اطلاعهم على عيبٍ ونقيصة فيه، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوْا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَجْهَ النَّهَارِ ـ أي أوَّل النهار ـ وَاكْفُرُوْا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ﴾ أي لعلَّهم يشكُّون في الدين فيرجعوا عنـه، كما أوصى بعضهم بعضاً ألَّا يطمئنوا لأحدٍ، ولا يثقوا به إلَّا إذا كان على دينهم ﴿وَلَا تُؤْمِنُوْا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِيْنَكُمْ، قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوْتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ، قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ. يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُوْ الْفَضْلِ الْعَظِيْمِ﴾ هذه بعض مكائد اليهود ضدَّ هذا الإسلام العظيم.

«خيانة اليهود من الناحية المالية»

وبعد أن حكى تعالى في الآيات السابقة قبائح أهل الكتاب، وما هم عليه من الخبث والكيد والمكر، حيث تمنُّوا إضلال المؤمنين بشتَّى السبل. كما أخبرنا تعالى في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّوْنَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ﴾ أعقبه بذكر بعض «أوصاف اليهود» بوجه خاص، وهي خيانتهم من النـاحيتين: الدينية، والمالية، فقد خانوا الله عزَّ وجل بتحريفهـم كلامه، وخانوا الناس باستحلالهم أكل أموالهم بالباطل، وزعموا أنَّ الله قد أباح لهم مال من خالف دينهم، ولا سيَّما العرب الأميِّين، حيث استباحوا أموالهم جهاراً، دون حياء أو خجل، وفي ذلك يحدِّثنا القرآن الكريم في آياته البيِّنات فيقول: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ـ أي إلَّا ما

دمت ملازماً له ومُشهداً عليه ـ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوْا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيْلٌ﴾ ـ أي ليس علينا إثمٌ ولا حرجٌ في أكل أموال العرب ـ قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿وَيَقُوْلُوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ﴾ قال الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية: يخبر تعالى عن اليهود بأنَّهم من الخونة، ويحذِّر المؤمنين من الاغترار بهم، وإنَّما حملهم على جحود الحق أنَّهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأمِّيين ـ يعني العرب ـ فإنَّ الله قد أحلَّها لنا، وقد اختلقوا هذه المقالة وائتفكوها بهذه الضلالة، فإنَّ الله حرَّم عليهم أكل الأموال إلَّا بحقها، وإنَّما هم قومٌ بُهت، وقد روي أنَّ أهل الكتاب لمَّا قالوا: «ليس علينا في الأميين سبيل» قال نبي الله ﷺ: «كذب أعداء الله، ما من شيء كان في الجاهلية، إلَّا وهو تحت قدميَّ هاتين، إلَّا الأمانة فإنها مؤدَّاة إلى البر والفاجر»(١) وروي أنَّ رجلاً قال لابن عباس: إنَّا نُصيبُ في الغزو من أموال أهل الذمَّة الدجاجةَ والشاةَ، قال ابن عباس: فماذا تقولون؟ قالوا نقول: ليس علينا بذلك بأس!! قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيْلٌ﴾ إنَّهم إذا أدُّوا الجزية، لم تحلَّ لكم أموالهم إلَّا بطيب أنفسهم﴾(٢).

«خيانة اليهود من الناحية الدينية»

وبعد هذا البيان الساطع حول خيانة اليهود من الناحية المالية، جاءت الآيات الكريمة تبيِّنُ خيانتهم من الناحية الدينية، فقد حرَّفوا كلام الله، وبدَّلوا أوصاف الرسول ﷺ المذكورة عندهم في التوراة، وذلك ابتغاء حطام الدنيا الزائل الفاني، فاستحقوا لعنة الله وغضبه، وفي ذلك

(١) تفسير القرطبي ٤/١١٩.

(٢) أخرجه عبد الرزاق وانظر ابن كثير ١/٢٩٢.

يقول الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يَشْتَرُوْنَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيْلاً، أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ - أي لا نصيب ولا حظَّ لهم من رحمة الله عزَّ وجل - وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يُزَكِّيْهِمْ - أي لا يطهرهم من الذنوب والأدناس - وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ. وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيْقاً يَلْوُوْنَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوْهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَقُوْلُوْنَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَيَقُوْلُوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ﴾ ومعنى الآية الكريمة: إن من اليهود طائفة خبيثة، يفتلون ألسنتهم حالة قراءة الكتاب - أي التوراة - لتحريف معانيه، وتبديل كلام الله تعالى عن مراده، ليظنَّ السامع أنَّ هذا المحرَّف من كلام الله، وما هو إلاَّ ضلال وبهتان، ينسبونه إلى الرحمن، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون أنَّهم كاذبون مفترون على الله، قال ابن عباس: يحرِّفونه بتأويله على غير مراد الله تعالى، أولئك هم اليهود عليهم لعنة الله، قدموا على «كعب بن الأشرف» وغيَّروا التوراة، وكتبوا كتاباً فيه صفة رسول الله، ثم أخذت بنو قريظة ما كتبوا فخلطوه بالكتاب، أولئك شرار خلق الله.

«افتراء النصارى على المسيح»

ثمَّ بعد أن ذكر تعالى حياة أهل الكتاب، بتحريفهم كلام الله عن مواضعه، وتغييرهم أوصاف رسول الله الموجودة في كتبهم حتى لا يؤمن به النَّاس، ذكر تعالى بعده ما تقوم به الحجَّة عليهم، وهي أنَّ جميع الرسل دعوا إلى عبادة الله، ولم يأت أحد منهم على الإطلاق بالدعوة لنفسه، أن يعبدوه من دون الله، وفي ذلك تكذيبٌ للنصارى حيث زعموا أنَّ عيسى أمرهم بعبادته فقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُوْلَ لِلنَّاسِ كُوْنُوْا عِبَاداً لِي مِنْ دُوْنِ

اللّهِ ـ أي اعبدوني من دون الله ـ وَلَكِنْ كُوْنُوْا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُوْنَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُوْنَ. وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُوْنَ﴾؟.

قال ابن عباس: اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم رسول الله إلى الإسلام، فقال أبو رافع القُرَظي ـ وهو من رؤساء اليهود ـ : أتريد يا محمد أن نعبدك كما عبدت النصارى عيسى بن مريم؟ وقال رجل من نصارى نجران: أَوَ ذاك تريد منّا يا محمد؟ وإليه تدعونا؟ فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله؟ ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني، فأنزل الله الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُوْلَ لِلنَّاسِ كُوْنُوْا عِبَاداً لِي مِنْ دُوْنِ اللَّهِ﴾ أي ما ينبغي لبشر أعطاه الله النبوَّة والحكمة أن يقول للناس اعبدوني من دون الله، فإنَّ ذلك أمرٌ مستحيل غير مُتَصوَّر، إذ كيف يدعو النبيُّ والرسول إلى عبادة غير الله؟ ثم قال تعالى: ﴿ وَلَكِنْ كُوْنُواْ رَبَّانِيِّينَ بما كنتم تُعَلِّمُوْنَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُوْنَ﴾ قال ابن عباس: أي كونوا حكماء علماء حلماء.

«الميثاق على الأنبياء»

ذكر تعالى في الآيات المتقدِّمة خيانة أهل الكتاب، بتحريفهم كلام الله عن مواضعه، وتغييرهم أوصاف رسول الله ﷺ الموجودة في كتبهم حتى لا يؤمن به الناس، وقد ذكر هنا ما تقوم به الحجة عليهم، وهي أنَّ الله قد أخذ العهود والمواثيق على الأنبياء، أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إن أدركوا حياته، وأن يكونوا من أتباعه وأنصاره.. فإذا كان الأنبياء قد أُخذ عليهم الميثاق أن يؤمنوا بخاتم الرسل محمد ﷺ ويبشروا بمبعثه، فكيف يصح لأتباعهم من أهل الكتاب أن يكذِّبوا بدعوته

ورسالته؟ وفي هذا يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيْثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِيْ - أي عهدي - قَالُوْا أَقْرَرْنَا، قَالَ فَاشْهَدُوْا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِيْنَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبيًّا من الأنبياء إلَّا أخذ عليه العهد والميثاق، لئن بَعَثَ الله محمداً وهو حي ليؤمنَنَّ به ولينصُرَنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمَّته، لئن بُعث محمد وهم أحياء ليؤمنُنَّ به ولينصُرُنَّه.

«محمد ﷺ سيد المرسلين»

وهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أنَّ محمَّداً ﷺ سيِّد الأنبياء والمرسلين، وأنَّه أعلاهم قدراً وأسماهم منزلة، ولذلك وجب عليهم إن أدركوا حياته أن يتَّبعوه وينضووا تحت لوائه، ولهذا قال صلوات الله عليه: «لو كان موسى وعيسى حَيَّيْن لَمَا وَسعهما إلَّا اتِّباعي» وروي أنَّ عمر رضي الله عنه جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: إني أمرت بأخٍ لي يهودي من قريظةَ، فكتب لي جوامعَ من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ فتغيَّر وجه رسول الله ﷺ قال عبدالله بن ثابت: فقلت لعمر: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، قال: فسُرِّي عن النبي ﷺ وقال: «والذي نفسي بيده، لو أصبح فيكم موسى عليه السلام، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنَّكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين»[1].

«الاعتصام بدين الإسلام»

ثم بعد هذا البيان حول مقام سيد الأنبياء، تحدَّثت السورة

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

الكريمة عن شقاء وخسران اليهود والنصارى، وبيَّنت أن الدين الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه، إنَّما هو دين الإسلام فقال سبحانه: ﴿أَفَغَيْرَ دِيْنِ اللَّهِ يَبْغُوْنَ؟ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعَاً وَكَرْهَاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُوْنَ﴾ ثمَّ دعت إلى الاعتصام بدين الإسلام الذي هو دين جميع الرسل الكرام فقال سبحانه: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوْبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوْسَى وعِيْسَى وَالنَّبِيُّوْنَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُوْنَ﴾ ثمَّ ذكرت عاقبة الضالين، الذين اختاروا ديناً لهم سوى دين الإسلام، من اليهودية أو النصرانية أو المجوسية، وحكمت بخسرانهم وضلالهم فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيْنَاً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُـوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ﴾.

«الردَّة تُحبط العمل»

ثم تلتها الآيات الكريمة تتوعد من ارتدَّ عن دين الإسلام بأشد أنواع العذاب، فإنَّ الإنسان بعد أن يذوق حلاوة الإيمان، إذا ارتدَّ عن دينه يكون جرمه أقبح، وعقابُه أشنع، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمَاً كَفَرُوْا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوْا أَنَّ الرَّسُوْلَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِيْنَ. أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ. خَالِدِيْنَ فِيْهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُوْنَ﴾ ثم استثنى القرآن الكريم من هؤلاء المنتكسين، المرتدِّين، من تاب وأناب وأصلح ما أفسد من عمله، قبل أن يفاجئه الموت فقال: ﴿إِلاَّ الَّذِيْنَ تَابُوْا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُوْرٌ رَحِيْمٌ﴾.

«الكفر والإيمان نقيضان لا يجتمعان»

والإيمان والكفر نقيضـان لا يجتمعان، كمـا لا يجتمع النـور والظلام، ولهذا فقـد شدَّد الإسـلام النكير على من استبـدل الكفر بالإيمان، وآثر الضلالة على الهدى، فإنَّ الله عزَّ وجل لن يقبل له عملاً، ولن يغفر له ذنباً، ولو قدَّم ملكَ الأرض ذهباً فداءً لنفسه فلن يُقبل منه: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّوْنَ. إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِيْنَ﴾ روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيتَ لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنتَ مفتدياً به؟ قال فيقول: نعم، فيقول الله له: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم ألَّا تشرك بي شيئاً فأبيت إلَّا أن تشرك»[1] اللهمَّ احفظنا واحفظ علينا ديننا وإيماننا يا ربَّ العالمين.

«الإنفاق في وجوه الخير»

هذا الكتاب العظيم هدايةٌ لأهل الأرض، ونور يُشعُّ في قلوب المخلصين من عباد الله المؤمنين وصدق الله ﴿وأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوْراً مُبِيْنَاً﴾ وقد تناولت السورة الكريمة موضوع الإنفاق في سبيل الله، الذي ينال به العبد رضوان الله، وبيَّنت شروطه من الإخلاص والصدق، وأن ينفق من أطيب الكسب، ومن أحب ما لديه حتى يحصل على مرتبة الأبرار المقرَّبين يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوْا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوْا مِمَّا

(١) أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين.

تُحِبُّوْنَ وَمَا تُنْفِقُوْا مِنْ شَيْءٍ بِهِ عَلِيْمٌ﴾ والبرُّ أيها الإخوة كلمةٌ جامعة لوجوه الخير والإحسان، والمراد به هنا الجنة، وما فيها من النعيم الدائم المقيم، والمعنى: لن تكونوا أيها المؤمنون من الأبرار الأخيار، ولن تدركوا الجنة وتنالوا مراتبها الرفيعة، حتى تنفقوا من أفضل أموالكم ومن أحبِّها لأنفسكم.

«قصة أبي طلحة رضي الله عنه»

أخرج الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: كان «أبو طلحة» أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه «بيرحاء» وهي حديقة فيها أشجار ونخيل وماء عذب نمير - وكانت مستقبله المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب.. قال أنس: فلمَّا نزلت الآية الكريمة: ﴿لَنْ تَنَالُوْا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوْا مِمَّا تُحِبُّوْنَ﴾ جاء أبو طلحة فقال يا رسول الله إنَّ الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوْا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوْا مِمَّا تُحِبُّوْنَ﴾ وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ «بيرحاء» أي هذه الحديقة الظليلة - وإنَّها صدقةٌ للَّهِ عزَّ وجل، أرجو بها بِرَّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله - أي أنفقها في الوجه الذي تحب - فقال له النبي ﷺ: بخ بخ، ذاك مالٌ رابح، ذاك مالٌ رابح، وقد سمعتُ، وأرى أن تجعلها في الأقربين؟! فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»[1].

قال الجوهري في الصحاح: «بَخْ» كلمة تقال عند المدح والرضا بالشيء، وتُكرَّر للمبالغة فيقال: بَخْ بَخْ، فإن وصلتَ خفضتَ ونوَّنْتَ فقلتَ: بَخٍ بَخٍ، انتهى كلام الإمام الجوهري.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

«شبهات أهل الكتاب»

ثم تناولت السورة الكريمة شبهتين من شبه أهل الكتاب، فدفعتهما بالحجَّة الساطعة، والبرهان القاطع.

أمَّا الشبهة الأولى: فقد قالوا للنبي ﷺ إنَّك تدَّعي أنَّك على ملَّة إبراهيم، فكيف تأكل لحوم الإبل وألبانها، مع أنَّ ذلك كان حراماً في دين إبراهيم؟ فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيْلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ، قُلْ فَأْتُوْا بِالْتَوْرَاةِ فَاتْلُوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ. فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ. قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوْا مِلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ حَنِيْفاً، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾(١).

وأمَّا الشبهة الثانية: التي أثارها أهل الكتاب، فهي حينما حُوِّلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، طعن اليهود في نبوَّة محمد عليه السلام، واتَّخذوا من هذا التحويل «تحويل القبلة» ذريعة لإنكار رسالته عليه أفضل الصلاة والتسليم، وقالوا إنَّ بيت المقدس أفضلُ من الكعبة، وأحقُّ بالاستقبال فهو قبلة الأنبياء، وهو أوَّل المساجد في الأرض، وهو أرض المحشر، وجميع الأنبياء من ذرية إسحاق كانوا يعظمونه ويتوجهون إليه في صلاتهم، فلو كنت يا محمد على ما كان عليه الأنبياء، لعظَّمت ما عظموا، فردَّ الله عليهم هذه الشبهة بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلْنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدَىً لِلْعَالَمِيْنَ. فِيْهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيْمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً..﴾ الآية.

---

(١) انظر أحكام القرآن للإمام الجَصَّاص ٢/ ١٩.

«خصائص البيت الحرام»

دلَّت هذه الآية الكريمة على أنَّ البيت العتيق والمسجد الحرام، هو أوَّل المساجد على الإطلاق، فليس على وجه الأرض معبدٌ هو أقدم منه، لا بيت المقدس ولا غيره، وقد ذكر تعالى من مزاياه ثلاثة وجوه:

الأول: إنَّه أوَّل المساجد على سطح المعمورة «إنَّ أوَّل بيت وضع للناس للذي ببكَّة» ومعنى «وضع للناس» أي بُني لعبادة الناس ونسكهم.

والثاني: ما خصَّه الله به من الآيات الباهرات، والدلائل الساطعات، التي تدل على شرفه وفضله، منها مقام إبراهيم وزمزم والحطيم وإليه يشير قوله تعالى: ﴿فِيْهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مقامُ إِبْرَاهِيْمَ﴾.

والثالث: ما خصَّه الله به من الأمن والاستقرار، حيث يأمن فيه الخائف، ويلوذ إلى جواره الضعيف، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنَاً﴾ ولهذا قال العارفون: ليس في العالم بناء أشرف من الكعبة، الآمر ببنائها الملِكُ الجليل، والمهندس جبريل، والباني هو الخليل، والمساعد هو إسماعيل صلوات الله وسلامُه عليهم أجمعين.

«ضلالات أهل الكتاب»

كما تناولت السورة الكريمة ضمن ما تناولته من توجيهات وإرشادات، تحذير المؤمنين من ضلالات أهل الكتاب «اليهود والنصارى» فقد وصل بهم الحسد للمؤمنين، أن يكفروا بدين الإسلام، ويصدُّوا النَّاس عن الدخول فيه، بإلقاء الشُبَه والشكوك في قلوب الضعفة من الناس، ولهذا جاءت الآيات الكريمة تُندِّد بصنيعهم وإجرامهم، وتتوعدهم بأشد أنواع العذاب، يقول تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ

لِمَ تَكْفُرُوْنَ بِآيَاتِ اللَّهِ واللَّهُ شَهِيْدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُوْنَ. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَاب لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيْلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُوْنَ﴾ ثمَّ جاء بعدها دور التنبيه والتحذير للمؤمنين، من أن يستمعوا إلى ما يلقيه عليهم أهل الكتاب، من نصائح أو توجيهات، فإنَّهم أعداء، والعدوُّ يجب على العاقل أن يحذر منه، فإنَّ في طاعته المهالكَ والمعاطب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِنْ تُطِيْعُوْا فَرِيْقاً مِنَ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الْكِتَابَ يَرُدُّوْكُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ كَافِرِيْنَ. وَكَيْفَ تَكْفُرُوْنَ وَأَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيْكُمْ رَسُوْلُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ﴾.

«سبب نزول الآية»

روى المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمة، أنَّ «شاس بن قيس اليهودي» مرَّ على نفر من الأنصار - من الأوس والخزرج - في مجلسٍ لهم يتحدَّثون فيه، فغاظه ما رأى بينهم من الألفة وصلاح ذات البين، بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة والبغضاء، فقال عدو الله: ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار - أي لا نستطيع أن نعيش بينهم بسلام ما داموا إخوة متحابين في الله - ثم ذهب فأمر شاباً من اليهود، أن يأتي فيجلس بينهم، وأن يُذكِّرهم «يومَ بعاث» ويُنشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار - وكان يوم بُعاث يوماً شديداً في الجاهلية، كان يوم حرب بين الأوس والخزرج، كاد بعضهم يُفني بعضاً فيه، وكان الظفر فيه للأوس، فلمَّا جاء الإسلام أصبحوا إخوة متحابين في الله، وسمي الأوس والخزرج منذ دخولهم في الإسلام بالأنصار، كما قال عليه السلام فيهم: «حبُّ الأنصار من الإيمان، وبغضُ الأنصار

من النفاق»[1] فذهب ذلك الشاب اليهودي فجلس بينهم، وأخذ يُذكِّرهم بحرب بعاث وينشدهم ما قاله الأوس من الأشعار في هجاء الخزرج، وما قاله الخزرج في هجاء الأوس، حتى أشعل بينهم نار الفتنة، فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا، وتداعوا إلى السلاح فقالوا: السلاحَ السلاحَ، حتى كاد يقع بينهم في ذلك اليوم قتال، وبلغ ذلك النبي ﷺ فأسرع نحوهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار، فوجدهم مصطفين للنزال والقتال، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «يا معشر الأنصار أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ بعد أن أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وأَلَّفَ بين قلوبكم؟ وجعل ﷺ يتلطَّفهم ويهدئهم حتى عرف القوم أنَّها كانت نزعةً من الشيطان، وكيداً من عدوِّهم، فألقوا السلاح وبَكَوْا وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين فأنزل الله عزَّ شأنه هذه الآيات الكريمة[2] لتكون درساً ونبراساً للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِنْ تُطِيْعُوْا فَرِيْقَاً مِنَ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الْكِتَابَ يَرُدُّوْكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِيْنَ. وَكَيْفَ تَكْفُرُوْنَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيْكُمْ رَسُوْلُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ﴾.

«الاجتماع وعدم الفرقة»

ثم تلتها الآيات الكريمة تأمر بتقوى الله، والاعتصام بحبله المتين، والاجتماع وعدم الفرقة، فليس أضرَّ على المسلمين من النزاع والاختلاف، وليس أحب لأعداء الله من تمزيق وحدة المسلمين وتشتيت

---

(١) أخرجه الشيخان بلفظ «آيةُ المنافق بغضُ الأنصار، وآيةُ المؤمن حبُّ الأنصار». وفي رواية في الصحيحين: «لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق».

(٢) انظر صفوة التفاسير ٢١٧/١ وابن كثير ٣٠٦/١.

شملهم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم آمراً ومحذِّراً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اتَّقُوْا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوْتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُوْنَ. وَاعْتَصِمُوْا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيْعاً وَلَا تَفَرَّقُوْا وَاذْكُرُوْا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوْبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ﴾ وتقوى الله حق تقاته هي - كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أن يُطاع الله فلا يُعْصى، وأن يُذْكر فلا يُنْسى، وأن يُشْكر فلا يكفر»[1] والاعتصامُ بحبل الله معناه: التمسكُ بالقرآن الذي أنزله الله نوراً للأبصار، وشفاء لما في الصدور وقد قال ﷺ: إن هذا القرآن هو حبل الله المتين، وهو النور المبين، وهو الشفاء النافع، عصمةٌ لمن تمسَّك به، ونجاةٌ لمن اتَّبعه»[2] اللهمَّ اشرح صدورنا بالإيمان، ونوِّرْ قلوبنا بالقرآن، واجعلنا ممَّن يتمسَّك بكتابك المبين.

«واجب الدعوة إلى الله»

بعد أن حذَّر تعالى في الآيات السابقة من مكايد أهل الكتاب، وأمر بالاعتصام بحبل الله المتين، والتمسك بشرعه المبين، دعا المؤمنين إلى القيام بواجب التذكير والتبصير، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمر بالائتلاف وعدم الاختلاف فقال عزَّ من قائل: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُوْنَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ. وَلَا تَكُوْنُوْا كَالَّذِيْنَ تَفَرَّقُوْا وَاخْتَلَفُوْا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ﴾ وفي هذه الآيات البيِّنات، بيان واضح ساطع، لسبب

(١) ابن كثير ١/٣٠٤.
(٢) أخرجه رزين وهو جزء من حديث طويل.

الهلاك والدمار، الذي حلَّ بالأمم السابقة، ألا وهو الخصام والنزاع، والشقاق والخلاف، الذي يدمِّر الشعوب في الدنيا، ويذيقها أليم العذاب في الآخرة، وقد وردت الآيات بأسلوب الوعيد والتهديد ﴿وَلَا تَكُوْنُوْا كَالَّذِيْنَ تفرَّقُوْا وَاخْتَلَفُوْا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ﴾ ثمَّ بيَّن تعالى موعد هذا العذاب فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوْهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِيْنَ اسْوَدَّتْ وُجُوْهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوْقُوْا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُوْنَ. وَأَمَّا الَّذِيْنَ ابْيَضَّتْ وُجُوْهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ، هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ﴾ وليس المراد بسواد الوجوه أيها الإخوة ـ اسوداد اللون والبشرة، كما قد يظن البعض، فإنَّ اختلاف الأشكال والألوان من دلائل قدرة الرحمن كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ وإنَّما يراد بسواد الوجوه في الآخرة، ما يعتري المجرمين وأهل الكفر والعصيان، من الذل والهوان، ومن الغَبَرة والقتَرَة، التي تعلو وجوههم كما قال تعالى: ﴿وَوُجُوْهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي عليها غبار ودخان، ويغشاها ويحيط بها السواد والظلمة، كما يُعرفون يوم القيامة أيضاً بزرقة العيون ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِيْنَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾.

«ثناء الله على الأمَّة المحمدية»

ثمَّ تناولت السورة الكريمة هذه الأمَّة المحمدية، فأثنت عليها بذلك الثناء العاطر ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُوْنَ باللَّهِ﴾ ومعنى الآية الكريمة: أنتم يا أمَّة محمد خير الأمم والشعوب، لأنَّكم أنفع الناس للناس ولهذا قال: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أخرجت لأجلهم ومصلحتهم والتعبير بهذا يوحي بأنَّ هذه الأمَّة الإسلامية، كانت مدَّخرة لأداء هذه الرسالة العظيمة،

حرسها الله وحفظها، وهيَّأها لأداء هذه المهمَّة، روى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه قال: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» قال: «خيرَ الناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم، حتى يدخلوا في الإسلام»(١) وقال عمر رضي الله عنه: «من سرَّه أن يكون من هذه الأمَّة، فليؤدِّ شَرْطَ الله فيها»(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ﴾ فلم تنل هذه الأمَّة هذا الشرف العظيم، لسواد عيونها، وإنَّما نالته بسبب معروفها وإحسانها، فهي الأمَّة الداعية إلى الخير، السابقة إلى الإيمان، المؤمنة بالرحمن، التي تقدم الخير للبشرية، وتخرجها من الظلمات إلى النور، وفي الحديث الشريف الذي رواه الترمذي وحسَّنه عن النبي ﷺ أنَّه قال: «أنتم تُوْفُون سبعين أمةً ـ أي تُتِّمون وتكمِّلون سبعين أمة ـ أنتم خيرُها وأكرمُها على الله عزَّ وجل».

«كلام الحافظ ابن كثير»

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية الكريمة: وإنَّما حازت هذه الأمَّة قصْب السبق إلى الخيرات، بنبيِّها محمد صلوات الله وسلامُه عليه، فإنَّه أشرف خلق الله، وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرعٍ كامل عظيم، لم يُعطه نبيٌ من الأنبياء، ولا رسولٌ من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم العمل القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير، من أعمال غيرهم مقامه ولهذا قال ﷺ: «وجُعِلتْ أمتي خير الأمم»(٣) ثم وبَّخ تعالى اليهود والنصارى فقال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.
(٢) مختصر ابن كثير ١/٣١١.
(٣) أخرجه أحمد في المسند.

لَكَانَ خَيْرَاً لَهُمْ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُوْنَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُوْنَ﴾.

«الذلة مقترنة باليهود»

وبعد هذا التوضيح والبيان، انتقلت السورة الكريمة إلى بيان ما حلَّ باليهود من الذل والهوان بسبب البغي والعدوان فقال سبحانه: ﴿لَنْ يَضُرُّوْكُمْ إِلَّا أَذَىً، وَإِنْ يُقَاتِلُوْكُمْ يُوَلُّوْكُمُ الأَدْبَارَ، ثُمَّ لاَ يُنْصَرُوْنَ. ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوْا - أي أينما وجدوا وفي أي مكان وزمان - إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ - أي إلَّا إذا اعتصموا بذمة الله وذمة المسلمين، وعاهدهم أحد من الناس - وَبَاءُوْا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ - أي الذلَّة والصغار - ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوْا يَكْفُرُوْنَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَيَقْتُلُوْنَ الأنبيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوْا يَعْتَدُوْنَ﴾.

«أهل الكتاب متفاوتون في المنزلة»

تحدَّثت الآيات الكريمة عن أهل الكتاب، وما هم عليه من الصفات الذميمة، والأساليب الماكرة الخبيثة، وهنا تذكر الآيات أنَّ أهل الكتاب ليسوا بدرجة واحدة، فمنهم المسلمُ ومنهم المجرمُ ومنهم التقيُّ ومنهم الشقيُّ، وفيهم البر والفاجر وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿لَيْسُوْا سَوَاءً، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُوْنَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُوْنَ. يُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُوْنَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِيْنَ. وَمَا يَفْعَلُوْا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوْهُ، واللَّهُ عَلِيْمٌ بِالْمُتَّقِيْنَ﴾ وهذه الآيات الكريمة نزلت كما يقول المفسرون فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب «كعبد الله بن سلام» و«أسد بن عُبيد» و«ثعلبة بن شعبة» وغيرهم من الأحبار ممَّن

أسلم وحَسُن إسلامُه، ومعنى قوله تعالى: ﴿ليسوا سواءً﴾ أي ليس أهل الكتاب متساوين في المخازي والمساوىء، بل فيهم الصالح والطالح، والبر والفاجر، ولهذا قال بعده: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي منهم طائفة مستقيمة على شرع الله ودينه، لم تُحرِّف ولم تُبدِّل، ولم تبع دينها بعرض من الدنيا زائل ﴿يَتْلُوْنَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُوْنَ﴾ أي يتهجدون في الليل، بتلاوة آيات كتاب الله، ويكثرون من السجود طاعةً للّهِ وقربة له جلَّ وعلا.

هذا هو حال المؤمنين الأبرار، أمَّا حال الكفرة الفجَّار، فقد بيَّنته الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ﴾ لقد جمعوا في هذه الحياة الثروة والمال، واغتروا بكثرة البنين والأولاد، ولكن هيهات أن ينفع المال والولد، أو يفيد الجاه والحسب، فإنَّ الإنسان في الآخرة، إنَّما يحتاج إلى عمل صالح، ينقذه من عذاب الله، لا إلى المال والبنين، فإن زاد الدنيا المالُ، وزاد الآخرة الأعمالُ.

«مثل رائع لأعمال الكفار»

ولقد ضرب القرآن الكريم، مثلا من أروع الأمثلة للكفار، في ضياع أعمالهم، وتبدد آمالهم، فقال سبحانه: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُوْنَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيْحٍ فِيْهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوْا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ﴾ فقد مثَّل تعالى لأعمالهم الصالحة ـ وما أنفقوه في هذه الحياة، بقصد الثناء وحسن الذكر ـ بقومٍ زرعوا أرضهم، وتعبوا في ذلك الزرع، حتى إذا ما

نما الزرع واشتدَّ، أرسل الله عليه ريحاً عاصفةً مدمِّرة، فيها بردٌ شديد، وصوتٌ مخيف، فأهلكت الحرثَ والزرعَ، ودمَّرتْ الشجرَ والثمرَ، فلم تترك لهم شيئاً ينتفعون به، كذلك الكفار يوم القيامة، يمحق الله ثواب أعمالهم الصالحة، كما تُذهب الريح العاصفة ثمار هذا الحرث بذنوب صاحبه.

«التحذير من موالاة أعداء الله»

ثمَّ بعد هذا الإيضاح والبيان، جاءت الآيات الكريمة تحذِّر المؤمنين من موالاة أعداء الدين من المنافقين، واتِّخاذهم أصدقاءً وخُلَّاناً، يحبونهم ويوالونهم ويطلعونهم على خفاياهم وأسرارهم، مع أنَّ أولئك القوم لا يضمرون لهم إلَّا كل شر وعداء، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لَا تَتَّخِذُوْا بِطَانَةً مِنْ دُوْنِكُمْ لَا يَأْلُوْنَكُمْ خَبَالًا - أي لا يُقصِّرون في إيذائكم وإفسادكم - وَدُّوْا مَا عَنِتُّمْ - أي تمنى هؤلاء الأعداء ما يوقعكم في المشقة والضرر الشديد - قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُوْرُهُمْ أَكْبَرُ، قَدْ بَيَّنَا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾.

«انتشار النفاق في المدينة»

ولقد عمل النفاق في المدينة المنورة عمله في صدر الإسلام، وأثَّر أثره البالغ في توهين صفوف المؤمنين، ولذلك جاءت الآيات الكريمة تشدِّد النكير على من أحبهم، أو والاهم فيقول سبحانه: ﴿هَا أَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّوْنَهُمْ وَلَا يُحِبُّوْنَكُمْ وَتُؤْمِنُوْنَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوْكُمْ قَالُوْا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوْا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ، قُلْ مُوْتُوْا بِغَيْظِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ﴾ والعجيب في حال المنافقين،

أن لهم وجهين ولسانين، وأنَّهم يلبسون لكل حالةٍ لبوسها، فإذا رأوا المؤمنين أظهروا أمامهم الإيمان خديعة ونفاقاً، وإذا خلت مجالسهم من أحدٍ من المؤمنين، أظهروا ما في قلوبهم من البغضاء والعداء، وطعنوا الإسلام والمسلمين، من شدَّة الغيظ والحَنَق، ولهذا دعانا القرآن إلى أخذ الحيطة والحذر منهم، ثم زاد في كشف حالهم وبيان ما انطوت عليه نفوسهم من خديعة وغلٍ وحسد فقال: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوْا بِهَا، وَإِنْ تَصْبِرُوْا وَتَتَّقُوْا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئَاً، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُوْنَ مُحِيْطٌ﴾ وهكذا تختم الآيات بتصوير حال المنافقين، بتلك الصورة الماكرة الخادعة، وتبين خفاياهم ونواياهم، فهم يظهرون للمؤمنين المودَّة والإيمان، وهم في الباطن أعداء ألداء، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون، فعلى المؤمنين أن يحذروا أعداءهم في كل زمان ومكان.

«غزوة بدر تاج الغزوات»

وتناولت السورة الكريمة ضمن ما تناولته من غَزَوات ووقائع، أحداث «غزوة بدر» تلك الغزوة التي كانت تاجاً على رأس الغزوات التي خاضها المسلمون، لأنها كانت فاتحة الخير والنصر في جبينِ الدعوة الإسلامية، ثمَّ ما كان فيها من آيات باهرة، تجلَّت فيها قدرة الله العلي الكبير، في نصره لجنده المؤمنين، مع ما هم عليه من قلَّةٍ في العدَد والعُدَد، وما كان عليه أعداؤهم من الكثرة في السلاح والرجال، ومع عدم تكافؤ القوتين، كان النصر حليف الفئة المؤمنة القليلة، لينبهنا القرآن أنَّ الكثرة والقلَّة لا أثر لها في النصر، إنَّما الأثر في العقيدة والإيمان: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوْا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُوْنَ. إِذْ تَقُوْلُ لِلْمُؤْمِنِيْنَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِيْنَ، بَلَى إِنْ تَصْبِرُوْا وَتَتَّقُوْا وَيَأْتُوْكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوْبُكُمْ بِهِ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيْزِ الْحَكِيْمِ﴾ وهذا ـ أوَّل درس يتلقَّاه المسلمون من غزوة بدر، أنَّ النصر لا يكون بوفرة السلاح وكثرة المقاتلين، إنَّما هو بالرسوخ والثبات والإيمان، فكم ﴿مِنْ فِئَةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيْرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ﴾.

أمَّا الدرس الثاني: من غزوة بدر، فهو أنَّ الحق هو المنتصر الغالب دائماً، والله يؤيد عباده المؤمنين بروحٍ من عنده، ويمدُّهم بملائكته طالما هم معتصمون بحبل الله، مستمسكون بشرعه ودينه، وأنَّه ما تخلَّت أمَّة عن دينها إلَّا هانت وذلَّت، وفي ذلك أعظم العبر للثبات على الحق والتمسك به، لأنَّ العاقبة للمتَّقين. ولقد جاء الحديث بالإسهاب في هذه السورة الكريمة عن الغزوات، كغزوة بدرٍ وغزوة أحد، والدروس التي تلقَّاها المؤمنون من تلك الغزوات فقد انتصروا في «بدر» وهُزموا في «أحد» بسبب مخالفتهم وعصيانهم لأمر الرسول وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين، كثيراً من كلمات الشماتة والتخذيل، فأرشدهم تعالى إلى الحكمة من ذلك الدرس، وهي أنَّ الله تعالى يريد تطهير صفوف المؤمنين، من أولئك المنافقين، أرباب القلوب الفاسدة، ليميِّز تعالى بين الخبيث والطيب، كما قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُوْنَ﴾.

«تسليةٌ ومواساة»

وحتى لا ييأس المؤمنون من روح الله، جاءت الآيات الكريمة تسلّيهم وتواسيهم وتداوي جراحهم، بذلك البلسم الشافي ـ بلسم الصبر والإيمان ـ وفي هذا يقول القرآن: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوْا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِيْنَ. هَذَا بَيَانٌ لِلْنَّاسِ وَهُدَىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِيْنَ. وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوْا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ. إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ـ أي إن أصابكم أيها المسلمون قتلٌ أو جراح فقد أصاب المشركين مثلُ ما أصابكم ـ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي هذه الأيام دول، يومٌ لك ويوم عليك، ويوم تُساءُ ويوم تُسرُّ ثم قال تعالى: ﴿وليَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِيْنَ. وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِيْنَ﴾ فقد ذكر تعالى أنَّ الغرض من هذا الابتلاء، بالجهاد في سبيل الله وقتال الأعداء، هو عزَّة الدين، وأن يمتحن النفوس، فيرى من يصبر عند الشدائد، ويكرم بعضَهم بنعمة الشهادة في سبيل الله، التي هي أجلُّ النعم عند الله، ولا ينالها إلَّا من صفت نفسه وثبت يقينه، كما قال صلوات الله عليه في إحدى الغزوات: «أيها الناس لا تتمنَّوْا لقاءَ العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبُتوا، واعلموا أنَّ الجنَّة تحت ظلال السيوف، ثم قال عليه السلام: اللهمَّ منزل الكتاب، ومُجرِي الحساب، وهازم الأحزاب، أهزمهم وانصرنا عليهم»(١).

«عتابٌ لأصحاب أحد»

وفي غزوة أحد، لمَّا انهزم المسلمون، وقُتل من قُتل منهم، أشاع

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين.

المشركون بأنَّ محمداً قد قُتِل، ودبَّ الضعف والخور في نفوس بعض المسلمين، وقال المنافقون: إن كان محمد قد قُتل فتعالَوْا نرجع إلى ديننا الأوَّل فأنزل الله تعالى هذه الآيات توبيخاً لأهل النفاق وعتاباً للمؤمنين: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُوْلٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ـ أي ارتددتم عن دينكم فرجعتم إلى الكفر والضلال ـ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً، وَسَيَجْزِيْ اللَّهُ الشَّاكِرِيْنَ﴾ ثمَّ تتابعت الآيات تسرد أحداث تلك الموقعة الأليمة، التي انهزم فيها المسلمون بعد أن كان النصر حليفهم، لسبب بسيط هو مخالفتهم لأمر رسول الله ﷺ فانتكسوا وانهزموا، ووقع فيهم ما وقع من القتل، فجاءت الآيات تشدُّ من عزيمتهم، وتخفف عنهم الأحزان والأشجان: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّوْنَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوْا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوْا وَمَا اسْتَكَانُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِيْنَ. وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوْا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوْبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِيْنَ. فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِيْنَ﴾

«أسباب الهزيمة في غزوة أحد»

لا نزال نتابع أحداث «غزوة أحد» التي تناولت تفصيل وقائعها سورة آل عمران، فلقد انتصر المؤمنون في أكثر الغزوات، بسبب ثباتهم ويقينهم واعتمادهم على الله، وانهزموا في معركة أحد بسبب عصيانهم ومخالفتهم لأمر الرسول ﷺ وكانت «غزوة أحد» درساً بليغاً للمؤمنين، في ضرورة الانقياد لأمر القائد، والسمع والطاعة لأمر الرسول، فلقد كان النصر حليف المؤمنين في بدء الأمر، ثمَّ لمَّا خالفوا أمر الرسول

انهزموا، وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيْدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ، وَاللَّهُ ذُوْ فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي ولقد وفَّى الله جلَّ وعلا لكم ما وعدكم به من النصر على عدوكم فانتصرتم عليهم وهزمتموهم ﴿إِذْ تَحُسُّوْنَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ أي حين تحصدونهم بسيوفكم وتقتلونهم قتلاً ذريعاً بإرادة الله وحكمه ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّوْنَ﴾ أي حتى إذا جبنتم وضعفتم واختلفتم في أمر المُقام في الجبل، وعصيتم أمر الرسول من بعد أن كان النصر حليفكم.

«مخالفةُ الرماةِ أمر الرسول»

روي أنَّ النبي ﷺ في غزوة أحد، وضع خمسين من الرماة فوق الجبل، وأمرهم أن يدفعوا عن المسلمين، وقال لهم: لا تبرحوا أماكنكم حتى ولو رأيتمونا تخطَّفتنا الطير، فلمَّا التقى الجيشان لم تقو خيلُ المشركين على الثبات، بسبب السهام التي أخذتهم في وجوههم من الرماة، فانهزم المشركون، فلمَّا رأى الرماة ذلك قالوا: الغنيمةَ الغنيمة، ونزلوا لجَمْع الغنائم وتركوا الجبل، ونصحهم رئيسهم «عبدالله بن جبير» فلم يتلفتوا إلى قوله، وثبت هو مع عشرة من أصحابه، فجاءهم المشركون من خلف الجبل، فقتلوا البقيَّة من الرماة، ونزلوا على المسلمين بسيوفهم من خلف ظهورهم، يحصدونهم بها حصداً، فانقلب النصر إلى هزيمة للمسلمين، بسبب مخالفتهم أمر الرسول، فذلك قوله

تعالى: ﴿من بعد مَا أَراكم ما تحبُّوْنَ﴾ أي من بعد النصر والظفر الذي كان حليفكم انتكستم وانهزمتم.

«تصوير دقيق لغزوة أحد»

ثم تتابعت الآيات الكريمة في سورة آل عمران، تصوِّر واقعة أحد وكأنَّها رأيُ عين، وتصوُّر حالة المسلمين وهم يولون الأدبار، ممعنين في الهزيمة والفرار أمام المشركين، فتقول: ﴿إِذْ تُصْعِدُوْنَ وَلَا تَلْوُوْنَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُوْلُ يَدْعُوْكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍ لِكَيْلَا تَحْزَنُوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ، وَاللَّهُ خَبِيْرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾ ومعنى الآية الكريمة: اذكروا يا معشر المسلمين حين كنتم تصعدون في الجبال هاربين من أعدائكم، ولا يلتفتُ أحد لأحدٍ من الخوف والرعب، ورسولكم محمد ﷺ يناديكم من ورائكم يقول: «إليَّ عِبادَ الله، إليَّ عبادَ الله، أنا رسول الله، من يكرُّ على الأعداء فله الجنة»[1] وأنتم تُمْعِنون في الفرار، فجازاكم على صنيعكم غمًّا بسبب غمِّكم للرسول، ومخالفتكم أمره، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة ولا ما أصابكم من الهزيمة «واللَّهُ خَبِيْرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾ يعلم المخلص الصادق من الخائن المنافق.

روى الحافظ ابن كثير عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: «إنَّ النساء كنَّ يوم أحد خلف المسلمين، يُجْهزن على جرحى المشركين، فلو حلفت يومئذٍ لرجوتُ أن أَبرَّ بيمني، أنَّه ليس أحد منَّا يريد الدنيا، حتى أنزل الله قوله: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيْدُ الآخِرَةَ﴾ فلمَّا خالف أصحاب رسول الله، وَعَصَوْا ما أُمروا به، أُفردَ النبيُّ ﷺ في تسعة من الرجال وهو عاشرهم، فلمَّا أرهقوه بالنبال قال: رحم الله رجلاً

(١) صفوة التفاسير للصابوني ١/٢٣٦.

ردَّهم عنّا، فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قُتل، فلم يزل يقول ذلك حتى قُتل سبعةٌ منهم، فنظروا فإذا حمزة قد بُقر بطنُه، فأخذت هندٌ كبده فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها، وحزن عليه رسول الله حزناً شديداً، وصلَّى عليه يومئذٍ سبعين صلاة»[1].

«صورٌ من البطولة الخارقة»

من الذين ثبتوا في معركة أحد الأسدُ المقدام «أنس بن النضر» عمُّ أنس بن مالك رضي الله عنهما، فلما هُزم المسلمون يوم أحد، وأشاع المنافقون أنَّ محمداً ﷺ» قد قتل، قال أنس بن النضر: «اللهمَّ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك ممَّا فعل هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدَّم شاهراً سيفه نحو الأعداء، فلقيه «سعد بن معاذ» فناداه أين يا سعد؟ والله إني لأجد ريح الجنة من دون أحد، ثم اخترق الصفوف فجعل يقاتل المشركين بشجاعةٍ وبسالة، فقتل منهم مقتلةً عظيمة، ثم قُتِل رضي الله عنه، فمثَّل به المشركون تمثيلاً شنيعاً، فلم يعرفه أحدٌ من الصحابة بعد انتهاء المعركة، إلَّا أختُه عَرَفَتْهُ من بنانه - أي من رؤوس أصابعه - ورآه المسلمون وبه بضعٌ وثمانون من طعنةٍ، وضربةٍ، ورميةٍ بسهم[2].

وفي غزوة أحد دروس وعبر، فقد كان النعاس يغشى المؤمنين بعد الهزيمة للسكينة والطمأنينة، حتى يستعيدوا نشاطهم وقوَّتهم على حرب المشركين، وفي ذلك يقول اللّه جلَّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً، يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ..﴾ الآية ومعلوم أنَّ النعاس والنوم لا يأتي الخائف، ولكنه كان آية من عند الله باهرة، ليقوِّيهم على قتال

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

(٢) انظر قصته في صحيح البخاري.

أعدائهم، روى البخاري عن أنس أنَّ أبا طلحة رضي الله عنه قال: «غشيَنَا النعاسُ ونحن في مصافنا يوم أحد، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه»[1] اللهمَّ ثبِّتنا عند اللقاء وانصرنا على الأعداء.

«دروس من غزوة أحد»

لا تزال الآيات الكريمة من سورة آل عمران، تنقل لنا أحداث «غزوة أحد» وما حدث في تلك الغزوة من مفاجآت لم تكن بالحسبان، فلقد انهزم المسلمون في المعركة بعد أن انتصروا، وذلك بسبب مخالفتهم لأمر القيادة، التي تولَّى أمرها بطل الأبطال محمد رسول الله ﷺ، وفي هذا درس بليغ للمسلمين، أن يكونوا جنوداً مطيعين، مخلصين لله، ولأمر من ولاَّهم الله عزَّ وجلَّ عليهم، فالطاعة في المعركة هي أساس النصر والظفر على الأعداء، ولقد بيَّنت الآيات الكريمة المتقدمة، سبب الهزيمة التي مُنِي بها المسلمون، ألا وهي معصيتهم لأمر الرسول ﷺ ووضَّحت ما أصيبوا به من غم واضطراب، وأرشدتهم إلى موطن الداء ووصفت لهم الدواء، وفي هذه الآيات الكريمة عتاب لأصحاب الرسول لفرارهم من الزحف، مع أنَّ الإقدام لا يُنقص الحياة، والفرارُ لا يزيد في الأعمار، يقول تعالى معاتباً وملاطفاً: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّما اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوْا﴾ أي إنَّما أوقعهم الشيطان في الخطيئة، ببعض ما ارتكبوا من الذنوب وهي مخالفتهم لأمر الرسول، ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُوْرٌ حَلِيْمٌ﴾ أي تجاوز عن عقوبتهم وصفح عنهم، مع فرارهم من ميدان الجهاد، ومعركة الشرف، لأنَّه تعالى رحيم بعباده المؤمنين، لا

(١) أخرجه البخاري من رواية أنس بن مالك، وانظر مختصر ابن كثير ١/٣٢٩، وصفوة التفاسير ١/٢٣٦.

يُعجِّل لهم العقوبة مع تقصيرهم وتفريطهم، ثمَّ تلتها الآيات الكريمة، تدعو المؤمنين إلى الشجاعة والاستبسال أمام الأعداء، وتحذِّرهم من سلوك طريقة المنافقين، في التباطؤ والتخاذل عن الجهاد، وموقفهم المخزي الفاضح في تلك الغزوة، بتثبيط عزائم المؤمنين، وتآمرهم على الدعوة الإسلامية فقال جلَّ ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لَا تَكُوْنُوْا كَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَقَالُوْا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوْا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوْا غُزًّى ـ أي غزاة مجاهدين في سبيل الله ـ لَوْ كَانُوْا عِنْدَنَا مَا مَاتُوْا وَمَا قُتِلُوْا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوْبِهِمْ، وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيْتُ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيْرٌ. وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُوْنَ. وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُوْنَ﴾ وهذه الآيات ـ أيها الأخوة ـ ردٌّ من الله تعالى قاطع، على دعاوى المنافقين، أن ترك الخروج للجهاد يطيل الأعمار، أو يدفع عنهم شبح الموت، وما دري أولئك الأغبياء أنَّ الأجل محتوم، وأنَّ الموت لا بدَّ قادم، وإذا كان لا مناص من الموت، فليمت الإنسان في سبيل عقيدته وإيمانه، لينال الشهادة في سبيل الله، ولله در القائل:

فإن تكن الأبدانُ للموتِ أنشئت ... فقتل امرىءٍ بالسيف في الله أفضل

أي فموته في ميدان المعركة والجهاد في سبيل الله، أفضل من موته على فراشه كما يموت الجبان وصدق الله: ﴿أينَمَا تَكُوْنُوْا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوْجٍ مُشَيَّدة﴾.

«أخلاق النبوَّة والقيادة الحكيمة»

ثمَّ تتابعت الآيات الكريمة، تتحدَّث عن أخلاق النبوَّة العطرة، وتشيد بالقيادة الحكيمة، فمع مخالفة بعض الصحابة لأوامر الرسول ﷺ

مما أدَّى إلى النكسة في غزوة أحد، فقد وسعهم عليه الصلاة والسلام بخلقه الكريم، وقلبه الرحيم، ولم يخاطبهم بالشدَّة والغلظة، وإنَّما خاطبهم باللطف واللين، ولذلك اجتمعت القلوب حول دعوته، وتوحَّدت تحت قيادته، يقول تعالى مثنياً عليه وعلى أخلاقه الكريمة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيْظَ الْقَلْبِ لَا نْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِيْنَ﴾ ومعنى الآية الكريمة: أي فبسبب رحمةٍ من الله أودعها الله في قلبك يا محمد، كنت هيناً مع أصحابك ليِّن الجانب، مع أنَّهم خالفوا أمرك وعصوك، ولو كنت جافي الطبع، قاسي القلب، تعاملهم بالغلظة والجفاء، لنفروا منك وتفرقوا عنك، ولكنَّك وسعتهم بخلقك الحميد وقلبك الرحيم قال الحسن البصري: هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به، وهذه هي صفته في الكتب السماوية السابقة، فقد أخرج الإمام البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنَّه سئل عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ـ وكان عبدالله يقرأ التوراة ـ فقال: والله إنَّه لموصوف في التوراة بمثل صفته في القرآن: ﴿يا أيها النبي إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. وحرزاً للأُمِّيين ـ أي حصناً لهم ـ أنت عبدي ورسولي، سمَّيتك المتوكل، ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ ولا صخَّاب بالأسواق ـ أي لا يرفع صوته بالأسواق ـ ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكنْ يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملَّةَ العوجاء، بأن يقولوا: لا «إله إلَّا الله، فيفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صمَّاً، وقلوباً غلفاً»[1] هذه هي أخلاق النبوَّة، اللهمَّ خلقنا بأخلاقه الكريمة.

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه.

«النعمة العظمى بعثة السراج المنير»

وبعد هذا الثناء العاطر، جاءت الآيات الكريمة تذكِّر المؤمنين بالنعمة العظمى عليهم، وهي بعثة السراج المنير، خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، فبعثته صلوات الله عليه هي المنَّة الكبرى والنعمة العظمى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ إِذْ بَعَثَ فِيْهِمْ رَسُوْلاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوْا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوْا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِيْنٍ﴾ اللهمَّ ارزقنا محبته، واقتفاء هديه الكريم.

«خذلان المنافقين للمؤمنين في أحد»

انهزم المسلمون في أُحد بعد ذلك الانتصار الباهر، الذي حقَّقوه بإيمانهم وثباتهم ويقينهم، فبعد أن كان النصر حليفهم انهزموا وانكسروا، فجاءت الآيات الكريمة تتحدَّث عن أسباب تلك الهزيمة، وتبيِّن موقف المنافقين المخزي في تلك الغزوة، ممَّا سبَّب تثبيط عزائم المؤمنين، وشلِّ حركتهم في بادىء الأمر، ولكنَّ الله ثبَّتهم وقوَّاهم على ملاقاة الأعداء، رغم أنَّ «أبيَّ بن سلول» رأس النفاق انخذل هو وأصحابُه عن رسول الله ﷺ يوم أحد، فرجع بجماعته وكانوا نحواً من ثلاثمائة مقاتل، وقال عدو الله: علامَ نعرِّض أنفسنا للمخاطر؟ ومع قلَّة العدد في الرجال انتصر المؤمنون، حتى هزموا جيش المشركين، فولوا الأدبار، ولكنَّ الرغبة في جمع الغنيمة، ومخالفة بعض الصحابة لأمر الرسول عليه السلام حيث ترك الرماة أماكنهم التي حدَّدها لهم رسول الله ﷺ وأوصاهم ألاَّ يبرحوها وقال لهم: لا تبرحوا أماكنكم حتى ولو رأيتمونا تخطفتنا الطير، فخالفوا بعد النصر أمر الرسول ونزلوا لجمع الغنيمة، ورأى المشركون الجبل خالياً فجاءوهم من الخلف، ونزلوا

على المسلمين بسيوفهم، فانقلب النصر إلى هزيمة، وفي هذا تقول السورة الكريمة: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيْبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ والمعنى: أو حين أصابتكم أيها المؤمنون كارثة ومصيبة يوم أحد، فقُتل منكم سبعون، قد أصبتم مثليها في بدر، حيث قتلتم من المشركين سبعين، وأسرتم منهم سبعين «قلتم أنّى هذا» أي قلتم من أين هذا البلاء؟ ومن أين جاءتنا الهزيمة، وقد وعدنا الله بالنصر؟ وموضع التقريع في الآية قولهم: «أنى هذا» مع أنهم سبب النكسة والهزيمة ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: إنَّ سبب المصيبة منكم أنتم، بمعصيتكم أمر الرسول، وحرصِكم على الغنيمة: ﴿إنَّ الله على كل شيء قدير﴾ أي قادر على كل شيء، قادر على أن ينصركم أو يهزمكم، لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، ولكنكم خالفتم فانتكستم.

«الابتلاء سنة الحياة»

ثم بيَّن تعالى أنَّ هذا الابتلاء، لحكمة يريدها الله تعالى، وهي أن يأخذوا درساً في الطاعة والاستجابة لأمر الله وأمر رسوله، وليظهر أهل الإيمان من أهل النفاق فقال سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِيْنَ. وَلِيَعْلَمَ الَّذِيْنَ نَافَقُوْا وَقِيْلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوْا قَالُوْا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيْمَانِ يَقُوْلُوْنَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوْبِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُوْنَ﴾.

روي أنَّ النبي ﷺ استشار أصحابه في «غزوة أحد» هل يخرج من المدينة المنورة لملاقاة المشركين، أم يقيم المسلمون بالمدينة، فإذا دخلها عليهم المشركون قاتلوهم فيها؟ فأشار عليه «عبدالله بن أبيٍّ بن

سلول» بالبقاء في المدينة، وقال بعض الصحابة ممن لم يحضروا غزوة بدر: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنَّنا جبنًا وضعفنا عن ملاقاتهم، فأخذ الرسول ﷺ برأي الشباب، وترك رأي ابن سلول، فخرج في ألفٍ من أصحابه، وفي الطريق انخذل عنه «عبدالله بن سلول» بثلث الناس، وقال عدو الله: أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا؟ فتبعه والد جابر بن عبدالله، ينصحهم بالثبات ويؤنبهم على العودة، فأبى ابن أبي الاستماع إليه ورجع بثلاثمائة من أصحابه المنافقين، وفيهم نزلت هذه الآيات ﴿وليَعْلَمْ الَّذِيْنَ نَافَقُوْا وقيل لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا: لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم...﴾(1) الآية.

«صفات المنافقين»

ثمَّ بيَّن تعالى من أوصاف المنافقين الشنيعة، أنَّهم لا يؤمنون بالقضاء والقدر، ولهذا يخشون الخروج للقاء الأعداء في المعركة، لأنَّهم يخافون أن تداهمهم المنيَّة فيخسرون حياتهم، وهذا كله من فساد العقيدةِ ونقص الإيمان، ولهذا كان يوصي بعضهم بعضاً بعدم الخروج للجهاد ﴿الَّذِيْنَ قَالُوْا لإخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوْا لَوْ أَطَاعُوْنَا مَا قُتِلُوْا﴾ وقد ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوْا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن كان القعود ينجي من الموت، فادفعوا عن أنفسكم شبحه، ولكنَّ الأمر بالعكس فإنَّ الموت لا بدَّ آتٍ لكل عبد مخلوق ولو تحصَّن الإنسان منه في بروج مشيَّدة.

«أرواح الشهداء تسرح في الجنَّة»

ثم أخبر تعالى عن الشهداء بأنَّهم وإن قُتلوا في هذه الدار، فإنَّ

---

(1) انظر تفسير ابن كثير ١/٣٣٥.

أرواحهم حيَّة، تسرح في جنان الخلد، وتتنعَّم في دار البقاء، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ أَمْوَاتَاً، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُوْنَ. فَرِحِيْنَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُوْنَ بِالَّذِيْنَ لَمْ يَلْحَقُوْا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ﴾ روى عن النبي ﷺ أنَّه قال: «إنَّ أرواح الشهداء في جوف طير خضر، لها قناديل معلَّقةً بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلع عليهم رب العزَّة اطلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا أي شيء نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلمَّا رأوا أنَّهم لن يتركوا، قالوا يا رب: نريد أن تَرُدَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرَّة أخرى؟ فقال: إنَّه قد سبق مني أنَّهم إليها لا يرجعون؟ فقالوا: من يبلغ إخواننا أنَّا أحياء عند ربِّنا نرزق؟ فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً..﴾ الآية.

«استشارة الرسول لأصحابه»

لا نزال نلقي الأضواء على سورة آل عمران، تلك السورة الكريمة التي تناولت أحداث «غزوة أحد» بالتفصيل كما أسلفنا، ونبهت إلى ما في تلك الغزوة من دروس وعبر، فقد روي أنَّ النبي ﷺ لمَّا بلغه أنَّ قريشاً تجهَّزت لحربه، وخرجت بقيادة أبي سفيان تريد المدينة المنورة، في جيش يربو على ثلاثة آلاف مقاتل، جَمَع الرسول ﷺ أصحابه واستشارهم: هل يخرجون لمقاتلة الأعداء في العراء، أم يمكثون في المدينة المنورة حتى إذا اقتحمها العدو، قاتلهم الرجال في الطرقات، والنساء من فوق أسطحة البيوت؟ فأشار عليه الشباب بالخروج، وأشار

عليه البعض بالبقاء، وكان رأي «عبدالله بن أبيّ» وهو من رؤساء الأوس والخزرج، ومن أئمة النفاق والضلال ـ بعدم الخروج، فلمّا رأى رسول الله ﷺ أنَّ كثرة المسلمين تميل إلى البروز والخروج لملاقاة العدو دخل بيته ولبس آلة الحرب متهيِّئاً للقتال، فلمَّا خرج إليهم، ندم البعض وظنُّوا أنَّهم استكرهوا رسول الله ﷺ على الخروج فقالوا يا رسول الله: الرأي رأيُك، إن شئتَ أن تقعد، ونقاتلهم إن هاجمونا، فإنَّا نخشى أن نكون قد أكرهناك على الخروج؟ فقال لهم عليه السلام: «ما كان لنبيٍّ إذا لبس لأْمَتَه ـ أي لبس لباس الحرب ـ أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوِّه»(١).

ثمَّ خرج صلوات الله عليه في ألفٍ من أصحابه فلمَّا كانوا في منتصف الطريق، بين المدينة وأحد، انخذل عنه عبدالله بن سلول رأس المنافقين بثلث الناس، وقال: أطاع محمد الشباب وعصاني، فرجع بأصحابه المنافقين وكانوا نحواً من ثلاثمائةِ رجل، وزعم أنَّ المسلمين لن يلقوا حرباً، ولو كان هناك قتال لقاتل بجماعته معهم، وفيهم يقول القرآن الكريم: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِيْنَ نَافَقُوْا وَقِيْلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوْا، قَالُوْا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ﴾ قال تعالى: كاشفاً عن خباياهم، مبيِّناً حقيقة ما في قلوبهم من الكفر والنفاق: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيْمَانِ، يَقُوْلُوْنَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوْبِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُوْنَ﴾ ثمَّ أخذت السورة الكريمة تفيض في سرد مخازي المنافقين المذبذبين، الذين كشفتهم أحداث «غزوة أحد» العظيمة وأظهرت دخيلة نفوسهم فقال سبحانه: ﴿الَّذِيْنَ قَالُوْا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوْا، لَوْ أَطَاعُوْنَا مَا قُتِلُوْا، قُلْ فَادْرَءُوْا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾ أي قل لهم

(١) انظر سيرة ابن هشام رحمه الله.

يا محمد، قل لأولئك المنافقين: إنْ كان عدم الخروج سينجي من الموت، فادفعوا الموت عن أنفسكم، إن كنتم صادقين في دعواكم.. ولكنَّ الحقيقة كما أخبر عنها القرآن في آياته البيِّنات: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ فلن يدفع شبح الموت عن الإنسان قعود، ولا تخاذل عن الجهاد.

«شجاعة المؤمنين واستبسالهم»

وفي غزوة أحد ظهرت شجاعة المؤمنين، فقد كان عدد المشركين ثلاثة آلاف مقاتل، مدجَّجون بالسلاح، وكان عدد المسلمين سبعمائة رجل فقط، وبدأت المعركة بين جند الرحمن وجند الشيطان تثير الدهشة والغرابة، كأنَّ ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم، لا بضع مئاتٍ قلائل لا يزيدون على سبعمائة رجل.. وانتصر المؤمنون في أحد بإيمانهم وشجاعتهم واستبسالهم، حتى ولَّى المشركون الأدبار، ثمَّ كانت المفاجأة الغريبة، التي قلبت الميزان، وغيَّرت مجرى المعركة، فتحوَّل النصر إلى هزيمة، بسبب مخالفة الرماة أمر الرسول ﷺ، وقد كان صلوات الله عليه قد شدَّد على الرماة ألَّا يتركوا الجبل، وقال لهم: لا تبرحوا أماكنكم سواء انتصرنا أو هزمنا، حتى ولو رأيتمونا تخطفتنا الطير، فإني أخشى أن يأتينا الأعداء من خلف ظهورنا، ولكن ما أن رأى الرماة الهزيمة حلَّت بقريش، والكفارُ يولون الأدبار، والغنائم التي خلَّفها ثلاثة آلاف مشرك تزحم الوادي، حتى غادروا مواقعهم، هابطين إلى الميدان، فكانت النكسة بعد ذلك الانتصار الباهر، حيث جاءهم المشركون من خلف ظهورهم، وأعملوا سيوفهم في رقاب المسلمين، فاستشهد عدد كبير من أصحاب الرسول، قريبٌ من سبعين رجلاً، وعلى رأسهم أسد الإسلام «حمزة بن عبد المطلب» عمُّ الرسول عليه السلام،

وعن هؤلاء الشهداء الأبرار تتحدَّث الآيات الكريمة في آخر سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوْا فِي سَبِيْلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُوْنَ. فَرِحِيْنَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُوْنَ بِالَّذِيْنَ لَمْ يَلْحَقُوْا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ يَسْتَبْشِرُوْنَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾.

«فضل شهداء أحد»

روى الإمام مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنَّه قال: «لمَّا أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في جوف طيرٍ خضر، ترد أنهار الجنَّة، فتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقةٍ في ظل العرش، فلمَّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ـ أي مبيتهم ومنامهم ـ قالوا: من يبلِّغ إخواننا عنَّا أنَّا أحياء في الجنة نرزق، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب، فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا..﴾»[1] وروى الإمام الترمذي عن جابر بن عبدالله أنه قال: لقيني رسول الله ﷺ فقال يا جابر: مالي أراك منكّساً مهتماً؟ قلت يا رسول الله: استشهد أبي ـ في أحد ـ وترك عيالاً وعليه دين، فقال: ألا أبشرك بما لقي الله عزَّ وجل به أباك؟ قلت بلى يا رسول الله، قال إنَّ الله أحيا أباك وكلمه كفاحاً ـ أي مواجهة بدون حجاب ـ وما يكلم أحداً قط إلَّا من وراء حجاب، فقال له: يا عبد تمنَّ أعطك، قال يا رب: أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتلَ فيك ثانية، فقال الرب تبارك وتعالى: ﴿إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون! قال يا رب: فأبلغ من ورائي، فأنزل الله: ﴿ولا تحسبنَّ الذين

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

قتلوا في سبيل الله أمواتاً..﴾ الآية[١].

اللهمَّ ارزقنا منازل الشهداء، وثبِّت قلوبنا عند اللقاء، يا أرحم الراحمين.

«ذكريات البطولة والصمود»

لقد كانت موقعة أحد فياضةً بالعظات والدروس القيِّمة، وكان لها في نفس الرسول عليه الصلاة والسلام أثر عميق، ظلَّ يذكره إلى قُبَيْل وفاته، ففي أحد ظهرت بطولة الأبطال، وشجاعة الشجعان، حتى ردُّوا كيد المشركين عن الرسول وعن المسلمين، وكان ﷺ يقول: أحدٌ جبل يحبنا ونحبُّه، فلمَّا حانت وفاته، جعل آخر عهده بذكريات البطولة، أن يزور شهداء أحد، وأن يدعو الله لهم، وأن يعظ بهم الناس، فقد أخرج البخاري عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنَّه قال: «صلَّى رسول الله ﷺ على قتلى أحد بعد ثمان سنين، كالمودِّع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر فقال: إني بين أيديكم فرط، وأنا عليكم شهيد، وإنَّ موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لستُ أخشى عليكم أن تشركوا، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها، ـ أي تتركوا الجهاد وتتسابقوا على جمع حطامها ـ قال عقبة: فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ»[٢].

«غزوة حمراء الأسد»

كان رسول الله ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد، في ثوب واحد، ثم يقول: أيُّهم أكثر أخذاً للقرآن، فإن أُشير إلى أحدهما قدَّمه

(١) أخرجه الترمذي في سننه.

(٢) أخرج البخاري في صحيحه.

في اللحد، وقال أنا شهيد على هؤلاء، وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصلِّ عليهم ولم يغسِّلهم، ولمَّا رجع رسول الله إلى المدينة المنورة، بعد تلك الهزيمة التي مُنِّي بها المسلمون بسبب عصيانهم لأمر الرسول، تلاوم المشركون وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً، أصبتم شوكة القوم، ثم تركتموهم ولم تبتروهم، وقد بقيت منهم رؤوس يجتمعون لحربكم، فعزموا على العودة إلى المدينة المنوَّرة، ليقضوا على المسلمين، ونزل الوحي على رسول الله ﷺ يخبره بما تحدَّث به المشركون، ويأمره بأن يستنفر أصحابه للخروج في أثر قريش، فأذَّن مؤذن رسول الله في الناس بالخروج في طلب العدو، وأذَّن ألَّا يخرجنَّ معنا أحد اليوم إلَّا من حضر موقعة أحدٍ بالأمس، وما من المسلمين إلَّا جريح ثقيل، فخرجوا مع رسول الله ﷺ لم يتخلَّف منهم أحد، طاعةً لأمر الله وأمر رسوله، حتى وصلوا «حمراء الأسد» ولكنَّ الله عزَّ وجل ألقى الرعب والفزع في قلوب المشركين، فرأى أبو سفيان أن يرجع بالجيش، وأن يبعث إلى المسلمين من يقذف بالرعب في قلوبهم، ويخبرهم أنَّ قريشاً عادت لاستئصال شأفتهم، ولكنَّ المسلمين كانوا أشدَّ إيماناً وثقةً بنصر الله، على ما هم فيه من كرب وبلاء، وقد جاءت الآيات تثني عليهم، وتشيد بمواقف البطولة في تلك اللحظات الحاسمة: ﴿الَّذِيْنَ اسْتَجَابُوْا لِلَّهِ وَالرَّسُوْلِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ الْقَرْحُ لِلَّذِيْنَ أَحْسَنُوْا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيْمٌ. الَّذِيْنَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَانَاً وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ. فَانْقَلَبُوْا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوْءٌ وَاتَّبَعُوْا رِضْوَانَ اللَّهِ، واللَّهُ ذُوْ فَضْلٍ عَظِيْمٍ﴾[١].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام، ومختصر تفسير ابن كثير.

«المواقف المخزية للمنافقين»

ثمَّ تلتها الآيات تندِّد بالموقف المخزي للمنافقين، وتوضح أنَّ كفرهم ونفاقهم لن يؤثِّر شيئاً، ولن يوهن عزائم المؤمنين، ولكنَّ الحياة ابتلاء وامتحان: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِيْنَ يُسَارِعُوْنَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً، يُرِيْدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ. إِنَّ الَّذِيْنَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيْمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ. وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ، إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِيْنٌ﴾

بعد أن انتهى الاستعراض القرآني لمعركة أحد، وما فيها من أحداث جسيمة، فرَّقت بين جند الرحمن وجند الشيطان، وبعد أن تحدَّثت السورة عن مكائد المنافقين ودسائسهم، جاءت الآيات لتضع حدّاً فاصلاً بين فريقي الهداية والضلالة، وتُبين سنة الله الكونية في إمهال أعدائه، فإنَّه تعالى يُمهل ولا يُهمل، وذلك ليبطش بالظالم حين يشتد ظلمه، ويدمِّر الطاغي حين يشتد طغيانه، ثم ينقِّي الصفَّ من أوحال أهل الضلال والنفاق، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ - أي تأخيرنا لعذابهم لا يظنُّوه خيراً لهم - إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوْا إِثْماً، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِيْنٌ﴾ أي إنَّما نمهلهم ونؤخر آجالهم ليزدادوا طغياناً، فنأخذهم أخذ عزيز مقتدر. ثم قال تعالى مبيِّناً حكمة الابتلاء بقتال الأعداء، ألا وهي تمييز الخبيث من الطيب، وكشف حقائق ما انطوت عليه نفوس البشر: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ، فَآمِنُوْا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوْا وَتَتَّقُوْا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيْمٌ﴾ ثم بعد

هذا البيان الذي حرَّض الله تعالى فيه على بذل النفس في سبيل الله، جاءت الآيات تتحدَّث عن جريمة من بخل في الإنفاق لنصرة دين الله فقال سبحانه: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ يَبْخَلُوْنَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرَاً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ، سَيُطَوَّقُوْنَ مَا بَخِلُوْا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِلَّهِ مِيْرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرٌ﴾ أمَّا هذا التطويق الذي وعد الله بـه أولئك البخلاء، فقد وضَّحه لنا رسولنا الكريم بقوله: «من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته، مُثِّل له يوم القيامة شجاعـاً أقرع لـه زبيبتان ـ أي مثِّل له ماله ثعباناً هائلاً فظيعاً له نقطتان سوداوان في رأسه ـ فيأخذ بلهزميته ـ أي شدقيه ـ ثمَّ يقول: أنا مالُكَ، أنا كنزُكَ ثم تلا ﷺ قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين يبخلون. . ﴾ الآية.

«جرائم اليهود الشنيعة»

وبعد أن انتهى الاستعراض القرآني لمعركة أحد، وما فيها من أحداثٍ جسيمة، وتناولت السورة ضمن ما تناولته ذكر مكائد المنافقين ودسائسهم، وما انـطوت عليه نفـوسهم من الكيد للإسلام، والغـدر بالمسلمين، وتثبيط عزائمهم عن الجهاد في سبيل الله، جاءت الآيات هنا تتحدَّث عن جرائم اليهود، وأساليبهم الخبيثة في محاربة الدعوة الإسلامية، عن طريق الكيد والدَّس، والتشكيك والبلبلة، ثمَّ عن طريق الطعن في الذات العلية، ذاتِ الله جلَّ وعلا، فقد اتَّهم اليهود اللعناء الرب جل جلاله بالفقر والبخل، ثم سفكوا دماء الأنبياء، ونقضـوا العهود، وتلك هي صفات اليهود، في كل حين وزمان، ولنستمع إلى العليّ الكبير في هذه الآيات البيِّنات وهو يحدثنا عن اليهود فيقول: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِيْنَ قَالُوْا إِنَّ اللَّهَ فَقِيْرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوْا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍ وَنَقُوْلُ ذُوْقُوْا عَذَابَ الْحَرِيْقِ. ذَلِكَ بِمَا

قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وأنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

«سبب النزول»

روى الحافظ ابن كثير في سبب نزول هذه الآيات عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: «دخل أبو بكر الصديق ذات يوم بيت مدارس اليهود ـ أي بيت عبادتهم ـ فوجد ناساً من اليهود، قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له «فِنْحاص بن عازوراء» ـ وكان من علمائهم وأحبارهم ـ فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك اتَّق الله وأسلم، فوالله إنَّك لتعلم أنَّ محمداً رسولٌ من عند الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل!! فقال له فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنَّه إلينا لفقير أي محتاج، ما نتضرَّع إليه كما يتضرع إلينا، وإنَّا عنه لأغنياء، ولو كان غنيَّاً ما استقرض منَّا كما يزعم صاحبكم.. ينهاكم عن الربا ويعطينا إيَّاه، ولو كان غنيَّاً ما أعطانا الربا فغضب أبو بكر لله، وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال له: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم، لضربت عنقك يا عدوَّ الله.. فذهب فنحاص يشكوه إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد: انظر إلى ما صنع بي صاحبك؟ وأقبل أبو بكر نحو رسول الله فقال له الرسول: ما حملك على ما صنعتَ يا أبا بكر؟ فقال يا رسول الله: إنَّ عدوَّ الله قال قولاً عظيماً، زعم أنَّ الله فقير وأنَّهم أغنياء، فغضبتُ لله وضربتُ وجهه، فجحد فنحاص ذلك الكلام، فأنزل الله تصديقاً لأبي بكر وردَّاً على فنحاص ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِيْنَ قَالُوْا إِنَّ اللَّهَ فَقِيْرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوْا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ..﴾ الآية.

ثمَّ تتابعت السورة الكريمة تشنع على اليهود مخازيَهم، بسفكهم دماء الأنبياء وتكذيبهم لرسل الله فقال سبحانه: ﴿الَّذِيْنَ قَالُوْا إِنَّ اللَّهَ

عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُوْلٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ، قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ، فَلِمَ قَتَلْتُمُوْهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾؟ كما ذكرت بعد ذلك نقضهم للعهود والمواثيق فقال سبحانه عنهم ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيْثَاقَ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُوْنَهُ فَنَبَذُوْهُ وَرَاءَ ظُهُوْرِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيْلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُوْنَ﴾ قال ابن عباس: نزلت في اليهود، أخذ الله عليهم العهد والميثاق، في أمر رسول الله ونبوَّته، فكتموه ونبذوه ابتغاء حطام الدنيا الدنيء.

«ختم السورة الكريمة»

وبعد ذلك البيان الواضح الساطع عن المنافقين واليهود، ختمت السورة الكريمة، بذكر دلائل الوحدانية والقدرة، ودلائل الخلق والإيجاد البديع، ليستدل الإنسان على عظمة الخالق المدبِّر الحكيم، وباهر قدرته فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ. الَّذِيْنَ يَذْكُرُوْنَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوْداً وَعَلَى جُنُوْبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُوْنَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

«أعجبُ أحوالِ الرسول ﷺ»

روي أنَّ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها سئلت عن أعجب ما رأته من رسول الله ﷺ، فبكت ثم قالت: كان كل أمره عجباً، أتاني في ليلتي التي يكون فيها عندي، فاضطجع بجنبي حتى مسَّ جلده جلدي، ثم قال لي يا عائشة: ألا تأذنين لي أن أتعبد ربي عزَّ وجل؟! فقلت يا رسول الله: والله إني لأحبُّ قربك وأحبُّ هواك ـ أي أحب ألَّا تفارقني،

وأحبُّ ما يسرِّك ممَّا تهواه ـ قالت: فقام إلى قربة من ماء في البيت، فتوضأ ولم يكثر صبَّ الماء، ثم قام يصلي ويتهجَّد فبكى في صلاته حتى بلَّ لحيتَه، ثمَّ سجد فبكى حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يُؤذنه بصلاة الفجر، رآه يبكي، فقال يا رسول الله: ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال له: ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليَّ في هذه الليلة هذه الآيات: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ..﴾ فقرأها إلى آخر السورة ثم قال: ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها.

«آياتٌ تُنير الصدور»

إنَّها لآياتٌ تنير القلوب، وتشرح الصدور، بنورها الوضاء، وجلالها الساطع، فلنقرأها بتدبر وبإمعان، ولنستمع إلى توجيهاتها الحكيمة وهي تطالعنا بنهاية هذه الحياة، فلا يدوم فيها إلَّا الحيُّ القيُّوم: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيْلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ. لَكِنِ الَّذِيْنَ اتَّقُوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ﴾.

«الوصية الجامعة»

وقد ختمت السورة بهذه الوصيَّة الفذَّة، الجامعة لسعادة الدارين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اصْبِرُوا وَصَابِرُوْا وَرَابِطُوْا وَاتَّقُوْا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ﴾ اللهمَّ اجعلنا من عبادك الأبرار، ونوِّر قلوبنا بنور كتابك المبين، واختم لنا بخاتمة الخير والسعادة يا ربَّ العالمين، وآخر دعوانا أَنِ الحمد لله رب العالمين

تمَّ بعونه تعالى الكتاب في البلد الحرام

ويتلوه

الجزء الثاني «سورة النساء والمائدة والأنعام»

فهرس

قبس
من نور القرآن الكريم

دراسات قرآنية
٢

قبس من نور القرآن الكريم

من

سورة النساء، والمائدة، والأنعام

دراسة موسعة تحليلية لأهداف ومقاصد السور الثلاث

بقلم

خادم الكتاب والسنة

الشيخ محمد علي الصابوني

الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

دار القلم

دمشق

الطبعة الثانية
١٤٠٨هـ-١٩٨٨م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص. ب. : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص. ب. : ١١٣/٦٥٠١.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد الذي خصَّه الله بالمعجزة الكبرى، والآية العظمى «القرآن الكريم» وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا هو الكتاب الثاني في سلسلة «دراسات قرآنية» في ضوء السور الكريمة «النساء، المائدة، الأنعام» وهي دراسة موضوعية تحليلية هادفة، القصد منها تنوير القلوب والبصائر، بما تناوله الكتاب المعجز، الذي نزل على قلب خاتم المرسلين، بلسان عربي مبين.

وإننا إذ نشكر الله عزّ وجلّ أن وفَّقنا لخدمة كتابه، لنُبْرِز ما فيه من روائع الحِكَم والأحكام، ونُظهر أسرار إعجازه وبيانه، نسأله تعالى أن يمنَّ علينا بالتيسير والتسهيل، لما قصدناه في هذه الدراسات القرآنية، التي تتناول المواضيع التي تعرضت لها السور الكريمة، ليستوعب الأخ المسلم فهم ما حَوَته هذه السور المباركة من مقاصد وأهداف.

والله نسأل أن يرزقنا الصدق والإخلاص، في القول والفعل والعمل، وأن ينفع بهذه الدراسات إخواننا المؤمنين، إنه خير مسؤول، وأعظم مأمول، وصلىٰ الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الشيخ محمّد علي الصّابوني

بسم الله الرحمن الرحيم

(٣)

دراسة سُورَة النِّسَاءِ

مَدَنِيَّةٌ وَآيَاتُهَا مِئَةٌ وَسِتٌّ وَسَبْعُونَ آيَة

سُورَة النِّسَاء

بين يدي السُّورَة

سورة النساء هي إحدى السور المدنية، التي نزلت بعد الهجرة النبوية، وهي سورة مليئة بالأحكام الشرعية، التي تنظِّم الشؤون الداخلية والخارجية للمسلمين، وقد تحدثت السورة الكريمة عن أمور هامة، تتعلق بالأسرة والمرأة والبيت والدولة والمجتمع، ولكنَّ معظم الأحكام التي وردت فيها، كانت تبحث حول حقوق النساء، ولهذا سميت سورة النساء.

تحدثت السورة الكريمة عن حقوق النساء، وبوجه خاص عن اليتيمات في حجور الأولياء والأوصياء، فقرَّرت لهن حقوقهن كاملة، في الميراث، والكسب، والزواج، والوصية وغير ذلك، واستنقَذْتهن من عسف الجاهلية وتقاليدها الظالمة المهينة.. وتعرضت لموضوع النساء الأرامل فصانت كرامتهن، وحفظت كيانهن، ودعت إلى إنصافهن في أمور المهر والميراث، وحسن المعاملة والمعاشرة.. كما تعرضت بالتفصيل لأحكام المواريث، على الوجه الدقيق العادل، الذي يكفل العدالة، ويُحقّق المصلحة، ويقضي على الظلم والطغيان، فقد كانت المرأة في الجاهلية لا ترث شيئاً من المال، بحجة أنها لا تركب فرساً، ولا تحمل سلاحاً، ولا تقاتل عدواً، فجاءت الشريعة الإسلامية لتقرر

حقاً مكتسباً للمرأة، من إرث زوجها أو أبيها أو أخيها، تأخذه وهي مرفوعة الرأس لأنه حقها الذي منحه الله لها بقوله: ﴿ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُوْنَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ﴾ كما تعرضت السورة الكريمة للمحرمات من النساء، بالنسب والرضاع والمصاهرة، وما يحل ويحرم منهن.. وتناولت كذلك تنظيم العلاقات الزوجية، وبينت أنها ليست علاقة جسد بجسد، وإنما هي علاقة إنسانية فاضلة كريمة، وأن المهر الذي يدفعه الرجل للمرأة، ليس أجراً ولا ثمناً يقابل البُضع، وإنما هو عطاء يُوثِّق المحبة، ويديم العِشرة، ويربط القلوب برباط المودة والمحبة.

ولكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بالنساء، بدرجةٍ لم توجد في غيرها من السور الكريمة، «سورة النساء» ويطلق عليها المفسرون «سورة النساء الكبرى» في مقابلة «سورة النساء الصغرى» التي عرفت في القرآن الكريم باسم «سورة الطلاق» وكلا السورتين اعتنت بأمور النساء.

«رابطة إنسانية بين البشر»

لقد ابتدأت السورة الكريمة بخطاب الناس جميعاً بتقوى الرحمن، التي هي سرُّ سعادة الإنسان ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَها، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ فالناس جميعاً تربطهم هذه الرابطة المقدسة، رابطة الأخوَّة في الإنسانية، والأخوَّة في النسب، فهم جميعاً من أصل واحد، أبوهم آدم، وأمهم حواء، إذن فهم إخوة شاءوا أم أبوا، ولو أدرك الناس هذا المعنى السامي النبيل، لعاشوا في سعادة وأمان، ولما كانت هناك في الأرض

حروب طاحنة مدمرة، تلتهب الأخضر واليابس، وتقضي على الكهل والوليد، وقد ربط تعالى بين التقوى والخلق ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ٱلَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ كما ربط بين التقوى وصلة الرحم ﴿ واتقوا الله الّذي تساءلون به والأرحام ﴾ ليدل على أهمية هذه الرابطة الإنسانية، فهم مهما تنوعت أجناسهم، وتعددت قبائلهم، واختلفت أشكالهم وألوانهم، يجمعهم نسب واحد، ويرجعون إلى أصل واحد، هو آدم عليه السلام وزوجته حواء ولهذا قال: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ فأين هي اليوم نظرة المجتمع الدولي، إلى هذه الرابطة الكريمة التي أرشدنا إليها القرآن؟!.

«الوصية باليتيمات من البنات»

ثم انتقلت السورة الكريمة تتحدث عن اليتيمات، في كفالة الأولياء والأوصياء ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوْا فِي اليَتَامَى فَانْكِحُوْا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوْا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُوْلُوْا ﴾ ولعل سائلاً يسأل: ما علاقةُ اليتامى من البنات، في موضوع تعدد الزوجات؟ وللجواب عن هذا نقول: لقد أشكل هذا الأمر على بعض الصحابة، حتى سأل «عروةُ بن الزبير» خالته عائشة رضي الله عنها عن هذه الآية، وعن وجه الارتباط فيها، فقالت له: يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حِجْر وليها ـ أي تحت رعايته وكفالته ـ تشركه في ماله، ويعجبه مالُها وجمالُها، فيريد وليها أن يتزوجها رغبةً فيما لها من المال والجمال، ولكنه لا يعدل معها في المهر، ولا يدفع لها من المهر ما يدفعه غيره، بسبب أنها تحت كفالته، فنهوا أن يتزوجوا بهن حتى يدفعوا لهن المهر كاملاً، وأُمروا أن

ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، فذلك قوله تعالى: ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ من النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ وكأنّ الآية تقول: إن لم تعدلوا مع اليتيمات فاتركوهنَّ، وتزوجوا بمن شئتم من النساء، واحدةً، واثنتين، وثلاثاً، وأربعاً، فإن لم تستطيعوا العدل بين الزوجات، فاقتصروا على الزواج بواحدة، فإن ذلك أضمن لعدم الجور والظلم.

«تعدد الزوجات في الإسلام»

وهنا لا بدَّ لنا أن نتكلم بإيجاز عن مسألة «تعدد الزوجات» التي يعتبرها بعض الغربيين، نقيصةً وأمراً شائناً في شريعة الإسلام، وللرد على هذا نقول: إن مسألة تعدد الزوجات، ضرورة اقتضتها ظروف الحياة، فهي علاج ودواء لبعض الحالات الاضطرارية التي تعاني منها المجتمعات، بل هي مفخرة من مفاخر الإسلام لأنه استطاع بتشريعه الخالد، أن يحل مشكلة اجتماعية هي من أعقد المشاكل، التي تعاني منها الشعوب والأمم اليوم فلا تجد لها حلاً، إن المجتمع الإنساني في نظر الإسلام هو كالميزان، يجب أن تتعادل فيه الكفتان، فماذا نصنع عندما يختل التوازن فيصبح عدد النساء أضعاف عدد الرجال؟ أليست هذه حالة خلل في المجتمع البشري، يجب أن يقابله المشرع بالتشريع الحكيم؟.

«حكمة تعدد الزوجات»

لقد تناولنا موضوع تعدد الزوجات في تشريع الإسلام، وبينا أن مسألة تعدد الزوجات ضرورة اقتضتها ظروف الحياة، وهي ليست تشريعاً جديداً انفرد به الإسلام، وإنما جاء الإسلام فوجده بلا قيود ولا شروط

وله حدود، وبصورةٍ غير إنسانية، فنظّمه وهذّبه وجعله علاجاً ودواءً لبعض الحالات الاضطرارية التي يعاني منها المجتمع يقول الله جل ثناؤه: ﴿ فَانْكِحُوْا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوْا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُوْلُوْا. وَآتُوْا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوْهُ هَنِيئاً مَرِيئاً ﴾.

لقد أباح الباري عز وجل لعباده المؤمنين، أن يَتزوّجُوا اثنتين، وثلاثاً وأربعاً، وشرط العدل بينهن في المأكل، والملبس، والسكنى، والمبيت، فإن خاف الرجل عدم العدل، وجب عليه أن يقتصر على زوجةٍ واحدة، وذلك لئلا يقع في الجور والظلم ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُوْلُوْا ﴾ أي الاقتصار على واحدة أدعى إلى تحقيق العدالة، وأقرب ألا تميلوا وتجوروا، فإن الله عز وجل يكره الظلم والجور. . ولقد جاء الإسلام أيها الإخوة والرجال يتزوجون عشر نسوة أو أكثر أو أقل، بدون حدٍ ولا قيد، فجاء ليقول للناس: إن هناك حداً لا ينبغي لأحدٍ تجاوزه، هو «أربع» فقط، وإن هناك قيداً وشرطاً لإباحة هـذه الضرورة هي «العدل» بين الزوجات، فإذا لم يتحقق ذلك وجب الاقتصار على زوجة واحدة ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوْا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ فتعدد الزوجات إذاً نظام قائم وموجود منذ العصور القديمة، ولكنه كان فوضى فنظّمه الإسلام، وكان تبعاً للهوى والشهوة الجنسية، والاستمتاع بلذائذ الحياة، فجعله الإسلام طريقاً لعمارة الدنيا، وللحياة الفاضلة الكريمة.

«تعدد الزوجات مفخرة من المفاخر»

والحقيقة التي ينبغي أن يعلمها كل إنسان عاقل، إن إباحة تعدد

الزوجات مفخرة من مفاخر الإسلام، لأنه استطاع بتشريعه الخالد أن يحل مشكلة عويصة، هي من أعقد المشكلات، تعاني منها الأمم والمجتمعات، فلا تجد لها اليوم حلاً إلا بالرجوع إلى حكم الإسلام، والأخذ بنظامه السديد الرشيد.

إن هناك أسباباً قاهرة، تجعل التعدد في الزوجات ضرورة لا مندوحة عنها، كعقم الزوجة، ومرضها مرضاً يمنع زوجها من التعفف، وكثرة سفر الرجل وبعده عن أهله، وغير ذلك من الأسباب التي لن نتعرض لذكرها الآن، ولكنْ نشير إلى نقطة هامة دقيقة، يدركها الإنسان بكل بساطةٍ ويسر، وهي أن المجتمع كالميزان يجب أن تتعادل كِفّتاه، بمعنى أن يكون عدد النساء بقدر عدد الرجال، فماذا نصنع حين يختل التوازن، فيصبح عدد النساء أضعاف عدد الرجال؟ أنحرم المرأة من نعمة الزوجية ومن «نعمة الأمومة» ونتركها تسلك طريق الفاحشة والرذيلة، لتلبي حاجة الجسد، كما حصل في البلاد الأوربية، من جراء تزايد عدد النساء بعد الحرب العالمية الأخيرة؟ أم نحل هذه المشكلة، بطرق فاضلة شريفة، نصون بها كرامة المرأة، وطهارة الأسرة، وسلامة المجتمع؟!.

أيهما يا تُرى أكرم وأفضل لدى المفكر العاقل، أن ترتبط المرأة برباطٍ مقدس، تحت كنف الزوجية، تنضم فيه مع امرأةٍ أخرى تحت حماية رجل، بطريق شرعي شريف، أم نجعلها «خدينةً» و«عشيقة» لرجل من الرجال، وتكون العلاقة بينهما علاقة إثم وإجرام؟ وأقرب الأمثلة شاهداً على ما نقول ما حدث في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، حيث زاد عدد النساء زيادة فاحشة على عدد الرجال، فأصبح مقابل كل شاب ثلاث فتيات، وهي حالة اختلال في الميزان

الاجتماعي، فكيف يواجهها المشرِّع؟ إن هناك حلاًّ من حلولٍ ثلاثة:

الحل الأول: أن يتزوج كل رجلٍ امرأة واحدة فقط، وتبقى اثنتان، لا تعرفان في حياتهما رجلاً، ولا بيتاً، ولا طفلاً، ولا أُسرة.

الحل الثاني: أن يتزوج كل رجل امرأة واحدة فيعاشرها معاشرة زوجية، وأن يتصل بالأخريين أو واحدة منهما، لتعرف الرجل دون أن تعرف البيت أو الطفل، فإذا عرفت الطفل عرفته عن طريق الفاحشة والرَّذيلـــة.

الحل الثالث: أن يتزوج الرجل أكثر من امرأة، فيرفعها إلى شرف الزوجية، وأمان البيت، وضمانـة الأسرة، ويـرفع ضميـره عن لوثـة الجريمة، وقلق الضمير، ويرفع المجتمع عن لوثة الفوضى واختلاط الأنساب.

أي الحلول أليق بالإنسانية، وأحق بالرجولة، وأكرم للمرأة وأنفع؟ لقد اختارت ألمانيا المسيحية التي يحرم دينها التعدد، فلم تجد خيرة أمامها إلا ما اختاره الإسلام، فأباحت تعدد الزوجات رغبة في حماية النساء من احتراف مهنة الزنى والبغاء، تقول أستاذة دكتورة في الجامعة الألمانية: إن حل مشكلة المرأة الألمانية، هو في إباحة تعدد الزوجات، إنني أفضل أن أكون زوجة مع عشر نساء لرجل ناجح، على أن أكون الزوجة الوحيدة لرجل فاشل تافه، وليس هذا رأيـي وحدي بل هو رأي جميع النساء.

* * *

ونتابع الحديث عن سورة النساء، تلك السورة الكريمة التي اعتنت بجانب التشريع، وتحدثت عن أمور هامة جليلة، تتعلق بالمرأة، والبيت، والأسرة، والدولة، والمجتمع، ومن ضمن ما تحدثت عنه

السورة موضوع «المواريث» وفي ذلك يقول الباري جل وعلا: ﴿ يُوْصِيكُم اللَّهُ في أوْلَادِكُمْ لِلْذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيْين، فَإنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْن فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسْ مِمّا تَرَكَ إنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَورِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُلُثُ فإنْ كَانَ لَهُ إخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِن اللَّهِ إنّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾.

هذه إحدى آيات ثلاث نزلت في شأن المواريث، وقد بين الله تبارك وتعالى فيها نصيب كل وارث ممن يستحق الإرث، وأرشد إلى مقدار نصيبه وإرثه، وقسم تعالى بنفسه تلك القسمة العادلة على الوجه الحكيم الدقيق، الذي لم ينس فيه حق أحد، ولم يُغفل من حسابه شأن الصغير والكبير، ولا شأن الرجل والمرأة، بل أعطى كل ذي حق حقه، على أكمل وجوه التوزيع، وأروع صور المساواة، وأدق أصول العدالة، بشكل لم يدع فيه مقالة لمظلوم، ولا شكوى لإنسان، ولا رأياً لتشريع أرضيٍّ، يهدف إلى تحقيق العدالة والمساواة بين أفراد البشر.

«لماذا كان نصيب الذكر ضعف الأنثى»؟

قد يتساءل البعض لماذا أعطيت المرأة نصف نصيب الرجل مع أنها أضعف منه وأحوج للمال؟.

وللجواب: عن ذلك نقول: إن الشريعة الإسلامية قد فرَّقت بين الذكر والأنثى في الميراث لحِكَم كثيرة نذكر منها ما يأتي:

أولاً: إن المرأة مكفية المؤنة والحاجة، فنفقتها واجبة على أقربائها، على أبيها أو أخيها، أو ابنها أو غيرهم من العصبات، وذلك

بحكم الشريعة الغراء ﴿ لِيُنْفِقْ ذُوْ سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ﴾.

ثانياً: المرأة لا تكلف بالإنفاق على أحد؛ بخلاف الرجل فإنه مكلف بالإنفاق على من يعولهم من الأولاد والأبناء، والأهل والأقرباء وغيرهم ممن تجبُ عليه نفقتهم.

رابعاً: الرجل يدفع مهراً للزوجة ويُكلف بنفقة السكنى وبالمطعم والملبس للزوجة والأولاد.

خامساً: أجور التعليم للأبناء، وتكاليفُ العلاج والدواء للزوجة والأولاد يدفعها الرجل دون المرأة.

إلى آخر ما هنالك من المصاريف والنفقات، التي هي على كاهل الرجل، والتي يكلف بها بمقتضى الشريعة الإسلامية الغراء، وبأمر الحكيم العليم ﴿ لِيُنْفِقْ ذُوْ سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾.

«حكمة جليلة»

ومن هذه النظرة الخاطفة يتضح لها حكمةُ الله الجليلة في التفريق بين نصيب الذكر والأنثى، فكلما كانت النفقاتُ على الشخص أكثر، والالتزاماتُ عليه أضخمَ وأكبر، استحق بمنطق العدل والإنصاف أن يكون نصيبه أكثر وأوفر.. ومع أن الإسلام أعطى الذكر ضعف الأنثى، فإنه مع ذلك غمر المرأة برحمته وفضله، وأعطاها فوق ما كانت تتمنى وتتصور، فهي مرفهة ومنعَّمة لأنها تشارك الرجل في الإرث دون أن تتحمل شيئاً من التبعات، لأنها تأخذ ولا تعطي، وتغنم ولا تغرم، وتدخّر مالها دون أن تكلف بشيء من النفقات، أو تشارك الرجل في تكاليف العيش ومتطلبات الحياة.

«مثلٌ توضيحي»

والشريعة الإسلامية لا توجب على المرأة أن تنفق شيئاً من مالها على نفسها أو أولادها مهما كانت غنية موسرة مع وجود الزوج، لأنه هو المكلف بالنفقة عليها وعلى جميع الأولاد في السكن والمطعم والملبس كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُوْدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْـرُوْفِ﴾ ولنضرب مثلاً يسيراً يوضح لنا الفكرة، ويُظهر حكمة التشريع في التفريق بين ميراث الذكر والأنثى:

إنسان تُوفي وخلَّف ولدين فقط «ذكراً وأنثى» وترك لهما ميراثاً ثلاثة آلاف جنيه، فعلى ضوء الشريعة الإسلامية تأخذ الأنثى ألفاً ويأخذ الذكر ألفين، وإذا كانا على أبواب الزواج وأراد الشاب أن يتزوج فإنه يدفع المهر لزوجته، ولنفرض أن المهر كان ألفي جنيه فقط، فقد دفع كل ما ورثه من أبيه مهراً لزوجته، فلم يبق معه شيء، ثم يكلف بعد الزواج بكل النفقات، نفقات الطعام والشراب والعلاج والسكنى.. أما البنت فإنها إذا تزوجت تأخذ المهر من زوجها ولنفرض أنه كان ألفي جنيه، فهي والحال هذه قد ورثت ألفاً من أبيها وأخذت ألفين من زوجها، أصبح مجموعُ ما لديها ثلاثةَ آلاف جنيه، ثم هي لا تكلف بإنفاق شيء من مالها مهما كانت غنية موسرة، لأن نفقتها أصبحت عل كاهل زوجها، فهو المكلف بتأمين السكن لها وبالإنفاق عليها ما دامت في عصمته، فمالها زاد، ومالُ الذكر نَقَص، وما ورثته عن أبيها بقي مدخراً لها ونما، وما ورثه عن أبيه ذهب وتلاشى، فأيهما أسعد حالاً وأكثر مالاً الفتى أم الفتاة[1]؟.

---

(١) انظر كتابنا (المواريث في الشريعة الإسلامية في ضوء الكتاب والسنّة) وكتابنا (روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن).

«كيف كانت تعامل المرأة في الجاهلية»

لقد كانت المرأة - أيها الإخوة - قبل أن تبزغ شمس الإسلام، لا تعطى شيئاً من الإرث، بحجة أنها لا تقاتل ولا تدافع عن حمى العشيرة والوطن، وكان العرب يقولون: كيف نعطي المال من لا يركب فرساً ولا يحمل سيفاً ولا يقاتل عدواً؟ فكانوا يمنعونها من الإرث كما يمنعون الوليد الصغير، فلما جاء الإسلام رفع عن كاهلها الظلم، ودفع عنها العدوان، وجعل لها حقاً في الميراث تأخذه بحكم الله جل وعلا، لا منَّةَ لأحدٍ عليها فيه، وليس إحساناً ولا تحنناً، بل هو فريضة الله جلَّ وعلا العادلة وصدق الله العظيم ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمَاً حَكِيماً﴾.

«المحرمات من النساء»

تحدثت الآيات السابقة عن المرأة، والبيت، والأسرة، والدولة، والمجتمع، ولكنَّ معظم الأمور التي تناولتها تتعلق بموضوع النساء، ولهذا سميت «سورة النساء».

وبعد أن أوصى تبارك وتعالى الرجال بحسن معاشرة النساء، ورغَّب في الإحسان إليهن، وحذَّر من إيذائهن أو أكل مهورهن، عقَّبه بذكر المحرمات من النساء، اللواتي لا يجوز للرجل الزواجُ بهنَّ بسبب القرابة أو النسب أو المصاهرة أو الرضاع فقال عز شأنه: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً. حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ..﴾ الآية.

وإلى هنا ينتهي ذكر المحرمات من النسب والرضاع، ثم يأتي الحديث عن المحرمات بسبب المصاهرة فيقول تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

«حكمة التحريم في المحارم»

لقد حرم الباري جل وعلا نكاح المحارم من النساء، سواء كانت القرابة عن طريق النَّسب، أو الرضاع، أو المصاهرة، وجعل هذه الحرمة مؤبدة لا تحل بحال من الأحوال، وذلك لحكم جليلة عظيمة نبينها بإيجاز:

أولاً: لما اقتضت طبيعة الوجود «تكوين الأسرة» وكانت الأسرة محتاجة إلى الاختلاط بين أفرادها، بسبب المعيشة وقرابة النسب، رفع الله الحواجز بين أفراد هذه الأسرة، فجعل العلاقة طبيعية عادية، لا تثير الشهوة ولا تحرِّك الغرائز، ولو أبيح الزواج من المحارم لتطلعت النفوس إليهن فحدثت الغيرة والتنافس بين أفراد الأسرة، فيغار الرجل من ابنه على أمه وأخته، وذلك يدعو إلى النزاع والخصام، وتفكك الأسرة، وحدوث القتل الذي يدمّر الأسرة والمجتمع، كما حدث لقابيل مع أخيه هابيل بسبب الرغبة في الزواج.

ثانياً: إن الوليد يتكون جنيناً من دم الأم، ثم يكون طفلاً يتغذى من لبنها، فيكون له مع كل مصَّة من ثديها عاطفةٌ جديدة، يستلُّها من قلبها، فالطفل إذاً جزء من أمه، وهو لا يحب أحداً في الدنيا مثل أمه، أفليس من الجناية على الفطرة أن يُزَاحمَ هذا الحبَّ العظيمَ بين الوالدين

والأولاد، حبُّ الاستمتاع بالشهوة فيزحَمه ويُفْسِدُه وهو خير ما في هذه الحياة؟ ومن أجل هذا كان تحريم نكاح الأمهات هو الأشد المقدَّم في الآية، ويليه تحريم البنات، ثم الأخوات، ثم العمات، والخالات إلى آخره.

ثالثاً: ثم إن هناك حكمة جسديةً حيوية عظيمة، وهي أن التزوج بالأقارب يكون سبباً لضعف النسل، فإذا تسلسلت واستمرت يتسلسل الضعف والنحافة حتى ينقرض النسل، والعلة في ذلك أن الشهوة إنما تنبعث بقوة الإحساس، بالنظر أو اللمس، وإنما يقوى الإحساس بالأمر الجديد الغريب، وأما المتعارف المألوف فإنه يضعف الحس ولا تنبعث به الشهوة.

«حكمة المحرمات بالمصاهرة»

وأما المحرمات بالمصاهرة كأم الزوجة وبنت الزوجة وزوجة الابن فإن الحكمة فيها ظاهرة جلية، فقد أكرم الله عز وجل البشرية بهذه الرابطة الإنسانية، وامتنَّ على الناس بقرابة الصهر، التي تجمع بين النفوس المتباعدة المتنافرة بروابط الإلفة والمحبة كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ فإذا تزوج الرجل من عشيرة صار كأحد أفرادها، فينبغي أن تكون أمُّ زوجته بمنزلة أمه في الاحترام، وبنتها التي في حجره كبنته من صلبه، وكذلك يجب أن تكون زوجة ابنه بمنزلة ابنته، فمن القبيح جداً أن تكون البنت ضرَّة لأمها، وأن يكون الابن طامعاً في زوجة أبيه، فإن ذلك يكون سبب فساد العشيرة وينافي حكمة المصاهرة.

«تحريم نكاح المُتْعة»

بعد هذا البيان الذي أشرنا إليه من حكمة تحريم نكاح المحارم من النساء، لا بدَّ لنا من وقفة قصيرة حول الحديث عن «نكاح المتعة»

الذي يبيحه بعض الطوائف التي تنتمي إلى الإسلام، ويستدلون على إباحته بقول الله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ وهذا استدلال خاطىء بعيد كل البعد عن الفهم السويّ وعن مقاصد الإسلام وأهدافه السامية، ونكاح المتعة هو أن ينكح الرجل امرأة وقتاً معلوماً شهراً أو شهرين، أو يوماً أو يومين ثم يتركها بعد أن يقضي منها وطره، وقد أجمع علماء وفقهاء الأمصار على تحريم نكاح المتعة، ذلك لأن من مقاصد الإسلام دوام استمرار الحياة الزوجية من أجل التناسل الذي هو سبب عمران الأرض، ونكاح المتعة لا يقصد به إلا قضاء الشهوة، ولا يقصد به التناسل ولا المحافظة على الأولاد وهي المقاصد الأصلية للزواج، وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ لا يقصد به نكاح المتعة، وإنما يقصد به الاستمتاع الجنسي عن طريق الزواج الشرعي الذي رغب فيه الإسلام، وقد ثبت تحريم المتعة بالأدلة الصريحة الصحيحة منها ما رواه مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء وعن أكل اللحوم الأهلية، ومنها ما رواه ابن ماجه أن رسول الله ﷺ حرَّم المتعة فقال: «يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع ألا وإن الله قد حرمها إلى يوم القيامة» ومن أجل ذلك قال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «واللّهِ لا أُوتَى برجلٍ نكح لمتعةٍ، إلَّا غيَّبتُه تحت الحجارة» أي رجمته بالحجارة حتى يموت.

«الخطوات في معالجة نشوز الزوجة»

وضعت «سورة النساء» الإطار العام الذي يحفظ على الأسرة سعادتها وطمأنينتها، ويدفع عنها غوائل التمزق والتفكك والانحلال، وفي هذه الآيات البينات، يضع القرآن أيدينا على الأسباب التي تجعل الأسرة يخيم عليها سحاب التعاسة والشقاء، الذي يعصف بالزوجين،

وترشدنا إلى طريق معالجة الشقاق بينهما بالأسلوب الحكيم، والطريق السوي السليم فيقول الله جل ثناؤه: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُوْنَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ واللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِياً كَبِيراً. وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِقِ اللّهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾.

آيات واضحات منيرات من كتاب ذي العزة والجلال، الذي شرع من الأحكام ما فيه سعادة البشرية ومعالم حضارتها ورقيّها، وإذا كانت الأسرة في نظر الإسلام هي اللبنةُ الأولى، لبناء المجتمع الإنساني، وهي الدعامة الأصلية، لصلاح المجتمع الأكبر، فلا عجب أن نرى عنايته بالأسرة قد بلغت هذه الدرجة الفائقة، فلقد تناولت السورة حق الزوج على زوجته، وحق الزوجة على زوجها، وأرشدت إلى الخطوات التي ينبغي أن يسلكها الرجل لإصلاح الحياة الزوجية، عندما تهبُّ عواصف العصيان، ويبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين، وبينت أن معنى قوامة الرجل على زوجته ليست قوامة استعباد وتسخير، وإنما هي قِوامة نصح وتأديب، كالتي تكون بين الراعي ورعيته، فالرجال لهم درجة الرئاسة على النساء، بما منحهم الله من العقل والتدبير، وبما خصهم به من الكسب والإنفاق، فهم يقومون على شؤون النساء، كما يقوم الولاة على الرعايا، بالحفظ والحماية وتدبير الشؤون، ثم فصَّل تعالى حال الزوجات تحت رئاسة الرجل فذكر أنهن قسمان: قسم صالحات مطيعات لربهن وأزواجهن، وقسم عاصيات متمردات، فالزوجات الصالحات مطيعات للأزواج حافظات لأوامر الله، قائمات بما

عليهن من حقوق وواجبات، يحفظن أنفسهن عن الفاحشة ويحفظن أموال أزواجهن عن الإسراف والتبذير، فهن عفيفات، أمينات فاضلات.

وأما القسم الثاني: وهن الزوجات الناشزات، المتمردات المتكبرات عن طاعة أزواجهن، فقد أرشدنا القرآن الكريم إلى إتباع الخطوات التالية معهن: وهي خطوات رشيدة حكيمة:

«طريقة العلاج»

أولاً: استعمال طريق النصح والإرشاد ﴿ فَعِظُوْهُنَّ ﴾.

ثانياً: فإن لم ينفع الوعظ والتذكير ولم يؤثّر فيهن النصح والإرشاد، فعلى الرجل أن يهجرها في الفراش مع الصدِّ والإعراض، فلا يكلمها ولا يقربها ولا يعاشرها المعاشرة الزوجية، لعلها ترعوي عن غيِّها وضلالها ﴿ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعْ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الهجر في المضاجع هو أن يضاجعها ويولِّيها ظهره ولا يجامعها.

ثالثاً: وإذا لم ترتدع بالموعظة ولا بالهجران فقد جاء دور التأديب بضربها ضرباً غير مبرّح، ضرباً رفيقاً يؤلم ولا يؤذي، ويؤدب ولا يُحطِّم.

ثم ختم تعالى الآية الكريمة بما يوحي بقدرته على الانتقام من الظالمين، زجراً للرجال عن تخطي درجة التقويم والإصلاح إلى درجة الانتقام والعدوان فقال: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوْا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيًّاً كَبِيراً ﴾.

أي فإن الله تعالى أعلى منكم وأكبر، وهو وليهن ينتقم ممن ظلمهنَّ وبغى عليهنَّ، لأنه هو الكبير المتعال، ولننظر كيف يعلمنا الله سبحانه أن نؤدب نساءنا بالطريق الرشيد الحكيم، ولننظر بإمعان إلى ترتيب العقوبات ودقتها، حيث أمرنا الباري جل وعلا بالوعظ، ثم

بالهجران، ثم بالضرب ضرباً غير مبرح - أي غير شديد ولا كاسر أو جارح - ثم ختم الآية بصفة العلوّ والكِبَر، لينبه العبد على أن قدرة الله عليه فوق قدرة الزوجة عليها، وأنه تعالى عون الضعفاء وملاذ المظلومين.. ثم إذا لم تُجدِ جميع تلك الطرق والخطوات في إصلاح الزوجة، فعلى الحاكم أن يختار حكمين عدلين، واحدٌ من أقرباء الزوجة، والثاني من أقرباء الزوج، ليجتمعا ويبحثا في موضوع الخلاف بينهما ويفعلا ما فيه المصلحة من التوفيق أو التفريق ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوفِقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴾.

«كلمةٌ حول الضرب والتأديب»

لعل أخبث ما يتخذه أعداء الإسلام للطعن في الشريعة الغراء، زعمهم أن الإسلام أهان كرامة المرأة حين سمح للرجل أن يضربها!؟ والجواب أن نقول لهم: رويدكم فلقد أخطأتم الفهم وجنيتم على الحقيقة.. نعم لقد سمح الإسلام بضرب المرأة، ولكن متى يكون الضرب ولمن يكون؟ إن هذا علاج ودواء، والدواء يحتاج إليه الإنسان عند الضرورة وعند اشتداد المرض، فالمرأة حين تسيء عِشْرة زوجها، وتركب رأسها، وتسير وراء الشيطان وبقيادته، وتقلب الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق، فماذا يصنع الرجل في مثل هذه الحالة أيطردها من البيت؟ أم يطلقها؟ أم يتركها تصنع ما تشاء؟ لقد أرشدنا القرآن الكريم إلى الدواء الناجح، فأمر بالصبر والأناة، ثم بالوعظ والإرشاد، ثم بالهجر في المضاجع، فإذا لم تنفع كل هذه الوسائل فلا بدَّ من سلوك طريق آخر هو الضرب ضرباً غير مبرِّح، لكسر الغطرسة والكبرياء، وإخراج «الشيطان الخناس الذي يوسوس في صدور الناس» من رأس تلك المرأة

الغاوية، وهذا أقل ضرراً من إيقاع الطلاق عليها، وإذا قيس الضرر العظيم بالضرر الأخف منه كان هذا الضرر مستحسناً وجميلاً كما قيل: (وعند ذكر العمى يُسْتحسن العور)، فالضرب إذاً بمثل السواك طريق من طُرق العلاج التي يستعصي فيها الإصلاح باللطف والنصح والإحسان والجميل ﴿ فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُوْنَ يَفْقَهُوْنَ حَدِيثاً ﴾؟.

«الحياة أساسها التكافل والتراحم»

وبعد أن تحدثت السورة عن حقوق الزوجين، وأرشدت إلى الخطوات التي ينبغي أن يسلكها الرجل لإصلاح الحياة الزوجية، عندما يبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين، وبينت معنى قوامة الرجل على المرأة، وأنها ليست قوامة استعباد وتسخير، وإنما هي قوامة نصح وتأديب كالتي تكون بين الراعي ورعيته..

بعد ذلك انتقلت السورة من دائرة الأسرة إلى «دائرة المجتمع» فأمرت بالإحسان في كل شيء، وبينت أن أساس الإحسان التكافل والتراحم، والتناصح والتسامح، والأمانة والعدل، حتى يكون المجتمع راسخ البنيان قوي الأركان، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَينَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ - أي نعم الشيء الذي يعظكم به - إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾، روي في سبب نزول هذه الآية، أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح، أغلق «عثمان بن طلحة» باب الكعبة وصعد السطح، وأبى أن يدفع المفتاح لرسول الله ﷺ وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه، فلوى عليٌّ رضي الله عنه يده وأخذه منه وفتح بابها، فدخل رسول الله ﷺ الكعبة المشرفة وصلى ركعتين فيها، فلما

خرج أمر علياً أن يردَّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة ويعتذر إليه، فقال له عثمان: آذيتَ وأكرهتَ ثم جئت تعتذر وتترفق! فقال له عليٌّ: لقد أنزل الله في شأنك قرآناً وتلا عليه الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوْا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ فلما سمعها عثمان بن طلحة أسلم، فقال النبي ﷺ عند ذلك: «خذوها يا بني طلحة خالدةً تالدة، لا يأخذها منكم إلا ظالم».

«العدل أساس الملك»

إن الإسلام دين الحق والعدل والمساواة، وقد جاءت تعاليمه السامية تأمر بالعدل بين جميع الخلق، فلا يظلم شخص لضعفه وعجزه، ولا تهدر حقوق إنسان لعدم إسلامه وإيمانه، فإن الإسلام دين الله الخالد، الذي ضمن حق الصغير والكبير، وأمر بدفع الأمانات إلى أهلها، بقطع النظر عن كون صاحب الحق مسلماً أو غير مسلم، فلا ظلم ولا هضم، ولا ضياع لحق إنسان مهما كان، لأن الناس جميعاً في نظر الدين سواسية، يجب أن ينال كل إنسان حقه كاملاً غير منقوص، ويجب أن يعاملوا بالعدل والمساواة، ولعل هذه القصة التي سنذكرها تقرر مبدأ العدل بين أفراد المجتمع، على أكمل صور العدالة والإنسانية التي عرفها التاريخ.

ذكر المفسرون أن رجلاً من اليهود كان له عند رجل من المسلمين حقٌّ، وكان ذلك الرجل المسلم مغموطاً في إسلامه يقال له «بِشْر» فجحد اليهوديَّ حقه وأكل ماله، وأبى أن يدفع له المال الذي وجب عليه، فقال اليهودي لذلك المسلم المزيَّف: تعالَ نتحاكم إلى محمد ﷺ، فقال له المسلم: بل نتحاكمُ إلى «كعب بن الأشرف» ـ وكان من

رؤساء المنافقين وهو الذي سمَّاه الله الطاغوت ـ، فأبى اليهودي أن يحاكمه إلّا إلى رسول الله عليه السلام، وقال له: أدعوك إلى نبيك محمد فتأبى الذهاب!! فخشي المنافق أن يبلغ الخبر إلى رسول الله، فذهب معه مكرهاً، وعرض اليهوديُّ قضيته أمام الرسول الكريم وأقرَّ خصمُه بصحة ما يقول اليهودي، فقضى رسول الله ﷺ لليهودي وحكم له على ذلك المنافق الذي يدَّعي الإسلام، فلما خرجا من عنده لم يرضَ المنافق بحكم الرسول، وقال له: تعال نتحاكم من جديد إلى عمر بن الخطاب، فأتيا عمر رضي الله عنه فقال اليهودي: كان بيني وبين هذا الرجل خصومة، فتحاكمنا إلى محمد فقضى لي عليه، فلم يرضَ بقضائه وزعم أنه يخاصمني إليك، فقال عمر للمنافق: أكذلك هو الأمر؟ فقال: نعم ـ وظنَّ أن عمر سيحترمه ويُجله لأنه رضي بقضائه ـ فقال لهما عمر: مكانكما انتظراني قليلاً حتى أخرج إليكما فأفصل بينكما، فدخل عمر بيته فاشتمل عليه سيفه، ثم خرج فضرب به رأس ذلك المسلم المزيف، الذي كان يدعي الإسلام حتى مات، وقال قولته الشهيرة: هكذا أحكم فيمن لم يرض بقضاء الله ولا قضاء رسوله، وفي هذه القصة نزلت هذه الآيات البينات: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعَمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ـ أي تعالوا نتحاكم إلى كتاب الله وإلى قضاء رسوله فينا ـ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً. فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً ﴾ واستمرت الآيات تتناول سرد أحداث تلك القصة، إلى أن وضعت المسلمين أمام تلك الحقيقة التي

ينبغي ألا يغفل عنها المؤمنون، وهي أن الإيمان لا يصح ولا يكمل، إلا بالتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، وبالرضى بقضاء الله وقضاء رسوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾.

«مكانة الرسول عند ربه»

لا نزال نستضيء بالآيات القرآنية، والإشعاعات النورانية في «سورة النساء»، فبعد أن ذكر تعالى في الآيات السابقة حال المنافقين، وما أعده الله لهم من العذاب المهين، أعقبه بتوجيه أنظار المؤمنين إلى طريق الهداية والسعادة، وذلك بطاعة أوامر الله وأوامر رسوله ﷺ فقال عز من قائل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ - أي إلا ليطاع بأمر الله وحكمه - وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَاباً رَحِيماً ﴾.

روى الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره هذه القصة فقال: وقد ذكر جماعة منهم «الشيخ أبو منصور الصبَّاغ» في كتابه الشامل هذه القصة المشهورة عن العتبي قال: كنت جالساً ذات يوم عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا حبيب الله، سمعت الله عز وجل يقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾ وقد جئتك مستغفراً لذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خيرَ مَنْ دُفِنتْ بالقاعِ أعظُمه ... فطابَ من طيبهنَّ القاعُ والأَكَمُ
نفسي الفداءُ لقبرٍ أنت ساكنُه ... فيه العفافُ وفيه الجُود والكرمُ

ثم انصرف الأعرابي، قال: فغلبتني عيني - أي نمت نومة خفيفة -

فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عُتبي إلحقْ الأعرابي فبشّره أن الله قد غفر له» انتهى[١].

«طاعة الرسول طاعة لله»

لقد جعل الله تعالى طاعة الرسول ومحبته، جزءاً من طاعة الله ومحبته، لأن الرسول سفيرٌ من عند الله مبلغ عنه أوامره ونواهيه مرسل بأمره وحكمه، فطاعته طاعةٌ لله، ومخالفته معصيةٌ لله، وصدق الله حيث يقول: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُوْلَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِم حَفِيظاً﴾.

ومن أجل ذلك كانت طاعة هذا الرسول ومحبتُه، جزءاً من الإيمان، لا يكمل الإيمان إلا بها كما قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»[٢]، ولقد بيّن المولى جل وعلا في هذه الآيات الكريمة أن المرء يُحشر مع من أحبَّ، وأن الله يعطي العبد المؤمن المتقي لله منازل الأبرار، ويسكنه دار كرامته مع الأنبياء والشهداء والصالحين، كرامة له على استقامته وطاعته لله ولرسوله فقال عز شأنه: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ والرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الذينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقينَ والشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً. ذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمَاً﴾.

«رواية الطبري»

روى ابن جرير رحمه الله عن سعيد بن جبير أنه قال: «جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: يا

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ١/٤١٠ من سورة النساء.
(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

فلان، ما لي أراك محزوناً؟ فقال: يا نبي الله شيءٌ فكَّرتُ فيه هو الذي أحزنني، فقال: ما هو؟ قال: يا رسول الله، نحن اليوم نغدو ونروح، ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغداً ترفع درجتك مع النبيين، فلا نصل إليكَ ولا نراك، فهذا هو الذي أحزنني، فلم يردَّ عليه النبي ﷺ شيئاً حتى نزل جبريل بهذه الآية الكريمة: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾.

وروى الحافظ ابن كثير عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، والله إنك لأحبُّ إليَّ من نفسي، وأحبُّ إليَّ من أهلي، وأحبُّ إليَّ من ولدي ـ أي أولادي ـ وإني لأكون في البيت فأذكُرُكَ، فما أصبرُ حتى آتيَك فأراكَ وأنظرَ إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتك، عرفتُ أنك إذا دخلتَ الجنة رُفِعْتَ مع النبيين، وإن دخلتُ أنا الجنة خشيتُ أن لا أراك، فلم يردَّ عليه النبي ﷺ حتى أنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ والرَّسُوْلَ فَأُولَئِكَ مَعَ الذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِيقينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾[1] أي نعمت رفقةُ هؤلاء الأبرار وصحبتُهم، وحَسُن رفيق أولئك الأخيار في جنان الخلد والنعيم.

«التحذير من المنافقين»

ثم تتابعت السورة الكريمة، تتحدث عن النفاق والمنافقين، بعد أن تحدثت عن المؤمنين المتَّقين، فأمرت بإعداد العُدَّة، وأخذ الحذر من الأعداء، وأمرت بالجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وإحياء دينه والدفاع عن المستضعفين وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٤١١.

الَّذينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُباتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعاً. وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهيداً. وَلَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾، ومعنى قوله تعالى: ﴿ إنْفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوْا جَمِيعَاً ﴾ أي اخرجوا إلى الجهاد جماعات متفرقين، سرية بعد سرية أو اخرجوا مجتمعين في الجيش الكثيف، فقد خيَّرهم تعالى في الخروج لجهاد الأعداء متفرقين ومجتمعين، حسب ما تقتضيه مصلحة القتال، ثم بعد هذا التخطيط الحربي الذي أرشدهم إليه القرآن، أمرهم الله تعالى بإخلاص النية في الجهاد، فالمؤمنون إنما يقاتلون لغاية سامية نبيلةهي إعزاز الدين، ونصرةُ الحق، والدفاعُ عن المستضعفين، لا للمكسب والمغنم وفي ذلك يوجههم القرآن إلى الوجهة الشريفة الصحيحة فيقول: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الذِينَ يَشْرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ - أي الذين يبيعون الحياة الفانيةَ الزائلة بالحياة الخالدة الباقية - وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ وفي هذا التوجيه الكريم، سموٌّ بالجهاد إلى أعلى مراتب الكمال والسداد، جعلنا الله من المجاهدين في سبيله.

«أسس الإصلاح الخارجي»

نتابع الحديث عن «سورة النساء»، تلك السورة المليئة بالأحكام التشريعية، التي لا نزال نقبس من إشعاعاتها النورانية وفيوضاتها القدسية، فهي من السور المدنية التي تناولت أموراً هامة تتعلق بالمرأة والبيت والأسرة والدولة، فبعد أن تحدثت السورة عن دائرة الأسرة، انتقلت إلى دائرة المجتمع، وبعد أن وضعت أسس الإصلاح الداخلي، انتقلت إلى ذكر الإصلاح الخارجي، فأمرت بالاستعداد لمكافحة

الأعداء، ووجهت الأنظار إلى أهمية الأمن الخارجي، الذي يحفظ على الأمة استقرارها وهدوءَها، ولن يكون ذلك إلا بالجهاد في سبيل الله دفعاً لشرور ومكائد الأعداء ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الذِينَ يَشْرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلُ في سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾. وقد ألمحنا إلى ذلك إلماحاً خفيفاً.

«الجهاد طريق العزة والنصر»

وإذا كان الجهاد في سبيل الله، هو طريق النصرِ والعزةِ للمؤمنين، فكيف لا يستبسل المسلم؟ وكيف لا يقاتل لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه؟ وبأسلوب الحثّ والحضّ، والترغيب في نصرة الحق، والدفاع عن المستضعفين من المؤمنين، تأتي آيات هذه السورة الكريمة، لتشحن عزائم المؤمنين للقتال في سبيل الله، دفعاً للظلم وكفاً للعدوان ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ والوِلْدَانِ الذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً ﴾.

وقد اتفق المفسرون على أن المراد بالقرية الظالم أهلُها «مكة» شرَّفها الله التي كانت في أول البعثة موطنَ الكفر، ومستقـرَّ العتاةِ الصناديد من المشركين، ولهذا هاجر الرسول ﷺ منها بعد أن اضطره أهلها إلى الخروج، وكانت قريش تمنع المؤمنين من الهجرة لئلا ينتشر الإسلام، وتحول بين الدخول في هذا الدين العظيم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كنت أنا وأمي من المستضعفين»(١) وهم الذين صدَّهم المشركون عن الهجرة، كيداً للإسلام وإيذاءً لأهله، وقد كان رسول الله

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه.

ﷺ يدعو لهم بالنصر والفَرَج فيقول: اللهم أنجِ الوليدَ بنَ الوليد، وسلمةَ بن هشام.. وذكر آخرين كما ورد ذلك في الصحيح، وقد استجاب الله دعاء رسوله فجعل لهم بعد الضيق فرجاً ومخرجاً، وجعل لهم خير ولي وناصر، وهو محمد رسول الله ﷺ وذلك حين فتح مكة ودخلها عزيزاً منتصراً.. ثم بعد هذا البيان الشافي حول الحكمة من الأمر بالقتال، ذكرت السورة الكريمة الهدف السامي والغاية الكريمة التي ينبغي ألا تغيب عن الأذهان، وهي أن الجهاد ليس للمغنم ولا للمكاسب الدنيئة وإنما هـو لنصرة دين الله، والـدفاع عن الكـرامة الإنسانية، وتقرير مبادىء الحق والعدالة، وليس هو من أجل التسلط والاستعلاء ﴿الَّذِينَ آمَنُوْا يُقَاتِلُوْنَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾.

«تشوق المسلمين إلى القتال»

ولقد كان المسلمون وهم بمكة يتشوقون لقتال أعداء الله، ويحبون أن يؤذن لهم بالجهاد ليشفوا صدورهم من أعدائهم، فكانت الأوامر الإلّهية تتنزل داعية لهم إلى الكف عن القتال، وإعداد النفوس بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لاستكمال التربية الروحية، حيث لم يحن بعد أمر القتال، فلما هاجروا إلى المدينة المنوَّرة وكثر المسلمون وعزّوا، أُمروا بالجهاد، فضعفت نفوس بعض القوم عن القتال، فنزلت الآيات الكريمة تعاتبهم على النكوص عن ملاقاة أعدائهم، وعن الجُبن والهلع الذي لحق بنفوس ضعاف الإيمان وفي ذلك يقول القرآن: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ

كَتَبْتَ عَلَيْنَا القِتَالَ ـ أي لم فرضت علينا القتال ـ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجْلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ والآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ والآية نزلت كما وضحنا في ضعاف الإيمان من المنافقين، الذين كانوا يظهرون الشجاعة والبطولة، ويخفون في نفوسهم الهَلَع والجزع، وقد جاءت فريضة الجهاد تكشف عن خباياهم ونواياهم ولهذا قال تعالى بعد تلك الآية مشنعاً عليهم ومؤنباً ﴿ أَيْنَمَا تَكُوْنُوْا يُدْرِكْكُمْ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُوْلُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللّهِ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ، قُلْ كُلٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ فَمَا لِهَؤُلَاءِ القَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ ثم تتابعت السورة الكريمة تُندّد بالمنافقين، وتحذِّر من طرائقهم الملتوية، فقد كانوا يتظاهرون أمام الرسول بالسمع والطاعة، حتى إذا ما خرجوا من مجلسه تآمروا على الخلاف والعصيان لأمره عليه السلام ﴿ وَيَقُوْلُوْنَ طَاعَةٌ ـ أي أمرك يا محمد طاعته واجبة علينا ـ فَإِذَا بَرَزُوْا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الذِي تَقُولُ، وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً ﴾.

«تكليف الرسول بالقتال»

ثم تلتها الآيات تأمر المؤمنين بالجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وتأمر الرسول بتحريض المؤمنين على القتال دفعاً لشرِّ الكفرة أعداء اللّه، حتى ولو لم يبق في ميدان الشرف، غيرُه عليه السلام، فإن الواجب عليه أن يقاتل الكفار حتى ولو كان بمفرده ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحرِّضِ المُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الذِينَ كَفَرُوا وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً ﴾، وبمثل هذا التوجيه الإلهي يستحثُّ الله شجاعة أصحاب الرسول لقتال أعداء الله.

«خطر المنافقين على الإسلام»

تناولت هذه السورة الكريمة ضمن ما تناولته من توجيهات وإرشادات، التحذيرَ من دسائس المنافقين، ومكائدهم في تفريق صفّ المؤمنين، فلقد ابتُلي المسلمون في بداية تكوين الدولة الإسلامية ـ بعد أن استقرت دولتهم في المدينة المنورة ـ ابتلوا بطائفة من المنافقين، اتخذت الإسلام درعاً تتقي به خطر القتل، وملجأً واقياً تنفث به سمومها، لتحطيم تلك الصخرة العاتية «صخرة الإسلام» التي استعصت على أعداء الله الكفرةِ المجرمين، فجاءت هذه السورة الكريمة لتفضحهم في مواقفهم المخزية، وأساليبهم الماكرة، ولتضع حداً فاصلاً بين أهل الإيمان، وأهلِ النفاق والضلال، ولتنبه المؤمنين إلى عدم التنازع والخلاف في شأن المنافقين، فهم ـ وإن أظهروا الإيمان ـ كفرةٌ فجرة، يتمنون كل بلاء وشرّ يحلّ بالمسلمين، وفيهم يقول القرآن الكريم: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ، وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ أي ما لكم يا معشر المؤمنين قد أصبحتم فرقتين في شأن المنافقين، بعضكم يقول نقتلهم لأنهم أعداء، وبعضكم يقول لا نقتلهم فإنهم إخوتنا في الدين، وقوله تعالى: ﴿ واللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ أي والله جل وعلا قد نكّسهم وخذلهم وردَّهم إلى الكفر بسبب النفاق والعصيان، ثم قال تعالى: ﴿ أَتُرِيدُوْنَ أَنْ تَهْدُوْا مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ ثم بيَّن تعالى حقيقة أمرهم، وخفيِّة سريرتهم فقال: ﴿ وَدُّوْا لَوْ تَكْفُرُوْنَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخذُوهم واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾.

«رجوع المنافقين في غزوة أحد»

أخرج البخاري ومسلم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج إلى أحد - أي خرج إلى الغزوة يوم أحد - فرجع ناس ممن كان معه - من المنافقين - فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين: فقال بعضهم نقتلهم لأنهم خانوا وقال بعضهم: لا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ واللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ الآية، فقال النبي ﷺ: «إنها طيبةُ تنفي الخَبَثَ كما تنفي النار خَبَث الحديد» متفق عليه.

وهذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان، يخونون الأمة ويزعزعون وحدتها، ويثيرون الأخبار الكاذبة الملفَّقة لإضعاف جند الرحمن، ومن أجل ذلك أمر الباري جل وعلا بتطهير الصف الإسلامي من رجسهم وخبثهم، وأمرنا ألا نستعين بهم في معركة أو قتال، وألا نثق بهم وبمواعيدهم، فإنهم جرثومة الشر في كل زمان وحين، يتربصون الدوائر بالمؤمنين، ويتظاهرون بالصلاح والدين.

ثم استثنى تعالى طائفةً منهم، لا حول لها ولا طول، لأنهم تحت قهر رؤساء الضلالة، فهم قوم ليسوا مع المؤمنين ولا مع الكافرين، فأمر تعالى بحقن دمائهم فقال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أو جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ﴾ أي ضاقت صدورهم عن قتالكم أو قتال قومهم، فهم قوم ليسوا معكم ولا عليكم ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وأَلْقَوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾.

«صنف ثالث من المنافقين»

ثم ذكرت السورة صنفاً ثالثاً من المنافقين، وهم الذين سلكوا طرق المكر والخديعة، وهم قوم من «أَسَدٍ» و«غَطَفان» كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا من المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا في عهودهم ليأمنوا قومهم، وهؤلاء أمر الباري جل وعلا بقتالهم إن لم يكفُّوا عن المكر والخداع ويستسلموا للمؤمنين وفيهم يقول الله تعالى: ﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الفِتْنَةِ أُرْكِسُوْا فِيهَا ﴾ أي كلما دُعوا إلى الكفر وقتال المسلمين، عادوا فانقلبوا عن الدين ورجعوا إلى الكفر والضلال، قال تعالى عنهم: ﴿فَإِنْ لم يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ - أي حيث وجدتموهم - وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِم سُلْطَاناً مُبِيناً ﴾.

«جريمة القتل العمد»

بعد هذا البيان الشافي الوافي، عن النفاق والمنافقين، تعرضت السورة الكريمة لإحدى الجرائم الفظيعة «جريمة القتل» فبينت أن المسلم لا يصدر منه القتل عمداً وإنما قد يصدر منه بطريق الخطأ، وقد بيَّن تعالى كفارته فقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوْا ﴾ الآية، ثم أعقبها بذكر حكم القتل العمد فقال عز شأنه: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيها وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ وظاهر الآية الكريمة أن القاتل متعمداً يخلَّد في النار، وهذا الظاهر غير مراد، وإنما يُخلَّد في جهنم، إذا استحل قتله ولم

يتب، لأنه باستحلال القتل يصبح كافراً، وذهب ابن عباس إلى خلود القاتل عمداً في جهنم عملاً بظاهر الآية.

فقد روى ابن جرير بسنده أن رجلاً جاء إلى ابن عباس يسأله عن رجل قتلاً مؤمناً متعمداً ما جزاؤه، فقال «جزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدَّ له عذاباً عظيماً» قال: أفرأيت إن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى؟ قال ابن عباس: ثكلته أمه وأنى له التوبة والهدى؟ فوالذي نفسي بيده لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول: «يجيء المقتول يوم القيامة ورأسه معلق بإحدى يديه، آخذاً صاحبَه بيده الأخرى، تشخب أوداجه دماً، يقف حيال عرش الرحمن ويقول: يا رب، سل عبدك هذا علام قتلني؟ قال: فما جاء نبي بعد نبيكم، ولا نزل كتاب بعد كتابكم».

«الجهاد ذروة سنام الإسلام»

لا تزال الآيات تطالعنا بجديد وجديد من حِكَمها، وأسرارها، ودقائقها، فقد تناولت بالتفصيل أمر الجهاد في سبيل الله، ذلك لأنه ذِروةَ سنام الإسلام، وطريق العزة والسعادة في هذه الحياة، فما تركت أمة الجهاد إلا ذلت وهانت، وقد تقدمت معنا الآيات الكريمة، التي تشيد بمكانة الجهاد، وتبيّن ثواب المجاهدين الأبرار، وفي هذه الآيات البنيات يذكر تعالى مرتبة القاعدين عن الجهاد فيقول عزَّ من قائل: ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً، وَكُلًا وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى، وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً. دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

«الهجرة من دار الكفر واجبة»

ولما كان الجهاد في سبيل الله يستتبع الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان، لأن الهجرة لون من ألوان الجهاد، ذكر تعالى عقوبة من ركن إلى نعيم الحياة، ولم يهاجر من بلد الكفر، ثم مات على تلك الحالة التي يبغضها الله، فبيَّن أن مقرَّه جهنم لإيثاره الفانية على الباقية فقال عز شأنه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً. إِلَّا المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً. فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾.

وسبب نزول هذه الآيات الكريمة ما رواه المفسرون عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان قوم من المسلمين قد أقاموا بمكة وكانوا يستخفون بالإسلام ـ أي يخفون إسلامهم خوفاً من بطش المشركين ـ فلما كانت غزوة بدر أخرجهم المشركون معهم للقتال، فأصيب بعضهم وقتلوا في المعركة، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأُكرهوا على الخروج فنزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ.. ﴾ الآية، وقد نبهت الآيات الكريمة إلى أنه لا ينبغي للمسلم أن يقيم بين ظهراني المشركين، وأن يعيش معهم في وطنهم، وهو لا يستطيع أن يقيم شعائر دين الإسلام، بل يجب عليه أن يهاجر إلى بلد يطمئن فيه على عقيدته ودينه، وإلا كان ظالماً لنفسه يستحق أشد العذاب.. كما نبهت الآيات بعد ذلك أن من يفارقُ وطنه، ويهربُ منه فراراً بدينه من كيد الأعداء، فإن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً، ويجعل الله مقراً رحباً في أرض الله الواسعة، ويكرمه

بسعة الرزق وراحة البال، لأنه خرج في سبيل إعلاء كلمة الله، وإذا مات فقد أعدَّ الله له الجنة دار المتقين فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً ـ أي يجد له مُهَاجراً ومتجولاً في الأرض واسعاً ـ وَمَنْ يُخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ أي ثبت أجر هجرته على الله تعالى، ولو لم يَصِل إلى دار الهجرة، فإن الله يقبل عمله ويثيبه على نيته كما صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ـ أي ينال الأجر من الله كاملاً ـ ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

«قصة الصحابي الجليل ضمرة»

روي أنه لما نزلت آيات الهجرة، كان «ضمرة بن القيس» من المستضعفين بمكة، وكان مريضاً فلما سمع ما أنزل الله في الهجرة قال لأولاده: احملوني وأخرجوني من مكة، فإني لستُ من المستضعفين، وإني لأهتدي إلى الطريق، والله لا أبيتُ الليلة بمكة، فحملوه على سرير ثم خرجوا به، وما إن ابتعد عن مكة قليلاً حتى وافاه أجله فمات بالطريق بالقرب من التنعيم فأنزل الله: ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ الآية.

«مشروعية صلاة الخوف»

ولما كان الجهاد والهجرة سبباً لحدوث الخوف، جاءت الآيات

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

الكريمة تتحدث عن صلاة المسافر، وطريقة الصلاة عند الخوف، وعن كيفية الصلاة وقت الحرب فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ ـ أي سافرتم للجهاد أو الهجرة أو غيرهما ـ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً ﴾ ثم نبهت الآيات إلى طريقة صلاة الخوف في الحرب فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ، وَدَّ الذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَليكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ للكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾.

وبهذا التوجيه الرباني يتضح لنا قدر الصلاة وأهميتَها إذ لا تُترك الصلاة لا في سلمٍ ولا في حرب لأنها عمود الدين وعماده.

«من أعظم قصص التاريخ»

ولقد تناولت هذه السورة الكريمة ضمن ما تناولته قصة من أعظم القَصص، ومثلاً من أروع الأمثلة في الانتصار للعدالة، سجله التاريخ في سجله الخالد، ألا وهو إنصاف رجلٍ يهودي اتُّهم ظلماً وعدواناً بالسرقة، وإدانة أولئك الذين تآمروا عليه، وهم أهل بيتٍ من الأنصار من المسلمين، من ضعفاء الإيمان، ممن لم يتمكن الإيمان ولم يرسخ في قلوبهم، وخلاصة القصة كما يذكرها المفسرون: أن رجلاً من الأنصار يقال له «طُعمةُ بنُ أبيرق» من بني ظَفَر، سرق درعاً وسلاحاً من بيت جاره «قتادةَ بنِ النعمان» وكان ذلك السلاح مخبوءاً في كيس، فيه شيء قليل من الدقيق، فلما سرقه جعل الدقيق ينتثر من خِرقٍ فيه، فذهب

بهذا السلاح فخبأه عند رجل يهودي يُدعى «زيد بن السمين» واليهودي لا يعلم أن هذا مسروق، فلما فقد قتادة سلاحه ودرعه، شكَّ في أمر جاره «طعمة بن أبيرق» فالتمسوه عنده فلم يجدوه، وحلف طعمة أنه ما أخذه وماله به علم، فتركوه وتتبَّعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي، فرأوا السلاح والدرع عنده فقالوا: سرقته وخبأته في منزلك، فقال اليهودي: دفعها إليَّ طعمة ووضعها أمانة عندي، وشهد ناس من اليهود بأمانته وصدقه وبراءته من السرقة، فلما فشا الأمر وخاف قوم طعمة أن يفتضح صاحبهم قالوا: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ ليجادل عن صاحبنا، ولنشهدَ ببراءته وسرقة اليهودي، فذهبوا إلى رسول الله فقالوا: يا نبيَّ الله! إن صاحبنا بريء، وإن الذي سرق الدرع هو فلان اليهودي، وقد أحطنا بذلك علماً، وقد وُجدت الدرع في بيته، فاعذر صاحبنا على رؤوس الأشهاد ـ أي أعلنْ براءته من هذه التهمة الشنيعة أمام الناس ـ وجادلْ عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بكَ يهلك، ونحن قوم أهل دينٍ وإسلام، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يفعل اعتقاداً منه بصدقهم وعملاً بظاهر الأمر، فقد وُجد الدرع عند اليهودي ولم يُعثر عليه عند المسلم، وإذا بالوحي ينزل عليه بهـذه الآيات البينـات، التي تبرىء سـاحة اليهودي، وتتهم ذلك المسلم المزيَّف وجماعته المنافقين[1]، الذين أرادوا أن يصرفوا النبي صلوات الله عليه عن الحقيقة، ليجـادل ويخاصم اليهودي البريء من أجل الدفاع عن المجرم الأصيل، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ لِتَحكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ـ أي بما عرَّفك الله وأوحى به إليك ـ وَلَا تَكُنْ للخَائِنينَ خَصِيمَاً. وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ، إنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيمَاً. وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ

(١) انظر القصة في تفسير ابن كثير، والقرطبي، والألوسي.

يَخْتَانُوْنَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً ﴾ وإنما عاتب الله رسوله هذا العتاب الشديد، لأنه عليه السلام مال قلبه إلى تصديق أولئك الخائنين دون تثبت، ووقع في نفسه أن السارق هو اليهودي، بناءً على ظاهر الحال حيث وجدت الدرع عنده.

«زجر وتوبيخ»

ثم تتابعت الآيات الكريمة توبّخ وتقرِّع أولئك الذين تآمروا على اليهودي فنسبوا التهمة إليه، دفاعاً عن صاحبهم، وذكرت ما دبروه في الخفاء من شهادة الزور والكذب والبهتان، والله عالم بهم وبأحوالهم فقال جلت عظمته: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ، إِذْ يُبَيِّتُوْنَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ القَوْلِ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُوْنَ مُحِيطَاً ﴾ والمعنى يستترون من الناس خوفاً وحياءً ولا يستحيون من الله، وهو أحقُّ بأن يُستحيا منه وأن يُخاف عقابه، لأنه جل وعلا لا يَغيبُ عنه شيء من أمورهم ولا يفوت.. ثم جاء دور الوعيد والتهديد لأولئك المنافقين على مكرهم وتآمرهم فقال سبحانه: ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ؟ أَمْ مَنْ يَكُوْنُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾؟ وإنه لوعيدٌ تهتز له القلوب فزَعاً وخوفاً، وكأن الآية تقول: لنفرضْ أن هؤلاء انتصروا في الدفاع عن صاحبهم في الدنيا، وغرَّروا بالحاكم الذي يحكم بالظاهر، فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي أحكم الحاكمين الذي يعلم السرَّ وأخفى؟ ومن الذي يتوكل عنهم لينجيهم ويخلصهم من عذاب الله، وقد شهدوا في الدنيا كذباً وبهتاناً حتى يوقعوا البريء ويخلِّصوا المجرم؟.

« تـــوجـيـــه وإرشـــاد»

ثم تلتها الآيات الكريمة تدعو إلى التوبة والاستغفار من الذنب

الذي ارتكبوه، وتبيِّن عاقبة من فعل جُرْماً ثم اتهم به غيره ليوقعه في المعاطب والمهالك فقال جل ذكره: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوْءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوْراً رَحِيماً. وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً. وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾ وتختم هذه الآياتُ البينات القصة بتذكير الرسول ﷺ بفضل الله العظيم عليه، حيث نبهه إلى تآمر أولئك الظلمة الخونة، الذين أرادوا أن يضللوا الرسول بشهاداتهم الكاذبة ليحكم لذلك المسلم المزيف على اليهودي فقال سبحانه: ﴿ ولَوْلاَ فَضْلُ اللَّهُ عَلَيْكَ ورحمتُه لهمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُم أنْ يَضِلُّوكَ ومَا يَضِلُّونَ إلاَّ أنْفُسَهَمْ وَمَا يضرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَة وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهُ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾.

ويا لها من قصة تقرر العدالة بأجلى صورها وأدق تفاصيلها لتكون درساً للبشريةمدى الحياة.

«في أعقاب قصة اليهودي»

لا تزال «سورة النساء» تطالعنا في آياتها البينات بأسمى العظات، وأجلّ الذكريات العجيبة التي تناولتها هذه السورة الكريمة، فبعد أن ذكر تعالى في الآيات السابقة قصة «طعمة ابن أُبيرق» وحادثة السرقة التي اتُّهم بها ذلك اليهودي البريء، وأدانت أولئك المنافقين من قوم طعمة الذين جاءوا إلى الرسول ﷺ يدافعون عن صاحبهم بالباطل، ويتهمون رجلاً من غير المسلمين بالسرقة ليبرّءوا ساحة صاحبهم، ذكرت السورة هنا تتمة الحادثة العجيبة فقد حكم رسول الله ﷺ بقطع يد ذلك المسلم المزيف، الذي سرق الدرع ثم خبأه عند اليهودي، ثم لما انكشف أمره

تنصَّل من تلك الجريمة، واتهم بالسرقة اليهودي البريء، وجاء قومه من المنافقين ليشهدوا ـ زوراً وبهتاناً ـ بصلاح ذلك المنافق السارق، ويُلصقوا جريمة السرقة باليهودي الذي وُجد في بيته الدرعُ والسلاح.. ولكن الله جلَّ وعلا أظهر رسوله على الحقيقة، وأطلعه على السارق وكشف خبيئة أولئك المنافقين، الذين جادلوا بالباطل عن صاحبهم.. ولقد كان من تتمة تلك القصة أن الرسول عليه الصلاة والسلام لمَّا حكم بقطع يد «طُعْمة» وبلغه الخبر هرب إلى مكة وارتدَّ عن الإسلام فبينما هو ذات يوم يتسور حائطاً ليسرق أهله في ظلام الليل، إذ وقع من الحائط فدُقَّت عنقُه، فمات وهو مرتد عن الإسلام، عاصٍ لله ولرسوله، سالك ذلك الطريق المعوج الذي أدى به في النهاية إلى الشقاء والخسران، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُوْلَ مِنْ بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ والآية وإن نزلت في شأن «طعمة بن أبيرق» ذلك المنافق الذي لحق بالمشركين وارتدَّ عن الدين، ولكنها عامة تشمل كل من انحرف عن هداية الله، وخالف أمر الرسول فيما جاء به عن ربه، وسلك طريقاً ملتوياً غير طريق المؤمنين، واتبع منهاجاً غير منهاجهم، فصار في حزب الضلالة، واستحق الخلود في نار جهنم، لأنه آثر الفانية على الباقية، ورضي أن يكون في حزب الشيطان، وأن يسير بقيادته وتحت لوائه، ويترك حزب الرحمن الذي أمر الله عز وجل بسلوكه والانضمام إليه.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة «حجيةَ الإجماع» فما أجمعت عليه الأمة المحمدية، فإنه أصل من أصول الشريعة الإسلامية، يجب العمل به والوقوف عنده بحكم الله عز وجل وأمره كما قال سبحانه: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾.

«حكم من أشرك بالله»

ولمَّا كان أمر الارتداد عن الدين، عظيماً وفظيعاً عند الله، لأنه أعظم الذنوب وأكبر الجرائم، ذكر تعالى بعده حكم من كفر وأشرك بالله فقال عز شأنه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ فكل ذنب يمكن أن يُغفر إلا الإشراك بالله وجحود إفضاله وإنعامه، فإن الإشراك بالله أصل كل شرٍ ومصدر كل جريمة يرتكبها الإنسان، فإن المشرك الكافر بوجود الله، لا يتورع عن فعل كل قبيح، وعمل كل منكر، ولهذا شدَّد الله العقاب على الكافر، ولم يقبل فيه شفاعة كما قال تعالى: ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾.

«سبب طغيان البشرية»

ثم توالت الآيات تبيّن سبب طغيان الإنسان، وجحودِه لآياتِ الله، فذكرت أن طاعة الشيطان المتمرد على أوامر الرحمن، هي السبب الرئيسي لانحراف الإنسان عن جادة الحق والصواب ﴿ إِنْ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ إِلَّا إِنَاثاً، وَإِنْ يَدْعُوْنَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً. لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ﴾ أي قال إبليس لما طرده الله وأبعده من رحمته: لأتخذن من عبادك حظاً معيناً مقدراً معلوماً أدعوهم إلى طاعتي من الكفرة والعُصاة المجرمين، وهم أتباع الشيطان اللعين، وقد جاء في «صحيح مسلم» أن الله تعالى ينادي آدم يوم القيامة فيقول له: إبعثْ بعث النار من ذريتك، فيقول: يا رب وما بعثُ النار؟ فيقول: من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون، فذلك حين يشيب الطفل والرضيع.. ثم قال تعالى حكاية عن الشيطان: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ

فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِياً مِنْ دُوْنِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراً مُبِيناً ﴾.

وبعد أن ذكر تعالى أعوان الشيطان ومآلهم ومصيرهم في الآخرة، ذكر تعالى ما أعده للمؤمنين للأبرار في دار الخلد والنعيم فقال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً، وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾.

«الجنة ليست بالتمني ولا بالتشهي»

لا تزال الآيات الكريمة تطالعنا بإشعاعاتها النورانية، وفيوضاتها القدسية، وترسم أمامنا الطريق المضيء، الموصلَ إلى رضوان الله وجناته في دار الخلد والكرامة، يقول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيهَا أَبَداً وَعَدَ اللَّهِ حَقًّا وَمِنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قَيْلاً ﴾.

إن طريق الجنة لن يكون بالتمني أو التشهي، وإنما هو بالعمل الصالح مع الإيمان الكامل الذي يكتسبه الإنسان في هذه الحياة الدنيا، فالدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، ولن يرى الإنسان إلا جزاء ما قدَّم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وحين افتخر المؤمنون وأهلُ الكتاب بالسبق إلى دار الخلد والكرامة، فقال أهل الكتاب للمسلمين مباهاة ومفاخرة: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أحق بالله عز وجل منكم، لأننا سابقون لكم في الوجود والإيمان، وقال المؤمنون: نبينا محمد ﷺ خاتم النبيين، وكتابنا ناسخ لجميع الكتب فنحن أحق بالآخرة والجنة منكم، نزلت هذه الآية الكريمة، ترد الفريقين إلى الطريق

المستقيم وتوضح بما لا يحتمل اللبس طريق المتقين فقال سبحانه: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوْءاً يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً. وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُوْنَ الجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُوْنَ نَقِيراً ﴾.

إنها الحقيقة الناصعة يبينها القرآن، فلا محاباة ولا مجاملة في الآخرة، ولا حسب ولا نسب ينفع يوم القيامة، إنما هو الإيمان والعمل الصالح، لا يقبل الله شيئاً غيره، وقد نبهت الآية الكريمة أن دخول الجنة ليس بالتشهي ولا بالتمني، ولا بالدعاوى الطويلة العريضة التي يدعيها الإنسان ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلَ الكِتَابِ ﴾ أي ليس دخول الجنة ونيل رضوان الله، بأمانيكم معشر المسلمين ولا بأماني اليهود والنصارى الذين قالوا: «نحن أبناء الله وأحباؤه» وإنما يكون دخول الجنة بالإيمان والطاعة، والعمل الذي يرضي الله، قال الحسن البصري وهو من كبار المفسرين من التابعين: «ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل، إن قوماً ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا نحسن الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظنَّ بالله تعالى لأحسنوا العمل».

«ملة إبراهيم هي الحنيفية السمحة»

ثم تمضي السورة الكريمة تلقي الأضواء على أب الأنبياء «إبراهيم» الخليل صلوات الله وسلامه عليه، وتبين أن اتِّباعَ طريقه، والسيرَ على منهاجه، هو الطريقُ الأمثل لاكتساب رضوان الله، فقد جاء الخليل بملة التوحيد الصافية الخالصة، النقية الصادقة، التي تنير دروب الخير للسالكين فقال عز شأنه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ

وَهُوَ مُحْسِنٌ، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ ومعنى الآية الكريمة أنه لا أحد أحسن ديناً ممن انقاد لأمر الله وشرعه، وأخلص عمله لله ﴿ وَهُوَ مُحْسِن ﴾ أي وهو مطيع لأمر ربه مجتنب لمحارمه ونواهيه. ﴿ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ حَنِيْفاً ﴾ أي وسلك طريقه بإتباع الدين القيم، الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن، مستقيماً على منهاجه وسبيله وهو دين الإسلام ﴿ حَنِيفاً ﴾ أي مائلاً عن الشرك إلى الإيمان، تاركاً للباطل عن بصيرة، مقبلاً على الحق، لا يصدُّه عنه صاد، ولا يرده عنه رادٌّ، ولما كان دين إبراهيم هو دين الإسلام الذي جاء به خاتم الأنبياء، كان جديراً بإتباعه أمة محمد ﷺ، فإبراهيم الخليل كان صفياً لله، اصطفاه لصدقه ومحبته، وانتهى الأمر به إلى درجة «الخلة» التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، وقد جاء خاتم الأنبياء يقفـو أثره، ويجدِّد شرعه ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ حَنِيْفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

«التحذير من ظلم النساء»

وبعد هذا البيان الساطع اللامع، حول العقيدة الصافية النقية، التي وضع أسسها أب الأنبياء إبراهيم الخليل، وحدَّد دعائمها وأرسى قواعدها خاتم الرسل محمد ﷺ، جاءت السورة الكريمة تحذر المؤمنين من ظلم النساء في ميراثهن ومهورهن، وتؤكد وجوب الإحسان إليهن وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيْطَاً. وَيَسْتَفْتُوْنَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ، وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَ تُؤْتُوْنَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ، وَتَرْغَبُوْنَ أَنْ تَنْكِحُوْهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الوِلْدَانِ، وَأَنْ

تَقُوْمُوْا لِلْيَتَامَى بِالقِسْطِ، وَمَا تَفْعَلُوْا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمَاً ﴾ فقد أوجبت هذه الآية الكريمة العدل بين النساء، والإحسان إليهن وبخاصة اليتيمات اللواتي لا ينلن ميراثهن ولا مهورهن كاملة بسبب تعسف الرجال وظلمهم لهن.

«تشريع حكيم خالد»

لا تزال سورة النساء ترسم أمامنا الطريق المضيء، الموصلَ إلى السعادة في الدارين، بما حوته من تشريعات حكيمة، تجعل المسلم في أوج السعادة والكرامة، فلقد تناولت هذه السورة الكريمة «سورةُ النساء» أمر المستضعفين من الولدان، وأمر اليتيمات من البنات، وشؤون المرأة التي كانت قبل الإسلام تعيش على هامش الحياة، لا تُعْطى حقاً، ولا تملك إرثاً، ولا تستطيع أن تبدي رأياً في شريك الحياة، حتى جاء الإسلام فدفع عنها ذلك الظلم الصارخ، بتشريعه الحكيم الخالد، القائم على أساس العدل بين الرجال والنساء، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَيَسْتَفْتُوْنَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ فِي يَتَامَىٰ النِّسَاءِ اللَّاتي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُوْنَ أَنْ تَنْكِحُوْهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُوْمُوْا لِلْيَتَامىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوْا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية الكريمة: كان الرجل في الجاهلية، تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً، فإن كانت جميلة وهويَها ـ أي أحبها ـ تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت، فإذا ماتت ورثها، فحرم الله ذلك ونهى عنه فذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ فِي يَتَامَىٰ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُوْنَ أَنْ تَنْكِحُوْهُنَّ ﴾ الآية.

«رواية الإمام البخاري»

وروى الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يَفْتِيْكُمْ فِيْهِنَّ ﴾ الآية.

قالت عائشة: «هو الرجل تكون عنده اليتيمة، هو وليها ووارثها، فأشركته في ماله حتى في العِذق - أي عنقود البلح - فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوجها رجلاً، فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها - أي يمنعها من الزواج - فنزلت هذه الآية.

قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن فأنزل الله: ﴿ وَيَسْتَفْتُوْنَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيْكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ فِي يَتَامَىٰ النِّسَاءِ اللاَّتي لَا تُؤْتُوْنَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُوْنَ أَنْ تَنْكِحُوْهُنَّ ﴾ قالت: والذي ذكر الله أنه يتلى عليهم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله فيها: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوْا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوْا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾، قالت: وقوله تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوْهُنَّ﴾، قالت: هي رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حَجْره، حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط» أي إلا أن يعدلوا معها في مقدار المهر، ويعطوها حقوقها كاملة غير منقوصة.

«تكريم الإسلام للمرأة»

لقد كانت المرأة في الجاهلية كالسلعة والمتاع، تنتقل بالإرث من

شخص إلى شخص، وكانت مظلومة مهضومة الحق، لا تُعطى شيئاً من الإرث والمال الذي خلفه لها أبوها، وكان أهل الجاهلية يقولون: «كيف نعطي المال من لا يركب فرساً، ولا يحمل سلاحاً، ولا يقاتل عدواً»، فجاء الإسلام فدفع عنها الظلم، ورفع عن كاهلها ذلك العدوان، وأمر أن تُورَّث كما يرث الأبناء، وأن تُعطى مهرها كاملاً غير منقوص وهو المراد في الآية الكريمة: ﴿ والمُسْتَضْعَفِيْنَ مِنَ الوِلـدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهُ كَانَ بِهِ عَلِيمَاً ﴾.

«طريق الإصلاح بين الزوجين»

ثم تتابعت السورة الكريمة تذكر حكم نشوز الرجل على امرأته، وتطاوله عليها، وعدم إحسان عِشْرتها، بسبب كراهيته لها، أو طموح عينه إلى من هي أشبُّ وأجمل منها، فبينت الآيات الكريمة الطريق الأمثل لمعالجة مثل هذا النشوز والإعراض وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوْزَاً أَوْ إِعْرَاضَاً فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحَاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ، وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ، وَإِنْ تُحْسِنُوْا وَتَتَّقُوْا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيرَاً ﴾.

لقد رسمت هذه الآية الكريمة طريق الإصلاح بين الزوجين، وبَيَّنَتْ بأسلوبها المعجز أن المرأة إذا شعرت من زوجها الترفع عنها، أو الإعراض عنها بوجهه بسبب الكُره لها لكبر سنها أو غير ذلك من الأمور، فلا حرج ولا إثم على كل واحد من الـزوجين، من سلوك طريق المصالحة والتوفيق بينهما، بإسقاط المرأة بعض حقوقها من نفقةٍ أو كسوةٍ أو مبيت، لتستعطف الرجل بذلك، وتستديم مودته وصحبته، فقد روى ابن جرير الطبري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: هذا الرجل

يكون له امرأتان، إحداهما قد عجزت أو هي دميمة ولا يحبها زوجها، فتقول له: لا تُطلِّقني وأنت في حلٍّ من شأني فذلك قوله تعالى: ﴿ والصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ ثم بيَّن تعالى أن النفوس قد جبلت على الشح وهو شدة البخل، فالمرأة لا تكاد تسمح بترك حقها من النفقة والاستمتاع، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا أبغضها وأحب غيرها ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ ثـمَّ بعد أن دعت الآيات إلى الإصلاح حذرت الرجال من ظلم النساء فإنهن ضعيفات وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوْا كُلَّ المَيْلِ فَتَذَرُوْهَا كَالْمُعَلَّقة وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوْا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾.

«العدل بين الناس»

بعد أن أمر الباري جل وعلا بالإحسان إلى النساء، والعدل في معاملتهن، أمر بعد ذلك بالعدل العام في جميع الأحكام، ودعا إلى أداء الشهادة على الوجه الأكمل، سواء كان المشهود عليه غنياً أو فقيراً، قوياً أو ضعيفاً، ذلك لأن الإسلام دين الحق والعدل وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوْنُوْا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوْ الوَالِدَيْنَ والأَقْرَبينَ إنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيْراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلُوْا ﴾ أي لا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس لكم على ترك العدل في شؤونكم بل الزموا العدل على كل حال ثم قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَلْوُوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيراً ﴾.

والمعنى إن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق أو تعرضـوا عن إقامتها، فإن الله عليم بأعمالكم وسيجازيكم عليها.. وهكذا تنتقل

السورة الكريمة من موضوع العدل بين النساء إلى موضوع العدل بين الناس، لأن العدل أساس الملك، ولا تحيا الأمة حياة العزة والكرامة، إلا إذا كان العدلُ رائدَها، والشورى منهجَها، والحكمُ بما أنزل الله دستورها في هذه الحياة.

«ضرورة الإيمان بجميع الكتب والرسل»

ثم انتقلت السورة الكريمة تدعو المسلمين إلى الإيمان بجميع الملائكة والكتب والرسل، فلا يصح إيمان أحدٍ من الناس حتى يجعل الإيمانَ بالله وجميعِ الرسل، شعارَه ودثاره، ويصدِّق بجميع ما جاء من عند الله من الكتب السماوية التي أنزلها الله عز وجل على أنبيائه ورسله، فمن كذَّب رسولاً من الرسل، أو أنكر كتاباً من الكتب، فقد كفر بجميع الأنبياء والمرسلين، لأن كل نبي جاء مصدقاً لمن قبله، فتكذيبه تكذيب لجميع الرسل، بل هو على الحقيقة تكذيب لله جلَّ وعلا، الذي أرسلهم بالبينات الواضحات، والمعجزات الساطعات وفي هذا يقول القرآنُ الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُوْلِهِ وَالكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾.

ولعل سائلاً يسأل كيف يأمر الله المؤمنين بالإيمان، وهم في الأصل مؤمنون بالله وملائكته ورسله فيقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾؟ والجواب عن هذا أن المراد الثبات على الإيمان والمداومة عليه فيكون معنى الآية: يا أيُّها الذين صدَّقتم بالله ورسوله، وآمنتم بما أنزل الله على رسله، اثبتوا على هذا الإيمان ودوموا عليه، فهو أمر بالثبات والاستمرار على عقيدة الإسلام الصافية النقية، خلافاً

لما فعل اليهود والنصارى حيث آمنوا ببعض الرسل وكفروا بالبعض الآخر، وصدَّقوا بالتوراة والإنجيل وكذَّبوا بالقرآن المجيد، ولهذا أعقبه الله تعالى بالتشنيع عليهم وعلى المنافقين فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوْا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوْا، ثُمَّ ازْدَادُوْا كُفْرَاً لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيْلاً ﴾ فلقد آمن اليهود بموسى وكفروا بعيسى وبمحمد، وآمن النصارى بالسيد المسيح ولكنهم كذبوا خاتم الأنبياء والمرسلين محمداً ﷺ فاستحقوا اللعنة والطرد من رحمة الله جزاء تكذيبهم بآيات الله ورسله ولهذا قال تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيْلاً ﴾، واختار الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله أن الآية في اليهود خاصة، آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادة العجل، ثم آمنوا بعد عودة موسى إليهم ثم كفروا بعيسى بن مريم، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد ﷺ والقرآن العظيم.

«عودة إلى الحديث عن المنافقين»

ثم تحدثت السورة الكريمة ـ بعد الحديث عن الكافرين ـ تحدثت عن المنافقين، الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وتظاهروا بمحبتهم للمؤمنين وهم أعداء ألداء لهم، يتعاونون مع الكفار ضد المسلمين، ويتخذونهم أعواناً وأنصاراً، ويتركون ولاية المؤمنين، لأنهم قد تشابهت قلوبهم في الكفر والضلال، وقد توعدتهم السورة الكريمة بأشد أنواع العذاب في الآخرة، وبالخزي واللعنة في الدنيا وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِيْنَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيْمَاً. الَّذِينَ يَتَّخِذُوْنَ الكَافِرِيْنَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ يَبْتَغُوْنَ عِنْدَهُمْ العِزَّةَ فإِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعَاً. وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا

تَقْعُدُوْا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوْضُوْا فِي حَدِيْثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِيْنَ وَالْكَافِرِيْنَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيْعاً ﴾ ثم مضت الآيات الكريمة تذكر مخازيهم وشنائعهم، وتكشف الأستار عنهم، لتُظهر الناس على حقيقة أمرهم، فهم جرثومة الشر والفساد في كل زمان ومكان، وهم نابتة السوء والشر في كل مجتمع وأمة ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوْا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوْا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيْلاً ﴾.

«حملة ضخمة على المنافقين»

تناولت الآيات ضمن ما تناولته من الأحكام التشريعية، الاستعدادَ للأمن الخارجي الذي يحفظ على الأمة أمنها وهدوءها واستقرارها، فأمرت بالجهاد وأخذ العدة لمكافحة الأعداء، واستتبع الأمرَ بالجهاد حملة ضخمة على المنافقين، فهم نابتة السوء وجرثومة الشر، التي ينبغي الحذر منها، لأنهم أعداء ضمن الصف الإسلامي، تظاهروا للمؤمنين بالحب والولاء، وهم عون للكافرين على ضرب الإسلام والمسلمين، ولهذا جاءت السورة الكريمة تكشفهم وتفضحهم، وتُطلع المؤمنين على مخازيهم وجرائمهم، ليحذروهم ويجتنبوهم ويكونوا منهم على بصيرةٍ وحذر، وقد ابتدأ الحديث عن المنافقين بأسلوب ساخر، فيه التهكم والإزراء بهم، مقابل سخريتهم واستهزائهم بالمؤمنين ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً. الَّذِينَ يَتَّخِذُوْنَ الْكَافِرِيْنَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُوْنَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَةَ لِلَّهِ جَمِيْعاً. وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوْا مَعَهُمْ

حَتَّى يَخُوضُوْا فِي حَدِيْثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ المُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيْعَاً ﴾.

«صفات المنافقين الشنيعة»

ثم تتابعت الآيات تسرد صفاتِهم القبيحة التي تحلَّوا بها فكانت عاراً وشناراً عليهم، حيث كشفتهم أمام أنظار المؤمنين، وتلك الصفات الذميمة هي «المكر، والخداع، والجبنُ، والهلع، والتلوُّن، والمراوغة». فقد كانوا يقابلون المسلمين بوجه والمشركين بوجه آخر، فإذا كانت العزة والغلبة للمؤمنين، أظهروا الشجاعة والبسالة، وطالبوا بحقوقهم من الغنائم، لأنهم جاهدوا معهم جهاد الأبطال، وصمدوا في المعركة صمود الجبال، فإنه لولا جهادهم وثباتهم ـ حسب زعمهم ـ لما انتصر المسلمون على الأعداء، وإذا كان النصر حليف الكافرين، أظهروا لهم الدور المجيد والبطولة الرائعة في توهين عرى المؤمنين، وتثبيط عزائمهم عن الجهاد، وتلك مفخرة يعتزون بها أن يقابلوا كلَّ فريق بما يحبُّ أن يسمع من ضروب المديح والثناء، وأن يتلونوا تلوُّن الحرباء، فهم مع المؤمنين أبطال مغاوير، يجاهدون لإعلاء كلمة الله، ومع الكافرين أحباب وأنصار، يطلعونهم على أسرار المؤمنين، ويسعون لتوهين عزائم المجاهدين، ليبعدوا عنهم ثمرات النصر ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُوْنَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ ـ أيْ نصرٌ وغلبة على الأعداء ـ قَالُوْا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ ـ أي ظفر على المؤمنين في المعركة ـ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ المُؤْمِنِينَ﴾ أي قالوا للمشركين ألم نتمكن من الغلبة عليكم وقتلكم وأسركم ولكننا أبقينا عليكم وثبطنا عزائم المسلمين حتى انتصرتم عليهم فهاتوا نصيبنا من

الغنيمة ـ قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾.

«أقبح صور النفاق»

ثم تمضي السورة تسجل على المنافقين أبشعَ صور النفاق والخداع، فهم ما اكتفوا بخداع المؤمنين، حتى تجرؤوا على خداع ربّ العزة جل وعلا، بما أظهروه من الإيمان وأبطنوه من الكفر، ظناً منهم أن هذا ينطلي على ذي العظمة والجلال، كما انطلى على المؤمنين، ولقد كانوا ماهرين في تضليلهم لعباد الله المتقين، حيث كانوا يصلُّون معهم ويصومون، ويغزون ويقاتلون، ولكنَّ أعمالهم كلَّها رياء ونفاق، يصلُّون وهم متثاقلون متكاسلون، لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالى، يُراءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُوْنَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً. مُذَبْذَبِيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ ـ أي مضطربين مترددين بين الكفر والإيمان لا يستقرون على حال ـ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلَاءِ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾.

ثم حذرت السورة الكريمة المؤمنين من موالاة أعداء الدين، كما هو ديدن المنافقين، فقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً ﴾، والمعنى أتريدون أن تجعلوا للهِ عليكم حجة بالغة أنكم منافقون، فإن موالاة أعداء الله من صفات المنافقين لا المؤمنين.

«مصير المنافقين في الآخرة»

ثم تلتها الآيات الكريمة تُندِّد بالمنافقين، وتبيِّن مصيرهم ومآلهم،

فهم حطب جهنم، وهم شرُّ عباد الله، وعذابهم أشدُّ من عذاب الكافرين، ولذلك جعل الله لهم الدرك الأسفل من النار، لأنهم جمعوا بين الكفر والخداع، فكانوا شراً من الكفرة المجرمين ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً. إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً. مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً ﴾.

«خطر النفاق»

ولنتأمل في بعض أسرار التعبير القرآني المعجز، فإن المنافق أخطر من الكافر ولهذا كان عذابه أشد ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾، ولقد شرط تعالى لتوبة الكافر شرطاً واحداً وهو الانتهاء عن الكفر فقط ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوْا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ وأما المنافق فقد شرط لتوبته أربعة شروط وهي: الكف عن النفاق، وإصلاح العمل، والاعتصام بحبل الله، وإخلاص الدين لله ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾، ومع هذه الشروط الأربعة فقد ظلَّ أمرهم مشكوكاً فيه مما يوجب الحذر منهم فقد تكون توبتهم مكراً وخداعاً ولهذا قال تعالى: ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولم يقل فأولئك هم المؤمنون ثم قال: ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ ولم يقل وسوف يؤتيهم بغضاً لهم وإعراضاً عنهم، وتعظيماً لما كانوا عليه من عظم كفر النفاق، زادنا الله فهماً لأسرار كتابه.

وبعد أن ذكر تعالى المنافقين وفضحهم في الآيات السابقة ـ لأنهم جرثومة الشر في كل زمان ومكان ـ

ذكر تعالى هنا أنه لا يحبُّ إظهار الفضائح والقبائح، إلا في حق من زاد ضرُره وعظم خطره، فلا عجب أن يكشف الله الستر عن المنافقين، ويفضحهم على رؤوس الأشهاد، ليحذرهم الناس ويتقوا شرهم ومكرهم، وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً. إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً ﴾.

«اليهود إخوة المنافقين»

وبعد أن ذكر الله قبائح المنافقين، جاءت الآيات تتحدث عن اليهود، وتذكر بعض جرائمهم وشنائعهم، فهم إخوة المنافقين في الغي والضلال، وهم أشباههم وأمثالهم في الكفر والتكذيب بآيات الله، فقد زادت شنائعهم وقبائحهم على غيرهم من الأمم، فقد طلبوا رؤية الله عز وجل عَيَاناً، وعبدوا العجل في غيبة نبيهم موسى الكليم عليه السلام، وادعوا صلب السيد المسيح، واتهموا أمه مريم البتول العذراء بالفاحشة والزنى، إلى غير ما هنالك من قبائح وجرائم يندى لها الجبين، وفيهم يقول القرآن الكريم في هذه السورة: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ، ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ، وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً. وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾.

«جرائم اليهود»

وأخذت السورة الكريمة تُفيض في جرائم اليهود، وتكشف للناس

عن أنواع مفاسدهم ومخازيهم، فقد نقضوا العهد والميثاق، وقتلوا الأنبياء، وأرادوا قتل السيد المسيح، ولكنَّ الله عز وجل نجاه من شرهم، ورفعه إلى السماء دون أن يُمسَّ بأذى، فهو حيٌّ الآن وسينزل في آخر الزمان ليحكم بشريعة محمد بن عبد الله، وذلك من الآيات الباهرة والمعجزات الساطعة التي أيَّد الله بها عيسى عليه السلام وفي ذلك يقول القرآن الكريم موضحاً جرائم اليهود: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ـ أي فبسبب نقضهم الميثاق ـ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا. وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾.

«عيسى حيٌّ لم يصلب»

وقد دلَّ قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ على أن الله تعالى نجَّى رسوله عيسى بن مريم من شر اليهود الخبثاء، فلم يُقتل ولم يُصلب، وإنما صلبوا شخصاً آخر ظنوه عيسى بن مريم، وهو الذي ألقى الله الشبه عليه فصلبوه وهم يحسبون أنه عيسى، وهذا هو الاعتقاد الحق الذي يتفق مع النقل والعقل، وهو الذي يعتقده المسلمون، والذي تواترت به النصوص النبوية الشريفة التي تثبت حياة السيد المسيح، منها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليوشكنَّ أن ينزل فيكم عيسى بن مريم حَكَماً عدلاً، فيكسر الصليبَ، ويقتلُ الخنزير، ويضع

الجزيةَ - أي لا يقبل الجزية من أهل الكتاب - ويَفيضُ المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدةُ الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة واقرءوا إن شئتم ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ هذه عقيدة المسلمين في شأن عيسى بن مريم، وأما النصارى فيعتقدون أن عيسى صُلب، وأن اليهود أهانوه ووضعوا الشوك على رأسه، وأنه تضرَّع وبكى خوفاً من الصلب، والعجب في أمرهم أنهم يعتقدونه بألوهيته أنه هو «الله» أو أنه «ابن الله» وأنه جاء - ليخلّص البشرية من أوزارها فقدَّم نفسه كبش فداء ليخلصهم من الذنوب والمنكرات التي اقترفوها، إلى آخر ما هنالك من التناقض الغريب العجيب، ثم يعتقدون بصلبه!! وما أحسن قول القائل:

عجباً للمسيح بين النصارى ... وإلى أيّ والدٍ نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا ... إنهم بعد ضربه صلبوه
فإذا كان ما يقولون حقاً ... وصحيحاً فأين كان أبوه؟
حين خلّى ابنه رهين الأعادي ... أتراهم أرضوه أم أغضبوه؟
فلئن كان راضياً بأذاهم ... فاحمدوهم لأنهم عذَّبوه
ولئن كان ساخطاً فاتركوه ... واعبدوهم لأنهم غلبوه

* * *

وقد ختم الله الآيات الكريمة بما يدل على حياة السيد المسيح فقال سبحانه: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ والمعنى ليس أحد من أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا ويؤمن بعيسى وبأنه عبد الله ورسولُه قبل موت عيسى، ويوم القيامة يشهد عليهم السيد المسيح بكفرهم وانحرافهم عن دين الله حيث عبدوه من دون الله.

«ضلالات النصارى»

وبعد أن تحدثت السورة الكريمة عن المنافقين وعن الفرقة الأولى من أهل الكتاب وهم «اليهود» جاءت السورة تذكر هنا الفرقة الثانية وهم «النصارى» الذين ضلوا طريق الحق والهداية، واخترعوا صوراً عجيبة غريبة، من صور الإله المعبود، فزعموا أن الإله الذي تعنـو له الوجوه، ليس واحداً إنما هو مركب من ثلاثة أقانيم «الأب، والابن، وروح القدس» مجموع هذه الثلاثة هو الإله الواحد الأحد الذي تفرَّد بالبقاء، ويا لها من فكرةٍ عجيبة، تشبه ضلالات وأوهام الوثنيين المشركين في معبـودتهم التي اخترعـوها وجعلوهـا آلهة تعبـد من دون الله العلي الكبير!!.

وقد جاء القرآن الكريم في آياته النيِّرات، مبيناً العقيدة الصحيحة، موضحاً صفاتِ الإله الحق، داعياً النصارى إلى عدم الغلو في شأن السيد المسيح باعتقادهم فيه أنه هو الله، أو أنه ابنُ الله، أو أنه ثالثُ ثلاثة، فليس عيسى ابنَ الله كما يزعم النصارى، وليس ابن زنى كما يزعم اليهود اللعناء، فكلا الفريقين واقع بين الإفراط والتفريط، والقول الحقُّ الذي لا محيد عنه، أنه عبدٌ من عباد الله، ورسول من رسله الكرام، أظهر الله قدرتَه في خلقه من أم بلا أب، ليكون آية باهرة على عظمة جلال الله، وأيده بمعجزات عديدة لتكون برهاناً على صدقه في دعوى الرسالة، وليس له من صفات الإله الخالق شيء من الأوصاف، حتى يلتبس أمره بأمر الخالق المبدع الحكيم، وفي إقامة الحجة على النصارى يقول القرآن الكريم في ختام سورة النساء: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ

وَرُسُلِهِ، وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ، اِنْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ ومعنى قوله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿ وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ورُوحٌ مِنْهُ ﴾ أن الله تعالى قد خلق عيسى بكلمته التكوينية «كن» من غير واسطةأب، ومن غير اجتماع ولقاء بين الذكر والأنثى، كما هو الأمر في سائر الخلق، بل كان أمره عجباً يدل على قدرة الله العلي القدير كما قال سبحانه: ﴿ إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُم قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُون. الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ وأما قوله تعالى: ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ فليس فيه كما يزعم النصارى ما يدلُّ على الجزئية والتبعيضية حتى يقولوا «الأب والابن وروح القدس» فإن المعنى أن هذه الروح مبتدأةٌ من الله تعالى، بخلقه وتقديره وإيجاده، وأن عيسى أثر نفخة جبريل في صدر مريم، حيث حملت بتلك النفخة بعيسى عليه السلام كما قال سبحانه: ﴿ والَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ولفظة «مِنْ» كما تكون للتبعيض، قد تأتي لابتداء الغاية كما في هذه الآية ﴿ وروحٌ منه ﴾ أي روحٌ مبتدأة من الله جل وعلا، وليست جزءاً منه سبحانه، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

«مناظرة الإمام الواقدي للنصراني»

ذكر العلامة أبو السعود في تفسيره الكبير «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» هذه القصة فقال رحمه الله: يُحكى أن طبيباً نصرانياً للرشيد، ناظر الإمام الواقدي ذات يوم، فقال له النصراني بحضرة الخليفة الرشيد: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى ابنُ الله،

وأنه جزء من الله، ثم تلا هذه الآية: ﴿ ورُوحٌ مِنْهُ ﴾ أي أن عيسى جزء من الله، فهو ابنُ الله، فقال له الإمام الواقدي: ويحك! كيف فهمت هذا الفهم الخاطيء؟ إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿ وسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيْعَاً مِنْهُ ﴾ فيجب - على زعمك - إذا كان عيسى ابنَ الله لأنه جزء من الله، أن يكون ما في السموات وما في الأرض جزءاً من الله لأن الله قال: ﴿ جَمِيْعَاً مِنْهُ ﴾ فانقطعت حجة النصراني فخضع وأذعن، وفرح الخليفة الرشيد بذلك فرحاً شديداً، ووصل الواقديَّ بصلةٍ عظيمة.

«العقيدة الحقة ما جاء به الإسلام»

إن العقيدة الحقة في أمر عيسى بن مريم، هي التي قررها القرآن الكريم، وهو أنه عبدٌ من عباد الله، خصه الله بخوارق العادات، وليس له من صفات الألوهية والربوبية شيء، حتى يُعبد من دون الله، ولئن كان أمر عيسى عجيباً، حيث خُلق من أم بدون أب، فإن أمر آدم أعجبُ وأغرب، حيث خُلق من غير أب ولا أم، فلماذا يجعل النصارى عيسى ابنَ الله، وشريكاً مع الله، لمجرد أنه وُجد من أم بغير أب؟ أليس أمر آدم أغرب وأعجب؟ ثم إن عيسى لن يأنف ولن يتكبر عن العبودية والخضوع والإذعان لله جل وعلا، فهو واحد من عباد الله الأبرار الأطهار، كما قال سبحانه: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدَاً لِلَّهِ وَلاَ المَلاَئِكَةُ المُقَرَّبُونَ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمُ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً، وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ﴾ وقد ختم الله هذه السورة الكريمة بتقرير ما

ابتدأت به من رعاية شؤون النساء وحقوق الورثة من الأقرباء فقال سبحانه: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ، يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

صدق الله العظيم

(٤)

دِرَاسَةُ سُورَةِ المَائِدَةِ

مَدَنِيَّةٌ وَآيَاتُهَا مِئَةٌ وَعِشْرُونَ آيَة

سُورَة المَائِدَة

بين يدي السُّورَة

● «سورة المائدة» من السور المدنية التي نزلت على الرسول ﷺ بعد الهجرة النبوية، وتلك السورة الجليلة تناولت «جانب التشريع» بتفصيلٍ وإسهاب، فتحدثت عن أحكام العقود، والمبايعات، وعن أحكام الذبائح، وعن نكاح الكتابيات، وعن أحكام الطهارة، والتيمم، وعن حد السرقة، وحد البغي والإفساد في الأرض، وعن أحكام الإيمان، وعن تحريم الخمر والميسر، وعن قتل الصيد حالة الإحرام، وغير ذلك من الأحكام التشريعية التي زخرت بها هذه السورة الكريمة.

● نزلت هذه السورة الكريمة «سورة المائدة» على رسول الله ﷺ منصرفه من صلح الحديبية، وجماع السورة يتناول الأحكام التشريعية التي بَيَّنَها الله لعباده المؤمنين، لأن الدولة الإسلامية كانت في بدء تكوينها، وهي بحاجة إلى «المنهج الرباني» الذي يعصمها من الزلل والخطأ، ويرسم لها طريق البناء والاستقرار.

● وإلى جانب التشريع قصَّ تعالى علينا بعض القَصَص للعظة والاعتبار، فذكر قصة نبي الله موسى الكليم، مع بني إسرائيل، وهي قصة ترمز إلى التمرد والطغيان، ممثلة في هذه الشرذمة الباغية العاتية من «اليهود» الجبناء، الذين قالوا لرسولهم تمرداً وعصياناً: ﴿ إِذْهَبْ أَنْتَ

وَربُّكَ فقَاتِلاَ إنَّا هَهُنَا قَاعِدُوْنَ ﴾.

● وقد ذكرت السورة ما حصل لهذه الأمة الباغية من التشرد والضياع، حيث وقعوا في أرض التيه أربعين سنة عقوبة لهم من الله ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيْهُوْنَ فِي الأَرْضِ، فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ ﴾.

● كما تناولت هذه السورة قصة ابنيْ آدم «هابيل وقابيل» وهي قصة غريبة تثير الدهشة والاستغراب، وترمز إلى الصراع العنيف بين قوَّتَيْ الخير والشر، وعنصريْ الهدى والضلال، فلقد قتل الأخ أخاه، وكانت أول جريمة نكراء، تحدث على وجه الأرض، ممثلة قصة الاستعلاء والطغيان، فقد أريق الدم الذكي الطاهر، ظلماً وعدواناً، بسبب الحسد والقصة في نهايتها تصور لنا نموذجين اثنين من نماذج البشرية:

الأول: نموذج النفس الشريرة الأثيمة التي يستهويها الغيُّ والضلال.

والثاني: نموذج النفس الخيِّرة الكريمة التي جُبلت على الوَدَاعة والسكينة ﴿ فَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ، قَالَ: يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُوْنَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾.

● كما تناولت السورة أيضاً «قصة المائدة» التي كانت إحدى معجزات عيسى بن مريم، أظهرها الله على يديه أمام الحواريين ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ، تَكُوْنُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ فاستجاب الله دعاءه فأنزل

المائدة آية باهرة على قدرة رب العالمين ولهذا سميت «سورة المائدة».

«واجب الوفاء بالعهود»

ابتدأت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى الوفاء بالعقود والعهود ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا أَوْفُوْا بِالْعُقُوْدِ ﴾ وهو لفظ يشمل كل عقد وعهدٍ بين الإنسان وربه، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، فتشمل التكاليف الشرعية التي فرضها الله على عباده المؤمنين، وتشمل عقود المبايعات، والشركات، وعقود الإجارة والرهن، وعقود النكاح واليمين، وفي ذلك اهتمام وعناية من الإسلام بالعقود والمواثيق.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: العقود في الآية الكريمة هي العهود، وهي ما أحلَّ الله وما حرَّم، وما فرض في القرآن كله من التكاليف والأحكام، ثم قال تعالى: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ أي أبيح لكم أكل لحوم الأنعام وهي «الإبلُ، والبقر، والغنم» بعد ذبحها الذبح الشرعي، إلا ما حرَّم الله عليكم في هذه السورة، وهي الميتة والدم ولحم الخنزير إلى آخر آية المحرمات، كما حرَّم تعالى على المحرم خاصة الصيدَ وقت الإحرام، لأن المحرم في حالة نُسك وعبادة، فيجب أن يأمن من جهته كل مخلوق من إنسان وطير وحيوان كما قال سبحانه: ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمَاً ﴾.

«العصبية العمياء»

ولقد كان العرب في الجاهلية يغير بعضهم على بعض فيسلبون الأموال، ويسترقون الأطفال، فجاءت الشريعة الإسلامية الغراء، لتنهى

عن مثل هذا الظلم والعدوان، حتى يأمن الناس على أموالهم وأرواحهم، ويعيشوا في أمن وطمأنينة ولهذا قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا لاَ تُحِلُّوْا شَعَائِرَ اللَّهِ ـ أي لا تستحلوا حرمات الله ولا تعتدوا حدوده ـ وَلاَ الشَّهْرَ الحَرَامَ وَلاَ الهَدْيَ وَلاَ القَلاَئِدَ، وَلاَ آمِّينَ البَيْتَ الحَرَامَ يَبْتَغُوْنَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانَاً.. ﴾ أي ولا تستحلوا القتال في الشهر الحرام، ولا ما أُهدي إلى البيت العتيق من أنواع الهدي والذبائح، ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام بقصد الحج والعمرة ثم قال: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوْا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوْكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوْا ﴾ أي ولا يحملنكم بغضكم لقومٍ، كانوا قد صدُّوكم عن دخول مكة أن تعتدوا عليهم، وذلك عام الحديبية، حين مُنع الرسول ﷺ والمسلمون عن دخول مكة، والطواف حول الكعبة، ويا له من توجيه رشيدٍ سديد، يدعو فيه المولى عباده، إلى عدم الظلم والعدوان، حتى في وقت البغضاء لأولئك القوم المفسدين!!.

ولقد جرت سنة الجاهلية على مبدأ العصبية العمياء، وهو المبدأ الذي عبَّر عنه الشاعر الجاهلي بقوله:

وما أنا إلا من غُزية إن غوتْ غويتُ وأن تَرْشُد غزيَّةُ أَرْشد

فجاء الإسلام بهذا المبدأ الإنساني الكريم، الذي يكون فيه الإنسان مع الحق، وبجانب المظلوم سواء كان من قومه وعشيرته أو من غيرهم، وهذا المبدأ هو الذي ختم الله به الآية الكريمة فقال سبحانه: ﴿ وَتَعَاوَنُوْا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوْا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ، وَاتَّقُوْا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾.

«المحرمات من الأطعمة والمآكل»

لا تزال السورة تطالعنا في آياتها البينـات، بتلك الإشراقـات النورانية، والفيوضات القدسية، التي تناولتها هـذه السورة بـأسلوب الإيجاز والإعجاز، فهذه السورة العظيمة دستور الحياة الخالد، الذي شرع الله فيه لعباده المؤمنين، ما يسعـدهم في دنياهم وآخـرتهم، ويجعلهم إن تمسكوا بإرشاداته وتوجيهاته سادةَ الدنيا، وقادة العالم إلى شاطىء الأمن والاستقرار.

وقد تناولت السورة الكريمة المحرمات، من المآكل والأطعمة، وهي التي كان أهل الجاهلية يستحلونها، فجاءت الشريعة الإسلامية فحرمتها، لما فيها من الأضرار الجسدية والفكرية كالميتة والدم ولحم الخنزير، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيكُمُ المَيْتَةُ، وَالدَّمُ، وَلَحْمُ الخِنْزِيرِ، وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وَالْمُنْخَنِقَةُ، وَالْمَوْقُوذَةُ، وَالْمُتَرَدِّيَة، والنَّطِيحَةُ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ، وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُب، وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوْا بالأَزْلَام ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْ دِينكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلَامَ دِيناً، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُوْرٌ رَحِيمٌ ﴾.

«إباحة الطيبات وتحريم الخبائث»

لقد أباح الباري جلَّ وعلا لعباده المؤمنين تناول الطيبات، وحرَّم عليهم الخبائث كالميتة، والدم، ولحم الخنزير، وغيرِها من أنـواع المآكل الخبيثة، التي تضر بجسم الإنسان، أما الحكمة من تحريم الميتة فما فيها من الضرر البالغ، لأنها إما أن تكون ماتت لمرضٍ وعلة،

أفسَدَ بدَنها، وجعلَها غيرَ صالحة للبقاء والحياة، وإما أن يكون الموتُ لسببٍ طارىء.

فأما التي ماتت لمرضٍ وعلة، فقد خَبُث لحمها وفسد، وتلوث بجراثيم المرض، فيخشى من عدواها وانتقالِ المرض إلى الآكلين، **وأما الثانية** التي ماتت لسبب طارىء، فيحرم أكلها أيضاً لأن الموت الفجائي، يقتضي بقاء المواد الضارة في جسمها، فيتضرر بأكلها الإنسان. **وأما الدم المسفوح** فلقذارته وضرره أيضاً، وقد أثبت الطب الحديث، أن الدم ضار كالميتة، وأنه تتجمع فيه «الميكروبات» والجراثيم الضارة، وقد اتفق العلماء على أن الدم حرامٌ ونجسٌ، لا يُؤكل ولا يُنتفع به.

ومن رحمة الله بعباده أن حرَّم عليهم ما يؤذيهم ويضرهم، ومن رحمته أيضاً أنه قيَّد الدم بالمسفوح، فلم يحرم منه إلا ما كان مسفوحاً أي سائلاً مصبوباً فقال في «سورة الأنعام»: ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوْحَاً ﴾ ولو لم يُقيّده بالمسفوح، لوقع الناس في الضيق والحرج، لأن بعض الدم اليسير، قد يظهر في أجزاء اللحم والعروق، والتجنب منه عسير، ولهذا تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «لولا أن الله قال: ﴿ أَوْ دَماً مَسْفُوْحَاً ﴾ لتتبَّع الناسُ ما في العروق» وروي عنها أنها قالت: «كنا نطبخ البُرْمة على عهد رسول الله ﷺ تعلوها الصفرةُ من الدم، فنأكل ذلك ولا ننكره» وهذا كله من سماحة الشريعة ويسرها.

«الحكمة من تحريم لحم الخنزير»

وأما لحم الخنزير فإنما حرمه الباري جلَّ وعلا لقذارته ونجاسته،

فإن غذاءه من النجاسات والقاذورات فإنه لا يتلذَّذُ إلّا بذلك، فهو يعشق القُمامات والفضلات، ولو قُدّم له طعامٌ نظيف طيب، لآثر عليه القذر والنجس، ومن أجل ذلك حرمته الشريعة الإسلامية، ولأن فيه ضرراً بليغاً فادحاً، فقد اكتشفَ الأطباء، أن لحم الخنزير يحمل جراثيم شديدة الفتك، كما أن المتغذي من لحم الخنزير يكتسب من طباع ما يأكله، والخنزيرُ فيه كثير من الطباع الخبيثة، وأشهرها عدمُ الغَيْرة والعفة، فإنه لا يغار على أنثاه، ولهذا نجد الذين يتناولون لحم الخنزير، معظمهم قد فَقَد الغيرةَ على العرض والشرف، فلا يبالي بمن يُراقص زوجتَه أو يُخادنها، بل إنه يعتبر ذلك شرفاً له وفخراً، على اعتبار أن هذه البنت أو الزوجة، قد حازت على الرضى والإعجاب، وقد أحسن من قال:

إنَّ سَعْداً لغيورٌ والرَّبُّ أغيرُ منه
جَرِّدِ السَّيْفَ لِرَأْسٍ طَارَتْ النخوةُ منه

يقول شهيد الإسلام «سيد قطب» تغمده الله بالرحمة: «والخنزير بذاته منفّر للطبع النظيف القويم، ومع هذا فقد حرمه الله منذ ذلك الأمد الطويل، ليكشف علم الناس منذ قليل على أن في لحمه ودمه وأمعائه، دودةً شديدة الخطورة «الدودة الشريطية» وبويضاتها المتكيّسة، ويقول قوم الآن: إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت، فلم تعد هذه الديدان وبويضاتُها مصدر خطر، لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية، التي توفرها وسائل الطهو الحديثة، وينسى هؤلاء الناس، أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة، فمن الذي يقطع ويجزم، بأنه ليس هناك آفات أخرى، في لحم الخنزير وبدنه لم يُكشف بعد عنها؟.

أفلا تستحق الشريعة التي سبقت هذا العلم البشري بعشرات

القرون أن نثق بها، وندع كلمة الفصل لها، ونحرّم ما حرَّمت، ونحلّل ما حلَّلت، وهي من لدن حكيم خبير» انتهى[1].

«سرٌّ دقيق تنبه الآية عليه»

ونلاحظ في الآية سراً دقيقاً نبهتنا إليه الآية الكريمة وهي أن الله تعالى ذكر الميتة والدم، ولم يقل «والخنزير» وإنما قال: ﴿ وَلَحْمَ الخِنْزِيرِ ﴾ ليبيِّن لنا أنه حرام بعينه، حتى ولو ذبح بالطريق الشرعي، فإنه نجسٌ لعينه وذاته، وأمَّا ما أُهلَّ لغير الله فنجاستُه معنويةٌ لا حسية، فإنَّ ما ذُكر عليه غيرُ اسم الله، أو ذُبح لغير الله، فإنَّ علة تحريمه هو التوجه به لغير الله، فهو محرم لعلة روحية، هي سلامة القلب، وطهارة الروح، وخلوص الضمير، فهو ملحق بالنجاسة المادية، وأما سائر المحرمات من المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة وما افترسه السبع، فكلها ملحقة بالميتة، لأنها ماتت بالخنق، أو السقوط والتردي، أو الافتراس، وكلها يشملها حكم الميتة، وقد ختم الله هذه الآية الكريمة «آية المحرمات» بالتذكير بتلك النعمة الجليلة نعمة الإسلام فقال سبحانه: ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ فقد كمل التشريع، وتم الدين، وأسبغ الله النعمة على عباده، في يوم الحج الأكبر، أخرج الإمام البخاري في صحيحه أن رجلًا يهودياً جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له: يا أمير المؤمنين، آيةٌ في كتابكم تقرءونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتَّخذنا ذلك اليوم عيداً قال: أيَّ آيةٍ تعني؟! قال قول الله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ فقال عمر: «والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله فيه، والساعة التي نزلت

(١) انظر في ظلال القرآن لشهيد الإسلام سيّد قطب.

فيها، نزلت على رسول الله ﷺ عشيَّةَ عرفة، في يوم جمعة» يريد أنه عيدٌ على عيد.

«الإعداد الروحي»

بعد أن ذكر تعالى ما شرعه لعباده المؤمنين في هذه السورة الكريمة من الأحكام، ومن أعظمها بيان الحلال والحرام، وذكر نعمته عليهم بالهداية إلى الإسلام، ودفع الشرور عنهم والآثام، أعقبه جل وعلا هنا بذكر فضله وإنعامه عليهم، حيث طهرهم ظاهراً وباطناً بما شرعه لهم من الوضوء والغسل، ليعدَّهم إعداداً روحياً حين مناجاتهم للمولى جل وعلا فقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوْا إِذَا قُمْتُمْ إِلى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوْا وُجُوْهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ. وَامْسَحُوْا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبَاً فَاطَّهَرُوْا، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوْا مَاءً فَتَيمَّموا صَعِيدَاً طَيِّباً فَامْسَحُوْا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ، مَا يريدُ اللَّهِ لِيَجْعَلَ عَليكُمْ مِنْ حَرَجٍ - أي لا يريد الله التضييق عليكم في أمر الدين ولا أن يوقعكم في المشقة - وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيَطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ ﴾.

ومن رحمة الله بعباده أن شرع لهم التيمم عند عدم وجود الماء، أو عدم القدرة على استعماله، لبردٍ شديد أو مرض، وهذا دليل قاطع على أن الشريعة الإسلامية شريعة اليسر والسهولة، وأنها متمشية مع كل زمان ومكان، لأنها الشريعة الباقية الخالدة، التي أرسى الله قواعدها على دعائم الخير واليسر.

«سبب مشروعية التيمم»

وسبب مشروعية التيمم ما رواه الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء انقطع عِقدٌ لي، فأقام رسول الله على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس أبا بكر فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة؟ قامت برسول الله ﷺ وبالناس معه، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبستِ رسول الله والناسَ وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟ قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر ـ وقال ما شاء الله أن يقول ـ وجعل يطعن بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي ـ وفي رواية ـ فأقبل أبو بكر فلكزني لكزة شديدة، وقال: حبستِ الناس في قلادة وقد أوجعني ـ قالت: فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم ﴿فَتَيَمَّمُوْا صَعِيدَاً طَيِّبَاً﴾ فقال أُسيد بن حُضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر ـ وفي رواية أنه قال لها: يرحمكِ اللهُ، ما نزل بك أمر تكرهينه، إلا وجعل الله للمسلمين ولكِ فيه فرجاً ـ قالت عائشة: فبعثنا البعير الذي كنتُ عليه فوجدنا العقد تحته»[1].

«يسر الشريعة في تشريعه»

ومن يسر الشريعة أن هذا التيمم يجزىء عن الوضوء وعن الغسل من الجنابة، وهو ضربتان فقط، الضربة الأولى يمسح بها وجهه، والضربة الثانية يمسح بها يديه إلى المرفقين، أو إلى الكفين على خلافٍ في الرواية، ومما يدل على أنه يجزىء في الجنابة ما أخرجه الشيخان

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

- البخاري ومسلم - عن عمران بن حصين رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يصلّ في القوم، فقال: يا فلان، ما منعك أن تصلي مع القوم؟ فقال: يا رسول الله! أصابتني جنابة ولا ماء، فقال: عليك بالصعيد - أي بالتراب الطاهر - فإنه يكفيك)[١]، وفي رواية الترمذي: «إن الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم يجد الماء عشر سنين، فإذا وجد الماء فليمسَّه بشرته».

«من غرائب القصص»

ومن غرائب ما حدث لبعض الصحابة أن أحدهم أصابته جنابة، فتمرغ بالتراب بجميع جسده، فأخبر عن ذلك رسولُ الله ﷺ فضحك عليه السلام وقال له: «إنْ كان الصعيدُ لكافيكَ، وضرب بكفيه إلى الأرض ثم نفخ فيهما، ثم مسح وجهه وبعض ذراعيه»، روى الإمام البخاري عن عبد الرحمن بن أبزى أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب فقال: إني أجنبتُ ولم أجدْ ماءً! فقال له: لا تصلِّ، فقال عمار: أما تذكرُ يا أمير المؤمنين إذْ أنا وأنتَ في سرية، فأصابتنا جنابة لم نجد الماء، فأما أنت فلم تصلِّ، وأما أنا فتمعكت في التراب - أي مرَّغتُ جسدي كله بالتراب - وصليتُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما يكفيك أن تضرب بيديك الأرض ثم تنفخ، ثم تمسح بهما وجهك وكفيك»[٢]؟.

وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (خرجنا في سفر، فأصاب رجلاً منّـا حجرٌ فشجَّه في رأسه، فاحتلم تلك الليلة، فسأل أصحابه هل تجدون لي رخصةً في التيمم؟ فقالوا: ما نجد

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأُخبر بذلك قال: قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذْ لم يعلموا فإنما شِفاء العِيِّ السؤال - أي إنما شفاء الجاهل أن يسأل أهلَ العلم - إنما كان يكفيه أن يتيمم، ويعصب على جرحه خرقة، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده)[1].

«التطهير من الأقذار الحسية والمعنوية»

إن من أهداف الشريعة الغراء العنايةَ بطهارة الإنسان، وتخليصَه من الأقذار الحسية والمعنوية، في الباطن والظاهر، وإعداده الإعداد الروحي الذي يؤهله للوقوف في حضرة القدس، ويسمو به إلى آفاق مشرقة، من الجلال والبهاء، والسمو والكمال، ولقد شرع الإسلام الوضوء والغسل للمؤمن، ليكون رمزاً دالاً على طهارة الظاهر، كما دعاه الإسلام إلى اجتناب المعاصي والآثام، ليكون عنواناً على طهارة الباطن، فالوضوء والغسل إنما يقصد بهما النظافة الظاهرة، وهي طهارة حسية، تُعوِّد المسلم على حياة الطهر في النفس والخلق والدين، وتجعله يعتاد طريق الطهارة والنظافة في شتى شؤون حياته، في بدنه وملبسه ومطعمه، وقد حضَّ الإسلام على ذلك لأنه دين الطهارة والنظافة «وثيابك فطهر» وطهارة الظاهر جزء من طهارة الباطن، ولا عجب أن تُعنى الشريعة الغراء بطهارة الإنسان فالطهور شطر الإيمان، وصدق الله العظيم ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه.

«العدل أساس الملك»

هذه السورة الجليلة تتفجر منها ينابيع الحكمة والإيمان، وفي هذه الآيات البينات يذكّر الله عباده المؤمنين، بالنعمة الجليلة عليهم، حيث هداهم إلى الإسلام، ونقلهم من ظلمات الجهل والضلال، إلى نور المعرفة والهداية فيقول سبحانه ممتناً ومذكّراً: ﴿وَاذْكُرُوْا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَاتَّقُوْا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ﴾ ثم تَمضي السورة الكريمة تأمر بالعدل والقسطاس المستقيم، في معاملة المؤمن لأحبائه وأعدائه، فالعدلُ أساس المُلك، ولا تدور رحى الحياة السعيدة، حتى يأخذ العدل مجراه، فيكون الإنسان عادلاً مستقيماً مع صديقه وعدوه على حدٍّ سواء وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا كُوْنُوْا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوْا، إِعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَاتَّقُوْا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾.

ومعنى الآية الكريمة: لا يحملنكم شدة بغضكم للأعداء على ترك العدل فيهم، وعلى الاعتداء عليهم، اعدلوا معهم فإنه أقرب لتقواكم لله جل وعلا، لأن الله تعالى رقيب عليكم، مطَّلعٌ على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية، فإذا كان هذا ـ أيها الإخوة ـ هو موقف الإسلام من العدل، إذا كان واجباً مع الكفار، الذين هم أعداء الله، وكان بهذه الصفة من القوة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوْا إِعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ فما ظنكم بوجوب العدل والإنصاف مع المؤمنين، الذين هم أولياءُ اللهِ وأحباؤه؟.

ثم تلتها الآيات الكريمة تبشر المؤمنين بجنات النعيم، إن هم

استقاموا على الإسلام، وعملوا بتعاليمه وإرشاداته فيقول الله سبحانه: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ. وَالَّذِينَ كَفَرُوْا وَكَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ ﴾.

«حفظ الرسول من غدر اليهود»

وبعد هذا البيان الساطع القاطع، في ضرورة إرساء «المجتمع الإسلامي» على قواعد الحق والعدل والمساواة، جاءت الآيات الكريمة تدعو المؤمنين إلى تذكر فضل الله وإنعامه عليهم، حيث حفظ رسوله وأصحابه الأبرار، من كيد يهود بني النضير الأشرار، فقد أرادوا أن يَغْدروا بالرسول عليه السلام، وأن يُلقوا عليه حجراً كبيراً، وهو جالس تحت ظل دار ليقتلوه به، ويَغْدروا بأصحابه، فنجاه الله من شرهم ودفع عن المسلمين ذلك المكر الخبيث وفي ذلك يقول القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا اذْكُرُوْا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوْا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ، وَاتَّقُوْا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾.

«نقض اليهود للعهود»

ثم تلتها الآيات الكريمة تتحدث عن جبن اليهود، وعن فسادهم وطغيانهم، وتكبرهم واستعلائهم على أوامر الله جل وعلا، وتكشف للمؤمنين الأستار عنهم ليحذروا شرهم، ويتقوا أذاهم وضررهم، فلقد أكرمهم الله بتمكينهم في الأرض المقدسة، وأخذ عليهم العهد والميثاق، على أن يتمسكوا بشريعة الله، ولكنهم خانوا الأمانة ونقضوا العهد وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ

الصَّلاَةَ، وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ، وَآمَنْتُم بِرُسُلِي، وَعَزَّرْتُمُوْهُمْ، وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾.

ثم قال تعالى محذراً عباده المؤمنين من قبح صنيع اليهود: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُوْنَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَنَسُوْا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوْا بِهِ، وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾.

«خيانة النصارى للعهد»

كما حكت السورة الكريمة أيضاً عن أحوال النصارى، فلم يكونوا أحسن حالاً، وأشدَّ التزاماً بالمواثيق التي أخذها الله عليهم من اليهود، فكلا الفريقين «اليهود والنصارى» نقض العهد والميثاق، وخان الأمانة، فلذلك استحقوا غضب الله وسخطه الدائم، وبسبب هذا ألقى الله بين النصارى العداوة والبغضاء، وفيهم يقول القرآن الكريم: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوْا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ، فَنَسُوْا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوْا بِهِ - أي تركوا ما أمروا به في الإنجيل - فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوْا يَصْنَعُوْنَ ﴾.

«العودة إلى منبع الإيمان»

وبعد هذا البيان الكافي الشافي، جاءت الآيات الكريمة تدعو الفريقين «اليهود والنصارى» إلى ترك تلك السفاهات والحماقات، والعودة إلى منبع الهداية والإيمان، ألا وهو القرآن العظيم المنزل

لظلمات الشرك والشك، ومحمد ﷺ المرسل بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة فقال سبحانه: ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُوْنَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُوْ عَنْ كَثِيرٍ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُوْرٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامَ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾.

«زعم النصارى ألوهية المسيح»

وبعد أن ذكر تعالى ضلالات أهل الكتاب، ودعاهم إلى الإيمان والتوحيد، والتصديق بخاتم الأنبياء محمد عليه السلام، جاءت الآيات هنا لتكشف الستار عن عقائد النصارى الزائفة، فقد اعتقدوا في المسيح بن مريم أنه هو الله، وزعموا أن الرب جل وعلا تجسَّد وتجسمَّ وحلَّ في عيسى، فعيسى هو الله، والله هو عيسى، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، والعجيب في أمر النصارى أنهم ألَّهوا عيسى ثم اعتقدوا صلبه، فكيف يكون إلّهاً ورباً ويصلب؟ ومن بقي يدير شؤون الخلق بعد صلب عيسى؟ أليست هذه العقيدة خرافة لا يقبلها عقل ولا دين؟

ولنستمع إلى آيات القرآن الكريم، وهو يوضّح لنا بأسلوبه المعجز الباهر، سفاهة هذا الرأي وبطلانه، فيقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوْا إِنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ بنُ مَرْيَم - يعني أن عيسى هو الله - قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ المَسِيح بْن مَرْيَم وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعَاً ﴾ أي قل لهم يا محمد: لقد كذبتم في هذه الدعوى الأثيمة، فمن الذي يستطيع أن يدفع مشيئة الله، لو أراد الله أن يُفني عيسى وأمَّه وأهل الأرض جميعاً؟ فعيسى عبد مقهور يعتريه الموت والفناء كسائر المخلوقات، ولو كان إلّهاً لقدر على تخليص نفسه من الموت، ثم ختم

الله الآية الكريمة بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، وكأن الآية تقول لهم: كلُّ ما في الكون من الخلق، والعجائب، ملكٌ للهِ سبحانه وتعالى، يخلق ما يريد، ولذلك خلق عيسى من غير أب، لأنه تعالى لا يعجزه شيء!!.

«دعوى اليهود والنصارى أنهم أحباب الله»

ثم توالت الآيات الكريمة تحكي عن اليهود والنصارى افتراءهم وكذبهم على الله، فقد أشركوا مع الله غيره، وكذَّبوا رسله ثم زعموا أنهم أولياء الله وأحبابه، وأن الله لن يعذبهم على ما ارتكبوا من أوزار، لأنهم أبناؤه وأحباؤه فقال سبحانه: ﴿ وَقَالَتْ اليَهُوْدُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيهِ المَصِيرُ ﴾.

وقد أسهبت السورة الكريمة في شأن أهل الكتاب، وأفاضت في ذكر قبائحهم وشنائعهم، ثم دعتهم إلى العودة إلى الدّين الحق، الذي جاء به خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، ولوَّنت لهم أساليب الدعوة، تارة بالتبشير والترغيب، وأخرى بالتخويف والإنذار، فقال جل ثناؤه: ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُوْلُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُوْلُوْا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

«دخول الأرض المقدسة»

ثم تلتها الآيات تذكر ما عليه اليهود، من العناد والجحود، فقد

شرفهم الله بالنبوة والمُلْك، فلم يُبعث في أمة من أمم الأرض، أنبياء بكثرة وافرة، كما بُعث في بني إسرائيل، ووعدهم الله بالعز والنصر، والغلبة على الأعداء، إن هم تمسكوا بأمور الدين، كما وعدهم بدخول الأرض المقدسة ـ أرض فلسطين ـ إن هم جاهدوا في سبيل الله، وقاتلوا الجبّارين الذين كانوا يسكنون تلك الديار، وهم من بقايا ـ العمالقة ـ المنسوبين إلى عاد.

ولكن ماذا كان موقف اليهود من هذا الشرف والإنعام؟ هل استجابوا وأطاعوا أم كفروا وجحدوا؟ لنستمع إلى القرآن العظيم، وهو يقصُّ علينا قصص اليهود المتخاذلين، بأسلوبه الممتع الفريد: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوْسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوْا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ، وَجَعَلَكُمْ مُلُوْكاً، وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ. يَا قَوْمِ ادْخُلُوْا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ، وَلاَ تَرْتَدُّوْا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوْا خَاسِرِينَ ﴾.

«جواب السخرية والاستهزاء»

ولنتابع معاً جواب أولئك الأشقياء المجرمين، لنرى أسلوبهم في التجبر والعناد، والعصيان لأوامر الله وأوامر رُسُله ﴿ قَالُوْا يَا مُوْسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ. وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوْا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوْا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُوْنَ ﴾.

وهنا يظهر على ساحة الميدان، شخصان مؤمنان، يستجيبان لدعوة موسى عليه السلام، وينصحان القوم بعدم الخوف والفزع، فإنَّ من كان اللهُ معه، فلن يخاف أبداً من مخلوق ﴿ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ

يَخَافُوْنَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا، ادْخُلُوْا عَلَيْهِمُ البَابَ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوْهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُوْنَ. وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوْا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وكان جواب اليهود على هذا العرض الكريم، ذلك الجواب الوقح، الذي يدل على طبيعة اليهود، من الجُبْن والهَلَع، والاستخفافِ بأوامر الله ﴿ قَالُوْا يَا مُوْسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوْا فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ، إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُوْنَ ﴾، ولنقف لحظةً يسيرةً أمام هذا الجواب الشنيع، من اليهود لنبيهم موسى عليه السلام، لنقارنه بجواب الصحابة الأبـرار، حيث دعاهم رسول الله لقتال المشركين، في غزوة بدر، حيث قالوا: «يا رسول الله سِرْ بنا على بركة الله، فوالله لوخُضْتَ بنا البحر، لما تخلَّف منا أحدٌ عنك، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى: ﴿ إِذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ولكن نقول: إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، أين هذا ـ أيها السادة ـ من ذاك؟.

وقد ختم الله هذه الآيات الكريمة بدعاء موسى عليهم بالتشرد والضياع ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ القَوْمِ الفَاسِقِينَ. قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُوْنَ فِي الأَرْضِ، فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ ﴾.

«قصة قابيل وهابيل»

لا تزال تطالعنا السورة في آياتها البينـات، بتلك الإشراقـات النورانية والفيوضات القدسية، وتحدثنا بأسلوبها الممتع المعجز، عن قصص الأمم السابقين، فبعد أن ذكـر تعالى تمـرد بني إسرائيـل، وعصيانهم لأمر الله في قتال الجبارين، ذكر بعد ذلك قصة ابني آدم «هابيل وقابيل» وهي قصة ترمز إلى الصراع العنيف بين طبيعة الخير

والشر، ونوازع الرحمة والإجرام، حيث قتل «قابيل» أخاه «هابيـل» وكانت أول جريمة قتلٍ حدثت على سطح الأرض، أريق فيها الدم البريء الطاهر، وقد قصها الباري جل وعلا علينا بعد قصة تمرد وعصيان بني إسرائيل، فاليهود قد اقتفوا في العصيان خطواتِ أولِ عاصٍ لله متمردٍ في الأرض، فطبيعة الشر فيهم مستقاةٌ من ولد آدم الأول، فتشابهت القصتان من حيث التمردُ والعصيانُ ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ، إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخِرَ، قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ، قَالَ: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوْءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُوْنَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾.

«توضيح وبيان»

وتوضيح هذه القصة كما ذكرها المفسرون، أن حواء عليها السلام كانت تلد في كل بطن توأماً «ذكراً وأنثى» وكان آدم صلوات الله عليه يزوّج الذكر من هذا البطن بالأنثى من البطن آخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما «هابيل وقابيل» فلما أراد آدم أن يزوّج هابيل أخت قابيل، ويزوّج قابيل أخت هابيل، أبى «قابيل» وقال: هي أختي وُلدتْ معي، وهي أحسنُ من أخته، وأنا أحقُّ أن أتزوَّج بها.

قال ابن إسحق: وكانت أخت قابيل من أحسن الناس فضنَّ بها على أخيه وأرادها لنفسه، فقال له أبوه: يا بنيَّ إنها لا تحل لك، فأبى قابيل أن يقبل ذلك، فقال له أبوه: يا بنيَّ قرّبْ قرباناً، ويقرب أخوك «هابيل» قرباناً فأيكما تُقبل قربانه فهو أحقُّ بها، وكان قابيل صاحب زرع

فقرَّب أرذل زرعه، وكان هابيل صاحب غنم فقرَّب جذعةً سمينة، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب قابيل وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي فذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾[1].

ثم تتابع السورة سرد أحداث تلك القصة العجيبة فيقول الله سبحانه: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ، قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ ومعنى قوله تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ أي حسَّنَتْ وزيَّنتْ له نفسه قتل أخيه فقتله، فخسر وشقي بذلك، ولم يكن «هابيل» بأضعف قوة من «قابيل» ولكنه كان متقياً لله.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: «وَايْمُ الله، إنْ كان هابيلُ لأشدَّ الرجلين، ولكنْ مَنَعه التحرُّج ـ أي الورَعُ ـ والخوفُ من الله» ولما قتله لم يدر كيف يدفنه فتركه بالعراء، حتى رأى غراباً يحفر بمنقاره ورجله الأرض، ليُرِيَ القاتل، كيف يستر جسد أخيه، قال مجاهد: بعث الله غرابين فاقتتلا، حتى قتل أحدهما الآخر، ثم حفر له فدفنه فذلك قوله تعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ، لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «والمشهور أنه قتله بحديدة في يده، وروى ابن جرير عن السُدِّي، أنه لما طلبه ليقتله فرَّ الغلام في رؤوس الجبال، فأتاه يوماً من الأيام، وهو يرعى غنماً له وهو نائم، فرفع

---

(١) انظر سيرة ابن هشام.

صخرةً فشَدَخ بها رأسه فمات، فتركه بالعراء، حتى هداه الغراب إلى طريقة دفنه».

وهذه أول جريمة قتلٍ تقع في الأرض، ولهذا ورد في الحديث الصحيح الذي أخرجه الترمذي وابن ماجه أن النبي ﷺ قال: «لا تُقْتل نفسٌ ظلماً، إلّا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها، لأنه كان أوَلَ من سنَّ القتل»(١).

والمقصود من ذكر هذه القصة، بيانُ عاقبة البغي، والحسد، والظلم، وهذه هي صفات اليهود اللعناء، الذين حسدوا خاتم الأنبياء محمداً ﷺ فكذبوا رسالته، وحرَّفوا أوصافه المذكورة في التوراة، فاستحقوا اللعنة والغضب.

«جزاء البغي والإفساد في الأرض»

ثم تتابعت الآيات الكريمة تذكر جزاء المحاربين المفسدين في الأرض، ووضعت عقوبةً صارمة شديدة لهم، ألا وهي «الصلب، والقتلُ، وقطع الأيدي والأرجل من خلاف» وفيهم يقول الله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُوْنَ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوْا أَوْ يُصَلَّبُوْا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

وسبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري ومسلم أن نفراً من عُكل ثمانية، قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا

(١) أخرجه الإمام الترمذي وابن ماجه.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

المدينة وسَقُمت أجسامهم، فشكَوْا إلى رسول الله ذلك، فقال: ألا تخرجون مع راعينا في إبله؟ فتصيبوا من أبوالها وألبانها؟ فقالوا: بلى، فخرجوا فشربوا مِن أبوالها وألبانها، فصحُّوا، فقتلوا الراعي، وساقوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله عليه السلام، فبعث في آثارهم فأُدركوا فجيء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمِرتْ أعينُهم، ثم نُبذوا في الشمس حتى ماتوا»، وفي رواية: «وأُلقوا في الحرَّة فجعلوا يَسْتسقُون فلا يُسْقَوْن حتى ماتوا» فهذه هي عقوبةُ قُطَّاع الطريق، والمفسدين في الأرض بأنواع البغي والإجرام، شرعها الإسلام حماية للإنسانية من البغي والعدوان.

«جريمة السرقة»

تناولت السورة في آياتها البينات كثيراً من الأحكام التشريعية، وبوجه خاص أحكام الجنايات والقصاص، فبعد أن تحدثت الآيات السابقة عن حكم «قُطَّاع الطريق» والمفسدين في الأرض بأنواع البغي والإجرام، ووضعت لهم العقوبة الزاجرة التي تستأصل الجريمة من جذورها، ذكر تبارك وتعالى في الآيات بعدها حكم «جريمة السرقة» وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوْا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوْبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُوْرٌ رَحِيْمٌ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هكذا بإيجاز يبلغ حدَّ الإعجاز، يقرِّر القرآن الكريم عقوبة السارق، ويجعل «قطع يده» هو العلاج الرادع لتلك الجريمة المنكرة،

فاليد التي تسرق يدٌ خائنة أثيمة، يجب أن تُبْتر، ليأمن الناس على أموالهم وأرواحهم، ويدٌ واحدة تُقطع كافيةٌ لردع المجرمين، أكثر مما لو حُكم عليه بالسجن عشر سنين، ولكنَّ تلك اليد لا تقطع إلا بعد أن تتوفر تلك الشروط، التي قررتها الشريعة الإسلامية الغراء، وهي أن يسرق مقداراً معيناً من المال، يأخذه بطريق الخفية من حرزٍ مصون، من غير حاجة واضطرار، ومن غير حقٍّ في المسروق أو شبهة الحق.

«الحكمة من قطع يد السارق»

ولا بدَّ لنا من كلمة وجيزة حول «حد السرقة» وبيان حكمة التشريع، فإن بعض الغربيين اليوم، يعيبون على الشريعة الإسلامية قطع يد السارق، ويزعمون أن هذه العقوبة صارمة، لا تليق بمجتمع متحضّر، ويقولون: يكفي في عقوبته السجنُ ردعاً له، إلى آخر ما هنالك من أقوال سقيمة، تدل على الغفلة والبلاهة، أو الخبث والمكر.

والحقيقة التي ينبغي أن يعلمها كل مسلم، بل كل عاقل ينشد الأمن والاستقرار، أن الإسلام صان بتشريعه الخالد كرامة الإنسان، وجعل الاعتداء على النفس، أو المال، أو العرض، جريمة وجناية تستوجب أشدَّ أنواع العقوبات، فالبغي في الأرض بالقتل والسلب، والاعتداء على الآمنين بسرقة أموالهم، كل هذه جرائم اجتماعية، ينبغي معالجتها بشدة وحزم، حتى لا يعيث المجرمون في الأرض فساداً، وحتى لا يكون هناك من يُخلُّ بأمن الأفراد والمجتمعات. . وقد وضع الإسلام للمحارب الباغي بقطع الطريق أنواعاً من العقوبات تناولتها الآيات السابقة، وهي «القتل، الصلب، تقطيع الأيدي والأرجل، النفي والطرد من الوطن» كما وضع للسارق عقوبة «قطع اليد» وللقاتل عقوبة

القصاص، وهذه العقوبات تعتبر بحقٍّ رادعة زاجرة، تقتلع الشر من جذوره، وتقضي على الجريمة في مَهْدها، وتجعل الناس يعيشون في أمنٍ وطمأنينة واستقرار. . وأعداء الإنسانية يستعظمون قتل القاتل، وقطع يد السارق، وجلد الزاني الأثيم، ويزعمون أن هؤلاء المجرمين، ينبغي أن يحظَوْا بعطف المجتمع ورحمته، لأنهم مرضى بمرضٍ نفساني، إنهم يرحمون المجرم من عقاب المجتمع، ولا يرحمون المجتمع من المجرم الأثيم، الذي سلب الناس أمنهم واستقرارهم، وأقلق مضاجعهم، وجعلهم مهددين بين لحظةٍ ولحظة، في الأنفس والأموال والأرواح.

«تهديد أمن البشرية»

وكان من أثر هذه الفلسفة والنظريات، التي لا تستند على عقل ومنطق سليم، أن زادت الجرائم، وكثرت العصابات، واختلَّ الأمن في ربوع المعمورة، وأصبحت السجون ممتلئة بالمجرمين وقطاع الطريق، الذين يهدّدون الأمن والاستقرار، ويزرعون في المجتمعات الرعب والدمار.

يسرق السارق وهو آمن مطمئن، لا يخشى شيئاً اللهم إلا ذلك السجن، الذي صار له كالفندق يسكنه بالمجان، يطعم ويكسى فيه، ويروَّح عنه بشتى صور التسلية والترفيه، فيقضي مدة العقوبة التي فرضها عليه «القانون الوضعي» الذي لا يعترف بشريعة الله، ثم يخرج من السجن وهو إلى الإجرام أَمْيلُ، وعلى الشرّ أقدرُ، يدخل السجنَ وهو لصٌّ صغير، ثم يخرج منه وهو مجرم خطير، قد أغرق في الإجرام،

ويُكوُّنُ في السجن عصاباتٍ، تقضي على الأخضر واليابس، لأنه تعلم فنون البغي والإجرام.

مما يؤكد هذا ما نقرؤه ونسمعه عن تعداد الجرائم، وزيادتها يوماً بعد يوم، وذلك لقصور العقل البشري، عن الوصول إلى الدواء الناجح، والشفاء النافع، لمعالجة مثل هذه الأمراض الخطيرة.

والعجيب أن هؤلاء الغربيّين، الذين يرون في الحدود الإسلامية، قسوة وشدة لا تليق بعصرنا المتحضر، والذين يدعون إلى إلغاء عقوبة القتل، والجلد، وقطع يد السارق، هم أنفسُهم يفعلون ما تشيب له الرؤوس، وتنخلع لهوله الأفئدة، فالحروب الهمجية التي يثيرونها، والأعمال الوحشية التي يقومون بها، من قتل الأبرياء، والاعتداء على الأطفال والنساء، وتهديم المنازل على من فيها، لا تعتبر في نظرهم وحشية، وكأنهم يتمثلون بقول الشاعر:

قتلُ امرئٍ في غابةٍ جَريمةٌ لا تُغْتفر
وقتلُ شَعْبٍ آمن مسألةٌ فيها نظر

ويا له من منطق عجيب، فأين هذا من تشريع الإسلام الرائع، الذي أمَّن الناس على أموالهم وأرواحهم، وأراحهم من طغيان المجتمع؟ وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُوْنَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوْقِنُوْنَ﴾.

«طبائع اليهود كما صورها القرآن»

وبعد أن تناولت الآيات الكريمة أحكام الحِرابة، والسرقة، والبغي، والإفساد في الأرض، جاءت الآيات هنا لتتحدث عن الإفساد

والمفسدين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فذكرت منهم طائفتين هما: فرقة المنافقين، وطائفة اليهود المجرمين، فذكرت الأولى بإيجاز، وذكر الثانية بتفصيلٍ وإسهاب، فقد حسد اليهود النبي ﷺ وتربصوا به وبأصحابه الدوائر، وسعوا جهدهم لإطفاء نور الله، وتلاعبوا في نصوص التوراة وحرَّفوا كلام الله، إلى غير ما هنالك من أنواع البغي والإفساد، وفيهم وفي المنافقين يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُوْلُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُوْنَ فِي الكُفْرِ، مِنَ الَّذِينَ قَالُوْا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوْبُهُمْ، وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوْا سَمَّاعُوْنَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُوْنَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوْكَ يُحَرِّفُوْنَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ، يَقُوْلُوْنَ إِنْ أُوْتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوْهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوْا، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئَاً، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوْبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. سَمَّاعُوْنَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُوْنَ لِلسُّحْتِ، فَإِنْ جَاءُوْكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوْكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ﴾ وهكذا تكشف لنا هذه الآيات الكريمة عن طبائع اليهود، فهم سفكة الدماء، وناقضوا العهود، والآكلون لأموال الناس بالباطل، والمحرفون لكلام الله، وهم أمة البغي والإفساد في كل زمان ومكان، ولقد بلغ من إفسادهم وإجرامهم أن تلاعبوا بنصوص التوراة، فأثبتوا فيها ونقضوا حسب أهوائهم غير ما أنزل الله.

«سبب نزول الآيات الكريمة»

وقد روى المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمة أن النبي عليه الصلاة والسلام، مرَّ ذات يوم على يهودي محمَّم مجلود، كان قد

زنى ـ ومعنى محمم أي ملطخ وجهه بالسواد ـ فدعاهم عليه السلام وقال: هكذا تجدون حد الزنى في كتابكم؟ قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال له: أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا ـ أي حلفتني ـ لم أخبرك، نجد في كتابنا على المحصن الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذْ أماتوه، فأمر به فرجم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُوْلُ لاَ يَحْزُنْكَ الّذِينَ يُسَارِعُوْنَ فِي الكُفْرِ. . ﴾ إلى قوله: ﴿ يَقُوْلُوْنَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوْهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوْا ﴾ يقول بعضهم لبعض: ائتوا محمداً فسلوه فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا»(1).

ثم تتابعت الآيات الكريمة توبخهم وتشنّع عليهم تلك الأفعال المهينة، حيث استعاضوا عن حكم الله، بما اخترعه لهم الرؤساء، من أنواع اللهو والعبث والتلاعب في نصوص التوراة فقال سبحانه: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُوْنَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ؟ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، وَمَا أُوْلَئِكَ بِالمُؤْمِنينَ ﴾.

«التوراة هدى ونور»

وبعد هذا البيان الساطع الواضح، ذكر تعالى ما أنزله في التوراة من الأحكام العادلة، التي تفرق بين الهدى والضلال، وتنير السبيل بما

(1) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، وانظر أسباب النزول للإمام الواحدي.

حوته من أنوار وأسرار ربَّانية فقال سبحانه: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيها هُدَىً وَنُوْرٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّوْنَ الَّذِينَ أَسْلَمُوْا لِلَّذِينَ هَادُوْا وَالرَّبَانِيُّوْنَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوْا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوْا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ، وَلاَ تَشْتَرُوْا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُوْنَ﴾.

ثم بيَّن تبارك وتعالى ما شرعه لهم في التوراة من الأحكام الإلهية، التي تحقق العدل في الأرض، وتقضي على نوازع البغي والفساد فقال سبحانه: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ، وَالأَنْفَ بالأَنْفِ، وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ، وَالسِّنَّ بالسِّنِّ، وَالجُرُوْحَ قِصَاصٌ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ﴾.

«النصارى إخوة اليهود في الضلال»؟

ثم تلتها الآيات تتحدث عن النصارى الذين سلكوا في الغي والضلال سبيل إخوانهم اليهود فقال سبحانه: ﴿ وقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدَىً ونُورٌ، ومُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وهُدَىً ومَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ. وَلْيَحْكُمْ أَهْلَ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُوْنَ ﴾.

«القرآن أفضل الكتب السماوية»

وبعد الحديث عن التوراة والإنجيل، جاء الحديث عن القرآن الفارق بين الهدى والضلال فقال سبحانه مشيراً إلى هذا الكتاب المعجز، الذي حوى خلاصة ما سبقه من الكتب السماوية: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا

أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوْا الخَيْرَاتِ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُوْنَ ﴾، وبعد أن حذَّر الله رسوله ﷺ من الاستجابة لضلالات اليهود والنصارى وأمره بالتمسك بما أوحاه إليه في هذا القرآن الحكيم. ختم الآيات الكريمة بقوله سبحانه: ﴿ أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُوْنَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوْقِنُوْنَ ﴾؟.

«التحذير من مصادقة اليهود والنصارى»

وبعدها جاءت الآيات تحذر المؤمنين، من موالاة ومصادقة اليهود والنصارى، فإنهم أعداء ألداء لأمة الإسلام، يلتقون جميعاً على حرب المسلمين، لاتحادهم في الكفر والضلال، وملَّةُ الكفر واحدةٌ، وقد توعَّد الله من يحبهم، أو يناصرهم، أو يعاشرهم، بأشدّ أنواع العذاب، لأن محبة أو مصادقة أعداء الله، تضرُّ بالعقيدة والإيمان، وفي هذا يقول الله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا لاَ تَتَّخِذُوْا اليَهُوْدَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ. فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوْبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُوْنَ فِيهِمْ يَقُوْلُوْنَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوْا عَلَى مَا أَسَرُّوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾.

والآيات تشير إلى المنافقين في هذه الأمة، الذين اتخذوا من النفاق درعاً يتقون به غضبة المسلمين، فهم مع المؤمنين إخوةٌ يتظاهرون بالإيمان، ومع اليهود والنصارى أحبابٌ وأعوان، يصادقونهم ويوالونهم ويفشون إليهم أسرار المؤمنين، فلا عجب إذاً أن يجعلهم القرآن في

صفٌّ واحد، وأن يحكم عليهم بالكفر والضلال!!.

«معجزة سطرها القرآن»

ولننظر إلى معجزةٍ سطَّرها القرآن في آياته البينات، التي كلها حق وصدق، فمع العداء المُسْتحكم بين اليهود والنصارى، الذي توارثوه جيلاً عن جيل، ومع اعتقاد النصارى بكفر اليهود ـ لأنهم على حدّ زعمهم ـ صلبوا عيسى الذي يؤمنون بألوهيته، مع كل هذا فإنهم يتناسون هذا العداء، ويتفقون ويتحدون ضد الإسلام الذي جاء مؤمناً بكتبهم ومصدقاً برسلهم، يجتمعون ويلتقون على حرب الإسلام والمؤمنين، ولا أدل على ذلك من اعتراف النصارى في زماننا ببراءة اليهود من دم السيد المسيح، لا رجوعاً منهم عن عقيدة الصلب، فتلك عقيدة راسخة في نفوسهم، ولكنْ مصادقةً لليهود ومصافاة لهم، لتجتمع كلمتهم على حرب الإسلام وهذا ما لفت انتباهنا إليه القرآن، في بيانه الدقيق المحكم ﴿ لَا تَتَّخِذُوْا اليَهُوْدَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ وكأن الآية تقول لنا: كيف تصادقونهم يا معشر المؤمنين وهم يد واحدة عليكم، وهم إخوة متعاونون ضدكم، فهم وإن اختلفوا بينهم لكنهم أولياء بعض، يعملون جاهدين للقضاء عليكم، فكيف توالونهم وهذه حالتهم وحقيقتهم؟!.

«الردة عن الإسلام»

ثم تتابعت الآيات الكريمة تحذر المؤمنين عن الارتداد عن الدين، فإن الردة تحبط العمل، وتوجب الخلود في نار جهنم، والله جل وعلا لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، فإذا ارتد الإنسان عن دينه،

فسيبدل الله من هو خير منه وفي ذلك يقول الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوْنَهُ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ، يُجَاهِدُوْنَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُوْنَ لَوْمَةَ لَائِمٍ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

«الولاية الصادقة»

ثم بيَّن تعالى الولاية الحقة بين عباده المؤمنين، وبيَّنَ صفاتِ أولياء الله، الذين حكم الله لهم بالعز والنصر والغلبة على الأعداء فقال تقدست أسماؤه: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُوْلُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوْا، الَّذِينَ يُقِيمُوْنَ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ، وَهُمْ رَاكِعُوْنَ. وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوْا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُوْنَ ﴾ وبعد الإفاضة في بيان الولاية التي تكون بين جند الرحمن، والولاية التي تكون بين جند الشيطان، تتابعت الآيات الكريمة تنذر المؤمنين من مخالطة أعداء الدين أو مصادقتهم، الذين يسخرون من الإسلام ويهزءون، ويتخذون من شعائر الإسلام - كالصلاة التي شرعها الله لتكون صلة بين العبد وربه - مجالاً للسخرية والاستهزاء والتندر ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا لَا تَتَّخِذُوْا الَّذِينَ اتَّخَذُوْا دِينَكُمْ هُزُوَاً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوْتُوْا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ، وَاتَّقُوْا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوْهَا هُزُوَاً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُوْنَ ﴾.

وبذلك طوى الإسلام صفحة كان ينفذ من خلالها المنافقون والمشركون، ليصلوا إلى مآربهم الدنيئة، من النيل من هذا الدين المجيد، وقَطع العلاقة بين أولياء الرحمن وجند الشيطان، فلا صداقة

ولا مودة ولا أخوة، إلاَّ بين أتباع الدين الواحد، وصدق الله حيث يقول: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوْا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُوْنَ ﴾.

«سفاهة أهل الكتاب»

لا تزال «سورة المائدة» تطالعنا في آياتها البينات بتلك التشريعات والتوجيهات الحكيمة، التي قام عليها صرح هذا الدين العظيم، وقد تناولت الآيات السابقة موضوع الولاية لغير المؤمنين، وبينت أن الولاية إنما تكون بين المؤمن والمؤمن، لأنهم إخوة في العقيدة والإيمان، أما الكافر فلا صداقة ولا مودة ولا ولاية بينه وبين المؤمن، وبخاصة اليهود والنصارى أهل الكتاب، الذين اتخذوا الإسلام والمسلمين سخرية واستهزاءً كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوْهَا هُزُوَاً وَلَعِباً، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُوْنَ ﴾ فكيف يواليهم المسلمون؟.

وقد جاءت الآيات الكريم هنا تتحدث عن أهل الكتاب وتسفّه عقولهم وأحلامهم، فقد سخروا من المسلمين وهزءوا منهم، لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله ورسله، وصدَّقوا بما أنزل الله في الكتب السماوية من آيات وأحكام، وهذا شيء يدعو إلى الفخر والاعتزاز لا إلى الطعن والمسبة، فليس الإيمان بكتب الله ورسله نقيصةً ولا عيباً ولا مذمةً حتى يطعن في ديننا اليهودُ والنصارى، وإنما العيب والنقص في التكذيب بآيات الله ورسله، والعارُ والشنار على من رأى طريق الحق واضحاً ساطعاً فلم يسلكه وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُوْنَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُوْنَ﴾؟ أي هل لكم مطعن أو عيب علينا، إلاّ إيمانُنا بالله، وبما جاء به رسل الله؟! وهذا في الحقيقة ليس عيباً أو مذمةً، حتى يعيبنا

عليه اليهود والنصارى، وإنما هو عين العقل والرشد والصواب، فهو كقوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوْا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوْا بِاللَّهِ العَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾.

«جرائم اليهود»

ثم أخذت الآيات تفيض في ذكر جرائم أهل الكتاب، وبخاصة اليهود الذين غضب الله عليهم، فمسخهم قردةً وخنازير، وأبعدهم عن رحمته، ومكان قُدْسه.

وبأسلوب التهكم والسخرية، يتناولهم القرآن الكريم، فيزري بعقولهم حيث فعلوا جرائم تطيش لها الأحلام، فاستحقوا اللعنة والسخط، ولم يشعروا بذلك الإجرام، بل عابوا على المؤمنين إيمانهم وتمسُّكهم بالإسلام ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوْبَةً عِنْدَ اللَّهِ؟ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوْتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾.

فهل رأيت كلاماً أروع، أو بياناً أنصع، من هذا الأسلوب والبيان؟ وكأن الآية تقول لهم: هل أخبركم بما هو شر من هذا الذي تعيبونه علينا، من الإيمان بالله والتصديق برسله، جزاءً وثواباً عند الله؟ ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ أي ثوابه عند الله اللعنةُ والغضب والسخط، فوضع الثواب مكان العقاب سخرية واستهزاءً، كقوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ثم زاد في الإيضاح والبيان لثوابهم الذي يستحقونه فقال: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوْتَ، أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ أي هؤلاء الملعونون الموصوفون بتلك الشنائع والقبائح شر مكاناً في الآخرة وأكثر ضلالاً عن الطريق

المستقيم، فكيف يعيبون المؤمنين، وينتقصونهم على إيمانهم، واتباعهم لهدى الله؟.

وتتابعت الآيات الكريمة بعد ذلك، تبيّن نفاقهم وضلالهم، فقد جمعوا بين الكفر، والتذبذب، والنفاق، وسوء الصنيع والأخلاق ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوْا آمَنَّا، وَقَدْ دَخَلُوْا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوْا بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوْا يَكْتُمُوْنَ ﴾ أي دخلوا كفاراً وخرجوا كفاراً، لم ينتفعوا بما سمعوا من محمد رسول الله، ولا نجعت فهم المواعظ والزواجر.

«اتهامهم الله بالبخل»

ومن جرائم اليهود أيضاً التي تحدثت عنها «سورة المائدة» اتهامهم لله عز وجل بالشح والبخل، فقد زعم اليهود اللعناء أن الله بخيل يقتّر الرزق على العباد، ولو كان سخياً كريماً لأغدق عليهم الخير والمال ﴿ وَقَالَتِ اليَهُوْدُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوْلَةٌ - أي الله بخيلٌ - غُلَّتْ أَيْدِيْهِمْ وَلُعِنُوْا بِمَا قَالُوْا، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوْطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْرَاً، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، كُلَّمَا أَوْقَدُوْا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً، وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِينَ ﴾.

«ثمرة الاستقامة على دين الله»

وبعد هذا البيان الوافي الشافي، لقبائح أهل الكتاب، دعت السورة الكريمة اليهود والنصارى، إلى التوبة والإنابة، والرجوع إلى الله، بطريق التلميح لا التصريح، وبأسلوب رفيق رشيق، بيَّنت لهم فيه ثمرة الإيمان والاستقامة على شريعة الله، أَلَا وهو السعادة في الدنيا

والآخرة، مع ما يغمرهم به ربهم من الفضل والإنعام والإحسان ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوْا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوْا التَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، لأَكَلُوْا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُوْنَ ﴾.

ولما كان عداء اليهود والنصارى للإسلام ولرسالة محمد عليه الصلاة والسلام يقف في طريق الدعوة وتبليغ رسالة الله، جاءت الآيات تشدُّ أزر النبي وتقوّي عزيمته في المضي في تبليغ هذه الرسالة الربانية، فحسبه ﷺ أن الله معه وأن الله حافظه وحاميه من شر الأشرار وكيد الفجار فلن تمتد إليه يد بسوء لأنه في حفظ الله ورعايته ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُوْلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ ﴾.

«من ضلالات اليهود والنصارى»

تناولت السورة الكريمة أخبار وأسرار أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، الذين وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية، بكل جبروت وعناد، فكذَّبوا بالإسلام الذي جاء مشيداً برسالة موسى وعيسى عليهما السلام، ومعترفاً بالإنجيل والتوراة، وكذَّبوا بالقرآن الذي جاء ليتمم ويكمّل ما جاءت به رسلُ الله، ولا شك أن التكذيب بالقرآن، يستلزم التكذيبَ بالتوراة والإنجيل، لأن مصدر هذه الكتب السماوية جميعاً، هو «الوحيُ الإلهيُّ» فمن أنكر شيئاً منه، فقد أنكر ما جاء به أنبياء الله، فكان كافراً بالتوراة والإنجيل والقرآن، ولهذا جاءت الآيات الكريمة تصف هؤلاء المنحرفين عن هداية الله، بالكفر والضلال، وعدم الاستمساك بأحكام

التوراة والإنجيل، وفي ذلك يقول القرآن الكريم موبخاً ومهدّداً: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، حَتَّى تُقِيمُوْا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً، فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾ ثم تلتها الآيات الكريمة، تتحدث عن قبائح كل من اليهود والنصارى، فاليهودُ سفكوا دماء الأنبياء، وأكلوا السحت والحرام، وصمُّوا آذانهم عن سماع الحق وقبوله، والنصارى ألَّهوا عيسى بن مريم، وعبدوه من دون الله، وجعلوا الإله صورة عجيبة غريبة، مكونة من ثلاثة أقانيم: «الأب، والابن، وروح القدس» وزعموا أن الله حلَّ في ذات عيسى، واتَّحد به، يحدثنا القرآن الكريم عن اليهود فيقول: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُوْلٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ، فَرِيقاً كَذَّبُوْا وَفَرِيقاً يَقْتُلُوْنَ. وَحَسِبُوْا أَنْ لاَ تَكُوْنَ فِتْنَةٌ فَعَمُوْا وَصَمُّوْا، ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوْا وَصَمُّوْا كَثِيرٌ مِنْهُمْ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُوْنَ﴾، وفي صَدَد الحديث عن قبائح النصارى، يقول القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوْا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيْحُ بْنُ مَرْيَم، وَقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوْا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ باللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

«تناقض عجيب»

والعجيب في أمر النصارى أنهم يتناقضون في عقيدتهم، بشكل يدعو إلى الدهشة والاستغراب، فهم يعتقدون بأن الإِلّه جوهر واحد، حلَّ في ثلاثة أجسام: «أب، وابن، وروح قدس» وهذه الثلاثة إلّه واحد، كما أن الشمس تتناول القرص، والشعاع، والحرارة، وهي

واحدة، وزعموا أن الأب إلّه، والابنَ إلّه، والروح إلّه، والكل إلّه واحد، وهذا أمر معلوم البطلان ببداهة العقل، فكيف يكون الواحدُ ثلاثةً، والثلاثةُ واحداً؟ والأب غير الابن، والابن غير روح القدس؟ وقد حكم القرآن بكفرهم وضلالهم، فقال عز شأنه فيهم: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوْا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوْا عَمَّا يَقُوْلُوْنَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أَفَلَا يَتُوْبُوْنَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُوْنَهُ؟ وَاللَّهُ غَفُوْرٌ رَحِيمٌ ﴾.

«إبطال مزاعم النصارى»

ثم أخذت الآيات تُفيض في إبطال تلك الدعاوى الزائفة، وتقرر الحقيقة الناصعة، بأجلى بيان، وأوضح برهان، فيقول الله سبحانه: ﴿ مَا الْمَسِيْحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُوْلٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ، انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ، ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُوْنَ؟ ﴾.

ولننظر إلى روعة التعبير القرآني المعجز في قوله تعالى: ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ فقد أشار بهذه اللفتة الكريمة، إلى أن من أكل الطعام، وشرب الشراب، احتاج إلى إخراج الفضلات، احتاج إلى التبول والتَّغَوُّطِ، والقرآنُ يتنزَّه عن ذكر الألفاظ المستقبحة، فلم يقل: كانا يبولان ويتغوطان، ويُحْدثان الحَدَث، ولكنه كَنَّى عن ذلك بهذه الكناية الرشيقة ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ إذْ من مستلزم الأكل والشرب، إخراجُ الفضلات، والربُّ جلَّ وعلا منزَّه عن ذلك، فكيف يكون عيسى وأمه إلّهين، وهما يأكلان ويشربان ويُحدثان؟!.. ﴿تعالى اللهُ عما يقول الظالمونَ عُلُوّاً كبيراً ﴾.

وقد ختم الله الآيات الكريمة بالتعجيب من حال النصارى، حيث ألَّهوا من لا يستحق الألوهية، وعبدوا بشراً يأكل ويشرب، وينام ويفزع، وتحكم عليه أعراض الضعف البشري، كما تحكم على سائر البشر وقد ختم الله الآية الكريمة بقوله: ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ، ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُوْنَ ﴾؟ أي انظر أيها العاقل، كيف نوضّح لهم الأدلة والآيات الباهرة، على بطلان ما اعتقدوه، ثم انظر كيف يُصرفون عن استماع الحق وتأمله، بعد هذا البيان الساطع، مع أنه أوضح من الشمس في رابعة النهار؟.

ثم تلتها الآيات الكريمة تنكر على النصارى عبادتهم للمسيح، بأسلوب التوبيخ والتعنيف، وبالحجة التي تقصم ظهر الباطل، فكيف يعبدون من لا يستطيع أن يدفع الضر عن نفسه، ولا يجلب الخير لها؟ فمن عجز عن نفع نفسه أو دفع السوء عنها، فهو عن نفع غيره أعجز ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعَاً؟ واللَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ العَلِيمُ ﴾.

«التحذير من الغلو في الدين»

ثم جاءت الآيات تحذّر الفريقين «اليهود والنصارى» من الغلو في الدين بغير الحق، وإتباع الأهواء، والاقتـداء بمن سلف من الآباء الضالين، ورؤساء الدين المنحرفين عن هداية الله ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوْا فِي دِينِكُمْ، وَلاَ تَتَّبِعُوْا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوْا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوْا كَثِيرَاً، وَضَلُّوْا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ كما وضحت الآيات الكريمة سبب لعنِ الله لليهـود، وطردهم من رحمتـه، وسببَ سخط الله عليهم، واستحقاقهم لعقابه، ألا وهو «التمرُّد والعصيان» وعدم التناهي عن فعل

القبائح والمنكرات، واتخاذهم أعداءَ الله أحباباً وأنصاراً، يوالونهم من دون المؤمنين.

وفي ضمن هذا التذكير تحذيرٌ لنا من أن نفعل مثل أفعالهم، أو نرتكب مثل جرائمهم وقبائحهم، لئلا يَحلَّ بنا ما حلَّ بهم من البلاء والعذاب، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوْا يَعْتَدُوْنَ. كَانُوْا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوْهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوْا يَفْعَلُوْنَ. تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوْا، لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُوْنَ. وَلَوْ كَانُوْا يُؤْمِنُوْنَ باللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوْهُمْ أَوْلِيَاءَ، ولَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُوْنَ﴾.

وفي الحديث الصحيح: (لمَّا وقعتْ بنو إسرائيل في المعاصي، نهتْهم علماؤُهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وَوَاكلوهم ـ أي أكلوا معهم ـ وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داودَ وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.. ثم جلس رسول الله ﷺ وكان مُتَّكئاً فقال: لا والذي نفسي بيده ـ أي لا يكمل إيمانكم ولا تنجون من عذاب الله ـ حتى تأطروهم على الحق أَطْرَاً)(١) أي حتى تحملوهم وتجبروهم على قبول الحق إجباراً، وتبذلوا وسعكم لكفّهم عن الظلم والمنكر.

وفي رواية في الصحيح أيضاً: (إنَّ أول ما دخل النقصُ على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتَّقِ اللهَ ودعْ ما تصنُع، فإنه لا يحلُّ لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن.

ذلك أن يكونَ أكيلَهُ، وشريبَه، وقَعِيدَه، فلمَّا فعلوا ذلك، ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم تلا: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوْا يَعْتَدُوْنَ. كَانُوْا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوْهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوْا يَفْعَلُوْنَ. تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوْا، لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُوْنَ. وَلَوْ كَانُوْا يُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، مَا اتَّخَذُوْهُمْ أَوْلِيَاءَ، وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُوْنَ ﴾ ثم قال عليه الصلاة والسلام: «كَلَّا وَاللَّهِ، لَتَأْمُرنَّ بالمعروف، ولتَنْهونَّ عن المنكر، ولتأخذُنَّ على يدِ الظَّالم، ولتَأْطِرُنَّه على الحقِّ أَطْراً، ولَتَقْصُرُنَّه على الحقِّ قَصْراً، أو لَيضرِبنَّ اللهُ قلوبَ بعضكم على بعض، ثم لَيَلْعنكُم كما لَعنهُم»[١].
ومعنى «تقْصُرنَّه على الحق قصراً» أي تحبسنَّه على الحق حبساً وتجبرونه على قبوله.

«اليهود أعدى أعداء الإسلام»

لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن فضائح وقبائح أهل الكتاب، فبعد أن ذكر تعالى في الآيات السابقة، أحوال اليهود والنصارى، وما هم عليه من الزيغ والانحراف والضلال، ذكر هنا حقيقة ما انطوت عليه نفس «اليهود» خاصةً، من الخبثِ والمكر، والعداوة الشديدة البالغة للمسلمين، وقد جعلهم قرناء للمشركين في شدة العداوة للمؤمنين، وفي خبث الطوية وسوء النية، حيث لا يألون جهداً في إيذاء أهل الإيمان، وقد ذكر تعالى أن النصارى أخفُّ شراً، وألينُ عريكة من

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي، واللفظُ لأبي داود.

اليهود، على ما هم عليه من الكفر والضلال، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوْا اليَهُوْدَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوْا، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوْا الَّذِينَ قَالُوْا إِنَّا نَصَارَى، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُوْنَ. وَإِذَا سَمِعُوْا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُوْلِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوْا مِنَ الحَقِّ، يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾.

وهذه الآيات البينات نزلت في نصارى الحبشة، لمَّا هاجر إليها المسلمون، فلمَّا سمع الأحبار والرهبان آيات القرآن، وأيقنوا أنها كلام الرحمن، بكَوْا حتى اخضلَّتْ لحاهم بالدموع، وأعلنوا توبتهم وإيمانهم، ولم تنزل في نصارى هذا العصر والزمان، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوْا مِنَ الحَقِّ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه، الذين حين تلا عليهم «جعفر بن أبي طالب» بالحبشة القرآن بَكَوْا، حتى أخضلوا لحاهم بالدموع، مدراراً على وجوههم ولحاهم، خشيةً من الله تعالى، وإيماناً بكتابه..».

وقد ذكر تعالى بعدها ما أعدَّ لهم، من الأجر والثواب في دار الجزاء فقال سبحانه: ﴿ فَأَثَابَهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوْا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَذَلِكَ جَزَاءُ المُحْسِنِينَ ﴾.

«الوقوف عند حدود الله»

وبعد هذا البيان عن أهل الكتاب جاءت الآيات الكريمة تتحدث

عن أمور التشريع، ذلك لأن السورة الكريمة من السور المدنية، التي تناولت جانب التشريع، بالإسهاب والتفصيل، وقد ذكر تعالى في تمهيد هذه الأحكام، ما ينبغي على المسلمين أن يولوه أعظم العناية، وهي الوقوف عند حدود الله تعالى، وعدم التحريم أو التحليل من قِبَل أنفسهم، فالحلال ما أحلَّه الله، والحرام ما حرَّمه الله، ولا يصح لمؤمن أن يُحلّل أو يُحرِّم من تلقاء نفسه، وفي ذلك يقول القرآن الكريم، واعظاً ومذكراً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا لَا تُحَرِّمُوْا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ، وَلَا تَعْتَدُوْا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ. وَكُلُوْا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً، وَاتَّقُوْا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُوْنَ ﴾.

روى الإمام ابن جرير الطبري عن عكرمة رضي الله عنه قال: «كان أناسٌ من أصحاب النبي ﷺ قد همُّوا بالخِصَاء، وترك اللحم والنساء، فنزلت الآية الكريمة تنهاهم عن ذلك»، والمعنى: لا تمنعوا يا معشر المؤمنين أنفسكم من لذائذ الحياة وتقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغةً في تركها تقشفاً وزهداً، ولا تتعدوا حدود الله بتجاوز الحلال إلى الحرام، فإن الله تعالى يبغض المنتهكين لحرماته المخالفين لأوامره وزواجره، فالإسلام دون وسَط بين الغلو والتفريط وصدق الله حيث يقول: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوْا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ ﴾.

«حدود وأحكام»

وبعد هذا الإجمال في أمور الحرام والحلال، ذكرت الآيات بالتفصيل بعض الأحكام الشرعية، فبيَّنت كفارةَ اليمين، ووضَّحتْ حكم

الخمر والميسر، وتناولتْ أحكام الصَّيْد في حالة الإحرام، وحرمة البيت العتيق، وما ربطه الله به من الأمن والأمان، ليؤدي الناس مناسك الحج وهم آمنون مطمئنون، وغير ذلك من الأحكام الشرعية! التي تناولتها السورة الكريمة.

يقول تعالى في بيان أحكام الحلف وكفارته: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُوْنَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ، وَاحْفَظُوْا أَيْمَانَكُمْ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ ﴾.

«مضار الخمر والميسر»

وفي معرض الحديث عن الخمر والميسر وما فيهما من الأضرار الفاحشة والمفاسد العظيمة يقول القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا إِنَّما الخَمْرُ وَالمَيْسَرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ. إِنَّمَا يُرِيْدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوْقِعَ بَينكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُوْنَ ﴾؟.

ونلمح في هذه الآيات البينات، تفصيلاً موسعاً لحكمة النهي، وبيان مفاسد الخمر والميسر، بطريق التوضيح والإسهاب، وقد جرت عادة القرآن الكريم، بالإيجاز في تعليل الأحكام الشرعية، كقوله تعالى عن الحيض: ﴿ وَيَسْأَلُوْنَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىً ﴾ وأما هنا فقد ذكر العلّة بالتفصيل، فذكر منها إلقاء العداوة والشحناء بين المؤمنين،

والصدَّ عن ذكر الله وطاعته، وشغل المؤمنين عن أهم الفرائض وهي الصلاة، ووصف الخمر والقمار، بأنهما رجس وقذر من عمل الشيطان ووسوسته، وأن الشيطان يريد إغواء الإنسان عن طريق الخمر والميسر، وكلُّ ذلك لينبه إلى خطر وضرر هاتَيْن الرذيلتين ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوْقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُوْنَ ﴾؟ فلنتدبر أسرار القرآن.

«الصيد في الإحرام»

وبعد الحديث عن الخمر والميسر تناولت الآيات الكريمة موضوع الصيد حالة الإحرام، فنهت عن صيد البرّ والاعتداء على محارم الله، لأن حالة الإحرام حالة أمان، ينبغي أن يأمن فيها الإنسان والحيوان وكل دابة ووحش وطير وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوْا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتعَمِّدَاً فَجَزاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ، يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُم هَدْياً بَالِغَ الكَعْبَةِ أو كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيامَاً لِيَذُوْقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُوْ انتقامٍ ﴾.

هذا هو حكم صيد البَرِّ، وأما حكم صيد البحر حالة الإحرام، فإنه جائز غير حرام على المحرم وغير المحرم، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتاعَاً لَكُمْ ولِلسَّيَّارَةِ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمَاً، وَاتَّقُوْا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُوْنَ ﴾.

«حرمة البيت العتيق»

وبعد أن ذكر تعالى أن الصيد حرام على المحرم، ونهى عن قتل

الطير والوحش حالة الإحرام، ذكر سبحانه أنه جعل الكعبة المشرفة صلاحاً ومعاشاً للناس، لقيام أمر دينهم ودنياهم، إذْ ركَّز في قلوبهم تعظيمها، بحيث لا يقع فيها أذى لأحد، فكما أن الحرم سببٌ لأمن الوحش والطير، فكذلك هو سببٌ لأمن الناس من المكاره والآفات، ففيه يلوذ الخائفُ، ويأمن الضعيف، ويربح التجار، ويتوجه لقصد زيارته الحُجَّاج والعُمَّار، وفي ذلك يقول الله جلت عظمته: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ ، وَالشَّهْرَ الحَرَامَ، وَالهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ، ذَلِكَ لِتَعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. اعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ، وَأَنَّ اللَّهَ غَفُوْرٌ رَحِيمٌ ﴾.

وهذه خصوصيةٌ للبيت العتيق، أكرم الله به أمة العرب، فجعل لهم حرماً آمناً لا ينالهم فيه أذى، تعظيماً لحرمته وقداسته، حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو رأيتُ قاتل الخطَّاب في الحرم، لم أمسَّه بأذى حتى يخرج منه».

«المشهد المهول يوم الحساب»

وتناولت السورة الكريمة ضمن ما تناولته من أحداث جسيمة، ذلك المشهد المهول الذي تنخلع له القلوب، وترتعد له الفرائص، وهو يوم القيامة الذي يجتمع فيه الخلائق لفصل الحساب، يلتقي فيه الرسل والأنبياء، والخلائق جميعاً، في صعيد واحد، ويتَّجه نداءٌ علويٌ كريم، لسؤال الرسل أولاً عن تبليغ دعوة الله، وعما أجابهم به الأمم والخلائق، في محفلٍ عظيم تَشْخص فيه الأبصار ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُوْلُ مَاذَا أُجِبْتُمْ؟ قَالُوْا لاَ عِلْمَ لَنَا، إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوْبِ ﴾.

وإذا كان الرسل الكرام على جلالة قدرهم، سيسألون يوم القيامة

عما حصل لهم، في تبليغ دعوة الله، وعمَّا أجابتهم به الأمم، فما بالك بالخلائق وأفراد البشر؟ هل سيُتركون من السؤال والحساب؟ أم أنهم سيرون يوماً عصيباً تطيش له الأحلام؟.

«معجزات السيد المسيح»

وبعد ذكر ذلك اليوم الرهيب، وما فيه من الشدائد والأهوال، عادت الآيات الكريمة، للحديث بوجه خاص، عن السيد المسيح عيسى بن مريم، لتذكيره بنعم الله الجليلة عليه، في ذلك الموقف أيضاً، فقد أيَّده الله بمعجزات باهرات، وأظهر على يديه كثيراً من خوارق العادات، ولكنَّ النصارى الضالين، جعلوها مسلكاً لادعاء ربوبيته، فعبدوه من دون الله، لإحيائه الموتى، وإبرائه الأعمى والأبرص، ومعرفته لبعض أمور الغيب، ولهذا سيكون هناك له وقفةٌ خاصة للحساب، بين يديْ ربِّ الأرباب، يسأله تعالى فيها عما أكرمه به من المعجزات، تبكيتاً وتوبيخاً لمن اعتقد ربوبيته، وعَبَده من دون الله، وما كانت هذه الخوارق والمعجزات، لتجعله في مرتبة الألوهية والربوبية، كما زعم النصارى، إنما هي تأييدٌ من اللّه عز وجل له في دعوى النبوة، وتصديقٌ لما جاء به من الرسالة، وكونه مخلوقاً من «أم» بلا أب، مظهرٌ من مظاهر قدرة الله، وعظمته، وسلطانه، وليس دليلاً على أنه «ابن الله» أو أنه شريك لله في ملكه وخلقه!!.

ولنستمعْ إلى آيات القرآن الروائع، وهي تقرّر هذه المعجزات، وخوارق العادات ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ، إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ، تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ، وَإِذْ تَخْلُقُ من

الطِّين كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فيهَا فَتَكُوْنُ طَيْراً بِإِذْنِي، وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي، وَإِذْ تُخْرِجُ المَوْتَى بِإِذْنِي، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ، فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوْا بِيْ وَبِرَسُوْلِي، قَالُوْا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُوْنَ ﴾ ولْنمعن النظر في أسلوب القرآن، فإنه قد ذكر بعد كل معجزة ظهرت على يدي عيسى بن مريم لفظ ﴿ بِإِذْنِي ﴾ أي بأمري وقدرتي ومشيئتي، وكرَّرها أربع مرات، لينبهنا إلى أن تلك الخوارق، لم تكن بمقدور عيسى واستطاعته، ولكنها بتقدير الله وأمره ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّين كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي، فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُوْنُ طَيْرَاً بِإِذْنِي، وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي، وَإِذْ تُخْرِجُ المَوْتَى بِإِذْنِي ﴾ فسبحان الله العظيم القدير!!.

«المائدة التي طلبها الحواريون»

ثم توالت الآيات تذكر «معجزة المائدة» التي طلبها الحواريون من عيسى، وكانت معجزة أخرى له عليه السلام، وسميت هذه السورة الكريمة باسمها «سورة المائدة» تخليداً لتلك المعجزة الباهرة، فقد طلب الحواريون من عيسى عليه السلام آية، وبرهاناً على صدقه وقربه من الله، وخصَّصوا طلبهم بمائدة من الطعام، تنزل من السماء، يأكلون منها تبركاً، وتسكُن نفوسُهم برؤيتها، زيادة في اليقين والاطمئنان، وتبقى ذكرى خالدة على مرّ السنين والأعوام، على إجابة الله لدعاء المسيح عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ الحَوَارِيُّوْنَ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ؟ قَالَ اتَّقُوْا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوْا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوْبُنَا، وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُوْنَ عَلَيْهَا

مِنَ الشَّاهِدِينَ. قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ، فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ﴾، وقد استجاب الله دعاءه، فأنـزل على قومـه المائدة، فيها خبزٌ ولحمٌ وشراب، ممَّا لذَّ وطاب، وسجَّلها الله في محكم آياته.

فقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «أقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء، عليها سبعةُ أخـوان، وسبعةُ أرغفة، حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخرُ الناس كما أكل منها أولهم»، وفي الحديث عن عمار بن ياسر أن رسول الله ﷺ قال: «نزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً، وأُمروا ألا يخونوا ولا يدَّخروا لغدٍ، فخانوا وادخروا ورفعوا لغدٍ فَمُسِخوا قردة وخنازير»(١).

«خاتمة السورة الكريمة»

وتنتهي السورة الكريمة بمشهد حافل في ذلك الموقف الرهيب يوم الحشر الأكبر حيثُ يُدْعى السيد المسيح عيسى بن مريم على رؤوس الأشهاد، ويسأله ربه ـ تبكيتاً للنصارى وإخزاء لهم لأنهم عبدوه من دون الله ـ يسأله هل أنت يا عيسى دعوتَ الناس إلى عبادتك وعبادة أمك؟ وهل أنت الذي ادعيت الألوهية والربوبية حتى ألَّهك الناسُ واعتقدوا بربوبيتك؟ ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ

مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ ثم ينطِقُ عيسى بالحقيقة الناصعة التي دعا إليها الناس، وهي عبادة الله الواحد الأحد ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ويا له من موقف رهيب، مخْزٍ لأعداء الله!! وينتهي ذلك المشهد بما تشيب له الرؤوس وتتفطر لهوله الأفئدة، فقد انتهت الدنيا وجاء يوم الجزاء والحساب ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوْا عَنْهُ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وهكذا يُسدل الستار في خاتمة هذه السورة الكريمة، على ذلك المشهد الرهيب، وتُطوى الصحف، ويصدر حكم العزيز الجبار في أهل المحشر، فيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿ فريقٌ فِي الجَنَّةِ وفَرِيقٌ فِي السَّعِيرُ ﴾ ويا له من موقفٍ مخزٍ لأعداء الله، تشيب لهوله الرؤوس، وتتفطَّر من فزعه النفوس!!.

* * *

(٥)

دراسة سورة الأنعام

سُورَة الأنعَام

بين يدي السُّورَة

«سورة الأنعام» هي إحدى السور المكية الطويلة، التي يدور محورها حول العقيدة وأصول الإيمان، وتختلف في أهدافها ومقاصدها عن السور المدنية، التي تعتني بالأحكام الشرعية، التي تنظم وترتب شؤون المسلمين.

وقد تناولت هذه السورة الكريمة، القضايا الكبرى لأصول العقيدة، وهي «قضية الألوهية، وقضية الرسالةِ والوحي، وقضية البعثِ والجزاء» ولهذا نجد الحديث في هذه السورة ـ سورة الأنعام ـ مستفيضاً يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية الثلاثة، ونجد سلاحها في ذلك الحجةَ الدامغة، والدلائلَ القاطعة، والبراهينَ الساطعة، على صدق القرآن، وصدق من نزل عليه القرآن.

ولا عجب في ذلك فإن السورة نزلت في مكة على قوم مشركين، ما برحوا يعبدون الأوثان ويكفرون بالرحمن، ويتعصبون لآلهتهم المزعومة، تعصباً يفوق الخيال، فكانت الآيات تقيم عليهم الدلائل القاطعة، بطريق الإقناع والإلزام، لتكسر من حدة جبروتهم وطغيانهم.

«أسلوب متميِّز»

ومما يلفت النظر في هذه السورة الكريمة، أنها عرضت في

مناظرة المشركين، لأسلوبين بارزين، لا نكاد نجدهما في غيرها من السور، وهما:

١ ـ أسلوب التقرير.

٢ ـ وأسلوب التلقين.

أما الأول: وهو «أسلوب التقرير» فإن القرآن العظيم يعرض للأدلة المتعلقة بتوحيد الله جل وعلا، والدلائل الدالةِ على وحدانيته وسلطانه، وقدرته وعظمته، في صورة الشأن المسلَّم، ويضع لذلك ضمير الغائب عن الحِسّ، الحاضر في القلب، الذي لا يُماري فيه ذو قلب سليم، ولا عقل راشد، على أنه تعالى «واجب الوجود» المبدع في خلق الكائنات، صاحب الجود والإنعام، الذي كلُّ ذرة في الكون، من آثار قدرته وعظمته، فيأتي بعبارة «هُوَ» الدالة على عظمة الخالق المدبر الحكيم.

استمعْ إليه في مواطن متعددة، من السورة الكريمة حيث يقول تعالى، مقرراً آثار وحدانيته وسلطانه: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُوْنَ ﴾، ويقول جلَّ وعلا: ﴿ وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾، ويقول سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ . . ﴾ وكأنه سبحانه يشير بهذا الأسلوب، إلى أنه تعالى لا يحتاج لإثبات وجوده، إلى كثير عناء ولا نظر، بل يكفي الإنسان أن يرى عظمةَ الكون، ليستدل على عظمة الخالق الحكيم، إذْ لا يصحُّ في العقل، أن تكون الطبيعة البلهاء، هي التي أوجدتْ هذا الجمال والبهاء.

وأما الثاني: وهو «أسلوب التلقين» فإنه يظهر جلياً في تعليم الرسول الأمي الحجَّة الدامغة، ليقذف بها في وجه الخصم، بحيث

تأخذ عليه قلبَه، وتملك عليه سمعَه، فلا يستطيع التخلُّصَ أو التغلُّبَ منها، وبذلك يسقط صريعاً أمامَ دلائل الحق، وسواطع الآيات البينات!.

ويأتي هذا الأسلوب بطريق السؤال والجواب، يسألهم حتى يُفْحِمهم، ثم يُجيبهم بما يُقنعهم، استمع إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ؟ قُلْ لِلَّهِ، كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وإلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأُوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُوْنَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى، قُلْ لَا أَشْهَدُ ﴾.

وهكذا تمضي الآيات بحججها الساطعة، تبدِّد سحب الجهالة، وتهدم طرق الضلال، ومن هنا كانت «سورة الأنعام» بين السور المكية، ذاتَ شأن كبير، في تركيز الدعوة الإسلامية، تقرِّر حقائقها، وتثبِّت دعائمها، وتُفنِّد شُبَه المعارضين لها، بطريق «التنويع العجيب» في المناظرة والمجادلة.

«الثناء على خالق الأكوان»

ابتدأت السورة الكريمة بحمد الله والثناء عليه، الذي خلق الأكوان، وأبدع خلق الإنسان، في أجمل صورة وشكل، ومع كل الدلائل الباهرة على وجوده ووحدانيته، يشرك الكافرون بربهم، فيسوّون بين الخالق المبدع، وبين الحجارة الصمِّ، يقول تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّوْرَ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوْا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُوْنَ. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ، ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُوْنَ ﴾.

ثم تناولت الآيات عظمة الله وجلاله، وقدرته وسلطانه، فهو العالم بشؤون عباده، لا تخفى عليه منهم خافية ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ، وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُوْنَ ﴾.

«الأدلة على الرسالة»

ومن دلائل الوحدانية، إلى دلائل النبوة والرسالة، تتحدث الآيات الكريمة، عن إعراضهم عن كل البراهين والحجج، التي جاءهم بها رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوْا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. فَقَدْ كَذَّبُوْا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِم أَنْبَاءُ مَا كَانُوْا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ثم تنتقل الآياتُ، لتضع أيديهم على مكان العظة والاعتبار، بما حلَّ بالأمم السابقين، المكذبين لرسلهم وأنبيائهم، كيف أهلكهم الله، وجعلهم عبرة لمن يعتبر ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ؟ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمكِّنْ لَكُمْ، وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً ـ أي غزيراً متتابعاً ـ وَجَعَلْنا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ﴾.

«طغيان أهل مكة»

وقد حكت الآيات طَرَفاً من طغيان أهل مكة، وعنادهم وجبروتهم، في تكذيبهم سيّد الخلق محمد بن عبد الله، فقد عارضوا أن يكون الرسول واحداً من البشر، وطلبوا أن يكون من الملائكة، وأن ينزل عليه الوحي نهاراً جهاراً.. ومع ذلك لو أجابهم تعالى إلى طلبهم لجحدوا وكفروا ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوْهُ بِأَيْدِيْهِمْ، لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوْا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَقَالُوْا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ!؟ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُوْنَ. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ

رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُوْنَ ﴾.

ثُم جاءت الآيات، لِتُخَفِّفَ العناء عن قلب الرسول ﷺ، وتُسلِّيه بمن سبقه من الأنبياء والمرسلين، فقد جاءوا أممهم بالآيات الباهرات، والمعجزات الساطعات، ومع ذلك فقد كذَّبهم أعداء الله، وتلك هي سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴿ وَلَقَدْ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُوْنَ ﴾.

«الأدلة على البعث بعد الموت»

ولا تزال السورة تطالعنا في آياتها البينات، بصور روائع، من الدلائل الساطعة على وحدانية الله ووجوده، وهذه السورة ـ كما أسلفنا ـ تُناقش المشركين في القضايا الأساسية الكبرى، لأصولِ العقيدة الإسلامية، وهي قضية «الألوهية» و«النبوة» و«البعث والجزاء»، وتفنّد شبهات المعارضين بطريق التنويع العجيب في المناظرة والمجادلة..

وهنا تتعرض السورة الكريمة، لأمرٍ خطير هام، هو إنكار المشركين لموضوع البعث بعد الفناء، الذي طالما جحده الكفار وأنكروه، واستبعدوا وقوعه، فيقول الله جل ثناؤه مخاطباً نبيه ﷺ بأسلوب التَّلقين للحجة والردّ على المجادلين ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ؟ قُلْ لِلَّهِ، كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ، الَّذِينَ خَسِرُوْا أَنْفُسَهُمْ، فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُوْنَ ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستهزئين: لمن الكائنات جميعاً، خلقاً، ومُلْكاً، وتصرفاً؟ فإن سكتوا فقل لهم تقريراً وتنبيهاً على عظمتها وعظمة خالقها: هي لله الذي لا يشاركه في الخلق أحد، فكيف تشركون معه غيره وهو المتفرد بالخلق والإيجاد؟.

ثم أخبرهم تعالى بجليَّةِ الأمر، فإنه لا بدَّ في عدالة الله، أن يبعثهم بعد الموت، للجزاء والحساب، وإلَّا فقد طغى الظالم، وضاع حق المظلوم، فكيف يستقيم في منطق العدل والعقل، أن يحدث مثل هذا، والله هو الحَكَم العدل؟ ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ، الَّذِينَ خَسِرُوْا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴾.

«الأدلة على القدرة والوحدانية»

ومن البرهان على البعث والجزاء، إلى إقامة البرهان على القدرة والوحدانية، تتحدث الآيات عن دلائل عظمة الله ووجوده، فتقول: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً؟ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ ﴾ أي قل لهم: هل أتخذ معبوداً غير الله تعالى؟ وهو خالق السموات والأرض، ومبدعهما على غير مثال سابق؟ وهو الرَّازق لعباده من غير احتياج إليهم؟ ثم يأمره بإعلان العبودية والاستسلام لأمر الرحمن ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُوْنَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُوْنَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ. قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

ثم تلتها الآيات تتحدث عن انفراد الله بالنفع والضر، والعون والإمداد، دون ما سواه من الأوثان والأصنام، فهو الإلـه المستحق للعبادة، الذي خضعتْ له الرقابُ، وذلَّتْ له الجبابرةُ، وعنتْ له الوجوهُ، وقهر كل شيء بعزتِهِ وجبروتِه، فلا إله غيره، ولا معبود سواه ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوْ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ ﴾.

«الأدلة على صدق محمد ﷺ»

وبعد أن أفاض جلَّ ذكره، في إقامة الدلائل والبراهين، على قدرته ووحدانيته، ذكر هنا شهادته على صدق نـبوة محمد عليه الصلاة والسلام، فهو النبي المؤيد بالمعجزات الباهرات، ومن أعظم معجزاته هذا القرآن الدائم الخالد، الذي يشهد بصدق رسالته، وصحة نبوته، لأنه أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وجاء بكتاب عظيم، فيه من شتَّى العلوم والمعارف، أفلا يكون ذلك برهاناً على صدق نبوته؟ ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأُوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ، أَئِنَّكُمْ لِتَشْهَدُوْنَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى؟ قُلْ لَا أَشْهَدُ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُوْنَ ﴾.

وتلتها الآيات تؤيد صدق نبوته عليه السلام، فإن علماء اليهود والنصارى وأحبارهم، يعرفون هذا النبي حق المعرفة، يعرفونه بصفته وحليته ونعته الذي ورد في التوراة والإنجيل، ومع ذلك يجحدون رسالته حسداً وبغضاً وهم الهالكون الخاسرون ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الكِتَابَ يَعْرِفُوْنَهُ كَمَا يَعْرِفُوْنَ أَبْنَاءَهُمْ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴾.

«شهادة عبد الله بن سلام»

روي أن «عبد الله بن سلام» كان أعلم أحبار اليهود، فلما هاجر الرسول إلى المدينة المنـورة، ورآه ابن سلام، عـرف أنه الـرسول المبعوث آخر الزمان، فآمن به، وحسُن إسلامُه، ولمَّا سئل كيف عرفت محمداً؟ قال رضي الله عنه قولته الشهيرة: «واللهِ لمعرفتي بمحمد، أشدُّ من معرفتي بـابْني، وذلك أن هذه الأوصاف التي ذُكرت في التوراة لا تنطَبق إلَّا عليه، وأما ابني فقد تكون زوجتي خانتني فيه»، وهذا ما

أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ يَعْرِفُوْنَهُ كَمَا يَعْرِفُوْنَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾.

«إنكار الكفار لعبادة الأوثان»

وبعد هذا البيان الساطع الواضح في إقامة الحجة والبرهان، على صدق نبوته عليه السلام، فقد ذكرت الآيات الكريمة، موقفهم المخزي المشين يوم القيامة، حيث ينكر المشركون عبادتهم للأوثان، ويتبرءون منها، ويُقسمون بعظمة الله، أنهم كانوا في الدنيا مؤمنين، ولم يكونوا مشركين، ظناً منهم أن ذلك يدفع عنهم عذابَ الله، وبأسلوب التعجيب من حالهم تتحدث الآيات فيقول الله جلَّت عظمته: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعَاً، ثُمَّ نَقُوْلُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوْا، أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُوْنَ؟ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ - أي لم يكن جوابهم حين اختبروا - إِلَّا أَنْ قَالُوْا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ. انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ ﴾.

ثم ذكرت الآياتُ، سَبَبَ ضلال المشركين، وتكذيبهم للقرآن المبين، ألا وهو تعاميهم عن الحق، ورفضُهم لقبوله، فقد أصمُّوا آذانهم، وأغلقُوا قلوبهم، عن تدبّر أسراره وأحكامه ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ، وَجعلْنَا عَلَى قُلُوْبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوْهُ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرَاً، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوْا بِهَا، حَتَّى إِذَا جَاءُوْكَ يُجَادِلُوْنَكَ، يَقُوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوْا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي يقولون عن القرآن: ما هذا إلا خرافات وأباطيل الأولين، قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ، وَإِنْ يُهْلِكُوْنَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ ﴾ أي وهؤلاء المكذبون ينهون الناس عن القرآن، وعن تصديقه، ويبعدون هم أنفسهم عنه، وما يُهلكون بهذا الصنيع إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك.

«حسرة المشركين في القيامة»

لا تزال السورة تطالعنا بإشعاعاتها النورانية، وفيوضاتها القدسية، بما يحيي القلوب ويُنعش الأذهان، ولا تزال تدفع بحججها الساطعة، عقول الغافلين من المشركين، فبعد أن ذكرت الآيات السابقة موقف الجاحدين للقرآن العظيم، المكذبين بآياته الساطعة، ذكرت في هذه الآيات حسرتهم الشديدة يوم القيامة، وندامتهم على ما فرَّطوا في جنب الله، وتمنيهم العودة إلى الدنيا، ليصلحوا سيرتهم، ويَجِدُّوا في طاعة الله، ولكنْ هيهات، فقد ضاع الأمل وفات وقت العمل، وفي ذلك يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوْا عَلَى النَّارِ، فَقَالُوْا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوْا يُخْفُوْنَ مِنْ قَبْلُ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ ﴾.

وجواب «لو» في الآية، إنما حُذف تفخيماً للأمر، وتهويلاً للشأن، وكأنه يقول: ولو ترى إذ وقفوا على النار، لرأيتَ أمراً فظيعاً مهولاً، تقْشَعرُّ له الأبدان، وتفزع من هوله القلوب والأذهان، وهذا من أساليب العرب البلاغية، يحذفون الجواب، ليذهب السمع والذهن، إلى كل هولٍ ومكروه يخطر على البال.

«موقفهم الرهيب عند الحساب»

وتتابع الآيات الحديث عن المشركين، وموقفهم الرهيب بين يدي أحكم الحاكمين، حيث يُحبسون للحساب أمام رب الأرباب، كما يقف العبد الجاني بين يديْ سيده للعقاب، وهناك يسألهم الله ـ سؤال توبيخ وتأنيب ـ عن كفرهم بالقيامة، وتكذيبهم بلقاء الله، فيعترفون بتكذيبهم وإجرامهم، ويتحسرون على عدم الإيمان ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوْا عَلَى

رَبِّهِمْ، قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟ قَالُوْا بَلَى وَرَبِّنَا، قَالَ فَذُوْقُوْا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُوْنَ. قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوْا بِلِقَاءِ اللَّهِ، حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً، قَالُوْا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا، وَهُمْ يَحْمِلُوْنَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُوْرِهِمْ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُوْنَ ﴾.

«الدنيا سراب خادع»

ثم تكشف لنا الآيات الكريمة، عن حقيقة هذه الحياة الزائلة الفانية، فما هي إلا سراب خادع، وبريق لامع، يغتر بها الجاهلون، وينخدع بها الغافلون، وما هي إلا باطل وغرور، لقصر مدتها، وفناء نعيمها، أما الآخرة فهي دار الحبور والسرور، لأنها دائمة صافية، لا يزول نعيمها، ولا يذهب سرورها ﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُوْنَ، أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴾؟.

«تسلية للرسول الأعظم ﷺ»

ولقد كان من سفاهة الكفار، أن يكذبوا سيد الأبرار، الذي كانوا يسمونه في الجاهلية «الصادق الأمين» فلما جاءهم بالهُدى المبين، أنكروا دينه وجحدوا رسالته واستهزءوا منه، وكان ذلك يؤلمه ﷺ ويقلقه فجاءت الآيات تُواسيه وتُسلِّيه، وتُذكِّره بأن هذه سيرة الأنبياء والرسل قبله، فما من نبي إلا وسخر منه قومه، وهكذا شأنُ الطغاة المعاندين ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُوْلُوْنَ، فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُوْنَكَ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُوْنَ. وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ، فَصَبَرُوْا عَلَى مَا كُذِّبُوْا وَأُوْذُوْا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنا، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ المُرْسَلِينَ ﴾.

«قصة أبي جَهل مع أحد الزعماء»

روي أنَّ رجلاً ممن كان يكتم إسلامه، لقي أبا جهل في أحد طرقات مكة، فاستوقفه وقال له: يا أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك، أنشدك بالله، هل محمد صادقٌ في دعوى النبوة أم كاذب؟ فقال له أبو جهل: واللهِ إنَّ محمداً لصادق، وما كذب قطُّ، فقال له الرجل: إذاً فلماذا لا تُصدّقونه ولا تتَّبعونه؟ فقال له أبو جهل: تنازعنا نحن وبنو هاشم، الرآسة والزعامة، فأطْعَمُوا فأطعمنا، وسقَوْا فسقَيْنا، وأَجَارُوا فأجَرْنا، حتى كنا كَفَرَسَيْ رهان، لا نسبقهم ولا يسبقونا، ثم لمَّا بُعث محمد افتخروا علينا فقالوا: بُعث فينا نبيٌّ - أي زادوا علينا بهذه المفخرة - فمن أين نأتيهم نحن بنبيٍّ، واللّهِ لا نؤمن به ولا نتبعه، فأنزل الله هذه الآية ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُوْلُوْنَ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُوْنَـكَ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُوْنَ ﴾.

وهذه القصة تدل دلالة واضحة، أن المشركين كانوا من قرارة قلوبهم، يعتقدون بصدق محمد، ولكنهم كذبوا رسالته عناداً وطغياناً، كما قال تعالى عن الفراعنة المتقدّمين زبانية فرعون: ﴿ وَجَحَدُوْا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْمَاً وَعُلُوّاً، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

«حرص النبي ﷺ على إيمان قومه»

وبعد هذا البيان عن طغيان أهل مكة، جاءت الآيات تتحدث عن سيد الخلق محمد ﷺ، حيث كان يطمع في إيمان قومه، ويعظم عليه في الوقت نفسه تكذيبُهم له، فيبذل كل مجهود وطاقة لإقناعهم، ولردّهم إلى طريق الحق، وجادة الصواب، من فرط شفقته عليهم، ورغبته في إيمانهم، فتذكر له الآيات الكريمة، أنه مهما بذل من طاقة وتحمَّل من

عناءٍ، وأتاهم بالمعجزات الباهرة كما طلبوا، فلن يستطيع أن يُدخل الإيمان إلى قلوبهم، ولا أن يقتلعهم من منابت الغيّ والضلال، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً في السَّمَاءِ، فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى، فَلَا تَكُوْنَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾.

والمعنى إن كان عظم وشقَّ عليك يا محمد، إعراضهم عن الإسلام، فإن قدرتَ أن تطلب سَرَباً ومسكناً في جوف الأرض، أو تطلب مصعداً ترقى به إلى السماء، فتأتيهم بآية مما اقترحوه، فافعل ذلك، ولو فعلتَ لما آمنوا فلا تجهل حكمة الله، ثم بيَّن تعالى له حقيقة مَنْ يستجيبُ لدعوة الله، وهم المؤمنون الأصفياء الأبرار، أما الكفار الفجار فهم كالموتى لا يسمعون ولا ينتفعون ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُوْنَ، وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ، ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُوْنَ ﴾.

«موتى القلوب»

وقد تناولت السورة عقائد المشركين، وعاداتهم المنكرة، التي كانوا عليها في الجاهلية، وأزالت تلك الشبه التي كانت عالقة في أذهانهم، ورسمت لهم الطريق الأمثل، لعبادة الله الواحد الأحد، وقد ذكر تعالى في الآيات السابقة، إعراض المشركين عن القرآن، وعن الهدى الذي جاءهم به النبي عليه السلام، وهنا ذكر السبب في ذلك الإعراض، وهو أن القرآن نور وشفاء، يهتدي بـه المؤمنون، وأما الكافرون فهم بمنزلة الموتى، الذين لا يسمعون ولا يستجيبون، وفي هذا يقول القرآن المبين: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُوْنَ، وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُوْنَ ﴾. ولا يراد بالموتى في الآية، الذين فارقوا

هذه الحياة، وإنما يراد بهم «موتى القلوب» الذين لا ينتفعون بالآيات البيِّنات، ولا يستفيدون مما حولهم من العظات والعبر، فهم كالموتى وإن كانوا يمشون على وجه الأرض، وكالبهائم السارحة وإن كانوا يسمعون ويبصرون، وقد جعلهم تعالى في عداد الموتى الـذين لا يسمعون صوتاً، ولا يعقلون دعاءً، ولا يفقهون قولاً، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله ولا يعتبرون بآياته.

«تعنت المشركين في طلبهم للمعجزات»

ثم تناولت الآيات الكريمة موضوع تعنت المشركين، في طلبهم من رسول الله معجزة تدل على صدقه، كالناقة والعصا والمائدة، وأخبر أنهم لسفههم لا يعلمون أنه لو أنزلها وفْق طلبهم ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَقَالُوْا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ! قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُوْنَ ﴾ وقد زاد القرآن في البيان عن طغيان المشركين، وضرب لهم مثلاً في جهلهم وقلة فهمهم، بالأصم وهو الذي لا يسمع، والأبكم وهو الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلماتٍ لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق؟ أو يخرج مما هو فيه من الضلالة؟ وفي ذلك يقول الله عزَّ شأنه: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ، مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ، وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾.

«سفههم في عبادة الأحجار»

ولقد كان من سفاهة المشركين أن عبدوا حجارة لا تسمع ولا تنفع، ولا تستجيب لداعيها، فضلاً عن أن تكشف عنه الضُرَّ وقت الشدة، أو تخلِّصه من البلاء، فكيف تكون آلهة تُعبد مع الله؟ أو تُقصد

لجلب نفعٍ أو دفع ضر؟ وفي ذلك يقول الله تعالى مُزْرياً بعقولهم ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ، أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ، أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُوْنَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُوْنَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُوْنَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُوْنَ ﴾.

وقد ضربت لهم الآياتُ الأمثالَ بالأمم السابقة، حينما انحرفوا عن هداية الله، كيف ابتلاهم الله بالشدائد والمصائب والنكبات، ليثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا إلى ربهم وأَنَّهُمْ إذا لم يرجعوا أهلكهم الله، ودمَّرهم عن بَكْرة أبيهم، وقد سيقت الآيات تسليةً للنبي عليه السلام على ما يلقاه من إيذاء قومه، وتكذيبهم لرسالته، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ، فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُوْنَ. فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوْا - أي فهلَّا تضرعوا إذْ جاءهم العذاب؟ بمعنى أنهم لم يتضرعوا مع قيام الموجب للتوبة - وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوْبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ. فَلَمَّا نَسُوْا مَا ذُكِّرُوْا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى إِذَا فَرِحُوْا بِمَا أُوْتُوْا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُوْنَ. فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وتوالت الآيات بعد ذلك، تُنذر وتتوعد وتهدّد، هؤلاء الطغاة المجرمين من كفار مكة، الذين كذَّبوا سيد المرسلين، تتوعدهم إن لم يكفُّوا عن إجرامهم وطغيانهم، بسلبهم الحواسَّ من سمعٍ، وبصرٍ، وعقلٍ، فمن الذي يقدر أن يردَّ عليهم حواسهم، إن سلبهم الله إياها؟ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ، وَخَتَمَ عَلَى قُلُوْبِكُمْ، مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ؟ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُوْنَ. قُل أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُوْنَ ﴾؟.

«الحكمة من بعثة الأنبياء والمرسلين»

ثم بينت الآيات الغاية والحكمة من بعثة الأنبياء والمرسلين، وهي هداية الناس إلى الدين الحق، وإنقاذهم من أحوال الغواية والضلالة، وتعريفهم بالإله المعبود، الذي يُثيب المؤمنين بجنات النعيم، ويُعذّب الكافرين بعذاب الجحيم، فمن أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُوْنَ. وَالَّذِينَ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوْا يَفْسُقُوْنَ ﴾.

وبعد هذا البيان الوافي حول الغاية من بعثة الرسل الكرام، تتحدث الآيات عن مهمة «محمد» عليه الصلاة والسلام، فتذكر أن مهمته تبليغ الوحي والرسالة، لا إجابة المشركين إلى ما اقترحوه، من خوارق العادات، فليس في يد محمد خزائن الله، ولا معرفة علم الغيب، وليس يملك من الخوارق حتى يريهم ما يبهر العقول والأبصار، وإنما هو رسول من الرسل، بعثه الله لهداية البشرية ﴿ قُلْ لاَ أَقُوْلُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ، وَلاَ أَقُوْلُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ؟ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُوْنَ ﴾؟.

وتختم الآيات بأمر الرسول، بإنذار هذا القرآن لمن يُرجى إيمانه، من المؤمنين المصدّقين، الذين يؤمنون بوعد الله ووعيده، والذين يترقبون لقاء الله في الدار الآخرة، فهم المنتفعون بهداية القرآن، وأما الكَفَرةُ المعرضون عن الله، فلا ينفعهم نصح، ولا تذكير ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُوْنَ أَنْ يُحْشَرُوْا إِلَى رَبِّهِمْ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُوْنِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُوْنَ ﴾.

«طلبهم طرد الفقراء والمساكين»

تناولت «سورة الأنعام» القضايا الأساسية، لأصول العقيدة الإسلامية، ودحضت جميع الشبه التي أثارها المشركون، حول الألوهية، والنبوة، والإيمان بالبعث والنشور، ولقد كان من جملة الأمور التي انتقدها المشركون على دعوة محمد عليه الصلاة والسلام، أن أتباعه هم الفقراء والضعفاء، أمَّا الأشراف والزعماء فلم يدخلوا في دينه، واتخذوا ذلك ذريعةً لتهوين دين محمد، والتقليل من شأنه، بل طلبوا منه أن يطرد هؤلاء الفقراء من مجلسه، لأنهم يأنفون أن يجالسوا أمثال هؤلاء المساكين، فقد روى ابن مسعود رضي الله عنه أن رؤساء قريش، مرُّوا على رسول الله ﷺ وعنده «صهيبٌ، وبلالٌ، وعمارٌ» وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد! أرضيتَ بهؤلاء عن قومك؟ أفنحن نكون تبعاً لهم؟ أهؤلاء هم الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا؟ اطردهم عنك، فلعلَّك إن طردتهم اتبعناك، فإننا نأنف أن نجالس أمثال هؤلاء الصعاليك، فأنزل الله عز وجل الآية: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُوْنَ وَجْهَهُ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْء، وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيءٍ، فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُوْنَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾.

«منطق غَريب وعجيب»

هذا هو منطق المشركين في كل زمان وحين، يعتبرون الجاه بالغنى والثراء، يعدُّون الفخر بالمراتب والمناصب الرفيعة، ولهذا قال أسلافهم لنبي الله نوح عليه السلام: ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِيْنَ هُمَ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ وبمثل هذا المنطق قال كفار

مكة لرسول الله عليه السلام، بل زادوا في السخرية والاستهزاء، فكانوا يقولون إذا رأوا المؤمنين: «جاءكم ملوك الدنيا» يهزءون منهم ويسخرون، وقد تناولت الآيات الكريمة الردَّ على هؤلاء السفهاء الذين اغتروا بما منحهم الله من المال، والجاه، والثراء، واعتبروا ذلك ميزة لهم خصهم الله لشرفهم ومكانتهم عند الله فقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا؟ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾؟ وهذه الآية ردٌّ على قول المشركين: أهؤلاء الضعفاء منَّ الله عليهم بالهداية، والسبق إلى الإسلام من دوننا؟ فبيَّن الله تعالى أن أمر الهداية ليس بالجاه والسلطان ولا بالغنى والثراء بل هو بالشكر والثناء، فمن شكر الله على نعمته وفَّقه وهداه، ومن كفر النعمة خذله وأشقاه، ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾؟.

ثم جاءت الآيات تبشّر المؤمنين بالدرجات العالية الرفيعة في دار النعيم، إن هم صبروا على البلاء ورضوا بالقضاء، وتشدُّ عزائمهم أمام ذلك الحشد الزاحف من طغيان وجبروت المشركين، المستهزئين بعباد الله، فالمال يُطغى، والدنيا تُغْري، والجاه والعز والسلطان يُفسد الإنسان، وعلى المؤمن أن يصبر أمام هذه المغريات فالعاقبة للمتقين ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوْءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُوْرٌ رَحِيمٌ. وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾.

«التبرؤ من عبادة المشركين»

ثم تتابع الآيات توضح فساد عقول المشركين في عبادتهم أوثاناً لا تضر ولا تنفع، وتأمر الرسول بالتبرىء من عبادة غير الواحد الأحد، فإن

ما عليه الرسول هو الحق الساطع المنير، وما عليه المشركون هو الضلال المبين ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِين تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ، قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ. قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ـ أي على شريعة واضحة من دين الله ـ وَكَذَّبْتُمْ بِهِ، مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلونَ بِهِ، إِنِ الحُكْمُ إِلَّا للَّهِ يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ. قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْـدِي مَا تَسْتَعْجِلُوْنَ بِـهِ لَقضِيَ الأَمْـرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾.

«صفات الإله الحق»

وبعد هذا البيان الساطع، حول تزييف عقائد المشركين، وبيان حماقتهم وجهالتهم، تأتي الآيات الكريمة لتسوق الأدلة، على صفات الإلّه الحق، الذي أحاط بكل شيء علماً، وتذكر من صفاته القدسية ما يوحي بالعظمة والجلال، وترسم صورةً لعلم الله الشامل المحيط، الذي لا ينِدُّ عنه شيء في الزمان ولا في المكان، في الأرض ولا في السماء، في البرّ ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طبقات الجو، من حيّ وميت، ورطب ويابس، وإن الوجدان ليرتعش وهو يرتاد أستار الغيوب، التي مفاتحها كلها عند الله لا يعلمها إلا هو، ويجول في مجاهل البر، وفي غيابات البحر، المكشوفة لعلم الله، يتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض لا يحصيها عدٌّ، وعينُ الله على كل ورقة تسقط هنا وهناك، ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرقب كل رطب ويابس، في هذا الكون الفسيح، لا يغيب عن علم الله منه شيء ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ

الأَرْضِ ، وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ فأين هذا الإِلّه القدير، الذي يدعو إلى الإيمان به محمد، من تلك الأوثان والأصنام، التي عبدها المشركون، وهي حجارة صماءُ، لا تسمع ولا تنفع، ولا تدري من سوَّاها أو دحاها؟.

«مظاهر عظمته وجلاله»

وتتحدث السورة عن آثار قدرة الله، ومظاهر عظمته وجلاله، وتقيم الأدلة والبراهين على وجوده ووحدانيته، فهو تعالى المبدع للأكوان، الحافظ لأعمال الإنسان، لا تخفى عليه خافية من شؤون العباد ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ ﴾.

ومن دلائل القدرة والوحدانية تنتقل الآيات، للحديث عن مظاهر العظمة والجلال، فهو تعالى الذي قهر كل شيء، وخضع لعظمته وجلاله وكبريائه كل شيء، فهو الكبير المتعال، الذي قهر الجبابرة بالموت، ودانت لجلاله وسلطانه رقاب العباد ﴿ وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُوْنَ. ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الحَقِّ، أَلَا لَهُ الحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ ﴾.

«التجاؤهم إلى الله عند الضّيق»

والعجيب في أمر هؤلاء المشركين أنهم يدعون ربهم وقت العسر والشدة، وينسونه وقت اليسر والرخاء، فهم إذا أصابهم كرب، أو وقعوا في ضيق وشدة، دعوا ربهم منيبين إليه، فإذا فرَّج كربتهم وأزال ما ألمَّ بهم من محنة وعناء، نسوا ربهم وعادوا إلى الكفر والضلال ﴿ قُلْ مَنْ

يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُوْنَهُ تَضَرُّعَاً وَخُفْيَةً، لِئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ، ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُوْنَ ﴾.

«إنذار المشركين بضروب العذاب»

وبعد هذا البيان الشافي عن ضلال المشركين، وتنكبهم عن الطريق المستقيم، جاءت الآيات الكريمة تتوعدهم بضروب العذاب: بالخسف، والزلازل، والصيحة، والرجفة، إن لم ينيبوا إلى ربهم ويرجعوا عن غيّهم وضلالهم، فهو تعالى القادر على أن يهلكهم بلمح البصر بما شاء من القذف أو الخسف ﴿ قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ، أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيعَاً، وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴾، والآية كما نرى ونسمع جاءت في منتهى الشدّة، ونهاية الوعيد والتهديد، ولهذا استعاذ النبي ﷺ بنور وجه الله الكريم، لمَّا نزلت عليه هذه الآية، فقد أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ قُل هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ قال رسول الله ﷺ: أعوذُ بوجهك ـ أي أستجير بعظمتك وسلطانك يا رب من هذا الكرب ـ ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعَاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال: هذا أهونُ أو أيسر»[1].

ومعنى قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويُـذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

بَعْض﴾ أي يجعلكم فِرَقاً وطوائف متحزبين، يقتل بعضكم بعضاً ويسترقُ بعضكم بعضاً، وهذا كما ورد في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإن مُلْك أمتي سيبلغ ما زُوي لي منها، وأعطيتُ الكنزين الأبيض والأحمر - يعني الذهب والفضة - وإني سألتُ ربي لأمتي ألا يهلكهم بسنةٍ عامة - أي بقحط وجدب - وألا يسلّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضَتهم - أي يُفنيهم ويستأصلهم من الوجود فلا يبقى منهم مسلماً - وإن ربي قال لي: يا محمد! إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يردُّ، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنةٍ عامة، وألَّا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم - أي فيهلكهم جميعاً - ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها، حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»(١) أي يسترِقُّ بعضهم بعضاً، وهذا الحديث من معجزات النبوة، فقد وقع ما أخبر عنه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه، على وجه التمام والكمال، تحققت بشارته أولاً، فملك المسلمون مشارق الأرض ومغاربها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ففتحوا البلاد وسادوا العباد، وأوصلوا هذا النور الإلهي، إلى آفاق العالم، يحملون راية الحق، ويرفعون لواء العدالة، ويخرجون الناس من الظلمات إلى النور، ولقد بلغت الفتوحات الإسلامية ذُروة الكمال، ووصلت قمة المجد، حين اكتسحت أعظم دولتين، وأكبر امبراطوريتين عظيمتين، هما دولة «الروم» ودولة «الفرس» اللتان كانتا تتقاسمان زعامة العالم، وتحققت ثانياً عناية الله بهذه الأمة فمنع عنها عذاب الاستئصال، بتسليط أمم الأرض عليها، إكراماً لرسولها محمد عليه السلام، كما منع عنها الهلاك

(١) أخرجه الإمام مسلم.

بالجوع والعطش، ولكنه تعالى أخبره بأن هلاك هذه الأمة، إنما يكون بيد بعضها البعض، حيث يقتل المسلمُ المسلمَ، ويسترقُّ المسلمُ المسلمَ، أليس هذا من معجزات النبوة، أن نرى في زماننا تلك الحرب الطاحنة المدمرة، بين العراق وإيران، تدخل سنتها الخامسة، فيها يسفك المسلم دم المسلم، ويسترق المسلم أخاه المسلم، وتكون صيحة الدمار وكلمة الفناء، بأيدي المسلمين أنفسهم، اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، ونجنا قبل ذلك.

«سخرية المشركين واستهزاؤهم بالقرآن»

في «سورة الأنعام» صورٌ عجيبة غريبة، من سفاهات المشركين وضلالاتهم، فهي السورة الكريمة التي عرضت لمجادلة المشركين ومناقشتهم بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وأقامت عليهم روائع البيان بزواجر القرآن، في تفنيد شبههم، وعقائدهم الزائفة، فقد كذبوا بالقرآن العظيم مع سطوع آياته وظهور بيناته، واتهموا الرسول باتهامات شنيعة باطلة، وسوف يلقون عاقبة هذا الغيِّ والضلال ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ، قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ. لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ﴾.

ولقد كان من سَفَه قريش وطغيانهم، وتمرّدهم عن قبول الحق، أنهم كانوا يخوضون في مجالسهم بالطعن بالقرآن، والاستهزاء والتكذيب بآياته، ويجعلون من الحديث عن القرآن والرسول، مجالاً للتندُّر والسخرية، في مجالسهم العامة، فجاءت الآيات تحذّر المؤمنين عن مجالسة أمثال هؤلاء السفهاء، وتأمرهم بالإعراض عنهم حتى يكفُّوا عن ذلك السَّفه والضلال ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوْضُوْنَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوْضُوْا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ

بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

«واجب النصح والتذكير»

ثم تلتها الآيات توضّح بأسلوبها البديع، أنه ليس على المؤمنين شيء من حساب الكفار، على استهزائهم وضلالهم، إذا هم تجنَّبوهم فلم يجلسوا معهم، ولكنْ عليهم أن يُقدِّموا لهم النصيحة، ويمنعوهما عما هم عليه من القبائح والشنائع، بما أمكنهم من العظة والتذكير، ويُظهروا لهم الكراهة والامتعاض، من سوء صنيعهم، لعلهم يجتنبون الخوض في القرآن، حياءً من المؤمنين إذا رأوهم تركوا مجالستهم، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُوْنَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُوْنَ ﴾ ثم أردفها تعالى ببيان عاقبة المكذبين المستهزئين، وما لهم من العذاب والنكال في دار الجحيم ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوْا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْوَاً، وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلُ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ - أي تُسْلَم للهلاك والدمار - لَيْسَ لَهَا مِنْ دُوْنِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ، وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا - أي وإن تُقدِّمْ كلِ فدية لا يُقبل منها حتى ولو جاءت بملء الأرض ذهباً - أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوْا بِمَا كَسَبُوْا، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوْا يَكْفُرُوْنَ ﴾.

«من روائع الأمثال القرآنية»

وزيادة في التوضيح والبيان فقد ضرب القرآن الكريم مثلاً لهؤلاء المشركين في عدم انتفاعهم بعبادة الأوثان، بمثل رجل ضلَّ عن الطريق، وبقي تائهاً حائراً لا يدري أين يسير في تلك الصحراء، وقد اغتالته الشياطين واختطفته، فسارت به في المفاوز والمهالك، بعيداً عن

أصحابه ورفاقه، فبينما هو متحيرٌ تائه، لا يدري كيف يصنع، إذْ سمع صوت إخوانه يدعونه إلى الجادة والطريق، يقولون له: أقبلْ فهذا هو طريق الأمان، فإن هو استجاب لهم نجا، وإلَّا هلك ﴿قُلْ أَنَدْعُوْا مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ، لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُوْنَهُ إِلَى الهُدَى ائْتِنَا، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الهُدَى، وأُمِرْنَا لِنُسْلَمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هذا مثلٌ ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، وللدعاة الذين يدعون إلى هدى الله عز وجل، كمثل رجلٍ ضلَّ عن الطريق فأصبح حيران تائهاً، إذْ ناداه منادٍ يا فلانَ بن فلان، هلمَّ إلى الطريق، وله أصحابٌ يدعونه يا فلانُ هلمَّ إلى الطريق، فإن هو اتَّبع الداعي الأول، انطلق به حتى يلقيه في الهَلَكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى، اهتدى إلى الطريق، فذلك مَثَلُ مَنْ يعبد هؤلاء الآلهة من دون الله، فإنه يظنُّ أنه في شيء أو على شيء، حتى يأتيه الموت، فيرى الندامة والهلكة، حين لا ينفعه توبة ولا ندم.. ويا له من مثلٍ رائع، ضربه الله للأوثان والأصنام، التي يعبدها المشركون، حين لا تدفع عن عابدها شيئاً يوم القيامة.

«سلوك طريق الحق»

ثم تدعو الآيات إلى سلوك طريق الحق، الذي جاء به سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام، وهو دين الإسلام الذي تركنا رسول الله على محجته البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك، والإسلام معناه الاستسلام والانقياد لأمر الله الواحد الأحد، الذي أمر بعبادته وتقواه، ليسلك المرء سبيل النجاة ﴿وَأَنْ أَقِيمُوْا الصَّلَاةَ واتَّقُوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ

تُحْشَرُوْنَ. وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بِالْحَقِّ، وَيَوْمَ يَقُوْلُ كُنْ فَيَكُوْنُ. قَوْلُهُ الحَقُّ وَلَهُ المُلْكُ، يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّوْرِ، عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾.

«إبراهيم دعامة التوحيد»

في «سورة الأنعام» نرى أسرار البيان في إعجاز القرآن، والأسلوب الحكيم الذي ناقش فيه القرآن الكريم، عقائد وعادات المشركين، فقد دمغهم بالحجة الساطعة، وأقام لهم البرهان تلو البرهان، على فساد عبادة الأوثان، بأسلوب شيِّق قصم به ظهر الباطل، وكشف النقاب عن وجه الحق المنير.

فبعد أن ذكر تعالى في الآيات السابقة الحجج الدامغة الدالة على التوحيد وبطلان عبادة الأوثان، ذكر في هذه الآيات أب الأنبياء «إبراهيم» الخليل عليه الصلاة والسلام، الذي كان كهف الإيمان ودعامة التوحيد، وجاء بالدين الصافي الخالص، الذي لا تشوبه شائبة من شوائب الوثنية، وذلك لإقامة الحجة على مشركي العرب في تقديسهم للأوثان والأصنام، فقد كانوا يفخرون بانتسابهم إلى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، ثم هم مع ذلك يعبدون الأوثان، وهذا منافٍ لطريقته وملته التي جاءهم بها، وهي «ملة التوحيد» وكذلك جميع الملل والطوائف معترفة بفضل إبراهيم، وجلالة قدره، حيث كانوا يعظمونه ويجلونه، فلذلك تكون الحجة عليهم قائمة، في مخالفتهم هَدْي الخليل إبراهيم عليه السلام، ولقد ساق القرآن الكريم قصته مع قومه بأسلوب عجيب، يسترعي انتباه السامعين ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً؟ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

«طريقة عجيبة في إفحام الخصم»

ثم تتابعت الآيات تذكر طريقته في الإقناع، حيث ابتكر طريقة عجيبة، في الاستدلال على بطلان عبادة الأوثان، وذلك بطريق ادعاء ألوهية وربوبية النجم، ثم القمر، ثم الشمس، وتنزَّل مع الخصم، ليقيم عليه الحجة من نفس كلامه، فما أحرى المناظر أن يُفحم خصمه بأيسر طريق، وأن يُدينه من فمه ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوْتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَلِيَكُوْنَ مِنَ المُوْقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً، قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمّا رَأَى القَمَرَ بازغاً قَالَ هَذَا رَبِّي ، فلما أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِني رَبِّي لأَكُوْنَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُوْنَ ﴾.

وهكذا تدرَّج معهم الخليل إبراهيم عليه السلام ليقيم الحجة عليهم من معتقدهم نفسه، فإن قومه كانوا وثنيِّين، يعبدون الشجر والحجر، والنجوم والقمر، فأراد أن يبطل ذلك المعتقد، فقال لهم على سبيل المناظرة: ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ استدارجاً لهم، ليعرِّفهم جهلهم وخطأهم، في عبادة غير الله، فلما غاب عنه الكوكب قال: لا أحب عبادة من يغيب، لأن الربَّ لا يجوز عليه التغيُّر والانتقال، فإن ذلك دليلُ الحدوث، وربُّ العالمين أزليٌّ قديم.

ثم لما رأى القمر طالعاً ساطعاً منتشر الضوء ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ على الأسلوب المتقدم لفتاً لأنظار قومه إلى فسادِ ما يعبدونه وتسفيهاً لأحلامهم، فلما غاب القمر قال إبراهيم: ﴿ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُوْنَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ أي لئن لم يثبّتني ربي على الهدى، ودين الحق،

لأصبحن من أهل الضلال.

ثم لما رأى الشمس ساطعة، تضيء للناس طريق المعاش، قال: ﴿ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ﴾ أي هذه الشمس أكبر من الكواكب، والقمر، فلما غابت الشمس قال: ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُوْنَ ﴾ ثم أعلن إيمانه واستسلامه للواحد الأحد، الذي أبدع الكائنات، وسيَّرها بنظام دقيق محكم فقال: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً، وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾.

«خطأ ينبغي تصحيحه»

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قول إبراهيم عن الكوكب: ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ إنما كان في حال «الطفولة» والصغر قبل استحكام النظر في معرفة الله جل وعلا، وهذا قول ضعيف بل هو خطأ، والصحيح ما عليه جمهور المفسرين أن هذا القول منه إنما كان في «مقام المناظرة» لقومه، لإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادة الكواكب والشمس والقمر، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ فهو إذاً مقام مناظرة لا مقام استدلال ونظر، وحاشا الخليل أن يشكَّ في الرب الجليل، وهو أب الأنبياء، وإمام الحنفاء، وقد منحه الله الهداية والإيمان من صغره، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «والحقُّ أن إبراهيم عليه السلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه، من

عبادة الأصنام والكواكب السيارة، وأشدُّهنَّ إضاءة الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة، فلما انتفت الإلّهية عن هذه الأجرام الثلاثة، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقَّق ذلك بالدليل القاطع ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُوْنَ ﴾(١).

وقال الزمخشري: كان أبوه وقومُه يعبدون الأصنام والكواكب، فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال، ويعرّفهم أن النظر الصحيح، مؤدّ إلى ألّا يكون شيء منها إلّهاً، وأن وراءها محدثاً أحدثها، ومدبّراً دبَّر طلوعها وأفولها، وانتقالها ومسيرها(٢).

وصدق الله العظيم: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾.

«شجرة النبوة تفرَّعت من إبراهيم»

ثم تناولت السورة الكريمة، ذكر بعض الرسل الكرام من ذرية إبراهيم عليه السلام، ذلك لأن إبراهيم أبو الأنبياء، منه تفرَّعت شجرة النبوة، ومن نسله جاء الرسل الكرام، الذين أُمر رسول الله ﷺ بإتباع أثرهم، والاقتداء بهم في سيرتهم العطرة بالدعوة إلى دين التوحيد الخالص ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾.

«دعوة الرسل واحدة»

ولما كانت دعوة الرسل واحدة، فقد جاءوا لإشادة صرح التوحيد،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٨٦.

(٢) انظر تفسير الكشاف ١/٥٢٢.

وكانت رسالتهم متفقةً في أصولها، ذاتَ هدفٍ واحدٍ، وغرضٍ واحد، هو الإيمان بخالق الأكوان، المنزَّهِ عن الوالد والولد، والصاحبة والشريك والنظير، لذلك جاءت الآيات تجمع الرسل في سلكٍ واحدٍ، وتنظمهم في عقد فريد، حبّاتُه الدرُّ والياقوت، وتثني عليهم ذلك الثناء العاطر، الذي يوحي بالإجلال والتبجيل، وتأمر الرسول بعد ذلك بانتهاج نهجهم والسير على منوالهم ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوْبَ، كُلًّا هَدَيْنَا، وَنُوْحَاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدْ وَسُلَيْمَانَ، وَأَيُّوْبَ وَيُوْسُفَ وَمُوْسَى وَهَارُوْنَ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ، كُلٌ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوْنُسَ وَلُوْطَاً، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى العَالَمِينَ. وَمِنْ آبَائِهِمْ، وَذُرِّيَاتِهِمْ، وَإِخْوَانِهِمْ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَوْ أَشْرَكُوْا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ وَالحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمَاً لَيْسُوْا بِهَا بِكَافِرِينَ. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرَاً، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾.

«عدد الرسل الكرام»

وقد ذكرت هذه الآيات من الرسل ثمانية عشر رسولاً، من مجموعة الرسل الكرام الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً، ومجموعهم خمسة وعشرون رسولاً، ورَدَ ذكرهُم في القرآن الكريم في مواطن مفرَّقة، وأما بقية الرسل السبعة، فقد جُمعوا في بيتين من الشعر كما قال القائل:

في «تلك حُجَّتنا» منهم ثمانيةٌ　　من بعد عَشْرٍ ويبقى سبعةٌ وهمو

إدريسُ هودٌ شعيبٌ صالحٌ وكذا ذو الكفل آدمُ بالمختار قد خُتموا

هؤلاء هم المذكورون في القرآن الكريم، وأما عدد الرسل الذين لم يذكروا فيزيدون على ثلاثمائة وخمسة عشر رسولاً كماورد في الحديث الصحيح.

«إنكار اليهود للوحي»

ثم تناولت السورة الكريمة موقف اليهود من رسل الله الكرام، حيث أنكروا نزول الوحي على الرسل، مبالغة منهم في إنكار نزول القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام، وذلك من شدة فجورهم وزيادة طغيانهم، كما تلاعبوا بشريعة الله، فحرَّفوا وبدَّلوا التوراة، وبخاصة ما يتعلق في أوصاف رسول الله ﷺ وفيهم يقول القرآن الكريم:

﴿ وَمَا قَدَرُوْا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِذْ قَالُوْا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوْسَى نُوْرَاً وَهُدَى لِلنَّاسِ؟ تَجْعَلُوْنَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُوْنَها وَتُخْفُوْنَ كَثِيراً ـ أي تكتبونه في صحف وأوراق مفرَّقة، تظهرون منها ما تشاءون وتخفون ما تشاءون ـ وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوْا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ، قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُوْنَ ﴾ وجملة ﴿ قلِ اللهُ ﴾ محذوفة الجواب لمفهوم السياق، والمعنى: قل لهم يا محمد اللهُ الذي أنزل التوراة على موسى، هو الذي أنزل القرآن على محمد، فهذه الكتب السماوية كلها وحيٌ، منزَّل من عند الله تعالى.

«سبب نزول الآية»

روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن «مالك بن الصيف» من رؤساء اليهود، جاء يخاصم النبي ﷺ في أمر، وكان رجلاً سميناً بَدِيناً

من أحبار اليهود - أي من علمائهم ورؤساء دينهم - فقال له النبي ﷺ: «أنشدك بالذي أنزلَ التوراةَ على موسى، أَمَا تجد في التوراة أَنَّ الله تعالى يُبغض الحَبْر السمين»؟! فغضب عند ذلك اليهودي وقال: «واللهِ ما أنزل اللهُ على بشر من شيء» فقال له أصحابه الذين كانوا معه: ويحك ولا على موسى؟ فردَّد قوله: «والله ما أنزل الله على بشرٍ من شيء» فأنزل الله تعالى الآية الكريمة رداً عليه: ﴿وَمَا قَدَرُوْا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِذْ قَالُوْا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ. .﴾[1] الآية.

ثم تلتها الآيات تقرِّر نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وتثبت صدق هذا القرآن الذي نزل على نبي أميّ، لم يتلق شيئاً من العلوم والمعارف في مدرسةٍ ولا على يد أحد من الناس، ثم جاءهم بهذا الكتاب المعجز الذي يحمل برهانه الساطع على أنه تنزيل الحكيم العليم فقال سبحانه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ، مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُوْنَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُوْنَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُوْنَ﴾.

«عقوبة الكاذب في دعوى النبوَّة»

وبعد هذا البيان عن أمر الوحي، وعن موضوع الرسالة، جاءت الآيات تنذر أولئك الطغاة المفسدين، الذين ادَّعَوْا النبوة والرسالة، كذباً وزوراً، «كمسيلمة الكذاب» و«الأسود العنسي» فقد زعم كل منهما أنه رسول الله، وتنذرهم بالعذاب الأليم في دركات الجحيم، وتصوّر حالهم عند الموت وهم يلاقون الشدائد والأهوال ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً، أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ، وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ص ١٢٦ وتفسير القرطبي ٣٧/٧.

أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُوْنَ فِي غَمَرَاتِ المَوْتِ، وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوْا أَيْدِيْهِمْ، أَخْرَجُوْا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُوْلُوْنَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الحَق، وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُوْنَ. وَلَقَدْ جِئْتُمُوْنَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّة، وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُوْرِكُمْ، وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ، وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُوْنَ ﴾.

«الإيمان بالله أساس المعارف»

وبعد أن ذكر تعالى أمر الوحي والنبوة، ذكر الأدلة الدالة على وجود الخالق، وكمال علمه، وقدرته، وحكمته، تنبيهاً على أن المقصود الأصلي إنما هو معرفة الله بذاته، وصفاته، وأفعاله.. وقد ذكر تعالى بعض البراهين على قدرته ووحدانيته، فقال عز شأنه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى، يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ، وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ، ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُوْنَ؟ ﴾ أي فكيف تُصرفون عن الحق إلى الضلال!؟ ثم قال تعالى: ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ـ أي بحساب دقيق يحقق مصالح العباد ـ ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُوْمَ لِتَهْتَدُوْا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ. وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُوْنَ ﴾.

«البراهين على وجود الخالق ووحدانيته»

ساق الباري جل وعلا الأدلة على وجوده ووحدانيته، من عجائب صنعه ولطائف تدبيره، فذكر الحبة يخرج منها النبات الأخضر، والنواة

اليابسة تخرج منها شجرة النخيل، فتثمر أنواع الرطب الشهي، وشقَّ النور والضياء عن ظلمة الليل الدامس، وجعل الشمس والقمر ساطعين، يسيران بحساب دقيق منتظم، يُعرف بهما حساب الليالي، والأيام، والأعوام لمصالح العباد، كما خلق النجوم لتكون مصابيح، يهتدي بها الناس في أسفارهم، في ظلمات الليل، في الصحارى والقفار والبحار، بتسخير الواحد القهار.

ثم أفاضت الآيات الكريمة، في بيان أسرار قدرته تعالى ووحدانيته، زيادةً في الإيضاح والبيان، فذكرت منها إنزال المطر من السماء، وإخراج أنواع الثمار والنبات، وأنواع النخيل والأعناب، ثم إخراج الزيتون والرمان، مشتبهاً ورقُه، مختلفاً ثمرُه، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ، فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً، نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً - أي بعضُه فوق بعض كسنابل القمح والشعير - وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ، وَالزَّيْتُوْنَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ، انْظُرُوْا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ ﴾.

«الغاية من النظر الاعتبـــار»

والمراد من النظر هنا نظرُ الاعتبار والاستبصار، لا مجرد النظر، فكأنه تعالى يقول: انظروا يا أيها الناسُ نظر تدبر واعتبار، إلى خروج هذه الثمار، من ابتداء خروجها إلى انتهاء نضجها وظهورها، كيف تنتقل من حالٍ إلى حال، في اللون والرائحة، والصغر والكبر، والحلاوة والحموضة، وتأملوا ابتداء الثمر، حيث يكون بعضه مراً، وبعضه مالحاً، لا يُنتفع بشيء منه، ثم إذا انتهى ونَضِج، فإنه يعود حلواً طيباً نافعاً،

مستساغ المذاق، فسبحان الإِلّه الخلاق، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ ﴾ أي إن في خلق هذه الزورع والثمار، مع اختلاف الأشكال والأجناس والألوان، لدلائل باهرة على وجود الله وقدرته ووحدانيته.

«تسفيه عقائد المشركين»

وبعد هذا البيان المستفيض في دلائل الخلق والإبداع، جاءت الآيات الكريمة تتحدث عن المشركين من كفار مكة، ومن طوائف أهل الكتاب، الذين نسبوا إلى الله ما لا يليق، من الشركاء والزوجة والولد، وجعلوا الملائكة بناتٍ لله، وهذا منتهى الجهالة وغايةُ السفه ﴿ وَجَعَلُوْا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ، وَخَرَقُوْا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُوْنَ. بَدِيعُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، أَنَّى يَكُوْنُ لَهُ وَلَدٌ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ؟ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوْهُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ، وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾.

والغرضُ من هذه الآيات الردُّ على أولئك السفهاء، الذين نسبوا إلى الله عز وجل البنين والبنات، فقالوا: عزير ابنُ الله، والمسيح ابن الله، والملائكةُ بناتُ الله ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُوْلُوْنَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾.

وقد ردَّ تعالى على من نسب إليه الولد من وجهين:

أحدهما: أن الولد لا يكون إلا من جنس والده، واللهُ تعالى ليس له مثيل ولا شبيه ولا نظير، وهو سبحانه متعالٍ عن الأجناس لأنه مبدعها فلا يصح أن يكون له ولد.

والثاني: أن الله خلق السموات والأرض ومن فيهما من الملائكة والإنس والجن، ومن كان هكذا فهو غني عن الولد وعن العالمين.

ثم بيَّن تعالى لعباده أنه قد وضَّح لهم الدليل، وأقام لهم البرهان، بإنزال هذا القرآن فيه البيان والبصائر، والحجج القاطعةُ الدالة على صدقه، وصدق من أُنزل عليه، وهو محمد ﷺ الذي جاءهم بالبينات الساطعات، فمن اهتدى به فقد نفع نفسه، ومن أعرض عنه فقد أضر نفسه ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾.

«اتهام الرسول بدراسة الكتب السماوية»

لا تزال الآيات الكريمة تقرع بحججها الدامغة، وبراهينها القاطعة، آذان المتعنتين من كفار مكة، فقد زعموا أن الرسول ﷺ جاء بهذا القرآن من تلقاء نفسه، باطلاعه على الكتب السابقة، وأخبار الأمم الماضين، فكذبهم القرآن بأيسر الطرق، لأن هذا النبي معروفٌ لديهم بأنه أميٌّ لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فكيف ينسبون إليه دراسة الكتب السماوية والاطلاع عليها وهو رجل أميٌّ؟ ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُوْلُوْا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ. اتَّبِعْ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوْا، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

«النهي عن سبّ آلهة المشركين»

ولقد كان من سفه المشركين أنهم توعَّدوا الرسول ﷺ بسبِّ ربه، إن هو تعرَّض لذكر أوثانهم وأصنامهم بسوء، فأمر الله رسوله

والمؤمنين ألا يتعرضوا لشتم آلهة المشركين، لئلا يسبوا الله ظلماً وعدواناً، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ، فَيَسُبُّوْا اللَّهَ عَدْوَاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي فيسبوا الله جهلاً واعتداءً، لعدم علمهم ومعرفتهم بعظمة الرحمن، ثم قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال كفار مكة لأبي طالب: إما أن تنهى محمداً وأصحابه عن سبِّ آلهتنا والنيل منها، أو لنسبنَّ ربه ونهجوه فنزلت الآية: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ ﴾(١).

«اقتراح المشركين لبعض المعجزات»

ثم تلتها الآيات تتحدث عن كفار مكة، وما هم عليه من الاستكبار والعناد، فقد حلفوا بأغلظ الأيمان وأشدِّها، أنه إذا جاءتهم معجزة، أو أمر خارق مما اقترحوه، فسوف يدخلون في دين محمد، ويؤمنون به وبرسالته، وهم في هذا إنما يسألون المعجزات تعنُّتاً وعناداً، لا على سبيل الهدى والاسترشاد، وقد أخبر تعالى أنه لو أجابهم إلى ما طلبوا، بل زاد على ما اقترحوه، فأنزل عليهم الملائكة، وأحيا لهم الموتى، حتَّى كلموهم وأخبروهم بصدق محمد عليه السلام، وحشر لهم السباع والدواب والطيور، ما آمنوا ولا صدَّقوا، لأنهم إنما يطلبون هذه المعجزات استكباراً وعناداً ﴿ وَأَقْسَمُوْا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُوْنَ. وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوْا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُوْنَ. وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ المَلَائِكَةَ، وَكَلَّمَهُمُ المَوْتَى،

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٦١/٧ وأسباب النزول للواحدي ص ١٥٧.

وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ـ أي وجمعنا لهم كل شيء من الخلائق عياناً ومشاهدة ـ ما كَانُوا لِيُؤْمِنُوْا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُوْنَ﴾.

«سبب النزول»

روى ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: «كلمت قريشٌ رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! تخبرنا أن «موسى» كان له عصا يضرب بها الحجر، فتنفجر منه اثنتا عشرة عيناً، وتخبرنا أنَّ «عيسى» كان يُحيي الموتى، وتخبرنا أن «ثمود» كانت لهم ناقة.. فائتنا من الآيات حتى نصدِّقك، فقال لهم رسول الله ﷺ: أيَّ شيءٍ تحبون أن آتيكم به؟ قالوا: تجعل لنا جبل الصفا ذهباً، فقال لهم: فإن فعلتُ ذلك تصدّقوني؟ قالوا: نعم والله، لئن فعلت ذلك لَنَتْبَعنَّكَ أجمعون، فقام رسول الله ﷺ ليدعو ربه، فجاءه جبريل عليه السلام فقال له: ما شئتَ يا محمد، إن شئت أصبح جبل الصفا لهم ذهباً، ولئن أُرسل آيةً فلم يصدِّقوا عند ذلك ليعذبنهم الله تعالى، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله ﷺ: بل أتركهم حتى يتوب تائبهم، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات الكريمة: ﴿وَأَقْسَمُوْا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا..﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُوْنَ﴾.

«تسلية الرسول عليه السلام»

وبعد هذا البيان الواضح عن طغيان المشركين من كفار مكة، جاءت الآيات الكريمة تسلّي رسول الله ﷺ، وتخفف عنه العناء، حول ما يلقاه من أذى قريش واستهزائهم، وسخريتهم به وبرسالته ودعوته،

وتبيّن للرسول أن هذه سيرة الأنبياء من قبله، فما من نبيٍّ بعثه الله إلا كان له أعداء يحاربونه ويعادونه، فلا ييأس ولا يحزن على ما يلقاه من صناديد الكفر والطغيان ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ، يُوْحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوْراً، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوْهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُوْنَ. وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُوْنَ بِالآخِرَةِ، وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوْا مَا هُمْ مُقْتَرِفُوْنَ ﴾ وهكذا وضَّح الباري جل وعلا لرسوله الكريم، أن سنة الأنبياء من قبله الابتلاء، ليعظم لهم الأجر والثواب، فليصبرْ على حكم الله وقضائه، فإن العاقبة للمتقين.

«شهادة الله كافية لرسوله»

وبعد أن ذكر تعالى اقتراحات المشركين، في أن يأتيهم محمد ﷺ بما يطلبونه من معجزات، وذكر أنه لو أتاهم بكل ما اقترحوه، من إنزال الملائكة، وتكليم الموتى، وحشر السباع والدواب، وقلب جبل الصفا لهم ذهباً، فلن يؤمنوا ولن يصدِّقوا، جاءت الآيات هنا تقيم الأدلة والبراهين على وحدانية الله، وقدرته وحكمته، وتثبت بما لا يحتمل الشك أن محمداً ﷺ رسولٌ من عند الله حقاً، أيَّده الله بالمعجزات الساطعات ومن أعظمها معجزة القرآن، فلا حاجة إلى من يشهد له بالنبوة والرسالة، بعد تلك الدلائل القاطعة على صدق نبوته، وفي ذلك يقول القرآن الكريم، مرشداً له ﷺ وموجهاً إلى وضوح الحجة ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً؟ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً!! وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُوْنَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، فَلاَ تَكُوْنَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ. وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً، لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾.

لقد طلب المشركون من رسول الله ﷺ حَكماً يحكم بينه وبينهم، من أحبار اليهود أو النصارى، ليخبروهم عما في كتبهم، من أمر محمد عليه السلام، فجاءت الآيات الكريمة تلقِّنه الحُجَّةَ الدامغة، وتقول له: إن طلبوا منك التحاكم، فقل لهم: أفغير الله أطلب حاكماً وقاضياً بيني وبينكم؟ أما تكفي شهادة الله عز وجل لي بأني رسوله وقد جئتكم بهذا الكتاب المعجز، بأوضح بيان، وأكبر برهان، يدل على صدقي، وعلماء اليهود والنصارى يعلمون حقَّ العلم، أن القرآن حقٌّ من عند الله، لأنه جاء موافقاً لما عندهم في التوراة والإنجيل، في كل ما أخبر عنه، فكيف تطلبون مني أن أجعل بيني وبينكم حكماً أناساً من أهل الكتاب، وهذا شأني في غاية الوضوح والبيان؟!.

«أكثر البشر ضالون»

ثم بعد ذلك بين تعالى لرسوله حال أكثر أهل الأرض من بني آدم، أنهم يتركون الهدى ويميلون إلى الضلال، فلا ينبغي له عليه السلام أن يستجيب لمطالبهم، لأنهم لا يريدون الوصول إلى الحق، ولا معرفة الحق، وإنما هم أناس معاندون مكابرون ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوْكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِنْ يَتَّبِعُوْنَ إِلَّا الظَنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُوْنَ ﴾ أي يكذبون ويفترون ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾.

وإنما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ لأن أهل الكفر والضلال، أكثر وأغلب من أهل الهدى والإيمان، فأكثر البشر ضالون منحرفون عن هداية الله كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ ﴾ وقال عز شأنه: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وما

ذلك إلّا بسبب إتباع الشهوات والأهواء.

«من سفاهات المشركين»

وبعد ذلك انتقلت الآيات للردّ على سفاهات وحماقات المشركين، فقد كانوا يسخرون من المؤمنين ويقولون: تزعمون أنكم تعبدون الله، ثم تمتنعون عن الأكل مما قتله الله - يعنون به الميتة - وتأكلون مما قتلتم؟ فما قتله الله أحقُّ أن تأكلوا منه فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوْا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوْحُوْنَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوْكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوْهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُوْنَ ﴾.

«بين نور الإيمان وظلمات الكفر»

ثم تلتها الآيات الكريمة تضرب الأمثال، للذين استنارت قلوبهم بنور التوحيد والإيمان، والذين بقوا في الضلالة يتخبطون في ظلمات الكفر، لا يعرفون منفذاً ولا مخلصاً منه، فهل يتساوى ذلك المؤمن المستنير بنور الله، مع ذلك الكافر، الذي ظلَّ سادراً في غياهب الجهل والضلال؟! ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُوْراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا؟ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ ﴾.

وهو مثلٌ واضح الدلالة، رائع التصوير، للشخص المؤمن، الذي أنار اللهُ قلبه بنور الهداية والإيمان، مع ذلك الشخص المقيم على الكفر والضلال.

روي أن الآية نزلت في «أبي جهل» و «حمزة» لقيَ أبو جهل رسول الله ﷺ فآذاه وشتمه ورماه بروث - أي كرش جمل - فبلغ ذلك حمزة رضي الله عنه وهو راجع من الصيد - وكان حمزة لم يدخل في الإسلام

بعد ـ فجاء إلى أبي جهل مغضباً، وبيده قوسٌ فضربه به حتى شجَّه، فقال له أبو جهل: أَلَى ترى ما جاء به، سفَّه عقولنا، وسبَّ آلهتنا، وخالف آباءنا؟! فقال له حمزة: ومن أسفه منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله، وهي لا تسمع ولا تنفع؟ ثم قال له: أشهد أن لا إلَه إلا الله، وأن محمداً عبده ورسولُه، وأعلن إسلامه فأنزل الله هذه الآية: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ. . ﴾[1] الآية.

«تسلية للرسول ﷺ»

لا تزال السورة تتحدث عن طغيان المشركين، الذين كذبوا سيّد المرسلين، وتدمغهم بالحجة القاطعة، فلقد أنار الله تعالى لهم الطريق، وبعث لهم سيِّدَ الخلق، منقذاً وهادياً، ولكنهم آثروا الضلالة على الهدى، والكفر على الإيمان، وقد جاءت الآيات تُسلِّي النبي ﷺ، وتُبيِّن له أن هذه هي طريقة المشركين في كل زمان وحين، ما بعث الله نبيًّا، ولا أرسل رسولاً هادياً، إلاّ قابله قومه بالجحود والإنكار، والمكر والاستهزاء ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوْا فِيهَا، وَمَا يَمْكُرُوْنَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ ﴾ والغرض من هذه الآيات تسليةُ النبي ﷺ عمّا يلقاه من الأذى، من رؤوس الكفر والطغيان.

«سفاهة وحماقة»

ومن عجائب أحوال المشركين، أنهم يريدون أن ينالوا مراتب الأنبياء والمرسلين، وأن يَحْظَوا بتلك الدرجات العالية الرفيعة، من النبوة والوحي، فلماذا يختص الرسل بذلك الفخار دون غيرهم؟ وينالوا سُدَّة السيادة، مع أنهم ليسوا من الملائكة بل هم من البشر؟ وما هي الميزة

(١) انظر أسباب النزول ص ١٢٨ وتفسير أبي السعود والقرطبي.

التي من أجلها اختصُّوا بذلك الشرف الرفيع؟ ولهذا طلب المشركون أن تحصل لهم «النبوة والرسالة» كما حصلت لمحمد عليه الصلاة والسلام، ولمن سبقه من الأنبياء والمرسلين، وأن يكونوا متبوعين لا تابعين، ومخدومين لا خادمين ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُم آيَةٌ قَالُوْا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوْتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ وقد ردَّ الله تعالى عليهم تلك السفاهة والحماقة بقوله: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوْا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوْا يَمْكُرُوْنَ ﴾ أي سينال أولئك المجرمين ذلٌّ وهوانٌ عند الله، وعذاب شديد مؤلم، بسبب استكبارهم وتمردهم عن إتباع الرسل الكرام.

«سبب النزول»

روي أن «أبا جهل» اللعين قال: زاحَمْنا بني عبد منافٍ في الشرف، حتى صرنا كفرسَيْ رهان - أي لا هم يسبقوننا ولا نحن نسبقهم - ثم افتخروا علينا فقالوا: منّا نبيٌّ يُوحى إليه!! واللهِ لا نرضى به ولا نتّبعه أبداً، إلا أن يأتينا وحيٌ كما يأتيه فنزلت: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوْا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوْتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾(1) الآيـة.

لقد ظنَّ المشركون النبوَّة أمراً يُنال بالعزِّ والجاه، أو الثَّراء والغنى، أو الحسب والنسب، وغفلوا عن أمرٍ عظيم وخطير، وهو أن حصول النبوة لا بدَّ فيه من قلب سليم، مستعدّ لتلك الإشراقات الإلهية، ونفوس البشر مختلفةٌ بجواهرها وماهيِّتها، فمنها نفوسٌ خيِّرةٌ طاهرة، صافية نيِّرة، وبعضُها خبيثةٌ كدرة، فكيف تنال تلك النفوس المظلمة، أنوار الهداية والرسالة، وشتّان شتّان ما بين النور والظلام؟ ولذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾.

---

(1) تفسير البحر المحيط ٤/٢١٧.

«الإيمان والكفر نقيضان»

وبعد هذا البيان المستفيض عن ضلالات المشركين، جاءت الآياتُ لتضع أيدينا على الحقيقة جليَّةً ناصعة، وهي أن الإيمان والكفر نقيضان لا يجتمعان، وأن الهداية والضلالة بيد الله عز وجل، يضع كلاً منهما في المكان المناسب له، فمن كان قلبه مستنيراً بنور الله، مستضيئاً بضياء الحق، شرح الله صدره للدين الحقّ، دين الإسلام، ومن كان أعمى القلب مطموس البصيرة، صرفه الله عن رؤية أنوار الإيمان، وهداية القرآن، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ـ أي شديد الضيق لا يتسع لشيء من الخير والهدى ـ كَأَنَّمَا يَصَّعَدُ فِي السَّمَاءِ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴾.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: هذا مثلٌ ضربه الله لقلب هذا الكافر، في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه، مَثَلُ امتناعه من الصعود إلى السماء، وعجزِه عنه لأنه ليس في وسعه.

قال المفسرون: ولما نزلت هذه الآيةُ سُئل رسول الله ﷺ فقيل له: كيف يشرح الله صدره؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «يقذف الله تعالى فيه نوراً، حتى ينفسح وينشرح، فقيل له: وهل لذلك من أمارةٍ يُعرف بها؟ فقال: الإنابةُ إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعدادُ للموت قبل نزوله»[1].

«الدين الحق هو الإسلام»

ثم تتابعت الآيات تبيِّن الدين الحق، الذي بعث الله به رسوله

(١) تفسير ابن جرير الطبري ١٢/١٠٠.

محمداً ﷺ، وهو دين الإسلام المستقيم، الذي لا عوج فيه ولا اضطراب، فمن استمسك به سعد واهتدى، ومن أعرض عنه ضلَّ وشقي، والمعصوم من عصمه الله ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُوْنَ. لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ﴾.

«الحشـــر والحساب»

وبعد أن ذكر سبحانه أن البشر فريقان: مهتدٍ وضالٍ، منهم من شرح صدره للإسلام فآمن واهتدى، ومنهم من اتَّبع الهوى فضلَّ وغوى.. ذكر بعده أنه سيحشر الخلائق جميعاً يوم القيامة للحساب والجزاء، لينال كلٌّ جزاءه العادل على ما قدَّم في هذه الحياة الدنيا فقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعَاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَـرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ، وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ: رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا، قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضَاً بِمَا كَانُوْا يَكْسِبُوْنَ﴾.

وفي هذه الآية تهديد للظالم إن لم يمتنع عن ظلمه، سلَّط الله عليه ظالماً آخر، قال ابن عباس: «إذا رضي الله عن قوم ولَّى أمرهم خيارهم، وإذا سخط على قومٍ ولَّى أمرهم شرارهم» (١).

وقال مالك ابن دينار: قرأتُ في بعض كتب الحكمة أن الله تعالى يقول: ﴿إني أنا الله مالكُ الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبّ الملوك، ولكن توبوا إليَّ أعطِّفهم عليكم﴾(٢).

(١) تفسير القرطبي ٧/٨٥.

(٢) التفسير الكبير للرازي ١٣/١٩٤.

«العدالة الإلهية»

وبعد أن أفاضت الآيات في إقامة الأدلة على البعث والنشور، وذكرت أن الدنيا دارُ العمل، وأن الآخرة دار الجزاء، عادت تؤكد أن العدالة الإلٓهية لا تكون في الآخرة فقط، بل هي متحققة في الدنيا أيضاً، فما جرت سُنَّة الله تعالى أن يُهلك أمةً بدون ذنب، ولا أن يُدمِّر قرية حتى يبعث فيها رسولاً، يحذّرها وينذرها عقاب الله، فذلك هو مقتضى العدالة الإلٓهية، التي أوجبها الله على نفسه بمقتضى الفضل والإحسان ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُوْنَ ﴾ أي إنما أرسلنا الرسل، وأنزلنا الكتب السماوية، لنقطع معاذير البشر، ولنحقّق العدل في معاملة الخلق، وذلك من أجل أن ربك لم يكن ليهلكهم، دون التنبيه والتذكير بالرسل، والآيات، والعِبَر.

«الله غنيٌّ عن العباد»

ثم بيَّن تعالى أنه مستغنٍ عن الخلق وعن عبادتهم، وأنه سبحانه لا تنفعه الطاعة، ولا تضرُّه المعصية، لأنه غنيٌّ عن العالمين، فقال جل ثناؤه: ﴿ وَرَبُّكَ الغَنِيُّ ذُوْ الرَّحْمَةِ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ، كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ. إِنَّ مَا تُوْعَدُوْنَ لآتٍ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ.

ثم أمر تعالى نبيه ﷺ بتهديد المشركين، المنكرين للبعث والجزاء فقال: ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوْا عَلَى مَكَانَتِكُمْ، إِنِّي عَامِلٌ، فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ مَنْ تَكُوْنُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُوْنَ ﴾.

ومعنى الآية: قل لهم يا محمد إثبتوا على كفركم وعداوتكم لي، فإني ثابتٌ على الإسلام الذي أوحاه الله إليَّ، واعملوا كما تحبون وتشتهون، فإني مستقيم على شرع الله، وسوف تعلمون في الآخرة لمن

تكون له العاقبة المحمودة، أنحن أم أنتم؟ وهذا الأمر ظاهره التخيير في فعل ما يشاءون، وحقيقته التخويف والوعيد، كقوله سبحانه: ﴿ اعْمَلُوْا مَا شِئْتُمْ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيرٌ ﴾.

«نوع آخر من سفاهات المشركين»

ثم حكى تعالى في هذه السورة أنواعاً من جهالات المشركين وضلالاتهم، تنبيهاً على ضعف عقولهم، وقلة فهمهم وإدراكهم، وتنفيراً للعقلاء عن الالتفات إلى أقوال أمثالهم من السخفاء فقال عز شأنه: ﴿ وَجَعَلُوْا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبَاً، فَقَالُوْا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ، وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُوْنَ ﴾.

ومعنى الآية الكريمة أن المشركين من كفار قريش، جعلوا لِلَّهِ تعالى مما خلق من الزروع والثمار والأنعام نصيباً، وجعلوا لأوثانهم وأصنامهم التي يعبدونها نصيباً أيضاً، فما كان للصنم أنفقوه عليه وعلى سَدَنته، وما كان من حقّ الله تعالى أنفقوه على الفقراء والمساكين والضيفان، ومع أنه تعالى هو وحده الخالق الرازق، فقد جعلوا الأصنام تشاركه في خلقه ورزقه، ثم العجيب في أمرهم أنهم فضَّلوا الأوثان على الرحمن، فما كان من نصيب أصنامهم فلا يصل إلى الله منه شيء، وما كان من نصيب الله إذا وقع منه شيء واختلط بنصيب الأصنام قالوا: الله ليس بحاجة إليه فتركوه للأوثان، فكانت قسمةً ظالمةً جائرة، لا عدل فيها ولا إنصاف.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرةٌ، جعلوا للهِ منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان

من حرثٍ، أو ثمرةٍ، أو شيءٍ من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه، وإن سقط شيء مما جعلوه للأوثان في نصيب الله أخذوه وردُّوه إلى نصيب الصنم، وإن سقط من نصيب الله في نصيب الأوثان لم يردُّوه وقالوا: الله غنيٌّ والأوثان أحوج إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُوْنَ﴾ وما ذلك إلا لحبهم آلهتهم، وإيثارهم لها على الله عز وجل(١)، ويا له من سَفَهٍ وغباءٍ.

«وأدهم للبنات»

ومن غرائب سفاهات المشركين، أنهم كانوا يئدون بناتهم ـ أي يدفنونهن أحياء ـ خوفاً من الفقر، أو خوفاً من العار، وكان الرجل يحلف بالله، لئن وُلد له كذا من الأولاد لينحرَنَّ أحدهم، وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوْا أَوْلَادَهُمْ سَفَهَاً بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَحَرَّمُوْا مَا رَزَقَهُمْ اللَّهُ افْتَرَاءً عَلَى اللَّهِ.. ﴾.

ذكر الإمام القرطبي في تفسيره هذه القصة العجيبة، التي تدل على مدى سفاهة وحماقة المشركين من أهل الجاهلية فقال رحمه الله: ذُكر أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ كان لا يزال مغتمَّاً حزيناً بين يديْ رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقال له الرسول الكريم: «ما لكَ تكون محزوناً أبداً؟ فقال: يا رسول الله! إني أذنبتُ ذنباً في الجاهلية، فأخاف ألا يغفره الله لي وإن أسلمت! فقال له: أخبرني عن ذنبك؟ فقال: يا رسول الله! إني كنت من الذين يقتلون بناتهم، فوُلدتْ لي بنتٌ فتشفَّعتْ إليَّ امرأتي أن أتركها لها فتركتها، حتى كبرتْ وأدركتْ، وصارت من أجمل النساء، فخطبها الكثيرون فدخلتني الحميَّة، ولم يحتمل قلبي أن

(١) انظر تفسير الطبري، وابن كثير، والكشاف.

أزوّجها، أو أتركها في البيت بغير زواج، فقلت لامرأتي: إني أريد أن أذهب لزيارة أقربائي فابْعثيها معي، فسُرَّتْ بذلك، وزيَّنتها بالحليّ والثياب، فذهبتُ بها خارج البلدة إلى رأس بئر، فنظرتُ في البئر فَفَطِنتْ البنتُ، بأني أريد أن ألقيها في البئر، فالتزمتني وجعلتْ تبكي فرحمتها، ثم نظرتُ إلى البئر مرة ثانية ودخلت عليَّ الحمية حتى غلبني الشيطان، فألقيتها في البئر منكوسة، ومكثتُ هناك حتى انقطع صوتها فرجعتُ إلى بيتي، فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه وقال: «لو أُمرت أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك»(١).

«لماذا كانوا يدفنون البنات؟»

في الآيات السابقة ذكر تعالى بعض ضلالات وسفاهات المشركين من كفار قريش، وحكى طرفاً من قبائحهم وجرائمهم الشنيعة، ومنها قتلُ الأولاد ووأد البنات، لا لذنبٍ اقترفوه أو جناية ارتكبوها، وإنما لمجرد السفه والضلال، والعصبيَّة الجاهلية التي نشأوا عليها، فقد كانوا يعدُّون البنت شؤماً عليهم، وعاراً يجب أن يتخلصوا منه، فكانوا يدفنون البنات وهنَّ على قيد الحياة كما قال تعالى عنهم في سورة النحل: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوْءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُوْنٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ؟ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُوْنَ ﴾ وهكذا بلغت بهم السفاهة والجهالة، إلى حدٍّ أن يتخلص الواحد منهم من ابنته، بوأدها في التراب وهي حيَّةٌ، تخلصاً من عارها، أو خشية الإنفاق عليها، وكلُّ ذلك بتزيين الشيطان لهم تلك القبائح والمساوىء، حتى يروها طريقاً للمباهاة والمفاخرة، واكتساب المديح والثناء..

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ٧/٩٧.

وفي هذه الآيات البيِّنات، يلفتُ القرآن أنظارنا إلى ما كان عليه أجدادنا العرب، من الخرافات والضلالات، فيقول الله تقدست أسماؤه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ - أي زيَّن لهم شيطانيهم قتلَ أولادهم بالوأد أو بالنحر - لِيُرْدُوْهُمْ وَلِيَلْبِسُوْا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ أي ليهلكوهم بالإغواء، وليخلطوا عليهم الدين الحق بالباطل والأهواء، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوْهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُوْنَ ﴾. أي لو شاء الله ما فعلوا ذلك القبيح فذرهم وشأنهم، وهو وعيدٌ وتهديد.

«تحريمهم بعض الأنعام»

كما حكى القرآن عنهم نوعاً آخر من القبائح والشناعات، حيث قسموا الأنعام إلى أقسام، فمنها ما خُصِّصتْ للكهنة وخَدَمةِ الأوثان، ومنها أنعام لا يجوز ركوبها ولا الانتفاع بها بدرٍّ أو حمل، كالبحائر، والسوائب، والحوامي، ومنها أنعام لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأوثان والأصنام، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَقَالُوْا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ، لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ، وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا، وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُوْنَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ ﴾.

«تحريم الأجنة على الإناث»

ونوعُ آخر من أنواع البغي والعدوان، والافتراء على شريعة الله، اختلقه المشركون وافتروه من تلقاء أنفسهم، وزعموا أنه من دين الله، وهو أنهم حرَّموا الأجنَّة التي في بطون بعض الأنعام، حرَّموا أكله على الإناث، وأحلُّوه للذكور، هذا إذا وُلد حياً، وأمَّا إذا وُلد ميتاً، اشترك فيه

الذكور والإناث، ولعمر الحقِّ إنها لتفرقةٌ جائرة، وقسمةٌ عجيبة غريبة، يُحلّون أكل الميتة للذكور والإناث، ويحرّمون ما تلده تلك البهائم على الإناث ﴿ وَقَالُوْا مَا فِي بُطُوْنِ هَذِهِ الأَنْعَام خَالِصَةٌ لِذُكُوْرِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

«تذكير المشركين بنعم الله»

وبعد هذا البيان عن سفاهات المشركين، جاءت الآيات لتذكِّرهم بفضل الله وإحسانه عليهم، فيما خلق من أنواع الزروع والثمار والأنعام، ممَّا فيه أسباب العيش والرزق لهم، مما تتوقَّف عليه حياتهم، وفي تذكيرهم بالنِّعم تذكيرٌ لهم بشكر المنعم، الذي أفاض على عباده من أنواع الفضل والإحسان ما غمرهم به في هذه الحياة، فهو تعالى الذي أوجد لهم البساتين النضرة، التي تحمل أنواع العنب والفواكه والثمار، وأنواع النخيل وما تحمله من رطب شهيّ، وأنواع الزيتون والرمان، متشابهاً شجرُه مختلفاً ثمرُه، ثم خلق لهم الأنعام «الإبل، والبقر، والغنم» منها ما هو لحمل الأثقال، ومنها ما هو للّحوم والألبان، وكلُّ ذلك من فضل الرحمن على عباده ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوْشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوْشَاتٍ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ، وَالزَّيْتُوْنَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ - أي متشابهاً في اللون والشكل، وغير متشابه في الذوق والطعم - كُلُوْا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ، وَآتُوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ، وَلَا تُسْرِفُوْا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ. وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُوْلَةً وَفَرْشَاً ﴾ أي وخلق لكم من الأنعام الإبلَ التي تحمل الأثقال، وصغار الإبل التي تكون للأكل والحلب، ثم قال تعالى ممتناً عليهم بما خلق ورزق: ﴿ كُلُوْا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوْا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ثم فصَّل

تعالى ما أجمله من الأنعام، التي خلقها لعباده وسخرها لهم، ولولاها لهلكوا جوعاً، وما طابت لهم الحياة، وقد بيَّن تعالى أن هذه الأنعام المأكولة أربعة أنواع وهي: «الإبل، والبقر، والغنم، والماعز» وكلٌّ نوع خلق لهم منه ذكراً وأنثى، حتى لا ينقطع النسل فقال عز شأنه: ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ، مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ، قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ؟ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أرحام الأنثيين؟ نَبِّئُوني بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ، قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ، أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ؟ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا؟ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وهكذا أقام الله عليهم الحجة القاطعة في تحريمهم بعضها بدون دليل.

«التحليل والتحريم من خصائص الله»

حكى تعالى في الآيات السابقة، ما أنعم به على عباده، من أنواع الخلق والرزق، من النباتات والثمار، والزروع والأنعام، ومن أنواع النخيل والأعناب، ومع هذه النعم الجليلة، ووفرتها وكثرتها، فقد عبد المشركون غير الله، وحرَّموا أشياء، وأحلُّوا أشياء من تلقاء أنفسهم، دون دليل ولا برهان.

وقد جاءت الآيات تذكِّرهم بما أحلَّ الله لعباده وما حرَّم، وأن التحليل والتحريم من خصائص المشرِّع، وهو الإلّه الحكيم العليم، الذي يعلم مصالح عباده، فقد أحلَّ لهم الطيبات وحرَّم عليهم الخبائث، رحمةً بهم ورأفةً عليهم، فلا ينبغي لأحد أن يحلّل أو يحرّم من تلقاء

نفسه كما فعل المشركون، فقد حرَّموا البحائر والسوائب وهي حلال، وأحلوا أكل الميتة والدم وهما حرام، فزاغوا وضلوا عن الطريق المستقيم، وفي هذا الشأن يأمر الله رسوله ﷺ أن يعلن لهم، ما حرَّم الله عليهم من المآكل، ليكفُّوا عن التلاعب في شرع الله فيقول: ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلِي مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ، إِلَّا أَنْ يَكُوْنَ مَيْتَةً، أَوْ دَماً مَسْفُوْحاً، أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ، فَإِنَّهُ رِجْسٌ، أَوْ فِسْقَاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُوْرٌ رَحِيمٌ ﴾.

«تحريم بعض المآكل على اليهود»

كما بيَّن تعالى بعد ذلك في الآيات الكريمة، ما حرَّمه على اليهود خاصة، بسبب ضلالهم وظلمهم وعدوانهم، وهم قد تلاعبوا في دينهم كما فعل المشركون وحرَّفوا كلام الله، وما كان تحريمه عليهم بعض الطيبات إلا عقوبةً لهم، فقد منعهم الله مما كانوا يحبون وهي الإبل والنعام ذواتُ الظلف، وحرَّم عليهم شحوم البقر والغنم إلا القليل منها مما يعلق بظهورها أو أمعائها وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَعَلَى الَّذينَ هَادُوْا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ، وَمِنَ البَقَرِ وَالغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُوْمَهُمَا، إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُوْرُهُمَا أَوِ الحَوَايَا ـ أي الأمعاء ـ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بعَظْمٍ ﴾ ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ، وَإِنَّا لَصَادِقُوْنَ. فَإِنْ كَذَّبُوْكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُوْ رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ ﴾.

«احتجاج المشركين بالقضاء والقدر»

ثم توالت الآيات تردُّ على المشركين باطلهم وضلالهم، وتُشنِّع

عليهم ذلك الافتراء الكاذب على الله، حيث زعموا أن ما هم عليه من الكفر والإشراك، وتحريمهم لما حرَّموا من أشياء، إنما وقعت بمشيئة الله، وإذا كانت بقضائه وقدره، فاللَّهُ راضٍ بها وهم معذورون عند الله، وهكذا زيَّن لهم الشيطان، أن يكفروا ويفسقوا ثم يتعلَّلوا بالقضاء والقدر، لدفع المسؤولية عنهم ﴿ سَيَقُوْلُ الَّذِينَ أَشْرَكُوْا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا، وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ.. ﴾ الآية.

وهذه نزعةٌ جبرية يحتجُّ بها السفهاء، عندما تدمغهم الحجة، كما يقول المجرم والعاصي، والمرتكب لأنواع المنكرات: هذا قَدَرُ اللَّهِ، لا مهرب ولا مفرَّ منه، وقد ردَّ الله تعالى عليهم هذا الزور والبهتان فقال: ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوْا بَأْسَنَا، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوْهُ لَنَا، إِنْ تَتَّبِعُوْنَ إِلَّا الظَّنَّ، وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُوْنَ ﴾ أي ما تتبعون بهذا القول إلا الظنون والأوهام، وما أنتم في الحقيقة إلَّا تكذبون وتفترون على الله، فهذا محض الكذب والبهتان.

أما وجه الاستدلال في الآية على كذبهم وافترائهم، وردِّ تلك المزاعم فهو من طريقين:

الأول: أن هذه المقالةَ هي مقالةُ من سبقهم، من الفجرة المعاندين، المكذّبين لرسل الله، وقد أشار إليها بقوله سبحانه: ﴿ كذلك كذَّب الذين من قبلهم ﴾.

الثاني: أنهم كذبوا على الله، وخلطوا صدقاً بكذب، فأفعال البشر واقعة بقضاءٍ وقدر، هذا حقٌّ لا يخالف فيه مؤمن، ولكنْ من أين لهم علمٌ بأن الله قدَّر عليهم هذه المعاصي؟ هل اطَّلعوا على اللوح المحفوظ؟ هل رأوا بأم أعينهم أن الله كتب عليهم الشقاء والضلال،

فسارعوا إلى امتثال أمره حتى يكونوا مطيعين؟ ثم مَنْ الذي أخبرهم أن الله تعالى إذا كان يعلم كفرهم وعصيانهم، يقبل ذلك منهم ويرضى عنهم؟ وهو القائل: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ، وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ، وَإِنْ تَشْكُرُوْا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾.

فقضاءُ اللهِ وقدرُه تابعٌ لعلمه، وعلمُه تعالى لا يدلُّ على الرضى، كما إذا علم الخليفة أو السلطان خروج بعض الجنود، وقيامهم بثورة ضدَّ حكمه، فهل هذا العلم يكون عذراً لهم، على مخالفة النظام والقانون؟.

هكذا ـ ولله المثلُ الأعلى ـ الله تعالى يعلم كفر الكافر، وعصيان العاصي، وطاعة المطيع، وقد سُجِّل هذا العلم الربانيُّ، في اللوح المحفوظ، ولكنَّه ليس أبداً حجة للإنسان، لأن الله جلَّ وعلا يحبُّ الطاعة، ويكره العصيان، ولهذا ختم الله هذه الآيات الكريمة بقوله: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

ثم زاد في البيان والإيضاح، فقال مخاطباً المشركين بأسلوب التهكم والسخرية ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُوْنَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا، فَإِنْ شَهِدُوْا فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُوْنَ بِالآخِرَةِ، وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُوْنَ ﴾ أي يشركون معه غيره فيعبدون الأوثان.

«الوصايا العشر»

بعد ذلك البيان الساطع، حول عقائد المشركين وضلالاتهم الزائغة، جاءت الآيات الكريمة لتبيِّنَ للناس الدِّينَ الحقَّ، الذي بعث

الله به رسوله محمداً ﷺ، وهو الدِّينُ القيِّم، الذي لا عوج فيه ولا انحراف، فما كانت شريعة الإسلام لتُحرِّم على النَّاس الطيّبات، ولا لتمنعهم من لذائذ الحياة، وإنما جاءت لتبعدهم عن الخبائث الضارَّة، التي تؤذيهم في أجسامهم وعقولهم، سواءً ما كان منها من الأمور الاعتقادية، أو العملية، في الأخلاق، والعبادات، والمعاملات وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ، أَلَّا تُشْرِكُوْا بِهِ شَيْئَاً، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانَاً، وَلَا تَقْتُلُوْا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ، وَلَا تَقْرَبُوْا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا تَقْتُلُوْا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ ﴾.

وهذه الآية الكريمة والآيتان بعدها، قد تناولت بالتفصيل «الوصايا العشر» التي اتفقت عليها جميع الشرائع السماوية، ودعت إليها كل الأديان، لأن بها الحفاظ على سعادة البشرية، لتعيش عيشة العزة والكرامة، التي أرادها الله لبني الإنسان.

«الوصية الأولى»

أما الوصية الأولى: فهي عبادة الله، وعدم الإشراك به، إذ كيف يصح للعاقل، أن يجحد فضل من أحسن إليه، وأنعم عليه، فيعبد غيره من بشرٍ أو صنم، وهو تعالى الخالق الرازق، وهو وحده الموجدُ لهذه الكائنات؟ ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾؟ وقد أشارت إلى هذه الوصية الفقرة الأولى من الآية وهي قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوْا بِهِ شَيْئَاً ﴾ وقُدّمت على غيرها من المحرمات، لأنه لا ذنب عند الله أعظم من الشرك، الذي تتضاءل بالنسبة إليه جميع الذنوب والآثام.

«الوصية الثانية»

أما الوصية الثانية: فهي التحذير من الإساءة إلى الوالدين، فقد كانا سبباً في حياة هذا الإنسان، وقد لاقيا الشدائد والأهوال في سبيل تربيته، ونالهما من المتاعب والمصاعب ما اللَّهُ به عليم، فكيف يقابلان بالإساءة والعقوق والعصيان، مع أنهما كانا يفديان ذلك الوليد بالنفس والنفيس، وقدَّما لولدهما كل إحسان معروف؟ و﴿ هل جزاء الإحسانِ إلَّا الإحسانُ ﴾ وإلى هذه الوصية أشارت الآية الكريمة: ﴿ وَبِالْوَالِـدَيْنِ إِحْسَانَاً ﴾ أي وأحسنوا إلى الوالـدين إحسانـاً، وإنما ذكـرت ضمن المحرمات، لأن الأمر بالشيء نهيٌ عن ضدِّه، فكأنه تعالى قال: ولا تسيئوا إلى الوالدين، وإنما جيء بهذه الصيغة ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ للمبالغة في وجوب أداء حقوقهما، وللتنبيه على أن تـرك الإساءة إليهما غيرُ كافٍ في قضاء حقوقهما، فلا يكفي أن نكفَّ الأذى والشرَّ عنهما، بل لا بدَّ من إسداء الإحسان والمعروف، ولعلنا ندرك سراً من أسرار القرآن العظيم، حين قرن حقَّ الوالدين بحقه تعالى: ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوْا بِهِ شَيْئَاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانَاً ﴾ لينبهنا تعالى إلى عظم حقِّ الوالدين، وأن البِرَّ بهما يأتي بعد إعلان العبودية للَّه جلَّ وعلا، فلا يكمُل إيمان الإنسان حتى يعرف حقَّ ربه، وحقَّ والديه اللَّذين عطفا عليه، وأشفقا عليه وهو وليد، وما أجمل ما صوَّر به الشاعر العربي، موقفَ الولد العاقِّ لوالده حين قال:

غَـذَوْتُك مَـوْلُوْدَاً وعِلْتُـكَ يَـافِعَـاً ... تُعَـلُّ بمـا أَجْنِي عليـكَ وتَنْهَـلُ
إِذَا لَيْلَةٌ ضَافَتْكَ بالسُّقْم لَمْ أَبِتْ ... لِسُقْمِـكَ إلَّا سَـاهِـراً أَتَمَلْمَـلُ
كَأَنِّي أَنَا المَطْرُوقُ دُوْنَكَ بَالذي ... أُصِبْتَ بِــهِ دُوْنِي فَعَيْني تَهْمِـلُ
فَلَمَّـا بَلَغْتَ السِّنَّ والغَايَـةَ الَّتي ... إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أُؤَمِّـلُ

جَعَلْتَ جَـزَائي غِلْظَةً وفَـظَاظَـةً   كَـأَنَّـكَ أَنْتَ المُنْعِمُ المتفضِّـــلُ

اللهم ارزقنا برَّ الوالدين، وعرّفنا فضلهما وقدرهما، لنقدم بعض ما يجب علينا نحوهما يا رب العالمين.

«الوصية الثالثة»

أما الوصية الثالثة: فهي النهيُ عن قتل الأولاد خشية الفقر، أو دفعاً للمسبَّةِ والعار، فقد كان العرب في الجاهلية يدفنون البناتِ أحياء، بعضهم للغيرة، وبعضهم لخوف الفقر والإملاق، والأكثرون إنما كانوا يفعلون ذلك دفعاً للمسبَّة والعار كما قال تعالى: ﴿ يَتَوَارى مِنَ القَوْمِ من سوء ما بُشِّر به، أيمسكه على هُوْنٍ أم يدسُّه في التراب؟ ألا سَاءَ مَا يَحكمون ﴾، وقال سبحانه: ﴿ وإِذَا المَوْؤُدةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ وقد جاءت الآيات هنا لتحذرهم عن قتل الأولاد، أيّاً كان السبب، فإن الله هو الخالق الرازق الذي تكفّل برزق العباد ﴿ وَلَا تَقْتُلُوْا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ـ أي من فقر ـ نَحْنُ نرزُقُكُم وَإِيَّاهُمْ ﴾ وحين سأل صحابي رسول الله ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نِدّاً وهو خلقك، قال: ثم أيّ؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطْعَم معك»(١).

«الوصية الرابعة»

أما الوصيـة الرابعـة: فهي التحذيـر عن مقـارفـة المنكـرات والفواحش، سواءً منها ما كان في السرّ أو في العلن ﴿ ولا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾.

قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأساً في

(١) الحديث في الصحيحين.

السرِّ، ويستقبحونه في العلانية، فحرَّمه الله في السرِّ والعلن، وقد نهت الآية عن جميع المنكرات والمعاصي، الظاهر منها والخفيّ، ليظلَّ الإنسان بعيداً عن كل القاذورات التي تلوّث عرضه.

«الوصية الخامسة»

أما الوصية الخامسة: فهي تحريم قتل النفس ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ﴾ فإن سفك دم الإنسان جريمةٌ لا تغتفر، اللهمَّ إلا أن يكون القتل بحقٍّ، وذلك بأن يرتد عن دينه، أو يقتل شخصاً عامداً متعمداً فيؤخذ بجريرته، أو يزني بعد إحصانه، كما قال ﷺ: «لا يَحلُّ دمُ امرىءٍ مسلم، يشهد أن لا إلّه إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني - أي المحصن المتزوج إذا زنى - والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»(١).

وقد ختم الله هذه الآية الكريمة بأروع ختام، ختمها بالتذكير بما يحثُّ القلوب على القبول، فإن هذه الأمور التي حذَّرنا منها القرآن، إنما هي لصالح الخلق ومنافعهم وهي وصية الله لعباده ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾.

«تتمـــة الوصايا»

وبعد هذا البيان الشافي، جاءت الآيتان لتتمّما تلك الوصـايا الإلّهية العشر، التي جاءت من أجلها جميع الشرائع السماوية، فذكر تعالى تحريم أكل مال اليتيم، ونهى عن البَخْسِ في المكيال والميزان، وأمر بالعدل بين جميع طـوائف البشر، بقـطع النظر عن أجنـاسهم وأديانهم، وأمر بالوفاء بالعدل، ودعا إلى التمسك بصراطه المستقيم،

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

وعدم التفرق في أمر الدين فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوْا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَأَوْفُوْا الكَيْلَ والميزَانَ بِالْقِسْطِ، لا نُكَلِّفُ نَفْسَاً إِلَّا وُسْعَهَا، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوْا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوْا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ. وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوْهُ وَلَا تَتَّبِعُوْا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ ﴾.

«الكتب السماوية لهداية البشرية»

عرضت السورة لعقائد المشركين، وتناولت كثيراً من أفعالهم وآرائهم، التي تناقض العقل، وتخالف الذوق والأدب الرفيع، ففنَّدت تلك الآراء، وكان سلاحُها في ذلك الحجةَ الدامغة، والبرهانَ القاطع في طريق الإقناع والإلزام..

وبعد أن ذكر تعالى «الوصايا العشر» التي أوصى بها عباده، والتي هي من الأصول الأساسية، التي اتفقت عليها الشرائع السماوية، وبها سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، جاءت السورة لتربط بين شريعة موسى، وشريعة محمد في الهداية والإرشاد، فإن كلًّا من التوراة والقرآن، إنما نزل من العلي الكبير، ليحقق لبني الإنسان السعادة في هذه الحياة، وما جاء من الأصول في التوراة، يتفق مع ما جاء من الأصول في القرآن، ولهذا قرن تعالى بين الكتابين الجليلين في الهداية والإرشاد، فكل منهما يدعو إلى الخير والفضيلة والإصلاح، ولهذا قال تعالى: ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوْسَى الكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ، وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدَى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُوْنَ. وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ، فَاتَّبِعُوْهُ وَاتَّقُوْا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ ﴾ ثم بيَّن تعالى السبب في إنزال هذا القرآن على هذه الأمة المحمدية، وعلى العرب بوجه خاص، وذلك

لئلا يحتجوا ويتعلَّلوا، بأنهم لم يأتهم كتاب من عند الله، كما نزل على اليهود والنصارى، فلم يهتدوا إلى طريق الحق، بسبب عدم مجيء الكتاب، ولم يدرسوا شريعة الله كما درسها أهل الكتاب، فكيف يهتدون إلى الحق ويعرفونه، مع أنهم لم يأتهم كتاب من عند الله، فقطَعَ اللَّهُ حجتهم ومعاذيرهم، بإنزال القرآن نوراً وهدىً وضياءً ﴿ أَنْ تَقُوْلُوْا إِنَّمَا أُنْزِلَ الكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا، وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُوْلُوْا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدَىً وَرَحْمَةٌ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُوْن عَنْ آيَاتِنَا سُوْءَ العَذَابِ بِمَا كَانُوْا يَصْدِفُوْنَ ﴾.

«أشراط الساعة»

ثم تتابعت الآيات تتوَّعد المشركين والمخالفين، بعذاب الله الأليم، إن أصرُّوا على الكفر والضلال، وتذكر لهم بعض أشراط الساعة، وذلك حين لا ينفعهم توبةٌ ولا ندم ﴿ هَلْ يَنْظُرُوْنَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ المَلَائِكَةُ، أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ، أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ، يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ، لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْراً، قُلِ انْتَظِرُوْا إِنَّا مُنْتَظِرُوْنَ ﴾ ومعنى الآية: ما ينتظر هؤلاء المشركون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، أو يأتي ربك لفصل القضاء بين العباد، وذلك يوم القيامة، أو تأتيهم بعض آيات ربك كطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة والدخان، وغيرها من الآيات التي تدل على قرب القيامة، كما روي في الصحيح عن البراء بن عازب قال: «كنا نتذاكر أمر الساعة، إذْ أشرف علينا رسول الله ﷺ فقال: أتتذاكرون الساعة؟ إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: طلوع

الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج «يأجوج ومأجـوج» ونزول عيسى بن مريم، وخروج الدجال، وثلاثة خسوف: خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس، تبيتُ معهم حيث باتوا، وتَقِيلُ معهم حيث قالـــوا»[1].

«التفرق في الدين هلاك للأمة»

وإذا كان أهل الأديان ـ قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام ـ قد اختلفوا وتفرقوا في أمر الدين، وأصبحوا شيعاً وأحزاباً، كل حزبٍ بما لديهم فرحون، فإن دين محمد عليه السلام قد جاء بالشرع الواضح المنير، الذي لا شطط فيه ولا اختلاف، ولا تنازع ولا تفرق، وقد برَّأ الله نبيه ﷺ من ضلالات اليهود والنصارى، وتنازعهم وتفرقهم في أمر الدين، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوْا دِينَهُمْ وَكَانُوْا شِيَعَاً، لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ، إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوْا يَفْعَلُونَ ﴾.

قال مجاهد: هم اليهود والنصارى، تفرَّقوا فِرَقاً، وكفَّر بعضهم بعضـاً، وأخذوا من الـدين بعضاً وتـركوا بعضـاً، فهم أهل البـدع والشبهات، لم يعبدوا الله وإنما عبدوا الأهواء[2]. .

«الهداية إلى الدين القيم»

وبعد ذلك أمر الله رسوله أن يعلن على رؤوس الأشهاد، أن الله

(١) أخرجه الترمذي وأبو داود وأحمد في المسند.

(٢) انظر تفسير الطبري وابن كثير والدرّ المنثور.

قد هداه إلى الدين الحق المستقيم، وهو دينُ إبراهيمَ أبي الأنبياء، وأن صلاته وعبادته، وسائر أفعاله وأعماله كلها خالصة لوجه الله، لا يبتغي بها غير رضاه ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي - أي ذبحي - وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ثم ختمت السورة الكريمة بأن الحياة الدنيا وما فيها إنما تقوم على عنصر الابتلاء، وأن الله يختبر عباده بأنواع التكاليف ليظهر المؤمن من الكافر، والبر من الفاجر، كما أن تفاوت بين الأرزاق ابتلاءً لعباده، ليعلم الشاكر من الجاحد ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ، وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وإنه لختم رائع يتناسب مع جو السورة وإيحاءاتها، فقد بدأت بالحمد والثناء، وختمت بالشكر والابتلاء، تعظيماً لأمر الخالق المدبِّر الحكيم..!

* * *

تمّ بعونه تعالى الجزء الثاني من الكتاب

والحمد لله في البدء والختام

فهرس

تم بعونه تعالى إصدار سلسلة من أجزاء كتاب

قبس من نور القرآن الكريم

- الجزء الأول من سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران.
- الجزء الثاني من سورة النساء والمائدة والأنعام.
- الجزء الثالث من سورة الأعراف والأنفال.
- الجزء الرابع من سورة التوبة ويونس.

تحت الطبع:

- الجزء الخامس من سورة هود ويوسف والرعد.
- الجزء السادس من سورة إبراهيم والحجر والنحل والإسراء.

تفسير
الدَّعواتِ المباركاتِ
مِنَ القُرآنِ العظيم

تأليف

الشيخ محمّد بن عالم الآيديني

مِنْ عُلَماءِ القَرْنِ الحادي عشر

حققه وعلق عليه

خادم الكتاب والسُّنة

الشيخ محمّد علي الصّابوني

الأستاذ بجامعة أُم القُرى بمكة المكرمة

دار القلم

دمشق

دراسات قرآنية
٣

قبس من نور القرآن الكريم

من

سورة الأعراف، والأنفال

دراسة تحليلية موسعة لأهداف ومقاصد السورتين الكريمتين

بقلم
خادم الكتاب والسنة
الشيخ محمد علي الصابوني
الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد الذي خصَّه الله بالمعجزة الكبرى، والآية العظمى «القرآن الكريم» وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا هو الكتاب الثالث في سلسلة «دراسات قرآنية» في ضوء السورتين الكريمتين «الأعراف، الأنفال» وهي دراسة موضوعية تحليلية هادفة، القصد منها تنوير القلوب والبصائر، بما تناوله الكتاب المعجز، الذي نزل على قلب خاتم المرسلين، بلسان عربي مبين.

وإننا إذ نشكر الله عزّ وجلّ أن وفَّقنا لخدمة كتابه، لنُبْرِز ما فيه من روائع الحِكَم والأحكام، ونُظهر أسرار إعجازه وبيانه، نسأله تعالى أن يمنَّ علينا بالتيسير والتسهيل، لما قصدناه في هذه الدراسات القرآنية، التي تتناول المواضيع التي تعرضت لها السور الكريمة، ليستوعب الأخ المسلم فهم ما حَوَته هذه السور المباركة من مقاصد وأهداف.

والله نسأل أن يرزقنا الصدق والإخلاص، في القول والفعل والعمل، وأن ينفع بهذه الدراسات إخواننا المؤمنين، إنه خير مسؤول، وأعظم مأمول، وصلىٰ الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الشيخ محمّد علي الصّابوني

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَة الأَعْرَاف
مكيّة وآياتها مائتان وست آيات

«أهداف السورة الكريمة»

● سورةُ الأعراف من السور المكيَّةِ الطويلة، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء الكرام، ومهمتُها كسائر السورِ المكيَّة، تقريرُ أصول الدعوة الإسلامية، من توحيد الله جلَّ وعلا، والاعتقاد بالبعث والجزاء، وتقرير الوحي والنبوة.

● عرضت السورة الكريمة في مطلعها للقرآن العظيم «معجزة» محمد الخالدة، وآيتُه الباهرة، الدَّالةُ على نبوَّتهِ وصدقِهِ عليه السلام، وقرَّرتْ أن هذا القرآن هو النعمةُ العظمى من الرحمن للبشرية جمعاء، فعليهم أن يستمسكوا بتوجيهاته وإرشاداته، ليفوزوا بسعادة الـدارين ﴿ المَص. كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ، وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ، اتَّبِعُوْا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلاَ تَتَّبِعُوْا مِنْ دُوْنِهِ أَوْلِيَاءَ، قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُوْنَ ﴾.

«تكريم الله للبشرية»

● ولفتت السورة أنظار الناس، إلى نعمة خلقهم من أبٍ واحد، ليتعاونوا ولا يتخاصموا، وليستشعروا أنهم إخوة في الإنسانية، أبوهم

واحدٌ، وطِينتُهم واحدةٌ، ونَبَّهتْ الآياتُ إلى تكريم الله لهـذا النوع الإنساني، ممثَّلاً في أب البشر «آدم» عليه السلام، الذي خلقه اللَّهُ بيده، ونفخ فيهِ من روحهِ، وأمرَ الملائكة بالسجود له، تعظيماً لقدرهِ، وتنبيهاً لفضله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوْا لِآدَمَ، فَسَجَدُوْا إِلَّا إِبْلِيسَ، لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾.

«التحذير من مكايد الشيطانِ»

● وقد حذَّرت السورة من كيد الشيطان، ذلك العدو الماكـر المتربِّصُ بالإنسان، الذي قعد على طريق الناس، ليصدَّهم عن الهدى، ويُبعدهم عن خالقهم، ويُفسد عليهم طريق الاتصال بالله.. وقد ذكر تعالى في هذه السورة، قصة أبينا «آدم» مع إبليس مفصَّلة أتم تفصيل، بدءاً من خلقِهِ، وأمرِ الملائكةِ بالسُّجودِ له، وامتناع إبليس عن السجود، إلى خروجه من الجنة، وهبوطه إلى الأرض مع حواء، وذلك كنموذج واضحٍ، للصِّراع بين الخير والشر، والحق والباطل، وبيانٍ لكيد إبليس لآدم وذريته، حتى نحذر شرَّه ونتجنَّب مكره، فهو العدوُّ اللدود لذرية آدم، ولهذا وجَّه الله إلى أبناء آدم في هذه السورة الكريمة، أربع نداءات متتالية بصيغة ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ وهي نداءات خاصة بهذه السورة، لا نجدها فِي غيرها من السور، وفيها يُحذِّرنا الباري جلَّ وعلا من عدونا الأكبر «إبليس» الذي نشأ على عداوتنا من قديم الزمن، ليوقعنا في المهالك والمعاطب، كما أوقع أبانا «آدم» في الخطيئة والزلة.. وإليكم هذه النداءات الأربع كالإخطار، متواليةً في التحذير والإنذار.

«النداء الأول»

يقول تعالى في الامتنان على عباده، بما خلق لهم، وعلَّمهم من صنع ما يسترون به عوراتهم: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً، وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ، ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ ﴾ فقد أشارت الآية إلى نوعين من اللباس: لباسٍ لستر العورات، ولباسٍ للزينة والجمال، وهو الذي عبَّر عنه بالريش، لأنه كريش الطاووس به زينتُه وجماله، كما نبَّهت إلى لباسٍ أعزَّ وأرفع، وهو لباس الطاعة والتقوى، الذي يزيّن الإنسان به باطنه «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ» فإن طهارة الباطن أهمُّ من جمال الظاهر، وقد أحسن من قال:

وَخَيْرُ لِبَاسِ المَرْءِ طَاعَةُ رَبِّهِ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ لِلَّهِ عَاصِياً

«النداء الثاني»

أما النداء الثاني: فقد قال تعالى محذراً لنا من فتنة إبليس وإغرائه: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجَنَّةِ، يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ـ أي جماعتُه وجنده ـ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

«النداء الثالث»

أما النداء الثالث: فيتمثل بالخشوع والخضوع في الصلاة، وأخذ الزينة عند الوقوف بين يدي أحكم الحاكمين ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ـ أي صلاة أو طواف ـ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا، إِنَّهُ

لَا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ ﴾.

«النداء الرابع»

أما النداء الرابع: فقد دعانا فيه إلى التمسك بَهَدْيِ الأنبياء، والاعتصام بالشرائع السماوية والأحكام ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّوْنَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي، فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ ﴾.

* * *

● كما تعرضت السورة لمشهد من مشاهد الآخرة، مشهد الفِرَق الثلاثة وما يدور بينهم من محاورة ومناظرة: «أهل الجنة، وأهل النار، وأصحاب الأعراف» وهذه الفرقة الثالثة لم يتحدث عنها القرآن إلا في هذه السورة، وهي الفرقة التي سميت السورة باسمها «سورة الأعراف».

مشهد مهول يشهده العالم يوم القيامة على الحقيقة، دون تمثيلٍ ولا تخييل، يظهر فيه شماتة أهل الجنة بالمبطلين من أهل النار، وينطلق صوتٌ علوي، يسجّل عليهم اللعنة والطرد والحرمان ﴿ فأذَّن مؤذِّنٌ بينهم أنْ لعنةُ اللَّهِ على الظَّالِمين ﴾.

«قصص الأنبياء»

● وتناولت السورة الكريمة قصص بعض الأنبياء بإسهاب، قصة «نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى» عليهم من الله جميعاً أفضل الصلاة والسلام، وابتدأت بشيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام، وذكرت ما لاقاه من قومه من طغيان وعناد، وتكذيب وإعراض، حتى

نصره الله، كما فصَّلت قصة نبيِّ الله «موسى» الكليم مع الطاغية فرعون اللعين.

● وختمت السورة الكريمة بإثبات عقيدة التوحيد، والتهكم بمن عبدوا من دون الله ما لا يضر ولا ينفع، ولا يُبصر ولا يسمع، من أوثان وأصنام اتخذها المشركون آلهة وعبدوها من دون الله، وهو تعالى وحده الذي خلقهم ورزقهم، ويعلم متقلبهم ومثواهم، وهكذا ختَمت السورة الكريمة بالتوحيد كما بدأت بالتوحيد، فكانت الدعوة إلى الإيمان بالخالق المعبود في البدء والختام.

«القرآن المعجزة الكبرى»

تعرضت السورة الكريمة في مطلعها إلى الحديث عن «المعجزة الخالدة». معجزة محمد عليه السلام، التي ختم الله بها الرسالات السماوية[1]، كما ختم بمحمد عليه الصلاة والسلام الوحي والنبوة، فكان خاتم الأنبياء والمرسلين وكان ختام مِسْكٍ، وأمَرْتُه أن يبلِّغ الدعوةَ، ويؤدِّيَ الأمانةَ على الوجه الكاملِ، دون أن يَضِيق ذَرْعاً بتبليغ رسالة الله، مهما ناله من المتاعب والمصاعب، فحسبُه أنه منقذٌ للإنسانية من ضلالات أهل الجاهلية ﴿ الٓمٓصٓ. كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ـ أي لا يضقْ صدرك من تبليغ آياته خوفاً من أذى الفجار ـ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ثم أمر تعالى الناس جميعاً، بالتمسك بما أنزله إليهم من الهدى

(١) القرآن أعظم معجزاته عليه الصلاة والسلام، وأما معجزاته فكثيرةٌ لا حصر لها: منها نبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وتكليم الجماد له، وتسبيح الحصى بين يديه، وانشقاق القمر... إلخ وكما قال القائل:

ومعجزاته كثيرةٌ غُرَر   منها كلام الله معجز البشر

والضياء، ربُّ العزة جلَّ وعلا، فإن هذا القرآن هو المنقذ لهم من ضلالات الشرك وظلمات العصيان ﴿ اتَّبِعُوْا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِنْ رَبِّكُمْ، وَلاَ تَتَّبِعُوْا مِنْ دُوْنِهِ أولياءَ، قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُوْن ﴾.

«هلاك الأمم الطاغية»

وقد ضربَ الله الأمثال للنَّاس، بما حلَّ بالأمم الكافرة الطاغية من الهلاك والدمار، حين كذَّبت رسلَ الله، واستغاثتِهِمْ حين شاهدوا العذاب، ولكنْ هيهاتَ أن ينفع الندم، حين ينزل بهم بأسُ الله ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتَاً أَوْ هُمْ قَائِلُوْنَ. فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَنْ قَالُوْا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ومعنى الآيات الكريمة: أي وكثيرٌ من الأمم الطاغية المكذبين لرسل الله، أهلكناهم بعذاب الاستئصال عقوبةً ونكالاً، فجاءهم عذابنا ليلاً أو وسط النهار أي وقت القيلولة[1] فما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين شاهدوا العذاب، إلا اعترافهم بظلمهم وإجرامهم، تحسراً وندامةً، ولكنْ بعد فوات الأوان، حين لا ينفع توبةٌ ولا ندم.

وإنما خصَّ تعالى مجيء البأس بهذين الوقتين: «في الليل» أو «في الظهيرة» لأنهما وقتان للسكون والرَّاحة، فمجيء العذاب فيهما أشقُّ وأفظع، لأنه يكون على حين غفلةٍ من المُهْلَكِين.

«سؤال الرسل والأمم»

وبعد هذا العذاب العاجل في الدنيا، سيأتي السؤال والجواب في الآخرة، لأولئك الكفرة المعاندين، عما ارتكبوه من جرائم في حقِّ

(١) القيلولة: هي النوم في منتصف النهار، والقائلةُ: الظَّهيرةُ، وفي الحديث الشريف «قِيلُوا فإنَّ الشَّيَاطِينَ لاَ تَقِيلُ» أخرجه الطبراني وأبو نعيم.

الرسل، وحقِّ الإنسانية، ليستمرَّ عذابهم في الآخرة بعد أن ذاقوا عذاب الدنيا، كما سيسأل الله الرسلَ الكرام أنفسَهم هل بلَّغوا دعوة الله؟ لتقوم الحجة على أولئك الفجرة المُكذبين ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ - أي لنسألنَّ الأمم - وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي ولنسألنَّ الرسل هل بلَّغوا الرسالة؟ قال تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ أي فلنخبرنهم بما فعلوا في هذه الحياة الدنيا، عن علم ومعرفة منا بما حدث منهم وجرى، وما كنا غائبين عنهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم.

فإن قيل: ما الفائدة في سؤال الرسل، مع العلم أنه لم يصدر منهم تقصير مطلقاً؟.

فالجواب: أن المقصود من هذا السؤال «التقريعُ والتوبيخُ» للكفار، ليظهر براءة الرسل من التقصير في تبليغ الدعوة، ولتنقطع معاذيرُ الكافرين، وليتضاعف إكرام الله تعالى في حق الرسل الأطهار، لظهور براءتهم من الإخلال بواجب الدعوة، وليتضاعف أسباب الخزي والإهانة في حق المعاندين المكذبين.

«وزن الأعمال يوم القيامة»

وإذا كانت عدالة الله تقتضي ألَّا يُظلم أحدٌ، لأنه سبحانه منزَّه عن الظلمِ والجورِ، فلا بدَّ إذاً من الحساب والجزاء، لينالَ المحسن فيه جزاء إحسانه، والمسيء جزاء إساءته، ولهذا جاءت الآيات بعده تُقَرِّر العدالة الإلٓهية بوضع ميزان الأعمال يوم القيامة ﴿ والْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوْا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوْا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُوْنَ ﴾.

«كيف تُوزن الأعمال»؟

ولعل سائلاً يسأل: كيف توزن الأعمال وهي أعراض غير مجسَّمة؟ والجواب أن الوزن إنما يكون لصحائف أعمال العباد، التي سُجِّلت فيها أعمال بني آدم، فتوزن وزناً حقيقياً.

قال الإمام الشوكاني: وهذا هو الصحيح وهو الذي قامت عليه الأدلة، لحديث البطاقة(١) وقيل: تُوزن نفس الأعمال، فهي وإن كانت أعراضاً إلا أن الله يقلبها يوم القيامة أجساماً وقيل: يوزن صاحب العمل كما صحَّ عنه ﷺ أنه قال: «يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم السمين، فيوضع في الميزان، فلا يزن عند الله جناح بعوضة»، قال واقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾.

ونقول: لا غرابة في وزن الأعمال، ووزن الحسنات والسيئات بالذات، فإذا كان العلم الحديث قد كشف لنا في هذا العصر، عن موازينَ للحرارة، والبرودة، ولقياس ضغط الدم، وموازين لضغط الهواء، وموازين لاتجاه الرياح والأمطار، وموازين لقياس حرارة البدن، أفيعجز القادر على كل شيء، عن وضع موازين لأعمال البشر؟ بلى إنه على كل شيء قدير، فلا ينبغي أن يجادل المؤمن في مثل هذه الأمور، بل يسلّم إلى الحكيم الخبير.

---

(١) حديث البطاقة «إن الله سيُخلِّص رجلاً من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعةً وتسعين سِجِلّاً، كلُّ سجِلٍّ مدُّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمكَ كَتَبتي الحافظون؟.. وفيه: فتخرج بطاقة فيها «أشهد أن لا إله إلاالله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..» الحديث رواه الترمذي، والحاكم، والبيهقي، وأحمد في المسند.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، ورواه ابن أبي حاتم بلفظ «يُؤتى بالرجل الأكولِ، الشَّروبِ، العظيم، فيوزن بحبَّةٍ فلا يزنها، وقرأ ﷺ «فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً».

«عداوة إبليس لبني آدم»

ثم تنتقل السورة لتحدثنا عن قصة أب البشرية آدم عليه السلام، فقد حذَّر اللَّهُ جلَّتْ عظمتُه ذرية آدم من كيد عدوهم الأكبر «إبليس»، ونبَّههم إلى ضرورة الحذر منه، حيث نشأ على عداوتهم من قديم الزمن، فهو الذي أغرى أبانا «آدم» عليه السلام، بالأكل من الشجرة، حتى أوقعه في الزلَّةِ والمخالفة لأمر الله، وكان ذلك سبباً لخروجه من الجنة.

ولقد بدأت القصة في هذه السورة، بعرضٍ مسبق لبدء الخليقة، وتكريم الله لهذا النوع الإنساني، ممثَّلًا في أب البشرية «آدم» عليه السلام، الذي خَلَقه الله بيده، ونفخ فيه من روحِهِ، وأسجدَ له ملائكته.

والتكريمُ للأصل تكريمٌ للذرِّيةِ، والنعمةُ على الآباءِ نعمةٌ على الأبناء، وفي هذا يقول القرآن الكريم ممتناً علينا بنعمة الخلق والإيجاد، والتكريم والإسجاد ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ[1]، ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوْا لِآدَمَ، فَسَجَدُوْا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

ولقد ذكر تعالى قصة آدم مع إبليس، في سبعة مواضع من القرآن الكريم: في «البقرة، والأعراف، والإسراء، والكهف، وفي سورة طه، وفي سورة صَ». والغرض من هذا التكرير، تنبيهنا نحن البشر من هذا العَدُوِّ الماكر، الذي قعد لنا بالمرصاد، ليغوينا ويصدَّنا عن صراط الله، الموصل إلى جنات النعيم.

«إبليس من الجن وليس من الملائكة»

وقد ذكرنا في سورة البقرة، أن «إبليس» عليه اللعنة لم يكن من

---

(١) أي خلقنا أصلكم ـ أباكم آدم ـ طيناً غير مصوَّر، ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم، وإنما ذُكر بلفظ الجمع ﴿ خلقناكم ثم صورناكم ﴾ تعظيماً له لأنه أبو البشر، =

الملائكة، وإنما كان مع الملائكة وفي صفّهم، حين أُمروا بالسجود لآدم، وقد توجّه له أمر خاصٌ من ربّ العزة جلّ وعلا، بأن يسجد لآدم مع الساجدين وإن لم يكن منهم، وهذا ما نبهتنا إليه الآية الكريمة ﴿قَالَ مَامَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فلا حاجة إلى ما زعمه البعضُ، بأن إبليس كان من الملائكة، وإلاّ لما كُلِّف بالسجود لآدم، بدليل الاستثناء في الآية، الخ والجواب أَنَّ الاستثناء هنا منقطع ﴿فَسَجَدُوْا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ وهذا كثير في اللغة العربية، وله شواهد يضيق عن ذكرها المقام، ويكفينا قول الله الكبير المتعال، عن الملائكة الأطهار: ﴿لَا يَعْصُوْنَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُوْنَ مَا يُؤْمَرُوْنَ﴾ فلو كان إبليس من الملائكة لما عصى أمر الله تعالى، وقد قال الإمام الحسن البصري - إمام المفسرين من التابعين - «لم يكن إبليسُ من الملائكة طرفةَ عين»[1].

«استكبار إبليس عن السجود»

ولننظر بإمعانٍ إلى جواب الشقي «إبليس» اللعين، حين أمره ربه بالسجود لآدم، ماذا كان جوابه؟ وكيف ردَّ على ربه؟ ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ظنَّ الغبيُّ الشقي أن «النار» أفضل من الطين، فلذلك امتنع عن تنفيذ أمر الله، ونظر إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف والتعظيم، الذي خصَّ الله به آدم، حيث خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وخصَّه بعلم الأسماء، الذي عجزت عنه الملائكة، وما درى اللعين أن عصيان أمر الله لا يحدث من عاقل، وأنه

= وصيغة الجمع تكون أحياناً بقصد التعظيم كما تقول لشخص تخاطبه: السلام عليكم، وهو واحد.

(١) انظر الأدلة الخمسة على أن إبليس من الجن، في الجزء الأول من كتابنا هذا «قبس من نور القرآن الكريم» ص ٢٠ وكتابنا «النبوة والأنبياء» فقد فصَّلنا فيه الموضوع أحسن تفصيل.

منتهى السَّفه والحماقة، إذ لو كان عاقلًا لسارع إلى امتثال أمر الله، كما فعلت الملائكة الأطهار، وقد بيَّن تعالى لنا في هذه السورة، أنه عَامَل إبليس اللعين بنقيض قصده، حيث كان قصْدُه التعاظم والتكبُّر، فأخرجه الله صاغراً حقيراً ذليلاً، متصفاً بنقيض ما كان يحاوله من العلوّ والعظمة ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُوْنُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّـرَ فِيهَا فَـاخْرُجْ إِنَّـكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾.

«حسدٌ وكبرٌ من الشيطان»

وفي هذا درسٌ لنا وتعليم من الملِكِ العليم، أنَّ من أظهـر الاستكبار، ألبسه الله الذُلَّ والصَّغارَ، ومن تواضع للَّهِ رفعه، ومن تكبَّر على الله وضعه، ولله درُّ القائل حيث يقول:

تَوَاضَعْ تكنْ كالبَدْرِ تُبْصِرُ وَجْهَهُ ... عَلى صَفَحَاتِ المَاءِ وهُوَ رفيعُ
ولا تَكُ كَالدُّخَانِ يَعْلُو بنَفْسِهِ ... إلى طَبَقَاتِ الجَوِّ وهوَ وضِيعُ

ثم تتابعت الآيات توضِّح للناس، أن اللعين إبليس لما طُرد من رحمة الله، بسبب امتناعه عن السجود لآدم، وتكبُّره عن تنفيذ أمر ربه، زاده ذلك حسداً وبغضاً لآدم وذريته، فأقسم بجلال الله وعظمته، على أن يُطغي أهل الأرض جميعاً، ويُبعدهم عن ربهم، لأنه خسر وشقي بسببهم ﴿ قَالَ فِبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ ﴾ أي بسبب إغوائك وإضلالك لي، لأقعدنّ لآدم وذريته على طريق الحقّ، وسبيل النجاة الموصل للجنة، كما يقعد قُطَّاع الطريق على معابر التجـار والمسافرين ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شمـائِلِهِمْ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِـرِينَ ﴾ أي آتيهم من جميع الجهات لأصدَّهم عن سبيلك ودينك، وقد جاءه الجواب صريحاً بيِّناً مقطوعاً ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً، لَمَنْ تَبِعَكَ مِنهُمْ لَأَمْلأَنَّ

جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

اللَّهُمَّ اجعلنا من حزبك وجندك، ولا تجعلنا من أنصار إبليس اللعين، ونجِّنا من وسوسته وشره يا ربَّ العالمين. !

«تحذيرٌ لآدم من كيد إبليس»

وبعد أن أفاضت الآيات في ذكر مكر إبليس وكيده وحسده لآدم وتكبره عن السجود له، وتربصه بالبشر لفتنتهم وإغوائهم، وما تبع ذلك من لعنة الله له، وطرده من الجنة، جاءت الآيات هنا لتحذّر «آدم وحواء» من ذلك العدُوِّ الماكر، الذي لا يُثنيه عن تنفيذ مخططاته وعظٌ ولا إرشادٌ، ولا أمرٌ ولا نهيٌ، فهو الذي قَعَد على طريق الخير، ليصدَّ الناس عن طاعة الله، وهو الذي شقي بسبب آدم، فكيف لا يكيد له المكايد ليوقعه في المهالك؟ وقد أباح الله لآدم وزوجته حواء، الاستمتاع بكل ما في الجنة من فواكه وثمار، بعد أن طُرِد منها إبليس، إلا شجرةً واحدةً، مَنَعه تعالى عن الأكل منها، ابتلاءً وامتحاناً، ولم يذكر القرآن الكريم اسم هذه الشجرة، لأن الغرض من ذكر القصة هي «العظةُ» و«العبرةُ» لا مجرَّدُ سردِ الأخبار، ولهذا أغفل ذكرها القرآن، ومع هذا التحذير فلم ينج آدم وحواء من كيد الشيطان، فقد حسدهما على بقائهما في الجنة بجوار الرحمن، وسعى لهما في الوسوسة والمكر والخديعة، وفي ذلك يقول رَبُّنا تقدَّستْ أسماؤه: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ، فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُوْنَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا ﴾ أي ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات التي يقبح كشفها ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُوْنَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُوْنَا مِنَ الخَالِدِينَ ﴾.

«خداع إبليس لآدم وحواء»

ولم يكتف اللعين بذلك، حتى حلف لهما بجلال الله وعظمته، أنه لا يريد لهما إلا الخير والنصيحة، وأنهما إذا أكلا من الشجرة خُلِّدا في جنة النعيم، وصارا مثل الملائكة المُقَرَّبين ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾.

وهذه أول مكايد إبليس لأبينا آدم، وأول خديعةٍ خُدِع بها آدم وحواء، وفي ذلك عظةٌ وعبرةٌ للبشر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «غرَّهما باليمين، وكان آدم يظنُّ أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، فغَرَّهما بوسوسته»(١) وقد يُخدع المؤمن بالله، لطيب قلبه، وسلامة نيّته، روي أن ابن عمر رضي الله عنهما كان إذا رأى من بعض عبيده طاعةً وصلاحاً، وحسن صلاةٍ وعبادة، أعتقه لوجه الله، فكان عبيده يفعلون ذلك طلباً للعتقِ، فقيل له: إنهم يخدعونك، فقال: «من خَدَعنا بالله انخدعنا له»(٢).

إنَّ الكريمَ إذَا تَشَاءُ خَدَعْتَهُ وتَرى اللَّئِيمَ مُجَرَّباً لا يُخدَعُ

وهكذا كان الأمر بالنسبة لآدم عليه السلام، خُدع بقسم إبليس فظنَّ منه الصِّدق في اليمين، ودفعه حبُّ الخلود في الجنان، وفي ذلك النعيم، إلى الأكل من الشجرة، قال تعالى: ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ أي فلما أكلا من الشجرة ظهرت لهما عوراتهما، فجعلا يقطعان من ورق الجنة، ويلصقانه على عوراتهما ليستترا به، بعد أن كانت كسوتهما من حُلَل الجنة ﴿ وَنَادَاهُمَا

(١) انظر تفسير الطبري وتفسير الحافظ ابن كثير، وكتابنا «صفوة التفاسير» ١/٤٣٩.
(٢) انظر تفسير «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» للنيسابوري.

رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ، وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾؟.

وهذا درسٌ آخر من كيد إبليس ومكره، ذكره لنا القرآن لنحذر من شرّه وخبثه، والعاقل من اتّعظ بغيره.

«ندمٌ وتوبةٌ واعترافٌ بالذنب»

هناك شَعَر آدم وحواء بالخطيئة والزلّة، فندما على ما حدث منهما، وتابا وأنابا إلى الله ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾.

وهذا درسٌ ثالث لذرية آدم، ألاّ يقنطوا من رحمة الله، إن وقعت منهم معصية، أو ظلم وعدوان، فإن الله يغفر الذنب ويقبل التَّوْب، وعلى العبد أن يتوب إلى ربه، اقتداءً بأبي البشر «آدم وحواء» فقد أرشدهما الله إلى طريق التخلص من الذنوب والأوزار، كما قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وقد اتفق المفسرون على أن الكلمات التي أوحاها الله إلى آدم، هي هذه الدعوات والكلمات التي ذُكرت في هذه السورة، سورة الأعراف، وهي ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾.

«مخاطبة الله لآدم»

رُوي في بعض الآثار أن آدم لما أكل من الشجرة قال له ربه: يا آدمُ ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحةٌ عن هذه الشجرة؟ فقال: بلى وعزتك يا رب!! ولكنْ ما ظننتُ أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً؟! فقال له ربه: «فوعِزَّتي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال

العيش فيها إلاَّ كَـدًّا» أي بتعب ومشقة[1] فذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطُوْا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ، وَفِيهَا تَمُوْتُوْنَ، وَمِنْهَا تُخْرَجُوْنَ ﴾ وهذه الآية تدل على أن سبب التعب والشقاء، الذي يناله الإنسان، إنما هو العصيان، وطاعة الشيطان، وقد حذَّرنا الله من مكره في آيات عديدة منها قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوْهُ عَدُوّاً، إِنَّمَا يَدْعُوْ حِزْبَهُ لِيَكُوْنُوْا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[2].

«لباسُ التقوى خير لباسٍ»

وبعد أن ذكر تعالى في الآيات السابقة، المسالك التي سلكها الشيطان في إغواء أبينا آدم وزوجه حواء، حتَّى أكلا من الشجرة، وأُخرجا من الجنة وبدت منهما العورات، ذكر تعالى ما امتنَّ به على ذرية آدم، من الرياشِ واللباس، والمتاع، ممَّا يتزيَّنون بـه ويسترون عوراتهم، ولم يـتركْهُم كالبهائم السارحة، لا شيء يزيّنها أو يخفي عوراتها وقبائحها، بل أكرمهم بأنواع اللباس الذي خلقه لهم، وعلَّمهم صنعه فقال سبحانه: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِيْ سَوْآتِكُمْ وَرِيشَاً، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ ﴾ والمعنى قد خلقنا لكم يا أبناء آدم لباسين: لباساً يستر عوراتكم التي أظهرها إبليس من أبويكم، ولباساً يزيّنكم ويُجَمِّلكم، ويُضفي عليكم حلل البهاء والجمال، وهو الذي عبَّر عنه القرآنُ بالريش، وهو لباسُ الزينة، الذي يتجمل به الإنسان، مستعارٌ من ريش الطاووس الذي هو زينته

(١) انظر تفسير النيسابوري وتفسير ابن جرير، وتفسير الحافظ ابن كثير ٢/١١ من المختصر.

(٢) سورة فاطر آية رقم /٥/.

ولباسه، ثم نبَّه تعالى إلى ما هو أسمى وأكمل من اللباس الظاهر، الذي يستر العورات، ألا وهو «لباسُ التقوى» لباسُ الورع واتقاء معاصي الله، فذلك خيرُ لباس وأجملُ زينة ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ فلا خير في الإنسان إذا لم يكن متسربلاً بالتقوى والخشية من الله، فطهارة الباطن أهم من جمال الظاهر، والتحلي بالفضائل والأخلاق، خيرٌ من التحلي بالملابس، والثياب، والحُلَلِ الزَّاهية، وقد أحسن القائل حين قال:

إِذَا المرءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِياباً مِنَ التُّقَى ... تَقَلَّبَ «عُرْيَاناً» وَإِنْ كَانَ كاسِياً

وخَيْرُ لِبَاسِ المَرْءِ «طَاعَةُ رَبِّهِ» ... وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ لِلَّهِ عَاصِياً

«تكرير النداء لبني آدم»

ثم كرَّر تعالى النداء لبني آدم، تحذيراً لهم من مكائد ووساوس الشيطان، لئلا يُخدعوا به ويغتروا بنصائحه، فهو عدوٌّ باطن، يتقمَّص ثوب الصَّديق، وثعلبٌ مكَّار يتظاهر بالوفاء، والنصيحة والإخاء، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِمَا، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فقد وضَّحت هذه الآية الكريمة، أن الشيطان أخطر عدو للإنسان، يزيّن له القبيح والسوء، ويغويه بالشر والفساد، بطريق الوسوسة والإيحاء، يَرَى بني آدم من حيثُ لا يرونه، ومن كان بهذه المثابة كان عظيمَ الكيد، وكان جديراً بأن يُحترس منه أبلغ احتراس، ومعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ أي يراكم هو وجنوده وأعوانه وأنصاره، من حيث لا ترونه أنتم، فهو لكم بالمرصاد، فاحذروا كيده ومكره.

«هدفٌ خبيثٌ من وراء كشف العورات»

ولنقف قليلاً عند هذه الآية عند قوله تعالى: ﴿ يَنْـزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾ ولْنتمعَّنْ فيها لنرى هدف «إبليس» اللعين من وراء كشف العورات، فإنه هدفٌ واضِـحٌ جليٌّ، يجري وراءه بكل ما أوتي من قوة، إنه يريد أن يُعَرِّينا من الملابس، ليهتك عنا ستر الحياء، ويوقعنا في الفحشاء، وقد سمَّى العرب العورة «سَـوْأة» لأن العاقل يسوءه كشفها، فهو عملٌ مزرٍ مخلٌّ بالمروءة والشرف، فمن دعا إلى التعري، ـ وبخاصةٍ تعرِّي النساء ـ وشجَّع على ذلك، كما هو حال من يزعم التقدمية في زماننا، من بعض دعاة السوء، يدعون المرأة المسلمة إلى نزع الحجاب، وإلى التكشف والتعري، بدعوى الحرية والمساواة بين الجنسين، فإنما هو عدوٌّ للمرأة، ومن أعوان وأنصار الشيطان، لأن الهدف واحد، وهي دعوة سافرةٌ مكشوفة، غايتها التفسخُ والانحلالُ الخلقي، الذي يهدم الأسر والبيوت، ويُلحق الإنسان بالحيوان، فالحيوان خُلِقَ عارياً وبقي عارياً، وقد كرَّم الله الإنسان باللباس، الذي هو سترٌ لعورة الرجل والمرأة، وإخفاء لقبائح الجسد، وليست «التقدمية» بالتكشف، والتعري، والتشبه بالحيوان الذي لا يسترُ جَسَدَه شيء، ولكنها بصيانة الشرف والعفاف، ولله در القائل حيث يقول:

يَا ابْنَتي إنْ أردْتِ آيَةَ حُسْنٍ ... وجَمَالاً يَزِينُ جِسْمَاً وعَقْلا

فانبذي عادة «التَبرُّجِ» نبـذاً ... فَجمالُ «النُّفُوسِ» أسْمَى وأعْلَى

يَصْنَعُ الصَّانِعُونَ وَرْدَاً وَلَكِنْ ... وردة «الرَّوْضِ» لاتُضَارَعُ شَكْلا

وصدق الله العظيم ﴿ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾ هذا هو هدف الشيطان، وأعوانِ الشيطان، من دُعاةِ التحرُّر والإباحيَّة.

«طواف المشركين حول البيت عراة»

وبمناسبة ذكر السوءات والعورات، فقد جاءت الآيات، تذكر لنا بعض الأخبار العجيبة، التي كان عليها أجدادنا العرب، والتي دخل عليهم بها الشيطان، بطريق الوسوسة والتزيين لقبيح الأفعال، فقد جاءهم إبليس اللعين، بصفة الناصح الأمين، وَجَدَهم يطوفون حول البيت العتيق، بملابسهم التي اعتادوها، فأراد أن يُفسد عليهم عبادتهم وطوافهم، فقال لهم: كيف تطوفون في ثيابٍ عصيتم فيها ربكم؟ اخلعوا هذه الثياب وطوفوا لربكم عُرَاةً، لتكون عبادتكم أقربَ إلى القبول، فاستجابوا لنصحه وإرشاده، فخلعوا عن أجسامهم الثياب، فكان الرجال يطوفون بالنهار عُرَاةً، كما ولدتهم أمهاتهم، ينظر بعضهم إلى عورة بعض، والنساء يطفن بالليل عَرَايا، لا يستر أجسادَهنَّ شيءٌ، وتضع الواحدة يديها على فرجها وتقول:

اليَـوْمَ يَبْدُوْ بَعْضُـهُ أَوْ كُلُّهُ   فَمَـا بَـدَا مِنْـهُ فَـلاَ أُحِلُّهُ

وقد قصَّ علينا القرآن الكريم هذا الخبر المدهش العجيب، وكيف تلاعب الشيطان بعقول أجدادنا، باسم العبادة والدِّين، فقال عزّ شأنه: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوْا فَاحِشَةً قَالُوْا وَجَدْنا عَلَيْهَا آبَاءَنَا، واللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا، قُلْ إنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، أَتَقُوْلُوْنَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُوْنَ ﴾؟.

وقد اتفق المفسرون على أن المراد بالفاحشة في الآيـة هي الطواف حول البيت عراة، قال ابن عباس فيما رواه عنه مسلم والنسائي «كانت المـرأةُ تطوف بالبيت وهي عُرْيانة فتقول: من يُعيرني تَطْوافاً ـ أي شيئاً من الثياب ـ تجعله على فرجها وتقول:

اليَـوْمَ يَبْـدُو بَعْضُـهُ أَوْ كُلُّهُ   فَمَـا بَدَا مِنْـهُ فَلاَ أُحِلُّه»[1]

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، والنسائي في سننه، وانظر صفوة التفاسير ١/٤٤٣.

«حجة المشركين الفاسدة»

احتج المشركون على ذلك الفعل القبيح بأمرين: **أولهما**: التقليدُ للآباء، **والثاني**: الافتراء على الله عزّ وجلّ، في أنه أمرهم بخلع الثياب والتجرد منها عند إرادة الطواف ﴿ قَالُوْا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا، واللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ وقد ردَّ الله عليهم هذا الافتراء والبهتان بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُوْلُوْنَ عَلَى اللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُوْنَ ﴾؟.

أي هذا محضُ كذبٍ وافتراء على الله عزّ وجلّ، فإن الله منزَّهٌ عن النقص، لا يأمر عباده بقبائح الأفعال، فكيف تكذبون عليه، وتنسبون إليه القبيح، دون علم قاطع أو نظر ساطع؟

وهكذا زَيَّن لهم الشيطان أعمالهم، فصدَّهم عن السبيل فهم لا يهتدون!. نسأله تعالى أن يجنبنا مزالق الشيطان ووساوسه، وأن يحفظنا من مكره وكيده، ويصرف عنا السوء والفحشاء.

«أخذ الزينة عند كل صلاة»

وبعد أن ذكر تعالى قصة آدم عليه السلام، وما وسوس له به الشيطان، وذكر ما امتنَّ به على بنيه، وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يستر العورات، ويُخفي القبائح...

أمر سبحانه بعد ذلك بأخذ الزينة والتجمل في المناسبات، وفي الأعياد والجماعات، فقال عزّ شأنه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوْا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلاَ تُسْرِفُوْا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾.

والمراد بالمسجد في الآية ﴿ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ أي عند كل صلاةٍ أو طواف، أطلق المكان تعظيماً له، لأن المسجد مكان أداء الصلاة، والمسجد الحرام «مكانُ الطَّوافِ» حول البيت العتيق، وقد كانوا في

الجاهلية يخلعون ملابسهم حين يريدون الطواف، ويقولون: لا نطوف بثياب عصينا فيها الله، فأمرهم تعالى بأخذ الزينة عند إرادتهم للصلاة أو الطواف، تعظيماً لشعائر الله.

قال طاووس: «لم يأمرهم بالحرير والديباج، وإنما أمرهم بستر العورات، ولبس ما يليق في حضرة الله، وكان أحدهم يطوف عرياناً ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وعليه ثياب، ضُرب وانتُزعت منه، لأنهم قالوا: لا نطوف في ثياب أذنبنا فيها»(١).

وقد أرشدت الآية الكريمةُ إلى أمرٍ آخر، ألا وهو ترك الإسراف في الطعام، والشراب، واللباس، وسائر الأمور فقال سبحانه: ﴿ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ولعمرُ الحق إن هذه الآية جمعت فأوعت، فقد دعت إلى الأخذ من لذائذ الحياة، من مأكلٍ، ومشرب، وملبس، وأمرت بالاعتدال في كل أمرٍ من الأمور، التي يحتاج إليها الإنسان، فالآية إذاً أصلٌ من أصول التربية السليمة، التي تتوقف عليها سلامة الإنسان، وسلامةُ الأبدان، كما أنها قاعدة من أهم القواعد الصحية التي ينصح بها الأطباء.

«قصة الطبيب النصراني»

يُحْكى أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال ذلك الطبيب لأحد علماء المسلمين: ليس في كتابكم من علم الطبّ شيءٌ، والعلمُ علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان!! فقال له الشيخ العالم: قد جمع الله الطِبَّ كلَّه في نصف آية من كتابه، قال: وما هي؟ قال قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾.

(١) انظر تفسير «جامع البيان» للإمام ابن جرير الطبري، وتفسير النيسابوري.

فقال النصراني: ولا يُؤثر عن رسولكم شيءٌ في الطب! فقال له العالم: قد جمع رسولنا الطبَّ في ألفاظ يسيرة، قال: وما هي؟ قال قوله ﷺ: «مَا مَلأ آدميٌّ وعاءً شراً من بطنه، بحسبِ ابنِ آدم لقيماتٌ يُقمن صُلْبَه، فإن كان لا محالة فاعلاً، فثُلُثٌ لطعامه، وثُلُث لشرابه، وثُلُثٌ لنَفَسه»(١) فقال النصراني: ما تَرَك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً.

«الإسلام دين الحياة»

والإسلام دينٌ واقعيٌّ، لم يُكلِّفِ النَّاسَ أن يترهبوا، أو أن ينقطعوا عن شهوات الحياة، بل دعا إلى إعطاء حقّ الجسد، كما دعا إلى إعطاء حق الروح، ووفَّق بين متطلبات الدنيا، ومتطلبات الآخرة، فأمرنا بأن نعمل لدنيانا وآخرتنا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ﴾ ودعانا إلا الاستمتاع بجميع أنواع الزينة، من الملابس، والمراكب، والحلي، وكل ما يستلذ ويستطاب، من المآكل والمشارب، والطيب والنساء، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّم زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوْا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ ﴾.

وقد نزلت الآية رداً على المتنطّعين، الذين أرادوا أن يترهَّبوا، وينقطعوا عن شهوات الحياة، فنزلت تقول لهم: من حـرَّم عليكم التجمل بالثياب التي خلقها الله لنفعكم؟ والمستلذات من المـآكل والمشارب؟ قل لهم يا محمد: إن هذه الزينة والطيبات إنما خلقها الله للمؤمنين ـ فهم وإن شاركهم فيها الكفار في الدنيا ـ فستكون خالصة لهم يوم

(١) أخرجه الترمذي في الزهد وقال: حديث حسن صحيح، ورواه ابن حبان وابن ماجه والحاكم، وقد ذكر هذه القصة القاسمي في تفسيره «محاسن التأويل» ٢٦٦٤.

القيامة، لا يشاركهم فيها أحد، لأن الله تعالى حرَّم الجنة على الكافرين.

«قصة سلمان وأبي الدرداء»

روي أن النبي ﷺ آخى بين «سلمان الفارسي» و«أبي الدرداء» فزار سلمان أخاه في الله أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مبتذلة ـ أي تلبس ثياب المهنة تاركة ثياب الزينة ـ فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك «أبو الدرداء» لا حاجة له في الدنيا، يصوم النهار ويقوم الليل، فجاء أبو الدرداء فلما رآه فرح به وصنع له طعاماً وقدَّمه بين يديه وقال له: كُلْ فإني صائم، فقال له سلمان: ما أنا بآكلٍ حتى تأكل، فأفطر وأكل معه، فلمَّا كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم الليل، فقال له سلمان: نم الآن، فنام، ثم ذهب ليقوم فيصلي الليل، فقال له: نم، فلما كان آخر الليل قال سلمان لأبي الدرداء: قُم الآن لنصلي، فصلَّيا جميعاً، فقال له سلمان: «إن لربك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقه» فأتى أبو الدرداء النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال عليه الصلاة والسلام: صدق سلمان»[(١)].

«الأمور التي حرَّمها الله تعالى على عباده»

وبعد هذا البيان الساطع الواضح، جاءت الآيات لتبين الأشياء المحرَّمة التي حرَّمها الله على عباده، وحصرها في خمسة أنواع وهي العدوان على «العفة، أو العقل، أو النفس، أو المال، أو الدِّين» فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، وذكره الإمام النووي في كتابه «رياض الصالحين» ص ٨٠ من حديث أبي جُحيفة وهب بن عبد الله رضي الله عنه.

سُلْطَاناً، وأَنْ تَقُوْلُوا عَلَى اللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُوْنَ ﴾ وهذه الأشياء هي التي تُسمَّى بالكليَّات الخمس، التي حرَّمتها جميع الأديان، فالجناية على الفروج حرام وقد أشار إليها بالفواحش، والجناية على العقل حرام، وقد ذكر منها شرب الخمر، وأشار إليها بالإثم، والجناية على النفوس والأموال والأعراض أشار إليها بالبغي، والجناية على الدين أشار إليها بالإشراك بالله بدون برهان، وهكذا جمعت هذه الآية الكريمة أصول المحرَّمات، التي حرَّمتها الشرائع السماوية، وفي مقدمتها شريعة الإسلام، حفاظاً على كرامة الإنسان.

«بعثة الرسل لهداية البشرية»

وبعد أن بيَّن تعالى القبائح والمنكرات التي حرَّمها على عباده، وبيَّن ما أحلَّه لهم من اللذائذ والطيبات، ذكر بعدها أن الناس أمام هداية الله، وتكليفه وتشريعه، فريقان: مهتدٍ، وضال، أو مؤمنٌ، وكافر، فمن استمسك بشرع الله، ودينه القويم، وقَبِل دعوة الرسل الكرام، فاستنار قلبه، واستضاء لُبُّه بنور الهداية والإيمان، فهو التقيُّ السعيد، الناجي من أهوال يوم القيامة، الذي لا يلقى فزعاً ولا هولاً، ولا يناله شدَّةٌ ولا كرب، لأنه أخذ بأسباب النجاة.. ومن أعرض عن هداية الله، ورفض دعوة الرسل الكرام، فهو الخاسر الشقي، الذي خسر سعادته، وعرَّض نفسه للعذاب والدمار، والخلود في دركات النار، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّوْنَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ أي إن يجئكم يا أبناء آدم رسلي، الذين أرسلتهم لهدايتكم، يبيّنون لكم الأحكام والشرائع، ويرشدونكم إلى طريق السعادة ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُوْنَ﴾ أي فمن اتقى ربه، وأصلح عمله، بفعل الطاعات وترك المحرمات، فلا خوف عليهم في الآخرة، ولا

هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوْا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُوْنَ﴾ وهكذا جعل الله الميزان في سعادة الإنسان وشقاوته، وفي فلاحه أو خسرانه، إنما هو اتباع الرسل الكرام، الذين بعثهم الله لهداية البشرية، فمن سلك طريقهم نجا، ومن أعرض عن اتباعهم والاهتداء بهديهم هلك، ويا له من خسران وشقاء!!

«طريق الأشقياء وخسارتهم»

ثم تتابعت الآيات في سورة الأعراف، توضّح طريق الأشقياء الذين تنكَّبوا عن السير في طريق الرشاد، وأمعنوا في الغيّ والضلال، يسيرون مع الأهواء والشهوات، ويعبدون ما لا يضرُّ ولا ينفع من أحجار وأشجار، ويزعمون أنهم شفعاء لهم يوم القيامة، حتى إذا جاء ذلك اليوم العصيب، ظهرت لهم الحقائق، وانكشفت عن أبصارهم الغشاوة، فعرفوا أنهم كانوا في سَفِه وضلال، وأيقنوا عند معاينة أهوال الموت وسكراته مغبَّة ذلك الإجرام، فتحسَّروا وندموا، ولكن هيهات أن ينفع ندمٌ أو توبة، لأنه قد فات الأوان، وذهب وقتُ الإيمان، وعن هؤلاء الأشقياء تتحدث الآيات الكريمة وفي ذلك يقول ربنا تقدَّستْ أسماؤه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الكِتَابِ﴾ أي يصيبهم حظُّهم ونصيبهم ممَّا قدَّر الله لهم، من الأرزاق، والأعمال، والآجال، وما كتب لهم من الشقاوة والسعادة، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ، قَالُوْا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ؟﴾ أي حتى إذا جاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم، قالوا لهم على سبيل التوبيخ والتبكيت: أين الآلهة التي كنتم تعبدونهم وتدعونهم عند الشدائد؟ أدعوهم ليخلِّصوكم من العذاب ﴿قَالُوْا ضَلُّوْا عَنَّا، وَشَهِدُوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوْا كَافِرِينَ﴾ أي قال الأشقياء المكذبون:

لقد غابوا عنا وذهبوا، ولم ننتفع بهم بشفاعةٍ أو وساطة، وأقرُّوا واعترفوا على أنفسهم بالكفر والضلال، وإنما قالوا ذلك على سبيل التحسّر والندم، قال تعالى مبيناً عاقبة أمرهم، ونهايتهم المشؤومة التي وصلوا إليها: ﴿قَالَ ادْخُلُوْا فِـي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ فِي النَّارِ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوْا فِيهَا جَمِيعَاً﴾ أي تلاحقوا واجتمعوا في النار جميعاً ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُوْلاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّوْنَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أي ضاعفْ لهم يا رب العذاب، فإنهم تسبَّبوا في كفرنا وضلالنا، وزيَّنوا لنا طاعة الشيطان ﴿وَقَالَتْ أُوْلاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ﴾ أي قال القادة والرؤساء للضعفاء الأتباع، الذين قلَّدوهم على العماية والضلالة ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ، فَذُوْقُوْا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُوْنَ﴾ وهكذا تنتهي المحاورة بين الرؤساء والأتباع، بخلود كلٍ في نار جهنم المتقدّة، وبمضاعفة العذاب لكل منهما ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لاَ تَعْلَمُوْنَ﴾.

«استحالة دخول الكفار الجنة»

ثم يأتي التعقيب المباشر، بتقنيط هؤلاء الفجار من دخولهم جنة النعيم، وخروجهم من دركات الجحيم، وبأسلوب التمثيل الرائع، الذي يأخذ بالألباب في جماله، وحسنه، وروعة تصويره، يؤكد القرآن الكريم استحالة دخول هؤلاء الأشقياء جنة الخلد، كما يستحيل - في العقل - دخول الجمل الكبير في ثقب الإبرة الصغير، فيقول الله تقدَّستْ أسماؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوْا عَنْهَا، لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَلاَ يَدْخُلُوْنَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُجْرِمِينَ. لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

«أهل السعادة في جنان الخلد»

وفي مقابلة هؤلاء الأشقياء المجرمين، يأتي االحديث عن الأتقياء المؤمنين، فيقول الله تقدَّستْ أسماؤه ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسَاً إِلَّا وُسْعَهَا، أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُوْنَ. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُوْرِهِمْ مِنْ غِلٍّ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ، وَقَالُوْا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ، وَنُوْدُوْا أَنْ تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُوْرِثْتُمُوْهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ ﴾.

وهكذا تكون المفارقة الكبيرة، بين مصير أهل الشقاوة، وأهل السعادة، وبين الأبرار والفجار، على عادة القرآن الكريم في المقارنة بين المؤمنين والكافرين، والمتقين والمجرمين، بطريق الترغيب والترهيب.

«المناظرة بين أهل الجنة والنار»

وبعد أن تناولت الآيات الحديث عن مآل الأشقياء الفجار، ومصير المتقين الأبرار، جاءت الآيات بعدها لتتحدث عن المناظرات التي تدور بين الفريقين: فريق أهل الهدى، وفريق أهل الضلال، وذلك بعد أن استقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وإنه لمشهدٌ من مشاهد يوم القيامة، يتحدث عنه القرآن بأسلوبه المعجز، وبيانه المنير.. مَشْهدٌ سوف يشهده العالم، يوم البعث والجزاء على الحقيقة، دون تمثيل ولا تخييل، يتجلَّى فيه ما يكون من شماتة أهل الحق، بالمبطلين من أصحاب النار، وينطلق صوتٌ عُلْويٌّ قدسيٌّ، ليسجِّل على الكفار الخزيَ واللعنةَ والدَّمار ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقَّاً، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقَّاً؟ قَالُوْا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي نادى منادٍ، وأعلن معلن بين الفريقين ﴿أَنْ لَعْنَةُ

الله عَلَى الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ يَصُدُّوْنَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَبْغُوْنَهَا عِوَجاً، وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُوْنَ ﴾.

وهذا النداء إنما يكون بعد انتهاء الحساب، واستقرار أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وإنما عبَّر عنه بصيغة الماضي ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ لتحقق وقوعه، لأن المستقبل الذي يخبر عنه الربُّ جلَّ وعلا، كائنٌ لا محالة، فهو حقٌّ ويقين لا يتخلف، فهو من حيث الوقوعُ كالماضي، الذي حدث وأخبر عنه الإنسان، كما قال تعالى عن القيامة ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوْهُ ﴾ فهو خبر عن الماضي يراد به المستقبل، فإنَّ ما وعد به الرحمن، حقٌّ لا شك في حصوله ووقوعه.

«من هم أهل الأعراف؟»

ثم تتابعت الآيات الكريمة، تصوِّر لنا تلك المحاورة والمناظرة، التي تكون بين أهل الجنة وأهل النار، وكأننا نعيشها ونلمسها، وقد ضُرب بين الفريقين بسور شاهق ضخم، يمنع وصول أحد الفريقين إلى الآخر، على أعالي هذا السور رجال قد وقفوا عليه، يعرفون كلاً من أهل الجنة وأهل النار بعلامتهم، التي ميَّزهم الله بها، أما أهل الجنة فوجوههم بيضاء ناضرة، ضاحكة مستبشرة، وأما أهلُ النَّار فيعرفونهم بسواد وجوههم، وزرقة عيونهم ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُوْنَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ، لَمْ يَدْخُلُوْهَا وَهُمْ يَطْمَعُوْنَ ﴾ أي لم يدخل أصحاب الأعراف الجنة بعد، وهم يطمعون في دخولها ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ، قَالُوْا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

أما أصحاب الأعراف فهم قوم مؤمنون، ولكنهم مقصِّرون في

الأعمال الصالحة، قد استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم يكونـوا من السابقين لدخول الجنة، ولا من المستحقين لدخول جهنم، فيُحْبَسون هناك على السُّور، المطلّ على أهل الجنة وأهل النار، حتى يقضي الله فيهم بقضائه العادل، فإذا نظروا إلى أهل الجنة فرحوا واستبشروا فسلَّموا عليهم، وإذا نظروا إلى أهل النار فزعوا واضطربوا، ودعوا ربهم ألا يجعلهم منهم، ولا يدخلهم في عدادهم، وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ دليل على أن أكثر أحوالهم النظرُ إلى أهل الجنة، وإنما ينظرون إلى أهل النار للعظة والاعتبار، فهم لا يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم، وإنما تُصرف وجوههم في بعض الأحيان دون إرادتهم، ويُحْملون على النظر إلى أهل النار حملاً، فإذا رأوا ما هم عليه من العذاب والشقاء، استغاثوا بربهم واستجاروا من أن يجعلهم معهم، ثم تكون نتيجتهم أن الله يكرمهم بدخول الجنة دار النعيم، ويلحقهم بالسابقين الأولين.

«بين أصحاب الأعراف وأهل النار»

وتمضي الآيات تتم لنا سرد أخبار تلك المحاورة والمناظرة، التي تكون بين أصحاب الأعراف وأهل النار، وهم فزعون مشفقون من أن تكون نهايتهم مشؤومة، كنهاية أولئك الفجار، وفجأةً يبصر أهل الأعراف رجالاً من أكابر الأشقياء، كانوا في الدنيا عظماء، من ذوي الغنى والثراء، ومن أصحاب الجاه والسلطان، يعرفهم أصحاب الأعراف بعلامتهم، فينادونهم نداء شماتةٍ وتوبيخ، وتجري بينهم المحاورة الآتية كما نصَّ بها علينا القرآن ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُوْنَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوْا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُوْنَ ﴾ أي ما الذي نفعكم جمعكم للمـال، واستكباركم عن الإيمـان؟ وأي فائـدةٍ جنيتمـوهـا من وراء

إعراضكم عن الحق، واستهزائكم بالناس؟ ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ؟ أُدْخُلُوْا الجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُوْنَ﴾ أي يقولون لأولئك المجرمين: أهؤلاء المؤمنون الضعفاء، الذين كنتم في الدنيا تسخرون منهم، وتحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة، وتأنفون من مشاركتهم في الدِّين، لقلة حظوظهم من الدنيا؟ ثم يقولون للمؤمنين: أُدْخُلوا الجنة رغم أنوف الكافرين! وكأنهم بهذا الكلام يريدون إغاظة الكفار والشماتة بهم، جزاء سخريتهم واستهزائهم بهم في الدنيا.

وتختم الآياتُ الكريمة في هذا الموطن المهيب، تلك المناظرات، بما يقطِّع الفؤاد حزناً وألماً، حيث يستغيث أهل النار بقراباتهم من أهل الجنة، يطلبون منهم أن يغيثوهم بشيء قليل من الماء، ليسكِّنوا به حرارة النار والعطش، ولكنْ يأتيهم الجواب الذي يقطع أملهم بالخيبة والحرمان ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوْا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي أغيثونا بشيء من الماء أو غيره من الأشربة، فقد قتلنا العطش ﴿قَالُوْا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ. الَّذِينَ اتَّخَذُوْا دِينَهُمْ لَهْوَاً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا، فالَيَوْمَ نَنْسَاهُمْ(١) كَمَا نَسُوْا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا، وَمَا كَانُوْا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُوْنَ﴾ قال ابن عباس: لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة، طمع أهل النار بفرجٍ بعد اليأس، فقالوا: ربَّنا إن لَنَا أقرباء من أهل الجنة، فَأْذَنْ لنا أن نراهم ونكلمهم، فأمر الله الجنة فزخرفت، ثم نظر أهل النار إلى أقربائهم في الجنة، وما هم فيه من البهجة والنعيم فعرفوهم، فنادوهم

(١) النسيان من صفات النقص، وهو مستحيلٌ على الله عزّ وجلّ، فكيف قال سبحانه «فَالَيْوْمَ نَنْسَاهُمْ»؟ والجواب أن المراد بالنسيان هنا: الترك أي نتركهم في النار، ونعاملهم معاملة من نُسي وأُهمل شأنه، مثل نسيانهم لقاء الله، وهذا خلاصة قول مجاهد وابن عباس والسدي، وانظر مختصر ابن كثير ٢/ ٢٤ وصفوة التفاسير ١/ ٤٤٨.

أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيقول الله لهم: أجيبوهم «قَالُوْا إِنَّ اللَهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ».

«الكتب السماوية لهداية الإنسانية»

وبعد أن ذكر تعالى تلك المناظرات، التي تكون بين أهل الجنة وأهل النار، وما ينتهي إليه حالهم وجدالهم، حيث يستقر المؤمنون في جنات الخلد والنعيم، ويستقر الكافرون في دركات السَّعير والجحيم، عقَّب القرآن الكريم بهذا البيان الشافي، فقد أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، لهداية البشرية، فلم يعد لأحدٍ من الخلق حجة أو عذر ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ، هُدَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ. هَلْ يَنْظُرونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ؟ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُوْلُ الَّذِينَ نَسُوْهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوْا لَنَا؟ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ؟ قَدْ خَسِرُوْا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُوْنَ ﴾.

ومعنى هذه الآيات البينات: أن الله تعالى قد أنزل على أهل مكة هذا القرآن العظيم، هداية ورحمة وسعادة لمن آمن به، وما ينتظر هؤلاء إلَّا عاقبة ما وُعدوا به من العذاب، ويوم القيامة يقول الذين تركوا العمل بالقرآن، وضيَّعوا معالم الإيمان: لقد جاءتنا الرسل بالأخبار الصادقة، حول الحشر والنشر، والحساب والجزاء، فلم نؤمن بهم ولم نتَّبعهم، فهل لنا اليوم شفيع يُخَلِّصنا وينجينا من سخط الله وعذابه؟ أو نردُّ إلى الدنيا لنعمل صالحاً غير ما كنا نعمله من المعاصي وقبيح الأعمال؟ قال تعالى رداً عليهم ﴿ قَدْ خَسِرُوْا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ ﴾.

«الأدلة على قدرة الله ووحدانيته»

وبعد هذا البيان الشافي الوافي، عن أحوالِ الكَفَرةِ المجرمين، عادت

(١) انظر تفسير الطبري ٤٧٨/١٢ ومختصر تفسير ابن كثير ٢٤/٢.

الآيات الكريمة لتقيم الأدلة والبراهين على وجود الخالق الحكيم، والدلائل الدالة على القدرة والوحدانية، وكمال العلم والحكمة، والعظمة والجلال، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ، أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ فقد ذكر تعالى في هذه الآية من دلائل قدرته ووحدانيته.

أولاً: خَلْقَ السمواتِ السبع الطباق، وهي آية في الإبداع والإعجاز، فإن السماء على اتساعها وعظمتها، واقفة بقدرة الله تعالى بدون أعمدة، لا يمسكها إلا الله، وهي ليست سماءً واحدة، بل هي سبع سماوات، محكمة البناء، كل واحدة بالنسبة للأخرى كالقبة لغيرها.

وذكر ثانياً: عرش الرحمن الذي لا تحيط به سماوات ولا أرض، ولا يستطيع الخيال أن يتصور عظمته، لأن الكرسيَّ بالنسبة للعرش، كحَلْقة ملقاةٍ في صحراء، والكرسيُّ فضلاً عن العرش لا تسعه السماوات كلها ولا الأرضون كما قال سبحانه: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ فكيف بالعرش العظيم؟ واستواؤه تعالى حقيقةٌ نؤمن بها ولا نعرف كيفيَّتها كما قال إمام أهل السنة والجماعة، الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «نؤمن بأن الله على العرش، كيف شاء، وكما شاء، بلا حدٍّ ولا صفةٍ يبلغها واصفٌ، أو يحدُّها حادٌّ، نقرأ الآية والخبر، ونؤمن بما فيهما، ونترك الكيفية في الصفات إلى علم الله عزَّ وجلَّ»[1].

وذكر تعالى ثالثاً: الكواكب والأفلاك «الشمس، والقمر، والنجوم» كلها تحت قهره، ومشيئته، وتسخيره، تسبح في هذا الفضاء الواسع، لا

(١) راجع تفسير آية الاستواء في ابن كثير ٢/ ٢٥ وكتابنا صفوة التفاسير ١/ ٤٥٠.

يصطدم نجم بنجم، ولا يخرج كوكب عن مداره، ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ، وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُوْنَ ﴾[1] ولأمرٍ ما أكثر الله سبحانه في كتابه العزيز، من الاستدلال على العلم والقدرة، والوحدانية، والحكمة، بخلق السموات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وكيفية تبدّل الضياء بالظلام وبالعكس، وبأحوال الشمس والقمر والنجوم، فسبحان الحيّ القيوم!!

وقد ختم الله الآية بهذا الختم الرائع ﴿ أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ وفيها منتهى الإيجاز والإعجاز، فإذا كان الإِلّه بهذه القدرة الباهرة، فكيف يترك العاقل دعاءه، والالتجاء إليه، ويدعو من لا يسمع ولا ينفع؟ ويلتجىء إلى من لا حَوْل له ولا طَوْل، من بَشَرٍ أو حجرٍ، أو شجر؟ ولهذا جاءت الآيات تأمر بعبادة الواحد الأحد، ودعائه بتذللٍ وخشوع، لأنه هوالمتصرف في الأكوان، المدبر لشؤون الخلق، ذو العظمة والجلال ﴿ أُدْعُوْا رَبَّكُمْ تَضَرُّعَاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ، وَلَا تُفْسِدُوْا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِها، وَادْعُوْهُ خَوْفَاً وَطَمَعَاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحسنين ﴾.

ومعنى قوله «تَضَرُّعاً وخُفْيةً» أي بتذلُّلٍ وخشوع وخضوع، مع السرِّ والإِخفاء.

«تسخير الرياح لنزول الأمطار»

وبعد ذلك جاءت الآيات تتحدث عن مظاهر قدرة الله تعالى، في تسخيره الرياح التي تسوق السحاب من مكان إلى مكان، ثم نزول الأمطار، وخروج الفواكه والثمار، وكلها دلائلُ باهرة على قدرة الله

(١) سورة يّس آية رقم /٤٠/.

ووحدانيته ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي مبشِّرة بهطول الأمطار التي تحمل الخير للناس ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً ﴾ أي حتى إذا حملت الرياح سحاباً مُثْقَلاً بالماء ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المَاءَ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي سقناه لأجل إنعاش أرضٍ مجدبة ميتة، لا نبات فيها ولا زرع، فأنزلنا عليها الماء، فأخرجنا به من جميع أنواع الفواكه والثمار.. ثم قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ ﴾ أي كما أحيينا هذه الأرض الميتة بوابل المطر، كذلك نحيي الموتى من قبورهم، ونخرجهم أحياء كما نُخْرِج الزرع، لتتذكروا عظمة الله وقدرته، فتوحِّدوه، وتشكروه على نِعَمه وإفضاله.

«إحياء الأموات كإحياء الأرض المجدبة»

وقد أكثر القرآن الكريم من ضرب الأمثال بإحياء الأموات بعد الفناء، بالأرض القاحلة المجدبة، التي تدبُّ فيها الحياة بنزول المطر كما قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي المَوْتَى، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(1).

وكقوله سبحانه ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ، كيف يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها؟ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(2).

ثم ختم الله هذه الآيات بتمثيل رائع، للمؤمن والكافر، ممثِّل لهما بالأرض الطَيبةَ التي تُخرِج النباتَ وافياً زاهياً، والأرض السبخة التي تؤذي ولا تنفع، فقال سبحانه: ﴿ وَالْبَلَدُ الطَيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ، وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُوْنَ ﴾.

---

(1) سورة فصِّلت آية رقم /39/.

(2) سورة الروم آية رقم /50/.

أي والأرضُ الكريمةُ التربةِ، يخرج فيها النبات حسناً غضّاً زاهياً، غزير النفع والثمر، بمشيئته تعالى وتيسيره، والأرض إذا كانت خبيثة التربة، رديئة المكان، مثل الأرض السبخة، والمستنقع الآسن، لا يخرج النبات فيها إلا قليلاً رديئاً، وبعسرٍ ومشقة، لأنها أرض غير صالحةٍ للزراعة. .

وقد ضرب تعالى ذلك مثلاً للمؤمن والكافر، فالمؤمن كالأرض الطيبة التربة، والكافر كالأرض الصلبة أو الأرض السبخة المالحة، التي لا تصلح لنباتٍ ولا زرع، وإنما هي مستنقع للحشرات والديدان، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هذا مثلُ ضربه الله للمؤمن والكافر، فالمؤمن طيِّبٌ، وعملُه طيِّبٌ، كالأرض الطيِّبة ثمرها طيب، وتربتها طيبة، والكافر خبيثٌ، وعملُه خبيثٌ، كالأرض السَّبخة المالحة، لا يُنتفعُ بها»[1].

«من هدي النبوة»

ومن روائع الهَدْي النبويِّ الشريف، ما ضربه الرسول ﷺ في ذلك المثل الرائع الذي مثَّل فيه للعلم، والهدى، والإيمان، بتشبيهه عليه السلام للعلم والهداية التي جاء بها من عند الله، بالمطر المدرار، ينزل على الأرض الطيبة، والأرض البوار فقال صلوات الله عليه «مَثَلُ ما بعثَني اللَّهُ به من العلمِ والهُدَى، كمثلِ الغيثِ الكثير، أصابَ أرضاً، فكانتْ منها نقيَّةٌ، قبلتَ الماءَ، فأنبتتِ الكَلأ والعُشْبَ الكثيرَ، وكانت منها أجادبُ ـ أي أراضٍ صخراوية مجدبة ـ أمسكتِ الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابَ منها طائفةً أخرى، إنما هي قِيعانٌ ـ أي أراض سبخة مالحة ـ لا تمسكُ ماءً ولا تُنبتُ كَلأً، فذلك مَثَلُ من فَقُه في دين اللَّهِ، ونفَعَه ما بعثني الله به، فعَلِم وعلَّم، ومَثَل من

---

(١) انظر جامع البيان للطبري ١٢/٤٩٧.

لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هُدَى الله الذي أُرْسلتُ به»[1].

«الحكمة من قصص الأنبياء»

ونلاحظ أنَّ السورة الكريمة - إلى جانب تقرير أصول الدعوة الإسلامية - قد تناولت بالتفصيل قصص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وذلك كنموذج للدعاة الذين يريدون أن يَشُقُّوا بكفاحهم وجهادهم الطريق الموصل إلى الله، وقد ابتدأت بشيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام، وما لاقاه من قومه من جحود وعناد، وتكذيب وإعراض، حتى نصره الله النصر المبين، وأغرق قومه الطغاة المستكبرين. . وسُمِّي نوحُ شيخَ الأنبياء، لأنه أطولهم عمراً، وأشدهم محنةً وبلاءً، فقد مكث في قومه قرابة ألف عام، وهو يدعوهم إلى الإيمان، ولم يجد منهم إلَّا الصُّدود والإعراض، والتكذيب والاستهزاء، وما آمن معه في هذه الفترة الطويلة إلا قليل، لا يتجاوز عددهم الثمانين كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوْحَاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامَاً، فَأَخَذَهُمُ الطُّوْفَانُ وهُمْ ظَالِمُوْن ﴾[2].

وهذه السورة هي أول سورةٍ تعرض بالتفصيل، لقصص الأنبياء والمرسلين، صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين فلم تسبقها سورة تحدثت عن قصص الأنبياء، وفي ذكر هذه القصص فوائد عديدة متنوعة:

١ ـ منها أولاً تسليةُ الرسول ﷺ عما يلقاه من الأذى، وذلك بالتنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هداية الله، عادةٌ معتادة، فما من نبيٍّ بعثه الله، إلا وكذَّبه قومه، ونالوا منه.

٢ ـ ومنها بيان سوء عاقبة المستكبرين، وحُسْنُ عُقبى المطيعين،

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه وهو من رواية أبي موسى الأشعري.
(٢) سورة العنكبوت آية رقم /١٤.

تقويةً لقلوب الدعاة المؤمنين.

٣ ـ ومنها التنبيه على أن الله سبحانه وتعالى، لا يهمل الظالمين المبطلين، وإن كان يمهلهم فترةً من الحين.

٤ ـ ومنها الدلالة على صدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، من حيث إخباره بالغيب، وهو أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب.

٥ ـ ومنها العظة والاعتبار للبشر، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَاب، مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُدَى وَرَحْمَة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

«قصة نوح عليه السلام»

وأول ما تناولته السورة من قصص الأنبياء قصة «نوح» عليه السلام وقصته مع قومه درسٌ من أبلغ دروس المحنة والصبر، وفيها رمزٌ للبطولة والكفاح، فنوحُ عليه السلام شيخ المرسلين، وهو أول نبيٍّ بعثه الله بعد إدريس، ولم يلق نبيٌّ من الأذى مثل ما لقيه نوح، وقد اتَّهمه قومه بالسَّفه والضلال، والجنون، وهدَّدوه بالقتل رجماً بالحجارة، وهو صابرٌ دائبٌ محتسب، لم تُثنِ عزيمتَه المواعيدُ ولا التهديدات، بل استمر يدعو إلى الله تسعمائة وخمسين سنة، ويتحمل في سبيل ذلك ضروب الأذى وأنواع البلاء، ولنستمعْ إلى الآيات البينات، وهي تسرد علينا أخباره وأنباءه ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوْحاً إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوْا اللَّهَ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ دعاهم نوح عليه السلام إلى عبادة الله، ثم أمرهم بتوحيده، ثم حذَّرهم عذاب يوم عظيم هو يومُ القيامة، أو عذاب الطوفان، فماذا كان جواب أولئك السفهاء المجرمين؟ ﴿ قَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ الملأ:

(١) سورة يوسف آية رقم /١١١/.

الأشراف والسادةُ من قومه، سمُّوا ملأً لأنهم يملأون الأعين مهابةً وجلالاً، حَكَم هؤلاء الرؤساءُ عليه بالسَّفَه والضلالة، وكان حكمهم عليه قاطعاً، مؤكداً بأنواع من التأكيدات ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي أنت يا نوح في ذهابٍ عن طريق الحق والصواب، واضح بيِّن، وكان جوابه عليهم مُتَّزناً سَديداً ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ، وَلَكِنِّي رَسُوْلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، وَأَنْصَحُ لَكُمْ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴾ لم يقل «ليس بي ضلالٌ» وإنما قال: ﴿ لَيْسَ بِي ضلالة ﴾ ليكون أبلغ في عموم السلب، كأنه قال ليس بي نوع من أنواع الضلالة، أو خصلة من خصال الضلالة، فضلاً عن أن أكون متمكناً في طريق الغيِّ والضلالة غاية التمكن، فما نسبتموني إليه زورٌ وبهتان، ثم بعد أن نفى عن نفسه العيب الذي نُسب إليه، وصف نفسه بأشرف الصفات وأجلِّها، واستدرك قائلاً ﴿ وَلَكِنِّي رَسُوْلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ وهذا الاستدراك في علم البيان يسمى «تأكيد المدح بما يُشْبه الذمَّ».

وفي ذلك بيانٌ لفرطِ جهالتهم وعتوهم، حيث وصفوا من هو به المنزلة من الهُدَى والاستقامة، بالضلال الظاهر، الذي لا ضلال بعده.

«الغاية من بعثته عليه السلام»

ثم نبههم إلى الغاية والمقصود الأسمى من بعثته عليه السلام، وهو أمران:

الأول: تبليغ الرسالة.

والثاني: تقرير النصيحة.

فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، وَأَنْصَحُ لَكُمْ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴾ أي أبلغكم أوامر ربي، ثم أرشدكم إلى الأصلح والأصوب، وأدعوكم إلى ما دعاني الله تعالى إليه، وأحبُّ لكم ما أحبُّ لنفسي،

وأعلم من أمور الغيب ومن صفات الله وجلاله ما لا تعلمونه أنتم.. وهكذا شأن الناصح الأمين، والرسول المرسل المبين، أن يكون مبلّغاً، فصيحاً، ناصحاً، أميناً، عالماً بالله، لا يدركه أحد من الخلق في هذه الصفات الجليلة.. والعجب من هؤلاء السفهاء أنهم نسبوه إلى الضلال هنا، وفي مكان آخر رموه بالجنون فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾(١) أي ما هو إلا رجلٌ مجنون، فانتظروه زمناً قصيراً حتى يفاجئه الأجل، ونخلص من شره.

«استبعاد المشركين أن يكون الرسول بشراً»

ثم إن نوحاً عليه السلام أنكر عليهم تكذيبهم لرسالته، واستبعادهم لأن يكون الله قد أرسل إليهم رسولاً من البشر، إذ كانوا يقولون «لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً» فخاطبهم بالرأي الرشيد، والمنطق السديد، ليزيل عنهم تلك الشكوك والأوهام فقال: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ، وَلِتَتَّقُوْا، وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ﴾؟ وكأنه يقول لهم: لا تعجبوا أن يبعث الله إليكم رجلاً من جنسكم من البشر، فإن هذا ليس بعجيب، بل هو مقتضى الحكمة، ليمكنكم الأخذُ عنه، والاقتداء به، ولو كان الرسول من الملائكة لما استطعتم أن تتلقوا عنه الوحي، ثم الغاية من الرسالة الإنذار، والتقوى، والفوز برحمة الرَّحمن ﴿لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوْا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ﴾ وإنه لترتيب أنيقٌ، لأن المقصود من البعثةِ الإنذارُ، ومن الإنذار التقوى، ومن التقوى الفوزُ برحمة الله.. وقد ختم الله قصته ببيان طغيان قومه، واستكبارهم عن قبول دعوته، واستمرارهم في التكذيب، حتى أهلكهم الله بالطوفان.

(١) سورة المؤمنون آية رقم /٢٥/.

كما قال تقدست أسماؤه: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الفُلْكِ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ ﴾.

أي عميت قلوبهم عن الحق فهم لا يُبصرونه، ولا يهتدون له، قال ابن عباس: «عميتْ قلوبُهم عن معرفة التوحيد، والنبوة، والمعاد»(١).

«المغزى من القصة»

وقد بيَّن تعالى في هذه القصة، أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم الكافرين، وهذه سُنَّةُ اللَّهِ في عباده في الدنيا والآخرة، أن العاقبة والنصر والظفر فيها للمتقين، يبتلي عباده المؤمنين ليختبرهم ويمتحنهم، ثم تكون الغلبة والظفر لهم، ويُهْلِك عدُوَّهم كما أهلك قوم نوح بالغرق، ونجَّى نوحاً وأصحابه المؤمنين.

وكان قومُ نوح قد ضاق بهم السهل والجبل، فأهلكهم اللَّهُ بالطوفان نتيجة الكفر والعصيان، قال ابن أسلم: «ما عذَّب اللَّهُ قوم نوحٍ بالغرق، إلا والأرضُ ملأى بهم، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز»(٢).

«قصة نبيِّ اللَّهِ هود عليه السلام»

وبعد أن تحدثت السورة عن قصة شيخ الأنبياء «نوح عليه السلام» وذكرت ما لاقاه من قومه من تكذيب وعناد، وصدود وإعراض، حتى أهلكهم الله بالطوفان.. انتقلت الآيات الكريمة لتتحدث عن نبي الله «هود» عليه السلام، الذي بعثه الله إلى قبيلة «عاد» وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن، وقد كان هؤلاء القوم أشدَّاء أقوياء، وبلغ من عتُوِّهم وجبروتهم أن اغتروا بقوتهم، فقالوا ما حكاه عنهم القرآن ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي

(١) انظر تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٤/٣٢٣.
(٢) راجع مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ٢/٢٨.

الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ، وَقَالُوْا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً؟ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُوْنَ ﴾[1].

وهذه هي القصة الثانية في سورة الأعراف من قصص الأنبياء الكرام، جاءت بعد قصة نوح عليه السلام، ذلك لأن نوحاً أسبق منه في الوجود، وتكاد تكون القصتان متشابهتين، في أسلوب الدعوة والتبليغ، لكنهما مختلفتان في التعبير والبيان، وذلك سرٌّ من أسرار إعجاز القرآن، يقول الله تقدست أسماؤه في قصة سيدنا هود عليه السلام ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوْداً، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوْا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْـرُهُ، أَفَلا تَتَّقُوْنَ ﴾؟ أي وأرسلنا إلى قوم عاد نبينا هوداً وبعثناه إليهم من عشيرتهم وقبيلتهم، ليكونوا أعرف بحاله، وأقرب إلى اتّباعه، فقال لهم بأسلوب سَدِيدٍ رَشِيدٍ: يا قوم اعبدوا الله وحده، فليس لكم إلَه غيره، ثم حذَّرهم عقاب الله وعذابه فقال: ﴿ أَفَلاَ تَتَّقُوْنَ ﴾ أي أفـلا تخافـون عذابـه وانتقامه، إن خالفتم أمره؟ أفلا تخشون أن يحلَّ بكم ما حلَّ بقوم نوح؟.

«اتهامهم له بالسَّفه والكذب»

وماذا كان جوابهم لنبيّهم الذي أسدى لهم النصح والإرشاد؟ ﴿قَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ، وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ أي قال السادة والأشراف من قومه الجاحدين لوحدانية الله: إنّـا نراك يا هود في خِفَّة حِلْم، وسخافة عقل، وإنا لنظنك من الكاذبين في دعوى الرسالة.. ما أقبحه من ردٍّ، وأسفهه من جواب!! يصفون نبيهم بالسَّفه، وخفَّة العقل، وهم ـ على حد زعمهم ـ العقلاء النابهون، «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ»!!.

---

(١) سورة فصلت آية رقم /١٥/.

«جوابه المحكم السديد»

وتمضي الآيات تذكر لنا جوابه السديد المحكم ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُوْلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ أي ليس بي شيء من السفاهة وخفة العقل، بل أنا بحمد الله في الغاية القصوى من الرُّشد والأناة، والصدق والأمانة، لأني مرسل إليكم من رب العالمين، والله لا يرسل إلى عباده، إلَّا من كان في غاية العقل، والكمال، والرشاد.. وفي قوله لهم «يا قوم» استعطافٌ واستمالةٌ لقلوبهم نحو الحق، فهم أهله وقومه وعشيرته، فكيف لا يقدّم لهم النصح؟ وكيف لا يسعى لتخليصهم من عذاب الله؟. ثم زادهم في التذكير والإرشاد فقال: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ أي أبلّغكم أوامر الله، وأنا ناصح لكم فيما أدعوكم إليه، أمينٌ على الوحي لا أكذب فيه.. وَلْنلاحظْ سراً من أسرار الكتاب العزيز، فقد ورد في قصة نوح قوله: ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾ وفي قصة هود قوله ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ ﴾ فما هو وجه المغايرة بين العبارتين؟ والجواب أن نوحاً عليه السلام، كان من عادته العود إلى تجديد تلك الدعوة، في كل يوم وفي كل ساعة، وصيغة المضارع ﴿ وَأَنْصَحُ ﴾ تدلُّ على تجدُّدِ نصيحته لهم، ولهذا قال في مكان آخر ﴿ رَبِّ إنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ وأما «هود» عليه السلام فكان ثابتاً على النصح، غير مجدّدٍ له لحظة بعد لحظة، كما كان يفعل نوح، ولهذا ورد اللفظ بصيغة اسم الفاعل ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ ﴾ لأنها تفيد الثبات والاستمرار، دون التجدد في التذكير والإنذار، فتدبر أسرار القرآن، فإنه معجزٌ في بيانه، كما هو معجزٌ في أحكامه!!

«تذكيرهم بنعم الله جلّ وعلا»

وتمضي الآيات في سرد قصة هود عليه السلام مع قومه الجاحدين

فيقول القرآن عنه: ﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ؟ وَاذْكُرُوْا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوْحٍ، وَزَادَكُمْ فِي الخَلْقِ بَسْطَةً، فَاذْكُرُوْا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ ﴾ ذكّرهم «هود» بالغاية من بعثته عليه السلام وهي الإنذار، الذي فائدته حصول التقوى الموجبةِ للرحمة، ثم نبَّههم إلى فضل الله في عظيم نِعَمه عليهم، وهي استخلافهم في الأرض بعد قوم نوح، حيث أورثهم أرضَهم، وديارَهُم، وأموالهم، ثم زيادتهم في الأبدان قوة وضخامة، فقد كانوا أضخم الناس أجساماً، وأشدَّهم بأساً وقوة، فلم يكن في زمانهم مثلهم في عظم الأجسام، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ ودعاهم إلى شكر الله على ما خصَّهم به من النعم ﴿فَاذْكُرُوْا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ﴾.

«جحودٌ ونكرانٌ لنِعَمِ الرحمن»

ومن عجيب أمرهم أنهم قابلوا هذا الفضل والإنعام، بالجحود والنكران، فقالوا مستهزئين بدعوة هود ما أخبرنا عنه القرآن ﴿ قَالُوْا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا؟ فَائتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي أجئتنا يا هود تتوعدنا بالعذاب؟ لكي نعبد الله وحده، ونهجر عبادة الآلهة والأصنام، التي كان يعبدها آباؤنا؟ فائتنا بالعذاب الذي تتوعدنا به فلن نؤمن لك!!.

ذكَّرهم نبيهم نعم الله عليهم ليرجعوا إلى عقولهم، فيعلموا أن العبادة نهاية التعظيم، ولا تليق إلا بالخالق الذي صدرت عنه نهاية الإنعام والإحسان، وليس للأصنام على العباد شيء من النعم، لأنها جماد، والجماد لا قدرة له أصلاً، فلم يكن للقوم جواب عن هذه الحجة، إلا التقليد الأعمى للآباء، ويا له من غباء! ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾؟.

وبعد هذا البيان الساطع القاطع، الذي أفحمهم به هود عليه السلام، وإصرارهم على الكفر والضلال، جاءت نهاية القصة لتضع حداً للطغيان ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ، أَتُجَادِلُوْنَني فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوْهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ، مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ؟ فَانْتَظِرُوْا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرينَ﴾ أي أتناظرونني وتخاصمونني في أصنام لا تضُرُّ ولا تنفع، ليس لها من صفات الألوهية، إلا محض الأسماء، التي اخترعتموها وزعمتم أنها آلهة، فانتظروا سوء عاقبتكم، إني معكم من المنتظرين لما يحلُّ بكم؟ وهذا غاية الوعيد والتهديد، قال تعالى مبيناً نهايتهم المشؤومة: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوْا مُؤمِنينَ ﴾ وهكذا كانت نهاية الكفر والطغيان.

«قصة صالح عليه السلام»

لا نزال نلقي الأضواء على «سورة الأعـراف» لنستجلي ما فيها من إشراقات وأنوار، وقد تناولت الآيات السابقة قصة نبي الله الكريم «هود» عليه السلام، وما نال قومه المكذبين من الهلاك والدمار. . ثم انتقلت الآيات لتتحدث عن نبي الله «صالح» عليه السلام مع قومه ثمود، وكانت مساكنهم بالحِجْر، بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، وكانوا في رفاهية ورخـاء، وفي أمن واستقرار، يتنقلون بين المـروج النضرة، والحدائق الزاهية، وقد غمرتهم الخيرات، وتوفَّرت لهم أسباب العيش الرغيد، ولكنهم لم يشكروا الله على نعمه، ولم يعرفوا قدر الرسالة، فأهلكهم الله بالزلزلة، ودمَّرهم عَنْ بَكْرةِ أبيهم.

«الناقة معجزة نبي الله صالح عليه السلام»

وقصة سيدنا «صالح» هي القصة الثالثة من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة، وقد خصَّه الله بالمعجزة الباهرة «معجزة الناقة» التي

خلقت من صخرٍ أصمّ، وفيه يقول القرآن الكريم ﴿ وَإِلى ثَمُوْدَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوْا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً، فَذَرُوْهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ، وَلَا تَمَسُّوْهَا بِسُوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

وخلاصة قصة هؤلاء القوم، أن عاداً لما أُهلكت بالريح الصَّرصر العاتية، عَمَرتْ ثمود بلادها وخلفوهم في الأرض، فكثروا وعمَّروا أعماراً طويلة، حتى إن الرجل منهم كان يبني البناء المحكم، فينهدم في حياته لطول عُمره، فنحتوا البيوت من الجبال، لتظلَّ مساكنَ لهم، وكانوا في سعة ورخاء من العيش، فعتوا عن أمر الله، وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأوثان والأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً عليه السلام، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فلم يتَّبعه إلا قليل منهم مستضعفون، فحذَّرهم وأنذرهم، فسألوه معجزة تدل على صدقه، فقال: أيَّ معجزة تريدون؟ قالوا: تخرج معنا يوم عيدنا، فندعو آلهتنا، وتدعو إلّهك، فإن استجيب لك اتَّبعناك، وإن استجيب لنا اتّبعتنا، فأجابهم صالح عليه السلام إلى ما طلبوا، فخرج معهم ودعوا أوثانهم، وسألوها الاستجابة لهم فلم تجبهم، فقال سيِّدهم وزعيمهم «جندع بن عمرو» يا صالح أدعُ ربك، أن يُخرج لنا من هذه الصَّخْرةِ الصمَّاء ناقةً عُشَراء - أي حاملاً والناقةُ هي أنثى الجمل - وأشار إلى صخرة عظيمة بجانب الجبل، فإن أجبتنا إلى ما طلبنا صدَّقناك واتَّبعنَاك، فأخذ عليهم نبيُّ الله «صالح» العهود والمواثيق، على أن يؤمنوا به ويتَّبعوه إن أجابهم إلى ما طلبوا، فصلّى ودعا ربَّه، فتمخَّضت الصخرة ثم انصدعت عن ناقةٍ عُشَراء، وكانت في غاية العظم، فآمن به «جُندع» ورهطٌ من قومه، وأما الأكثرون فكذبوه وزعموا أنه ساحر، وكانت الناقة وولدها ترعى الشجر، وتشرب

الماء كما قال سبحانه: ﴿ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُوْمٍ ﴾(١).

«عقرهم الناقة»

ومع هذه الآية الباهرة، والمعجزة القاطعة، عصى أولئك القوم نبيهم، فعقروا الناقة وطبخوها وأكلوا لحمها، فأوعدهم نبيهم بالعذاب، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوْهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ، وَلاَ تَمَسُّوْهَا بِسُوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

وتمضي الآيات في سورة الأعراف، تذكر ما جرى بين صالح وقومه، من المحاورة والمجادلة، فقد خوَّفهم نبيُّهم مغبَّة الكفر والعصيان، وذكَّرهم بفضل الله عليهم ليشكروه فقال لهم: ﴿ وَاذْكُرُوْا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ، وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أي جعل لكم مسكناً وموطناً في أرض الحِجْر ﴿ تتخذون من سهولها قصوراً، وتنحتون الجبال بيوتاً ﴾ أي تبنون في سهولها قصوراً رفيعة وتنحتون الجبال لسكناكم ﴿ فَاذْكُرُوْا آلاَءَ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أي اشكروا ربكم على إنعامه وإفضاله، ولا تتصرفوا في الأرض بالفساد.

«طغيانٌ وجبروت»

ولكنَّ القوم كانوا في جبروت وعناد، فقد استهزؤوا من دعوته، وسخروا منه ومن أتباعه، ووقفوا في وجه المؤمنين يتوعَّدونهم ويهدِّدونهم، ليرجعوا إلى دين قومهم، من عبادة الأوثان والأصنام ﴿ قَالَ المَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوْا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوْا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ، أَتَعْلَمُوْنَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ؟ قَالُوْا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُوْنَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوْا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُوْنَ ﴾.

وتمضي الآيات تبيِّن طغيان أولئك القوم، فقد أقدموا على عقر

(١) سورة الشعراء آية رقم /١٥٥/.

الناقة، وتمردوا على ربهم، وعصَوْا رسوله، وطلبوا من صالح أن يأتيهم بالعذاب، وكان قد توعَّدهم بأنهم إذا قتلوا الناقة، فسوف يمكثون بعد قتلها ثلاثة أيام، ثم يصبّحهم العذاب فلا يبقى منهم أحد، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوْا النَّاقَةَ ـ أي قتلوها ونحروها ـ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوْا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إنْ كُنْتَ مِنَ المُرْسَلِينَ ﴾ قالوا ذلك استهزاءً به وتعجيزاً، قال تعالى إخباراً عمَّا حلَّ بهم ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوْا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي أخذتهم الزلزلة الشديدة، ونزلت بهم صيحة العذاب، فقطَّعت قلوبهم فماتوا، فأصبحوا في منازلهم هامدين ساكنين، لا حَرَاك بهم، وروي أن عقرهم للناقة كان يوم الأربعاء، ونزل بهم العذاب صبيحة يوم السبت[1].

«أسف صالح على قومه»

وروي أن صالحاً لما خرج بالمؤمنين تاركاً ديار الظالمين، كان يبكي حزناً على قومه، فالتفت فرأى الدخان ساطعاً منتشراً في عنان السماء، فعلم أنهم قد هلكوا فذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّوْنَ النَّاصِحِينَ ﴾ وكانت منازلهم ـ كما بَيَّنتُ ـ في الحِجْر، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ حين مرَّ بالحجر في «غزوة تبوك» قال لأصحابه: «لا يدخلنَّ أحد منكم القرية، ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المُعَذَّبين إلَّا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم»[2].

وهكذا أهلك الله ثمود ودمَّرهم، ولم يبق لهم أثر، وجعلهم عبرة لمن اعتبر، اللهمَّ لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، ونجنا قبل ذلك، برحمتك يا أرحم الراحمين.

(١) انظر تفصيل القصة في مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٢.
(٢) الحديث أخرجه الشيخان، وانظر مختصر ابن كثير ٢/ ٣١.

«قصة نبيِّ الله لوط عليه السلام»

وتمضي السورة تحدِّثنا في آياتها البيِّنات عن قصص الأنبياء والمرسلين، فبعد أن ذكرت الآيات السابقة قصة «نوح» و «هود» و «صالح» ذكرت بعدها قصة «لوط» عليه السلام، وهي القصة الرابعة في هذه السورة الكريمة.

و «لوط» عليه السلام هو أحد الرسل الكرام، أرسله الله عزَّ وجلَّ إلى أهل «سدوم» وهو «لوط بن هاران» ابن أخي إبراهيم الخليل، كان في أرض بابل من العراق مع عمه إبراهيم، ثم هاجر إلى فلسطين ونزل بالأردن، وهناك بعثه الله إلى أهل سدوم، وكان أهلها فُسَّاقاً فُجَّاراً، لا يخجلون من فعل القبيح، ولا يرتدعون عن عمل الفاحشة، وهي «اللواطة» التي انتشرت في زمانهم، حيث كانوا يأتون الذكور في أدبارهم، وهو عمل قبيح مستقذر، مخلٌّ بالمروءة والشرف، تنفر منه طبائع الحيوانات والبهائم، فضلاً عن الإنسان الذي كرَّمه الله بالفهم والعقل، وقوم «لوط» هم أول من اخترع وابتكر هذا العمل المنكر، وأول من فعل هذا الفعل القبيح، فلم تكن اللواطة معروفة أو مشهورة قبل زمانهم(١)، وقد بعث الله لهم نبيَّه الكريم «لوطاً» عليه السلام ليرشدهم إلى

(١) قال عمروُ بنُ دينار: «ما نَزَا ذَكرٌ على ذَكرٍ، حتى كان قوم لوط» ولهذا قال سبحانه «مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ» وقال بعض السلف: «لولا أنَّ الله عزَّ وجلّ قصَّ علينا خبر قوم لوط، ما ظننتُ أن ذَكَراً يعلو ذَكَراً» أقول: هذه هي البهيمية تعود اليوم باسم «الحرية الشخصية» فقد اتخذ البرلمان الإنجليزي قانوناً بمشروعية اللواطة، وعدم اعتبارها رذيلة، تطبيقاً لنظام الحرية، وفي أمريكا وحدها /٢٠٠/ ألف شخص من الخَوَل، ينكح الرجُل الرجل، ويتخذه كزوجة له يفترشه وينزو عليه كما ينزو الكلب على الكلب، دون حياء وخجل، وقد رفع أحدهم دعوى أمام القضاء يطالب فيه بتعويض كبير، يقارب نصف مليون دولار، لأن الشخص الذي نزا عليه ونكحه حمل إليه مرض «الإيدز» كما نقلت إلينا الأخبار.. وعشْ رجباً ترى عجباً!!.

الله، ويزجرهم ويكفَّهم عن ذلك العمل القذر، الذي انحدروا إليه، وصار وصفاً لهم ملازماً، يُعْرفون به ويُشهرون، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿ وَلُوْطَاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُوْنَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ؟ إِنَّكُمْ لَتَأْتُوْنَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُوْنِ النِّسَاءِ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُوْنَ ﴾

«لماذا سميت اللواطة فاحشة؟»

وقد أجمع المفسرون على أن المراد بالفاحشة في الآية هنا «اللواطة» بدليل قوله تعالى بعدها ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُوْنَ الرِّجَالَ شَهْوَةً ﴾ وقوله في سورة الشعراء: ﴿ أَتَأْتُوْنَ الذُّكْرَانَ مِنَ العَالَمِينَ؟ وَتَذَرُوْنَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُوْنَ ﴾.

وسُمّيت اللواطةُ «فاحشة» لأنها عمل قبيح، قد تناهى في القبح والشناعة، ولمَّا كان هذا الفعل القبيح، معهوداً في الأذهان قبحُه، ومركوزاً في العقول فُحْشُه، أتى القرآن به معرَّفاً بالألف واللاَّم ﴿أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ﴾؟ وقد استحكم ذلك المنكر في نفوسهم، حتى فعل بعضهم ببعض، **قال الحسن**: «كانوا ينكحون الرجال في أدبارهم، ويتركون نكاح النساء» ولما دعاهم نبيُّهم إلى التنزه عن هذا الفعل القبيح، وأنكر عليهم بطريق التوبيخ مثل هذا العمل الحيواني، ووصفهم بالخسَّة والدناءة، والإسراف في ذلك الصنيع، ثاروا عليه وغضبوا، وتوعَّدوه بالطرد والإبعاد، والإخراج من البلاد، فقالوا كما قصَّ القرآن الكريم عنهم ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوْا أَخْرِجُوْهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُوْنَ ﴾.

«الفضيلة في نظرهم رذيلة»

والعجيب من أمر هؤلاء السفهاء، أن يعدُّوا التنزه عن ذلك الفعل

الشنيع، نقيصة يستحق صاحبها الطرد والإبعاد عن الأوطان، ويفتخروا بما هم عليه من النجاسة والخِسَّة، كأن الطهارة ـ في نظرهم ـ صارت عيباً، فيقول بعضهم لبعض ﴿ أَخْرِجُوْهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ﴾ أي اطردوا لوطاً ومن معه من المؤمنين من بلدتكم، ثم يعلِّلون سبب ذلك بقولهم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُوْنَ﴾ أي يتطهرون ويتنزَّهون عمَّا نفعله من إتيان الرجال في الأدبار، عابوهم بما يُمدح به الإنسان، وقالوا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء، كأن الفضيلة صارت رذيلة، والرذيلة أضحت فضيلة، يفخر بها الإنسان!.

هذا هو منطق السفهاء في كل زمان ومكان، يسخرون ممن يتنزه عن مقارفة الموبقات والمعاصي، ويعدُّونه «رجعياً» متأخراً، لا يساير ركب الرقيّ والتقدم، وأما من غرق في الفسوق والمجون إلى الآذان، وانحطَّ إلى درجة الحيوان، فهو الإنسان «التقدميُّ» الألمعيُّ، الذي يُشار إليه بالبنان، وما أكثر ما نسمع في زماننا مِمَّن يسخر بالشباب المسلم، المستمسك بدينه، الذي أبى الانجراف مع الشهوات الدنيئة، من خمور، وفجور، ونساء، وسَفَه، ويعدُّونهم من البُلْه الذين لم يعرفوا طعم الحياة، ويصفونهم بأوصاف منحطة يقولون عنهم: «رجعيُّون، متأخرون، متزمّتون» تماماً كما قال قوم لوط عن المؤمنين الطاهرين ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُوْنَ ﴾ فما أشبه الليلة بالبارحة!!.

«عقوبة قوم لوط»

وتمضي السورة الكريمة لتخبرنا عن العاقبة الوخيمة، التي حلَّت بأولئك الأقوام المجرمين، فقد دمَّر الله ديارهم، وقلب بهم مساكنهم، فجعل عاليها سافلها، وأرسل عليهم حجارة من السماء، كالمطر الزاخر، فأهلكهم عن بَكْرة أبيهم، فلم تبق منهم عينٌ تطرف، ولم يبق لهم أثر أو

خبر، وجعل الله عذابهم عبرةً لمن اعتبر، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُوْدٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ـ أي معلَّمة كل جمرة فيها بعلامة صاحبها ـ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمينَ بِبَعِيدٍ ﴾ وقال تعالى هنا ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ ﴾ أي بقيت مع الهالكين، لأنها كانت كافرة ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرَاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي أنزلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً، هو حجارة من سجيل منضود، أرسلناه عليهم كالمطر الدافق، فانظر أيها السامع كيف كانت عاقبة أولئك المجرمين؟ ألم تكن فظيعةً شنيعة؟ وانظر نظر تفكر وتدبر، إلى نهايتهم المشؤومة.

«عظة واعتبار»

وهكذا تنتهي أخبار أولئك المفسدين، وتكون عقوبتهم أفظع وأشنع عقوبة، جزاءً وفاقاً، لأنهم ارتكبوا أقبح وأشنع جريمة، ألا وهي «اللِّواطة»، وقد كانت بلادهم بين الشام والمدينة، وحين قُلبت بهم الديار، وأُمطرت عليهم الأحجار، هلكوا وصُرعوا، وبقيت آثارهم شاهدةً بدمارهم، منبئةً عن أحوالهم، وكأنها تتحدث عن نهاية أولئك الطغاة المفسدين، كما قال تعالى عنهم في سورة الصافات مخاطباً كفار قريش: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّوْنَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ، أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴾؟ ولما كانت اللواطة من أقبح الجرائم، كانت عقوبتها في الإسلام من أشد العقوبات، ألا وهي القتل والحكم بالإعدام، حرقاً، أو هدماً، أو رجماً بالحجارة، أو إلقاءً من أعلى شاهق جبل، ليكون عبرة للمعتبرين، وقد اختلف فقهاء المسلمين في كيفية القتل، فبعضهم قال: تحزُّ رقبته كالمرتد، وبعضهم قال: يُرْجم بالحجارة حتى الموت، وبعضهم قال:

يُلقى من أعلى شاهق جبل، وبعضهم قال: يُهدم عليه جدار، وكل هذه الأقوال رُويت عن السلف الصالح، عملاً بقول النبي ﷺ: «من وَجدتُموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(١). وإنما ذكروا هذه الوجوه لأن الله عذَّب قوم لوط بكل ذلك فقال: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُوْدٍ ﴾.

«قصة شعيب عليه السلام»

ثم تحدثت السورة الكريمة عن قصة نبي الله الكريم «شعيب» عليه السلام مع قومه «أهل مدين» وهي القصة الخامسة في هذه السورة الكريمة.

و«مدين» تطلق على القبيلة وعلى المدينة، وهي التي بقرب «مَعَان» في شرق الأردن، وهم أصحاب الأيكة، وكانوا في حدائق وبساتين، وأشجار كثيرة ملتفة، ولذلك سموا أصحاب الأيكة، وقد كان قوم «مَدْين» مشهورين بالبخس والتطفيف في الميزان، فبعث الله إليهم نبيه الكريم «شعيباً» عليه السلام، ينهاهم عن هذا الفعل المنكر، ويأمرهم بعبادة الله وطاعته، ويحذّرهم من عصيان أمره، والصدّ عن دينه، لئلا يحلَّ بهم ما حلَّ بالأمم السابقين، ولكنَّ أهل مدين كانوا عتاةً فاسقين، خالفوا أمر نبيهم، واستمروا في عصيانهم، وكانت عاقبتهم الخسران والهلاك، وفيهم يقول القرآن الكريم ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبَاً، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوْا اللَّهَ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، فَأَوْفُوْا الكَيْلَ وَالمِيزَانَ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَلَا تُفْسِدُوْا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَلَا تَقْعُدُوْا

(١) الحديث أخرجه أصحاب السنن، وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٥٤٩/٣.

بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوْعِدُوْنَ وَتَصُدُّوْنَ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَتَبْغُوْنَهَا عِوَجاً، وَاذْكُرُوْا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ، وَانْظُرُوْا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ ﴾.

أمرهم نبيهم «شعيب» عليه السلام بخمسةِ أشياء:

أولاً: أمرهم بعبادة الله، ونهاهم عن عبادة الأوثان، وهو أصل في جميع الشرائع والأديان، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ اعْبُدُوْا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ أي وحدُّوا الله، ولا تشركوا به، فما لكم إلَه مستحقٌّ للعبادة غيره تعالى.

ثانياً: أمرهم بالتصديق بنبوَّته والإيمان برسالته، وإليه الإشارة بقوله ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي معجزة تدل على صدقي.

ثالثاً: دعاهم إلى وفاء الكيل والميزان، حيث كانوا مشهورين بالتطفيف، إذا كالوا للناس أو وزنوا، طفَّفوا لهم في المكيال والميزان، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ فَأَوْفُوْا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ﴾، وظلمُ النَّاسِ بإنقاص الكيل والوزن من الكبائر، كما قال سبحانه: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوْا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُوْنَ. وَإِذَا كَالُوْهُمْ أَوْ وَزَنُوْهُمْ يُخْسِرُوْنَ. أَلَا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوْثُوْنَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ؟ يَوْمَ يَقُوْمُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ وقد اشتهر قوم شعيب بهذا العمل القبيح.

رابعاً: نهاهم عن الظلم والعدوان، وعمَّم اللفظ ليشمل جميع أنواع الظلم، كالغصب، والسرقة، وأخذ الرشوة، وانتزاع أموال الناس بوجوه الاحتيال، وإليه الإشارة بقوله ﴿ وَلَا تُفْسِدُوْا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ وهذا اللفظ شاملٌ لجميع أنواع الفساد، في الأموال، والأعراض، والنفوس، وكان من عادتهم العدوان على الناس، وأكلُ أموالهم بالباطل.

خامساً: حذَّرهم من قطع الطريق على الناس، والصدِّ عن دين الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوْا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوْعِدُوْنَ، وَتَصُدُّوْنَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَتَبْغُوْنَهَا عِوَجاً ﴾ فقد كانوا يجلسون على طرق الناس ومراصدهم ـ كما كانت تفعل قريش بمكة ـ يخوّفون من آمن بشعيب بالقتل، ويقولون للناس: إنه كذاب فلا يفتنكم عن دينكم، وهكذا تفننوا في البغي والإفساد.

وبعد هذا التذكير والإنذار، حذَّرهم أن يحلَّ بهم ما حلَّ بمن سبقهم من الكفرة الفجار فقال: ﴿ وَاذْكُرُوْا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ، وَانْظُرُوْا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أي انظروا ماذا حلَّ بالأمم السابقة، حين عصوا الرسل، كيف انتقم الله منهم بأنواع الانتقام، واعتبروا بهم. !

«توعدهم لشعيب والمؤمنين بالطرد من الأوطان»

ولنستمع إلى جواب أولئك الأشرار من قوم شعيب، كيف استقبلوا نصيحة نبيهم، وما كان منهم من البغي والضلال ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوْا مِنْ قَوْمِهِ، لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوْا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا، أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ هكذا بمنتهى الصراحة والوقاحة يتوعَّدون نبيَّهم وأتباعه المؤمنين، بالطرد والإخراج من الأوطان، أو بالعودة إلى عبادة الأوثان، فيجيبهم شعيب عليه السلام بقوله: ﴿ قَالَ أَوَلَوْكُنَّا كَارِهِينَ ﴾؟ أي أتجبروننا على العودة إلى دينكم وملتكم، ولو كنا كارهين لذلك؟. ثم شرع ينبّههم إلى فساد ما هم عليه من معتقد، بطريق حكيم غير مباشر، ليلفت أنظارهم إلى قبح وفساد ما هم عليه، من عبادة من لا يسمع ولا ينفع، ولا يغني عن صاحبه شيئاً، فقال لهم في معرض الردّ: ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا،

وَمَا يَكُوْنُ لَنا أَنْ نَعُوْدَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمَاً، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ ﴾ أي احكم واقض بيننا وبين هؤلاء الكافرين بحكمك العادل، وقضائك المبرم الذي لا جور فيه ولا ظلم.

«الرؤساء جمعوا بين الضلال والإضلال»

ثم تمضي الآيات لتبيّن لنا أن الرؤساء والأشراف من قوم شعيب، لم يقتصروا على الضلال، بل بادروا إلى إضلال الآخرين، فجمعوا بين الضلال والإضلال، ودعوا قومهم إلى عدم الإيمان بشعيب عليه السلام، وأكّدوا لجماعتهم أن في اتّباع شعيب الخسرانَ والضلالَ المبين، وأرادوا بذلك تنفير الناس عن الإيمان به ﴿ وَقَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبَاً إِنَّكُمْ إِذَاً لَخَاسِرُوْنَ ﴾ ما أجرأهم على الله! وما أكذبهم على رسوله!! جعلوا اتّباعَ الناصح الأمين خسراناً وضلالاً، والإيمان به وتصديقه في دعوى النبوة سفهاً وجهالة، وهم العقلاء النابهون؟! وكانت النتيجة هي صيحةُ العذاب والدمار قال تعالى ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوْا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أي أخذتهم الزلزلة العظيمة فأصبحوا صرعى ميّتين ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوْا شُعَيْبَاً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ أي كأنهم لم يقيموا في ديارهم منعّمين، ثم قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوْا شُعَيْبَاً كَانُوْا هُمُ الْخَاسِرِينَ. فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ وهكذا يسدل الستار، بهلاك أولئك الفجار، وينصر الله رسُلَه وجنده المؤمنين[1]!!.

«سنة الله في إهلاك المكذبين»

وبعد أن ذكر تعالى قصص الأنبياء الكرام، قصة (نوح، وهود،

---

(١) انظر تفصيل قصة شعيب عليه السلام في كتابنا النبوة والأنبياء ص /٢٦٠/.

وصالح، ولوط، وشعيب) صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وذكر ما حلَّ بأقوامهم المكذبين من العذاب والدّمار، حينما لم تنفع فيهم الموعظة. . ذكر تعالى بعدها سنَّته الإلّهية، في الانتقام ممن كذَّب أنبياءه، وذلك بأخذهم بالتدرج معهم بالبأساء والضراء، ثم بالنعمة والرخاء، ثم بالبطش والنكال، إن هم استمروا في السير في طريق الغيِّ والضلال، وفي ذلك يقول جلَّت عظمته ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُوْنَ ﴾ أي عاقبناهم بالفقر والبؤس والحرمان، لكي يتوبوا ويخضعوا ويتضرعوا لربهم في كشف البلاء ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ، حَتَّى عَفَوْا، وَقَالُوْا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ، فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُوْنَ ﴾ أي ثم أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من الفقر والضُرّ، السَّعَة والصحة، وأبدلناهم بالشدة والبلاء: النِّعمةَ والرخاءَ ﴿ حَتَّى عَفَوْا ﴾ أي حتى كثروا ونَموا، وتقلَّبوا في التَّرف والنعيم ﴿ وَقَالُوْا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ﴾ أي نسوا نعمة الله فقالوا: هذه عادةُ الدهر، يومُ صفاءٍ، ويومُ بلاء، ويومُ منحةٍ ويومُ محنة، وقد مسَّ آباءَنا مثلُ ذلك من المصائب، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُوْنَ ﴾ أي أخذناهم بالهلاك والعذاب فجأة، من حيث لا يدرون ولا يعلمون. .

والمرادُ أنهم لم ينتفعوا بتدبير الله تعالى فيهم، من رخاءٍ بعد شدة، وأمنٍ بعد خوف، وراحة بعد شقاء وعناء، بل أمعنوا في الفساد والعِناد، فأخذهم الله أخذَ عزيزٍ مقتدر.

«قلة الخيرات بشؤم المعاصي»

ثم بيَّن تعالى أن الجدب والمحل، وقلة الخيرات والبركات، إنما سببه العصيان، فلا تكون ضائقةٌ اقتصادية، ولا تحدث هزَّة أرضية، ولا

يصيبُ النَّاسَ ضيقٌ في معايشهم وأرزاقهم، إلا بسبب الكفر والجحود، فالعصيان هو سبب الحرمان من بركات السماء والأرض، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوْا واتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَلَكِنْ كَذَّبُوْا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوْا يَكْسِبُوْنَ ﴾ فالناس إنما يُحْرمون الرزق بشؤم أعمالهم، وكثرةِ معاصيهم.

«عقابُ الله وانتقامه من المكذِّبين»

وبعد هذا الإيضاحِ والبيان، جاء دور التخويف والإِنذار ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُوْنَ؟ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحَىً وَهُمْ يَلْعَبُوْنَ؟ أَفَأَمِنُوْا مَكْرَ اللَّهِ، فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ القَوْمُ الخَاسِرُوْنَ ﴾.

فلقد خوَّفهم الله عذابه وانتقامه، أن يأتيهم العقاب في أوقات الراحة، في ظلمة الليل، أو في وَضَح النهار، وكأنه تعالى يلفت الأنظار إلى شدة العذاب من ناحيتين: أولاً أن يأتيهم في وقت الراحة وهم نائمون غافلون عنه، وثانياً أن يأتيهم فجأةً وبغتة، وكلما حدث الأمر من حيثُ لا يتوقع الإنسان، كان أشدَّ وأفظع على النفس، والمراد بقوله تعالى: ﴿ بياتاً ﴾ أي ليلاً يقال: بيَّتَ العُدوَّ أي أوقع بهم وأغار عليهم ليلاً.

عن الربيع بن الخيثم، أن ابنته قالت له: مالي أرى الناس ينامون، ولا أراك تنام؟ قال: يا بنتاه إن أباك يخاف البَيَات، يشير إلى قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُوْنَ ﴾ وما أحسن قول الشاعر:

أَيَا راقدَ اللَّيلِ مسرُوْراً بأوَّلِه ... إن الحوادثَ قد يَطْرُقْنَ أَسْحَارا

«مصارع الغابرين»

ثم تمضي الآيات وهي تلفت الأنظار إلى مصارع الغابرين، ممن طغى وبغى وأفسد في الأرض، ليعتبر بذلك من خلْفَهم من الأمم، ويحذروا ما حلَّ بالسابقين ﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُوْنَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوْبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوْبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُوْنَ ﴾ والمعنى أو لم يتَّضحْ ويتبيَّن، للذين يخلفون الأرض بعد هلاك أهلها الذين كانوا يعمرونها قبلهم، أننا لو أردنا لأهلكناهم بسبب ذنوبهم كما أهلكنا من قبلهم، ولختمنا على قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تذكيراً!.

إنها تخويف من الله وإنذار، للكفرة الفجار، أن يَحِلَّ بهم ما حلَّ بمن سبقهم من المكذبين الأشرار.

«الحكمة من ذكر قصص الأنبياء»

ثم بيّن تعالى الغرض والحكمة من ذكر قصص السابقين، وأنباء المتقدمين، تسلية لسيد المرسلين فقال عزَّ شأنه ﴿ تِلْكَ القُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانُوْا لِيُؤْمِنُوْا بِمَا كَذَّبُوْا مِنْ قَبْلُ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوْبِ الْكَافِرِينَ ﴾.

وكأن الآية تقول يا محمد لا تحزن لتكذيبهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فذلك طريق من سبقهم من الطغاة المتجبرين، اغتروا بطول الإمهال، ثم أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. وتختم الآيات الكريمة ببيان سبب الفجور والطغيان، ألا وهو الفسوق والعصيان فتقول: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ، وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾

«قصة موسى عليه السلام»

لا تزال السورة الكريمة تتابع ذكر قصص الأنبياء والمرسلين، وقد تقدمت معنا قصة «نوح» و «هود» و «صالح» و «لوط» و «شعيب» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما جرى لهم مع أقوامهم المكذبين، ثم جاءت السورة لتتحدث عن قصة نبي الله الكليم «موسى بن عمران» عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم، وهي القصة السادسة في هذه السورة الكريمة.

وقد بسط تعالى وفصَّل في هذه القصة، ما لم يذكره في غيرها من القصص، لأن جهل قومه كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام، ولذلك كانت معجزاته ـ عليه السلام ـ أقوى وأظهر من معجزات من تقدَّمه من الأنبياء، ولْنستمع إلى بدء القصة وما فيها من الأنباء العجيبة في هذه السورة الكريمة يقول تقدست أسماؤه: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوْسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ، فَظَلَمُوْا بِهَا، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ ﴾.

والمراد بالآيات هنا: المعجزاتُ الباهرات، والحجج الساطعات التي أيَّد الله بها موسى عليه السلام، وهي «معجزةُ العصا» و «معجزةُ اليد» التي سيأتي الحديث عنها في الآيات التاليات ﴿ وَقَالَ مُوْسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُوْلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ. حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُوْلَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحَقَّ ﴾ أي جدير بي وحقٌ عليَّ، ألا أخبر عن الله إلا بما هو حقٌّ، لأني رسوله، والرسول لا يكذب، ثم قال: ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي قد جئتكم بحجة قاطعة وبرهان نيِّر، يدلُّ على صدقي، فخلِّ سبيل بني إسرائيل، حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة، التي هي وطن آبائهم.

«سبب سكنى بني إسرائيل مصر»

وكان سبب سكنى بني إسرائيل بمصر ـ مع أنَّ أباهم كان بالأرض المقدسة ـ أن الأسباط أولاد يعقوب عليه السلام، جاءوا إلى مصر لمَّا اشتد القحط بالبلاد من أجل المِيَرة، ومكثوا مع أخيهم يوسف، وهناك كثروا وتناسلوا في مصر، فلما ظهر فرعون استعبدهم واستعملهم في الأعمال الشاقة المهينة، فأحبَّ موسى أن يخلّصهم من هذا الأسر، ويذهب بهم إلى الأرض المقدسة، وطنهم ومولد آبائهم، ولهذا قال موسى عليه السلام ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾.

«فرعون يهزأ من موسى»

ولما عرض موسى على فرعون رسالة ربه، وطلب منه أن يُطلق سراح بني إسرائيل، وأن يتخلى عن دعوى الربوبية، وعن الظلم والطغيان، أراد فرعون أن يهزأ منه ويسخر، فقال له على سبيل السخرية والتعجيز: ﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ، فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ والمعنى إن كنت يا موسى صادقاً في دعوى النبوة، فائتنا بمعجزةٍ تدل على صدقك، إن كان ما تقول حقاً أن الله أرسلك!!

وهناك ظهر ما لم يكن في الحسبان، حيث قلب موسى العصا إلى ثعبان، وأخرج يده من فتحة صدره، فإذا هي نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ قال ابن عباس: «لما ألقى العصا تحوَّلت إلى حية عظيمة، فاغرةٍ فاها، مسرعةٍ نحو فرعون» فوثب فرعون عن سريره وهرب[1].

(١) انظر تفسير جامع البيان للطبري، وتفسير ابن كثير، وكتابنا صفوة التفاسير ١/٤٦٣.

وروي أنه لما طلب فرعون من موسى «المعجزة البينة» أخرج له يده وقال «ما هذه»؟ فقال: هذه يدك، ثم أدخلها في جيبه ـ أي فتحة ثوبه ـ ثم أخرجها، فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً غريباً، يغلب شعاعُها شعاع الشمس، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ ولا تكون بيضاء للناظرين، إلا إذا كان بياضها عجيباً خارجاً عن العادة، اجتمع الناس للنظر إليها، كما يجتمعون لمشاهدة العجائب.

«فرعون يستشير أصحابه»

ولما رأى فرعون وجماعته هذه الغرائب المدهشة، وخاف الطاغيةُ أن يؤمن الناس بموسى، ويذهب مُلْكُ فرعون وجبروته، تشاور هو والقومُ فيما بينهم في أمر موسى، وكيف يبطلون دعواه، فقالوا ما حكاه عنهم القرآن الكريم من محاورة ومناظرة ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾؟.

أي قال الرؤساء والأشراف من جماعة فرعون، وهم أصحاب مشورته وخاصته: إن هذا عالم بالسحر، ماهرٌ فيه، قد بلغ الغاية في علم السحر وفنونه، فبأي شيء نقاومه؟ وماذا نصنع في أمره؟ فقال لهم فرعون عند ذاك: «فَمَاذَا تَأْمُرُونَ».

أيْ بأيِّ شيء تشيرون عليَّ؟ والظاهر ـ والله أعلم ـ أن هذه الجملة من كلام فرعون، يطلب منهم أن يشيروا عليه في أمره، ولهذا أجابوه بقولهم: ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ، وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ أي قالوا لفرعون: أخِّر النظر في أمرهما حتى ترى رأيك فيهما، وابعث في أنحاء البلاد من يأتي لك بالسحرة من كل

بلدٍ وقطر، ومن كل ساحرٍ ماهر في السحر.

وفي الآية دلالة على كثرة السحرة في ذلك الزمان، ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما اشتهر في زمانه، فكانت العصا واليد، كما أن الطبَّ لمَّا كان غالباً على أهل زمان عيسى، كانت معجزته بإحياء الموتى وإبراء الأعمى، ولمَّا كانت الفصاحة والبلاغة غالبة في عصر نبينا ﷺ كانت معجزته العظمى القرآن المعجز البليغ.

ثم تتابع الآيات الكريمة سرد أحداث القصة «قصة موسى» عليه السلام مع الطاغية فرعون ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ، قَالُوْا إِنَّ لَنَا لَأَجْرَاً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ؟ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المُقَرَّبِينَ ﴾ أغراهم بالعطايا والمال، وبالمنصب والسلطان، بقصد أن يُبطلوا دعوةَ موسى، بما جاء به من الآيات الساطعات.

«موسى عليه السلام مع السحرة»

وتتابعُ السورةُ سَرْدَ أحداث قصة موسى عليه السلام، مع الطاغية الجبار فرعون اللعين، فبعد أن استدعى فرعون السحرة، وأغراهم بالمال والإكرام، وأن يجعلهم من خواصِّ الرجال المقربين لديه، وحضر موسى عليه السلام، دعوه إلى المنازلة والمصاولة، ولكنهم راعوا حسن الأدب معه، فخيَّروا موسى أولاً، وقدَّموه في الذكر ثانياً، وتلطفوا معه في الخطاب ثالثاً ﴿قالُوا يَا مُوْسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُوْنَ نَحْنُ المُلْقِينَ﴾ أي اختر إما أن تلقي عصاك أولاً، أو نبدأ نحن فنلقي عصيَّنا؟ كما هو دأب المتناظرين والمتصارعين؟. قالوا ذلك اعتزازاً بالنفس، ووثوقاً بالغلبة عليه، ظناً منهم أن ما سيأتي به موسى من قبيل السحر، وفي قولهم

﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُوْنَ نَحْنُ المُلْقِينَ ﴾ ما يدل على رغبتهم في أن يُلقوا قبله، فأجابهم موسى عليه السلام بقوله: ﴿ قَالَ أَلْقُوْا، فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوْا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوْهُمْ، وَجَاءُوْا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾.

والمعنى فلما ألقوا العصيَّ والحبال، خيَّلوا للناس ما لا حقيقة له، وسحروا أعينهم، وأفزعوهم وأرهبوهم إرهاباً شديداً، حيث خيَّلوها حيَّاتٍ تسعى، حتى هرب الناس من هَوْل ما رأوا وشاهدوا.

قال ابن إسحق: صُفَّ في ذلك اليوم خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حبالُه وعصيُّه، وفرعونُ في مجلس مع أشراف مملكته، فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصرَ فرعون وبصرَ موسى، ثم أبصارَ الناس، ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من العصيِّ والحبال، فإذا بها حيَّاتٌ كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً فذلك قوله تعالى: ﴿ سَحَرُوْا أَعْيُنَ النَّاسِ، وَاسْتَرْهَبُوْهُمْ وَجَاءُوْا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾(١).

«إلقاء موسى للعصا»

في ذلك الجو الرهيب، الذي أذهل عقول الناس، وسلب إحساسهم وأبصارهم، حتى خيِّل إلى موسى عليه السلام أن تلك الحبال والعصي، أصبحت حيَّاتٍ مثل عصاه، أوحى الله إليه بطريق الإلهام أن يقذف بعصاه، فقذف بها فإذا هي تبتلع بسرعةٍ عجيبة ما زوَّروه من الباطل والبهتان ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوْسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُوْنَ ﴾ وفي قوله: ﴿ تَلْقَفُ ﴾ ما يدل على السرعة في الابتلاع والالتقام، قال ابن عباس: كانت لا تمرُّ بشيء من حبالهم وخشبهم التي

---

(١) ذكر هذه الرواية الإمام الطبري في تفسيره ١٣/٢٨.

ألقوها إلا التقمته، فلما أخذها موسى عادت عصا كما كانت من غير تفاوت في المقدار والحجم قال تعالى: ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ. فَغُلِبُوْا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوْا صَاغِرِينَ ﴾ أي غُلب فرعونُ وقومُه في ذلك المجمع العظيم، وصاروا ذليلين مهينين ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوْا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ. رَبِّ مُوْسَى وَهَارُوْنَ ﴾.

«إيمان السَّحرة وسجودهم لِلَّه»

لم يتمالك السحرة أنفسهم أن يخرُّوا ساجدين لرب العالمين، لأن الحقَّ بَهَرهم، وعرفوا حقَّ اليقين، أن ما أتى به موسى لو كان من قبيل السحر، لبقيت الحبال والعصي ولم تُفقد، ولانتفخت الحيَّةُ حين ابتلعت تلك الحبال، فلمَّا لم يجدوا أثراً للحبال، عرفوا أن ذلك ما هو إلا بأمرٍ ربَّانيٍ، من خلق الله وتقديره، فخرَّوا ساجدين لرب العالمين ولم يبالوا بالتهديد والوعيد.. قال المفسرون: لما قالوا آمنا بربِّ العالمين، قال فرعون: إيَّايَ يعنون، فلما قالوا: «ربِّ موسى وهارونَ» سُقط في يده، وعرف الحاضرون أنهم آمنوا بإلَه السماء، وكفروا بفرعون الكاذب الجبَّار.

«خذلان فرعون الجبار أمام النَّاس»

ولما شعر فرعون بالخذلان والخسران، أمام أتباعه وأنصاره، ورأى أن السحرة ـ وهم أعلم الناس بالسحر ـ قد أقرُّوا بنبوة موسى وآمنوا بالله بمحضرِ جمعٍ عظيم، خاف أن يصير ذلك حجة عليه، فألقى في الحال شبهة ولكنها أوهى من بيت العنكبوت، زعم فيها أن هناك تواطأً وتآمراً بين السحرة وموسى، مع علم الجميع أن موسى لم يَلْقَ السحرة قبل ذلك

اليوم ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ؟ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوْهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوْا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ﴾.

وقولُه: ﴿ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ دلالة واضحة على تناقض فرعون في ادعائه الألوهية، لأنه لو كان إلّهاً كما زعم، لما جاز له أن يأذن لهم في أن يؤمنوا بغيره، وهذا من جملة الخذلان الذي يظهره الله على لسان المبطلين دون شعور.

«فرعون يهدّد السحرة»

ولما عجز فرعون عن دفع الحجة بالبرهان، عدل إلى البطش والفتك بالسِّنان فقال: ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ، ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ومعنى قوله: «من خلاف» أي أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى، فيخالف بين العضوين في القطع.. ومع هذا التهديد والوعيد، لم تؤثر فيهم مقالة فرعون، بل زادتهم إيماناً وثباتاً ﴿ قَالُوْا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُوْنَ، وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾. عند ذلك نفَّذ فرعون بهم ما أوعدهم به، فنالوا الشهادة في سبيل الله، ورأوا قصورهم من الجنة، قال قتادة: كانوا في أول النهار كفاراً سحرة، وفي آخره شهداء بررة.. وهكذا شأن الإيمان يصنع الأعاجيب، فإنَّ هؤلاء السحرة لمَّا عرفوا الحق، ووضح لهم صدق موسى عليه السلام، آمنوا به واتبعوه، وتحملوا القتل والصَّلْب في سبيل العقيدة والإيمان، وبذلك استحقوا دخول الجنان.

«إغراء فرعون بقتل موسى»

وبعد أن آمن السحرة، وأعلنوا العبودية والخضوع لله رب

العالمين، ونفَّذ فيهم فرعون ما أوعدهم به من الصلب والقتل، ولم يتعرض فرعون لموسى بأخذٍ أو حبس، لأنه كان كلما رآه يخافه أشدَّ الخوف، لما جعل الله له من المهابة والجلالة، وقد زاد خوفه برؤية الآيات الباهرات، التي كانت سبباً في إيمان السَّحرة.. ولكنَّ قوم فرعون كانوا يُغْرون فرعون بقتل موسى، وأنصاره من بني إسرائيل، خشية أن يزول ملك فرعون، وتكون العزَّة والكبرياء لموسى وأتباعه المؤمنين ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوْسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوْا فِي الأَرْضِ، وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾؟ أي قال الأشراف لفرعون: أتترك موسى وجماعته ليفسدوا في الأرض - أرض مصر - بالخروج عن دينك، وترك عبادة آلهتك!! وفي هذا إغراء لـفرعون بموسى وقومه، وتحريضٌ له على قتلهم وتعذيبهم.

والغريب في الأمر أن يصبح «المصلح» مفسداً، ويُعَدَّ «التقيُّ» شقياً، وأن تنقلب الأمورُ، وتتغيَّر الموازين، فيصبحَ موسى ومن معه من المؤمنين، مفسدين مخرِّبين، ويصبح فرعون وأتباعُه أمناء مصلحين، وهذا شأن الطغيان في كل زمانٍ ومكان، يُتَّهم الحقُّ وأنصارُهُ بالتخريب والإفساد، وأهل الباطل يوصفون بالإصلاح والرشاد، كما قال زبانية فرعون للطاغية الجبار ﴿ أَتَذَرُ مُوْسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوْا فِي الأَرْضِ، وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾؟.

وهنا يُستفزُّ فرعون ويستثار، وتلتهبُ عواطفُه ومشاعِرُه، فيصدر حكم الإبادة والتقتيل لجند الرحمن المؤمنين ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ، وَنَسْتَحْيِيَ نِسَاءَهُمْ، وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُوْنَ ﴾ يقول فرعون لجماعته: لن نترك موسى وقومه يفسدون ويُخرِّبون، ويفعلون ما يشتهون، بل سنضع حداً لبغيهم وفسادهم، وذلك بأن نقتِّل أبناءهم الـذكور، ونستبقي

نساءهم للاستخدام، كما كنا نفعل بهم ذلك من قبلُ، وإنَّا فوقهم عالون بالقهر والسلطان.

وكأن فرعون يقول: إن موسى إنما يمكنه الإفساد، بواسطة الرهط والأنصار، فنحن نسعى في تقليل رهطه وشيعته بتقتيلهم، بما أوتينا من القوة والسلطان، ولنا السيطرة والغلبة عليهم على الدوام.

«موسى يدعو قومه للصبر والاستعانة بالله»

ولمَّا بلغ موسى والمؤمنين، ما عزم عليه فرعون اللعين، من البطش والإرهاب، أراد موسى أن يطمئن قومه، إلى أن العاقبة لهم، وأن النَّصْرَ لمن خاف الله واتقاه، فأمرهم بالصبر والاستعانة بالله ﴿ قَالَ مُوْسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوْا بِاللَّهِ واصْبِرُوْا، إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُوْرِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

ولكنَّ بني إسرائيل خافوا وفزعوا من تهديد فرعون، فشَكَوْا إلى موسى مستعجلين طَلَب النصر ﴿قَالُوْا أُوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا، قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ، وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُوْنَ ﴾ وكأنهم يقولون لموسى: إن المحنة لم تفارقنا أبداً، فنحن في العذاب والبلاء، من قبل أن تأتينا بالرسالة ومن بعد ما جئتنا بها، وهذا منهم ضعفٌ وخَوَر، لا يليقُ بالمؤمن الواثق بنصرِ الله، الذي يعلم أنه لا مدبِّر للعالَم إلا اللَّهُ، فبيده سبحانه العزُّ والنَّصرُ، وبيدهِ التمكينُ والتدبيرُ، ولهذا أجابهم موسى إجابة المؤمن الواثق بنصر الله ﴿ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ، ويَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ، فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُوْنَ ﴾.

سلك موسى طريق الأدب مع الله، وساق الكلام مساق الرجاء، فقال: ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ وغَرَضُه تحريضُهم على طاعة

الله، وقد حقّق اللّهُ رجاء موسى، فأغرق فرعون الجبار، وزبانيته وأتباعه الفجار، وملّك بني إسرائيل أرض مصر، فحقق الله لهم الأمل والنصر.

«ما أصاب فرعون وقومه من البلايا والنكبات»

ثم تتابعت الآيات تذكر ما نزل بفرعون وآله، من المحن والبلايا، بشؤم التكذيب، والتمرُّد، والطغيان، فقد ابتلاهم الله عزّ وجلّ بالقحط والجدب، والطوفان والجراد، وبأنواع من النكبات لعلهم ينزجروا عن الغيّ والضلال ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ﴾ أي ابتليناهم بالجدب والقحط، وبإذهاب الثمار بسبب كثرة الآفات، لكي يتعظوا فترِقَّ قلوبُهم، فإن الشدة تجلب الإنابة، والخشية، ورقة القلب.

ثم بيّن تعالى أنهم مع تلك المِحَن والشدائد، لم يزدادوا إلا تمرداً وطغياناً ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوْا بِمُوْسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ والمعنى أنه إذا جاءهم العُشب، والخِصبُ، والثمار، والرخاء، قالوا هذا ببركتنا وسعدنا، ونحن مستحقون لهذا الفضل والإنعام.. وإذا جاءهم القحط والجدب والشدة، تشاءموا بموسى والمؤمنين، وقالوا: هذا البلاء إنما جاءنا بشؤم موسى وبني إسرائيل[1]، قال تعالى رداً عليهم ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ﴾ أي ما يصيبهم من خير أو شر، فبتقدير الله وقضائه، وليس بشؤم موسى وأتباعه، ولكنهم قوم جهلة ولذلك يقولون ما يقولون.

---

(١) أصلُ التطيُّر في اللغة: زجرُ الطَّيْر لمعرفة ما قُدِّر لهم من الخير والشر، فإذا طار جهة اليمين تفاءلوا بالخير والسَّعد، وإذا طار جهة اليسار تشاءموا بالبلاء والشرِّ، وهذه من العادات التي انتشرت عند العرب، وهذا معنى قوله تعالى «يَطَّيَّروا بِمُوْسَى وَمَنْ مَعَهُ» أي يتشاءموا به وبأتباعه وأنصاره.

«الآيات التسع التي حَلَّت بقوم فرعون»

لا تزال السورة الكريمة «سورةُ الأعراف» تطالعنا بالقَصَص الممتع، والأحداث العجيبة، التي زخرت بها السورة الكريمة، حول أخبار وأنباء رسل الله المكرمين، مع الطغاة المفسدين، في شتى الأزمان والعصور، وقصة موسى الكليم، كانت من أبرز القصص القرآني، في هذه السورة الكريمة، حيث جاءت تسرد لنا أخباره مع الطاغية فرعون، بالتفصيل والإسهاب، وما حلَّ بقوم فرعون من النكبات والبلايا، وما ابتلاهم الله به من القحط والجدب، نتيجة إصرارهم على الكفر، وتكذيبهم بآيات الله ومعجزات موسى الباهرات، ومع كل هذه الخوارق والمعجزات، التي أتاهم بها نبيُّ الله موسى عليه السلام، عاندوا وكذَّبوا، واستمروا في الغيِّ والضلال، فأرسل الله عليهم الطوفان، وكثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار، والجراد الذي حصد البقل والنبات، وأكل الورق والشجر، والقُمَّل وهو «السوس» الذي ينخر الحبوب، ويتلف المدَّخر من الطعام، من قمح، وذرةٍ، وعدسٍ، وسائر أنواع الحبوب، كما أرسل تعالى عليهم الضفادع حتى ملأت بيوتهم ومساكنهم، وإذا تكلَّم أحدهم وثبت الضفدع إلى فمه، وجعل اللَّهُ مياههم التي يشربونها تنقلب إلى دم قانٍ، فما يستقون من بئرٍ ولا نهرٍ إلَّا وجدوه دماً تنفر منه النفس، وكانت هذه البلايا الخمس، مؤشراتٍ على سخط الله وغضبه عليهم، وآياتٍ باهراتٍ، تدل على صدق موسى عليه السلام، فيما جاءهم به من عند الله، ومع كل هذه الدلائل والبراهين، كفروا وعاندوا، ولنستمع إلى آيات الله البينات، وهي تقصُّ علينا أنباء الأقباط من قوم فرعون، وما لاقوه من أنواع المصائب والنكبات ﴿ وَقَالُوْا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ

الطُّوْفَانَ، وَالجَرَادَ، وَالقُمَّلَ ـ وهو السوس ـ وَالضَّفَادِعَ، وَالدَّمَ، آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ، فَاسْتَكْبَرُوْا وَكَانُوْا قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾.

«تسميتهم الآيات البينات بالسحر»

وإمعاناً منهم في الضلال، سمُّوا ما جاءهم به موسى عليه السلام، من الآيات والنُّذُر، شعوذةً، ودَجَلاً، وعدُّوه من قبيل السِّحر، تهكماً وازدراءً، فقالوا قولتهم الشنيعة ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا، فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس: «إن القوم لما قالوا ما قالوا، وكان موسى رجلاً حديداً ـ سريع الغضب ـ دعا عليهم، فأرسل الله عليهم الطوفان وهو مطر السماء الغزير، الذي تسببت عنه السيول الجارفة، فامتلأت بيوت القبط ماءً، حتى غاصوا في الماء إلى الركب، ومنعهم من الحرث والبناء والتصرف، فاستنجدوا بموسى وطلبوا منه أن يدعو ربَّه لينقذهم من ذلك الكرب والبلاء»[1]، ثم تتابعت عليهم النُّذُر من إرسال الجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، وفي كل مرة يستنجدون ويستيغثون، فإذا كُشف عنهم البلاء، عادوا إلى السَّفه والجهل والعناد، وفي ذلك يقول الله جلّ ثناؤه ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ـ أي العذابُ ـ قَالُوْا يَا مُوْسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ أي بما أوحى إليك من النبوة والرسالة ﴿ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ، وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ قال تعالى مخبراً عن كذبهم وسفههم، وسوء صنيعهم، ونقضهم للعهود التي قطعوها على أنفسهم ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوْهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُوْنَ. فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي اليَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا، وَكَانُوْا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾.

---

(١) انظر أقوال السلف في أنواع البلاء الذي حلَّ بقوم فرعون في جامع البيان للطبري، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، وفي تفسير القرطبي والألوسي.

«توريثُ بني إسرائيل ملك فرعون»

ثم تمضي السورة الكريمة لتخبرنا عن نعمة الله العظمى على بني إسرائيل «اليهود» حيث نجاهم من بطش فرعون، وأنقذهم من طغيان الأقباط، الذين استذلوهم وأهانوهم، وسَخَّرُوهم في أرذل وأبشع الأعمال، فأنقذهم الله من ذلك البلاء، وملَّكهم دورهم وقصورهم، وجعلهم أعزةً بعد أن كانوا في الذل والهوان ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوْا يُسْتَضْعَفُوْنَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوْا، وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوْا يَعْرِشُوْنَ ﴾.

«نعم الله الجليلة على بني إسرائيل»

وإلى هنا تنتهي - أيها الإخوة - قصة فرعون وقومه، وما كان من نتيجتهم المخزية، التي بقيت عظة وعبرة على مدى الأزمان، ويبتدىء الحديث عن بني إسرائيل، وما أغدق الله عليهم من النِّعم الجِسام، وأراهم من الآياتِ العظام، تسليةً للمؤمنين وللرسول عليه الصلاة والسلام، وتذكر ما قابل به اليهود نِعَمَ الله وإفضاله، من سوء الفعل والصنيع، وذلك كبرهان واضح على لَجَاجهم وعنادهم، وتلك هي طبيعة اليهود، المتأصلة في نفوسهم، من التمرد والعناد، وفيهم يقول الباري تقدست أسماؤه: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البَحْرَ، فَأَتَـوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُوْنَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ، قَالُوْا يَا مُوْسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، قَالَ: إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُوْنَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ﴾.

يا لَلْعجب العُجابِ من صنيع هؤلاء اليهود، أغرق الله عدوهم فرعون وقومه، ونجّاهم مما كانوا فيه من الظلم والاضطهاد، وأورثهم ديار الظالمين، فعادوا إلى اللَّجاج والعناد، يطلبون من نبيهم موسى أن

يصنع لهم أصناماً يتقربون بعبادتها إلى الله، وإنه لمنتهى الحماقة والسَّفه، ولهذا ذكَّرهم موسى بأسلوب التعجب والاستنكار لمثل هذا الطلب العجيب، ممَّن يدّعي الإيمان والتوحيد ﴿ قال أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾؟.

«تذكير بني إسرائيل بنعم الرب الجليل»

ثم تتابعت الآيات وهي تطالعنا بأسلوبها العجيب عن أخبار بني إسرائيل، وما أكرمهم الله به من أنواع النعم، حيث أنقذهم من طغيان فرعون وجبروته، وما كان يفعله معهم من ضروب البطش والتنكيل، فقد استعبدهم واستذلَّهم، وقتَّل أبناءهم، واستحيا نساءهم، إلى أن أهلكه الله وقومه، ونجَّى بني إسرائيل من ذلك العذاب المهين، وقد جاءت الآيات تذكّرهم بتلك النعم الجليلة، ليشكروا ربهم عليها، ويستجيبوا لدعوة نبيهم موسى عليه السلام، الذي بعثه الله رحمة لهم، ومنقذاً لهم من الكرب والضيق، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوْءَ العَذَابِ، يُقَتِّلُوْنَ أَبْنَاءَكُمْ، وَيَسْتَحْيُوْنَ نِسَاءَكُمْ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلاَءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾.

«وعد الله لموسى بإنزال التوراة عليه»

وتتابعت الآيات تسردُ على مسامعنا الأحداث الجليلة، التي حدثت لنبيِّ الله الكليم، «موسى بن عمران» عليه أفضل الصلاة والتسليم، فقد وعده الله أن ينزل عليه كتاباً، يكون دستوراً لبني إسرائيل، يسيرون على منهاجه في حياتهم الدنيا، ليسعدوا بتطبيق شريعة الله، بعد أن عاشوا رَدْحاً طويلاً من الزمان، في العبودية والذل والهوان ﴿وَوَاعَدْنَا

مُوْسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ، فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَقَالَ مُوْسَى لأَخِيهِ هَارُوْنَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي، وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ روى أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر، إن أهلك الله عدوَّهم، أن يأتيهم بكتاب من عند الله، فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعونُ سأل موسى ربه الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوماً، وهي شهر ذي القعدة، فلما أتمَّ الثلاثين أنكر خلوف فمه - أي تغيُّرَ رائحته - فتسوَّك، فأوحى الله تعالى إليه: أما علمت يا موسى أن خلوف فم الصائم، أطيبُ عندي من ريح المسك؟! فأمره الله أن يزيد عليها عشرة أيام[1] فذلك قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوْسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ أي وعدنا موسى لمناجاتنا بعد مضيِّ ثلاثين ليلة، وأكملناها بعشر ليالٍ، فتمت المناجاة بعد أربعين ليلة.

«شوق موسى الكليم لرؤية ربه الجليل»

ثم وضَّحت الآيات ما كان في ذلك اللقاء، بين العلي الكبير، وبين عبده ورسوله موسى الكليم، حيث إنه بعد أن سمع كلام الجليل، اشتاق إلى رؤية ربه، فطلب من الله جلَّ وعلا أن يريه ذاته المقدسة، - يعني بالبصر - لأن التلذذ بسماع كلام الحبيب، يزيد في الشوق إليه والحنين، فهو قد سمع الكلام دون وساطة المَلَك، فأحبَّ أن يتمَّ له السرور برؤية المولى الجليل ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوْسَى لِمِيقَاتِنَا - أي للوقت الذي حدَّدناه له - وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ، قَالَ: لَنْ تَرَانِي، وَلَكِن انْظُرْ إِلَى الجَبَلِ، فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوْسَى صَعِقاً، فَلَمَّا أَفَاقَ قال سُبْحَانَكَ، تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والمعنى: لما ظهر وبان من جلال الله

---

(١) ذكره المفسرون: الطبري، والقرطبي، وابن كثير، والألوسي وغيرهم من المفسرين.

ونوره على جبل الطور شيءٌ يسير، اندك الجبل وتفتّت وتطاير، وسقط موسى مغشيًّاً عليه مغمىً، من هول ما رأى وشاهد، قال ابن عباس: ما تجلَّى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخِنْصر، فصار الجبل تراباً مَهيلاً، وخرَّ موسى مغشياً عليه[1].

«رؤية الله في الدنيا ممنوعة وفي الآخرة مشروعة»

وموضوع رؤية الله جلَّ وعلا في هذه الدنيا ممنوعةٌ، حتى على الأنبياء والرسل الكرام، لأن الطاقة البشرية في هذه الحياة محدودة، وأمَّا في الآخرة فلا حدود ولا قيود، وهي للمؤمنين في دار الخلد والنعيم مقطوع بها كما قال سبحانه ﴿ وُجُوْهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وهذا هو مذهب أهل السنة قاطبة، أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة، رؤيةً بصرية، ويعطيهم الله من الطاقة والقدرة ما يؤهلهم لتلك الرؤية، وأنكرت بعض الطوائف رؤية الله عزّ وجلّ مطلقاً، وقالوا لا يُرى الله، لا في الدنيا ولا في الآخرة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَنْ تَرَانِي ﴾ وهو مذهب المعتزلة، وليس لهم في هذه الآية متمسك، بل هي دليلٌ لأهل السنة والجماعة، على إمكان الرؤية، لأنها لو كانت مُحَالاً لم يسألها موسى الكليم، وهو نبيٌّ من أولي العزم، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يعلمون ما يجوز على الله وما يستحيل، ولو كانت الرؤية مستحيلةً لكان في الجواب له زجرٌ وإغلاظٌ، كما قال تعالى لنوح عليه السلام ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُوْنَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ولو كانت الرؤية غير ممكنة في الآخرة، لما كان هناك فائدة من حجب الكفار عن رؤية الجبار ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُوْنَ﴾.

(١) ذكر هذا الأثر الحافظ ابن كثير في تفسير ٤٨/١٥ وكذلك ابن الجوزي والألوسي.

«عدم الرؤية لضعف البنية البشرية»

فهذا المنع من رؤية الله إنما هو في الدنيا، لضعف البنيةِ البشرية عن ذلك، قال مجاهد: إن الله قال لموسى حين طلب رؤيته «لن تراني» لأنك لا تُطيق ذلك، ولكنْ سأتجلَّى للجبل، الذي هو أقوى وأشدُّ منك، فإن استقرَّ وأطاق الصبر لهيبتي وجـلالي، أمكن لك أن تراني، وإن لم يُطق الجبل، فأحرى ألا تطيق أنت»[1] وعلى قول مجاهد فقد جعل الله الجبل مثالاً لموسى، ولم يجعل الرؤية مستحيلةً على الإطلاق، وقد جاء في الخبر أن نبينا ﷺ رأى ربه ليلة المعراج بعين الرأس[2]، وفي ذلك دليلٌ على أفضليته على موسى، وكانت رؤيةً في عالمٍ غير هذا العالم، لأنها كانت في الملأ الأعلى، وشتان بين من اتخذه الله لنفسه حبيباً، وقرَّبه إليه بلطفه تقريباً، وبين من ضُرب له الحجاب، وخرَّ صعقاً من جلال ربِّ الأرباب!!.

«نزول التوراة فيها الحلال والحرام»

لا تزال السورة الكريمة تتحدث في آياتها البينات، عن قصة موسى الكليم مع قومه من بني إسرائيل، وقد أفاضت هذه السورة في ذكر الأحداث التي وقعت لموسى عليه السلام، مع بني إسرائيل كنموذج لبيان ما انـطوت عـليه نفوس هؤلاء الأقوام، من جحود وعصيان، وبغي وإجرام، فمع كثرة النعم، وترادف المِنَن العظيمة التي خصَّهم الله بها دون سائر الخلق، قابلوها بالاستكبار والعناد، سفهاً منهم وجهلاً، والآيات الكريمة تتحدث عن إكرام الله لبني إسرائيل بإنزال التوراة، فيها كل ما يحتاجون إليه من المواعظ، والإرشادات الإلَهية، والأحكام الشرعية المفصَّلة للحلال والحرام، وموقفهم من هذا الكتاب المقدَّس، الذي

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ١/٤٩.

(٢) هذا قول ابن عباس وإليه ذهب بعض العلماء.

نزل لسعادتهم، فجعلوه وراءهم ظِهرياً، واختاروا طريق الغيّ على طريق الهدى والرشاد ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ، وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوْا بِأَحْسَنِهَا، سَأُورِيكُمْ دَارَ الفَاسِقِينَ. سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُوْنَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوْا بِهَا، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوْهُ سَبِيلاً، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوْهُ سَبِيلاً، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا وَكَانُوْا عَنْهَا غَافِلِينَ. وَالَّذِينَ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ، هَلْ يُجْزَوْنَ إلا مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ ﴾.

«عبادة بني إسرائيل للعجل»

ثم تمضي السورة تطالعنا على ما كان من بني إسرائيل من فسادٍ وإجرام، وكفر وعدوان، فقد اتخذوا لهم إلّهاً صنعوه بأيديهم من الحُليّ والجواهر، وصوَّروه بصورة عجل من البقر، وانكبُّوا عليه يعبدونه من دون الله، في غيبة نبيِّهم موسى عليه الصلاة والسلام، والعجب من أمر هؤلاء السفهاء، كيف عبدوا العجل واتخذوه إلّهاً، مع أنه ليس فيه شيء من صفات الإلّه القادر، الخالق الرَّازق، فهو لا يملك قدرة الكلام، ولا قدرة هدايتهم إلى سبيل السعادة والنجاة، فكيف يُتَّخذ إلّهاً من دون الله؟! ولكن إذا عرفنا أن طبيعة هؤلاء اليهود هو حبُّ الماديّة، الذي سيطر على قلوبهم وأسماعهم، زال العجب، فهم أناسٌ قد انتكسوا إلى درجة الحيوانية، من تقديس المال وعبادة الذهب، فنفوسهم وضيعةٌ مهينة، لم تَسْمُ إلى العلياء، ولم تتخلَّصْ من القاذورات والأدران، فلا عجب أن يعبدوا عجلاً من البقر له خوار ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوْسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدَاً لَهُ خُوَارٌ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً؟ اتَّخَذُوْهُ وَكَانُوْا ظَالِمِينَ ﴾ والاستفهام في قوله «أَلَمْ يَرَوْا» للتقريع

والتوبيخ، أي ألم يدركوا بعقولهم مهانة هذا الإِلّه المزعوم، الذي لا قدرة له على الكلام، ولا على النفع والضرّ؟ فكيف اتخذوه إلهاً وعبدوه من دون الله؟!.

«قصة موسى والسامريّ»

قال المفسّرون: جمع رجل من المنافقين يسمّى «السامريّ» الحليَّ التي كانت مع بني إسرائيل، وكان رجلاً مطاعاً فيهم ذا قدر ونفوذٍ ـ وذلك في غيبة نبي الله موسى الكليم، حين ذهب لمناجاة ربّه ـ ثم صَهَرها وصاغَ منها عجلاً، وجعل ذلك العجل مجوَّفاً، ووضع في جوفه أنابيب على وجه مخصوص، ثم وضع التمثال على مهبّ الرياح، فظهر منه صوتٌ شديد، يشبه صوت خوار البقر، فذلك قوله تعالى: ﴿عِجْلاً جَسَدَاً لَهُ خُوَارٌ﴾.

وقال الحافظ ابن كثير: يخبر تعالى عن ضلال من ضلَّ من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، الذي اتخذه لهم السامريُّ من الحُلِيّ، فشكَّل لهم منه عجلاً جسداً لا روح فيه، وقد احتال بإدخال الريح فيه حتى صار يُسمع له خُوار أي صوت كصوت البقر[1].

وفي قوله تعالى: ﴿عِجْلاً جَسَدَاً لَهُ خُوَارٌ﴾ تنبيه على أنه لم ينقلب إلى عِجْلٍ حقيقي من لحم ودم، وإنما هو عجلٌ من ذهب، يشبه في شكله صورة العجل الحقيقي، فهم يعرفون أنه من ذهب، ليس له من الحقيقة إلاَّ صورةُ الجسد، ولكنهم فُتنوا به لصوته الرخيم، لجُؤاره وخُواره، فقالوا: لو لم يكن إلّهاً لما كان له هذا الصوت العجيب؟ فانكبُّوا عليه يعبدونه، ويتضرعون إليه ويستنجدونه، وقد وبَّخهم القرآن وشنَّع عليهم على هذا السَّفه والضلال، فقال سبحانه مُزْرياً بعقولهم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٥١.

أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوْهُ وَكَانُوْا ظَالِمِينَ﴾ وكأن الآية تقول: من حقّ الإلّه أن يكون هادياً، متكلماً، مرشداً إلى سبيل الحقّ ومنهاجه، فكيف يكون هذا العجل إلّهاً وليس له شيء من هذه الصفات؟.

«ندم اليهود على تلك الجناية»

ثم بيّن تعالى ندم هؤلاء اليهود، وحسرتهم على ما ارتكبوا من جناية، بعد أن عاد إليهم نبيُّهم موسى، وبيَّن لهم ضلال ما فعلوه فقال سبحانه: ﴿ ولمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ أي ندموا على جنايتهم واشتدَّ ندمُهم ﴿ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوْا قَالُوْا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ويا لها من سقطة هوى بها بنو إسرائيل إلى أسفل سافلين، بعبادتهم ذَكَر البقر ألا وهو «العِجْلُ»، ولكنَّ الجنس يألفه الجنس، فلو لم يكونوا من صنف البقر، ما عبدوا عجلاً له خوار؟! وحين رجع موسى إلى بني إسرائيل، ورأى ما رأى من ضلال قومه، طرح الألـواح من يده التي فيها أحكام التوراة، من شدة الغضب وفرط الضجر، غضباً لله، وأخذ برأس أخيه هارون يجرُّه من شعره، ظناً منه أنه قد قصَّر فلم ينههم عن ذلك الضلال، قال ابن عباس: «لما عاين قومه وقد عكفوا على عبادة العجل، ألقى الألواح فكسرها غضباً لله، وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه، وكان ﷺ رجلاً حَديداً أي سريع الغضب لانتهاك محارم الله»[1] وإلى ذلك تشير الآيات البينات ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوْسَى إِلَـى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِـفاً ـ أي شديد الحزن ـ قَالَ بِئْسَـمَا خَلَفْتُمُوْنِي مِنْ بَعْدِي؟ أَعَجِلْتُمْ

(١) انظر تفسير الطبري، وابن الجوزي، والنيسابوري، وقد ورد في الحديث الذي أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس مرفوعاً أن النبي ﷺ قال: «يرحم الله موسى، ليس المُعَايِنُ كالمُخْبَر، أخبره ربُّه عزَّ وجلّ أن قومَه فُتِنوا بعده، فلم يُلْقِ الألواح، فلمَّا رآهم وعَايَنَهم ألقى الألواح».

أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ، قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُوْنِي وَكادُوْا يَقْتُلُونَني فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ، وَلاَ تَجْعَلْني مَعَ القَوْمِ الظَّالِمينَ. قَالَ رَبِّ اغفِرْ لِي وَلأَخِي وأَدْخِلْنَا في رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمينَ ﴾.

«توبيخٌ لمن عبدوا غير الله»

تحدثت الآيات السابقة عن أمر عبادة اليهود للعجل، في غيبة نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام، ولا تزال الآيات الكريمة تقرع بحججها الدامغة، آذان أولئك الضّالين، فقد أعجبهم منظر ذلك العجل، وسحرهم صوته وخوارُه، فانكبُّوا عليه يعبدونه من دون الله، وذلك من أوضح البراهين على أن «الوثنية» كانت متأصلة في نفوسهم، حتى وهم في حياة نبيِّهم، ما انفكوا عن عبادة البقر والجماد، وفيهم يقول الله سبحانه وتعالى مزرياً بعقولهم: ﴿ إِنَّ الَّذينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ، سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُفْتَرِينَ ﴾ ومع ذلك الضلال الذي وقع فيه بنو إسرائيل، ومع إغراقهم في الوثنية وعبادة الأحجار والأبقار، فقد فتح الله تعالى أمامهم أبواب الرَّحمة، ليرجعوا إلى ربهم، ويُنيبوا إليه، ويُقبلوا عليه بقلوب خاشعة منكسرة، ليغفر لهم ما اقترفوه من أوزار وأوضار ﴿ والذين عملوا السيئاتِ ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لَغَـفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وفي هذه الآية إعلامٌ من الباري جلَّ وعلا لعباده، بأن الذنوب وإن جلَّت وعَظُمت، فإن رحمة الله وعفوه أعظمُ وأجلُّ، حتى لا يقنط عبدٌ من رحمة مولاه، وما أحسن قول القائل:

يا رَبِّ إنْ عَظُمَتْ ذُنُوبي كَثْرَةً ... فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إنْ كَانَ لا يَرْجُوْكَ إلَّا مُحْسِنٌ ... فَبِمَنْ يَلُوْذُ ويَسْتَجِيرُ المُجْرِمُ؟

«غضب موسى وتكسيره للألواح»

وتتلاحق الآيات الكريمة، وهي تصوِّر لنا حالة نبيٍّ الله موسى الكليم، وهو يرى قومه بني إسرائيل وهم يعكفون على عبادة عجل من البقر، فتتحرك في نفسه ثورةُ الغضب لله جلّ وعلا، فيلقي ألواح التوراة من يديه، ويُقبل على أخيه يجرُّه من شعر رأسه، ظناً منه أنه قد قصَّر معهم، ثم بعد أن تهدأ عاصفةُ الغضب، يرجع إلى الألواح التي كان قد ألقاها فيحملها، وفيها أوامر الله ونواهيه، وهُداه وبيانُه ﴿ ولمَّا سَكَتَ عن مُوسَى الغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدَى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾.

ولننظر ـ أيها الإخوة ـ إلى روعة البيان في إعجاز القرآن، فقد شبَّه الغضبَ بشخصٍ يزمجر ويُرعد، طالباً الانتقام ممن عصى أمر الرحمن، ثم اختفى ذلك الصوت فلم يعد يُغريه، فترك النطق والكلام، وهذا ما يسمى في قانون البلاغة العربية بالاستعارة التبعية، ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوْسَى الغَضَبُ﴾ ولم يقل: ولما ذهب عنه الغضبُ أو زال عنه الغضب، وهذا التعبير في أعلى ذروة الفصاحة البيانية، التي اختصَّ بها القرآن.

«اختياره سبعين رجلاً من بني إسرائيل»

وتنتقل الآيات بنا بعد ذلك، إلى مشهد آخر في دعوة موسى عليه السلام مع قومه، تكشف لنا طبيعة هؤلاء اليهود، وعتوَّهم وعنادهم، وإغراقهم في البغي والعدوان، فقد أمر تعالى موسى، أن يختار من قومه سبعين رجلاً من بني إسرائيل، من أفاضلهم وأعيانهم، ويذهب بهم إلى جبل الطور، ليعتذروا عن عبادتهم للعجل، عند مكالمته لربه، فاختار منهم ذلك العدد، وأمرهم أن يتطهَّروا ويُطهِّروا ثيابهم، ثم خرج بهم إلى طور

سيناء، فلما أتوا ذلك المكان، وأوحى الله إليه ما أوحى، قالوا له يا موسى لقد كلَّمك ربُّك، فاطلب لنا منه أن نراه ونرى جلاله، فحذَّرهم نبيُّهم عاقبة ذلك الطلب فقالوا له «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً» فنزلت عليهم صاعقة من السماء، فهلكوا وماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: ربِّ ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلكتَ خيارهم؟ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة في قوله سبحانه: ﴿ وَاخْتَارَ مُوْسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا ـ أي للوقت الذي حدَّدناه وعينَّاه له ـ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ـ أي فلما رجف بهم الجبل وصُعقوا ـ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا، إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾ أي ما هـذه المحنة إلا ابتـلاءٌ منك لعبـادك وامتحان ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ ﴾ واستمر نبي الله موسى الكليم، يدعو ربه الرحيم، ليكشف عن قومه البلاء، بهذا الدعاء الخاشع المنيب ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي تبنا ورجعنا إليك من جميع الذنوب والمعاصي ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ، وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُوْنَ وَيُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُوْنَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُوْنَ الرَّسُوْلَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُوْنَهُ مَكْتُوْبَاً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ، يَأْمُـرُهُمْ بِالْمَعْـرُوْفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ـ أي يـرفع عنهم التكاليف الشاقة التي تشبه الأغلال ـ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، وَعَزَّرُوْهُ وَنَصَرُوْهُ، وَاتَّبَعُـوْا النُّـوْرَ الَّـذِي أُنْـزِلَ مَعَـهُ أُوْلَئِـكَ هُمُ الْمُفْلِحُـوْنَ ﴾ وهكـذا تكشف لنا الآيات عن طَرَفٍ من أخلاق اليهود، وسيرتهم المنحرفة عن طريق الهداية مع الله ورسله، فإذا كان هذا حالُ الأخيار فيهم، طلبوا من

نبيهم رؤية الله، فكيف بحال الأشراروالفجار؟ صرف الله أذاهم عن الإنسانية، وقطع دابرهم، إنه سميع مجيب الدعاء.

«نبع عيون الماء من الحجر»

لقد تحدثت سورة الأعراف بالتفصيل عن أخبار بني إسرائيل، بما حوته من قصص ممتع، في ذِرْوةِ الفصاحة والبيان، ولا تزال الآيات تكشف لنا عن طبائع اليهود من بني إسرائيل، وتحكي لنا صوراً عن مآسيهم ومخازيهم، وتمردهم وعصيانهم لأوامر الله، فقد قابلوا النِّعم الجليلة، بالجحود والكفران، وذلك حين كانوا في الصحراء في أرض التيه مع نبيِّهم موسى عليه السلام، واشتد بهم العطش والجوع، فطلبوا من نبيهم أن يدعو ربه لينقذهم من الهلاك، فأمره تعالى أن يضرب لهم الحجر، فتتفَّجرُ لهم منه عيون الماء، وأرسل الله عليهم المنَّ والسلوى من السماء، وظلَّلهم من وهج الشمس بالغمام، فكان ذلك لهم آياتٍ باهرة، على إنعام الله وإفضاله عليهم، ومع ذلك لم يشكروا ربهم على هذه النّعم، بل أمعنوا في الغيِّ والضلال، فسلبهم الله تلك النعم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَي عَشْرَة أَسْبَاطَاً أُمَمَاً ﴾ أي صيَّرناهم فِرَقاً وقبائل شتَّى، وميَّزنا بعضهم من بعض، كيلا يتحاسدوا ويتباغضوا ويقع بينهم الفتن والهرج، وجعلناهم اثنتي عشرة قبيلة ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوْسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ، فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنَاً ﴾ أي فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً من عيون الماء بعدد القبائل ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ، وَظَلَّلنَا عَلَيْهِمُ الغَمَامَ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ المَنَّ وَالسَّلْوَى، كُلُوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ، وَمَا ظَلَمُوْنَا وَلَكِنْ كَانُوْا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ﴾ وفي الكلام شيء مقدَّرٌ محذوف أي فكفروا نعمتنا ولم يشكروها، وما ظلمونا بهذا الجحود، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

هذه نعم الله تتوالى على اليهود، وهم في الصحراء في أرضٍ مضيعةٍ، ولكنهم لا يشكرون المنعم على إنعامه وإفضاله، ويكرمهم الله - بدعاء نبيهم - بالمنٍّ والسلوى، ينالونه دون جهدٍ وتعب، والمنُّ شيء حلوٌ ينـزل على الشجر، والسلوى طـائرٌ لـذيذ اللحم يسمى «السُّمَّاني» قد أعدَّه الله لطعامهم، ولكنهم - لفساد عقولهم ومزاجهم - يطلبون أن يُبدلهم اللّهُ به العدس، والبصل، والثُّوم، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوْسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ، فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا، وَفُوْمِهَا، وَعَدَسِهَا، وَبَصَلِهَا، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُوْنَ الَّذي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟ اهْبِطُوْا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ. . ﴾[1] الآية.

«دخولهم بيت المقدس يزحفون على المقاعد»

ثم تمضي السورة تكشف لنا وجهاً آخر من مخازي اليهود، وتطالعنا بصفحة جديدة من طغيانهم، وعدوانهم، واستهزائهم بأوامر الله، فقد أُمروا بأن يدخلوا «الأرضَ المقدَّسة» أرض بيت المقدس، ساجدين شاكرين، وأن يقولوا عند دخولها: اللهمَّ حطَّ عنا ذنوبنا، ليغفر الله لهم كل خطيئة، فماذا فعل أولئك السفهاء؟ لقد غيَّروا أوامر الله، فدخلوا يزحفون على أستـاههم - أي مقاعـدهم - بدل أن يـدخلوا خاشعين ساجدين لله رب العالمين، وقالوا في دعائهم: حبَّةُ حِنْطة بدل أن يقولوا «حِطَّة» سخرية واستهزاءً، فأرسل الله عليهم عذاباً من السمـاء هو الطاعون، فمات منهم في ساعة واحدة ما يزيد على أربعة وعشرين ألفاً كما ذكر المفسرون، وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوْا هَذِهِ القَرْيَةَ، وَكُلُوْا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ، وَقُوْلُوا حِطَّة ﴾ أي حطَّ عنا

---

(١) سورة البقرة آية رقم /٦٢/.

ذنوبنا يا رب ﴿ وَادْخُلُوْا البَابَ سُجَّدَاً، نَغْفِرْ لكم خَطِيئَاتِكُمْ، سَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ. فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوْا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزَاً مِنَ السَّمَاءِ - أي عذاباً من السماء - بِمَا كَانُوْا يَظْلِمُوْنَ ﴾.

«قصة أصحاب القرية»

ثم تتابعت الآيات تذكر لنا قصة عجيبة «قصة أهل القرية» التي كانت على شاطىء البحر، وهي قرية «أَيْلة» كانت سكنى لليهود، على طرف بحر القُلزم، وأراد الله أن يمتحنهم في يوم السبت الذي حرَّم عليهم فيه الصيَّد، هل يمتثلون أمر الله، أم أنهم يعبدون المادة والمال؟ فكان سبحـانه يرسل لهم الحيتان والأسماك يوم السبت بكثرةٍ ووفرة، بحيث لكثرتها لا يكاد يُرى الماء، وفي غير يوم السبت لا تأتيهم تلك الحيتان، ابتلاءً من الله وامتحاناً، ولكنَّ اليهود - وهم أناسٌ قد برعوا في المكر والاحتيال، وعبـادة المال - تـظاهروا بـالطاعـة والانقياد، فلم يصطادوا يوم السبت، ولكنهم صنعوا حيلةً ماكرة، فبنوا أحواضاً كبيرة، فإذا كان يوم السبت وأقبلت الحيتان نحوهم، وضعوا حواجز لها لئلا تستطيع العودة، ثم يأتون فيأخذونها يوم الأحد، ويحتالون في صيدها وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ البَحْرِ ﴾ أي قريبة من البحر وعلى شاطئه ﴿ إِذْ يَعْدُوْنَ فِي السَّبْتِ ﴾ أي يعتدون يوم السبت باصطيادهم فيه، ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعَاً ﴾ أي حين كانت الأسماك تأتيهم يوم السبت كثيرة ظاهرة على وجه الماء ﴿وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُوْنَ لاَ تَأْتِيهِمْ﴾ أي وفي غير يوم السبت تغيب عنهم وتختفي ﴿ كَـذَلِكَ نَبْلُوْهُمْ بِمَـا كَانُـوْا يَفْسُقُـوْنَ ﴾ أي نبتليهم ونمتحنهم بسبب فسقهم وانتهاكهم حرمات الله.

«انقسامهم إلى ثلاثة أقسام»

وحين خالفوا أمر الله، واحتالوا على اصطياد السمك، إمعاناً منهم في الغيِّ والضلال، انقسم أصحاب القرية إلى ثلاث فِرَقٍ: فرقةٌ عصت فحلَّ بها العذاب، وفرقةٌ نهت ووعظت فنجَّاها الله من العذاب، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تقارف المعصية، وقد سكت عنها القرآن، قال ابن عباس: ما أدري ما فُعِل بالفرقة الساكتة أنجوا أم هلكوا؟ قال عكرمة: فلم أزل به حتى عرَّفته أنهم قد نجوا، لأنهم كرهوا ما فعله أولئك فكساني حُلَّة»[1]، وإتماماً للقصة يذكرنا القرآن في آياته البينات بما حل بأولئك الأشقياء فيقول تقدست أسماؤه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُوْنَ قَوْمَاً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً، قَالُوْا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُوْنَ. فَلَمَّا نَسُوْا مَا ذُكِّرُوْا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوْءِ، وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوْا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوْا يَفْسُقُوْنَ، فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُوْنُوْا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

«تسليط المجوس على بني إسرائيل»

ثم تتابع السورة بأسلوبها الممتع؛ فتتحدث عن أولئك الأقوام المتمردين على الله، الذين تفننوا في طرق البغي والإجرام، حتى مسخهم الله قردة وخنازير، كما قال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُوْنُوْا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ وبعد أن ذكرت السورة الكريمة ما حلَّ بأهل القرية، الذين خالفوا أمر الله واصطادوا يوم السبت، ولم تُجْدِ معهم النصائح والمواعظ، ذكر تعالى ما سيحِلُّ بأحفادهم أعداء الإنسانية، من ألوان العذاب والتشريد، فإنهم جرثومة الشرِّ، وأساس البلاء في كل زمان ومكان، والأحفادُ على دين الأجداد، في البغي

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره ٢/٥٩.

والفساد، ولذلك فقد توعَّدهم اللَّهُ بتسليط العذاب عليهم إلى يوم القيامة، بأيدي المؤمنين أو الكافرين، ليذيقهم جزاء ما كسبوا من سيِّء الأعمال، وعن هؤلاء اليهود تتحدث الآيات ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوْءَ العَذَابِ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُوْرٌ رَحِيمٌ ﴾.

ومعنى الآية الكريمة: اذكر حين أعلم ربك، علماً يقينياً قاطعاً، أنه سيسلِّط على اليهود من يذيقهم أسوأ العذاب، بسبب عصيانهم ومخالفتهم لأمر الله، وانتهاكهم لمحارمه، وقد سلَّط الله عليهم «بختنَصَّر» المجوسي فقتلهم وسباهم، وسلَّط عليهم النصارى فأذلوهم وقهروهم وضربوا عليهم الجزية، وسلَّط عليهم خاتم الأنبياء محمداً ﷺ فطهَّر الأرض من رجسهم، وأجلاهم عن الجزيرة العربية، وسلَّط عليهم أخيراً «هتلر» النازي فاستباح حماهم، وكاد يبيدهم ويفنيهم، بالقتل والتشريد في الأرض، ولا يزال وعدُ الله بتسليط العذاب عليهم سارياً إلى أن يقتلهم المسلمون في المعركة الفاصلة إن شاء الله، تحقيقاً لما أخبر عنه المعصوم، الذي لا ينطق عن الهوى، محمد بن عبدالله، وذلك فيما رواه مسلم في صحيحه، أن النبي ﷺ قال: «لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلُهم المسلمون، حتى يختبىء اليهودي وراء الشجر أو الحجر، فينطق الله الشجر والحجر، فيقول: يا مسلمُ، يا عبدَ اللَّهِ، هذا يهوديٌ ورائي تعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»[1].

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، وتكليم الحجر والشجر حقيقة لا بدَّ واقعة، لأنها من علامات الساعة، وهذا الحديث إحدى معجزات الرسول ﷺ عن الأمور الغيبية، وقد ظهرت بشائر هذا النصر، بتجمع اليهود في أرض فلسطين، ليذبحوا على أيدي المسلمين إن شاء الله، وهم يظنون أنها وطنٌ لهم، وستكون مقبرة لهم، حسب الوعد النبوي الكريم.

«أكل اليهود للربا والسحت»

وبعد هذا البيان الشافي عن جرائم اليهود، وما كتبه الله عليهم من التشرد والضياع، بسبب بغيهم وإجرامهم، ذكر سبحانه أنه ألزمهم الذلَّ والصغار، وفرَّقهم في البلاد طوائفَ وفِرَقاً، ففي كل بلدةٍ فرقةٌ منهم، وليس لهم إقليم يملكونه، حتى لا تكون لهم شوكة فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ أي فرَّقناهم فيها تفريقاً شديداً، فلا يكاد يوجد بلد إلا وفيه منهم طائفة ﴿ مِنْهُمُ الصَّالِحُوْنَ وَمِنْهُمْ دُوْنَ ذَلِكَ ﴾ أي منهم ناس صالحون، وهم الذين تمسكوا بالتوراة في زمن موسى وهم قلة قليلة، ومنهم ناس منحطّون أشرار فجّار، وهم الكثرة الغالبة ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ ﴾ أي اختبرناهم بالنِّعم والنقم، والشدَّة والرخاء، لعلهم يرجعون عن الكفر والعصيان إلى الهدى والإيمان!!.

«الأبناء على قدم الآباء في الإجرام»

ثم ذكر تعالى أن الأبناء كانوا أتعس من الآباء، وأكثر انحرافاً وفساداً، وأنَّ من جاء بعدهم من الخَلَف كانوا شرّاً من السلَف فقال سبحانه ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أي جاء من بعد ذلك الجيل من بني إسرائيل، جماعة آخرون خلفوهم في السوء والشر ﴿ وَرِثُوْا الْكِتَابَ يَأْخُذُوْنَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُوْلُوْنَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ أي ورثوا التوراة عن آبائهم، يأخذون ذلك الشيء الدنيء من حطام الدنيا من حلال وحرام، ويقولون متبجِّحين: سيغفر الله لنا ما فعلناه، وهذا اغترار منهم وكذب على الله، قال تعالى مبيناً سوء عاقبتهم ﴿ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوْهُ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الكِتَابَ أَلَّا يَقُوْلُوْا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحَقَّ،

وَدَرَسُوْا مَا فِيهِ، وَالَّدارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُوْنَ أَفَلا تَعْقِلُوْنَ ﴾؟ وكأنه تعالى يزري عليهم تلك الحماقة ويقول: يرجون المغفرة وهم مصرُّون على الذنب؟ كلما لاح لهم شيء من حطام الدنيا سارعوا إليه، لا يبالون أمن حلالٍ هو أم من حرام؟ ألم يأخذ الله عليهم العهد المؤكد في التوراة، أن يقولوا الحق ولا يكذبوا على الله؟ فكيف يزعمون أنه سيُغفر لهم مع إصرارهم على المعاصي وأكل الحرام؟ وقوله تعالى ﴿ وَدَرَسُوْا مَا فِيهِ ﴾ فيه أعظم التسفيه والتوبيخ، أي والحال أنهم درسوا ما في الكتاب، وعرفوا ما فيه المعرفةَ التامة، من الوعيد على قول الباطل، والافتراء على الله؟ ولم يكونوا جاهلين بالأحكام الشرعية، بل هم أكلوا السحت والحرام، عن بيِّنة وعلم تام، وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿ وَالَّدارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُوْنَ أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴾؟ أي وما أعده الله للمؤمنين الأتقياء، خيرٌ من هذه الحياة الفانية، ولو كانوا عقلاء لما آثروا الفانية على الباقية، ثم أثنى تعالى على من حافظ على العهد، وتمسَّك بأحكام التوراة من بني إسرائيل، وأصلح سيرته وعمله، فقال تقدست أسماؤه ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُوْنَ بِالكِتَابِ وَأَقَامُوْا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحِينَ ﴾ وهكذا يذكر الله الأخيار والأشرار، والمتقين والفُجَّار، ليحذِّرنا من سلوك طريق اليهود، الذين نقضوا العهود، وأكثروا في الأرض الفساد، وليرفع قدر من استمسك بالهدى والرشاد، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب.

«اقتلاع جبل الطور ورفعه فوق رؤوسهم»

وبعد أن أفاضت السورة الكريمة في الحديث عن بني إسرائيل، أولئك الذين كتب الله عليهم التشرد والضياع، بسبب ما اقترفوه من موبقات وآثام، وبعد أن حكى تعالى عنهم ما جرى لهم على

يدي فرعون، من التقتيل والتنكيل، وما أكرمهم به من التمكين في الأرض، وإنزال التوراة عليهم نوراً وهداية، ذكر تعالى هنا تمرُّدَهم على تنفيذ أحكام الله، وعدم قبولهم لشرائع التوراة، حتى أمر الله جبريل عليه السلام أن يقتلع جبل الطور، ويرفعه فوق رؤوسهم، فإن رضوا بحكم التوراة وإلاَّ سحقهم به، فذلك قوله سبحانه ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ، وَظَنُّوْا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ، خُذُوْا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ، وَاذْكُرُوْا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ﴾ قال المفسرون: رُوي أن اليهود أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة، لِثقلها وشدتها عليهم، فرفع جبريل عليهم الطور فوق رؤوسهم، حتى صار كأنه سقيفة أو ظلَّةُ غمام، وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعنَّ عليكم الجبلُ، فلما نظروا إلى الجبل خرَّ كل واحدٍ منهم ساجداً على حاجبه الأيسر، وهو ينظر بعينه اليمنى خوفاً من سقوطه، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر، ويقولون: هي السجدة التي رُفِعت عنا بها العقوبة، ومعنى قوله تعالى: ﴿ خُذُوْا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوْا مَا فِيهِ ﴾ أي خذوا التوراة بجدٍّ وعزيمة، وطبِّقوا أحكامها كما أمركم الله بإيمانٍ صادق ويقين، وإلاَّ سحقكم الله بهذا الجبل.

«أخذ العهد على ذرية بني آدم»

وإلى هنا ينتهي الحديث عن أخبار بني إسرائيل، وما فيها من الأحداث العجيبة التي تدعو إلى الدهشة والاستغراب، وبعد هذا البيان المستفيض، ذكر تعالى ما يجري مَجْرى تقرير الحجة على جميع المكلفين، فقد أخذ الله على ذرية آدم العهد والميثاق، على أن يؤمنوا به جلَّ وعلا، ويُصدِّقوا بوحدانيته، وهم في أصلاب آبائهم، وأرحام أمهاتهم، فأقرَّوا وأذعنوا، واعترفوا للّهِ بالربوبية والوحدانية، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُوْرِهِمْ

ذُرِّيَتَهُمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوْا بَلَى شَهِدْنَا، أَنْ تَقُوْلُوْا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُوْلُوْا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ، وَكُنَّا ذُرِّيَةً مِنْ بَعْدِهِمْ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُوْنَ. وكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ﴾ وللمفسرين في هذه الآية قولان:

أحدهما: أن الله لما خلق آدم، أخرج ذريته من صلبه وهم مثل الذَّرِ ـ أي صغار مثل النمل ـ وأخذ عليهم العهد بأنه ربُّهم، فأقروا وشهدوا بذلك.

والثاني: أنَّ هذا من باب «التمثيل والتخييل» والمعنى أنه سبحانه نَصَب لعباده الأدلة على ربوبيّته ووحدانيته، وشهدت به عقولهم وبصائرهم التي ركبَّها فيهم، وجعلها مميِّزة بين الضلالة والهدى فكأنه تعالى قرَّرهم فاعترفوا وآمنوا وقالوا بلى أنت ربنا.. قالوا وباب التمثيل واسعٌ في كلام العرب كقول القائل: قال الحائط للمسمار لم تشقني؟ قال: سل من يدقني، قالوا والحائط لا يتكلم، والمسمار لا يجيب، إنما هو من باب التمثيل، والبراعة في التصوير، ومثلُه قول الشاعر: «امتلأ الحوضُ وقال قطني» وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُوْلُ لِجَهَنَّمَ هَل امْتَلأْتِ وَتَقُوْلُ هَلَ مِنْ مَزِيدٍ﴾ وقوله سبحانه: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعَاً أَوْ كَرْهَاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ وهذا الرأي اختاره الزمخشري وأبو حيان وأبو السعود.

وأما القول الأول فقد ذهب إليه كثير من مشاهير المفسرين كسعيد بن المسيِّب، وسعيد بن جبير، والضحاك وهو مرويٌ عن حبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنه وأرضاه، وهو الأصح والأرجح.

ويشهد له ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تبارك وتعالى خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذريَّةً فقال:

خلقتُ هؤلاء للجنة، وبعمل أهـل الجنة يعملون، ثم مسـح ظَهَرَهُ فاستخرج منه ذريةً، فقال: خلقتُ هؤلاء للنَّار، وبعمل أهل النـار يعملون، فقال رجل يا رسول الله: ففيم العملُ؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الله إذا خلق العبدَ للجنة، استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عملٍ من أعمال الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنَّار، استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار»[1].

وهذا الحديث الشريف يقوِّي مذهب من قال: إن ذلك حقيقةٌ وليس بتمثيل، فالله تعالى قد استخرج من آدم من سينسلون من ذريته، المؤمنين والكفار، وأشهدهم جلَّ وعلا على ربوبيته ووحدانيته فأقرُّوا وآمنوا وأذعنوا، والله على كل شيء قدير، ومثلُ هذا لا يمنع أن يحدث على الإنسان، ما قدَّره عليه خالق الأكوانِ.

«من غرائب القصص»

وبعد هذا البيان المستفيض، عن الأبرار والفجـار، من أهل السعادة أو الشقاوة، ذكرت السورة الكريمة قصَّةً من غرائب القصص، قصة ذلك العالِم من بني إسرائيل «بلعم بن باعوراء» الذي منحه الله العلم، وأكرمه بمعرفة اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ولكنَّ ذلك الشخص لم ينتفع بعلمه، بل كان العلم شقاءً ووبالاً عليه، لأنه باع الدين طمعاً في حطام الدنيا، وفيه يقول القرآن الكريم ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، ورواه أبو داود والنسائي، وقال الترمذي: حديث حسن.

وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ثم ضرب له تعالى مثلاً من أشنع وأقبح الأمثلة، شبَّهه بالكلب اللاهث فقال ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْب إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوْا بآيَاتِنَا فَاقْصُص القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُوْنَ. سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوْا بِآيَـاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَـانُوْا يَظْلِمُوْنَ﴾ قال ابن عباس: «هو بلعم بن باعوراء كان عنده اسم الله الأعظم»، وقال ابن مسعود: «هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى إلى ملك مدين، داعياً إلى الله، فَرَشَاهُ الملك وقرَّبه منه على أن يترك دين موسى، ففعل فضلَّ وأضلَّ»[1]، وكفى بهذا تصويراً لنفسية اليهود في تكالُبِهم على الدنيا، وعبادتهم للمال، وصدق من قال:

لَوْكَانَ في العِلْمِ مِنْ دُونِ التُّقَى شَرَفٌ ... لَكَانَ أَشْرفَ خَلْقِ اللَهِ إِبْلِيسُ

«الكُفَّار كالبهائم والأنعام السَّارحة»

وبعد أن ذكر تعالى قصة «بلعم بن باعورا» وما كان من نتيجته المخزية، حيث ارتد عن الإيمان، طمعاً في حطام الدنيا الدنيئة، وهو مَثَلٌ لليهود في تكالبهم على الدنيا وعبادتهم للمال، ذكر تعالى بعدها حالة الأشقياء عامَّة، الذين وهبهم الله القلوب والأسماع والأبصار، فلم ينتفعوا بها، فكانوا شراً من البهائم والأنعام، لأن الحيوانات تدرك منافعها ومضارها، وهؤلاء الكفار لا يميِّزون بين المنافع والمضار، ولهذا يُقدمون على النار، كما قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ ﴾ أي خلقنا لنار جهنم خلقاً كثيراً من الجن والإنس ليكونوا حطباً لها ﴿ لَهُمْ قُلُوْبٌ لَا يَفْقَهُوْنَ بهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُوْنَ بِهَا، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُوْنَ بِهَا، أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

(١) انظر أقوال السلف في تفسير الطبري، وابن كثير ٢/ ٦٥.

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُوْنَ ﴾ وليس معنى الآية أنهم صمٌّ بكم عميٌ لا إدراك لهم ولا إحساس، فإن الله تعالى قد أثبت لهم القلوب والأسماع والأبصار، ولكنهم لمَّا لم يستفيدوا منها كانوا كالبهائم السارحة التي لا تفقه ولا تعي، فالمراد إذاً نفيها عمَّا ينفعها، لا نفي السمع والبصر بالكلية، ولهذا شبَّههم المولى جلَّ وعلا بالدواب والأنعام ﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُوْنَ ﴾ أي الغارقون في الغفلة، لأنهم غفلوا عن سعادتهم وغفلوا عن الغاية التي خلقوا من أجلها، ألا وهي عبادة الله الواحد القهار.

«توحيد الله فيه النجاة والعصمة»

ولما نبَّه تعالى على أن الموجب لدخول جهنم، أَلَا وهو الغفلة عن الله وعن ذكره تبارك وتعالى، ذكر تعالى أن المخلِّص للإنسان من عذاب جهنم هو توحيدُه وذكرُه، وكلُّ من له ذوقٌ سليم يجد من نفسه أن الأمر كذلك، فإن القلب إذا غفل عن ذكر الله، وأقبل على الدنيا، وقع في نار الحرص على الحُطام، ولا يزال ينتقل من رغبة إلى رغبة، ومن شهوة إلى شهوة، ومن ظلمة إلى ظلمة، حتى يصل به الحال إلى نسيان ربه الكريم المتعال، فعند ذلك يقع في المتاهات، ويتخبط في الظلمات، ولا نجاة له إلا بالعودة إلى حمى الرحمن، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوْهُ بِهَا وَذَرُوْا الَّذِينَ يُلْحِدُوْنَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ أي اتركوا الضالين المعاندين، الذين يميلون في أسمائه تعالى عن الحق إلى الباطل والضلال، كما فعل المشركون حيث اشتقوا لآلهتهم أسماء من أسماء الله، فسمُّوا «الَّلات» من الله، و «العُزَّى» من العزيز، و «مناة» من المنَّان، ثم قال تعالى: ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ ﴾ أي سينالون جزاء كفرهم وأعمالهم القبيحة في الدار الآخرة.

ولقد شرَّف الله هذه الأمة المحمدية، بالانتساب إلى رسول الله، والاستقامة على شرع الله، فجعلها خير الأمم، وجعل الخير فيها باقٍ إلى قيام الساعة، تعتصم بدينها، وتستمسك بشريعتها، وفيهم يقول القرآن الكريم ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُوْنَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُوْنَ ﴾ أي ومن بعض الأمم التي خلقناها، أمة مستمسكة بشرع الله قولاً وعملاً، يدعون الناس إلى الحق، وبه يعملون ويقضون، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: والمراد في الآية هذه الأمة المحمدية لحديث: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرُّهم من خَذَلَهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر اللَّهِ وهم على ذلك)(١) وهذه الطائفة لا تختص بزمان دون زمان، بل هم في كل زمان وفي كل مكان، فالإسلام دائماً يعلو ولا يُعلى عليه، ولو كثر الفُسَّاقُ وأهل الشرّ، فلا عبرة فيهم ولا صولة لهم، وفي الحديث الشريف بشارة عظيمة، لهذه الأمة المحمدية، بأنَّ الإسلام في علوٍّ شرف، وأهلُه كذلك إلى قرب الساعة.

«استدراج الكفار في هذه الحياة»

ثم تحدثت السورة الكريمة، عن سنة الله عزّ وجلّ في إهلاك الظالمين، بالإمهال ثم بالعذاب والنكال، فالله سبحانه يُمهل ولا يهمل، ويؤخر العُصاة والمجرمين، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، من حيث لا يعلمون ولا يشعرون، وفي ذلك يقول الله تقدست أسماؤه: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُوْنَ. وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ ومعنى الاستدراج: أن يعاملهم باللطف والإحسان، مع تماديهم في الغيّ والإجرام، وذلك بأن تتكاثر عليهم نعم الله تعالى، فيظنوا أنها

(١) الحديث أخرجه الشيخان في الصحيحين.

لطفٌ من الله تعالى بهم، فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغيِّ، حتى تحقَّ عليهم كلمة العذاب، قال بعض السلف: الاستدراج أن يقرِّبهم إلى ما يُهلكهم، ويُضاعفُ عقوبتهم، وذلك أنهم كلما أقدمواعلى ذنبٍ، فتح اللَّهُ عليهم باباً من أبواب الخير، فيزدادون بطراً وإمعاناً في الغيِّ والفساد، ثم يأخذهم تعالى أغفل ما يكونون، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴾.

ولما كان حال المعرضين عن آيات الله البينات، أنهم لم يفكِّروا بعقولهم في دلائل الله، وبدائع صنعه، ولم يبحثوا عن حقيقة هذا الرسول، ليعرفوا صدقه، جاءت الآيات تدعوهم إلى التفكر في أمر هذا الرسول، وفي دلائل التوحيد والإيمان بوجود الرحمن وعظمته ولهذا قال تعالى لافتاً أنظارهم ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوْا ما بِصَاحِبِهْم مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ والمراد بصاحبهم محمد ﷺ، لأنه صاحَبَهم وعاش بين أظهرهم أربعين سنة، قبل دعوى النبوة، فكيف يتهمونه بالجنون وهو أعقل العقلاء؟ ثم قال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوْا فِي مَلَكُوْتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيءٍ، وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُوْنَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُوْنَ، مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَه وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُوْنَ ﴾.

«وقتُ الساعة لا يعلمه إلا الله»

وبعدَ أن ذكر تعالى أحوال المشركين، وبالغ في تهديد الملحدين، المعرضين عن آياته، الغافلين عن التأمل في بدائع صنعه وبيِّناته، ذكر تعالى بعد ذلك موقف المستهزئين من دعوة الرسول، المعاندين للرسول عليه السلام، ولما جاء به من عند ربه، فقد كان أولئك الطغاة

المتجبرون، يسألون الرسول ﷺ عن أمور غريبة، من أجل السخرية والتعجيز، فقد سألوه مراتٍ ومراتٍ عن الساعة وقيامها، والآخرة وأهوالها، لا بقصد المعرفة والتصديق، ولكن بقصد السخرية والتهكم ﴿يَسْأَلُوْنَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا، قُلْ إِنَّمَا عَلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً، يَسْأَلُوْنَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُوْنَ﴾ والساعةُ هي «القيامةُ» سُمِّيت بذلك لسرعة وقوعها، وسرعة ما فيها من الحساب، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ ومعنى قوله تعالى: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ أي متى وقوعها وحدوثُها؟ وفي أيِّ وقتٍ وزمانٍ تكون؟ ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ أي قل لهم يا محمد: لا يعلم وقتَ حدوثها ووقوعِها، إلا اللَّهُ ربُّ العالمين، فهو وحده جلَّ وعلا العالم بوقتها ولهذا قال: ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يكشف أمرها ولا يظهرها للنَّاس، إلَّا الربُّ سبحانه، لا أحدَ غيرُه كما قال سبحانه في سورة لقمان: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾.

ثم زاد تعالى في الإيضاح والبيان فقال: ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ أي عَظُمتْ على أهل السموات والأرض، حيث يُشفقون منها، ويخافون شدائدها وأهوالها، لا تأتيكم إلَّا فجأةً، على حين غفلة منكم، ومعنى قوله سبحانه: ﴿ يَسْأَلُوْنَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي يسألونك عن وقتها، كأنك يا محمد كثير السؤال عنها، شديد الطلب لمعرفتها، مهتمٌ أقصى الغاية بالبحث عنها، وقد ختم الله الآية بما يؤكد اختصاص معرفتها بالله جلَّ وعلا فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴾ وفي الحديث الصحيح الذي

رواه مسلم ﴿ وَلَتَقُوْمَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلاَنِ ثَوْبَهُمَا بينهُمَا فَلا يَتبايَعانِه ولا يَطْويانِه، وَلتَقُوْمَنَّ السَّاعةُ وقَدْ انصْرَفَ الرجلُ بلَبَن لِقْحَتِه فَلا يَطْعَمُهُ، ولَتَقُومَنَّ الساعة وهو يُليطُ حَوْضَه ـ أي يُصلح الحوضَ ويلطخه بالطين ـ فلا يسقي فيه، ولتقومنَّ الساعةُ وقد رفع أُكْلَتَه ـ أي اللقمة ـ إلى فيه فلا يطعمها)[1].

«الغَيبُ من خصائص علم الله تعالى»

ولما كان الحديث عن الساعة، وهي من أمور الغيب التي اختصّ الله بعلمها، جاءت الآيات بعد ذلك تتحدث عن الغيب عامةً، فهو تعالى الذي استأثر بعلم الغيب، فلا يعلم نبيٌّ، ولا رسولٌ، ولا مَلَكٌ شيئاً من أحوال الغيب، إلَّا ما أطلعه الله عليه، ولما كان المشركون يطلبون من الرسول أن يخبرهم عن بعض أمورٍ غيبيّة، ويربطون بين تصديقه في دعوى الرسالة وإخباره لهم عن الغيب، جاءت الآيات تأمره أن يُعلن العبودية التامة للّهِ رب العالمين، وأنه لو كان أمر الغيب إليه، لحصَّل منافع الدنيا وخيراتها، ولما أصابه شي ء من الأذى والضُرّ، ولكنه بشر، يصيبه ما يصيب البشر من أحداث الدنيا ومضرَّاتها ﴿ قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنفْسِي نَفْعَاً وَلاَ ضَرَّاً إلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَا مسَّنِيَ السُّوْءُ، إنْ أَنَا إلَّا نَذِيرٌ وَبشيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ ﴾.

«بدء الخليقة وتناسل البشر»

ثم توالت الآيات تقرر أمر التوحيد، وتذكر الحجج والبراهين على

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه مسلم في صحيحه.

بطلان عقيدة المشركين، في عبادة الأوثان والأصنام، وقد ذكر الباري جلّ وعلا قصة بدء الخليقة، قصة «آدم وحواء» وذريتهما، كبرهان ساطع على وحدانية الله، وقدرته وعظيم سلطانه فقال تقدست أسماؤه: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحَاً لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحَاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ ﴾ والآية امتنان على آدم وذريته، بأنه تعالى خلق لهم أزواجاً من أنفسهم، لِيصِرْنَ سَكناً لهم، وأُنساً وطُمأنينةً، ورزقهم البنين والبنات، وأكرمهم بما تقرُّ به أعينهم، ولكنَّ ذرية آدم بدل أن يشكروا الله على فضله وإنعامه، جحدوه وأشركوا به، وعبدوا الأصنام والأوثان، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ ﴾ والمعنى فلما وهب الله للزوجين الولد الصالح، السويَّ الخِلقة، جعلا لله شركاء من الأشجار والأحجار، عبدوها مع الله، فتنزَّه وتقدَّس الله، عما ينسبه إليه المشركون من الزوجة والولد.

«الآية تتحدث عن ذرية آدم»

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في «آدم وحواء» عليهما السلام، وأن الضمير في قوله تعالى: ﴿ جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ ﴾ يعود إليهما، ورَوَوْا في ذلك حديثاً مرفوعاً عن سَمُرةَ قال: (لما ولدتْ حوَّاءُ طافَ بها إبليسُ، وكانَ لا يعيشُ لها ولدٌ، فقال: سمِّيه «عبد الحارث» فإنه يعيش، فسمَّته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان) رواه أحمد والترمذي، وهذا القول لا يصحُّ، فإن آدم عليه السلام أحد الأنبياء الكرام، ومن المحال أن يستجيب آدم لأمرٍ يخدُش العقيدة، بل هو شرك

بالله، وإنما الصحيح كما قال الحافظ ابن كثير: أَنَّ ذلك كان في ذريته، بدليل قوله تعالى: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ ﴾ فالآية وردت حكاية عن ذرية آدم، ممن رزقهم الله المال والبنين، فأشركوا مع الله، وسمُّوا أولادهم بأسماء الشياطين، وليست بشأن آدم وحواء، وقد قال الحسن البصري رضي الله عنه: كان هذا في بعض أهل المِلَلِ ولم يكن بآدم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل[١].

«التنديد بعبادة الأوثان»

ثم جاءت الآيات تقرع بحججها الساطعة، وبراهينها الدامغة، قلوب أولئك الزائغين المشركين، الذين جعلوا للَّهِ شركاء وأنداداً، من شجرٍ أو حجر، وعبدوها من دون الله الواحد القهار.

وموضوع عبادة الأوثان والأحجار، قديم بقدم الإنسانيـة، فقد ظهرت الوثنية منذ زمن «نوح» عليه السلام، واستمرت إلى زمن إبراهيم، ثم فَشَتْ وانتشرت بين كفار مكة، إلى حين بعثة الرسول الأعظم ﷺ.. وقد جاءت سورة الأعراف تندِّد بعبادة هذه الأوثان، وتُزري بعقول من عَبَدها من دون الله، فهي حجارة لا تسمع ولا تنفع، ولا تدفع عن عابدها شيئاً، فكيف تُعبد من دون الله، ولهذا يقول القرآن الكريم: ﴿ أَيُشْرِكُوْنَ

(١) هذا هو الصحيح الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين، لأن خاتمة الآية يدل عليه، فقد وردت بصيغة الجمع حكايةً عن ذرية آدم «فتعالى الله عمَّا يشركون» ولو كانت عن آدم وحواء لقال «فتعالى الله عما يشركان» وقد ردَّ الحافظ ابن كثير الآثار التي وردت أنها في آدم وزوجته حواء، فأجاد وأفاد ثم قال: «وهذه الآثار يظهر عليها أنها من آثار أهل الكتاب، ونحن على مذهب الحسن البصري في هذا، وأنه ليس المراد من السياق «آدم وحواء» وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، وإنما ذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة والاستطراد لما بعدهما من البنين..» اهـ وانظر مختصر ابن كثير ٢/٧٤ وكتابنا «صفوة التفاسير» ١/٤٨٧ ففيه تفصيل وتوضيح.

مَالاَ يَخْلُقُ شَيْئَاً وَهُمْ يُخْلَقُوْنَ. وَلاَ يَسْتَطِيعُوْنَ لَهُمْ نَصْرَاً، وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُوْنَ. وَإِنْ تَدْعُوْهُمْ إِلَى الهُدَى لاَ يَتَّبِعُوْكُمْ، سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوْهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُوْنَ ﴾؟

«الإلَه ينبغي أن يكون سميعاً بصيراً»

وكأنَّ الآيات تقول لهم: إن المعبود يجب أن يكون عالماً سميعاً بصيراً، قادراً على إيصال النفع، ودفع الضُّرِّ، وهذه الأصنام ليست كذلك، لأنها في غاية العجز والذِلَّة، لا تجيب إذا دُعيت إلى خير أو رشاد، لأنها جمادات، ولا تسمع دعاء من دعاها، وسواءٌ لديها من دَعَاها ومن دَحَاها، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ، وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئَاً ﴾[1]؟.

ثم زاد تعالى في التوضيح والبيان، فقال مخاطباً المشركين من أهل مكة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ، فَادْعُوْهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُوْنَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُوْنَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُوْنَ بِهَا؟ قُلِ ادْعُوْا شُرَكَاءَكُمْ، ثُمَّ كِيدُوْنِ فَلاَ تُنْظِرُوْنِ ﴾.

ولعمرُ الحقِّ إن هذه الآيات البيِّنات، لتقصم بحججها الساطعة ظهر الباطل، وتترك الخصم صريعاً أمام نور الحق وضيائه، والغرض منها بيان جهل المشركين وتسفيهُ عقولهم، في عبادة جمادات، لا تسمع ولا تبصر، وليس لها شعورٌ ولا إدراك، لأنها فقدت الحواس والأعضاء، وفاقدُ الشيء لا يعطيه، بل إن الإنسان المخلوق ـ مع عجزه وضعفه ـ لهو أفضلُ بكثيرٍ من تلك الأصنام، لوجود العقل والحواس فيه، فكيف

(١) سورة مريم آية رقم /٤٢/.

يليق بالأكمل الأشرف، أن يشتغل بعبادة الأخسِّ الأَدْون، الذي لا يُحسُّ منه فائدةً أبداً، لا في جلب منفعةٍ، ولا في دفع مضرَّةٍ، ولننظر إلى أسلوب التهكم والسخرية اللاذع، وهو يخاطب المشركين فيقول ﴿ أَلَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟ ﴾ وكأنه يقول لهم: كيف عبدتم حجارة صمَّاء، ليس لها قدرة على الحركة؟ ولا على النطق والكلام؟ ولا على السمع والمشاهدة، فكيف يليق بالعاقل أن يعبد من هو دونه في القوة والقدرة؟!.

«من غرائب الأخبار»

ومن عجائب أحوال المشركين، في عبادتهم الأوثان، ما حدثنا عنه التاريخ عن أجدادنا العرب، فقد ذُكر أن أعرابياً كان له صنمٌ يُعظِّمه ويسجدُ له، ويعفِّر وجهه بين يديه، وكان فلَّاحاً يشتغل في أرضه وحقله، وكلما انتهى من عمله جاء إلى الصنم، فعبده وتضرَّع إليه، فبينا هو ذات يوم يشتغل بفلاحة الأرض، إذ جاء ثعلب فوقف فوق رأس الصَّنَم، وفتح رجليه وبال عليه، فنظر الأعرابي فوجد البول ينصبُّ فوق رأس إلّهه ومعبوده، وهو لا يُحرِّك ساكناً، ولا يدفع عن نفسه الأذى، فجاء نحو الصنم مغضباً، وهوى بالفأس على رأسه، يحطِّمه ويُهشِّمه، وهو يقول:

أَرَبٌّ يَبُـولُ الثُّعْلُبَانُ بِـرَأسِهِ   لَقَدْذَلَّ من بَالَتْ عَليهِ الثَّعالبُ[1]

وتركَ عبادة الأوثان والأصنام، وعاد إلى رشده وصوابه، فلم يعبد صنماً بعد.

(١) الثُّعْلُبَانُ: ذكَرُ الثعالب كما في حياة الحيوان لـلدَّميري، وقائل هذا البيت هو «غاوي ابن عبد العُزَّى» وقد أسلم ولحق بالنبي ﷺ فقال له: ما اسمُك؟ فقال: «غاوي بن عبد العُزَّى» فقال له الرسول الكريم: بل أنتَ «راشدُ بنُ عبد ربه» وانظر قصته في المحرر الوجيز لابن عطية ١٠١/١.

«قصة عمرو بن الجموح مع صنمه»

وروى الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره هذه القصة العجيبة قال: أسلم «معاذُ بنُ جبلٍ» و«معاذ بنُ عمرو بنِ الجموح» وكانا شابَّين حديثي السنِّ، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين، يكسرانها ويتخذانِها حطباً، وكان لعمرِو بن الجموح ـ وهو سيد قومه ـ صنمٌ يعبده ويطيِّبه، ويعتني بأمره، فكانا يجيئان في الليل فينكِّسانه على رأسه، ويَلْطَخانه بالعَذِرة ـ أي النجاسة ـ فيجيء «عَمْرُو بنُ الجَمُوح» فيرى ما صُنِع بإلَهه، فيغسله وينظّفه ويطيِّبه، ويضع إلى جواره سيفاً، ويقول له: انتصرْ لنفسك ممن يريد بك السوء، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه، يغسله من النجاسة ثم يطيّبه، حتى أخذاه مرَّة فربطاه مع كلب ميِّت، ودلَّياه في بئر هناك، فلما جاء «عمروُ بن الجموح» ورأى إلَهه مربوطاً مع الكلب، علم أن ما عليه من الدين باطل، فأنشد يقول:

تاللَّهِ لو كنت إلَهاً مستَدِن لم تكُ والكلبَ جميعاً في قَرَن

ثم أسلمَ فحسُن إسلامه، واعتزل عبادة الأصنام، وقُتل يوم أُحد شهيداً[1]. .

«تسليةٌ للرسول عليه السلام»

وبعد أن تحدثت السورة الكريمة عن سفاهة عقول المشركين، وذكرت الحجج والبراهين، على بطلان عبادة الأصنام والأوثان، عادت تأمر الرسول ﷺ بالثبات على المنهج القويم، والصراط المستقيم، الذي جاءه من عند الله عزَّ وجلَّ، وتواسيه وتسلّيه على ما يلقاه من أذى المشركين، وتدعوه لأن يجابههم بالحقّ، ولا يُبالي بهم ولا بتهديدهم

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٧٥.

ووعيدهم، فقد كان مشركو مكة يخوِّفون رسول الله عليه الصلاة والسلام من آلهتهم، إن تعرَّض لها بسوء، فجاءت الآيات لتشدَّ من عزيمته، وتربط على قلبه، فالله جلَّ وعلا حافظٌ له ومؤيِّد، ومن كان في حفظ الله ورعايته، فلن يضيرَه شيءٌ مهما قَوِي واشتدَّ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم على لسان سيد المرسلين، آمراً ومرشداً ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ والمعنى إن الذي يتولى حفظي ونصري، ودفع أذيتكم عني، هو الله الذي نزَّل عليَّ القرآن، وهو جلَّ وعلا يتولى عباده الصالحين، بالحفظ والرعاية، والنصر والتمكين، وهو وليهم في الدنيا والآخرة.

«الآية حصنٌ لمن اتَّقى ربه»

وهذه الآية حصنٌ لكل من اتَّقى الله، وعمل بطاعة مولاه، فالله حافظُه وناصره كما قال سبحانه: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوْا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوْا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خوَّانٍ كَفُوْرٍ﴾[2] حكي أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، كان ينفق ماله، ولا يدَّخر لأولاده منه شيئاً، فقيل له في ذلك، أَتنفق مالك كلَّه، ولا تترك لورثتك شيئاً ممَّا أعطاك الله؟ فقال رضي الله عنه: «لا حاجة لأولادي في مالي، فإنهم إن كانوا من الصالحين، فلن يضيِّعهم اللَّهُ، لأنه سبحانه يقول: ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ وإن كانوا غير صالحين، فلن أعينهم بمالي على معصية الله، فتبًّا لهم وهلاكاً، وأنا كما قال موسى عليه السلام: ﴿فَلَنْ أَكُوْنَ ظهيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾[3] ومن ردَّه

(١) سورة البقرة آية رقم /٢٥٧/.

(٢) سورة الحج آية رقم /٣٨/.

(٣) سورة القصص آية رقم /١٧/ وانظر القصة في التفسير الكبير للفخر الرازي.

الله، لم أشتغل بإصلاح مهماته»، وهذا منه رضي الله عنه تنبيه وإرشاد، أنَّ منْ حفِظَ أمرَ الله في حياته، حفِظَه اللَّهُ في ذريته وأولاده.

«اقتلاع الوثنَيَة من جذورها»

ثم تعود السورة الكريمة إلى الحديث عن «الوثنية الجاهلية» في عبادة المشركين للأوثان والأصنام، لتأتي عليها من القواعد، وتقتلع كل شبهةٍ من أذهان الذين عبدوها من دون الله، فهي حجارة صمَّاء بكماء، لا ترى ولا تُبصر، ولا تسمع ولا تنفع، ولا تستجيب لداعيها ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُوْنَ نَصْرَكُمْ، وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُوْنَ. وَإِنْ تَدْعُوْهُمْ إِلَى الهُدَى لاَ يَسْمَعُوْا، وتَرَاهُمْ يَنْظُرُوْنَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُوْنَ ﴾.

والمعنى: إن دعوت أيها العابدُ هذه الأصنام إلى الهداية والرشاد، لا تسمع دعاءك فضلاً عن المساعدة والإمداد، وتراها تقابلك بعيون مصوَّرة كأنها ناظرة، ولكنها جماد لا تبصر، لأن لها صورة الأعين وهي لا ترى شيئاً، فهل في عبادتها خيرٌ وفلاح؟!.

«التمسك بفضائل الأخلاق»

وتعقبها الآيات تأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالأخذ بمكارم الأخلاق، والتخلق مع الناس بالخلق الحسن، وترك الغلظة والفظاظة، وعدم مقابلة السفهاء بمثل سفههم، بل بالحلم والصفح والعفو، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ، وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾ وهذه الآية الكريمة ـ على وجازتها ـ جمعت الفضائل الإنسانية التي دعا إليها الإسلام، وحذَّرت من مساوىء الأخلاق، ونهت عن كل رذيلة، ودعت إلى كل فضيلة، وهذا من أسرار إعجاز القرآن،

فقد أعطي ﷺ جوامع الكلم كما أعطي روائع القرآن.

ولمَّا نزلت عليه هذه الآية الكريمة، جاءه جبريل فقال يا محمد: «إن الله يأمركَ أن تعفوَ عمَّنْ ظَلَمك، وتُعْطيَ من حَرَمك، وتَصِل من قَطَعكَ»[1] وهذا وإن كان خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام، ولكنه تعليمٌ وتأديب لجميع الخلق، ليقتدوا بسيرة سيد الأولين والآخرين.

«التحفظ من شرِّ الشيطان»

ولما كان للشيطان شيءٌ من التسلط على الإنسان، إن هو استجاب لداعي الهوى، ومغريات الحياة، جاءت الآيات تأمره عليه الصلاة والسلام، بالاستعاذة من الشيطان، واللجوء إلى حمى الرحمن، فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان، إلا اللَّهُ ربُّ العالمين ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوْا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُوْنَ. وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوْنَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُوْنَ ﴾.

رُوي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: «ما تصنع بالشيطان إذا سوَّل لك الخطايا؟ قال أجاهده بكل قوتي، قال فإن عاد إلى وسوسته؟ قال أجاهده حتى أطرده، قال: إن هذا يطول عليك، ويضيِّع عليك وقتك!! أرأيت إن مررت بغنمٍ، فنبحك كلبُها ومنعك من العبور، ماذا تصنع؟ قال أكابده وأردُّه عني، قال: هذا شيء يطول عليك، ولكن استغثْ بصاحب الغنم يكفُّه عنك»[2]، فكذلك من استعاذ بالرحمن من كيد الشيطان ردَّه العليُّ الكبير عنه، وخلّصه من شرّه.

---

(١) الحديث أخرجه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم من حديث «أبّي بن كعب» وانظر مختصر ابن كثير ٢/٧٦.

(٢) ذكره النيسابوري في تفسيره.

«ختمٌ بديعٌ رائع للسورة الكريمة»

وقد ختم الله هذه السورة الكريمة بتعظيم أمر القرآن، الذي أنزله الله رحمة لعباده، وذلك بتلاوة آياته، وتدبر معانيها، والسكوت والاستماع عند التلاوة، إعظاماً وإجلالاً للقرآن، حتى يخشع القلب، وتدمع العينُ ويستفيد الإنسان من آياته وبيِّناتِه، وفي ذلك يقول الله تقدست أسماؤه: ﴿ وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرآنُ فَاسْتَمِعُوْا لَهُ وَأَنْصِتُوْا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ. وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعَاً وَخِيفَةً، وَدُوْنَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ، وَلاَ تَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ. إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَتِـهِ، وَيُسَبِّحُوْنَهُ وَلَه يَسْجُدُوْنَ ﴾.

وهكذا بدأت السورة بتمجيد القرآن، وختمت بالإشادة بمنزلته ومكانته، ليتناسق البدء مع الختام، في أروع صورة وأبدع إحكام.

انتهت دراسة سورة الأعراف

بحمده تعالى وعونه

* * *

سُورَةُ الأَنفَال
مدنيّة وآياتها خمس وسبعون آية

«أهداف السورة الكريمة»

● سورةُ الأنفال هي إحدى السور المدنية، التي اهتمت بجانب التشريع وبيان الأحكام، وبخاصة فيما يتعلق بأمر «الجهاد في سبيل الله» وقتال أعداء الله، فهي سورة الجهاد، وسورةُ البطولة، وسورة الإيمان والتضحية، في سبيل نصرة الحق، وإعزاز الدين، ورفع منار الإسلام.

● عالجت هذه السورة الكريمة، بعض النواحي الحربية التي تكشَّفت للمسلمين عقب بعض الغزوات، وتضمنت كثيراً من الإشارات الإلّهية، والتشريعات الحربية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم للكفرة المشركين أعداء الله، وتناولت أمور السلم والحرب، وأحكام الأسر، والفِداء، والغنائم.

● نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب «غزوة بدر» تلك الغزوة التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام، وكانت تاجاً بين سائر الوقائع والغزوات، وبداية العزِّ والنصر لجند الرحمن، حتى سمَّاها بعضُ الصحابة «سورة بدر»، لأنها تناولت أحداث هذه الغزوة بالتفصيل والإسهاب، ورسمت الخُطَّة[1] التفصيلية للحرب الإسلامية،

(١) الخُطَّة: بضم الخاء أي الطريقة كما في لسان العرب لابن منظور.

وبيَّنت ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من البطولة والشجاعة، والوقوف في وجه الباطل بكل بسالة وجرأة، وعزم وحزم، ولولا هذه الدروس التي تلقاها المؤمنون في غزوة بدر، لما كان هناك فتح ولا نصر، ولكنه الإيمان يصنع الأعاجيب، فمن المستبعد الذي يشبه المستحيل، أن ينتصر المؤمنون على قلَّتهم، حيث لم يكن عددهم يزيد على ثلاثمائة وأربعة عشر شخصاً، على جيشٍ مؤلف من ألف مقاتل، مدججين بالسلاح، من صناديد الكفر، ورؤساء الضَلالة، وهم ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، ثم ينتصر المسلمون عليهم انتصاراً كاسحاً، لولا العقيدة والإيمان، التي تدكُّ صروح الكفر والطغيان، وصدق الله حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ، فَاتَّقُوْا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ﴾.

● ومن المعلوم لكل باحثٍ ودارسٍ، لتاريخ الغزوات التي خاضها المسلمون ضد الباطل، أن غزوة بدر كانت في «شهر رمضان» من السَّنة «الثانية» للهجرة، وكانت هي الغزوة الأولى من جولات الحقِّ مع الباطل، وردّ البغي والطغيان، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والوِلدان، الذين قعد بهم الضعف في مكة، وأخذوا في الضراعة إلى الله أن يخرجهم من القرية الظالم أهلُها، وقد استجاب الله دعاءهم وضراعتهم، فهيأ لهم الظروف لتلك الغزوة المجيدة، التي تمَّ فيها النصر للمؤمنين على قلَّةٍ في عَدَدهم، وضعفٍ في عُدَدهم، وعدم تهيئهم للقتال، لأنهم خرجوا ليتعرضوا لقافلة قريش، ولم تكن غايتُهم قتالَ المشركين، ولكنَّ الله ـ جلَّت عظمته ـ أراد أمراً آخر، فيه عزٌ للإسلام والمسلمين، أراد أن يُظهر قدرته على نصرة عباده المستضعفين، ليعرف أنصار الباطل، أنَّ البغي مهما طال أمدُه،

وقويت شوكتُه، وامتد سلطانه، فلا بدَّ له من يوم يخرُّ فيه صريعاً أمام جلال الحق، وقوَّةِ الإيمان، وهكذا أعطت غزوةُ بدرٍ، دروساً وعبراً على مدى التاريخ الإنساني، فكانت نصراً للمؤمنين، وهزيمة للمشركين، سجَّلها التاريخ في صفحاته الناصعات.

● وفي ثنايا سرد أحداث «غزوة بدر» جاءت النداءات الإلَهية للمؤمنين، ستَّ مرات بوصفهم بالإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا﴾ كحافزٍ لهم على الصبر والثبات، في جهادهم لأعداء الله، وكتذكير لهم بأن هذه التكاليف التي فُرضت عليهم وأُمروا بها، هي من مقتضياتِ الإيمان الذي تحلَّوا به، وأن النصر الذي حازوا عليه، كان بسبب الصدق والإيمان، لا بكثرة المال والرجال، وصدق الله حيث يقول: ﴿إنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ، وَإنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

● **أما النداء الأول**: في هذه السورة الكريمة، فقد جاء ساطعاً واضحاً، فيه الإعذار والإنذار، لأصحاب العقيدة والإيمان، من الفرار من الأعداء، مهما كثر عددهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا إذَا لَقِيتُمُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوْهُمُ الأَدْبَارَ. وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ـ إلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إلَى فِئَةٍ ـ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

● **وأما النداء الثاني**: فهو توجيه رباني للمؤمنين إلى السمع والطاعة، والاستجابة لأمر الله وأمر رسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا أَطِيعُوْا اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُوْنَ. وَلاَ تَكُوْنُوْا كَالَّذِيْنَ قَالُوْا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُوْنَ. إنَّ شَرَّ الدَوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُمُّ البُكْمُ الَّذِيْنَ

لَا يَعْقِلُوْنَ﴾ فقد شبَّه الله الكفار بالدواب والأنعام السارحة، التي لا تسمع ولا تعي، ولا تستجيب لدعوة الحق، ويا له من تشبيه بليغ في ذروة البيان!.

● **وأما النداء الثالث:** فهو لدعوة المؤمنين إلى الاستجابة لله والرسول، وقبول دعوته التي فيها حياة القلوب والأرواح، وبها العزة والسعادة والسيادة في الدنيا والآخرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا اسْتَجِيْبُوْا لِلَّهِ وَلِلرَّسُوْلِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ، وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ يَحُوْلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُوْنَ. وَاتَّقُوْا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا مِنْكُمْ خَاصَّةً، وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللَّه شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

● **وأما النداء الرابع:** فهو للتحذير والإنذار من الخيانة، خيانة الأمانة التي ائتمننا الله عليها، أو خيانة الأمة بإفشاء أسرارها إلى أعدائها، أو خيانة الدين بعدم الاستمساك بأحكامه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوْا اللهَ وَالرَّسُوْلَ وَتَخُونُوْا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ. وَاعْلَمُوْا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ، وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

● **وأما النداء الخامس:** بلفظ الإيمان، فقد جاء بالأمر بتقوى الرحمن، وفيه إرشادٌ إلى ثمرة التقوى، التي يجنيها المؤمن، ومن أعظمها ذلك النور الرباني، الذي يفرق فيه الإنسان بين الهدى والضلال، والنور والظلام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ ذُوْ الفَضْلِ العَظِيمِ﴾.

● **وأما النداء السادس:** وهو النداء الأخير لمواكب الإيمان وجند الرحمن، فقد وضَّح الله لهم فيه طريق العزة والنصر، وذلك بالثبات أمام الأعداء، والصبر عند اللقاء، والإكثار من ذكر الله الذي

هو الذخيرة للمؤمن في السراء والضراء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوْا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ. وَأَطِيعُوْا اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ، وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

«غزوة بدر تاجٌ بين سائر الغزوات»

لقد كانت غزوة بدر أول غزوة خاضها المسلمون في صراعهم مع الباطل، وكانت بحقٍ مفخرةً من المفاخر، وتاجاً بين سائر الفتوحات والغزوات، فيها تجلَّت عناية الله بأحبابه وأوليائه، فنصرهم على الأعداء مع قلَّة المسلمين وكثرة عددهم، ممَّا جعل هذه الغزوة تقلب الموازين في منطق القوة والعتاد والسلاح، وتقيم البراهين على أن النصر للحق وأنصاره، وليس بكثرة العَدَد والعُدَد، وصدق الله حيث يقول: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

هذه لمحة خاطفة عن أهداف السورة الكريمة، وفيها خلاصة لما أشارت إليه سورة الأنفال من أسرار وأنوار، وما أرشدت إليه من دروس وعبر، في ظلال تلك الغزوة المجيدة، التي هي إحدى مفاخر الإسلام.

«حكم الغنائم التي غنمها المجاهدون»

ابتدأت السورة الكريمة ببيان حكم الغنائم التي غنمها المسلمون من المشركين في أُولى الغزوات، وقد كانت هذه الغنائم سبباً لحدوث بعض النزاع والخلاف بين المجاهدين، فقد رأى البعض أن يختصَّ بهذه الغنائم الذين حاربوا فعلاً، ورأى الآخرون أن تُقسم هذه الغنائم بين الذين حضروا بدراً وشهدوها، قاتلوا أو لم يقاتلوا، فإن من حَمَى ظهر المقاتلين يُعتبر مشاركاً في المعركة، ويستحقُّ من

الغنيمة مثلَ ما يستحقه المقاتل، وقد جاء هؤلاء المجاهدون إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن حكم الله في هذه الغنائم، فنزلت أولى الآيات تبيِّن الحكم، وتدعو المؤمنين إلى الاجتماع وعدم الاختلاف، وإلى إصلاح ذات البين، وإلى السمع والطاعة لأمر الله ولأمر رسوله ﴿يَسْأَلُوْنَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلْ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُوْلِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَصْلِحُوْا ذَاتَ بَـيْنِكُمْ، وَأَطِيْعُوْا اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾.

«سبب النزول»

روى الإمام أحمد في المسند عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدتُ معه بـدراً، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدوَّ، فانطلقتْ طائفةٌ في آثارهم يهزمون ويَقْتُلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ ـ أي أحاطت به لحمايته ـ لا يُصيب العدوُّ منه غِرَّة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناسُ بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم، نحن حويناها ـ أي جمعناها ـ فليس لأحدٍ فيها نصيبٌ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحقَّ به منا، نحن منعنا عنه العدوَّ وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدوُّ منه غِرَّة فاشتغلنا به، فأنزل الله عز وجل ﴿يَسْأَلُوْنَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُل: الأَنْفَالُ لِلَّهِ والرَّسُوْلِ فَاتَّقُوْا اللَّهَ وَأَصْلِحُوْا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فقسمها رسولُ الله ﷺ بين المسلمين»[1].

وروى أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما كان يومُ

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث عبادة ابن الصامت، وأخرجه الترمذي وابن ماجه أيضاً، وقال الترمذي: هذاحديث صحيح، وانظر مختصر ابن كثير ٢/٨٣.

بدر قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قَتَل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا، فأما المشيخةُ فثبتوا تحت الـرايات، وأمـا الشُبَّانُ فتسارعوا إلى القتل والغنائم، فقال المشيخةُ للشبان: أَشْرِكونا معكم فإنَّا كنَّا لكم رِدْءاً، ولو كان لكم شيء للجأتم إلينا، فأبوا واختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت الآية الكريمة ﴿يَسْأَلُوْنَكَ عَنِ الأَنْفَالِ..﴾ الآية فقسَّم ﷺ الغنائم بينهم بالسَّوِيَّة»(١).

«صفات المؤمنين الصادقين»

ثم تتابعت الآيات تذكِّر المؤمنين بصفات أهل الإيمان، وما ينبغي أن يتحلَّوْا به من السجايا الحميدة، والصفات الكريمة، لأن الإيمان ليس كلمةً تُقَال باللسان، بل هو عقيدةٌ راسخة في الوجدان، تنبعث منها أفضل الأعمال، وتُثمر أطيب ثمار الحبِّ والولاء، للَّهِ ولرسوله، وحبِّ الخير لبني الإنسان ﴿إِنَّمَا المُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوْبُهُمْ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ. الَّذِيْنَ يُقِيمُوْنَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُـوْنَ. أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُوْنَ حَقَّاً، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

«صفات خمسٌ لكمال الإيمان»

فقد وصفت هذه الآيات البينات المؤمنين الصادقين بصفات خمسٍ، لا يكمل الإيمان إلاَّ بها، ولا يرقى العبد إلى درجة أهل الفضل والصلاح إلاَّ إذا تحلى بها، وهي كالآتي:

الوصف الأول: الخشيةُ من الله عز وجل، واستحضارُ عظمته وجلاله، والاعتقادُ بأن الله سبحانه رقيب عليه، مطَّلعٌ على أعماله،

(١) أخرجه أبو داود، والنسائي، وابن مردويه، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/٨٣.

ليظل العبد مستقيماً في حياته، وهذه ثمرةُ الخوف من الله الكبير المتعال، وإليها ألمحت الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي إنَّما الكاملون في دعوى الإيمان، المخلصون في عبادة الرحمن، هم الذين إذا ذكر اسم الله فزعت قلوبهمْ وارتعدتْ، لمجرد ذكره، استعظاماً لشأنه، وتهيباً من عظمته وجلاله.

الوصف الثاني: فهو زيادة الإيمان عند تلاوة آيات القرآن، فلا يمرون على الآيات عند التلاوة مرور الكرام، بل يقرءونها بخشوع وخضوع، وتدبر وتفكر، فيزيد إيمانهم وتزيد خشيتُهم لله، وتسري في عروقهم حلاوة الإيمان، كما تجري الدماء في العروق، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ أخرج الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري، أنه مرَّ برسول الله ﷺ فقال له الرسول الكريم: كيف أصبحت يا حارثُ؟ قال: أصبحتُ مؤمناً حقاً!!، قال: انظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقةُ إيمانك؟ فقال يا رسول الله: عَزَفتْ نفسي عن الدنيا، فأسهرتُ ليلي، وأظمأتُ نهاري، وكأني أَنظرُ إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغَوْن فيها، فقال يا حارثُ: عرفتَ فالزم، عرفت فالزم، عرفت فالزم» ثلاثاً[1].

أما الوصف الثالث: فهو التوكل على الرحمن، والثقةُ به، والاعتمادُ عليه، فلا يرجو العبد سواه، ولا يقصد إلَّا إيَّاه، ولا يلوذ إلَّا بجنابه، لأنه تعالى بيده الحَوْل والطَّوْلُ، وإلى ذلك الوصف أشارت الآية ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ﴾ أي لا يرجون غير الله، ولا يرهبون سواه.

---

(١) الحديث أخرجه الحافظ الطبراني، وذكره ابن كثير ٢/٨٥ وانظر جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد ١/٢٥.

أما الوصف الرابع: فهو المحافظة على الصلاة بشروطها، وأركانها، وآدابها، وأوقاتها، وخشوعها، وهذا ما نبهت إليه الآية الكريمة ﴿الَّذِيْنَ يُقِيْمُوْنَ الصَّلاَةَ﴾ فليس المراد أداء الصلاة على أي وجه كان، بل المراد إقامتُها على الوجه الأكمل، الذي يُرضي الله.

أما الوصف الخامس: فهو الإحسان إلى عباد الله بأداء الزكاة المفروضة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُوْنَ﴾ ثم رتب الله النتيجة على ذلك بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقّاً، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي لهم منازل رفيعة في جنان الخُلد والنعيم، ورزقٌ دائم مستمر مقرونٌ بالإكرام والتعظيم.

«جند الرحمن وجند الشيطان»

ثم تتابعت الآيات الكريمة، تسرد أخبار تلك الغزوة المجيدة «غزوة بدر» فقد كانت هذه الغزوة رائدة الغزوات، وكانت ذكرياتها خالدة على مدى الأزمان، لأنها «الغزوة الفاصلة» التي فصلت بين الهدى والضلال، وفرَّقت بين الحق والباطل، وميَّزت بين «جند الرحمن» و «جند الشيطان»، ولهذا كان الذين شهدوها من المسلمين خِيرة الصحابة، وفضلُهم يعلو كل فضل، لأن على سواعدهم كان النصر المبين للمسلمين، وقد أثنى عليهم رسول الله ﷺ حينما قال لعمر عن أحد الصحابة الذي شهد موقعة بدر: «إنَّه شهد بدراً، وما يدريك أن الله اطَّلَعَ على أهل بدرٍ، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم»(١).

(١) هذا الحديث ورد في قصة «حاطب بن أبي بلتعة» حينما أراد عمر قتله، لأنه أفشى سرَّ رسول الله ﷺ وأخبر أهل مكة أن الرسول عليه السلام يريد أن يغزوهم، ولما أطلع الله رسوله على ذلك، دعاه فاعتذر أمامه واعترف بخطئه، فقال عمر يا رسول الله: دعني أضربْ عنقه. .» الحديث وهو مرويٌ في الصحيحين.

«كراهيةُ بعض المسلمين للخروج»

لقد خرج المسلمون لهذه المعركة على غير موعد، وعلى غير استعداد، فإنَّهم إنما خرجوا يريدون قافلة قريش، ولم يكن قصدهم قتال المشركين من أهل مكة، ولهذا لما دعاهم الرسول ﷺ للقتال كرهوا الخروج، وقالوا يا رسول الله: لو أخبرتنا بأننا سنلقى الأعداء لتهيَّأْنا، وأخذنا عُدَّتنا لحربهم!! وجادلوا الرسول في أمر المعركة من غير استعداد سابق، فجاءت الآيات لتصوِّر حالهم وموقفهم، أمام ذلك النبأ الذي لم يكن له في خاطرهم أيُّ حُسبان، لأنهم خرجوا لطلب القافلة لا للقتال، فكيف يجابهون قوةً طاغيةً غاشمة، قد استعدت كل الاستعداد، ثم هم أكثر من المسلمين في السلاح والرجال وفي ذلك يقول ربنا تقدَّست أسماؤه: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُوْنَ. يُجَادِلُوْنَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ، كَأَنَّمَا يُسَاقُوْنَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُوْنَ﴾.

ونكاد نلمح ـ من جوّ هذه الآيات ـ مبلغ الحالة النفسية التي كان عليها بعض الصحابة، حين دعاهم الرسول إلى القتال، فقد صوَّرهم القرآن بصورة من يُساق إلى الموت سوقاً، ويُدفع نحوه دفعاً ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُوْنَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُوْنَ﴾.

قال الإمام البيضاوي: أي يكرهون القتال كراهة من ينساق إلى الموت وهو يرى أسبابه، وذلك لقلَّةِ عددهم، وعدم تأهُّبهم، وفيه إشارة إلى أن مجادلتهم، إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم.

«استشارة النبي ﷺ لأصحابه»

وتمضي الآيات الكريمة لتطالعنا بمشهدٍ آخر من مشاهد

الاضطراب والفزع، لبعض الصحابة الكرام عليهم من الله الرضوان، حيث استشارهم الرسول عليه السلام في أمر قتال الأعداء، فتشجَّع البعض وتخاذل البعض، فقد روي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه ـ حين بَلَغَهُ أن عير قريش أقبلت من الشام بقيادة أبي سفيان ومعها تجارة عظيمة ـ قال لهم: إنَّ الله وعدني إحدى الحُسْنَيَيْن: إمَّا العير، وإما النفير، فاستشار أصحابه فاختاروا العير لخفة الحرب، وكثرة الغنيمة، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة، فنادى أبو جهل: يا أهل مكة النَّجاءَ النَّجاء، عِيرُكم، أموالكُم، إن أصابها محمدٌ فلن تُفلحوا بعدها أبداً، فخرج المشركون على كل صعبٍ وذلول، يريدون الحرب، ومعهم أبو جهل حتى وصلوا بدراً، ونجت القافلة فأخبر الرسول أصحابه وقال لهم: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهلٍ قد أقبل، فقال بعضهم ـ وهم الأكثرون ـ يا رسول الله: عليك بالعير، ودَع القوم، فإنَّا لم نخرج للحرب، فغضب رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقال أشيروا عليَّ أيها النَاس، فقام أبو بكر فتكلَّم فأحسن الكلام، ثم قام عمر فتكلَّم فأحسن الكلام، ثم قام «المقداد بن عَمْرو» فقال يا رسول الله: امضِ لما أمرك اللَّهُ، فنحن معك، واللَّهِ لا نقولُ لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُوْنَ﴾ ولكنْ نقول: إذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكم مقاتلون، فسُرَّ الرسول ﷺ من كلامه ودعا له بخير، ثم قال: أبشروا أيها الناس، وسيروا على بركة الله، فإنَّ الله عز وجل قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم[1]، وفي هذا يقول ربنا تَقدست أسماؤه ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا

(١) ذكرها أصحاب السير، وأخرجها ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ٢/٨٦.

لَكُمْ، وَتَوَدُّوْنَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُوْنُ لَكُمْ﴾ أي وتحبون أن تلقوا الطائفة، التي لا سلاحَ فيها ولا حرب، وهي العير المحمَّلة بالتجارة ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ. لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُوْنَ﴾.

«استغاثة النبي بربه سبحانه وتعالى»

وفي بدر التقى الجيشان، جيش الكفر وجيش الإيمان، ودارت المعركة على أشدِّها بين جند الرحمن وجند الشيطان، وقام الرسول ﷺ يستغيث ويستنجد بربه، ويطلب منه النصر على المشركين، فقد نظر الرسول الكريم إلى المشركين وهم ألف ويزيدون، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائةٍ وبضعة عشر رجلاً، فاستقبل القبلة، ومدَّ يديه يدعو ربَّه، وعليه إزاره ورداؤُه: «اللهمَّ أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تَهْلكْ هذه العصابةُ من أهل الإسلام فلن تُعْبد في الأرض»، فما زالَ يستغيث ربَّه ويدعوه، حتى سقط الرداء عن منكبيه، فأخذه أبو بكر، فألقاه على كتفي النبي ﷺ ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبيَّ الله كفاكَ مناشدتُك ربَّك، فإنَّه سيُنْجِزُ لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُوْنَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِيْنَ﴾ أي متلاحقين متتابعين يردف بعضهم بعضاً ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى، وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوْبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وهكذا حقَّق الله وعده، ونصر جنده، ورفع راية الحق والإسلام، فانتصر المسلمون في بدر فقتلوا من المشركين سبعين، وأسروا سبعين، وكانت في هذه الغزوة أعظم الدروس والعبر.

«آياتٌ وعِبَرٌ في غزوة بدر»

ولقد ظهرت في هذه الغزوة بعضُ الأحداث الجسام، والآيات الباهرة، والكرامات الظاهرة، لجند الله الصادقين، تأييداً من الله لهم، وتثبيتاً لقلوبهم، فلقد كان المسلمون في تلك الغزوة في قلةٍ من العَدَد، ونقصٍ من العتاد والسلاح، وأعداؤهم المشركون أكثر عدداً، وأوفرَ سلاحاً، وأشدَّ حنكةً ودرايةً بالحروب، لأنهم مارسوها مراتٍ ومرات، ثم لما وصل المشركون بدراً، سبقوا المسلمين وغلبوهم على الماء، ونزل المسلمون في كثيبٍ أعفر، تسوخُ فيه الأقدام، وليس عندهم ماء، وناموا تلك الليلة، فاحتلم بعضهم، فصلُّوا مجنبين بدون اغتسال، فوسوس إليهم الشيطان وقال: كيف تُنْصَرون وقد غُلبتم على الماء؟! وأنتم تصلُّون مُحْدثين مجنبين، وتزعمون أنَّكم أولياءُ الله وفيكم رسولُه؟ فأنزل الله المطر، حتى ثبتت عليه الأقدام، وزالت عنهم وسوسةُ الشيطان، فشربوا واغتسلوا وتطهَّروا، وكان نزولُ المطر رحمةً على المؤمنين، ونقمةً على المشركين، حيث أصبحت أقدامُ الأعداء تنزلق، لأنهم كانوا في أرضٍ سَبْخة، يضرُّها وجودُ الماء، وإلى هذه الآيات والعِبَر، تشير الآيات الكريمة في سورة الأنفال حيث يقول اللَّهُ تقدست أسماؤه ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ، وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ، ويُـذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ، وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾.

«النعاسُ يغشاهم في المعركة»

وقد ذكرت الآياتُ من ضمن الكرامات التي حصلت للمؤمنين،

إلقاء النِعاس عليهم يوم بدر، أماناً منه تعالى لهم، أمَّنهم به من خوفهم الذي حصل لهم، من كثرة عَدُوِّهم وقلة عددهم، ومعلوم أن الخائف لا ينام، ولكنه تعالى أراد للمسلمين أن يستعيدوا نشاطهم وحيويتهم، بعد أيام مضنية من التعب والعناء، والاستعداد للقاء الأعداء، فجعل الواحد منهم ينام وهو آمن مطمئنٌ، كأنه ليس في معركة حرب، وهذه من أعظم المعجزات لرسول الله عليه الصلاة والسلام، أن يغشى جميع الجيش النومُ في وقت البأس والخوف، قال علي رضي الله عنه: «ما كان فينا فارسٌ يومَ بدر غيرُ المقداد ـ أي ليس فينا من يركب فرساً في غزوة بدر غير المقداد بن عمرو ـ ولقد رأيتُنَا وما فينا إلاَّ نائم، إلاَّ رسولُ الله ﷺ يصلِّي تحت شجرةٍ ويبكي، حتى أصبح الصباح» وصدق الله إذ يقول: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ أي يلقي عليكم النعاسَ والنومَ، أمناً من عنده سبحانه وتعالى، لا فزعاً وخوفاً، بل طمأنينةً وأمناً، وهذا من الآيات الباهرة في تأييد الله لعباده المؤمنين، كما حدث أيضاً في معركة أحد، حيث نام المؤمنون بعد طول مشقة وعناء، حتى قال أبو طلحة رضي الله عنه: كنت ممن غشيه النعاسُ يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً، يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرتُ إلى القوم يميدون وهم تحت الحَجَف»[1] أي تحت التـروس.

«إمداد المؤمنين بالملائكة تقاتل معهم»

ثم تلتها الآيات تذكر ما أيَّد الله به المؤمنين في بدر، من إمدادهم بالملائكة لنصرة نبيه ودينه، يقاتلون ـ إلى جانب المؤمنين ـ أعداءَ الله، فيضربون الرؤوس، ويحزُّون الرقاب، ويقطعون الأطراف، ويزلزلون قلوب المشركين بإلقاء الرعب فيها، وقد شاركت الملائكة بالقتال فعلاً،

(١) انظر السيرة الحلبيَّة، وسيرة ابن هشام، ففيهما تفصيلٌ لتلك الأحداث.

حتى إن الرجل من المسلمين، كان إذا اقترب من المشرك يريد قتله، ينفصل الرأس قبل أن يَهْوي بالسيف عليه، فلا يشعر إلاَّ وقد تدحرج المشرك مضرَّجاً بدمائه، بقتل الملائكة له، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿إِذْ يُوْحِي رَبُّكَ إِلَى المَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوْا الَّذِيْنَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِيْنَ كَفَرُوا الرُّعْبَ، فَاضْرِبُوْا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي فاضربوا منهم الرقاب، واضربوا منهم أطراف الأصابع، وفائدة الضرب على البَنَانِ - وهي أطراف الأصابع - أنَّ المقاتل إذا ضُربتْ أصابعُه تعطَّل عن القتال، فأمكن أسرُهُ وقتلُه، وقد كان يُعرف قتيلُ المسلمين، من قتيل الملائكة، بهذه العلامة، كما قال الربيعُ بن أنس رضي الله عنه: كان الناسُ يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة بضربٍ فوق الأعناق، وعلى البَنَان، مِثْلُ عَلاَمةٍ بالنَّارِ قد أُحْرق بها»(1). ثم وضَّح تبارك وتعالى السبب في قتل هؤلاء المشركين، فقال تقدست أسماؤه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوْا اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والمعنى ذلك العذاب الشديد الفظيع، واقع عليهم بسبب أنَّهم عاندوا وحاربوا الله ورسوله، ومن يخالف أمر الله، ويعادي شرعه ودينه، فإن عقاب اللَّهِ أليم، وبطشه شديد، وقد كرر الله ذكر العقاب ردعاً وزجراً للمشركين، وللطغاة المفسدين فقال سبحانه ﴿ذَلِكُمْ فَذُوْقُوْهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ أي ذلكم العقاب فذوقوه يا معشر الكفار في الدنيا، مع أن لكم ما هو أشدُّ وأخزى من هذا العقاب في الآخرة، وهو عذاب النار، الباقي المستمر الذي لا ينقطع ولا يُخفَّف عن أهل الجحيم، اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، ونجنا من عذاب السعير يا أرحم الراحمين.

---

(1) ذكر هذا الأثر الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/٩١.

«التحذير من الفرار من المعركة»

كانت هذه المعركة أول غزوات الرسول ﷺ، والتقت فيها الفئة المؤمنة القليلة، مع الطُّغْمةِ الباغية الكثيرة، ولقد كان المسلمون يهابون لقاء العدوّ في بادىء الأمر، وذلك لقلة عددهم، وعدم استعدادهم، فقد خرجوا يريدون التعرض لقافلة قريش، وما كانوا يحسبون حساب لقاء الأعداء، فلذلك هابوهم وتمنوا أن تكون لهم العير دون النفير كما قال تعالى: ﴿وَتَوَدُّوْنَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُوْنُ لَكُمْ﴾(١) ولهذا جاءت الآيات الكريمة، تأمرهم بالثبات في الميدان، وعدم الانهزام من المعركة، وقد أنذرتهم الآيات بالعذاب الشديد، إن هم آثروا الفرار على الصمود أمام الأعداء، مهما كثر عددهم، وقويت شوكتهم، فإنَّ المؤمن يقاتل لإعلاء كلمة الله، وأمنيَّتُه أن ينال الشهادة في سبيل الله، فكيف يفرُّ من الزحف ويهرب من الميدان؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا إِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا زَحْفَاً فَلَا تُوَلُّوْهُمُ الأَدْبَارَ. وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ، إِلَّا مُتَحَرِّفَاً لِقِتَالٍ، أَوْ مُتَحَيِّزَاً إِلَى فِئَةٍ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وهذا التصوير الرائع الذي صوَّر به القرآنُ الكريم جيش الأعداء، صورة فنية من أبدع صور البيان، فقد مثلَّ لكثرتهم ووفرة عددهم، بجيش يزحف على الأرض زحفاً، لا يكاد يرى الإنسان موضع قدم، كأنَّ بعضهم متداخل في بعض، فهم لا يسيرون على الأرض سيراً، إنَّما يزحفون زحفاً، كما يزحف الصبيان على الأيدي والأقدام، وهذا هو السرُّ في تعبير القرآن ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوْا زَحْفَاً﴾ ومع هذا الجيش

---

(١) المراد بقوله تعالى «غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ» أي غير الحرب يعني الطائفة التي لا سلاح لها، وهي العيرُ التي تحمل التجارة، والشوكةُ: السلاحُ، وأصلها من الشَّوْكِ، لأن الحرب فيها ضربٌ وطعن بالسيوف والرماح، كما قال أهل اللغة.

العرمرم الزاحف، فلا يجوز للمسلم أن يهرب أمام العدو، لأن الهرب من المعركة، يُطْمِع العدو في الإقدام، ويجعل المسلمين يَدِبُّ في قلوبهم الوهن والضعف، وهم يرون إخوانهم يهربون من الميدان، وقد استثنى الله عزَّ وجلّ حالتين اثنتين فقط، يجوز فيهما الهرب من ساحة القتال وهما كالآتي:

الحالة الأولى: أن يفرَّ أمام العدو مكيدةً له، ليريه أنه خاف منه فيتّبعه، ثم يكرُّ عليه فيقتله، وهذا في الحقيقة ليس بهرب، إنما هو ضربٌ من ضروب الخديعة في القتال، و «الحربُ خُدْعةٌ»[1] كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿إلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ﴾ أي يفرُّ من أجل أن يكرَّ، ويتظاهر بالهرب ليستدرج عدوَّه، فهو عين الشجاعة والبطولة.

الحالة الثانية: أن يترك إحدى الجبهات التي كان يقاتل فيها، لينضمَّ إلى جبهة أخرى قلَّ العدد فيها، أو ركّز الأعداء عليها، فهي تحتاج إلى عون ونصير، لا سيما إذا استنجدت إحدى فرق المسلمين، فإذا ترك القتال هنا، لينضمَّ إلى إخوانه المؤمنين هناك، فهذا لا يعدُّ هرباً إنما هو صمودٌ وإقدام، حيث يترك العدد الكثير، لينضمَّ إلى العدد القليل، فالخطر عليه أعظم، والبأسُ منه أشدُّ، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزَاً إِلَى فِئَةٍ﴾ أي منضماً إلى جماعة من المؤمنين يقاتل معهم في معركة الصمود والشرف.. وفي غير هاتين الحالتين فقد اعتبر الإسلام الفرار جريمة من الجرائم، وكبيرة من الكبائر، يستحق عليها الإنسان غضب الجبار، والخلود في النار، كما نبَّه تعالى على ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ

(١) الحديث رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وهو بفتح الخاء وضمِّها، جامع الأصول ٢/٥٧٥.

يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ كما عدَّ النبي ﷺ الفرار من المعركة من السبع الموبقات، وهي الكبائر التي تُهلك صاحبها، وتوبقه في نار الجحيم، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات: قيل وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: الشركُ بالله، والسِّحْرُ، وقتلُ النفس التي حرَّم الله إلَّا بالحق، وأكل الربا، وأكلُ مال اليتيم، والتولي يوم الزحف ـ أي الهربُ من المعركة يوم القتال ـ وقذفُ المحصنات الغافلات المؤمنات»(١).

«معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ»

ثم تتابعت الآيات تذكِّر الرسول والمؤمنين، بفضل الله وإنعامه عليهم، حيث نصرهم على الأعداء دون جهدٍ كبيرٍ ولا عَنَاء، بل بقبضةٍ من ترابٍ رماها الرسول على الكفار، فولَّوْا الأدبار، وكانت إحدى الآيات الباهرة، والمعجزات الظاهرة للرسول عليه السلام ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوْهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَناً، إِنَّ اللَّه سَمِيعٌ عَلِيمٌ. ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوْهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِيْنَ﴾ والمعنى في هذه الآيات البينات: إنكم لم تقتلوهم أيها المسلمون ببدرٍ بقوَّتكم وقدرتكم، ولكنَّ الله قتلهم، بنصركم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم، وما رميت أنت يا محمد حين رميت أعين القوم بقبضةٍ من تراب، لأن كفًّا من تراب لا يمكن أن تصل إلى عيون الجيش الكبير بأكمله، ولكنَّ الله رمى بإيصالها إليهم، حتى ولَّوْا الأدبار منهزمين، فالرمي في الصورة لك، وفي الحقيقة للَّهِ جلَّ وعلا، الذي يصنع

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ١/٤٣.

الأعاجيب، في نصرة جنده وأوليائه، روى الحافظ ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «رفع رسول الله ﷺ يديه يوم بدر، ودعا ربه فقال: يا ربِّ إن تهلكْ هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض أبداً، فجاءه جبريل فقال له يا محمد: خذ قبضةً من التراب، فارم بها في وجوه المشركين، فأخذ قبضةً من التراب فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحدٌ إلاّ أصاب عينيه ومنخريه وفَمَهُ ترابٌ، من تلك القبضة، فولوا مدبرين، وأقبل أصحاب رسول الله يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ فأنـزل الله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[1]. . وهكذا كانت غزوة بدر، مظهراً من مظاهر العز والنصر، وظهرت فيها آيات باهرات، أيَّد الله بها رسوله وعباده المؤمنين.

«بدر نصرٌ مبينٌ للمؤمنين»

لقد كانت غزوة بدر التي تحدثت عنها سورة الأنفال بالتفصيل، فيصلاً بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، وكانت فتحاً مبيناً، أعزَّ الله بها الإسلام والمسلمين، وأذلَّ فيها الشرك والمشركين، فلقد نفخ الشيطان في أنصاره وأتباعه، حتى خرجوا على كل صعب وذلول، يريـدون القضاء على محمد ﷺ وعلى دين محمد، ولكنَّ الله بعزَّته وقدرته، أراد أن تكون هذه الموقعة نصراً مبيناً لجند الرحمن، وتظهر فيها آياتُـه الباهرة، وقدرتُه القاهرة، فجمع المؤمنين مع أعدائهم على غير ميعاد، ثمَّ كان الفتح المبين للمؤمنين مع عدم التهيء والاستعداد، وفي ذلك يقول الله جلَّ وعلا ممتناً على أوليائه ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوْهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِيْنَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوْهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِيْنَ﴾.

(١) انظر تفسير مختصر ابن كثير ٢/٩٣ للصابوني.

«طغيان قريش وجبروتها»

ثم تلتها الآيات تتحدث عن طغيان قريش، وعُتُوِّها وجبروتها، فلقد خرج المشركون لبدرٍ بعد أن نجت تجارتهم، يريدون الحرب والقتال، ولكنهم قبل أن يخرجوا طافوا بالبيت سبعاً، وتعلَّقوا بأستار الكعبة، وطلبوا من الله عز وجل أن ينصرهم على محمد وعلى أتباعه، وقالوا في دعائهم: اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين، وقال أبو جهل يوم خروجه لبدر: اللهمَّ أيُّنا كان أفجرَ، وأقطعَ للرحم، وأظلمَ لقومه، فأَحِنْه الغداة ـ أي فأهلكه اليوم ـ فكان أبو جهل هو المستفتح، وهو المستنصر، فأنزل الله عز وجل ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ، وَإِنْ تَنْتَهُوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ تَعُوْدُوْا نَعُدْ، ولَنْ تُغْنِيَ عَنْكُم فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ، وأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾. والمعنى: إن تطلبوا يا معشر الكفار الفتح والنصر على المؤمنين، فقد جاءكم الفتحُ، وهو الهزيمةُ والقهرُ، فلقد سمَّى الله الهزيمة التي لحقت بقريش فتحاً ونصراً، على سبيل «السخرية والتهكم»، وهذا أسلوب من أساليب العرب البلاغية، يضعون الشيء مكان ضدِّه تهكماً وسخرية كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فالبشارة بالعذاب أسلوب من أساليب التهكم، لأن العذاب ليس أمراً ساراً يُبشَّر به الإنسان، ثم قال تعالى مخاطباً المشركين: ﴿وإِنْ تَنْتَهُوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي وإن تكفُّوا يا معشر قريش عن حرب الرسول ومعاداته، وعن الكفر بالله وبرسوله، فهو خير لكم في دنياكم وآخرتكم، ثم توعَّدهم بعد ذلك بقوله: ﴿وإِنْ تَعُوْدُوْا نَعُدْ﴾ أي وإن تعودوا لحربه وقتاله، نَعُدْ لنصرته وهزيمتكم ﴿وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئَاً وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي لن تدفع عنكم جماعتكم التي تستنجدون بها، شيئاً من العذاب والبلاء الذي ذقتموه، مهما كثر الأعوان والأنصار، ثم ختم

الآية بأروع وأبدع ختام، وهو كالتعليل على نصرة أوليائه المجاهدين. فقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ أي وأن الله معهم بالعون والنصر والتأييد، ومن كان الله معه فلن يُغلب أبداً.

«سعادة المؤمن بطاعة الله ورسوله»

ثم جاءت الآيات تأمر المؤمنين المجاهدين بالسمع والطاعة، لأمر الله وأمر رسوله، وعدم الاستجابة لداعي الشيطان، وتحذّرهم من مخالفة أمر الرسول ﷺ، فإن في طاعته الفوز والفلاح، وفي معصيته الخسار والدمار ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا أَطِيعُوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُوْنَ. وَلَا تَكُوْنُوا كَالَّذِيْنَ قَالُوْا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُوْنَ﴾ أي لا تتشبهوا بالكفار ولا تكونوا مثلهم، وهم الذين سمعوا الهدى والقرآن بآذانهم، دون قلوبهم، فلم يستفيدوا من هداية القرآن، لأن الغرض من السماع التدبر والانتفاع، فمن لم ينتفع من الكلام، فهو بمنزلة الأنعام، ولهذا شبههم تعالى في الآية بعدها بالدواب السارحة، التي لا تسمع ولا تعي، ولا تستجيب لدعوة الحق والإيمان ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِيْنَ لَا يَعْقِلُوْنَ﴾ ويا له من تشبيه رائع، بالغ الروعة والبيان!! والمعنى: إنَّ شرَّ الخلق، وشر البهائم التي تدبُّ على وجه الأرض، هؤلاء الكفار الأشرار، الصمُّ الذين لا يسمعون الحقَّ، البكمُ الذين لا ينطقون بكلمة التوحيد والإيمان، الذين فقدوا العقل الذي يُميِّز به المرء بين الخير والشر[1].

---

(١) لم يكتف القرآن أن جعلهم كالدواب والأنعام، بل جعلهم أخسَّ من البهائم حين قال: ﴿إن شرَّ الدَّوَابِّ﴾ وذلك نهاية الذمِّ والتقبيح للكفرة المجرمين، قال بعض المفسرين: الآيةُ في منتهى الإيجاز والإعجاز، إذ أن الكافر لا يسمع الحقَّ، والبهائم لا تسمعه، ولا ينطق به والبهائم لا تنطق، ويأكل والبهائم تأكل، بقي أنه يضرُّ والبهائمُ لا تضرُّ، فكيف لا يكون شرّاً منها؟!.

«الكفار بمنزلة الأنعام»

قال المفسرون: نزلت في جماعة من قريش من بني عبد الدار، كانوا يقولون إذا سمعوا آيات القرآن: نحن صمٌّ بكمٌ عما جاء به محمد، لا نسمع ولا نعقل ما يقول، ولما كانت غزوة بدر توجَّهوا مع أبي جهل لقتال الرسول، ففيهم نزلت، وهي تشمل كل كافرٍ معرضٍ عن الإيمان، وفي الآية الكريمة غاية الذم والتقبيح للكفرة المشركين، وتصوير لهم في غاية الروعة، بأنَّهم أشرُّ من البهائم والخنازير والحمير، لأنهم لم يستفيدوا من حواسهم التي أنعم الله بها عليهم، من سمع، وبصر، وعقل، وإدراك، فكانوا لذلك أخسَّ من الحيوانات والدواب السارحة ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

وتأكيداً لإمعانهم في الضلالة، وسيرهم في طُرُقِ الغواية، فقد أخبر القرآن الكريم عن تشبُّثهم بالأفكار الخبيثة، واستمساكهم بأهداب الباطل، مهما كان الحق واضحاً أمام الأنظار، ساطعاً سطوع الشمس في النهار ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرَاً لأَسْمَعَهُمْ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُوْنَ﴾ والمعنى: لو علم الله جلَّ وعلا في هؤلاء الكفار شيئاً من الخير، لأسمعهم القرآن وهَدْي النبي عليه السلام، سماع تفهم وتفكر وتدبر، ولو فرض أن الله أسمعهم، لأعرضوا عن هداية الله جحوداً وعناداً، والآية مثل حيٌّ من صور البغي والعدوان لهؤلاء المجرمين الفجَار.

«توجيهات ربانية للمؤمنين»

تناولت هذه السورة الكريمة، التوجيهات الربانية، والإرشادات

---

(١) هذا من باب «الفرض والتقدير» أي لو فرضنا وقدَّرنا أن لهم سمعاً وفهماً وإدراكاً، ثم أسمعهم الله آياته البينات، وحججه الواضحات، لكفروا وجحدوا عتواً وضلالاً، ولكنْ لا خيرَ فيهم، ولا منفعة تُرجى من ورائهم.

الإلٓهية، التي أرشد الله ـ تقدَّست أسماؤه ـ إليها عباده المؤمنين، وهذه التوجيهات والإرشادات جاءت منبثَّةً في هذه السورة، ضمن سرد أحداث غزوة بدر، فبعد أن ذكر تعالى في الآيات المتقدمة المصير المشؤوم للكفار، وشبههم بالأنعام السارحة، لأنهم أعرضوا عن قبول دعوة الله، أمر المؤمنين بعد ذلك بالاستجابة لله والرسول، وقبول دعوته التي فيها حياة القلوب، وبها السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اسْتَجِيْبُوا لِلَّهِ وَلِلَّرسولِ إذَا دَعَاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ، وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ يَحُوْلُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ، وَأَنَّهُ إلَيْهِ تُحْشَرُوْنَ. وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِيْنَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً، وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾.

خاطب تعالى المؤمنين بهذا الخطاب الكريم، وناداهم بنداء الإيمان، ليحفزهم على الاعتصام بالقرآن، الذي به حياةُ النفوس والقلوب، وغذاء العقول والأرواح. **قال قتادة: «إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» هو القرآنُ، فيه «الحياةُ، والثقةُ، والنجاةُ، والعصمةُ في الدنيا والآخرة. .»**[1].

«قصة سعيد بن المعلَّى»

أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي سعيد بن المعلَّى قال: «كنت أصلِّي في المسجد فمرَّ بي النبي ﷺ فدعاني فلم أجبه، ثم أتيتُه فقلت يا رسول الله: إني كنت أصلي!!، فقال: ألم يقل الله ﴿اسْتَجِيْبُوا لِلَّهِ وَلِلْرَسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ ثم قال لي: ألَا أُعلِّمكَ سورةً هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟ ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت: ألم تقل: لأعلمنّك سورة هي

(١) ذكر هذا الأثر الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/٩٥.

أعظم سورة في القرآن؟! قال: «الحمدُ لله رب العالمين» هي السبع المثاني، والقرآنُ العظيم الذي أوتيتُه».

«معنى الآية الكريمة»

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ يَحُوْلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي أنه تعالى المتصرف في شؤون الخلق والكون، يُصرِّف القلوب كيف يشاء، بما لا يقدر عليه البشر، فيفسخ عزيمة الإنسان، ويُغيِّر مقاصده، ويلهمه الرُّشْدَ والسَّدادَ، أو يُزيغ قلبه عن الصراط المستقيم، ولهذا كان ﷺ كثيراً ما يدعو بهذا الدعاء العظيم «اللهمَّ يا مقلِّب القلوب، ثبِّتْ قلبي على دينك».

روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين ـ أم سلمة ـ رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يُكثِر في دعائه فيقول: «اللهمَّ مقلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قلبي على دينك، قالتْ فقلتُ يا رسولَ الله: أَوَ إنَّ القلوبَ لتُقَلَّبُ؟ قال: نعمْ، ما خلقَ اللّهُ من بشرٍ من بني آدم، إلَّا وقلبُه بين أصبعينِ من أصابع اللّهِ عزَّ وجل، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه»[1] ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنَا من لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ﴾.

«في السكوت على المنكر دمار الأمة»

والآية الكريمة تضمنت الحثَّ على المراقبة، والخوفِ من الله عز وجل، والمبادرة إلى الاستجابة لله وللرسول، ثم ختمها تعالى بالوعيد الشديد، لمن استهان بحرماتِ الدين، أو رأى المنكر فسكت عنه فقال: ﴿وَاتَّقُوْا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا مِنْكُمْ خاصَّةً، واعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

العِقَابِ﴾ أي احذروا بطش الله وانتقامَه، إن عصيتم أمره، وخالفتم رسوله، واحذروا من فتنةٍ كبيرة، تدع الحليم حيران، لا تقتصرُ على الظالم فحسبُ، بل تعمُّ الصَّالحَ والطَّالحَ. **قال ابن عباس**: أمر الله المؤمنين ألاَّ يُقِرُّوا المنكر بين ظَهْرانيهم، فيعُمَّهم اللَّهُ بالعذاب، فقد جاء في الحديث الصحيح ﴿إنَّ النَّاسَ إذَا رَأوا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأخُذُوا على يديه، أوشكَ أن يَعُمَّهم اللَّهُ بعذابٍ من عِنْدِهِ﴾[1].

«أمنٌ واستقرار في المدينة المنوّرة»

ثم انتقلت السورة تذكِّر المؤمنين بفضل الله وإنعامه عليهم، حيث نصرهم عن قلَّةٍ، وآمنهم بعد خوف، وأغناهم بعد فقر، وجعل لهم وطناً آمناً يستقرون فيه، وهو «المدينة المنوّرة» التي آوت المهاجرين إليها، وكلُّ ذلك من فضل اللَّهِ وإنعامه عليهم، ليشكروه على هذه النعم الجليلة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَاذْكُرُوْا إذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُوْنَ فِي الأَرْضِ، تَخَافُوْنَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ، فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ﴾ والغرضُ من هذه الآية تذكير المؤمنين بالنعمة التي أنعم بها الله عليهم، فإنَّهم كانوا قبل ظهور الرسول وبعثته إليهم، كانوا في غاية القِلَّة والذلَّة، تحت أيدي الفرس والروم، وبعد بعثته وظهوره ﷺ صاروا في غاية العزَّة والرفعة. **قال قتادة**: كان هذا الحيُّ من العرب ـ يريد سكان الجزيرة العربية ـ أذلَّ الناس ذلاًّ، وأشقاهم عيشاً، وأجوعهم بطوناً، وأعراهم جلوداً، وأبينهم ضلالاً، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم رُدِّي في النار، يُؤكلون ولا يأكلون، واللَّهِ ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض، كانوا يومئذٍ أشرَّ

(١) رواه أبو داود والترمذي في باب التفسير رقم (٣٠٥١) وانظر جامع الأصول لابن الأثير ١/ ٣٣٠.

منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام، فمكَّن لهم في البلاد، ووسَّع لهم في الرزق، وجعلهم ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعمٌ كريم، جواد رحيم، يحبُّ الشكر، وأهلُ الشكر في مزيدٍ من الله»[1] وقوله تعالى: ﴿تَخَافُوْنَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ صورة بيانية من ابلغ صور البـلاغة والبيان، تشير إلى الحالة التي كان عليها العرب، من عدم الأمن والاستقرار، فكأنَّهم نهبٌ لكل ناهب، يطمع فيهم كلُّ عدوٍّ وطامع، حتى أعـزَّهم الله بالإسلام.

«التحذير من الخيانة»

ثم تلتها الآيات الكريمة، تحذِّر من الخيانـة، وتدعـو إلى الأمانة، «الأمانةِ مع الله، والأمانة مع عبـادة، والأمانـة في الودائـع والمعاملات المالية» ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُـوْنُوا اللَّهَ وَالـرَّسُوْلَ وَتَخُوْنُوْا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ. وَاعْلَمُوْا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

روي في سبب نزول هذه الآية أنَّ الرسول ﷺ لما حاصر يهود بني قريظة، طلبوا منه الصلح، فأمرهم أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فقالوا: أرسل لنا «أبا لبابة» فبعثه رسول الله إليهم، فقالوا يا أبا لبابة ما ترى؟ أننزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه ـ يعني إن رضيتم بحكمه فسيحكم عليكم بالذبح ـ قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي عن مكانهما، حتى عرفتُ أني قد خنت الله ورسوله، ثم قال: لا والله لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً، حتى أموت أو يتوب الله عليَّ، وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه، فنزلت الآية: ﴿يا

(١) ذكر هذا الأثر الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/٩٧.

أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله . . .﴾[1] الآية ثم نزلت توبته، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يَحلُّوه من السارية، فحلف لا يحلُّه منها إلاَّ رسول الله ﷺ بيده، فحلَّه صلوات الله عليه، فقال يا رسول الله: إني كنت نذرتُ أن انخلع من مالي، صدقة لله، فقال له عليه السلام: يجزيك الثلث أن تتصدَّق به»[1] وكانت هذه الحادثة درساً بليغاً للمؤمنين.

«اجتماع قريش بدار الندوة»

تناولت هذه السورة ـ إلى جانب أحداث غزوة بدر ـ أخباراً عجيبة، وأنباءً غريبة، حدثت لرسول الله ﷺ قبل الهجرة، حيث تآمر عليه المشركون وذلك حين ظهرت دعوته، وانتشرت رسالتُه، وكثر أتباعه وأنصاره، وخشي طواغيت مكة أن تنتشر دعوةُ الإسلام، فاجتمعوا في «دار الندوة» يتشاورون ويتآمرون على هذا النبي الكريم، الذي جاءهم بعزِّ الدنيا وسعادة الآخرة، ولكنهم من سفههم وحماقتهم أرادوا أن يطفئوا شُعلة الإيمان، وجَذْوة الإسلام، ويقضوا على صاحب الرسالة «محمد بن عبد الله» صلوات الله وسلامه عليه بطريق المكر، وأساليب القهر والطغيان، فالتقوا في أحدِ منتدياتهم وهي «دار الندوة» يخطِّطون ويرسمون ويمكرون، بقيادة الزعيم الأكبر «إبليس اللعين» الذي تصوَّر لهم بصور شيخ ناصحٍ أمينٍ، وحضر ذلك اللقاء المغلق، الذي حضره طواغيت الكفر والضلال، من زعماء قريش، ليمكروا بصاحب الرسالة، وعَنِ هذه المؤامرة الدَّنيئة، يقول اللَّهُ تقدَّست أسماؤه مذكِّراً نعمته على رسوله ﷺ، بعد أن ذكَّر المؤمنين

(١) رواه الحافظ ابن كثير عن الزهري، ورواه عبد الرزاق، وانظر كتابنا «صفوة التفاسير» ١ / ٥٠٠.

بنعمته عليهم: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوْكَ أَوْ يَقْتُلُوْكَ أَوْ يُخْرِجُوْكَ، وَيَمْكُرُوْنَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِيْنَ﴾ ومعنى الآية الكريمة: اذكر يا محمد حين تآمر عليك المشركون في دار الندوة «لِيُثْبِتُوْكَ» أي يقيِّدوك ويحبسوك «أَوْ يَقْتُلُوْكَ» أي بالسيف ويضربوك ضربة رجلٍ واحد، ليتفرق دمك بين القبائل «أو يُخْرِجُوْكَ» أي يطردوك ويخرجوك من مكة، قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُوْنَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أي ويحتالون ويتآمرون عليك يا محمد في جنح الظلام، ويدبِّر لك ربك ما يُبطل مكرهم، ويكشف أمرهم، ويردُّ كيدهم في نحورهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾ أي وتدبيره تعالى أقوى من مكرهم، وأشدُّ قوةً وأبلغ تأثيراً، حيث أبطل مكرهم، وأطلع رسوله على مؤامرتهم.

«قصة غريبة من التآمر على رسول الله»

روى الحافظ ابن كثير بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن نفراً من قريش، من أشراف ورؤساء كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا «دار الندوة» فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا له: من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد ـ وكان أهل نجد في ذلك الزمان مشهورين بالشجاعة وجودة الرأي ـ سمعتُ أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم، ولن يعدمكم رَأْيي ونُصْحي!! قالوا: أجل فادخلْ، فدخل معهم، فقالوا: أُنظروا في شأن هذا الرجل ـ يعنون محمداً ﷺ ـ واللَّهِ ليوشكنَّ أن يواثبكم ـ أي يغلبكم ـ في أمركم بأمره، فقال قائل منهم: احبسوه في وِثاق، ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك، كما هلك من قبله من الشعراء، قال: فصرخ عدوُّ الله إبليس فقال: والله ما هذا برأيٍ، واللَّهِ ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكنَّ أن يثبوا عليكم حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه

منكم، فما آمنُ عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، قالوا: صدق الشيخ، فانظروا في غير هذا.

قال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه، فإنَّه إذا خرج لن يضركم ما صنع إذا غاب أذاه، فقال الشيخ النجدي: واللَّهِ ما هذا لكم برأي، ألم تروا إلى حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ليجتمعن عليه العرب، ثم ليأتينَّ إليكم حتى يخرجكم من بلادكم، ويقتل أشرافكم، قالوا: صدق واللَّهِ، فانظروا رأياً غير هذا.

فقال أبو جهل لعنه الله: واللَّهِ لأشِيرنَّ عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، لا أرى لكم غيره، قالوا: وما هو؟ قال: تأخذون من كل قبيلةٍ غلاماً شاباً نَهْداً، ثم يُعطى كلُّ غلامٍ منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحدٍ، فإذا قتلوه تفرَّق دمُه في القبائل كلها، فما أظن أن هذا الحيَّ من بني هاشم يَقْوَوْن على حرب قريش كلِّها، فإنَّهم إذا رأوا ذلك قبلوا الدية، واسترحنا منه، وقطعنا عنا أذاه، فصرخ عدوُّ الله إبليس: هذا واللَّهِ الرأيُ، القولُ ما قاله الفتى، ولا رأيَ غيره، فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له، فأتى جبريلُ النبيَّ ﷺ فأمره ألَّا يَبيتَ في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوْم، فدعا رسول الله «عليَّ بن أبي طالب» فأمره أن يبيت على فراشه، ويتسجَّى ببردٍ له أخضر، ففعل، ثم خرج رسول الله على القوم، وهم على بابه، وخرج معه بحفنةٍ من تراب، فجعل ينثرها على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه عليه الصلاة والسلام وهو يقرأ: ﴿يٰسٓ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيْمِ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُوْنَ﴾ وأذن الله لرسوله بعد ذلك

بالهجرة، فخرج مهاجراً إلى المدينة المنورة، وفي هذه الحادثة التي تآمر عليه بها المشركون، أنزل الله عز وجل هذه الآيات البينات: ﴿وَإذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوْكَ أَوْ يَقْتُلُوْكَ أَوْ يُخرِجُوْكَ وَيَمْكُرون ويَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِيْنَ﴾.

«طغيانٌ وجبروت»

ثم تلتها الآيات تُبيِّنُ عناد قريش وكفرهم وطغيانهم، فقد استهزءوا بالقرآن وبمن أُنزله، وزعموا أنَّه أساطير الأولين، وخرافات السابقين، اخترعه محمد من تلقاء نفسه، ونَسَبه إلى الله، ولو أرادوا لأتوا بمثل هذه الأباطيل ﴿وَإذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا، إنْ هَذَا إلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾. وهذا غايةُ المكابرة ونهايةُ العناد، فكيف يزعمون أنهم قادرون على الإتيان بمثله، وقد تحداهم مَرَّاتٍ ومرَّات، ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثل سورة واحدة منه، ولكنه الجحود والتكذيب والعناد!!!

«دعاؤهم على أنفسهم بالهلاك»

ثمَّ تأتي الآيات لتكشف لنا عن مشهد آخر، من مشاهد طغيانهم وعتوِّهم وعنادهم، فقد قالوا ما حكاه عنهم القرآن الكريم ﴿وَإذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدَكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاء أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً من عندك، فلن نؤمنَ به ولن نتَّبعه، فأنزل علينا حجارة وحصباءَ من السماء، أو ائتنا بعذاب مؤلم فظيع، تعذبنا وتهلكنا به، قالوا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء، وكان الأولى بهم لو كانوا عقلاء أن يقولوا: اللهم إن كان

(١) انظر سيرة ابن هشام، وتفسير الطبري، والقرطبي، وابن كثير.

ما جاءنا به محمد هو الحقُّ من عندك، فوفقنا لاتِّباعه واهدنا إليه، ولكنهم لسَفَهِهِمْ وحماقتهم طلبوا العذاب بدل الرحمة، والشقاوة بدل الهداية، وهذا يدلنا دلالة واضحةً على مبلغ ما قاساه الرسول ﷺ من هؤلاء العُتاة الغِلاظ الأجلاف، الذين عاش بين أظهرهم، وقد بيَّن تبارك وتعالى سبب إمهالهم، وعدم إهلاكهم بعذاب الاستئصال، ألا وهو وجود الرحمة المهداة، «محمد بن عبد الله» الذي بعثه الله رحمة للعالمين كما قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُوْنَ﴾ أي إنَّهم مستحقون للعذاب، ولكنه تعالى لن يعذبهم ما دمت بين أظهرهم، إكراماً لك يا محمد، فقد جرت سُنَّةُ اللَّهِ ألاَّ يُعَذِّب أمةً ونبيُّها بين ظهرانيها، حتى يخرج من بينها، ثم ثَمَّةَ سببٌ آخر لعدم نزول عذاب الاستئصال، ألا وهو أن الله تعالى يعلم أن منهم من سيتوب، ويؤمن ويدخل في دين الإسلام، ومنهم من سيظل على الكفر، ولكنَّ أبناءه يسلمون، فلو أهلك اللَّهُ الآباءَ لهلك معهم الأبناء، ولو أُخذوا بالعذاب قبل أن يتذوقوا طعم الإيمان، لما كان فيهم المجاهدون الأخيار، والصحابة الأبرار، وهذا ما تعنيه الآية الكريمة ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُوْنَ﴾ أي فيهم من يؤمن، وفيهم مؤمنون مستضعفون، يستغفرون الله، ولكنهم لا يستطيعون إظهار إسلامهم، خوفاً من أن يبطش بهم أعداء الله... قال ابن عباس رضي الله عنه: كان فيهم أمانان: النبيُّ، والاستغفار، فذهب النبيُّ، وبقي الاستغفار.

«استهزاؤهم حالةَ الطواف والصلاة»

ثم تتابعت الآيات تطالعنا على مشهد آخر من قبائحهم وشنائعهم، فقد كان صناديد قريش إذا رأوا المسلمين يُصَلُّون حول

البيت العتيق، يُصفِّــرون ويُصفِّقــون، ليخلطوا عليهم صــلاتهم، ويشوِّشوا عليهم عبادتهم، وفي ذلك يقول الله تقدست أسماؤه: ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ البَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً﴾ أي صفيراً ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ أي تصفيقاً ﴿فَذُوْقُوْا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُوْنَ﴾ وروي عن ابن عباس أنه قال: «كانت قريشٌ تـطوفُ بالبيت عُـراةً، تصفِّرُ وتُصفِّقُ» هكـذا كانت عبادتهم، وهكذا كان دينهم، لا يعرفون إلاَّ اللهو والعبث، حتى في حالة العبادة والطواف، وهكذا زيَّن لهم الشيطان سوء أعمالهم، ومن يضلل الله فما له من هاد.

«إنفاق الأموال للصدّ عن سبيل الله»

وتمضي الآيات بعد ذلك لتخبرنا عن مؤامرات الكفَّار نحو هذا الدين العظيم، فإنَّهم يبذلون المال، ويُقَـدِّمون الغـالي والنفيس، ليطفئوا نور الله، ويأبى الله إلاَّ أن يُتمَّ نوره ولو كره الكافرون ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُوْنَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَسَيُنْفِقُوْنَهَا ثُمَّ تَكُوْنُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُوْنَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوْا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُوْنَ﴾ روى الإمام الطبري في تفسيره أنه «لما أُصيب كفار قريش يوم بدر، ورجعت فلولهم إلى مكة قالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وَتَركم - أي أخذ ثأره منكم - وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب منَّا، فنزلت الآية»[1].

والآية وإن نزلت في كفار قريش، لكنها عامة لجميع الكفار، في كلِّ زمان ومكان، يُجهدون أنفسهم لحرب الإسلام، ويُنفقون أموالهم لتهديم بنيانه، ويبـوءون بالخيبـة والخسران، قـد خسروا الأموال، وفقدوا الرجال، فلن يصمدوا أمام المجاهدين الأبطال، من

(١) انظر جامع البيان للطبري، ومختصر تفسير ابن كثير للصابوني ٢/١٠٣.

أمة محمد عليه الصلاة والسلام، وهذا وعدٌ من الله بنصرة أوليائه، وخذلان أعدائه، وصدق الله حيث يقول: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي، إنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

«دعوتهم للتوبة والإنابة»

ثم تنتقل الآيات لتدعوهم إلى التوبة والإنابة، مع إغراقهم في الكفر والضلال، وتفتح أمام أنظارهم أبواب الرحمة، مهما كثرت جرائمهم، وتعددت أساليبهم في الكيد للإسلام، ومحاربة أوليائه، وكل ذلك من رحمة الله بالعباد، فإنَّه خَلَقهم ليرحَمهم، ولم يخلقهم ليعذبهم. ﴿قُلْ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوْا إنْ يَنْتَهُوْا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ، وَإنْ يَعُوْدُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك، الذين حاربوك وعَادَوْك وأخرجوك من الوطن، إن ينتهوا عن الكفر ويؤمنوا بالله، ويكُفُّوا عن قتالك وقتال المؤمنين، يغفرُ الله لهم ما قد سلف من الذنوب والآثام، وإن عادوا إلى قتالك وتكذيبك والصدِّ عن دين الله، فقد مضت سنة الله في إهلاك وتدمير المكذبين، ففي هذه الآية، إعذارٌ وإنذارٌ، لكل عاصٍ وفاجر وكافر، أن يكفَّ عن الغي والضلال، قبل أن يحلَّ به عذاب الكبير المتعال.

«كيف تُقسم الغنائم»

وبعد أن تناولت الآيات السابقة الحديث عن المشركين، ومصيرهم القبيح المشؤوم في الدنيا والآخرة، وما أعدَّ الله لهم من العذاب والنكال، وأمر بقتالهم وتطهير الأرض من رجسهم، وكان لا بدَّ بعد القتال من أن يغنم المجاهدون الغنائم، ذكر تبارك وتعالى بعدها حكم تلك الغنائم، وكيف تقسم وتُوزَّع بين المجاهدين فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَاعْلَمُوْا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ

وللرسولِ، وَلِذِي القُرْبَى، وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، إنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ، يَوْمَ الْتَقى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولقد كانت الغنائم محرَّمةً على الأمم السابقين، حتى يكون الجهاد خالصاً لوجه الله، لا يشوبُه شيءٌ من أمور الدنيا، ولا يكون لمغنم أو مكسب، وأحلَّه الله جلَّ وعلا لهذه الأمة المحمدية، لعلمِهِ تعالى بصدقِها، وإخلاصِها، وجِهادِهَا لنصرة دينِ الله، دون جشعٍ أو طمعٍ، ومن غير إرادةٍ لكسبٍ دنيويٍ عاجل، فالأصلُ في الجهاد أن يكون لإعـلاء كلمةِ اللّهِ، ولنصرةِ الحق، والدفاعِ عن المستضعفينَ في الأرضِ، وللتخلصِ من شر الكفرة المجرمين، وهذه الأمةُ المحمديةُ هي الأمةُ التي قاتلت وتقاتل لرفع راية «لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ» دون نظرٍ إلى مغنمٍ أو مكسبٍ، فلذلك أكرمها الله تعالى بإحلال الغنائم لها، كما قال سيدنا رسول الله ﷺ: «أعطيتُ خَمْساً لم يعطهن أحدٌ قبلي ـ وَعدَّ منها قوله ـ وأُحِلَّتْ لي الغنائم ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي»(١).

وقد تكفلت الشريعة الغراء، بقسمة هذه الغنائم على الوجه العادل الكريم، وذلك على ضوء ما ورد في هذه الآية الكريمة من إعطاء الخمس ـ أي خمس الغنيمة ـ لمن ذكرهم الله تعالى في هذه الآية وهم: الرسول ﷺ، وقرابته من بني هاشم وبني المـطلب، وللأيتام، والمساكين، وابن السبيل، وهو الغريب المنقطع في سفره من المسلمين، وأربعةُ أخماس الغنيمة تقسم بين المجاهدين.

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ولفظه: أعطيتُ خمساً لم يُعطهنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرتُ بالرعب مسيـرة شهرٍ، وجُعلت ليَ الأرض مسجـداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحدٍ قبلي، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة».

وهؤلاء المجاهدون لهم الحظُّ الأوفر من هذه الغنائم، لأنهم إنما اكتسبوها بجهادهم وجهودهم وتضحيتهم، فاستحقوا أن ينالوها كاملة، ولكنه تعالى أعطى الخمس منها للفقراء والمساكين، وللأرامل والأيتام، ولقرابة النبي عليه الصلاة والسلام، من باب التعاون بين المسلمين، لأن الإسلام دين العطف والتعاون والمواساة، فلا ينبغي أن يُحْرم الضعيف والعاجز الذي لا يستطيع القتال، من هذا العطاء والنوال.

«تفصيلٌ دقيق لأحداث المعركة»

ثُمَّ عادت الآيات تفصِّل وتبيِّن بعض أحداث «غزوة بدر» جاءت تصوِّرها للسامع حتى كأنَّها رأيُ عينٍ، فلقد انتهت المعركة بنصر المؤمنين، وانهزام المشركين، وحقَّق الله لرسوله وعده، ونَصَر جنده، وأعزَّ دينَه، ولما كانت هذه أُولى غزوات الرسول، فقد أسهبت السورة في تفصيل أحداث هذه الغزوة، ليتذكر المؤمنون نعمة ربهم عليهم، فما غَلَب المسلمون ولا انتصروا في تلك المعركة، بكثرة رجالٍ، أو وفرةِ سلاحٍ، أو قوة بأسٍ وحِنكةٍ في الحروب، وإنما انتصروا بفضل الله وحده، حيث أمدَّهم بالملائكة يقاتلون معهم أعداء الله، وألقى الرعب في قلوب المشركين حتى ولَّوْا الأدبار ولنستمع إلى الآيات البينات، وهي تفصِّل وتصوِّر لنا المعركة، على أدقّ صور البيان والتوضيح ﴿إِذْ أَنْتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ القُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَوْ تَوَاعَدْتُم لَاخْتَلَفْتُمْ فِي المِيعَادِ، وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُوْلاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيْعٌ عَلِيمٌ﴾.

وتوضيحاً لمعنى الآية نذكر تفسير عباراتها يقول تعالى: ﴿إِذْ

أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أي اذكروا يا معشر المؤمنين حالكم، وقت كنتم بجانب الوادي القريب إلى المدينة، وأعداؤكم المشركون بالعُدْوةِ القصوى أي من جهة الوادي الأبعد عن المدينة ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي والعيرُ التي فيها تجارةُ قريش التي خرجتم من أجلها، في مكانٍ أسفلَ من مكانكم، فيما يلي ساحلَ البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي المِيعَادِ﴾ أي لو تواعدتم أنتم والمشركون على القتال، لاختلفتم في الوقت والزمان، ولكنَّ اللَّهَ بقدرته وحكمته هيَّأ الأسباب، ويسَّر وتمَّم ذلك، دون سابق اتفاق، **قال كعب بن مالك**: إنما خرج رسول الله والمسلمون يريدون عيرَ قريشٍ، حتى جمعَ اللَّهُ بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ثم بيَّن تعالى السببَ في هذا الخروج، وفي هذه الحرب التي لم يكن فيها من جهة المؤمنين أيُّ استعداد فقال: ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُوْلاً﴾ أي ولكن جمع بينكم على غير ميعاد، لتعلموا أن الفتح والنصر الذي أحرزتموه إنما كان بقدرة الله وحسن تدبيره، لا بقوتكم واستعدادكم، ولتتيقَّنوا أن ما حدث لكم من غنائم وانتصار باهر، ليس إلَّا صُنعاً من اللَّهِ جلَّ وعلا، خارقاً للعادات ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي فعل ذلك تعالى، لِيَكْفُرَ من كفر عن وضوح وبيان، ويؤمن من آمن عن بصيرة وبرهان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميعٌ لأقوال عباده، عليمٌ بنيَّاتهم، يعلم الصادق من الكاذب، والمخلص من المنافق.

«تحقيق الرؤيا المنامية»

ثم تلتها الآيات تتحدث عن تحقيق الله عز وجل لرسوله الرؤيا المنامية التي رآها عليه السلام، وبشَّر بها أصحابه قبل المعركة،

ليزدادوا شجاعة وإيماناً ويقيناً بنصرة الله لهم ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً، وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ﴾ ثم تلتها الآية بعدها وهي تذكر كرامة ظاهرة من الله جل وعلا لجنده المؤمنين، فقد كان عدد المشركين ألف مقاتل، ولما التقوا وجهاً لوجه مع المؤمنين، رأى المشـركون المؤمنين كثرةً كثيرة، وكان ذلك من آيات الله الباهرة، أراهم المؤمنين يفوقونهم في العدد، حتى يجبنوا ويضعفوا عن لقائهم، وقلَّل عدد المشركين في أعين المؤمنين، حتى يتجرأوا عليهم، وكان ذلك من أسباب النصر، في غزوة بدر، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً، وَيُقَلِّلُكُم فِي أَعْيُنِهِمْ، لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرَاً كَانَ مَفْعُوْلاً، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُوْرُ﴾ قال ابن مسعود: لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر حتى قلتُ لصاحبي أتُراهم يكونون مائة[1]؟ وهكذا حقق الله النصر للمؤمنين، بتقليل عدد الأعداء في أعينهم، وذلك من آيات الله الباهرة.

«عناصر النصر»

وبعد أن ذكَّر تبارك وتعالى عباده المؤمنين المجاهـدين، بما أكرمهم به من العز والنصر في غزوة بدر، وإحرازهم للغنائم في أول معركة خاضوها مع الأعداء، جاءت الآيات هنا لترشدهم إلى آداب اللقاء، وطريق الشجاعة والثبات عند المبارزة، والإكثار من ذكر الله

(١) هذا الأثر ذكره الطبري في تفسيره ١٣/٥٧٣ وابن كثير ٢/١١٠ أقول: وهذا التقليل كان قبل التحام الحرب، فلما التحم القتال، ودارت المعركة، كثَّر الله المؤمنين في أعين الكفار، فبهتوا وهابوا، وفُلَّتْ شوكتهم، ورأوا ما لم يكن في الحسبان، وهذا من عظائم آيات الله في تلك الغزوة، كما قال تعالى في سورة آل عمران ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ العَيْنِ﴾ وهذه رؤية حقيقية، رؤية نظر لا رؤية منام.

جلَّ وعلا، ليستمطروا بذلك رحمة الله، ويستنزلوا نصره وإمداده، فإن الله هو القويُّ المتين، الذي يعين من استنجد به وطلب حماه، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إذَا لَقِيْتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوْا، وَاذْكُرُوْا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ. وَأَطِيعُوْا اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ وَلاَ تَنَازَعُوْا فَتَفْشَلُوْا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوْا إنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِيْنَ﴾.

عناصر أربعة لاستنزال النصر، واكتساب المعركة، والقضاء على الأعداء، ألا وهي:

١ ـ الثباتُ في الميدان عند احتدام المعركة.

٢ ـ والإكثارُ من ذكرِ الله تبارك وتعالى.

٣ ـ وعدم الاختلافِ والتنازع بين المسلمين.

٤ ـ والصبرُ عندَ الشدائِد والمكاره عند ملاقاة الأعداء.

تلك هي العناصر التي أرشدت إليها الآيات الكريمة، فالمؤمن إنَّما يقاتل لغرضٍ شريف نبيل، ألا وهو إعلاء كلمة الله، لا لغرض دنيء سافل، من مغنم، أو شهرة، أو مكسب، فكيف لا يثبت في الميدان؟ وكيف لا يستمد عونه من الرحمن؟ وقد نبهت الآية الكريمة أَنَّ الخصام والخلاف والتنازع، سبب الهزيمة، وسبب الوهن والخَور، وذهاب القوة والبأس. ﴿وَلَا تَنَازَعُوْا فَتَفْشَلُوْا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي ولا تتنازعوا وتختلفوا فيما بينكم، فيدبَّ فيكم الخور والوهن، وتذهب قوتكم وبأسكم، قال الحافظ ابن كثير: وقد كان للصحابة رضوان الله عليهم في باب الشجاعة، وامتثال ما أرشدهم إليه القرآن، ما لم يكن لأحدٍ من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحدٍ بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمر، فتحوا القلوب والأقاليم في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى

جيوش سائر الأقاليم، وقهروا الجميع، حتى علت كلمةُ الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم[1].

«التحذير من الأشر والبطر في المعركة»

ثم تلتها الآيات تحذِّر المؤمنين من التشبه بالمشركين، أهل البغي والعدوان، الذين خرجوا لقتال المسلمين أشراً وبطراً، يدفعهم حبُّ الثناء، والظهورُ بمظهر العظمة والكبرياء، والتفاخر والتباهي بكثرة الأموال والأعوان، لا دفاعاً عن مظلوم، ولا حباً في نُصرة الحقِّ، والذَّودِ عن الأهل والأولاد، وإنما لمجرد الفخر وكسب الثناء، أنَّهم أبطال مغاوير، أصحاب بأسٍ وقوة، وفي ذلك يقول القرآن الكريم، موجهاً المؤمنين إلى إخلاص النية في كل الأعمال ﴿وَلَا تَكُوْنُوْا كالَّذِينَ خَرَجُوْا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرَاً وَرِئَاءَ النَّاسِ، وَيَصُدُّوْنَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُوْنَ مُحِيطٌ﴾ قال محمد بن كعب: لمَّا خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقِيان ـ أي بالمغنيات ـ والدفوف ـ أي الطبول ـ إظهاراً للعظمة والكبرياء، والآية تشير إلى ما قاله عدوُّ الله «أبو جهل» حين بعث إليهم أبو سفيان يقول لهم: ارجعوا فقد نجَّى الله عِيرَكم وأموالَكم ورجَالكم، فقال أبو جهل: لا واللهِ، لا نرجع حتى نأتيَ بدراً، ونقيم بها ثلاثاً، فَنشربَ فيها الخمور، وننحَر الجزور، وتعزف علينا القيان ـ أي المغنيات ـ وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/١١١.

قال الطبري: «فَسُقوا مكان الخمر كؤوس المنايا، وناحت عليهم النوائح مكان القيان»[1].

«قصة إبليس مع أعوانه»

ثم حكت الآيات بعدها قصةً عجيبة حدثت للمشركين، تلك هي قصة «إبليس اللعين» حين تمثَّل لأعوانه وأنصاره، بصورة رجلٍ من بني مدلج يُدعى «سراقةَ بن مالك» لينفخ فيهم روح البطولة والكفاح ضدَّ المسلمين، والقصة واقعية حكاها المفسرون، وأشارت إليها آيات الكتاب المبين، في قوله جل ثناؤه ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ أي أنا مجيرٌ ومعين لكم في حربكم ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ أي فلما تلاقى الفريقان: جيش المؤمنين، وجيش الكافرين، ولَّى الشيطان هارباً مولياً الأدبار ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ، إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

روى الحافظ ابن كثير بسنده إلى ابن عباس قال: «جاء إبليس يوم بدرٍ في جند من الشياطين، معه رايتُه، في صورة رجل من بني مدلج هو «سراقة بنُ مالك» فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جارٌ لكم، فلما اصطفَّ الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضةً من التراب، فرمى بها وجوه المشركين، فولَّوْا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رآه - وكانت يده في يد رجل من المشركين - انتزع يده ثم ولَّى مدبراً مع شيعتِهِ، فقال الرجل: يا سراقة أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: «إنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ،

(١) جامع البيان لابن جرير الطبري ٥٨٧/١٣.

إنِّي أخافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَديدُ العِقَابِ» وكذب عدوُّ الله، واللَّهِ ما به مخافة الله، ولكنه علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه وانقاد له»[1] وفي الحديث الصحيح «ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغرُ، ولا أدحرُ، ولا أحقر، ولا أغيظُ منه في يوم عرفة، إلاَّ ما رأى يوم بدر، فإنَّه رأى جبريل يَزَعُ الملائكة - أي يصفها للقتال -»[2].

وتختم الآيات الكريمة بما قاله أهل الضلال والنفاق، حين رأوا قِلَّة المسلمين في بدر، وقلة أتباع محمد عليه السلام قالوا: غرَّ هؤلاء دينهم، يظنون أنهم ينتصرون في هذه الحرب على ألف مقاتل من صناديد قريش فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ يَقُوْلُ الْمُنَافِقُوْنَ وَالَّذِيْنَ فِي قُلُوْبِهِم مَرَضٌ غرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فأعلمهم الله تعالى أن النصر بيد الله، ليس بكثرة العدد، ولا بوفرة السلاح، وإنما هو بالإيمان والتوكل على الرحمن، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب قاهر، لا يُضام من استجار به، وهو تعالى حكيم في صنعه وتدبيره.

«مشاركة الملائكة في المعركة ببدر»

انتهت «غزوة بدر» بانتصار باهر لجند الرحمن، وهزيمةٍ ساحقة لجند الشيطان، وظهرت في هذه الغزوة آيات باهرات، ومعجزات ساطعاتٌ، لنبيِّ الهدى والرحمة محمد بن عبد الله ﷺ ولا تزال الآيات تكشف لنا عن أسرار انتصار المؤمنين في تلك الغزوة، مع أنَّهم كانوا أقلَّ عدداً، وأضعَف قوة، وأدنى تدريباً وحِنْكَةً من خصومهم

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/١١٢.

(٢) الحديث أخرجه مالك في الموطأ، وانظر تفسير القرطبي، والألوسي.

المشركين، فكيف انتصروا عليهم ذلك الانتصار الساحق؟ الذي سحق رؤوس الكفر والضلال، وصناديد وزعماء قريش؟ إنه تأييد الله للمؤمنين، وإمدادُهم بالملائكة تحارب معهم، فتبطش وتضرب هام الأعداء، وتكويهم بسياطٍ من نار، وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة، حيث يقول تقدَّست أسماؤه ممتناً على رسوله وعلى المؤمنين ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ، يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ. ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ لقد نزلت هذه الآيات في أعقاب غزوة بدر، بعد أن انتهت المعركة لصالح المؤمنين، فنزلت هذه الآيات لتذكِّرهم بفضل الله وإنعامه عليهم.

والمعنى: لو رأيتَ وشاهدتَ أيها المخاطبُ أو أيها السامع حالة المشركين ببدر، حين تقبض ملائكةُ العذاب أرواحهم، وقد حُذف من الآية جواب «لَوْ» للتهويل والتفظيع أي لرأيت أمراً فظيعاً، وشأناً هائلاً لا يكاد يُوصف، وذلك حين تضربهم الملائكة من أمامهم وخلفهم، على وجوههم وظهورهم، بمقامعَ من حديد، ويقولون لهم: ذوقوا يا معشر الكفرة الفجرة، عذاب النار المحرق، وذلك العذاب بسبب ما كسبتم من الكفر والآثام، وأنه تعالى عادل في أحكامه، لا يظلم أحداً ولا يعذبه بدون ذنب.

«الآية حكمها عام في كل كافر»

قال المفسرون: كانت الملائكة ببدر معهم أسواط من نار، يضربونهم بها فتشتعل جراحاتُهم ناراً، وقال ابن عباس: كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم

بالسيوف، وإذا ولَّوْا أدركتهم الملائكةُ يضربون أدبارهم[1]، فذلك قوله تعالى: ﴿يَضْرِبُوْنَ وُجُوْهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ والآية وإن كان سببها وقعةُ بدر، ونزلت في أعقابها، ولكنها عامةٌ في حق كل كافر، كما يقول الحافظ ابن كثير، فهي تشمل كل كافر عندما تقبض الملائكةُ روحه كما جاء في حديث البراء بن عازب «أن مَلَك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره، في تلك الصورة المنكرة يقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سموم وحميم، وظلٍّ من يحموم، فتتفرَّق في بدنه، فيستخرجونها من جسده كما يخرج السَّفُّودُ من الصوف المبلول، فتخرج معها العروق والعصبُ»[2].

«هلاك الطغاة المجرمين»

وتمضي السورة فتسرد لنا ما حلَّ بقريش والمشركين، بسبب كفرهم وعنادهم، وتكذيبهم لسيد الخلق، كما حلَّ بمن سبقهم من الطغاة المجرمين، قوم فرعون والمكذبين قبلهم للأنبياء والمرسلين ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ والمعنى: طريق هؤلاء الكفرة ودأبهم في العمل والإجرام، كعمل وطريق آل فرعون، ومن تقدمهم من الأمم كقوم نوح، وعاد، وثمود، في العناد والتكذيب، والكفر والإجرام، جحدوا ما جاءتهم به الرسل من عند الله، فأهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم، لأنه تعالى قوي البطش، شديد العذاب، لا يَغْلِبهُ غالب، ولا يفوته هارب.. ولقد كان ما حلَّ بقريش من الهزيمة،

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/١١٢ للصابوني.

(٢) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعاً، وانظر تمام الحديث في تفسير ابن كثير ٢/٢٩٧ المختصر.

والأسر، والقتل، عظيماً وكبيراً، فوق ما كان يخطر على البال، وما كان هذا العذاب والنكال الذي أصابهم، إلاَّ لأنهم كفروا نعمة الله، فلقد كانوا في مكة في أمنٍ واستقرار، ورفاهية وسعادة، تُجْبَى لهم الخيرات، من الفواكه، والحبوب، والثمار، من جميع البلدان والأقطار، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يجوعون إذا جاع الناس، لأنهم في حرمٍ آمن، وفي سعة ورفاهية، وأكملَ الله عليهم النعمة ببعثة سيد ولد عدنان، ولكنهم كذَّبوه وقاوموه وقاتلوه، حتى اضطر أن يهاجر من مكة، فماذا حلَّ بهم بعد أن كفروا النعمة؟

«تغيير الأحوال بالكفر والعصيان»

لقد غيَّر الله حالهم، فنقلهم من الأمن إلى الخوف، ومن السعة إلى الضيق، ومن اليسر إلى العسر، وابتلاهم الله بالمصائب والشدائد، حتى أكلوا الوبر والدم من شدة الفقر والجوع، ثم قُتِل صَنَاديدُهم آخر الأمر في بدر، وهذه نتيجة كل من كفر نعمة الله، وفي ذلك يقول ربُّنا تقدست أسماؤه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوْا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي ذلك الذي حلَّ بقريش وبأهل مكة من العذاب، بسبب أن الله لا يغيِّر نعمةً أنعمها على أحد من الخلق، وأنه تعالى لا يُبدِّل النعمة بالنقمة ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوْا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي حتى يُبدِّلوا نعمة الله بالكفر والعصيان، كتبديل كفار مكة نعمة الله التي كانوا عليها، من الخصب والسعة، والأمن والعافية، بالكفر والصدِّ عن سبيل الله، وقتال رسوله والمؤمنين **قال السديُّ**: «نعمةُ اللَّهِ على قريش بعثةُ محمد ﷺ فيهم، فكفروا به وكذبوه، فنقله الله إلى المدينة المنوّرة، وحلَّ بالمشركين العقاب»[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨/٢٩.

«من سنن الله الكونية»

وهذه سنةٌ من سنن اللَّهِ الاجتماعية، أنه تعالى لا يُبدِّل حال قوم، فينقلهم من العز إلى الذل، ومن الغنى إلى الفقر، ومن الأمن إلى الخوف، إلَّا إذا بدَّلوا هم الشكر إلى الكفر، وركبوا طريق العصيان، وكفروا بآيات الرحمن، فيقلب الله حياتهم إلى البؤس والشقاء، كما فعل بأهل مكة لمَّا كذبوا خاتم المرسلين، وقد كرر تعالى ذكر العقوبة، زيادة في التشنيع والتوبيخ على إجرامهم، فقال جلَّ ثناؤه ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوْا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوْبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ، وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِيْنَ﴾ والمعنى شأن حال هؤلاء المشركين وعادتهم، كشأن وحال المكذبين السابقين، حيث غيَّروا حالهم فغيَّر الله أحوالهم، وبدَّل نعمته عليهم، فأهلكهم بسبب ذنوبهم، بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالحجارة، وبعضهم بالغرق، وهكذا تنقلب النعمة إلى نقمة، كما غيَّر الله أحوال أهل مكة، اللهم لا تهلكنا بذنوبنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

«نقض اليهود للعهود»

لا تزال الآياتُ تتحدث عن «غزوة بدر» تلك الغزوة التي كانت تاجاً بين سائر الغزوات والفتوحات، وبمناسبة الفتح والقتال، والطعن والنزال، والعهود والمواثيق، فلقد جاءت السورة الكريمة لتتحدث عمَّا حدث من اليهود، من النقض للعهود، وهذه سِمَةٌ بارزة من صفات اليهود، في كل عصر وزمان، لا يكادون يفون بوعد، أو يَصْدُقون بعهد، وقد كان رسول الله ﷺ عاهد يهود «بني قريظة» ألا يحاربوه، ولا يعاونوا عليه المشركين، فنقضوا العهد، وأعانوا عليه

كفار مكة بالسلاح يوم بدر، ثم قالوا نسينا وأخطأنا، واعتذروا عند الرسول عليه السَّلام، ممَّا صنعه بعض السفهاء منهم، فعاهدهم مرَّة أخرى ظناً منه أنهم صادقون، فنقضوا العهد، ومالؤوا الكفَّار يوم «غزوة الأحزاب» فنزلت الآيات في سورة الأنفال، لتضع حداً لهذا التآمر والتلاعب، في أمر «العهود والمواثيق» ولتأمر الرسول والمؤمنين بقتال من نقضوا العهد، ليكون ذلك درساً بليغاً، لمن تحدِّثه نفسه بالخيانة في أمرٍ خطير من أعظم الأمور، وفي ذلك يقول جلَّ ثناؤه، وتقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ. الَّذِيْنَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُوْنَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُوْنَ. فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ﴾.

«سبب النزول»

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في بني قريظة من اليهود، منهم «كعبُ بن الأشرف» وأصحابُه، عاهدهم رسول الله ﷺ ألا يحاربوه فنقضوا العهد فنزلت ﴿الَّذِيْنَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُوْنَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُوْنَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ﴾ إرشاد من الله جلَّ وعلا لرسوله عليه السلام، في طريقة تأديب أولئك الناكثين للعهود، من اليهود وغيرهم، والمعنى: إن تظفر بهم يا محمد في الحرب، فاقتلهم ونكِّلْ بهم تنكيلاً شديداً، يشرِّد غيرهم من الكفرة المجرمين ﴿لَعَلَّهُمْ يَـذَّكَّرُوْنَ﴾ أي لعلهم يتعظون بما شاهدوا فيرتدعون، وكأن الآية تقول له: اجعلهم عبرةً لمن يعتبر، حتى لا يطمع غيرهم في نقض عهد، ولا تبقى لهم قوة على محاربتك.

«طرح العهد عن بيِّنة ووضوح»

وإذا كان الوفاء بالعهد واجباً على المسلمين، فلا يصح لقائد جيش أو كتيبة أن ينقض العهد، إذا شعر بأمارات الغدر ودلائل الخيانة من الأعداء، حتى يُعْلِمهم بأنَّه لا عهد بينه وبينهم، لأنهم نقضوا العهد، ولا يصح له أن يقاتلهم بغتة، دون سابق إنذار، فإن ذلك ليس من خُلُق المسلم، ولا من طبيعة شرع الله، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ ومعنى الآية الكريمة: إن أَحْسَسْتَ يا محمد من قوم معاهدين خيانةً للعهد، ونكثاً للميثاق بأمارات ظاهرة ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي اطرح لهم عهدهم على بينةً ووضوح من الأمر، وأَعْلِمْهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حربٌ لهم وهم حربٌ لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواءِ أي تستوي أنت وهم في ذلك، قال الإمام النحاس: هذا من معجز ما جاء في القرآن، مما لا يوجد في الكلام مثله، على اختصاره، وكثرة معانيه والمعنى: وإما تخافن من قوم ـ بينكَ وبينهم عهدٌ ـ خيانةً، فانبذْ إليهم العهد أي قل لهم: قد نبذتُ إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد، وهم يثقون بك، فيكون ذلك منك خيانةً وغدراً، فاختصر كلَّ ذلك بقوله: «فَانْبِذْ إِلَيْهِم عَلَى سَوَاءٍ»(١) وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ وهو كالتعليل للأمر بنبذ العهد، هذا هو حكم الإسلام بالنسبة إلى العهود، وهو حكمٌ شريف عادل، يفوق كل صور

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٢/٨، وكتاب أبي جعفر النحاس هو الكتاب الذي أقوم بتحقيقه الآن، في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى، وسيصدر قريباً إن شاء الله.

العدالة، التي عرفتها البشرية في تاريخها الطويل.

«قصة معاوية مع أهل الروم»

روى الحافظ ابن كثير عن سليم بن عامر رضي الله عنه قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد ـ مدة من الزمن ـ فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخٌ على دابة يقول: اللَّهُ أَكبرُ، اللَّهُ أكبرُ، وفاءٌ لا غدر، إن رسول الله ﷺ قال «ومن كان بَيْنَه وبين قوم عهدٌ، فلا يحلنَّ عُقدةً ولا يَشُدَّها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء» قال: فبلغ ذلك معاوية فرجع عن غرضه، فإذا الشيخ «عَمْرو بنُ عَبَسة» رضي الله عنه[1].

«دعوة سلمان المشركين قبل الغزو»

وروى الإمام أحمد في المسند عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه ـ في إحدى المغازي ـ انتهى إلى حصنٍ أو مدينة، فقال لأصحابه: دعوني أدعوهم كما رأيتُ رسول الله ﷺ يدعوهم، فجاءهم فقال: إنما كنتُ رجلًا مثلكم، فهداني الله عز وجل للإسلام، فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فأدُّوا الجزية وأنتم صاغرون، وإن أبيتم نابذناكم على سواء ـ أي أعلنا الحرب عليكم على بيِّنة بيننا وبينكم ـ ثم تلا: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الخَائِنِيْنَ﴾ يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع، غدا الناسُ إليها ففتحوها بعون الله»[2].

هذه تعاليم ديننا الحنيف، وهذه مشاعل عظمته وبهائه، في كل ما

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ١١٤ والحديث رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي، وابن حبان، وقال الترمذي: حسنٌ صحيح، وهذا يدل على شدة اهتمام المؤمنين بالعهود.
(٢) تفسير ابن كثير المختصر ٢/ ١١٤.

حَكَم وشرع، تضيء طريق الخير والعدالة للإنسانية، وصدق الله حيث يقول ﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُوْنَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمَاً لِقَوْمٍ يُوقِنُوْنَ﴾؟.

«إعداد جميع القوى لقتال الأعداء»

في أعقاب غزوة بدر ـ وبعد انتهاء المعركة بالنصر المبين للمؤمنين، واندحار الغزاة المشركين ـ جاءت التوجيهات الإلّهية لجند الرحمن، بالتزام الخط المستقيم، الذي رسمه المولى جل وعلا لعباده، في أمر السِّلم والحرب، والأسر والغنائم، والمعاهدات والصلح، وسائر الأمور الحربية التي تتعلق بالجهاد في سبيل الله، وقد ذكرت الآيات المتقدمة موضوع نقض اليهود للعهود، وعالجته بما يتفق مع سمو الإسلام في تشريعه وتعاليمه، وفي عدالته وحِكَمه، وشدة حرصه على الوفاء بالعهود والمواثيق، ثم تلتها الآيات تأمر بإعداد العُدَّة لإرهاب الأعداء، وهذا ما يسمى «بالسِّلم المسلَّح» الذي يدعو إلى إيقاف الطغيان والعدوان، فهو ليس حرباً تشنُّ لزهق الأرواح، ولا استسلاماً أمام الطامعين الغزاة، إنما هو تخطيط سياسي حكيم، لدرء العدوان، ودفع الظلم والطغيان، إنه استعدادٌ لمجابهة الشر، والوقوف في وجه الظلم والبغي، وفي ذلك يقول القرآن الكريم، موجهاً المؤمنين إلى هذا النوع من الجهاد الإنساني الرفيع ﴿وَأَعِدُّوْا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ، تُرْهِبُوْنَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ، وَآخَرِينَ مِنْ دُوْنِهِمْ لاَ تَعْلَمُوْنَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُوْنَ﴾.

والمعنى: أعدُّوا يا معشر المؤمنين لقتال أعدائكم جميع أنواع

القوة: «المادية، والعسكرية، والروحية» وإنَّما ذكر تعالى القوة هنا، لأنهم لم يكن لهم في بدر استعداد تام، فنبههم سبحانه على أن النصر من غير استعداد، لا يتأَتَّى للمسلمين في كل زمان، ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ﴾ أي وأعدوا لهم الخيل التي تربط في سبيل الله، وإنَّما خَصَّ الخيل بالذكر، لأنها آلة للحرب في جميع الأزمنة والعصور، كما قال ﷺ: «الخيل معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة»[1] ثمَّ بين تعالى السبب في هذا التهيىء والإعداد فقال: ﴿تُرْهِبُوْنَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي تخوِّفون بتلك القوة أعداء الله وأعداءكم، فهي للإرعاب والإرهاب، لا للبطش والفتك ﴿وَآخَرِيْنَ مِنْ دُوْنِهِم لَا تَعْلَمُوْنَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي وترهبون به آخرين، من أهل الغدر والنفاق، لا تعلمون ما هم عليه من النفاق ولكنَّ الله يعلمهم، فيأمركم بالاستعداد لهم، والحَذَر منهم، وإدخالِ الفزع إلى قلوبهم.

«لكل عصر ما يناسبه من القوة»

ومن هنا ـ أخي المسلم ـ ندرك أهمية القوة، وأهمية الاستعداد لها، لنواجه أعداءنا بتبصرٍ وحذر، ونقابله بمثل السلاح الذي يقاتلنا به، فلا نكون مُغَفَّلين نقاتله بالحجارة والعصيّ، وهو يستعمل القنابلَ والرشاشات، أو نحاربه بالسيف والبندقية وهو يقاتلنا بالصواريخ والطائرات الحربية، فلكل عصرٍ وزمنٍ ما يناسبه من آلات الدفاع والقتال، ولعل هذا هو السرُّ في التعبير القرآني الرائع ﴿وَأَعِدُّوْا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ فقد وردت مطلقةً لتشمل القوة التي تناسب كل عصر وزمان، فلم يقل: أعدوا لهم السهام والرماح، أو السيوف والخناجر، وإنما قال: «مِنْ قُوَّةٍ» وفي قوله سبحانه: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ دليل ساطع

(١) الحديث أخرجه البخاري ورواه الطبراني بأطول من هذا.

على أن الواجب على المسلمين، أن يقدموا لحربِ أعدائهم كل ما يستطيعونه من طاقةٍ «فكرية، وبدنية، وعلمية، ومادية» ثم يتوكلون على الله ربّ الأرباب، الذي بيده العزَّةُ والنصر، ثم إن لفظ القوة جاء بصيغة النكرة، والتنكير يفيد العموم، وذلك ليشمل عموم أنواع القوة «القوية المادية» من سلاحٍ وعتاد، و«القوة البدنية» من أجسام سليمة وسواعد فتيَّة، و«القوة الروحية» من شجاعة وبسالة، وحبٍّ لنيل الشهادة في سبيل الله، كما كان القائد المسلم يفخر بشجاعة جنوده فيقول لقائد جيش الأعداء: «جئتك بأقوام يحبون الموت كما تحبون الحياة»!!.

« أثر القوة الروحية »

ولعمر الحقِّ إن هذه القوة، أعني «القوة الروحية» لهي أقوى وأمضى من كل سلاح نقاتل به الأعداء، فماذا تصنع القنبلةُ أو المدفع في يد الخَوَّار الجبان، الذي يرتعد فزعاً، ويموت هَلَعاً؟ إنه بدل أن يصوِّبه إلى صدر العدو، قد يصيب به نفسه، أو يقتل به رفاقه؟ وكيف يثبت في المعركة من لم يكن ثابت الجأش، قويَّ العزيمة، عظيم الثقة بنصر الله!! ولنرجع ـ أيها الإخوة ـ قليلاً إلى الوراء، لنرى كيف انتصر المسلمون في معظم المعارك التي خاضوها، هل انتصروا بكثرة الرجال، ووفرة المال؟ أم انتصروا بقوة الإيمان، وصدق العزيمة، وإخلاص النية، وحبِّ الاستشهاد في سبيل الله؟

هذا هو رسول الله ﷺ مع حفنةٍ قليلةٍ من المؤمنين، يحاصر اليهود في خيبر، وهم في حصونهم وقلاعهم مسلَّحون، متهيئون للقتال، سلاحهم أوفر، وعددهم أكثر، ولم يلحقهم عناء السفر، ثم هم داخل الحصون المنيعة، ورسول الله عليه السلام والمؤمنون في العراء، مصوَّبةٌ نحوهم سهام الأعداء، فلما دعاهم رسول الله إلى

الاستسلام والجلاء، لأنهم نقضوا معه العهد، أَبَوْا وعزموا على القتال، فما كان من رسول الله عليه السلام إلَّا أن صاح بهم صيحةً أذهلتهم، وأوقعت في قلوبهم الخوف والفزع.. صاح بهم صيحة الإيمان «اللَّهُ أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباح المنذرين»(١) فما كان منهم إلّا أن ذُهلوا، فإذا باليهود يدبُّ في قلوبهم الرعب، فألقوا السلاح، وفتحوا الحصون، واستسلموا أمام العدد القليل من جند الرحمن، وصدق الله العظيم ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوْا وَظَنُّوْا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُوْنُهُمْ مِنَ اللَّهِ، فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوْا، وَقَذَفَ فِي قُلُوْبِهِمُ الرُّعْبَ، يُخْرِبُوْنَ بُيُوْتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِيْنَ، فَاعْتَبِرُوْا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾(٢).

على هذه القوة الروحية تربَّى الرعيل الأول، وبمثل هذه البطولة والشجاعة انتصروا، فما أحرانا أن نربي شبابنا على مثل تلك التربية الروحية، لنعزَّ كما عزُّوا، ونسود كما سادوا!!.

«الدعوة إلى السِّلم بشرط العزة»

ولْنتابعْ بإمعانٍ سَرْدَ أحداث غزوة بدر، التي أبلى فيها المؤمنون بلاءً حسناً، فبعد أن أمر تعالى بإعداد العدة لإرهاب الأعداء، أمر بعدها بالسِّلم بشرط العزة والكرامة، متى وجد السبيلُ إليه، أو احتاج إليه المسلمون، لأن الحرب ضرورة اقتضتها ظروف الحياة، لدفع العدوان، وحفظ الأديان، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿وَإِنْ جَنَحُوْا لِلْسَّلْمِ فَاجْنَحْ

(١) حديث «الله أكبر، خربت خيبر..» الخ أخرجه البخاري في المغازي، ومسلم في الجهاد، وأحمد في المسند ١٢٣/٣.

(٢) سورة الحشر آية رقم /٢/.

لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ العَلِيْمُ﴾ أي وإن مال الأعداء إلى الصلح والمهادنة، وطلبوا الهدنة والمصالحة، فمل إليها وأجبهم إلى ما طلبوا إن كان فيه مصلحة ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه﴾ أي اعتمد عليه وفوِّضْ أمرك إليه، ليكون لك عوناً ونصيراً على أعدائك ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال عباده، العليمُ بنيَّاتهم.

«جواز الصلح إن كان هناك مصلحة»

وهذه الآية نص في جواز الصلح والمسالمة، إن كان ثمة مصلحة للمسلمين أو حاجة، والمصلحةُ قد تظهر عند ضعف المسلمين، إما لقلة العدد، أو قلة المال، أو مع قوة المسلمين، وذلك إذا طمعوا في إسلام القوم، أو قبولهم للجزية، أو ليتفرغوا للبناء والتعمير، فالأصل في الحياة السِّلمُ، والحرب تأتي بالخراب والدمار، فلا ضرورة لها إلاَّ إذا رفض العدو قبول الإسلام، وبدأوا هم بالعدوان كما قال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِيْنَ يُقَاتِلُوْنَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوْا، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ﴾ أما إذا طلبوا الصلح، ورضوا بأن يعيشوا في حماية الإسلام وتحت ظلاله، فالواجب أن نأخذ بالصلح بشرط عزة الإسلام والمسلمين، أما الصلح الدنيء المهين، الذي يُفرض على المسلمين فرضاً مع الذل والهوان، كالصلح مع إسرائيل في هذه الأزمان، فليس من الدِّين في شيء، وليس مما تشمله الآية، فإنَّ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ وأما مدة الصلح والمهادنة، فإذا لم يكن بالمسلمين ضعف، ورأى الإمام المصلحة في المهادنة فقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: تكون الهدنة لمدة أربعة أشهر فما دونها، لقوله تعالى: ﴿فَسِيحُوْا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وإن كان بالمسلمين ضعف، جازت الزيادة بحسب الحاجة إلى

عشر سنين، اقتداءً برسول الله ﷺ حين صالح المشركين من أهل مكة على وضع القتال عشر سنين، إلاَّ أنَّهم نقضوا العهد قبل كمال المدة، فغزاهم رسول الله وكان فتح مكة.

«التيقظ من الغدر والمكر»

وأما إذا كان الغرض من الصلح، هو الغدر والمكر، والخديعة لكسب الوقت ليتهيأ الأعداء لحرب المسلمين، فلا يجوز الصلح، لأنه مكرٌ وتغرير بالأمة، وقد نبهت إليه الآية بعدها حيث قال تقدست أسماؤه ﴿وَإِنْ يُرِيدُوْا أَنْ يَخْدَعُوْكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِيْنَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوْبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعَاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوْبِهِمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيْمٌ﴾ أي وإن أرادوا بذلك الصلح خداعك، ليستعدُّوا لحربك وحرب المؤمنين، فإنَّ الله يكفيك شرَّهم، وهو حسبُك فلا تخف منهم لأن الله ناصرك ومعزّك.

«حماية الله ونصرته لرسوله»

ثم بيَّن تعالى كيفية حمايته ونصرته فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِيْنَ﴾ أي هو تعالى الذي قوَّاك وأعانك، وشدَّ أزرك بالمؤمنين قال ابن عباس: يعني الأنصار الذين هاجر إليهم النبي عليه السلام فدافعوا عنه ونصروه، ثم قال تعالى ممتناً على رسوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوْبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعَاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوْبِهِمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ أي جمع بين قلوب الأنصار، على ما كان بينهم من العداوة والبغضاء، فأبدلهم بالعداوة حباً، وبالتباعد قرباً، قال الإمام القرطبي رحمه الله: «وكان تأليف القلوب مع العصبيَّة

الشديدة في العرب، من آيات النبي ومعجزاته، لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة، فيقاتل عليها وتُقَاتِل معه عشيرتُه، وكانـوا أشد خلق الله حميَّة، فألف الله بين قلوبهم بالإيمان، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين»[1] ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيْعَاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوْبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

«الحروب الطاحنة بين الأوس والخزرج»

والأنصار الذين أشادت بذكرهم الآية الكريمة، هم «الأوسُ» و«الخزرج» قبيلتان عظيمتان، وقـد كانت بينهم حـروب كثيرة في الجاهلية، وعداوةٌ وبغضاء، ودامت تلك الحروب والفتن عشرات السنين، من آخرها «حربُ بعاث» وكانت الحرب والعداوة تنتقل من الآباء إلى الأبناء، إلى الأحفاد، حتى كاد بعضهم يُفني بعضاً، حتى شرح الله صدورهم للإسلام، فسموا بعد ذلك بالأنصار، وأصبح حبهم جزءاً من الإيمان، كما قال عليه السلام: «حبُّ الأنصار من الإيمان، وبغض الأنصار من النفاق»[2]، ولْنستمعْ إلى هذه القصة العجيبة.

«رُوِي أن النبي عليه الصلاة والسلام لما قسم غنائم حنين، قسمها بين المهاجرين والطلقاء، ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنَّهم وجدوا في أنفسهم، إذ لم يصبهم ما أصـاب الناس، حتى قـال بعضهم: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم!! فبلغ ذلك النبي ﷺ فدعاهم فجمعهم ـ ولم يَدْعُ معهم غيرهم ـ فخطبهم عليه السلام فقال يا معشر الأنصار: «ألم أجدكم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨/٥٣.

(٢) الحديث أخرجه النسائي في سننه، وانظر الفتح الكبير ٢/٦٨.

ضُلاَّلاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وكنتم عالةً فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئاً قالوا: اللَّهُ ورسولُه أَمَنُّ، ثم قال لهم: أما ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بمحمد إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار، ولو سلك النَّاسُ وادياً وشعباً لسلكتُ وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شِعَارٌ والناس دثار»[1] الحديث وهكذا ألَّف الله قلوب الأوس والخزرج فأصبحوا يسمون الأنصار وصدق الله ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.

«معونة الله للمؤمنين مشروطة بالجد والاجتهاد»

ثم جاءتْ السورة تتحدث عن جو المعركة بعد أن أعز الله الإسلام والمسلمين، بالنصر الباهر، والفوز المبين، لتذكِّر المؤمنين بفضل الله وإنعامه عليهم، فما كان النصر لهم ببدر - على قلتهم وعدم استعدادهم - إلَّا آيةً من الآيات الباهرة، على نصرة الله لأوليائه وجنده المتقين، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ، وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ والمعنى: اللهُ جلَّ وعلا وحده كافيك وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد، من ناصرٍ أو معين، ومن كان الله معه فلا غالب له، فثق بنصر الله فإنَّه مع المتقين.

ثمَّ بيَّن سبحانه إن كفايته ومعونته، مشروطة بالجدِّ والاجتهاد، في أمر القتال والجهاد، فقال حاثاً نبيَّه ﷺ على ترغيب المؤمنين في الجهاد في سبيل الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَالِ﴾ أي حثَّهم وحضَّهم ورغبهم بكل طاقتك وجهدك، على قتال أعداء

---

(١)الحديث أخرجه الشيخان، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ١١٦/٢ وانظر صحيح البخاري في المغازي باب «غزوة الطائف».

الله، ليفوزوا بإحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة، ثم قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُوْنَ صَابِرُوْنَ يَغْلِبُوْا مِائَتَيْنِ﴾ أي إن يوجد منكم يا معشر المؤمنين، عشرون صابرون على شدائد الحرب، يغلبوا مائتين من عدوهم، وهذا وعدٌ من الله وبشارة للمجاهدين بأنهم إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم بعون الله وتأييده، وقد كرَّر تعالى هذا المعنى تأكيداً على تحقق النصر للمجاهدين الصابرين فقال: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَائِةٌ يَغْلِبُوْا أَلْفَاً مِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ وكفى بهذا الوعد حافزاً لهمم وعزائم المؤمنين، في أن يكون الواحد منهم يقابل عشرة، وينتصر على عشرة، فكيف لا يُقدم المؤمن وهو يسمع مثل هذا، بنصر الله للمؤمنين الصابرين، وهم يقابلون عدواً لهم يفوقهم في العدد عشر مرات؟! ثم بين تعالى السبب في غلبة المؤمنين على الكافرين فقال: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ أي سبب ذلك بأن الكفار قوم جهلة، لا يعرفون حكمة الله، ولا يعرفون طريق النصر وسبَبَه، فهم يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب، ويعوّلون على قوتهم وشوكتهم، فلذلك يُغْلَبون، والمسلمون يتوكلون على ربهم، ويستغيثونه ويتوقعون منه ما وعدهم به من النصر والتأييد، فلذلك يُنصرون.

«تخفيف الله عن المجاهدين»

ولما كان المؤمنون يضعفون في بعض الأحيان، بسبب ضعف نفوسهم أو ضعف الإيمان، فقد جاءت الآيات بعدها تُخَفِّف عنهم بعض الأعباء، وتدعوهم إلى الصبر والثبات إذا كان العدو ضعفهم، أما إذا كان العدو أضعافاً مضاعفة، فلا يجب عليهم قتالهم ولا

مناجزتهم الحرب، رحمة بهم وشفقةً عليهم، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوْا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوْا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِيْنَ﴾ قال ابن عباس: كان ثباتُ الواحد للعشرة فرضاً، ثم لما شقَّ ذلك عليهم نُسخ، وأصبح ثبات الواحد للإثنين فرضاً.. وفي رواية عنه: لما نزلت هذه الآية ثَقُل على المسلمين، وأعظموا أن يُقاتل عشرون مائتين، ومائةٌ ألفاً، فخفف الله عنهم، فنسخها بالآية الأخرى(١).

وقال عكرمة: إنما أُمر الرجل أن يصبر لعشرة، والعشرة لمائة، حالما كان المسلمون قليلين، فلما كثروا خفَّف الله عنهم، ولهذا قال ابن عباس: «أيما رجل فرَّ من ثلاثةٍ فلم يفرَّ، فإن فرَّ من اثنين فقد فرَّ»(٢).

وهكذا يبتلي الله عباده، بالشدائد والمحن، ويأمرهم بالجهاد والثبات، ثم يُنزل نصره على عباده المؤمنين.

«أروع الأمثلة في الشجاعة والبسالة»

ولقد ضرب المسلمون في الصبر والثبات في الجهاد أروع الأمثلة، وأظهروا شجاعة وبسالة تفوق التصور والخيال، فهذا رسول الله ﷺ يحرِّض المؤمنين على القتال في بدر، ويقول لأصحابه وهو يرى المشركين مقبلين نحوه في عَدَدهم وعُدَدهم: «قوموا بِنَا إلى جنة عرضها السمواتُ والأرض» فإذا بهم كالأسود، يطيرون بهذه البشارة فرحاً وسروراً، ويسمع رجل من الصحابة ذكر الجنة والشهادة، واسمه

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/١١٧.

(٢) تفسير غرائب القرآن للنيسابوري ١٠/٢٣.

«عُمَيْر بنُ الحَمَام» وبيده تمراتٌ يأكلهن، فيقول: بخٍ بخٍ - أي ما أحسن هذا وأعظمه!! - جنَّةٌ عرضها السموات والأرض، ثم يلقي بالتمرات من يده ويقول: لئن أنا حييتُ حتى آكلهنَّ إنها لحياةٌ طويلة، ثم يتقدم في صفوف الأعداء، فيقاتل بشجاعة وبسالة، فَيَقْتُل من المشركين عدداً، ثم يُقْتل وينال الشهادة في سبيل الله، ويفوز بالجنة بشهادة رسول الله حيث قال له: إنك من أهلها.

«مقتل أبي جهل بيد الأشبال»

وفي «غزوة بدر» ظهرت بسالة المسلمين حتى الصغار، فقد قُتِل فرعونُ هذه الأمة «أبو جهل» وكان الذي قتله فَتَيانِ حديثا السنّ هما «معاذ بن عفراء» و «معاذ بنُ عمرو بن الجموح» ولنفسح المجال للصحابي الجليل «عبد الرحمن بن عوف» ليحدثنا عن مقتل أبي جهل فيقول: «إني لفي الصفّ يوم بدر، إذِ التفتُّ فإذا عن يميني فتى، وعن يساري فتى، حديثا السنِّ، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سراً عن صاحبه: يا عمِّ أرني أبا جهل، أين هو أبو جهل؟ فقلت: يا ابن أخي ما تصنع به؟ قال: فإني قد عاهدتُ الله عز وجل إن رأيتُه أن أقتلَه، أو أموتَ دونه، وقال لي الآخر سراً من صاحبه مثل قول الأول، قال: فنظرتُ فأبصرته في المعركة، فأشرت لهما إليه، وقلتُ: دونكما هو هذا، قال: فشدَّا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه فأثخناه بالجراح، ثم جاء عبدالله بن مسعود: فحزَّ عنقه... ولما قُتِل أبو جهل قال رسول الله ﷺ: اليوم قُتل فرعون هذه الأمة»[1].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام، ودلائل النبوة للأصبهاني ٢/٦١٥ والسيرة النبوية للشيخ أبي الحسن الندوي.

«قصة رائعة من أظهر دلائل النبوّة»

روى الحافظ الأصبهاني في كتابه «دلائل النبوة» ٦١٦/٢ هذه القصة التي هي من أشهر وأظهر الدلائل والبراهين، على صدق هذا الرسول في دعوى النبوة، ممَّا دفعت بعض المشركين إلى إعلان إسلامه، قال رحمه الله:

«عن عروة بن الزبير قال: جلس «عُمَيرُ بنُ وَهْب الجُمَحي» مع «صفوان بنِ أميَّة» - بعد مصاب أهل بدرٍ من قريش بيسيرٍ - في الحجر، وكان عُمَيرٌ شيطاناً من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابَه، ويلقَوْن منه عَناءً وهو بمكة، وكان ابنُه «وَهْبَ بنَ عُمَيرٍ» في أسارى أصحاب بدر، فذكر أصحاب القليب ومصابهم - يريد الذين قُتلوا في بدر وألقوا في حفرة كالبئر من المشركين - فقال صفوان: واللهِ ما في العيش خيرٌ بعدهم، فقال له عُمَيرٌ: صدقتَ واللَّهِ، أَمَا واللهِ لولا دينٌ عليَّ ليس عندي قضاءٌ له، وعِيالٌ أخشى عليهم الضَّيْعة بعدي، لركبتُ إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قِبَلهم عُذْراً - يعني له عذر في السفر إلى المدينة - إن ابني أسيرٌ في أيديهم، فاغتنمها «صفوانُ بن أمية» وقال: عليَّ دَيْنُك، أنا أقضيهِ عنك، وعيالُك مع عيالي أنفق عليهم ما بَقُوا لا يعجز عنهم شيء في وُسعي، قال عُمَيرٌ: اكتمْ عليَّ شأني، قال: أفعلُ.

ثم أمر عُمير بسيفه فشُحِذ له، وسُمَّ - أي وضع فيه السُّم - ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما «عمرُ بنُ الخطَّاب» في نفرٍ من المسلمين في المسجد، يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم اللهُ عزَّ وجلّ به، وما أراهم من عدوِّهم، إذ نظر فرأى «عُمير بنَ وهب» حين أناخ على باب المسجد متوشحاً سيفه، فقال: هذا الكلبُ عدوُّ اللهِ عُمير بن وهب ما جاء إلَّا بشرٍّ، وهو الذي حرَّش بيننا يوم بدر - أي هيَّج

المشركين علينا ـ فدخل عمر على النبي ﷺ فقال: يا نبيَّ اللهِ هذا عدوُّ الله «عُمير بنُ وهب» قد جاء متوشحاً سيفه، قال: فأدخلْه يا عمر، فأقبل عمر حتى أخذ بحُمالة سيفه في عنقه، فلبَّبه به، وقال لرجالٍ ممن كانوا معه من الأنصار، ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسولُ الله وعمرُ آخذٌ بحمالة سيفه في عنقه، قال: أرسلْه يا عمر ـ أي أطلقه وارفع يدك عن عنقه ـ ادنُ يا عُمير، فدنا ثم قال: أَنْعِموا صباحاً ـ وكانت تحيةَ الجاهلية بينهم ـ فقال رسول ا لله ﷺ: قد أكرمنا اللهُ بتحيَّة الإسلام، بالسلام تحيةِ أهل الجنة، خيرٌ من تحيَّتك يا عُمير، قال: أما والله يا محمد إن كنتُ لحديثُ عهدٍ بها، فقال له الرسول الكريم: فما جاء بك يا عُمَير؟ قال: جئتُك لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه ـ يريد وَلَده ـ قال: فما بالُ السيف في عنقك؟ قال: قبَّحها الله من سيوف، وهل أغنتْ عنَّا شيئاً؟ قال: اصدقني ما الذي جئتَ له؟ قال: ما جئتُ إلَّا لذلك، فقال له رسول الله ﷺ: لا، بل قعدتَ أنتَ وصفوانَ بنَ أمية في الحِجْر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلتَ: لولا دَيْنٌ عليَّ وعيالٌ عندي، لخرجتُ حتى أقتل محمداً، فتحمَّل ـ أي تكفَّل ـ لك صفوانُ بِدَيْنك وعيالِكَ على أن تقتلني، والله حائلٌ بينك وبين ذلك، قال عُمَير: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسولُ الله، قد كنا نكذبك بما تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمرٌ لم يحضرْهُ إلَّا أنا وصفوان، فواللهِ إني لأعلم أنه ما أتاك به إلا اللهُ عزَّ وجلّ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم تشهَّد بشهادة الحق ـ أي أعلن إسلامه أمام الصحابة ونطق بالشهادة ـ فقال رسول الله ﷺ: «فقِّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره» ففعلوا.

فقال عُمير يا رسول الله: إني كنتُ جاهداً على إطفاء نور الله، شديدَ الأذى لمن كان على دينك، وإنني أحبُّ أن تأذن لي فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، لعلَّ الله أن يهديهم، وإلاّ آذيتُهم كما كنتُ أوذي أصحابك، فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة.. وكان صفوانُ حين خرج عُمير بن وهب يقول لقريش: أَبْشِرُوا بوقعةٍ تأتيكم الآن في أيام قلائل، تُنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل الركبان، حتى قدم راكب فأخبره بإسلام عُمير، فحلف ألاَّ يكلّمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً، فلما قدم عُمَيرٌ مكة، أقام بها يدعو إلى الله، ويؤذى من خالفه إيذاءً شديداً، فأسلم علىَ يديه ناس كثيرون»[1].

«فداء الأسرى ببدر»

لا تزال سورة الأنفال تطالعنا في آياتها البينات بأحداث غزوة بدر، وقد سمَّى القرآن الكريم هذه الموقعة الشهيرة «يوم الفرقان» لأن الله فرق فيها بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، وجعلها فيصلاً بين جند الرحمن وجند الشيطان، وفيها يقول القرآن الكريم ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ، يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقد قتل في هذه الغزوة صناديد قريش، ورؤساء الكفر والطغيان، قتل منهم سبعون، وأُسر منهم سبعون، فكان بذلك تقليمُ أظافر الشرك، والآيات الكريمة هنا تتحدث عن أحكام هؤلاء الأسرى، بعد أن تحدثت عن موضوع الصلح والسِّلم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ، تُرِيدُوْنَ عَرَضَ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ يُرِيْدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

(١) دلائل النبوة للأصبهاني ٢/٦١٦ وسيرة ابن هشام.

«عتاب للنبي وَأصحابه لقبولهم الفداء»

وهذه الآيات عتاب للنبي عليه الصلاة والسلام ولأصحابه على أخذهم الفداء، ومعنى الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ أي ما صحَّ ولا استقام لنبيٍّ من الأنبياء أن يأخذ الفداء من الأسرى، إلَّا بعد أن يُكثر فيهم القتل ويبالغ فيه، حتَى يذِلَّ الكفر، ويَعِزَّ الإسلام ﴿تُرِيدُوْنَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ أي تريدون أيها المؤمنون بأخذ الفداء، حُطام الدنيا ومتاعها الزائل ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ أي والله جل وعلا يريد لكم الباقي الدائم، وهو ثواب الآخرة، بإعزاز دينه وقتل أعدائه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي عزيزٌ في مُلكه، غالب لا يُقهَر ولا يُغلب في سلطانه، حكيم في صنعه وتدبيره لمصالح عباده.

وإنَّما أمر تعالى بالإثخان في الأعداء ـ وهو الإكثار من القتل والجراحات فيهم ـ لأن غزوة بدر كانت أولى الغزوات، فكان ينبغي أن يُرجَّح جانب الشدة على جانب الرحمة، حتى لا يطمع الأعداء في المسلمين، ولا يفكِّروا في غزوهم وحربهم، وحتى يرى المشركون أن لا هوادة في قلوب المؤمنين عليهم، وبذلك تضعف قوتهم وشوكتهم، فالغرض من هذا إظهار عزة الإسلام وأهله، وإظهار ذلة الكفر وأنصاره.. ثم قال تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عظيمٌ﴾ أي لولا حكمٌ من الله سابق في الأزل، وهو أن لا يعاقب المخطىء في اجتهاده، لأصابكم فيما أخذتموه من الفداء من الأسرى عذاب عظيم.

«استشارة النبي لأصحابه في أمر الأسرى»

رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: لما هَزم الله المشركين يوم بدر، وقُتل منهم سبعون، وأُسر منهم سبعون، استشار النبي ﷺ أصحابه، فقال لأبي بكر وعمر: ما ترون في هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر: يا نبيَّ الله هم أقاربُكَ بنو العمِّ والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام!! فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا ابن الخطاب؟ قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكِّننا منهم فنضربَ أعناقَهم، فتمكِّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان ـ نسيبٍ لعمر ـ فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها.. قال فهويَ رسول الله ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلت ـ أي فاستحسن رأي أبي بكر ولم يستحسن رأيي ـ فلما كان من الغد، جئتُ فإذا رسولُ اللّهِ وأبو بكرٍ قاعدين يبكيان، فقلت يا رسول الله: أخبرني من أيِّ شيءٍ تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجد بكاءً تباكيتُ لبكائكما؟! فقال رسول الله ﷺ: أبكي للذي عَرَض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عُرض عليَّ عذابهم لأدنى من هذه الشجرة ـ شجرة قريبة من نبي الله ـ وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ..﴾[1] الآية.

وفي رواية لأحمد والحاكم قال: «لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر يا رسول الله:

---

(١) انظر تفسير ابن كثير، والقرطبي، والنيسابوري، فقد ذكرت فيها هذه القصة، كما ذكرها الحافظ الأصبهاني في كتابه دلائل النبوة ٢/٦١١.

قومُك وأهلُك، استبْقِهم واسْتَتبهم لعل الله أن يتوب عليهم!!

وقال عمر يا رسول الله: كذبوك وأخرجوك، فقدّمهم فاضرب أعناقهم.

وقال عبدالله بن رواحة يا رسول الله: أنت في وادٍ كثير الحطب، فاضرم الوادي عليهم ناراً ثم ألقهم فيه.

قال: فسكت رسول الله ﷺ فلم يردَّ عليهم شيئاً، ثم قام فدخل، فقال ناسٌ: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبدالله بن رواحة.

ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: إنَّ الله لَيُلِينُ قلوب رجال حتى تكون أليَنَ من اللبن، وإن الله ليشدِّدُ قلوب رجال حتى تكون أشدَّ من الحجارة!!

وإن مَثَلَكَ يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام حين قال ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومثلك كمثل عيسى عليه السلام قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ، وإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيْزُ الحَكِيمُ﴾ وإن مَثَلَك يا عمر كمثل موسى عليه السلام حين قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوْبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوْا حَتَّى يَرَوْا العَذَابَ الأَلِيمِ﴾.

وإن مَثَلك يا عبدالله بن رواحة كمثل نوح عليه السلام حين قال ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ ثم قال لأصحابه أنتم عالة ـ أي في حاجة إلى المال ـ فلا ينفكنَّ أحدٌ منهم إلاَّ بفداءٍ أو ضرب عنق» قال ابن مسعود: قلت يا رسول الله: إلا «سُهيلَ بنَ بيضاءَ» فإنَّه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتُني في يومٍ

أخوف من أن تقع عليَّ حجارةٌ من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: إلَّا سهيلَ بن بيضاء، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿مَا كَانَ لِنَبيٍّ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ..﴾ إلى آخر الآية[1].

«إباحة الغنائم للمجاهدين»

تناولت الآيات السابقة موضوع أسرى بدر بعد أن انتهت المعركة بانتصار المسلمين، وانهزام المشركين وركَّزت على موضوع أمر الفداء، الذي نزل بشأنه العتاب الشديد للنبيّ عليه أفضل الصلاة والتسليم وللمؤمنين، فقد كان الأحرى بالمسلمين أن يقتلعوا جذور الشر من أصولها، بقتل رؤساء الطغيان، وصناديد الكفر، وبعد العتاب جاءت المسامحة والرحمة، فقد أباح الله للمجاهدين أن يأكلوا من الغنائم التي غنموها في غزوة بدر، توسعةً من الله وتكريماً لأوليائه، وفي ذلك يقول الله تقدست أسماؤه ﴿فَكُلُوْا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً، وَاتَّقُوْا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

«معجزة للرسول مع عمه العباس»

ثم عادت الآيات لتتحدث عن موضوع الأسرى، الذين وقعوا في قبضة المسلمين في بدر، وكُلِّفوا أن يفدوا أنفسهم، بدفع مبلغ من المال مقابل فكاك أنفسهم، وكان ممن وقع في الأسر من عظماء

---

(١) الحديث رواه أحمد والترمذي والحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وانظر تفسير ابن كثير ١١٨/٢.

قريش «العباس بن عبد المطلب» عمُّ النبي ﷺ و«عقيل بن أبي طالب» و«نوفل بن الحارث» وكان العباس أُسر يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليُطعم الناس، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر، فلم تبلغه النوبةُ حتى أُسر، فجيء به ضمن الأسرى، فقال العباس: كنتُ مسلماً إلاَّ أنَّهم استكرهوني - أي أكرهوني على الخروج - فقال له ﷺ: «الله أعلمُ بإسلامك، وإن يكن ما تقول حقاً فإنَّ الله يجزيك، وأما ظاهركَ فقد كان علينا» قال العباس: وكلَّمتُ رسول الله ﷺ أن يترك ذلك الذهب الذي كان معي، فقال: أَمَّا شيء خرجتَ به تستعين به علينا فلا!! قال: وكلفني فداء ابن أخي عقيل بن أبي طالب، وفداء نوفل بن الحارث - وقال النبي ﷺ: أَضعفوا على العباس الفداء - أي خذوا منه الفداء عن نفسه مضاعفاً أربعين أوقية من ذهب - فقال العباس للرسول ﷺ: لقد تركتني يا محمد أتكفف قريشاً ما بقيتُ - أي تركتني أَستجدي من قريش وأسألهم معونتي مدة الحياة - فقال له الرسول ﷺ: وأين الذهبُ الذي تركتَه عند أم الفضل؟ فقال: أيَّ الذهب؟ فقال: إنك قلتَ لها إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حَدَثَ لي حَدَثٌ فهو لكِ ولولدكِ، ودفنتَه أنتَ وأمُّ الفضل، فقال يا ابن أخي: من أخبرك بهذا؟ فقال: أخبرني به اللَّهُ، فقال العباس: أشهد أنك نبيٌّ صادق، وما علمتُ أنك رسولُ الله قبل اليوم، والله إن هذا لشيءٌ ما علمه أحدٌ، ولا اطَّلع عليه أحدٌ غيري، وغير أمُّ الفضل، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، فاحسبْ لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من الذهب من الفداء، فقال رسول الله: لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك، ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿يَا

أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى، إنْ يَعْلَم اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرَاً، يُؤْتِكُمْ خَيْرَاً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيْمٌ﴾ قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك، أعطاني عشرين عبداً، وإن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم ما أحبُّ أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر الثالثة أنتظر المغفرة من ربي»[1].

«نهي النبي ﷺ عن قتل العباس»

وروى الحافظ ابن كثير عن محمد بن إسحق عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: إني قد عرفت أنَّ أناساً من بني هاشم وغيرهم، قد أُخرجوا كُرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً منهم ـ أي من بني هاشم ـ فلا يقتله، ومن لقي البختريَّ بن هشام ـ أخا أبي جهل ـ فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنَّه إنَّما أُخرج مستكرهاً، فقال أبو حذيفة بن عُتبة: أنقتلُ آباءنا وأبناءنا، وإخواننا، وعشائرنا ونترك العباس؟ واللَّهِ لئن لقيتُه لأُلْجِمَنَّه بالسيف، فبلغتْ تلك المقالةُ رسولَ الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص أيُضربُ وجهُ عمّ رسول الله ﷺ بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه ـ أي عنق القائل ـ فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلتُ، ولا أزال منها خائفاً، إلاَّ أن يكفّرها الله عني بشهادة، فقُتل يوم اليمامة شهيداً رضي الله عنه، قال وكان أكثر الأسارى فداءً يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب، وذلك أنه كان رجلًا موسراً،

(١) انظر تفسير ابن كثير ١١٩/٢ وتفسير ابن جرير، ودلائل النبوة للحافظ الأصبهاني ٦١٣/٢.

فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً، وفيه نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى.. ﴾[1] الآية.

«أخوَّة الإيمان فوق أخوَّة النسب»

وقد ختم الله السورة الكريمة بالإشادةِ بذكر المهاجرين، والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وأَمَر بنصرة المؤمن لأخيه المؤمن، أينما كان وحيثما حلَّ، فإن أخوة الإيمان والعقيدة، فوق أخوة القرابة والنسب وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَهَاجَرُوْا وَجَاهَدُوْا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا هو الصنف الأول وهم المهاجرون، ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ آوَوْا وَنَصَرُوْا﴾ وهؤلاء الصنف الثاني وهم الأنصار ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي في الولاية والحماية والنصرة، ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا وَلَمْ يُهَاجِرُوْا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايتِهِم مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوْا، وَإِنِ اسْتَنْصَرُوْكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيرٌ﴾.

«ختم للسورة بديع»

ثم ذكر تعالى حكم الكفار والولاية التي تكون بينهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوْا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، إِلَّا تَفْعَلُوْهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي إلَّا تفعلوا ما أُمِرتم به من تولي المؤمنين وقطع الصلة بالكافرين، تحصل فتنة عظيمة ومفسدة جسيمة، لأنه يترتب على ذلك قوة الكفار وضعف المسلمين.. ثم عاد بالذكر

(١) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ٢/ ١٢٠.

والثناء على المهاجرين والأنصار فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِيْنَ آوَوْا وَنَصَرُوْا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُوْنَ حَقًّا، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ثم ختم السورة بذكر التابعين لهم بإحسان فقال: ﴿وَالَّذِيْنَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوْا وَجَاهَدُوْا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنْكُمْ، وَأُوْلُوْا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ صدق الله العظيم.

وهكذا افتتح الله السورة بذكر الجهاد والغنائم، وختمها بذكر النصرة والهجرة، فكانت سورة الجهاد من البدء إلى الختام.

تم بعونه تعالى الجزء الثالث من كتاب «قبسٌ من نور القرآن الكريم» ويليه الجزء الرابع، وأوَّله سورة التوبة، واللَّهُ المستعان

ألَّفه

خادم الكتاب والسنّة

محمد علي الصابوني

جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة

* * *

الفهـــرس

قبس

من نور القرآن الكريم

دراسات قرآنية
٤

قبس من نور القرآن الكريم

من

سورة التوبة، ويونس

دراسة تحليلية موسعة لأهداف ومقاصد السورتين الكريمتين

بقلم
خادم الكتاب والسنة
الشيخ محمد علي الصابوني
الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد الذي خصَّه الله بالمعجزة الكبرى، والآية العظمى «القرآن الكريم» وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا هو الكتاب الرابع في سلسلة «دراسات قرآنية» في ضوء السورتين الكريمتين «التوبة، يونس» وهي دراسة موضوعية تحليلية هادفة، القصد منها تنوير القلوب والبصائر، بما تناوله الكتاب المعجز، الذي نزل على قلب خاتم المرسلين، بلسان عربي مبين.

وإننا إذ نشكر الله عزّ وجلّ أن وفَّقنا لخدمة كتابه، لنُبْرِز ما فيه من روائع الحِكَم والأحكام، ونُظهر أسرار إعجازه وبيانه، نسأله تعالى أن يمنَّ علينا بالتيسير والتسهيل، لما قصدناه في هذه الدراسات القرآنية، التي تتناول المواضيع التي تعرضت لها السور الكريمة، ليستوعب الأخ المسلم فهم ما حَوَته هذه السور المباركة من مقاصد وأهداف.

والله نسأل أن يرزقنا الصدق والإخلاص، في القول والفعل والعمل، وأن ينفع بهذه الدراسات إخواننا المؤمنين، إنه خير مسؤول، وأعظم مأمول، وصلىٰ الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الشيخ محمّد علي الصّابوني

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةِ التَّوبَة
مدنية وآياتها مائة وتسعة وعشرون آية

«الأهداف الأساسية لسورة التوبة»

● سورة التوبة من السور المدنية، التي تُعْنى بالجوانب التشريعية، وتهتم بإرساء قواعد الإصلاح والبناء، والتربية الفاضلة الكريمة، التي شيدت عليها دعائم الإسلام، وهذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ فقد أخرج البخاري عن البراء بن عازب «أن آخر سورة نزلت سورةُ براءة». وروى الحافظ ابن كثير أن أول هذه السورة نزل على رسول الله ﷺ مَرْجِعه من غزوة تبوك، وبعث الرسولُ الكريمُ أبا بكر الصدِّيق، أميراً على الحج تلك السنة، ليقيم للناس مناسكهم، ويُخبر المشركين ألاَّ يحجُّوا بعد عامهم هذا، فلمَّا مضى أتبعه بعليٍّ بنِ أبي طالبٍ، ليكون مبلِّغاً عن رسول الله عليه السلام ما فيها من الأحكام.

● نزلت هذه السورة الكريمة في السنة التاسعة من الهجرة، وهي السنة التي خرج فيها رسول الله لغزوِ الروم، واشتهرت بين الغزوات النبوية بـ «غزوة تبوك»، وكانت في شهور الصيف، في حرٍّ شديد، وسفرٍ بعيد، وذلك حينَ طابت الثِّمارُ، وأخلدَ الناس إلى بهجة الحياة ونعيمها، فكانت تلك الغزوة ابتلاءً لإيمان الناس، وامتحاناً لصدقهم وإخلاصهم

للدعوة التي آمنوا بها، وتمييزاً بين المؤمنين والمنافقين، وبين من يحبُّ الله ورسوله، وبين من يؤثر هواه على رضى الله.

● ولهذه السورة الكريمة هدفان أساسيان، إلى جانب الأمور الأخرى هما:

أولاً: بيان القانون الإلّهي في معاملة المشركين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى.

ثانياً: إظهار ما كانت عليه نفوس المسلمين، حين استنفرهم الرسول الكريم لغزو الروم.

● أمَّا بالنسبة للهدف الأول، فقد عرضت السورة إلى عهود المشركين، فوضعت لها حداً، ومنعت حجَّ المشركين لبيت الله الحرام، بعد ذلك العام، لاسيَّما بعد أن نقض المشركون العهود، وتآمروا عدة مرات مع اليهود، لضربِ الدعوة الإسلامية، والقضاء على الإسلام في مهده وعرينه، وخانت طوائف اليهود، يهودُ «بني النضير» ويهودُ «بني قريظة» ويهودُ «بني قينقاع» ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ، ونقضوا عهودهم مرَّات ومرَّات، فلم يعد من الحكمة أن يبقى المسلمون متمسكين بالمواثيق والعهود، وقد نقضها أعداؤهم، وقلبوا لهم ظهر المِجَنِّ، لذلك نزلت السورة الكريمة تأمر بإلغاء تلك العهود، ونبذها إلى الأعداء على بصيرة ووضوح، بعد أن منحهم القرآن الكريم فرصةً كافيةً من الزمن، هي السياحة في الأرض أربعة أشهر، ينطلقون فيها آمنين مطمئنين، ليتمكنوا من النظر والتدبر في أمرهم، ويختاروا ما يرون فيه المصلحة لهم، من الدخول في الإسلام أو الدخول في حرب مع المسلمين، وبذلك قطع الله تعالى ما بين المسلمين وخصومهم من

صِلات، فلا عهدَ، ولا سِلْم، ولا أمانَ، بعد انتهاء المُهْلة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُوْلِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. فَسِيحُوْا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ، وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الكَافِرِينَ. وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُوْلُهُ، فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوْا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

● ثم تلتها الآيات الكريمة في قتال أهل الكتاب، الذين لا يتورعون عن الغدر والخيانة، كلما سنحت لهم الفرصة، كما فعل يهودُ بني قريظة، وبني النضير، حيث أعانوا كفار مكة على حرب الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم يبالوا بالعهود التي أبرموها معه، لأنهم لا عهد لهم ولا ذمة، ولا يعرفون قدراً للشرف الذي قطعوه على أنفسهم، شرفِ الكلمة، وشرفِ العهد، فأحرى بهم ألا يُتركوا بدون عقوبة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلَا يُحَرِّمُوْنَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُوْلُهُ، وَلَا يَدِينُوْنَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوْتُوْا الكِتَابَ، حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُوْنَ﴾.

وقد تناول الحديث عنهم قرابة عشرين آية، كشف الله سبحانه فيها القناع عن خفايا اليهود والنصارى، وما انطوت عليه نفوسهم الشرِّيرة، من خبثٍ ومكر، وحقدٍ على الإسلام والمسلمين.

● وعرضت السورة الكريمة للهدف الثاني، وهو شرح نفسيَّات المؤمنين، حين استنفرهم الرسول الكريم لغزو الروم في بلاد الشام، وقد كان بين صفوفهم فريقٌ من المنافقين، أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، فتحدثت السورة عنهم بالتفصيل، عن المتثاقلين، والمتخلفين،

والمثبطين، وكشفت الغطاء عن فتن أهل النفاق، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين، وفضحتْ أساليب نفاقهم، وألوان فتنتهم وتخذيلهم للمؤمنين، حتى لم تَدَعْ لهم ستراً إلاَّ هتكته، ولا دخيلةً إلاَّ كشفتها، وتركتهم بعد هذا الكشف والتبيين، تكاد تلمسهم أيدي المؤمنين.

● وقد استغرق الحديث عن المنافقين معظم السورة، بدءاً من قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ . . ﴾ الآيات إلى قريب من نهاية السورة الكريمة، ولهذا سمَّاها بعض الصحابة «سورة الفاضحة» لأنها فضحت المنافقين، وكشفت أسرارهم، قال سعيد بن جبير: سألت ابن عباس عن سورة براءة فقال: تلك الفاضحة، ما زالت تنزل الآيات: و«مِنْهُمْ» و«مِنْهُمْ» حتى خفنا ألاَّ تَدَع أحداً منهم . . ورُوي عن حذيفةَ بنِ اليمان أنه قال: إنكم تسمونها «سورة التوبة» وإنما هي سورة العذاب، اللَّهِ ما تركتْ أحداً من المنافقين إلاَّ نالت منه، وهذا هو السرُّ في عدم وجود البسملة فيها.

● وبالجملة فإن هذه السورة الكريمة، قد تناولت «الطابور الخامس» المندسَّ بين صفوف المسلمين، ألا وهم «المنافقون» الذين هم أشدُّ خطراً من المشركين، ففضحتهم وكشفت أسرارهم ومخازيهم، وظلَّت تقذفهم بالحُمَم حتى لم تبق منهم دَيَّاراً، فقد وصل بهم الكيد في التآمر على الإسلام، أن يتخذوا بيوت الله تعالى أوكاراً للتخريب والتدمير، وإلقاء الفتنة بين صفوف المؤمنين، في مسجدهم الذي عُرِف بـ «مسجد الضرار» وقد نزل فيه أربع آيات في أواخر هذه السورة، وهي قوله تقدست أسماؤه ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوْا مَسْجداً ضِرَاراً وَكُفْرَاً وَتَفْرِيقَاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِيْنَ وَإِرْصَادَاً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ مِنْ قَبْلُ . . ﴾ الآيات ولم يكد

النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم يتلقى الوحي من ربه، حتى قال لأصحابه «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه فاهدموه وحرّقوه»[1] فهدموه، وكفى الله المسلمين شرهم إلى يوم الدين.

«قطع العلاقات مع المشركين»

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله عليه الصلاة والسلام، بعد عودته من غزوة تبوك، وقد ابتدأت السورة بهذا البدء الرهيب، الذي يوحي بالحرب السافرة، على معاقل أهل الشرك والضلال ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُوْلِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الكَافِرِينَ﴾ والمعنى: هذه براءة واصلةٌ من الله ورسوله، بقطع العلاقات والعهود، مع الأقوام المشركين، الذين نقضوا العهود والمواثيق، واستباحوا سفك دماء المسلمين، فقل لهم يا محمد: سيحوا في الأرض أربعة أشهر، وامشوا فيها آمنين مطمئنين، لا ينالكم منا أذى ولا مكروه، ثم بعدها لا عهد لكم عندنا ولا أمان، واعلموا يا معشر المشركين أنكم لا تفوتون الله هرباً، وإن أمهلكم هذه المدة، لأنكم في قبضته سبحانه، أينما كنتم وحيثما سرتم، وأن الله مخزي الكافرين أي مذلُّهم ومهينهم، في الدنيا بالأسر والقتل، وفي الآخرة بتعذيبهم بنار الجحيم.

«سبب البراءة من الكفار»

أما سبب هذه البراءة، والأمر الموجب لقطع هذه العلاقات،

(١) انظر تفصيل القصة في جامع البيان للطبري ٢٥/١١ ومختصر تفسير ابن كثير ١٦٩/٢.

وإنهاء تلك العهود، فهو ما ذكره المفسرون، أن النبي عليه الصلاة والسلام، كان قد عاهد المشركين في «صلح الحديبية» على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، عاهدهم على ألاَّ يحاربوا ولا يعينوا أحداً عليه ولا على من دخل في حلفه من العرب، فنقضوا عهودهم وأخذت بعض القبائل تنقض عهودها مع الرسول، واعتدت بنو بكرٍ على خزاعة حلفاء النبي عليه السلام، وأعانتهم قريش بالسلاح وبالرجال، حتى وفد «عَمْرُو بن سالم» الخزاعيُ على رسول الله، وأنشده هذه الأبيات مستنصراً ومستنجداً:

اللَّهُمَّ إنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّداً   حِلْفَ أبِينَا وَأبِيكَ الأتْلَدَا
إنَّ قُرَيشَاً أخْلَفُوكَ المَوْعِدَا   وَنَقَضُوا ذِمَامَكَ المُؤكَّدَا
هُمْ بَيَّتُونَا بِالحَطِيمِ هُجَّدَاً   وَقَتَّلُونَا رُكَّعَاً وَسُجَّدَاً

فلما سمعها النبي ﷺ قال له: لا نُصرتُ إن لم أنصركم مما أنصرُ منه نفسي وأهلي. هذا هو السبب الذي دفع بالمسلمين إلى فتح مكة، وهو السبب الذي من أجله أمر الله بالبراءة من عهود المشركين، فقد تكرر نقضهم للعهود، والمؤمن لا يُلدغ من جُحْرٍ واحد مرتين.

«لماذا لم تكتب البسملة في السورة»؟

وجميع سور القرآن وردت فيها البسملة «بسم الله الرحمن الرحيم» إلاَّ هذه السورة فلم تكتب فيها البسملة، لأن السورة جاءت بالعذاب والنكال، و«بسم الله الرحمن الرحيم» رمزٌ للأمان والرحمة والاطمئنان، فلا تناسب بينهما، وهذا هو السرُّ في عدم كتابة البسملة في السورة، قال ابن عباس: سألتُ «عليَّ بنَ أبي طالب» لِمَ لمْ يكتب في براءة «بسم الله الرحمن الرحيم» وكتبت في غيرها من السور؟ فقال: لأن «بسم الله الرحمن الرحيم» أمانٌ، وهذه السورة نزلت بالسيف، ونبذِ

العهودِ، فهي حربٌ ليس فيها أمان، وقال سفيانُ بن عُيَيْنَة: إنما لم تكتب في صدر السورة البسملة، لأن التسمية رحمة، والرحمة أمانٌ، وهذه السورة نزلت بالمنافقين وبالسيف، ولا أمان للمنافقين ولا كرامة.

«إعلان القطيعة على رؤوس الأشهاد»

ثم تلتها الآيات الكريمة تأمر المسلمين، بإبلاغ هذه القطيعة على رؤوس الأشهاد، حتى لا يبقى لأحد عذرٌ بعد ذلك البلاغ والبيان ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُوْلِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ، أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُوْلُهُ..﴾ أي إعلامٌ من الله واضح صريح، إلى كافة الناس، ببراءة الله تعالى ورسوله من المشركين، الذين نقضوا العهود، واستباحوا دماء المسلمين، ثم دعاهم إلى التوبة، والرجوع عن الكفر، والغيِّ، والضلال، فقال تقدست أسماؤه ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوْا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والبشارة هنا بالعذاب الأليم، إنما ورد على سبيل السخرية والتهكم، بمن خانوا الدين ونقضوا العهد، وهو أحد أساليب العرب ـ زيادةً في التقريع والتوبيخ ـ لمن أرادوا إغاظته والسخرية به[1].

«إرسال عليٍّ لتبليغ المهمة»

ولما نزلت الآية الكريمة تأمر بتبليغ الكفار ذلك الأمر الرباني، في يوم الحج الأكبر ـ وكان قد بعث أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الحج ليقيم للناس مناسكهم ـ أتبعه بإرسال علي رضي الله عنه، لِيُعْلِمَ النَّاس بالبراءة، وليقرأ تلك الآيات على أهل الموسم، وأعطاه ناقته العضباء

(١) يسمى هذا الأسلوب «الأسلوب التهكمي» كقوله تعالى: ﴿والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا في سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

يركبها، فلما دنا قال له أبو بكر: أميرٌ أو مأمور؟ قال: بل مأمور، أرسلني رسول الله ﷺ لأبلِّغ عنه هذه المهمة، فقام عليٌّ فنادى في الناس بأربعة أمور:

١ ـ ألاَّ يقربَ البيتَ الحرامَ بعد العامِ مشركٌ.

٢ ـ وألاَّ يطوف بالبيت الحرام عُريان.

٣ ـ وأنه لا يدخلُ الجنةَ إلاَّ مسلمٌ.

٤ ـ ومن كان بينه وبين رسول الله مدَّةٌ فأجلُه إلى مدته، والله ورسولُه بريءٌ من المشركين.

وإنما ذكر تعالى في الآية «الحج الأكبر» لأنه أراد به الحج الحقيقي، الذي تكون الوقفة فيه «يوم عرفة» لأن العمرة تسمى «الحج الأصغر»، فأراد أن يكون الإعلام والإنذار، في ذلك اليوم العظيم الذي يلتقي فيه البشر على صعيد عرفات، ليكون الأمر أظهر وأشهر.

«إبطال العهود قاصرٌ على النَّاكثين»

ومن جلال الإسلام وعظمته، وَسُمُوِّهِ ورفعته، أنه جعل إبطال العهود، قاصراً على الذين خانوا ونكثوا ونقضوا عهودهم، أمَّا الذين وفُّوا ولم يَغْدِروا، ولم يُعينوا أحداً من الأعداء على المسلمين، فقد أمر الله تعالى بإتمام عهدهم لهم، وعدم معاملتهم معاملة الناكثين، فقال تقدست أسماؤه ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً﴾ أي لم يَخْرقوا شروط الميثاق ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً﴾ أي لم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي وفُّوا إليهم عهدهم كاملاً إلى مدتهم، من غير إنقاص ولا إبطال، ثم جاء الوعيد والإنذار بقتل الكفار الذين لم يحترموا

العهد والوعد فقال جلت عظمته ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ، فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ، وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ، وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ، وآتَوُا الزَّكَاةَ، فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهكذا يكون الحزمُ والعزم.

إلى الله يُدْعَى بالبَرَاهِينِ مَنْ أَبى   فإنْ لم يُجِبْ نَادَتْهُ بِيضُ الصَّوَارِمِ

«المدَّةُ لتمام العهد أربعة شهور»

وبمناسبة الحديث عن العهد والمعاهدين، فقد عيَّن تعالى للذين عاهدوا رسوله، مدة أربعة أشهر، يسيحون في الأرض حيث شاءوا، وأجَّل أَجَل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم، فأمر الله نبيه ﷺ إذا انسلخ المحرم، أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينهم عهد، بقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام، وأمر بمن كان له عهد، إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر، إلى عشر خلون من ربيع الآخر، أن يضع فيهم السيف أيضاً حتى يدخلوا في الإسلام.

والمقصودُ من هذا التأجيلِ أن يتفكروا في أنفسهم، ويحتاطوا في الأمر، ويعلموا بعد هذه المدة أنه ليس لهم إلَّا أحد أمرين: إما الإسلام، أو السيف.

«تأمين المشرك حتى يسمع كلام الله»

ومن حرص الإسلام على هداية البشرية، أن أمر الباري جل وعلا تأمين من طلب الأمان، حتى يسمع كلام الرحمن، وأوجب على المسلمين تبليغه الدعوة، حتى تقوم حجةُ الله عليه، ثم إيصاله إلى وطنه الذي يأمن فيه، وهو آمنٌ لا يخشى سطوة أحد، ثم قتاله إن لم يقبل

هداية الله، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُوْنَ﴾.

ومعنى الآية الكريمة: إن استأمنك مشركٌ وطلب منك جوارك، ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، فأمِّنه يا محمد حتى يسمع كلام الله ويتدبره، ويطَّلع على حقيقة الإسلام. وهذا غايةٌ في حسن المعاملة وكرم الأخلاق، لأن المراد ليس النيلَ من الكافرين، بل إقناعُهم وهدايتُهم حتى يعرفوا الحق فيتَّبعوه، ويتركوا ما هم عليه من الغيِّ والضلال، وهذا غايةُ الإنصاف لخصوم الإسلام.

«الحكمة من هذه البراءة»

ثم تتابعت الآيات الكريمة تذكر حكمة الله في البراءة من المشركين، والأسباب التي تدعو إلى إمهالهم أربعة أشهر، وعدم الاعتداد بعهودهم التي أبرموها مع النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم فقال تقدست أسماؤه ﴿كَيْفَ يَكُوْنُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُوْلِهِ؟ إلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَمَا اسْتَقَامُوْا لَكُمْ فَاسْتَقِيْمُوا لَهُمْ، إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي كيف يكون للمشركين عهدٌ وأمان، معتدٌّ به عند الله ورسوله، وهم يضمرون الغدر في كل عهد يعطونه للمسلمين؟ ثم استثنى منهم المعاهدين عند المسجد الحرام، وهم الذين عقدوا الصلح مع رسول الله يوم الحديبية فقال ﴿فَمَا اسْتَقَامُوْا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي فما داموا مستقيمين على عهدهم، فاستقيموا لهم يا معشر المسلمين على الوفاء، فإن الله يحب المتقين، الذين يَفُون بالعهود، ويتركون الغدر والخيانة، وهكذا يفرض الإسلام احترام العهود والمواثيق، ويظلُّ في أوْج العظمة والكمال.

«الأسلوبُ للإنكار والاستبعاد»

والأسلوب الذي ورد به النصُّ الكريم، هو أسلوب الاستنكار والاستبعاد، لأن يكون للمشركين عهود يثق الإنسان بها، ولهذا جاء بصيغة الاستفهام الذي معناه الاستنكار والاستبعاد ﴿كَيْفَ يَكُوْنُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾؟ ثم كرَّر تعالى هذا الاستبعاد فقال ﴿كَيْفَ وَإنْ يَظْهَرُوْا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوْا فِيكُمْ إلاً وَلَا ذِمَّةً، يُرْضُوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ، وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُوْنَ﴾ أي كيف يكون لهم عهدٌ، وحالُهم أنهم إن يغلبوكم ويظفروا بكم، لا يراعوا في أحدٍ من المسلمين عهداً ولا ذمة، لأنه لا عهد لهم ولا أمان؟ يرضونكم بالكلام الجميل إن كانت الغلبة والظفر لكم عليهم ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ أي وأكثرهم خارجون عن الطاعة، ناقضون للعهد؟

«ذكر قبائح وفظائع المشركين»

ثم أفاضت الآيات في ذكر مثالبهم وقبائحهم، فإنهم قد آثروا الفانيَ على الباقي، واستبدلوا بالقرآن وآياته النيِّراتِ الساطعات، عَرَضاً يسيراً من متاع الدنيا الخسيس، فكانوا كمن باع الدُّرَّ الثمين، أو الجواهر واللآلىء، بالحصى والخزف، أو ببعر الغنم والبقر، فما ربحوا في تلك التجارة، بل خسروا أبلغ الخسارة، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ الله ثَمَناً قَلِيلاً، فَصَدُّوْا عَنْ سَبِيلِهِ، إنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ﴾. وزيادة في الإيضاح والبيان، أكَّد الباري جل وعلا إمعانهم في الغي والضلال، ونقضهم للعهود والمواثيق، فهم لا يعرفون لمؤمنٍ حرمة، ولا يقيمون لعهدٍ قطعوه على أنفسهم وزناً، فحسبهم أنهم فَسَقةٌ فجرة، كفروا بالرحمن، وأطاعوا الشيطان، فزَيَّن

لهم سوء أعمالهم، وليس بعد الكفر ذنب، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿لَا يَرْقُبُوْنَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلَا ذِمَّةً، وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُعْتَدُوْنَ﴾ أي لا يراعون في قتل مؤمنٍ ـ لو قدروا عليه ـ عهداً ولا ذمة، ولو تمكنوا من المؤمن لم يُبقوا ولم يَذَروا، وهم المعتدون، المجاوزون الحد في البغي والعدوان.

«دعوة المشركين للتوبة والإنابة»

ومع هذا نجد الرحمة الإلٓهية، تفسح أمامهم الطريق للتوبة والإنابة، وتجعلهم إخوة للمؤمنين إن كفُّوا عن الظلم والعدوان، ورجعوا إلى حمى الرحمن ﴿فَإِنْ تَابُوْا وَأَقَامُوْا الصَّلَاةَ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ، فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ﴾ أمَّا إن استمروا في الكفر والضلال، فلن يُجْدِيَ معهم إلاَّ الطعنُ والقتالُ، حتى تُسْتأصلَ شأفةُ الكفر، وتُحصد رؤوسُ الفتنة والطغيان ﴿وَإِنْ نَكَثُوْا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوْا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوْا أَئِمَّةَ الكُفْرِ﴾ أي قاتلوا رؤساء وصناديد الكفر ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾ وهذا كالتعليل للأمر بقتالهم أي كي يكفوا عن الإجرام، وينتهوا عن الطعن في دين الإسلام، وكأن الآية تقول: ليكن الغرضُ من قتالهم، كفُّهم عن الشرور والآثام، لا إيصال الأذى لهم، كما هو شأن المفسدين، فشأنُ المؤمن دفع الظلم والفساد، لا تدمير وتخريب البلاد.

«حث المؤمنين على محاربة الكفار»

ومن أجل أن تكون الغاية نبيلة، والهدف سامياً، وهو إعزاز دين الله، ورفع منار الهدى، وإعلاء كلمة الله، جاءت الآيات تحث المؤمنين

على قتال هؤلاء الكفار، بأسلوب الإغراء والحثّ والتحريض، ﴿أَلَا تُقَاتِلُوْنَ قَوْمَاً نَكَثُوْا أَيْمَانَهُمْ، وَهَمُّوْا بِإِخْرَاجِ الرَّسُوْلِ، وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، أَتَخْشَوْنَهُمْ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ. قَاتِلُوْهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ، وَيَشْفِ صُدُوْرَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ. وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوْبِهِمْ وَيَتُوْبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

«الأسباب الأساسية لمحاربة المشركين»

فقد ذكرت الآيات البيِّنات ثلاثة أسباب رئيسية، تدعو إلى قتال أولئك المشركين، المخالفين لله ولرسوله:

أولاً: نقضهم العهود والمواثيق.

ثانياً: عزمهم على إخراج الرسول من مكة حين تآمروا عليه بدار الندوة.

ثالثاً: بدؤهم بالقتال يوم بدر، والبادي أظلم.

وقد رتَّب اللَّهُ على قتالهم خمس نتائج كثمرةٍ لجهاد المؤمنين وهي:

الأولى: ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ أي بالقتل، والأسر، وغنيمةِ أموالهم.

الثانية: ﴿ويُخْزِهِمْ﴾ أي يذلهم بالقهر في الدنيا، والهوان والخسران في الآخرة.

الثالثة: ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي يجعلكم غالبين عليهم، مسلَّطين على رقابهم.

الرابعة: ﴿وَيَشْفِ صُدُوْرَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ أي بإعزاز الدين واندحار الأعداء.

الخامسة: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي يُذهب ما بها من غيظ، وغمٍّ، وكرب، وقد حقَّق الله تعالى لأوليائه كلَّ هذه المواعيد، على أكمل الوجوه، فكان ذلك برهاناً ساطعاً على صدق الرسول عليه السلام، وجلال وكمال الإسلام.

«التحذير من موالاة أعداء الله»

وبعد أن أفاضت السورة في ذكر فضائح وقبائح المشركين، وأمرت بقتالهم والتبرىء من عهودهم، جاءت الآيات لتذكِّر المؤمنين، أن طريق الجنة إنما هو بالجهاد في سبيل الله، وبغض أعداء الله، وعدم محبتهم أو مصادقتهم أو موالاتهم، فإن مِنْ مستلزمات الإيمان بغضَ من يبغضه اللَّهُ، وحبَّ من يحبُّه اللَّهُ، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوْا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوْا مِنْكُمْ، وَلَمْ يَتَّخِذُوْا مِنْ دُوْنِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾ والوليجة هي البطانة يعني الحبيبُ الخالص، الذي يصادقه الإنسان ويُصافيه، ويفشي إليه سِرَّه، ويُعْلِمه أمرَه، مشتقَّةٌ من الولوج بمعنى الدخول، فكأنَّ كلاً منهما قد دخل في قلب صاحبه، واطَّلع على سريرته، لوجود الصفاء والمحبة بينهما.

ومعنى الآية: لا تحسبوا أيها المؤمنون أن تُتركوا على ما أنتم عليه، بدون اختبار ولا تمحيص، فإن من سنن الله اختبارَ العباد، ليتميز المؤمن المجاهد، من المنافق المعاند، وليظهر للناس أهل الصدق والوفاء، الذين جاهدوا لإعلاء كلمة الله، ولم يتخذوا من المشركين أنصاراً وأعواناً وأحباباً، من الذين يضادون رسول الله والمؤمنين، والغرض من الآية بيان أن الله تعالى لا يترك العباد دون تمحيص

وابتلاء، يظهر فيه الطيِّبُ من الخَبيث، ولهذا ختم الله الآية بقوله ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾ أي رقيب على أعمالكم، مطَّلع عليها، لا يخفى عليه شيء من الأمور.

«افتخار الكفار بعمارة المسجد الحرام»

ولقد كان من سفه المشركين، افتخارهم بأنهم سدنةُ البيت العتيق، وخُدَّامُ حرمه، وحُماةُ أمنه، واعتدادُهم ببعض المآثر، من الأعمال التي كانوا يفعلونها في الجاهلية، من سقايةٍ، ورفادةٍ، وإطعامٍ للحجيج، وفكٍّ للأسير، وغير ذلك من أعمال البِّر والفلاح، فجاءت السورة الكريمة، لتبين إن عمارة بيوت الله، إنما هي بالإيمان وطاعة الرحمن، والعمل الصالح الذي ينجي الإنسان من عذاب الله، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوْا مَسَاجِدَ اللَّهِ، شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ، وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُوْنَ. إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ، وآتَى الزَّكَاةَ، وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ، فَعَسَى أولَئِكَ أَنْ يَكُوْنُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ والمعنى لا يصح ولا يستقيم ولا يليق بالمشركين، أن يعمروا المسجد الحرام ولا غيره من المساجد، حال كونهم مقرِّين بالكفر، ناطقين به، حيث كانوا يقولون في طوافهم «لبيك لا شريك لك، إلاَّ شريكاً هو لك، تملكه وما مَلَك» فكيف يفخرون بعمارة بيوت الله، وهم يعلنون الكفر بالله؟

«سبب نزول الآيات الكريمة»

روي أن «العباس بن عبد المطلب» لما أسر يوم بدر ضمن من

أُسر، أقبل عليه المسلمون فعيروه بالكفر، وقطيعة الرحم، وأغلظ عليٌّ رضي الله عنه له القول، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا، ولا تذكرون محاسننا؟ فقال له علي: ألكم محاسن؟ فقال: نعم، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحاج، ونفك العاني - يعني الأسير - ونعينُ الضعيف، فنزلت الآية الكريمة ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوْا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِيْنَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ . .﴾ الآيات.

«صفات من يعمر بيوت الله»

وقد ذكر تعالى من صفات من يعمر بيوت الله حقيقةً خمسة أوصاف وهي:

١ ـ الإيمان بالله تعالى حقَّ الإيمان.

٢ ـ والتصديق بلقائه في الدار الآخرة.

٣ ـ وأداء الصلوات المفروضة.

٤ ـ ودفع الزكاة لمستحقيها.

٥ ـ والخشية من الله تعالى، فذلك حقيقة الإيمان، وإلى ذلك يشير قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ، وَآتَى الزَّكَاةَ، وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ، فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُوْنُوْا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ وهذه شهادة من الله جل وعلا لعمَّار بيوته بالإيمان، والفوز بالسعادة في الجنان، كما شهد لهم بذلك أيضاً النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ﴿إذا رأيتُم الرجلَ يَعْتَادُ المسجدَ، فاشْهدوا لهُ بالإيمانِ﴾ فإن الله تعالى يقول «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ»[1] وفي الحديث عن أنس مرفوعاً يقول الله تعالى: «وعزتي

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم في المستدرك.

وجلالي، إني لأَهُمُّ بأهلِ الأرض عذاباً، فإذا نظرتُ إلى عُمَّار بيوتي، وإلى المتحابِّين فيَّ، وإلى المستغفرين بالأسحار، صرفتُ ذلك عنهم»[1].

«حقيقة العمارة لبيوت الله»

وزيادة في الإيضاح والبيان، فقد جاءت الآيات تؤكد حقيقة العمارة لبيوت الله، وأنها ليست بالبناء والترميم، وليست بالخدمة وسقاية الحجيج، فإن الأعمال الصالحة إذا لم تُبن على أساسٍ متين، من العقيدة الصافية، والإيمان الراسخ، فإنها تضمحل وتتلاشى، وتكون خسراناً ودماراً يوم القيامة، لأنها بنيت على غير أساس، وفي ذلك يقول القرآن الكريم، مخاطباً المشركين بأسلوب الإنكار والتوبيخ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَام، كَمَنْ آمَنَ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ لَا يَسْتَوُوْنَ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِيْنَ﴾. قال ابنِ عباس في تفسير هذه الآية: نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أُسر ببدر، فقال: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام، والهجرة، والجهاد، فلقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني، فأنزل الله الآية ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ. .﴾[2] الآية.

«ما هي أفضلُ الأعمال؟»

وروي أن نفراً من الصحابة، جلسوا عند منبر رسول الله،

(١) ذكره الحافظ ابن كثير من رواية الحافظ بن عساكر عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً، وهو حديث غريب.

(٢) هذه رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس، كما ذكرها ابن كثير في تفسيره ٢/١٣١ من المختصر.

يتحدثون عن أفضل الأعمال، فقال رجل منهم: لا أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلّا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارةُ المسجد الحرام أفضل، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم، فزجرهم عمر بن الخطاب وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ـ وذلك يوم الجمعة ـ ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيه فيما اختلفتم فيه، ففعل فأنزل الله الآية[1].

ثم تتابعت الآيات تشيد بمنزلة أهل الهجرة والجهاد فقال تقدست أسماؤه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

«الحبُّ في الله أوثقُ عُرى الإيمان»

وبعد أن ذكر الباري جل وعلا قبائح المشركين، وأثنى على المؤمنين المهاجرين، الذين هجروا الديار والأوطان، حباً في الله ورسوله، حذَّر في هذه الآيات البيِّناتِ المؤمنين من موالاة أعداء الدين، وذكر أن الانقطاع عن الآباء والأبناء والأقرباء بسبب الكفر، هو من مستلزمات العقيدة والإيمان، فليس بمؤمن من صافى أو صادق أعداء الله، حتى ولو كانوا من الآباء والأبناء، وفي ذلك يقول ربنا تقدَّست أسماؤه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا لَا تَتَّخِذُوْا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ، إِنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ﴾ والمعنى: لا تتخذوا

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود وابن حبان وأصله في صحيح مسلم.

يا معشر المؤمنين آباءكم وإخوانكم الكافرين، أنصاراً وأعواناً تودونهم وتصادقونهم وتحبونهم، إن فضَّلوا الكُفرَ واختاروه على الإيمان، وأصروا عليه إصراراً، ومن يصادقهم منكم فقد اعتدى حدود الله وظلم نفسه، لأنه عرَّضها لعذاب الله، قال ابن عباس في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ﴾ يريد إنه يكون مشركاً مثلهم، لأن الرِّضَى بالشرك شركٌ.

«سبب نزول الآية الكريمة»

روي في سبب نزول هذه الآية، أن النبي ﷺ لما أمر بالهجرة إلى المدينة المنورة، أخبر أصحابه وأمرهم بالاستعداد للهجرة، فجعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته: لقد أُمرنا بالهجرة وترك الأوطان، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من تتعلق به زوجتُه وولده وعياله فيقولون له: ننشدك الله ألاَّ تَدَعنا إلى غير شيء فنضيع؟! فيرقُّ لهم، ويجلس معهم، ويَدَع الهجرة، فنزلت الآية تحذرهم من ذلك، وتأمرهم بالهجرة إعزازاً لدين الله(١).

«الإيمانُ أغلى من الأولاد والأوطان»

ثم تلتها الآيات تُنذر وتتوعد، من آثر أهله، وقرابته، وعشيرته، على الله ورسوله، أو الجهادِ في سبيله، فليس شيء في هذه الدنيا مهما سما وغلا، يعادل حب الرحمن وعقيدة الإيمان، فالزوجة، والولدُ، والوطنُ، والتجارة، وسائر ما يحرص عليه الإنسان، كلها تهون أمام رضى الله وطاعته، والهجرة في سبيله، ولهذا قال تقدست أسماؤه محذِّراً ومنذراً ﴿قُلْ إنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ، وَأَبْنَاؤُكُمْ، وَإخْوَانُكُمْ، وَأَزْوَاجُكُمْ،

---

(١) انظر كتاب «أسباب النزول» للإمام الواحدي ص ١٤٠ وجامع الأحكام للقرطبي.

وَعَشِيرَتُكُمْ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا، أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُوْلِهِ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ، فَتَرَبَّصُوْا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ أَفرأيتم كيف يكون الوعيد الذي ترتعد له الفرائص؟ وينخلع له قلب المؤمن فزعاً وهَولاً، وهو يسمع آيات الرحمن، تنذر وتتوعد كلَّ من آثر الدنيا وما فيها من زخرف ومتاع، على الإيمان بالله والجهاد في سبيله؟.

«الترتيب في غاية الحسن والتناسق»

وقد جاء الترتيب في الآية الكريمة في غاية الحُسن والتناسق، فقد ذكر تعالى الآباء والأبناء، ثم الإخوان والأزواج، ثم العشيرة والأموال، ثم التجارة والأوطان، وكل هذه من زهرات الحياة الدنيا ونعيمها العاجل، والإنسان يفضِّل الأبناء والأولاد على الأموال والأوطان، بل إنه ينفق ما يملك، لينقذ ولده من خطرٍ داهم أو مرضٍ قاتل، فلذلك قدَّم الله في الآية ذكر الأبناء والآباء والإخوان والعشيرة، على ذكر الأموال والتجارة والأوطان، وختم الآية بذلك الإنذار والوعيد ﴿فَتَرَبَّصُوْا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِيْنَ﴾.

«طريق العِزَة والنصرة»

وبعد هذا البيان الساطع القاطع، في وجوب إيثار رضى الله على كل شيء في هذه الحياة، ومحبة رسوله، والهجرة والجهاد في سبيله، جاءت الآيات لتوضيح طريق العزة والنُّصرة، فلقد نصر الله المؤمنين، في أكثر الغزوات والمعارك، مع قلة عددهم، وضآلة عتادهم، وذلك كبرهان على تأييد الله لأوليائه وأصفيائه، وخذلانٍ لأعدائه، طالما أن

المؤمنين معتمدون على الله، واثقون بصدق وعده، أما إذا اغتروا بكثرتهم، وخُدعوا بما لديهم من سلاح وعتاد، فلن يكون أمامهم إلاّ الخيبةُ والانكسار، فليس النصر بالكثرة ولا بالوفرة، ولكنه بالإيمان والالتجاء إلى حمى الرحمن، وفي ذلك يقول المولى تقدست أسماؤه ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئَاً، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدبرينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُوْلِهِ وَعَلَى المُؤْمِنِيْنَ، وَأَنْزَلَ جُنُودَاً لَمْ تَرَوْهَا، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِيْنَ﴾.

«اغترار المسلمين بكثرتهم في حنين»

روي أن المسلمين كانوا في «غزوة حنين» عدداً كبيراً، يزيد على اثني عشر ألف مقاتل، وكان عدد الأعداء لا يزيد على أربعة آلاف، فدخل إلى بعضهم الزهو والغرور، وقالوا لن نغلب اليوم من قلة، فأراهم الله الهزيمة بأُمّ أعينهم، حتى ولَّوْا الأدبار منهزمين، ولم يثبت منهم في المعركة إلاّ قليل، وهذا معنى قوله تعالى ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئَاً﴾ قال الإمام الطبري في تفسير الآية: يخبرهم تبارك وتعالى أن النصر بيده، ومن عنده، وأنه ليس بكثرة العدد، وأنه ينصر القليل على الكثير إذا شاء، ويخلّي القليل فيهزم الكثير، قيل للبراء بن عازب: أفررتم عن رسول الله يوم حنين؟ فقال البراء: أشهد أن رسول الله ﷺ لم يفرّ، ولقد رأيته على بغلته البيضاء ـ وأبو سفيان آخذ بلجامها ـ فلما غشيه المشركون نزل عنها وجَعَل يقول:

أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ ... أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ

ثم أخذ قبضةً من تراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال:

شاهت الوجوه، ففرُّوا فما بقي أحد إلاَّ ويمسح القذى عن عينيه»[1] وقال البراء: «كنا والله إذا حمي البأس نتقي برسول الله عليه الصلاة والسلام، وما كان أحد أقرب إلى العدو منه، وإن الشجاع منا الذي يحاذيه»[2].

وهكذا كانت غزوة حنين درساً بليغاً للمؤمنين، وبعد الانكسار جاء الفتح والانتصار، وأعاد الله الكَرَّة لجنده وأوليائه، ونَصَرهم على القوم الكافرين.

«نجاسةُ المشركين هل هي عينيّةٌ أم معنوية»؟

لا تزال الآيات تتحدث عن شنائع وقبائح المشركين، وعن الأسباب التي دعت إلى البراءة منهم، وقطع العلاقات معهم، فقد جمعوا بين الكفر، ونقض العهود، واستحلال دماء المسلمين وأموالهم، واتفاقهم مع اليهود على حرب الإسلام والمسلمين، ولهذه الأسباب وغيرها، جاءت الآيات الكريمة تأمر بمقاطعتهم، ونبذ عهودهم، وعدم تمكينهم من الحج أو العمرة، ومنعهم من دخول بيوت الله، لأنهم بمنزلة الشيء النجس، الذي ينبغي أن تُنزَّه عنه الأماكن المقدسة، وفي ذلك يقول الله تقدست أسماؤه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُوْنَ نَجَسٌ، فَلَا يَقْرَبُوْا الْمَسْجِدَ الْحَرَامِ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ومعنى أن المشركين نجس، نجاسة عقائدهم وأفعالهم وأخلاقهم، فهم كالشيء المستقذر النَّجِس، الذي ينبغي أن يتجنبه الإنسان، فالمراد بقوله: «نَجَسٌ» أي قذر لخبث باطنهم، وعدم تطهرهم من الجنابة، وشربهم الخمور، وارتكابهم الفجور، وأمثال ذلك، وروي عن ابن عباس أنه قال: أعيانهم نَجِسةٌ كالكلاب والخنازير، فحمل الآية

(١) انظر جامع البيان للإمام الطبري ١٠/١٠٣ وأصل الحديث في الصحيحين.

(٢) صفوة التفاسير للصابوني ١/٥٢٩.

على ظاهرها، وكذلك قال الحسن البصري: إن ذواتِهم نجسة، ومن صافح مشركاً فليتوضأ، وجمهور المفسرين والعلماء على أن الآية واردة مورد التشبيه والتمثيل أي هم بمنزلة النَّجَس أو كالنجس، لخبث اعتقادهم، وكفرهم بالله، وشربهم الخمر، وأكلهم الخنزير، فجُعلوا كأنهم النجاسة لعينها مبالغة في التقبيح والذِّم، على حد قولهم: فلان أسدٌ أي كالأسد في الشجاعة والإقدام، وهذا القول هو الأظهرُ والأشْهر.

«ما المراد بالمسجد الحرام»

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَدْخُلُوْا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ المراد به منعهم من دخول الحرم كله، أطلقَ المسجد الحرامَ وقصدَ به مكة كلها شرَّفها الله، لأنها حرمُ الله الآمن، وفيها بيتُه العتيقُ، كما قال سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمَاً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾؟ وهذا مذهب عطاء، وبه أخذ الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، أن المشرِك لا يُسمح له بدخول مكة ولا بدخول الحرم، لأنها أماكن مقدَّسةٌ شرفها الله وطهَّرها من رجس الكفار.

وذهب مالك رحمه الله إلى أن المشرك لا يُمكَّن من دخول سائر المساجد، قياساً على المسجد الحرام في المنع من الدخول فيه، وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لعُمَّاله يقول لهم: امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين.

وذهب بعض الفقهاء إلى أن المراد منعُهُم عن «الحجِّ والعمرة» أي لا يحجوا ولا يعتمروا بعد عامهم هذا، وهو عام تسعٍ من الهجرة، ويؤيده أن النبي ﷺ بعث علياً صحبة أبي بكر، وأمره أن ينادي في المشركين «أن لا يحجَّ بعد هذا العامِ مشركٌ، ولا يطوف بالبيت عريان»[1]

(١) هذه الرواية مشهورة، ذكرها ابن أبي إسحق، وذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره ١٢٥/٢.

وهذا مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله.

«وسوسة الشيطان في قلوب بعض المسلمين»

ولمَّا كان منع المشركين من دخول مكة، ومن حج بيت الله العتيق، يوجب تضييقاً على المسلمين في أمر الرزق، فإن أهل مكة يعتمدون على موسم الحج، وقد كان المشركون يجلبون معهم الأطعمة والتجارات في المواسم، وألقى الشيطان في قلوب المسلمين الحزن، وأثار في صدورهم الوساوس، فقال لهم: من أين تأكلون؟ وكيف تعيشون وتكسبون وقد مُنعت عنكم الأرزاق والتجارة؟ فجاءت الآيات لتدفع عنهم تلك الظنون والأوهام، ولتنبههم أنهم إذا أطاعوا الله في تنفيذ أوامره، فسوف يفتح اللَّهُ عليهم أبواب الرزق، من حيث لا يحتسبون، وإلى ذلك أشار تعالى بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي إن خشيتم أيها المؤمنون من الفقر والحاجة، بسبب منعهم من دخول الحرم، فإن الله يغنيكم عنهم بطريق آخر، ويرزقكم من فضله وعطائه، وهو العليم بما يصلحكم، الحكيم فيما شرع لكم.

«الأمر بجهاد اليهود والنصارى»

وبعد هذا البيان المستفيض، في وجوب مقاطعة المشركين، ومعاداتهم، ومنعهم من دخول المشاعر المقدسة، أعقبتها الآيات تأمر بقتال «اليهود والنصارى» وهم العدوُّ الثاني للإسلام والمسلمين، وهم مثل المشركين كفار، لا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً، فلا بدَّ من تأديبهم، حتى ندفع ضررهم وخطرهم عن المسلمين، وتنكسر شوكتهم فيرضخوا لحكم الإسلام، ويدفعوا الجزية صاغرين مستسلمين، مقهورين بسلطان الإسلام وعزة المسلمين، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿قَاتِلُوْا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلَا

يُحَرِّمُوْنَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُوْلُهُ، وَلاَ يَدِيْنُوْنَ دِينَ الحَقِّ، مِنَ الَّذِينَ أُوْتُوْا الكِتَابَ، حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُوْنَ﴾.

«السبب في قتال أهل الكتاب»

ثم بيَّن تعالى السبب في قتالهم ومعاداتهم، ألا وهو مقالتهم الشنيعة، وفريتهم على الله، في نسبة الزوجة لله والولد، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وفي ذلك يقول تقدَّست أسماؤه ﴿وَقَالَتِ الْيَهُوْدُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْ قَبْلُ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُوْنَ﴾ أي ذلك القول الشنيع والافتراء والبهتان، هو مجرَّدُ دعوى باللسان، من غير حجةٍ ولا برهان، ومعنى قوله تعالى ﴿يُضَاهِئُوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي يماثلون ويشابهون بهذا الكذب والزور، قول المشركين قبلهم حين قالوا: الملائكة بناتُ الله، فقد التقت ضلالاتهم، وتشابهت قلوبهم، على الكفر بالله، ونسبةِ ما لا يليق به جلَّ وعلا ومعنى قوله ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُوْنَ﴾ دعاء عليهم بالهلاك أي أهلكهم الله كيف يصرفون عن الحق إلى الضلال بعد وضوح الدليل؟ ثم ذكر تعالى سبباً آخر يستدعي معاداتهم فقال جلَّ شأنه ﴿اتَّخَذُوْا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُوْنِ اللَّهِ، وَالمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَم، ومَا أُمِرُوْا إلاَّ لِيَعْبُدُوْا إِلَهاً وَاحِداً، لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾ ومعنى اتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً، أنهم أطاعوهم فيما أحلُّوا لهم وحرموا كما يُطاع الرب، وتركوا أمر الله، فكأنهم عبدوهم من دون الله، روي عن عدي بن حاتم قال: أتيتُ رسول الله ﷺ وفي عنقي صليبٌ من ذهب، فقال يا عدي: اطرح عنك هذا الوثن، قال وسمعته يقرأ سورة براءة ﴿اتَّخَذُوْا أَحْبَارَهُمْ

وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُوْنِ اللَّهِ﴾ فقلت يا رسول الله: لم يكونوا يعبدونهم، فقال عليه السلام: أليس يحرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه، ويحلون ما حرم الله فيستحلون؟ فقلت: بلى، قال: فذلك عبادتهم»[1]. ثم جمع الله المشركين واليهود والنصارى في سلك واحد في كيدهم للإسلام فقال ﴿يُرِيدُوْنَ أَنْ يُطْفِئُوا نُوْرَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ، وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُوْنَ. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُوْلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُوْنَ﴾.

وهؤلاء اليهود والنصارى، هم الذين غالوا غلواً شديداً في أمر الدين، فزعموا أن عزيراً ابنُ الله، وأن المسيح ابنُ الله، وقد ردَّت عليهم الآيات بالحجة الساطعة، والبرهان القاطع.

«تكالبهم على جمع حطام الدنيا»

ثم جاءت الآيات بعدها تصفهم بالسفه والضلال، وتصف رؤساءهم بالتكبر والتجبر، والطمع والجشع، والحرص على حطام الدنيا، والتكالب على أكل أموال الناس بالباطل، باسم الكهنوتِ والدين، فقد جعلوا الدين مطيَّةً لنيل الدنيا، وذلك منتهى الخسة والدناءة، والتلاعب بعقول الناس، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا إِنَّ كَثِيرَاً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ، وَيَصُدُّوْنَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ و«الأحبارُ» هم علماء اليهود، و«الرهبان» علماء النصارى، ثم عطف تعالى على هؤلاء الأشقياء، أربابَ الأموال، الذين كنزوا الذهب والفضة ولم يؤدوا زكاتها، وسلكهم

(١) ذكره الإمام الواحدي في أسباب النزول ص ١٤٠ والنيسابوري في تفسيره غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٠/ ٦٠.

في سلكهم في العذاب والنكال، فقال تقدَّست أسماؤه ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُوْنَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُوْنَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والبشارةُ بالعذاب ضربٌ من التهكم والسخرية، فإنهم إنما جمعوا الأموال، وكدَّسوا الثروات، من أجل راحتهم وسعادتهم، فكأنه تعالى يقول: بشِّرهم بالسعادة في لظى الجحيم، ثم زاد تعالى في الإيضاح والبيان فقال ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ، وَجُنُوْبُهُمْ، وَظُهُوْرُهُمْ، هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوْقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُوْنَ﴾.

«لماذا قرن بين الأحبار والكانزين للمال»؟

وإنما قرن تعالى بين «اليهود والنصارى» وبين الكانزين للمال، تغليظاً عليهم، وتنبيهاً على أن من يأخذ السحت من أهل الكتاب، ومن لا يعطي من المسلمين، من طيِّب ماله، سواءٌ في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم. وخصَّ تعالى الجباه، والجنوبَ، والظهورَ بالذكر، لأن البخيل يرى الفقير قادماً نحوه يسأله العون، فيقطِّب وجهه، ويعبس بجبهته، فإذا جاءه أعرض بجانبه، فإذا طالبه بإحسان ولَّاه ظهره، فيعاقب بالكوي بالنار في هذه الأطراف، تحقيراً له وإهانةً، وجزاءً له على صنيعه السيِّء، جزاءً وفاقاً.

«ما هو المال المكنوز؟»

والمالُ المكنوز هو الذي لم تؤدَّ زكاته، سواءً كان من الذهب، أو الفضة، أو الأموال النقدية والعملات المتداولة، فكلُّ ما ادُّخر ولم تؤد زكاتُه فهو كنز، ولو كان بين الأيدي غير مخبوء، وكلُّ ما أُدِّيت زكاته فهو غير كنز، ولو كان مدفوناً تحت الأرض، ويدل عليه ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجلٍ لا يؤدِّي زكاة ماله، إلَّا جُعل له يوم القيامة صفائح من نار،

فيُكوى بها جنبُه، وجبهتُه، وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، ثم يرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار»[1].

«المال نعمةٌ أو نقمة وهو وسيلة لا غاية»

ويجدر بنا هنا أن ننبِّه إخواننا المسلمين، إلى أن المال نعمة، ولكنه قد ينقلب إلى نِقمة، إذا لم يعرف العبدُ فيه حقَّ الله وحقَّ المسكين، وضنَّ به فلم يؤدِ زكاة ماله، شكراً لله على نعمته، فإنه حينئذٍ يكون سبباً للشقاء والدمار، ويتمثل له ماله يوم القيامة، ثعباناً فظيعاً يلتف على عنقه كالطَّوق والقلادة، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ فيما رواه البخاري عنه حيث قال صلوات الله وسلامه عليه «من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته، مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع - أي ثُعباناً فظيعاً - له زبيبتان - أي نقطتان سوداوان من ضخامته - فيأخذ بلهـزميته - يعني شدقيه - ثم يقول: أنا مالُك، أنا كنزك، وتلا ﷺ قوله تعالى ﴿سَيُطَوَّقُوْنَ مَا بَخِلُوْا بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾.

والمالُ في الإسلام وسيلة وليس بغاية، وسيلةٌ إلى نيل رضى الله، بالإنفاق في سبيله، وعمل البرِّ والصالحات عملاً بقوله تعالى ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾. فمن أخذه من حِلِّه، وأنفقه في مَحَلِّه، فنعم هذا المال كما ورد في الأثر (نِعْمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجلِ الصَّالِح) ومن جعل المال غاية، فجمعه من حلالٍ وحرام، ولم يبال من أين اكتسب، ولا فيم أنفق، فبئس هذا المال الذي سيكون زاداً له إلى جهنم، كما قال ﷺ «والذي نفسي بيده لا يكسِبُ عبد مالاً حراماً فيبارك له فيه، ولا يتصدق منه فيتقبل الله منه، ولا يتركه خلفه إلا كان زاده إلى جهنم، إن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، ورواه أحمد وأبو داود والنسائي بأطول منه، وانظر الفتح الكبير ٣/١١٣.

الخبيث لا يمحو الخبيث، إنما يمحو الخبيثَ الطَّيِّبُ»[1].

«تبديلُ الشهور منكرٌ عظيم»

ثم عادت الآيات تذكر نوعاً آخر من قبائح أفعال اليهود والنصارى والمشركين، فقد تلاعبوا بالشهور والأعوام، حتى ضاعت معالم الشريعة، وتغيَّرت أوقات العبادات، بسبب ما قدموا وأخَّروا من الأيام والأعوام، حتى جاء الإسلام فأعادها إلى ما كانت عليه، يوم أن بدأ الله الخلق، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُوْرِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرَاً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ، فَلا تَظْلِمُوْا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ، وَقَاتِلُوا المُشْرِكِيْنَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُوْنَكُمْ كَافَّةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقِينَ﴾ وحين حجَّ رسول الله ﷺ حجة الوداع، كانت الأيام قد رجعت إلى ما كانت عليه، وصادف يومُ عرفة يومه الصحيح، فخطب النبي ﷺ في أصحابه فقال في خطبته «أَلَا إن الزمانَ قد استدار كهيئتِهِ، يوم خلق الله السموات والأرض، السَّنةُ اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُمٌ، ثلاثةٌ متواليات ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجبُ مضر الذي بين جمادى وشعبان»[2]. ولقد بلغ من سفه المشركين أن يستحلوا القتال في الأشهر الحرم ويستقرضوا حرمة شهرٍ لشهر غيره، فقد كانوا أهل حروب وغارات، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون، شقَّ عليهم ترك الحرب، فاستقرضوا حرمة شهر لشهر غيره، فربما أحلوا المحرم وحرموا صفر، وهذا ما يسمى بالنسيء، وهو

---

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه أحمد، والبيهقي، والحاكم، وانظر الفتح الكبير ١/٣٤١.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، ورواه أحمد في المسند، وانظر مختصر ابن كثير ٢/١٤٠.

تأخير شهر لشهر، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ، يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوْا يُحِلُّوْنَهُ عَامَاً وَيُحَرِّمُوْنَهُ عَامَاً لِيُوَاطِئُوْا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَيُحِلُّوْا مَا حَرَّمَ اللَّهُ، زُيِّنَ لَهُمْ سُوْءُ أَعْمَالِهِمْ، وَالله لَا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ﴾.

«دعوةُ المؤمنين إلى النفير العام»

وبعد أن ذكر تعالى قبائح المشركين، ونقضهم للعهود، وأمر بجهادهم وقتالهم، ليكف شرَّهم عن الإنسانية، جاءت الآيات بعدها تدعو المؤمنين إلى النفير العام، الذي به يعزُّ شأن الإسلام والمسلمين، وتبقى رايتهم مرفوعة، وكلمتهم مسموعة، ويبقى لهم العزُّ والتمكين في الأرض، لأن الجهاد في سبيل الله طريق العزة والسيادة، ولا عزَّة لأمة تركت الجهاد، وأخلدت إلى نعيم الدنيا، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾؟ والمعنى: ما لكم أيها المؤمنون إذا قيل لكم اخرجوا لجهاد أعداء الله، إعزازاً لدينه، تباطأتم وتثاقلتم، وملتم إلى الدنيا وشهواتها، وتركتم مشاقَّ السفر ومتاعبه؟ وهو استفهام للإنكار يراد به التقريع والتوبيخ، وفيه عتابٌ لمن تخلف عن غزوة تبوك، وترك الجهاد في سبيل الله، ثم قال تعالى محذِّراً ومُنذراً ﴿أَرَضِيْتُمْ بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ؟ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي هل رضيتم بنعيم الدنيا ومتاعها الفاني، بدل نعيم الآخرة وثوابها الخالد الباقي؟ فما التمتع بلذائذ الدنيا في جنب الآخرة، إلَّا شيء مستحقر قليلٌ لا قيمة له بالنسبة لنعيم الآخرة، ثم توعدهم تعالى على ترك الخروج والنفير فقال عز شأنه ﴿إِلَّا تَنْفِرُوْا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابَاً أَلِيمَاً، وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمَاً غَيْرَكُمْ، وَلَا تَضُرُّوْهُ شَيْئَاً، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

«الحديث عن غزوة تبوك»

روي أن النبي ﷺ لما رجع من الطائف، أقام بالمدينة أياماً، ثم أمر المؤمنين بالتجهز لجهاد الروم، وكان ذلك في السنة العاشرة من الهجرة، في وقت اشتداد الحر، وخلود الناس إلى الراحة والاستجمام، حين طابت الثمار، وكثرت الخضار، وتوفَّرت أسباب الرفاهية، فثقل ذلك على بعض المسلمين، لاسيما وأن الخروج كان في وقت الصيف، في شدة الحرِّ، وبُعْدِ المسافة، وقلَّة الزاد، وشدَّة الضيق، فكانت هذه الغزوة امتحاناً لإيمان الناس، وصبرهم على تحمل الشدائد والمكاره في سبيل الله، وهذه الغزوة اشتهرت بـ«غزوة تبوك» وهي أقسى الغزوات التي لاقاها المسلمون، حتى كانت تدعى «غزوة العُسرة» كما قال سبحانه ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوْهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوْبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾.

وقد روى الإمام الطبري عن عمر رضي الله عنه أنه قال: (خرجنا مع رسول الله إلى تبوك، في قيظٍ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظننا إن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر البعير فيعصر فَرْثَه ـ أي كرشه ـ فيشربه، فقال أبو بكر يا رسول الله: إن الله قد عوَّدك في الدعاء خيراً فادع لنا، قال تحبُّ ذلك؟ قال: نعم، فدعا ورفع يديه فلم يرجعهما حتى سكبت السماء، فشربوا وملأوا ما معهم، قال: فرجعنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر)[1].

وقد تخلف عن هذه الغزوة كثير من المنافقين، وبعض المهاجرين والأنصار، وأصحاب الأعذار، وقد نزل القرآن بالعتاب الشديد، والوعيد والتهديد، لأولئك المتخلفين الذين آثروا الراحة على التعب، فلم

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الحافظ ابن كثير ٢/١٧٥.

يخرجوا مع رسول الله، وتركوا معونته ونصرته، وفيهم يقول القرآن الكريم ﴿إِلَّا تَنْصُرُوْهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوْا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ، إِذْ يَقُوْلُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

«هجرة النبي إلى المدينة المنورة»

والآية تشير إلى حادثة الهجرة، حين هاجر عليه أفضل الصلاة والتسليم، من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ودخل غار ثور فاختفى فيه مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، وبقيا فيه ثلاثة أيام، حتى انقطع الطلب، وكان في ذلك من الآيات الباهرة، ما يدل دلالة واضحة، على حفظ الله لنبيه من كيد المشركين، وعصمته ونصرته له من أن تمتد إليه يدٌ بسوء، ومن أظهر الدلائل على ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال أبو بكر: «نظرتُ إلى أقدام المشركين ونحن في الغار، وهم على رؤوسنا، فقلتُ يا رسول الله: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال يا أَبَا بكر: ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟» وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ، إِذْ يَقُوْلُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

«الخروج للجهاد في المنشط والمكره»

ثم تتابعت الآيات تأمر المسلمين بالخروج للجهاد، في جميع الظروف والأحوال، في حال السعة وفي حال الضيق، في الصيف والشتاء، في الكثرة والقلة، وفي اليسر والعسر، لأن الجهاد رمز دعوة الإسلام، وذِروة سنامه، وما تركت أمة الجهاد في سبيل الله، إلَّا ذلَّتْ

وهانت، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوْا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ﴾.

والمعنى: اخرجوا لقتال الأعداء يا معشر المؤمنين، لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه، شيوخاً وشباباً، مشاة وركباناً، انفروا في جميع الأوقات والظروف والأحوال، في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وفي حال الشدة والرخاء، وجاهدوا أعداء الله بالأموال والأنفس، فإن ذلك خير لكم من التثاقل إلى الأرض، والركون إلى الدنيا، والخلود إلى متاعها التافه الحقير، وكذلك فهم الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم الآية، فسارعوا للجهاد في سبيل الله. روي عن صفوان بن عمرو قال: «كنت والياً على حمص، فلقيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه، من أهل دمشق، على رحالته يريد الغزو، فقلت يا عم: لقد أعذر الله إليك، فرفع حاجبيه وقال يا ابن أخي: إن الله استنفرنا خفافاً وثقالاً فقال ﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ ألَا إن من يحبه الله يبتليه»[1].

«بدء الحديث عن المنافقين»

سورة التوبة رفعت راية الجهاد، وأعلت منار الحق، وأعزَّت دين الله، وفضحت أعداء الله من اليهود والنصارى والمنافقين، حتى سمَّاها بعض الصحابة «الفاضحة» لأنها كشفت الستار، عن الأشرار الفجار، من أعداء الإسلام، فأظهرت خفايا نفوسهم، وبوجه خاص المنافقين منهم، فقد فضحتهم، وكشفت أسرارهم ومخازيهم، وعرَّتهم أمام أبصار المؤمنين، حتى لم تدع لهم ستراً، ولم تبق لهم أمراً، وقد كانوا قبل اليوم، مستورين بستار دعوى الإسلام، فلما دعا داع الجهاد إلى غزوة

(١) ذكرها النيسابوري في تفسيره غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٠/٩٣.

تبوك، وحثَّ الرسولُ المؤمنين على الجهاد، تخلَّف المنافقون، وأخذوا يثبطون العزائم، ثم جاءوا بعد ذلك يعتذرون عند الرسول بالمعاذير الواهية، ويحلفون أمامه الأيمان الكاذبة، ليهربوا من الغزو والجهاد، ولنستمع إلى الآيات البينات، وهي تكشف الستار عن هؤلاء المنافقين، حيث يقول تقدست أسماؤه ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوْكَ، ولَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ، وسَيَحْلِفُوْنَ باللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ، يُهْلِكُوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ﴾ ومعنى الآية الكريمة: لو كان هذا الغزو الذي دعوتَ إليه المنافقين، مغنماً قريباً سهل المنال، أو كان السفر قاصداً أي سفراً قريباً غير بعيد، لخرجوا معك يا محمد، لا حباً في القتال، بل طمعاً في الغنيمة، ولكن بعدت عليهم المسافة لبعد الطريق، ولذلك اعتذروا عن الخروج، لما في قلوبهم من الضلال والنفاق، وسيحلفون لكم معتذرين بأعذار كاذبة، قائلين: لو قدرنا على الخروج معكم لما تأخرنا، وهم كاذبون في هذا الكلام.

والآية ـ أخي المسلم ـ إخبارٌ عن أمرٍ غريب، أخبر الله عزّ وجلّ عنه قبل أن يحدث أي سيحلفون لك يا محمد عند رجوعك من غزوة تبوك، معتذرين بهذه الأيمان الكاذبة، يقولون لك: لو كان في استطاعتنا الخروج لما تأخرنا، وقد حصل كما أخبر القرآن، فكان ذلك من أوضح المعجزات الغيبيَّة، التي تنبىء عن صدق القرآن.

«عتاب للرسول عليه السلام بسبب المنافقين»

ولقد استأذن فريق من المنافقين رسول الله ﷺ قبل سفره إلى تبوك، فأذن لبعضهم ثقةً منه بصدقهم، فنزل القرآن معاتباً له على ذلك الإذن قبل التثبت، فإن المنافقين ديدنُهم الكذب، لا يكادون يصدقون

في أمر، وقد كان الأليق ألَّا يأذن لهم ليتبيَّن الصادق من الكاذب، وفي ذلك يقول اللَّهُ جلّ ثناؤه: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوْا وَتَعْلَمَ الكَاذِبِينَ﴾ والمعنى: سامحك الله يا محمد، لم أذنتَ لهؤلاء المنافقين، في التخلف عن الخروج معك بمجرد الاعتذار، وهلاَّ تركتهم حتى يظهر لك الصادق منهم في عذره من الفاجر الكاذب؟ قال مجاهد: نزلت في المنافقين، قال أناسٌ منهم: استأذِنُوا رسولَ الله، فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا أيضاً، فقد كانوا مصرين على عدم الخروج، سواء أذن لهم الرسول ﷺ أم لم يأذن، فأراد الله أن يكشف حالهم لنبيه عليه السلام.

«تلطُّفٌ في العتاب ظاهر»

ولننظر إلى هذا اللطف الإلّهي، في مخاطبة النبي عليه الصلاة والسلام، فقد بشَّره بالعفو قبل أن يُخبره بالذنب ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ ثم قال معاتباً ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوْا وَتَعْلَمَ الكَاذِبِينَ﴾ ومن هذه الآية يعرف الإنسان مكانة الرسول عند ربه، وعلوَّ منزلته، حيث قدَّم العفو على العتاب، إكراماً له، ولو بدأ الآية بقوله «لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ» لخيف عليه أن ينفلق فؤاده من شدة الحزن والكمد، ولهذا قال أحد علماء السلف: هل سمعتم بمعاتبة أحسن وألطف من هذا؟ ناداه بالعفو قبل المعاتبة(١)!!

«تعليم المسلمين الأدب مع رسول الله ﷺ»

وفي هذا تعليمٌ للأمة أن يتأدبوا في مخاطبة الرسول، وأن يعرفوا مكانته، وعلوَّ قدره عند ربه، فلا يقابلوه إلَّا بكل لطفٍ وإحسان، كما

(١) مختصر تفسير الحافظ ابن كثير ١٤٥/٢ للصابوني.

قال سبحانه مؤدباً ومرشداً ﴿لَا تَجْعَلُوْا دُعَاءَ الرَّسُوْلِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضَاً﴾ أي لا تنادوه ولا تخاطبوه كما يخاطب بعضكم بعضاً باسمه العلم، بل شرِّفوه وعظِّموه بذكر أرفع الألقاب، قال ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عن ذلك إعظاماً لنبيه، قال فقولوا: يا نبي الله، ويا رسول الله، وقال قتادة: أمر الله أن يُهاب نبيُّه، وأن يُبجَّل، وأن يُعظَّم وأن يُسوَّد(١).

«الاستئذان في ترك الخروج للجهاد من علامات النفاق»

ثم بعد أن بيَّن تعالى في الآيات بعدها، أن ترك الخروج للجهاد، والتعلل بالمعاذير الواهية في شأن الاستئذان، لا يصدر من أصحاب الإيمان والصدق والوفاء، فالمؤمن يهرع لتلبية النداء، وأداء الواجب المقدس في الجهاد، لإعلاء كلمة الله، ولا يتأخر أو يتلكأ، إنما الذي يتهرب ضعيفُ الإيمان، ولهذا جعل تعالى الاستئذان من علامات النفاق، كما قال سبحانه ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُوْنَ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوْا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ. إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَارْتَابَتْ قُلُوْبُهُمْ، فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُوْنَ﴾.

«عدم خروجَ المنافقين فيه مصلحة للمسلمين»

وإذا كان من شأن المنافقين، الهرب من ميدان الحرب، لما في قلوبهم من المرض مرض العقيدة والنفاق فقد أوضح الباري جلَّ وعلا، أنهم لو كانوا صادقين في الخروج مع الرسول للجهاد، لاستعدوا

---

(١) تفسير الحافظ ابن كثير ٢/٦٤١ من المختصر، ومعنى «يُسوَّد» أي يذكر بلفظ السِّيادة، فهو صلوات الله عليه سيد ولد آدم، كما صحَّ بذلك الحديث الشريف.

الاستعداد الكامل له بالسلاح والعتاد والزاد، ولكنهم لخبثهم كانوا يتظاهرون بالرغبة في الخروج، لولا الأعذار القاهرة، وهم كاذبون في هذا الادعاء، وقد فضحهم تعالى وبيَّن للمؤمنين أن تخلفهم عن الخروج، كان فيه أعظم النفع والمصلحة، لئلا يكونوا عيوناً للكافرين على المسلمين، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿وَلَوْ أَرَادُوْا الخُرُوْجَ لأَعَدُّوْا لَهُ عُدَّةً، وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوْا مَعَ القَاعِدِينَ. لَوْ خَرَجُوْا فِيكُمْ مَا زَادُوْكُمْ إلاَّ خَبَالاً - أي لو خرجوا معكم ما زادوكم إلاَّ شراً وفساداً - ولأَوْضَعُوْا خِلاَلَكُمْ يَبْغُوْنَكُمُ الفِتْنَةَ وفِيكُمْ سَمَّاعُوْنَ لَهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْظَّالِمِيْنَ﴾ أي ولأسرعوا بينكم بالدسائس والمشي بالنميمة والإفساد، وفيكم يا معشر المؤمنين من يسمع لهم ويصغي إليهم، فكان من حكمة الله أن صرفهم عنكم فلم يخرجوا معكم، فلا تأسفوا لتخلفهم فإن الله عالم بظواهرهم وبواطنهم، وهو عليم بالظالمين.

«الفتنةُ تركهم الجهاد في سبيل الله»

وتتابعُ السورة تخبرنا في آياتها البينات، عن أحوال المنافقين الذين تحدَّثت عنهم السورة الكريمة بإسهاب، وبشكل مكشوف فاضح، فضح الله بها أحوالهم، حتى سميت سورة الفاضحة، قال ابن عباس: «ما زال ينزل في المنافقين «ومنهم» و«منهم» حتى ظنَّنا أن لن تُبقي أحداً منهم» فلقد ذكر تعالى في الآيات السابقة تباطؤهم عن الخروج للجهاد، وأنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما زادوا الجيش إلاَّ ضعفاً واندحاراً، بتفريق الجماعة، وتشتيت الكلمة، ولما في قلوبهم من الشحناء والبغضاء لدين الإسلام، فهم يحزنون إذا انتصر المسلمون،

ويفرحون إذا انهزموا أو أصابتهم كارثة، وفي ذلك يقول جلَّ ثناؤه وتقدست أسماؤه ﴿ومِنْهُمْ مَنْ يَقُوْلُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي، أَلاَ فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوْا، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ. إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُوْلُوْا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُوْنَ. قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا، هُوَ مَوْلاَنَا، وَعلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُوْنَ﴾.

قال المفسرون: نزلت الآية الأولى في «الجَدِّ بن قَيْسٍ» سيِّد بني سَلِمة، كان منافقاً يتظاهر بالإيمان، فلما أراد الرسول ﷺ الخروج لغزوة تبوك، قال له: يا أبا وهب، هل لكَ في جِلادِ بني الأصفر؟ - يعني الروم - فقال يا رسول الله: لقد عرف قومي أنه لا رجلَ أشدُّ عُجْباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفر ألاَّ أصبر عنهن، فائذنْ لي ولا تفتنّي، وأُعينك بمالي، فأعرض عنه النبي ﷺ وقال قد أذنت لك، فأنزل الله ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُوْلُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي﴾ أي ائذن لي في القعود عن الجهاد ولا تفتني بالنساء، قال تعالى تشنيعاً عليه وتقبيحاً له ﴿أَلاَ فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوْا﴾ أي إنهم سقطوا في عين الفتنة فيما أرادوا الفرار منه، بل فيما هو أعظم، ألا وهي فتنة التخلف عن الجهاد، وفتنة النفاق والضلال، ثم ختم الآية بقوله ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِيْنَ﴾ أي لا مفر لهم منها، فإنها محيطة بالمنافقين إحاطة السوار بالمعصم، لا يخلصون من العذاب ولا ينجون، أما في الدنيا فبإفشاء الأسرار، وهتك الأستار، وفضيحتهم أمام الأبرار، وأما بالآخرة فلمآل حالهم إلى الدرك الأسفل من النار.

«حقد المنافقين على الإسلام والمسلمين»

ثم ذكر تعالى ما في قلوبهم من المرض الخبيث، والحقد

الدفين، على الإسلام والمسلمين فقال تباركت أسماؤه ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُوْلُوْا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي إن تصبك في بعض الغزوات حسنة، سواءً كانت انتصاراً أو غنيمة، يسؤهم ذلك لما في قلوبهم من البغضاء والحسد، وإن أصابتك مصيبة من نكبةٍ وشدة، أو هزيمة وكرب وبلاء، يفرحوا بذلك أشد الفرح، ويقولوا: قد احتطنا لأنفسنا، وأخذنا باليقظة والحذر، فلم نلق بأنفسنا إلى التهلكة، ولم نخرج للقتال من قبل ذلك، فنحن العقلاء وهم المغفلون، قال تعالى ﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُوْنَ﴾ أي ينصرفوا عنك يا محمد وهم فرحون مسرورون. قال تعالى مرشداً لنبيه والمؤمنين، إلى إجابتهم بالجواب القاطع المفحم ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا، هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ﴾ أي قل لهم: لن يصيبنا خير أو شر، ولا ظفر أو هزيمة، ولا رخاء أو بلاء، إلَّا بتقدير من المولى جل وعلا، ولن ينالنا إلَّا ما هو مقدَّر علينا، مكتوب لنا من الأزل في اللوح المحفوظ، فعلامَ تفرحون والمقدَّر لا بدَّ أن يكون؟ فإن انتصرنا فبمحض فضل الله، وإن انكسرنا فبتقديرٍ من الله مالك الملك.

«المؤمنون غانمون في جميع الأحوال»

وزيادة في البيان، وإخزاءً لأولياء الشيطان، جاءت السورة تأمر المؤمنين بإغاظة أعداء الله، ببيان أنهم غانمون في كلتا الحالتين: في النصر، أو في الهزيمة، لأن الله يكرمهم في الدنيا بالعزّ والسيادة والأجر العظيم، إن غَلَبوا الأعداء وانتصروا عليهم، وإن قُتلوا يكرمهم بالشهادة في سبيله بدخول الجنان في دار الخلد والنعيم ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُوْنَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ، وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ

بِأَيْدِينَا، فَتَرَبَّصُوْا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُوْنَ﴾ والمعنى: قل لهم هل تنتظرون بنا يا معشر المنافقين، إلا إحدى العاقبتين الحميدتين: إما النصر، وإما الشهادة في سبيل الله؟ وكل واحدة منهما مقام رفيع، ففي الأولى إحراز الغنيمة والظفر بالأعداء، وفي الثانية إبقاء الذكر الحسن والفوز بنعيم الآخرة السرمدي، ونحن ننتظر لكم أسوأ العاقبتين الوخيمتين: أن يهلككم الله بعذابٍ من عنده، يستأصل به شأفتكم، أو يقتلكم ويهلككم بأيدينا في معركة من المعارك، ثم قال سبحانه ﴿فَتَرَبَّصُوْا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُوْنَ﴾ أي انتظروا ما يحلُّ بنا، ونحن ننتظر ما يحل بكم، وهو أمرٌ يتضمن الوعيد والتهديد، وفيه ضرب من السخرية كقوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيْزُ الكَرِيمُ﴾.

«الإيمان أصلٌ لقبول الأعمال الصالحة»

ثم تتابعت الآيات تذكر لأولئك المنافقين، المتربصين بالمؤمنين الدوائر، أنهم بنفاقهم ضيَّعوا أثمن شيء، ألا وهو الإيمان الذي يرتكز عليه صالح العمل، فإن الأعمال لا تُقْبل عند الله إلَّا إذا اعتمدت على دعامة الإيمان، وهم قد دمَّروا إيمانهم فضيَّعوا عملهم، فمهما أنفقوا من خير فلن يُقبل منهم، ومهما أحسنوا عملهم فهو ذاهب أدراج الرياح ﴿قُلْ أَنْفِقُوْا طَوْعَاً أَوْ كَرْهَاً، لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ، إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ أي أنفقوا طائعين أو كارهين، فمهما أنفقتم الأموال، وبذلتم في طرق الإحسان، فلن يتقبل الله منكم، لأنكم فسقة فجرة، خارجون عن طاعة الله، ثم بين تعالى السبب وعلَّل الحكم بأوضح بيان وأعظم برهان فقال ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوْا بِاللَّهِ وَبِرَسُوْلِهِ، وَلَا يَأْتُوْنَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى، وَلَا يُنْفِقُوْنَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُوْنَ﴾ وتلك هي

سيما المنافقين: العصيان لأوامر الرحمن، والتثاقل عن الصلاة، وعدم الإنفاق إلَّا عن كراهية وجبر، لأنهم يعدُّونها مغرماً لا مغنماً، فهم لا يرجون لها ثواباً، ولا يخافون لها عقاباً.

«انخداعهم بالأموال والبنين وهي سبب عذابهم»

وهذه السورة الكريمة من أشدِّ ما نزل في المنافقين، إذ تناولت بالتفصيل أخبارهم، وكشفت أسرارهم، وظلَّت تقذفهم بالحُمم، حتى لم تُبق منهم دياراً، لأنهم جمعوا مع الكفر أسلوب المكر والخداع، وبئس هذا الثوب ملبساً لأهل النفاق والرياء، وفيهم يقول الله جل وعلا محذِّراً من الاغترار بما هم عليه من الأموال والأولاد ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُوْنَ﴾ والمعنى: لا تستحسن أيها السامع ولا تفتتن، بما أُوتوا من زينة الدنيا وبهرجها الخادع، فإنما هو عَرَضٌ زائل، ولا تغتر بما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد، فظاهره نعمة وباطنه نقمة، إنما يريد الله بذلك استدراجهم ليعذبهم بها في الدنيا، ويموتوا كافرين، مشتغلين بالتمتع بزينة الدنيا، عن النَّظرِ في أمر العاقبة، فيشتد في الآخرة حسابهم وعذابهم.

وقد يقول قائل: كيف يُعذَّب المنافق والكافر بماله وولده؟ والمال والولد نعمة يفرح بها الإنسان، فكيف تكون سبباً لعذابه في الدنيا؟

والجواب: أن الأموال والأولاد، قد يكونان سبباً للتعذيب في الدنيا قبل الآخرة، وذلك أن كل ما كان حبُّ الإنسان للشيء أشدَّ، كان خوفه من فواته أكثر، وحزنه على فقده أعظم، فصاحب المال أبداً في

قلق واضطراب، فهو إما في خوف فوات المال، وإما في حزن فقده، وإما في تعب جمعه وحفظه وتثميره.. ثم إنه إن بقي المال عنده إلى آخر عمره، فعند الموت يعظم أسفه على مفارقته، وتعظم حسرته، وكان كمن ينتقل من بستانٍ ونعيم، إلى سجنٍ وجحيم، وعند الحشر يكون حلاله حساباً، وحرامه عذاباً، فهذا هو وجه العذاب في الدنيا بالأموال والأولاد!!

«الأسلحة الفتاكة نوع من أنواع العذاب والدمار»

وثَمَّةَ وجه آخر للعذاب الدنيوي، وهو ما كشفته لنا «حضارة القرن العشرين»، إذ يتسابق الشرق والغرب، للتسلح بأحدث الأسلحة الجهنمية الفتّاكة، التي تفتقت عنها عبقرية إبليس، فمن دبابات، ومدافع، وصواريخ، وطائرات حربية، وقنابل ذرية، وهيدروجينية، وغير ذلك من أنواع الدمار للبشرية، ينفقون فيها الأموال، ويخسرون الرجال، أفليس هذا من أعظم العذاب والبلاء، الذي يعيشه هؤلاء الكفار؟ ولو بحثنا عن ميزانية الدول، لوجدنا أن ما يقرب من خُمس الميزانية في كل دولة تذهب إلى التسلح، لعملِ الأدواتِ الجهنمية، وصنع الأسلحة الفتاكة، التي يقتل بها الإنسان أخاه الإنسان، أفليس هذا من العذاب لهم في الدنيا؟ وصدق الله ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُوْنَ﴾.

«الأيمان الكاذبة شعار المنافقين»

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن لونٍ آخر من ألوان القبائح والجرائم، التي تميَّز بها المنافقون، فقد اتخذوا الأيمان الكاذبة درعاً لهم، يَتَّقون بها غضب المؤمنين، وجعلوا التلوُّن والتذبذب شعاراً لهم

ودثاراً، فإذا رأوا المؤمنين، حلفوا لهم أغلظ الأيمان أنهم معهم ومنهم، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، وفيهم يقول تقدست أسماؤه ﴿وَيَحْلِفُوْنَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُوْنَ﴾ أي ولكنهم قوم جبناء، يخافون أن تقتلوهم، إن أظهروا لكم دخيلة نفوسهم، لذلك يُظهرون الإسلام تقيَّةً، ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة.. ثم زاد تعالى في بيان خَوَرهم وجبنهم، مؤكداً نفاقهم وضلالهم فقال ﴿لَوْ يَجِدُوْنَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ، أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُوْنَ﴾ و «المغاراتُ» جمع مغارة، وهي الموضع الذي يغور الإنسان فيه أي يستتر، و «المُدَّخل» بالتشديد المَسْلكُ الذي يدخل فيه الإنسان ولو ضيِّقاً ليسلم من الخطر، والمعنى: إنَّ هؤلاء المنافقين لو رأوا حصناً يلجأون فيه، أو سراديب يختفون فيها، أو مسلكاً ضيقاً يسلكونه في الكهوف والجبال، لانصرفوا نحوها، وأقبلوا يُسرعون لها إسراعاً كالفرس الجموح، من شدة بغضهم وتأذيهم من الرسول والمسلمين، فهم لو قدروا على الهروب منهم ولو في شر الأمكنة وأخسِّها لفعلوا، فلا تغتروا يا معشر المؤمنين بأيمانهم الكاذبة.

«عيبهم للرسول في قسمة الصدقات»

وتُتابع السورة سرد قبائح المنافقين، فتذكر اتهامهم الشنيع للرسول عليه الصلاة والسلام بعدم العدل في قسمة الغنائم، والطَّعْنُ في الرسول طعنٌ في الدين، ولهذا كان هذا الأمر خطيراً عند الله، ولذلك شدَّدَ فيه النكير ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ، فَإِنْ أُعْطُوْا مِنْهَا رَضُوْا، وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُوْنَ﴾ والمعنى: ومن المنافقين من يعيبك يا محمد في قسمة الصدقات، فإن أعطيتهم منها استحسنوا فعلك

وقسمتك، وإن لم تعطهم منها سخطوا عليك وعابوك.. قال المفسرون: «كان الرسول يقسم غنائم حنين، فجاء إليه رجل من المنافقين، يُقال له «ذو الخويصرة» فقال له: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل، فقال: ويلكَ إن لم أعدل فمنْ يعدل؟ ثم قال ﷺ: إنه يخرج من ضِئْضِىءِ هذا ـ أي من أصله ونسله ـ قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرميَّة، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنَّهم شرُّ قتلى تحت أديم السماء»[1] وفي رواية أن النبي ﷺ قال بعد أن سمع كلمة المنافق «رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فَصَبر».

«الرضى بقسمة الرسول أصلٌ في الإيمان»

ثم بيَّن تعالى حقيقة المسلم، وهو الذي يستسلم لحكم الله، ولحكم رسوله، ويرضى بما قسمه الله له فقال سبحانه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُوْلُهُ، وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللَّهُ، سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُوْلُهُ، إنَّا إلَى اللَّهِ رَاغِبُوْنَ﴾ فقد تضمنت هذه الآية أدباً عظيماً، وسراً شريفاً، حيث جعل الرضى بما قسمه الله ورسوله، والتوكل على الله وحده، والرغبة فيما عنده جل وعلا، هو الأساس في الإيمان واليقين، وجواب «لو» محذوف تقديره: لو فعلوا ذلك لكان خيراً لهم عند الله، وأبقى وأبرُّ، وترك الجواب في هذا المعرض أدلُّ على التعظيم والتهويل، ثم ختم تعالى الآيات ببيان المستحقين للصدقات فقال جل ثناؤه ﴿إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ، وَالمَسَاكِينِ، وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوْبُهُمْ، وَفِي الرِّقَابِ، وَالغَارِمِينَ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وابْنِ السَّبِيلِ، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ

(١) الحديث أخرجه الشيخان من رواية أبي سعيد الخدري، وانظر مختصر ابن كثير للصابوني ٢/١٤٩.

واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وإنما حصر مصرف الزكاة في تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين في أموال الصدقات.

«إيذاء المنافقين للنبي ﷺ»

أسلفنا فيما تقدم أن السورة الكريمة معظمها إنما نزل في المنافقين، وهم الصنف الدخيل على الإسلام والمسلمين، فهم «الطابور الخامس» في كل زمان وحين، يثيرون الفتن، ويفككون الصفَّ، ويثبطون العزائم عن الجهاد في سبيل الله، ويُأَجِّجون نار العداوة بين صفوف المسلمين، ولا ينفكُّون عن الأذى لعباد الله، حتى امتد أذاهم في الزمن الأول إلى صاحب الرسالة محمد بن عبدالله، صلوات الله وسلامه عليه، وفي هؤلاء المنافقين يقول تقدست أسماؤه ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُوْنَ النبيَّ، وَيَقُولُوْنَ هُوَ أُذُنٌ، قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ، يُؤْمِنُ باللَّهِ، وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوْا مِنْكُمْ، وَالَّذِينَ يُؤْذُوْنَ رَسُوْلَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال المفسرون: كان جماعة من المنافقين، يؤذون رسول الله بالكلام فيه والطعن في رسالته، فقال بعضهم لبعض: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ذلك، فيوقع بنا ما نكره، فقال لهم «الجلاَّس بن سويد» ـ وكان رأساً في المنافقين ـ نقول ما شئنا ثم نأتيه فنقول أمامه ما يرضيه، فيصدقنا بما نقول، فإنما محمد أُذُن ـ أي يُصدِّق كل ما يسمع ـ فأنزل الله هذه الآية ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُوْنَ النَّبيَّ وَيَقُوْلُوْنَ هُوَ أُذُنٌ﴾ قال الجوهري: يُقال رجل أُذُنٌ: إذا كان يسمع مقال كلِّ أحدٍ، ويقبل قول كلِّ أحدٍ، سُمِّي بالجارحة التي هي آلة السماع قال الشاعر:

قَدْ صِرْتَ أُذْنـاً للوُشَاةِ سَمِيعَـةً ... يَنَالُوْنَ مِنْ عِرْضِي وَلَوْ شِئْتَ مَا نَالُوا

(١) انظر غرائب القرآن للنيسابوري ١٠/١١٩ والمحرر الوجيز لابن عطية ٦/٥٤٧.

ومعنى الآية الكريمة: ومن المنافقين أُنَاسٌ يؤذون الرسول بأقوالهم وأفعالهم ويقولون: هو أُذُن أي يُصدِّق بكل خبرٍ يسمعه، ويقبل قول كل إنسان، وقصدوا بذلك ـ قاتلهم الله ـ مذمته عليه السلام، وأنه ليس ذا ذكاء ولا بعيدَ غور، بل هو سليمُ القلب، سريعُ الاغترار بكل ما يسمع، قال تعالى ردّاً عليهم ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ أي هو أذن خيرٍ لا أُذُن شرٍّ، يسمع الخير فيعملُ به، ويقبل معاذيركم، ويتغافل عن جهالاتكم ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِيْنَ﴾ أي يُصدِّق الله فيما يقول، ويُصدِّق المؤمنين فيما يخبرونه به، لعلمه بإخلاصهم ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي وهو رحمة للمؤمنين، وحجة على الكافرين، ثم قال ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُوْنَ رَسُوْلَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي والذين يعيبون رسول الله، ويقولون ما لا يليق بجنابه الشريف، لهم عذابٌ مؤلم موجع في الآخرة، وأَبْرزَ اسم «الرسول» ولم يأت به ضميراً ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُوْنَ رَسُوْلَ اللَّهِ﴾ ولم يقل: يؤذونه، تعظيماً لشأنه عليه السلام، وجمعاً له بين الرتبتين العظيمتين: «رتبةِ النبوة» و«رتبةِ الرِّسالة» وأضافه إليه زيادةً في التكريم والتشريف، فصلوات ربي وسلامُه على منْ شرَّفه ربُّه وعظَّمه.

«الحلف والكذب والسخرية والاستهزاء صفات المنافقين»

ثم تلتها الآيات الكريمة، تتحدث عن صورة أخرى من صور قبائح المنافقين، فلقد اتخذوا الكذب مطيَّةً، يركبونها كلَّما داهمهم الخطر، أو فضحهم سوء القول والعمل، فظهرت للناس دخائِلُهم، وكُشِفتْ أستارُهم، ولا يكتفون بالكذب المفضوح، بل يحلفون معه الأيمان المغلَّظة ليدفعوا عنهم العتاب، ويُرضوا بذلك الأصحاب، كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿يَحْلِفُوْنَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوْكُمْ، وَاللَّهُ وَرَسُوْلُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوْا مُؤْمِنِينَ. أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ، فَأَنَّ لَهُ

نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدَاً فِيهَا، ذَلِكَ الخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ والحلف بالله كذباً وزوراً، جريمةٌ أخرى تنضمُّ إلى جريمة احتراف الكذب والبهتان، لأن فيه استهانةً بعظمة الله وجلاله، وكأنه لا يبالي بعقاب الله وعذابه، أو لا يؤمن بلقاء الله، فلذلك يُقدم على الحلف بالله كاذباً، لأنه إذا هان عنده اسم الله، هان عليه الحلف بالله كاذباً، وهذا ضرب من الاستهزاء بالله وآياته، حذَّر منه القرآن الكريم، وعدَّ فاعله مجرماً كافراً فقال: ﴿يَحْذَرُ المُنَافِقُوْنَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُوْرَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوْبِهِمْ، قُلِ اسْتَهْزِءُوْا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُوْنَ. وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُوْلُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوْضُ وَنَلْعَبُ، قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُوْلِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُوْنَ. لَا تَعْتَذِرُوْا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ، إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ، نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوْا مُجْرِمِيْنَ﴾.

رُوي عن السُدِّي أنه قال: «اجتمع ناس من المنافقين، فيهم «جَلَّاسُ بنُ سُويدٍ» و«وَدِيعَةُ بنُ ثَابتٍ» و«مَخْشيُّ بْنُ حُمَيْرٍ» وكانوا في طريقهم مع رسول الله ﷺ يسيرون، وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جِلَاد بني الأصفر ـ أي قتال الروم ـ كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأنَّا بأصحاب محمد مقرنين غداً بالحبال، قالوا ذلك إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فنزل الوحي على رسول الله بما قالوا، فقال الرسول الكريم لعمار بن ياسر: أدركْ القوم فإنَّهم قد احترقوا، فاسألهم عمَّا قالوا، فإن أنكروا فقل: بل قلتم كذا وكذا، فانطلق إليهم عمار فقال لهم ذلك، فأتوا رسول الله يعتذرون إليه، ويقولون: إنما كنا نخوض ونلعب، فنزلت الآية(١).

وروي عن قتادة قال: «بينما النبي في غزوة تبوك، وركبٌ في

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره من رواية ابن إسحاق.

المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا - يعنون محمداً ﷺ - أنه يفتح قصور الروم وحصونها؟ هيهاتَ، هيهات، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فقال: عليَّ بهؤلاء النفر، فدعاهم فقال: قلتم كذا وكذا، فحلفوا ما كنا إلاَّ نخوض ونلعب، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُوْلُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوْضُ وَنَلْعَبُ، قُلْ أَبِاللَّهِ، وآيَاتِهِ، وَرَسُوْلِهِ، كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُوْنَ؟ لَا تَعْتَذِرُوْا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوْا مُجْرِمِيْنَ﴾ ففضحهم الله على رؤوس الأشهاد.

وفي بعض الروايات أن رجلاً من المنافقين قال في غزوة تبوك: ما رأيتُ مثل هؤلاء القراء، أرغب بطوناً - أي أوسع بطوناً - ولا أكذب أَلْسُناً، ولا أجبن عند اللقاء من هؤلاء القوم، - يعني رسول الله وأصحابه - فقال واحدٌ من المؤمنين، كذبتَ يا عَدُوَّ الله وأنت منافق، ثم ذهب ليخبر رسول الله ﷺ بما قاله، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى الرسول ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال يا رسول الله: إنا كنا نلعب ونتحدث بحديث الركب، نقطع به عنا الطريق..» قال ابن عمر: ورأيت عبدالله بن أُبيّ يشتدُّ قدَّام رسول الله والحجارة تنكبه وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، والنبي ﷺ يقول: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟ ما يلتفت إليه ولا يزيد عليه». بمثل هذا الضلال والبهتان كان المنافقون يهزؤون ويسخرون، فلا عجب أن تنـزل فيهم تلك القوارع والزواجر!!

«من أخلاق المنافقين الشنيعة»

وتمضي السورةُ الكريمة تتحدث عن المنافقين، الذين هم شرُّ

الخليقة عند الله عز وجل، لأنهم جمعوا مع الكفر، فنون المكر والكذب والدهاء، فظاهرهم نور، وباطنهم فجور، وهم يتستَّرون بالإسلام تستراً، لا عن إيمان واعتقاد، بل عن مكرٍ وخديعة، وهم كما قال الشاعر:

يُعْطِيكَ مِنْ طَرفِ اللِّسَانِ حَلاَوَةً   وَيَرُوْغُ فِيكَ كَما يَرُوْغُ الثَّعْلَبُ

ولما كان خطرهم عظيماً، وضررُهم جسيماً، فقد أسهب القرآن الكريم في ذكر مثالبهم، وتعداد قبائحهم، ليحذر الناس شرهم وأذاهم، وليجتنبوا ما هم عليه من النفاق والفجور، ولشدَّ ما يعجب المرء من أحوال هؤلاء المنافقين، فإنهم على نقيض طريق المؤمنين تماماً، مفسدون، كاذبون، فاسقون، يدعون إلى القبيح، ويمنعون من فعل كل خيرٍ ومعروف، ويبخلون بالإنفاق في سبيل الله، ضناً منهم بالمال، أن يصرفوه في غير الأهواء والشهوات، وفيهم يقول القرآن الكريم ﴿وَالْمُنَافِقُوْنَ وَالْمُنَافِقَاتُ، بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، يَأْمُرُوْنَ بِالْمُنْكَرِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ المَعْرُوْفِ، وَيَقْبِضُوْنَ أَيْدِيَهُمْ، نَسُوْا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الفَاسِقُوْنَ﴾ صفاتٌ ثلاث من أقبح ما اتصف به المنافقون والمنافقات:

الأمر الأول: أمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف، على عكس صفات المؤمنين الأبرار، والمنكرُ: هو كل قبيح من الأقوال والأعمال، ينكره العقل، ولا يرتضيه الشرع، وأعظم ذلك وأشنعه تكذيبُ الله ورسوله، والاستهزاء بشعائر دين الله، والمعروف: هو كلُّ حسن عقلاً أو شرعاً، وأعظم ذلك الإخلاص في الإيمان، وإليه يشير قوله تعالى ﴿وَالْمُنَافِقُوْنَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، يَأْمُرُوْنَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المَعْرُوْفِ﴾.

الأمر الثاني: الشحُّ والبخل عن الإنفاق في سبيل الله، وتلك هي

سِمَةُ المنافقين، لأنهم لا يرجون لها ثواباً، ولا يهابون عقاباً، لعدم إيمانهم بالله، وإلى ذلك يشيرُ قوله تعالى ﴿وَيَقْبِضُوْنَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي يمسكون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، وقبضُ الأيدي كنايةٌ عن الشح والبخل، كما أن بسط الأيدي كناية عن الكرم والسخاء.

الأمر الثالث: خلاء قلوبهم من محبةِ الله وذكرِه، وطاعتِه وشكرِه، فهم قد غفلوا تماماً عن الله، ولم يعد له في نفوسهم تعظيم ولا تمجيد، وإذا استهان المرء بعظمة الله، هان عليه مخالفتُه وعصيانُ أمرِه، وسوَّلت له نفسه الأمَّارةُ بالسوء فعل الفجور والآثام، وإلى هذا يشير قوله تعالى ﴿نَسُوْا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي أغفلوا أمره، وتركوا ذِكره، فجازاهم بأن جعلهم بمنزلة الشيء المنسيِّ من رحمته وفضله، جزاءً وفاقاً، قال الحافظ ابن كثير في هذه الآية ﴿نَسُوْا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي نسوا ذكر الله تعالى، فعاملهم معاملة من نسيهم، كما قال تعالى في آية أخرى ﴿وَقِيلَ اليَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾[1] أي نترككم في عذاب الجحيم، مثل نسيانكم لقاء هذا اليوم العظيم، ونعاملكم معاملة من نسيهم فلم ينظر إليهم، ولم يُشفق عليهم، وهذا الجزاء من جنس العمل، وأما الله تعالى فلا يشذُّ عن علمه شيء، ولا ينساه، كما قال سبحانه ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

«مصيرهم المشئوم في الآخرة»

وبعد أن ذكر تعالى أحوالهم، ذكر مصيرهم ومآلهم، وما أعدَّه لهم من العذاب والنكال في دركات الجحيم فقال تقدست أسماؤه ﴿وَعَدَ اللَّهُ المُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ والكُفَّارَ، نَارَ جَهَنَّمَ، خَالِدِينَ فِيهَا، هِيَ حَسْبُهُمْ،

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/١٥٣.

وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ فقد سلك تعالى المنافقين مع الكفار في سلكٍ واحدٍ، لأنهم جميعاً يلتقون على حرب ومعاداة الإسلام، فكرتهم واحدة، وعقيدتهم واحدة، وهم يلتقون على هدفٍ واحدٍ، ألا وهو الكفر بآيات الله، والتكذيب لرسل الله، وإن اختلفوا في الأسماء والأشكال والصور، ومعنى قوله تعالى ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي نار جهنم هي كفايتهم في العقاب والعذاب، إذ ليس هناك عذابٌ يعادلُها ويوازيها، ومع ذلك فقد لعنهم الله أي أبعدهم من رحمته وأهانهم، ليكون العذاب مقروناً بالإهانة والطرد والحرمان.

«ضرب الأمثال للمنافقين بالطغاة السابقين»

ثم تتابعت السورة الكريمة، تضرب الأمثال لهؤلاء المنافقين، بمن سبقهم من الطغاة الفجرة المتمردين، الذين عصوا أمر الله، فدمَّرهم الله وأهلكهم، مع ما كان لهم من القوة في الأجسام، والبسطة في العيش، والكثرة في المال، ومع كل هذا فلم يفلتوا من عقاب الله، وفيهم يقول تقدست أسماؤه مذكِّراً ومنذراً ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوْا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً، وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً، فَاسْتَمْتَعُوْا بخلاقِهِمْ، فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بخلاقِهِمْ، وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوْا، أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُوْنَ﴾ ومعنى الآية الكريمة: حالكم يا معشر المنافقين كحال من سبقكم من المكذبين، وصفتكم كصفتهم، وقد كانوا أقوى منكم أجساماً، وأشد بطشاً، وأكثر أموالاً، وأوفر أولاداً، ومع ذلك لم يعجزوا الله حين أهلكهم ودمَّرهم، فاحذروا أن يحل بكم ما حلَّ بهم من العذاب والنكال، ومعنى قوله ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي تمتعوا بحظِّهم

ونصيبهم من ملاذ الدنيا، وحُرموا من سعادة الآخرة، بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوْا﴾ أي استمتعتم بملاذٍّ الدنيا وشهواتها، كما استمتع أولئك الذين سبقوكم بنصيبهم منها، وخضتم في الباطل والضلال، كما خاضوا هم فيه، وقد ذكر تعالى من عاقبة أولئك الكفار، أنهم لم يحصل لهم إلَّا حبوطُ الأعمال، أما في الدنيا فبسبب الفقر، والانتقال من العز إلى الذل، ومن القوة إلى الضعف، وأما في الآخرة، فلأنهم هلكوا وبادوا، وانتقلوا من النعيم إلى الجحيم، ومن الراحة والرفاهية إلى العقاب الدائم المهين، فقال تقدست أسماؤه ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُوْنَ﴾.

«هلاك الأمم السابقة بأنواع العذاب»

وبعد أن شبَّه تعالى المنافقين، بالكفار المتقدمين، في تكذيبهم الرسل والأنبياء، واشتغالهم بالنعيم الزائل، وضرب لهم الأمثال بما حلَّ بهم من العذاب والنكال، أعقبه بذكر العقوبات التي نزلت بالطغاة المفسدين من الأمم السابقة، فقال تباركت أسماؤه ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ؟ قَوْمِ نُوْحٍ، وعَادٍ، وَثَمُوْدَ، وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ، وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ، وَالْمُؤْتَفِكَاتِ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوْا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ﴾.

فقد ذكر تعالى من أولئك الأقوام المهلَكين ست طوائف، نالوا أشد أنواع الخزي والعذاب، في هذه الحياة الدنيا، وقد سمع العرب بأخبارهم، لأن بلادهم كانت قريبة من بلادهم، وقد بقيت آثارهم مشاهدة لهم، ولهذا صدَّر الله الآية الكريمة بحرف الاستفهام المفيد

للتقرير والاعتراف ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؟ أي قد جاءكم يا معشر المنافقين، خبر الأمم السابقين، الذين كذبوا رسلهم، ماذا حلَّ بهم؟ وماذا أصابهم؟ حين عتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله، ثم ذكرهم تعالى بالتفصيل.

فأولهم: قومُ نوح وقد أُهلكوا بالغرق والطوفان، الذي عَمَّ الأرض كلها، ولم ينج منهم إلاَّ من آمن بنوح عليه السلام، وركب معهُ في السفينة، وهم عدد محدود كما قال تعالى ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ﴾.

وثانيهم: عادُ قومُ هود، وقد أهلكهم الله بالريح العقيم، التي وصفها لنا القرآن الكريم بقوله ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ وذلك حين كذبوا رسولهم هوداً عليه السلام، وقد كان قوم عاد ذوي أجسام ضخمة، وقوةٍ رهيبة، حتى اغتروا بما هم عليه من القوة والشدَّة فقالوا من أشدُّ منا قوة؟ ومع ذلك أهلكهم الله، ودمَّرهم عن آخرهم، كما قال جلَّ ثناؤه وتقدست أسماؤه ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوْا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ، وقَالُوْا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَكَانُوْا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُوْنَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ، لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى، وَهُمْ لاَ يُنْصَرُوْنَ﴾.

وثالث الأقوام المهلكين «ثمود» قوم نبي الله صالح عليه السلام، وقد أهلكهم الله بالصيحة المدمرة، والرجفة والزلزلة، التي قطعت قلوبهم، وأخمدت أنفاسهم، حين كذبوا صالحاً عليه السلام، وما أصابهم من الذل والهوان عند نزول العذاب، كما قال ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَأَمَّا ثَمُوْدُ فَهَدَيْنَاهُمْ، فَاسْتَحَبُّوْا العَمَى عَلَى الهُدَى، فَأَخَذَتْهُمْ

صَاعِقَةُ العَذَابِ الهُوْنِ ـ أي الموقع في الهـوان والذل ـ بِمَـا كَانُـوْا يَكْسِبُوْنَ. وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوْا وَكَانُوا يَتَّقُوْنَ﴾.

ورابعهم: قوم إبراهيم، ورئيسهم النمرود الجبار، وقد أهلكهم الله بأيسر مخلوقاته، بالبعوض الذي أرسله عليهم، فامتصَّ دماءهم، وأفسد أبدانهم، ونشر فيهم الحمَّى حتى ماتوا ولم يذكر القرآن الكريم نبأ هلاكهم بالتفصيل، واكتفى بذكر عذابهم ضمن الأقوام المعذَّبين «فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ. .﴾ الآية.

وخامسهم: أصحاب مدين «قوم شعيب» وقد أهلكهم الله بعذاب يوم الظُلَّة، لمَّا كذبوا نبيهم شعيباً عليه السلام، وطففوا المكيال والميزان كما قال سبحانه عنهم في سورة الشعراء ﴿فَكَذَّبُوْهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُلَّةِ، إنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ومعنى عذاب يوم الظلة، ما ذكره الحافظ ابن كثير عن يزيد الباهلي قال: سألت ابن عباس عن هذه الآية ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُلَّةِ﴾ قال: بعث الله عليهم رعدةً وحراً شديداً، فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البَرِيَّة، فبعث الله عليهم سحابةً فأظلتهم من الشمس، فوجدوا لها برداً ولذة، فنادى بعضهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا تحتها، أرسل الله عليهم ناراً، قال ابن عباس: فذلك عذابُ يوم الظلَّة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وقد جمع الله لهم بين الرجفـة ـ وهي الزلزلة العظيمة ـ كما قال سبحانه في سورة الأعراف ﴿فَأَخَذَتْهُـمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوْا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ وبين عذاب يوم الظلة كما قال سبحانه ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُلَّةِ﴾.

وسادس الأقوام المهلكين «المؤتفكات» وهم قوم لوطٍ، الذين انقلبت بهم ديارهم، حتى صار عاليها سافلها، وأمطروا بحجارة من سجِّيلٍ، مأخوذ من الائتفاك ومعناه في اللغة الانقلاب، كما قال سبحانه

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ وسميت مدائنهم بذلك، لأن الله قلبها عليهم، ومن لم يمت منهم بالقلب، أصابته الحجارة التي كانت تنزل عليهم كالمطر، حتى بادوا عن بَكرة أبيهم، كما أخبر تعالى عنهم في سورة هود بقوله ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَها سَافِلَهَا، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُوْدٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

وقد جمع القرآن الكريم ما أصاب هؤلاء الكفرة المجرمين، من العقوبات وأنواع العذاب والنكال في آيةٍ واحدة في سورة العنكبوت، حيث قال تقدست أسماؤه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ﴾ وهنا قال سبحانه ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوْا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ﴾ فبين الآيتين تشابهٌ في العقوبة ظاهر، وبيانٌ واضح لسبب ذلك العذاب المشئوم، ألا وهو الكفرُ والعصيانُ،والتكذيب بآيات الرحمن، وفي الآية الكريمة شيء محذوف مقدَّر، يدرك من السياق، فإن قوله تعالى ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم رسلهم بالمعجزات الواضحات، والبراهين الساطعات، التي تدل على صدقهم، فكذبوهم ولم يؤمنوا بهم، فحذف من الآية فكذبوهم لدلالة السياق عليه، ولهذا خَتَمها تعالى بقوله ﴿فَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي بإهلاكهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

«المقارنةُ بين أوصافِ المؤمنين والمنافقين»

ولقد تناولت الآيات السابقة الحديث عن المنـافقين، وذكرت

أوصافهم القبيحة، وأفعالهم الشنيعة، من الصدِّ عن دين الله، والتكذيب لرسل الله، وهم يزعمون الإسلام، ويرتكبون عظائم الإجرام، في حق هذا الدين وأهله، وقد ذكر تعالى من قبائحهم اجتماعهم على حرب الإسلام، ودعوتهم إلى منكرات الأعمال، ونهيَهم عن فعل المعروف والإحسان، وبخلهم عن الإنفاق في سبيل الله، وبعْدَها ذكر تعالى هنا صفات المؤمنين الأبرار، وما أعده لهم من النعيم المقيم، في دار الخُلد والجنان، وذلك ليظهر الفرق بين الفريقين، ويتميَّز أهل الهدى من أهل الضلال، وبضدها تتميز الأشياء، فقال تقدست أسماؤه ﴿وَالْمُؤْمِنُوْنَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، يَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُقِيمُوْنَ الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ، وَيُطِيعُوْنَ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ﴾ وقد رتَّبَ الله تعالى على ذلك الصنيع الجميل الذي صدر من المؤمنين، أكرم الجزاء والمثوبة فقال ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ثم بيَّن ما أعده لهم في الآخرة من أنواع النعيم والرضوان فقال تباركت أسماؤه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، خَالِدِيْنَ فِيهَا، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ، ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾.

«المؤمنون والمنافقون على طرفَيْ نقيض»

وبالمقارنة بين صفات المنافقين والمؤمنين، نجد الأحوال متباينة، والأفعال والأعمال متناقضة تماماً، فالمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض أي هم في الشر والخبث سواءٌ، هم صنفٌ واحد، إناثهم كذكورهم، متشابهون في النفاق، والبعد عن التحلي بالأخلاق، كتشابه أجزاء الشيء الواحد ثم هم يدعون إلى عكس ما أمر الله ﴿يأمرون

بالمنكر وينهون عن المعروف﴾ خلافاً لصفات المؤمنين تماماً، حيث وصفهم تعالى بأنهم دعاةٌ، هداةٌ، مرشدون فقال ﴿وَالْمُؤْمِنُوْنَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْض، يَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ومعنى قوله تعالى ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي هم إخوة في الدين، يتناصرون، ويتعاضدون، ويتراحمون، فبينهم أخوَّةٌ في الدين، أعظمُ من أخوَّةِ النَّسَب والقرابةِ، رَبَط الله بينها برابطةِ العقيدة والإيمان ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ إِخْوَةٌ﴾ ومن واجب هذه الأخوَّة التعاون والتناصر، لنصرة دين الله.

وإذا كان من صفات المنافقين: التمرُّد والعصيانُ، والشحُّ عن الإنفاق في وجوه الخير والبر والإحسان، فإن من صفات المؤمنين الطاعة والإذعان، وبسطَ اليد في الإنفاق في رضى الرحمن، فهناك ذكر تعالى عن المنافقين أنهم ﴿يَقْبِضُوْنَ أَيْدِيَهُمْ﴾ وهنا ذكر عن المؤمنين طاعتهم وسخاءهم وكرمهم فقال ﴿وَيُقِيمُوْنَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ﴾ فقد جمعوا بين حق الله، وحق العباد، وهناك ذكر من صفات المنافقين أنهم ﴿نَسُوْا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي تركوا عبادته وطاعته، فنسيهم تعالى من رحمته وثوابه، وحرمهم من واسع فضله وإنعامه، وهنا ذكر عن المؤمنين دوام الطاعة والإنابة فقال ﴿وَيُطِيعُوْنَ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ﴾ وهناك قال ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الفَاسِقُوْنَ﴾ وهنا قال ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

«مصير المنافقين ومصير المؤمنين»

وقد ذكر تعالى مصير المنافقين، وما أعده لهم من العذاب والنكال هناك، فقال تقدست أسماؤه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِيْنَ فِيهَا، هِيَ حَسْبُهُمْ، وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ وهنا

ذكر مآل المؤمنين المتقين، وما أعده لهم من أنواع الإكرام والتنعيم، في دار السرور والحبور فقال تباركت أسماؤه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيهَا، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ، ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ وشتان بين المصيرين، مصير المنافقين الفجار، ومصير المؤمنين الأبرار، فأولئك في الأغلال والسعير، وهؤلاء في جنان الخلد والنعيم، ومعنى قوله تعالى ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَاتِ عَدْنٍ﴾ أي لهم مساكنُ وقصورٌ، حسنة البناءِ، طيِّبةُ الظِّلالِ، يطيبُ فيها العيش، في جنات الخلد والإقامة.

قال الحسن البصري: هي قصور من اللؤلؤ، والياقوت الأحمر، والزبرجد، أعدَّها الله لعباده المؤمنين(١). وفي الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنَّه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجَّرُ أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»(٢).

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال «قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لَبِنَةٌ ذهبٍ، ولَبِنَة فضة، وملاطُها المسكُ ـ وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها يَنْعَمُ ولا يبأس، ويخلدُ ولا يموتُ، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه» وفي سنن ابن ماجة أن النبي ﷺ قال في وصف الجنة «هي نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، وحَبِرة

(١) انظر صفوة التفاسير ١/٥٤٨ وتفسير الكشاف ٢/٢٨٩.

(٢) الحديث أخرجه البخاري، ومسلم عن أبي هريرة، وانظر مختصر ابن كثير ٢/١٥٥.

ونعمة، في محلة عالية بهية»[1] وأعظم من هذا النعيم كلِّه، رؤيةُ الباري جلَّ وعلا، وإحلال رضوانه عليهم كما ختم الله هذه الآية بقوله تقدست أسماؤه ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ورضى الله عنهم أكبر وأجلُّ وأعظم من كل ذلك النعيم، كما وضحه الحديث النبوي الشريف فيما رواه البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟! فيقول: ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأيُّ شيءٍ أفضل ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[2].

اللهم ارزقنا رحمتك ورضوانك، والنظر إلى وجهك الكريم في جنات النعيم، يا رب العالمين.

«الجهاد بالسيف وباللسان»

جرت عادة القرآن الكريم ـ كما بينَّا مراراً ـ على أن يقرن الوعد بالوعيد، والترغيب بالترهيب، ليظلَّ العبد بين الخوف والرجاء، فيجدَّ ويجتهد في عمل الخيرات، والبعد عن المعاصي والمنكرات، وقد سبق الحديث في الآيات المتقدمة عن صفات المؤمنين الأبرار، وما أعده الله تعالى لهم في دار الجزاء والقرار، ثم عادت السورة لتتحدث مرة أخرى عن شرح أحوال الكفار والمنافقين، وما هم عليه من الزيغ والضلال المبين، فأمرت بجهادهم وقتالهم وإغلاظ القول لهم، ثم بينت مآلهم ومصيرهم المشئوم الذي

(١) وفي الحديث أنه قال لهم «ألا هلْ من مُشَمِّر إلى الجنة؟ قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمِّرون» وانظر مختصر ابن كثير ٢/١٥٥.

(٢) أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وانظر الدر المنثور للسيوطي.

ينتظرهم في الآخرة، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿يَا أَيُّهَا النَبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾.

والجهادُ ليس بالقتال فحسبُ، بل تارة يكون بالسيف، وتارة يكون باللسان، وتارة يكون جامعاً بينهما، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية الكريمة: جاهد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، «وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ» بالجهاد والقتال والإرعاب، وقال ابن مسعود: جاهدهم تارة باليد، وتارة باللسان، فمن لم يستطع فليكْشر في وجهه - أي يظهر لهم العبوس والكراهية بوجهه - فمن لم يستطع فبالقلب.

وإنما جُمع المنافقون في الآية مع الكفار، لأنهم وافقوهم في الكفر والضلال، وزادوا عليهم بطرق المكر والاحتيال، فأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، فجمعوا بين خُبْثِ الباطن، وخُبْثِ الظاهر، فكانوا جديرين بالمجاهدة والمناضلة، وإغلاظ القول لهم، وقد ختم الله الآية بقوله ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ أي مسكنهم ومثواهم نار جهنم، وبئس هذا المكان مستقراً، ومصيراً يصيرون إليه في الآخرة. وإتماماً لما انطوت عليه نفوس المنافقين من الكذب والزور والبهتان، وما ألفوه من قبيح الأعمال وشنيع الفِعال، جاءت السورة الكريمة تُثبت عليهم ما تلفظوا به في حقِّ الرسول والمؤمنين، من السباب والشتائم، وما عزموا عليه من الفتك والقتل، وبذلك كانوا شرَّ الخليقة عند الله وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿يَحْلِفُوْنَ بِاللَّهِ مَا قَالُوْا وَلَقَدْ قَالُوْا كَلِمَةَ الكُفْرِ، وَكَفَرُوْا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ، وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوْا، وَمَا نَقَمُوْا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنْ يَتُوبُوْا يَكُ خَيْرَاً لَهُمْ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابَاً أَلِيمَاً في الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وَمَالَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

«سبب نزول الآيات الكريمة»

روى المفسرون عن قتادة رضي الله عنه قال: نزلت الآية في عبدالله بن أبي بن سلول، وذلك أنه اقتتل رجلان: جهنيٌّ، وأنصاريٌّ ـ أي رجل من جهينة ورجل من الأنصار ـ فعلا الجهنيُّ على الأنصاري، فقال ابن سلول للأنصار: ألا تنصرون أخاكم؟ والله ما مَثَلُنا ومَثَلُ محمد إلَّا كما قال القائل «سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأكُلْك» وقال ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ فسمعها رجل من المسلمين، فسعى بها إلى النبي ﷺ يخبره بما قال عدوُّ الله ابن سلول، فأرسل إليه رسول الله يسأله، فجاء مع بعض إخوان من المنافقين، يحلف بالله ما قال من ذلك شيئاً، ففضحه الله عز وجل فأنزل فيه ﴿يَحْلِفُوْنَ باللَّهِ مَا قَالُوْا، وَلَقَدْ قَالُوْا كَلِمَةَ الكُفْرِ، وَكَفَرُوْا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾(١) الآية.

وروى ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان، ينظر إليكم بعينَيْ شيطان، فإذا جاء فلا تكلِّموه، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق العينين، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: علامَ تشتمني أنت وأصحابُك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، حتى تجاوز عنهم رسولُ الله، فأنزل الله عز وجل ﴿يَحْلِفُوْنَ باللَّهِ مَا قَالُوْا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ﴾(٢) أي يحلف المنافقون ما قالوا الذي بلغك يا محمد عنهم من السبِّ والشتيمة، وهم كاذبون في ذلك ﴿وَلَقَدْ قَالُوْا كَلِمَةَ الكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أي والحال أنهم قد قالوا ذلك، وأظهروا الكفر بعدما كانوا يُظهرون الإسلام، فلا تنخدع بأيمانهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة، (وانظر الدر المنثور، وفتح القدير).

(٢) انظر جامع البيان للطبري ١٠/١٨٧.

وأما قوله تعالى ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوْا﴾ فهو إرادتهم الفتك برسول الله ﷺ عند مرجعه من تبوك، فقد رُوي أن نفراً من المنافقين عزموا على أن يغتالوا رسول الله ﷺ وكانوا بضعة عشر رجلاً، وتعاهدوا أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا صعد العقبة بالليل، وكان «عمار بن ياسر» آخذاً بخطام راحلته يقودها، و«حُذيفةُ» خلفها يسوقها، فبينما هم كذلك إذ سمعَ حذيفةُ بوقع أخفاف الإبل، وبقَعْقَعَةِ السلاح ـ أي صوت السلاح ـ فالتفت فإذا هم قوم مُتَلَثِّمون، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا فذلك قوله تعالى ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ ثم قال تعالى ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي وما أنكروا وما عابوا على الرسول، وليس له عندهم ذنبٌ، إلاَّ أن الله تعالى أغناهم ببركته ويمن سعادته، وهذا على حد قول الشاعر:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيوفَهُمْ   بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِـرَاعِ الكَتَـائِبِ

وقد كانوا حين قدم الرسول المدينة، في ضنك من العيش، لا يركبونَ الخيل ولا يحوزون الغنيمة، ثم نالوا كل ذلك في عهده الميمون.

«قصة المنافق ثعلبة وما نزل فيه»

ثم تتابعت السورة الكريمة تذكر جانباً آخر من قبائح المنافقين، فهم إن مُنِعُوا سخِطوا، وإن أُعطوا بخلوا، ولا يكاد الإنسان يجد منهم بذلاً وسخاءً في سبيل الله، وكما نافقوا مع المؤمنين، كذلك نافقوا مع رب العالمين، يُروى أن رجلاً من المنافقين، كان يُدعى «ثعلبة» جاء إلى رسول الله عليه السلام، فقال يا رسول الله: أُدْعُ الله أن يرزقني مالاً!! فقال له النبي الكريم: ويحكَ يا ثعلبة، قليلٌ تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه، فقال: والذي بعثك بالحقِّ لئن دعوتَ الله أن يرزقني مالاً،

لأعطينَّ كل ذي حقٍّ حقه، ولأتصدَّقنَّ في سبيل الله، فقال رسول الله: اللهم ارزق ثعلبة مالاً، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدودُ، فضاقت عليه المدينة، فتنحَّى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت حتى ترك الجمعة والجماعة، فسأل رسولُ الله عنه فأخبروه بخبره، فقال: يا ويحَ ثعلبة، هَلَك ثعلبة، ثم لمَّا بعث رسول الله ﷺ بعض أصحابه لجمع الصدقات ـ أي صدقات الزكاة ـ مروا عليه فأطلعوه على كتاب رسول الله ﷺ فقال: ما هذه إلَّا جزيةٌ أو أخت الجزية، انطلقوا حتى أرى رأي، وأبى أن يدفع الزكاة فأنزل الله هذه الآيات الكريمة ﴿ومنهم من عاهد اللَّهَ لئن آتانا من فضله لنصدَّقن ولنكونن من الشاكرين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولَّوا وهم معرضون. فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا اللَّهَ ما وعدوه وبما كانوا يكذبون. ألم يعلموا أن الله يعلم سرَّهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾؟ وكان من آخر أمره أنه مات على النفاق، وينبغي أن نعلم أن «ثعلبة» هذا هو غير «ثعلبة بن أبي حاطب» الصحابي المشهور، وإنما هذا رجل من المنافقين يدعى ثعلبة وذاك رجل صالح من المؤمنين كما نبه عليه المفسرون.

«سخريتهم بالمؤمنين في الإنفاق»

لا نزال نتابع معكم الحديث عن مقاصد سورة التوبة، لنستجلي ما فيها من إشراقات وأنوار، ولا تزال السورة الكريمة تطالعنا بصورٍ من مخازي المنافقين، وأفعالهم وأقوالهم الشنيعة، فهم لا يكفُّون عن الأذى لعباد الله المؤمنين، ولا يعرفون حرمةً لمؤمن، ولا قدراً لمسلم، همُّهم السخرية والاستهزاء بأتباع النبي عليه السلام، لا يسلم أحدٌ من

شرِّهم، ولا يتخلص من عيبهم ولمزهم في جميع الحالات، إن جاء أحد من المؤمنين بمالٍ وفير ليتصدق به في سبيل الله قالوا: هذا مراءٍ، وإن جاء بشيء يسير، قالوا إن الله لغنيٌّ عن صدقته، ولهذا جاءت السورة الكريمة تكشف أسرارهم، وتهتك أستارهم، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُوْنَ الْمُطَّوعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ، وَالَّذِينَ لَا يَجِدُوْنَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُوْنَ مِنْهُمْ، سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والآية ـ كما هي واضحة ـ تتحدث عن المنافقين.

«حضُّ النبي ﷺ على الإنفاق»

روى الإمام البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آيةُ الصَّدقة كنا نُحامِلُ على ظهورنا ـ أي نؤجِّر أنفسنا بالحمل على ظهورنا لنتصدق ـ فجاء رجل فتصدَّق بشيء كثير، فقالوا: مراءٍ، وجاء رجل فتصدَّق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا فنزلت الآية. وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطبهم ذات يوم، وحثَّ على أن يجمعوا الصدقات، فجاءه «عبد الرحمن بنُ عوفٍ» بأربعة آلاف درهم، وقال يا رسول الله: كان لي ثمانيةُ آلاف درهم، فأمسكتُ لنفسي وعيالي أربعة آلاف، وهذه الأربعةُ أقرضتها ربي، فقال له عليه السلام: بارك الله لك فيما أعطيتَ وفيما أمسكتَ ـ قال الإمام الفخر: وقد استجاب الله دعاء الرسول فيه، حتى إنه لما تُوفي ترك ثروة كبيرة، فصالحت إحدى نسائه وهي «تُماضر» عن ربع الثمن، وهو حقها من الإرث على ثمانين ألف درهم ـ قال ابن عباس: وجاء «عاصمُ بن عَدِيّ» بمائةِ وَسْقٍ من تمر ـ قال: الجوهري: والوسقُ: ستون صاعاً ـ وجاء «أبو عقيل الأنصاري» بصاعٍ من تمر، وقال يا رسول الله: آجرتُ نفسي

الليلة الماضية من رجل لإرسال الماء إلى نخيله، فأخذتُ صاعين من تمر، أمسكتُ أحدهما لعيالي، وأقرضتُ الآخر ربي، فأمره الرسول الكريم بوضعه في الصَّدَقَاتِ، فغمزهم المنافقون فقالوا: ما أعطى «عبد الرحمن» و «عاصمٌ» إلَّا رياءً وسُمعة، وأما «أبو عقيل» فإنما جاء بصاعه ليذكر مع سائر الأكابر، وإن كان الله ورسولُه لغَنِيَّيْن عن صاع هذا؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿الَّذِيْنَ يَلْمِزُوْنَ المُطَّوِّعِينَ مِنَ المُؤْمِنِيْنَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِيْنَ لَا يَجِدُوْنَ إلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُوْنَ مِنْهُمْ، سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمُ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ومعنى الآية الكريمة: أي هؤلاء المنافقون هم الذين يعيبون المؤمنون المتطوِّعين في الإنفاق، أغنياء كانوا أو فقراء، فإن جاء الغني بالمال الكثير عابوه ولمزوه، واتهموه بالرياء وحب الشهرة، وإن جاء الفقير بالقليل واليسير، عابوه وسخروا منه وقالوا: ما قيمةُ ما قدَّمه وتصدَّق به؟ إن الله لغنيٌّ عن صدقته، فالإنسان في الحالتين لا يَخْلُص من أذاهم وسخريتهم، ولذلك توعَّدهم الله وندَّد بهم، وجازاهم على قبيح صنيعهم جزاءً وفاقاً، فقال عن المؤمنين الفقراء الذين قدَّموا ما لديهم من الصَّدقة ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُوْنَ إلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُوْنَ مِنْهُمْ﴾ أي يعيبون الذين لا يجدون ما يتصدقون به، إلَّا الشيء اليسير الذي هو بطاقتهم ومستطاعهم، وهو القليل من النفقة، فيهزءون ويسخرون منهم، وقال عن المنافقين العائبين ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي جازاهم على سخريتهم بما يستحقونه من العذاب الأليم في دركات الجحيم، واللفظ جاء على سبيل المقابلة، لأن الجزاء من جنس العمل، فسخريته تعالى منهم، جاءت بمقابلة استهزائهم وسخريتهم بالمؤمنين، المنفقين في سبيل الله، فعاملهم تعالى معاملة من سخر منهم انتصاراً لأوليائه، ويسمى هذا في

علم البلاغة بـ «المشاكلة» وهي الاتفاق في اللفظ، مع الاختلاف في المعنى، فالسخرية منهم سَفَهٌ واستهزاء، والسخرية منه تعالى بهم عقوبةٌ وبلاء، وكما يَدِينُ الإنسان يُدان.

«النهي عن الاستغفار للمنافقين»

ولما كان المنافقون قد قطعوا شوطاً كبيراً في الغيِّ والضلال، وتسابقوا في الصدِّ عن سبيل الله بقبيح الفعال، وشعروا بازدراء المؤمنين لهم، بعد افتضاح أمرهم بنزول آيات القرآن، أرادوا أن يُظهروا الندم والتوبة، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يستغفر الله لهم، وألحُّوا عليه في طلب الاستغفار، وكان من خلق النبيّ الرحيم أنه لا يردُّ لسائلٍ طلباً، فوعدهم واشتغل بالاستغفار لهم، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات البينات ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ثم بيَّن تعالى السبب في عدم قبول استغفار الرسول لهم فقال ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوْا بِاللَّهِ وَرَسُوْلِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ أي عدم المغفرة لهم بسبب كفرهم بالله الكفر الشنيع حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأرادوا بذلك مخادعة الله كما خدعوا المؤمنين، ولكنَّ الله لهم بالمرصاد، لأنه لا تخفى عليه خافية.

قال الحسن البصري: كان المنافقون يأتون رسول الله ﷺ فيعتذرون إليه بمعاذير كثيرة، يقولون: والله يا محمد ما أردنا بذلك الأذى، «إنْ أَرَدْنَا إلَّا الحُسْنَى» و «مَا أَرَدْنَا إلَّا إحْسَاناً وَتَوْفِيقاً» فكان يقبل منهم ويستغفر لهم فنزلت الآية الكريمة ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ والمعنى: سواء عليك يا محمد أستغفرتَ لهؤلاءِ المنافقين أم لم تستغفر لهم، فلن يغفر الله لهم أبداً، وقوله تعالى ﴿إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً

﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ جارٍ مجرى المثل في كلام العرب للتكثير، كما تقول لإنسان: جئتُ إليك سبعين مرَّة فلم أجدك، ونصحتُ فلاناً سبعين مرة فلم يقبل، والمعنى: مهما أكثرت من الاستغفار وطلب الرحمة والتوبة لهم، فلن يغفر الله لهم مطلقاً.

روي أن «عبدالله بن أبيّ» رأس المنافقين، كان إذا خطب رسول الله عليه السلام، قام بعده وقال: هذا رسول الله، أكرمه الله وأعزَّه ونصره ـ يوهم بذلك الثناء وهو يريد السخرية والاستهزاء ـ فلما انكشف أمره يوم أحد، برجوعه بثلث الجيش مع أنصاره المنافقين، أراد ذات يوم أن يقوم بعد خطبة الرسول كعادته فيتحدث ـ فقال له عمر: اجلس يا عدو الله فقد ظهر كفرك، ورماه الناس من كل جهة بنظر الازدراء، فخرج من المسجد ولم يُصلِّ، فلقيه رجل من قومه فقال: ما صرفك؟ فحكى له القصة، فقال: ارجع إلى رسول الله يستغفر لك، فقال: ما أبالي، استغفر لي أو لم يستغفر لي، فنزل قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ الله لوَّوا رؤُوسهُمْ﴾ ثم مات بعد ذلك على النفاق.

«تخلف المنافقين عن الخروج لتبوك»

ثم تتابعت الآياتُ الكريمة تكشف لنا عن أستار المنافقين، وتذكر لنا صوراً من مخازيهم وقبائحهم، وشنيع أعمالهم، فقد اتخذوا الإسلام درعاً يتقون به سخط المؤمنين، وكانوا يثبطون عن الخروج للجهاد ولا يخرجون، ويتعللون بالمعاذير الواهية عند الرسول ليأذن لهم بالقعود، وكان بعضهم يوصي بعضاً بعدم الخروج إلى الجهاد، يخشون أن يَعِزَّ الإسلام وتعلو رايته، ويقولون لإخوانهم: الوقتُ وقت حرٍّ، فلا تُعرِّضوا

أنفسكم للخطر والمعاطب، فأنزل الله تقدست أسماؤه فيهم هذه الآيات البينات ﴿فَرِحَ المُخَلَّفُوْنَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُوْلِ اللّٰهِ، وَكَـرِهُوْا أَنْ يُجَاهِدُوْا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَالُوْا لَا تَنْفِرُوْا فِي الحَرِّ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوْا يَفْقَهُوْنَ. فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً، وَلْيَبْكُوْا كَثِيراً، جَزَاءً بِمَا كَانُوْا يَكْسِبُوْنَ﴾.

«غزوة تبوك كانت في الصيف»

قال المفسرون: إن النبي عليه السلام استنفر أصحابَهُ لغزوة تبوك، وكان ذلك في وقت حرٍّ شديد، عند طيب الظِّلال، ونضوج الثمار، فاستجاب له المؤمنون، وتخلَّف عنه المنافقون، وقال بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحرِّ فإنا نخاف عليكم الهلاك، فتباطؤوا ولم يخرجوا فنزلت فيهم الآيات، ومعنى المخلَّف: الذي تخلَّف عن الخروج للجهاد بغير عذر، وهم أتباع «أُبيٍّ بن سلول» رئيس المنافقين، شُبِّهوا بالنساء الخوالف اللواتي جلسن في البيوت، لعدم قدرتهن على حمل السلاح والجهاد، ومعنى الآية الكريمة ﴿فَرِحَ المُخَلَّفُوْنَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُوْلِ اللَّهِ﴾ أي فرح المنافقون الذين تخلفوا عن رسول الله عليه السلام في «غزوة تبوك» بقعودهم بعد خروج الرسول وأصحابه، مخالفةً له ﷺ حين مضى للمعركة وسار، وبقُوا قابعين في بيوتهم لا يخرجون لجهادٍ أو قتال ﴿وَكَرِهُوْا أَنْ يُجَاهِدُوْا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي وكرهوا الخروج إلى الجهاد، إيثاراً للراحة، وخوفَ إتلاف النفس والمال، لما في قلوبهم من ظلمات الكفر والنفاق ﴿وَقَالُوْا لَا تَنْفِرُوْا فِي الحَرِّ﴾ أي قال بعضهم لبعض: لا تخرجوا إلى الجهاد في وقت الحرِّ، فقد جمعوا ثلاث خصالٍ من الكفر والضلال: الفرح بالقعود، وكراهية الجهاد في

سبيل الله، ونهي الغير عن ذلك، قال تعالى ردًّاً عليهم، وتسفيهاً لأحلامهم ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوْا يَفْقَهُوْنَ﴾ أي قل لهم يا محمد: نار جهنم التي تصيرون إليها بتثاقلكم وتخلفكم عن الجهاد، أشدُّ حراً مما فررتم منه من الحر، فإن حر الشمس يزول ولا يبقى، وحرُّ جهنم دائمٌ لا يَفْتُر، فما لكم تخافون من حرٍّ يسيرٍ، ولا تخافون من حرِّ نار السعير؟ وهل يمكن المقارنة بين حرِّ الدنيا، والخلود الأبدي في لظى الجحيم؟ فلو كنتم عقلاء لخرجتم مع الرسول في الحر، لتتقوا به حرَّ جهنم، الذي هو أضعاف نار الدنيا كلها مجتمعة، ولكنكم كما قال الشاعر: «كالمستجير من الرمضاء بالنَّار» وفي هذا استجهال عظيم لهم.

«ما أعده الله للمنافقين من العذاب والنكال»

ثم أفاض تعالى في ذكر ما أعدَّه لهم من العذاب والنكال، في دار الخلد يوم القيامة فقال: ﴿فَلْيَضْحَكُوْا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوْا كَثِيرَاً جَزَاءً بِمَا كَانُوْا يَكْسِبُوْنَ﴾ وهو أمرٌ خرج عن ظاهره، إلى إرادة الخبر المحقق الذي لا يتخلف، أي: فسيضحكون قليلاً، وسيبكون كثيراً، جزاءً لهم على تخلفهم عن الجهاد، واجتراحهم لفنون المنكرات والموبقات، قال ابن عباس: الدنيا زمنها قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل، استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً، ويروى أن المنافقين يبكون في النار عمر الدنيا، لا يرقأ لهم دمع، ولا يكتحلون بنومٍ، وفي الحديث الصحيح (نارُ بني آدم التي يوقدونها، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم، فقالوا: يا رسول الله، والله إن كانت لكافية ـ أي تكفي نار الدنيا ألاَّ يطيقها بشرٌ، وحرارتُها وافية كافية ـ فقال عليه السلام: فإنها فُضلت عليهابتسعةٍ وستين جزءاً، كلُّها مثل حرِّها)(١).

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وفي الموطأ من حديث أبي هريرة.

«منعهم من الخروج للجهاد»

ثم حذَّر تعالى رسول الله ﷺ من قبول معاذير المنافقين، ونهاه أن يقبل بعد تلك الغزوة خروج أحدٍ منهم معه، فهم إن خرجوا ما زادوا المؤمنين إلَّا ضعفاً وتثبيطاً، فليس في خروجهم أية منفعةٍ أو مصلحة، بل على العكس في خروجهم أنواع الفساد، فإنهم يتآمرون مع الكافرين على المؤمنين، لذلك يجب حرمانهم من شرف الجهاد في سبيل الله، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ، فَاسْتَأْذَنُوْكَ لِلْخُرُوْجِ، فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوْا مَعِيَ أَبَدَاً، وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوَّاً، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُوْدِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَاقْعُدُوْا مَعَ الخَالِفِينَ﴾ والمعنى: إن ردَّك الله يا محمد من غزوة تبوك، إلى طائفةٍ من المنافقين الذين تخلَّفوا بدون عذر، وطلبوا الخروج لغزوةٍ أخرى، فقل لهم: لن تخرجوا معي إلى الجهاد أبداً، ولن يكون لكم شرف القتال معي لأعداء الله أبداً، لأنكم قعدتم عن الخروج أول مرة، حين لم تخرجوا إلى تبوك، فلا حاجة لنا بعد اليوم إليكم، فاقعدوا مع المتخلفين عن الغزو، من الشيوخ والنساء والصبيان.

«النهي عن الصلاة على المنافقين»

ثم جاءت السورة الكريمة تنهى النبي عن الصلاة على أحدٍ من المنافقين، فالصلاة شفاعة واستنزال للرحمة، وهؤلاء ليسوا أهلاً للشفاعة والرحمة، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدَاً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ، إِنَّهُمْ كَفَرُوْا بِاللَّهِ وَرَسُوْلِهِ، وَمَاتُوْا وَهُمْ فَاسِقُوْنَ. وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُوْنَ﴾ ومعنى القيام على قبره هو

النَّهيُ عن تشييع جنازته، أو الحضور عند دفنه للدعاء والاستغفار، روى البخاري في صحيحه أن «عبدالله بن أُبَيٍّ بن سلول» رأس المنافقين، لما توفي جاء ابنه «عبد الله» إلى رسول الله عليه السلام، فسأله أن يعطيه قميصه ليكفِّن أباه فيه، فأعطاه إياه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله عليه السلام فقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربُّك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله: إنما خيَّرني الله فقال ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ وسأزيده على سبعين، قال يا رسول الله: إنه منافق؟! قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدَاً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ رواه البخاري ومسلم، وفي رواية للترمذي (قال عمر: فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ، قال: فوالله ما كان يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدَاً﴾ الآية، فما صلَّى رسول الله بعده على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل، اللهم إنا نعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، ونعوذ بك من فتنة المحيا والممات يا رب العالمين.

«المنافقون أجبن الناس وأحرصهم على الحياة»

ظهر لنا بوضوح أن معظم السورة الكريمة كان يتناول فريق المنافقين، الذين استمرءوا النفاق واستعذبوه، وصار طبعاً لهم ملازماً، لا يفارقهم أبداً، وهم شرُّ الخلق عند الله تعالى، لأنهم يدبرون المكائد للمؤمنين في الخفاء، ويتظاهرون بالمحبة والإيمان، وصدورهم مملوءة حقداً وغيظاً على المؤمنين، وقد تحدثت السورة في الآيات السابقة عن

احتيالهم في التخلف عن رسول الله، والقعود عن الغزو، بحجج واهية هي أوهى من بيت العنكبوت، وجاءت الآيات هنا لتتحدث عن الدوافع التي منعتهم عن الجهاد في سبيل الله، ألا وهي ضعف الإيمان، وتسلط حب الدنيا على قلوبهم، حتى أعمى ذلك أبصارهم، فهم لا يخرجون لقتال ولا يحبون أن يلاقوا عدواً، خشية أن تفوتهم زهرة الدنيا، فيخسروا التجارة والربح الوفير، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُوْرَةٌ أَنْ آمِنُوْا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوْا مَعَ رَسُوْلِهِ، اسْتَأْذَنَكَ أُولُوْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ، وَقَالُوْا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ القَاعِدِينَ﴾ ومعنى الآية الكريمة: وإذا أنزلت عليك يا محمد سورة جليلة الشأن، فيها الأمر بالجهاد والقتال، نصرةً للحق وإعزازاً لدين الله، استأذنك في التخلف عن الجهاد أصحاب الثروة والمال، والبسطة في الرزق، وقالوا: دعنا يا محمد نكن مع الذين لم يخرجوا للغزو، وقعدوا بسبب العذر، قال تعالى تقبيحاً لهم وتشنيعاً ﴿رَضُوْا بِأَنْ يَكُوْنُوْا مَعَ الخَوَالِفِ، وَطُبِعَ عَلَى قُلُوْبِهِمْ، فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع المتخلفين، من النساء والمرضى والعجزة، الذين قعدوا بسبب الأعذار فلم يخرجوا للقتال، ورضوا لأنفسهم بالعار، والقعود في البلد مع النساء بعد خروج الجيش؛ فإذا وقع حرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن واستقرار كانوا أكثر الناس تبجحاً وكلاماً، وذلك لأن الله ختم على قلوبهم، فهم لا يفهمون ما في الجهاد وطاعة الرسول من السعادة والفلاح، وما في التخلف عنه من التعاسة والشقاء.

«المجاهدون المخلصون وما أعده الله لهم»

ثم تتابعت السورة الكريمة تذكر بالثناء العاطر أولئك الشجعان الأبطال، وما أعده الله للمؤمنين المجاهدين، الذين قدموا الأنفس

والأموال، رخيصةً لإعزاز دين الله، فقال تقدست أسماؤه ﴿لَكِنِ الرَّسُوْلُ وَالَّذِينَ آمَنُوْا مَعَهُ، جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الخَيْرَاتُ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُوْنَ. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ وقد أشارت الآية الكريمة إلى أنهم بذلوا المهج والأرواح، فنالوا أعظم النعيم في جنات الفردوس، وفازوا بعز الدنيا والآخرة، وقد رتَّب تعالى على إخلاصهم وجهادهم، نيل أعلى المراتب، من الخيرات، والفوز بأعلى الدرجات، ودخول الجنات التي تجري من تحت قصورها الأنهار العديدة، أنهار اللَّبَن، والعسل، والخمر، والماء السلسبيل، وكل ذلك إنما هو جزاءٌ لهم على ما بذلوا في سبيل مرضاة الله، ثم ختمها تعالى بالخلود في الجنان وذلك هو الفوز العظيم.

«المنافقون من أهل البادية»

وبعد أن شرح أحوال منافقي المدينة، شرع في ذكر أحوال المنافقين في أطراف الجزيرة العربية من أهل البدو فقال تقدست أسماؤه ﴿وَجَاءَ المُعَذِّرُوْنَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوْا اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ومعنى الآية الكريمة ﴿وَجَاءَ المُعَذِّرُوْنَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي جاء المعتذرون من الأعراب، الذين انتحلوا الأعذار وتخلفوا عن الجهاد، ليستأذنوا الرسول في ترك الجهاد، قال البيضاوي: وهم «أسد» و «غطفان» استأذنوا في التخلف، معتذرين بالجُهد وكثرة العيال، ﴿وَقَعَدَ الَّذِين كَذَبُوْا اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ﴾ أي وقعد عن الجهاد أناس آخرون، كذبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا عن

تخلفهم، واكتفوا بإظهار دعوى الإيمان مكراً ونفاقاً، قال تعالى في بيان عاقبة هؤلاء المنافقين ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي سيصيبهم أشد أنواع العذاب المهين في الآخرة، بسبب كفرهم وكذبهم في دعوى الإيمان، وتخلفهم عن الجهاد في سبيل الله.

«الذين لا يستطيعون الجهاد من أهل الأعذار»

ثم توالت السورة الكريمة لتضع حداً فاصلاً بين أهل الأعذار الحقيقية، وبين الكاذبين المنتحلين للأعذار بالطرق الملتوية، فاستثنى من التكليف بالجهاد الشيوخ المسنين، والمرضى العاجزين، الذين لا يستطيعون الجهاد، لعجزهم أو مرضهم، كالأعمى والأعرج، والمحموم والمبطون، وكالشخص الذي لا يجدُ الأُهبة ولا السلاح، وهو فقير لا يملك ثمن ما يقاتل به، من راحلةٍ أو سيف ورمح، فأسقط تعالى عنهم التكليف بالخروج للجهاد، رحمةً بهم وقبولاً لأعذارهم الشرعية، فقال تقدست أسماؤه ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ، وَلاَ عَلَى المَرْضَى، وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُوْنَ مَا يُنْفِقُوْنَ حَرَجٌ إذَا نَصَحُوْا لله وَرَسُولِهِ، مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ، قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ، تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنَاً، أَلاَّ يَجِدُوْا مَا يُنْفِقُوْنَ. إنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوْنَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ، رَضُوْا بِأَنْ يَكُوْنُوا مَعَ الخَوَالِفِ، وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوْبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُوْنَ﴾.

«سبب نزول الآيات»

قال المفسرون: نزلت هذه الآيات في البَكَّائين، وهم جماعة من أصحاب النبي عليه السلام، أرادوا الغزو مع رسول الله، فجاءوا إليه

يطلبون منه أن يحملهم، ليجاهدوا مع إخوانهم المؤمنين، وكانوا فقراء لا يملكون مركباً، فقالوا يا رسول الله: قد نذرنا الخروج فاحملنا نغزو معك، فقال لهم عليه السلام: والله لا أجد ما أحملكم عليه، فتولَّوْا وهم يبكون، وعزَّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقةً ولا محملاً، فلما رأى الله حرصهم على الجهاد، ومحبتهم لله ولرسوله، أنزل عذرهم في كتابه العزيز فقال ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ، تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً، أَلَّا يَجِدُوْا مَا يُنْفِقُوْنَ﴾ فعاملهم تعالى بصدق نيتهم، وأشركهم في الأجر مع المجاهدين، لأن الله سبحانه يجازي الإنسان على نيته لا على عمله فحسب، ولهذا جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «إنَّ بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً، ولا سرتم سيراً، إلَّا وهم معكم، قالوا يا رسول الله: وهم بالمدينة؟ قال: نعم، حبسهم العذر»(١) وفي رواية لمسلم «ما قطعتم وادياً، ولا سلكتم طريقاً إلَّا شَرِكُوكم في الأجر، حبسهم المرض» اللهم اجعلنا ممن جاهد في سبيلك، وارزقنا إخلاص النية وحسن العمل إنك سميع مجيب الدعاء.

«اعتذارهم بالأيمان الكاذبة»

لا تزال السورة الكريمة تطالعنا في آياتها البينات، بصورٍ متنوعة، من قبائح المنافقين ومخازيهم وقد أفاضت السورة بتعديد جرائمهم، ليحذرهم المؤمنون، وينتبهوا إلى خطرهم، فهم عنصر الفساد في كل زمانٍ ومكان، وقد كشف الله عنهم الستار في هذه السورة الكريمة،

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وابن ماجه في كتاب الجهاد.

وعرَّاهم أمام الأبصار، أبصار المؤمنين، وحذَّر رسوله من دسائسهم ومكائدهم، ونبَّه المؤمنين على أن تخلفهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، لم يكن بدافع من مرضٍ أو عذر صحيح، إنما هو بما استحكم من قلوبهم من الخبث، والمكر، والنفاق، ولذلك لا ينبغي أن يُسارع المؤمنون، إلى تصديقهم في تلك الأعذار التي ينتحلونها، حتى ولو أقسموا بأعظم الأيمان، فهم كَذَبةٌ، فَسَقةٌ، فجرة، لا يكادون يصدقون في قول، ولا ينصحون في سرٍّ أو علن، شعارهم الكذب، وديدنهم المكر والخداع، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى مذكِّراً ومحذِّراً ﴿يَعْتَذِرُوْنَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوْا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ، وَسَيَرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُوْلُهُ، ثُمَّ تُرَدُّوْنَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ﴾ ثم زاد تبارك وتعالى في الإيضاح والبيان، فذكر استهانتهم بجلال الله وعظمته، حيث يُقدمون على الحلف بالله كذباً، دون رادع من دين، أو وازع من ضمير، وذلك ليدفعوا عتاب المؤمنين عنهم، ويتقوا غضبهم وسخطهم، حتى ولو أغضبوا الله بكذبهم، وجرأتهم على انتهاك حرمات الله، وما ذلك إلَّا لخبث بواطنهم، وفساد عقائدهم، يحسبون حساباً للمخلوق، أكثر مما يحسبون للخالق، ونفوسُهم مملوءة بالحقد والكيد، ولهذا قال تقدست أسماؤه ﴿سَيَحْلِفُوْنَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ، فَأَعْرِضُوْا عَنْهُمْ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ، يَحْلِفُوْنَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾.

ومعنى الآية الكريمة: سيحلف لكم يا معشر المؤمنين هؤلاء المنافقون، إذا رجعتم إليهم من غزوة تبوك، معتذرين لكم بالأعذار

الكاذبة، لتصفحوا عنهم وتعرضوا عن ذمهم، قال تعالى ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أي فأعرضوا عنهم إعراض مقتٍ وسخط، وخلُّوهم وما اختاروا من الكفر والنفاق، لأنهم كالقذر والنجس، لخبث سرائرهم، وفساد بواطنهم ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي مصيرهم إلى جهنم، هي مسكنهم ومأواهم، جزاءً لهم على نفاقهم في الدنيا، وما اكتسبوه من الجرائم والآثام.

«الأعراب أشد الناس كفراً ونفاقاً»

وبعد هذا الإيضاح والبيان، عادت السورة لتذكر فريقاً آخر من المنافقين، هم أشدُّ خبثاً ونفاقاً من منافقي المدينة، وهم المنافقون من الأعراب سكان البوادي، الذين ضمُّوا إلى النفاق السَّفَه والجهل وقلة الفهم، فهم يعيشون كالأوباش، لا يعرفون معروفاً ولا يُنكرون منكراً، بل هم كالدوَّاب السارحة، التي لا تعرف إلَّا الأكل والمرعى، وفيهم يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرَاً وَنِفَاقَاً، وأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَموا حُدودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ على رَسُوْلِهِ، واللَّهُ عليم حكيمٌ﴾ والأعراب جمع أعرابي، قال أهل اللغة: يُقال: رجل عربي إذا كان منسوباً إلى العرب، وجمع العربي عربٌ، ويُقال «أعرابي» إذا كان بدوياً يطلب مساقط الغيث والكلأ، سواء كان من العرب أو من مواليهم، وَيُجْمع الأعرابي على الأعراب، فمن استوطن المدن العربية فهو من العرب، ومن نزل البادية فهو من الأعراب، والآية الكريمة تقول ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقَاً﴾ ولم تقل: العرب أشدُّ كفراً ونفاقاً، لتشير إلى سكان البوادي، الذين قسا طبعهم، وساء فهمهم، وإنما كان أهل البدو أشدَّ كفراً وأعظم نفاقاً من أهل الحضر، لجفائهم وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير

والصلاح، وبعدهم عن العلم الذي يربي النفوس ويُهَذِّب الطباع، ومعنى قوله تعالى ﴿وَأَجْدرُ أَلَّا يَعْلَموا حُدودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي هم أولى بأن لا يعلموا ما أنزل الله على رسوله من الأحكام والشرائع، ولذلك فإن نفاقهم أعظم، وجهلهم أفضح، وميلهم إلى الشر أكثر، ولهذا كانت بينهم الغارات والسلب والنهب.

قال الإمام أبو حيان في تفسيره البحر المحيط: وإنما كان الأعراب ـ وهم أهل البوادي ـ أشدَّ كفراً ونفاقاً، لفخرهم، وطيشهم، وتربيتهم بلا سائسٍ ولا مؤدب، فقد نشأوا كما شاءوا. ولبعدهم عن مشاهدة العلماء، ومعرفة كتاب الله وسنّة رسوله، فكانوا أطلقَ لساناً بالكفر من منافقي المدينة.

«قصة غريبة لبعض الوعاظ مع الأعراب»

ومن لطيف ما حدَّث به المفسرون، ما رُوي عن الأعمش أن أعرابياً جلس ذات يوم في حلقة درسٍ لعالم من كبار التابعين يدعى «زيد بن صَوْحان» وكان يُحدِّث أصحابه بما يرقِّقُ القلوب، وكانت يده قد أصيبت يوم «نَهَاوند» فقطعت كفُّه، فقال الأعرابي لزيد رضي الله عنه: والله إنَّ حديثَكَ ليعجبني، وإن يدكَ لَتُرِيبني ـ أي تُدخل الشكَّ في قلبي أن تكون قد قطعت في سرقة ـ فقال له زيد: يا أعرابي ما الذي يُريبك من يدي؟ إنها الشمال، فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمينَ يقطعون أم الشمال؟ فقال زيد عند ذلك صدق الله العظيم ﴿الأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَموا حُدودَ ما أَنْزَلَ الله عَلَى رَسُولِهِ﴾.

وقال الإمام الفخر: والسبب في هذا أن أهل البدو يشبهون

الوحوش، لاستيلاء الهواء الحار اليابس عليهم، وذلك يوجب مزيد التّيه والتكبر، والنخوة والفخر والطيش عليهم، وكونهم بلا سياسة سائس، ولا تأديب مؤدب.

«البخل عن الإنفاق في سبيل الله»

ثم ذكر تعالى من صفات الأعراب الذميمة، البخل عن الإنفاق في سبيل الله، وحبَّ الأذى لعباد الله، وتربُّصَ الدوائر بالمؤمنين، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً، وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ، عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ، وَاللَّهُ سميعٌ عَليمٌ﴾ ومعنى الآية الكريمة: أي من هؤلاء الأعراب الجهلاء، من يَعُدُّ ما يصرفه في سبيل الله، ويتصدق به غرامةً وخسراناً، لأنه لا يُنفقه احتساباً لوجه الله وابتغاء ثوابه، وإنما ينفقه تقيةً من المسلمين ورياءً ثم قال تعالى ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ﴾ أي ينتظر بكم مصائب الدنيا ليتخلص من أعباء الإنفاق ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي عليهم إن شاء الله الهلاك والدمار، فلا يرون في محمد ودينه إلاَّ ما يسوءهم، وبمواجهة هؤلاء المنافقين من الأعراب، ذكر تعالى فريقاً آخر من الأعراب، نشأوا على التقى والصلاح، والإيمان بالله ورسله، والإنفاق في سبيل مرضاة الله، فهم وإن كانوا قلَّة، لكنهم بفضل الله مؤمنون صادقون، وقد أثنى تبارك وتعالى عليهم بذلك الثناء العاطر فقال تقدست أسماؤه ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ﴾ أي يجعل ما ينفقه في سبيل الله طلباً لرضى الله ودعاء الرسول واستغفاره له، قال تعالى ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهكذا ميز الله بين الفريقين، فريق أهل الضلالة، وفريق أهل الإيمان.

«صفات المؤمنين المتقين»

وبعد أن ذكر تعالى في الآيات المتقدمة صفات المنافقين، من أهل الشقاء والضلال، ذكر تعالى بعدهم صفات المؤمنين المتقين، من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، وهم الذين نالوا أعلى المراتب، وفازوا بأسمى الدرجات، في جنات الخلد والنعيم، وبالمقارنة بين الفريقين، يظهر البون الشاسع بين أهل الهدى، وأهل الضلال، فالمنافقون في أسفل الدركات في نار جهنم، والسابقون الأولون في أعلى الدرجات في جنات النعيم، وفيهم يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَالسَّابِقُوْنَ الأَوَّلُوْنَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، والذينَ اتَّبَعُوهُمْ بإِحْسَانٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوْا عَنْهُ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، خالِدِينَ فِيهَا أَبَداً، ذلك الفَوْزُ العَظِيمُ﴾.

والسابقون الأولون هم الذين سبقوا إلى الإيمان، وسبقوا في الهجرة والنصرة، فنالوا قصب السبق دنيا وآخرة، وبسبب إيمان هؤلاء وجهادهم وصبرهم، عزَّ الإسلام وانتصر، وارتفعت رايته، وعلت كلمته، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ولولا جهاد أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم، وتضحيتُهم وتفانيهم في الإخلاص لهذا الدين، لما كان هناك عزٌّ وانتصار لدعوة الإسلام، ولكنَّهم ضحُّوا في سبيل هذا الدين بالمهج والأرواح، ولهذا أثنى الله تبارك وتعالى عليهم ذلك الثناء العاطر، وأكرمهم بأنواع الإكرام، من الرضوان، ودخول الجنان، والفوز العظيم بدار النعيم، التي فيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر كما قال سبحانه ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم وَرَضُوا عَنْهُ، وأعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تحتَها الأَنْهَارُ﴾ أي تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ أي

مقيمين في الجنان من غير انتهاء، ذلك هو الفوز الذي لا فوز بعده، والسعادة السرمدية التي لا نهاية لها.

«ثناءٌ عاطر على المهاجرين والأنصار»

والآية عامةٌ في كل من سبق في الهجرة والنصرة، ولا شك أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما من أول من يدخل فيها، فهما من المهاجرين، وهما من السابقين إلى الإسلام، وكذلك سائر المهاجرين والأنصار. قال الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية: «فقد أخبر الله العظيم، أنه قد رضي عن السابقين الأولين، من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان.. فيا ويل من أبغضهم أو سبَّهم، أو أبغض أو سبَّ بعضهم، ولاسيما سيِّد الصحابة بعد الرسول، وخيرهم وأفضلهم، أعني الصدِّيق الأكبر، والخليفة الأعظم «أبا بكر» رضي الله عنه، فإنَّ الطائفة المخذولة من الرافضة، يعادون أفضل الصحابة، ويبغضونهم، ويسبُّونهم ـ عياذاً بالله من ذلك ـ وهذا يدلُّ على أن عقولهم معْكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبُّون من رضي الله عنهم، وأما أهلُ السنة فإنهم يترضَّوْن عمَّن رضي الله عنه، ويسبُّون من سبَّه الله ورسولُه، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متَّبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يَبْتَدون، وهؤلاء هم حزبُ الله المفلحون» انتهى كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله(١).

«عودة للحديث على أهل النفاق»

وبعد الحديث عن المهاجرين والأنصار، عاد الحديث عن

(١) ابن كثير ١٦٦/٢ من المختصر، وقد شدَّد الرسول النكير على من سبَّ الصحابة أو بعضهم فقال ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدَكم أنفق مثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً، ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَهُ» أخرجه الشيخان.

المنافقين الأشرار، الذين ما فتئوا يكيدون للإسلام والمسلمين، وذلك تنبيهاً على خطرهم وعظيم ضررهم، وفيهم يقول تقدست أسماؤه ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق، لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ ومعنى قوله تعالى «مَرَدُوْا على النِّفَاقِ» أي استمروا وثبتوا على النفاق وبَرَعوا فيه، ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تعلمهم أنت يا محمد لمهارتهم في النفاق، بحيث يخفى أمرهم على كثيرين، ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم، ثم قال تعالى ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إلىَ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي سنعذبهم في الدنيا بالقتل والأسر، وعند الموت بعذاب القبر، ثم في الآخرة يُردُّون إلى أسوأ العذاب وهو نار جهنم «لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ولا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِها» وهو العذاب الذي أعده الله للكفار الفجار.

«إقرار بعض المؤمنين بذنوبهم»

ثم ذكر تعالى قوماً آخرين، أقرُّوا بذنوبهم، واعترفوا بخطئهم عن التخلف مع رسول الله في غزوة تبوك، ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة، وإنما شعروا بالحسرة والندم، ولهم أعمال صالحة وجهاد وتضحية، فلم يكونوا كالمنافقين الذين تخلفوا نفاقاً وشكّاً، وإنما أناس مسلمون تخلفوا كسلاً وفتوراً، ثم ندموا وتابوا، وفيهم أنزل الله تقدست أسماؤه هذه الآيات البينات ﴿وَآخَرون اعْتَرفوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً، عَسى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال ابن عباس: نزلت في «أبي لُبابة» وجماعةٍ من أصحابه،

تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله عليه السلام من غزوته، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد ـ أي أعمدة المسجد ـ وحلفوا ألَّا يحلَّهم إلَّا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم، وكان من آخر أمرهم أن الله عزَّ وجلَّ تاب عليهم وغفر لهم تلك الزلَّة.

روى الإمام البخاري عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله ﷺ: أتاني الليلة آتيان ـ أي في المنام ـ فابتعثاني، فانتهيا إلى مدينةٍ مبنيَّةٍ بِلَبِنِ ذهبٍ، وَلَبِنِ فضة، فتلقانا رجال شَطْرٌ من خلقهم كأحسنِ ما أنت راءٍ، وشطرٌ كأقبح ما أنت راءٍ ـ أي نصف منهم في أجمل صورة وشكل، ونصف آخر في أقبح شكل ـ فقالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك، قالا: وأما القوم الذين كانوا شطرٌ منهم حسن، وشطر منهم قبيح، فإنهم «خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً» تجاوز الله عنهم.

«قبول التوبة والدعاء للمتصدقين في سبيل الله»

ولما نزلت توبة هؤلاء، جاءوا إلى رسول الله عليه السلام بأموالهم، وقالوا يا رسول الله: هذه أموالنا. وإنما تخلفنا عنك بسببها فخذها وتصدَّق بها وطهِّرْنا، فقال لهم عليه السلام: ما بذلك أُمرتُ وأبى أن يأخذ من أموالهم شيئاً فنزلت الآيات البينات ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ واللَّهُ سَميعٌ عَلِيمٌ. أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّه هُوَ التَّوابُ الرَّحيمُ. وَقُلِ اعْمَلوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمُؤْمِنونَ،

وَسَتُرَدُّونَ إلى عالمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةَ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ومعنى قوله تعالى ﴿وَصلِّ عَلَيْهِمْ إنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أي ادع الله لهم بالمغفرة، فإن صلاتك ودعاءك طمأنينة لهم ورحمة، وقد كان عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم إذا جاءه أحدٌ بزكاة ماله أو صدقته، دعا له بالمغفرة والرحمة، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبدالله بن أبي أوفى قال: «كان النبيّ ﷺ إذا أُتي بصدقة قوم صلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: اللهم صلِّ على آل أبي أوفى» ومن فضل الله وإنعامه على العبد، أن الله يتقبل صدقة العبد فيربيها لصاحبها حتى تكون التمرة مثل جبل أحد كما جاء في الحديث الصحيح «إن الله يقبل الصدقة، ويأخذها بيمينه، فيربيّها لأحدكم كما يربِّي أحدكم مُهْرَه ـ أي فرسه ـ حتى إن اللقمة لتكونُ مثل أحد، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أن اللّهَ هُوَ يقبلُ التوبة عَنْ عِبادِهِ ويأخذ الصدقات وأن اللّهَ هو التوابُ الرحيم﴾[1]؟

«الحديث عن مسجد الضرار»

وبعد الحديث عن المؤمنين المـذنبين، المتخلفين عن غزوة تبوك، الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ثم تاب الله عليهم، عادت الآيات تقذف بالحمم أولئك المنافقين الزائفين، الذين اتخذوا دين الله هزواً ولعباً، وساروا بقيادة الشيطان، يدبِّـرون المكائـد، ويخططون المخططات، لبذر بذور الفتنة والنزاع بين المسلمين، وقد وصل بهم الكيد في التآمر على الإسلام، أن يتخذوا بيوت الله أوكاراً. للتخريب والتدمير، وإلقاء الفتنة بين أهل الإيمان، في المسجد الذي بنوه في

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ٢/١٦٨ .

أطراف المدينة المنورة، والذي عُرف بـ «مَسْجِدِ الضِّرَارِ»، لأنه بُني للإضرار، فصار هذا الاسم شهرة له، وفيهم يقول ربنا تقدَّست أسماؤه ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً، وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ. لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فيهِ، فيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا، واللَّهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ﴾.

ومعنى الآيات الكريمة: أي ومن المنافقين جماعة بالغوا في الإفساد والإجرام، حتى ابتنوا مجمعاً يدبرون فيه الشر، وسمَّوه مسجداً مضارة للمؤمنين، يفرِّقون بواسطته بين الجماعات الإسلامية، ليصرفوهم عن «مسجد قباء» الذي أسس على الإيمان والتقوى، ومعنى قوله تعالى ﴿وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وترقباً وانتظاراً للمنافقين أعداء الله، الذين حاربوا رسوله، وعلى رأسهم «أبو عامر الفاسق» الذي قال للرسول ﷺ: «لا أجد قوماً يقاتلونك إلَّا قاتلتك معهم»، وهو الذي أمرهم ببناء هذا المسجد ليكون وكراً ومعقلاً له ولأصحابه المنافقين، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُوْنَ﴾ أي وليقسمنَّ ما أردنا ببنائه إلَّا الخير والإحسان، وعبادة الرحمن، والرفق بالمسكين، والتوسعة على المصلين، والله يعلم علم اليقين كذبهم في هذه الأيمان الفاجرة، ثم حذَّر تعالى نبيَّه ونهاه عن الصلاة في مسجد الضرار، وعن الاستجابة لطلبهم في قدوم الرسول للصلاة فيه - وقد حرصوا كل الحرص على أن يشهده الرسول ويصلي فيه - فقال تقدست أسماؤه ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقومُ فِيهِ﴾ أي لا تُصَلِّ يا محمد أبداً في هذا المسجد، لأنه لم يُبْنَ على طاعة الله، وإنما بُني ليكون معقلاً وحصناً

لأهل الضلال والنفاق، يتآمرون فيه ويكيدون للإسلام وأهله، ثم بيَّن تعالى السبب في النهي عن الصلاة فيه فقال ﴿لمسْجِدٌ أُسِّسَ على التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّل يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقومَ فيهِ﴾ أي لمسجد قباء الذي بُني على طاعة الله وتقواه، من أول يوم ابتدىء في بنائه، أولى وأجدر بأن تُصلي فيه من مسجد الضرار.

«الثناء على أهل مسجد قباء»

ثم أثنى تعالى عل أهل هذا المسجد ـ مسجد قباء ـ فقال ﴿فيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا واللَّهُ يُحِبُّ المُطهِّرينَ﴾ أي في هذا المسجد رجال مؤمنون أتقياء ـ وهم الأنصار ـ يحبون أن يتطهروا من الذنوب والآثام، والله يحب المبالغين في الطهارة، ظاهراً وباطناً، حساً ومعنى. . ثم بيَّن تعالى الفارق الكبير بين المسجدين: «مسجد التقوى» و «مسجد الضرار» وبين من قصَد بعمله وجه الله، وبين من قصد به إرضاء الشيطان، فقال تقدست أسماؤه: ﴿أَفَمنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على تَقْوَىٰ مِن اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، خَيرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ علَى شَفا جُرُفٍ هَارٍ، فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، واللَّهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالمين﴾ والمعنى: هل من أسَّس بنيان دينه على التقوى والإخلاص، كمن أسسه على الضلال والنفاق؟ فانهار به البناء وتهدَّم على رأسه، لأنه لم يضع له دعائم ليرتكز عليها البناء؟ وهذا تمثيل في غاية الروعة والجمال، لمن أخلص النيَّة، ولمن ساء في الطويَّة، فقد مثَّل تعالى لفريق أهل الإخلاص والإيمان، بمن بنى قصراً مشيداً، على دعائمَ قويةٍ متينةٍ راسخةٍ، ووضع له أساساً في غاية القوة والمتانة، فارتفع البناء، وشُيِّد الصرح فكان راسخاً كالجبال، ومثَّل لأهل النفاق والضلال، بمن بنى داراً ليسكنها على طرف وادٍ

سحيق، ولم يضع له أساساً يعتمد عليه، فانهار به البناء وتهدَّم وهلك هو وعياله، كذلك أمر أهل النفاق حينما بنوا مسجد الضرار، انهار بهم البناء إلى قرار النار. قال المفسرون: إنهم لمَّا بنوا مسجدهم، وافق ذلك غزوة تبوك، فأتوا رسول الله عليه السلام، فقالوا يا رسول الله: إنا بنينا مسجداً لذي العلة، والحاجة، والليلة المطيرة، والأيام الشاتية، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه، وتدعو لنا فيه بالبركة، فقال لهم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: إنَّا على جناح سفر، وحال شُغل، وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه، فلما قفل من الغزوة ورجع إلى المدينة، جاءه رؤساء النفاق، وسألوه إتيان المسجد للصلاة فيه، وفاءً بالوعد، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يذهب معهم، ودعا بثوبه ليلبسه، فنزل عليه جبريل بهذه الآيات البينات، فدعا ﷺ بعض أصحابه فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه وحرِّقوه واهدموه، فذهبوا إليه فحرَّقوه وهدموه، وأمر أن يُتَّخذ مكانَه كناسة تُلقى فيه الجيف والقُمامة[1].

«قصة أبي عامر المنافق»

قال الحافظ ابن كثير: سبب نزول هذه الآيات الكريمة، أنه كان بالمدينة ـ قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها ـ رجل من الخزرج يقال له «أبو عامر الراهب» وكان قد تنصَّر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وله شرفٌ في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر ـ أي غلبوا المشركين ـ شَرِق اللعينُ «أبو عامر» بريقه، وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش، يمالئهم على حرب رسول الله، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب،

(١) انظر البحر المحيط، وتفسير القرطبي، وابن كثير، وفتح القدير.

وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله عز وجل، ثم كانت العاقبة للمتقين. وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر في أحد فيما بين الصفين، فوقع في إحداهنَّ رسول الله عليه السلام، وأصيب ذلك اليوم، فجرح وجهه، وكسرت رباعيته، وشُجَّ رأسه الشريف، وتقدم «أبو عامر» في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلمَّا عرفوا كلامه قالوا له: لا أنعمَ الله بك عيناً، يا فاسقُ يا عدوَّ الله، ونالوا منه وسبُّوه، فرجع وهو يقول: والله قد أصاب قومي بعدي شرٌّ، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله ـ قبل فراره ـ وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يُسلم وتمرَّد، فدعا عليه رسول الله عليه السلام أن يموت بعيداً طريداً، فنالته هذه الدعوة، وذلك لما فرغ من أُحد، ورأى أمر الرسول في ارتفاع وظهور، ذهب إلى «هرقل» ملك الروم، يستنصره على النبي عليه السلام، فوعده ومنَّاه وأقام عنده، فكتب إلى جماعة من قومه من أهل النفاق والريب، يعدهم ويمنّيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ويغلبه، ويردُّه عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً، ويكون مَرْصداً له إذا قدم عليهم المدينة، فشرعوا في بناء مسجدٍ مجاورٍ لمسجد قباء، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله إلى تبوك، وجاءوا الرسول فسألوه أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، فعصمه الله، ونزلت فيه هذه الآيات». وقد ختم الله هذه الآيات البينات، بذلك البيان الذي يكشف الستار عن سرائر المنافقين فقال تقدست أسماؤه ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ، إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي لا يزال في قلوب أهل مسجد الضرار، شك ونفاق وارتياب، بسبب هدمه، يحسبون أنهم كانوا في بنائه محسنين، فكيف هدمه رسول الله؟ ولا يزالون في ارتياب

وغيظ إلَّا أن تتصدع قلوبهم فيموتوا، والله عليم بأحوال المنافقين، حكيم في تدبيره، وهكذا كانت نهاية مسجد الضرار وأهله، وكفى الله الإسلام والمسلمين شرهم وكيدهم وخُبْثهم، وفضحهم إلى يوم الدين.

«بيعة رابحة مع أكرم الأكرمين»

وبعد أن انتهى الحديث عن أحوال أهل النفاق، المتخلفين عن الجهاد، المثبطين لعباد الله عنه، وما كان من أمرهم في بناء مسجد الضرار، الذي اتخذوه وِكْراً ومعْقِلاً لحرب الإسلام، والتشكيك في دعوته، جاء الحديث عن المؤمنين المجاهدين، الذين باعوا أنفسهم لله، وقدَّموا الغالي والنفيس، وبذلوا المهج والأرواح، في سبيل نصرة دين الله عز وجل، وقد أثنى الله تعالى عليهم في محكم فرقانه، وذكر ما أعده لهم في دار الخلد والنعيم، جزاءً على ما قدَّموه في هذه الحياة، فقال تقدست أسماؤه ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنَّةَ، يُقاتِلُوْنَ فِي سبيلِ اللَّهِ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُوْنَ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقَّاً في التَّوْرَاةِ، والإِنْجِيلِ، وَالقُرْآنِ، وَمْن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟ فاسْتَبْشِروا ببَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾.

والآية الكريمة جاءت في ذروة البلاغة والفصاحة، والتمثيل الرائع الذي يعجز عنه البيان، فقد شبَّه تعالى بذل المؤمنين للأنفس والأموال ابتغاء رضوان الله، وقتالهم لإعلاء كلمة الله، وما نالوا من كريم الجزاء على ما قدموا من تضحيات ألا وهو الجنة، شبَّه ذلك بصورة عقدٍ بين متبايِعَيْنِ، عقدٌ فيه بيع وشراء، وشهادةٌ وضمان، البائع فيه المؤمن، والمشتري فيه ربُّ العزة جل وعلا، والثمن فيه الجنة، والشهود فيه الملائكة، والضمان فيه الكتب السماوية، والواسطة فيه محمد عليه

الصلاة والسلام، فأعظمْ به من عقد وثيقٍ، ربحه مضمون، ولا يحوم حوله أبداً خسران.

قال الحسن البصري: بايَعهم واللَّهِ فأغلى لهم الثمن، وانظروا إلى كرم المولى جل وعلا، أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رَزَقها، ثم وَهَبَها لهم، ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالي، فإنها لصفقةٌ رابحة، ولهذا قال سبحانه ﴿فَاسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾.

وقال الحسن أيضاً: اسمعوا والله بيعة رابحة، وكِفَّةٌ راجحة، بايع الله بها كل مؤمن، والله ما على الأرض مؤمن إلَّا وقد دخل في هذه البيعة.

بهذه الروعة من السموِّ والبيان، والتمثيل الذي يفوق التصور والخيال، جاءت الآية الكريمة لتقرر جزاء المجاهدين، الذين بذلوا أرواحهم لله، واستُشهدوا في سبيله، إيماناً بوعده تعالى، وتصديقاً بما سجَّله لهم في كتبه المنزَّلة، فلا أحد أكرمُ من الله، ولا أحد أوفى بعهده من الله، ولْنمعن النظر مرَّةً أخرى في كتاب رب العالمين، لنرى جزاء المجاهدين ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ بأنّ لَهُمْ الجَنَّةَ﴾ ثم بيَّن السبب فقال ﴿يُقَاتِلُوْنَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلون ويُقْتَلُوْنَ﴾ ثم ذكر تعالى الضمان فقال ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقَّاً في التَّوراةِ والإِنْجيلِ والْقُرْآنِ﴾ ثم أكَّد العقد بأنه عقد التزام لا بدَّ من الوفاء به ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي لا أحد أَوْفَى منه تعالى بما وعد، ولا أحد أعظمُ وفاءً بعهده من رب العزة جل وعلا، وختم الآية بالبشارة العظيمة بالخبر الجازم القاطع بدخول دار النعيم ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾.

«بيعة الأنصار ليلة العقبة»

روى المفسرون عن محمد بن كعب القرظي قال: «لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وهم سبعون نفساً، قال عبدالله بن رواحة لرسول الله عليه السلام: اشترط يا رسول الله لربك ولنفسك ما شئتَ، فقال: أشترطُ لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترطُ لنفسي أن تمنعوني ممَّا تمنعون منه أنفسكم وأموالكم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا؟ قال: الجنة، قالوا: ربح البيعُ، لا نُقِيلُ ولا نستقيل»(1).

«أصناف السعداء أهل الجنة»

ثم ذكر تعالى أصناف السعداء، الأبرار الأطهار، الذين هم أهلٌ لدخول جنات النعيم، فقال تقدست أسماؤه ﴿التَّائِبون، العَـابِدونَ، الحامِدُوْنَ، السَّائِحونَ، الراكِعونَ، السَّاجِدُوْنَ، الآمِرونَ بالمعْروفِ، والنَّاهُوْنَ عن المُنْكرِ، والحافِظُوْنَ لحدودِ اللَّهِ، وبَشِّرِ المؤْمِنِينَ﴾ وهذه الآية تفصيل وتوضيح لأوصاف المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لله، فنالوا عزَّ الدنيا والآخرة، وقد ذكر تعالى من صفاتهم تسع صفات، كلُّها جليلةً رفيعة:

الأولى: التوبةُ النصوح، وهي التوبة من الشرك، والبراءة من النفاق، وترك الفواحش والمنكرات، وإليها الإشارة بقوله تعالى ﴿التائبون﴾.

الثانية: العبادة الصادقة، وهي بالمحافظة على فرائض الله، قال الحسن: هم الذين عبدوا الله في السراء والضراء، وإليها والإشارة بقوله ﴿العابدون﴾.

(1) تفسير غرائب القرآن للنيسابوري ١١/٢٤ والتفسير الكبير ١٦/١٩٩ وتفسير القرطبي وابن كثير.

الثالثة: الشكر على نعم الله التي لا تحصى، وذلك باللسان، والجَنَان، والأركان، وإليها الإشارة بقوله تعالى ﴿الحامدون﴾.

الرابعة: السياحة في الأرض، وهي السير والذهاب في المُدن والقفار، للعظة والاعتبار، وإليها الإشارة بقوله ﴿السائحون﴾.

الخامسة والسادسة: المحافظة على الصلاة، والإكثار من الركوع والسجود في الأسحار، وإليها الإشارة بقوله ﴿الراكعون الساجدون﴾.

وإنما كنّى تعالى عن الصلاة بالركوع والسجود، لأنه في الانحناء في الركوع تعظيم الرب المعبود، وفي السجود غاية الخضوع والذل، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد كما ورد في الحديث الصحيح.

السابعة: الأمر بالمعروف، وهو كل ما استحسنه الشرع من قول أو عمل، ويدخل فيه النصح والإرشاد، وإليه الإشارة بقوله ﴿الآمرونَ بالمعْرُوف﴾.

الثامنة: النهي عن المنكر، وهو كل ما استقبحه الشرع من قول أو عمل، ويدخل فيه الكبائر والصغائر، وإليه الإشارة بقوله ﴿والنَّاهون عن المنكر﴾.

التاسعة: الوقوف عند حدود الله، والاستمساك بما شرع الله من أحكام، وحلال وحرام، وإليه الإشارة بقوله ﴿والحافِظوْنَ لحدود اللَّهِ﴾.

وقد ختم الله الآية الكريمة بالبشارة بالسعادة المنشودة التي يسعى إليها كل عاقل فقال ﴿وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ﴾ أي بشر المؤمنين يا محمد بالفوز بجنات النعيم، وحذف تعالى المبشَّر به، إشارة إلى أنه لا يدخل تحت

حصر، بل لهم ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولو قال مثلاً: بشرهم بالحور العين، أو بالبساتين والأنهار لكان اللفظ قاصراً.

«النهي عن الاستغفار للمشركين»

وبعد هذا البيان الشافي عن أحوال السعداء الأبرار، ذكر تعالى مآل الكفرة الفجار، فنهى المؤمنين عن الاستغفار لهم، أو طلب الرحمة والشفاعة، بعد أن ماتوا على الكفر والضلال، فقال تقدست أسماؤه ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجحيم﴾.

والمعنى: ما صحَّ ولا استقام عقلاً ولا شرعاً أن يطلب الرسول والمؤمنون الشفاعة والمغفرة للكفار، بعد أن وضح لهم أنهم أصحاب النار، ولا ينبغي للنبي ولا لأحدٍ من المؤمنين أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أقرباء لهم، لأن الإيمان والكفر ضدان لا يجتمعان، والمؤمن حبيبُ لله، والكافر عدوٌ لله فكيف يلتقيان؟ وقد روى مسلم في صحيحه في سبب نزول هذه الآية أنه «لما حضرت أبا طالب الوفاةُ، دخل عليه رسول الله ﷺ، وعنده «أبو جهل» و«عبدالله بن أمية» فقال: أي عمّ قل «لا إله إلَّا الله» كلمةً أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وابن أبي أمية يا أبا طالب: أترغبُ عن ملة عبد المطلب؟ - أي أتترك دين آبائك وأجدادك وتدخل في دين محمد؟ - فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالـة، حتَّى قال أبو طالب آخر ما كلَّمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول «لا إله إلَّا الله» فقال رسول

الله ﷺ: أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿ما كانَ للنَّبي والَّذينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِروا للمشْرِكينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبى..﴾ الآية ونزل قوله تعالى ﴿إنك لا تهدي من أحببتَ ولكنَّ اللَّهَ يهدي من يشاء..﴾ ثم ذكر تعالى السبب الذي حمل إبراهيم الخليل على الاستغفار لأبيه المشرك فقال تقدست أسماؤه ﴿وما كَانَ اسْتِغْفَارُ إبْرَاهيمَ لأبيهِ إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيَّاهُ فَلَمَّا تبيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إنَّ إبْرَاهيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ وكأن الآية تقول: اقتد يا محمد بإبراهيم الخليل، فإنه ما استغفر لأبيه، إلاَّ لأن أباه آزر كان قد وعده أن يؤمن، فكان يستغفر له بناءً على ذلك الوعد، فلما تبين لإبراهيم أن أباه مُصِرٌّ على الكفر، تبرأ من أبيه وترك الاستغفار.. اللهم إنا نعوذ بك من حال أهل النار، ونسألك مغفرتك ورضوانك يا أرحم الراحمين(١).

«الحديث عن غزوة تبوك وما فيها من غرائب»

لا تـزال أحداث «غزوة تبوك» تطالعنا بأخبارها العجيبة، وأحوالها المدهشة، فلقد خرج المسلمون إلى تبوك في سنة مجدبة، وحرٍّ شديد، وعسرٍ من الزاد، والماء، والراحلة، ولهذا تسمى هذه الغزوة بـ «غزوة العسرة» وقد حدثت للمسلمين فيها شدائد وأهوال، ونالوا المتاعب والمصاعب، من شدة الحر، وبعد الطريق، وقلة الزاد والمركب، وكثرة العدو الذي لاقوه، وبالجملة فقد كانت أصعب الغزوات وأشدَّها على المسلمين، وقد ذكرها تبارك وتعالى في كتابه العزيز، وصوَّرها بصورتها الواقعية، لبيان ما فيها من الشدائد والمتاعب فقال تقدست أسماؤه ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ على النَّبيِّ والمهاجِرينَ والأَنْصَارِ الَّذينَ اتَّبَعُوهُ في سَاعَةِ العُسْرةِ

(١) انظر فتح القدير للشوكاني، وروح المعاني للألوسي، والمحرر الوجيز لابن عطية.

مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزيغُ قُلُوْبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

روى الحافظ ابن كثير عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد ـ أي حرٍّ شديد ـ فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظننَّا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر البعير ـ يعني الجمل ـ فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر يا رسول الله: إن الله عز وجل قد عوَّدك في الدعاء خيراً فادع لنا ـ يعني عوَّدك استجابة دعائك فادع الله أن يغيثنا فقد كدنا نهلك ـ فقال ﷺ: وتحبُّ ذلك؟ قال: نعم، فرفع يديه فلم يُرجعهما حتى سالت السماء، فأهطلت ثم سكنت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نرها جاوزت العسكر» والتعبير بقوله تعالى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ يوحي بالشدة والهول، والكرب العظيم الذي نال المسلمين، حتى كاد بعضهم يُفتن في دينه، فيترك المعركة ويولي أدباره راجعاً إلى المدينة، ولكنَّ الله عصمهم فصبروا، وثبتوا، واحتسبوا، ولهذا قال تعالى ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي وفقهم للثبات في الميدان، وتاب عليهم لما ندموا ﴿إِنَّه بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي لأنه تعالى لطيف بالمؤمنين رحيم بهم، لا يريد لهم إلاَّ الخير والأجر، والمغفرة والمثوبة.

«المتخلفون من المؤمنين عن غزوة تبوك»

ولقد كان من المؤمنين الصالحين أناس تخلفوا عن غزوة تبوك، كسلاً وميلاً إلى نعيم الدنيا، ولم يتخلفوا عنها نفاقاً وبغياً، كما فعل كثير من المنافقين، وكان من جملة هؤلاء الذين تخلفوا من أهل الإيمان،

ثلاثة أشخاص، يشهد الجميع لهم بالتقى والصلاح، والحب لله ورسوله، وهم «كعبُ بن مالك» و«هلالُ بن أمية» و«مرارة بن الربيع» وفيهم نزل القرآن الكريم معاتباً ثم تائباً، وفيهم يقول تقدست أسماؤه ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذين خُلِّفُوا حَتَّى إذا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بما رَحُبَتْ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إلَّا إلَيْهِ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوابُ الرَّحِيمُ﴾.

«قصة الثلاثة كما في البخاري»

ولنفسح المجال لشيخ المحدثين الإمام البخاري رحمه ليحدثنا عن قصتهم، وقصة توبتهم، وما كان من أمرهم في آخر المطاف: عن عبدالله بن كعب قال «سمعتُ «كعب بن مالك» يُحدِّث بحديثه حين تخلف عن رسول الله في غزوة تبوك، قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها قطُّ، إلَّا في غزوة تبوك، غير أني تخلفتُ في «غزوة بدر» ولم يُعاتب أحداً تخلَّف عنه، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدرٌ أذكرَ في الناس منها، وكان من خبري حين تخلفتُ عن رسول الله ﷺ في «غزوة تبوك» أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعتُ قبلها راحلتين قطُّ حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله يريد غزوةً إلَّا ورَّى بغيرها - أي أوهم أنه يريد غيرها - حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، واستقبل عدواً كثيراً، فجلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أُهْبة غزوهم - أي ليستعدوا بما يلزمهم في سفرهم - فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع

رسول الله كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد بذلك الديوان ـ قال كعب: فقلَّ رجل يريد أن يتغيَّب إلَّا ظن أن ذلك سيخفى عليه، ما لمْ يَنْزل فيه وحيٌ من الله عز وجل، وغزا رسول الله تلك الغزوة، حين طابت الثمارُ والظلال، فأنا إليها أصعُر ـ أي أميل إليها ـ فتجهز رسول الله والمسلمون معه، وطفقتُ أغدو كي أتجهز معه، فأرجعُ ولم أقض شيئاً، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلكَ إذا أردتُ.

فلم يزل يتمادى بي حتى استمرَّ بالناس الجدُّ، فأصبح رسول الله غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، فلم يزل ذلك بي حتى أسرعوا وتفارط الغزوُ، فهممتُ أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلتُ، ثم لم يُقدَّر لي، فطفقت إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوةً، إلَّا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق ـ أي مطعوناً عليه بأنه منافق ـ أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوك: ما فعل كعبُ بنُ مالكٍ؟ فقال رجل من بني سَلِمة: يا رسول الله حبسه بُرْداه والنظرُ في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلَّا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله قد توجه قافلاً من تبوك، حضرني بثّي ـ أي حضرني الحزن الشديد ـ فطفقت أتذكر الكذبَ وأقول: بماذا أخرج من سَخَطه غداً، وأستعين على ذلك بكل ذي رأيٍ من أهلي، وأصبح رسول الله قادماً، وكان إذا قدم من سفرٍ بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون ـ أي المتخلفون عن الخروج معه إلى تبوك ـ يعتذرون إليه ويحلفون، وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم

واستغفر لهم، ووَكل سرائراهم إلى الله تعالى، حتى جئتُ فلما سلَّمتُ تَبَسَّم تَبسُّم المغضب ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: ما خَلَّفك؟ ألم تكُنْ قد ابتعتَ ظهرك؟ - أي اشتريت راحلة - قلت يا رسول الله: إني والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيتُ أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أُعطيت جدلاً - أي فصاحة وبراعة - ولكني والله لقد علمتُ لئن حدَّثتُك اليوم حديثَ كَذِبٍ ترضَىٰ به عني، ليوشكنَّ الله أن يسخطك عليَّ، وإن حدثتك بحديث صدقٍ تجد عليَّ فيه، إني لأرجو عقبى ذلك، والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قطُّ أفرغَ ولا أيسرَ مني حين تخلَّفتُ عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أمَّا هذا فقد صَدَق، فقم حتى يقضي الله فيك» فقمتُ، فقلت: هل لقي معي هذا أحدٌ؟ قالوا: نعم لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت وقيل لهما مثلَ ما قيل لك، قلتُ: من هما؟ قالوا «مُرَارة بنُ الربيع» و «هلالُ بن أمية» فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً، لي فيهما أسوة، ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلَّف عنه، فاجتنبنا الناس، حتى تنكَّرت لي في نفسي الأرضُ فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبثَ الوحي - أي تأخر نزول الوحي - إذا إنسان يأتيني فيقول إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت لامرأتي إلحقي بأهلكِ فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلِكَ، فلما كمل لنا خمسون ليلة، قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ يقول بأعلى صوته: يا كعبَ بنَ مالك أبشرْ، فخررت ساجداً وعرفت أنه قد جاء فرج، فآذن رسول الله الناسَ بتوبة الله علينا حين صلَّى صلاة

الفجر، وجعل الناس يتلقوني يهنئوني بالتوبة، فجئت إلى رسول الله فلما سلَّمتُ عليه قال ـ وهو يبرق وجهه من السرور ـ أبشر بخير يومٍ مرَّ عليك مذ ولدتك أمك؟ فقلت يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله ورسوله، فقال ﷺ: أمسكْ عليك بعض مالك فهو خير لك، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ والمهاجِرينَ والأنْصَارِ الَّذين اتَّبَعُوهُ في ساعَةِ العُسْرةِ..﴾ إلى قوله ﴿وعلى الثلاثَةِ الذينَ خلِّفوا حتى إذا ضاقتْ عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسُهم..﴾ الآية.

«عتابٌ لبعض الصحابة رضوان الله عليهم»

لا نزال نلقي الأضواء على سورة التوبة، لنستجلي ما فيها من إشراقات وأنوار، ولا تزال السورة الكريمة تطالعنا في آياتها البيِّنات بأحداث «غزوة تبوك» وما كان فيها من عبرٍ وعظات، وأنباءٍ مثيرة تستدعي منَّا التدبر والتفكر، والوقوف قليلاً على مشارف تلك الغزوة المجيدة.

لقد تخلَّف عن الخروج مع رسول الله ﷺ كثير من المنافقين، وتخلف عنه بعض المؤمنين الصالحين المخلصين، تخلفوا عنه خلوداً إلى الراحة، وخوفاً من شدة الحر وبعد الطريق، وكان الواجب عليهم أن يهرعوا مع رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وألَّا يُؤثروا أنفسهم عن نفسه بالراحة، ويتركوه يلاقي المتاعب والشدائد، ولهذا عاتبهم الله عز وجلَّ أشدَّ العتاب، وأمرهم أن يلازموا رسول الله في السَّفر والحَضَر، وأن يكونوا دائماً مع أهل الصدق والوفاء، والبذل والفداء، وأن يُفدوا رسول الله بالمُهَجِ والأرواح، وأن يكابدوا معه ما يكابد من الأهوال والخطوب، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿يَا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقوا اللَّهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم، وكونوا دائماً مع أهل الصدق واليقين، وأشرفهم وأعلاهم في هذا الميدان كعباً رسول الله ﷺ، فكأنه يقول: لا تفارقوه أبداً، بل لازموا صحبته، ثم أكَّد تعالى هذا المعنى بقوله تقدست أسماؤه ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ المدينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، ولا يَرْغَبوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ولَا نَصَبٌ ولا مُخْمَصَةٌ في سبيل الله، وَلَا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغيظُ الكُفَّارَ، ولا يَنالونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ، إنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجرَ المحْسِنِينَ. ولا يُنْفِقُوْنَ نَفَقَةً صغيرةً ولا كبيرةً، ولا يَقْطَعونَ وادِياً إلَّا كُتِبَ لهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كَانُوا يَعْمَلونَ﴾.

فقد أشارت الآيات الكريمة إلى أمور أربعةٍ هامة وهي:

أولاً: ملازمة التقوى لله سبحانه في السر والعلن.

ثانياً: الانضمام في زمرة أهل الصدق وهجرِ أهلِ النفاق.

ثالثاً: إيثار الرسول وتفضيله على أنفسهم في اليسر والعسر، وملازمتهم له في البأساء والضراء.

رابعاً: تقرير الأجر لهم في كل العبادات والطاعات، وأن الثواب على قدر المشقة.

أما الأمر الأول: فقد نبهت عليه الآية الأولى، وهو أن يكون العبد متقياً لله في السر والعلن وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ والتقوى ملاكُ الدين كلِّه، فمن اعتصم بالتقوى حفظ دينه، واستقام على المنهج السوي، فكان لله خاشعاً، وله مطيعاً ولحرماته مجتنباً واكتفى بذلك عن مراقبة الناس له، وخلاصة التقوى كما قال

بعض العلماء الربانيين: أن لا يراك حيث نَهَاكَ، وأن لا يفقدك حيث أمرك، والتقوى وصية الله عز وجل للأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ . .﴾ وما أحسن قول القائل:

واتَّـقِ الله فَـتَـقْـوَىٰ الله مَـا جَاوَرَتْ قَلْبَ امْرِىءٍ إلَّا وَصَـل
لَيْسَ مَنْ يَقْـطَعُ طُـرْقَـاً بَـطَلاً إنَّـمَـا مَـنْ يَـتَّـقِ الله الـبَـطَل

أما الأمر الثاني: فهو ملازمة أهل الصدق واليقين، ومجانبةُ أهل الضلال والنفاق، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فمن انضم إلى زمرة أهل الصِّدق اكتسب من طباعهم الحميدة، وشمائلهم الفاضلة، لأن الصاحب ساحب كما يقولون، وإذا أردت أن تعرف إنساناً فاسأل عمن يصاحبه، وكما قال المصطفى ﷺ (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)(١) ولقد نجا كعب بن مالك وزملاؤه بسبب الصدق، وهلك المنافقون بسبب الكذب، كما مرَّ في قصة المتخلفين عن غزوة تبوك.

«قصة الأعرابي مع النبي ﷺ»

وفي الآيـة دلالة على فضيلة الصـدق، وكمال درجتـه، ومن خصائص الصدق تلك القصة العجيبة، فقد رُوي أن أعرابياً جاء إلى رسول الله عليه السلام، فقال إني أريدُ أن أومن بك، إلَّا أني أحبُّ الخمر، والزنى، والسرقة، والكذب، والناس يقولون: إنك تُحرِّم هذه الأشياء كلَّها، ولا طاقة لي بتركها بأسرها، فإن قنعتَ مني بترك واحدٍ منها آمنتُ بك، فقَبِل ذلك وشرط عليه الصِّدقَ وترك الكذب، ثم أسلم

(١) من تفسير غرائب القرآن للنيسابوري ١١/٣٥ والفخر الرازي ١٦/٢٢١.

الأعرابي، فلما خرج من عند رسول الله عليه السلام عرضوا عليه الخمر، فقال: إن شربتُ وسألني رسولُ الله عن شربها وكذبتُ فقد نقضتُ العهد، وإن صدقتُ أقام عليٌّ الحدَّ فتركها، ثم عُرض عليه الزنى فجاءه ذلك الخاطرُ فتركه، وكذا في السرقة تفكر في عقوبتها فتركها، ثم جاء إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقال له: ما أحسنَ ما فعلتَ، لما منعتني عن الكذب انسدَّتْ أبواب المعاصي كلُّها عليَّ، وتبتُ عن الجميع.

أما الأمر الثالث: فهو فداؤهم للرسول عليه السلام وإيثاره وتفضيله على أنفسهم وأهليهم، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ المدينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنْ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسولِ اللَّهِ ولا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾.

والمعنى: ما صحَّ ولا استقام لأصحاب النبي من أهل المدينة، ولا لمن حولهم من سكان البوادي من الأعراب، أن يتخلفوا عن الغزو مع رسول الله، ولا يترفعوا بأنفسهم عن نفسه، بأن يكرهوا له الشدائد والمكاره، ولا يكرهوها له عليه السلام، فحقه عليهم أن يفدوه بالمهج والأرواح، وأن يؤثروه على أنفسهم بالراحة وطيب المقام، فكيف يتخلفون عنه ويتركونه يقاسي الأهوال والخطوب؟ دون أن يسارعوا إلى مرافقته في تلك الغزوة؟ وقد دلت الآية على أن شأن المؤمن الصادق أن يؤثر الرسول ويقدّمه على نفسه، وأن يحبه أكثر مما يحبُّ نفسه وأولاده، كيف وقد قال عليه أفضل الصلاة والتسليم «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه، ووالده، وولده، والناس أجمعين» ومعنى قوله تعالى ﴿ولا يَرْغَبوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي لا يصح لهم أن يرغبوا عن صحبة رسول الله بسبب صلاح أنفسهم

وراحتها، بل عليهم أن يصحبوه على البأساء والضراء، ويرضوا لأنفسهم ما يرضاه الرسول لنفسه، لأن نفسه أعزُّ نفسٍ عند الله، فإذا تعرضت ـ مع كرامتها ـ للخوض في الشدائد، وجب على سائر الأنفس ألا يضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه الصلاة والسلام، وفي هذا النهي تهييج شديد، وتوبيخ عظيم لمن تثاقل عن الخروج مع رسول الله في غزوة تبوك.

أما الأمر الرابع: فقد رغَّب تعالى في الجهاد، وذكر ما فيه من الأجر والثواب، على كل أمرٍ نالهم به مشقة، صغيرةً أو كبيرة، فوضَّح لهم أنهم مثابون على أنواع المتاعب وأصناف الشدائد، بل على جميع الحركات والسكنات، مدة الذهاب والإياب، وإليه الإشارة بقوله تقدست أسماؤه ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصةٌ في سبيلِ اللَّهِ، وَلَا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغيظُ الكُفَّارَ وَلَا يَنالُوْنَ مِنْ عَدُوٍ نَيْلاً إلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ..﴾ فذكر تعالى خمسة أشياء في هذه الآية من ألوان الشدائد والمكاره التي تنال الإنسان: أولها الظمأ وهو: شدةُ العطش، وثانيها النَّصَبُ وهو: الإعياء والتعب، وثالثها المخمصة وهي: المجاعة الشديدة التي يظهر بها ضمور البطن، ورابعها وطىء أراضي الكفار، وفي ذلك ذل لهم وهوان، وإغاظة لهم شديدة، وخامسها نيلهم من الأعداء بالأسر والقتل، والتشريد والهزيمة، ثم رتَّب على ذلك البيان الساطع الواضح فقال ﴿إلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أي كتب لهم به الأجر والثواب عند الله، ثم زاد في البيان فقال ﴿ولا يُنْفِقُوْنَ نَفَقَةً صَغِيرةً وَلَا كَبِيرَةً ولا يقْطَعونَ وَادِياً إلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْملونَ﴾ اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل، والجهاد في سبيلك لنفوز بالنعيم المقيم في دار الخلد والكرامة.

«صور من البطولات والتضحيات»

لا تـزال السورة تتحدث عن المتخلفين عن رسول الله عليه السلام في غزوة تبوك، وقد نبَّه تعالى المؤمنين في الآيات السابقة إلى أنه لا يصيبهم أدنى بلاءٍ أو كرب في خروجهم للجهاد في سبيل الله، إلاَّ عوَّضهم الله عليه أعظم الأجر والثواب، وأنهم لا ينفقون أيَّةَ نفقةً، كانت، صغيرةً أو كبيرة، إلاَّ كانت في ميزان حسناتهم يوم القيامة، يرونها أضعاف أضعاف ما قدَّموه، لأن الله تعالى كريم وخزائنه لا تنفد، وفي غزوة تبوك تجلت صور من البطولات، والتضحيات، والسخاء والكرم، المنقطع النظير، فقد روي أن النبي ﷺ حثَّ أصحابه على البذل والإنفاق، لتجهيز جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال يا رسول الله: عليَّ مائةُ بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها ـ أي مجهَّزة بكامل الركاب وما يحتاج إليه الغازي ـ ثم حثَّ الناس أيضاً فقال عثمان: عليَّ مائةُ بعيرٍ أخرى بأحلاسها وأقتابها، ثم نزل ﷺ عن درجة المنبر، وحثَّ الناس على الإنفاق، فقال عثمان: عليَّ مائةٌ أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال الراوي: فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحرِّكها «ما عَلَى عثمانَ ما عملَ بعد هذا»[1] ثم تتابع الناس في الاندفاع نحو العطاء حتى تجمَّع بين يدي رسول الله ﷺ المال الكثير، وجاء بعض الصحابة بألف دينارٍ فصبَّها في حجر النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم، وهكذا كان كل فردٍ منهم يبذل بقدر مستطاعه ليشارك في أعباء غزوة تبوك، وقد سمعوا قول الله العلي الكبير ﴿ولاَ يُنْفِقُوْنَ نَفَقَةً صَغِيرَةً ولا كبيرةً ولا يَقْطعونَ وادِياً إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما

---

(١) انظر تفصيل القصة في تفسير ابن كثير «المختصر» ٢/١٧٨.

كَانُوا يَعْملونَ﴾ ولذلك سارعوا نحو البذل والعطاء، بنفوس رضيَّة، وهِمَمَ عليَّة، فنالوا عزَّ الدنيا وعزَّ الآخرة.

«لا ينبغي للمؤمنين أن يخرجوا جميعاً للجهاد»

ولما نزلت آيات العتاب للمتخلفين عن غزوة تبوك، وشدَّد الله النكير على أهل النفاق، قال المؤمنون والله لا نتخلف عن شيءٍ من الغزوات مع الرسول عليه السلام ولا عن سرية، فلما قدم الرسول الكريم المدينة المنورة، وأرسل السرايا لغزو الكفار، نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو، وتركوا الرسول عليه السلام وحده بالمدينة، فأنزل الله جلَّ وعلا هذه الآية الكريمة ﴿وَمَا كَانَ المُؤْمِنونَ لِيَنْفِروا كافَّةً، فَلَولا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ منْهم طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّين، وَلِيُنْذِروا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إليْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُوْنَ﴾.

والمعنى: أنه لا يجوز للمؤمنين أن ينفروا بكليتهم إلى الغزو والجهاد، بحيث تخلو منهم البلاد، بل ينبغي أن يصيروا طائفتين: طائفةٌ تنفر إلى الغزو، وطائفةٌ تبقى في خدمة الرسول، لتتفقَّه في الدين، وتتعلم الشرائع والأحكام، حتى إذا ما رجع الغُزاة المجاهدون، علَّمهم هؤلاء المتفقهون ما نالوه بصحبة الرسول عليه السلام، وذلك لأن الإسلام في بدء دعوته، كان محتاجاً إلى الغزو والجهاد لدفع العدوان، وقهر الأعداء، وكان أيضاً بحاجة إلى وضع الأسس التي تسير عليها الدولة الإسلامية، فكانت التكاليف تحدُث، والشرائع تنزل، وآيات الذكر الحكيم، ترسم لهم المنهج المستقيم، ليسيروا على ما شرعه لهم رب العالمين، فكان بالمسلمين حاجة إلى من يكون مقيماً بحضرة الرسول، فيتعلَّم تلك الشرائع، ويحفظ تلك التكاليف، ويبلغها إلى

الغائبين، وبذلك يتم أمر الدين، وتعلو رايته، ويستقيم نظام الحياة.

ومعنى قوله سبحانه ﴿فَلَوْلَا نَفَر مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّين﴾ أي فهلاَّ نفر من كل جماعة كثيرة، فئة قليلة، ليظلوا مع الرسول، وليتفقهوا في الدين، فيعرفوا الحلال من الحرام؟ ثم قال تعالى ﴿وَلِيُنْذِروا قَوْمَهُمْ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُوْنَ﴾ أي وليخوِّفوا قومهم ويرشدوهم إذا رجعوا إليهم من الغزو، لعلهم يخافون معاصيَ الله فلا يفعلون شيئاً مما يسخط الله!؟.

«فضل التفقه في الدين»

والآية الكريمة تشير إشارة واضحة إلى فضل التفقه في الدين، حيث إن الله عز وجل أسقط فريضة الجهاد عن بعض المجاهدين، من أجل التفقه في الدين، فالفقه في دين الله، يعادل الخروج في سبيل الله، فهناك جهاد السلاح، وهناك جهاد الكلمة، وجهاد الدعوة إلى الله، ومن أجل ذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[1] وفي الحديث الصحيح «فقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألف عابد»[2] ولهذا أمر القرآن الكريم أن تمكث طائفة في المدينة المنورة مع الرسول، لتتلقَّى عنه علوم الشريعة الغراء، وتتفقه في دين الله، حتى إذا ما عاد المجاهدون من غزوتهم، علَّمهم هؤلاء ما اقتبسوه من هَدْي النبوة، ومن تعاليم الوحي، فكانوا جميعاً ورثة الأنبياء، كما نبهت الآية الكريمة إلى أنه ينبغي أن يكون المقصودُ من التفقه والتعليم، دعوةَ الخلق إلى الحقِّ، وإرشادهم إلى الدين القويم، والصراط المستقيم، لأن الآية تشير على أنه تعالى أمرهم بالتفقه في

(١) الحديث رواه البخاري، ومسلم، وابن ماجه، ورواه الطبراني بأوسع من هذا.

(٢) الحديث رواه البيهقي، والدارقطني، وتمامه (ولكل شيءٍ عمادٌ، وعمادُ هذا الدِّينِ الفِقهُ).

الدين، ليعلّموا إخوانهم ويرشدوهم، ويحذَروهم سخط الله وانتقامه كما قال سبحانه ﴿ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ فكلُّ من تفقَّه وتعلم لهذا الغرض الشريف، كان على المنهج القويم، والصراط المستقيم، ومن عدل عنه وطلب الدنيا بالدين، كان من الأخسرين أعمالاً ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُوْنَ صُنْعَاً﴾.

«البدء في الجهاد بالأقرب فالأقرب»

ثم تنتقل السورة الكريمة لترشد المؤمنين إلى الطريق الأصوب والأصلح في أمر قتال الأعداء، فإنَّ الواجب على الأمة أن تطهِّر مجتمعها أولاً من الأعداء، ثم تنتقل إلى ما حولها، ثم تسعى إلى تطهير الأرض من رجس الكفرة المجرمين، وتلك هي إحدى الخطط الحربية الهامة، التي أرشدنا إليها القرآن الكريم، أن يبدأ المسلمون بالأقرب فالأقرب، حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد، لأن قتال الجميع دفعةً واحدة متعذر، فيُبدأ بقتال العدو القريب لنأمن جانبه ثم إلى من بعده، وهكذا إلى أن نقضي على الكفار، وفي ذلك ربنا تقدست أسماؤه ﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلوا الَّذِينَ يَلونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ، وَلْيَجِدُوا فيكُمْ غِلْظَةً واعْلَموا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقِينَ﴾.

والمعنى: قاتلوا يا معشر المؤمنين أعداء دينكم، الذين هم أقرب إلى دياركم، حتى تأمنوا شرَّهم، ثم انتقلوا إلى مَنْ بعدهم، فإن ذلك أصلح لكم وأنفع لبقاء قوتكم، والانتصار على عدوكم، ولا تقاتلوا البعيد وتتركوا القريب، وليجد هؤلاء الكفار منكم قسوةً وشدة عليهم، واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والعون والتأييد.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية: «أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار، الأقربَ فالأقربَ إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف، وغيرَ ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر الأحياء في دين الله أفواجاً، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم لأنهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك، ثم رجع لأجل جُهْد الناس، وجدب البلاد، وضيق الحال، وذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم عاجلته المنيَّةُ صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بواحدٍ وثمانين يوماً، فاختاره الله لما عنده، وقام بالأمر بعده وزيرُه وخليفتُه «أبو بكر» الصدِّيق رضي الله عنه، فأدى عن الرسول ما حمله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم، عبدةِ الصلبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد، وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، وكان تمام الأمر على يديْ وصيه من بعده ووليّ عهده «الفاروق» عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً، وهكذا كسا الله الإسلام حلة سابغة، وعلت كلمة الله وظهر دينه، وبلغت الملة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، وكلما غلبوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالاً لقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ صدق الله العظيم.

«نهاية النفاق والمنافقين»

وبعد أن أمرت السورة بقتال الكفرة أعداء الله، عادت لتُنقِّب عن أحوال المنافقين، وتكشف الستار عنهم مرَّة أخرى، وتفضح أمرهم أمام أبصار الناس أجمعين، فهم العدوُّ الأول، وهم العدوُّ الأخطر، لأنهم يتزيون بزي الدين، ويلبسون جلود الضأن من اللين، يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ويزعمون أنهم مسلمون، قاتلهم الله أنَّى يؤفكون، ولما انطوت عليه نفوسهم الخبيثة من المكر، والخبث، والدهـاء، ولما يحملون في صدورهم من الشحناء والبغضاء، على الإسلام وأهله، والدين وحزبه، جاءت الآيات الكريمة لتطلعنا على قبائح المنافقين ومخازيهم، ولتوضِّح الصورة الناطقة عن معتقدهم الخبيث في القرآن والرسول والمؤمنين، ولتكشف الأستار عن أولئك الكفرة الفجار، وفيهم يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَإذا مَا أُنْزِلَتْ سورةٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذهِ إيماناً﴾؟ يقولون ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء، إمعاناً في الكفر والضلال واستخفافاً بالقرآن ومُنْزِله، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرونَ. وأمَّا الَّذِينَ في قلوبِهِمْ مَرضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ وَمَاتوا وَهُمْ كافِرونَ﴾.

فقد حكى تعالى أنه حصل للمؤمنين بسبب نزول الآيات البينات أمران: أحدهما: ازدياد الإيمان واليقين، والثاني: الاستبشار بوعـد الجبار، وما أعدَّه لهم من الثواب في دار القرار، فالمؤمن يزداد بنزول الآيات تصديقاً ويقيناً، وذلك لما يتجدد عنده من البراهين والأدلة، عند نزول كل سورة أو آية، فيقرُّبها ويعترف بأنها حقٌّ من عند الله، فيقوى رجاؤه، ويشتدُّ شوقه إلى الجنة ونعيمها ولذلك قال سبحانه ﴿وهُمْ يَسْتَبْشِرونَ﴾ وأما المنافقون الذين تقمَّصوا ثوب الإيمان، وتـظاهروا

بالصلاح وخشية الرحمن، فقد حصل لهم أمران أيضاً:

أولهما: زيادة الرجس والضلال، فقد كانوا في نفاق وشكٍّ، وضلالٍ وجهل، وسفهٍ وتكذيب، فازدادوا بنزول الآيات رجساً فوق رجسهم، وضلالاً فوق ضلالهم، وسفهاً وجهلاً فوق ما هم فيه من الرجس والضلال، وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي مرض النفاق والإيمان، لا مرض الجسم والبدن ﴿فزادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ﴾ أي زادتهم نزول الآيات نفاقاً إلى نفاقهم، وكفراً إلى كفرهم.

الأمر الثاني: أن نـزول تلك الآيـات، كـانت سبباً لشقـائهم وتعاستهم، فإنهم لما كذَّبوا بها أورثتهم ظلمةً في قلوبهم، وعمىً في أبصارهم، حتى هلكوا وهم مصرُّون على التكذيب والجحود، وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرونَ﴾ وكان المفروض أن تستنير بصائرهم بنور القرآن، وهُدَى الرحمن، ولكنَّ الأمر انعكس، فأصبح القرآن الذي هو سببُ الهداية، سبباً للغواية والعماية، كما قال سبحانه ﴿قُلْ هُوَ للَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وشفاءٌ، والذينَ لا يُؤْمِنُوْنَ في آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيهِمْ عَمَىً، أُولئِكَ ينادَوْنَ من مَكانٍ بَعيدٍ﴾. وقال تقدست أسماؤه ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ للمُؤْمِنِيْنَ، ولاَ يَزيدُ الظَّالِمِيْنَ إلاَّ خَساراً﴾.

وتمعَّنْ إلى هذه المقارنة والنتيجة بين الفريقين: فريق المؤمنين المهتدين، وفريق المنافقين الضالين، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادَتْهُمْ إيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرونَ. وأمَّا الَّذين في قلوبِهِمْ مَرَضٌ فزادَتْهُمْ، رِجْساً إلى رجسِهِمْ وماتوا وهم كافِرونَ﴾ لترى الفارق الكبير بين جند الرحمن، وجند الشيطان!! وهذه من جملة شقائهم وارتكاسهم في مهاوي الضلال.

ثم تتابع السـورة الكريمة الحديث عن المنافقين الزائغين، فتصور إمعانهم في الضلالة، فهم مع كل الآيات والنذر، لا يعتبرون ولا يتعظون، وما ذلك إلا لانطماس بصائرهم، واستحواذ الشيطان عليهم، ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ في كُلِّ عَامٍ مرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ ولا هُمْ يَذَّكَّرونَ﴾ والأسلوب أسلوبُ إنكـار وتوبيـخ، وتعجيب للسامـع من حالهم، والمعنى: أو لا يرى هؤلاء المنافقون، المستهزئون بآيات الله، أننا نمتحنهم ونبتليهم بفضح سرائرهم، وكشف مخازيهم كل سنةٍ مرةً أو مرتين حين ينزل فيهم الوحي، ثم لا يرجعون عما هم فيه من النفاق والغيِّ ولا يعتبرون؟ فما لهم لا يفقهون، وهذا نهـاية التهكم بهم والازدراء.

ثم زاد تعالى في الإيضاح والبيان فقال تباركت أسماؤه وتقدست صفاته ﴿وَإذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِنْ أَحَدٍ ثم انصَرَفوا، صَرَفَ اللَّهُ قُلوبَهُم بأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ والمعنى: وإذا أنزلت سورة من القرآن، فيها عيبُ المنافقين وفضيحتهم، وهم في مجلس النبي عليه الصلاة والسلام، ضجُّوا واشمأزوا، ونظر بعضهم إلى بعض، هل يرانا أحد من المسلمين لننصرف، فإنَّا لا نصبر على استماع القرآن وهو يفضحنا، ثم قاموا فانصرفوا من مجلس رسول الله اشمئزازاً وكراهية، قال تعالى ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بأَنَّهم قَومٌ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ أي صرف الله قلوبهم عن الهدى والإيمان، لأنهم قوم سفهاء لا يفهمون الحق ولا يتدبرون، فهم حمقى غافلون.

«الرحمة المهداة»

وبعد أن انتهى الحديث عن المنافقين، جاءت السورة لتتحدث

عن سيد المرسلين، الذي بعثه الله رحمة للعالمين، وختم الله السورة الكريمة ببيان أوصاف هذا النبي العظيم، الذي أكرم الله به الإنسانية، فنقلها من ظلمات الجهل والضلال، إلى نور المعرفة والهداية ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتّمْ، حَريصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤْمِنِينَ رَءوفٌ رَحيمٌ. فَإنْ تَوَلَّوْا فقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ العَرْش العظيم﴾.

«أوصافه السَّنية ﷺ»

فقد وصفه تعالى بأوصاف زكيَّة سنية، عظيمة جليلة، واختار له تعالى من أسمائه القدسيَّة اسمين: «الرءوف» و«الرحيم» فقال ﴿بِالمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ولا عجب فذلك مقام من رفع الله قدره على العالمين، وفضَّله على جميع الأنبياء والمرسلين. وانظر إلى هذا البدء في الآية الكريمة، حيث جاء بأسلوب التأكيد بـ«قد» و«لام القسم» ليذكِّرنا بالنعمة العظمى، والمنَّة الكبرى، ببعثة السراج المنير ﴿لقدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ أي والله لقد جاءكم أيها القوم وأيها العرب، رسول عظيم القدر، رفيع الشأن، ثم قال ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي من جنسكم، رسولٌ عربيٌّ، هاشميٌّ، قرشيٌّ، يبلغكم رسالة الله، تعرفون حسبه ونسبه، وصدقه وأمانته، ونزاهته وطهارته، ثم قال تعالى ﴿عَزيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ﴾ أي صعب وشاقٌّ عليه ما يوقعكم في المشقة والعناء، ﴿حَريصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي حريص على هدايتكم، ووصول النفع إليكم ﴿بالمُؤْمِنِينَ رَءوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي هو عليه السلام شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين، لا يريد لهم إلاَّ كل إحسان وجميل، قال ابن عباس: لم يجمع الله بين اسمين من أسمائه إلاَّ له عليه السلام!

«مثله ﷺ مع أمته»

وقد مثَّل عليه الصلاة والسلام له مع أمته، بهذا المثل الجميل الرائع، الذي يدل على عظيم الشفقة والرحمة لهم فقال: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبهنَّ عنها ـ أي يطردهن عن الوقوع في النَّار ـ وأنا آخذ بِحُجَزكم عن النار ـ أي ممسكٌ بكم من معقد الزنار وسط البطن ـ وأنتم تَفَلَّتون من يدي» «رواه مسلم».

وأخرج الإمام أحمد في المسند عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم، فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته، فقال: إن مثلَه ومثلَ أمته، كمثل قوم سفر، انتهوا إلى رأس مفازة ـ أي صحراء ـ ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة، ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذْ أتاهم رجل في حلَّةٍ حبرة ـ أي في بردة حمراء ـ فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة، وحياضاً رُوَاءً تتبعوني؟ فقالوا: نعم، فانطلق بهم فأوردهم رياضاً معشبة، وحياضاً رُوَاءً، فأكلوا، وشربوا، وسمنوا، فقال لهم: ألم ألقكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً أن تتبعوني؟ فقالوا: بلى، فقال: فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشبُ من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني، فقالت طائفة: صدق لنتبعنَّه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه»[1] وهكذا شأن الرسول مع أمته يدلهم على ما هو أسعد وأحسن وأنفع، ويخرجهم من الضلال إلى الهدى.

(١) انظر مسند الإمام أحمد، ومختصر تفسير ابن كثير.

وقد ختم الله السورة الكريمة بالبراءة من أهل الكفر والضلال، والثقة بنصر الله وكفايته فقال سبحانه ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ وهكذا يتم التناسق البديع بين مطلع السورة وختمها الرائع.

* * *

سُورَةَ يُونُس
مكيّة وآياتها مائة وتسع عشرة آية

«الأهداف الأساسية لسورة يونس»

● سورة يونس من السور المكية، التي تعنى بأصول العقيدة الإسلامية، من الإيمان بالله خالق الأكوان، ومبدع الإنسان، والإيمان باليوم الآخر، وبالكتب والرسل، وسائر أركان الإيمان، وهذه السورة تتميز بطابع التوجيه إلى الإيمان بالرسالات السماوية، وبوجه أخص إلى «القرآن العظيم» خاتمة الكتب المنزَّلة، والمعجزة الخالدة لمحمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، الباقية على مدى العصور والدهور.

● تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الرسالة والرسول، وبيَّنت أن هذه سنة الله في الأولين والآخرين، فما من أمة خلت إلاَّ بعث الله إليها رسولاً، فلا داعي للمشركين للإنكار أو التعجب من بعثة خاتم المرسلين ﴿آلر. تِلْكَ آياتُ الكتابِ الحكيم. أكانَ للنَّاسِ عَجَباً أنْ أَوْحَيْنَا إلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الذينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَم صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قَالَ الكافِرونَ إنَّ هذا لَسَاحِرٌ مُبينٌ﴾.

● ثم تلتها الآيات الكريمة وهي تكشف الستار عن بيان حقيقة «الربوبية» و «الألوهية» و «العبودية» وأساس الصلة بين الخالق والمخلوق، والعابد والمعبود، وعرَّفت الناس بالإلّه الحق، الذي ينبغي

أن يعبدوه، وأن يُسْلموا وجوههم إليه، فهو وحده الخـالقُ الرازق، المحيي المميتُ، المعزُّ المذلُّ، المدبِّرُ الحكيم، وكل ما سوى الله فباطلٌ وهباء ﴿إنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذي خَلَق السَّمَوَاتِ والأَرْضَ فِي سِتَّةِ أيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَى على العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ، مَا مِنْ شَفيعٍ إلَّا مِنْ بَعْدِ إذْنِهِ، ذلِكُمْ اللَّهُ رَبَّكُمْ فاعْبُدُوْهُ أَفَلاَ تَذَكَّرونَ؟ إليْهِ مَرْجِعُكُمْ جَميعاً، وَعْدَ اللَّهِ حقاً، إنَّهُ يَبْـدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ، ليَجْـزِيَ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بالقِسْطِ، والذّينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَميمٍ وَعَذَابٌ أَليمٌ بما كَانُوا يَكْفُرُوْنَ﴾.

● وتناولت السورة الكريمة موقف المشركين المعاندين من الرسالة والقرآن، فنبهت إلى أن هذا القرآن العظيم هو المعجزة الخالدة، الدالة على صدق النبي الأمي، وأنه يحمل برهانه الساطع، ودليله القاطع، على صدق النبي الأمي، الذي جاءهم بهذا الكتاب الخالد، الذي سيظل يحمل برهانه في تفرده وإعجازه، على أنه منزل من عند الله العلي الكبير، وقد تحداهم على أن يأتوا بسورةٍ واحدة من مثله، فعجزوا وانقطعـوا، مع أنهم أساطين الفصاحـة، وملوك البيان ﴿أَمْ يَقولونَ افْتراه، قُلْ فأْتُوا بسُورَةٍ مِثْلِهِ، وادْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. بَلْ كذَّبُوا بما لَمْ يُحيطوا بِعِلْمِهِ، ولمَّا يأتِهِمْ تأويلُهُ، كذلك كذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فانظُرْ كيْفَ كَانَ عاقبَةُ الظَّالِمِيْنَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بالْمُفْسِدِينَ﴾ الآيات.

● وانتقلت السورة لتعريف الناس بصفات الإِلّه الحق، بذكر آثار قدرته ورحمته، وعظمته وجلاله، الدالةِ على التدبير الحكيم، ولفتت الأنظار إلى ما في هذا الكون المشاهد من آثار القدرة الباهرة، والدلائل الساطعة، التي ينبغي ألاَّ يغفل عنها الناس، لأنها تشير إلى وجود الله

ووحدانيته، وهي من أوضح البراهين على عظمته وجلاله وسلطانه ﴿ألا إنَّ للَّهِ مَنْ فِي السَّمواتِ وَمَنْ في الأَرْضِ ، وما يتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعونَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ شُركاءَ، إنْ يَتَّبِعُوْنَ إلاَّ الظَنَّ وَإنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصونَ. هُوَ الَّذِي جَعَلَ لكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ والنَّهارَ مُبْصِراً، إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الآيات.

● وتحدثت السورة عن قصص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فذكرت بالإجمال قصة «نوح» عليه السلام مع قومه المكذبين، وقصة نبي الله «موسى» عليه السلام مع فرعون الجبار، وقصة النبي الكريم «يونس» عليه السلام مع قومه، وما كان من أمرهم بعد أن يئس من صلاحهم، ثم توبة الله عليهم بعد أن فارقهم مغاضباً لهم، والذي سميت السورة باسمه تخليداً لذكراه، وكل هذه القصص لبيان سنة الله الكونية في نصرة المؤمنين، وإهلاك الظالمين ﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامي وتذْكيري بآياتِ الله، فَعَلَى الله تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعوا أمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ..﴾ إلى قوله سبحانه ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ ومَنْ مَعَهُ في الفُلْكِ، وَجعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ، وَأَغْرَقْنا الَّذين كَذَّبوا بآياتِنا، فانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذَرين﴾.

● وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالاستمساك بشريعة الله، ودينه القويم، والصبر على ما يلقى من الأذى في سبيل تبليغ دعوة ربه، فإن العاقبة للمتقين ﴿قُلْ يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الحقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمنِ اهْتَدَى فَإنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإنَّما يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَمَا أنا عَلَيْكُمْ بوَكِيلٍ. واتَّبعْ مَا يُوحَىٰ إلَيْكَ وَاصْبِرْ حتَّى يحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الحاكِمِينَ﴾ صدق الله العظيم.

«الحروف المقطعة في أوائل السور للتنبيه على إعجاز القرآن»

ولنبدأ الآن بتفصيل ما أجملته السورة الكريمة، وما فيها من الإشعاعات النورانية، والفيوضات القدسية، سائلين المولى العلي القدير، أن يفتح علينا فتوح العارفين، لندرك بعض أسرار هذا الكتاب المبين.

يقول تقدست أسماؤه ﴿آلر تِلْكَ آياتُ الكِتابِ الحكيمِ﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين، الذي لا يدخله شك، ولا يعتريه كذب ولا تناقض، وبدء السورة بالحروف المقطعة «آلر» للإشارة والتنبيه على أن هذا الكلام المعجز البليغ، مكوَّنٌ من جنس الأحرف التي يتكون منها كلام العرب، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب العزيز، الذي أُحكمت آياته، وسطعت دلائله وبيناته، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن، يقول العلامة ابن كثير رحمه الله: «إنما ذكرت هذه الحروف المقطعة في أوائل السور، بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها، وهو قول جمع من المحققين، وإليه ذهب الإمام ابن تيمية».

«موقف المشركين من بعثة سيد المرسلين»

ثم تلتها الآيات تذكر موقف المشركين المعاندين، من بعثة سيد المرسلين، فقد استبعدوا أن يكون محمد ﷺ رسولاً، وتعجبوا أن يختار الله رجلاً من الناس يرسله إليهم مع قدرته على بعثة الملائكين المقربين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لما بعث الله تعالى

محمداً ﷺ أنكرت الكفار، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسولُه بشراً، أما وجد الله من يرسلُه إلاَّ يتيم أبي طالب؟» فأنزل الله تعالى ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ، وَبَشِّرِ الَّذينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَم صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قالَ الكافرونَ إن هذا لَسَاحِرٌ مبينٌ﴾.

«دلائل القدرة والوحدانية منبثة في الكون»

ثم ذكر تعالى من دلائل وحدانيته، وعظمته، وسلطانه، ومن دلائل القـدرة الباهـرة، والإبداع في الخلق والتكـوين، خلقَـه للسمـوات والأرض، وعلوَّه على عرشه، وتدبيره لشؤون العالم، فقال تقدست أسماؤه ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّام، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ، يُدَبِّر الأَمْرَ ما مِنْ شَفيعٍ إلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ، ذٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فاعْبُدُوهُ، أَفَلَا تَذَكَّرونَ﴾؟ واستواؤه تعالى على العرش حقيقةٌ لا نعلم كيفيتها، فهو سبحانه قد علا على عرشه علواً يليق بجلاله، من غير تكييف ولا تشبيه، ولا تجسيم ولا تعطيل قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، وهو إمرارُها كما جاءت، من غير تشبيه ولا تعطيل، والمتبادر إلى أذهان المشبِّهين منفيٌّ عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة، والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله، فقد سلك سبيل الهدى» انتهى كلام الحافظ ابن كثير.

«امتنان الخالق على عباده بما أوجد وأبدع»

وَبعد أن ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية في خلقه للسموات

والأرض، وتدبيره لشؤون الخلق، واستوائه على عرشه، وأمر الناس بعبادته وتوحيده، ذكر تعالى بعدها رحمته ورأفته بعباده، وامتنانه عليهم بخلق الشمس والقمر، وتسخيرهما للناس بما يحقق مصالحهم، فوق سطح هذا الكوكب الأرضي، الذي يعيشون عليه، ولولا الشمس والقمر لما أمكن العيش، ولا كان زرع أو نبات، ولا إنسان أو حيوان، ولكنه تعالى بقدرته وحكمته، نظَّم العلاقة بين الأفلاك العلوية، والمخلوقات السفلية، وربط بين أجزاء الكون المعمور، برباطٍ محكم متقن، وذكَّرنا بتلك المنافع، التي أوجدها من أجلنا فقال تقدست أسماؤه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً والقمرَ نُـوراً، وقدَّره منازِلَ، لِتَعْلَموا عَدَد السِّنينَ والحِسابَ، ما خلقَ الله ذلك إلَّا بالحقِّ، يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ. إنَّ في اخْتِلَافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ، وما خَلَقَ اللَّهُ في السَّمواتِ والأَرْضِ لآياتٍ لِقوْمٍ يَتَّقونَ﴾.

«كل ما في الكون لمصالح العباد»

والمعنى الذي نبهت إليه الآيات الكريمة، أنه تعالى هو وحده الخالق المبدع، المدبِّر لشؤون العالم، فهو تعالى بقدرته جعل الشمس مضيئةً ساطعة بالنهار، كالسراج الوهَّاج، وجعل القمر منيراً بالليل، وقدَّر سيره في منازل معروفة وهي البروج، وكلُّ هذا التدبير لمصالح الخلق، ليعرف الناس حساب الأيام والأعوام، فبالشمس تعرف الأيام، وبالقمر تعرف الشهور والأعوام، وبذلك تتحقق الحكمةُ من خلق هذين النَّيِّرْيِن.

ولننظر إلى تفريق القرآن الدقيق في التعبير بين الشمس والقمر، فمن المعلوم أن القمر جرم مظلم وإنما يستمد نوره من الشمس، والشمسُ هي السراج الوهاج، والقبسُ المضيء بنفسه، ولا تكتسب

نورها من غيرها، وتلك حقيقة اكتشفها علماء الفلك، وكانت الفكرة السائدة عند القدامى، أن القمر كوكب مضيء من نفسه، إلاَّ أن ضياءه أقل من ضياء الشمس، وهذه فكرة خاطئة، لذلك نجد القرآن العظيم يلفت أنظارنا، ويوجِّه انتباهنا إلى أن الشمس هي مصدر الحرارة، والإشعاع، والضياء الساطع، وأن القمر ليس بمنزلتها بل هو يستمد نوره من انعكاس ضوءها عليه فيقول سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً﴾ أي ذات ضياءٍ وإشعاع وهَّاج ﴿والقَمَر نوراً﴾ أي وجعل القمر منيراً يستمد نوره من غيره، فسبحان من فارق بينهما في التعبير، كما فارق بينهما في الخلق والتصوير.

«طغيان أهل مكة»

ثم تلتها الآيات الكريمة، تذكر موقف المكذبين الطاغين، المنكرين للقاء الله، المكذبين بالبعث والنشور، بعد أن رأوا الآيات والعبر، وشاهدوا الدلائل النيِّرة والبراهين الساطعة، التي تدل على وجود المدبِّر الحكيم، ثم جحدوا وعاندوا، وكذبوا واستهزءوا، وبيَّنت مصيرهم المشئوم، ألا وهو الخلود في نار جهنم، وفيهم يقول تقدست أسماؤه ﴿إنَّ الَّذينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا، وَرَضُوا بالحياةِ الدُّنْيا، واطْمَأَنُّوا بهَا، والَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنَا غَافِلُوْنَ. أُولَئِكَ مأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُوْنَ﴾.

ومعنى ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي لا يتوقعون لقاء الله أصلاً، ولا يخطر على بالهم، لأنهم لا يؤمنون بالمعاد، فهم ذاهلون عن طلب اللذات الحقيقية، فارغون عن التوجه نحو السعادات الباقية، فقد أعمتهم الشهوات، عن التصديق بما سيكون بعد الممات، وفي قوله

سبحانه ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ ما يوحي بتمام الغفلة، واستحكام عمى القلب، إذْ آثروا الخسيس على النفيس، وفرحوا بزهرة الحياة الدنيا، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلاَّ قليل، كما قال سبحانه ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المِهادُ﴾.

«حال السعداء الأبرار»

وبعد أن ذكر تعالى حال الأشقياء الفجار، أردفه بذكر حال السعداء الأبرار، فقال تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالحاتِ، يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بإيمانِهِمْ، تَجْري مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. دَعْوَاهُمْ فيها سُبْحَانَكَ اللهُمَّ، وَتَحِيَّتُهُمْ فيها سَلامٌ، وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ للَّهِ ربِّ العَالَمِينَ﴾.

ركنان أساسيان للفوز بالسعادة الأبدية: أولهما الإيمان الصادق، وثانيهما العمل الصالح مع الإخلاص لله وحسن النية، ونلاحظ أن القرآن الكريم يقرن دائماً بين الإيمان والعمل الصالح «آمنوا وعملوا الصالحات» فلا يكفي إيمان بلا عمل، ولا يغني عملٌ بلا إيمان، بل لا بدَّ منهما جميعاً حتى يسعد الإنسان وينال مبتغاه، وقد قررت الآية الكريمة النتيجة التي سيلقاها المؤمن على إيمانه وعمله، ألا وهي الهداية المحققة للسعادة، الموصلة إلى الفوز بالرضوان في جنات النعيم، ولهذا قال سبحانه ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بإيمانِهِمْ﴾ أي يهديهم بسبب إيمانهم إلى طريق الجنة، ثم زاد في البيان والتكريم فقال ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعيمِ﴾ أي تجري من تحت قصورهم، ومن تحت أسِرَّتهم أنهار الجنة: أنهار اللبن، والعسل، والخمر، وأنهار الماء السلسبيل، ولهم مع هذا النعيم الدائم، أنواع العزّ والتكريم، حيث

تُحَيِّيهم الملائكة في الصباح والأصيل، وليس لهم عمل في الجنة إلاَّ التسبيحُ والتحميد، دون عناء أو مشقة، فقد ورد في الحديث الصحيح أنهم «يُلهمون التسبيح والتحميد كما تُلهمون النفس» أي كما يتنفس الإنسان ويشعر باللذة والراحة، دون تعب أو ملل كذلك أهل الجنة يلهمون التسبيح ولهذا قال تعالى عنهم ﴿دَعْوَاهُمْ فيها سُبْحانَكَ اللهُمَّ﴾ أي كلامهم في الجنة تسبيحُ الله وتقديسه ﴿وَتَحيتُهُمْ فيها سَلامٌ﴾ أي وتحية بعضهم لبعض «سلام عليكم» كما تحييهم بذلك ملائكة الرحمن، حيث يُسلِّمون عليهم تأنيساً وتكريماً كما قال سبحانه ﴿والملائكَةُ يَدْخُلُوْنَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ بما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَىٰ الدارِ﴾ وآخر دعاء أهل الجنة، حمدُ الرب الجليل على ما أفاض عليهم من صنوف النعم في دار الخلد والبقاء ﴿وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أنِ الحَمْدِ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾.

«طبيعة البشر الملل والضجر»

ثم تلتها الآيات الكريمة، وهي تتحدث عن طبيعة البشر، فهم يميلون دوماً وأبداً إلى الضجر، لا يشكرون في السراء، ولا يصبرون عند الضراء، وكثيراً ما يغضب الوالد على ولده، فيدعو عليه بالهلاك والموت، ولو استجيب دعاؤه في الشر كما يستجاب له في الخير، لهلك البشر، ولكنه تعالى رحيم، حليم، ودود، لا يعجل للناس البلاء كما يعجِّل لهم في أمور الخير والصلاح، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ للنَّاسِ الشَّرَّ اسْتعجالَهُمْ بالخَيْرِ، لَقُضِيَ إلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ، فَنَذَرَ الَّذينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُوْنَ﴾.

والمعنى: لو عجل الله إجابة دعاء الناس في الشر، وفيما عليهم

فيه مضرَّة، كما يعجِّل لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به، لهلكوا وعُجِّل لهم الموتُ، **قال مجاهد**: «هو دعاء الرجل على نفسه أو ولده إذا غضب عليه، يقول: اللهم أهلكه، اللهم لا تبارك فيه» فلو استجاب الله دعاءه فيه فأماته وأهلكه، لبقي الإنسان طيلة عمره في حسرة، ولذلك لا يستجيب الله الدعاء لهذا المتسرِّع رحمة به، كما لا يهلك الكافر شفقةً عليه لعله يتوب أو يرجع، ولهذا ختم الله الآية بقوله ﴿فَنَذَرُ الذينَ لَا يَرْجُونَ لقاءَنَا في طغيانِهِمْ يَعْمَهُوْنَ﴾ أي فنترك المجرمين ونمهلهم، ونفيض عليهم النعم مع طغيانهم لتلزمهم الحجة.. ثم حكى تعالى طرفاً آخر من طغيان الإنسان، ألا وهو الأشر والبطر، بعد أن يرفع الله عنه أنواع الضرر والخطر فقال سبحانه ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدَاً أَوْ قَائِمَاً، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ، مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ، كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والمعنى: وإذا أصاب الإنسان الضرُّ من مرض أو بلاء أو مصيبة، دعا ربه في جميع الحالات - مضطجعاً وقاعداً أو قائماً - لكشف ذلك الضر عنه، فإذا كشف الله عنه الضر والبلاء، نسي ربه كما نسي كربه، كذلك حال الكافرين الغافلين.

«وعيدٌ رهيب للمكذبين»

وبعد أن أفاضت السورة في ذكر مثالب المشركين وقباحهم، وتحدثت عن كفران الإنسان لنعم الباري جل وعلا، جاءت الآيات بعدها لتبيّن ما أحل الله بالقرون الماضية من عاجل العقوبة، وما نزل بهم من الهلاك والدمار، لما كذَّبوا رسلهم وتمادوا في الغيِّ والضلال، ولم يؤمنوا بما جاءتهم به الرسل من المعجزات الباهرات، وفي ضمن هذا الإخبار وعيدٌ شديد لأهل مكة، الذين كذَّبوا سيد الخلق

محمداً ﷺ، ليكفُّوا عن عتوهم وضلالهم، قبل أن يحلَّ بهم ما حلَّ بالأمم السابقة، فإن سنة الله عز وجل أن يمهل ولا يهمل، حتى إذا أخذ الظالم، أخذه أخذ عزيز مقتدر، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القُرُوْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوْا، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم بالدلائل الساطعة والمعجزات الباهرة التي تدل على صدقهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوْا لِيُؤْمِنُوْا، كَذَلِكَ نَجْزِي القَوْمَ المُجْرِمِيْنَ﴾ أي ومع كل تلك البراهين والحجج ما آمنوا بهم، فكان سبب إهلاكهم أمران: عدم الإيمان، والظلم والعدوان وقوله تعالى ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي القَوْمَ المُجْرِمِينَ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء - وهو الاستئصال الكليُّ لشأفة الإجرام - نجزي كل مجرم، مكذِّب لله ورسله، لا يؤمن بيوم الحساب.

«استخلاف أهل مكة في الأرض»

ثم ذكَّرهم تعالى باستخلافهم في الأرض، بعد أولئك الأقوام المهلكين، ليتعظوا ويرتدعوا، ويعلموا أن الله لهم بالمرصاد فقال تقدست أسماؤه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ، لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُوْنَ﴾ أي ثم استخلفناكم في الأرض يا أهل مكة، من بعد إهلاك تلك الأمم، التي تسمعون أخبارها، وتشاهدون آثارها، لنرى صنيعكم في هذه الحياة، هل تسلكون طريقهم في البغي والعدوان، أم تسلكون طريق أهل السعادة والإيمان؟ فما هذه الحياة الدنيا إلَّا ابتلاء وامتحان ﴿لِنَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ كما قال النبي ﷺ فيما رواه عنه الإمام مسلم «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[1].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، وانظر كتاب «رياض الصالحين» ص ٢١٥.

«استهزاء المشركين بسيد المرسلين»

وبعد هذا البيان المستفيض حول مصير الطغاة المفسدين، جاءت الآيات لتحكي لنا طرفاً من عتو أهل مكة وضلالهم، في الاستهزاء بسيد المرسلين، فقد طلبوا من رسول الله - بطريق الاستهزاء والسخرية - أن يأتيهم بقرآنٍ غير هذا القرآن، يكون فيه ما يلبِّي أهواءهم وشهواتهم، أو يغيِّر بعض الأحكام فيه، فيجعل مكان آية عذابٍ آيةَ رحمة، ومكان الحرام حلالاً، ومكان سبِّ آلهتهم مدحها والثناء عليها، ليؤمنوا برسالته ودعوته، وإنما طلبوا ذلك سخرية واستهزاءً، حتى يحرجوا رسول الله على زعمهم، وفيهم يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ، قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُوْنَ لِقَاءَنَا، ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ، أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ﴾؟.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نزلت هذه الآيات في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة، قالوا يا محمد: ائتنا بقرآن غير هذا القرآن، فيه ما نسألك ونقترحه عليك»(١).

ومعنى الآيات الكريمة ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آياتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين، حال كونها واضحات ساطعات، لا لَبس فيها ولا إشكال ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُوْنَ لِقَاءَنَا﴾ أي قال الجاحدون المنكرون، الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب، ولا يصدِّقون بلقاء ربِّ الأرباب ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أي ائتنا يا

---

(١) انظر البحر المحيط لأبي حيان ٥/١٣١.

محمد بكتابٍ غير هذا القرآن، لا يكون فيه تسفيه لعقولنا، ولا تشنيع على آلهتنا، أو انسخ بعض الآيات وضع مكانها أخرى، مما يلائم مزاجنا، قال تعالى ردّاً عليهم، وإفحاماً لهم في مثل هذا الطلب الركيك ﴿قُلْ مَا يَكُوْنُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أي قل لهم يا محمد: لا ينبغي ولا يصحُّ لي عقلاً وشرعاً، أن أتلاعب في كتاب الله، فأغيِّر فيه أو أبدِّل من تلقاء نفسي، فإن ذلك مما لا يكون أبداً ﴿إنْ أَتَّبِعُ إلاَّ مَا يُوْحَى إلَيَّ﴾ أي لا أتبع إلاَّ ما يوحيه إليَّ ربي، فأنا عبد مأمور، ورسولٌ مبلِّغ، أبلغكم وحي الله ودينه ﴿إنِّي أَخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي إني أخشى إن خالفتُ أمر الله، وبدَّلتُ وحيه، أن يعاقبني بعذابٍ شديد فظيع يوم القيامة، فمن ينقذني من هول ذلك اليوم العصيب، وينجيني من سخط الله وغضبه؟

«البرهان القاطع على صدق النبوة»

ثم أتى لهم بحجة دامغة، تقصم ظهر الباطل، وتؤكد صدق رسالته عليه السلام، فقال في مقام التبكيت والإلزام ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أي قل لهم يا محمد لو أراد الله ما قرأت هذا القرآن عليكم، ولا أنبأتكم بشأنه، ولا أعلمكم الله به على لساني ﴿فقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرَاً مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي فقد مكثتُ بين أظهركم زمناً طويلاً، مدة أربعين سنة من قبل أن آتيكم بهذا القرآن ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُوْنَ﴾؟ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر، لتعلموا صدقي، وتتيقنوا أن مثل هذا الكتاب المعجز لا يكون إلاَّ من عند الله؟

قال الفخر الرازي في التفسير الكبير: «إن الكفار شاهدوا رسول الله ﷺ من أول عمره، إلى ذلك الوقت الذي نزل عليهم القرآن، وكانوا

عالمين بأحواله، وأنه ما طالع كتاباً، ولا تتلمذ لأستاذ، ولا تعلم من أحد، ثم بعد انقراض أربعين سنة، جاءهم بهذا الكتاب العظيم، المشتمل على نفائس علم الأصول، ودقائق علم الأحكام، ولطائف علم الأخلاق، وأسرار قصص الأولين، وعجز عن معارضته العلماء، والفصحاء، والبلغاء، وكلُّ من له عقل سليم، يعلم أن مثل هذا لا يكون إلَّا على سبيل الوحي والتنزيل»[1]. ولهذا ختم الله الآية الكرية بهذا الأسلوب من النكير ﴿أفلاَ تعقلون﴾؟ وكأنه يقول لهم: أفليس لكم عقول تدركون بها صدق دعوى محمد؟.

«لا أحد أظلم ممن كذب على الله»

ولمَّا أطنب تعالى في موضوع القرآن، أعقبه ببيان غاية الظلم والعدوان، لمن افترى على الله فنسب إليه ما لم يقله، أو ادَّعى أنه مرسل من عند الله، فقال تقدست أسماؤه ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبَاً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ؟ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُوْنَ﴾ وهو استفهام إنكاري ومعناه النفي والاستبعاد أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب، أو كذَّب بالحق الذي جاءت به الرسل، فإنه لا يفوز ولا ينجح المجرمون المعاندون لله ورسله.

وكأن الآية تقول: إن محمداً صادق في دعوى النبوة، إذ كيف يترك الكذب على الناس ويكذب على الله؟ وقد عرفتم سيرته، وطهارته، وصدقه، وأمانته، فكيف تتهمونه بأعظم البهتان ألا وهو الكذب على الله؟

---

(١) التفسير الكبير للرازي ١٧/٥٧.

قال الحافظ ابن كثير: ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان، قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: قلتُ: لا ـ وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين ومع هذا اعترف بالحق «والفضل ما شهدت به الأعداء» ـ فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدعَ الكذب على الناس، ثم يذهب ليكذب على الله»[1].

«عبادة المشركين للأصنام»

لا تزال سورة يونس تطالعنا في آياتها البينات، بمزيدٍ من قبائح المشركين وفظائعهم، فقد استنكفوا عن عبادة الرحمن، ورضوا بعبادة الأحجار والأوثان، مع أنها جمادات لا تقدر على جلب نفعٍ، ولا دفع ضُرٍّ، فكيف يليق بالعاقل أن يعبد من هو أقلُّ منه شأناً، وأضعف منه قدرة؟ مما لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عن الإنسان شيئاً؟ وقد جاءت الآيات لتؤكد سفه المشركين، في إصرارهم على عبادة الأوثان، بعد أن ظهرت لهم الدلائل والبراهين، على قبح فعلهم وسوء صنيعهم، بعبادة أحجارٍ وأشجار، لا تنفع ولا تضرُّ، ولا تدري من عَبَدها ولا من دحاها، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَيَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ، وَيَقُوْلُوْنَ هَؤُلَاء شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ الله، قُلْ أَتُنَبِّئُوْنَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾ والمراد من الآية تبكيتُهم والإِزْرَاءُ بعقولهم، فهم يزعمون أن الأصنام تشفع لهم، مع أنها حجارة لا تبصر ولا تسمع، وقد أقام القرآن عليهم الحجة في بطلان تلك الدعوى حين قال مستهزئاً بهم ﴿قُلْ

(١) تفسير ابن كثير ٢/١٨٧ وهو جزء من حديث طويل رواه البخاري.

أَتُنَبِّئُوْنَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾؟ أي قل لهم يا محمد، قل لهؤلاء المشركين عَبَدة الأصنام: أتخبرون ربكم جلَّ وعلا بشريك أو شفيع لا يعلمه سبحانه؟ وهو علام الغيوب الذي أحاط علمه بجميع الكائنات؟ فما لكم عميتم عن مشاهدة عظمته تعالى فيما خلق وأبدع، وعبدتم الأوثان والأحجار وتركتم عبادة الواحد القهار؟

ومن غرائب وعجائب هؤلاء المشركين أن ينحتوا هذه الأحجار بأيديهم، ثم يعبدوها ويطلبوا شفاعتها، مع أنهم صنعوها بأيديهم، فكيف تكون آلهة وهم لها صانعون، ولأمرها عارفون؟ قال ابن عباس: كان الرجل من المشركين يرى حجراً، فيأخذه فينحته بيده ثم يعبده، فإذا رأى حجراً خيراً منه، ألقى بالحجر الأول ثم أخذ الثاني فينحته ويعبده، وفيهم نزل قوله تعالى ﴿وَيَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ﴾.

«من غرائب القصص والأخبار»

ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره هذه القصة العجيبة، قال: كان «معاذ بن عمرو بن الجموح» و«معاذ بن جبل» رضي الله عنهما شابَّيْن قد أسلما، لمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة المنورة، فكانا يَعْدوانِ في الليل على أصنام المشركين، يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك، وكان لعمرو بن الجموح ـ وكان سيداً في قومه ـ صنمٌ يعبده ويُطيِّبه، فكانا يجيئان في الليل فينكِّسانه على رأسه، ويلطخانه بالعذرة ـ أي بالنجس من فضلات الإنسان ـ فيجيء «عمرُو بن الجموح» فيرى ما صُنع به، فيأخذه فيغسله ويُطيِّبه، ويضع عنده سيفاً، ويقول له: انتصر لنفسك، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه

أيضاً فيغسله ويطيِّبه، حتى أخذاه مرَّة فقرَناه مع كلب ميت، ودلَّياه في حبل في بئرٍ هناك، فلما جاء «عمرو بن الجموح» ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، فأنشد يقول:

تَـاللَّهِ لَـوْ كُنْتَ إلَهَـاً مُسْتَـدَنْ مَا كُنْتَ وَالكَلْبَ جَمِيعاً في قَرَنِ

يريد أنك لو كنت أيها الصنم إلَهاً معبوداً بحقٍّ، ما كنت مربوطاً ولا معلَّقاً مع الكلب الميِّت في حبلٍ واحد ـ ثم أسلم فحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً، رضي الله عنه وأرضاه[1].

«استكبار وطغيان»

وبعد أن ذكر تعالى الأدلة على فساد عبادة الأوثان، ذكر بعدها أن عادة هؤلاء الأشقياء المجرمين، المكرُ، والجحود، والعناد، فإن أصابتهم الشدة تضرعوا، وإن جاءتهم الرحمة بطروا وكفروا، فهم يقابلون النعمة بالكفران، ويجحدون بآيات الرحمن، كما قال تقدست أسماؤه ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ، إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ في آيَاتِنَا، قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرَاً، إنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُوْنَ مَا تَمْكُرُوْنَ﴾ رُوي أن الله سلَّط على كفار قريش القحط سبع سنين، حتى كادوا أن يهلكوا، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يدعو لهم بالخصب ورفع البلاء، ووعدوه بالإيمان، فدعا الله لهم فرحمهم الله، فأنزل عليهم الأمطار، وأخرج لهم الزروع والثمار، فلما عوفوا بطروا ورجعوا إلى الكفر والعناد.

ومعنى قوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرَاً﴾ أي هو تعالى أشدُّ استدراجاً وإمهالاً للظالم الفاجر، يمهله حتى يظن أنه ليس بمعذب،

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٧٥.

والحقيقة إنما هو في مُهلة، ثم يحل به البلاء، كما قال سبحانه ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُوْنَ. وَأُمْلِي لَهُمْ إنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ فمكرُ الله: إمهالُه لهم، وسمَّاه مكراً مشاكلة لفعلهم، وتسميةً للعقوبةِ باسم الذنب، كأنه يقول: الله أسرع عقوبةً لهم، جزاءً على مكرهم، فهم لن يُفلتوا من عذاب الله، وإن أخَّرهم وأمهلهم استدراجاً لهم.

«إيمانهم بالله والتجاؤهم إليه عند الشدائد»

ثم ضرب تعالى مثالاً على بغيهم وعدوانهم، وأنهم يلجأون إلى الله في الشدة، ويكفرون به في الرخاء، مثَّل حالتهم بأناس ركبوا البحر، فهاج واضطرب، وشعروا بالخطر يُحْدِق بهم، فإنهم ينسون الأوثان، ويدعون الرحمن لكشف الضر عنهم، ولا يخطر على بالهم في ذلك الحين شيء من آلهتهم المزعومة، حتى إذا ما نجوا عادوا إلى الكفر والضلال، كذلك حال كفار مكة، وفيهم يقول تقدست أسماؤه ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ، حَتَّى إذَا كُنْتُمْ فِي الفُلْكِ، وَجَرَيْنَ بِهِمْ بريحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوْا بهَا، جَـاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ، وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ، دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إذَا هُمْ يَبْغُوْنَ فِي الأَرْضِ بغَيْرِ الحَقِّ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الحيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ إلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ، فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ﴾.

والآية الكريمة تمثيلٌ لطبيعة الإنسانِ الجحود، لا يذكر اللَّهَ إلَّا في ساعة العُسرة، ولا يرجع إليه إلَّا وقتَ الكرب والشدة، فإذا نجَّاه الله من الضيق، وكَشَفَ عنه الكربَ والبلاء، رجع إلى الكفر والعصيان، وتمادى في الشرِّ والطغيان، ومعنى قوله تعالى ﴿إنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ

الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي وبالُ البغي عليكم، لا يجني ثمرته إلَّا أنتم، تتمتعون في هذه الحياة بالشهوات الفانية، التي تعقبها الحسرات الباقية، فالبغيُ نهايته وخيمه، والظلم ظلمات يوم القيامة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو بغى جبلٌ على جبل لا ندكَّ الباغي» وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه:

يَا صَاحِبَ البَغْي إنَّ البَغْيَ مَصْرَعَةٌ ... فَارْبَعْ فَخَيْرُ فِعَالِ المَرْءِ أَعْدَلُهُ
فَلَوْ بَغَى جَبَلٌ يوماً عَلَى جَبَلٍ ... لاَنْدَكَّ مِنْهُ أَعَاليه وأسْفَلُهُ

وهكذا ختم الله الآية الكريمة بهذا الختم الرائع، الذي تتصدع له القلوب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ﴾.

«مثل الدنيا ونعيمها الزائل»

وبعد ذلك البيان الواضح عن طغيان الإنسان، واستكباره عن عبادة الرحمن، وإغراقه في البغي والعدوان، ذكر تعالى اغتراره بهذه الحياة الدنيا، فإن الإنسان الجاهل يظن أنَّ سعادته في التمتع بنعيم الدنيا، والنيل من لذائذها وشهواتها، فلذلك يُجهد نفسه في جمع حُطامها، ويكدُّ ويتعب لينال أكبر قسطٍ من متاعها، وينسى الآخرة التي هي دار السرور والحبور، فلا يعمل لها، ولا تخطر على باله، لأنه قَصَر همَّته على الدنيا ونعيمها العاجل.

وقد ضرب تبارك وتعالى المثل لزهرة الحياة الدنيا، الفانية الزائلة، التي يغتر بها كثير من الناس، وصوَّرها بأنها سرابٌ خادع، فقال تقدست أسماؤه ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ

الأَرْضِ ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعامُ، حَتَّى إذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وازَّيَنَتْ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُوْنَ عَلَيْهَا، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهاراً، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدَاً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتفَكَّرُوْنَ﴾.

والآية الكريمة تصويرٌ دقيق لهذه الحياة الدنيا، التي ينخدع بها الكثيرون، فيظنون أنها دار السعادة، ودار الإقامة والسرور، وما دروا أنها ممرٌّ ومعبرٌ للدار الآخرة ـ دارِ القرار ـ وهي كما قال سبحانه ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلَّا متاع﴾.

ومعنى الآية الكريمة: إنما صفة الحياة الدنيا، وحالتُها العجيبة في فنائها وزوالها، وذهاب نعيمها واغترار الناس بها، كمثل مطرٍ نزل من السماء، فنبتت به أنواع من النباتات، مختلطٌ بعضها ببعضها، مما يأكله الناس ويتمتعون به من أنواع الثمار والفواكه، والحبوب والبقول، ومما تأكله البهائم من الكلأ والمرعى والعشب الخصيب، حتى إذا أخذت الأرض حسنها وبهجتها، وتزينت بأنواع الفواكه والثمار والأزهار، والتعبيرُ بقوله تعالى ﴿حَتَّى إذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَنَتْ﴾ في غاية الإبداع والجمال، فهو تمثيلٌ لها بالعروس إذا تزينت بالحُليِّ والثياب ولبست أفخر الملابس، فإنها بهذه الحالة تزيد في الفتنة والإغراء، كذلك الدنيا تخدع ثم تصرع، وبينما الناسُ مفتونون بنعيم الحياة وبهجتها، إذ جاءها أمر الله بالهلاك والدمار، فصارت خراباً يباباً، بعد أن كانت زاهرة ناضرة، تميسُ في أبهى الزينة وأجمل الحُلل، وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُوْنَ عَلَيْهَا جَاءَهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدَاً، كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ أي جاءها قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات، فجعلناها محصودة مقطوعة لا شيء فيها من

النبات والثمار، كالذي حُصد بالمناجل ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ أي كأنها لم تكن عامرةً قائمةً زاهرة، قبل ذلك الحين، ثم ختم الآية ببيان الغرض من هذا التشبيه والتمثيل فقال عزَّ شأنه ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي مثل ما بينًا في هذا المثل الرائع، للحياة الدنيا ونعيمها الفاني، كذلك نضرب الأمثال، ونفصِّل العِبَر، لقوم يتفكرون ويتدبرون في نهاية الحياة.

«الجنةُ دار السلام»

وبعد الحديث عن دار الفناء، التي صوَّرها القرآن الكريم بذلك التصوير الرائع، جاءت الآيات تتحدث عن دار السرور والحبور، وما أعدَّ الله لعباده المتقين في جنان الخلد والنعيم، مما لا يخطر على بال، مع النظر إلى وجه الله الكريم، وهو أمر زائد على دخول الجنة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. لِلَّذِينَ أَحْسَنُوْا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خَالِدُوْنَ﴾ ودارُ السلام هي الجنَّةُ، سُمِّيت بذلك لأن من يدخلها يسلم من الأحزان والأكدار، والمنغِّصاتِ والآفات، التي تصيب الإنسان في الدنيا، فليس فيها تعبٌ ولا نصب، ولا همٌّ ولا حَزَن، ولا سَقَم ولا مرض، فقد خلت من جميع البلايا والمحن، والفواجع والكوارث، وممَّا يجرح الفؤاد ويكدِّر الخاطر، فلهذا سميت «دار السلام» كما سميت «دار الإقامة» و «دار الخلد» والبقاء، ولا يستحق التكريم في دار السلام، إلَّا من أسلم قلبه، ووجهه، وجوارحه، للّهِ عز وجل، ودخل في دين الإسلام، وهو المسلم الذي يكرمه ربُّ العزة بدار السلام، وللمجانسة اللطيفة بين

«الإسلام» و«دار السلام» سميت الجنة بهذا الإسم الكريم.

«مثلٌ للرسول وأمته»

روى ابن جرير الطبري بسنده عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: إني رأيتُ في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجليَّ، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً فقال: إنَّما مَثَلك ومَثَلُ أمتك، كمثل مَلِكٍ اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تَرَكه، فاللَّهُ المَلِك، والدارُ الإسلام، والبيتُ الجنة، وأنت يا محمد الرسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسـلام دخل الجنـة، ومن دخل الجنـة أكل منها»[1].

«تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله هو المأثور»

وأمّا الزيادة التي وردت في الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فهي النظر إلى وجه الله الكريم، فقد ورد ذلك التفسير مأثوراً عن رسول الله ﷺ عندما سئل عن الآية فقال: الحسنى «الجنة» والزيادة «النظرُ إلى وجه الله عز وجل» ولا عطر بعد عروس كما روى ذلك الحافظ ابن كثير رحمه الله، وحكى أن هذا قول الجمهور من السلف والخلف، وممَّا يؤيد ذلك ما رواه الإمام أحمد في المسند عن صهيب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فقال: «إذا دخل أهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وأهلُ النَّار النَّارَ، نادى منادٍ يا أهل الجنة، إن

(١) الحديث أخرجه ابن جرير الطبري، والسيوطي في الدر المنثور.

لكم عند الله موعداً يريد أن يُنجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يُثقل موازيننا؟ ألم يُبيِّض وجوهنا، ويدخلْنا الجنة ويُجرْنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فواللّهِ ما أعطاهم الله شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه، ولا أقرَّ لأعينهم منه»[1].

وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي بصوتٍ يسمعه أوَّلهم وآخرهم: يا أهل الجنة إن الله وعدكم الحسنى وزيادة، فالحسنى الجنة، والزيادةُ النظر إلى وجه الرحمن عزَّ وجلَّ»[2].

وبمقابلة السعداء أهل الجنة، يأتي الحديث عن الأشقياء أهل النار، فيصورهم القرآن الكريم بتلك الصورة الفظيعة الشنيعة، من اسوداد وجوههم، وما يعلوهم من القترة والغبرة، والذل الهوان، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوْا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ، مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعَاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمَاً، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُوْنَ﴾ وقانا الله شرَّ الأشرار، ومآل الفجار، وجعلنا من عباده الأبرار، إنه هو العزيز الغفار.

«الدلائل على وحدانية الله عز وجل»

لا تزال الآيات تقرع بحججها الدامغة آذان المشركين، المنكرين للبعث والنشور، الذين عبدوا الأحجار والأشجار، واستنكفوا عن عبادة الله الواحد القهَّار، وتذكِّرهم بالخالق الرازق، الذي أنعم عليهم بنعمة

---

(١) الحديث أخرجه مسلم وأحمد في المسند.

(٢) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم والإمام ابن جرير، وانظر تفسير ابن كثير ٢/١٩١.

الخلق والإيجاد، ومنحهم الحواس من السمع، والبصر، والفهم والإدراك، ودبَّر شؤون العباد، وأمر الخلائق، على غايةٍ من الإبداع والإتقان، ثم عبدوا غيره ممن لا يضرُّ ولا ينفع، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه منكراً وموبخاً ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ، وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ؟ فَسَيَقُوْلُوْنَ اللَّهُ، فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُوْنَ؟ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ، فَأَنَّى تُصْرَفُوْنَ؟ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوْا أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُوْنَ﴾.

والعجيب في أمر هؤلاء المشركين، من كفار قريش، أنهم يُقرون بألسنتهم بأن الخالق للكائنات، والمبدع لهذا الوجود، هو الله ربُّ العالمين، ثم هم يُشركون معه ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ولا يغني عنهم فتيلاً، لأنهم يعبدون جماداً وأحجاراً، وهي - باعترافهم وإقرارهم - ليس لها من أمر الخلق والرزق، والتصريف والتدبير شيءٌ، فكيف عبدوها من دون الله؟ ولذلك حكم عليهم القرآن بالضلال، والبعد عن سبيل الهداية والرشاد فقال تقدست أسماؤه ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ، فَأَنَّى تُصْرَفُوْنَ﴾ أي فكيف تُصرفون عن عبادة الله القادر، إلى عبادة ما لا يخلق ولا يرزق، ولا يحيي ولا يميت؟

والنتيجة الحتمية لهؤلاء الأشقياء الضالين، هي الخلود في عذاب الجحيم، ولهذا عقَّبها بقوله تقدست أسماؤه ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُوْنَ﴾ أي كذلك وجب قضاء الله، وحكمه السابق، على الذين كفروا وكذبوا بالخلود في الجحيم، لأنهم لا يصدقون بوحدانية الله، ولا برسالة رسله وأنبيائه، لشقاوتهم وضلالتهم.

«سخافتهم في عبادة الأوثان»

ثم تلتها الآيات الكريمة تثبت بطلان دعواهم فيما أشركوا، وعبدوا من دون الله من الأوثان والأصنام، وتقيم الأدلة على فساد ذلك، فهم لا يُحكِّمون عقولهم فيما فعلوا، إنما يتبعون الأهواء، ويقلِّدون الآباء تقليداً أعمى، دون هدايةٍ أو بصيرة، وقد شنَّع عليهم القرآن الكريم ذلك الصنيع تشنيعاً شديداً، فقال تقدست أسماؤه ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، فَأَنَّى تُؤْفَكُوْنَ﴾؟ أي قل لهم يا محمد على جهة التوبيخ والتقريع: هل من الأوثان والأصنام التي عبدتموها من دون الله، من يبدأ الخلق من العدم، ثم يُميته ويُفنيه، ثم يُعيده ويُحييه؟ فإنه عجزوا عن الجواب، لظهور فساد دعواهم، وعدم استطاعتهم إقامة البرهان، فقل لهم: الله وحده هو الذي يحيي ويُميت، ويبدأ ويعيد، وليس شيء من هذه الأصنام المصنوعة، والآلهة المزعومة، من يقدر على فعل ذلك ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُوْنَ﴾ أي فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل، وتعبدون ما لا يضرُّ ولا ينفع؟ أفليس لكم من العقل والتفكير ما يحجزكم عن مثل هذه الحماقة والسفه؟

«الله هو الهادي لا الأوثان»

ثم زاد تعالى في الإيضاح والبيان، في بطلان عبادتهم للأصنام والأوثان فقال تقدست أسماؤه: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ؟ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ، أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى؟ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُوْنَ﴾؟ ومعنى الآية الكريمة: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: هل من هذه الآلهة التي

تعبدونها من يرشد ضالاً، أو يهدي حائراً؟ أو يدلُّ على طريق الحق، وسبيل الاستقامة؟ فإن لم يجيبوا فقل لهم: إن عجزت آلهتكم عن فعل ذلك، فالله هو القادر على هداية الضالّ، وإنارة السبيل، وبيان الحقِّ، فهل من يرشد إلى الحق والإيمان، وهو الرحمن جلَّ وعلا، أحقُّ بالاتِّباع، أم هذه الأصنام التي لا تهدي أحداً، ولا تستطيع هداية نفسها، فضلاً عن هداية غيرها؟ ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي فما لكم أيها المشركون تسوُّون بين الأصنام العاجزة، وبين ربِّ الأرباب القادر على كل شيء؟ وتحكمون بهذا الباطل الواضح؟ وهو استفهام معناه الاستغرابُ، والتعجيبُ، والإنكار.

«اعتقاد المشركين مبنيٌّ على الظن والتخمين»

ثم بيَّن تعالى فساد نحلتهم ومعتقدهم، بعد أن أفحمهم بالبراهين النيِّرة، والدلائل الساطعة، التي توجب الإيمان والتوحيد، وتُبطل الإشراك والتقليد، فقال جلَّت عظمته، وتقدست أسماؤه ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إلَّا ظَنًّاً، إنَّ الظَنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئَاً، إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُوْنَ﴾.

والمعنى: وما يتبع هؤلاء المشركون، في اعتقادهم ألوهية الأصنام، إلَّا اعتقاداً باطلاً مبنياً على الظن والتخمين، غير مستند لدليل أو برهان، بل هو مجرد أوهام باطلة، وخرافات فاسدة، ومثل هذا الاعتقاد، المبني على الأوهام والخيالات، لا ينفع صاحبه شيئاً، لأنه ظنٌّ كاذب، لا يقوم على أسسٍ ودعائم، ولا يغني عن الحقِّ شيئاً، ثم ختم تعالى الآية بقوله: ﴿إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُوْنَ﴾ أي إنه تعالى عالمٌ بما هو عليه من الكفر والتكذيب، وعبادة الأهواء، وتقليد الآباء، وذلك

لا يغني عنهم شيئاً، وهو وعيدٌ لهم وتهديد على اتباعهم للظن، وإعراضهم عن البرهان. نبههم تعالى في هذه الآيات على فساد معتقدهم، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأوثان، من ثلاثة وجوه:

الأول: أنها حجارة صمَّاء، لا تبدأ ولا تُعيد، ولا تحيي ولا تميت، وليس لها قدرة على إيجاد شيء.

الثاني: أنها لا ترشد ضالاً، ولا تهدي حائراً، ولا تقدر على جلب نفع، أو دفع ضرٍّ.

الثالث: أن الإله الحقَّ المعبود، يجب أن تكون له صفات الكمال، في القوة، والقدرة، والتصرف، والتدبير، وأن يرشد الحائر، ويهدي الضال، ويُنير السبيل، وهذه الأصنام ليس لها شيء من ذلك، فكيف تُعبد من دون الله؟

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: والآيات إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد، فمن بدأ خلق هذه السموات والأرض؟ ثم ينشىء ما فيهما من الخلائق، ثم يبدلهما بفناء ما فيهما، ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً؟ إنه الله الذي يفعل هذا، ويستقل به وحده، فما بالكم يُذهب بعقولكم؟ كيف سوَّيتم بين الله وبين خلقه؟ وعدلتم هذا بهذا؟ وهلَّا أفردتم الرب جل جلاله بالعبادة وحده؟ وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة؟ ثم بيَّن تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظنٌّ منهم وتوهُّم وتخيُّلٌ، وذلك لا يغني عنهم شيئاً. انتهى كلام الحافظ ابن كثير.

«افتراء المشركين على الرسول ﷺ

تناولت السورة الكريمة، الحديث بإسهاب عن مشركي قريش،

المكذبين للرسالة، المنكرين للبعث والنشور، الذين لم يؤمنوا بالقرآن ولا بالوحي، وبالغوا في طغيانهم حتى زعموا أن القرآن أساطير الأولين، وأن محمداً ﷺ مفترٍ على الله ـ وحاشاه ـ في ادعائه أنه تنزيل الرحمن الرحيم، وقد أقامت عليهم الحجج الساطعة، والبراهين القاطعة، على صدق هذا القرآن، وصحة الوحي والنبوة، وإثبات رسالة النبي محمد ﷺ الذي اتهمه المشركون بالتخرص والافتراء على الله، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُوْنِ اللَّهِ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ الكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ. أَمْ يَقُوْلُوْنَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ، إنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ. بَلْ كَذَّبُوْا بِمَا لَمْ يُحِيْطُوا بِعِلْمِهِ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِيْنَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ به، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ به، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِيْنَ﴾.

«وجه الإعجاز في القرآن»

فقد بيَّنت الآيات الكريمة «إعجاز القرآن» بالبرهان الناصع، والحجة الدامغة، فإن النبي عليه الصلاة والسلام رجل أميٌّ بشهادة جميع قومه، جاءهم بهذا الكتاب المبين، وتحداهم أن يأتوا بمثل سورةٍ من سوره، وكرَّر التحدي لهم، وهم أساطين الفصاحة وملوك البيان، فعجزوا وانقطعوا ورجعوا مدحورين، ثم إن هذا القرآن بما حواه من تشريعٍ، وبيان، وآداب، وأحكام، يعجز عنها جميع البشر، قد أثبتت العصور والدهور تفوقه على جميع الشرائع، وعدم تعارضه وتناقضه، في كل ما جاء به من أخبار وأحكام ـ عدا عن فصاحته وبلاغته، ووجازته

وحلاوته ـ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً، ولهذا قال سبحانه في هذه السورة الكريمة ﴿وَمَا كَانَ هَذَا القُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُوْنِ اللَّهِ﴾ أي لا يصح ولا يُعقل، ولا يستقيم لذي عقلٍ سليمٍ، أن يزعم أن هذا القرآن مفترى مكذوبٌ على الله، لأنه فوق طاقة البشر، ولا يصح أن يكون إلَّا من عند الله، الذي لا يشبهه شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، وكلامه كذلك لا يشبه كلام المخلوقين، جاء هذا القرآن مصدِّقاً لما قبله من الكتب السماوية، ومهيمناً عليها، ومبيناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل، وفيه تبيين الشرائع، والعقائد، والأحكام، فهو بلا شك تنزيل رب العالمين، ولهذا أتبع الآية بقوله تقدست أسماؤه ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ الكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ﴾.

«عجزهم عن معارضة القرآن»

ثم جاء التوضيح والبيان مشفوعاً بالتَّحدِّي، بأسلوب صارخ، يستنهض الحماس، ويستفزُّ المشاعر، لمعارضته من جميع الخصوم، فما قدروا أن ينبسوا ببنت شفة، ولا أن يردُّوا ذلك التحدِّي الصارخ، مما أثبتَ عجزهم وانقطاعهم عن المقاومة والمصاولة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿أَمْ يَقُوْلُوْنَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوْا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ﴾.

والمعنى: أم يقولون اختلق محمد هذا القرآن من قِبَل نفسه؟ فقل لهم: إن كان الأمر كما زعمتم فجيئوا بسورةٍ من مثل هذا القرآن، والاستفهام في قوله «أَمْ يَقُوْلُوْنَ افْتَرَاهُ» استفهام معناه التقريع والتوبيخ، والغرض من الآية إقامة الحجة عليهم بالعجز، ولهذا دعاهم إلى الاستعانة بمن شاءوا من الإنس والجنِّ فقال ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ

دُوْنِ اللَّهِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه، فادعوا من شئتم غير الله تعالى، واستعينوا بمن تحبُّون من الخلائق، فستعجزون جميعاً عن الإتيان بمثل سورة واحدة من سوره، وهذا من أوضح البراهين على صدق دعوى محمد.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم وأشعارهم، ومعلَّقاتُهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكنْ جاءهم من الله ما لا قِبَل لأحدٍ به، ولهذا آمن من آمن منهم، بما عرف من بلاغة هذا الكلام، وحلاوته، وجزالته، وطلاوته، وإفادته، وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأشدَّهم له انقياداً، ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء، إلَّا وقد أُوتِي من الآياتِ ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعاً»[1]. ولله در القائل حيث يقول:

جاءَ النَبِيُّوْنَ بـالآياتِ فـانْصَرَمَتْ   وجِئْتَنَـا بِكِتَـابٍ غيـرِ مُنْصَـرِمِ
آيَـاتُهُ كُلَّمَـا طَالَ المَـدَى جُـدُدُ   يَـزِينُهُنَّ جَمَـالُ العِتْقِ والقِـدَمِ

«الناس أعداء لما جهلوا»

ثم بيَّن تبارك وتعالى السبب في تكذيبهم للقرآن، فقال تقدست أسماؤه ﴿بـلْ كَذَّبُـوْا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾.

والمعنى: بل كذب هؤلاء المشركون بالقرآن العظيم، وسارعوا إلى الطعن به، قبل أن يفقهوه ويتدبروا ما فيه، والناس دائماً أعداءٌ لما

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/١٩٥، والحديث من رواية البخاري، ومسلم، وأحمد.

جهلوا ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي ولم يأتهم بعدُ عاقبة ما فيه من الوعيد، وسيأتيهم العذاب الشديد، حين لا ينفعهم الإيمان والتصديق، ولهذا عقَّب تعالى الآية بقوله ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي انظر أيها السامع بعين البصيرة والاعتبار، كيف أخذهم الله بالعذاب والدمار، بسبب ظلمهم وبغيهم، فكما فعل بأولئك المجرمين، يفعل بهؤلاء الظالمين الطاغين.

«الناس فريقان: مؤمن ومكذِّب للقرآن»

ثم حكى تعالى أن الناس أمام هداية القرآن، ونوره وبيانه، وإرشاده فريقان: منهم من استنار قلبه، واستضاء فكره، فآمن به وصدَّق، وانتفع بما فيه من هداية وإرشاد، ومنهم من عميت بصيرته، وأظلم قلبه، فكذَّب به وجحد، فهما فريقان: فريق الهداية والإيمان، وفريق الكفر والضلالة فقال تقدست أسماؤه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي ومنهم من يؤمن بهذا القرآن، وينتفع بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، ومنهم من يكذِّب بهِ لفرط غباوته، وسخافة عقله، واختلال تمييزه، فيكون مصيره الجحيم، وهو تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيغويه، وقد لقَّن الله رسوله ﷺ الحجة فقال تقدست أسماؤه ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ، وأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي إن كذبك هؤلاء المشركون في دعوى النبوة والرسالة، فقل لهم: لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم، لا يؤاخذ أحدُ بذنب الآخر، فقد بلَّغتكم رسالةَ ربي، وليس عليَّ من وزركم شيء إن لم تؤمنوا، وأنا بريءٌ منكم وأنتم بريئون مني. وهكذا قطع الله الصلة

بين رسوله وبين المشركين، وأقام عليهم الحجة في بطلان تلك المزاعم التي رموا بها رسول الله عليه السلام، من افترائه للقرآن، وادعائه للنبوة، فيكفيه أن الله شاهد على عمله وعلى عمل المجرمين، وعند الله تجتمع الخصوم.

«عمى البصيرة حجبهم عن الإيمان»

السورة الكريمة تناولت بالإسهاب كفار مكة، الذين بُعث رسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولا تزال الآيات في جدلٍ مع المشركين، المكذبين لسيد المرسلين، فقد حكى عنهم القرآن طعنهم في أمر النبوة والوحي، وإنكارهم لرسالة محمد عليه السلام، وتكذيبهم بالقرآن الكريم، الذي تحداهم الله عز وجل به، فَأُفحِموا وانقطعوا، ومع ذلك فقد أصرُّوا على الجحود والعناد، والاستكبار عن قبول دعوة الحق، وهنا يذكر القرآن الكريم سبب هذا الاستكبار والطغيان، ألا وهو عمى البصيرة، والتمرد على الشريعة، وعدم قبول الحق والإذعان له، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُوْنَ إِلَيْكَ، أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُوْنَ؟ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي العُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُوْنَ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً، وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ﴾.

والمعنى: من هؤلاء المعاندين، المستكبرين عن قبول الحق، من يستمعون إلى حديثك يا محمد، ويستمعون إليك إذا قرأت القرآن، وقلوبهم لا تعي شيئاً مما تقرؤه وتتلوه، وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُوْنَا إِلَيْهِ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ، فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُوْنَ﴾ ولهذا قال تعالى في هذه السورة ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُوْنَ﴾؟ استفهام بمعنى النفي أي أنت لا

تقدر أن تسمع الأصمَّ الذي سلبه الله السمع، ولو كانوا من الصمم لا يعقلون ولا يتدبرون، شبَّههم تعالى بالأصمِّ وهو الأطرش الذي فقد حاسة السمع، وزادت مصيبته ففقد حاسة العقل والتفكير، فكيف يرجى منه الفهم، أو يُرجى له الخير والانتفاع، وقد اختلت فيه حاسة السمع والعقل؟ قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي ومن هؤلاء المشركين من يسمعون كلامك الحسن، والقرآن النافع، ولكن ليس أمرُ هدايتهم إليك، فكما لا تقدر على إسماع الأصم، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلَّا أن يشاء الله»(١) ثم قال تعالى منبهاً إلى عمى أبصارهم بعد عمى بصائرهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ، أَفَأَنْتَ تَهْدِي العُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُوْنَ﴾ أي ومن هؤلاء الكفرة المعاندين، من ينظر إليك يا محمد، ويشاهد دلائل نبوتك الواضحة، ولكنَّهم عميٌ لم ينتفعوا بما رأوا، أفأنت يا محمد تقدر على هدايتهم، ولو كانوا عُمياً لا يبصرون؟ شبَّههم تباركت أسماؤه بالعُمي لتعاميهم عن الحق، والمراد تسلية النبي عليه السلام، عمَّا يلقاه منهم من صدود وإعراض، واستهزاءٍ وتكذيب، وكأن الآية تقول له: كما لا تقدر أن تخلق للأعمى بصراً يهتدي به، فكذلك لا تقدر أن تُوَفِّق هؤلاء للإيمان.

«ندم المشركين وحسرتهم يوم القيامة»

ثم انتقلت الآيات لتتحدث عن موقفهم الذليل، وندمهم وحسرتهم يوم القيامة، حيث يجمعهم الله جل وعلا في أرض المحشر، فيتعارفون ويتلاومون، ويحُسُّون بخيبة الأمل، ويدركون الحقيقة المرة، وهي أن

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/١٩٥.

إقامتهم في الدنيا لم تكن إلَّا سراباً خادعاً، كان يوماً أو سويعاتٍ من النهار، فيندمون على ما فرَّطوا في جنْب الله، ولكنْ هيهات أن ينفع الندم، أو تفيد الحسرة، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ، يَتَعَارَفُوْنَ بَيْنَهُمْ، قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوْا بِلِقَاءِ اللَّهِ، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

والمعنى: اذكر يوم نجمع هؤلاء المشركين للحساب، كأنَّهم ما أقاموا في الدنيا إلَّا ساعة من النهار، لهول ما يرون من الأهوال ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً كما كانوا في الدنيا، وهو تعارفُ «توبيخٍ وافتضاح» لا تعارفُ «محبة ومودة» يعرف الصديقُ الصديقَ، والقريب القريب، فيقول الواحد للآخر: أنت أغويتني، وأنت أضللتني، فيسبُّه ويلعنُه كما قال سبحانه ﴿ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضَاً﴾[1] والآية دليل على استقصار الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة، وقد كانوا هنا في الدنيا غافلين، ولكنهم عرفوا الحقيقة هناك، كما قال سبحانه ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المُجْرِمُوْنَ مَا لَبِثُوْا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ وقال تقدست أسماؤه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُوْنَ لَمْ يَلْبَثُوا إلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ وفي موطن آخر يُسألون عن مدة مكثهم ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمَاً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العَادِّينَ﴾[2] وقد حكم القرآن بخسرانهم وضلالهم فقال ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوْا بِلِقَاءِ الله وَمَا كَانُوْا مُهْتَدِينَ﴾ وأيُّ خسارةٍ أعظم من أن يخسر الإنسان حياته، وسعادته، وأبناءه، ويكوى في لظى الجحيم؟.

---

(١) سورة العنكبوت آية رقم /٢٥/.

(٢) سورة المؤمنون آية رقم /١١٣/.

«استحقاقهم للعقاب»

ثم أخبر تعالى أنه لا بدَّ من عذابهم، إن عاجلاً أو آجلاً، فإنهم بكفرهم وإشراكهم قد استوجبوا عقاب الله، فإما أن ينتقم الله منهم في حياته ﷺ، ليُقرَّ عينه منهم، أو يؤخر لهم العقوبة إلى الدار الآخرة، فالأمرُ لله وحده، وفي ذلك يقول جل وعلا ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ، أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ، ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُوْنَ﴾.

والمعنى: إما أن نريك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا، لتقرَّ عينُك منهم، أو نتوفينك قبل ذلك، فمصيرهم ومرجعهم إلينا في الآخرة، فننتقم لك منهم، فإنهم لن يُفلتوا من عقابنا، ولا بدَّ من الجزاء إن عاجلاً أو آجلاً.

ثم تلتها الآيات الكريمة، تذكر استهزاءهم وسخريتهم مما كان يعدهم به ﷺ من نزول العذاب، فقد جمعوا مع الكفر والتكذيب، السخرية والاستهزاء ﴿وَيَقُوْلُوْنَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ أي ويقول المشركون من كفار مكة: متى هذا العذاب الذي تعدنا به يا محمد، إن كنت صادقاً؟

«مهمة الرسول التبليغ والإنذار»

وقد أرشده الله تعالى إلى الردِّ عليهم فقال سبحانه ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضرّاً وَلَا نَفْعَاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي قل لهم: لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضراً، ولا أجلب لها نفعاً، إلَّا إذا شاء الله تبارك وتعالى، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم به من العذاب، فما أنا إلَّا رسولٌ مبلِّغٌ عن اللَّهِ أوامره، ولست بإلَهٍ حتى آتيكم بما تطلبون، ثم أردف ذلك

بقوله ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ، إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُوْنَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُوْنَ﴾ والمراد بالأجل هنا أجلُ العذاب والهلاك، أي لكل أمةٍ وقتٌ معلوم لهلاكهم وعذابهم، مَاذَا جاء أجل الهلاك، فلا يتأخر عنهم برهةً ولا يتقدم.. ثم زاد في الإيضاح والبيان فقال ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً، مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المُجْرِمُوْنَ﴾ أي أخبروني أيها الناس إن جاءكم عذاب الله في الليل أو في النهار، ماذا ينفعكم طلب التعجل به؟ وهو استفهام معناه التهويل والتعظيم لأمره أي ما أعظم ما يستعجلون به؟ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ أي هل ينفعكم عند نزول العذاب الإيمان به؟ ﴿الآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُوْنَ﴾ أي الآن تؤمنون وقد كنتم من قبل تهزءون به وتسخرون؟. ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوْقُوا عَذَابَ الخُلْدِ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُوْنَ﴾؟ أي ذوقوا العذاب الأبدي الدائم، الذي لا ينقطع، هل تجزون إلَّا بما كسبته أيديكم من الآثام والإجرام؟ وهكذا تقرِّر الآية الكريمة العدالة الإلّهية في معاقبة المجرمين الظالمين!.

«إنكارهم للبعث والنشور»

لا يزال الحديث عن كفار مكة، أولئك العتاة الطغاة، الذين تحدثت السورة الكريمة بإسهابٍ عنهم، فلقد أنكروا البعث والنشور، وكذَّبوا بالمعاد بعد فناء الأجسام، واستبعدوا أن يبعثهم الله بعد الموت، بعد أن تصبح عظامهم نخرة، وتنقلب أجسادهم إلى تراب ورفات، فجاءت الآيات الكريمة لتؤكد أمر البعث بعد الموت، وأن الذي قدر على خلقهم من العدم، قادر على إعادتهم للحياة مرة أخرى، وأنه تعالى لا يعجزه شيء، وقد أقسم تبارك وتعالى على ذلك لأهمية الموضوع

فقال تقدست أسماؤه ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ؟ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ومعنى الآية الكريمة يستخبرونك يا محمد أحقٌّ ما وعدتنا به من أمر البعث بعد الفناء، للحساب والجزاء؟ فقل لهم: نعم والله إنه لكائن لا شك فيه، ولستم بمعجزين ربكم لأنكم في قبضته وسلطانه.

«آيات ثلاث أقسم الله فيها على أمر البعث»

وهذه الآية إحدى آيات ثلاث، أقسم الباري تبارك وتعالى فيها على موضوع البعث والنشور، وأمر رسوله أن يؤكد لهم الأمر بالقسم بجلال الله وعظمته «قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ» أما الآيتان الأخريان فهما في سورة سبأ في قوله سبحانه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوْا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ، عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ . . .﴾ وفي سورة التغابن في قوله سبحانه ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ، ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ، وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

«الاهتمام بموضوع البعث والحكمة منه»

وموضوع الاعتقاد بالبعث بعد الموت، ركنٌ من أهم أركان الإيمان، ولهذا ركَّزت السورة على هذا الموضوع الخطير، فكرَّرتْ ذكره بأساليب متعددة، ونوَّعت في إقامة الحجج والبراهين، لأن في إنكاره تضييعاً للمسؤولية، وإهداراً للحكمة من خلق الإنسان، كما قال سبحانه ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً، وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُوْنَ؟ فَتَعَالَى اللَّهُ

﴿المَلِكُ الحَقُّ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ﴾[1] ففي الإيمان بالبعث والجزاء، يستقيم سلوك الإنسان، لأنه يؤمن بلقاء ربه، وبالحساب يوم الجزاء، فلا يسير مع الأهواء والشهوات، ولا يتفلت كالحيوان بلا وازع ولا ضابط، بل يزن كل أموره بميزان العقل والشرع، فيستقيم سلوكه، وتتهذَّب نفسه، وتنضبط أخلاقه وأهواؤه، وفي إنكار البعث والجزاء ضياعُ لصمام الأمن، حيث يصبح الإنسان هائماً على وجهه كالحيوان، لا يعرف منكراً، ولا يخشى عقاباً، ولا يعتقد بمسؤولية، فلذلك لا يتورع عن فعل كل قبيح وعمل كل منكر، لأنه لا يحسب حساباً لجنةٍ أو نار، أو نعيم أو جحيم، فلماذا يتقيَّد بالأوامر والنواهي؟ وقد ذكر القرآن الكريم أن السبب لانحراف الإنسان وفجوره، واسترساله في الشهوات، هو عدم إيمانه بلقاء الله، وعدم تصديقه بالحشر والنشر، فقال تقدست أسماؤه في سورة القيامة ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانَ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ. يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ﴾[2] وسؤالُه عن القيامة إنما هو سؤالُ سخرية واستهزاء، وجحود وتكذيب، فهو إنما أنكر البعث والحشر، ليتم له الانطلاق في طريق الفجور، فلا يتقيد بأمر الله ونهيه، ولا بتحليله وتحريمه، بل ينطلق مع الأهواء والشهوات لينال في هذه الحياة مناه.

«حالة المجرمين التعيسة في الآخرة»

ثم جاءت الآيات الكريمة، لتصوِّر لنا حالة هؤلاء المجرمين الظالمين، المنكرين للبعث والجزاء، وحسرتهم وندامتهم على ما فرَّطوا في هذه الحياة الدنيا، وضيَّعوا من صالح الأعمال، وتذكر أنهم يتمنون

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم/ ١١٦/.

(٢) سورة القيامة آية رقم / ٥ و٦/.

لو يفتدوا من عذاب الله بملىءِ الأَرض ذهباً، ولكن هيهات أن يُقبل منهم فداء، أو تنفعهم شفاعة، لأن القيمة هناك للأعمال لا للمال، والتعامل في الآخرة ليس بالدرهم والدينار، ولكن بالتقوى والإيمان، ومخافة الرحمن، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً لاَفْتَدَتْ بِهِ، وَأَسَرُّوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ وهذه الآية في منع قبول الفداء، تشبه قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوْا وَمَاتُوْا وَهُمْ كُفَّارٌ، فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوْ افْتَدَى بِهِ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[1] وتشبه قوله تعالى في سورة المعارج ﴿يَوَدُّ المُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ. وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ. وَمَنْ فِي الأَرْضَ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾[2].

«البعث حقٌّ كائن لا محالَة»

وتلتها الآيات الكريمة تذكر أنه تعالى هو الخالق المالك، المحيي المميت، وأن وعده بالبعث والجزاء حقٌّ كائن لا محالة، وأنه إليه المرجع والمآب، ليجازي الإنسان على ما قدَّم في هذه الحياة الدنيا من خير أو شر، أو صالحٍ أو طالحٍ، فحسبُ العباد أن الملك الديان هو المحاسب لعباده، وهو الذي لا تخفى عليه خافية، وكلٌّ ما في الكون خلقُه وملكُه، وهو المتصرف في شؤون العباد، فعليهم أن يخافوه ويحذروا بطشه وانتقامه ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُوْنَ. هُوَ يُحْيي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ﴾.

(١) سورة آل عمران آية رقم/ ٩١/.

(٢) الآيات من سورة المعارج رقم/ ١١ ـ ١٤/.

«القرآن هو الهادي إلى طريق النجاة والسعادة»

وبعد التحذير جاء دور النصح والتذكير، فقد ذكَّر تعالى عباده بما أنـزل عليهم من القرآن العـظيم، الجامـع لأنواع الحِكَم، الشـافي للصدور، الهادي إلى طريق النجاة والسعادة، فعليهم أن يستمسكوا بهدايته، وإرشاده، وأن يفرحوا بنعمة إنزاله، فإنه خير من حُطام الدنيا، وما فيها من الزهرة الفانية، والنعيم الزائل، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

نبَّه تعالى في هذه الآيات البينات، إلى أن نعمة الهداية والإيمان بنزول هذا القرآن، أعظم من نعمة جمع المال، فعلى الناس أن يشكروا ربهم، على ما منَّ به عليهم من نزول هذا القرآن العظيم، فيه الهدى والشفاء، والنور والضياء، ولا يغتروا وينخدعوا بما عليه الكثيرون من الاشتغال بجمع حطام الدنيا، ونعيمها الفاني، فإن الدنيا بما فيها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، لأن الدنيا زائلة، والآخرة باقية، والعاقل من يُؤْثِر الباقي على الفاني، ولهذا ختم الله الآية بقوله ﴿هو خيرٌ مما يجمعـون﴾ اللهم ارزقنا الآخـرة والعمل لهـا، واجعلنـا من عبـادك الصالحين، يا أرحمَ الراحمين. !

«جنايتهم في تحريم بعض الأنعام»

محور هذه السورة كما اتضح لنا في دراستها يدور حول المشركين من كفار مكة، الذين أنكروا البعث والحشر والنشر، ولم يصدِّقوا بالحياة بعد الموت، وقد جاءت السـورة الكريمـة، لتثبت لهم في مواطن

متعددة، أمر البعث والحساب والجزاء، وتقيم لهم الحجج الدامغة على صدق ما أخبرهم به الرسول عليه الصلاة والسلام، من أمر القيامة، والصراط، والحشر والنشر، والجنة والنار، وغير ذلك من أخبار الآخرة، كما جاءت لتناقشهم في أمر التحليل والتحريم، الذي اخترعوه من تلقاء أنفسهم، فحلَّلوا بعض الأنعام، وحرَّموا بعضها، كالبحيرة، والسائبة، والوصيلة، والميتة، دون مستندٍ ولا حجة من شرعٍ أو دين، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ، فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً، قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ؟ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ؟ ومَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُوْنَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ إن اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُوْنَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نزلت إنكاراً على المشركين، فيما كانوا يُحلُّون ويُحرِّمون من البحائر، والسوائب، والحرث، والأنعام» والآية تشير إلى سفاهاتهم، في تحريم ما أحلَّ الله لهم من أنواع الأنعام، التي ذكرها الله تعالى في قوله ﴿وَقَالُوْا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ - أي محرَّمة وممنوعة - لا يَطْعَمُهَا إلاَّ مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ، وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُوْرُها، وَأَنْعَامٌ لاَ يَذْكُرُونَ اسْمَ الله عَلَيْهَا، افْتِرَاءً عَلَيْهِ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ﴾ وفي قوله تعالى أيضاً ﴿وَقَالُوْا مَا فِي بُطُوْنِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُوْرِنَا، وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(١).

«التحريم والتحليل لا يكون بالأهواء»

وقد أنكر تبارك وتعالى على من حرّم ما أحلَّ الله، أو أحلَّ ما حرَّم الله، بمجرد الأهواء والآراء، التي لا مستند لها، ولا دليل عليها من

(١) سورة الأنعام آية رقم/ ١٣٨/ و/ ١٣٩/.

شرعٍ ودين، ثم توعَّدهم على ذلك يوم القيامة فقال تباركت أسماؤه ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُوْنَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾؟ أي ما ظنهم أن يصنع الله بهم يوم القيامة، وقد كذبوا عَلَى اللَّهِ فأحلوا وحرَّموا من تلقاء أنفسهم؟ أيحسبون أن الله يصفح عنهم، ويغفر لهم جرائمهم؟ كلاَّ، بل سيصليهم سعيراً جزاء ما ارتكبوا من زورٍ وبهتان، ومع كل هذا الافتراء، فإن رحمة الله قد وسعت البرَّ والفاجر، فلم يعجل العقوبة لمن أنكر وجوده، وحلَّل حرامه، وغيَّر شرعه ودينه، بل أمهلهم لعلهم يتوبون ويرجعون عن الغيِّ والعدوان، ولهذا ختم الآية بقوله عزَّ اسمه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُوْ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُوْنَ﴾.

«الله رقيب على أعمال العباد»

ثم تلتها الآيات تُذكِّرُ النَّاس بعلم الله الواسع، الذي لا يخفى عليه شيءٌ، ولا يغيب عنه مقدار ذرَّة في سائر الكون من أمور العباد، وذلك ليحذروا سطوته وانتقامه، فإنه تعالى هو الرقيب المطَّلع على جميع أعمالهم وتصرفاتهم، فعليهم أن يراقبوا الله تعالى ويخشوا عقابه، ويكفُّوا عن محارمه، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه مخاطباً رسوله والناس جميعاً: ﴿وَمَا تَكُوْنُ فِي شَأْنٍ، وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ، وَلاَ تَعْمَلُوْنَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُوْنَ فِيهِ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ، وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

والآية تصويرٌ دقيق لعلم الله الشامل، ومعرفته بأحوال العباد، فإن الذي لا يخفى عليه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا يغيب عن نظره وزن ذرةٍ في سائر الكائنات والموجودات، كيف يغيب عنه

وتخفى عليه أعمال عباده، سواءً المطيع منهم والعاصي، والبرُّ منهم والفاجر؟ أفلا يجب على الناس أن يراقبوا ربهم في سائر أعمالهم، وهو الذي قد أحاط بكل شيء علماً!؟

«كلام الحافظ ابن كثير في الآية»

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية: يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله، وأحوال أمته، وجميع الخلائق، في كل ساعةٍ ولحظة وأوان، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها، في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلَّا في كتاب مبين ـ وهو اللوح المحفوظ ـ كقوله جلت عظمته ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ، وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(١). فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك»(٢).

«البشارة للمؤمنين المتقين»

وإذا كان جو الآية يوحي بالهيبة، والعظمةِ، والجلال، ويُدخل إلى القلوب الفزع والروع من سطوته تعالى وعقابه، فقد جاءت الآيات

(١) سورة الأنعام آية رقم/ ٥٩/.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/١٩٩/.

بعدها طريَّةً نديَّة، تُبشِّرُ المؤمنين المتقين بما أعدَّه الله لهم من النعيم الدائم في دار الخلد والكرامة، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، وفي ذلك يقول جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوْا يَتَّقُوْنَ. لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، ذَٰلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ وأولياء الله: هم أحبابُه وأصفياؤُه، الذين اختارهم الله لجواره في دار الخلد والنعيم، وهم كلُّ مؤمنٍ متَّقٍ لله، فإنه وليٌّ الله كما فسَّرهم تعالى بقوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُوْنَ﴾ فكل من كان تقياً، كان للّهِ ولياً، وقد بشرهم تبارك وتعالى ببشارتين عظيمتين ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ أما بشارتهم في الدنيا فهي عند الاحتضار والانتقال من هذه الدار، تبشره الملائكة بالجنة والرحمة والمغفرة كما قال سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوْا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا، تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ المَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوْا وَلَا تَحْزَنُوا، وَأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوْعَدُوْنَ﴾[1] وأما بشارتهم في الآخرة فهي كما قال سبحانه ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلَائِكَةُ، هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوْعَدُوْنَ﴾[2].

«تفسير البشرى بالرؤيا الصالحة»

وقد جاء تفسير البشرى عن رسول الله ﷺ في حديث أخرجه الإمام أحمد في المسند بأنها «الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو تُرَى له» والمراد بالرؤيا الصالحة الرؤيا الحسنة في المنام. ومن أوصاف أولياء الله الذين أكرمهم الله بهذه البشارة، أنهم إخوةٌ في الله، تحابُّوا في

(١) سورة فصِّلت آية رقم/ ٣٠/.
(٢) سورة الأنبياء آية رقم/ ١٠٣/.

مرضاة الله، كما رُوي ذلك في حديث صحيح أخرجه أبو داود في سننه، وهو قوله عليه أفضل الصلاة والتسليم: «إن لله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة، لمكانهم من الله، قالوا: أخبرنا من هم؟ وما أعمالهم؟ فلعلَّنا نحبهم!! قال: هم قوم تَحَابُّوا في الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾» الآي اللهم اجعلنا منهم.

«مواساة وتسلية للرسول ﷺ»

وبعد ذلك البيان الوافي الشافي، حول ولاية الله لعباده المؤمنين الصادقين، في الآيات السابقة، وبيان أنهم في كنف الله وحفظه لأنهم أحبابه وأونياؤه، جاءت الآيات ترفع الأكدار والأحزان، عن قلب الرسول عليه الصلاة والسلام، وتمسح ما عَلِقَ به من آلامٍ مُمِضَّة، من أثر تكذيب قومه له، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه يُحْزِنه أن يقول عنه المشركون: إنه كاذبٌ، مفترٍ على الله، بعد أن كان مشهوراً عندهم أنه الصادق الأمين، فكيف يصبح الصادق كاذباً، والأمينُ خائناً؟! وكان ذلك يُؤَثِّر أشدَّ الأثر في نفسه، ويقلق مضجعه، فجاءت الآيات تُسلِّيه وتُواسيه، وتخفف عنه وقع تلك الافتراءات والأكاذيب التي تخرَّصها المفترون الجاحدون، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ. أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

لقد كذَّب الكفَّارُ الرسول، وأثاروا في وجهه أنواع الشكوك والاتِّهامات وتوعَّدوه بالتشريد والإخراج من الوطن، ثم بالقتل إن لم يكفَّ عن دعوته، فنزلت الآية تسليةً له عليه السلام ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي لا تهتمَّ يا محمد بوعيدهم وتهديدهم، ولا تحزن وتتألم من تكذيبهم، وهنا يلزم الوقفُ كما نبَّه المفسرون عند قوله «وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ» لئلَّا يُوهم أن بقية الآية من قولهم فيفسد المعنى، ولهذا يقولون: الوقف هنا لازم، ثم ابتدأ تعالى فقال ﴿إِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فهو كالتعليل والتدليل على عدم الحزن، من سفه أولئك المجرمين، لأن العزة والغلبة، والقدرة والسلطان، للَّهِ جميعاً، فهو ناصرُك، ومانعُك، ومعينُك، ومن كان الله معه فلن يَقْهره أحدٌ، ولا ينبغي أن يخاف أحداً، وكأن الآية تقول لرسول الله عليه السلام: إذا كان المشركون يتعزَّزون بكثرة الأعوان والأنصار، ويفخرون بوفرة الأملاك والأموال، ويخوِّفونك بها ـ وتلك الأشياء كلها لله تعالى ـ فهو القادر على أن يسلب منهم كل تلك الأشياء، وأن ينصرك عليهم وينقل أموالهم وديارهم إليك، لأن العزة للَّهِ جميعاً، والغلبة والقهر له ولحزبه ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ ثم أكَّد تعالى الوعد بقوله ﴿هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ أي هو جلَّ شأنه، وعزَّ سلطانه، السميعُ لما يقولون، العليم بما يعزمون ويكيدون، وسينتقم لك منهم، فلا تذهب نفسُك عليهم حَسرات.

«الله هو المالك المتصرف»

وتأكيداً لهذا المعنى في نصرة الله لرسوله، وحفظِه وتأييده له ولأتباعه، أخبر تعالى أن كل ما في الكون مِلْكٌ له، لا يخرج شيء عن سلطانه، فقال تقدست أسماؤه ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ و«أَلَا» للاستفتاح والتنبيه أي انتبهوا أيها القوم وتفطَّنوا، فإن الله هو المالك لمن في السموات والأرض، ما فيها ومن فيها، فمن ذا

الذي يملك من القوة أن يقف أمام جبروت الله وسلطانه؟ ومن ذاالذي يستطيع أن يقهر من أعزَّه الله؟ ألا وهو رسولُه المصطفى، وحبيبُه المجتبى؟ فالكون كله لله عبيداً، ومُلْكاً، وتصرفاً، وإذا كان العقلاء المميِّزون، وهم الملائكة وجميع البشر في ملكه وعبوديته، فالجمادات أولى بهذه العبودية منهم.

«سفه وحماقة»

ثم سفَّه تعالى عقول المشركين في أنهم لا يعبدون آلهةً حقاً، إنما يعبدون أوثاناً وأحجاراً، وهي أتفه وأحقر من أن ينتصروا بها، أو يتغلبوا على رسول الله بمددها ومعونتها، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إنْ يَتَّبِعُوْنَ إلاَّ الظَنَّ وَإِنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصُونَ﴾.

والمعنى: لا يملك هؤلاء المشركون الذين يعبدون غير الله، من أحجار وأشجار شيئاً من القوة، لأنهم لا يعبدون إلَهاً قادراً، إنما يعبدون من لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ولا يستطيع أن ينقذهم من شدة، أو يدفع عنهم كرباً، فكيف يخوِّفونك بالآلهة المزعومة؟ وما هم في عبادتها إلاَّ يظنون الظنون الباطلة، والأوهام الفاسدة، يظنون الأوهام حقائق، وهم في هذا الظن كاذبون.

«الليل والنهار من مظاهر قدرة الله ووحدانيته»

ثم تلَتْها الآيات الكريمة، تذكِّر الناس بآثار قدرته، وبديع صنعته، مع الإشارة إلى بعض نِعَمه التي غمر بها العباد، فقد هيأ لهم أسباب العيش على سطح هذا الكوكب الأرضي، وذكر من آثار قدرته الليل

والنهار، وهما من أعظم الآيات الباهرة، بـالنهار يتحـركون لقضـاء مصالحهم، وطلب معاشهم، ويسافرون للتجارة والسياحة وطلب الرزق، وفي الليل يخلدون إلى الراحة والسكن، فينامون ليزول عنهم التعب والكَلاَل، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوْا فِيهِ، وَالنَّهَارَ مُبْصِرَاً، إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُوْنَ﴾ والمراد بالسماع في الآية: سماع التأمل والتدبر، والتفكُّر والتبصر، لا مجرد السماع بالأذن الجارحة، كما يسمع الإنسان الأصوات، فذاك سماعٌ مذموم بعيدٌ كل البعد عن الهدف والمراد، وقوله تعالى عن الليـل ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ إشارة إلى الهدف الأسمى من خلق الليل، ألا وهو طلب الراحة، وقـولُه ﴿وَالنَّهَـارَ مُبْصِرَاً﴾ أي جَعَله مضيئـاً لتهتدوا بـه في حوائجكم، وهذان طرفان من منافع الليل والنهار، وإلاَّ فهناك منافع عديدة لوجود الليل والنهار، منها معرفة الأيام والشهور والأعوام، ومعرفة أوقات العبادة، والحج والصيام، ومنافع للنبات والإنسان والحيوان، يضيق عنها البيان.

وقد ذكَّرنا المولى جلَّ وعلا بنعمة خلق الليل والنهار، التي يغفل عنها كثير من البشر، فإنَّه لو استمرت الحياة فكانت كلها ليلاً، لتعطلت مصالح الناس، وتعطلت أسباب العيش، فلم ينبت نبات ولا ثمار ولم يعش إنسان ولا مخلوق، لأنها جميعاً تحتاج إلى الشمس، ولو كانت الحياة كلُّها نهاراً لما أمكن العيش، لأن الإنسان يحتاج إلى الراحة والهدوء النفسي، لأنه ليس آلة دائبة، تشتغل دون انقطاع، ولو لا غياب الشمس لاحترقت كل الزروع والثمار، بأشعة الشمس اللاهبة، بل واحترقت جلودنا وأجسامنا، ولهذا ذكَّرنا الله سبحانه بنعمة تعاقب الليل والنهار، وعدم استمرارهما على وتيرة واحدة، فقال تقدست أسماؤه في

سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ - أي دائماً مستمراً دون انقطاع - مَنْ إلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ؟ أَفَلَا تَسْمَعُوْنَ؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إلى يَوْمِ القِيَامَةِ، مَنْ إلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيْكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ؟ أَفَلَا تُبْصِرُوْنَ؟ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، لِتَسْكُنُوا فِيهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

«نسبة الذرية لله سفهٌ وجهالة»

وبعد هذا البيان الواضح، حكى القرآن نوعاً آخر من أباطيل وضلالات المشركين، وضلالات أهل الكتاب، فقد جعلوا لله ذريةً ونسباً، وألحقوا به بنين وبنات، وهو الواحد الأحد، الغنيُّ عن الزوجة والولد، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً، سُبْحَانَهُ هُوَ الغَنِيُّ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، إنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا - أي هل عندكم حجة وبرهان على هذا الافتراء والبهتان؟ - أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ. قُلْ إنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُوْنَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لَا يُفْلِحُوْنَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ إلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُوْنَ﴾ وهكذا قصم القرآن الكريم ظهر الباطل، بهذه الآيات البينات، في حجته الدامغة، وبرهانه الناصع.

«قصص ثلاث للعظة والاعتبار»

وقد تناولت السورة ضمن ما تناولته من أبحاث، الحديث عن قصص بعض الأنبياء، فذكرت قصة نوحٍ عليه السلام شيخ الأنبياء، لأنه كان أطول الأنبياء عمراً، وأكثرهم بلاءً، وأقلهم أتباعاً، ثم قصة موسى

وهارون مع الطاغية الجبار «فرعون اللعين» الذي ادعى الربوبية، وأذاق بني إسرائيل ألوان العذاب، ثم قصة يونس مع قومه المكذبين، الذي سميت السورة الكريمة باسمه «سورة يونس» تشريفاً له وما كان من نهاية المطاف في خبر الأمم السابقين.

والغرض من ذكر هذه القصص تسليةُ الرسول عليه السلام لما كان يلقاه من أذى قومه المشركين، ليكون له ولأصحابه أسوةٌ بمن سلف من الأنبياء، فيهون عليه ما يلقاه من الشدائد والمكاره، فإن الرسول إذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع جميع الرسل، ما كانت إلَّا على هذا الوجه من العناد، والأذى، والتكذيب، خفَّ ذلك على قلبه، كما يُقال: المصيبةُ إذا عمَّت خفَّت، ومن ناحيةٍ أخرى فإن الكفار إذا سمعوا هذه القِصص والأخبار، وعلموا أن السفهاء وإن بالغوا في إيذاء الأنبياء، إلَّا أن الغلبة والنصرة كانت في النهاية للرسل وأتباعهم، كان سماعهم لأمثال هذه القصص سبباً داعياً لانكسار قلوبهم، ووقوع الخوف والفزع في صدورهم، وحينئذٍ يُقلِّلون من أنواع الإيذاء والسفاهة.

ولما كان موقف المشركين مع رسول الله ﷺ صُلباً شديداً، وكان جدالُهم معه مكابراً عنيداً، أُمر ﷺ أن يجابههم بالقوة والشدة، وأن يقصَّ عليهم خبر من سبقهم من الطاغين الجاحدين، كيف عجَّل الله هلاكهم بالإحراق أو بالإغراق، أو بالخسف والزلزلة، ليكسر حِدَّتهم، ويُخفِّف جبروتهم وطغيانهم، فإن في أخبار من مضى عبرةٌ للمعتبرين، كما قال سبحانه: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ، وَلَقَدْ جَاءَهُم مُوسَى بِالبَيِّنَاتِ، فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ، وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ. فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً، وَمِنْهُم مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُم مَنْ

خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ، وَمِنْهُم مَنْ أَغْرَقْنَا، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ﴾.

«القصة الأولى قصة نوح عليه السلام»

وقد أمره الله تعالى أن يبدأ لهم بقصة نوح، ويتلو عليهم خبره مع قومه، وما كان من مصيرهم المشؤوم، حيث أغرقهم الله بالطوفان، فلم يُبْقِ منهم أحداً، ونصرَ نوحاً وأتباعه المؤمنين وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ، فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوْا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ، ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ. فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ﴾.

وإنَّما بدأ تعالى بذكر قصة نوح، لأنه كما أسلفنا كان أطول الأنبياء عمراً، وأشدهم بلاءً، وأعظمهم محنة، فقد صبر على قومه صبراً تعجز عن الصمود له الجبال، وتخور أمامه عزائم الرجال، ومكث مع قومه يدعوهم إلى الله، مدةً تقارب ألف عام، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوْحَاً إِلَى قَوْمِهِ، فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامَاً، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُوْنَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ، وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

«نوح عليه السَلام من أولي العزم»

ومع هذه المدة الطويلة والأجيال المتلاحقة، فإنه لم يتبعه إلا عدد قليل لا يكاد يذكر، وهو ثمانون نفراً على قول ابن عباس ما بين رجلٍ

وامرأة، كما قال سبحانه ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلَّا قَلِيلٌ﴾ ولهذا كان نوح عليه السلام من أولي العزم، وأُمِرَ نبيُّنا بالاقتداء به وبسائر الرسل العظام، الذين خصَّهم الله بما ليس في طاقة البشر، من تحمل الأذى وصنوف البلاء ﴿فَاصْبِرِ كَمَا صَبَرَ أُولُوْ العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وكان نوح أشدَّهم بلاءً في هذا الأمر، ولهذا سمي شيخ الأنبياء، من حيث العمر والصبر، فقد كانت مدته في الدعوة طويلة، والحصيلةُ ضئيلة.

والآية هنا في سورة يونس تذكر بإيجاز قصته مع قومه، ولكنها في موطنٍ آخر فصلت تفصيلاً دقيقاً، وذُكرت بإسهاب أخباره مع قومه الجاحدين المعاندين، كما هو في سورة نوح عليه السلام، وهذه طريقة القرآن يذكر في مكانٍ القصة موجزة، بغرض لفت الأنظار إلى مكان العظة والعبرة، وفي موطن آخر يذكرها موضحة مفصَّلة، ليستكمل جوانب الموضوع حسب الحاجة إليه، فما جاء مجملاً في مكان، جاء مفصلاً في مكان آخر، وما جاء بإيجاز في موطن، جاء بإسهاب في موطنٍ آخر، على حسب الحكمة والمصلحة، والحاجة التي يقتضيها ظرف الخطاب، وكما قال علماء البيان: البلاغةُ مخاطبة الإنسان بقدر الحاجة، وبأسلوب الحكمة، وبالطاقة التي يستوعبها فكر الإنسان.

«الغرض من الآية إظهار العزة بالله»

وغرضُ نوح عليه السلام في الآية الكريمة، أن يُظهر لقومه اعتزازه بالله، وعدم خوفه منهم، ومن وعيدهم وكيدهم، فمن توكل على الله كفاه، ومن استجار به حَمَاه، فكيف يخاف المشركين وهو متوكل على رب العالمين؟ وهذا هو حقيقة اليقين والإيمان، وقوله سبحانه على لسان نوح ﴿إنْ كَانَ كَبُر عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ

تَوَكَّلْتُ﴾ معناه الجهر بالدعوة بدون مبالاة، والتحدي الصارخ لهم، فهو يقول لقومه بجرأة المؤمن، الواثق بنصر الله: إن كانت دعوتي لكم إلى الإيمان والتوحيد، شاقةً وصعبةً على نفوسكم، وكان مكثي بين ظهوركم هذه المدة الطويلة، موجباً للتنفُّرِ والثِّقلِ، وعزمتم على طردي وقتلي، فأنا لا أخافكم، ولا أبالي بكم، لأنني معتمدٌ على ربي، ثم زادهم في الإيضاح والبيان فقال ﴿فأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أي فاعزموا أمركم، وادعوا شركاءكم وأعوانكم، ودبروا ما تريدون لمكيدتي ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي لا يكن أمركم في شأني مستوراً، بل مكشوفاً مشهوراً، فلتكن عداوتكم وحربكم لي عَلَناً وجهاراً ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أي أنْفِذوا فيَّ وأَمْضُوا ما تريدونه، بأشد ما تقدرون عليه، من غير إهمال ولا إنظار، ومثلُ هذا الكلام يدلُّ على أنه عليه السلام، كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله تعالى، وأنه كان قاطعاً بأن كيدهم لا يصل إليه، وأن مكرهم لا ينفذ فيه.

ثم ختم لهم النصيحة بأنه لا يريد منهم أجراً على هذا التذكير فقال ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي فإن أعرضتم عن قبول دعوتي ونصيحتي، فليس لأني طلبت منكم أجراً حتى تمتنعوا بل لشقاوتكم وضلالكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي ليس ثوابي على تبليغ الدعوة إلّا من الله رب العالمين الذين أسلمت وجهي له.

ثم كانت النتيجة ما أخبر عنه القرآن، وهي أخذهم بالغرق بالطوفان، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ في الفُلْكِ ـ أي في السفينة ـ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَانْظُرْ كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِيْنَ﴾ اللهم اجعلنا من المؤمنين الصادقين، ولا تهلكنا بغضبَك يا أرحم الراحمين.

«قصة موسى عليه السلام»

وبعد أن ذكر القرآن قصة نبي الله نوح عليه السلام مع قومه المكذبين، جاءت الآيات لتتحدث عن قصة موسى وهارون مع فرعون الطاغية الجبار، وهي القصة الثانية في هذه السورة الكريمة «سورة يونس» وقصة موسى عليه السلام مع فرعون وأتباعه، تكررت في القرآن الكريم في مواطن كثيرة، بألوان متنوعة، وأساليب متعددة، بشكل يثير الانتباه، لما فيها من أحداث وأخبار عجيبة، فهي ليست قصة فردٍ من الأفراد، مع ملك جبار، ولا قصة نبي كريم مع طاغيةٍ عنيد، إنما هي قصة تتكرر صورها في كل زمان ومكان، وتتنوع أشخاصُها بين كل حين وآن، وهي تصوِّر لنا حقيقة واقعية أليمة، تصوِّر الصراع بين الهدى والضلال، والحق والباطل، وتُمثِّل المعركة الحاصلة بين جند الرحمن وجند الشيطان، تلك المعركة التي بدأت منذ فجر هذا الوجود، منذ أن ظهر على ظَهْر هذا الكون الأنبياء والمرسلون، والدعاة والمصلحون.

«صراع بين الحق والباطل»

لقد وقف «الطغيان» بجانب الكثرة الكثيرة من دعاة الباطل، يتحدى الإيمان، ويتحدى التوحيد، ويتحدى رسالات الله، ووقف «الهدى» بجانب القلة القليلة من أتباع الحق وأنصاره، واحتدمت المعركة بين الهدى والضلال، والكفر والإيمان، وكانت النتيجةُ انتصارَ الإيمان على الكفر، والحقِّ على الباطل، وتلك سنة الله ولن تجد لسنة

الله تبديلاً، لن يغلب الباطل أبداً الحق، وإن كانت معه قوة جميع أهل الأرض، فإن للحق صولةً، وللباطل جولة، والمنتصر دائماً وأبداً جند الرحمن مصداقاً لقول الله العلي الكبير ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِيْنَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِيْنَ مَعْذِرَتُهُمْ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ، وَلَهُمْ سُوْءُ الدَّارِ﴾.

«تفصيل لقصة موسى مع فرعون»

ولنرجع إلى قصة نبي الله موسى الكليم، مع الطاغية فرعون الجبَّار كما قصها علينا القرآن، لنتابع أحداثها وغرائبها في سورة يونس ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ بِآيَاتِنَا، - أي بمعجزاتنا الباهرة - فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمَاً مُجْرِمِيْنَ. فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ أي زعموا أن ما جاءهم به موسى من قبيل السحر لا من قبيل المعجزات الباهرات ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُوْنَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُوْنَ؟ قَالُوْا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، وَتَكُوْنَ لَكُمَا الكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ، وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِيْنَ﴾.

هكذا يقابل فرعون وأتباعه دعوة الحقِّ بالغطرسة والكبرياء، ويزعمون أن ما جاءهم به موسى إنما هو سحرٌ وشعوذة، يريد أن ينال عن طريقها العزَّ والسلطان، لذلك يستدعي فرعون الأنصار والأعوان ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي اجمعوا لي كل ساحرٍ ماهر، عليمٍ بفنون السحر، لأبطل بهم سحر موسى.

«إجمال في موطن وتفصيل في موطن آخر»

وقد أجمل القرآن الكريم هنا ما فصَّله في سورة الأعراف، من

أنهم جمعوا له السحرة من أقطار مملكته، فلما جاءوا فرعون اشترطوا عليه أن يكافئهم مكافأة سخيةً، إن هم غلبوا موسى، فوعدهم أن يعطيهم ما أرادوا، بل أن يُقَرِّبهم منه، فيجعلهم من خاصَّته، وأهل مشورته، وكل ذلك بقصد أن يتغلب بزعمه على موسى.. وإنما أُجمل هنا لوضوح السياق، ولئلا يتكرر الكلام والعهدُ قريب بأنباء آل فرعون، وما حدث لهم بالتفصيل مع موسى عليه السلام. ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ. فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ، إنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ، إنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدِينَ، وَيُحِقُّ اللَّهُ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُوْنَ﴾ والظاهر من النصِّ أن فرعون قد اندحر، وأن موسى قد انتصر، بعد أن ألقى السحرة حبالهم وعصيهم، فإذا هي أشباه ثعابين، تتحرك ذات الشمال وذات اليمين، ولكنها خيالات وأوهام، فلما ألقى موسى عصاه ابتلعت جميع تلك الحبال، مما اضْطُرَّ السحرةُ أن يسجدوا لله رب العالمين وأن يرجع فرعون مندحراً خائباً، يجر أذيال الهزيمة والانكسار، وما أحسن ما قال الشاعر:

إذَا جَاءَ مُوسَى وَأَلْقَى العَصَا   فَقَدْ بَطَلَ السِّحْرُ والسَّاحِرُ

«خوف قوم موسى من جبروت فرعون»

ثم تمضي الآيات الكريمة وهي تحكي لنا موقف بني إسرائيل من دعوة موسى عليه السلام، فقد شاهدوا بأم أعينهم تلك المعجزات العظيمة، التي أظهرها الله على يد موسى بن عمران النبي الكريم، ولكنهم خوفاً من بطش فرعون وجبروته لم يعلنوا إيمانهم، ولم يتبعه إلَّا عددٌ يسير ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ، عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾.

والمعنى: ما آمن مع موسى، ولا دخل في دينه ـ مع مشاهدة تلك

المعجزات الباهرة - إلاّ نفرٌ قليل من أولاد بني أسرائيل، **قال مجاهد**: هم أولاد الذين أُرْسِل إليهم موسى من أول الزمان ومات آباؤهم.

﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ أي مع الخوف من فرعون أن يصرفهم عن دينهم بتسليط أنواع البلاء عليهم، قال تعالى مخبراً عن طغيان فرعون ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ المُسْرِفِينَ﴾ أي إن فرعون لمن المجاوزين الحدَّ في البغي والعدوان، والقتل والتعذيب، أو من المجاوزين الحدَّ في ادعاء الربوبية.

«اتخاذ البيوت دوراً للعبادة»

ولمَّا كان المؤمنون مكلَّفِين بالصلاة، ويخافون أن يُظهروا عبادتهم أمام فرعون والأقباط، فقد أوحى الله إلى موسى وهارون، أن يأمرا بني إسرائيل بالصلاة في بيوتهم، ريثما تنكشف الغُمَّةُ عنهم، ويصرفَ الله عنهم طغيان فرعون الجبار ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً، وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً، وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ﴾.

والمعنى: أوحينا إلى موسى وهارون أن اتَّخذا لقومكما من بني، إسرائيل بيوتاً للصلاة والعبادة ﴿وَاجْعَلُوا بُيوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي اجعلوا بيوتكم مُصَلَّى تُصَلُّون فيها عند الخوف.

قال ابن عباس: «كانوا خائفين فأُمروا أن يُصَلُّوا في بيوتهم» وهذا يشبه حال المسلمين في الصدر الأول من الإسلام، حيث كانوا في مكة لا يستطيعون أن يجهروا بالصلاة أمام المشركين، فكانوا يتعبدون خفية في البيوت والخلوات. ثم أمر الله موسى أن يبشر أتباعه المؤمنين،

بالنصر والغلبة على الأعداء، إن هم أطاعوا أمر الله فقال ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

«دعاء موسى على فرعون بالهلاك»

ولمّا ازداد طغيان فرعون وأذاه على بني إسرائيل، وبالغ موسى في النصح والتذكير لآل فرعون، وأظهر لهم المعجزات القاهرة التي تحملهم على تصديقه والإيمان برسالته ودعوته، ثم رأى القوم مُصِرِّين على الجحود والإنكار، أخذ يدعو عليهم وهارون معه يؤمِّنُ على دعائه، ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولاً سبب الدعاء عليهم، لئلا يتوهَّم السامع أنه يدعو عليه بدون ذنب ولا سبب، ولهذا قدَّم موسى عليه السلام السبب والجناية التي استحق فرعون وقومه أن يدعو عليهم نبيُّهم بالهلاك ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ﴾.

والمعنى: إنك يا ربِّ قد أعطيتَ فرعون وأشراف قومه الأموال الطائلة، لتكون عاقبةُ أمرهم إضلال الناس عن دينك، ربنا فاسْحَقْ أموالهم، ودمِّر ديارهم، فإنهم كفرة فجرة.. فيأتيه الجواب ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

والمعنى: قد أجبنا دعاءك يا موسى على فرعون وملئه، فاستبشرْ بهلاكهم، واستقم على أمر الله أنت وأخوك حتى يقضيَ الله بينك وبين القوم الظالمين، وسنرى كيف استجاب الله الدعاء، وكيف كانت نتيجة الطغاة المتجبِّرين عن قريب إن شاء الله!!.

«بطش فرعون بالمؤمنين»

لقد تركنا الطاغية الجبار «فرعون العنيد» يبطش وينكِّل بالمؤمنين، ويتوعد كل من يؤمن بموسى بالقتل والتشريد ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ، وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُوْنَ﴾ ولذلك دعا موسى عليه بأن يهلكه الله ويدمِّره، بعد أن بلغ ذروة الجبروت والطغيان، وقد استجاب الله دعوة نبيه موسى، وبشره بأنه سيهلكه عن قريب ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُوْنَ﴾ وإنما قال تعالى ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ بصيغة التثنية مع أن الداعي كان موسى عليه السلام وحده؟ ذلك لأن موسى كان يدعو، وهارون كان يؤمِّن على دعائه أي يقول: آمين، فهو أيضاً داعٍ فهما مشتركان في الدعاء، لأن قوله آمين معناه: استجب يا رب الدعاء فهو سائل أيضاً، كما أن الداعي سائل ومتضرع، كما قال الشاعر:

يَا رَبِّ لَا تَحْرِمَنِّي حُبَّهم أبداً ويرحمُ اللَّهُ عَبْدَاً قَالَ آمِينَا

«خروج موسى ببني إسرائيل من أرض مصرَ»

وبعد هذا الدعاء، الذي تفتحت له أبواب السماء، أوحى الله إلى نبيه موسى أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر ليلاً، وأن يعبر بهم البحر، ويذهب بهم إلى أرض فلسطين، فتجهز موسى ومن معه من المؤمنين، دون أن يعلم بهم الأقباط، وخرجوا في الليل، وساروا في طريق البحر الأحمر، وأخذوا يجدُّون السير مخافة أن يدركهم فرعون بجنوده، فلما كان الصباح نظر الأقباط فوجدوا بني إسرائيل قد خلت منهم الديار، فلم يبق بها ساكن منهم، فأخبروا فرعون، فجهَّز جيشاً جرَّاراً وخرج على عقبهم، وأراد أن يستأصل به بني إسرائيل، فلحقهم

بالجنود، وأدركهم في اليوم الثاني مع طلوع الشمس، وكان بنو إسرائيل قد وصلوا إلى البحر، فنظروا خلفهم فوجدوا فرعون بجيشه الزاحف، فأيقنوا بالخطر والهلاك، وضجوا بالعويل والصياح، وقالوا يا موسى ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُوْنَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

هنالك أوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر، فيصبح له طريقاً يابساً بقدرة الله، فضربه فانفلق بقدرة رب العالمين، فكان كل فرقٍ كالطود العظيم، ورأى بنو إسرائيل هذه الآية العظمى، فلما جاوزه موسى وخرج آخرهم منه، كان فرعون قد وصل إلى شاطىء البحر بجنوده، فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليعود كما كان ماءً رقراقاً، فأوحى الله إليه أن يترك البحر على حاله، لأنه يريد أن يغرق به فرعون وجنوده ﴿وَاتْرُكِ البَحْرَ رَهْوَاً - أي ساكناً على حالته التي هو عليها - إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾.

«غرق فرعون وأتباعه في البحر»

وهنا تتحدَّث الآيات في سورة يونس عن غرق فرعون وجنده، ونجاة موسى ومن معه من المؤمنين، ولنستمع إلى الآيات البينات وهي تقصُّ علينا هذه الأحداث العجيبة ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البَحْـرَ، فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيَاً وَعَدْوَاً، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ: آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ. آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ المُفْسِدِينَ؟ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُوْنَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً، وَإِنَّ كَثِيرَاً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُوْنَ﴾.

وقوله تعالى ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البَحْرَ﴾ أي قطعنا وعَدَّيْنا بهم البحر «بحر القلزم» حتى جاوزوه ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيَاً وَعَدْوَاً﴾

أي فلحقهم فرعون مع جنوده ظلماً وعدواناً، وطلباً للاستعلاء في الأرض بغير حق ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّه لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ﴾ أي حتى إذا أحاط به الغرق، وأيقن بالهلاك، تاب وأناب، وأعلن إيمانه وصدَّق بوحدانية الله، أظهر كلمة التوحيد والإخلاص، ظناً منه أن ذلك ينجيه من عذاب الله، ويُخلِّصه من الغرق، فجاءه الجواب ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ المُفْسِدِينَ﴾ أي آلآنَ تؤمنُ حين يئستَ من الحياة، وقد كنت من الغالين في الإفساد والضلال؟

«سؤال وجواب»

وهنا سؤال لا بدَّ من الجواب عليه وهو: أن فرعون تاب ثلاث مرات: أحدها قوله ﴿آمنتُ﴾ وثانيها قوله ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ وثالثُها قوله ﴿وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ﴾ فما السبب في عدم قبول توبته، وقد بالغ في التوبة وطلب الرجوع إلى الله؟

والجواب: أن هذه التوبة توبة اليائس، وهذا الإيمان إيمان المضطر المكره على الإيمان، وفي هذه الحالة لا تكون التوبة صادقة، ولا الإيمان مقبولاً، لأنَّه إيمان المكرَه الذي يئس من الحياة وعاين عذاب الله كما قال سبحانه ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ وهذا كمن صدر عليه حكم بالإعدام لا ينفعه الندم والاعتذار، وأيضاً فإن فرعون إنما أعلن هذه الكلمة ليتوصل بها إلى دفع تلك البليَّة الحاضرة، والمحنة النازلة، فما كان مقصوده من هذه الكلمة الإقرارَ بوحدانية الله، ولا الاعتراف بعزَّة الربوبية، وذلَّةِ العبودية، ولم تكن كلمته مقرونة بالإخلاص، إنما هي ضربٌ من ضروب النفاق، ولهذا

جاء الجواب بالتوبيخ والاستهجان ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ المُفْسِدِيْنَ﴾؟ أي هلاَّ تبتَ قبل هذا، ورجعت إلى ربك قبل أن يُحيط بك الهلاك؟ وهلاَّ آمنت قبل هذا الزمان؟

«قذف البحر لجثة فرعون»

ثم أخبر تعالى عن آيةٍ باهرة حدثت لفرعون، وهي: أن قومه لما أطبق عليهم البحر، وغرقوا جميعاً، نزلوا إلى قاع البحر وابتلعتهم الحيتان، إلَّا فرعون فقد أمر الله البحر أن يقذف بجثته، حتى يكون عبرةً لأولي الألباب كما قال سبحانه ﴿فالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُوْنَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُوْنَ﴾ أي ففي هذه الساعة نخرجك من البحر، بجسدك الذي لا روح فيه، لتكون عبرة لمن بعدك من الناس، من الجبابرة والفراعنة، حتى لا يطغوا مثل طغيانك.

وإنَّما نجَّى الله فرعون فلم تبتلعه الحيتان، لحكمةٍ بليغة وهي: ليراه الناس فيعتبروا بنهاية الطغيان، ويروا أن الذي كان يزعم الألوهية، ويتشدَّقُ بملء فمه فيقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ ويقولُ ﴿مَا عَلِمْتُ لِكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ كيف كانت نهايته المشؤومة؟ وليُظْهِرَ قدرتَه في إهلاك العُتاة الظالمين، ويتحقق للمجانين الذين عبدوه من دون الله سفههم وحماقتهم، فيروا أن الذي كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة، قد آل أمره إلى نهاية الذلة والمهانة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن بعض بني إسرائيل شكُّوا في موت فرعون، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده، سويّاً بلا روح، ليتحققوا موته وهلاكه».

وهكذا كانت نهاية الطغيان، فقد أغرق الله فرعون وجيوشه

وأتباعه، ونجّى عباده المؤمنين، وصادف يوم هلاكهم يوم عاشوراء، فصامه موسى شكراً لله عزّ وجلّ، ولما هاجر نبيُّنا ﷺ إلى المدينة المنوّرة، وجد اليهود يصومون هذا اليوم، فسألهم عنه فقالوا: هذا يوم عظيم، نجّى الله فيه موسى وأغرق فرعون فنحن نصومه شكراً لله تعالى فقال عليه السلام: نحن أحقُّ بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه[1].

«تمرد بني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون»

لا تزال الآيات الكريمة تطالعنا بمشاهد من مخازي اليهود، فبعد أن نجاهم الله من شر الطاغية فرعون الجبار، وأغرق أعداءهم في البحر، وأكرمهم بأنواع النعم الدينية والدنيوية، عادوا إلى التمرد والعناد، والعصيان لأوامر الله جل وعلا، وكان أول عملٍ قبيح ارتكبوه بعد أن نجّاهم الله من طغيان فرعون وجبروته، أنهم عبدوا العجل في غيبة موسى عليه السلام - والعجلُ ذكرُ البقر - ولكنهم لإغراقهم في الوثنية اتخذوه إلّهاً وعبدوه من دون الله، وزادوا في الغيِّ والضلال فطلبوا من نبيهم موسى «رؤية الله عز وجل» فقالوا له ما حدثنا عنه القرآن ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُوْنَ﴾ واتهموا الله عز وجل باتهامات فظيعة شنيعة، فزعموا أن الله فقير وأنه بخيل، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ثم كان من شأنهم في نهاية المطاف تحريفهم لكلام الله في التوراة، وجاء أبناؤهم من بعدهم فكذّبوا رسالة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم من رواية عبد الله بن عباس، وانظر جامع الأصول ٣٠٨/٦.

«تنازعهم واختلافهم في أمر الدين»

وهنا في سورة يونس يذكِّرنا الله تعالى بما فعل أسلافهم بعد تخليصهم من الفراعنة، وإغداق النعم عليهم، من صنوف البغي والعدوان، فقد اختلفوا وتنازعوا في أمر الدين، وتفرقوا إلى شيع وأحزاب، يضلِّل بعضهم بعضاً، ويكفِّر بعضهم بعضاً، وجعلوا الدين وراءهم ظهرياً، وإلى ذلك تشير الآيات البينات، وهي قوله تقدست أسماؤه ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ، وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ، فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ العِلْمُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

ومعنى الآية الكريمة ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي أنزلناهم وأسكناهم بعد إهلاك أعدائهم مكاناً محموداً، ومنزلاً صالحاً مرضياً، وأورثناهم ملك فرعون وسلطانه، فعاشوا في بلاد مصر، وأطراف الشام، منعمين مكرَّمين، ولكنهم لم يشكروا الله على هذه النعمة، في أنَّهم صاروا أحراراً بعد أن كانوا عبيداً، وصاروا مالكين بعد أن كانوا مملوكين، ومستذلين مستضعفين في الأرض ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي رزقناهم من أنواع اللذائذ الطيبة النافعة، من شتى الحبوب والزروع والثمار، فإن أرض مصر كانت كثيرة الخِصب، غزيرة الأرزاق، ومع ذلك فقد أورثهم الله جميع ما كان في ملك فرعون وقومه، من مساكن ومزارع، وكنوزٍ وأموال، كما قال سبحانه في سورة الدخان ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ. كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمَاً آخَرِينَ﴾ قال الحافظ ابن كثير: والمراد بهم بنو إسرائيل، فقد استولوا ـ بعد غرق فرعون وقومه ـ على الممالك القبطية، والبلاد المصرية، وعاشوا في رَغدٍ من العيش، كما قال تعالى ﴿وَأَوْرَثْنَا

الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾.

ثم قال تعالى عن بني إسرائيل ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ العِلْمُ﴾ أي فما اختلفوا في أمر الدين، إلاَّ من بعد ما جاءهم العلم، وهو التوراة التي فيها حكم الله، وهذا ذمٌّ لهم، لأن اختلافهم كان بسبب الدين، والدينُ يجمع ولا يفرِّقُ، ويوحِّـدُ ولا يُشتِّتُ، فكيف قابلوا النعمـة بالجحود، وفعلوا ضدَّ المقصود، فبدلوا الاتفاق بالاختلاف، والحبَّ بالتنازع والبغضاء!؟.. والآية تحذيرٌ لنا نحن معشر المسلمين، أن نفعل مثل صنيعهم، فنختلف ونتفرق، ونتعادى ونتباغض، فنصبح مثلهم في البغي والخروج عن شريعة الله، وقد ورد في الحديث الصحيح «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على اثنين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابي»[1] وذهب الإمام ابن جرير الطبري وغيره إلى أن هذه الآية إنما هي فيمن عاصروا زمن النبي ﷺ ولم يؤمنوا به بعد أن ظهر لهم الحق كالشمس في رابعة النهار، فقد قال الطبري: كانوا قبل أن يُبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته، والإقرار بمبعثه، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم، وآمن البعض، فذلك اختلافهم بعدما جاءهم العلم[2].

ثم قال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُوْنَ﴾.

(١) الحديث أخرجه الحاكم بهذا اللفظ وهو في السنن والمسانيد بنحوه.
(٢) انظر جامع البيان للطبري ١١/١٦٧.

أي إن ربك يا محمد هو الذي يفصل بينهم في الآخرة فيما اختلفوا فيه وتنازعوا من أمر الدين، ويجازي كلاً بما يستحقه، ويميز بين المحقين والمبطلين، فإن الدنيا دارُ التكليف وليست دار القضاء والجزاء.

«الاستمساك بشريعة الله وعدم الشك»

ثم تلتها الآيات الكريمة تأمر الرسول ﷺ بالتمسك بشرع الله، والاعتصام بحبله المتين، وعدم الشكِّ فيما أُوحي إليه من ربه من أمر الدين، فإن ما جاءه إنما هو الحق المبين، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ، فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ، لَقَدْ جَاءَكَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ. وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُوْنَ مِنَ الخَاسِرِيْنَ﴾.

والخطاب في الآية ـ وإن كان في الظاهر مع الرسول عليه السلام ـ إلَّا أن المراد به هو الأمة، كأنه يقول: لا تشكُّوا يا معشر المؤمنين في هذا القرآن، فإنه حق منزل من عند الرحمن، قال الفخر الرازي: ومثل هذا معتاد في الكلام، فإن السُّلطان الكبير إذا كان له أمير، وكان تحت راية الأمير جمع غفير، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمرٍ مخصوص، فإنه لا يوجِّه خطابه إليهم، بل يوجه ذلك الخطاب إلى ذلك الأمير، الذي جعله أميراً عليهم، ليكون ذلك أقوى تأثيراً في قلوبهم، وقد ورد في القرآن الكريم آيات خوطب بها النبي عليه السلام، وأُريد بها أمته كقوله تعالى ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ الله، وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ وهذا على حدِّ المثل المشهور القائل «إيَّاكِ أعْنِي واسْمَعِي يَا جَارَة».

«قول آخر في الآية الكريمة»

وقال بعض المفسرين: إن الآية واردة مورد الفرض والتقدير: أي إن فُرض أنك شككتَ فاسأل أهل الكتاب، ولهذا قال قتادة: «بَلَغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشكُّ ولا أسأل»[1] وهكذا قال ابن عباس: لم يشكَّ النبي ﷺ ولم يسأل، ثم قال تعالى ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي فاسأل أهل الكتاب الذين يعرفون التوراة والإنجيل، وهم الأحبار والرهبان، فإن ذلك محَقَّق عندهم كما قصصنا عليك، ثم ختم الله الآيات بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ - أي وجبت لهم كلمة العذاب بالمشيئة الأزلية - لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ، حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ﴾ وهكذا يقيم الله الأدلة والبراهين على صدق هذا القرآن، بأبلغ أسلوب وأفصح بيان، اللهم اجعلنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، واختم لنا بخاتمة الخير والسعادة يا رب العالمين.

«قصة يونس عليه السلام»

وبعد أن انتهى الحديث عن قصة موسى عليه السلام، وعن أخبار بني إسرائيل، جاءت الآيات لتتحدث عن قصة يونس عليه السلام، وهي القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة، والتي سميت السورة باسمه تكريماً وتشريفاً له «سورة يونس» وهي هذه السورة التي نحن بصدد الحديث عنها.

وقد ذُكر نبيُّ الله يونس عليه السلام باسمه في القرآن أربع مرات «في النساء، والأنعام، ويونس، والصافات» وذُكر بلقبه ووصفه في

---

(١) أخرجه ابن المنذر، وعبد الرزاق، وابن مردويه عن ابن عباس موقوفاً.

موضعين اثنين: في سورة الأنبياء حيث لُقِّب بذي النون، وهو الحوت لأن الحوت ابتلعه فنسب إليه كما قال سبحانه ﴿وَذَا النُّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ، فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِيْنَ﴾ وفي سورة القلم حيث لُقِّبَ بصاحب الحوت كما قال سبحانه ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ. لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾.

«من سنن الله الكونية»

والآيات تتحدث عن سُنَّـةٍ من سنن الله الكونيـة، في إهلاك الظالمين، وهي أن العذاب إذا نزل بأمة بدعاء نبيها عليها، فلن يُرفع عنها العذاب، إلَّا ما كان من قوم يونس، فقد كان لهم مع نبيهم شأن آخر، حيث رفع عنهم العذاب بتوبتهم وإنابتهم ورجوعهم إلى الله، بعد أن خرج عنهم نبيهم ساخطاً وغاضباً عليهم، وأوعدهم بنزول العذاب، ولكنَّ الله فرَّج كربتهم بصدق إيمانهم، وتوبتهم إلى الله، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ، لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

روي أن يونس عليه السلام، بُعث إلى أهل «نِينوى» من أرض الموصل بالعراق، وكان أهل نينوى قد دخلت إليهم الوثنية، وانتشرت فيهم عبادة الأصنام، فذهب إليهم نبي الله يونس عليه السلام، فدعاهم إلى الله وإلى توحيده، ونبذ عبادة الأوثان، فكذبوه ولم يستجيبوا لدعوته، شأنَ أكثر أهل الأرض، الذين لا يستجيبون لدعوة الله، فذهب عنهم

مغاضباً، فلما فقدوه خافوا نزول العقاب، فلبسوا المسوح وعجُّوا أربعين ليلة بالدعاء إلى الله، وطلب التوبة والاستغفار، وكان يونس قد قال لهم: إن أجلكم أربعون يوماً ثم غادرهم، فلما مضت خمس وثلاثون ليلة، ظهر في السماء غيم أسود شديد السواد، وشعروا بأن الله سيهلكهم لأنهم لم يصدّقوا رسوله، ولم يطيعوا أمره، فخرجوا إلى الصحراء، وفرَّقوا بين النساء والصبيان، وبين البهائم وأولادها، فعلت الأصوات، وكثرت التضرعات، وأظهروا الإيمان والتوبة، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم، والتوبة والندم على ما مضى منهم، كشف الله عنهم العذاب، بعد أن كادَ ينزل عليهم، وهذا معنى الاستثناء في الآية الكريمة ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إيمَانُهَا إلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾ أي فهلاَّ كانت قريةٌ من القرى التي أهلكناها، تابت عن الكفر، وأخلصت الإيمان، عند معاينة العذاب، فنفعها إيمانها في ذلك الوقت، إلاَّ ما كان من قوم يونس، ثم قال تعالى ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلَى حِينٍ﴾ أي أنقذناهم بعد أن شارفهم العذاب، وأخرناهم إلى انتهاء آجالهم.

«يونس في بطن الحوت»

وسبب كشف الغمة والبلاء عنهم، أنهم لجأوا إلى الله عن صدق وإخلاص، وأن نبيهم قد خرج من بين أظهرهم، ساخطاً عليهم قبل أن يستأذن ربه في الخروج، وهذا بالنسبة لمقامه العظيم يعتبر ذنباً، ولذلك لما ركب البحر هاجت السفينة واضطربت، وقال رُبَّانها: إن بينكم عبداً آبقاً من سيِّده، ولا بدَّ لنجاتنا من إلقائه في البحر، فاستهموا ـ أي ضربوا القُرْعة ـ فوقعت عليه فألقوه في البحر، وهذا معنى قوله تعالى في سورة

الصافات ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ - أي هرب إلى السفينة الممتلئة بالرجال والركاب - ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي فاقترع مع أهل السفينة فكان من المغلوبين بالقرعة فألقوه في البحر، قال تعالى ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي فابتلعه الحوت وهو ملوم على صنيعه، لأنه لم يصبر على قومه وخرج مغاضباً لهم بغير إذنٍ من ربه ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الآيات ولذلك عاتبه الله على فعله، وتاب على قومه، ومتعهم ببقية حياتهم الدنيوية كما قال سبحانه ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

«نجاة قوم يونس من العذاب»

وهذه الحالة كما بيَّن تعالى حالة استثنائية، كانت لقوم يونس بوجه خاص، وإلّا فقد تاب فرعون وأتباعه حين رأوا العذاب فلم تنفعهم توبتهم، وآمنت أممٌ فلم ينفعها الإيمان، لأن عذاب الله إذا جاء لا يؤخر، ولا يُرَدُّ بأسُه عن القوم المجرمين.

وإنما ذكر تعالى قصة يونس مع قومه تسليةً لرسول الله عليه الصلاة والسلام، وحثاً له على الصبر، وعدم الضيق والضجر، فإن الأنبياء إنما أرسلوا بالرحمة لا بالعذاب، فعليهم أن يتحملوا الشدائد، ويصبروا على المصائب، ويذوقوا الأذى رحمة بعباد الله، ولا يتسرعوا في الدعاء عليهم، ولذلك قال الله لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ. لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ. فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ

مِنَ الصَّـالِحِينَ﴾ وإنَّـه لـدرسٌ بليـغ للدعـاة والمـرشـدين، والقـادة والمصلحين، اللهمَّ اجعلنا هادينَ مهتدين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

«الحكمة في عدم إجبار الناس على الإيمان»

ثم تلتها الآيات الكريمة توضح حكمة الله في ترك أمر الإيمان إلى اختيار البشر، ليكون إيمانهم عن رضىً واختيار، لا عن إكراه وإجبار، فلو شـاء الله لقسر النـاس على الإيمان، وأجبـرهم على الخضوع والإذعان، ولو أراد لما جحد جاحدٌ، ولا كفر كافر، ولكنَّ هذا منافٍ للحكمة الإلَهية الأزلية التي من أجلها خلق الله الخلق، وأوجد العالم، ليترتب على ذلك الثواب والعقاب، ودخول الجنة أو النار، وفي هذا يقول تقدست أسماؤه ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعَاً، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ والآية صريحة في ترك الأمر في الإيمان إلى اختيار الناس، وهذا ما يسميه العلماء بالجزء الاختياري، وهو الذي يترتب عليه الثواب أو العقاب، فللَّه جل وعلا مشيئة، وللعبد مشيئة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وللَّهِ خلقٌ، وللعبد كسبٌ كما قال سبحانه ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومَاً مَدْحُوراً. وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾.

فقد قرر الله صراحة أن للإنسان الإرادة، والسعي، والاختيارَ، وهذا هو الحق الساطع في أمر الإيمان بالقضاء والقدر، فمع التقدير الأزلي هناك الكسب والاختيار، وليس على الإنسان شيء من الإجبار، قال ابن عباس «كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلاَّ من سبقت له السعادة في الذكر الأول، ولا يضل

إلَّا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول»[1] ولهذا جاءت الآية بعدها تؤكد هذا الأمر ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُوْنَ﴾ فأخبر تعالى أن مع الاختيار قضاءً أزلياً سابقاً، وأن أمر الهداية بيد الله، اللهم اشرح صدورنا بالإيمان، ونور عقولنا بالقرآن، يا أرحم الراحمين.

«النظر في الآيات الكونية»

وبعد أن أفاض تعالى في ذكر قصص الأنبياء والمرسلين، للعظة والاعتبار، وتسليةً للنبي عليه الصلاة والسلام مما يلقاه من أذى الكفرة الفجَّار، جاءت الآيات تنذر المشركين بعذاب عاجل، إن لم يكفُّوا عن بغيهم وكفرهم وضلالهم، وتأمرهم أن ينظروا في ملكوت السموات والأرض، ليعلموا علم اليقين أن لها خالقاً مدبراً حكيماً، وأن هذا الكون لم يخلق عبثاً، ولم يوجد ما فيه سُدَى، بل خلُق لغاية ساميةٍ، هي معرفة الله جل وعلا بآياته وأسمائه وصفاته، فمن لم يستعمل عقله في النظر والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية، على وجود هذا الخالق المبدع، فهو إلى البهيمية أقرب منه إلى الإنسانية، بل إنه شرٌّ من البهائم والأنعام، لأنها خلقت لغاية فهي تؤدي هذه الغاية، وأما الإنسان فلا يعرف لماذا خُلق، ولماذا وجد؟ وقد أمرت الآيات أيضاً أولئك المعرضين عن آيات الله، المكذبين لرسله، بالنظر في أحوال الأمم الماضية، ليعرفوا ماذا حلَّ بهم من عقوبة ونكال، ويقفوا على مصارع الغابرين، فيتعظوا ويعتبروا قبل أن ينزل بهم العذاب والدمار، كما نزل بأولئك الأشرار الفجار، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿قُل

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير عن ابن عباس. وانظر مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٣١ وجامع البيان للطبري ١/ ٦٥.

انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُوْنَ. فَهَلْ يَنْتَظِرُوْنَ إلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ المُنْتَظِرِيْنَ﴾.

«وعيد وتهديد للغافلين»

والآية ـ كما هي واضحةٌ في دلالتها ـ إرشادٌ وتذكير، وهي تحمل في مضمونها الوعيد والتهديد، لأولئك الذين أغمضوا أعينهم عن النظر في دلائل القدرة والوحدانية، وصمُّوا آذانهم عن سماع دَعوة الحق، فلم يستجيبوا لدعوة الله، ولم يطيعوا رسل الله، ومعنى الآية الكريمة ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار: انظروا نظرَ تفكر واعتبار، ما الذي في السموات والأرض من آيات الله الباهرة، التي تدل على وحدانيته وكمال قدرته، وليس المراد مجرد النظر إنما هو نظر العظة والعبرة، التي تخرج الإنسان من رقِّ التقليد الأعمى للآباء والأجداد، ثم قال تعالى محذِّراً ومنذراً ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُوْنَ﴾ أيْ وأيَّ شيء تغني الآيات السماوية والأرضية، وماذا تفيد الرسلُ بآياتها وحججها وبراهينها، الدالة على صدقها، عن قوم لا يفكِّرون بعقولهم، ولا يؤمنون بربهم؟ هل ينفعُ الأعمى نظرُه إلى جمال الأنهار الدافقة، والأشجار الباسقة، فمن كان أعمى القلب لا ينتفع بما يرى من الآيات البينات، والدلائل الساطعات لمعرفة ربه القدير، ثم جاء الوعيد مقروناً بأشد أنواع التهديد ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُوْنَ إلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؟ أي وهل ينتظر كفار مكة إلَّا مثل أيام أسلافهم، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال؟ ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوْا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: انتظروا عاقبة البغي والتكذيب، فأنا معكم أنتظر وعد ربي بهلاككم ودماركم، وقد كان الرسل يتوعدون

كفار زمانهم بمجيء أيام العذاب عليهم، فيسخرون منهم ويستهزئون، وكذلك الكفار في زمانه عليه الصلاة والسلام، كانوا يقولون سخرية واستهزاءً: ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ فأمره الله تعالى أن يقول لهم ﴿فَانْتَظِرُوا إنِّي مَعَكُمْ مِنَ المُنْتَظِرِينَ﴾.

«البشارة بقرب النصر»

ثم بشّر تعالى رسوله بالنصر القريب العاجل له ولأتباعه المؤمنين، فقال تقدست أسماؤه ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا والَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِي المُؤْمِنِينَ﴾ قال الربيع بن أنس: «خوَّفهم تعالى عذابه ونقمته، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك شيء، أنجى الله رسله والذين آمنوا معه» وهذه من سنن الله الكونية، أن الله تعالى تكفَّل بنصرة الحق، ونصر أوليائه المؤمنين ورسله المكرمين، كما قال سبحانه ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ﴾ فالنصر للرسل ولأتباع الرسل، ولكل من استمسك بالهدى والحق، دنيا وآخرة كما قال تقدست أسماؤه ﴿إنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِيْنَ مَعْذِرَتَهُمْ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوْءُ الدَّارِ﴾ فالنصر وإن تأخر لكنه لا بدَّ أن يأتي للرسل وأتباعهم، لأنه وعدٌ مقطوع به مؤكد، لا يقبل الخُلْف كما قال سبحانه ﴿إنَّ الَّذِينَ يُحَادُّوْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ. كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي، إنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

«سنة الله في نصر أنبيائه وأوليائه»

ولنستعرض تاريخ الدعوات في القديم والحديث، نشاهد أنه على مدى العصور والأزمان، كان الرسل وأتباعهم هم المنصورون دائماً

وأبداً، وإن كانوا يُبتلون في بعض الأحيان ولكنَّ العاقبة الحميدة، والغلبة والنصر لهم في النهاية، لأن هذا من سنته تعالى التي لا تتبدل.

لقد نصر الله تعالى إبراهيم على النمرود، ونصر موسى على فرعون الجبار، ونصر عيسى على أعدائه اليهود المجرمين، ونصر خاتم المرسلين على كفار مكة العُتاة الضالين، وهكذا لم يتخلف وعد الله أبداً، وفي بدء الدعوة الإسلامية، كان المسلمون في ضيق وشدة، يعانون أشدَّ أنواع البلاء، ويذوقون أصناف العذاب من الكفرة المشركين، فكانوا يأتون رسول الله ﷺ يشكون إليه ما يفعله بهم المشـركون، ويطلبون منـه أن يدعو الله لهم بالنصر وهلاك الأعداء، فكان صلوات الله وسلامه عليه يواسيهم، ويخفف عنهم الآلام والأحزان، ويأمرهم بالصبر، ويعدهم بقرب النصر، يصوِّر لنا تلك الشدة التي كان عليها المؤمنون ما أخرجه البخاري في صحيحه عن خبَّاب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ ـ وهو متوسد بُرْدةً له في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شِدَّةً ـ فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال ﷺ: قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل، فيُحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويُمْشَطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصدُّه ذلك عن دينه، والله ليُتمنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلَّا الله والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(١) وهكذا حقَّق الله وعده، فنصر عبده، وأعزَّ جنده، ومَلَّك المسلمين ما لم يكن يخطر على بال، ملَّكهم ملك كسرى وقيصر، وفتح لهم البلاد، ودانت

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه من حديث خبّاب بن الأرتّ.

لهم رقاب العباد، وصاروا في عِزٍّ مكين، وجاهٍ عظيم، بعد أن كانوا في الذل والهوان مصداقاً لقوله تقدست أسماؤه ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ، فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وما كان هذا العزُّ والتمكين، إلَّا تحقيقاً لوعد الله القاطع ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ﴾ اللهم انصر حزبك وجندك وعبادك المؤمنين، واجعلنا من أنصار هذا الدين يا أرحم الراحمين.

«دعوةٌ إلى الإيمان وعبادة الرحمن»

تقدَّم معنا أن هذه السورة الكريمة تتميَّز بطابـع التوجيـه إلى الإيمان بالله، وبالرسالات السماوية المقدسة وتُعنى بشكل خاصٍ بأصول العقيدة الإسلامية الصافية، وتقيم الحجج والبراهين على أحقيةِ دين الإسلام، وصدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، فما كان هذا الدين الخالد، الباقي إلى قيام الساعة، الذي مكَّن الله له في الأرض، وأعلى قدره على سائر الأديان، ما كان ديناً وضعياً من اختراع البشر، ولا كان هذا القرآن الذي نزل على محمد بأبلغ أسلوب، وأوضح بيان، ليفترى على الله، بل هو تنزيل الحكيم الحميد، فلا داعي للمشركين للعجب من بعثة خاتم النبيين، ولا للتشكيكِ في دينه، فإن ما جاءهم به حقٌ منزل من عند الله، ودينُه الذي يـدعو النـاس إليه مؤيـد بالحجـج والبراهين، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه، مرشداً نبيَّه إلى أسلوب إفحام الخصم بالبرهان النيِّر: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي، فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ. وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً،

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إنها الحجة الدامغة يُلقِّنها الله عز وجلَّ لرسوله عليه السلام، وكأنه يقول قل لهم: لا ينبغي أن تشكُّوا في ديني، فديني الذي أدعوكم إليه مؤيَّدٌ بالعقل والنقل، وإنما ينبغي أن تشكُّوا في دينكم الأعوج، الذي فيه عبادة حجارةٍ، لا تسمع ولا تعقل، ولا تضرُّ ولا تنفع، فأما إلّهي الذي أعبده، فهو الذي يحيي ويميت، ويُعزُّ ويذل، ويقبض ويبسط، وهو القادر على كل شيء، والمالك لكل شيء، يُحيي النَّاسَ من العدم، ثم يفنيهم ثم يبعثهم مرة أخرى، فهذا هو ربي الذي أومن به، وهذا هو ديني الذي أدعو إليه، ولهذا خُتمت الآية بهذا الختم الرائع ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وأنا مأمور أن أكون عبداً مؤمناً مطيعاً لربي، لا أعبد أحداً سواه، أما الأوثان التي تعبدونها أنتم فإنها أحجار صماء بكماء، والإنسان أشرف حالاً منها، فكيف يليق بالأشرف الأسمى، أن يشتغل بعبادة الأخسِّ الأدنى؟ وهذا ضربٌ من الكلام رفيعٌ، ولحنٌ من نصوع الحجة لطيف.

«التحذير من عبادة غير الله عز وجل»

وتأكيداً لهذا المعنى القويم، في بيان سفاهة وحماقة من عَبَد غير الله، من أحجار، وأشجار، وأبقار، لا تضر ولا تنفع، ولا تغني عن عابدها شيئاً، جاءت الآيات تحذِّر الأمة في شخص نبيِّها عليه أفضل الصلاة والتسليم، من موافقة المشركين في ضلالهم، في عبادة غير الله، ممَّا لا يملك شيئاً من النفع والضر، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وحاشا للرسول المنزَّه المطهَّر المعصوم، أن يعبد غير الله، أو

يعتقد بشيء من الأوثان مما يخدش العقيدة أو يطفىء شعلة الإيمان ولكنه كما أوضحنا خطابٌ للأمة في شخص قائدها، كما هو عادة العظماء والملوك، يخاطبون الرئيس والزعيم، ويريدون من هو تحت إمرته وزعامته، ثم في هذا الأسلوب قطعٌ لأطماع الجاهلين، أن يفتروا بسعة رحمة الله، فيظنوا الأمر سهلاً يسيراً، ليس فيه كثير مؤاخذةٍ أو عقاب، إن عبدوا مع الله غيره، أو اعتقدوا بأن هناك من ينفع ويضر من ذاته غير الله تعالى، فإذا كان الرسول الأعظم يُوجَّهُ له هذا الإنذارُ، بأنه إن دعا غير الله فإنه من الظالمين لأنفسهم، الخاسرين لسعادتهم، فكيف بغيره من عامة الناس، ممن ليس له قدر الرسول، ولا مكانة الرسول؟ فأحرى به أن يتحرز عنه، ويبتعد عن الشرك كل البعد.

«من صفات الإلّه الحق»

وإذا كان من صفات الإلّه المعبود بحق، أن يكون قادراً سميعاً بصيراً، يسمع وينفع، ويعطي ويمنع، ويكشف الغمة، ويدفع الشدة، ويستجيب دعاء من دعاه، فإن هذه الصفات لا تكون إلاَّ للرحمن، فهو القادر على كل شيء، المتصرف في شؤون العباد، كما يريد ويشاء، أما الأصنام والأوثان التي يعبدها المشركون، فإن من كان عنده أدنى تمييز، يعرف يقيناً أنها لا تكشف ضُرَّاً، ولا تجلب نفعاً، ولهذا جاءت الآيات لتبيِّن فساد عبادة الأصنام، ووجوب عبادة الرحمن، الذي ينبغي أن يُفرد بالعبادة والتعظيم والإجلال، لأنه جلَّ وعلا هو وحده النافع الضار، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ، فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

ولقد كان المشركون يُخوِّفون رسول الله من أن تمسَّه آلهتهم بسوء، ويتوعدونه عليه الصلاة والسلام بالفتك والبطش به، إن تعرَّض لسبِّ آلهتهم، أو النيل منها، فجاءت الآيات الكريمة لتبيِّن له أن الأمر ليس بيدهم، إنما هو بيد الله، إن أراد لرسوله الخير أتاه به دون أن يستطيعوا دفعه، وإن أراد به السوء والأذى فلا يملك أحدٌ رفعه، وهذه أصل عقيدة الإيمان، أن يؤمن الإنسان بالقدر خيره وشرِّه من الله تعالى، وأن يعتقد بيقين أنه لا ينفع ولا يضرُّ إلَّا رب العالمين، كما أوضح ذلك سيد ولد عدنان حين قال في وصيته الشهيرة لابن عباس (واعلم أن الأُمَّةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلَّا بشيء قد كتبه اللَّهُ لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلَّا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلامُ، وجَفَّتِ الصُّحفُ)[1].

«الاستمساك بالقرآن العظيم طريق النجاة»

ثم تتابعت الآيات تشيد بجلال هذا القرآن، الذي أنزله الله هدى ورحمة للعالمين، فهو الكتاب المعجز، الصادق في أخباره وأنبائه، المحفوظ من التحريف والتبديل، الذي جاء بالحق القاطع، والبرهان الساطع على أنه تنزيل رب العالمين، فمن آمن به وصدَّقه، واتَّبع الحقَّ وأذعن له، فإنما يسعى لصلاح نفسه وسعادتها، ومن لم يؤمن به، وحاد عن طريق الحق، ولم ينظر بعين البصيرة، فقد شقي وخسر، لأنه عرَّض نفسه لعذاب الله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي جاءكم القرآن والشرع بالنور المبين، والحقِّ الساطع المنير ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي فمن اهتدى

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، وأحمد في المسند ١/٣٠٣.

بالتصديق والإيمان، فمنفعة اهتدائه لها خاصة، لا ينفع غيره، ومن ضلَّ بالكفر والتكذيب والإعراض عن هداية الله، فوبال الضلال مقصور عليها ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي لستُ بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم، ولا بمجبر لكم على الإيمان، إنما أنا مبلِّغ لرسالة ربي، فقد أكمل الله لكم الشريعة، وأزاح العلة، وقطع المعذرة.

«ختم للسورة رائع»

ثم ختم الله السورة الكريمة، بأمره عليه السلام بالاستمساك بشريعة الله، والتقيد بوحيه ودينه، والاعتصام بكتابه المبين، والصبر على ما يلقى من أذى في سبيل تبليغ رسالة ربه فقال تقدست أسماؤه ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ، وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ﴾ وهكذا بدأ الله السورة بالإشادة بالقرآن، وختمها بالاستمساك بالقرآن، والصبر على قضاء الرحمن، ليتم التناسق والانسجام بين البداية والنهاية، في أجمل صورة وأبدع بيان، اللهم افتح علينا فتوح العارفين، ووفقنا لفهم أسرار كتابك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

انتهى بعونه تعالى الجزء الرابع من كتاب «قبس من نور القرآن الكريم» ويتلوه الجزء الخامس، والحمد لله رب العالمين

مكة المكرمة / ١٠/ ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ

خادم الكتاب والسنّة

محمد علي الصابوني

فهـــرس

دراسات قرآنيّة
٥

قبسٌ من نور القرآن الكريم

مِنْ
سُورَةِ هُود وَيُوسُفَ وَالرَّعْد
دراسة تحليلية موسّعة بأهداف ومقاصد السُّور الكريمة

بقلم
خادم الكتاب والسُّنَّة
الشيخ محمّد علي الصّابوني
الأستاذ بجامعة أم القرى بمكّة المكرّمة

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

قبس

من نور القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد الذي خصَّه الله بالمعجزة الكبرى، والآية العظمى «القرآن الكريم» وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا هو الكتاب الخامس في سلسلة «دراسات قرآنية» في ضوء السور الكريمة «هود، يوسف، الرعد» وهي دراسة موضوعية تحليلية هادفة، القصد منها تنوير القلوب والبصائر، بما تناوله الكتاب المعجز، الذي نزل على قلب خاتم المرسلين، بلسان عربي مبين.

وإننا إذ نشكر الله عزّ وجلّ أن وفَّقنا لخدمة كتابه، لنُبْرِز ما فيه من روائع الحِكَم والأحكام، ونُظهر أسرار إعجازه وبيانه، نسأله تعالى أن يمنَّ علينا بالتيسير والتسهيل، لما قصدناه في هذه الدراسات القرآنية، التي تتناول المواضيع التي تعرضت لها السور الكريمة، ليستوعب الأخ المسلم فهم ما حَوَته هذه السور المباركة من مقاصد وأهداف.

والله نسأل أن يرزقنا الصدق والإخلاص، في القول والفعل والعمل، وأن ينفع بهذه الدراسات إخواننا المؤمنين، إنه خير مسؤول، وأعظم مأمول، وصلىٰ الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الشيخ محمّد علي الصّابوني

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَة هُود
مَكيَّة وآيَاتهَا ثَلاث وَعشرون ومَائة

بين يَدَي السُّورَة

● سورة «هود» من السور المكية، التي تهتم بأصول العقيدة الإسلامية، توحيد الله جلّ وعلا، وأمر النبوة والرسالة، وقضية البعث والنشور، وسائر أركان العقيدة الصافية.

● وقد عرضت هذه السورة الكريمة لذكر قصص بعض الأنبياء بالتفصيل، تسليةً للنبي عليه الصلاة والسلام على ما لاقاه من أذى وبلاء من الكفرة المشركين، لا سيما بعد تلك الفترة العصيبة التي مرت عليه، بعد وفاة عمه «أبي طالب» وزوجه «خديجة» رضي الله عنها، حتى عُرف ذلك العام بأنه «عام الحزن» على رسول الله ﷺ حيث فقد نصيريه: عمَّه، وزوجه، واشتد أذى المشركين عليه، وهو بمكة يجابه الصناديد والطغاة، الذين قست قلوبهم فكانت كالحجارة أو أشد قسوة.. فكانت الآيات تتنزل على قلبه الشريف، لتخفف الآلام وتزيل عنه الأكدار، وهي تقصُّ عليه ما حدث لإخوانه الرسل الكرام، من أنواع الابتلاء والمحن، والشدائد والأهوال، ليتأسى بهم في الصبر والثبات، في سبيل تبليغ دعوة الله.

● ابتدأت السورة الكريمة بتعظيم شأن القرآن، وعلو شأنه، ورفعة قدره، فهو الكتاب المعجز، الذي أحكمت آياتُه، بحيث لا يتطرق إليه خلل ولا تناقض، لأنه تنزيل الحكيم العليم، الذي لا تخفى عليه خافية من مصالح

العباد، فهو يُشرِّع لهم ما فيه خيرهم وصلاحهم، دنيا وآخرة، حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية الباهرة ﴿ آلر. كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾.

● ثم عرضت السورة لعناصر الدعوة الإسلامية، عن طريق الحجج العقلية، مع الموازنة بين الفريقين، فريق أهل الهدى، وفريق أهل الضلال، وضربت مثلاً للفريقين، وضَّحت به الفارق الكبير بين المؤمنين والكافرين، والمهتدين والضالين، وميَّزت بينهما كما تفرق الشمس بين الظلمات والنور ﴿ مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كالأَعْمَى وَالأَصَمِّ، والسَّمِيعِ والبَصِيرِ، هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً؟ أَفَلا تَذَكَّرونَ؟ ﴾.

● ثم تحدثت عن دعوة الرسل الكرام، فقَصَّت على رسول الله أخبارهم، ليقتدي بهم ويتأسى في الصبر والثبات على تبليغ دعوة الله، مبتدئة بقصة شيخ الأنبياء والمرسلين «نوح» عليه السلام، الذي كان أطول الأنبياء عمراً، وأشدّهم بلاءً وصبراً، وما كان من أمر قومه المكذبين، حيث أهلكهم الله بالطوفان، ولم ينج من الغرق الذي عمَّ الأرض كلَّها، إلا نوح وأتباعه المؤمنون، الذين ركبوا معه في السفينة، وهم عدد يسير ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ ﴾.

● ثم ذكرت قصة نبي الله «هود» عليه السلام، الذي سميت السورة الكريمة باسمه «سورة هود» تخليداً لجهوده الكريمة في الدعوة إلى الله، فقد أرسله الله إلى «قوم عاد» العُتاة المتجبرين، الذين اغتروا بقوة أجسامهم حتى قالوا: من أشدُّ منا قوَّة؟ فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، التي جاوزت كل حدّ في الشدة والهبوب، حتى أهلكهم الله عن بكرة أبيهم، وجعلهم عبرةً للمعتبرين، وقد أسهبت الآيات في الحديث عن أحوالهم وأخبارهم، بقصد العظة والتذكير للطغاة المتجبرين ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ، وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ

الدُّنْيَا لَعْنَةً، وَيَوْمَ القِيامَةِ، أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ، أَلَا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُوْدٍ ﴾.

● ثم تلتها قصة نبي الله «صالح» عليه السلام، ثم قصة «لوط» ثم قصة «شعيب» ثم قصة «موسى وهارون» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ثم جاء التعقيب المباشر بذكر الغاية من سرد هذه القصص والأخبار، ألا وهو العظة والاعتبار، والزجر للطغاة المتكبرين، في كل حين وزمان ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ القُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ. وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ. وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.

● وَخَتَمَتْ السورة الكريمة ببيان الحكمة من ذكر قصص أخبار المرسلين، وما حدث لهم مع أقوامهم المكذبين، ليكون ذلك نموذجاً للدعاة في السير على نهج الأنبياء، وتثبيتاً لقلب النبي الأعظم أمام تلك الشدائد والأهوال ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ، وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إلى نهاية السورة الكريمة، وهكذا تختم السورة بالإشادة بالقرآن العظيم كما بدأت به، ليتناسق البدء مع الختام، في أعظم بيانٍ، وأبدع إحكام.

تفصيلٌ بعد إجمال

ولنعد إلى التفصيل بعد الإجمال في سورة هود عليه السلام.

﴿ آلَرَ. كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ. أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ. وَأَنِ اسْتَغْفِرُوْا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ، وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾.

والابتداء بهذه الحروف الهجائية المقطَّعة، سرٌّ من أسرار هذا الكتاب المبين، الذي تحدى الله به البشر، الأولين منهم والآخرين، على أن يأتوا بمثل سورةٍ من سوره فعجزوا وانقطعوا، وبقي التحدي إلى آخر الزمان، ومع ذلك فقد أشار تعالى إلى إعجاز القرآن، إشارة لطيفة دقيقة بذكر هذه الحروف المقطعة (آلر) وكأنه يقول: هذا الكتاب المعجز، منظوم ومركب من أمثال هذه الحروف الهجائية، التي تتكلمون بها، وتنظمون منها الحِكم والأشعار، وروائع الأمثال والمعلقات، نثراً وشعراً، فأتوا بمثله إن زعمتم أنه من تأليف محمد، وأنه أتى به من تلقاء نفسه.

برهانٌ ساطع للإعجاز

ثم أعقبه تعالى ببيان برهان الإعجاز فقال: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ والإحكامُ: الجودةُ والإتقان، وهو أن يؤتى بالأمر على وجه سليمٍ، لا يتطرأ إليه فسادٌ أو خلل، والمعنى: هذا كتابٌ جليل القدر، نُظِمت آياتُه نظماً رصيناً محكماً، من غير نقضٍ أو نقص، ومن غير تعارض أو تناقض ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾ فهو كالبناء المشاد بدقةٍ وإحكام، ومن تمام الإحكام تفصيلُ

آياته، وتوضيح أحكامه ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ أي وُضِّحت وبُينت أحسن بيان، كما تُفصَّل القلائد بالفرائد، من دلائل التوحيد، والنبوَّة، والأحكام، والمواعظ، والقصص، والذي فصَّلها وبيَّنها هو الحكيم الخبير، العالم بكيفيات الأشياء، ولذا كانت محكمة أحسن الإحكام، مفصَّلة أحسن التفصيل.

التوحيد أساسُ الإيمان

ثم بدأ بتفصيل أمر التوحيد الذي هو أساسُ العقيدة واليقين فقال: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لكم منه نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أي لأجل ألّا تعبدوا إلا الله، فأنا أنذركم عذابه، وأخوفكم عقابه إن عبدتم غيره، وأبشركم برحمته ورضوانه، ودخول جناته، إن آمنتم به وعبدتموه، وبعد الدعوة إلى التوبة والاستغفار، جاء التخويف والإنذار ﴿ إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. ثم حكى تعالىٰ طرفاً من موقف كفار مكة، الجاحدين المستهزئين، المعاندين لسيد المرسلين فقال: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ، يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

وهذه الآية كشفٌ لخفايا صدور المشركين، وما انطوت عليه سرائرهم من عداوة للنبي والمؤمنين، ولكن الله لهم بالمرصاد، حيث يرقبهم ليلاً ونهاراً، ويعلم أحوالهم سراً وجهاراً، ولهذا ختمها بقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾.

الله المتكفِّل بأرزاق العباد

وبعد الدعوة إلى الإيمان والتوحيد، جاءت الآيات لتذكِّر العباد، بأن الله هو الخالق الرازق، وقد تكفل لعباده بالرزق وتأمين جميع

الحاجات، ولم يغفل عن أضعف خلقه ألا وهي الهوامُّ وسائر دواب الأرض، فكيف يغفل عن أشرف مخلوقاته ألا وهم البشر، فينساهم من فضله، ورزقه وإنعامه؟ وإذا كان الله هو الخالق والرازق لبني الإنسان، فكيف ينسون شكره، ويعبدون غيره، وهم يأكلون من رزقه وإنعامه؟ ولهذا ذكَّرهم تقدست أسماؤه بهذا العطاء والنوال فقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ والمراد بالدابة كل ما دبَّ على ظهر الأرض، من إنسان أو حيوان، في البر والبحر من ماشٍ أو زاحف، فهو لفظ يشمل الطير، والبهائم، والأسماك والحيتان، وكل مخلوق على سطح هذه الأرض، صغيرِها وكبيرها، يعلم تعالى منتهى سيرها، وأين تأوي إليه من وكرها، والله سبحانه يُحصيها دون غيره، وهو عالمٌ بكيفية طبائعها، وأعضائها، وأحوالها، وأغذيتها، وأوكارها، ومساكنها، وما يوافقها وما يخالفها، فالإله المدبِّر للكون، وطبائع الحيوان والنبات، كيف لا يكون عالماً بأحوال بني آدم كما ظن المشركون؟!.

من غرائب القصص

رُوي أن موسى عليه السلام تعلَّق قلبه بأهله، واشتغل فكرُه كيف يرزق الله عباده؟ فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه صخرةً، فضربها فانشقَّتْ فخرجت منها صخرةٌ ثانية، فضربها فانشقَّتْ عن صخرةٍ ثالثة، فضربها فخرجت منها دودةٌ صغيرةٌ، وفي فمها شيءٌ من الطعام، يجري مجرى الغذاء لها، ورفعَ اللَّهُ الحجاب عن سمع موسى، فسمع الدودة تقول: «سبحانَ من يَرَاني، ويعلمُ مكاني، ويسمعُ كلامي، ويرزقني ولا ينساني»[1]!!.

(١) غرائب القرآن للنيسابوري ١٢/٩.

وقولُه تعالى: ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ قال ابن عباس: مستقرُّها حيث تأوي إليه من الأرض، ومستودعُها: الموضع الذي تموتُ فيه فتدفن، كل ذلك في علم الله عزّ وجلّ، وقد سطّره وسجله في كتابٍ مبين، هو اللوح المحفوظ، الذي دُوِّنت فيه الأرزاق، والأقدار، والأعمار.

أدلة الوحدانية منبثّةٌ في الكون

ثم تلتها الآيات الكريمة وهي تؤكد دلائل القدرة والوحدانية، فهذا الإله العظيم هو الذي أبدع الكائنات علويَّها وسفليَّها، وخلق العرش قبل تلك المخلوقات، ليدل على عظمته وسلطانه، وبديع خلقه وإتقانه، وقد جعل الحياةَ والرزقَ ابتلاءً للبشر، ليظهر المحسنُ من المسيء، والشاكرُ من الكافر، فالدنيا دارُ الابتلاء، والآخرةُ دار الجزاء، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ، لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً، وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُم مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ، لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوْا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾.

والله جلّ وعلا لا يعجزه أن يخلق الكون بأسره بلمح البصر، ولكنها السنّة الإلهية لتعليم البشر التأني في الأمور، وعدم التعجل فيما يريدونه من أعمال الحياة، ليكون لهم منهجاً إلى طريق المُهلة والتؤدة، كما قال ابن عباس: لو شاء لخلقها في أقلَّ من لحْظة، ولكن أراد أن يُعلِّم عباده التريث، فخلقها في ستة أيام.

العرش مخلوقٌ قبل السمٰوات

وقد كان خلق العرش قبل خلق السموات والأرض، كما ثبت في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ ﴾ ونطقت به السنّة النبوية

الكريمة، فقد روىٰ الإمام البخاري في صحيحه عن عِمران بن حُصَيْنٍ قال: كنتُ عند النبي ﷺ، إذ جاء قومٌ من بني تميم فقال لهم: اقبَلوا البشرى يا بني تميم، قالوا: بشَّرْتَنا فأعطنا مرتين، فدخل ناسٌ من أهلِ اليمن، فقال لهم عليه السلام: اقبَلوا البُشْرى يا أهل اليمن، إذْ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قَبِلْنا، جئنا لنتفقَّه في الدين، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان؟ قال: كان اللَّهُ ولم يكن شيءٌ غيرُه، **وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض**، وكَتَب في الذِّكرِ كلَّ شيء، ثم أتاني رجلٌ فقال يا عمران: أدركْ ناقتَك فقد ذهبتْ، فانطلقتُ أطلبُها فإذا هي يقطع دونها السَّرابُ، وايْمُ اللَّهِ لَوَدِدْتُ أنها ذهبتْ ولم أقم[1].

الغرض بيان القدرة الباهرة

والغرض من الآية بيان عظمته تعالى، وقدرته الباهرة، فإن العرش أعظم من السموات والأرضين جميعاً، فإذا كانت السموات والأرض كلهن بالنسبة للعرش العظيم كحلقة صغيرة في فلاةٍ واسعة، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح، كان قيام العرش على الماء أبدع وأعجب، فإن البناء الضعيف إذا لم يؤسس على أرضٍ صلبة لم يستقرَّ ولم يثبت، فكيف بالعرش العظيم الذي أحاط بالسموات وجميع الأكوان، إذا بسط على الماء؟ وكيف بخالق هذا العرش أليس في غاية العظمة والجلال؟ سبحانه وتعالى جلَّ أن يحيط بعظمته وسلطانه مخلوق ضعيف من البشر، وقد خلق الكون لغاية، ولا بدَّ بعد هذه الحياة من الرجوع إلى العليِّ القدير، للحساب والجزاء، ولكنَّ المنكرين يستبعدون هذا:

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في المغازي ٨/٦٦ والترمذي في المناقب رقم /٣٩٤٦/ وأحمد في المسند ٤/٤٢٦.

﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْد المَوْت، لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾.

ضعف الإنسان بالنسبة للكون

ولما كان طبيعة الإنسان الجحود والإنكار، والفخر والاستعلاء، مع أنه بالنسبة للكون مخلوق حقير ضعيف، فقد جاءت الآيات لتذكِّره بعجزه وضعفه، وحقارته ومهانته، وكان الأحرى به أن يستمطر رحمة الله، فيشكره ولا يكفره، ويذكره ولا يجحد إنعامه، ليبرهن على عبوديته لهذا الخالق العظيم: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ، إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُوْرٌ. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْد ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ، لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ. إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾.

وهكذا شأن الكافر، لا يقر بفضل الله وإنعامه، بل يعتقد أن السبب في حصول تلك النعم، من الأمور الطبيعية التي تحدث للإنسان اتفاقاً، فإذا زالت استبعد حدوثها مرة أخرى، فيقع في اليأس الشديد، وعند حصولها كان ينسبها إلى السعد، فلا يشكر الله بل يكفره، وإذا انتقل من مكروه إلى محبوب ومن محنةٍ إلى منحة، اشتد فرحه بذلك، فطغى وبغى، وأفسد في الأرض بالشهوات والملذات، ونسي السعادة الحقيقية.

تسلية للنبي عليه السلام

ثم سلَّى الله نبيه ﷺ أمام استهزاء المشركين، وسخرية الساخرين، فما عليه إلا أن يتوكل على الله، ويجهر بالدعوة دون مبالاةٍ من أحدٍ من الخلق، فحسبُه أن الله مطَّلع على عمله، راضٍ عن سيرته

وجهاده، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه مواسياً ومسلياً: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ، وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ، أَنْ يَقُولُوْا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ وكأن الآية تقول: امض في دعوتك يا محمد، فلك أسوة بإخوانك الرسل قبلك، فإنهم كُذِّبوا وأُوذوا، فصبروا حتى أتاهم نصرُ اللَّهِ عزّ وجلّ، وصدق الله حيث يقول: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ المَنْصُورُونَ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ ﴾.

افتراءات المشركين على القرآن

وبعد ذلك البيان الناصع الساطع، عن موقف المشركين «كفارِ مكة» من أمر الإيمان والتوحيد، والرسالة والنبي، وأمر البعث والنشور، حيث استبعدوا أن يكون الإله واحداً، واستنكروا أن يكون هناك بعث بعد الموت والفناء، فقد جاءت الآيات لتخبرنا عن رأي المشركين في القرآن، ومزاعمهم الباطلة حيث ادَّعَوْا أن هذا القرآن ليس من عند الله العلي الكبير، بل هو من تأليف محمد ونظمه، اختلقه وافتراه، ونسبه إلى الله، وهي دعوى تفوح منها رائحة الكذب والبهتان، ولهذا جاء القرآن يتحداهم بهذا الأسلوب الصارخ، الذي يُحرِّك النفوس ويستفزُّ المشاعر، للمصاولة والمقارعة: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ، وَادْعُوْا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟ ﴾.

والافتراء ضرب من ضروب الكذب، ولكنَّه لا يُستعمل إلا فيما يبهت فيه المرء ويكابر، ويأتي بأمرٍ عظيم منكر، فيقال: فلانٌ افترى كذا أي اختلقه من تلقاء نفسه ونَسَبه إلى غيره.

التحدي الصارخ القاطع

وهذه مقالة زعماء قريش زعموا أن القرآن من صنع محمد، ومن تركيبه وتأليفه، وهم فرسان البلاغة وملوك البيان، ولهذا جاء التحدي لهم صارخاً قاطعاً: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مفتريات ﴾.

وهذه هي المرة الثانية التي تحداهم بها القرآن الكريم، وتدرَّج معهم في هذا التحدي، من الأعلى إلى الأقلّ، فالأقل، وفي كل مرة يعجزون ويخرسون، ولا يستطيعون أن يقاوموا هذا التحـدي، وهم فرسان الميدان، وفي هذا أعظم البرهان على إعجاز هذا القرآن.. تحدَّاهم أولاً بمجموع القرآن في قوله تقدست أسماؤه: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ، عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾[1] أي ولـو استعانوا بأهل الأرض جميعاً، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور فقط من مثل هذا القرآن، ويستعينوا بمن شاءوا غير الله سبحانه، كما جاء في هذه السورة التي نحن بصدد دراستها، وإلقاء الأضواء عليها، وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ، وَادْعُوْا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ فما استطاعوا أن يرفعوا رأساً.

وأخيراً تحدَّاهم أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ فقط، مشابهة للقرآن في الفصاحة والبيان، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا، فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فلم يستطيعوا أن ينبسُوا ببنتِ شفة.

وهذا كما يقول أديب كبير ـ كتب مقالةً بديعة ـ لأديب آخر: اكتبْ

---

(١) سورة الإسراء آية رقم /٨٨/.

مثل هذه المقالة التي كتبتُها، فإذا ظهر عجزه عن مجاراته، قال: اكتب عشرة أسطرٍ مثل ما كتبتُ، ثم أراد غاية المبالغة قال: قد اقتصرتُ منك على سطرٍ واحدٍ مثله، وأجزتُ لك أن تستعين بكل من تريد، فإذا ظهر عجزه حال الانفراد، وحال الاجتماع والتعاون، تبيَّن عجزه عن المعارضة على الإطلاق، ولهذا قال تعالىٰ في هذه السورة: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ أي فإن لم يستجب الكفار إلى ما دُعوا إليه من المعارضة، فاعلموا يا معشر المؤمنين أن هذا الكتاب، من عند رب الأرباب، فاثبتوا على التوحيد والإيمان، وأيقنوا بصدق ما جاءكم به محمد، فهذا الكتاب المبين معجزته الخالدة.

عجزهم عن المعارضة للقرآن

يا عجباً لسادة قريشٍ وأشرافها، هم فرسان الميدان في الفصاحة والبيان، جاءهم محمد بما برعوا فيه واشتهروا، فقد كانوا يفخرون بأنهم ملكوا ناصية البيان، في نظمهم، ونثرهم، ومعلقاتهم وأشعارهم، جاءهم محمد بهذا الكتاب كبرهانٍ على صدقه وقال لهم: هذا هو معجزتي، فلما عاندوه وكذبوه، تحداهم أن يأتوا بمثله، أو بمثل سورةٍ منه، فهاجوا وماجوا، ثم استنفروا جماعتهم، وبذلوا طاقتهم، لرد هذا التحدي الصارخ، من رجلٍ واحد وهم جمعٌ غفير، ومن شخصٍ أميٍّ لا يحسن القراءة ولا الكتابة، ولا يعرفها، وهم أساطين البيان، وفرسان الميدان، فما سمعنا عن واحدٍ منهم رفع عقيرته، ليردَّ على هذا التحدي، أو ليدفع عن نفسه عار الهزيمة، في أمرٍ يفخر ويعتزُّ به، ألا وهو «مَيْدانُ الفُصْحى» التي هي من أشهر سلائق العرب، ومن أمجادهم ومفاخرهم، حيث كانوا يعقدون مؤتمرات في الأندية، والأسواق، للتفاخر والتباهي بالشعراء والأدباء.

سفهٌ وحماقة من بعض الجهلاء

دع عنك أمر بعض المجانين والسفهاء، ممن أرادوا أن يُحاكوا القرآن في روعته وبيانه، فأتوا بما هو شبيه بالهَذَيان، مما يضحك منه الصبيان، كقول بعضهم: (الفيل ما الفيـل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب وبيلٌ، وخرطوم طويل..) وقول بعض الحمقى في معارضة سورة الكوثر (إنا أعطيناك الجواهرْ، فصلِّ لربك وجاهرْ، إن شانئك هـو الكـافر).

فهذا وأمثاله لا يعتبر معارضةً للقرآن، لأنه بالبديهة يُعْرفُ بطلانُه وضلالُه، وقد أجمع رواة الأدب والتاريخ، على أن أساطينَ البلغاء، وفحول الشعراء، من المناوئين لرسول الله عليه السلام، لم يُنقل عن أحدٍ منهم أنه عارض القرآن، أو حاول تلك المحاولة، مع شدة حرصهم على صدِّ الناس عن الإسلام، فكان ذلك من أظهر الدلائل، على أن القرآن كلام العليم الخبير، المعجز في برهانه وبيانه.

بين أهل السعادة وأهل الشقاوة

ثم تتابعت السورة الكريمة تذكر موقف البشرية من هذا النور الإلهي الفياض، فمنهم من حصر همته وغايته في نعيم هذه الحياة الفاني، فليس له هدف إلا الاستمتاع بالدنيا وبهجتها ومتاعها، غير مفكِّرٍ في الآخرة ونعيمها، وما أعدَّه الله للمتقين الأبرار، ومنهم مَن كانت غايته الآخرة، ولها يسعى ويكدح، يبتغي بذلك وجه الله، وهؤلاء هم السعداء الذين فازوا بالحسنيين.

أما الفريق الأول ففيهم يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا، نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا، وَهُمْ فيهَا لَا

يُبْخَسُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا، وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذه الآية تشمل الكافرين، والمنافقين، والمرائين بأعمالهم، الذين لا يقصدون بأعمالهم الصالحة وجه الله، إنما يقصدون الشهرة، وحب المديح والثناء.

وقد ورد في صحيح مسلم وفي سنن الترمذي أن أول من تُسعَّرُ بهم نارُ جهنم ثلاثة: رجل جمع القرآن وعلَّمه، ورجل قُتل في سبيل الله، ورجل وسَّع الله عليه في رزقه، فأحسن وتصدق، فيؤتى يوم القيامة بالقارىء، والمجاهد، والمتصدق، فيقول الله لكل واحدٍ منهم ماذا عملتَ فيما أنعمتُ عليك؟ فيقول القارىء: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت بل أردت أن يقال فلان قارىء ـ أي عالم ـ وقد قيل، ويقول الذي قُتل في سبيل الله: قاتلتُ في سبيلك حتى قُتلتُ، فيقول الله له كذبتَ بل أردت أن يُقال: فلان جريء وقد قيل، ويؤتى بالمتصدق فيقول الله: ماذا فعلتَ فيما آتيتُك، فيقول: كنت أصلُ الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبتَ بل أردتَ أن يُقال: فلانٌ جواد ـ أي كريم ـ وقد قِيل. ثم قال رسول الله: «أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر لهم النار يوم القيامة»(١).

وأما الفريق الثاني فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ، وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً، أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ، إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم، والنسائي، والترمذي وحسَّنه، وانظر الترغيب للمنذري ٦٢/١.

والمعنى: أفمن كان على نورٍ واضح، وبرهانٍ ساطعٍ من الله تعالى، وهو النبي عليه الصلاة والسلام وأتباعه المؤمنون، ويتبعه شاهد من ربه وهو القرآن المنير الذي أُنْزِل عليه، فيه الحجة القاطعة على صدقه ﷺ لأنه رجل أميٌّ جاء بكتاب معجز، أفبعد هذا البيان يكون هناك شكٌّ في القرآن؟ وجواب الاستفهام محذوف لظهوره من سياق الآية، أي كمن كان يريد الحياة الدنيا، ولا يفكِّر في مرضاة الله؟ يريد أن بينهما تفاوتاً كبيراً، وتبايناً بعيداً، فلا يستوي من أراد الله والدار الآخرة، ومن أراد الدنيا وبهجتها ونعيمها، ثم قال تعالى: ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ هو هذا القرآن العظيم، الدال على صدق نبوته وصحة دعوته ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ أي ومن قبل هـذا القرآن، التوراة التي أنزلها الله على رسوله الكريم موسى بن عمران، كذلك تشهد بصدق القرآن وصدق الرسول، لأنها بشرت به، فما لهؤلاء الأشقياء يكذبون ولا يؤمنون؟.

مشهدٌ مخزٍ للمشركين في الآخرة

ثم تمضي الآيات الكريمة، تقرع بحججها الدامغة آذان الطغاة المتجبرين، الذين أعرضوا عن هداية الله، وكذبوا بالقرآن المنزَّل على سيد المرسلين، وتصف موقفهم المخزي يـوم القيامـة، حين تُبلى السرائر، وتنكشف الحقائق، ويظهر الكاذب من الصادق، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ، وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ. الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾.

وإنه لمشهدٌ مهول، مخزٍ لأعداء الله، حين يُفضحون على رءوس الأشهاد، أمام ذلك الجمع الحافل، الذي يُجمع فيه الخلائق والملائكة والأنبياء والشهداء، ويقول هؤلاء جميعاً: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم. . فهو يوم الفضيحة، ويوم الذل والعار، الذي يكسو وجوه هؤلاء الكفار، ويعلوها الظلمة والسواد وهو سيماهم في ذلك اليوم العصيب كما قال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَىٰ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾؟.

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾؟ استفهامٌ يُراد به النفيُ، كأنه قال: لا أحدَ أظلم ممن اختلقَ الكذبَ على الله، بنسبة الشريك له والولد.

الفضيحةُ الكبرى على رءوس الأشهاد

والمرادُ بالأشهادِ: الشهداءُ من الملائكة والأنبياء، الذين يشهدون على المجرمين بما اقترفوه في الدنيا من موبقات وآثام، أو يُراد بهم جميع الخلائق بما فيهم الرسل والأنبياء: ﴿ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ وأيُّ خزيٍ أعظمُ من هذا الخزي؟ وأيُّ فضيحةٍ أكبرُ من هذه الفضيحة؟ تصوَّروا أن محكمةً عُقدت لمحاكمة شخصٍ، اتُّهمَ بالخيانة للوطن، والتجسس لحساب دولةٍ معادية، وحضر الوزراء والنواب، والرؤساء والكبراء، فشهدوا عليه بالخيانة، وظهرت الوثائق مذيَّلةً بالحقائق، التي تُدين ذلك المجرم الخائن للبلاد والوطن، كيف يكون حالُه وموقفُه أمام الناس؟ هذا في محكمة صغيرة في بلدةٍ من البلدان، صدر عليه فيها الحكم بالخيانة، فكيف يكون الحال إذا عُرضت القضية في محكمة دوليةٍ أمام آلاف الملايين من البشر؟ ألا

تكون الفضيحة أعظم، والخزي والعار أكبر؟ ولنتصور الآن محكمة إلهية تعرض فيها تلك القضية، يشهدها جميع الخلائق في أرض المحشر، ويشهد فيها على الإنسان جوارحه وأعضاؤه «يده، ورجله، وعينه، ولسانه» في محفل عظيم ضمَّ الملائكة والخلائق، والأنبياء والشهداء: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1] ألا يسودُّ وجه الإنسان خجلاً وحياءً من تلك الفضيحة على مشهدٍ من جميع الخلائق؟ فهذا هو المقصود من قوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿ أَوْلَئِكَ يُعْرَضُوْنَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ، وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ ﴾ وهنا ندركُ سرَّ دعوة المؤمنين وهم يبتهلون إلى الله، بهذا الدعاء الخاشع المنيب: ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ المِيعَادَ ﴾[2].

الخسرانُ والشقاء الأبديُّ

ثم تمضي الآيات وهي تحكي لنا نهاية هؤلاء المجرمين، الذين صدُّوا الناس عن دين الله، وكذبوا على الله وعلى رسله، وأمعنوا في الأرض فساداً، فإن الله عزّ وجلّ وإن أمهلهم في هذه الدار، ولكنه لن يهملهم، ولن يُفلتوا من عذابه، لأنهم في قبضته جلَّ وعلا وفي ملكه وسلطانه، ولكنَّ حكمته اقتضت أن يؤخِّر جزاءهم إلى يوم القيامة، ليكونَ العذابُ أشدَّ، والفضيحةُ أعظمَ: ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ، يُضَاعَفُ لَهُمُ العَذَابُ، مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا

---

(١) سورة النور الآية رقم /٢٤/.

(٢) سورة آل عمران آية رقم /١٩٤/.

أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمَ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾.

ومعنى «لَا جَرَمَ» في لغة العرب: أي حقَّ، وقيل: معناها: لا شكَّ، ولا بدَّ، ولا محالة، وهو قول الفراء قال: هي بمنزلة لا بدَّ، ولا محالة، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقاً[1]، ومعنى الآية الكريمة: حقاً إن هؤلاء الأشقياء يوم القيامة من أخسر الناس، فقد خسروا سعادة الدارين، ولن ترى أحداً أظهرَ خسراناً منهم، لأنهم آثروا الفانية على الباقية، واستعاضوا عن الجِنان بلظى النيران، فما أتعسهم وأشقاهم؟!.

الصنف الثاني المؤمنون السعداء

وبعد أن عرضت السورة لحالة المجرمين الأشقياء، ذكرت حال المؤمنين السعداء، وما أعدَّ الله تعالى لهم في جنات النعيم من أنواع الكرامة فقال تقدست أسماؤه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ومعنى الإِخباتِ: الاطمئنانُ، والخشوعُ، والتصديق بكل ما وعد الله عزّ وجلّ به عباده مع الخوف والإنابة، فإنهم قد جمعوا مع الإيمان والعمل الصالح، الخوفَ من الله والخضوعَ والخشوع لعظمته وجلاله، فاستحقوا الخلود في دار الكرامة والنعيم، حيث فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء ٨/٢.

مثلٌ رائع للفريقين يضربه القرآن

وقد ضرب الباري جل وعلا مثلاً للفريقين: فريق المهتدين، وفريق الضالين، شبَّه فيه أهل الشقاوة والضلال بالأعمى والأصم، وأهل السعادة والإيمان بالسميع والبصير، فأهل الضلال يتخبطون في ظلمات الجهل والغي، وأهل الإيمان يسيرون بنور البصيرة والإيمان على هداية الرحمن، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ، وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً؟ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾؟.

والمعنى: حال الفريقين العجيب، كحال من جمع بين العمى والصمم، وبين من جمع بين السمع والبصر، فإذا كان الإنسان أعمى وأصم، كانت مصيبته أفدح، وبلاؤه أعظم، فأصبح كالتائه في حضيض الظلمات، لا يبصر نوراً يهتدي به، ولا يسمع صوتاً يؤنسه ويسليه، فكذلك الكافر الضال، يكون أعمى البصر، أصمَّ القلب، وأما المؤمن المهتدي فهو كالرجل السميع البصير، يبصر نور الحق، ويستضيء بضيائه، فكيف يتساويان؟ ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أفلا تعتبرون وتتعظون؟ وهذه الآية مثل قوله تقدست أسماؤه: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ، وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ، وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الحَرُورُ، وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْواتُ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُورِ ﴾ اللهم اشرح صدورنا بالإيمان، ونوِّرْ عقولنا بالقرآن، واجعلنا من عبادك المتقين.

الحكمة من ذكر قصص الأنبياء والمرسلين

وبعد هذا البيان الواضح عن كتاب محمد ﷺ، ودعوته، ورسالته، جاءت الآيات لتبرهن على صدقه، فقد تناولت السورة الكريمة

ـ ضمن ما تناولته من المواضيع ـ ذكر قصص الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كبرهان على صدق رسالته، وتسلية لرسول الله عليه الصلاة والسلام، فذكرت قصة «نوح» ثم قصة «هود» ثم قصة نبيِّ الله «صالح» ثم «لوط» و «شعيب» وختمت بقصة «موسى وهارون» وكلُّ هذه القصص والأخبار إنما وردت لإثبات الوحي، وبيان صدق رسالة محمدٍ ﷺ، والتأكيد على معجزة القرآن.

إنَّ المشركين من أهل مكة، يعرفون جميعاً أن النبي عليه الصلاة والسلام كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، ولا تتلمذ على يد أحد من الأساتذة، ولم يلتق بعلماء أهل الكتاب، من أحبار اليهود وقُسس النصارى، لأنه عاش حياته في مكة، إلى أن بعثه الله نبياً، وأرسله رسولاً، ومكة ـ شرَّفها اللّٰهُ ـ لم يكن بها أحد من أهل الكتاب، فمن أين جاء بهذه القصص والأخبار، على وجه الكمال والسداد، والصحة والتدقيق، التي فيها أنباء الأمم السابقة مع رسلها وأنبيائها، ممَّا لم يطَّلع عليه إلَّا خاصَّةُ الخاصَّة من علماء أهل الكتاب، لو لم يكن هذا بوحي من الله عزَّ وجلَّ؟ ولهذا نجد القرآن الكريم، يلفت الأنظار إلى هذه النقطة بالذات، فيذكر ـ بعد سرد قصص الأنبياء الكرام ـ خبر الوحي، وأمر النبوة، ويبيِّن بجلاء ووضوح، أن هذه الأخبار لم تكن من تلقاء محمد، إنما هي بوحي من الله العلي الكبير، الذي أنزل على رسوله هذا الكتاب المعجز، وفيه أنباء من سبق من الأمم والمرسلين، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوْحِيْها إِلَيْكَ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

ويقول جلَّت عظمته وتباركت أسماؤه، بعد سرد قصة موسى وهارون، وأخبار الطغاة المتجبرين: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ

عَلَيْكَ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ. وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ. وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

كلُّ ذلك لينبِّه الغافلين والجاهلين، إلى أن ما جاءهم به محمد عليه الصلاة والسلام، ما هو إلا بوحيٍ من الحكيم العليم، الذي أحاط بكل شيءٍ علماً، وأنزل هذا الكتاب تَبْصرَةً وذكرى لأولي الألباب.

البراهينُ ثم القصص والأخبار

وقد جرت عادة القرآن الكريم، أنه إذا أورد على الكفار أنواع الدلائل والبراهين، أتبعها بذكر قصص الأنبياء والمرسلين، ليصير ذكرها مؤكداً لتلك الدلائل، وموضحاً لصدقها بأنها وحيٌ من عند الله، ولغرضٍ آخر هو التفنُّن في الكلام، بالتنقل من أسلوب إلى أسلوب، في الموعظة والنصيحة، لتبقى النفس متشوِّقة إلى سماع تلك الأخبار، ولا يدخل إليها الكلل والملل، أو يصيبها الضجر والسآمة، كما يتنقَّل الإنسان في الحديقة من مكان إلى مكان، ليستمتع بالأشجار والأزهار، والنظر إلى الخضرة والثمار، وخرير الأنهار، فبذلك يتمُّ سروره، ويكمل ابتهاجه، وهكذا ينقلنا القرآن، من مشهد إلى مشهد، ومن قصة إلى قصة، ومن حديث إلى حديث، ليكتمل الهدف من الوعظ والإرشاد.

القصة الأولى قصة نوح عليه السلام

وأول قصة في هذه السورة الكريمة، هي قصة نوح شيخ الأنبياء والمرسلين، الذي هو المثلُ الأعلى لجميع الدعاة والمصلحين، في الصبر والثبات وتحمل ضروب الأذى لتبليغ دعوة اللهِ عزّ وجلّ، فلقد كان أطول الأنبياء عُمُراً، وأشدَّهم بلاءً، وأكثرهم تحملاً، وأقلَّهم أتباعاً وأنصاراً، لم يفتأ يدعو قومه إلى الله، ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، ومكث بين أظهرهم مدةً من الزمان تكاد تكون ضرباً من الخيال، هي مدة خمسين وتسعمائةِ سنة بنص القرآن الكريم: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامَاً ﴾ وهي مدة لم يدركها أحدٌ من المرسلين قبله ولا بعده، أدرك فيها الأحفاد، والآباء، والأجداد، وأجداد الأجداد، ومع هذه المدة المتطاولة من الزمان، لم يؤمن به إلا قليل، فما أطول المدة، وما أقلَّ الحصيلة؟ وقد ذكر قصته تعالى في سورة يونس، وأعادها في هذه السورة أيضاً، لما فيها من زوائد الفوائد، وبدائع الحِكَم.

ولنستمع إلى قصة شيخ الأنبياء في سورة هود، كما قصَّها علينا القرآن بالتفصيل والإسهاب، يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحَاً إِلَى قَوْمِهِ، إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ . فَقَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ، مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرَاً مِثْلَنَا، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا، بَادِيَ الرَّأْيِ ، وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ، بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾.

شبهاتٌ ثلاث في وجه دعوة نوح

يا لها من سفاهةٍ وحماقة، أن يقابلوا نبيهم بمثل هذا السَّفه والبهتان، فيجحدوا نبوَّته، ويكذِّبوا رسالته، وهو يدعوهم إلى الله،

لينقذهم من عذاب يومٍ أليم!!.

دعاهم إلى الإيمان بالله، وإلى توحيده، وإخلاص العبودية له جلَّ وعلا، ونبذ عبادة الأوثان والأصنام فسخروا منه واستهزءوا، وقومُ نوح هم أول من اخترع عبادة الأحجار، وتقديس الأوثان، فما كانت الوثنية قبلهم معروفة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان بين آدمَ ونوحٍ عشرةُ قرونٍ، كلُّهم على الإسلام»[1].

لقد طعن أشراف قومه في نبوته، وأثاروا حول رسالته الشكوك، بثلاثة أنواعٍ من الشبهات:

الشبهة الأولى: أنه بشرٌ مثلهم، يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، وليس هو من الملائكة حتى يُقرُّوا له بالسيادة والفضل عليهم، فكيف يتبعونه وهو بشرٌ مثلهم؟ وإلى ذلك الإشارة بقولهم: ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا. . ﴾.

الشبهة الثانية: أن أتباعه الذين آمنوا به، وصدَّقوا برسالته، ما هم من أشراف القوم، إنما هم من الأراذل والأسافل، ومن الضعفاء والفقراء، ولو كان صادقاً في دعوى النبوّة لاتَّبعه الأكابرُ، والأشراف منهم، وإليه الإشارة بقولهم: ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ ويقصدون بالأراذلِ أصحاب الحِرَف الخسيسة، كالحلَّاق، والخيَّاط، والنجَّار، والفقراء المعدمين الذين لا يملكون الثروات والأموال. وَصَفُوهم بقولهم: «أراذل» جمع أَرْذَل، لفقرهم وخسَّةِ صنعتهم، جهلاً منهم وسفهاً، لاعتقادهم بأن الشرف إنما يكون بالمال والجاه، ونظيرُ هذه الآية قولُه تعالى في سورة الشعراء: ﴿ أَنُؤْمِنُ

(١) الحديث أخرجه البخاري عن ابن عباس موقوفاً.

لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾؟! وما علم الجهلاء أن هذا مبعدٌ لهم عن الله، لا مقرِّبٌ منه سبحانه، فإن الأنبياء ما بُعثوا إلّا لترك الدنيا، والزهدِ فيها، والإقبالِ على الآخرة، فكيف يُجعل قلَّةُ المال طعناً في النبوة؟.

الشبهة الثالثة: أما الشبهة الثالثة التي أثاروها، فهي اتهامهم لنوح عليه السلام ولأتباعه بعدم الحَصَافة وسداد الرأي، وبالطعن فيهم بقلة العقل، لأنهم يشغلون أوقاتهم في العبادة، ولا يهتمون برعاية المصالح العاجلة، وهذا في نظرهم سفهٌ وجهل، فكيف يتبعونهم وهم على هذه الحالة؟ وإليه الإشارة بقولهم: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ، بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾.

ولنستمع إلى جواب نبيِّ الله «نوح» عليه السلام، في ردِّ هذه الشبهات السقيمة بأسلوب التلطف الذي امتاز به الأنبياءُ، وبمنطق العقل الحكيم: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ، فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ، أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُوْنَ؟ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّهُمْ مَلَاقُوا رَبِّهِمْ، وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ. وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾؟.

ونلمح من هذه الآيات البينات أن أشراف قومه، طلبوا منه أن يطرد من حوْلِهِ هؤلاء الفقراء الضعفاء، ليتمكنوا من الاجتماع به ويُناظروه في أمر النبوة والرسالة، فيردُّ عليهم بهذا الجواب المفحم، الذي لا يستطيعون دفعه: ﴿ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾؟ أي من يخلصني وينقذني من عذاب الله، إن طردت هؤلاء المؤمنين من حولي إرضاءً لكم؟ أفلا تتفكرون فتعلمون خطأ رأيكم؟.

جدال عنيف بين نوح وقومه

تركنا نوحاً عليه السلام ـ شيخ الأنبياء ـ مع قومه المعاندين، يناظرهم ويجادلهم، ويقيم عليهم الحجة تلو الحجة، والبرهان تلو البرهان، على صدق دعوته، وصحة نبوته، ولكنهم كانوا ـ كما أسلفنا ـ في غاية العتوِّ والضلال، يكابرون ويعاندون، ويخاصمون ويجادلون، كلَّما حاول تذكيرهم تمرَّدوا، وكلما حاول إقناعهم شردوا، ولكنه عليه السلام لم تضعف همته، ولم تنثن عزيمته، عن تبليغ دعوة ربه، بما آتاه الله من الحجة والبرهان، ونتابع سرد أخباره العجيبة، مع أولئك الطغاة المتجبرين من أشراف قومه.

لقد أنكروا رسالته بدعوى أنه بشر، وليس بمَلَكٍ، وأتباعُه الضعفاء والفقراء، وليس بثريٍّ من كبار الأغنياء، يملك الخزائن والأموال الطائلة، ثمَّ هو لا يخبرهم عن أمور الغيب، فكيف يكون نبياً ـ في نظرهم ـ وهو رجلٌ عاديٌّ، ليس له شيءٌ من خصائص العظماء والكبراء؟.

ولنستمع إلى جواب نوحٍ عليه السلام، وهو النبيُّ الكريم الذي شرَّفه الله بالرسالة، وأيَّده بالحجة الدامغة: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ، وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ، إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ردَّ عليهم طلبهم بطرد الفقراء والضعفاء بقوله: ﴿مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾؟ أي إذا كانوا مؤمنين، وطردتهم من مجلسي ومن حولي لفقرهم، فمن يدفع عني عقاب الله إن أقدمت على ذلك؟ وردَّ

عليهم ادِّعاءهم بأنه فقير، فنبَّههم إلى أن الفقـر ليس بمنقص قدر الرجال، ولا أن الغنى سبب لعلو جاه الإنسان، بقوله: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ أي لا أقول لكم عندي المال الوافـر الكثير، وخزائني مملوءة بالذهب والفضة، حتَّى تتبعوني لغناي، بل أنا واحدٌ من أفراد الناس، أكرمني الله بالنبوة، وليس من شروط النبوة الغِنى والثراء.

وردَّ عليهم دعوى أنه من البشر وليس من الملائكة بقوله: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي ملكٌ ﴾ أي لا أقول لكم إني من الملائكة، حتى أتعظَّم بذلك عليكم، وأطلب منكم اتباعي، بل طريقي الخضوعُ والتواضع، ومن كان هذا شأنُه وطريقُه، فإنه لا يستنكف عن مخالطة الفقـراء والمساكين، ولا يطلب مجالسة الأمراء والسلاطين، وإنما شأنُه طلبُ الدين، وسيرته مخالطة العابدين والخاشعين، فلما كانت طريقتي توجب مخالطة الفقراء، فكيف جعلتم ذلك عيباً عليَّ يوجب عدم الاتِّباع؟!.

ثم إنه أكَّد هذا البيان بطريقٍ رابع فقال: ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ﴾ أي لا أقول لهؤلاء الضعفاء الذين آمنوا بي، واحتقرتموهم لفقرهم، إنهم محرومون من رحمة الله، ومن دخول جنته، فأكون كاذباً على الله: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي الله وحده هو العالم بسرائرهم وضمائرهم، فكيف أطردهم لمجرد أنهم فقراء، ثم يختم معهم الكلام، بما يشير إلى إقناطهم من طرد أولئك الأتباع الفقراء فيقول: ﴿ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي إن قلت ذلك أو طردتهم عني، أكون مستحقاً لأشد أنواع العقاب.

جوابهم السخيف لنوح عليه السلام

وبعد هذه المناظرة والمحاورة بالدليل القاطع، والبرهان النيِّر، والأسلوب الحكيم، ماذا كان جواب أولئك المعاندين المكابرين؟ الذين لا يقنعهم الدليل مهما بدا فيه الإشراقُ والوضوح، ولا يرضون بالحجة والإقناع، إنما سبيلُهم الطغيان والجبروت، لأنهم من أهل الشرف والسيادة، فلا يمكن أن يخضعوا لأحدٍ دونهم في الشرف والمال، مهما كان في النبوغ والتفوق العلمي والذاتي، ولْنَستمعْ الآن إلى جوابهم السفيه، الذي يدل على الجهل والرعونة، والبعد عن منطق العقل السديد: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا، فَائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وكان الأحرى بهم لو كانوا عقلاء، أن يقولوا سمعاً وطاعة، فقد جئتنا بالحجة الواضحة، والبرهان الساطع، ولكنهم لسفههم وحماقتهم طلبوا العذاب: ﴿ فَائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي إن كنت صادقاً في دعوى الرسالة، أنك مرسلٌ من عند الله، وتخوفنا من عذابه إن لم نؤمن، فائتنا بهذا العذاب، فإنا لن نؤمن بك ولن نتبعك!!.

فلا يملك نوح عليه السلام في مثل هذه الحالة، بعد أن أزاح عنهم كل علة، وأزال كل شبهةٍ أثاروها، إلا أن يلجأ إلى الله، ويكل أمرهم إلى من بيده القوة والقدرةُ، والذي يملك أن ينتقم ممن جحده، وكذَّب رسالة أنبيائه ورسله، فيقول ما قصَّه علينا القرآن: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ. وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ، إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ، هُوَ رَبُّكُمْ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

نوح يبالغ في النصح والتذكير

ونلمح من هذه الكلمات، التي قالها نوح عليه السلام لقومه الجاحدين المستكبرين، أنه قد بالغ معهم في النصح والتذكير، كما بالغوا هم معه في السخرية والاستهزاء، حتى لم يبق عنده أمل، في صلاحهم وفلاحهم، فماذا يصنع مع قلوبٍ قد تحجرت، ونفوسٍ قد بلغ بها العناد والطغيان، أن تطلب العذاب بدل الرحمة؟ وأن تتوعَّد نبيَّ الله بالقتل والتشريد، إن بقي مستمراً في دعواه؟.

لقد استعمل قومه المشركون مع نبيهم الكريم، صنوف الاستهزاء والبلاء، ليصدُّوه عن دعوته، فلم يجدوا منه إلا كل صبر وثبات، وسَلَّطوا عليه الصبيان والسفهاء، واتهموه بأنواع الاتهامات، وافتروا عليه أنواع الافتراءات، فما زاده ذلك إلا إيماناً وتسليماً، وصبراً وجهاداً، فكان في مقدمة الرسل من أولي العزم عليهم السلام، واستحقَّ أن يكون قدوةً للأنبياء والمرسلين، والدعاة والمصلحين، في كفاحه، وجهاده، وصبره.

أنواع الاتهامات الشنيعة لنوح عليه السلام

ولنتحدث بشيءٍ من الإيجاز على أنواع الافتراءات والاتهامات التي أطلقها المشركون على نوح عليه السلام:

١ ـ اتهموه عليه السلام أولاً بالسفه والضلال، كما قال سبحانه عنهم في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ، وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ ربِّ العَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، وَأَنْصَحُ لَكُمْ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُون ﴾(١).

(١) سورة الأعراف آية رقم / ٦٠ ـ ٦٢/.

٢ ـ واتهموه ثانياً بالخَرَف والجنون، كما قال سبحانه عنهم في سورة القمر: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾[١] أي قالوا إنه مجنون، وزجروه عن دعوى النبوة وتوعَّدوه، وكما قال عنهم في سورة المؤمنين: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أي به جنون ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾[٢] أي انتظروه واصبروا عليه حتى يموت.

٣ ـ واتهموه ثالثاً بالكذب والافتراء على الله، وبكثرة المجادلة والمناظرة: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾.

٤ ـ وقابلوه بالسخرية والتهكم كما قال سبحانه: ﴿ وَيَصْنَعُ الفُلْكَ، وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ ملأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ. . . ﴾.

٥ ـ وهددوه عليه السلام أخيراً بالقتل والرجم: ﴿قَالُوا لَئِنْ لم تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ المَرْجُومِينَ ﴾.

وهكذا تفننوا في إيذائه واتهامه، ليفلُّوا من عزمه، ويُضعفوا من صبره وكفاحه، وهذه الافتراءات والاتهامات، سلاح يستعمله الفجرة، في كل وقتٍ وحين، في وجه كل نبي كريم، أو داعية مصلح، وهذه الافتراءات والاتهامات ليست خاصة بنوح عليه السلام، فقد قال كفار مكة لسيد الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ وقالوا أيضاً عنه: ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ فهو

---

(١) سورة القمر آية رقم /٩/.

(٢) سورة المؤمنون آية رقم /٢٥/.

شأن الطغاة في كل زمان ومكان، وهو شأن الأشرار الفجار، في حق كل نبي، وحقِّ كل داعٍ مصلح.

حياة نوح عليه السلام حياةٌ شاقة مريرة

لا نزال نتحدث عن شيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام، الذي تناولت قصته بالتفصيل سورةُ هودٍ، فلقد كانت حياة نوح عليه السلام حياةً مريرةً شاقَّة، ومحنته مع قومه محنة شديدةً أليمة، فقد أقام بينهم قروناً ودهوراً، ولكنه لم يرَ إلَّا آذاناً صُمَّاً، وقلوباً غلفاً، وعقولاً متحجِّرة، لقد كانت عقولهم أيبسَ من الصخر، وأفئدَتُهم أقسى من الحديد، لم ينفعهم نصحٌ ولا تذكير، ولم يزجرهم وعيدٌ ولا تحذير، وكلما قدَّم لهم نصحاً، ازدادوا له تمرُّداً وعناداً، وكلَّما ذكَّرهم بالله وخوَّفهم من عقابه، زادوا ضلالاً وفساداً، وبقوا في طريق الضلالة سائرين، لا يلتفتون إلى دعوة نبيِّهم الكريم، ولا يبالون بتحذيره وإنذاره، وقد سلك معهم جميع الطرق الحكيمة، لإنقاذهم من الغيِّ والضلال، وإبعادهم عن عبادة الأوثان والأصنام، فلم يُفلح معهم أبداً، ولذلك دعا عليهم بالهلاك، فاستجاب الله دعاءه، وأوحى إليه بأنه سيهلكهم بالطوفان، فلا يُبْقِي لهم أثراً، وأمره بأن يصنع السفينة ليركب فيها هو وجماعتُه المؤمنون، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوْا يَفْعَلُونَ. وَاصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا، وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا، إِنَّهُمْ مَغْرَقُونَ ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَاصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾: أي اصنع السفينة تحت نظرنا، وبحفظنا ورعايتنا، وبوحينا وتعليمنا لك، فالمراد

بها الحفظُ، والحياطةُ، والكلاءةُ، وإلهامُه كيف يصنعها.

قال ابن عباس: لم يعلم نوح كيف يصنع السفينة، فأوحى الله تعالى إليه أن يصنعها مثل جؤجو الطائر - أي مثل صدره ومقدَّمةِ جَسَده - ومعنى قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ أي لا تخاطبني في شأنهم، ولا تشفع فيهم فإني مهلكهم لا محالة، وهم قوم هالكون بالإغراق، فلا فائدة في الوساطة أو الشفاعة.

وهكذا صدر الحكم على أولئك الأشقياء بالهلاك، نتيجة الكفر، والظلم، والعدوان!!.

نوح يصنع السفينة وقومه يسخرون منه

أخذ نوح عليه السلام يصنع السفينة، وجعل قومه يمرون عليه فيسخرون منه ويهزءون، ويقولون له: يا نوح كنتَ بالأمسِ نبياً، وأصبحتَ اليوم نجاراً!! ويجتمعون عليه وهم يضحكون، وهو عليه السلام جادٌّ في عمله، غيرُ مكترثٍ بهم ولا بسخريتهم، لأنهم جهلة سفهاء، لا يعرفون ما خبَّأ لهم القدر، وعن قريب سيرون عاقبة سخريتهم واستهزائهم، وإلى ذلك تشير الآياتُ البينات في قوله تقدست أسماؤه: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ، وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ، وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾.

الطوفان كان عامًّاً لجميع الأرض

ولما انتهى من صنعها أمره الله سبحانه، أن يحمل معه أهله وجماعته المؤمنين، وأن يحمل فيها من الحيوانات من كل صنفٍ زوجينِ

اثنينِ «ذكراً وأنثى» لبقاء نسلها، وفي هذا أوضح دليل على أن الطوفان كان عاماً لجميع الأرض، لم تسلم منه جهةٌ أو بقعة، ولو لم يكن كذلك لما أمره الله تعالى أن يحمل معه هذه الحيواناتِ ذواتِ الأرواح، وغيرها من النباتات، وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسرين أن الطوفان عمَّ سائر أنحاء الأرض، وقد جعل الله له علامة لهلاكهم «فوران التنور» وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ حَتَى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا، وَفَارَ التَّنُّوْرُ، قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، وَأَهْلَكَ، إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ ﴾ أي من حكم الله بهلاكه كزوجة نوح وابنه الكافِرَيْن، ثم قال تعالى: ﴿ وَمَنْ آمَنَ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أي واحمل في السفينة أتباعك المؤمنين، وهم نزرٌ يسير.

قال ابن عباس: «كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم» ولا شك أنه عدد قليل جداً، بالنسبة لطول المدة التي مكثها نوح عيه السلام.

أقوال المفسرين في التنور

أمَّا التنور فالمرادُ به ـ على رأي الأكثرين ـ وجهُ الأرض، أي فإذا نبعت العيون من الأرض، فذلك علامة على هلاكهم، وهذا القولُ مرويٌّ عن ابن عباس وغيره من كبـار الصحابة والتابعين، ويؤيِّده قول الله جلّ ثناؤه في سورة القمر: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً، فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾.

ورجَّح الإمام ابن جرير أن المراد بالتنور هو الذي يُخبز فيه الخبز، لأنه هو المعروف من كلام العرب، وكلامُ الله يُحمل على الأغلب الأشهر، وجَمَع الحافظُ ابن كثير بين القولين، فقال رحمه الله: ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ فعن ابن عباس: التنورُ وجه الأرض، أي صارت الأرضُ عيوناً

تفور، حتى فار الماءُ من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماءً، وهذا قول جمهور السلف والخلف[1].

حجم السفينة التي صنعها نوح عليه السلام

أما السفينة التي صنعها نوح عليه السلام، بإلهام من الله العلي الكبير، وبدقةٍ وتصميم، فقد جعلها ثلاث طبقات، لتتسع لجميع الأصناف ممن أُمِرَ بحملهم معه في السفينة، من البشر، والدواب، والوحوش، والطيور، وسائر المخلوقات، لأنه أُمر بذلك بقوله تعالى: ﴿ احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾.

قال الحافظ ابن كثير في روايته عن الحسن البصري: «كان طولُ السفينة ستمائة ذراع، وعرضها ثلاثمائة، وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً، وجعلها ثلاث طبقات، كلُّ طبقةٍ عشرةُ أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للإنس والبشر، والعليا للطيور»[2].

وهذا يؤيد ما قلناه إن الطوفان كان عاماً لجميع الكرة الأرضية، ولم يكن خاصاً في منطقةٍ معينة، وإلاَّ لما احتاج أن يحمل معه في السفينة هذه الأنواع المتعددة من المخلوقات، فإنه إن هلك بعضها في مناطق من الأرض، بقي بعضها الآخر في مناطق أخرى، فلا ينقرض النسل، وبذلك يتَّضحُ أن الطوفان عمَّ جميعَ أنحاء المعمورة، وارتفع الماء على أعلى جبلٍ في الأرض خمسة عشر ذراعاً، كما روي ذلك عن عدد من الصحابة والتابعين.

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ٢/٢٢٠.
(٢) نفس المرجع السابق ٢/٢١٩.

نوح يأمر المؤمنين بالركوب في السفينة

لقد تركنا نوحاً عليه السلام يصنع السفينة، بتوجيه من الله وعناية، وقومه المشركون يمرون عليه فيهزءون منه ويسخرون، وكان جوابه لهم ما قصة علينا القرآن قال: ﴿ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ ولما انتهى من صنع السفينة، وظهرت العلامة بنبع الماء من التنور، وفوران الأرض بالمياه الدافقة كأمثال العيون، كما قال سبحانه: ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً. فَالْتَقَىٰ الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾[1] عند ذلك أمَرَ نوح عليه السلام المؤمنين بالركوب في السفينة، وأرسل الله تعالى من السماء مطراً لم تعهده الأرضُ قبله، ولم تُمطِرْهُ بعده، كان كأفواه القرب، دون توقف ولا انقطاع، وأمر الله الأرض فنبعت من جميع فجاجها، وسائر أرجائها، فالتقى ماء السماء مع ماء الأرض، وما هي إلّا فترةٌ قصيرة، حتى عمَّ الطوفان أرجاء المعمورة، فلم يبق سهل ولا جبل، ولا بنيان، إلا وقد غمرته المياه، وأخذت السفينة تسير بالمؤمنين ومن فيها، في وسط أمواج هائجة كأنها الجبال، ونوح يهتف بولده الكافر لينجو بنفسه، ولا يهلك مع الهالكين، فيأبى عليه، ويخدعه الشيطان بأن يعلو رءوس الجبال لينجو من الغرق، ثم تنكشف الحقيقة فإذا بالطوفان يجرفه مع الهالكين، ولا ينجو أحدٌ من أهل الأرض إلّا من ركب مع نوح في السفينة، من عباد الله المؤمنين.

اقرأ هذه الآيات البينات، التي تفيض بالعبر والعظات في هذه السورة الكريمة: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ أي باسم الله سيرُها ووقوفها، حين تسيرُ وحين تقف ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ

(١) سورة القمر آية رقم /١٢/.

رَحِيمٌ. وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ، وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا، وَلَا تَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ، قَالَ: لَا عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِينَ ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ أي لا ناجي من عذاب الله، ولا معصوم، إلاَّ من رحمه الله تعالى.

فقرات بديعة من الظِّلال

ولننقل هنا بعض فقرات من تفسير «في ظلال القرآن» لشهيد الدعوة «سيِّد قطب» عليه الرحمة والرضوان حيث قال: «وعند هذا المقطع من قصة نوح، يلتفت السياقُ لفتةً عجيبة، إلى استقبال مشركي قريش لمثل هذه القصة، التي تشبه أن تكون قصَّتهم مع الرسول ﷺ، ودعواهم أن محمداً يفتري هذا القصص، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ؟ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ فالافتراء إجرامٌ، وعليَّ تبعته، وأنا أعرف أنه إجرام فمستبعد أن أرْتكبه.

ثم يمضي السياق في قصة نوح، يعرض مشهداً ثانياً، مشهد نوحٍ يتلقى وحي ربه وأمره: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ، فلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. وَاصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ أي برعايتنا وتعليمنا ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ فقد تقرَّر مصيرهم، وانتهى الإنذارُ، وانتهى الجدال!!.

والمشهد الثالث من مشاهد القصة، مشهد نوح وهو يصنع السفينة: ﴿ وَيَصْنَعُ الفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾

والتعبير بالمضارع ﴿ وَيَصْنَعُ الفُلْكَ ﴾ هو الذي يعطي المشهد حيويَّته وجدَّته، فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير، وقومُه المتكبرون يمرُّون به فيسخرون، يسخرون من الرجل الذي كان يقول لهم إنه رسول، ثم إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً.

والمشهد الرابع: مشهد التعبئة عندما حلَّت اللحظة المرتقبة ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ، قُلْنَا: احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾.

ثم يأتي المشهد الهائـل المرهوب: مشهد الطوفان ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ.. ﴾ إن الهَوْل هنا هولان: هولٌ في الطبيعة الصَّامتة، وهولٌ في النفس البشرية، يلتقيان.. وإننا بعد آلاف من السنين، لنمسك أنفسنا ـ ونحن نتابع السياق ـ والهولُ يأخذنا كأننا نشهد المشهـد ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَـوْجٍ كَالْجِبَـالِ ﴾ ونوحٌ الـوالـدُ الملهوف، يبعث بالنداءِ تِلْوَ النِّداء، وابنُه الفتى المغرورُ، يأبى إجابة الدعاء، والموجةُ الغامرةُ تحسمُ الموقف، في سرعة خاطفـةٍ راجفة ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِينَ ﴾ وينتهي كل شيء، وكأنْ لم يكن نداء ولا جواب.

وتهدأ العاصفة، ويُخيِّم السكون، ويُقْضَى الأمرُ، ويُوجَّه الأمر إلى السماء والأرض بصيغة العاقل، فتستجيب كلتاهما للأمر الفاصل، فتبلع الأرض الماء، وتكفُّ عن المطر السماء ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي، وَغِيضَ المَاءُ، وَقُضِيَ الأَمْرُ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ ﴾ أي استقرت السفينة على جبل الجودي قرب الموصل ﴿ وَقِيلَ بُعْدَاً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ انتهى كلام سيد قطب عليه الرحمة[1].

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/١٨٧٩.

سرٌّ من أسرار الإِعجاز في القرآن

وندرك في هذا التعبير الرائع، سراً من أسرار الإِعجاز القرآني، فإن هذه الآية الكريمة، جمعت أحداث الكون، وما جرى من أخبار عجيبة في كلمات، فقد حُكي أن أعرابياً سمع هذه الآية ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي..﴾ الآية فقال: هذا كلام القادرين، لا يشبه أبداً كلام المخلوقين.

ويُرْوىٰ أن «ابن المقفَّع» ـ وكان أفصح أهل زمانه ـ حاول أن يعارض القرآن، فنظم كلاماً، وجعله مفصَّلاً، وسمَّاه سوراً، فمرَّ يوماً بصبي وهو يقرأ هذه الآية، فرجع إلى بيته، ومحا ما كان قد بدأ به، وقال: أشهدُ أن هذا لا يُعارض أبداً، وما هو من كلام البشر.

قال أبو حيان في البحر المحيط: وهذه الآية بلغت من أسرار الإِعجاز غايتها، وحوت من بدائع الفوائد نهايتها، وجمعت من المحاسن اللفظية والمعنوية ما يضيق عنه نطاق البيان، قال: وفي هذه الآية واحدٌ وعشرون نوعاً من البديع.

فيها المناسبةُ في قوله: «أقلعي، وابلعي».

والمطابقةُ بذكر الأرض والسماء.

والمجاز في «يا سماءُ أقلعي» المرادُ به مطر السماء.

والاستعارةُ في «أَقْلِعِي» أي أمسكي عن المطر.

والإِشارةُ في «وغِيضَ الماءُ» فإنها إشارة إلى معانٍ كثيرة.

والتمثيلُ في «وقُضي الأمر» عبَّر بالأمر عن إهلاك الهالكين، ونجاة الناجين.

والإردافُ في «واسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ» فلفظ واستوت كلامٌ تَامٌّ، أردفه بلفظ ﴿ عَلَىٰ الجُودِيِّ ﴾ قصداً للمبالغة في التمكن بذلك المكان.

والاحتراسُ في ﴿ بُعْدَاً لِلْقَوْمِ الظَّالِمينَ ﴾.

والإيجازُ وهو ذكر القصة باللفظ القصير مستوعباً للمعاني الجمة.

وعدّد بقية الوجوه، وهي الإيضاح، وحسن النَّسَق، والتجنيسُ إلى آخر تلك الأمور.

دعاء نوح لنجاة ولده

وتمضي السورة الكريمة، وهي تذكر دعوة نوح لربه أن يُنجي ولده من الغرق، ويأتيه الجواب الحاسم، تقطع العلاقة النَّسَبية بين المؤمن والكافر، فلا صلة بين الوالد المؤمن، والولد الكافر، لأنَّ الكفر يحول بين ذلك ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَلاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾.

ثم تختم القصة بإنابة نوح إلى ربه، وطلبه العفو والمغفرة منه، بعد أن بان له خطأ طلب النجاة له: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أعوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الخَاسِرِينَ. قِيلَ يَا نُوحُ اهْبطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا، وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ، وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهكذا تنتهي قصة نوح عليه السلام، بنجاة المؤمنين، وهلاك الظالمين، وكأنَّ الأمر لم يكن قد كان.

القصة الثانية قصة هود عليه السلام

وبعد أن انتهى الحديث عن قصة نوح عليه السلام، جاءت الآيات لتتحدث عن قصة «هود» عليه السلام، وهي القصة الثانية من القصص التي ذكرها الله في هذه السورة الكريمة، وقد أُرسل نبيٌّ الله «هود» إلى قبيلة «عاد» وهي من القبائل العربية البائدة، المتفرِّعة من أبناء «سام بنِ نوح» وكانوا أصحاب أوثـانٍ يعبدونها من دون الله تعالى، فبعث الله إليهم هذا النبيَّ الكريم، يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ، ويذكِّرهم بنعمه وآلائه، ويرشدهم إلى طريق النجاة والسعادة، ولكنهم كانوا عُتاة، طغاة، متجبرين، لم يقبلوا النصح، ولم يستجيبوا لـدعوة نبيهم، واغتروا بقوتهم، ووقفوا في وجه الناصح الأمين، يهدِّدونه ويتوعدونـه.

ولنستمع إلى الآيات البينات في هذه السورة الكريمة، وهي تقصُّ علينا أخبار هؤلاء الطغاة المتجبرين ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوْداً ﴾ أي وأرسلنا إلى قبيلة عـاد نبياً منهم عظيماً مبجَّلاً، اسمه هود عليه السلام ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوْا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ. يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرَاً، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي، أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ، ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً، وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ، وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾.

دعوتهم إلى عبادة الله وتوحيده

دعاهم هودٌ إلى عبادة الله وحدَه، وإلى ترك عبادة الأوثان والأصنام، وهذا هو الهدف الأساسي، من بعثة الأنبياء والمرسلين، بل هو الأصل والأساس الذي بُعث من أجله الرسل الكرام، ولهذا نجد كل رسول يعتني بهذا الأصل الأصيل، فيدعو قومه إلى توحيد الله جلَّ وعلا،

وإفراده بالعبادة، وخلع جميع الأنداد، والشركاء، والأوثان، فهو هنا يقول لهم، بدافع القرابة والشفقة عليهم والنصح: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ وفي لفظ «يا قوم» استمالةٌ لهم نحوه، لقبول دعوته، فالدافع له هو الشفقة عليهم، حيث كان من قبيلة عاد، فالواجب يفرض عليه تقديم النصح لهم والإرشاد، لأنهم منه وهو منهم، فكيف لا يحرص على خيرهم ومصلحتهم وهو واحدٌ من عشيرتهم؟.

وقوله: ﴿ اعْبُدُوْا اللَّهَ ﴾ معناه: لا تعبدوا غير الله، فهو دعوة إلى إخلاص العبادة لله، وتخصيصُه جل وعلا وحده بالعبادة، والدليل عليه قوله عقيبه ﴿ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ أي ليس لكم إلهٌ يستحق العبادة غيرُ الله تعالى، فهو الخالقُ الرازق، المحيي المميت.

تنبيههم إلى بطلان عبادة الأوثان

ثم ذكَّرهم ببطلان عبادة الأوثان فقال: ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُوْنَ ﴾ يعني إنكم كاذبون في دعوى أن هذه الأصنام تحسنُ عبادتها، أو أنها تستحق العبادة!! وكيف لا يكون هذا كذباً وافتراءً، وهي جمادات لا حِسَّ لها، ولا إدراك ولا شعور، والإنسان هو الذي ركَّبها وصوَّرها، فكيف يليق بالإنسان الذي صنعها أن يعبدها؟ وأن يضع الجبهة على التراب تعظيماً لها؟ ثمَّ نبَّههم إلى أنه لا يطلب على هذا النصح والتذكير أجراً منهم، حتى يظنوا فيه الظنون، بل هو بدافع الخوف عليهم، وإنقاذهم من سخط الله وعقابه، ولهذا ينبغي أن يَقْبلوا النصح بعد الإمعان والتفكير ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرَاً، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟ أي أتغفلون عن ذلك، فلا تعقلون أنَّ من يدعوكم إلى الخير، دون إرادة جزاءٍ منكم، هو لكم ناصحٌ أمين؟

ترغيبهم في تكاثر الخيرات والثمـرات

وبعد هذا البيان الواضح في تلخيص دعوته ورسالته، رغبهم فيما هم فيه يطمعون، ألا وهو زيادة الخيرات والنِّعم، بكثـرة الأمطار، وخروج الزروع والثمار، وزيادة القوة التي كانوا بها يفاخرون ويعجبون، إن هم تركوا عبادة الأحجار، وأقبلوا على الله بالتوبة والاستغفار ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ، ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً، وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ، وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾.

روي أن الله تعالى لما بعث إليهم هوداً وكذبوه، حبس الله عنهم المطر ثلاث سنين، حتى كادوا يهلكوا عطشاً، وقلَّت عندهم الخيرات والثمار، وهلكت المواشي، فقال لهم هود: إن آمنتم بالله، وتبتم من ذنوبكم واستغفرتم، أحيا الله بلادكم، ورزقكم المال والبنين، وأنزل عليكم المطر مدراراً، والمدرارُ الكثير الدرِّ، وهو من أبنية المبالغة، أي ينزل عليكم المطر غزيراً متتابعاً، ويزدكم قوة في أجسامكم، وعزاً وفخاراً.

جوابهم السفيه لنبيهم الكريم

ولنستمع إلى جواب أولئك الطغاة المتجبرين، لمن أسدى لهم النصح، وكان حريصاً على هدايتهم وسعادتهم ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ، وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ، وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ أي ما نقول إلا إِنَّه أصابك بعض آلهتنا بجنون، فأفسدت عقلك، لمَّا سببتها ونهيتنا عن عبادتها، فكلامك هذا خبلٌ وجنون!!.

وقد ردَّ عليهم هود عليه السلام بثقة المؤمن بربه، الذي لا يهاب

ولا يخاف أحداً إلا الله، وبأسلوب القوة والاعتزاز بدينه ودعوته ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ، واشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُوْنَ. مِنْ دُوْنِهِ، فَكَيْدُونِي جَمِيعاً، ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾.

ضلالٌ وطغيان

لقد دلت أجوبتهم على أن القوم كانوا جُفاةً، غلاظ الأكباد، لا يلتفتون إلى النصح، ولا تلين نفوسهم للرشد، وقد دلَّ قولهم الأخير، على جهل مفرط، وسَفَهٍ وحُمْقٍ، حيث اعتقدوا في حجارة صمَّاءَ بكماء، أنها تنتصر وتنتقم ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ ويا له من غباء ما بعده غباء!! ولهذا جابههم هود بالقوة والصلابة ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ، وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعَاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴾ أي اجتمعوا أنتم وآلهتكم، واحتالوا جميعاً في هلاكي، ثم لا تمهلوني طرفة عين، فأنا لا أخافكم ولا أبالي بكم جميعاً، لأنني واثق بنصر الله، ووعيدكم لي لن يَفُتَّ في عضدي، لأنه طنينُ ذُباب.

قال العلامة أبو السعود: «وكلامه هذا من أعظم المعجزات، فإنه عليه السلام كان رجلاً مفرداً، بين الجمِّ الغفير من عُتاة عادٍ، الغلاظ الشداد، وقد حقَّرهم، وهيَّجهم بانتقاص آلهتهم، وحثَّهم على التصدي له، فلم يقدروا على مباشرة شيءٍ، وظهر عجزُهم عن ذلك ظهوراً بيناً»(١).

وقال صاحب الكشاف: «من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام، رجلٌ

(١) إرشاد العقل السليم لمزايا القرآن الحكيم ٢١٨/٤.

واحدٌ، أمةً عطاشاً إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوسٍ واحدة، وذلك لثقته بربه، وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم، ومثله قول نوح: ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وشَرَكَاءَكُمْ ﴾ ولما يئس هودُ من إصلاحهم، هَجَرهم بعد أن توعَّدهم وهدَّدهم، وأخبرهم أنهم بطغيانهم هذا لن يضروا إلا أنفسهم ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إليكُمْ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمَاً غَيْرَكُمْ، وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئَاً، إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾.

نهاية الطغاة المجرمين

وتمضي السورة الكريمة، وهي تقصُّ علينا نهاية أولئك الطغاة المتجبرين، فقد أهلكهم الله عن بكرة أبيهم، بالريح الصرصر العاتية، وجعلهم عبرةً للمعتبرين، ونجّى من ذلك العذاب المؤمنين الصادقين، وبقيت سيرة أُولئك العتاة عظة وعبرة لكل جبار عنيد. وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ. وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوْا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ، وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً، وَيَوْمَ القِيَامَةِ، أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ، أَلاَ بُعْدَاً لِعَادٍ قَوْمِ هُوْد ﴾.

اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تُهلكنا بعذابك، ونجنا قبل ذلك، برحمتك يا أرحم الراحمين.

القصة الثالثة قصة صالح عليه السلام

هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة، وهي قصة نبيِّ الله «صالح» عليه السلام مع قومه المتمرِّدين، يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحَاً، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ

مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ، وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا، فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ. قَالُوْا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا، أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا؟ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾.

لقد بعث الله إلى قبيلة ثمـود هذا النبيَّ الكريم الناصح «صالحاً» عليه السلام، من العشيرة والقبيلة نفسها، ليدعوهم إلى الله، ويرشدهم إلى دينه الحقِّ، ويُبيِّن لهم ضلال ما هم عليه من الكفر والإشراك، فقد كانت قبيلة ثمود، كمن سبقهم من قوم عاد، يعبدون الأوثان، ويكفرون بالرحمن، وهم من العرب العاربة، الذين عَمَروا الجزيرة العربية، قبل إسماعيل عليه السلام، وكانت مساكنهم بالحِجْر، بين بلاد الحجاز والشام، يمرُّ عليها المسافرون في سفرهم، ولا تزال آثار مدائنهم باقيةً حتى الآن، وتُسمَّى «مدائن صالح».

وأصحُّ أقوال العلماء فيهم، أنهم كانوا عرباً من بقايا قوم عاد، ويؤيد هذا القولَ ما جاء في سورة الأعراف من قول الله جلت عظمته على لسان نبي الله صالح: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ، وَبوَّأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ، تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً، وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتاً، فَاذْكُرُوْا آلاَءَ اللَّهِ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.

دعوتهم إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ

نبَّههم نبيهم صالح عليه السلام، إلى ضرورة إفراد الله بالعبادة، لأنه جل وعلا هو الذي ابتدأ خلقهم، فأنشأهم من العدم، وأكرمهم بأنواع النعم، ومكَّن لهم في الأرض، فجعلهم عمّـارها وسكـانها، يزرعون في سهولها، ويبنون في جبالها القصور والدور، ويتمتعون بما

خلق الله لهم فيها من أنواع النخيل، والفواكه، والثمار، فعليهم أن يشكروه على فضله وإنعامه، ويرجعوا إليه بالتوبة والاستغفار.

قال المفسرون: كان قوم صالح، أهل خصبٍ ونعيم، لما لهم من الخيرات الوافرة، والجنات الزاهرة، والعيون الجارية، والزروع والنخيل، كما يدل عليه قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ. وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ ﴾؟.

وهكذا أغدق الله عليهم النِّعم، وأكثر لهم الخيرات، وجعلهم في بحبوحةٍ من العيش، وسعةٍ من الرزق، ولكنهم لم يشكروا الله على ذلك الفضل والإحسان، فأزال الله عنهم ذلك النعيم.

ردُّهم على نبي الله صالح عليه السلام

ولْنستمعْ إلى جوابهم السقيم، الذي يدل على طيشٍ وحماقة، في حقِّ ذلك النبي الكريم: ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا ﴾ أي كنا نرجو أن تكون فينا سيِّداً قبل تلك المقالة فلما قلتها سقطت من أعيننا ﴿ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا؟ ﴾ أي أتمنعنا يا صالح عن عبادة الأوثان، التي عبدها آباؤنا وأجدادنا؟ فهل أنت عاقل أم مجنون؟ كيف تأمرنا بترك عبادتها، وآباؤنا عبدوها مئات من السنين؟ ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيب ﴾ أي نحن شاكون في دعواك الإصلاح، وأمرك عندنا مريبٌ يوجب التهمة، وسوء الظن بك، هكذا يقول السفهاء لنبيهم الناصح الأمين «صالح» عليه السلام، وهذا كما قال كفار مكة لسيد الخلق محمد بن عبد الله ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ. وَانْطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ،

إِنَّ هَذَا لَشَـيْءٌ يُرَادُ﴾ وأجابهم صالح بأسلوب المرشد الحكيم، الذي لا يألو عن تقديم النصيحة لقومه وعشيرته، مهما لاقى منهم من عَنَتٍ، وأذى، وضرر ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً، فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ؟ فَمَـا تَزِيـدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ وكأنه يقول لهم: أخبروني إذا كنت نبياً حقاً، وكانت دعوتي واضحة كالشمس، وتابعتكم فيما تدعونني إليـه، وعصيتُ ربي في أوامره، فمن يمنعني من عذاب الله؟ فهل تدعونني إلى الرشاد أم إلى الفساد؟ فليس اتباعي لكم إلا خسارة فادحة لي ولكـم.

طلبهم معجزةً تدل على صدقه

وهنا ـ لما أقام عليهم الحجة في بطلان دعواهم ـ طلبوا منه معجزة، تدل على صدق نبوته، واشترطوا عليه أن يأتيهم بالمعجزة على رغبتهم، وحسب ما يطلبون، وأعطوه العهود والمواثيق، أن يؤمنوا به إن أجابهم إلى ما طلبوا. . وكان هذا الطلب ـ في نظرهم ـ تعجيزاً لنبيِّ اللهِ «صالح» عليه السلام، فقد طلبوا منه أن يشقّ لهم صخرة عظيمة، ويُخرج لهم منها ناقةً عُشَراء، والناقة أنثى الجمل، والعشراء هي الحامل التي في بطنها ولد.

قال الحافظ ابن كثير: «وكان القوم قد سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرةٍ صمَّاء، عيَّنوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحِجْرِ، ناقة عشراء تمخَّض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم إلى طلبهم، ليؤمنن به وليتبعنَّه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام نبي الله صالح إلى صلاته، ودعا الله عزّ وجلّ، فتحركت الصخرة ثم انصدعت عن ناقة

عظيمة عُشَراءَ، يتحرك جنينُها بين جَنْبيها كما سألوا، فلما عاينوها رأوا منظراً هائلاً، وقدرة باهرة، فآمن بعضهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم، وإلى هذا تشير الآيات الكريمة في قوله تقدست أسماؤه: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ، وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ وإنما أضاف الناقة إلى الله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ تكريماً وتشريفاً لأنها وُجدت بأمره»[1].

وكان من أمر هذه الناقة ـ بعد أن وضعت حملها أمامهم ـ أنها تشرب ماء كثيراً غير معهود، وتعطيهم حليباً بمقدار ما شربت، كما قصَّ علينا القرآن الكريم في قوله تقدست أسماؤه: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ، وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾.

تحذيرهم من قتل الناقة

وقد حذَّرهم نبيهم صالح من التعرض للناقة بسوء، وأنذرهم عذاب الله إن هم آذوها أو أقدموا على نحرها، ولكنَّ النفوس العاتية، التي لا تسمع موعظة، ولا تقبل نصيحة، والتي قد أعماها حبُّ العدوان والطغيان، قد أبت إلا الإجرام، فأقدموا على قتل الناقة بغياً وعَدْواً، وفي ذلك يقول جل ثناؤه: ﴿فَعَقَرُوهَا، فَقَالَ: تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي استمتعوا في العيش في بلدكم ثلاثة أيام، ثم يصبحكم العذاب، فلما توعَّدهم نبيهم بالهلاك والدمار، عزموا على قتله ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ، ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[2].

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣٢.

(٢) سورة النمل آية رقم /٤٩/.

قال ابن كثير: فلمّا عزموا على ذلك، وتواطئوا عليه، وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبيّ الله، أرسل الله سبحانه عليهم حجارة، فرضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام المهلة - ووجوههم مصفرة، كما وعدهم صالح عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني وهو يوم الجمعة، ووجوههم محمرَّة، وأصبحوا في اليوم الثالث وهو يوم السبت ووجوههم مسودَّة، فلما كان اليوم الرابع جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة شديدة من أسفلَ منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس في ساعة واحدة فأصبحوا في دارهم جاثمين أي جثثاً هامدة، لا أرواح فيها ولا حَرَاك[1]، اقرأ قوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّام، ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ. فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ القَوِيُّ العَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ. كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ أي كأن لم يقيموا في ديارهم ولم يعمروها ﴿ أَلَا إِنَ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ ﴾ وهكذا كانت نهاية الظلمة الفاجرين، الهلاك والدمار، ثم عذاب النار، وصدق الله العظيم: ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا. فَكَذَّبُوهُ فَعَقَروهَا فَدَمْدَمَ عَليهِمْ رَبُّهُمْ بذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا. وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾[2].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣٣.

(٢) سورة الشمس آية ١٣ - ١٥.

القصة الرابعة قصة إبراهيم عليه السلام

هذه هي القصة الرابعة في هذه السورة الكريمة، وهي قصة أبي الأنبياء سيدنا «إبراهيم» عليه أفضل الصلاة والتسليم، وما بشَّرته به الملائكة عليهم السلام، من ولادة ولدٍ له من زوجته العقيم، وفي ذلك دليل على القدرة الباهرة، في أن الله عزّ وجلّ إذا أراد شيئاً، فإنما يقول له كن فيكون، لا سيَّما وأن إبراهيم عليه السلام قد كان في سنِّ الشيخوخة، وهي سنٌّ لا يطمعُ فيها الإنسانُ عادةً بمجيء مولود، فكيف إذا اجتمع مع الشيخوخة والهرم، عُقْم الزوجة واستحالة إمكان الحمل؟ ولكنَّ الله القادر لا يعجزه شيء في هذا الوجود، فالذي خلق الإنسان من نطفةٍ من ماءٍ مهين، قادرٌ على أن يمنح الزوج الكبير، والمرأة العقيم، ولداً تَقَرُّ به أعينهما.

ولنستمع إلى هذه الآيات البيِّنات في قصة بشارة إبراهيم بالغلام الحليم، حيث يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ، قَالُوا سَلَامَاً، قَالَ سَلَامٌ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ. فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ، وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً، قَالُوا: لَا تَخَفْ، إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوْطٍ. وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ، فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبُ﴾.

البشارة بالمولود بطريق الملائكة

والرسلُ الذين جاءوا إبراهيم عليه السلام بالبشارة، هم من الملائكة ـ ملائكة الرحمة ـ الذين جعلهم الله تعالى وسائط بينه وبين رسله، وهم على قول ابن عباس ثلاثة «جبريل، وميكائيل، وإسرافيل».

وقال الضحاك: كانوا تسعة ملائكة، جاءوه في صورة غلمانٍ، مُرْدٍ

حسانٍ، في أجمل صورة خلقها الله، ليبشِّروه بالمولود السعيد، ويخبروه بما قضىٰ اللَّهُ من تدمير قرى قوم لوط، لأنهم بلغوا النهاية في الفساد والإجرام، كما ستتحدث عنه الآيات الكريمة بعد قليل، وفي قوله تعالى: ﴿ قَالُوْا سَلاَمَاً ﴾ أي سلَّمنا عليك سلاماً، يريدون بذلك التحية والإكرام: ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ أي سلامٌ عليكم، فهو ردٌّ منه على تحيتهم، لكنْ بإيجاز وإبداع، وذلك من البلاغة بمكان، كما قال الشاعر:

وَقَفْنَا فَقُلْنَا إِيـهِ سِلْمٌ فَسَلَّمَتْ فَمَا كَانَ إِلاَّ وَمْؤُهَا بِالحَوَاجِبِ

أي وما كان ردُّها السلام علينا إلا إيماءً بحواجبها، وتحريك جفونها، مع تمتمةٍ بلسانها.

قال علماء البيان: كان ردُّ إبراهيم السلام عليهم، أحسنَ ممَّا حيَّوه به، لأنه جاء بها جملة اسميَّة «قال سلامٌ» أي سلامي لكم «السلام عليكم» وهي تدل على الثبوت والاستمرار، وذلك عملاً بأدب القرآن: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بتحيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾.

كرم الضيافة عند الخليل إبراهيم

والتعبيرُ بقوله تعالى: ﴿ فَمَا لَبِثَ أن جاء بعجل حنيذٍ ﴾ يدل على سرعة الأمر، وزيادة الكرم في قِرى الضيف، فإن من أدب الضيافة أن يُعجِّل الإنسان في تقديم الطعام للضيوف، وألاَّ يسألهم هل هم جياع يحتاجون إلى طعام، لأن ذلك يُخجلهم ويوقعهم في الحرج، ومن أدبه أيضاً أن يكون الطعام شهيًّا دَسِماً، وافراً غير قليل، وألذُّه اللحم المشويُّ النضيجُ، وهذا ما فعله إبراهيم الخليل مع ضيوفه الكرام، فقد سارع إلى تقديم الطعام لهم، وكان عجلاً مشوياً يقطر دسمه، والعجلُ ولد البقرة ويسمى «الحسيل» ومعنى الحنيذ: المشويّ بالحجارة المحماة

في أخدود في حفرةٍ من الأرض، ويسميه الناسُ اليوم «اللحم المَنْدِي» والآية تشير إلى عظيم كرم إبراهيم الخليل، فقد كان أبَ الأيتام، كما كان موئل الضيفان، ومنه اقتبس العرب هذه الخصلة الحميدة «خصلة الكرم» حتى أصبح ذلك رمزاً لهم، به يُعرفون ويُشهرون فيقال: الكرمُ في العرب، وحتى قال قائلهم:

إِذَا مَا صَنَعْتِ الزَّادَ فَالْتَمِسي لَهُ   أَكِيلاً، فَإِنِّي لَسْتُ آكِلُهُ وَحْدِي

ومعنى الآية الكريمة: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ أي ما مكث طويلاً، ولا تأخر مجيئه، حتى جاءهم بعجلٍ مشويٍّ، قدَّمه بين أيديهم، ليأكلوا منه.

فزعُ إبراهيمَ من الضيوف

وقد كانت المفاجأة عجيبة، حيث لم تمتدَّ يدُ أحدٍ إلى هذا الطعام الشهيِّ اللذيذ، فما الأمر، وما الخبر؟ إن من عادة الكريم أن يُقدِّم القِرىٰ، ومن عادة الضيف أن يُلبي الدعوة، فيأكلَ من طعامه تطييباً لخاطره، وتأنيساً له، لأنَّ ما قدَّمه ليس إلَّا تكريماً لضيفه، ولا يأبى الكرامة إلَّا لئيمٌ، فكيف لم تمتد إلى هذا الطعام الشهيِّ أيدي هؤلاء الضيوف؟ وهنا دَاخَله الفزعُ منهم، وخشيَ أن يكونوا قد جاءوا لقصدِ الشرِّ والسُّوء به، ولم يَدُر بخُلْده أنهم ملائكة، لا يأكلون ولا يشربون: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ، وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أي فلما رآهم لا يمدُّون أيديهم إلى الطعام، ولا يأكلون منه، أنكرهم واستنكر فعلهم ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أي أحسَّ منهم الخوف والفزع.

قال قتادة: «كان العرب إذا نزل بهم ضيف، فلم يَطْعَمْ من طعامهم، توقَّعوا منه المكروه والشر، وظنوا أنه لم يجيء بخير» ولهذا

السبب فزع منهم إبراهيم عليه السلام.

ولما رأت الملائكة ما أصاب إبراهيم من الفزع والاضطراب، سارعوا إلى تهدئة رَوْعهِ، وإخباره عن الحقيقة التي جاءوا من أجلها، ألا وهي بشارته بمولود سعيد، يُولد له من امرأته «سارة» العقيم، وإهلاك الطغاة المفسدين من قوم لوط ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوْطٍ ﴾ أي لا تخف منَّا، فإنَّا ملائكةُ ربك، لا نأكلُ ولا نشرب، وقد أرسلنا اللهُ لإهلاك قوم لوط.

الآداب الإسلامية في قِرَىٰ الضيف

والآية الكريمة تشير إلى أن من واجب المضِيف، أن يتعهد ضيوفه، ويتبسّط معهم في الحديث، وأن يُقدِّم لهم ما يحتاج إليه الضيف من الطعام، مع البشاشة والابتسام، وألا يتغافل عنهم، بل ينظر إلى ضيفه هل يأكل أم لا؟ ولكن لا ينبغي أن يُحدَّ النظر إليه، ويراقبه في كل لقمةٍ يتناولها، فإن ذلك مخلٌّ بالمروءة وكرم الضيافة، فقد حكي أن أعرابياً تناول الطعام على مائدة بعض البخلاء، فرأى ذلك الثريُّ البخيلُ في لقمةِ الأعرابِّي شَعَرة، فقال له: أزلِ الشَّعرةَ عن لقمتِكَ، فقال له: أتنظر إليَّ نظر من يرى الشعرة في لقمتي، واللّهِ لا أكلتُ معك أبداً، ثم خرج من عنده وهو يقول:

وَلَلْمَوْتُ خَيْـرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ يُلاَحِظُ أَطْرَافَ الأَكِيلِ عَلَى عَمْدِ

بشارة الملائكة لزوجة إبراهيم

ثم تتابعت الآيات تذكر بشارة «إبراهيم» وزوجته «سارة» بغلام حليم، وما كان من أمر «سارة» حين سمعت بتلك البشارة: ﴿ وَامْرَأَتُهُ

قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ، فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبُ ﴾ وإنما ضحكت سارة لأنها سمعت أمراً عجيباً خارقاً للعادة، وهو ولادة مولود من امرأة عقيم، ويأتي من هذا الولد مولود هو «يعقوب» ابناً لمولودها، فتكون أماً وجدّة.

وقيل: إنما ضحكت فرحاً وسروراً بإهلاك أهل الخبائث من قوم لوط، لأنهم تجرءوا على انتهاك محارم الله.. ولما سمعت بالبشارة، وأيقنت بأن الأمر حاصلٌ لا محالة: ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ، وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أي قالت سارة متعجِّبة مستغربة: يا لهفي ويا عجبي، أيأتيني ولد وأنا امرأة مسنَّةٌ عقيم، وهذا زوجي شيخ كبير هَرِم، فكيف يأتينا الولد؟ إن هذا الأمر لشيء غريب، لم تجر به العادة، قال مجاهد: «كانت يومئذٍ ابنة تسع وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مائةٍ وعشرين سنة» ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ؟ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ أي ليس هناك ما يدعو إلى العجب، فإن الله إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً، وبعلك شيخاً كبيراً، فإن الله على ما يشاء قدير، وقد أراد أن يكرمكم يا آل بيت إبراهيم بهذه النعمة الجليلة، لأنه محمود في ذاته وصفاته، مستحق للحمد والتمجيد.

مجادلة إبراهيم مع الملائكة

لقد تركنا إبراهيم عليه السلام مع ضيوفه الكرام، وهو يناقشهم ويجادلهم، بعد أن عرف أنهم ملائكة الرحمن جاءوا لإهلاك قوم لوط، وقد كان بين «إبراهيم» و «لوط» عليهما السلام نسبٌ وقرابة، فإن إبراهيم ابن تارح بن ناحور، ينتهي نسبه إلى «سام بن نوح»، و«تارح» هو اسم

«آزر»، و«لوط» هو ابن هاران بن تارح، فيكون إبراهيم عليه السلام هو عمَّه الشقيق، ولوط هو ابن أخيه، ولهذا لما أخبرته الملائكة بهلاك قوم لوط، خشي إبراهيم أن يكون «لوط» ضمن الهالكين، إن نزل بهم عذاب الاستئصال، الذي حكم الله به على أولئك المجرمين، ولذلك أخذ يجادلهم ويناقشهم بالحجج، لا دفعاً لعذاب الله، ولكنْ استرشاداً واستبصاراً، وإلى ذلك تشير الآيات البينات في تتمة قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ، وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ، يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ، أَوَّاهٌ، مُنِيبٌ. يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا، إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾.

مجادلته عليه السلام بدافع الشفقة

أما مجادلته عليه السلام فلم تكن بطريق المعارضة والخصام، وإنما كانت بدافع الشفقة والرحمة على المؤمنين، أن يهلكوا مع الهالكين، وبخاصةٍ ابن أخيه «لوطاً» عليه السلام، قال المفسرون: لما قالت له الملائكة: ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ فقال لهم: أرأيتم لو كان فيها خمسون من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا، حتى بلغ العشرة، قالوا: لا، قال: فإن كان فيها رجل واحدٌ مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فعند ذلك قال لهم: ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطاً، قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ، كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أي من الهالكين الباقين في العذاب الأليم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ أي ذهب عنه الخوف الذي لحقه، حين أنكر أضيافَه، واطمأن قلبه حين علم أنهم

ملائكة من السماء، جاءوا إليه بأمر الله: ﴿ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ ﴾ أي البشارة بإسحق ثم بيعقوب ولد إسحق ﴿ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوْطٍ ﴾ أي أخذ يجادل ملائكتنا في شأن إهلاك قوم لوط، الذين نفذ فيهم القضاء السابق، بقلب دورهم، واستئصال جمعهم ودمارهم الدمار الشامل.

صفات إبراهيم العظيمة

وقد وصف الله تقدست أسماؤه إبراهيم بصفات ثلاث، تدل على كمال شفقته، ورحمته، وعبوديته للَّهِ رب العالمين فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ، أَوَّاهٌ، مُنِيبٌ ﴾.

أما الصفة الأولى: فهي الحلم، والحليم الذي لا يتعجل في الأمور، بل يتأنى ويترفَّق، وهذا دليل كمال العقل.

وأما الصفة الثانية: فهي التأوه، ومعناه كثرة الحزن والتأسف على الناس لرقة قلبه، وهو دليل الشفقة على العباد.

وأما الصفة الثالثة: فهي الإنابة، ومعناها الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة وكثرة الاستغفار، وهذه دليل على صدق العبودية.

وهذه الصفات الحميدة، إنما ذكرها تعالى في موطن المديح والثناء، على أبي الأنبياء، فقد كان رقيق القلب، صافي النفس، عظيم الخوف من عقاب الله، يحرص على إيمان الناس، ويخشى عليهم من الهلاك والدمار، وهذه أخلاق الأنبياء والمرسلين، لأنهم إنما بعثوا للرحمة، وإنقاذ البشرية من مهاوي الغي والضلال.

المجرم لا يستحق الرحمة والإكرام

وبعد هذا الوصف الدقيق، والتصوير الشامل، لنفسية إبراهيم الخليل، الذي ينبىء عن الفضائل والكمالات، التي أودعها الله في قلب

خليله وحبيبه إبراهيم عليه السلام، جاءت الآيات لتنبِّهه إلى أن طلب الرحمة للمجرم الأثيم، ليس مما ينبغي أن يصدر عن نبي كريم كإبراهيم، ولهذا أمره الله تعالى على لسان الملائكة، بالكفِّ عن المجادلة والمحاورة بشأن أولئك الأشقياء المفسدين ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ والمعنى: قالت الملائكة يا إبراهيم: دعْ عنك الجدال في أمر قوم لوط، فقد نفذ فيهم القضاء، وحَقَّت عليهم الكلمة بالهلاك، وحلول بأس الله الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين.

القصة الخامسة قصة لوطٍ عليه السلام

وتمضي السورة الكريمة بعد ذلك، لذكر القصة الخامسة من قصص الأنبياء والمرسلين وهي قصة نبي الله الكريم لوطٍ عليه السلام، لتطالعنا بأخبار عجيبة، وأمور غريبة، عن أحوال أولئك الأشقياء الفجار، الذين ارتكبوا أقبح الفواحش، وأرذل المنكرات، ألا وهي «جريمة اللواطة» التي يتورع عن فعلها الحيوان، وعنهم تتحدث الآيات الكريمة: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعَاً، وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ. وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ، وَمِنْ قَبْلُ كَانُوْا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، قَالَ يَا قَوْمِ: هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ، فَاتَّقُوْا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ؟ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ، قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً، أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾.

قال المفسرون: لما تركت الملائكة إبراهيم عليه السلام وودَّعوه، عرَّجوا في طريقهم على قرية لوط، والرسلُ هنا في قوله تعالى: ﴿ ولمَّا

جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً ﴾ هم الملائكة الذين كانوا أضياف إبراهيم عليه السلام، وذلك أنهم لما خرجوا إلى بلدة لوط ـ وبينها وبين قرية إبراهيم ثمانية أميال ـ وصلوا إليها، فوجدوا ابنته تستقي ماءً في نهر سدوم، فسألوها الدلالة على من يضيفهم، ورأت هيأتهم وجمالهم، فخافت عليهم من قوم لوط، وقالت لهم: مكانكم حتى أدعو لكم أبي، وذهبت إلى أبيها فأخبرته، فخرج إليهم، فقالوا له: نريد أن تضيفنا الليلةَ، فقال لهم: أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا: وما عملهم؟ فقال: أشهدُ بالله لهم شرُّ قوم في الأرض!!.

شهادة نبيِّهم عليهم بالفجور

وقد كان الله عزّ وجلّ قال للملائكة: لا تعذبوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما قال لوط تلك المقالة، قال جبريل لمن معه من الملائكة: هذه واحدة، وتكرر الحديث بينهم وبينه حتى كرَّر لوط الشهادة أربع مرات، على أنهم أفجر أهلِ الأرض، ولم يدْرِ لوطٌ أنهم ملائكة، ثم دخل بهم المدينة، وهو متخوفٌ عليهم من قومه المجرمين، وحينئذٍ ﴿ سِيءَ بِهِمْ ﴾ أي أصابه سوءٌ وضَجَر ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعَاً ﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم، واغتمَّ لذلك، لأنه خاف عليهم خبث قومه، وأن يعجز عن مقاومتهم، لأنهم جاءوه على صورة شَبَابٍ مُردٍ، في غاية الحسن والجمال، ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أي هذا يوم شديدٌ بلاؤه، لأنه توقَّع أن يطمع بهم قومه، فيفحشوا بهم، ولا يستطيع أن يدافع عنهم، وقد وقع ما كان يحذره ويخافه ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُه يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي جاءه قومه الأشرار يُسرعون نحو بيته، يطلبون الفاحشة بالضيوف، كأنهم يُدْفعون إلى ذلك دفعاً، كمن

يُسرع في طلب حاجةٍ تهمُّه فهو مندفع نحوها اندفاعاً ﴿ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي ومن قبل ذلك الحين، كانوا أشقياء فجرة، عادتهم إتيانُ الرجال، وفعلُ الخبائث، ولذلك لم يستحيوا حين جاءوا يهرعون إليه، مجاهرين بطلبهم القبيح.

زوجة لوط تدل على الضيوف

روي أن امرأة لوط الكافرة، لما رأت الأضياف، ورأت جمالهم وهيأتهم الحسنة، خرجت حتى أتت مجلس قومها فقالت: إن لوطاً أضافَ الليلةَ فتيةً، ما رُؤيَ مثلُهم جمالاً، فحينئذٍ جاءوا يهرعون إليه ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾؟ أي قال لهم لوط: هؤلاء نساءُ البلدة أزوِّجُكم بهنَّ، فذلك أشرف لكم وأطهر، فاخشوا عذاب الله ولا تفضحوني وتهينوني في ضيوفي، أليس فيكم رجل عاقل يمنع عن القبيح؟ وإنما قال: ﴿ بناتي ﴾ وقَصَد به نساءَ البلدة، لأن كل نبيٍّ كالوالد لأمته، في الشفقة والحنان، فماذا كان جواب أولئك الأشقياء الفجار؟ ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ أي لقد علمت هدفنا وغرضنا الأصيل، الذي جئنا من أجله، وهو الاستمتاع بالذكور وليس لنا حاجة ولا أرب في النساء، فلا تعرض علينا البنات، وقد صرَّحوا له بغرضهم الخبيث وهو الفجور بالذكور أخزاهم الله، وهذا هو مرادهم بقولهم: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾!؟.

اللواطة من خصائص قوم لوط

تركنا «لوطاً» عليه السلام في جدل عنيف مع الأشرار الفجار من قومه، الذين اقتحموا داره يريدون أن يفجروا بضيوفه، وهو عليه السلام

يتلطف بهم، ويخاطب فيهم مروءتهم وشهامتهم، ولكن دون فائدة ولا جدوى، لأن قلوبهم خوت من الإيمان، وخوف الرحمن.. ولقد عرفنا ـ فيما تقدم ـ أن قومه كانوا من أفجر الناس وأكفرهم، وأخبثهم طويَّة، وأقبحهم سيرة، يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، علناً وجهاراً، دون حياء ولا خجل، وقد ارتكبوا جريمة هي من أقبح وأشنع الجرائم، لم يسبقهم إليها أحدٌ من أهل الأرض، ألا وهي «اللواطة» وهي إتيان الذكور في الأدبار، وترك النساء لعدم رغبتهم فيهن، كما حدثنا عنهم القرآن الكريم، في قوله تقدست أسماؤه: ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ، مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ. أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ، وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ، وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ، فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[1].

وفي موطن آخر يقول القرآن الكريم عن أولئك السفهاء: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العَالَمِينَ؟ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾[2]!!.

لوط يسدي النصح لقومه

وبعد أن أسدى لهم لوط عليه السلام النصح، لم يَلْقَ منهم إلا آذاناً صُمّاً، وقلوباً غلفاً، وهو لا يزال يلاطفهم بالكلام الجميل، ويتودَّد إليهم طالباً منهم الكفَّ عن التعرض لأولئك الضيوف، وهم يُمعنون في الغواية والضلالة، ولا يستجيبون لمنطق العقل والمروءة، عند ذلك توعَّدهم لوط عليه السلام: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً، أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ

(١) سورة العنكبوت آية رقم /٢٨ ـ ٢٩/.

(٢) سورة الشعراء آية رقم /١٦٥ ـ ١٦٦/.

شَدِيدٍ ﴾؟ وجواب «لو» محذوف تقديره: لفعلت بكم ما فعلتُ، ونكَّلْتُ بكم تنكيلاً، يَرْدعُ المجرم عن إجرامه.

قال علماء البيان: حذف الجواب هنا أبلغ، لأنه يوهم بعظيم الجزاء، وغليظ النكال، ويَدَعُ النفس تذهب إلى أبعد صور العقوبة كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾[(١)] حُذِف منه الجواب، للتهويل والتفظيع، ومرادُ لوط عليه السلام بقوله: ﴿ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ الالتجاء إلى العشيرة والأنصار، ليكون له بهم قوةٌ ومَنَعةٌ، والمعنى: أو أَلتجىءُ وأنضوي إلى عشيرتي، التي تحميني وتساعدني على الانتقام منكم لفعلتُ، وفي صحيح البخاري: «يرحم اللَّهُ لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد»[(٢)] يريد به جانب الله عزّ وجلّ، فهو نعم الملجأ، ونعم النصير، وفي رواية الترمذي بزيادة «فما بعث اللَّهُ من بعده نبياً إلاَّ في ثَرْوةٍ من قومه» أي في قوةٍ وعِزَّة ومَنَعة، من العشيرة والأنصار.

الملائكة تبشّر لوطاً بالنجاة

ولما رأت الملائكة ما أصاب لوطاً من الحزن والأسى، خوفاً على ضيوفه، من أذى قومه الأشرار الفجار، أخبروه عن الحقيقة، وهي أنهم ليسوا بشراً، وإنما هم ملائكة جاءوا لإهلاك القوم الظالمين، فلا خوف عليهم من أولئك السفهاء، وأمروه أن يخرج من أرض قومه ليلاً، قبل

---

(١) سورة الأنعام آية رقم /٢٧/.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ٦/٢٩٣ باب قوله تعالى: ﴿ ونبِّئْهم عن ضيفِ إبراهيم ﴾ وأخرجه مسلم في الإيمان باب زيادة طمأنينة القلب رقم /١٥١/ والترمذي في التفسير رقم /٣١١٥/ وانظر جامع الأصول ٢/٥٤.

طلوع الفجر، ويصحب معه أهله وأتباعه المؤمنين، إلا امرأته الكافرة، فإنها ستكون مع الهالكين، ولن ينجيها صلتها بزوجها لوط عليه السلام، لأن العلاقة قد انقطعت بسبب الكفر، وأخبروه بأن هلاكهم سيكون في وقت قريب، وموعده الصباح من تلك الليلة التي أُمر أن يخرج منها من بين القوم الظالمين، وفي ذلك يقول الله تقدست أسماؤه: ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ، لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ، فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾؟ أي قالت الملائكة لنبيّ الله لوط عليه السلام: إنا رسلُ ربك ولسنا بشراً، فلا تخف علينا من شرِّهم، وقد أرسلنا الله لإهلاكهم، ولن يصلوا إليك بضررٍ ولا مكروه ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ أي اخرج بهم بطائفةٍ من الليل قبل طلوع الصباح، قال الطبري: اي اخرج من بين أظهرهم أنت وأهلُك ببقيَّةٍ من الليل ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ أي لا ينظر أحد منكم وراءه، إلا امرأتك فإنها ستهلك كما هلكوا.. نهوهم عن الالتفات إلى الخلف لئلا تتفطَّر أكبادهم على قريتهم حين ستنقلب بمن فيها، ويصبح عاليها سافلها.

قال القرطبي: «إن امرأة لوط لمَّا سمعت هدَّة العذاب التفتت وقالت: واقوماه!! فأدركها حجرٌ فقتلها»[1].

هلاك قوم لوط بانقلاب مدنهم

وقد استعجل لوط عليه السلام عذابهم، لغيظه على قومه لما علم أنهم ملائكة، فطلب التعجيل بهلاكهم، فقالوا له: ﴿ إِنَّ مَـوْعِدَهُـمُ

(١) جامع الأحكام للقرطبي ٩/ ٨٠.

الصُّبْحُ ﴾ أي موعد عذابهم وهلاكهم وقت الصبح ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾؟.

قال المفسرون: إن قوم لوط لما سمعوا بالضيوف هرعوا نحوه، فأغلق بابه وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب، فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما بلوطٍ من الكرب والحزن، قالوا يا لوط: افتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فضربهم جبريل بطرفٍ من جناحه، فأعمى أبصارهم، وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النَّجاءَ، النَّجاءَ، كما قال تعالى في سورة القمر: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ، فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ثم إن لوطاً عليه السلام سرى بمن معه قبل الفجر، وما أن أشرقت الشمس حتى كانت القرى بمن فيها خراباً يباباً، فقد أمر الله جبريل أن يقتلع مدائنهم ـ وكانت خمس مدائن ـ من تخوم الأرض، وأن يرفعها إلى السماء ثم يقلبها بهم بمن فيها، ففعل جبريل ذلك، ثم أرسلها مقلوبة وأتبعهم الله بالحجارة، التي نزلت عليهم كالمطر، فذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾.

والمعنى: لما جاء موعد هلاكهم وعذابهم، قلبنا بهم القرى فجعلنا العالي سافلاً: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴾ أي أرسلنا على أهل تلك المدن والقرى، حجارة صلبةً شديدة من نارٍ وطين، تشبه المطر الزاخر في كثرتها وشدتها، ومعنى «مَنْضُودٍ» أي متتابعة بعضُها إِثْرَ بعض ﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أي معلَّمة بعلامة، قد كتب على كل حجر اسمُ من يُرمى به، وفي قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي مرسلة من عند الله وليست من حجارة الأرض ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ

﴿مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي وليست هذه القُرى المهلكة ببعيدة عن «كفار قريش» الذين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم سيد المرسلين، بل هي قريبة يمرون عليها في أسفارهم، أفلا يعتبرون؟!

قال الحافظ ابن كثير: «وقد جعل الله مكان تلك البلدة، بحرة منتنة، لا يُنتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها، لردائتها ودناءتها، فصارت عبرة ومُثلة، وعظةً وآية، على قدرة الله وعظمته، وعزته في انتقامه ممن خالف أمره، وكذَّب رسله، واتبع هواه، وعصى مولاه»[1].

وهكذا يسدل الستار على قوم لوط، بهلاكهم ودمارهم، بأفظع أنواع العقوبة والانتقام، بالصيحة المدمرة، وقلب مدنهم وقراهم، وبالحجارة التي أرسلها الله عليهم من سجيل منضود.

القصة السادسة قصة شعيب عليه السلام

وبعد أن انتهى الحديث عن قصة قوم لوط، وما جرى لهم من فظيع العقوبة، وبالغ الانتقام، جاء بعده الحديث عن أهل «مدين» وهم قوم نبيِّ الله «شعيب» عليه السلام، وهذه هي القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة الكريمة، وكلُّ هذه القصص إنما سيقت للعظة والاعتبار، ولتسلية النبي ﷺ عما يلقاه ويقاسيه من الكفرة الفجار. لقد كان أهل مدين قوماً عرباً، يسكنون قريباً من بلاد الحجاز، مما يلي جهة الشام قريباً من معانٍ، وكانت بلادهم تعرف باسم «مَدْينَ» وقد أرسل الله إليهم نبياً كريماً، هو سيدنا «شعيبٌ» عليه السلام، من

---

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ١/١٨٢.

أشرفهم نسباً، ومن أطيبهم ديناً وصلاحاً، فدعاهم إلى توحيد الله، وذكَّرهم بعذابه، ونهاهم عن تطفيف المكيال والميزان، وأمرهم بالإصلاح وعدم الإفساد، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، وَلَا تَنْقُصُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ، إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ، وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ. وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا المِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ. بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾.

جريمة أهل مدين تطفيف المكيال والميزان

وقد كانت معصيةُ هؤلاء الأمة الشنيعة، أنهم كانوا قد تواطئوا على ظلم الناس والاعتداء عليهم، فقد كانوا يأخذون ممن يَرِدُ عليهم من غيرهم الحقَّ وافياً كافياً، ويُعطوهُ ناقصاً في وزنهم وكيلهم، عدا عن كفرهم وضلالهم في عبادة الأوثان والأصنام، ودعاء شعيب لهم إلى عبادة الله جلَّ وعلا يقتضي أنهم كانوا يعبدون الأوثان، ولهذا قال لهم: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ وهذا الأمر بيِّنٌ أيضاً من قولهم فيما بعدُ: ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾؟ فكفرهم هو الذي استوجبوا به العذاب، لا معاصيهم فقط، فإن الله لم يعذب أمةً قطُّ إلا بالكفر، فإذا انضافت إلى ذلك معصيةٌ من المعاصي كانت تابعةً، وأعني بالعذاب عذابَ الاستئصال العام، الذي يكون به الهلاكُ والدمارُ.

شعيب يبالغ في تذكيرهم وإرشادهم

ولمَّا كانت تلك الخصلة القبيحة متأصلةً فيهم، كأنها امتزجت بدمائهم وعروقهم، نرى أن شعيباً قد بالغ في التأكيد، فهو يقول لهم

أولاً: ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا المِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ ويقول لهم ثانياً: ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا المِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ ويقول لهم ثالثاً: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ وكلُّ ذلك التكرار لإفادة التأكيد، وشدة العناية والاهتمام بالأمر، على طريقة العرب إذا أرادوا أمراً من الأمور، أكَّدوا اللفظ بضروب من المؤكدات، مع التكرار له بأساليب متنوعة، كما تقول لإنسان: «صِلْ قرابتَك، ولا تقطَعْهم، وتَفقَّدْ أحوالهم، وأحسن إليهم بكل ما تستطيع».

ومعنى قول شعيب لهم: ﴿ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أي ما يُبقيه اللَّهُ لكم من الربح، بعد وفاء الكيل والميزان، خيرٌ لكم من أخذ أموال الناس بالظلم والعدوان، وهذا المعنى مرويٌّ عن ابن عباس، وإليه ذهب ابن جرير الطبري، وهو الأظهر، ورُوي عن مجاهد أن المعنى: طاعةُ الله خير لكم إن كنتم مصدِّقين بوعد الله: ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أي لستُ عليكم برقيب أحفظ أعمالكم، إنما أنا ناصح مبلغ، والله هو الذي يجازيكم بالأعمال.

جواب السفهاء لنبيهم عليه السلام

وبعد هذه النصائح التي أسداها لهم، بدافع الشفقة والحنان، ماذا كان جواب أولئك السفهاء؟: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آباؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ؟ إِنَّكَ لَأَنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾. يا لَلْعجب العُجاب!! يدعوهم نبيُّهم الكريم إلى ما فيه سعادتهم وفلاحهم، فيجيبونه بجواب سفيه، بأسلوب يدل على السخرية والاستهزاء، متهكِّمينَ به وبدينه وصلاته: ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا

يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾؟ أي أدينك يأمرك بهذا؟ وأطلقوا على الدين الصلاة، لأنها أظهر شعائر الدين، وروي أن شعيباً كان كثير العبادة والصلاة، وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا، فقصدوا بقولهم: ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾ السخريةَ والهزء، وزادوا في الغيِّ والضلال حتى قالوا له: ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الحَلِيمُ الرشيد ﴾ أي أنت العاقلُ، المتَّصف بالحلم والرشد؟

قال الطبري: «يستهزئون به، فإنهم أعداء الله إنما قالوا ذلك استهزاءً به، سفَّهوه وجهَّلوه بهذا الكلام»(١). عجبٌ واللَّهِ أن يهزأ الجاهل من العالم، وأن يسخر المجنون من العاقل، وأن يصبح السفيه راشداً، ذا حجة وبيان، يريد أن يظهر بشخصيته، على من يدعوه إلى الفضيلة والطهر والعفاف؟

متى كانت الاستقامة تعدُّ نقصاً؟ ومتى كانت الفضيلة تعتبر عيباً يُلام عليه الإنسان؟ ولكنه منطق الكبرياء والطغيان، كما قال قوم لوط لنبيِّهم وأتباعه المؤمنين: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾!!

شعيب يتلطف مع قومه

ومع هذا السَّفهِ والهَذَيان، فقد تلطَّف معهم شعيب عليه السلام، وخاطبهم مخاطبة الشفيق الرفيق، الذي لا يألوا في تقديم النصح والإرشاد، شفقةً ورحمةً على الخصم المعاند ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً. . ﴾؟ أي أخبروني إن كنت على بصيرةٍ في أمر الدين، وفيما أدعوكم إليه، وأعطاني الله النبوَّةَ والمال الحلال، والجواب محذوف دلَّ عليه السياق وتقديره: إذا كنت

(١) جامع البيان للطبري ١٠٣/١٢ وهو مرويٌّ عن ابن زيد.

نبياً على الحقيقة، أيصحُّ لي أن أترك تبليغ الرسالة، وألَّا أقدِّم لكم النصح بترك عبادة الأوثان، والكفِّ عن العصيان؟ ثم زاد في الإيضاح والبيان فقال: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ، إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾. ومراده لا يمكن أن أنهاكم عن شيء وأفعله، لأني لا أريد إلَّا صلاحكم وفلاحكم، وأمري بيد الله جلّ وعلا.

تحذيرهم من الاستمرار على الكفر

ثم حذَّرهم من مغبَّة الاستمرار على الكفر والعصيان، ومخالفة أمره ﷺ خشية أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة من العذاب والنكال فقال: ﴿ وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ، أَوْ قَوْمَ هُودٍ، أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ. وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوْا إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي، على ترك الإيمان بالرحمن، فيصيبكم ما أصاب من سبقكم من الطغاة المفسدين، ولنستمع إلى جواب أولئك السفهاء العجيب الغريب ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ، وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً، وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحِكَم والمواعظ، وأنواع العلوم والمعارف، من قبيل التخليط والهذيان، الذي لا يُفهم معناه، ولا يُدرك فحواه، مع وضوحه وشدة بيانه، وكلُّ ذلك من مظاهر الشقاوة والطغيان الذي كانوا عليه، ثم زادوا في الإجرام فقالوا له: ﴿ وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أي لولا عشيرتك وجماعتك لقتلناك رجماً بالأحجار، فإنك لست علينا بمكرَّم ولا محترم.

تعاسة وشقاوة

ما أتعسَ هؤلاء القوم وما أشقاهم، نبيُّهم يتلطَّفُ معهم فيخاطبهم بقوله: «يا قوم» ويكرِّر هذا النداء «يا قوم» الذي ينمُّ عن المحبة والشفقة، وهم يقابلونه بهذه السفاهة والرعونة، أنه لولا جماعته وأتباعه، لرموه بالحجارة حتى يموت أشنع ميتة.

ومع هذا لم يستفزه كلامهم القبيح للدعاء عليهم، أو لوصفهم بأشنع الألقاب التي يستحقونها، بل بقي في تلطفه وهدوئه، لأنه كالطبيب المداوي يتحمل جهل المريض وبذاءته ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ، وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً، إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ. وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ، سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ، وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ، وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾.

النتيجة: الهلاك والدمار

ويُسدل الستار عن نتيجة ما حلَّ بهؤلاء المكذبين الأشرار، فإذا هم هَلْكىٰ صَرْعىٰ، هامدين لا حَرَاك بهم، كأنهم لم يقيموا في ديارهم قبل ذلك آمنين ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ، كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ أي كأنهم لم يعيشوا ويقيموا في ديارهم، في نعمةٍ وأمن واستقرار ﴿ أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾.

قال الحافظ ابن كثير: «ذكر تعالى ههنا أنه أتتهم صيحة، وفي الأعراف ذكر الرجفة، وفي الشعراء ذكر عذاب يوم الظُّلَّة، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النِّقَمُ كلُّها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه»(١).

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٣١.

وقد ختم الله قصتهم بالدعاء عليهم بالهلاك والدمار ﴿ أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ أي أبعد الله هؤلاء الأشقياء المجرمين من رحمته، كما بَعدت من قبلهم قبيلة ثمود، بتكذيبهم رسل الله!!.

القصة السابعة قصة موسى عليه السلام

ثم يأتي الحديث عن قصة نبي الله موسى عليه السلام، مع فرعون المتمرد الجبار، الذي نازع الله في ملكه، وشاركه في ربوبيته، فزعم أنه ربٌّ ينبغي أن يعبد من دون الله، وقال مقالته الفاجرة: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ وقصته مع فرعون هي القصة السابعة، التي ذكرها الله في هذه السورة الكريمة «سورة هود» عليه السلام.

وقد أورد الله قصته هنا مجملة، لأنه قد جاء تفصيلها ـ على أتم وجوه البيان ـ في سورة الأعراف، وفي سورة يونس، ولما كان الغرض من ذكر القصص «العظةُ والاعتبار» والإخبار عمّا حلَّ بالأمم الطاغين، من ضروب العذاب والدمار، ردعاً للظالمين، وتسلية لقلب النبي الأمين عمَّا قاساه من الكفرة المشركين، جاء الحديث هنا عن قصة فرعون الطاغية، موجزاً مختصراً، تحقيقاً للهدف الأول ألا وهو ردع المجرمين، وفي قصة موسى مع فرعون يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ، فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ، وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ. يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ. وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾.

تأييد الله له بالمعجزات الواضحة

ولقد أيَّد اللهُ نبيَّه الكريم «موسى بن عمران» بالحجج الساطعة، والبراهين القاطعة، التي تدلُّ على صدق نبوته، وكانت معجزاته الحسِّية

ظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار، وهي تسعٌ كما نصَّ القرآن الكريم في سورة الإسراء: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُوراً ﴾[1].

ومن أوضح هذه المعجزات وأبينها «اليدُ» و«العصا»، كان إذا أدخل يده في فتحة ثوبه ثم أخرجها، تشع بالنور والضياء، كأنَّها شمس ساطعة من غير سوء أو أذى، وكان إذا ألقى العصا انقلبت إلى حية تسعى، ثم إذا أمسكها عادت عصا.. ومع هذه الآيات الباهرة، والبراهين الساطعة، تمادى فرعون في كفره وضلاله، وأصرَّ على طغيانه وعناده، وأبى أن يستجيب لدعوة الله، ودعا الناس إلى الكفر والفجور، فأطاعه الكثيرون ولهذا قال تعالى: ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ، وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أي ليس عملُ فرعون وفعلُه بحميدٍ ولا رشيد، لأنه ليس فيه هدىً ورشاد، وإنما هو جهلٌ وسفهٌ وضلال، وكما كان فرعون في الدنيا قُدوةً لهم في الشرِّ والفساد، فكذلك هو يوم القيامة رئيس لهم وإمام، يتقدَّمهم إلى نار جهنم، وهم على أثره في الورود والدخول: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾.

فرعون مَثَلٌ لكل طاغية

وفرعون مَثَلٌ لكل طاغيةٍ جبار، يدعو إلى الفجور والإجرام، فكلُّ داعٍ في الدنيا إلى ضلالة، يكون يوم القيامة قائداً لأتباعه، ليسلك بهم إلى دركات الجحيم، كما قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ. وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً، وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُمْ مِنَ المَقْبُوحِينَ ﴾[2].

(١) سورة الإسراء آية رقم ١٠١.

(٢) سورة القصص آية رقم ٤١ ـ ٤٢.

وقد أحسن من قال:

وَمَنْ يَكُنِ الغُـرَابُ لَـهُ دَلِيـلاً   يَمُـرُّ بِهِ على جِيَفِ الكِـلَابِ

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَبِئْسَ الوِرْدُ المَـوْرُودُ ﴾ أي بئس هذا المدخل السيء، يَردونه ويدخلونه يوم القيامة، وهو نار الجحيم، شبَّه تعالى نار جهنم بماءٍ يرده العطاش، وشبَّه فرعون في تقدمه على قومه، بالوارد الذي يتقدم رفاقه لطلب الماء، لتسكين العطش وتبريد الأكباد، فيوردهم إلى المهلكة، النار اللاهبةِ، المحرقة للأجساد، ففي الآية استعارة مكنيّة ثم زاد تعالى في البيان والإيضاح، وذكر ما حلَّ بأتباع فرعون الأشقياء فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً، وَيَوْمَ القِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ المَرْفُودُ ﴾ أي أُلحقوا فوق العذاب الذي عَجَّله لهم لعنة في الدنيا، وأُردفوا بلعنةٍ أخرى يوم القيامة، وبئس العونُ والعطاء المعطى لهم، وهو اللعنةُ في الدارين.

قـال قتادة: «تـرادفت عليهم لعنتان: لعنـةٌ من الله وملائكتـه والمؤمنين، ولعنة في الآخرة»[1]. وأصلُ الرِّفْدِ في كلام العرب: العونُ والعطاءُ، وسُمِّي العذابُ هنا رفداً على سبيل السخرية والتهكم، لأنه هو الذي حصل لهم بدل الرحمة والنعيم، وكلُّ شيءٍ جعلتَه عوناً لشيء فقد رفدتَه به، فكان عطاؤهم ومنحتُهم، اللعنة في الدارين، وهذا كما تقول يا فلان: لم يكن عطاؤك وإفضالك إلَّا الضربُ والإهانة، كما قال تعالىٰ في سورة القصص: ﴿ وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ سأل نافعُ بن الأزرقِ ابنَ عباس رضي الله عنهما عن قوله تعالى: ﴿ بِئْسَ الرِّفْدُ المَرْفُودُ ﴾ قال: هو اللعنةُ بعد اللعنة[2].

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ١٢/٥٨.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/٥٥.

الحكمة من هذه القصص

ثم تمضي السورة الكريمة لتذكر بعد ذلك، الغاية والحكمة من سَرْدِ هذه القصص والأخبار، على رسول الله ﷺ وعلى الأمم والأجيال، ألا وهي العبرة والاتعاظ بما جرى للسابقين من النكال والدمار، لتكون كشاهدٍ على تعجيل العقوبة للمكذبين، من الطغاة المجرمين، والانتقام العاجل منهم، وبرهاناً على تأييد الله عزّ وجلّ لأنبيائه وأوليائه، وتخويفاً لكفار مكة الذين كذَّبوا سيِّد المرسلين.

وثمَّة ناحيةٌ أخرى ـ عدا العظةِ والاعتبار ـ وهي أن النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، كان يذكر هذه القصص من غير مطالعةِ كتب، لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يتلقَّ العلم على يد أحد، ولا تتلمذ على إنسان، فمن أين جاء بهذه الأخبار، على وجه الدقة والتحقيق؟ لا شك أن في ذكر ذلك أعظم برهان ومعجزة على صدق دعوى النبوة، وأن هذا القرآن تنزيل الحكيم الحميد، ولنستمع إلى الآيات البينات، وهي تقصُّ علينا الغاية من ذكر هذه القصص والأخبار: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ. وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ. وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.

بهذا البيان الساطع يخبرنا الله جلَّ وعلا عن سبب هلاك الأمم، ألا وهو الظلم والطغيان، والاستكبار عن طاعة الرحمن، وقد ذكر تعالى أن آثار هؤلاء المهلكين لم تندرس، فمنها ما هو عامر، قد هلك أهله وبقي بنيانُه، ومنها ما هو خرابٌ قد اندثر بأهله، فلم يبق له أثر،

كالزرع المحصودِ بالمناجل، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ ثم بيَّن تعالى أن هذه هي سنته في الطغاة المتجبرين، يمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.

في القصص بيان صدق الرسول ﷺ

وبعد أن انتهى الحديث عن قصص الأنبياء والمرسلين، وهي سبع قصص متتالية، ذكر تعالى الغرض من سرد هذه القصص، وهي تذكير الناس بالقيامة، والبعث، والحشر والنشر، وإيقافهم على صدق ما جاء به الأنبياء والمرسلون، فقد جعل الله تقدست أسماؤه الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، والأقوام الذين عُذِّبوا في الدنيا إنما عُذِّبوا بسبب تكذيبهم الأنبياء، وإشراكهم بالله، ولكنَّ عذاب الدنيا يسير، فهم ما ذاقوا إلَّا قطرة لا تُذكر، من العذاب الذي ينتظرهم يوم القيامة ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾.

والآيات هنا تتحدث عن أهوال الآخرة وشدائدها، وعن انقسام الناس في ذلك اليوم العصيب إلى فريقين: سعداء، وأشقياء، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ، وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ. وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ. يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾.

والمعنى: أن في هذه القصص والأخبار، لعظةً وعبرة لمن خاف عذاب الله وعقابه في الآخرة: ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ﴾ أي

يجتمع فيه الخلائق للحساب والجزاء، لا يغيب منهم أحد، كما قال سبحانه: ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمَ أَحَدَاً ﴾ ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ أي يشهده أهل السماء والأرض، والأولون والآخرون.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يشهده البرُّ والفاجر، والمؤمن والكافر.

وصف جلَّ وعلا ذلك اليوم العصيب بوصفين:

أحدهما: أنه يوم الحشر الأكبر، الذي يجتمع فيه جميع الخلائق، من لدن آدم عليه السلام، إلى أن يرثَ اللَّهُ الأرض ومن عليها وإليه يُرجعون.

والثاني: أنه يومُ العرضِ على الجليل المتعال، للفصل بين العباد، فهو يومٌ عظيم يجتمع فيه الحاكمُ والمحكومُ، والظالمُ والمظلومُ، وتحضره الملائكة والرسلُ، ويُحْشر فيه الخلائقُ بأسرهم، من الإنسِ، والجِنِّ، والطير، والوحش، والدوابِّ، ويحكم فيه العادل، ملك الملوك الذي لا يظلم مثقال ذرة.

أهوال يوم القيامة

ولما كان يوم القيامة، هو أحد أركان الإيمان الهامة، وهو الذي أقسم الله عزّ وجلّ به لخطره وعظيم شأنه في قوله سبحانه: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثَاً ﴾؟ لذلك نجد في هذه السورة الكريمة إسهاباً في الحديث عنه، يتفق مع جلال الموقف وروعته، ويتَّسم بالهول والفزع في أحداثه، وأوصافه وأنبائه، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أي يوم يأتي ذلك اليوم

الرهيب، فلا يتكلم أحدٌ إلَّا بإذن الله تعالى، لا مَلَكٌ، ولا رسولٌ، ولا بشر، الكلُّ قد خضعوا لجلال الله وعظمته، فلا كلام ولا ملام، ولا اعتذار ولا انتصار، وإنك لتحسّ بالهول يكاد يذهب بالأنفاس، وقد سكتت الأصـوات، ونُكِّست الرءوس، وشخصت الأبصـار ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمَاً ﴾[1] ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسَاً ﴾[2] وهناك ينقسم الناس إلى فريقين كما قال سبحانه ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ هكذا ينقسم أهل المحشر إلى فريقين ﴿ فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ فيا فوز السعداء، ويا خيبة الأشقياء!!

صورٌ مفزعة عن الأشقياء في الآخرة

ثم تمضي السورة الكريمة، وهي تطالعنا بصور مفزعة، من أحوال أولئك التعساء الأشقياء، الذين خسروا دينهم، فخسروا سعـادتهم، وشَقُوا الشقاء الأبدي، الذي جرَّعهم الغُصَص والآلام، وسبَّب لهم الخلود في أطباق الجحيم، مع ما لهم من العذاب الدائم، الذي لا ينقطع، وصوَّر لنا القرآن حالهم ومآلهم، وكأنه مشاهد لنا مَرْئيٌّ رأيَ العين، وهم في الأغلال والسعير، ينهقون كما تنهق الحمير ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوْا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وشَهِيقٌ. خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَواتُ وَالأَرْضُ، إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾.

والزفيرُ: صوتٌ شديد خاصٌّ بالمحزون والمكروب، أو الموجع والمعذّب، ينبعث من القلب كما يفعل الباكي الذي يصيح خلال بكائه.

---

(١) سورة طه آية رقم /١١١/.
(٢) سورة طه آية رقم /١٠٨/.

والشهيقُ صوتٌ مفزع يشبه صوت الحمار.

قال بعض المفسرين: شبَّه صراخهم في جهنم بأصوات الحمير، التي هي مَثَلٌ في النَّكارة والشَّناعة ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ ﴾[1] وذكر الطبري في روايته عن قتادة أنه قال: «صوت الكافر في النار صوتُ الحمار، أوَّله زفير، وآخره شهيق»[2] فكذلك صياح أهل النار، لا يفتأون عن الصياح بأصواتٍ منكرة تصمُّ الآذان، وذلك زيادةٌ في عذابهم وخزيهم، وهوانهم على الله ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

صورٌ مشرقة عن السعداء في الآخرة

أما السعداء الأبرار، فهم في جنان الخلد يتنعمون، مستقرون فيها لا يخرجون منها أبداً، دائمون فيها دوام السموات والأرض، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا، مَا دَامَتِ السَّمَواتُ وَالأَرْضُ، إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ هكذا يخلَّد هؤلاء السعداء في النعيم، كما يُخلَّد أولئك الأشقياء في الجحيم، والمراد من قوله تعالى: ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي عطاءً دائماً باقياً، غير مقطوع عنهم، بل هو ممتد إلى غير نهاية.

وفي الحديث الصحيح: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنَّةَ، ناداهم الله عزّ وجلّ يا عبادي هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: أعطيكم أفضل من ذلك، فيقول: وما

(١) سورة لقمان آية رقم /١٩/.

(٢) جامع البيان للطبري ١٢/١١٧.

أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[1].

استفسار حول الآيات الكريمة

وهنا سؤالان هامان لا بدَّ من الإجابة عنهما بشيء من الإيجاز.

الأول: كيف قال تعالى في هذه السورة ﴿ لَا تَكَلَّم نَفْسٌ إِلَّا بإِذنه ﴾ وفي المرسلات ﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ وقال في مواضعَ أخرى ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ وقال سبحانه: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ الذي يدل على الكلام، والسؤال، والاعتراف؟!.

والجواب: أن يوم القيامة يوم طويل، وفيه مواقف متعددة، ففي بعضها لا يتكلمون ولا ينطقون، وفي بعضها يُؤذن لهم فيتكلمون، وفي بعضها يجادلون ويتخاصمون، وفي بعضها يُختم على أفواههم فيخرسون، وتنطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، وصدق الله العظيم ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[3].

الثاني: كيف قال تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ مع أن السموات والأرض يفنيان، وذلك ينافي الخلود الدائم؟.

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي وهو من الأحاديث القدسية.

(٢) سورة فصلت آية رقم /١٨/.

(٣) سورة يس آية رقم /٦٥/.

والجواب: ما قاله شيخ المفسرين الإمام الطبري رحمه الله: «إنَّ العرب إذا أرادت أن تصف شيئاً بالدوام أبداً، قالت: هذا دائمٌ دوامَ السموات والأرض، بمعنى أنه دائم أبداً، فخاطبهم جلَّ ثناؤه بما يتعارفون به بينهم»[1] فالمراد إذاً الإخبار بأنهم ماكثون في جهنم أبداً على الدوام ما دامت السموات والأرض، نظير قولهم: لا أكلِّمه ما اختلف الليل والنهار، وما طَمَا البحرُ، وما أقامَ الجبلُ، وكلُّ ذلك تمثيلٌ للدوام والاستمرار بدون انقطاع.

أو نقول: المراد بقوله تعالى: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ سموات الآخرة وأرضها، وهي دائمة مخلوقة للأبد، ويؤيده قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾ فزال بذلك الإشكال، والله أعلم.

أسوةُ كفار مكة بالطغاة السابقين

ثم تمضي السورة الكريمة، وهي تقصُّ على الرسول ﷺ أنباء من سبق من الأمم الطاغية، الذين كذبوا رسلهم وأنبياءهم، فأهلكهم الله ودمَّرهم، وما حدث لبني إسرائيل من الاختلاف في كتابهم «التوراة» الذي أنزله الله على «موسى بن عمران» ليكون نوراً لهم وهداية، ولكنهم تفرَّقوا، وتخاصموا، وتنازعوا، وضلُّوا كما ضلَّ رؤساء قريش، الذين بعث الله إليهم خاتم المرسلين، فكذَّبوه وعاندوه، ولم يقبلوا هداية الله التي جاءهم بها سيد الخلق ﷺ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وينقذهم من براثن الجهالة والضلالة، وعبادة الأصنام، إلى نور التوحيد والإيمان، ولكنَّهم لشقاوتهم أبَوْا إلاَّ الجحود والعناد، وتقليد الآباء والأجداد، من

---

(١) جامع البيان عن أي القرآن للطبري ١٢/١١٧.

غير حجة ولا برهان، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ، مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾.

حال المشركين أظهر من أن يُمترى فيه

والآية في ظاهرها خطابٌ للنبي ﷺ وفي حقيقتها خطاب للأمة، وكأنها تقول: لا تشكُّوا يا معشر المسلمين، في ضلال هؤلاء المشركين، وفساد دينهم، فهم إنما يتبعون آباءهم تقليداً، من غير حجة ولا برهان، يقلدونهم على العماية، من غير بصيرةٍ ولا تفكير، وسنعطيهم جزاءهم من العذاب كاملاً غير منقوص.. وهذه تسلية للرسول الكريم، ووعدٌ له بالانتقام ممن آذوه وكذبوه، فحالُ هؤلاء المشركين، كحال من سبقهم من الضالين المكذبين، وقد بلغك ما نزل بأسلافهم، فسينزل بهم مثلُ ما نزل بأولئك المجرمين. والآية الكريمة جرت على أساليب العرب في بيان ضلال المشركين، فإنه لم يقع للرسول ﷺ ولا لأحدٍ من المسلمين شكٌّ أو ارتياب، في فساد عقائد عُبَّاد الأوثان حتى يجيء النهيُ عنه، ولكنْ من فصاحة القول - في بيان ضلال الكفرة تمثيلُه في هذه العبارة - أي حالهم أوضح من أن يُمترى فيها، لظهور أمارات الضلال بشكل واضح مكشوف، في أفعالهم، وعباداتهم، ومعتقداتهم.

المشركون مقلدون للآباء

والمِريةُ في اللغة: الشك، يُقال: هذه فِرْيَةٌ ما فيها مِرْية، أي ما فيها شك ولا ارتياب، و «هؤلاء» إشارة إلى كفار العرب عبدة الأصنام،

ثم قال تعالى: ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدَ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي إنهم مقلِّدون للآباء، من غير حجة ولا برهان، وإنما عبادتهم تشبُّهٌ منهم بآبائهم وأسلافهم، لا عن بصيرة وبيِّنة، يتبعونهم اتِّباع الأعمى لقائده، والعبد لسيده، ولهذا استحقوا العقوبة والعذاب ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ؟ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾(١).

وقد ختم الله الآية بأسلوب الوعيد، المتضمن للعذاب الشديد فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَإِنَّا لَمُوفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾ أي سنعطيهم جزاءهم من العذاب كاملاً، دون نقصٍ أو تخفيف، حسب ما تقتضيه أعمالهم الإجرامية في حق الرسل والأنبياء.

تسلية الرسول بمن سبقه من الرسل

ثم عاد في تسلية النبي ﷺ، بذكر موقف اليهود من دعوة كليم الله «موسى بن عمران» عليه السلام، فقد أنزل الله عليه التوراة، نوراً وهدىً لبني إسرائيل، فآمن به بعضهم وكذَّب به بعضهم كما فعل قومك، وهذه سُنَّةُ الله في خلقه، يبتلي عباده ليعلم الصادق من المنافق، والبرَّ من الفاجر ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوْسَىٰ الكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ، وَلَـوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾.

وفي ذكرِ قصةِ موسى ضربٌ من التمثيل أي لا يَعظُمْ عليك أمرُ من كذَّبك، فهذه هي سيرةُ الأمم، فقد جاء موسى بكتاب، فاختلف الناس فيه، ما بين مؤمن وكافر، وكذلك أمرُ قومك من قريش، فلا تحزن لتكذيبهم، وامضِ في تبليغ دعوة ربك. وقولُه تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

---

(١) سورة الرعد آية رقم /١٩/.

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي لولا حكم الله السابق، بتأخير الحساب والجزاء، إلى يوم الفصل والمعاد، لفُصِل بينهم في الدنيا، فجوزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وقضي بين المؤمن والكافر، بنعيم هذا، وعقاب ذاك، ولكنْ سبق القدر، بتأخير الجزاء إلى يوم الحساب، ثم قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي قومك يا محمد في شكٍّ من هذا القرآن، موقعٍ لهم في الريب وسوء الظنِّ، لا يدرون أحقٌّ هو أم باطل؟ لسفههم وظلمة قلوبهم، وهكذا شأن المعاند والمكابر.

الدنيا مزرعة والآخرة دار الجزاء

وتمضي السورة الكريمة لتبيِّن لجميع الخلائق، أن الجزاء الوافر الكامل، لا يكون هنا في الدنيا، إنما يكون هناك في الآخرة، حيث جعلها الله دار الحساب والجزاء، فالدنيا مزرعةٌ والآخرة مكان الحصاد، ومهما نُعِّم المؤمن في هذه الحياة، فإنه لم ينل وافر جزائه، ومهما عُذِّب الكافر في الدنيا، فما هو إلاَّ جزء يسير ممَّا ينتظره من العذاب الموعود، وسواءٌ من عُجِّلت عقوبته ومن أُخِّرت، ومن صدَّق الرُّسلَ ومن كذَّب، فإن الكل لم ينالوا جزاء أعمالهم، ولا بدَّ من اليوم الموعود، لينال كل إنسان جزاءه وافياً كاملاً، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ و «لمَّا» هنا على حالها تفيد الترقب والانتظار ـ كما يقول علماء اللغة ـ فهي ليست لمجرد النفي، بل هي للترقب وتوقع حدوث الأمر، كما إذا سألك سائل: هل حضر الأمير؟ فتجيبه: لمَّا يحضر بعدُ فأنت إذاً تتوقع حضوره.

وفي سياق الآية ما يدلُّ على المحذوف المترقَّب، والمعنى الدقيق لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي وإن كلاً من

الفريقين: المؤمنين والكافرين، لمَّا ينالوا جزاء أعمالهم كاملاً وافياً، وسيوفِّيهم ربك جزاءها في الآخرة.

وقد ختمها تعالى بما يوحي بالوعد والوعيد فقال: ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي إنه تعالى عليمٌ بأعمالهم جميعها، صالِحها وطالِحها، صغيرها وكبيرها، وسيجازيهم عليها كما قال سبحانه: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾(١) وهكذا لو أعطي المؤمن الصالح كل نعيم الدنيا، ما نال جزاءه كاملاً وافياً، ولو عُذِّب الفاجر الكافر بكل ما في هذه الحياة من ألوان العذاب، لم ينل عقابه كاملاً وافياً، لأن الدنيا ليست دار الجزاء، إنما هي دار العمل والابتلاء ﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ﴾(٢) وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلَّا لَهْوٌ ولَعِبٌ، وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ، لَوْ كَانُوْا يَعْلَمُونَ ﴾(٣) أي هي الحياة الحقيقية، وهي الدار التي فيها السعادة التامة، والعيش الهنيء، وأما الدنيا فهي دار البلاء والفناء.

وقد أحسن من قال:

تَأَمَّلْ فِي الوُجُودِ بِعَيْنِ فِكْرٍ تَرَى الدُّنْيَا الدَنِيَّةَ كَالخَيَالِ
وَمَنْ فِيها جَمِيعَاً سَوْفَ يَفْنَى وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلَالِ

أمر الرسول بالاستقامة أمرٌ للأمة

وبعد أن أسهبت السورة في أمر الوعد والوعيد، وذكر الحساب والجزاء، والحشر والنشر، وذكرت انقسام الناس في الآخرة إلى

(١) سورة غافر آية رقم /١٧/.
(٢) سورة آل عمران رقم /١٨٥/.
(٣) سورة العنكبوت آية رقم /٦٤/.

فريقين: شقيٍّ، وسعيد، جاءت الآيات بعدها، تأمر النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم، بالاستقامة على شريعة الله، والتمسك بأوامره ونواهيه، والاعتصام بحبله المتين، فالرسول عليه السلام هو الإمام، وأُمته تبع له في جميع الأحكام، ولهذا جاء الأمر له بالاستقامة ـ لتقتدي به أُمته ـ بكلمة جامعة في كل ما يتعلق بالعقائد، والأقوال، والأعمال، وهي قوله تقدست أسماؤه: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ، وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. وَلَا تَرْكَنُوا إِلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوْا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُوْنِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ، ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾.

الاستقامة أمرٌ هام عظيم

والأمر للنبي عليه السلام بالاستقامة ـ وهو شديد الملازمة لها ـ إنما هو أمرٌ بالدوام والثبات، كما تقول للعابد الزاهد: اعبدْ ربَّك، وكما تقول للمطيع البارِّ بوالديه: أطع والديك، أي الزمْ يا أيها العابد العبادة واثبتْ عليها، والزمْ أيُّها المطيعُ طاعة والديك واستمرَّ عليها، والاستقامةُ ليست بالأمر السهل اليسير، بل هي غاية التشريف، ونهاية التكليف، فهي الاستمساكُ بدين الله، في جميع تكاليفه وأحكامه، وهي التطبيقُ الصحيح لتوجيهات الدين وإرشاداته، والاعتصامُ بكل الأحكام التي أمر الله بها عباده، من إيمانٍ، وصدقٍ، وإخلاصٍ، وعملٍ صالح، ويقينٍ راسخ، وثباتٍ على المبدأ، وبذلٍ وسخاء، وتهذيب للنفس، ولهذا قال ابن عباس: ما نزلت على رسول الله ﷺ آيةٌ في القرآن أشدُّ ولا أشقُّ من هذه الآية، حتى إن أصحابه قالوا له: لقد أسرع فيك الشيب يا رسول الله؟! فقال: «شيَّبتني هودٌ وأخواتها»[1] يعني بـ «هود» هذه الآية

(١) أخرجه الطبراني عن سهل بن سعد، ورواه الترمذي بلفظ (شيَّبتني هودٌ، والواقعةُ، والمرسلاتُ، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كُوِّرت) وقال حديث حسن غريب، وصححه =

الكريمة ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ وأخواتُها يعني سورة الواقعة، والمرسلات، وإذا الشمس كوِّرت، وأمثال هذه السورة التي تحكي أحوال الآخرة، وشدائدها، وفظائعها، وما أعدَّه الله فيها للمجرمين العُتاة، من أنواع العذاب والنكال، التي يشيب لها رأس الولدان كقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ، يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً. السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ، كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾[1] وأيضاً ما في سورة هود، من أخبار الأُمم السالفة، وأحوال الهالكين والمعذبين، من قوم عادٍ، وثمود، وقوم مدين ولوط، وقوم فرعون الجبار، وما حلَّ بهم من أنواع العذاب والدمار، وقد قال ابن عطيَّة رحمه الله في تفسيره: (والتأويل المشهورُ في قوله ﷺ «شيبتني هودٌ وأخواتها» أنها إشارةٌ إلى ما فيها ممَّا حلَّ بالأُمم السابقة، فكأَنَّ حِذْرَه ﷺ على هذه الأُمة مثلَ ذلك شيَّبَهُ عليه الصلاة والسلام)[2].

لا كرامة أعظم من الاستقامة

وإذا أراد الإنسان الكرامة في الدنيا والآخرة، فعليه بالاستقامة، فإنها كما قال بعض العلماء الربانيِّين «الاستقامةُ عينُ الكرامةِ» ولا كرامة أعظم من الاستقامة على شريعة الله. ومن تمام الاستقامة، عدمُ الميل إلى أهل الفسق والفجور، بالمحبة والهوى، أو مصاحبتهم أو صداقتهم، فإن الميل إلى الظالم ظلمٌ وعدوان، وقد قال بعض الصالحين «مَن دعا لظالم بالبقاء، فقد أحبَّ أن يُعصَىٰ اللهُ في أرضِهِ»[3].

= الحاكم وله روايات متعددة انظر جامع الأصول ٢/١٩٣ والفتح الكبير ٢/١٨٠.

(١) سورة المزمل آية رقم /١٧/.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٧/٤١٣.

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٧/٦٩.

ولهذا جاءت الآيات ـ بعد الأمر بالاستقامة ـ تحذِّر المؤمنين من الركون إلى الظالمين، أو مجالسة العُصاةِ المفسدين، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ، ثُمَّ لَا تُنْصَرُوْنَ ﴾. والركونُ: هو الميلُ اليسير، الميلُ بالمحبة والهوى، والرضا بما عليه الظلمةُ من الظلم، وتحسينُ الطريقة وتزيينُها عند غيرهم، ومشاركتُهم في شيء من أعمالهم القبيحة، فأما مخالطتهم للإنكار عليهم والتغيير، فليس من الركون المحرَّم، بل هو واجبُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما يخالط الطبيبُ المريض، لينقذه من براثن المرض، ويُخلِّصه من البلاء والوباء، ومعنى الآية الكريمة: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ أي لا تميلوا إلى الظلمة من الزعماء، وغيرهم من الفَسَقَة الفَجَرة، لا توافقوهم ولا تميلوا إليهم أدنى ميل، ولو بالإذعان والرضى، فتمسَّكمْ نارُ جهنم وتصبحوا مثلهم في الشقاء والخسران، فمصاحبةُ الشقيِّ شقاوة، كما أن مخالطة الأجرب والأبرص تنقل العدوى.

وإذا كان هذا حالُ مَن ركنَ إلى مَن ظَلَم، فكيف يكون حال الظالم نفسه؟ إنه لا تمسُّه النارُ فحسب، بل تطبقُ عليه إطباقاً، وتحرقه إحراقاً كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ. فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ وقد ختم الله الآية الكريمة بقوله: ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُوْنِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾ أي ليس لكم من ينجيكم ويخلصكم من عذاب الله الشديد، وليس لكم ناصرٌ يدفع عنكم ما حلَّ بكم من البلاء، أو يرفع عنكم ذلك الشقاء.

قال سفيان الثوري: «في جهنم وادٍ لا يسكنه إلَّا المداهنون، المخالطون للظلمة والفساق»[1].

---

(١) غرائب القرآن للنيسابوري ١٢/٦٩.

وعن محمد بن مسلمة: «الذُّباب على العَذِرة ـ أي النجاسة الآدمية ـ أحسنُ من قارىء على باب فاجر فاسق»[١].

وسئل بعض العلماء عن ظالمٍ أشرف على الهلاك في برِّيَّة، هل يُسقى شربةَ ماءٍ؟ فقال: «لا»، فقيل له: يموت، فقال: «دعه يموت حتى يخلص الناس من فجوره وشرِّه» أقول: هذا محمول على مَن عظم شرُّه، فسفك الدماء، وقتل الأبرياء.

الصلاة طهارة للإنسان من الأدران

ثم تلتها الآيات الكريمة، تأمر بالمحافظة على الصلوات، في جميع الأحوال والأوقات، فإنها هي العون على الاستقامة على شريعة الله، وهي التي تعصِمُ المؤمن عن مقارفة المنكرات، وتمنعه عن السير في ركاب الظالمين، وهي مطهِّرةٌ للإنسان من الآثام والموبقات، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَأَقِم الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ، وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ. وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ﴾ والمراد بالصلاة هنا: الصلوات الخمس التي فرضها الله على عباده، وقد ذكرها المولى جلَّ وعلا بعد الأمر بالاستقامة، تنبيهاً على شرفها، وأنها أعظم العبادات والقربات بعد الإيمان بالله، والمراد بقوله تعالى: ﴿ طَرَفَي النَّهَارِ﴾ صلاتَيْ الصبح، والعصر، واختاره الطبري، وقيل: الصبح والمغرب، وهو قول ابن عباس وقوله تعالى: ﴿ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ ﴾ أي ساعاتٍ من الليل قريبة من النهار، وهما صلاة المغرب، والعشاء، ثم قال تعالى مبيِّناً العلَّة والحكمة ﴿ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي إن الأعمال الصالحة

(١) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة.

ـ ومنها إقامة الصلوات ـ يكفِّرن الذنوب والسيئات، كما ورد في الحديث الصحيح: «الصلوات الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهنّ ما اجتنبت الكبـائر»(١).

سبب نزول الآية الكريمة

وقد رُوي في سبب نزول هذه الآية أن رجلًا كان يبيع التمر، فأتتْهُ امرأةٌ لتَشْتري من عنده، فرآها وكانت جميلة، فقال لها: إن في البيت تمراً أجود من هذا، فانطلقت معه فلما دخلت الدار، ضمَّها إلى نفسه وقبّلها، ثم ندم على ما صنع فجاء إلى رسول الله ﷺ يخبره بما حدث ليطهِّـره من هذا الذنب، وصادفَ الوقتُ وقتَ العصـر، فصلَّى مع الرسول الكريم صلاة العصر، ثم جاء إلى الرسول ﷺ يريد أن يطهِّره من الذنب، وقصَّ عليه القصة، فقال له الرسول الكريم: أصليت معنا العصر؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: اذهبْ فقد غفر الله لك، فأنزل الله على رسوله هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَي النَّهَارِ وَزُلَفَاً مِنَ اللَّيْلِ، إنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾(٢).

وفي رواية: أن الرجل قال يا رسول الله: ألي هذا خاصة؟ قال: «بل لجميع أُمتي كلهم» ورُوي عن عليٍّ رضي الله عنه قال: كنتُ إذا سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثاً، نفعني اللهُ بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدَّثني عنه أحدٌ استحلفتُه، فإذا حلف لي صدَّقتُه، وحدَّثني أبو بكرٍ ـ وصَدَقَ أبو بكر ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلمٍ يذنب

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٢٣٣ في كتاب الطهارة، والترمذي في الصلاة برقم ٢١٤.

(٢) الحديث روي هنا بالمعنى، وأصله في البخاري ومسلم، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٣٦ وتمام الرواية في جامع البيان للطبري ٤٨٦/١٢.

ذنباً فيتوضأ ويُصلِّي ركعتين إلَّا غُفر له»[1].

ولنمعن النظر في كلمة عليٍّ رضي الله عنه «وحدثني أبو بكر، وصدق أبو بكر» يريد أنه لم يستحلفه على الحديث لصدقه، فهذا شأن أهل الفضل يعرفون الفضل لأصحابه، فعليٌّ يعرف قدر أبي بكر، ويُقرُّ له بالفضل، ويوقن بصدقه، فأين هذا من عمل الزائغين من الرافضة الذين يشتمون الشيخين «أبا بكرٍ، وعمر» ويدَّعون أنهم يحبون علياً، ويحبُّون أهل البيت، وفي قلوبهم هذا الحقد الأسود على أصحاب الرسول؟! ألا قاتل الله الجهل والضلال، فلو كانوا صادقين في محبة عليٍّ، لأحبوا مَن كان يحبُّه عليٌّ وهما أبو بكر، وعمر، أخصُّ أصحاب رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم أجمعين.

سبب هلاك الأُمم السابقة

ثم تلتها الآيات تذكر سبب هلاك الأُمم السابقين، وسبب دمار القرى والبلدان بمَن فيها، فإنَّ من سنّة الله تبارك وتعالى أن يُهلك الظالمين، ويُنجي المؤمنين المصلحين، وهو تعالى يمهل ولا يُهمل، فإذا استمرت الأُمة في طغيانها أهلكها الله ودمَّرها، ولم ينج منها إلا أهل الخير والصلاح، لأن العقاب إنما يحلُّ بالمجرم المفسد في الأرض.

وقد ذكر تعالى في سبب حلول عذاب الاستئصال بهم أمرين اثنين:

الأمر الأول: أنه ما كان فيهم قومٌ ينهون عن الفساد، فلذلك استحقوا العذاب.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي، والنسائي، وأبو داود، وابن ماجه، وأحمد في المسند، وانظر مختصر ابن كثير ٢/٢٣٥.

الأمر الثاني: التنعم والتَّرف الذي كانوا عليه، مما أغراهم بارتكاب أنواع المعاصي والموبقات.

وإلى هذين الأمرين تشير الآية الكريمة وهي قوله تقدست أسماؤه: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ، وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾.

و«لولا» هنا للتحضيض بمعنى «هلَّا» يصحبها معنى التأسُّف والتفجُّع، وليست حرف امتناع لوجود، ومعنى الآية الكريمة: فهلَّا كان من الأمم الماضية قبلكم، أُناس عقلاء، ذوو فضل وصلاح، ينهون الأشرار عن الإفساد في الأرض؟! فإن الفساد يُعرِّض الأُمة للهلاك والدمار، ثم قال تعالى: ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ هذا استثناء منقطع أي لكن قليلٌ منهم نَهَوْا الأشرار، عن الإفساد في الأرض، فنجوْا من العذاب، وهذا هو الأمر الأول.

وأما **الأمر الثاني** فقد أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ، وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ والمعنى: واتَّبع أولئك الظلمة شهواتهم، وما نُعِّموا به من لذائذ الحياة، فاشتغلوا بها عن طاعة الله وعبادته، وآثروها على الآخرة، فاستحقوا العذاب بسبب إجرامهم وعصيانهم، وانتهاكهم لمحارم الله.

ولهذا أمر الله هذه الأُمة بالاستمساك بواجب النصح والتذكير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لا يصيبهم ما أصاب مَنْ قبلهم من العذاب، ويحلّ بهم عقاب الله، فقال سبحانه: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وفي الحديث النبوي الشريف: «إن الناس إذا رأوا المنكر

فلم يغيِّروه، أوشك أن يَعمَّهم الله بعقابٍ منه»(١).

ختام السورة الكريمة

وقد ختمت السورة الكريمة ببيان الحكمة من ذكر قصص الأنبياء والمرسلين، وبخاصة في هذه السورة الكريمة، حيث أفاض الله فيها بذكر سبع قصص من أخبار الأنبياء والأمم، بدءاً بنوح شيخ الأنبياء وختاماً بقصة موسى أعظم أنبياء بني إسرائيل، فذكرت أن الغرض من هذه القصص، تسلية النبي عليه الصلاة والسلام حتى يصبر كما صبر قبله أولو العزم من الرسل، وتثبيتاً لقلبه الشريف أمام تلك التحديات من المشركين، ليتحمل الشدائد والأهوال، بقلبٍ ثابت، ويقين راسخ، ولا يضيق صدره من تكذيب أهل الكفر والضلال، فإن العاقبة للمتقين، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في ختام هذه السورة الكريمة: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ، وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقُلْ لِلذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ. وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ. وَللهِ غَيْبُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمرُ كُلُّه، فَاعْبُدْهُ وَتَوكَّلْ عَلَيْهِ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهكذا تختم السورة بالتمسك بالدِّين، كما بدأت بذكر الرسالة والتوحيد، ليتناسق البدءُ مع الختام، في أجمل صورة وأروع بيان.

* * *

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي برقم ٣٠٥٩ وأبو داود برقم ٤٣٣٨ وانظر جامع الأصول ٣٣١/١.

سُورَةِ يُوسُف

مَكيَّة وآيَاتهَا إحدى عَشْرَة ومَائَة

بين يدي السُّورَة

- سورة يوسف هي إحدى السور المكية، التي تناولت بالتفصيل قصص الأنبياء والمرسلين، وقد أفردت الحديث عن قصة نبيٍّ الله الكريم «يوسف ابن يعقوب» عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم، وما لاقاه عليه السلام من ضروب المحنة، وصنوف الأذى والبلاء، وما أصابه من إخوته الحاسدين، ومن زوجة العزيز، وتآمر النسوة عليه، ثم دخوله السجن، ومكثِهِ فيه سبع سنين، حتى نجَّاه الله من ذلك الضيق، وفرَّج كربته، وأزاح عنه تلك المحنة القاسية، وجعله العزيز في أرض مصر، يتصرَّف فيها تصرف الأمير والسلطان في ملكه.

- والمقصودُ من السورة الكريمة، تسليةُ نبينا ﷺ بما مرَّ عليه من الكرب والشدة، وما لاقاه من صنوف الأذى والبلاء، من أولئك العُتاة الطغاة الظالمين، من كفار مكة، الذين تآمروا عليه وعلى أتباعه، ليطفئوا نور الله، كما فعل إخوةُ يوسفَ بيوسفَ الصدِّيق، فكانت المحنةُ متشابهة، والعاقبة بالفرج والنصر متَّحدة.

- والسورة الكريمة أسلوبٌ فذٌّ فريد، في ألفاظها، وفي تعبيرها وأدائها، وفي قَصَصها الشفيف اللَّطيف، تسري مع النفس سريان الدم في العروق، وتجري برقتها وسلاستها في القلب جريان الروح في الجسد، فهي وإن كانت من السور المكية ـ التي تحمل في الغالب طابع الإنذار

والتهديد - إلا أنها اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طريَّةً نديَّة، في أسلوب ممتعٍ لطيف، سلس رقيق، يحمل جوَّ الأنس والرحمة، والرأفة والحنان، ولهذا قال خالدُ بن معدان: «سورة يوسف ومريم، مما يتفكَّه بهما أهلُ الجنةِ في الجنة». وقال عطاءُ بن أبي رباح «لا يسمع سورة يوسف محزونٌ أو مكروب، إلا استراح إليها، وذهب غمُّه وكربه».

- نزلت هذه السورة الكريمة على رسول الله ﷺ، بعد سورة هود، في تلك الفترة الحرجة العصيبة، من حياة الرسول الأعظم ﷺ، حيث توالت عليه وعلى المؤمنين الشدائدُ والنكبات، واشتدَّ عليهم أذى المشركين، وبالأخص بعد أن فَقَد عليه السلام من كان يحنو عليه، ويدفع عنه الأذى والبلاء، فقد عضديه ونصيريه: زوجَه الطاهرَ الحنون «خديجة بنت خويلد» رضي الله عنها، التي كانت تواسيه وتسليه، وتخفِّف عنه الأحزان والآلام، وفَقَد عمَّه «أبا طالب» الذي كان له خير معين، وخير نصير، وبوفاتهما اشتد الأذى والبلاء، على الرسول وعلى المؤمنين، حتى عُرف ذلك العام بـ «عام الحزن». لأنه العامُ الذي عظمت فيه المصيبة، وكان وقعها عظيماً على قلبِ النبي الرحيم.

- في تلك الفترة الحرجة العصيبة، من حياة سيد الأنبياء والمرسلين، وفي ذلك الوقت الشديد، الذي كان يعاني فيه الرسول الكريم مع أتباعه المؤمنين، الوحشةَ، والغربة، والانقطاعَ في جاهليةِ قريش، كان الله سبحانه وتعالى يتعهد نبيَّه وصفيَّه، فينزِّل على رسوله الكريم هذه السورة الجليلة، تسليةً لقلبه الشريف، وتخفيفاً لآلامه وأحزانه، بذكر قصص المرسلين.

وكأنه تعالى يواسيه ويُسلِّيه فيقول له: لا تحزن يا محمد على تكذيب قومكَ لك، ولا تبالِ بتكذيبهم وإيذائهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن بعد الضيق فرجاً، وإن بعد الشدة مخرجاً، انظر إلى أخيك «يوسف الصدِّيق» وتمعَّنْ ما حدث له من صنوف البلايا والمِحن، وألوان

الشدائد والمكائد، وما ناله من أنواع الأذى والبلاء، وضروب المِحَن القاسية: محنة حسد إخوته له، ومحنة رميه في الجب، ومحنة تآمر امرأة العزيز عليه، ومحنة دخوله السجن بعد ذلك العزِّ الذي كان عليه في قصر العزيز!!.

● انظر إليه، وتفكَّرْ في شئونه وأحواله، كيف أنه لمَّا عفَّ عن الحرام، وصبر على الأذى في مرضاة الله، وتحمَّل الضُرَّ والبلاء، في سبيل العقيدة والإيمان، أعزَّه الله وفرَّج كربته، ونقله من السجن إلى القصر، وجعله عزيزاً مكرَّماً في أرض مصر، وملَّكه الله خزائنها، فكان السيد المطاع، والعزيز المكرَّم، والملك المتوَّج، وهكذا أفعل بأوليائي، ومن صبر على قضائي، فلا بدَّ أن توطِّد النفس على تحمل البلاء، اقتداءً بمن سبقك من المرسلين ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾.

● وهكذا جاءت قصة يوسف الصدِّيق، تسلية لسيد الأنبياء، عمَّا لاقاه من البلاء، وجاءت تحمل البِشْرَ والأُنس، والراحة والسعادة، لمن سار على درب الأنبياء، واستمسك بعرى الإيمان واليقين، فلا بدَّ من الفرج بعد الضيق، ومن اليسر بعد العسر، ومن الراحة بعد التعب، فتلك هي سنّة الله في خلقه ﴿ فإنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرَاً، إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرَاً ﴾.

● هذا هو جو السورة، وهذه إيحاءاتها ورموزها، تبشر بقرب النصر، لمن تمسَّك بالصبر، وسار على نهج الأنبياء والمرسلين، والدعاة المخلصين، فهي سلوى للقلب، وبلسمٌ للجروح، وحفزٌ لعزائم الصابرين. وقد جرت عادة القرآن الكريم، بتكرير القصة في مواطن عديدة، بقصد العظة والاعتبار، بأخبار الرسل الأبرار، ولكن بإيجاز دون توسع، لاستكمال جميع حلقات القصة، وللتشويق إلى سماع الأخبار، دون ملل أو ضجر، ففي كل سورة تذكر بعض الجوانب من سيرة أنبياء الله المكرَّمين، وأما سورة يوسف، فقد وردت حلقاتها هنا متواليةً متتابعةً، بإسهابٍ وإطناب،

من بدايتها إلى نهايتها، وأكملت جميع حلقات القصة في هذه السورة الكريمة، ولم تكرر في مكان آخر كسائر قصص المرسلين، لتشير إلى إعجاز القرآن، في الإجمال والتفصيل، وفي المكرر وغير المكرر، فسبحان من أحاط بكل شيء علماً، وأعجز في قرآنه، كما أعجز في تصويره وخلقه.

- قال العلامة القرطبي: «ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن، وكررها بمعنى واحدٍ، في وجوه مختلفة، وبألفاظٍ متباينة، على درجات البلاغة والبيان، وذكر قصة يوسف الصدِّيق عليه السلام، ولم يكرِّرها أو يعدِّدها، فلم يقدر معارض أو مخالف، على معارضة المكرر، ولا على معارضة غير المكرر، والإعجاز واضح لمن تأمل»(١).

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ٩/١١٨.

تفصيل بعد إجمال

ولنبدأ الآن بذكر ما أجملناه عن هذه السورة الكريمة، لنرى ما فيها من إشراقات الجمال والبيان، يقول تقدست أسماؤه في مطلع هذه السورة: ﴿ آلر. تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا القُرْآنَ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ ﴾.

وبدءُ السورة الكريمة بهذه الحروف المقطعة، للإشارة إلى إعجاز القرآن، فمن هذه الحروف الهجائية: ألف، لام، راء، وأمثالها، تتألف آيات هذا الكتاب المعجز، وتنتظم درره وسوره، فهو يحمل برهان إعجازه، وآية جماله وبيانه، بما حواه من ألفاظٍ فاقت أساليب البشر، في البيان والجمال، ولهذا أعقبها بقوله: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ ﴾ أي هذه الآيات التي أنزلت إليك يا محمد، هي آياتُ الكتاب المعجز في بيانه، الساطع في حجته وبرهانه، الواضح الجلي في مقاصده ومعانيه، الذي لا تشتبه حقائقه، ولا تلتبس دقائقه.

الحكمة من نزول القرآن باللغة العربية

ثم بيَّن تعالى الغاية من إنزاله فقال: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي أنزلناه بلغة العرب، كتاباً محكماً بيناً، مؤلفاً من هذه الأحرف العربية، لكي تعقلوا وتدركوا، أن الذي ينظم من هذه الكلمات العربية هذا الكتاب المعجز، ليس بشراً عادياً، إنما هو إله قدير، فكما خلق من التراب إنساناً، كذلك جعل من هذه الحروف قرآناً، فسبحان القادر الحكيم!!.

ثم ذكر تعالى أنَّ أخباره وقِصَصه، كلُّها حقٌّ وصدق، لا شك فيها ولا امتراء، وأنه قصَّ على رسوله النبي الأمي، هذه القصص على أبدع طريقة، وأعجب أسلوب، وبأظهر لسان وأعذب بيان فقال تقدست أسماؤه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ، بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ ﴾ أي كنت قبل نزول هذا القرآن، من الغافلين عن هذه الأخبار، لم تقرع سمعك، ولم تخطر ببالك، لأنك أميٌّ لا تقرأ ولا تكتب، فمن أين جاءتك هذه القِصص والأخبار؟!.

روي أن اليهود أمروا كفار مكة، أن يسألوا رسول الله ﷺ عن السبب الذي جعل بني إسرائيل يرتحلون من الأرض المقدسة إلى مصر، وعن قصة يوسف الصدِّيق وما جرى له مع إخوته، بقصد الامتحان له والاختبار، في دعوى النبوة، فنزلت عليه هذه السورة الكريمة، موافقة لما ورد في التوراة، وبذلك أفحمهم ﷺ وألجمهم..

أحسنُ القَصصِ وأبدعُه

سمَّى الله تعالى ما في هذه السورة من قصة يوسف «أحسنَ القصص» في قوله تقدست أسماؤه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ ﴾ لما فيها من العِبَرِ والحكم، والفوائد والبدائع، والأخبار العجيبة، التي تُصْلِح شئونَ الدنيا والدين، من سير الملوك والمماليك، ومكر النساء، والصبر على أذى الأعداء، والصفح عنهم بعد الاقتدار، وأسلوب الدعوة الحكيم الذي يؤثِّر في القلوب، وغير ذلك من الفوائد الجليلة، وقد اجتمع في يوسف الصدِّيق، مع أنه ابن ثلاثة أنبياء: شرفُ النبوَّة، وعلمُ الرؤيا، ورياسة الدنيا، وقد قال عنه النبي الكريم ﷺ:

(الكريمُ ابنُ الكريمِ ، ابنِ الكريم، ابنِ الكريم: يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحق بنِ إبراهيم)(١) فهو نبيٌّ، وأبوه نبي، وجدُّه إبراهيم الخليل أبو الأنبياء، صلوات الله عليهم أجميعن.

في القرآن تفصيل وبيان

لقد اجتمعت في يوسف خِصالُ الفضل، والنسب الزكي، والله تعالى قد قصَّ على نبيه، قصة يوسف وقصة غيره من الأنبياء والمرسلين، على غاية الدِّقة في الوقائع والأخبار، وفي نهاية الكمال والجمال، فلا ينبغي للمسلم أن يطلب غير تلك الأخبار الموثوقة، التي قصَّها علينا القرآن، لأن ما سواه يحتمل الصدق والكذب، والزيادة والنقصان، وقد يكون الخبر مختلقاً من قِبَل الكُهَّان أو الرهبان، فقد روى الإمام أحمد في المسند، أن عمر بن الخطاب جاء النبي ﷺ ذات يوم بكتابٍ أصابه من بعض أهل الكتاب «اليهود والنصارى» فقرأه على النبي ﷺ، فغضب رسولُ الله ﷺ أشد الغضب وقال: «أمتهوِّكونَ فيها يا ابن الخطاب؟ ـ أي أمتحيِّرون في أمر الدين؟ ـ والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحقٍّ فتكذبونه، أو بباطل فتصدِّقونه!! والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حياً لما وسعه إلَّا أن يتبعني» وفي رواية أخرى أن عمر رضي الله عنه أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: إني مررتُ بأخٍ لي من قُريظة، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرِضُها عليك؟ فتغيَّر وجهُ رسول الله ﷺ، فقال عمر: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، فسُرِّي عن

(١) الحديث أخرجه البخاري وأحمد في المسند من حديث عبد الله بن عمر، وانظر تفسير الحافظ ابن كثير، والفتح الكبير ٣١٦/١.

النبي عليه السلام ـ أي ذهب عنه ما كان به من غضب ـ وقال: «والذي نفسُ محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى حياً، ثم اتَّبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيِّين»(١).

رؤيا يوسف الصدِّيق

وبعد ذلك البيان عن قصص القرآن، جاء الحديث عن قصة يوسف الصدِّيق عليه السلام، وقصته جاءت في هذه السورة، موضَّحة، مفصَّلة مكمَّلة بأسلوب ممتعٍ لطيف، سلسٍ رقيق، ولم تُكرَّر في سور أخرى ـ كما بيَّنا ـ لأنها قد استكملت جميع حلقاتها في هذه السورة الكريمة، ليظهر الإعجاز في كلام الله تعالى، فيما تكرَّر وفيما لم يتكرر، وقد بدأت القصة بذكر «الرؤيا المنامية» التي رآها يوسف الصدِّيق، فقصَّها على أبيه يعقوب عليه السلام، وهي رؤيا صادقة، توحي بأحداث غريبة، وأمور عجيبة، عمَّا سيحدث لهذا الغلام اليافع الشاب، من أحوالٍ ومفاجآت، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأبيه يا أبتِ إني رأيتُ أحد عشر كوكباً، والشمسَ والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾.

بداية القصة

هذه هي بداية القصة، رؤيا منامية، يراها يوسف الصدِّيق وهو ابن عشر سنين، ولكنها تحمل في طياتها أسراراً مدهشة عجيبة، رأى أحد عشر كوكباً من كواكب السماء، خرَّت ساجدة بين يديه، ورأى كذلك الشمس والقمر يسجدان له مع الكواكب، وكانت الرؤيا فيهم وحياً كما

---

(١) الروايتان في مسند أحمد بن حنبل، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٣٩.

قال ابن عباس، فقصَّ هذه القصة على أبيه يعقوب عليه السلام، وهنا أدرك يعقوب ما هيَّأ له القدر بقضاءِ الله، من رفعةٍ وسؤددٍ، ومكانةٍ رفيعة، يفوق بها على جميع إخوته، وينال بها شرفاً لا يضاهيه فيه أحد، حتى يفوق بذلك الفضل على أبويه، وخاف عليه من حسد إخوته، فنهاه أن يقصَّ الرؤيا عليهم ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدَاً، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ، وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ، كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

والمعنى: أن يعقوب عليه السلام قال لابنه يوسف ناصحاً ومذكِّراً: لا تُخبر بهذه الرؤيا إخوتك، فإني أخاف أن يحسدوك، ويحتالوا لإهلاكك حيلة عظيمة. لا تقدر على ردِّها، لأن الشيطان عدوٌّ مبين ظاهر العداوة للإنسان.

يوسف عليه السلام يسود إخوته

فَهِمَ يعقوبُ ـ بنور النبوَّة ـ من رؤيا ولده يوسف، الذي كان أحبَّ أبنائه إليه، أن الله سيبلِّغه مبلغاً من الحكمة، ويصطفيه ـ من بين إخوته ـ لحمل أعباء النبوة والرسالة، وينعم عليه بشرف الدارين، فخاف عليه من حسد إخوته، فنهاه أن يقصَّ رؤياه عليهم، ثم أخبره بجلية الأمر، أن الله سيكرمه بالنبوة، ويُعلِّمه تفسير الأحلام، والرؤى في المنام، ويتمُّ عليه النعمة بالسيادة على جميع إخوته، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي كما أراك هذه الرؤيا العظيمة، كذلك يختارك ربك للنبوة والرسالة المنامية ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أي يعلمك

تفسير الرؤيا المنامية، فالمراد بالأحاديث هنا الرؤى التي يراها الناس في منامهم، لأنها تحدث أحياناً كما رآها الإنسان، وتقع طبق ما رآها في الأحلام، ولهذا ورد في السنة المطهرة: «إذا رأى أحدكم ما يحبّ فليحدِّثْ به، وإذا رأى ما يكره، فليتحوَّلْ إلى جنبه الآخر، وليتفل عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من شرِّها، ولا يُحدِّث بها أحداً، فإنها لن تضـرّه»[1].

ثم بشَّره بعد ذلك بإتمام اللهِ نعمتَه وفضلَه عليه، برفع قدره ومكانته على سائر إخوته، وبما هيأه له من الأمر العظيم فقال: ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ، كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ، إِنَّ رَبَّكَ عليـمٌ حَكيمٌ ﴾ أي عالمٌ بمن هو أهل للفضل، حكيم في تدبيره لشئون عباده.

أقسام الرؤيا المنامية

والرؤيا المنامية، من عالم الغيب، فقد تكون حقيقةً واقعية، كما في رؤيا يوسف الصدِّيق عليه السلام، وقد تكون أضغاث أحلام، أو من تلاعب الشيطان بالإنسان، وقد قسمها العلماء ثلاثة أقسام:

أحدها: حديثُ النفس، كمن يهمُّه أمر من الأمور في نهاره، ويشتغل فكره بقضية من القضايا، فيراها في منامه، ويسميها علماء النفس «أحلامَ الذاكرة» أو «خواطر الذاكرة» كالعاشق الولهـان يجد معشوقته في نومه، لأن شكلها وصورتها لا تغيب عن ذاكرته، وكالقاتل المجرم يعلم أن الشرطة تبحث عنه، فيـراهم في منامـه يلاحقـونه ويطاردونه.

(١) رواه مسلم وانظر جامع الأصول ٢/٥٤٧.

الثانية: أضغاثُ أحلام لا حقيقة لها ولا وجود، بل هي من رعونة النفس وتلاعب الشيطان بالإنسان، فإن الشيطان إذا لم يستطع على الإنسان بالنهار، فقد يأتيه بالليل بصورة مفزعة مخيفة، ليعكِّر عليه صفوه، ويُشغل به فكره، حتى تسيطر عليه الأوهام، وقد ورد في صحيح مسلم أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله رأيتُ في المنام كأن رأسي ضُرب فتدحرج ـ أي قُطع رأسي عن جسدي ـ وأنا أتبعه وأجري خلفه فضحك النبي ﷺ ثم قال: «لا تخبر الناس بتلعُّب الشيطانِ بك في منامك»[1] وفي رواية: «إذا لعب الشيطان بأحدكم فلا يُحدِّثْ به الناس».

الثالثة: الرؤيا الصادقة التي هي بشرى من الرحمن، وهي الرؤيا الحسنة يراها المؤمن في منامه، أو يراها له أخ صديق، وقد كان ﷺ يُعبِّر الرؤيا لأصحابه، ويقول: «هل رأى أحد منكم رؤيا؟»، فكان بعضهم يقصُّ عليه ما رأى فيعبِّرها له عليه السلام. ومما يؤيد هذه الأقوال ما رواه الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «الرؤيا ثلاث: فرؤيا حقٌّ، ورؤيا يُحدث بها نفسه، ورؤيا تحزينٌ من الشيطان»[2] وفي صحيح مسلم: «إذا اقترب الزمانُ لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، والرؤيا ثلاث: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدِّث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصلِّ ولا يحدِّث بها الناس، قال: وأحبُّ القيد، وأكره الغُلَّ»[3] قال أبو

(١) رواه مسلم وأبو داود، جامع الأصول ٢/٥٢١.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الرؤيا برقم ٢٢٧١ وأبو داود في الأدب برقم ٥٠١٩.

(٣) الحديث أخرجه البخاري بنحوه ١٢/٣٥٦ ومسلم في الرؤيا برقم ٢٢٦٣ والترمذي في الرؤيا أيضاً برقم ٢٢٧١ وأبو داود برقم ٥٠١٩ وانظر جامع الأصول ٢/٥١٨.

هريرة: والقيدُ ثبات في الدين. اللهم ثبتنا على دينك الحق، واجعلنا من عبادك الصالحين.

حسد إخوة يوسف لأخيهم

وتمضي السورة الكريمة وهي تقصُّ علينا بأسلوبها الرائع، وبيانها العذب الذي يأخذ بالألباب، قصة نبيٍّ الله «يوسف الصديق» عليه السلام، وتسرد لنا ما جرى له من أنواع الكيد، والمكر، والتآمر، وأول ذلك حسدُ إخوته له، للمكانة التي كانت له في قلب أبيه «يعقوب» عليه السلام، فقد كان ليعقوب من البنين اثنا عشر ولداً، وكان يحبُّ من أولاده «يوسف» ويؤثره وأخاه «بنيامين» على بقية أولاده في المحبة والقرب، فكان ذلك سبباً لحسد إخوته، وحقدهم الشديد على يوسف وأخيه، ولنستمع إلى الآيات البينات، وهي تقصُّ علينا بداية القصة، وما تبعها من أحداث وعِبَر، بذلك الأسلوب العجيب ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ. إِذْ قَالُوْا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضَاً، يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ، وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمَاً صَالِحِينَ ﴾.

المحنة الأولى مع إخوته

هـذه هي بداية المحنة في أمر ذلك الشاب الحدث، الذي لم يبلغ بعدُ سنَّ الرشد والتكليف، فقد كان عُمُر يوسف عليه السلام في ذلك الحين، لا يتجاوز الثانية عشرة من العمر، حين تآمر عليه إخوته، فحسدوه وكادوا له أنواع الكيد، ليفرِّقوا بينه وبين أبيه، ليفرِّقوا بين الشيخ الكبير وولده الصغير، الذي تعلَّق قلبه بحبه، حتى ما كان يستطيع أن يغيب عن نظره، وليدخلوا الحزن والألم على قلب ذلك الشيخ الوقور،

فيتضاعف عليه الكرب، وتعظم عليه المصيبة، وكانت المؤامرة مدبَّرة، فقد تشاوروا فيما بينهم عن الطريقة التي يفعلونها مع أبيهم، حتى يستطيعوا أن ينتزعوا منه فلذة كبده، ويصطحبوا معهم أخاهم ليفعلوا به ما شاءوا ممَّا عزموا وصمَّموا عليه.

قاتل الله الحسد فإنه يُعمي قلب الحاسد، حتى يجعله صلداً كالصخر، لا يلين لذكر، ولا تؤثر فيه موعظة، ولا يبقى فيه أثر للشفقة والرحمة، وهكذا كان الأمر بالنسبة لإخوة يوسف فلقد تآمروا على أخيهم الصغير الضعيف، حسداً له، لأن أباه كان يحبه ويدنيه، وكان الواجب عليهم أن يعطفوا عليه ويحموه، لأنه صغير السنِّ وهم في كمال القوة وعنفوان الشباب، ولكنَّ الحسد أحرق قلوبهم.

تآمرهم على أخيهم يوسف

ولنرجع إلى الآيات الكريمة، لنستجلي ما فيها من إشراقات وأنوار، وما أشارت إليه من دقائق العِبر والعظات ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ اللامُ هنا لامُ القسم أي باللهِ قد كان في قصة يوسف، وحكايةِ إخوته الأَحدَ عشر، علاماتُ عظيمة الشأن، بعيدة المغزى، بالغةُ العظة والتأثير، لكل من سأل عن قصتهم وعرفها، وفي الآية حثٌّ على تعلم هذه الأنباء، إذ هي مقرُّ العبرة والاتعاظ، فإن كبار أولاد يعقوب، بعد ما تآمروا على الكيد بأخيهم الصغير والبطش به، وفعلوا به ما فعلوا، قد اصطفاه الله للنبوة والمُلك، وجَعَلَ إخوته خاضعين له منقادين لحكمه يتلمسون رضاه، وأن وبال حسدهم قد انقلب عليهم، وهذا من أجلِّ العِبَر والعظات، وكما قال الشاعر:

حَسَدُوا الفتى إذْ لَمْ يَنَالُوا فَضْلَهُ ... فَالكُلُّ أَعْدَاءٌ لَهُ وَخُصُومُ

كَضَرَائِرِ الحَسْنَاءِ قُلْنَ لِوَجْهِهَا   حَسَـداً وَبُغْضَـاً إِنَّـهُ لَـدَمِيمُ

وتتابع الآيات الحديث عنهم، وعن مكرهم وكيدهم فيقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي حين قالوا ساخطين لائمين: ليوسف وأخوه بنيامين، أحبُّ إلى قلب أبينا منا، والحال أننا جماعة أقوياء، ذوو عددٍ وقوة، نقدر على النفع والضر، فنحن أحقُّ بالمحبة منهما، فما معنى اختيار صغيرين ضعيفين على عشرة أقوياء، وفي قولهم: «ليوسف وأخوه» ما يدل على أن «بنيامين» كان شقيقاً ليوسف، وأما بقيتهم فكانوا إخوةً له من الأب، وهنا تكمل النقمة لأنهما أخوان شقيقان، فقد فضَّلهما وآثرهما علينا، ثم قالوا: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي إنه لفي خطأٍ واضح، وخروجٍ عن الصواب ظاهر، لتفضيلهما بالمحبة علينا، ولم يريدوا ضلال العقيدة والدين، إذ لو أرادوه لكفروا، لأن يعقوب نبيٌّ كريم، فكيف يكون ضالاًّ؟ وإنما أرادوا أنه في خطأٍ بيِّن في إيثار اثنين على عشرة.

سببُ الحسد حبُّ أبيه له

وقد كان حبُّ يعقوب ليوسف وبنيامين لصغرهما، وموتِ أمهما، وهذا أمرٌ فطريٌّ أن يحنو الأب على ابنه الصغير، وقد قيل لابنة الحسن: أيُّ بنيك أحبُّ إليك؟ فقالت: «الصغيرُ حتى يكبر، والغائبُ حتى يَقْدُم، والمريضُ حتى يُشْفى» وقديماً قال الناس: حبُّ الصغير فطرةُ البشر. ثم تكشف لنا السورة عن خيوط تلك المؤامرة، التي دبَّروها في خفاء، وأسرُّوها فيما بينهم، وما جرى بينهم من محاورات ومناظرات، فيقولون: ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً، يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ

وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ أي اجتهدوا في القضاء على يوسف بقتله وإزهاق روحه خالصاً، أو ألقوه في أرضٍ قفرٍ مَضْيعة، بعيدةٍ عن العمران، ليهلك فيها أو تأكلَه السباع ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ أي تخلصُ لكم محبـةُ أبيكم، وتصفو وتـدوم، ويُقْبِلُ عليكم بـوجهه، ومرادُهم أن يوسف قد شغله عنَّا، فإذا فَقَده أقبل علينا بالمحبة والميل، ثم قالوا: ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ أي تتوبوا من بعد هذا الذنب، فإن الله غفار الذنوب، يغفر ذنب العبد إذا هو تاب وأناب، وأصلح سيرته.

عزمهم على إلقائه في الجُبِّ

لقد عزموا على التخلص من أخيهم يوسف بأحد أمرين: إمَّا بالقتل، أو بإلقائه بصحراء مُهْلكة يضيع فيها وتفترسه السباع، وكان هذا رأيَ بعض الإخوة ولم يكن رأي الجميع، بدليل أنه لم يقع القتل، لقد أشار بعضهم بالقتل، وبعضهم بالطرح، وكلا الأمرين شرٌّ مستطير، لأنه يؤدي إلى الموت والهلاك، ولكنَّ الشيطان زيَّن لهم مثل ذلك الصنيع القبيح، الذي لا يُقدم عليه إلاَّ من كان مغرقاً في البغي والإجرام، وحسَّنـه في نظرهم، بـل سهَّله ويسَّـره حتى قـال بعضهم لبعض: ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ وهكذا نصيحةُ الوسواس الخناس، الذي يتلاعب بعقول الناس. ما أتعس الإنسانَ حين يسير بوساوس الشيطان، ويسيطر على قلبه، وفكرِه ولبِّه، فلا يفكِّرُ في قباحة الذنب وسوء المصير!! يتصور الأمر العظيم صغيراً، ويغريه الشيطانُ بالتوبة والغفران، فيقدم على الإجرام من غير نظرٍ إلى سوء العاقبـة!! وبينما هم يتشاورون ويتآمرون، ويخططون ويُدبِّرون، في الطريقة التي يمكنهم

التخلص بها من أخيهم المسكين، لا لشيء إلَّا بدافع الحسد، ليحظَوْا بالحبِّ الذي اختص به أخوهم يوسف دونهم، إذ خطرت لأحدهم خاطرة، وبدا له رأيٌ غيرُ الرأيْين السابقين، فيه تحقيقٌ لرغبتهم دون مباشرةٍ لجريمة القتل أو التشـريد ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ، وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الجُبِّ، يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ كان هذا الرأيُ الجديد، رأيَ الأخ الأكبر وهو «يهوذا» الذي كان أحسنهم فيه رأياً وأدباً، وهو الذي قال: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي، وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ ﴾ عندما احْتُجز أخوه «بنيامين» بجرم السرقة. والمعنى: قال لهم: إن القتل عظيم، ولا سيَّما قتلَ الأخ لأخيه، فلا تقتلوا أخاكم يوسف، واكتفوا بإلقائه في قعر الجب وغوره، يلتقطْهُ بعض المارِّين من المسافرين، فيأخذونه معهم، وتكونوا قد تخلصتم منه، إن كان لا بدَّ لكم من الخلاص منه.. وغيابةُ الجب: قعرُه وغورُه، سُمِّي به لأن من نزل فيه غاب عن أعين الناظرين، والسيَّارةُ: المراد بهم القوم المسافرون، أو القافلةُ التي تقطع المفاوز في مسيرها. نبَّههم «يهوذا» إلى أمرٍ تكون فيه السلامة هي الغالب، وهي الأبعد عن الهلاك، وذلك لأن البئر كانت في طريق المسافرين، فإذا ألقوه فيها ومرَّت عليها القوافل رأوه فحملوه معهم وسافروا به إلى بلادهم، وبذلك يكونوا قد تخلَّصوا منه، وسلمت أيديهم من قتله، وهكذا اجتمعت آراؤهم على هذا الرأي الجديد، وهذا عطف منه على أخيه، ورحمةٌ من الله على يوسف، لما أراد سبحانه من إنفاذ قضائه.

احتيالُهم لأخذ يوسف من والدهم

لقد تركنا إخوة يوسف، يخطِّطون ويتآمرون، ويتبادلون الآراء للكيد بأخيهم «يوسف الصدِّيق» الذي تعلَّق قلبُ أبيه به، وفاز بقربه

وحبِّه، وعكَّر عليهم صفو حياتهم، وها هم يُجمعون على رأي، بعد طول مشاورةٍ ومذاكرة، ليفرِّقوا بين الأب وابنه، ويُبعدوا أخاهم الصغير، الذي حظي بالمحبة والحنو، عن والده الشيخ الكبير، بعد أن فقد يوسف أمه حيث ماتت وحُرم عطفها، ليضاعفوا على أبيهم وقع الفاجعة والمصيبة، وها هم يأتون بصورة الحَمَل الوديع، يتلطفون بأبيهم يعقوب ليرسل معهم أخاهم يوسف، وقد قصَّ علينا القرآن الكريم الحوار الذي دار بينهم: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ، وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ. أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾.

مؤامرة وتخطيط بدهاء

أحكموا المؤامرة، ودبَّروا الخُطَّة، وأظهروا لأبيهم أنهم في غاية المحبة ليوسف، وفي غاية الشفقة عليه، وطلبوا منه أن يسمح لهم باصطحاب يوسف، ليلهو ويلعب معهم في البرية، فلماذا يستمتعون هم بالنزهة خارج المدينة، ويُحرم من هذه المتعة أخوهم الصغير؟ ومعنى قولهم: ﴿ مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾؟ أيْ أيُّ شيءٍ حدث في نفسك، حتَّى لم تأمنا على أخينا يوسف، ونحن جميعاً أبناؤك؟ كأنهم يقولون: لا ينبغي لك أن تخاف عليه من جهتنا، فنحن نحبُّه ونريد الخير به، ونحن جميعاً إخوته، ثم زادوا في البيان للاطمئنان فقالوا: ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ أي ونحن نحفظه ونرعاه من كل سوءٍ ومكروه، فلا داعي إلى الخوف عليه، أكَّدُوا كلامهم بـ «إنَّ» و «اللام» وهم كاذبون في هذه الدعوى ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أي ابعثه معنا غداً إلى البادية، يتوسَّعْ ويتَمتَّعْ بأكل ما لذَّ وطاب، ويستمتع أيضاً بالتسابق معنا، ونحن نحفظه من كل سوء ومكروه.

خوف يعقوب على يوسف منهم

لقد كان يعقوب عليه السلام يعلم حسدهم له، ويخاف عليه منهم أن يدبروا له مكيدة، ولكنه لم يكن يُظهر لهم ذلك، لئلا يزيدوا له في الحسد والبغضاء، لذلك تعلَّل لهم بالخوف عليه من الذئب ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾.

اعتذر لهم بشيئين:

أحدهما: أن ذهابهم به ومفارقته إيَّاه مما يَحْزُنه ويُؤلمه، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة.

والثاني: خوفُه عليه من الذئب أن يفترسه، إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم، لقلة اهتمامهم به. وهو عليه السلام إنما كان يتخوَّف عليه من عدوانهم، أكثرَ ممَّا يتخوف عليه من عدوان الذئب، ولكنه ما أظهر لهم ذلك، وأراد أن يصرفهم بذلك الكلام عن مقصودهم، فحبُّه ليوسف وخوفُه عليه منهم، هو الدافع الحقيقي للاعتذار والامتناع، ولكنَّ إخوته كانوا بارعين في الدهاء، حيث التقطوا تلك الكلمة من فم أبيهم، ليبطلوها بالحجة والبرهان ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ، إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾ أي كيف تخاف عليه من الذئب، ونحن جماعةٌ أقوياء أشداء؟ فوالله لئن أكله الذئب فإنَّا لسنا برجال، وإنَّا لمستحقون أن يُدعى علينا بالخسار والدمار، إذ لم نستطع أن ندفع عن أخينا المخاطر. وكأنه عليه السلام لقَّنهم الحجة في قوله لهم: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ وفي أمثال العرب الحكيمة «البلاءُ موكَّلٌ بالمنطق» وما كان يريد بقوله ذلك إلَّا أن يصرفهم عن أخيهم، ولكنْ لا رادَّ لما قضى الله، ولكلِّ أجلٍ كتاب.

إرساله يوسف على كره ومضض

لم يجد يعقوب عليه السلام بداً أن يُرسل يوسف مع إخوته، لئلا يشعروا بأن أباه يخشى عليه منهم، فيدبروا له مكيدةً في غيابه، فتظاهر بقبول كلامهم والاقتناع برأيهم، وأرسله معهم على كُره ومضض، وما أن غابوا عن عينيه، حتى جعلوا يشتمونه، ويضربونه، ويهينونه بسيِّء الكلام، وقبيح المقال، ثم عزموا على إلقائه في غور الجب، فأوثقوا يديه بالحبال، وخلعوا قميصه عن جسده، ودلُّوه بحبلٍ كانوا قد أعدُّوه لتنفيذ تلك المؤامرة، حتى صار في غيابة الجبِّ، وكان في البئر شيء قليل من الماء، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الجبِّ ﴾ أي في قعر الجب وغوره ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾.

وتمضي السورة الكريمة، لتحدثنا عمَّا فعل به إخوته بعد أن فارقوا أباهم، فقد قرَّروا الخلاص منه برميه في الجب.

وتوسَّل إليهم يوسف وتضرَّع، ولكنَّ تلك القلوب كانت أقسى من الحجر، فلذلك لم ينفعه التوسل والدعاء، وكان يبكي ويقول: يا أبتاه لو ترى ما يصنع بابنك أولادُ الإماء!! وفي تلك المحنة العصيبة تداركته الرحمة الإلهية، فأوحى الله إليه - وحيَ إيناسٍ وإلهام - لتخبرنَّ إخوتك بفعلهم هذا القبيح معك، وهم لا يشعرون في ذلك الوقت أنك يوسف، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾.

قال الحسن البصري: «أُلقي يوسف في الجب وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ولقي أباه بعد أربعين سنة» وروي أنه لما ألقي في الجب

قال: «يا شاهداً غير غائب، ويا قريباً غير بعيد، ويا غالباً غير مغلوب، اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً».

رجوعهم عشاءً يبكون

أما إخوة يوسف، فقد رجعوا إلى أبيهم عشاءً، ومعهم قميص يوسف، وقد لطخوه بدم شاةٍ ذبحوها، ليوهموا أباهم أن الذئب قد عدا على أخيهم فأكله، ولكنهم نسوا أن يمزِّقوا الثوب أو يخرقوه ـ وآفةُ الكذب النسيانُ ـ فلم يُفلحوا في هذا المكر، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَجَاءُوْا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ. قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ، وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا، وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي لست بمصدِّقٍ لنا ولو كنا في حقيقة الأمر صادقين، فكيف وأنت تتهمنا، وغيرُ واثقٍ بأمرنا؟.

وهذا القول منهم يدلُّ على الارتياب، وكما قيل «يكاد المريبُ يقول خذوني».

لم يكن ذلك الدمُ دمَ يوسف، وإنما هو دم الشاة التي ذبحوها، ثم لطخوا بها القميص، ليأكّدوا أن الذئب فعلاً قد افترسه، ولم يدخلوا على أبيهم في النهار، وإنما دخلوا عليه في ظلمة الليل، إمعاناً منهم في التضليل، ليروِّجوا صدق تلك المكيدة المدبَّرة، والليلُ أخفى للويل كما يُقال في الأمثال.

قال الطبري في روايته عن السدي: «أقبلوا على أبيهم عشاءً يبكون، فلما سمع أصواتهم فزع، وقال: ما لكم يا بَنِيَّ هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فأين يوسف؟ قالوا: يا أبانا أكله الذئب، فبكى الشيخ وصاح أين القميص؟ فجاءوا بالقميص عليه دم سخلة ـ أي

شاة ـ ذبحوها، فأخذ القميص فطرحه على وجهه، ثم بكى حتى تخضَّب وجهُه من دم القميص، ثم أخذ يقلِّبه وينظر فيه ويقول: تاللَّهِ ما رأيتُ كاليوم ذئباً أحلمَ من هذا، أكل ابني ولم يمزِّق قميصه!! يا بُنَيَّ يا يوسف ما فعلَ بك بنو الإماء؟!».

وهكذا فضح الله صنيعهم، فقد تحقق ليعقوب أنهم دبَّروا له مكيدة ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرَاً، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ لم تنطل عليه تلك المؤامرة، ولم ترج عليه الدموع الكاذبة التي ذرفوها، بل عرف أنهم تآمروا على أخيهم.

قال بعض السلف: لا يغرنك بكاء المتظلّم، فربَّ ظالم يأتيك وهو باكٍ كما فعل إخوة يوسف حين جاءوا أباهم عشاء يبكون.

رُوي أن امرأةً تحاكمت عند شُريح فبكتْ، فقال الشعبيُّ: يا أبا أُميَّة أما تراها تبكي؟ إنها مظلومة، فقال الشعبي: لقد جاء إخوةُ يوسف أباهم عشاءً يبكون وهم ظَلَمةٌ كذبة، لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلَّا بالحق.

مرور قافلة من المسافرين

نفَّذ أولاد يعقوب الخطَّة التي دبَّروها، في أخيهم الصغير المسكين «يوسف الصدِّيق» فرموه في الجب، ثم جاءوا أباهم يبكون، إظهاراً للحزن والأسى، على أخيهم الذي أكله الذئب، حسب ما زعموا، ولكنها كانت دموعَ الكذب والخداع، والقلوبُ إذا قست تحجَّرت، وإذا تحجَّرت نُزعتْ منها الرحمةُ، فلم يرحموا الشيخ الكبير، ولا أشفقوا على أخيهم الصغير، حين رموه في الجب، أن يغرق بالماء، أو يموت جوعاً إذا لم ينقذه أحد، ولكنَّ رحمة الله عزّ وجلّ تداركته

بالرعاية والحماية، فما أن عادوا إلى المدينة ووصلوا إليها، حتى قيَّض الله له قافلة، كانت تسير في طريقها إلى مصر، فأرسلوا أحدهم ليأتيهم بماء، فلما أدلى دلوه في البئر تعلق به يوسف، وكان ذلك سبباً لنجاته من الهلاك، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ، قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ، وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾.

والمراد بالسيارة هنا: القوم المسافرون، الذين يسيرون على الأقدام، أو يركبون على الدواب، قال ابن عباس: «جاء قوم يسيرون من مدين إلى أرض مصر، فأخطأوا الطريق فانطلقوا يهيمون، حتى هبطوا على الأرض التي فيها جبُّ يوسف، فنزلوا قريباً منه، وكان الجبُّ في قفرةٍ بعيدة عن العمران»(١) ومعنى قوله تعالى: ﴿ فأرسلوا واردهم ﴾ أي بعثوا من يستقي لهم الماء ﴿ فأدلى دلوه ﴾ أي أرسل دلوه في البئر.

قال المفسرون: لما أدلى الواردُ دَلْوه، وكان يوسف في ناحيةٍ من قعر البئر، تعلَّق بالحبل فخرج، فلما رأى حسنه وجماله نادى: ﴿ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ ﴾ أي يا بُشراي بهذا الغلام الجميل، كأنه ينادي من فرحه وسروره البشرى السارة، وهذا كما يقول الإنسان: يا بهجتي وحظّي وسعدي الجميل، حينما تأتيه مفاجأة سارة، ويفوز بنعمةٍ جليلة.

بيعهم ليوسف في مصر

ولما رأوه فرحوا بهذه الغنيمة الثمينة، التي جاءتهم بدون تعب، وأخفوا أمره عن الناس، ليبيعوه في أرض مصر، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ أي أخفوه ليبيعوه على أنه عبدٌ مملوك لهم، كالمتاع

---

(١) انظر التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ١٢/١٠٥.

الذي يُباع، والبضاعة التي تُشترى، والضميرُ على القول الراجح من أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ يعود على الوارد وعلى جماعته من الركب المسافرين ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي والله عالم بما أسرُّوه وأضمروه، من إرادة بيعه والتجارة فيه، ثم أخبر تعالى ما حدث ليوسف الصدِّيق، حينما وصلت تلك القافلة إلى أرض مصر، من بيعه بأبخس الأسعار، ولم يعرفوا قيمته وقدره، ومن شراء عزيز مصر له ليكون له خادماً يقوم بخدمته في البيت، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ، وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ أي باعه أولئك المارة، الذين استخرجوه من البئر، بأبخس الأثمان وأنقصها، وهي أربعون درهماً على قول عكرمة، وعشرون درهماً على قول ابن عباس، وإنما باعوه بهذا الثمن الزهيد، لأنهم خافوا أن يكون عبداً قد أبق من سيده، فينتزعه سيُّده من أيديهم، ولذلك باعوه بأبخس الأثمان.

المحنة الثانية محنة الاسترقاق

ومن هنا تبدأ المحنة الثانية في حياة يوسف عليه السلام، وهي محنة «العبودية والاسترقاق» بعد المحنة الأولى «محنة الجُبِّ» فبعد أن كان حراً منعَّماً مكرَّماً، في غاية الدلال والإكرام عند أبيه يعقوب عليه السلام، يرعاه ويحنو عليه، أصبح عبداً مملوكاً مسترقاً، يُباع كالبضاعة والسلعة، للخدمة والابتذال، وما أشقَّ على النفس، أن ينتقل الإنسان من الرفاهية والعزة إلى العبودية والمهانة، فلذلك كانت تلك المحنةُ عظيمة بالنسبة له، وهو لا يزال بعد في ريعان الصِّبا، وبحاجة إلى من يعطف ويحنو عليه، وقد اشتراه عزيز مصر من تلك القافلة على

أنه عبدٌ مملوك، اشتراه للخدمة وللمنفعة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ، أَكْرِمِي مَثْوَاهُ، عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً، وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ، وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

فِراسةُ عزيز مصر بيوسف

والمعنى: قال عزيز مصر الذي اشترى يوسف من أولئك الركب المسافرين، قال لزوجته أكرمي إقامته، وأحسني تعهده، فلعله يكفينا بعض المهمات إذا بلغ، أو نجعله ولداً لنا نتبنّاه، والمثوى: هو مكان الإقامة، والمراد تعهدُّه بحسن الرعاية في المطعم والمشرب، وإنما أمرها بالإحسان إليه، لأنه شاهد فيه علامات النبوغ والذكاء، ولهذا قال: ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أفرسُ الناس ثلاثة: العزيزُ في شأن يوسف حيث قال لامرأته﴿ أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا ﴾وابنةُ شعيب حين قالت لأبيها في شأن موسى﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ وأبو بكرٍ رضي الله عنه في شأن عمر حين استخلفه وقال: إني رأيتُ أن أُوَلِّي عليكم عمر بن الخطاب، إذ تفرَّس فيه العدل».

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي كما نجيناه من محنة الجب، جعلناه متمكناً في أرض مصر، يعيش فيها في قصر العزيز بعزٍّ وأمان، وجعلناه محبوباً في قلب سيِّده، مكرَّماً في منزله، وهيأنا له أسباب الرفاهية والنعيم ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ

الأَحَادِيثِ ﴾ أي ولنعلمه تعبير المنامات، وغير ذلك من العلوم التي ترفع قدره ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون لطائف صنعه، وخفايا فضله.

إخوة يوسف ليسوا أنبياء

وهنا لا بدَّ لنا من وقفة قصيرة، حول نقطة هامة، تعرَّض لها بعض المفسرين، وهي: كيف صدر من إخوة يوسف، مثلُ هذا الصنيع القبيح، في حقِّ أخيهم يوسف، وهم أنبياء؟.

وأجاب البعض بأن هذا كان منهم قبل النبوة، وبعضهم قال: إنهم تابوا والتوبةُ تمحو ما سبق من الذنوب.

والحقُّ في هذا أن السؤال غير وارد، فإن إخوة يوسف ليسوا أنبياء، حتى ننتحل لهم المعاذير، كما نبَّه على ذلك المحققون من علماء التفسير، فإن الأنبياء معصومون عن الكبائر قبل النبوة وبعدها، ولو كانوا أنبياء لما أقدموا على مثل هذه الأفعال الشنيعة، فالحسدُ، والسعيُ في الفساد، والإقدامُ على القتل، والكذبُ، وإلقاءُ يوسف في الجب، كل ذلك من الكبائر التي تنافي عصمة الأنبياء، فالقول بأنهم أنبياء ـ مع هذه الجرائم ـ لا يقبله عقل حصيف.

وقد أجاد الحافظ ابن كثير فأفاد، ورَدَّ على من زعم نبوتهم فقال رحمه الله: «واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر الآيات يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر ويحتاج إلى دليل، ولم يذكروا سوى أنهم الأسباط، وهذا ليس بدليل، لأن بطون بني إسرائيل يُقال لهم الأسباط، كما يقال للعرب قبائل، وللعجم شعوب، ولم يقم دليل على أن أعيان هؤلاء

أوحي إليهم، فالصحيح أن الأسباط غيرهم»[1] وقال الفخر الرازي: «قال بعضهم: إن الحسد من أمهات الكبائر، لا سيما وقد أقدموا على الكذب بسبب الحسد، وعلى تضييع ذلك الأخ الصالح، وإلقائه في ذل العبودية، وتبعيده عن الأب المشفق، وألقوا أباهم في الحزن الدائم، والأسف العظيم، وأقدموا على الكذب، فما بقيت خصلة مذمومة، ولا طريقة في الشر والفساد، إلا وقد أتوا بها، وكل ذلك يقدح في العصمة والنبوة». هذا هو الصحيح في الموضوع والله الهادي إلى سواء السبيل.

إقامة يوسف في قصر العزيز

أقام يوسف الصدِّيق في بيت عزيز مصر، منعَّماً مكرَّماً، وكان فائق الحسن والجمال، فلما شبَّ وكَبِر، عشقته امرأة العزيز، وشُغفتْ به حباً، ودعته إلى نفسها، وكان ذلك بداية «المحنة الثالثة» له، بعد محنة الجب، ومحنة الاسترقاق، وكان يوسف عليه السلام طاهر النفس، عفيف الخُلُق، مستقيم السيرة، ولذلك استعصى على تلك الفتنة العارمة، ووقف في وجه الشهوة والإغراء، موقف الحزم والإباء، وقاوم تلك الدعوة بكل شجاعة وبسالة، وثباتٍ وحزم، لأمرين اثنين:

أولهما: إيمانه بالله عزّ وجلّ الذي غمر قلبه، وخوفه من الله، وسيرته العطرة التي نشأ عليها.

وثانيهما: أن زوجها سيِّده الذي أحسن إليه، وأكرم مثواه، وائتمنه على ماله وعرضه، فكيف يخونه؟.

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٤٤.

المحنة الثالثة

ولنستمع إلى الآيات البينات، وهي تحكي لنا أحداث تلك المحنة العصيبة، التي كانت أشدَّ على نفسه من محنة رميه في الجب، لأنها محنة تتعلق بالعرض والشرف، وتمسُّ الدين والعقيدة، ولكنه خرج منها منتصراً، عفَّ الثياب، طاهر النفس، مستعلياً بإيمانه على كل المغريات، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمَاً وَعِلْمَاً، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ، وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾. أما بلوغ الأشدُّ فهو بلوغ سِنِّ الرجولة، تقول العرب: بلغ فلان أشدَّه إذا بلغ منتهاه في شبابه وقوته، أي لما أصبح شاباً مكتمل الشباب، قويَّ البنية، راشد العقل، أعطيناه الحكمة والفقه في الدين، وكذلك نجزي المحسنين في أعمالهم، المستقيمين في سيرتهم وسلوكهم، قال ابن عباس: يعني بالمحسنين: المؤمنين المهتدين.

شروع في تفصيل القصة

ثم شرع تعالى في بيان قصته مع سيدته زوجة العزيز، الذي عاش في بيته، وتربَّى في حجره، وذكرها تعالى بأبلغ أسلوب، وأدق تصوير، فقال تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ والمراودةُ هي الطلب برفق ولين، مأخوذةٌ من راد يرودُ إذا جاء وذهب، ومنه الرائد لطلب الماء، أو لطلب الكلأ، يُقال في الرجل: راودها عن نفسه، وفي المرأة راودته عن نفسه، أي طلبت منه برفق ولين مضاجعتها ومواقعتها، وتوسَّلت إليه بكل وسيلة ليقضي حاجتها، وفعلت معه ما يفعله

المخادع، الذي يريد أن يوقع صاحبه في شراكه، بطرق الاحتيال والخداع، يحتال عليه لينال منه مأربه.

إغلاق الأبواب بإحكام

ثم قال تعالى: ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ، وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ أي غلّقت أبواب القصر عليها وعلى يوسف، وأحكمت إغلاقها، والصيغة تدلُّ على المبالغة في الإغلاق، والتوثق من تدبير المؤمراة، قال المفسرون: كانت سبعة أبواب، أغلقتها فأحكمت إغلاقها، ثم دعته إلى نفسها، بعد أن هيأت المضجع والفراش، وكانت في أبهى زينتها، وأجمل حللها ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ أي هلمَّ وأسرع إلى الفراش، فليس ثَمَّةَ ما يُخشى، الرقيبُ غائب، والأبواب مغلقة، وليس هناك ما يعكِّر الصفو!!.

ما أشدَّ هذه المحنة على النفس، وما أقساها؟ وما أشدَّ وقعها على نفس يوسف، هذا الشاب المؤمن الذي ذاق حلاوة الإيمان؟ ولكنَّ الإيمان وخوف الرحمن، جعلاه يصمد أمام تلك الفتنة العارمة التي تثير وتحرِّك شهوة الإنسان ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي قال يوسف الصدِّيق: عياذاً بالله من فعل السوء، إن زوجك هو ربي أي هو سيدي العزيز، الذي أكرمني، وأحسن تعهدي، وأكرم منزلي، فكيف أخونه في أَهْله وحرمه؟.

قال ابن كثير: وكانوا يطلقون لفظ «الربِّ» على السيِّد والكبير، أي إن بَعْلَكِ ربي﴿أحسن مثواي﴾ أي أحسن منزلي، وأحسن إليَّ، فلا أقابله بالفاحشة في أهله[1] ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي إن فعلتُ هذه

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٤٥ وإطلاق الرب في كلام العرب على المالك، وعلى =

الفعلة فأنا ظالم، ولا يفلح الظالمُ الخائن، المجازي للإحسان بالسوء.

امرأة العزيز تريد إجباره بالقوة

هاج هائج الغرام في قلب امرأة العزيز، فأرادت أن تحمله على الاتصال بها بالقوة، فبعد أن أحكمت الخطة، وغلّقت الأبواب، ودعته صراحة إلى نفسها، فامتنع وأبى وأصرّ على العصيان، ولم تجد وسيلةً لإخضاعه، وغلبها الحبُّ على حيائها، واستطارت الشهوةُ في نفسها، أمسكتْ به تريد أن تجبره على مواقعتها، بالعنف والقوة، وأن تخضعه لأمرها باعتبار أنها سيِّدته، فتجاذبا وتشادًّا، هي تريد أن تجبره، وهو يأبى ويمتنع، وأخيراً أُفلت من يدها فهرب، وأخذت تلاحقه وتطارده، فأمسكت بقميصه - أي بثوبه - من خلف، فتمزق الثوب، وظلَّت تلاحقه وهو يسعى يريد الخلاص منها والهرب، وهما يستبقان نحو الباب أي يركضان هو يريد فتحه هرباً، وهي تحول بينه وبين الباب طلباً، تريد أن تقضي منه وطرها، فلم يعد هناك مكان للحياء، وفي هذه اللحظة، كان قد وصل زوجها، فوجدهما في هذه الحالة المريبة.

كيد خبيث من امرأة العزيز

وهُنا يبدأ الكيدُ الخبيثُ، والمكرُ المدبَّر، فتنطلق صارخة باكية بدموع التماسيح، تريد أن تُظهر لزوجها عفَّتها ونزاهتها، زاعمةً أن يوسف راودها عن نفسها، فأبتْ عليه، وأنه أرادها بالقوة فهربت منه، وفي لمحة بصر تنقلب الأمور، فيصبح الظالم مظلوماً، والطالبُ مطلوباً، ويصبح الخائن بريئاً، والبريء متهماً، وتندفع تطالب زوجها بإنزال

= الصاحب مشهور، ومنه قول عبد المطلب «أنا ربُّ الإبل وللبيت ربٌّ يحميه».

أقصى العقوبة، بمن أراد أن يخون شرف سيِّده، ويهتك عِـرضه، ويرتكب الفاحشة في أهله، لتظهر هي بمظهر الشريفة العفيفة، ويصبح يوسف البريء في قفص الاتهام!! حقاً إنه الكيد، والمكر، والدهاء، ولنستمع إلى الآيات البينات، وهي تطالعنا بتلك الأحداث المدهشة، ﴿ وَاسْتَبَقَا البَابَ، وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ، وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَىٰ البَابِ، قَالَتْ: مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوْءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

معنى الآية الكريمة

ومعنى الآية الكريمة: ﴿ وَاسْتَبَقَا البَابَ ﴾ أي تسابقا نحو باب القصر - قصر العزيز - هو للهرب، وهي للطلب. ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ أي شقَّت ثوب يوسف شقّاً فظيعاً من خلف، لأنها كانت تلاحقه فجذبته بشدة فشقت ثوبه، واستمر يوسف هارباً ذاهباً وهي في أَثَره ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَىٰ البَابِ ﴾ أي صادفا ووجدا زوجها العزيز عند باب القصر، وجداه فجأةً وقد حضر في غير أوان حضوره، فلما رأت زوجها هابته، وخافت التهمة، فسابقت يوسف بالقول قبل أن يَكشف أمرها ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوْءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي قالت امرأة العزيز: ليس جزاء من أراد بأهلك الفاحشة، وأراد الاعتداء عليها بالزنى، إلا أن يُدخل السجن، أو يُضرب ضرباً شديداً موجعاً، جزاء عزمه القبيح.

يوسف عليه السلام يدفع البهتان

وهنا اضطر يوسف الصدِّيق، أن يُبرِّىء ساحته من تلك التهمة الشنيعة، ولولا أنها قذفته بذلك البهتان، فإنه ما كان يريد أن يذكر هذا القول، ولا أن يهتك سترها، ولكن لما قالت هي ما قالت، احتاج إلى

إزالة هذه التهمة عن نفسه ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ أي قال يوسف مكذباً لها: هي التي دعتني إلى نفسها، لا أني أردت بها السوء، وصدقه فيما قال لا يحتاج إلى بيانٍ أكثر من الحال الذي كان فيه، وهو أنهما عند الباب، ولو كان منه الطلب، لما كان إلاَّ في محلها الذي تجلس فيه، وهو صدر البيت وأشرف موضع منه، وأيضاً فإن المرأة زيَّنت نفسها على أكمل الوجوه، وأما يوسف فما كان عليه أثر من آثار الزينة، فكان إلحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى.

معجزة باهرة لتبرئة يوسف

وقد أراد الله أن يُظهر الأمر، ويكشف الحقيقة، فأنطق طفلاً صغيراً كان في المهد، بالحجة والبرهان ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا، إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ، فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ. وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ، فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ، قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ، إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

شهادةٌ صادقة، وحجةٌ مقنعة، شهد بها طفلٌ من أقربائها رضيع، أنطقه الله بها لتكون براءة ليوسف الصدِّيق، وبرهاناً على عفته ونزاهته، وخلاصتها: إذا كان يوسف هو الطالب وهي الممتنعة، فلا بدَّ أن يُشقَّ ثوبه من أمام، لأنه يريدها وهي تدفعه عن نفسها، فالمنطق السديد أن يكون شق الثوب من الأمام، وإن كان يوسف هو الهارب، وهي الطالبة له، فلا بدَّ أن يكون شق ثوبه من خلف، قال ابن عباس: «كان هذا الطفل رضيعاً في المهد، أنطقه الله، وكان ابن خالها»[1] وهذا أوثق للحجة

(١) جامع البيان للطبري ١٢/١٩٣.

عليها وأظهر لبراءة يوسف، فلما تحقّق العزيز أن شق الثوب كان من خلف عرف خيانتها، وبراءة يوسف من تلك التهمة فانطلق يقول: ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ. يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ، إِنَّك كُنْتِ مِنَ الخاطِئين ﴾.

مَنَّةُ اللهِ على يوسف بعصمته وحمايته

لم تكن قصة يوسف بغرض التسلية والترويح عن النفس، بل كانت دروساً بليغة في الطهر والنزاهة، وقد قصَّ علينا القرآن الكريم قصته عليه السلام لما فيها من العِظات والعبر، وحكى لنا حياته بالتفصيل في هذه السورة الكريمة، فصوَّر لنا قصة نشأة يوسف، وحسد إخوته له، ورميهم إياه في الجب، وشراء العزيز له، وقصته مع امرأة العزيز، أبلغ تصوير، وعبَّر عنه أفصح تعبير، وأبان عنه بأروع بيان في الآيات المتقدمة، وفي ضمن سرد قصته عليه السلام، جاء هذا النصُّ القرآني الكريم، وهو قوله تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ، كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾. والآية امتنانٌ من الله على يوسف الصدِّيق، بحفظه وحمايته من مكائد النساء، وحبائل الشيطان، وصرفِ السوءِ والفحشاءِ عنه، وهو في ريعان الشباب، واكتمال القوة والرجولة، وتحتاج إلى تأمل دقيق، في فهمها، وفي معرفة هدفها ومغزاها.

خطأ فاحش في مفهوم معنى الهمِّ والبرهان

لقد شطَّ القلمُ، وزلِقت القدمُ ببعض الذين كتبوا عن قصة يوسف، فزعموا أنه قد همَّ بمقارفة الفاحشة، ولكن حالت دون ذلك حوائل، صرفته عنها، وشجَّعهم على قول ذلك الزور والبهتان، وجودُ

بعض روايات إسرائيلية واهية، ذُكرت في بعض كتب التفسير، بل هي من الروايات المنكرة الباطلة، التي لا يجوز ذكرها، ولا الوثوق بها، لأنها روايات لا زمام لها ولا خطام.

من هذه الروايات التي خبَّ فيها الناسُ وأوضعوا، تفسيرهم «الهمَّ» و «البرهان» بما لا يتفق مع نصوص القرآن، فالقرآن الكريم برَّأه، ونزَّهه، وأثنى عليه الثناء العاطر، لاستعصامه عن مقارفة الفاحشة، ولعفته ونزاهته، وصلابته في دين الله، وخصَّه بالاصطفاء والاجتباء فقال تقدست أسماؤه: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ فهل من يكون عبداً مخلَصاً لله، يُقارف الفاحشة، ويرتكب الموبقات؟!.

افتراءٌ وبهتان على يوسف عليه السلام

لقد زعم بعض القُصَّاص، من المعجبين بالأخبار الغريبة، أن يوسف همَّ بمقارفتها، فحلَّ رباط السروال، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته، ثم رأى صورة أبيه يعقوب، عاضاً على أصابِعه، فقام عنها وتركها خجلاً.

وقال بعضهم: ناداه جبريل أتعمل عمل السفهاء، وأنت مكتوبٌ في زمرة الأنبياء؟! فاستحيا فقام.

وقال آخرون: رأى صورة سيِّده العزيز على الجدار.. إلى غير ما هنالك من أقوال واهية، فسَّروا به البرهان، وهو زورٌ وبهتان، لأنه يصادمُ نصوص القرآن.

ولستُ أدري كيف دخلت تلك الروايات المنكرة، إلى بعض كتب التفسير، وتقبَّلها بعضهم بقبول حسن، وكلها ـ كما يقول العلامة أبو

السعود في تفسيره ـ خرافاتٌ وأباطيل، تمجُّها الآذان، وتردُّها العقول والأذهان!!.

ثم كيف غاب عن أولئك الذين نسبوا إليه الزور والبهتان، أن يوسف الصدِّيق، نبيٌّ كريم، ابن نبي كريم؟ وأنه آثر السجن وفضَّله على عمل الفاحشة ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ إن كتاب الله عزّ وجلّ لا يدلُّ على أكثر من هذا الذي سنذكره، أنها همَّت به همَّ عزم وتصميم، ولولا أن الله كان معه في محنته هذه، وعَصَمه ونجَّاه من شرِّها، لوقع في حبائلها، ولكنَّ الله تولَّاه وحفظه ورَعَاه، لأنه من عباده المقربين الذين أخلصهم الله لنفسه، وأكرمهم بالاجتباء والاصطفاء.

نظر دقيق في أسلوب الآية وفهم أهدافها

ولنرجع الآن إلى الآية الكريمة، نستوحي من أسلوبها الرفيع، ودقة بيانها، هذا المعنى الذي تتقبله نفس المؤمن، وتشير إليه آيات القرآن المبين: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ، كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ قل لي بربك هل توحي هذه الآية الكريمة، أنه عزم على الزنى، أو همَّ بالفاحشة؟ أم توحي بخلاف ذلك؟.

إن في الآية تقديماً وتأخيراً هو الذي أوقع بعض المفسرين في تلك الزلة، حتى نسبوا إليه ما هو منه بريء، والتقدير: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ أي عزمت عزم رغبةٍ وتصميم على مواقعته ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ هنا التقديم والتأخيرُ، فقوله: ﴿ وهَمَّ بِهَا ﴾ جواب «لولا» تقدَّم عليه، والأصل: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، وهذا كما تقولُ

لآخر: قارفتَ الذَّنبَ لولا أن عَصَمك اللهُ، ويُشبهه قولُه تعالى عن أم موسى: ﴿ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ، لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ أي كادت تقول: هذا ابني، لولا أن ثبَّتْنا قلبَها وألهمناها الصبر، فكذلك هنا، المعنى: لولا أن اللَّهَ عَصَمه، وأراه آيةً في نفسه أن الزنى من أقبح القبائح، لَقَارف الذنبَ معها وهمَّ بها، أي لولا عصمةُ الله له لوقع في المعصية، فالآية تذكيرٌ له بنعمة المولى وإفضاله عليه، بأن الله رَحِمَه فعصَمه ونجَّاه، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ كأنه يقول: إنما حفظناه وعصمناه، ودفعنا عنه ذلك الشر الكبير، لأنه من عبادنا المخلصين لنا، الذين أخلصناهم لطاعتنا، واخترناهم لوحينا ورسالتنا.

صفحات مشرقة من التفسير الكبير

ولقد كتب الإمام الفخر الرازي في تفسيره الكبير صفحاتٍ في هذا الموضوع، ننقل بعض فقرات منه لوضوحه وسطوع برهانه، فقد قال رحمه الله:

«اعلم أن هذه الآية من المهمات، التي يجب الاعتناءُ بالبحث عنها، وفيها مسائل:

الأولى: قال بعضهم: إنَّ يوسف عليه السلام همَّ بالفاحشة، ونسبوا إليه أنه جلس منها مجلس الرجل من المرأة، فلمَّا رأى البرهان من ربه، زالت عنه كل شهوة، وفسَّروا البرهان بأنه صورةُ يعقوب عاضاً على أصابعه، أو صنمٌ مكلَّل بالدُرِّ والياقوت، قامت لتستره بثوب، فقال أتستحين أنتِ من صنمٍ لا يعقل ولا يسمع، ولا أستحي أنا من إلَهي القائمِ على كلِّ نفسٍ بما كسبتْ!! فلا واللهِ لا أفعل ذلك أبداً، هذا قولٌ.

والقول الثاني: أن يوسف كان بريئاً عن العمل الباطل، والهمِّ المحرَّم، وهذا قول المحققين من المفسرين، والمتكلمين وبه نقول، وعنه نكافح قال: وقد ذكرنا في عصمة الأنبياء دلائل كثيرة تدل على عصمتهم، ونزيد هنا وجوهاً:

(الحجة الأولى) أن الزنى من منكرات الكبائر، والخيانـةُ في معرض الأمانة أيضاً من منكرات الذنوب، ومقابلة الإحسانِ العظيـم بالإساءة الموجبة للفضيحة والعار الشديد أيضاً من منكرات الذنوب، والصبيُ إذا تـربى في حجر إنسـان، وبقي مكفيَّ المؤنة، مصـون العرض، من أول صباه إلى زمان شبابه، ثم أقدم هذا الصبي على إيصال أشنع أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم الجليل، من منكـرات الأعمال، إذا ثبت هذا فنقول: إن هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام، كانت موصوفة بجميع هذه القبائح، ومثلُ هذه المعصية لو نُسبت إلى أفسق خلق الله، وأبعدِهم عن كل خير، لاستنكف منها، فكيف يجوز إسنادها إلى نبي كريم، ابن نبي كريم، مؤيدٍ بالمعجزات القاهرة الباهرة!؟.

(الحجة الثانية) أنه تعالى قال في هذه الواقعة: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ وذلك يدل دلالة ظاهرة على أن ماهية السوء والفحشاء مصروفةٌ عنه، ولا شك أن المعصية التي نسبوها إليه أعظم أنواع القبائح، وأفحش أقسام الفحشاء، فكيف يليق بربِّ العالمين، أن يشهد في عين هذه الواقعة بكون يوسف بريئاً من السوء، مع أنه كان قد أتى بأعظم أنواع السوء والفحشاء؟ وهذه الآية تدل على المدح العظيم والثناء البالغ، ولا يليق بحكمة الله، أن يحكي عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة، ثم إنه يمدحه ويثني عليه بأعظم المدائح، بعد أن حكى

عنه ذلك الذنب العظيم، ومثالُ هذا ما إذا حكى السلطانُ عن بعض عبيده، أقبح الذنوب، وأفحش الأعمال، ثم ذكره بالمدح العظيم، والثناء البالغ عقيبه، فإن ذلك مستنكر جداً، فكذا هنا فإنه تعالى أثنى عليه فقال: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوْءَ وَالفَحْشَاءَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ ﴾.

(الحجة الثالثة) أن الأنبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة، أتبعوها بإظهار الندامة، والتوبة، والتواضع، ولو كان يوسف ههنا أقدم على هذه الكبيرة المنكرة، لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة والاستغفار، ولو أتى بالتوبة لحكى الله تعالى إتيانه بها، كما في سائر المواضع، وحيث لم يوجد شيء من ذلك، علمنا أنه ما صدر في هذه الواقعة ذنب ولا معصية». اهـ.

رحم الله الإمام الفخر الرازي، فلقد كان إماماً رائعاً، ومحققاً بارعاً، في دفع تلك الشبهات فأجاد وأفاد، ونسأل الله أن يجزيه عن دينه، وكتابه، ورسوله خير الجزاء، وأن يكرمه بجنات الخلد والنعيم، بجوار الصدِّيق يوسف وخاتم النبيين محمد ﷺ، بما دفع من شبهات، وأزال من أباطيل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل(١).

الأدلة القاطعة على براءة يوسف عليه السلام

بينّا بالأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة، براءة يوسف الصدِّيق عليه السلام، مما نسب إليه من الهمِّ باقتراف الفاحشة مع امرأة العزيز، ظناً من الغافلين عن أسرار القرآن أن الآية الكريمة ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ

(١) انظر التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ١٨/ ١٢٠.

رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ يساعد على هذا الفهم، أو يدلُّ عليه، ولكنهم متفقون معنا على أنه لم يقع في المعصية، ولم يقارف الذنب، ولكنَّه همَّ ثمَّ امتنع لوجود برهان ربه، وهذا الفهم الخاطىء يجعلنا نتهم القرآن ـ وحاشاه ـ بالتعارض والتناقض، إذ يثبت أنه همَّ بالمعصية، ثم يخبر أن السوء والفحشاء مصروفة عنه لأنه من عباد الله المخلصين، حيث يقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ، كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوْءَ وَالفَحْشَاءَ، إِنَّـهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ ﴾.

بسطٌ للكلام دقيقٌ وتفصيلٌ بعد الإجمال

ونظراً لخطورة الموضوع، ولكونه يتعلق بنبيٍّ من الأنبياء، ويؤثِّر على عقيدة المسلمين في «عصمة الأنبياء» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فقد آثرنا أن نبسط في هذا الموضوع القول، ونذكر البرهان تلو البرهان، على عفة يوسف عليه السلام، ونزاهته، وبراءة ساحته مما تقوَّل عليه البعض، ممَّا لا يتفق مع النصِّ القرآني الكريم، ولا يقبله إنسان له عقلٌ سليم.

إن الزنى جريمة من أقبح الجرائم والمنكرات، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ ومجرد التفكير به، والهمِّ والعزم على فعلِهِ، سفهٌ وضلال وإجرام، فكيف يَهُمُّ به نبيٌّ من الأنبياء الكرام، استخلصه الله لنفسه، واصطفاه لحضرته؟ فلا بدَّ لنا إذاً أن نفهم النص القرآني على وجهه الصحيح السليم، فالذي يفضِّل السجن على مقارفة الفاحشة، ويقول صراحة دون إخفاء ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يهمَّ بفعل الفاحشة، أويفكِّر فيها مجرد تفكير، ولا بدَّ لنا من حمل الآية على أحد وجهين:

الوجه الأول: أن الآية متعلقة بما بعدها، وفيها تقديم وتأخير ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ ويصبح المعنى: أن الله عزّ وجلّ لو لم يعصمه، ولو لم يحفظه، ويُريَه شناعة وقباحة هذا الذنب، لهمَّ بها بمقتضى الغريزة الجنسية، والميل البشري الفطري، ولكنَّ الله حفظه وصانه وعصمه، فلم يهمَّ بالذنب وهذا كما يُقال: قد كنتَ من الهالكين لولا أن فلاناً خلَّصك، وكما تقول لإنسان تخاف عليه: قارفت الذنب لولا أن عصمك اللّهُ، فكذلك هنا ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ فهو من الكلام الذي معناه: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، ولكنه رأى البرهان فلم يقع منه همٌّ البتَّة.

ويؤيد هذا الرأي أن الله قد فرَّق بين الهمَّين: همٌّ امرأة العزيز، وهمٌّ يوسف الصدِّيق، فقال هناك: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ دون تعليق بشيءٍ، لينبهنا إلى أن الهمَّ منها كان همَّ عزمٍ وتصميم، فهي مندفعةٌ على إجباره على الفاحشة بالقُوَّة، وبالعزمِ، والقصدِ، والتصميم، بعد أن أحكمتْ إغلاقَ الأبواب، ودعته إلى الإسراع إليها ليقضي حاجتها ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ أي أقبل وأسرع، مما اضطره إلى الهروب منها نحو الباب.

وأما بالنسبة إلى همِّ يوسف فقد علَّقه تعالى بقوله: ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ فعلَّقه برؤية البرهان، والبرهانُ هنا عصمتُه تعالى، وحفظه وصونُه له، والمعنى: لولا أن الله عزَّ وجلّ حفِظه وعصَمَه لَوَاقعها وضاجعها، وهذا من الله تعالى تذكيرٌ له بالمنَّة عليه بالحفظ والصيانة، ليشكر الله تعالى على فضله وإنعامه، وفائدة هذا التعليق هو بيانُ أن ترك الهمِّ بها، ما كان لعدم رغبته بالنساء، أو عدمِ قدرته عليهن، بل لأجلِ خوفه من الله، واستعصامه بحبله المتين.

الوجه الثاني: أن نفسِّر الهمَّ منه بها، بالخاطرة و «حديث النفس» بمعنى أن نفسه حدَّثَتْهُ بمطاوعتها، ولكنْ خوفُه من الله، وما يعلمه من قباحة وشناعة هذا الأمر، وعاقبته الوخيمة، وما ركَّز الله في قلبه من النفور عن الفَواحش، دفع عنه تلك الهواجس والخواطر.

ومثاله: المؤمن الصائم في الصيف الشديد الحر، يرى أمامه الماء البارد، فتحمله نفسه على الميل إليه، وطلب شربه، لما يشعر به من شدة العطش، ولكنْ يمنعه دينه عنه.. وهذا ليس فيه ذنبٌ ولا معصية، كما جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ الله تجاوز لي عن أمتي، ما حدَّثتْ به أنفسها، ما لم تكلَّم أو تعمل»[1] رواه البخاري ومسلم.

وعلى هذا الوجه من التأويل، لا ذنب هناك ولا معصية، لأنه مجرد خاطرة مرَّت على ذهنه عليه السلام، وهي تدعوه إلى نفسها، وقد تزيَّنتْ بأبهى الزينة، ولبست أجمل الحُلَل، وحاصرتْه وطاردَتْهُ، وهدَّدته وتوعَّدته، وخاف أن تبطشَ بهِ، فحدَّثته نفسُه بمسايرتها، ولكنْ سرعان ما انصرف عنه هذا الهاجسُ الذي هو من وحي الشيطان، فتذكَّر عظمةَ اللهِ وجلاَلَه، وعقوبتَه وانتقامَه، فلاَذَ بالاحتماء بحمى الرحمن، وأصرَّ على الامتناع خوفاً من الله، وترفعاً عن الخيانة، وحفظاً لشرف سيِّده، وهو سيِّدُها وزوجها الذي أحسن إليه، وانطلق لسانه يردِّد هذه الكلمات ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي عياذاً بالله من فعل السوء بمن أحسن إليَّ وأكرمني.

(١) أخرجه الشيخان، والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه.

اختيار المحققين من المفسرين لهذا الوجه

وهذا الوجه من التأويل اختاره بعض المحققين، فقد حكاه الحافظ ابن كثير عن البغوي فقال رحمه الله: «اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، فقيل: المراد بهمِّه بها خطراتُ حديثِ النفس، حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق، وقيل: همَّ بضربها، وقيل: تمنَّاها زوجة، وقيل: المعنىٰ: همَّ بها لولا أن رأى برهان ربه، أي فلم يهمَّ بها..» الخ هذا نصُّ كلام الحافظ ابن كثير.

وقال العلامة **أبو السعود** في تفسيره «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» ما نصُّه: إن همَّه بها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، ميلاً جبلِّياً، لا أنه قصدها قصداً اختيارياً، ألا يُرى إلى ما سبق من استعصامه المنبىء عن كمال كراهيته له، ونفرته عنه، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين، وهل هو إلا تسجيلٌ باستحالة صدور الهمِّ منه، تسجيلاً محكماً؟ وما قيل: إنه حلَّ الهَمَيان ـ أي الزِّنَّار ـ وجلس مجلس الختان، فإنما هي خرافات وأباطيل، تمجُّها الآذان، وتردُّها العقول والأذهان[1].

الأدلة والبراهين من القرآن الكريم من عشرة وجوه

وبعد هذه الجولة مع أساطين المفسرين، ومع أئمة التحقيق من علماء التفسير، الذين تطمئن القلوب إلى علمهم وفهمهم السليم، نستخلص ما يأتي من الأدلة والبراهين، على عصمته عليه السلام وعفَّته ونزاهته، وقد جمعتُها من كتاب الله عزّ وجلّ، وهي من عشرة وجوه:

الوجه الأول: امتناع يوسف عليه السلام أمام تلك المغريات،

---

(١) انظر تفسير أبي السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢/٦٣.

ووقوفه في وجهها بكل صلابةٍ وعزمٍ مع شدة الإباء، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾.

الوجه الثاني: فِرارُه منها بعد أن غلَّقت الأبواب، وشدَّدت عليه الحصار، والذي يهمُّ بالفاحشة لا يهرب، بل يصمد لينال مبتغاه، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَبَقَا البَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ أي شقت قميصه من الخلف ﴿ وألفيا سيِّدها لدى الباب.. ﴾ أي رأى زوجها العزيز مقبلاً نحو باب القصر.

الوجه الثالث: إيثارُه السِّجنَ على الفاحشة، وذلك أعظمُ برهانٍ على عصمته، ونزاهته عليه السلام، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ، وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾.

الوجه الرابع: ثناءُ الله تعالى عليه في عدة مواطن ووصفه بالإحسان ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً، وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ ﴾ واصطفاءُ الله له في قوله: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوْءَ وَالفَحْشَاءَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ ﴾ بفتح اللام أي ممن اصطفيناهم، واخترناهم للنبوة والرسالة، فهل يكون مخلَصاً للَّهِ من همَّ بفاحشة الزنى؟.

الوجه الخامس: شهادةُ الطفل الذي أنطقه الله عزّ وجلّ وهو في المهد، ليكون حجةً دامغة على عفته وبراءته، وهذا من الآيات الباهرة، والمعجزات القاطعة على نزاهته عليه السلام ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا، إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ، فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ. وَإِنْ كَانَ

قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ، فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَلَمَا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ، إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾.

الوجه السادس: اعتراف امرأة العزيز الصريح البيِّن بمراودتها له، أمام الملك وأمام الحاضرين، وعفته ونزاهته وإباؤُه وامتناعه عليها ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ العَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ ﴾ أي ظهر وبان ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾.

الوجه السابع: إقرارها أيضاً أمام النسوة بخيانتها، ومراودتها له، وبامتناعه منها أشدَّ الامتناع، وعدم استجابته لها، وتهديدها له أمامهن بالسجن والإهانة ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُه لَيُسْجَنَنَّ وليَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرينَ ﴾.

الوجه الثامن: استغاثته بربه جل وعلا لينقذه من كيد النساء ولجوؤه إليه ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ، إِنَهُ هو السَّمِيعُ العَليمُ ﴾.

الوجه التاسع: إدخال العزيز ليوسف في السجن، بعد ظهور الدلائل القاطعة على براءته، لدفع مقالة الناس ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾.

الوجه العاشر: عدم قبول يوسف الخروج من السجن حتى تبرأ الساحة، وذلك نهاية الشهامة والعفّة ﴿ وقال المَلِكُ ائْتُوني بِهِ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ ﴾ أي ارجع إلى سيدك الملك ﴿ فاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّلاتي قَطَّعْنَ أيْدِيَهُنَّ، إِنَّ رَبِّي بكيدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾.

هذه عشرةُ وجوهٍ من كتاب الله تعالى على وجه الخصوص، تنطِقُ كلُّها بنزاهة يوسف، وبراءته مما نُسب إليه من الهم والبهتان، الذي ألصقه به بعضُ المغفَّلين.

وأختُم الحديث بما قاله الفخر الرازي في التفسير الكبير حيث قال رحمه الله:

أ - إن يوسف قد شهد اللهُ ببراءته، بقوله جلَّ وعلا ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾.

ب - وشهد ببراءته الشاهدُ من أقرباءِ امرأةِ العزيز، بقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا، إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ... ﴾ الآية.

جـ - وشهد ببراءتِهِ النسوةُ اللاَّتي قطَّعْنَ أيديهنَّ، بقوله تعالى: ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوْءٍ... ﴾ الآية.

د - وشهدت ببراءته زوجةُ العزيز بقولها: ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ، أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾.

هـ - وشهد ببراءته الشيطانُ نفسُه، حين قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾.

ثم قال رحمه الله: فالذي يريد أن يتَّهم يوسف بالهمِّ في الفاحشة، عليه أن يختار أن يكون من حزب الرحمن، أو من حزب الشيطان، وعلى كلا الوجهين، الجميعُ شهد ببراءة يوسف، فلا مفرَّ إذاً من الإقرار بالحق على أي حال، وهو براءةُ يوسف عليه السلام من الهمِّ بامرأة العزيز[١].

* * *

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/١١٦.

مؤامرةٌ داخل القصر على يوسف عليه السلام

وتمضي السورة الكريمة في آياتها البيِّنات، وهي تطالعنا بصورٍ ومشاهد من قصة يوسف الصدِّيق، فيها ألوانٌ من الأحداث المثيرة، والأخبار العجيبة، التي تسترعي الانتباه، وتشدُّ القارىء إليها شدّاً، وها نحن الآن أمام مشهدٍ جديد، من مشاهد المكر والكيد، تدبره امرأة العزيز لهذا الشاب المؤمن العفيف. لقد شاع الخبر في أرجاء المدينة، وأخذت ألسنة النِّساء تلوكُ في امرأة العزيز ـ كبير الوزراء ـ استهجاناً لها، ولوماً وعتاباً على صنيعها العجيب، كيف تعشق سيِّدةٌ عبدها؟ وكيف تهوَىٰ وتحبُّ خادماً لها؟ وهي زوجة العزيز، وسيِّدة النساء؟!.

أيليق بامرأة من الطبقة الراقية، من سيِّدات القصور، من ذواتِ العز، والجاه، والسلطان، أن يتعلق قلبها بعبدٍ مملوكٍ، هو أجيرٌ وخادمٌ لها؟ وأن يبلغ حبُّهُ في قلبها إلى هذه الدرجة من المهانة، أن تراوده عن نفسه؟ وبلغ ذلك الخبر امرأة العزيز، فأرسلت إلى صديقاتها العاذلات، تريد أن توقعهن معها فيما وقعت فيه، حتى يعذرنها في هذا الحبِّ والغرام.

مكر امرأة العزيز بالنسوة

اتخذت مائدة فيها أنواع الفواكه والطعام، ودعت أربعين امرأة من نساء أشراف مدينتها، فيهن زوجات الكبراء والوزراء، وهيأت لهن مكاناً يجلسن فيه، على الأرائك الوثيرة، والوسائد الناعمة كعادة المترفين، وقدَّمت إليهنَّ طعاماً يحتاج إلى القطع بالسكين، وكانت قد خبأت يوسف في مكان آخر، وفي تلك اللحظة من اشتغالهنّ بالطعام، أمرته أن يخرج عليهن ـ وكان يخاف من مخالفتهاـ فخرج عليهن يوسف في بهائه وجماله، ووقاره وزينته، فألهاهنَّ حسنُه، وبهرهنَّ جماله، وتشاغلن

به عمًّا في أيديهن من السكاكين، فجرحن أيديهن بها، ولم يشعرن في تلك اللذة الغامرة من الاستمتاع بالنظر إليه، بألم جراحة الأصابع، حيث كان الدم يسيل على ثيابهن، وهنَّ يحسبن أنهن يقطعن الفاكهة!!.

تصويرٌ رائع في مكر النساء

ولنستمع إلى الآيات البينات، وهي تحدثنا عن تلك المكيدة والمؤامرة ـ التي دبرتها امرأة العزيز للنساء ـ في أسلوبٍ رائع، وتصوير جميل، وعبارةٍ تأخذ بالألباب، وإعجازٍ ما بعده من إعجاز، يقول جلَّ ثناؤه وتقدست أسماؤه: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المَدِينَةِ امْرَأَةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاً، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ، وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً، وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً، وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ، وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ، مَا هَذَا بَشَراً، إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيم ﴾.

ولنرجع إلى المعاني والدلالات والإشارات في الآيات البينات، فقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المَدِينَةِ امْرَأَةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ في الآية استهجانٌ وتقبيحٌ لعملها يقول النسوة إنه عبدٌ وهي امرأة العزيز، أي هي سيِّدة، كبيرة، شريفة، ـ زوجةُ كبير الوزراء ـ فتصريحهن بإضافتها إلى العزيز مبالغةٌ في التشنيع، والتعبيرُ بلفظ المضارع ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ للدلالة على أن ذلك صار سجيَّةً لها وعادةً، فهي دائماً تخادعه عن نفسه، وتتوسَّل إليه بشتى الوسائل لقضاء وطرها، فالسيدة تطلب من خادمها وعبدها أن يواقعها، وتذلُّ كبرياءها بين يديه، وقولُه تعالى: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاً ﴾ أي خرق حبُّه شَغَاف قلبها، والشَّغَاف ـ بالفتح كما يقول أهل اللغة ـ هو الجلدة الرقيقة المحيطةُ

بالقلب، وهي غلافُه.

قال ابن عباس: الشَّغفُ: الحبُّ القاتل، والشَّغَافُ: حجابُ القلب، فكأن حُبَّه أحاط بقلبها، مثلَ إحاطة الغلاف الرقيق بالقلب، حتى طغى على كل تصرفاتها، فلم تعد تفكِّر في غيره.

وقال الزجاج: الشَّغَاف حبَّةُ القلب، وسويداء القلب، والمعنى: أنه وصل حبُّه إلى سويداء قلبها. وبالجملة فإن هذا التعبير وهو قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ يُوحي بالحبِّ الشديد، والعِشقِ العظيم، ولهذا ختمت الآيةُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

والمعنى: إنَّا لنعتقد أنها في ضلالٍ عن طريق الرشد، واضحٍ ظاهر، لا يخفى على أحد، بسبب حُبِّها إياه، وقد أُكِّدت الآية بعدة مؤكدات وهي «إنَّ» واللاَّم، كما وُصف الأمر بالضلال الواضح الجلي، وذلك منتهى التشنيع والتقبيح على ما أقدمت عليه.

يقول النسوة: يا لها من رعونةٍ أن تتنزَّل السيِّدةُ المالكةُ، زوجةُ كبير الوزراء، من أوجِ عليائها وكبريائها، إلى عبدٍ عبريٍّ خادم لها في منزلها، وأن تطلبَ منه أن يواقعها، وتتوسَّلَ إليه بجميع الطرق التي تؤمِّن لها رغبتها!!.

هذا خلاصةُ ما دار من حديثٍ بين النساء، من الطبقة الراقية، زوجات الكبراء والوزراء.

دعوتهنَّ إلى القصر للمكر بهنَّ

وهنا دبَّرت لهن امرأة العزيز مكيدة خفيَّة، ما كنَّ يشعرن بها ولا يعلمن شيئاً عنها، فجمعتهن عندها في القصر لتفاجئهنَّ به، وفي ذلك

يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ، وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ أي فلمَّا سمعت امرأة العزيز بحديثهن وقولهنَّ، وبلغها ما يتحدثن به عنها في غيبتها، من عتبٍ ولومٍ - وسُمِّي هذا الحديثُ «مكراً» لأنهنَّ كنَّ يتحدثن به بينهن في غيبتها - والغِيبةُ إنما تذكر على سبيل الخُفية فأشبهت المكر، فأشبه من هذه الناحية مكر الماكر، الذي يدبِّر لخصمه حيلةً في الخفاء ﴿ وأعتدت لهن متكأ ﴾ أي هيأت لكل واحدة منهن ما تتكىء عليه من الفرش والوسائد ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينَاً ﴾ في الكلام شيءُ محذوفٌ دلَّ عليه السياقُ، أي قدَّمت لهن الطعام، وأنواع الفاكهة التي تحتاج إلى تقشير، ثم أعطتْ كلَّ واحدةٍ منهنَّ سكيناً لتقطع به ﴿ وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ أي وأمرت يوسف بالخروج عليهن وهنَّ مشغولات بتقشير الفاكهة، والسكاكينُ في أيديهن، فلم يشعرن إلا ويوسف يمرُّ من بينهن ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَـهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أي فلمَّا رأين يوسف أعظمنه وأجللنه، وبُهتن من جماله الفائق ودُهشن، وجرحن أيديهن بالسكاكين.

لقطات من كتاب الظلال

يقول سيد قطب في تفسيره الظلال: «لقد أقامت لهنَّ مأدبةً في قصرها - وندرك من هذا أنهنَّ كنَّ نساء الطبقة الراقية، فهنَّ اللواتي يُدعين إلى المآدب في القصور، وهن اللواتي يُؤخذن بهذه الوسائل الناعمة - ويبدو أنهن كنَّ يأكلن وهنَّ متكئات على الوسائد والنمارق، ويُؤخذ من هذا صورة الترف والحضارة المادية التي كان عليها أهل القصور في مصر، وبينما هنَّ منشغلاتٍ بتقطيع اللحم، أو تقشير الفاكهة، فاجأتهنَّ بيوسف، فلما رأينه بُهتن لطلعته ودُهشن، وجرحن

أيديهن بالسكاكين»[1] ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ أي تنزَّه الله عن صفات العجز، فليس هذا الفتى من البشر، وما هو إلا مَلَكٌ من الملائكة، فإنَّ مثْلَ هذا الجمال الباهر، ليس من سِمَاتِ البشر إنما هو من أوصاف الملائكة المكرمين. وهنا شعرت امرأة العزيز بأنها انتصرت عليهن، فباحت لهن بسرِّ عشقها له، بعد أن أوقعتهن في شباك غرامه، فقالت قولة المجاهرة المنتصرة، التي لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها، أن تُفْضِي لهنَّ بما في نفسها، دون أي شعور من حياءٍ أو خجل ﴿قَالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ، ولقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ، وَلَيَكُوْنَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي هذا هو العبد الكنعاني الذي لمتُنَّني في محبته، فانظرن ماذا لقيتنَّ منه من الافتتان، والدهشة والإعجاب؟ حتى جرحتنَّ أيديكنَّ بالسكاكين؟ ثم تخبرهنَّ صراحةً بأنها هي التي راودته عن نفسه، وأرادت أن تقضي شهوتها معه، ولكنه امتنع امتناعاً شديداً، وأبى إباءً عنيفاً، وهناك تعلن أمامهنَّ بتبجح وإصرار، أنه إذا لم يستجب لها، ولم يلبِّ طلبها، فستكون عاقبته وخيمة: إمَّا السجن والحبس، أو الإذلال والإهانة، حتى تكسر كبرياءه، وترغمه على مضاجعتها، وحقاً إنه الإعلان والاستهتار أمام النزوات الجنسية التي طغت على عقلها.

النسوة يُبْهرن بحسنه وجماله

لقد تركنا يوسف الصدِّيق أمام تلك المحنة الشديدة، محنة تآمر النسوة عليه، بعد أن دبرت لهنَّ امرأة العزيز تلك المكيدة، حيث

(١) في ظلال القرآن ١٢/٢٣٢.

جمعتهن في القصر عندها، وقدَّمت لهنَّ أنواع الفاكهة ممَّا لذَّ وطاب، وأمرته أن يخرج إليهنَّ، في تلك اللحظة التي كنَّ يتحدثن فيها، وبأيديهن السكاكين يقشرن بها الفواكه، ويقطعن بها الطعام، وذلك لتدفع عن نفسها لومهنَّ، بعد أن يشاهدن جماله الباهر، ويفتتنَّ به كما فُتنت هي بطلعته، وأن يقع حبه في قلبهن كما وقعت هي في حبه وغرامه، فكان ذلك مكيدةً منها لأولئك النسوة، اللواتي تكلمن عنها باللوم والعتاب!!.

فما أن خرج عليهن يوسف، حتى دُهشن وبُهرن من جماله الصارخ، وقلن ﴿حَاشَا لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ لقد كانت رؤيتهن ليوسف مكيدة دبرتها لهن امرأة العزيز، حتى يكففن عن عذلها، وحتى تنال مبتغاها منه دون عتابٍ أو لومٍ من أحد، بعد أن توقعهن في حبه كما وقعت هي فيه ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ. . ﴾.

وقفة قصيرة أمام اعتراف امرأة العزيز

ولنقف هنا وقفةً قصيرة أمام اعتراف امرأة العزيز في قولها: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ أليس فيه أعظم البرهان على عفة ونزاهة يوسف عليه السلام، ممَّا نسبه إليه بعض المغفَّلين من الهمِّ بمقارفة الفاحشة؟ إنها تُقرُّ وتعترف بمنتهى الصراحة، أنها هي التي طلبت منه أن يواقعها، وتوسَّلت إليه أن يضاجعها، وأنه أبى كل الإباء، وامتنع كل الامتناع عن أن يُلبِّي رغبتها، وهذا معنى الاستعصام الذي أشارت إليه بقولها: ﴿ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ الذي هو بناء مبالغة ممَّا يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، أمام وجوه الفتنة والإغراء، وكأنها

تقول: أنا التي كنت أراوده ويأبى عليَّ، وأطارده ويمتنع منِّي.

فكيف يرضى عاقلٌ بعد هذا الاعتراف الصريح، أن ينسب إلى يوسف ما هو منه بريء، وأن يطوف في خُلده شيء من سوء الظنِّ بعفته ونزاهته عليه السلام؟ إن لفظة «فَاسْتَعْصَمَ» من المرأة نفسها، كافيةٌ في تبرئة ساحته عليه السلام، من ذلك الزور والبهتان الذي نسبه إليه بعض الجاهلين، ممَّن لم يكن لهم رسوخ في علوم اللغة والدين، فدعوى أنه جلس منها مجلس الرجل من امرأته، وأراد مقارفة الفاحشة معها، دعوى باطلة كاذبة. وبعد أن أعلنت براءته ونزاهته، وأقرت بأنها هي التي راودته عن نفسه، أمام الجمع الغفير من النساء، غالبتها نزوتُها الأنثوية، فجهرت أمامهنَّ بمطمعها به، وأنها لا تزال تتطلع إليه لإجابة طلبها، فتندفع في تبجح مكشوف، تتوعد وتهدِّد في معرض النساء فتقول: ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوْنَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾.

امرأة العزيز تهتك جلبـاب الحياء

لقد عاودته المُرَاودةَ بمحضرٍ منهن، فهتكت جلباب الحياء، ولم تعد تخشى عتاباً ولا ملاماً، فقد شعرت بالانتصار عليهن، بعد أن فتنَّ به بنظرةٍ واحدة، وطغت عليها شهوتها الجامحة، فقالت ما قالت، في إصرارٍ وتبجح جديد، مع الوعيد والتهديد، بعد أن كانت تخفي ذلك ولا تظهره.

ويسمع «يوسف» هذا القول ـ وهو شاب في ريعان الشباب ـ في مجتمع النساء المبهورات المفتونات، المبديات لزينتهن ومفاتنهـنّ في مثل هذه المناسبات، ويلمح الأبصار تتجه إليه وكأنها تخاطبه أن أطع مولاتك، وليكن لنا منك حظٌّ ونصيب، فإذا هو يناجي ربه بهذا الدعاء

الخاشع المنيب: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ، وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ، وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾.

استغاثة يوسف بالله لصرف شرهنَّ عنه

لم تعد محنته مع سيدته امرأة العزيز فحسب، بل طمحت إليه أبصارهن، وتعلقت به قلوبهن، فأصبحت المحنة كبيرة وجسيمة على نفسه، لأنهن كن نساءً فاتنات مفتوناتٍ، من عِلْيةِ القوم من الطبقة الراقية، ممن عشن على الترف والدلال، فلهذا قال في مناجاته ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ ولم يقل «مما تدعوني إليه» فهنَّ جميعاً مشتركات في الدعوة، سواءً بالقول، أم بالنظرات والحركات، فإذا به يستنجد بربه أن يصرف عنه كيدهنَّ، ومحاولاتهن لإيقاعه في حبائلهن، ويخشى على نفسه من مكرهن، أن يضعف في لحظةٍ من اللحظات، أمام ضروب الفتنة والإغراء، فيدعو ربه أن ينقذه منهن.

وهنا نلمح البرهان تلو البرهان، على عفته ونزاهته عليه السلام، فلقد آثر السجن على فعل الفاحشة، وفضَّل العقاب على اللّذة العاجلة ﴿ قال ربِّ السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه ﴾ وذلك من أظهر الدلائل، وأوضح البراهين، على نزاهة ساحته ممَّا نسب إليه أهل البهتان.! تضرَّع إلى ربه لينقذه من تلك المحنة، واستشعر - بطبيعته البشرية - ضعفه أمام تلك المغريات، فهو عبدٌ مملوك لسيدته، ولكنه قبل ذلك عبدٌ للَّهِ، وما لم تتداركه عنايةُ الله، ربما ضَعُف عن مقاومة كيد النساء، فإن كيدهن عظيم، وتأثيرهن على الرجال جسيم، وكما قال القائل:

يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حتَّى لا حَرَاكَ بِهِ   وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ إِنْسَانَا

ولهذا استنجد بربه، وأظهر الذلة والخضوع، استدراراً للرحمة، وإظهاراً للعجز والضعف بمقتضى الطبيعة البشرية فقال: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾.

والمعنى: إن لم تدفع عني يا ربِّ شرَّهن، وتعصمني منهن، أمِلْ إلى أجابتهن بدافع بشريتي، وأصبح حينئذٍ من السفهاء الذين لا ينزجرون عن فعل القبيح.

وهذا القولُ منه إنما جاء على سبيل التضرع والدعاء، والاستغاثةِ بجناب الله تعالى، كعادةِ الأنبياء والصالحين، وكأنه يقول: أبرأُ إليك من الحول والطَّوْل، فلا حول ولا قوة إلا بك يا ربَّ العالمين.

وهنا تتداركه عناية الله وحياطته، فيحفظه ويرعاه، ويصونه من كيدهن، ويكون معه في محنته حتى ينجو منها ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾. ولهذا السبب كان جزاء من عفَّ عن محارم الله من الشباب، أن يظله الله في ظلِّ عرشه يوم لا ظل إلا ظله، كما ثبت ذلك في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه عدَّ من السبعة الذين يظلهم الله قوله: «ورجلٌ دعتْه امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخاف الله ربَّ العالمين»[1].

ولقد تكرر ذكر الكيد والمكر في هذه السورة مراتٍ عديدة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وقوله: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ لينبهنا القرآن إلى خطر فتنة النساء، فهنَّ على ضعفهن أخطر ما يجابهه الرجل من فتنةٍ في هذه الحياة، كما قال

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم بلفظ (سبعة يظلّهم الله في ظلّه..) إلخ وانظر جامع الأصول ٩/٥٦٤.

سيدنا رسول الله ﷺ «ما تركت بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء»(١) وقال لعائشة لما أمرها أن تكلف أباها أبا بكر أن يصلي بالناس، وذلك في مرضه عليه السلام الذي تُوفي فيه، فراجعته في ذلك مراتٍ وهو يقول لها: مروا أبا بكر فليصل بالناس، ثم قال لها: «إنكنّ صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس» كما في صحيح البخاري، وقد ختمت الآيات الكريمة بما يدل على جانب من هذا المكر الذي اشتهرت به النساء، فبعد كل الدلائل والبراهين التي ظهرت لعزيز مصر ببراءة ساحة يوسف، وإدانة امرأته، استطاعت بمكرها وكيدها أن تؤثر على زوجها وعلى حاشيته حتى يحكموا بدخول يوسف السجن ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ رُوي أن امرأة العزيز لما استعصى عليها يوسف، وأيست أن تنال مبتغاها منه، احتالت بطريق آخر، فقالت لزوجها: إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس، أنني راودته عن نفسه، وأنا لا أقدر على إظهار عذري، فإما أن تأذن لي فأخرج إلى الناس وأعتذر أمامهم، وإمَّا أن تحبسه حتى تنقطع ألسنة الناس عني، وتسلمَ على عرضك وشرفك، فعند ذلك تأثر بكلامها فبدا له سجنُه، قال ابن عباس: فأمر به عزيز مصر، فحمل على حمارٍ، وضُرب بالطبل، ونودي عليه في الأسواق، إن يوسف العبراني أراد سيِّدتَه بسوء، فجزاؤه أن يسجن، قال أبو صالح: ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلَّا بكى(٢).

---

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي والنسائي، وانظر جامع الأصول ٤/٥٠٤.

(٢) انظر غرائب القرآن ١٢/١٠٤ والتفسير الكبير للرازي ١٨/١٣٢.

إدخال يوسف السجن

أُدخل «يوسف الصدِّيق» السجن ظلماً وعدواناً، لا لشيء إلَّا نزولاً عند رغبة زوجة العزيز، التي تابعت خطتها الماكرة لإهانة يوسف وإذلاله، ليرضخ - تحت تأثير الضغط - لرغبتها، ويلبي غرضها الدنيء في تحقيق مرادها، لاسيَّما بعد أن توعَّدت وهدَّدت، أمام زوجات الكبراء والوزراء، بأنها ستُذلّه وتُهينه، أو تُدخله السجن، إن لم يستجب لنزوتها الطائشة، ويحقق لها مأربها فقالت في تبجحٍ واستهتار: ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوْنَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾.

وعوضاً من أن يُكرَّم يوسف على عفته ونزاهته، وأن تُعاقب زوجةُ العزيز على خيانتها وجنايتها، وعلى ما اجترحته يدها من إرادة تلويث سمعة زوجها، وتدنيس فراشه، لو تمَّ الأمر لها، واستجاب ذلك الشاب لرغبتها الطائشة، جاء الأمر بالعكس، فقد حُكم على يوسف بالسجن، جزاء عفته وطهارته، فبُرِّىء المتهم، وأُدين البريء، وقُدِّم يوسف التقيُّ النقيُّ، فديةً لسمعة تلك المرأة الظالمة التي استهانت بكرامتها، وكرامة زوجها عزيز مصر، وهكذا حال الدنيا يُخوَّن الأمين، ويؤتمن الخائن.

محنة دخوله السجن

صدر الحكم بسجنه، فدخل السجن ومكث فيه سنوات طويلة، تبلغ سبعاً كما قال تباركت أسماؤه: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ. وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرَاً، وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزَاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

ومن هنا تبدأ المحنة الرابعة في حياة يوسف الصدِّيق «محنة

دخوله السجن» والسجنُ للبريء المظلوم تكون على نفسه أشدَّ وأقسى، فقد دخل السجن على غير جريمةٍ اقترفها، ودخل معه السجن فتيان:

أحدهما: رئيسُ سُقاة الملك.

والثاني: رئيسُ الخبَّازين والطبَّاخين.

وكلاهما من خدم الملك في القصر.

قال المفسرون: كان الفَتَيان غلامين لملك مصر الأكبر في ذلك الزمان، أحدهما خبَّازه صاحب طعامه، والآخر ساقيه صاحب شرابه، فغضب الملك عليهما فحبسهما، وكان سبب حبس الملِكِ إياهما أنه توهَّم أنهما اتفقا على وضع السُمِّ له في طعامه وشرابه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن، بالجود والأمانة، وصدقِ الحديث، وكثرة العبادة، ومعرفة التعبير للرؤيا، والإحسان إلى أهل السجن».

التقاء يوسف بساقي الملك وطبَّاخه

ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن، التقيا به وأحبَّاه حباً شديداً، وقالا له: واللهِ لقد أحببناك حباً زائداً، قال: بارك الله فيكما، إنه ما أحبَّني أحدٌ إلَّا دخل عليَّ من محبته أذى، أحبَّتني عمتي فدخل عليَّ الضرر بسببها، وأحبني أبي فأُوذيتُ بسببه، وأحبتني امرأة العزيز فأُدخلت السجن وهكذا، فقالا: والله ما نستطيع إلَّا ذلك. ثم إنهما رأيا مناماً، رأى الساقي أنه يعصر خمراً، يعني عنباً فذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرَاً﴾ قاله الضحاك، وقال عكرمة: إني رأيتُ في المنام أني غرستُ حبَّةً من عنب، فنبتت فخرجت منها عناقيد، فعصرتهن ثم

سقيتهن الملكَ، وقال الآخر وهو الخبَّاز: ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المُحْسِنِينَ ﴾ أي أخبرنا بتأويل هذه الرؤيا إنا نتوسَّم فيك الخير، ونرى أنك ممن يحسنون تفسير الرؤيا.

قال ابن كثير: «والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه، أنهما رأيا مناماً وطلبا تعبيره، وروي عن ابن مسعود أنه قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئاً، إنما كانا تحالما ليجرِّباه ويمتحناه»[1] ا هـ كلام الحافظ ابن كثير.

يوسف يفسِّر لهما الرؤيا بعد الدعوة

لم يتعجل يوسف عليه السلام في تفسير رؤياهما، بل أراد أن يثبت لهما صدقه، في معرفته ببعض الأمور الغيبية التي تخفى عليهما، وأراد أن يستفيد وهو في السجن من وقت الفراغ، فيخصِّصه للدعوة إلى الله، وذلك شأنُ الصدِّيقين العارفين بالله، لا يُضيعون الوقت فيما لا يجدي، بل تكونُ همتهم تبليغُ دعوة اللهِ، أينما وُجدوا وحيثما حلُّوا، لأن لهم رسالة سامية يريدون أداءها، وهذا ما فعله يوسف الصدِّيق في السجن، أراد أن يدعوهما إلى التوحيد والإيمان بالله، وأن يرشدهما إلى الدين القويم، قبل أن يُسعفهما إلى ما سألا عنه، كما هي طريقة الأنبياء في الهداية والإرشاد، فقدَّم ما يكون معجزةً له من الإخبار بالغيب، ليدلَّهما على صدقه في الدعوة والتعبير: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا، ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾.

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣/٢٤٩.

والمعنى: لا يأتيكما شيء من الطعام، يقدم لكم به أهلكما، إلا أخبرتكما ببيان حقيقته، ونوعه، وكيفيته قبل أن يصل إليكما، وهذا منه عليه السلام يشبه معجزة عيسى حيث قال: ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ فلما سمعا منه ذلك قالا: هذا فعل الكهنة، فمن أين لك هذا العلم؟ فقال: ما أنا بكاهن ﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ أي هذا من فضل الله عليَّ، بسبب طاعتي وإيماني به، ثم زادهما في التوضيح والبيان، حاضاً لهما على الإيمان فقال: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ. وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

يوسف في السجن داعية إلى الله

وهكذا شأن الداعية المؤمن، الصادق المخلص، لا يدَّخر فرصة من الوقت إلَّا ويستغلها في نفع الآخرين، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وبعد هذا التوضيح والبيان، أخذ يرشدهم إلى دعوة التوحيد والإيمان، ويدلهم على طريق السعادة والنجاة، وذلك بتوحيد الله ونبذ عبادة الأوثان ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ. مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ تدرج عليه السلام في دعوتهم، وألزمهم الحجة، فبيَّن لهم أولاً رجحان التوحيد على عبادة الأوثان، ثم برهن لهم أن ما يسمونه آلهة ويعبدونه من دون الله، لا تستحق العبادة والألوهية، لأنها جمادات لا تستجيب ولا تسمع، ولا

تضر ولا تنفع، ثم دعاهم إلى عبادة الله الواحد القهار، العزيز الجبار، الذي بيده الخلق والأمر، والنفع والضر، وبعد أن أكمل الدعوة إلى الله بالأسلوب الحكيم، شرع في تفسير رؤياهما فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا، وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ، قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ومعنى «يا صَاحِبَيِ السِّجْنِ» أي يا صاحبيَّ ورفيقيَّ في السجن، لأنهما دخلا السجن معه، فهو نداء صحبةٍ وإقامة، ثم بيَّن لهما وفصَّل لهما الرؤيا قائلاً: أما الذي رأى أنه يعصر خمراً، فسيخرج من السجن ويعود إلى عمله، فيسقي الملك خمراً، وأما الذي رأى على رأسه الخبز فسيقتل ويعلق على خشبةٍ فتأكل الطير من لحم رأسه، وهكذا كان الأمر كما عَبَّر لهما الرؤيا وكما قال.

وصيَّةُ يوسف للساقي ونسيانه الوصية

وبعد أن عبَّر الرؤيا لصاحبيه اللَّذيْن كانا معه في السجن، وأخبرهما بما يحصل لهما على سبيل البتِّ والقطع، أوصى الشخص الذي اعتقد نجاته وهو الساقي أوصاه خفيةً عن الآخر، بأن يذكره عند الملِك، وأن يخبره عن قصته بأنه مظلوم في تلك التهمة التي لفقتها له امرأة العزيز، وأكَّد عليه ألا ينسى أمره عند سيِّده الملك، وتمَّ قضاء الله فصُلب الطبَّاخُ، وأُفرج عن الساقي فخرج من السجن، ولكنه نسي وصيَّة يوسف أن يذكر أمره للملك، فمكث يوسف في السجن سبع سنين، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ، فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ، فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ والمَرَادُ بالربِّ في الآية الكريمة ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي سيِّدك ملك مصر، ولم يُرد به معنى الإله، وهذا كما نقول: فلان ربُّ الدار، وربُّ الإبل. إنما يراد به الصاحب والمالك، ولا يراد به الربُّ الخالق الرازق.

عتابٌ لطيف ليوسف الصدِّيق في السجن

قال المفسرون: إنما لبث في السجن بضع سنين، لأنه اعتمد ووثق بالمخلوق، وغفل أن يرفع حاجته إلى الخالق جلّ وعلا، وتلك غفلةٌ عرضت له عليه السلام، والأولى بالصدِّيقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب وعن المخلوقين، وألا يشتغلوا إلا بذكر الخالق مسبِّب الأسباب، فلهذا صار يوسف عليه السلام مؤاخذاً بهذا القول، وقد رُوي أن جبريل جاء يوسفَ وهو في السجن معاتباً له، فقال له: يا يوسف من خلَّصك من القتل من أيدي إخوتك؟ قال: الله تعالى، قال: فمن أخرجك ونجَّاك من غيابة الجبِّ؟ قال: اللهُ تعالى، قال: فمن عصمك من الفاحشة؟ قال: اللهُ تعالى، قال: فمن صرف عنك كيد النساء؟ قال: اللهُ تعالى، قال: فكيف تركتَ ربك فلم تسأله ووثقتَ بمخلوق؟! قال: يا ربِّ كلمةٌ زلَّت مني، أسألك يا إله إبراهيم، وإله إسحق، وإله الشيخ يعقوب أن ترحمني!! فقال له جبريل: فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين، فذلك قوله تعالى: ﴿ فأنساه الشيطانُ ذكر ربه، فلبث في السجن بضع سنين ﴾[1].

قال وهبٌ: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين.

الملك يرى في المنام رؤيا عجيبة

بعد تلك السنين العصيبة الشديدة، التي مرت على يوسف وهو في السجن، جاءه الفرج والمخرج من الله، فقد رأى ملكُ مصرَ ـ وهو

---

(١) ذكر هذه الرواية القرطبي في تفسيره جامع الأحكام ١٩٦/٩.

غير العزيز - رؤيا عجيبة غريبة أفزعته، فجمع السحرة والكهنة والمنجمين ليخبرهم بما رأى في منامه، وسألهم عن تأويلها، فأعجزهم الله جميعاً، ليكون ذلك سبباً في خلاص يوسف من السجن ﴿ وَقَالَ المَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ، وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ، يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ. قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾.

وتفصيل الرؤيا: أن الملك رأى سبع بقراتٍ سماناً جميلات، قد خرجت من النهر، وأخذت ترتع في روضةٍ معشبة وفي أثرهن سبع بقراتٍ هزيلة، في غاية الهُزال، قبيحة الهيئة والمنظر، قد خرجت من ذلك النهر، فابتلعت العجافُ السمانَ، كما رأى سبع سنابلَ خضراءَ حسنة، قد انعقد حبُّها، وسبع سنابل أُخَرَ يابسة قد استحصدت، فالتوت اليابسات على الخضر فأكلتها وابتلعتها فلم تبق لها أثراً.

طلب الملك تفسير الرؤيا

جمع الملك الكهنة ورجال الحاشية وسألهم عن تفسيرها، فلم يعرفوا وقالوا: ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ أي هذه أحلامٌ كاذبة، ومنامات باطلة، قد اختلط فيها الأمر والتبس، ولسنا نعرف تأويل مثل هذه الأحلام الغريبة، التي تقرب أن تكون من الخيالات والأوهام.

وعند ذلك تذكَّر ساقي الملك - الذي كان قد نجا من السجن - تذكَّر قدرة يوسف على تأويل الأحلام، ومعرفتَه بتفسيرها على وجه الدقَّة والصواب، فطلب من الملك وحاشيته أن يرسلوه إلى السجن ليأتيه بالخبر اليقين، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ

بَعْدَ أُمَّةٍ، أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ ومعنى «ادَّكَر» أي تذكَّر أمر يوسف ومعرفته بتأويل المنامات، «بَعْدَ أُمَّةٍ» أي بعد مدة طويلةٍ من الزمان، ولولا هذه الرؤيا لبقي يوسف في عالم النسيان.

وفي الآية الكريمة محذوف دلَّ عليه السياق، وهذا المحذوف هو: فأرسلوه فذهب إلى يوسف فدخل عليه وهو في السجن، وتلطَّف معه في الحديث والكلام، فقال له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيق أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ، يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ، وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ، لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ، لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

قدَّم المديح والثناء على الخبر والاستفتاء، فوصف يوسف بالصدِّيق، وهو البليغ الكامل في الصدق والتصديق، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أن من أراد أن يتعلم من رجلٍ شيئاً، أو يستفتيه في أمرٍ يهمُّه، فإنه يجب عليه أن يعظمه، وأن يخاطبه بالألفاظ المشعرة بالإجلال، ولهذا بدأ حديثه بقوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ ثم قصَّ عليه رؤيا الملك، وأعاد اللفظ الذي ذكره الملك بعينه، لأن التعبير يختلف باختلاف العبارات، وكما يقول الناسُ: «الفتوى على قدر النصِّ» أي ينبغي أن يذكر الأمر كما حدث وكما وقع، حتى يجيبه المفتي بالجواب الشافي الكافي.

شهامة يوسف وتأويله للرؤيا دون شرط

وهنا تظهر شهامة يوسف، وعزته وإباؤه، فما اشترط عليه أن يخرجه الملك من السجن حتى يُعبِّر له الرؤيا، ولا أن يطلق سراحه حتى يجيبه إلى ما طلب، بل انطلق يفسِّر له الرؤيا تفسيراً واقعياً دقيقاً، بما منحه الله من العلم، لأنه شعر بأن البلاد مقبلةٌ على مخاطر، وأنها

سيقع فيها قحطٌ وجدب، ومجاعات قد تودي بحياة الجماعات، وتأتي على الأخضر واليابس، ولهذا سارع يُعبِّر لهم الرؤيا، ويأمرهم بأخذ الحيطة والحذر ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ أي دائبين بجدٍّ وعزيمة ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ، يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ أي إلا القليل مما تدخرونه وتخبئونه للزراعة ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ، وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ أوَّلَ لهم البقرات السمان والسنبلات الخضر بسبع سنين مخصبات، وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فهي سبع سنين مجدبات، وقال لهم: إن البلاد ستمر عليها سنوات سبع، فيها الخيرات تجود فيها الأرض بالغلَّات الوافرة، ثم يعقبها سبع سنين مجدبة، تأكل الأخضر واليابس، وأن عليهم أن يقتصدوا من سنيِّ الرخاء، إلى سنيِّ القحط والجدب، وأرشدهم إلى الأصلح في أمور الزراعة فقال: ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ أي فما حصدتموه من الزرع فاتركوه في سنبله لئلا يسوِّس، ثم بشَّرهم بالبركة والخيرات في العام الثامن فقال: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ أي فيه يُمطر الناس ويُغاثون، وفيه يعصرون الأعناب والزيتون لكثرة خصبه، وغزارة خيراته وثمراته.

أمرُ الملكِ بإخراجه من السجن

رجع رسولُ الملك من السجنِ، وهو يحملُ لهم نبأ تعبير الرؤيا، بعد أن اجتمع بيوسف الصدِّيق، الذي فسَّرها لهم أبلغ تفسير، وأوَّلها لهم أحسن تأويل، ممَّا يدلُّ على شدَّةِ ذكائِهِ، وقوةِ علمه بتأويل الأحلام، وقد أُعجِبَ الملِكُ بتأويل يوسف غاية الإعجاب، فأمر بإخراجه من السجن، ليجعله من خاصَّته المقربين، ويُسلِّمه إحدى

وزارات الدولة، ولكنَّ يوسف الصدِّيق أبى أن يخرج من السجن، إلاَّ بعد أن ينكشف أمرُه، وتَزُول عنه التُّهمةُ بالكُلِّية، فيخرج ناصعَ الجبين، طاهرَ الثياب، وأن يُقرَّ خصومُه بنزاهته، وتُبرَّأ ساحته من تلك التهمة الشنيعة، وذلك هو منتهى العزَّة النفسية، والطُّهر والعفاف، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي ارجع إلى سيِّدك الملك ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، إنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

عفة ونزاهة

إنها حقاً العفة والنزاهة، والطهارة والكرامة، التي تحلت بها نفس هذا الشاب العفيف، الذي ربَّاه الله وحماه من كيد النسوة، وأهَّله لمنصب النبوة والرسالة، وقد أثنى عليه رسول الله ﷺ ذلك الثناء العاطر بقوله فيما رواه البخاري ومسلم: «لو لبثتُ في السجن ما لبثَ يوسف ثم أتاني الداعي لأجبتُ»[1] وفي روايةٍ للإمام أحمد: «لو كنتُ أنا لأسرعتُ الإجابةَ، وما ابتغيتُ العُذْر» وهذا إنما قاله عليه السلام، إشادةً بصبر يوسف، ورفعاً لقدره، وإظهاراً لفضله، وتواضعاً منه عليه الصلاة والسلام، وإلاَّ فمقامُه ﷺ أعلى وأعظمُ، وأرفع، ولكنَّه خُلُق النبيِّين، التواضعُ والاعترافُ بالفضل لأهل الفضل، مع التكريم والإجلال.

والأظهرُ من هذا والأصرحُ، ما رواه عكرمة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لقد عجبتُ من يوسفَ وصبرِه وكرمِهِ، واللهُ يغفرُ له، حين سُئل عن البقرات العِجَافِ والسِّمان، ولو كنتُ مكانه ما أجبتُهم حتى أشترطَ

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/٢٩٥ ومسلم في الإيمان برقم ١٥١ والترمذي في التفسير رقم ٣١١٥ وانظر جامع الأصول في أحاديث الرسول ٢/١٩٤.

أن يُخرجوني، ولقد عجبتُ من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين أتاه الرسول، ولو كنتُ مكانه لبادرتُهم الباب، ولكنَّه أراد أن يكون له العُذْرُ، إنَّه كان حليماً ذا أناة»[1].

بعض اللطائف في التعبير القرآني

وهذا الذي فعله يوسف من الصبر، وعدم قبوله الخروج من السجن، حتى تُبرَّأ ساحتُه، هو اللائقُ بالعقل والحزم، إذ لو سارَعَ إلى الخروج، لبقي في النفوس شيءٌ من التهمة، التي حُبس من أجلها، حتى ولو حظي بمكانة رفيعةٍ عند الملك، بسبب تفسيره للرؤيا ذلك التفسير المدهش. وقولُه لرسول الملك ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ في هذه الآية بعض اللطائف الدقيقة، التي هي سرٌّ من أسرار جمال القرآن:

اللطيفةُ الأولى: أنه كلَّفه أن يستقصي الملك عن قصة النسوة اللاتي قطَّعن أيديهن، ولكنَّ يوسف راعى الأدب، فاقتصر في كلامه على أن يسأل الرسولُ الملِكَ عن تلك الواقعة، لئلا يشتمل اللفظ على ما يجري مجرى الأمر للملكِ، فإن الملوك يأمرون ولا يُؤمرون، وهذا الأسلوب الرفيع يهَيّج الملك على البحث والتفتيش، وهكذا حدث فإنه لمَّا بلغه أن يوسف لم يخرج من السجن، حتى يَطَّلع الملكُ وحاشيته على الحقيقة، اهتمَّ بالأمر غايـة الاهتمام.

اللطيفة الثانية: أن يوسف الصدِّيق لم يذكر سيِّدته بالخيانة، مع أنها هي التي سعت في إلقائه في السجن، بل ذكـر النسـوة على

(١) الحديث أخرجه عبد الرزاق عن عكرمة، قال ابن كثير: وهو حديث مرسل، وانظر مختصر ابن كثير ٢/٢٥٣ والتفسير الكبير للرازي ١٨/١٥١.

التعميم، ومع ذلك راعى جانبهنَّ أيضاً، فلم يذكرهنَّ بالمراودة، والترغيب بالخيانة، بل وَصَفهنَّ بتقطيع الأيدي فقط ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ ولم يقل: ما بالُ النسوة الخائنات الفاجرات، اللواتي رغَّبْنني ودعونني إلى مطاوعة سيدتي!! وهذا أيضاً من شهامته وعفته عليه السلام، ولهذا كان أبلغُ الأثر في نفس امرأة العزيز، والنسوة أنفسهنَّ، فإن المرأة لمَّا عرفت أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقِّها، وتعظيماً لجانبها، وستراً للأمر عليها، أرادتْ أن تكافئه على هذه الأريحيَّةِ والشهامة، فأزالت الغِطاء والوطاء، واعترفت بأن الذنب كله كان من جانبها، وأن يوسف كان مبرَّءاً من كل ما نُسِب إليه، وكذلكَ النسوةُ اعترفن بنزاهته وبراءته عليه السلام.

تحقيقُ الملك مع النسوة

رجع الرسولُ فأخبر الملك، وأعلمه بأن يوسف أبى أن يخرج من السجن، حتى يتحقق للملِك ورعيتِهِ براءةُ ساحته، ونزاهةُ عرضه، وأن يعرف الجميع أن السجن كان ظلماً وعدواناً، فجمع الملِكُ النسوة، ودعا امرأةَ العزيز معهنَّ، وحقَّق في الموضوع بنفسه، فلما اجتمعن عنده بحضور الحاشية، والكبراء والوزراء، سألهنَّ عن حقيقة الخبر ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾؟ أي ما شأنكن الخطيرُ البليغُ، حين دعوتنَّ يوسف إلى مقارفة الفاحشة؟.

والخطبُ في اللغة: الأمرُ العظيمُ الخطيرُ، فهو يواجههنَّ مقرراً الاتهام، ومشيراً إلى أمرٍ لهنَّ جَلَل، وشأنٍ لهن خطير، وفي مثل هذه المواجهة من الملِكِ بالذات، لم يكن هناك مجالٌ للإخفاء أو الإنكار ﴿ قُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوْءٍ ﴾ أي قالت النسوة: معاذ الله أن

يكون يوسف أراد السوء، وهو تنزيهٌ له وتعجُّبٌ من نزاهته وعفته ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ ﴾ تقول الآن ظهر الحق وانكشف للعيان، وظهر ظهوراً واضحاً وبان ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وإِنَّهَ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي أنا التي دعوته إلى نفسي، وهو بريء من الخيانة، وصادقٌ فيما يقول، وهذا اعتراف صريح ببراءة يوسف على رءوس الأشهاد.

خروجه من السجن بعد البراءة

وهنا يخرج يوسف من السجن، مرفوع الرأس، طاهر الذيل، معظَّم الجناب، بعد أن شهد النساء كلهن ببراءته، ويلتقي بالملك وبكبير الورزاء ـ عزيز مصر ـ وبالحاشية والعظماء والكبراء، ويُكبر فيه الجميعُ تلك الشهامةَ، والعفَّة، والرجولة، فينطلق لسانه أمام الجمع الغفيـر، معلناً أنه ما عفَّ عن الحرام، ولا صَمَد أمامَ هذه المغريات، إلَّا لأنه مؤمنٌ يخاف الله، ويخشى عقابه، ولذلك صان عرض سيِّده، فلم يخنه في غيبته فيقول: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ، وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ ﴾ أي إنما رددتُ الرسول، ليعلم المَلِك أنني لم أخن العزيز في زوجته في غيبته، وأن صاحب الخيانـة لا بد وأن يفتضح.

ونقتبس من موقف يوسف عليه السلام، أنه كان مثال الكمال الإنساني الأعلى، للاقتداء به في العفة والنزاهة، وأنه لم يمسسه أدنى سوء من فتنة النساء، لأن من احتمى واستجار بالله عصمه الله، وأن المؤمن مبتلى في هذه الحياة، ولكنَّ العاقبة للمتقين، ولا بدَّ بعد الضيق من الفرج، وأن امرأة العزيز التي اشتهرت بسوء القُدوة، كان أكبر إثمها

على زوجها، لأنه كان ليِّن العريكة، وكان جملاً ذلولاً بين يديها، وأنها في خاتمة الأمر أقرَّت بذنبها في مجلس الملك الرسمي، إيثاراً للحق، وإثباتاً لبراءة يوسف عليه السلام، وصدق الله حيث يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِـعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾[1].

اختلافُ المفسرين في الآيتين الكريمتين

لقد ظهر للجميع براءة يوسف الصدِّيق من تلك التهمة التي أُدخل بسببها السجن، وبُرِّئت ساحته أمام ذلك الجمع الحاشد، بمحضر الملك والكبراء والوزراء، من جهة امرأة العزيز وجميع النسوة، فقد اعترفن جميعاً ببراءته وطهارته، وعفته عن مقارفة الفاحشة ﴿ وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوْءٍ ﴾ والاعتراف والإقرار سيِّد البراهين، وأعظمُ الحجج وأقواها في معرفة الحق. وهنا لا بدَّ لنا من وقفة تأمل عند قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ. وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

فإنَّ للمفسرين في هاتين الآيتين قولين مشهورين:

القولُ الأول: إنه من كلام امرأة العزيز، قالته بمحضرٍ من الملِكِ وحاشيته والجمهور، بعد ذلك الإعلان العلني الذي كان منها في قولها: ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ العَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وبعد هذا الاعتراف أرادت أن تبيِّن أنها إنما كانت تراوده مراودة، ولم يحصل منها مقارفةُ الفاحشة، ولا خيانةُ الزوج بالزنى

(١) سورة الحج آية رقم ٣٨.

الفعلي، بل كان مجرَّدَ رغبةٍ وشهوة، لم تتحقق، وحُلُماً داعب خيالها، ولهذا أعقبت ذلك الاعتراف بقولها: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ ﴾ أي تقول: إنما اعترفتُ بهذا على نفسي، ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، وإنما راودتُ هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفتُ ليعلم أني بريئة ومعنى ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ ﴾ أي لا يوفِّقُ الخائنَ، ولا يُسدِّد خطاه، ثم قالت: ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ تقول امرأة العزيز: ولستُ أبرِّىء نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولذلك راودتُه، والنفسُ بفطرتها تميل إلى الشهوات، إلَّا من عصمه الله تعالى. وإلى هذا القول ذهب الحافظ ابن كثير، وبعض المفسرين، فجعلوا الآيتين من كلام المرأة، وحجَّتُهم في هذا أن الكلام الذي سبق الآيتين الكريمتين، كان من قولها، فيكون ما بعده من الحديث استكمالاً لما قالتْه، ويكونُ ذلك أقربَ إلى اتِّساق الكلام!!.

رأيُ جمهور المفسرين

القول الثاني: إن الآيتين من كلام يوسف عليه السلام، وليس من كلام امرأة العزيز ـ وهو قول الأكثرين من المفسرين ـ وهو الذي رجحه شيخ المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله، حتى لم يَحْكِ قولاً غيره، وكذلك ابنُ أبي حاتم ذكر أنه من قول يوسف الصدِّيق ولم يذكر غيره، وهو مرويٌّ عن مجاهد، والحسنِ، وقتادةَ والسُّدِّي.

وعلى هذا القول الذي اختاره الجمهور، يكون معنى الآية الكريمة: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أي يقول يوسف ـ لمَّا شهد النساء ببراءته، واعترفت امرأة العزيز بأنها هي المخطئة ـ يقول:

ذلك الأمر الذي فعلتُه من ردِّ الرسول حتى تظهر براءتي، ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته في غيبته، بل تعفَّفتُ عنها ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ أي لا يرشد إلى طريق الهدى، ولا يوفق للحق والسعادة، الخائنَ الفاجر الذي يعتدي على حرمات الآخرين، فلو كنتُ خائناً لما أظهر الله براءتي، ولا نجَّاني من هذه المكيدة، بإقرار النسوة، واعتراف امرأة العزيز نفسِها!!.

ولمَّا كان في هذا القول ما يشبه التزكية للنفس، والمديح لها، وهو مذموم في نظر العارفين المخلصين، ومنهيٌّ عنه بحكم ربِّ العالمين ﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ أردفه بقوله: ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي، إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوْءِ ﴾ أي لستُ أزكِّي نفسي ولا أنزِّهها عن فعل القبيح، لأن النفس كثيرة النزوع إلى الشر والسُّوء، وهي تدفع الإنسان إلى مقارفة الشهوات، وفِعْلِ ما يُخِلُّ بالمروءة، ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ يقول: إلَّا من رحمه الله بالعصمة، فنجَّاه بفضله من الفتنة ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي إنه تعالى واسع المغفرة، عظيم الرحمة، قال ذلك يوسف عليه السلام على وجهِ التواضع، والاعتراف بفضل الله، وإنعامه عليه، فإنه لولا فضلُه وعصمتُه، لوقع فيما وقع فيه.

القولُ الثاني هو الأظهر والأرجح

وهذا القول ـ وهو أن الآيتين من كلام يوسف ـ هو الذي تطمئن إليه النفس وترتاح، وهو قول أساطين العلم، وجهابذة المفسرين، ولسنا نميل إلى القول الأول ـ وإن مال إليه البعض ـ لسببٍ بسيط، وهو أن نقول: كيف يصحُّ لامرأة العزيز أن تتبجَّحَ أمام الحشد الكبير فتقول: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ، وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ ﴾؟

مع أنها قد عزمت على خيانة زوجها في غيبته، فلبست أجمل الثياب، وغلَّقت الأبوابَ، وهيَّأت الفراشَ، ودعته إلى نفسها علناً فقالت: ﴿ هَيْتَ لك ﴾ أي أسرِعْ وأقبِلْ ولبِّ طلبي، ثم لما امتنع عن الاستجابة لهواها ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ وأراد الهرب، لحقته فشقت ثوبه من خلفه، ولما رأت زوجها مقبلاً، وهي تلاحق يوسفَ وتُطارده، لتنال منه مأربها، قالت في مكرٍ وخبثٍ ودهاءٍ، متنكرةً من قبيح فعلها ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوْءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ، أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أليست هذه المطاردة والملاحقة، وتغليق الأبـواب، وإجباره بـالقوة والغصب على مضاجعتها، أليست كل هذه الطرق الماكرة التي سلكتها تُعدُّ خيانةً لزوجها؟ حتى تتباهى وتفتخر فتقول: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾؟ فما هي الخيانة إذاً في نظرها؟.

إن الله عزّ وجلّ هو الذي نجاه من كيدها، ولولا حفظه وعصمته له لهلك، فالأظهرُ والأوضح والأرجح ما قاله الجمهور، من أن هذا من قول يوسف الصدِّيق، وليس من كلام امرأة العزيز.

رأيُ الإمام الطبري شيخ المفسرين

يقول شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره جامع البيان:

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ هذا قول يوسف، يقول يوسف عليه السلام: إن هذا الفعل الذي فعلتُه، مـن ردِّي رسولَ الملِكِ، وتركي إجابته، والخروج إليه، ليعلم العزيزُ أني لم أخنه في زوجته بالغيب، أي لم أرتكبْ فاحشة في حال غيبته عني. . ثم نقل عن كبار المفسرين من التابعين هذا القول الذي ارتضاه وتبنّاه، فروى بسنده

عن مجاهد ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ يوسفُ يقوله: إني لم أخن سيدي في غيبته، وكذلك روى عن قتادة، وأبي صالح، والسُّدِّي أن هذا من قول يوسف، ودفع ابن جرير قول المعترض: كيف يكون هذا من كلام يوسف، وسياقُ الكلام أن يكون من مقولة امرأة العزيز؟ فقال رحمه الله: واتَّصل قولُه: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ بقول امرأة العزيز ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لمعرفة السامعين لمعناه كاتصال قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ في قصة بلقيس بقولها: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾. ثم رجح أن الآيتين من كلام يوسف الصدّيق، وأنه قال ذلك تواضعاً وهضماً للنفس، وهكذا شأن الأنبياء يعلمون أن كل شيء من الله وبفضله، فلا ينسبون شيئاً من الفضل لأنفسهم.

وهذا الذي رجحه الطبري هو قول ابن عباس رُوي عنه كما ذكره الكثيرون، ولهذا لم يحك الإمامُ الطبري غيره.

وقال الفراء: لا يبعد وصلُ كلام إنسانٍ بكلام إنسان آخر، إذا دلَّت القرينة الصارفةُ لكلٍ منهما إلى ما يليق به.

رأيُ العلاَّمة أبي السعود

ونرى العلاّمة أبا السعود تاجَ المفسرين، قاضي القضاة، ينحو هذا المنحى الذي ذهب إليه الطبري فيقول في تفسيره المسمى «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» ٤/٢٨٦: لمَّا رجع الرسولُ وأخبره بكلامهن قال يوسف: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي ذلك التثبيتُ المؤدي إلى ظهور حقيقة الحال، ليعلم العزيز أني لم أخنه في حرمته بظهر الغيب، وهو حال من المفعول أي وهو غائب عني، والمقصودُ كلام نزاهته عن الخيانة، واجتنابه عنها مع تعاضد أسبابها،

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ ﴾ أي وليعلم أن الله تعالى لا يُنفِذ كيد الخائنين ولا يسدِّده، بل يُزهقه ويُبطله. . وفيه تعريضٌ بامرأته في خيانتها أمانته، وبالعزيز في خيانته أمانة الله جلّ وعلا، حين ساعدها على حبسه، بعد ما رأوا آياتِ نزاهته عليه السلام، ويجوز أن يكون كالتأكيد لأمانته، وأنه لو كان خائناً ما هدى الله أمره وأحسن عاقبته ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي ﴾ أي لا أنزهها عن السوء، قاله عليه السلام هضماً لنفسه الكريمة، البريئة عن كل سوء، ورَبْأً عن تزكيتها والإعجاب بحالها، كأنه يقول: لا أنزهها عن السوء من حيثُ هي هيَ، ولا أسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها، إنما ذلك بتوفيق الله تعالى وعصمته ورحمته كما يفيده قوله: ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾. . إلى آخره.

الآيات في تفسير الجلالين

وجاء في تفسير الجلالين ما نصُّه: «أُخبر يوسف بقول امرأة العزيز فقال: ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ أي إنه عليه السلام طلب البراءة ليعلم العزيز أني لم أخنه في أهله بالغيب، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين. . ثم تواضع لله فقال: ﴿ وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ الآية. وعلّق عليه في الفتوحات الإلهية، المشهور باسم «حاشية الجمل» فقال: هكذا قد جرى الشارح، على أن قوله تعالى: ﴿ ذلك ليعلم. . ﴾ و﴿ ما أبرىء نفسي ﴾ من كلام يوسف وعليه أكثر المفسرين، وجرى بعضهم على أنه من كلام زليخا امرأة العزيز»[1].

(١) انظر حاشية الجمل على الجلالين ٢/٣٩٥.

رأي الإمام الجصَّاص

ويقول الإمام أحمد بن علي الرازي، صاحب تفسير أحكام القرآن، المشهور بالجصاص ١٧٣/٣: «وإنما لم يجبهم إلى الذهاب إلى الملك، وردَّ الرسول إليه، لتظهر براءة ساحته، فيكون أجلَّ في صدره، وأقرب إلى قبول ما يدعوه إليه من التوحيد، وقبول ما يشير به عليه، وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ قال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك: هذا من قول يوسف، يقول إني إنما رددتُ الرسول إليه في سؤال النسوة، ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب.. وإن كان ابتداء الحكاية عن المرأة، فإنه ردَّ الكلام إلى الحكاية عن قول يوسف، لظهور الدلالة على المعنى، وذلك نحو قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ وقبله الحكاية عن المرأة ـ ملكة سبأ ـ ﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ وَكَقَوْلِهِ: ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ وقبلَه حكاية قول الملأ: ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ يعني أنها كثيرة النزع إلى السوء، فلا يُبرِّىء نفسه وإن كان لا يطاوعها.. إلى آخره.

وقال الزمخشري: أراد يوسف أن يتواضع لله ويهضم نفسه، فقال: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ لئلا يكون لها مزكِّياً، وبحالها معجباً ومفتخراً».

رأي الإمام الشوكاني

وقال الإمام الشوكاني في تفسيره المسمى «فتح القدير في علم التفسير» ما نصُّه ٤٣/٣:

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا من كلام يوسف عليه السلام، والإشارة «ذلك» إشارة إلى الحادثة الواقعة منه وهي تثبته وتأنّيه، أي فعلتُ ذلك ليعلم العزيز أني لم أخنه في أهله بالغيب أي بظهر الغيب، وذهب الأقلون من المفسرين إلى أن هذا من كلام امرأة العزيز، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي ﴾ إن كان من كلام يوسف فهو من باب الهضم للنفس، وعدم التزكية لها، مع أنه قد علم هو وغيره من الناس أنه بريء، وظهر ذلك ظهور الشمس. . إلى آخره.

هذه نبذة عن أقوال أساطين العلماء، وجهابذة المفسرين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل[1].

العزُّ والسلطان نتيجة الصبر والحرمان

بينّا فيما سلف أن يوسف عليه السلام، كان مثلاً يُحتذى للشاب المؤمن العفيف، فقد مرَّ بمحن شديدة، وكانت حياتُه عليه السلام حياة عصيبة، فقد تنقَّل بين عُسرٍ ويُسر، وشدة ورخاء، وضيقٍ وسعة، ثم كانت نتيجة هذه المحن والمصائب الفادحة، أن وسَّع الله عليه، وأكرمه بالعز والسلطان، فخرج من السجن إلى الوزارة، وملَّكه الله خزائن بلاد مصر، حتى كان الناس يأتون إليه من كل قطرٍ وبلدٍ، ليحصلوا على الميرة، في سنيِّ القحط والجدب، وقد كانت محنته سبباً لتلك المنَّة العظيمة، حيث تربَّع على كرسيِّ الوزارة ـ وزارة الاقتصاد الوطني ـ وكم

(١) انظر ما كتبناه في مجلة منار الإسلام العدد الخامس لسنة ١٤٠٥ هـ تحت عنوان «ردودٌ على أوهام» وذلك في ردي على مقال الدكتور سعد ظلام الذي خبط في مقالته خبط عشواء، فصوَّب الخطأ وخطأ الصواب.

من محنةٍ في طياتها مِنَّة، ولله في خلقه شئونٌ، يُعزُّ ويُذلُّ، ويُغني ويُفقر، ويرفع ويخفض، وبيده الخير، وإليه المصير.

يوسف الصدِّيق يتولى الوزارة

انتهى دور البلاء من حياة يوسف الصدِّيق، وجاء دور الرخاء، وانقضى العسر وجاء اليسر، فكل ما بعد هذه المرحلة من حياته عليه السلام، إنما هو نعمةٌ ورخاء، وعزٌّ ورفعةُ قدر، وبذلك يُسدل الستار على ماضي الآلام والشدائد في حياة يوسف الصدِّيق، وتبدأ مرحلة الرخاء والعز والتمكين، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَقَالَ الملِكُ ائْتوني به أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسي، فَلمّا كلَّمهُ قالَ إنّكَ اليومَ لَديْنا مَكينٌ أمينٌ. قَالَ اجْعلْني على خزائِنِ الأرْضِ إنّي حَفيظٌ عَليمٌ. وكذلك مَكّنّا ليوسُفَ في الأرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حيثُ يَشاءُ، نُصيبُ بِرَحْمتِنا مَنْ نشاءُ، ولا نُضيعُ أجْرَ المحْسنينَ. وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلّذينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾.

طلب الملك من حاشيته أن يأتوه بيوسف الصدِّيق، ليجعله من خاصته وأهل مشورته، وليسلمه إحدى وزارات الدولة، بعد أن ظهرت له براءته، وعرف عفته وشهامته، وأراد أن يجعله بمكانة المستشار لديه في إدارة شئون الدولة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ أَسْتَخْلِصْه لنفْسي ﴾ أي أجعله من خاصتي وخلصائي ﴿ فَلَّما كَلّمهُ قَالَ إنَّكَ اليومَ لَدَينَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي فلما كلَّمه يوسف، ورأى الملك حصافة عقله وحسن كلامه، قال له: إنك اليوم عندنا رفيع المرتبة، عالي المنزلة، مؤتمنٌ على كل شيء في هذه المملكة.

كان عمر يوسف في ذلك الوقت ثلاثين سنة على ما ذكره المفسرون، وكانت تلوح عليه ملامح الفطنة والذكاء، فلذلك أُعجب به

الملك فأجلَّه وأكرمه وعظَّمه، ثم بعد أن قرَّبه وأدناه استشاره فيمن يُسند إليه الإشراف، في تلك الفترة التي ستمرُّ بها البلاد، وفي تلك الأزمة الاقتصادية الخانقة التي سيواجهها الناس، فأشار عليه يوسف أن يولِّيه الشئون المالية والاقتصادية، أعني أن يسلمه «وزارة الزراعة والاقتصاد الوطني» كما نسميها في زماننا ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ أي قال يوسف للملك: ولِّني على خزائن أرض مصر، فإني أمين على ما استودعتني، عليم بتصريف الأمور، وتدبير الشئون، ولي خبرةٌ فيما تعهد إليَّ من تصريف مصالح الناس.

كيف يطلب يوسف الولاية ويزكي نفسه؟

وقد يقول قائل: كيف مدح يوسف نفسه وزكّاها؟ وكيف طلب الوزارة من الملك؟.

والجواب عن هذا كما يقول الإمام الطبري: أن ذلك ليس من باب التزكية للنفس، وإنما إعلام بأن عنده المعرفة التامة، والخبرة الكافية، في إدارة الشئون المالية والاقتصادية، وإنما سأله ذلك ليتصرف بتدبير شئون الناس على الوجه الأحوط، والأصلح، والأرشد، الذي ينقذ الأمة من براثن الجوع، في تلك الفترة العصيبة التي ستمر بها البلاد.

ويقول سيد قطب في كتابه الظلال «ولم يكن يـوسف يطلب لشخصه ـ وهو يرى إقبال الملِكِ عليه ـ فيطلب أن يجعله على خزائن الأرض، إنما كان حصيفاً في اختيار اللحظة التي يُستجاب له فيها، لينهض بالواجب المرهِقِ الثقيل، ذي التبعة الضخمة، في أشد أوقات الأزمة، وليكون مسئولاً عن إطعام شعبٍ كامل، وشعوب كذلك تجاوره طوال سبع سنوات، لا زرع فيها ولا ضرع، فليس هذا غُنْماً يطلبه

يوسف لنفسه، فإن التكفل بإطعام شعب جائع، سبع سنواتٍ متوالية، لا يقول أحدٌ إنه غنيمة، إنما هي تبعةٌ يهرب منها الرجال، لأنها قد تكلفهم رءوسَهُمْ، والجوعُ كافر، وقد تُمزِّقُ الجماهيرُ الجائعةُ أجسادَهم في لحظاتِ الكفرِ والجنون.

والأزمةُ القادمة، وسنواتُ الرخاء التي تسبقها، في حاجةٍ إلى الحفظ، والصيانة، والقدرة على إدارة الأمور بالدقة، وضبط الزراعة والمحاصيل وصيانتها، وفي حاجةٍ إلى الخِبْرَة وحسن التصرف، والعلم بكافة فروعه الضرورية لتلك المهمة، في سنوات الخِصب، وفي سنيّ الجدب على السواء، ومن ثَمَّ ذكر يوسف من صفاته ما تحتاج إليه هذه المهمة، التي يرى أنه أقدر عليها، وأن وراءها خيراً كبيراً لشعب مصر، وللشعوب المجاورة ﴿ قَالَ اجْعَلْني عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ، إنْي حَفيظٌ عَلْيمٌ ﴾[1].

وقال الإمام الجصَّاص: «وهذا الملك لمَّا كان من أهل العقل والدراية، لم يَرُعْه من يوسفَ منظرُهُ الرائعُ البَهِجُ، كما راعَ النِّساءَ لقلَّةِ عقولهنَّ، وضعف أحلامهنَّ، وأنهن إنما نظرن إلى ظاهر حسنه وجماله، دون علمه وعقله، وأن الملك لم يعبأ بذلك، ولكنه لما كلَّمه ووقف على كماله ببيانه وعلمه ﴿ قالَ إنَّكَ اليومَ لَدَينَا مَكينٌ أَمِينٌ ﴾ فقال يوسف: ﴿ اجْعَلْني عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إنيّ حَفيظٌ عليمٌ ﴾ فوصف يوسف نفسه بالعلم والحفظ، وفي هذا دلالة على أنه جائز للإنسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه، وأنه ليس من المحظور في تزكية النفس في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾»[2].

(١) في ظلال القرآن ٢٠٠٥/١٣.
(٢) أحكام القرآن للجصاص ١٧٤/٣.

وروى بعضهم أن الملك لما سمع كلامه، نزع خاتمه من يده وجعله في أصبع يوسف، وقال لمن حوله: هذا عزيز مصر، فاسمعوا له وأطيعوا، فكان له العزُّ والسلطان والتمكين في الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَكذلِكَ مَكّنّا لِيوسُفَ في الأرْضِ، يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ، نُصيبُ بِرَحْمتِنا مَنْ نَشاءُ، ولا نُضيعُ أجْرَ المحسنينَ. وَلأَجْرُ الآخرةِ خيرٌ لِلَّذين آمَنوا وكانوا يتّقونَ ﴾ وهكذا صار يوسف الوزير المتوَّج، والسيد المطاع في مملكة مصر، وأبدله الله من العسر يسراً، ومن الضيق فرجاً، ومن الخوف أمناً، ومن الهوان العِزَّ والسلطان!!.

تدبيرٌ حكيم لشئون البلاد

نهض يوسف عليه السلام بأعباء الدولة، وقام بإدارة شئون البلاد خير قيام، وأشرف على زراعة الأرض، فكثرت الخيرات والبركات، وجاءت سنوات الرخاء، فأينعت الثمرات، وأعطت الأرض خيراتِها، وافيةً زاهية، فجمع الناس أنواع الحبوب، وبنوا البيوت والمخازن، لحفظها وحمايتها، وأمر يوسف ـ بعد أن تولّى إدارة شئون البلاد ـ بأن تخزن الحبوب بسنابلها، حتى لقد ملأ الديار بالخزائن، الزاخرةِ بالأرزاق والغلاَّت، وتولَّى بنفسه حفظ اقتصاد البلاد، لأنه يعلم علم اليقين، أنها ستمر على الناس سِنون عجاف، حسب الرؤيا التي رآها الملك، وأوَّلها له يوسف بنور العلم الإلهي الذي علَّمه الله أياه.

وقد طوت الآيات الكريمة، ذكر تلك الفترة التي مرت على البلاد، بما كان فيها طوال سنوات الخصب والرخاء، فلم تذكر كيف كان الخِصب، ولا كيف زرع الناس؟ ولم تذكر كيف أدار يوسف جهاز الدولة، ولا كيف نظَّم ودبَّر وادَّخر؟ لأن هذه الأمور ملحوظة في رؤيا

الملك العجيبة وتأويلها، فلا حاجة إلى ذكرها وتكرارها، وكذلك لم تذكر مقدم سنوات الجدب، وكيف تلقَّاها الناس، وكيف ضاعت الأرزاق، وحلَّ البلاء العام على أرض مصر، وما جاورها من البلدان، وإنما ذكرت مشهداً من مشاهد أثر القحط والجدب، أبرزه السياق في مشهد إخوة يوسف، يجيئون من البدو، من بلاد بعيدة نائية، يقصدون أرض مصر يبحثون عن الطعام، ولنستمع إلى الآيات البينات، وهي تتحدث عن هذا اللقاء، بعد طول فراق، حيث عرفهم يوسف ولكنهم لم يعرفوه، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفُهمْ، وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾.

حضور إخوة يوسف لمصر طلباً للميرة

أما أنه عرفهم فلأنهم لم يتغيَّروا كثيراً، فقد كانوا حين رموه في الجبِّ كباراً، والكبير لا تتغيَّر ملامحه إلا يسيراً، أما هو فقد كان صغيراً، ولم يكن في خيالهم إلا أن يوسف قد هلك، ثم هم الآن يدخلون عليه وهو في أُبَّهة الملك، وعزة السلطان، على رأسه التاج المرصّع باللآلىء والدّرر، على عادة الملوك والسلاطين، وحوله الخدم والحرس ورجال التشريفات، وهو متربع على العرش، فلهذا لم يعرفوه مطلقاً، لا سيما أنه قد مضى على فراقهم له، بعد أن ألقوه في الجب ما يزيد على عشرين عاماً، ولذلك ورد التعبير بقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ وجيء بها بالجملة الإسمية للإشارة إلى أنهم ما عرفوه بالكلية، بل ما خطر على بالهم أن يكون هو يوسف، لهيبة المُلْكِ، وبعد العهد. رُوي أنهم لما دخلوا عليه تجاهلهم، وقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ قالوا جئنا للميرة، قال: لعلكم عيونٌ ـ أي

جواسيس ـ علينا؟ قالوا: معاذ الله، قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبيُّ الله شيخ صدِّيق، قال: وله أبناء غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثنَيْ عشر ولداً، فذهب أصغرنا وهلك في البرية وكان أحبَّنا إليه، قال: أنتم الآن عشرة، فأين أخوكم الآخر؟ قالوا: هو عند أبيه احتبسه عنده ليتسلَّى به عن يوسف، فأمر بإضافتهم وإكرامهم، وأنزلهم في جوار قصره مع غاية الحفاوة والتكريم، ولم يكشف لهم عن نفسه.

حفاوة بالغة يلقاها إخوة يوسف

ثم تمضي الآيات وهي تتحدث أن يوسف بعد تلك الحفاوة البالغة، أمر الجند المكلَّفين بأن يملأوا لكل واحدٍ من إخوته العشرة، حمل بعير من الطعام، وأن يردُّوا إليهم ثمن تلك الميرة فيجعلوه في رحالهم، حتى يعودوا إليه مرَّة ثانية ـ ويظهر أن ذلك الثمن كان بضاعةً من جلودٍ ونعالٍ وملابس مما يستخدم في التبادل بالأسواق ـ وذلك لأنهم إذا رجعوا ثم رأوها، لا بد أن يعودوا، لأن دينهم يحملهم على ردِّ الثمن، لأنهم مطهرون عن أكل الحرام، فيكون ذلك أدعى لهم إلى العود إليه، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ ولمَّا جَهَّزَهُمْ بجَهازِهِمْ قال ائْتُوني بأخٍ لَكُمْ مِنْ أبيكُمْ، ألَا تَرَوْنَ أنّي أُوفي الكيلَ، وأنا خيرُ المْنزلينَ. فإنْ لَمْ تأتوني بهِ فلا كَيْلَ لكُمْ عندي ولا تقربونَ. قَالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنّا لَفَاعِلونَ. وَقَالَ لِفتْيانِهِ اجْعَلُوا بَضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أهْلِهِمْ لَعَلّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

طلبه إحضار أخيهم الصغير

ملأ لهم يوسف رواحلهم من الطعام، بعد أن أكرمهم غاية الإكرام، فلما جَهَّزهم بحاجات الرحلة، طلب منهم أن يأتوه بأخيهم الصغير معهم

في المرة الثانية، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ ولما جهَّزَهُمْ بجَهازِهِمْ قالَ ائْتُوني بأخٍ لكُمْ مِنْ أبيكُمْ ﴾ ونفهم من إشارة هذا النص أنه تركهم يأنسون به، واستدرجهم حتى ذكروا له أن لهم أخاً أصغر، ليس أخاً شقيقاً لهم بل هو أخ لهم من أبيهم اسمه «بنيامين»، لم يحضر معهم لأن أباه يحبه ولا يطيق فراقه، فلهذا طلب منهم أن يأتوه بهذا الأخ الصغير ليراه، وليزيد في إكرامهم ووفادتهم، وبأسلوبه اللطيف الحكيم جمع لهم بين الترغيب والترهيب فقال: ﴿ أَلاَ تَرَوْنَ أَنّي أُوْفِي الكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ المُنْزِلِينَ. فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبونِ ﴾ أي قد رأيتم أنني أوفي الكيل للمشترين!! فسأوفيكم نصيبكم حين يجيء معكم، ورأيتم أنني أكرم الضيوف والنزلاء، فلا خوف عليه بل سيلقى مني الإكرام المعهود. رغَّبهم ثم توعَّدهم وهدَّدهم فقال: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُون ﴾ أي فإن لم تأتوني بأخيكم فليس لكم عندي بعد اليوم ميرة، ولا تقربوا بلادي مرَّة ثانية!!.

ما فعله يوسف كان بتدبير من الله وتقدير

ويظهر أن كل ما فعله يوسف عليه السلام، كان بوحيٍ من الله تعالى، وإلا فمقتضى البِرِّ أن يُبادر إلى أبيه ويستدعيه بعد تلك الغيبة الطويلة، ولكنَّ الله أراد تكميل أجر يعقوب ومحنته، ولتتفسر الرؤيا الأولى ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْه أَبَاهُ وَإِنّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي قالوا سنخادع أباه ونحتال في انتزاعه من يده، ونجتهد في طلبه منه، وإنا لفاعلون ذلك، والتعبير يوحي بأن الأمر ليس ميسوراً، إنما في طريقه عقبات، ولهذا قالوا: «سنراود عنه أباه» لأنهم يعلمون أن يعقوب لن يدفعه لهم بسهولة، بعد أن ذاق مرارة فقد ابنه الأول «يوسف» ولذلك سيبذلون جهداً كبيراً لجلبه معهم.

عودتهم إلى أوطانهم وإخبارهم لأبيهم بما جرى

وتمضي الآيات الكريمة تحدثنا عمَّا جرى بعد عودتهم إلى أوطانهم، فقد تعجلوا أباهم فأخبروه - قبل أن يفتحوا متاعهم - بالإنذار الذي سبق من عزيز مصر لهم، بأن الكيل قد مُنع عنهم ما لم يأتوه بأخيهم الصغير معهم، فهم يطلبون إليه أن يرسل معهم أخاهم ليكتالوا له ولهم، وهم يعدونه موعداً مؤكداً بحفظه ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ، وَإِنَّا لَه لَحَافِظُونَ ﴾.

والمعنى: لقد أُنذرنا بمنع الكيل في المستقبل إن لم نأتِ بأخينا بنيامين، فإن ملك مصر ظن أننا جواسيس، وأخبرناه بقصتنا فطلب أخانا ليتحقق صدقنا.. ولا بد أن هذا الطلب قد أثار مشاعر يعقوب، وخشي أن يكون ذلك منهم مكيدة لولده الثاني، فإذا به يجهر بما يختلج في صدره من خوف وقلق ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عليْه إلا كما أَمِنْتُكُمْ على أخيه مِنْ قَبْلُ، فاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظَاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أي كيف آمنكم على أخيكم بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم، بعد أن ضمنتم لي حفظه ثم خنتم العهد؟ فأخاف أن تكيدوا له كما كدتم لأخيه، فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أثق بحفظ الله وحمايته، وهو تعالى أرحم من والديه وإخوته، فأرجو أن يمنَّ عليَّ بحفظه، ولا يجمع عليَّ مصيبتين.

إخوة يوسف يتجادلون مع أبيهم يعقوب

لقد تركنا إخوة يوسف مع أبيهم يعقوب يتناظرون ويتجادلون، يطلبون أن يرسل معهم أخاهم بنيامين، وهو يخشى عليه من مكرهم وكيدهم، أن يفعلوا به كما فعلوا بأخيه يوسف من قبل، وكان «بنيامين» وأخوه «يوسف» أخوين شقيقين، بينما بقية أبنائه إخوة له من الأب،

فلذلك كان يخشى عليه منهم، ولما استقرَّ بهم المقام بعد الوصول إلى أوطانهم، فتحوا ركابهم فإذا بالبضاعة التي دفعوها ثمناً للطعام موجودة في رحالهم، فدُهشوا لهذا الكرم والإحسان الذي لاقوه من عزيز مصر، ولهذا انطلقوا يرجون أباهم أن يرسل معهم أخاهم بنيامين، لينالوا من الخير والإنعام مثل ما نالوا أول مرة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَمّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ، قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغي، هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنا، وَنَميرُ أَهْلَنا، وَنَحْفَظُ أَخَانَا، وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعيرٍ، ذَلِكَ كَيْلٌ يَسيرٌ ﴾

تلطفهم مع أبيهم ليرسل معهم بنيامين

ومرادهم أن يسترضوا أباهم بهذا الكلام، يقولون له: إنا قد قدمنا على رجلٍ في غاية الكرم، أنزلنا وأضافنا وأكرمنا كرامةً لو كان رجلاً من آل يعقوب ما فعل ذلك، فأيَّ شيءٍ نبغي فوق هذا الإكرام؟ أعطانا الطعام ثم ردَّ علينا ثمن هذا الطعام على أحسن الوجوه، فهل هناك مزيد فوق هذا الإحسان؟ فإذا أرسلته معنا نقدم لك بالميرة، ونزداد باصطحابنا له حمل بعير زائداً على استحقاقنا، ونحفظ أخانا ممَّا نحفظ منه أنفسنا!! ثم قالوا بعد ذلك: ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أي ذلك كيل يسير على هذا الرجل المحسن، لسخائه وحرصه على البذل. ويبدو من قولهم: «وَنزْدَادُ كيْلَ بَعِيرٍ» أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل واحدٍ حمل بعير، ولم يكن يبيع كل قادم ما يريد من الطعام، وكان ذلك من الحكمة في سنوات الجدب، كي يظل هناك قوت للجميع، ولا ينفد ما عنده سريعاً.

شَرَط يعقوب على أبنائه إعطاءهم للعهد

استسلم يعقوب عليه السلام على كرهٍ، بعد إلحاحهم الشديد، ولكنه جعل لتسليم ابنه شرطاً، هو أن يعطوه عهداً، ويُقسموا له قسماً مؤكداً بالأيمان المغلَّظة، أن يردُّوا عليه ولده، وأن يصونوه ويحفظوه: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حتى تُؤْتونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ، لَتَأْتُنَّني بِهِ إلاّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ، فَلمّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللهُ على ما نَقولُ وكيلٌ ﴾.

ومعنى الموثِق: العهد الشديد المؤكد باليمين، الذي تأكد بإشهاد الله عليه، وبسبب القسم، كأنه يقول: حتى تعطوني عهداً موثّقاً بشهادة الله على أنكم ستردونه عليَّ، وقولُه: ﴿ إلاّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ ﴾ استثناء من العهد أي إلا أن تُغلبوا جميعاً فلا تقدرون على تخليصه، ولا يبقى لكم طريقة أو حيلة إلى ذلك قاله قتادة، وقال مجاهد: ﴿ إلاّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ ﴾ أي إلاَّ أن تموتوا جميعكم فيكون ذلك عذراً عندي، وأصله أن من أحاط به العدو فقد هلك، لأنه قد انسدت عليه مسالك النجاة، فقيل لكل من هلك: قد أُحيط به، كقوله تعالى: ﴿ جَاءَتْهُمْ ريحٌ عاصِفٌ وجَاءَهُمُ المَوْجُ مِن كُلِّ مَكانٍ، وَظَنُّوا أَنّهُمْ أُحيطَ بهِمْ ﴾[1] أي أيقنوا أنهم قد هلكوا. ثم قال تعالى: ﴿ فلما آتَوْه مَوْثِقَهُم قَالَ اللهُ على ما نَقول وكيلٌ ﴾ أي فلما حلفوا له وأعطوه العهد المؤكد، على حفظ أخيهم ورعايته، قال لهم: الله شهيد ورقيب على ما نقول.

كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله

قال ابن كثير: وإنما فعل ذلك، لأنه لم يجد بُدَّاً أن يبعثه معهم، من أجل الميرة التي لا غنى لهم عنها. وقبل أن يودِّعهم أوصاهم بهذه

(١) سورة يونس آية رقم ٢٢.

الوصية: ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، وَادْخُلوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقةٍ وَمَا أُغْني عَنْكمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ، إِنِ الحُكْمُ إلاَّ للهِ، عَلَيْهِ تَوكّلتُ وَعَلْيهِ فلْيَتوكّلِ المتَوكّلونَ ﴾ أي قال لهم يعقوب: يا أبنائي لا تدخلوا مصر من بابٍ واحد، وادخلوها من أبوابٍ متعددة، قال ابن عباس والسدي: خشي عليهم من العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمالٍ، وهيئةٍ حسنةٍ، ومنظرٍ وبهاءٍ، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حقٌّ تدخل الرجل القبر، والجملَ القدر، كما ثبت في الحديث الصحيح: «العين حقٌّ، ولو كان شيءٌ يسبقُ القَدَرَ لسبقته العينُ»(١) وقد كان ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين بهذه الدعوات فيقول: «أُعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطانٍ وهامة، ومن كل عينٍ لامَّة»، وكان يقول: «هكذا كان إبراهيمُ يُعوِّذ إسماعيل وإسحاق عليهم السلام»(٢) ومعنى العين اللاَّمَّة: هي العين التي تصيب بسوء.

تذكيرهم بأن كل شيء بتقدير الله

ثم بعد أن وصَّاهم نبَّههم إلى أنه لا يحدث لهم إلاَّ ما قدَّره الله، ولا يغني حذر عن قدر، وإذا نزل القدر عمي البصر فقال: ﴿ وما أُغْني عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شيْءٍ ﴾ أي لست أدفع عنكم بتدبيري شيئاً مما قضاه الله ﴿ إِنِ الحُكْمُ إلاَّ للهِ ﴾ أي ليس الحكم إلا للهِ عزّ وجل وحده، لا يشاركه فيه أحد، والمراد بالحكم هنا «الحكم القدري» أي ما قضاه الله وقدَّره على عباده، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ عليه توكلت

(١) الحديث أخرجه مسلم في الطب رقم ٢١٨٨ والترمذي في باب ما جاء أن العين حقٌّ، برقم ٢٠٦٣ ولم يذكر لفظ «العينُ حقٌّ» وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٧/٥٨٣.
(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ٤/١٧٩ وأحمد في المسند ١/٢٧٠ ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ أي على الله وحده اعتمدتُ، وبه وثقتُ، وعليه فليعتمد أهل اليقين والإيمان، فإنه هو وحده الضار النافع.

تنفيذ الأبناء وصيَّة أبيهم يعقوب

تلك هي وصية يعقوب لأبنائه، وهي وصية التوحيد والإيمان، والاعتماد على الرحمن جلّ وعلا، وسار الركب، ونفَّذوا وصية أبيهم، فدخلوا مصرَ من أبواب متفرقة، وهنا يذكر القرآن الكريم الحقيقة ناصعةً بيِّنةً جلية، وهي أن دخولهم متفرقين، ما كان ليدفع عنهم من قضاء الله وقدره شيئاً، وأن الحذر لا يدفع القدر، ولكنه الأخذُ بالأسباب، يعلِّمه النبي الكريم الصالح يعقوب لأبنائه، ليأخذوا الحيطة والحذر لأنفسهم في هذه الحياة، ويعتمدوا على الله مسبِّب الأسباب، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿ ولَمّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أمرهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْني عَنْهمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ، إلَّا حَاجَةً في نفس يَعْقُوبَ قَضاهَا، وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ وهكذا صدَّق القرآن ما قاله يعقوب عليه السلام في وصيته لأبنائه حين قال: ﴿ وما أُغْني عَنْكُمْ مِنَ اللهِ من شَيْءٍ ﴾ فقال سبحانه: ﴿ ولمّا دَخلوا من حيْثُ أمرَهُمْ أبوهُمْ ما كان يُغْني عَنْهمْ مِن الله منْ شَيْء ﴾ ثم أثنى عليه بأنه كان على جانب عظيم، من الفهم والعلم القويم فقال: ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أي وإن يعقوب لذو علمٍ واسع بسبب ما أكرمناه به من الوحي، فقد علم بنور النبوة أن القدر لا يدفعه الحذر ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يعلمون ﴾، اللَّهمّ افتح علينا فتوح العارفين، ووفّقنا لفهم أسرار كتابك يا رب العالمين.

عودة إخوة يوسف لمصر للمرة الثانية

ها هم إخوة يوسف يعودون للمرة الثانية من بلاد كنعان، من عند أبيهم يعقوب، وقد اصطحبوا معهم أخاهم الصغير «بنيامين» الأخ الشقيق ليوسف، نزولاً عند رغبة عزيز مصر، وهم لا يدرون عن أمره شيئاً، إلا أنه العزيز، صاحب العز والجاه والسلطان، المتصرف في تدبير شئون البلاد، الذي له الحكم النافذ في أمور الإعاشة والاقتصاد والقضاء. ويطوي السياق هنا أنباء هذه الرحلة الطويلة، وما جرى فيها لإخوة يوسف من مفاجآت وأخبار، في مكابدتهم لعناء السفر، ويضعنا وجهاً لوجه أمام هذه المقابلة الملكية، فهؤلاء هم إخوته يدخلون عليه، وقد أحضروا معهم أخاهم بنيامين، ويلتقي بهم عزيز مصر ﴿ ولَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إلَيْهِ أَخَاهُ، قَالَ إِنِّي أَنَا أَخوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يعْمَلُونَ ﴾.

التقاء يوسف بأخيه الشقيق بنيامين

هنا في هذا الموقف يلتقي الأخ بأخيه الشقيق، بعد طول فراق وبعاد، بعد أن فرَّق بينهما الزمان بسبب الكيد والحسد، وتلتقي النظرات، وتحتبس في العيون العبرات، فما أن يلتقي يوسف بأخيه الشقيق بنيامين، حتى يضمَّه إليه ضمَّ المحب لحبيبه، ويكاد من فرط الشوق يقول هذا أخي، وهذا هو السرُّ في التعبير القرآني المبدع، حيث يحكي هذا اللقاء، بأسلوبٍ يوحي بعدم وجود مقدمات ﴿ولَمّا دَخَلوا على يُوسُفَ آوى إليْهِ أخاه﴾ مع أن المفهوم الطبيعي أن هذا لم يحدث إلا بعد أن اختلى يوسف بأخيه، فكشف له عن الحقيقة، وأخبره أنه أخوه يوسف، الذي زعم إخوته أن الذئب قد افترسه.

قال المفسرون: لمَّا دخل إخوة يوسف عليه، أكرمهم وأحسن ضيافتهم، ثم أنزل كل اثنين في بيت، وبقي «بنيامين» وحيداً، فقال: هذا لا ثاني له، فاتركوه عندي وانصرفوا إلى منازلكم، فلما خلا به سأله من هؤلاء؟ قال: هؤلاء إخوتي من أبي، قال: أليس لك إخوةٌ غيرهم؟ قال: بلى، لي أخ شقيق اسمه يوسف، هلك في قديم الزمن، قال: أتحبُّ أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: ومن يجدُ أخاً مثلك؟ ولكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف عليه السلام وقام إليه يعانقه، وعرَّفه بنفسه عند ذلك ﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

التعارف بين يوسف وبنيامين

ورُوي أنه لما انفرد به في تلك الليلة، بات يوسف يضمُّه إليه ويَشمُّه حتى أصبح، وبعد ذلك أطلعه على شأنه، وعرَّفه أنه أخوه، فذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾. ومعنى قوله تعالى: ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ أي أنزله في الموضع الذي كان يأوي إليه، وهذا يدل دلالة واضحة، على أنه اختلى بأخيه بنيامين، ولم يخبره أنه يوسف إلا في غيبةٍ عن إخوته، لأنه يريد أن يدبِّر حيلةً لإبقاء أخيه عنده، ثم قال له: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي لا تحزن ولا تأسف على ما صنعوا بي، وعلى ما فرَّقوا بيننا.

قال الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية: «يخبر تعالى عن إخوة يوسف، لمَّا قدموا على يوسف ومعهم أخوه الشقيق «بنيامين» أدخلهم دار كرامته، ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والألطاف والإحسان، واختلى بأخيه، فأطلعه على شأنه وما جرى له، وعرَّفه أنه أخوه، وقال له: «لَا تْبتَئِسْ بما كَانُوا يَعْملونَ» أي لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره

بكتمان ذلك عنهم، وألاَّ يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال ليبقيه عنده معززاً، مكرَّماً، معظماً»[1] ويطوي السياق كذلك فترة الضيافة، التي أقامها إخوة يوسف في القصر معزَّزين مكرمين، وما لاقوه من حفاوةٍ بالغة من العزيز ومن أهل مصر، وما دار بين يوسف وإخوته، ليعرض مشهد الرحيل الأخير.

الحيلة التي دبرها يوسف للاحتفاظ بأخيه

أمّا الحيلة التي دبّرها يوسف فهي وضع الصاع ﴿ فَلَمّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السّقايَةَ في رَحْلِ أخيهِ، ثم أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُها العِيرُ إنَّكُمْ لسَارِقونَ. قالوا وأقْبَلوا عَلَيْهِمْ ماذا تَفْقدونَ. قَالُوا نَفْقدُ صُواعَ الملِكِ، وَلِمنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ. قَالُوا تـالله لَقَدْ عَلِمْتُمْ مـا جِئْنا لِنُفسِدَ في الأرْضِ وَمَا كنّا سَارِقينَ ﴾. أمر يوسف غلمانه أن يملأوا لهم أوعيتهم بالحبوب، وأسرع في تجهيزهم هذه المرة وذلك لينفرد بأخيه الشقيق من غير رقيب، بعد تلك الحيلة التي دبَّرها لإبقائه، ولهذا جاء التعبير هنا ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ﴾ معطوفاً بالفاء التي تدل على التعقيب، أي فلما قضى حاجتهم، وحمَّل إبلهم بالطعام والميرة، وأعجل جهازهم وأحسنه ﴿ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ أي أمر يوسف بأن تُجعل السقاية ـ وهي صاعٌ من ذهب مرصَّع بالجواهر خاصٌّ بالعزيز ـ في متاع أخيه بنيامين، وكان قد اتفق معه على هذه الحيلة ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُها العِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ أي أمر منادياً أن ينادي القافلة، وينادي أصحابها قائلاً: يا أيها الركب المسافرون ويا أصحاب الإبل، إنكم قومٌ سُرَّاق، أكرمناكم وتسرقون؟ ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾؟.

---

(1) انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٥٦ المختصر.

اتهامهم بسرقة صواع الملك

ارتـاعَ إخوةُ يـوسف لهذا النبأ الخطير، الـذي نـزل عليهم كالصاعقة، فهم جماعةٌ شرفاءُ أمناءُ أولادُ الأنبياء، فكيف يتهمونهم بالسرقة؟ ولهذا وقفوا يستفسرون عن الخبر، والتفتوا إليهم يسألونهم ماذا فقدتم، وماذا أضعتم؟ وفي قولهم: «مَاذَا تَفْقِدُونَ»؟ بدل: ماذا سرقنا؟ تنبيهٌ لهم على مراعاة حسن الأدب، وعدم التسرع بنسبة البريئين إلى تهمة السرقة، ولهذا التزموا الأدب فيما بعد معهم ﴿ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ ﴾ أي لقد ضاع منا وفقدنا مكيال الملِك المرصَّع بالجواهر الثمينة، والصُّوَاعُ هو المكيال، يسمى صُواعاً، ويسمى سقاية وهو خاص بالعزيز، ولهذا قالوا: «صواع الملك» وزيادةً في إحكام الخِطَّة رغَّبهم المنادي وأخبرهم بأن هناك مكافأةً لمن يُحضره متطوعاً، وهي مكافأةٌ ثمينة في مثل هذه الظروف، فقال: ﴿ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ أي لمن يردُّه إلينا حملُ بعير من القمح مجاناً كجائزة له، وأنا ضامنٌ وكفيل له بذلك.

هكذا أحكم يوسف الخِطَّة، بتدبير تلك الحيلة لإبقاء أخيه بنيامين عنده، ليتم أمر اللهِ في لقاء الأسرة، واجتماع الشمل بعد ذلك الفراق الطويل.

تهمةٌ فظيعة لإخوة يوسف

تركنا إخوة يوسف يجابهون تلك التهمة الفظيعة الشنيعة، تهمة سرقة صاع الملك، فهم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فكيف يُتَّهمون بمثل هذه التهمة التي لا تليق إلَّا بأحد الفُسَّاق؟ ولذلك قطعوا وجزموا بأنهم مبرءون من هذا العمل القبيح، وأقسموا لهم بالله مؤكِّدين كلامهم بأنواع المؤكدات، بأنهم أناس أمناء، ما جاءوا ليفسدوا في

الأرض، وليس من عادتهم السرقة، لأنهم أبناء نبي كريم ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ، وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ أي لقد علمتم من حالنا ومظهرنا أننا ما جئنا لنفسد في أرضكم، ولسنا ممن يوصف بالسرقة قط، فما يقع منا مثل هذا الفعل الشنيع؟ قال البيضاوي: استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم، لما عرفوا منهم من فرط أمانتهم، كردِّهم البضاعة التي جُعلت في رحالهم، والسارق لا يفعل ذلك أبداً، وكَكَمّ أفواه الدواب لئلا تطعم زرعاً أو طعاماً لأحد!.

الحيلة التي فعلها يوسف كانت بوحي إلهي

وهنا ينكشف طرف التدبير الإلهي، الذي ألهمه الله ليوسف عليه السلام، فلقد كان المتَّبع في شريعة يعقوب، أن يؤخذ السارق بسرقته، فيُسْتَرقّ بجرم السرقة، أي يصبح عبداً رقيقاً للمسروق منه، وكان حكم مَلِكِ مصر أن يُضرب السارقُ، ويُغرَّمَ ضعْفَيْ قيمةِ المسروق، ولما كان إخوة يوسف موقنين بالبراءة، فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق، ذلك ليتم تدبيرُ اللهِ ليوسف وأخيه ﴿ قَالُوا فما جَزاؤُهُ إنْ كُنْتُمْ كاذِبينَ؟ قَالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ في رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ، كذلك نَجْزي الظّالمينَ ﴾ أي قال لهم الفتيانُ والغلمان: ما عقوبة السارق في شريعتكم إن كنتم كاذبين في دعوى البراءة؟ قال إخوة يوسف: عقوبته في شريعتنا أن يُسترقّ بسرقته لمدَّة سنة فيصبح عبداً مملوكاً لمن سرق منه، قال ابن عباس: كانوا في ذلك الزمان يستعبدون كل سارقٍ بسرقته، وكان استعباد السارق في شرعهم يجري مجرى قطع اليد في شرعنا(١).

---

(١) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/ ١٨٠.

عقوبة السرقة في شريعة يعقوب

وقوله تعالى: ﴿ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ أي هو نفسه جزاؤه بمعنى أن الإنسان السارق يصبح هو نفسه مسترقاً جزاء ما سرق، وهذا زيادة منهم في البيان كقولك: حقُّ الضيف أن يُكرم فهذا هو حقُّه، ثم قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الوافي يعامل السارق الظالم، ولقد قالوا ذلك ثقةً بكمال براءتهم، وهم عما فُعل بهم غافلون.

دبَّر يوسف لإخوته هذه المكيدة من حيث لا يشعرون، جزاءً وفاقاً لما دبَّروا له من الكيد والمكر، حين انتزعوه من يد أبيه وألقوه في الجب، وشتَّان بين الكيدين، فهذا كيدٌ للخير والمصلحة، يريد أن يُبقي أخاه ليجتمع شمل الأسرة، ويكرمهم في القصر غاية الإكرام، وذاك كيدٌ كان غايته الهلاكَ والدمار.

تفتيش الأوعية وإخراج الصاع من رحل بنيامين

وإحكاماً للخطة، وتنفيذاً للحيلة على أكمل الوجوه، فقد أمر يوسف بتفتيش أوعيتهم قبل أن يَفْتح متاع أخيه بنيامين، حتى يظهر الموضوع وكأنه أمرٌ عادي، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ فَبَدأ بأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخيهِ، ثمّ اسْتَخْرَجَها منْ وعاء أَخيه، كذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ ليأخُذَ أخاه في دِين المَلِكِ إلاّ أنْ يَشاءَ الله نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، وفوق كلِّ ذي علمٍ عليمٌ ﴾.

قال المفسرون: هذا من تمام الحيلة، ودفع التهمة، فإنهم لمَّا حلفوا اليمين، وادعوا البراءة من السرقة متحدِّين، قال لهم الغلمان: لا

بدَّ من تفتيش أوعيتكم واحداً واحداً، فانطلقوا بهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء «بنيامين» قال قتادة: ذُكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً، ولا ينظر وعاءً إلا استغفر اللَّهَ ممَّا قذفهم به، وانتهى من تفتيش العشرة، حتى بقي أخوه بنيامين ـ وكان أصغر القوم ـ فقال: ما أظنُّ هذا أخذ شيئاً، فقالوا: واللهِ لا نتركك حتى تنظر في رحله، فإنه أطيبُ لنفسك ولأنفسنا، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصُّوَاع، فذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمّ اسْتَخْرجَها مِنْ وِعاءِ أَخيهِ ﴾.

المفاجأة الغريبة التي لحقت إخوة يوسف

ويدعنا السياقُ نتصور مبلغ الدهشة بالمفاجأة العنيفة لأبناء يعقوب، فقد كانوا موقنين جازمين بأنهم بريئون من هذه التهمة الشنيعة، ولهذا حلفوا باللهِ جازمين ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنّا سَارِقينَ ﴾ فلما خرج الصُّوَاعُ في رحل أخيهم بنيامين، نكَّسوا رءوسهم حياءً وخجلاً، وأقبلوا على أخيهم يلومونه ويهينونه، ويقولون له: ما الذي صنعت؟ فضحتنا وسوَّدتَ وجوهنا يا ابن راحيل!! ـ و «راحيل» هو اسم أمه وأمِ يوسف أيضاً، ينسبونه إليها ذماً وتقبيحاً ـ يقول تعالى: ﴿ كَذَلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ﴾ أي كذلك صنعنا ودبّرنا ليوسف، وألهمناه الحيلة، ليستبقي أخاه عندهم ﴿ ما كانَ ليأْخُذَ أخاه في دينِ الملِكِ إلاّ أنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾ أي ما كان يستطيع يوسف أن يأخذ أخاه في دين ملكِ مصر، إلا بمشيئته تعالى وإذنه، فلو حكَّم شريعة الملك ما تمكَّن من أخذ أخيه، إنما كان يعاقب السارقُ على سرقته، بأن يُضرب ويُغرَّم ضعف ما سرق، دون أن يستولي على أخيه، كما استولى عليه بتحكيم إخوته لدينهم الذي يطبقونه هم، وهذا هو تدبير الله الذي ألهم يوسف أسبابه، وهو كيدُ الله له بعلم وإحكام.

معنى الكيد المنسوب إلى الله عزّ وجلّ

وقد يقول قائل: إن لفظ الكيد مشعرٌ بالحيلة والخديعة، فكيف يليق بالعليم الحكيم أن يقول: ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيوسُفَ ﴾؟.

والجواب: أن الكيد يُطلق على التدبير في الخفاء، وقد يكون للخير أو للشر، فالكيدُ من الخلق الحيلةُ والمكرُ وهو قبيح، والكيدُ من اللهِ هو التدبيرُ بالحق، لدفع السوء والمكروه وهو خير كما قال تعالى: ﴿ إنَّهم يَكيدونَ كَيْداً وَأَكيدُ كَيْداً ﴾[1] فالكيدُ من الكفار هو السعي لإطفاء نور الله، والكيدُ من الله هو التلطف والإمهال، فيظنون أنهم على حقٍّ وعلى هدىً، وأنهم لو كانوا على ضلال لعاقبهم الله، وهذا هو الاستدراج.

قال الفخر الرازي في التفسير الكبير: إن الاستهزاء، والكيد، والمكر والسخرية، في حق الله لا يليق، وقد ذكرنا قانوناً معتبراً في هذا الباب، وهو أن أمثال هذه الألفاظ، تُحمل على نهايات الأغراض لا على بدايات الأغراض، وقررنا هذا الأصل عند تفسير قوله تعالى: ﴿ إنّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا ﴾ فالكيدُ: السعيُ في الحيلة والخديعة، ونهايتُه إلقاءُ الإنسان من حيث لا يشعر في أمرٍ مكروه، ولا سبيل له إلى دفعه، فهنا أراد إخوةُ يوسف ـ بطريق الحسد ـ أن يُهينوه ويبطلوا أمره، وأراد الله نصره وإعزازه وإعلاء أمره، ولهذا قال: ﴿ نرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ ﴾ وقد ألهمه الله هذه الحيلة، ليتمكن يوسف عليه السلام من إمساك أخيه عنده بمقتضى حكمهم ولهذا ختمها تعالى بقوله: ﴿ وفَوْقَ كُلِّ ذي عِلْمَ عليمٌ ﴾ أي فوق كل عالم من هو أعلم منه

---

(١) سورة الطارق آية رقم ١٥.

حتى ينتهي الأمر إلى علَّام الغيوب، قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عزّ وجلّ، فكان كيدهم ليوسف نهايته أن رفعه الله عليهم، وحكمهم عليه بالاسترقاق صار سبباً لتمكن يوسف من إمساك أخيه، فسمي هذا مكراً وكيداً بسبب النتيجة، لحصول الأمر على خلاف ما يريدون[1].

اتهامهم ليوسف وأخيه بالسرقة

ولما عُثر على الصَّاع في رَحْل بنيامين، بُهِتَ إخوةُ يوسف وسُقط في أيديهم، وأخذتهم الحيرةُ والدهشةُ من هذا الصنيع، وقالوا: هذا أمرٌ عجيب، إن «راحيل» ولدت ولدَيْنِ لِصَّيْنِ، ـ يعنون يوسف وبنيامين ـ ثم قالوا لأخيهم بنيامين: يا بني راحيل ما أكثرَ البلاء علينا منكم؟ فقال بنيامين: بل ما أكثر البلاءَ علينا منكم، ذهبتم بأخي وضيعتموه في المفازة، ثم تقولون لي هذا الكلام؟ قالوا: فكيف خرج الصُّوَاعُ من رحلك؟ قال: وضعه في رحلي من وضع البضاعة في رحالكم.

وهنا حرَّك الحسد كوامن حقدهم، على يوسف وأخيه، فإذا هم يتنصلون من السرقة ويرمون بها يوسف وأخاه ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ، فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ في نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ، قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانَاً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾.

كأنهم يقولون: إن هذا الأمر ليس بغريبٍ منه، فإن أخاه الذي هَلَك كان أيضاً سارقاً، ـ يعنون به يوسف، وهم لا يعلمون أنه هو العزيز الذي يخاطبونه الآن ـ ومرادُهم من هذا الكلام أن يقولوا: إنَّا لسنا على

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٨/١٨٢ باختصار.

طريقته، ولا على سيرته، وهو وأخوه السابق مختصان بهذه الطريقة، لأنهما من أمٍّ أخرى غيرِ أمنا، وأولادُ يعقوب منزَّهون عن أمثال هذه القبائح.

لماذا رموا يوسف بالسرقة؟

ويُعلِّل بعض المفسرين تهمتهم ليوسف بالسرقة بأقوالٍ ذُكرت في كتب التفسير، منها أنه كان يأخذ من بيت أبيه الطعام ويعطيه للفقراء، فعدُّوا هذا سرقة، ومنها أنه أخذ في صباه صنماً لبعض أقارب أمه، كان يُعبد من دون الله، فكسره وألقاه بين الجيف، إلى آخر ذلك.

ولا حاجة إلى هذه الأقوال حتى نثبت صدق قولهم، بل هو محضُ الكذب والبهتان على يوسف، فليست هذه أول مرة يكذبون بها في كلامهم، حتى نبرِّىء ساحتهم من الكذب، فإن الذين رموا أخاهم في الجب، ثم جاءوا أباهم عشاء يبكون، ومعهم قميص يوسف قد لطخوه بالدم، ثم قالوا لأبيهم: ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ لا يتورَّعون عن الكذب أمام عزيز مصر، ليصونوا ماء وجوههم، بعد تلك الحادثة المخجلة، التي ألحقت بهم الذل والعار، لخروج الصاع بين رحالهم، فلا حاجة إلى التعلل لهم، والاعتذار ببيان نوع السرقة!! إنهم كذبوا عليه وبهتوه، كما كذبوا على أبيهم أول مرة بقولهم: «أكله الذئب» وكانت قلوبهم لا تزال تحمل الحقد والحسد على يوسف، مهما طالت المدة ومهما بَعُد الزمان، فما أن وجدوا الفرصة مؤاتية للطعن فيه، حتى انهالت ألسنتهم بالطعن والتجريح.

قلب الحاسد لا يخلص من الحقد والغلِّ

وهذه الواقعة تدلُّ على أن قلب الحاسد، لا يَطْهُر عن الغُلِّ البتَّة، لقد قذفوا بالسرقة يوسف وأخاه، إرواءً لحقدهم القديم فقالوا: ﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدَ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي إن كان بنيامين قد سرق، فهذه عادةٌ متأصلة في أبناء راحيل، فقد سرق أخوه الشقيق يوسف من قبل، فلا عجب أن يشبه الأخ أخاه، يواجهونه بمثل هذا الزور والبهتان، وهم لا يعلمون أنه هو يوسف الصدِّيق، وهنا يكظم يوسف غيظه، ويُخفي ألمه من كذبهم وافترائهم ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ في نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ أي أسرَّ هذه المقالة في نفسه وكتمها، ولم يُظهرها لإخوته حلماً منه، وتلطفاً معهم، وقال خفيةً عن إخوته ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً ﴾ يعني أنكم بهذا القذف، شرٌّ منزلة عند الله من المقذوف، حيث سرقتم أخاكم من أبيكم، ثم طفقتم تفترون على البريء، ولم يواجههم بهذا الكلام وإنما قاله في نفسه: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أي واللهُ أعلمُ بحقيقة ما تقولون، وأراد بذلك قطع الجدل في الاتهام الذي أطلقوه، وكأنه لا دخل له بالموضوع.

تلطف واسترحام للعزيز

شعر الإخوة بأنهم قد ضيَّعوا أخاهم بحكم قولهم للملك ﴿جزاؤه مَنْ وُجِدَ في رَحْلِه فَهُوَ جَزاؤه﴾ أي جزاء من سرق أن يُسترقَّ، وعادوا إلى الموقف المحرج الذي سيواجهونه، إذا رجعوا إلى أبيهم وليس معهم بنيامين، بماذا سيتعلَّلون له وماذا يقولون؟ وكيف سيصدِّقهم بعد هذه المرة؟ عادوا بمخيَّلتهم إلى الموثق الذي أخذه عليهم أبـوهم ﴿ لَتَأْتُنَّني بِهِ إلاّ أَنْ يُحاط بكُمْ ﴾ فراحوا يتلطفون ويسترحمون، باسم

والد الفتى الشيخ الكبير، ويعرضون على العزيز أن يأخذ واحداً منهم بدله، إن لم يكن سيطلقه رحمةً بأبيه، وأخذوا يستعينون في رجائهم، بتذكير العزيز بإحسانه وفضله وبره، لعله يرقُّ قلبه ويلين ﴿ قَالُوا يا أَيُّها العَزِيزُ إنّ لَهُ أباً شيخاً كبيراً، فخُذْ أحَدَنا مَكانَهُ إنّا نَراكَ مِنَ المُحْسِنينَ ﴾ أي أتمم إحسانك علينا فقد عودتنا الجميل والإحسان!! ولكنَّ يوسف كان يريد أن يلقي عليهم درساً بليغاً، ليطلعهم على خطئهم الجسيم، وكان يريد أن يشوِّقهم إلى المفاجأة التي يُعِدُّها لهم ولوالده وللجميع، ليكون وقعُها أعمقَ، وأشد تأثيراً في النفوس، يريد أن يمضي بهم إلى آخر الطريق، ليريهم فضله، وعلمه، وحلمه ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نأْخُذَ إلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتاعَنا عِنْدَهُ، إنّا إذاً لَظَالِمُونَ ﴾ أي قال يوسف: نعوذ بالله من أن نأخذ أحداً بجرم غيره، إنا إن فعلنا ذلك نكون ظالمين!!.

من لطائف بدائع القرآن في التعبير

لم يقل: معاذ الله أن نأخذ بريئاً بجريرة سارق، فقد كان دقيقاً في تعبيره، لأنه يعلم أن أخاه ليس بسارق، فعبَّر أدقَّ تعبير حكاه عنه القرآن، احترازاً عن الكذب، ولهذا قال: ﴿ إلاَّ مَنْ وَجدْنَا مَتاعَنَا عِنْدَهُ ﴾ بدل «إلاَّ من سَرَق» وهذا من بدائع لطائف القرآن، أن يحكي اللفظ مبرءاً عن الكذب، حتى في قصصه وأخباره، وهو أدب من آداب الإسلام ينبهنا القرآن عليه.

ثم قال تعالى: ﴿ فَلمّا اسْتَيْأَسُوا مِنْه خَلَصُوا نَجِيّاً ﴾.

والمعنى: لما يئسوا من إجابة طلبهم يأساً تاماً، وعرفوا ألاَّ جدوى من الاستعطاف والرجاء، اعتزلوا جانباً عن الناس يتناجون ويتشاورون ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ألَمْ تَعْلَموا أَنّ أباكُمْ قدْ أَخَذَ علَيْكُمْ موثِقاً مِنَ اللَّهِ ومنْ

قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ في يُوسُفَ﴾ أي يقول لهم أخوهم الكبير «شمعون» وقيل: هو «يهوذا»: ألا تذكرون العهد الوثيق الذي قطعتموهُ على أنفسكم أمام أبيكم بردِّ أخيكم؟ ومن قبل هذا ألا تذكرون تفريطكم في أمر يوسف؟ فكيف ترجعون إلى أبيكم الآن، وقد أضعتم عليه ولديه يوسف وبنيامين؟ وماذا تقولون له في هذه المرة؟ وكأنه يحركهم إلى البحث عن مخرج، ثم أبدى لهم رأيه فقال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأرضَ حتى يأذَنَ لي أبي، أوْ يحكُمَ اللهُ لي، وهو خيرُ الحاكمِينَ﴾ أي لن أفارق أرض مصر، حتى يسمح لي أبي بالخروج منها، أو يحكم لي بخلاص أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ﴾ أي هو تعالى أعدل الحاكمين، لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل.

التعبير القرآني المعجز

ولنمعن النظر في هذا التعبير الإلهي، المعجز ببيانه وروعة إيجازه ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً﴾ فقد صوَّرت الآية اجتماعهم وتشاورهم وما دار بينهم من أحاديث بهذه الألفاظ اليسيرة، وقد ذكر القاضي عياض في كتابه «الشفا»[1] أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً﴾ فقال: أشهدُ أن مخلوقاً لا يقدرُ على مثل هذا الكلام، وذلك أن الآية ذكرت صفة اعتزالهم لجميع الناس، وانفرادهم من غيرهم، وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن، وأخذهم في تزوير ما يلْقَون به أباهم عند عودهم إليه، وما يوردون عليه من ذكر الحادث، فتضمنت تلك الآية القصيرة، معاني هذه الأخبار الطويلة.

---

(١) انظر كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض ١/١٦٩.

تشاورهم في مجابهة الموقف الخطير

اجتمع الإخوة يتشاورون، كيف يمكنهم أن يجابهـوا الموقف الخطير، وأصرَّ الأخ الكبير على ألا يفارق أرض مصر، حتى ينكشف الأمر، فيأمره أبوه بالعودة، أو يكشف الله عنهم الغمّة، ونصح إخوته أن يرجعوا إلى أبيهم يعقوب، فيخبروه بالأمر على جليَّته، ويقصُّوا له القصة كما حدثت وكما رأوها دون زيادة أو نقصان ﴿ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ، وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا، وَمَـا كُنَّا لِلْغَيْب حَافِظِينَ. وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا، وَالعِيَر الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيها، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ يقول لهم أخـوهم الكبير: ارجعوا أنتم إلى أبيكم، فأخبروه بحقيقة ما جرى، وقولوا له: إن ابنك «بنيامين» سرق، ولسنا نتَّهمه اتهاماً أو نرميه جزافاً، إنما نشهد عليه بما رأينا وتيقنَّا، فقد رأينا الصَّاع في رحله، وقولهم ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ أي ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك العهد، ولو كنا نعلم ما ذهبنا به إلى الملِك، فنحن غير عارفين بما يأتي به الغيب؟ ونصحهم فقال لهم: قولوا له: إن كنت شاكّاً في أمرنا، فاسأل أهل القرية التي كنا فيها ـ وهي عاصمة مصر ـ والقرية في اللغة العربية: هي المدينةُ الكبيرة، وليسأل القافلة التي كنا فيها، فهم لم يكونوا وحدهم، حين وقعت هذه الواقعة، بل رآها الناس وشاهدوها، فالقوافل كثيرة كانت تقصد مصر لتمتار وتأخذ الطعام، في تلك السنين العجاف، وهذا معنى قولهم ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا، وَالْعِيَرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أي صادقون فيما أخبرناك عنه، من أن ابنك سرق وأخـذوه بسرقته.

يعقوب أمام النبأ المفجع

وتمضي الآيات تتحدث لنا عن بقية القصة، ويطوي السياقُ الطريق بهم، وما دار بينهم من أحاديث، حتى يقف بنا أمام أبيهم المفجوع، في مشهد حزينٍ بعد أن بلَّغوه بالنبأ الفظيع، فلا نسمع إلَّا ردَّه القصير السريع، شجيًّاً، وجيعاً، ولكنَّ وراءه أملاً كبيراً، لم ينقطع عن الله عز وجل مهما عَظُمت المصائب، وكثرت النوائبُ، فأملُه بالله عظيم وكبيرٌ أن يردَّ عليه ولدَيْه، بل أولادَه الثلاثة بما فيهم كبيرهم، الذي أقسم ألَّا يبرحَ أرضَ مصر، حتى يحكم الله له، أو يأمره أبوه بالرجوع. وإنه لأملٌ عجيب، في ذلك القلب المجروح الوجيع ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرَاً، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾.

لم يُصدِّقهم في هذا الأمر، بل اتَّهمهم بالتآمر على «بنيامين» وظنَّ أنها كفعلتهم بيوسف، فلهذا قال ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرَاً ﴾ أي حسَّنتْ وزيَّنتْ لكم أنفسكم مكيدةً، فدبَّرتموها له، ثم استسلم لقضاء الله وحكمه فقال ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي لا أجد سوى الصبر محتسباً لأجري عند الله، وهذه العبارة، هي نفسها التي قالها حينما فقد يوسف، ولكنه هناك قال ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ وهنا قال ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعَاً ﴾ ذلك لأن إيمانه بالله، يجعله يعتقد بأن المصيبة كلَّما عَظمت وكَبُرت، كلما آذن الله بالفرج، ﴿ فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرَاً ﴾ ولذلك ما انقطع أملُه بالله، أن يردَّ إليه كامل أولاده، ولكنَّ الجُرح ينكتُ الجُرح، والمصيبةُ تذكِّر بالمصيبة، ولهذا ذكَّرتْه هذه الفاجعةُ، بمصيبته القديمة في يوسف، فتنحَّى جانباً عنهم، وخَلَا بنفسه وحيداً فريداً، يتفطَّر قلبه حزناً، ويسكب الدموع

مدراراً على ولده يوسف، ويكاد يبكي الدم بدل الدموع، واشتد به الحزنُ والكَمَدُ، وذكَّره المصابُ الجديد بالمصاب القديم، حتى فَقَد بصرَه، وعميَ من شدة الحزنِ والكرب ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ، وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي أعرضَ عن أولاده، وقال: يا أسفي وحسرتي وحزني على يوسف ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ أي فَقَد بصرَه، أو عَشِيَ[1] فلم يعد يُبصِرُ إلَّا خيالاً، فإن الدموع إذا كثرت ذهبت بسوادِ العين، وقوله تعالى ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي فهو كئيبٌ حزين، يكظمُ غيظَهُ، ويتجرَّعُ حزنَه وألَمه.

أقوال المفسرين حول الآية

قال أبو السعود: «وإنما تأسف على يوسف، مع أن الحادث مصيبتُه في أخويه، لأن ذِكْرَ يوسف كان آخذاً بجامع قلبه، لا يكاد ينساه، ولأنه كان واثقاً من حياتهما، طامعاً في إيابهما، وأما يوسف فلم يكن في شأنه، ما يُحرِّكُ سلسلة رجائِه ولقائِه، سوى رحمةِ الله وفضله»[2].

وقال الإمام الفخر الرازي: «وإنَّما عَظُم حزنُه على مفارقة يوسف، عند هذه الواقعة، لأن الحزن الجديد، يقوِّي الحزن القديم الكامن، والمصيبةُ إذا وقعت على المصيبة كانت أوجع، كما قال الشاعر:

وَقَدْ لَامَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَا رَفِيقِي لِتَذْرَافِ الدُّمُوعِ السَّوَافِكِ

---

(١) يُقال: عشيَ البصرُ ضَعُفَ حتى كاد لا يرى من شدة البكاء، كأن غشاوة صارت عليه، قال الشاعر: عشيتْ عيناي من طول البكاء، قال المفسرون: إن يعقوب فقد بصره من شدة حزنه على يوسف، وبقي لا يبصر ست سنوات، حتى كشف الله عنه الضر بقميص يوسف، واستدلوا بقوله تعالى ﴿ أَلْقَاهُ على وَجْهِهِ فارتدَ بَصِيراً ﴾.

(٢) تفسير أبي السعود ٣/٨٨.

فَقَـــالَ: أَتَبْكِي كُـلَّ قَبْـــرٍ رَأَيْتَـهُ   لِقَبْرٍ ثَوَىٰ بَيْنَ اللِّوَىٰ وَالـدَّكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ الأَسىٰ يَبْعَثُ الأَسىٰ   فَـدَعْنِي فَهَـذَا كُلُّهُ قَبْـرُ مَـالِــكِ

قال: والوجه الثاني أن المصيبة في يوسف كانت أصلَ مصائبه، التي عليها ترتَّبَتْ سائر الرزايا والمصائب، وهو كان يعلم أن هؤلاء في الحياة في أرض مصر، وأما يوسف فما كان يعلم عن حاله شيئاً، أهو حيٌّ أو ميِّتٌ؟ فلهذه الأسباب، عَظُم وَجْدُه على مفارقته، وقويت مصيبته بسبب الجهل بحاله»[١].

إشفاق أبنائه عليه من الهلاك

ولمَّا رأى أبناؤه ما حلَّ بأبيهم من الحزن والألم، رقُّوا له وأشفقوا عليه، وقالوا له على سبيل الرفق والشفقة ﴿ قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ ﴾ أي لا تزال تذكر يوسف، وتتفجع عليه بالحزن والبكاء، حتى تصير إلى مرضٍ، لا تنتفع بنفسك معه، وتشرفُ على الهلاك، أو تموتُ وتهلك أسىً وحسرة، كأنهم يقولون: إن استمرَّتْ بك هذه الحال، خشينا عليك الهلاك والتلف. رُوي أنه ما جفَّت عينا يعقوب، من يومِ فراق يوسف، إلى حين لقائه، أربعينَ سنة وما على وجه الأرض أكرمُ على الله عزَّ وجلَّ من يعقوب، وذُكر في بعض الآثار أن النبي ﷺ سأل جبريل عليه السلام، ما بَلَغ من وَجْدِ يعقوب على يوسف؟ ـ أي من حزنه عليه ـ قال وَجْد سبعين ثكلى ـ وهي التي لها ولد ثم يموت ـ قال: فهل له فيها أجر؟ قال: نعم أجر مائة شهيد، وما ساء ظنه بالله ساعةً قط»[٢] قال المفسرون: وفيه دليلٌ

(١) التفسير الكبير للرازي ١٨/١٩٣.
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ٤/٣٠٢.

على جواز التأسف والبكاء، فإن الكفَّ عن ذلك مما لا يدخل تحت التكليف، فإنه قلَّ مَن يملك نفسه عند الشدائد، ولقد بكى رسول الله ﷺ عل ولده إبراهيم، وقال: «إن القلبَ ليحزنُ، وإن العينَ لتدمعُ، ولا نقولُ إلاَّ ما يرضي اللهَ، وإنَّا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون»[1] وإنما الذي لا يجوز ما يفعله الجَهَلةُ، من الصِّياح، والنياحةِ، ولطمِ الخدودِ، وشقِّ الجيوب، وتمزيقِ الثياب.

ولمَّا لامَهُ أبناؤه على حزنه وألمه على يوسف، قال لهم قولة المؤمن الواثق بفرج اللهِ ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي لستُ أشكو مصابي إليكم، ولكنَّني أشكو ذلك إلى الله، وأعلمُ من رحمته، ولطفه، وإحسانه ما لا تعلمون أنتم، ثم وجهَّهم إلى البحثِ عن يوسفَ وأخيه، وأمَرَهُم ألَّا يدخل إلى نفوسهم يأسٌ، ولا قنوط، في العثور عليهما، فإن رحمة الله واسعة، وفرجَهُ قريبٌ منظور ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ، وَلَاتَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ، إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا القَوْمُ الكَافِرُونَ ﴾ ورَوْحُ اللهِ يراد به الفَرجُ الذي يأتي بعد الكربة، واليسر الذي يأتي بعد الشدة.

دخول أبناء يعقوب مصر للمرَّة الثالثة

ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة، وقد أضرت بهم المجاعة، ونَفِدت منهم النقود، وجاءوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم، يشترون بها الزاد والطعام، يدخلون وفي حديثهم انكسار لم يُعهد في أحاديثهم من قبل، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام،

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه وهذا طرف منه.

فقد أصابهم الفقرُ، والحاجةُ، وكثرةُ العيال، وقلة الطعام، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْه قَالُوا يا أَيُّها العَزيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُرُّ وجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ، فَأَوْفِ لَنَا الكَيْلَ وتَصَدَّقْ عَلَيْنا، إنَّ اللَّهَ يَجْزي المُتَصَدِّقينَ ﴾.

وَصَفَ إخوة يوسف أنفسهم بالعجز، ورقَّة الحال، وقلَّة المال، وشدَّةِ الحاجةِ، وذلك ممَّا يرقِّق القلب، ويحرِّكُ الشفقة، ويوجب الحنان، ولمَّا كلموه بهذا الكلام، أدركته الرقَّةُ على إخوته، وترقرقت الدموع في عينيه، وباح لهم بالذي كان يكتم، فأخبرهم بالحقيقة جليَّةً ناصعة.

إخبار يوسف لإخوته بالحقيقة

قال سيد قطب رحمه الله في الظلال: «وعندما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحدِّ من الاسترحام، والضيق والانكسار، لا تبقى في نفس يوسف قدرةٌ على المضيِّ في تمثيل دور العزيز، والتخفِّي عنهم بحقيقة شخصيته، فقد انتهت الدروس، وحان وقتُ المفاجأةِ الكبرى، التي لا تخطر على بال، فإذا هو يترفق بالإفضاء بالحقيقة إليهم، فيعود بهم إلى الماضي البعيد، الذي يعرفونه وحدهم، ولم يَطَّلعْ عليه أحدٌ إلَّا الله ﴿ قالَ هلْ عَلِمْتُمْ ما فعَلْتُمْ بيُوسُفَ وَأَخِيهِ إذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾؟.

ورنَّ في آذانهم صوتٌ لعلهم يذكرون شيئاً من نَبَراتِه، ولاحت لهم ملامحُ وجهٍ، لعلهم لم يلتفتوا إليها من قبلُ، وهم يرونه في سَمْتِ عزيز مصر وأُبَّهته وصفاته، والتمع في نفوسهم خاطرٌ من بعيد ﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ ﴾؟ أي أئنَّك لأنت؟ أنتَ بنفسك يوسف؟ فالآن تُدرك قلوبهم وجوارحُهم وآذانُهم ظلال يوسفَ الصغير، في ذلك الرجل الكبير. .

﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا، إنَّهُ منْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنِينَ ﴾.

المفاجأة العجيبة

مفاجأةٌ عجيبة يعلنها لهم يوسف، ويذكِّرهم في إجمال بما فعلوه في يوسف وأخيه في فترة الجهالة، ولا يزيد سوى أن يذكر منَّة الله عليه وعلى أخيه، معلِّلاً هذه المنَّة بالتقوى والصبر وعدل الله في الجزاء، أمَّا هم فتتمثَّلُ لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف، ويجلِّلهم الخزيُ والخجلُ وهم يواجهونه محسناً إليهم وقد أساءوا، حليماً بهم وقد جهلوا، كريماً معهم وقد وقفوا منه موقفاً غير كريم»[1] اهـ. وقوله: «أنا يوسف» صرَّح بالاسم تعظيماً لما جرى له من ظلم إخوته، كأنه قال: أنا الذي ظلمتموني على أشنع الوجوه، وأسأتم إليَّ غاية الإساءة، والله تعالى أوصلني إلى أعظم المناصب، أنا ذلك الأخ الذي قصدتم قتله، وإلقاءه في البئر، ثم صرتُ كما ترون العزيز المبجَّل؟ ولهذا قال: ﴿ وَهَذَا أَخِي ﴾ مع أنهم كانوا يعرفونه، لأن مقصوده أن يقول: وهذا أخي الشقيق، كان أيضاً مظلوماً معكم كما كنتُ، ثم إنه صار منعَّماً عليه من الله تعالى كما ترون؟ ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أي منَّ علينا بالاجتماع بعد الفرقة، والعزة بعد الذلة، والخلاص من البلاء، ثم علَّل ذلك الفضل والإنعام بقوله: ﴿ إنَّه مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنينَ ﴾ أي إنه من يتَّقِ الله بالاستقامة على أمر دينه، ويصبرْ على البلايا والمِحَن، فإن الله يجازيه خير الجزاء، ويكرمه غاية الإكرام لإيمانه وإحسانه.

(١) انظر كتاب في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/٢٠٢٧.

اعتراف إخوته بالخطأ وطلبهم المغفرة

ولمّا ذكر لإخوته أنَّ الله تعالى منَّ عليه، وأعلى قدره، لأنه أحسن في عمله، واتقى ربه، ولم يفعل شيئاً قبيحاً يستوجب الذمَّ، صدَّقوه في هذا الكلام، واعترفوا له بالفضل والمزية ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ وهذا منهم اعتراف بالخطيئة، وإقرارٌ بالذنب، وإشادة بمآثره وفضائله.

والمعنى: لقد فضَّلك الله علينا بالعلم والحلم، والعقل والفضل، والمكارم والأخلاق، ثم قالوا: ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ أي وحالنا وشأننا أنّا كنا مذنبين بصنيعنا الذي صنعنا بك، ولذلك أعزَّك الله وأذلَّنا، وأكرمك وأهاننا، قال أهل اللغة: فرقٌ بين الخاطىء والمخطىء، فالخاطىء الذي يأتي بالذنب عمداً، ومنه قوله تعالى: ﴿ لَا يَأْكُلُه إلَّا الخَاطِئُونَ﴾ والمخطىء هو الذي لا يتعمد الذنب، ويريد الصواب فيقع في الخطأ، ولهذا يُقال لمن يجتهد في الأحكام فلا يصيب: إنه مخطىء.

موقف نبيل من يوسف نحو إخوته

ولمّا اعترفوا بفضله عليهم، وأقرُّوا له بالسيادة وعلوِّ الشأن، واعترفوا بأنهم كانوا مذنبين خاطئين، لم يكثر معهم العتاب والجدال، ولم يؤاخذهم على سوء الفعال، وإنما طوى ذلك كلَّه، وغضَّ عنه كرماً وفضلاً ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم ولا عقوبة، بل أعفو عنكم وأصفح ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وهُوَ أرْحَمُ الرَّاحِمينَ ﴾ أي وأسأل الله أن يغفر لكم ما اقترفتم في حقي من الظلم والعدوان، وهذا منه زيادة لطفٍ وتكريم، سامحهم وغفر لهم خطيئتهم، وطلب من الله عزّ وجلّ ألّا يؤاخذهم ولا يعاقبهم فيما جنوه،

وهذا هو منتهى الفضل والإحسان، قَابَل كلَّ ما جرى له من الإساءة بالصفح والغفران، وإنهاءُ الموقف المخجل شيمةُ الرجل الكريم، كما فَعَل نبيُّنا عليه أفضل الصلاة والتسليم حين فتح مكة، وهو في موقف العزيز المنتصر، قال لقريش: ما ترون أنني فاعلٌ بكم؟ قالوا: نظن خيراً أخٌ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرتَ، فقال عليه الصلاة والسلام: أقول ما قال أخي يوسفُ من قبلُ ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ ثم قال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

تعجيل البشارة لأبيه يعقوب

وبعد هذا الموقف النبيل من يوسف الصدِّيق مع إخوته، يريد أن يطوي الموضوع وكأنه لم يكن، ويريد أن يعجِّل البشارة لذلك القلب الكليم المجروح «قلب أبيه يعقوب» ذلك الشيخ الكبير الذي ألمَّ بجسمه الضَّنىٰ، وأصاب بصَرَه الكلال فيقول: ﴿ اذْهَبوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً، وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

قال الإمام الطبري: «ذُكر أن يوسف لمَّا عرَّف نفسه إخوته، سألهم عن أبيهم فقالوا: ذهب بصرُه من الحزن، فعند ذلك أعطاهم قميصه وقال: «اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً»[1] أراد يوسف تبشير أبيه بحياته، وإدخال السرور عليه بذلك، وجعل قميصه الذي يلبسه علامة لأبيه، وطلب من إخوته أن يأتوه بجميع الأهل والذرية، والأولاد والأزواج، إلى أرض مصر، ليكرمهم ويجتمع بهم الشمل. ولكن كيف عرف يوسف أن رائحة القميص سترُدُّ على أبيه بصره؟ ذلك من الإلهام وممَّا علَّمه الله، والمفاجآتُ تفعل في كثير من

(١) تفسير الطبري ١٣/٥٧.

الأحيان فعل الخارقة، وما لها لا تكون خارقة، ويوسفُ نبيٌّ كريم، ابنُ نبيٍّ كريم!؟ ونحن بعد هذا أمام مفاجأة في القصة بعد مفاجأة، حتى تنتهي مشاهدها المثيرة، بتأويل رؤيا يوسف الصديق ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾.

قصة يوسف سلسلةٌ من الحلقات المثيرة

وتمضي السورة الكريمة، وهي تقصُّ علينا الأحداث العجيبة، في قصة يوسف الصدِّيق مع إخوته، وتطالعنا بعجائب وغرائب بأسلوبها الممتع البديع، فالقصة سلسلةٌ من الحلقاتِ التي تثير في النفس حبَّ الاستطلاع والمشاهدة لنهاية تلك الفصول، من حين إلقائهم له في الجب، إلى حين دخولهم عليه وسجودهم بين يديه، وهو في مقام العز والسلطان، لتتحقق الرؤيا التي رآها في المنام وهو طفل صغير، فقصَّها على أبيه، فعلم أنه سيكون له مع إخوته شأن عظيم وخطير.

تتحدث الآيات عن مجيء أسرة يعقوب بأسرهم إلى مصر، ودخولهم على يوسف وهو في عز السلطان، وعظمة المُلكِ، وتحقيق الرؤيا بسجود إخوته الأحدَ عشر له مع أبيه وأمه، واجتماع الشمل بعد الفرقة، وحلول الأنس بعد الكدر، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُون. قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ القَدِيم. فَلَمَّا أَنْ جَاءَ البَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَارْتَدَّ بَصِيراً، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُون؟ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

خروج القافلة من مصر وفيها البشير

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ أي خرجت الإبل متوجهةً من مصر إلى أرض كنعان، ومعهم البشير قد سبقهم بالبشارة السارة ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ أي قال يعقوب لمن حضر من قومه وقرابته: إني لأشمُّ رائحة يوسف، ولولا أن تقولوا إنه خَرِف، لقلتُ لكم إنه حيٌّ، قال ابن عباس: «هاجت ريحٌ فحملت ريح قميص يوسف وبينهما مسيرةُ ثمانية أيام»(١) ﴿ وتُفنِّدون ﴾ أي تنسبوني إلى الفند وهو الخرف، قال الأصمعي: إذا كثر كلام الرجل من خَرَف فهو المفنَّد، ولما سمع من حوله كلامه ﴿ قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ أي قال له أقاربه وأحفاده، واللهِ إنك لفي خطئك القديم، من حب يوسف، لا تنساه ولا تسلاه، وإنما قالوا هذه الكلمة الغليظة لاعتقادهم أن يوسف قد مات، وقصدوا بقولهم: «لفي ضلالك القديم» أي في خطئك القديم كما قال ابن عباس، ولو أرادوا الضلال الذي يقابل الهداية والإيمان لكفروا، ولكنهم أرادوا به الخطأ والبعد عن الصواب. وأما البشير الذي جاء يبشر يعقوب عليه السلام، فقد كان ولده «يهوذا» قال: أنا الذي حملتُ إليه القميص الملَطَّخ بالدم، وقلت: إن يوسف أكله الذئب، فأنا اليوم أذهب بالقميص لأُفرحه كما أحزنته، وهو قول مجاهد والسُّدِّي، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ أي رجع بصيراً من شدة السرور والفرح، بعدما ابيضَّتْ عيناه من الحزن، فعند ذلك بيَّن لأولاده ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾؟ أي ألم أخبركم بأنني أعلم

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازي ١٨/٢٠٨ وتفسير أبي السعود ٤/٣٠٥.

بوحي من الله، ما لا تعلمونه أنتم، من حياة يوسف، وردَّه عليَّ، لتتحقَّق الرؤيا؟.

يُروى أنه سأل البشير كيف تركتَ يوسف؟ قال: تركته وهو ملِك مصرَ، قال: ما أصنعُ بالمُلْكِ، على أيِّ دينٍ تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمَّت النعمة. ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كنَّا خَاطِئِينَ. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفرُ لكُمْ رَبِّي إنّهُ هو الغَفورُ الرَّحيمُ﴾.

لماذا أخَّرَ يعقوب الاستغفار لأبنَائه؟

ونلمح من هذا الكلام أن في قلب يعقوب شيئاً على بنيه، وأنه لم يصفُ لهم بعد، ولهذا لم يستغفر لهم في الحال، وإنما وعدهم الاستغفار في المستقبل، بعد أن يصفو، ويسكن، ويستريح، وحكاية لفظه بقوله: «سوْفَ أَسْتَغْفِرُ» لا تخلو من الإشارة إلى قلبٍ إنساني مكلوم.

وقال بعض المفسرين: إنما أخَّر الاستغفار لوقت السحر، ليكون أقرب إلى الإجابة، وذكر الإمام الطبري في تفسيره قال: كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد، فيسمع إنساناً يقول: «اللهم دعوتني فأجبتُ، وأمرتني فأطعتُ، وهذا السَّحَرُ فاغفر لي» - وهو في طريقه إلى المسجد - فاستمع الصَّوتَ فإذا هو من دار «عبد الله بن مسعود» رضي الله عنه، فسأل عبد الله عن ذلك، فقال: إن يعقوب أخَّر بنيه إلى السَّحر بقوله: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي»[1].

---

(١) جامع البيان للطبري ١٣/ ٧٠.

المشهد النهائي لاجتماع شمل الأسرة

ويمضي السياق في مفاجآت القصة، فيطوي الزمان والمكان، لنلتقي في المشهد النهائي المؤثر. ﴿ فلّما دَخَلُوا على يُوسُفَ آوى إليه أَبَوَيْهِ، وقالَ ادْخُلوا مِصْرَ إنْ شاءَ اللهُ آمنينَ. ورَفَعَ أَبَوَيهِ عَلى العَرْش، وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً، وقالَ يا أَبَتِ هذا تأويلُ رُؤْيايَ منْ قبْلُ، قَدْ جَعَلها رَبّي حَقّاً، وقدْ أحْسنَ بي إذْ أخْرجَني مِنِ السِّجْنِ، وَجاءَ بِكُمْ مِنْ البدْوِ، منْ بَعْدِ أنْ نَزغَ الشّيْطانُ بيْني وبيْنَ إخوَتي، إنّ ربي لَطيفٌ لِما يشاءُ، إنّهُ هو العليمُ الحكيمُ ﴾.

قال الإمام الفخر: «روي أن يوسف وجَّه إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة، ليتجهَّز إليه بمن معه، وخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء والوزراء، يتلقون يعقوب عليه السلام، وهو يمشي يتوكأ على يهوذا، فنظر إلى الخيل والرجال، فقال: يا يهوذا أهذا فرعونُ مصر؟ قال: لا، هذا ولدك يوسف، عزيزُ مصر مع حاشيته وكبراء البلد، وكانوا لما دخلوا مصر لا يزيدون على اثنين وسبعين ما بين رجل وامرأة، ولما خرجوا منها مع موسى كانوا أكثر من ستمائة ألف رجلٍ سوى الصبيان والشيوخ».

سجود إخوته له وتحقيق الرؤيا

ومعنى ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ أي ضمّهما إليه واعتنقهما ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ ﴾ يعني على سرير الملك وأجلسهما إلى جواره ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدَاً ﴾ أي سجد له أبوه وأمه وإخوته حين دخولهم عليه، وكان السجود في شريعتهم جائزاً، إذا سلَّموا على الكبير يسجدون له، وهو سجود احترام وتكريم وليس سجود عبادة، وأما في شريعتنا فقد

نسخ هذا السجود، فلا يجوز السجود إلا للحي القيوم الذي لا يموت ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي هذا تفسير الرؤيا التي رأيتها في منامي وأنا صغير ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً ﴾ أي صدقاً حيث وقعت كما رأيتها في النوم ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ أي أنعم عليَّ ربي بإخراجي من السجن، ولم يذكر قصة الجب تكرماً منه، لئلا يُخجل إخوته ويذكِّرهم صنيعهم القبيح بعد أن عفا عنهم ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ البَدْوِ ﴾ أي جاء بكم من البادية ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ أي أفسد ما بيني وبين إخوتي بالإغواء ﴿ إنّ ربّي لَطيفٌ لِما يشاءُ إنّهُ هُو العَليمُ الحكيمُ ﴾.

يقول سيد قطب رحمه الله في كتابه الظلال «ويا له من مشهد، بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام، وبعد اليأس والقنوط، وبعد الألم والضيق، وبعد الامتحان والابتلاء!! يا له من مشهدٍ حافلٍ بالانفعالات والخفقات والفرح والدموع!! ويا له من مشهد ختامي موصولٍ بمطلع القصة، ذلك في ضمير الغيب، وهذا في واقع الحياة، ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه».

المشهد الأخير للقصة

وقبل أن يُسدل الستار على المشهد الأخير المثير، نشهد يوسف ينزع نفسه من اللقاء والعناق، والفرحة والابتهاج، والجاه والسلطان، ليتجه إلى ربه في تسبيح العبد الشاكر الذاكر، كلُّ دعوته أن يتوفاه ربه مسلماً، وأن يلحقه بالصالحين ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِيْ مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، تَوَفَّنِي مُسْلِمَاً، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾.

تمنّي لقاء الله عزّ وجل

لقد ذاق يوسف الصديق حلاوة الدنيا ومرارتها، ونعيمها وضُرَّها، ونال من العز والسعادة، ومن الجاه والسلطان ما لم ينله إنسان، فلما تمَّ له الأمر، وعلم أنه لا يدوم إلا الحيُّ القيّوم، اشتاق إلى لقاء ربه، ولا يبعد من الرجل العاقل إذا كمل عقله، أن تعظم رغبته في الموت، لا تخلصاً من الحياة، ولكن باعتبار ما يكون بعدها من النعيم الدائم، في دار الخلد والإقامة، وهو مطلب نفيس لا يكون إلا لذوي النفوس الكبيرة، المشرقة بنور الإيمان، كالأنبياء وكبار الصالحين، كما ورد في الصحيحين أن النبي ﷺ لما مَرِضَ مَرَضَ الوفاة، جعل يرفع أصبعه ويقول: «اللَّهمّ في الرفيق الأعلى» ثـلاثاً، حتى قبض صلوات الله وسلامه عليه، وهكذا كان من شأن يوسف عليه السلام لمَّا كمل له الملك والعِزُّ، والجاه والسلطان، وعلم أن الحياة لا تدوم لأحد، وأن سعادات الدنيا ولذاتها سريعة الزوال، مشـرفة على الفناء، وشعر بدنو الوفاة، طَلَب من ربه أن ينقله من دار الكرب والفناء، إلى دار السعادة والصفاء، ويحشره في زمرة النبيين والصدِّيقين والصالحين، وقدَّم بين يدي هذا المطلب الأسنى، أنواع الحمد والثناء، فشكر ربه أولاً على نعمة الملك، وثانياً على نعمة العلم والفهم، في تأويل الأحلام، وثالثاً على تولّي الله عزّ وجل، وحفظه ورعايته له على أكمل الوجوه، ثم ابتهل إلى ربه عزّ وجل في طلب الموت على الإسلام وإلحاقه بالصالحين فقال: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَني مِنَ المُلْكِ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ ، أَنْتَ وليِّي فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ وإلى هنا تنتهي قصة يوسف الصدِّيق وما فيها من عظات وعِبر، وأحداث عجيبة مثيرة، تدفع الإنسان إلى التأمّل والإمعان

في قصة يعقوب مع بنيه، وما فيها من الأخبار والأحداث.

الغرض من سرد قصة يوسف

ثم تمضي الآيات الكريمة ـ بعد سرد قصة يوسف ـ إلى إثبات الغرض الأصيل، من ذكر هذه الأنباء والقصص، ألا وهو إثبات صدق الرسالة، رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه، فما كان رسول الله ليعرف هذه الأنباء، لولا أن الله عزّ وجل أوحاها له، لأنه لم يعاصرها ولم يدرك زمنها، فمَن الذي أخبره بها على الوجه الصحيح الدقيق، الذي يتفق مع ما جاء في الكتب السماوية في التوراة والإنجيل، وهو نبيٌّ أُميٌّ لا يعرف قراءة ولا كتابة؟

لا شك أن ذكر هذه القصص على وجه الدقة، بأوضح أسلوب، وأفصح بيان، فيه أعظم شاهد وأقوى برهان، على صدق رسالة نبيِّنا محمد ﷺ، ولهذا عقَّب الله تعالى بعد تلك الأحداث العجيبة في قصة يوسف الصدِّيق بهذا التعقيب الصريح فقال تقدست أسماؤه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ. وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ. وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

والمعنى الواضح في هذه الآيات، ينبىء عن هذا الغرض الذي ذكرت من أجله القصة، فليس الهدف هو ذكر قصة يوسف، إنما الهدف هو إثبات نبوّة محمد عليه السلام بطريق القصص القرآني، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي هذا الذي أخبرناك عنه يا محمد، من أمر يوسف الصديق وأخباره العجيبة مع إخوته، وما آل إليه أمره من العزّ والمُلْك والتمكين في الأرض، إنما هو من الأخبار

المغيَّبة التي لم تكن تعلمها قبل الوحي، وإنما أعلمناك نحن بها على أكمل الوجوه، ليظهر صدقك في دعوى الرسالة ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ أي وما كنت يا محمد حاضراً مع إخوة يوسف، حين تآمروا على أخيهم، وأجمعوا أمرهم على إلقائه في الجب، وهم يحتالون عليه ويمكرون به وبأبيهم ليرسله معهم، فإنك لم تشاهدهم حتى تقف على حقيقة القصة، وإنما جاءتك بوحي من العليم الخبير.

تسلية ومواساة لرسول الله

ومع كل هذه الشواهد والدلائل على صدق رسالته ﷺ، فقد كذَّب المشركون وأنكروا أن يكون محمد ﷺ مرسلاً من عند الله، لأنه في نظرهم يتيم وفقير، وليس من زعماء ورؤساء قريش، وقد جاءت الآيات تواسيه وتسلِّيه، وتشدُّ من أزره، وتوضِّح له أن ذلك التكذيب، هو شأن الطغاة المفسدين في كل زمانٍ ومكان، فأكثر أهل الأرض لا يؤمنون بالله لعتوِّهم وضلالهم، فلا غرابة أن يكذبوا برسالة محمد ﷺ بعد جميع تلك الشواهد والبراهين، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤمِنِينَ. وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا، وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾.

غفلة الناس عن آيات الله

وقد أشارت الآيات الكريمة، إلى غفلة أكثر الناس، عن التفكّر والتدبّر في آيات الله، ودلائل توحيده ووجوده، فكم للهِ في هذا الكون من آيات باهرات، يشاهدها الناس ولا يعتبرون بها؟ من كواكبَ

زاهرات، وأفلاكٍ دائرات، وجبال راسيات، وحدائق وجنات، وبحار زاخرات، وأشجار وثمار، وأنهار وبحار، وحيوان ونبات، فسبحان الواحد الأحد، خالق الكائنات، ومُبدِع أنواع المخلوقات، المنفرد بالدوام والبقاء مع كمال الصفات!!

كما جاءت الآيات تقرّر كفر الإنسان بربه، وجحوده لفضله وإنعامه، مع كثرة الشواهد والبراهين، على أن الخالق هو الله رب العالمين ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي وكم من الآيات والعلامات الناطقة بوجود الله جلّ وعلا ووحدانيته، الكائنة في السموات والأرض، يشاهدونها ليلَ نهار، ويمرّون عليها بالعشيّ والإبكار، ثم لا يفكّرون فيها ولا يعتبرون!؟ فلا تتعجب يا محمد من إعراضهم عن دعوتك ورسالتك، فإنّ إعراضهم عن هذه الآيات الساطعات أعجب وأغرب.

ومن عجيب أمر المشركين، أنهم كانوا في حجِّهم وطوافهم، يشركون بالله الأوثانَ والأصنامَ، فقد كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك» وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كان إذا سمع المشركين يقولون: لبيك لا شريك لك، قال: قَدْ قَدْ، أي: حسبُ حسبُ، لا تزيدوا على ذلك، فأول كلامهم إيمان وآخره كفر. وقد جاءت الآيات فيما بعد، تتوعد أولئك الكفرة المكذبين لسيد الرسل ﷺ بالعذاب والدمار، إن لم يرجعوا عن غيِّهم وضلالهم، ولم يثوبوا إلى رشدهم، فإن الله تعالى هو المنتقم الجبار، يمهل ولا يهمل، وإذا أخذ الظالم

أخذه أخذ عزيز مقتدر ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ، أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

ومعنى الآية الكريمة: هل ضمن هؤلاء المشركون المكذبون لأنفسهم وأمنوا من عقوبة شديدة من عذاب الله، تغشاهم وتشملهم جميعاً؟ أو أمنوا أن تأتيهم القيامة بأهوالها فجأة من حيث لا يدرون ولا يحتسبون؟ والاستفهام في مثل هذا الأُسلوب، هو استفهام إنكاري فيه معنى التوبيخ والتهديد بالعذاب الشديد، وهو كقوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نائمون؟ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون؟ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾[1].

دعوةٌ ربانية لإنقاذ البشرية

وبعد ذلك البيان الواضح، عن موقف المشركين المعاندين، من رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وتكذيبهم له، مع ما جاءهم به من الآيات الساطعات، التي تدل على صدق رسالته، وسلامة دعوته ممَّا رماه به الجاهلون، من التكهّن والكذب والبهتان، يأتي الجواب الحاسم الذي يزيل الله به الشُّبهة، ويدفع الظنون والأوهام، عن حقيقة البعثة النبوية، والرسالة المحمدية، فما كان رسول الله ﷺ متقولاً على الله، ولا مدّعياً للنبوّة والرسالة من تلقاء نفسه، بل هو عليه السلام مؤيدٌ من الله جلّ وعلا بالمعجزات الواضحات، والدلائل الساطعات، التي تدل على صدق دعوى الرسالة، ودعوتُه وطريقته

(١) سورة الأعراف آية رقم ٩٧ ـ ٩٩.

واضحة مستقيمة لا عوج فيها، ولا شك ولا التباس، بل هي أوضح من الشمس في رابعة النهار، وفي ذلك يقول القرآن الكريم مبيِّناً حقيقة الدعوة الكريمة: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فرسالته عليه السلام ليست للملك والسلطان، ولا لجمع الحطام، بل هي دعوة إلى الله، خالصةٌ نقية، واضحةٌ جليّة، لا يبتغي على ذلك مالاً، ولا يطلب من أحد أجراً، وأُمته أُمة دعوة، دعوة لإنقاذ البشرية وتخليصها من براثن الشرك والوثنية، وهذه خصوصية الأُمة المحمدية، فقد جعلهم الله هداةً لا جباة، يعملون لصالح الإنسانية، ويقودون الناس لشاطىء الأمن والاستقرار، وهذا ما أرشدت إليه الآية الكريمة ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ فالرسول عليه الصلاة والسلام داعٍ إلى الله، وأُمته كذلك دُعاة إلى الله، حمَّلهم الله هذه الأمانة الثقيلة، ليكونوا في الأرض مشاعل النور والهداية.

لماذا كان الرسل من البشر؟

ثم انتقلت الآيات الكريمة لتبيِّن أن محمداً ﷺ لم يكن بدعاً من الرسل، وليس هو أول رسول يُبعث إلى أهل الأرض، بل سبقه رُسُل كثيرون، دُعاةٌ هداة إلى الله، أوحى الله إليهم كما أوحى إلى محمد، ليبلِّغوا رسالة ربهم، حتى لا يبقى لأحد عذر عند الله، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟ وفي هذه الآية دلالة صريحة، على أن الرسل جميعاً كانوا رجالاً، ولم يكن فيهم نساء

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ﴾ وفيها ردٌّ على المشركين في قولهم إن الرسول ينبغي أن يكون مَلَكاً لا رجلاً من البشر، لأن الحكمة تقتضي أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم، فلو كان أهل الأرض ملائكة، لأرسل الله تعالى لهم رسولاً من الملائكة، كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً ﴾[1] ولم يكن الرُسُل من النساء، لأن أمر المرأة مبنيٌّ على التستُّر، وعدم الاختلاط بالرجال، وأمرُ الدعوة مطلوبٌ فيه التبليغُ، والكفاحُ والنضال، والضربُ في الأرض لتبليغ دعوة الله، ولهذا خصَّ الله النبوّة بالرجال.

قال الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾[2]: يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من «الرجال» لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء.. وزعم بعضهم أن «أُم موسى» و«مريم بنت عمران» و«سارة» امرأة الخليل إبراهيم نبيَّات، واحتجّوا بأن الله أوحى إلى «أُم موسى» كما قال: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ وبأن المَلَك جاء إلى مريم فبشّرها بعيسى عليه السلام، وأن الملائكة بشّرت «سارة» بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.. قال: وهذا القدر حاصل لهنَّ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكنَّ نبيَّات، إذ ليس في النساء نبيّة، إنما صدِّيقات، كما أخبر تعالى عن مريم بنت عمران، حيث قال: ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ فوصفها في أشرف

(١) سورة الإسراء آية رقم ٩٥.

(٢) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٦٥ وهذا هو القول الفصل في الموضوع، إنه ليس في النساء نبيَّة، والأنبياء جميعهم من الرجال، وبهذا تسقط دعوى ابن حزم أن من النساء نبيّات.

مقاماتها بالصدِّيقة، فلو كانت نبيّة لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام. اهـ.

عظـة واعتبار

وقد توعَّد الله المشركين من كفّار مكة، الذين كذبوا رسالة سيد المرسلين، نبيّنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، توعَّدهم بالعذاب الشديد، وضرب لهم الأمثال بمصارع الأُمم المكذبين، الذين كذّبوا رُسُلهم فحلَّ بهم عذاب الله وانتقامه، أفلا يخشى هؤلاء أن يحلَّ بهم ما حلَّ بالأُمم السابقين؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ، فَيَنْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي أفلم يسافر هؤلاء المكذبون، فينظروا نظر تفكّر وتدبّر، إلى ما حلَّ بالأُمم السابقين، ويروا مصارع المكذبين، فيعتبروا ويتعظوا، ويكفُّوا عن غيِّهم وضلالهم!؟ ثم قال تعالى مبيِّناً عاقبة مَن آمن بالله وصدَّق رسله ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾؟ أي ما أعدَّه الله للمؤمنين المتقين، في دار الخلد والنعيم، خيرٌ مما عليه أهل الجحود والعناد، من نعيم الدنيا وزهرتها، فإن نعيم الدنيا زائل، ونعيم الآخرة دائم، والدنيا دار الفناء، والآخرة دار البقاء، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾؟ أي أفليس لكم عقول تدركون بها ذلك؟.

نصرة الله لأنبيائه وأوليائه

وتكميلاً لموضوع الرسالة والرسل، والمواقف العصيبة التي لاقاها رسل الله، من جرّاء تكذيب الأقوام لهم، وتوضيحاً لبيان سنّة الله عزّ وجل في نصرة أنبيائه وأوليائه، وأن العاقبة الحميدة تكون لهم ولأتباعهم المؤمنين، جاءت الآيات تبيِّن أن

نجاة المؤمنين، وهلاك الظالمين، حـقٌّ مؤكد، ولكن لا يأتي النصر والظفر لأول وهلة، بل لا بدَّ من اشتداد الخطب، وتفاقم الأمر، حتى يلجأ الرسل أنفسهم إلى الدعاء بتنفيس الكرب، فإن من سنّة الله أن يُمهل ولا يُهمل، ويبتلي العباد بما شاء من أنواع المكاره والشدائد ليظهر الصادق من المنافق، والبرّ من الفاجر، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا، جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ والمعنى: حتى إذا يئس الرسل من إيمان قومهم، وأيقنوا أن قومهم كذبوهم، لإبطاء النصر عليهم، جاءهم نصرنا بعد اشتداد الكرب، ففي اللحظة التي تستحكم فيها الشدّة، ويأخذ فيها الكرب بالمخانق، ولا يبقى أمل في غير الله تعالى، في هذه اللحظة يجيء النصر، كاملاً حاسماً فاصلاً، فينجّي الله المؤمنين، ويهلك الظالمين، ولا يُردّ بأس الله إذا نزل عن القـوم المجرمين، هذا هو المعنى الصحيح للآية الكريمة، وليس المعنى أن الرسل ظنوا أنهم قد كُذِّبوا فيما وُعدوا به من النصر، فحاشا لله أن يظن الرسل بربهم ذلك، لأن الرسل أعرف الناس بالله، ولا يجول بخاطرهم شيء من الشك في نصرة الله لهم، وإنما الظن كما قالت عائشة رضي الله عنها لعروة بن الزبير حين سألها عن هذه الآية: قالت: هم أتباع الرسل، لمَّا طال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، ظنوا أن الرسل قد كذبوهم، ثم قالت: معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربّها، كما ورد ذلك عنها في صحيح البخاري.

الحكمة من ذكر قصة يوسف

وقد ختم الله السورة الكريمة ببيان الحكمة من ذكر هذه القصص والأخبار، وأن الغرض منها العظة والاعتبار، فقال تقدست أسماؤه:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ووجه الاعتبار بهذه القصة، أنَ الله العظيم القدير، الذي نجَّى يوسف من الجب، وأخرجه من السجن، وملكه مصر بعد الرق والعبودية، وجمع شمله بأبيه وإخوته، بعد طولِ فراق، واليأسِ من الاجتماع، قادرٌ على إعزاز محمد صلوات الله وسلامه عليه، وعلى إعلاءِ شأنِه، وإظهار دينه، وعلى إهلاك الظالمين المجرمين.

وهكذا بدأت السورة بأنباء القصة العجيبة الغريبة، وختمت ببيان الحكمة من ذكر قصص الأنبياء والمرسلين وأخبار الأُمم السابقين، ليتعظ أهل البصائر من ذوي الإيمان، ويعلموا أن الله وحده هو القوي المتين، يعزُّ مَن يشاءُ ويذلُّ مَن يشاء، وينصر مَن يشاء، ويخذل مَن يشاء، وهو الفعَّال لما يريد.

وبهذا البيان الساطع تنتهي قصة يوسف الصدّيق، وما مرَّ عليه من ضروب المحن والشدائد، محنة حسد إخوته له، ومحنة وقوعه في الجب، ومحنة مراودة امرأة العزيز له، بشتى طرق الفتنة والإغراء، وصموده أمام تلك المحنة العارمة التي تحرق الأعصاب، ثم محنة السجن بعد ذلك العزِّ في بيت العزيز، وكأن الآية تقول لرسول الله ﷺ: انظر يا محمد إلى أخيك يوسف كيف أنه لما صبر على الأذى في سبيل الله، وصبر على الضرّ والبلاء، نقلتُه من السجن إلى القصر، وجعلته عزيزاً في أرض مصر، وملكته خزائنها، فكان السيد المُطاع، والعزيز المكرّم، وهكذا أفعل بأوليـائي ومَن صبر على بلائي، فلا بدَّ أن توطِّد النفس على تحمّل البلاء في سبيل الله، لتبليغ دعوة ربك، وأن تصبر كما صبروا، اقتداءً بمَن سبقك من المرسلين، ﴿ فَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا

بِاللهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾.

وهكذا تختم السورة الكريمة بهذا الختم الرائع ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ ففي هذه السورة عظاتٌ وعِبَر، ودروس وحِكَم، وفيها ألوان من الأحداث العجيبة المثيرة، التي تأخذ بالألباب، تدل على قدرة رب الأرباب، في إنجاء عباده المؤمنين المتقين، وإهلاك الفَجَرة المجرمين، وقد ختم الله السورة بقوله تقدست أسماؤه: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي مصدِّقاً لما سبقه من الكتب السماوية ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُدَىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

اللَّهمّ اجعل هذا القرآن هدىً ورحمةً لنا، ونوِّر به عقولنا وأبصارنا، واختم بالصالحات أعمالنا، برحمتك يا أرحم الراحمين.

* * *

سُورَة الرَّعْد

مَكيَّة وآياتها ثلاث وأربعون آيَة

بين يدَي السُّورَة

● سورة الرعد من السور المكية، وقيل: هي من السور المدنية، ولكنَّ أُسلوبها وجوَّها يوحي بترجيح القول الأول، وهي أنها من السور المكيّة، لأنها تناولت الأهداف الأساسية للسور المكية، من تقرير وحدانية الله جلَّ وعلا، والإيمان بالآخرة، والتصديق بالرسالة، وأمر البعث والجزاء، الذي كذَّب به المشركون وجحدوا حدوثه، ودفع الشبه التي أثارها الكفّار في وجه الرسالة المحمدية، إلى غير ما هنالك من أهداف ومقاصد أساسية.

● ابتدأت السورة الكريمة بالقضية الكبرى الأصلية، وهي قضية الإيمان بوجود الله العليّ الكبير، وقضية تفرّده بالوحدانية والخلق والإيجاد، فمع سطوع الحق ووضوحه، كذَّب المشركون بالقرآن، وجحدوا وحدانية الرحمن، فجاءت الآيات تثبت بالدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، وحدانيته تبارك وتعالى، وتقرِّر كمال قدرته تعالى، وعجيب خلقه وصنعه في ملكوت السموات والأرض، في الشمس والقمر، والنجوم والكواكب، وفي إحداث الليل والنهار، وإخراج الزروع والثمار، وفي مدِّ الأرض وما خلق فيها من الرواسي والأنهار، وسائر ما خلق الله في هذا الكون الفسيح البديع، الذي هو مظهر من آثار قدرته، ووحدانيته، ووجوده.

● ثم تلتها الآيات الكريمة في إثبات البعث والجزاء، الذي طالما أنكره المشركون واستبعدوه، وحكموا على مَن آمن به بالسفه والجنون، واستهزءوا بالرسول ﷺ لأنه كان يقول لهم: ستُبعثون بعد الموت للحساب

والجزاء، وإلى ذلك يشير قوله تقدست أسماؤه ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؟ أُولَئِكَ الَّذين كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

- ثم بعد ذكر الأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة، على البعث والنشور، وانفراده جلّ وعلا بالخلق والإيجاد، والإحياء والإماتة، والنفع والضرّ، وإحاطته سبحانه بكل ما يحدث في الكون، واختصاصه بعلم الغيب والشهادة، وما تحمله كل أُنثى، وما تغيض به الأرحام من الأجنّة، ضرب القرآن الكريم مثلين للحق والباطل، والهدى والضلال.

أحدهما: في الماء ينزل من السماء، فتسيل به الأوديةُ والشِّعاب، ثم هو يجرف في طريقه القشور والغثاء، فيطفو على وجهه الزَّبد الذي لا فائدة فيه ولا منفعة

والثاني: في المعادن الثمينة كالذهب والفضة، التي تُذاب لتُصاغ منها الحلية والأواني والأساور، والمعادن الدفينة في الأرض كالحديد والنحاس، وما يعلو هذه المعادن بعد إذابتها من الزبد والخبث، الذي لا يلبث أن يذهب جفاء ويضمحل ويتلاشى، ويبقى المعدن النقي الصافي الذي ينتفع منه الناس، فذلك مثلٌ للحق والباطل ضربه القرآن ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ ﴾.

- وبعد هذا التمثيل والبيان، ذكر القرآن مآل السعداء والأشقياء، ووضّح صفاتهم وأحوالهم، وضرب لهم المثل بالأعمى والبصير، لأنهم عموا عن رؤية الحقِّ ولم يعملوا به ويتبعوه ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ؟ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾.
- وختمت السورة الكريمة بالإشادة بالقرآن، والشهادة للرسول عليه الصلاة

والسلام بالنبوّة والرسالة، فيكفيه شهادة الله له بأنه رسول مرسلٌ من عند الله، بعثه الله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وشهد له بالنبوّة كذلك علماء أهل الكتاب، المخلصون الصادقون، الذين رأوا فيه ما يوافق صفاته الصادقة في التوراة والإنجيل ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً، قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدَاً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ ﴾.

تفصيلٌ لأهداف السورة الكريمة

ولنبدأ بالتفصيل بعد الإجمال في هذه السورة الكريمة، التي تحدثت في مطلعها عن القرآن والرسالة، وذكرت بالبراهين الساطعة الدلائل على قدرة الله ووحدانيته، يقول جلّت عظمته وتقدست أسماؤه: ﴿ آلمرَ تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ، وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

والبدء بهذه الحروف المقطَّعة «ألف، لام، ميم، را» للتنبيه على إعجاز القرآن، والإشارة إلى أنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية، فهو معجز بأسلوبه، ونظمه، وبيانه، وإن كانت حروفه وكلماته مما ينطق به الناس، ومما يعرفه البشر في تخاطبهم في حديثهم، فقد جاءهم القرآن العظيم بما أفحمهم وأخرسهم من سطوع الحجة، وإعجاز البيان، والمعنى: هذه آيات القرآن المُعجِز، الذي فاق كل كتاب، وأفحم كل إنسان، ومع وضوحه وجلائه فقد كذب به أكثر الناس.

قال الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية: قدَّمنا عند الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف، ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حقٌّ لا شك فيه ولا مرية ولا ريب، ولهذا قال: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ ﴾ أي هذه آيات القرآن العظيم، والذي أنزل إليك يا محمد من ربك هو الحق، ومع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم، لما فيهم من العناد، والشقاق، والنفاق.

الدلائل والبراهين على وحدانية الله

ثم ذكر تعالى دلائل قدرته، وعظمته، ووحدانيته، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّىٰ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ، لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ فقد ذكر تعالى من آثار قدرته، وعظيم سلطانه وجلاله، ثلاثة أُمور، كبرهانٍ على البعث والنشور.

الأول: خلقُ السموات البديعة، القائمة بقدرته بغير دعائم، لا تستند على شيء، ولا ترتكز على ركيزة مطلقاً، بل هي قائمة بقدرة رب العالمين، والناس يشاهدونها كذلك بغير دعائم، وذلك دليلُ وجودِ الخالق المبدع الحكيم.

الثاني: خلقه تعالى للعرش واستواؤه عليه بمعنى علوِّه عليه علواً يليق بجلاله، من غير تجسيم ولا تكييف.

الثالث: تسخير الشمس والقمر لمصالح العباد، كلٌّ منهما يجري ويتحرك بقدرته تعالى إلى زمنٍ محدود معيَّن، هو زمان فناء الدنيا، وقد ختم تعالى الآية بقوله: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ فإن الغرض من ذكر هذه المخلوقات أن يعرف الناس قدرة ربهم، فيصدِّقوا بلقائه، ويوقنوا بالمعاد إليه بعد الموت، لأن مَن قَدر على ذلك كله فهو قادر على إحياء الإنسان بعد موته.

الآيات الكونية في الوجود

وبعد ذلك التوضيح عن صفات الله الجليلة، وقدرته الباهرة، جاءت الآيات الكريمة لتتحدث عن مظاهر الآيات الكونية التي يشاهدها

الناس، وهي أثر من آثار إبداع الخلاَّق جلَّ وعلا، فيما خلق وصوَّر وقدَّر، فقد خلق الأرض كرة مستديرة، وجعل فيها سهولاً فسيحة، وأجرى فيها الأنهار العذبة، تجري من قطر إلى قطر، لتسقي الزروع والمواشي، وتخرج الفواكه والثمار، وجعل الجبال مخازن للمياه، ورواسي للأرض، لئلا تميد وتضطرب بأهلها، وجعل في تقلّب الليل والنهار، عظة وعبرة لأُولي الأبصار، وامتنّ على عباده بما خلق لهم ويسَّر، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ، إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

الأرض كروية وليست مستوية

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ ﴾ أي بسطها وجعلها ممدودة فسيحة، فيها السهول والوديان، والهضابُ والتلال، لينتفع الناس بها بالزراعة والبناء للسكنى، ولم يجعلها تضاريس ونتوءات، أو جبالاً شامخات كلها حتى لا يتمكن البشر من زراعتها وبنائها، بل بسطها ومدَّها وجعلها متوازنة بالجبال، وهذا لا ينافي كرويتها فإن ذلك أمر مقطوع به، والجسم الكروي إذا كان كبيراً ضخماً، شوهد كأنه منبسط بالنسبة للناظر، كالقبة الضخمة بالنسبة للنملة، فإنها تمشي على القبة وهي بالنسبة لها مستوية لا كرة، كذلك الكرة الأرضية بالنسبة للبشر، لسعتها وامتدادها تُرى كأنها منبسطة، فسبحان مَن مدَّ الأرض، وجعل فيها رواسي وأنهاراً، وأخرج فيها أنواع الزروع والثمار والأزهار.

قال الفخر الرازي: إن الأرض كرةٌ في غاية العظمة، والكرة العظيمة تكون كل قطعة صغيرة منها ـ إذا نظر إليها ـ كالسطح المستوي،

فلا إشكال في بسطها مع أنها كرة، والدليل قوله تعالى: ﴿ والجبالَ أوتاداً ﴾ سمَّاها أوتاداً، مع أنه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية، فكذلك هنا(١).

جريان الأنهار نعمة جليلة

ولما كانت حاجة الناس إلى الماء شديدة، إذ به حياة كل مخلوق، من إنسانٍ، وحيوانٍ، ونبات، أجرى الله بقدرته الأنهار في أرجاء المعمورة وتفرعت منها الجداول والعيون، وبخاصة في البلاد التي لا توجد فيها الآبار، بسبب الطين والرمال، وعدم تماسك التربة، كأرض مصر، فإن أهلها يعتمدون على نهر النيل في السقاية والزراعة، وكذلك في كثيرٍ من البلدان التي تقلّ فيها الأمطار، تقوم حياة أهلها على وجود الأنهار، ولهذا امتنَّ الله على عباده فذكَّرهم بنعمة إيجاد هذه الأنهار، لتكمل لهم أسباب الحياة، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً ﴾ أي جعل في الأرض جبالاً رواسخ ثوابت، لئلا تضطرب في حركتها ودورانها بأهلها، وجعل فيها الأنهار الجاريات، تجري من قطر إلى قطر، ومن بلدٍ إلى بلد.

تنوّع الفواكه والثمار آية باهرة

وبسبب الأمطار والأنهار، تنوعت الفواكه والثمار، ولهذا عقَّبها تعالى بقوله: ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ أي جعل فيها من جميع أنواع الثمرات صنفين اثنين: ذكراً وأُنثى، ليتم بينهما أسباب الإخصاب والتكاثر، وهذه حقيقةٌ لم يعرفها البشر، إلَّا منذ زمنٍ قريب، وهي أن كل الأحياء تتألف من ذكر وأُنثى، حتى النباتات التي

(١) التفسير الكبير للرازي ١٩/ ١٧٠ هذا ما قاله علماؤنا في القرن السادس للهجرة.

كان مظنوناً أنه ليس من جنسها ذكور، تبيَّن أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة، أو متفرقة في أغصان، وهذا ما لفت القرآن الكريم إليه الأنظار، في قوله سبحانه في سورة يٓس: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ، وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ، ومِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

وقيل: إن معنى ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ أنه تعالى جعل من كل نوعٍ من أنواع الثمار صنفين اثنين، وهو إما في اللون كالأبيض والأسود، أو في الطعم كالحلو والحامض، أو في القدر كالصغير والكبير، أو في الكيفية كالحارِّ والبارد، وهكذا نوَّع الله الأنواع، وعدَّد الثمار، وقد ختم الباري جلّ وعلا الآية بضرورة التفكّر في صنع الله وخلقه، ليستدل الإنسان من الأثر على المؤثر، ومن الصنعة على الصانع، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي إن في عجائب صنع الله، لدلالات وعلامات باهرة، تدل على وحدانيته وقدرته، لمَن تأمل وتفكر، فيما حواه هذا الوجود من آثار قدرته جلّ وعلا.

ومن آثار قدرة الله الباهرة، وعظيم خلقه وصنعه، أنه أخرج من الأرض أنواعاً شتَّى من الفواكه والثمار، والكروم والزروع والنخيل والرمّان، فيها تنوّع عجيب، واختلاف غريب، الأرضُ الواحدة يكون فيها الخوخُ، والكمِّثرى، والعنب الأبيضُ والأسود، والرمان الحلو والحامض، والليمون، والبرتقال، بعض الفواكه حلو، وبعضها حامض، وبعض الثمار تختلف في الطعم وتتفق في الشكل، فمن الذي جعل

(١) سورة يٓس آية رقم ٣٦.

هذه الخصائص، وخالف بين الأشكال، والطعوم، والألوان؟ مع أن الأرض واحدة، والتربة واحدة، والماء واحد؟ إنها قدرة الله الكبير المتعال، التي تصنع العجائب، وتأتي بالمعجزات، ولهذا ذكَّر تعالى عباده بهذا الصنع الفائق، والقدرة الباهرة، ليستدلوا على وحدانية ذي العزّة والجلال، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ، وَزَرْعٌ، وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ، يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

لماذا اختلفت الطعوم والألوان؟

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ أي في هذه الأرض التي تغلّ لكم الزروع والثمار، بقاع متلاصقات، قريب بعضها من بعض، وفيها إشارة إلى أن التربة واحدة، فكيف اختلفت الطُّعوم والألوانُ؟ ﴿ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ أي بساتين كثيرة من أشجار العنب التي تحمل أصنافاً متعددة، وألواناً مختلفة ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ أي وفي هذه الأرض أنواع الزروع والحبوب المتنوعة، وأنواع النخيل والرطب، هي متماثلة في الشكل، ومختلفة في الطعم، ومنها ما ينبتُ منها شجرتان فأكثر من أصل واحد، وهي الصنوان، ومنها ما ينبت منها شجرة واحدة، وهي غير الصنوان، ثم قال تعالى: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ﴾ أي الماء الذي يسقيها واحد، والتربة واحدة، ولكنها مختلفة اختلافاً كبيراً في الطعم، والشكل، واللذة، والصورة، فسبحان مَن خالف بينها في الخلق والتقدير، مع اتحاد الأرض والتربة والماء!! ولكنَّ الناس غافلون عن

هذه الصنعة المدهشة، ينظرون إليها نظرةً عابرة، دون تعقل أو تبصّر، لأنهم اعتادوا على رؤية هذه الأشياء، فأصبحت عندهم أمراً معتاداً، ولهذا ختم الله الآية بقوله سبحانه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

الإيمان بالبعث والنشور

وبعد ذلك البيان الواضح عن دلائل القدرة والوحدانية، وما بثَّ الله في هذا الكون من بدائع الخلق والتكوين، عاد الحديث إلى الموضوع الهام، الذي طالما بالغ في إنكاره المشركون، واستبعدوه وجحدوه، ألا وهو موضوع الإيمان بالبعث والنشور، واعتقاد وقوعه، فإن الكفار مع إقرارهم بأن الله هو خالق السموات والأرض، كانوا ينكرون البعث بعد الموت، ويجحدون وقوعه، ويستبعدون أن يعود الإنسان إلى الحياة مرة أُخرى، بعد أن تبلى عظامه وتتمزق لحومه وأوصاله وتصبح رميماً ورفاتاً، وتختلط بتراب الأرض. ونظراً لأهمية الموضوع، وكونه ركيزة من ركائز الإيمان، وعليه يدور سلوك الإنسان، من استقامةٍ أو انحراف، ومن هداية أو ضلالة، ومن إيمان أو كفر، جاءت الآيات تتحدث عن هذا الموضوع الخطير، الذي كان مبعث الدهشة والاستغراب منهم، وفي ذلك يقول الله جلّت عظمته: ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابَاً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ومعنى الآية الكريمة: إن تعجب يا محمد من شيء، فليس هناك ما هو أعجب من قول المشركين: أئذا متنا وأصبحنا رفاتاً هل سنبعث من جديد؟ فإن إنكارهم للبعث حقيق أن يُتعجب به، فالذي قدر على خلق السموات والأرض، وخلق البحار والأنهار، وإخراج الفواكه

والثمار من الأرض الميتة، قادرٌ على إعادتهم بعد موتهم، فمالَهم لا يتدبرون ولا يتفكرون !!.

قدرة الخالق ليست كقدرة المخلوق

ثم إن خلق الإنسان من نطفةٍ من ماء مهين، أبلغ وأعظم من إعادته بعد موته، وإن مَن قدر على خلقه من العدم، قادر على إعادته بعد فنائه كما قال تقدست أسماؤه: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِ العِظَامَ وَهِيَ رمِيمٌ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾.

ومدار الإنكار في أمر الكفار، أنهم قاسوا قدرة الخالق على قدرة المخلوق، فكما يستحيل على البشر، التمييز بين أجزاء بدنٍ وبدن، بعد أن تفنى اللحومُ والعظام، وتصبح رميماً ورفاتاً، فكذلك يستحيل في نظرهم على قدرة الخالق، إعادة هذا الإنسان بعد فنائه، ولهذا كانوا يقولون: مَن يحيـي العظام وهي رميم؟

السلاسل والأغلال للكفار

وقد حكم القرآن عليهم بأُمور ثلاثة، مترتبة على إنكارهم للبعث والنشور، وهي:

الأول: أنهم هم الكاملون المتمادون في الكفـر والضـلال، المغرقون في الجحود والإنكار.

الثاني: أنهم يُغلُّون بالسلاسل في أعناقهم يوم القيامة.

الثالث: أنهم مخلدون في نار جهنم، لا يخرجون منها أبداً، ولا يُخفف عنهم من عذابها.

وإلى هذه الأُمور الثلاثة، يشير قوله جلَّ وعلا: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

وتكرير قوله «أولئك» ثلاث مرات للإهانة والإذلال، تقبيحاً عليهم وتشنيعاً لما رموا به ربَّ العزّة والجلال، من العجز والنقص في صفاته العليّة، كما تفيد معنى الحصر في قوله تعالى: ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فإنها جاءت جملة اسمية مؤكدة بالضمير المنفصل.

سخرية واستهزاء المشركين

وكما أنكر المشركون البعث بعد الموت، كذلك أغرقوا في السخرية والاستهزاء بدين الله وبرسوله، فقد كان ﷺ يحذِّرهم عقاب الله وانتقامه، ويخوِّفهم من عذابه الشديد، فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم يسخرون ويهزءون، ويطلبون أن يعجِّل لهم في العقوبة ويأتيهم بعذاب الله، سخرية وتهكماً، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ، وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ المَثُلَاتُ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العِقَابِ ﴾. والمراد بالسيئة في الآية العقوبة التي كان ينذرهم بها الرسول ﷺ والمعنى: يستعجلك يا محمد هؤلاء المشركون بالعذاب والعقوبة قبل الرخاء والعافية ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهُم المَثُلَاتُ ﴾ أي مضت عقوبات أمثالهم من المكذبين في الأُمم السالفة، الذين كذبوا رسلهم، فقد جعلناهم عبرةً وعظةً لمن اتعظ بهم، فما لهم لا يعتبرون ولا يتعظون!!.

ثم أخبر تعالى أنه لولا رحمته بالعباد، وعفوه عنهم، لعاجلهم بالعقوبة وأهلكهم بأشد أنواع العذاب، ولكنه تعالى رحيم ودود، يؤخر

العقاب ليتوب المذنب، ويرجع عن غيِّه الكافر الضال، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العِقَابِ ﴾.

طلب المشركين لمعجزات أُخرى

ثم تمضي السورة الكريمة وهي تطالعنا بنوعٍ آخر من فنون الكفر والتمرّد والعناد، من أولئك الكَفَرَة المكذبين من كفّار قريش فقد كانوا يطلبون من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بمعجزةٍ باهرة، غير تلك المعجزات التي جاءهم بها، ومن أعظمها القرآن الكريم الذي فاق كل معجزات الأنبياء، فقد طلبوا أن يجعل لهم جبل الصفا ذهباً، وأن يُزيح عنهم الجبال، ويجعل لهم أرض مكة مروجاً وأنهاراً، وأن يأتيهم بمثل ما أتى به الأنبياء قبله موسى وعيسى وصالح، من العصا، واليد، والناقة وغير ذلك من المعجزات، ولم يعتدّوا بالآيات الخارقة التي جاءهم بها خاتم المرسلين ﷺ كانشقاق القمر، وانقياد الشجر، ونبع الماء من بين الأصابع، وغيرها من المعجزات التي لا عدَّ لها ولا حصر، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ؟! إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ والمعنى: يقول المشركون من كفّار قريش: هلاَّ أنزل على محمد معجزة تدل على صدقه، مثل معجزات موسى وعيسى؟ قال الله تعالى ردّاً عليهم: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ولِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي لست أنت يا محمد إلاَّ رسول محذِّرٌ ومنذر، شأنك شأنُ كل رسول قبلك، فلكل قومٍ نبيٌّ يدعوهم إلى الله، وأما الآيات الخارقة فأمرها ليس إليك، إنما هو لمدبر الكون وخالق العباد، وما على الرسول إلا البلاغ.

ما نستخلصه من الآيات البيِّنات

ونستخلص من هذه الآيات البيِّنات، أن المشركين طعنوا في نبوّة محمد ﷺ من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: طعنهم في نبوّته من حيث تكذيبهم له عليه الصلاة والسلام في أمر البعث، والحشر والنشر.

الوجه الثاني: طعنهم في نبوّته بسبب ما أنذرهم به من نزول عذاب الاستئصال.

الوجه الثالث: طعنهم في نبوّته لأنه عليـه السلام لم يـأتهم بالمعجزات التي طلبوها منه.

وقد تكفل القرآن بالردِّ على هذه المطاعن والشبهات، فذَكَـر أولاً الدلائل على قدرته الباهرة في أنه تعالى هو مبدع السموات والأرض، وهو خالق الخلائق أجمعين، وهو الذي رفع السموات بغير عَمَدٍ، وهو الذي سخَّر الشمس والقمر على وفق مصالح العباد، وهو الذي أظهر في الكائنات أنواع العجائب والغرائب، فمَن كانت قدرته وافية بهذه الأشياء العظيمة، كيف لا يقدر على إعادة الإنسان بعد موته؟ ولهذا جاء بأسلوب يدلُّ على أنهم في تصورهم لهذا الأمر وهو اعتقادهم بعدم قدرة الله على إعادتهم بعد الفناء، قد جاءوا بأعجب العجب، فهي شبهة لا تستحق الردَّ لوضوح بطلانها، وقد نبّه تعالى عليها بقوله: ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾؟ وحقاً إن هذا لأمـرٌ عُجاب، فإن الذي خلقهم من نطفةٍ من ماءٍ مهين، وصوَّرهم في أحسن صورة، كيف لا يستطيع على إعادتهم بعد الموت؟

وأما الوجه الثاني: فإن الرسول ﷺ كان يهدِّد المشركين تارة

بعذاب الدنيا، وتارة بعذاب يوم القيامة، وكان القوم كلما هدَّدهم بعذاب القيامة أنكروا البعث والحشر والنشر، وكلما هدَّدهم بعذاب الدنيا استهزءوا وقالوا: جئنا بهذا العذاب إن كنت من الصادقين، قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء، وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك بقوله تقدست أسماؤه: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِم المَثُلَاتُ.. الآية ﴾ والمعنى: ويستعجلونك يا محمد بالعذاب الذي لم نعاجلهم به، وقد علموا ما نزل من عقوباتنا بالأُمم الخالية فلم يعتبروا بها، وكان ينبغي أن يردعهم ذلك عن الكفر اعتباراً بحال مَن سلف، فكما أهلكنا أولئك، نُهلك هؤلاء.

وأما الوجه الثالث: وهو طلبهم معجزات سوى المعجزات التي شاهدوها منه ﷺ كحنين الجذع، ونبع الماء من بين أصابعه، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل، فقد طلبوا منه معجزات قاهرة غير هذه الأُمور، مثل فلق البحر بالعصا، وقلب العصا ثعباناً، وشفاء الأعمى والأبرص، وغير ذلك وقد ردَّ القرآن الكريم عليهم بأنه قد أعطاهم أعظم المعجزات الباهرة، وهو هذا القرآن العظيم فلم يؤمنوا، ولو أجابهم إلى ما طلبوا ثم أصرّوا على العناد ولم يؤمنوا، لاستحقّوا عذاب الاستئصال، فلهذا السبب ما أعطاهم الله مطلوبهم، رحمةً بهم لئلا يهلكوا، وأيضاً فإن فتح هذا الباب يفضي إلى ما لا نهاية، وهو أنه كلما أتى رسول بمعجزة، جاء مَن يطلب منه معجزة أُخرى، وذلك يوجب سقوط دعوى الأنبياء عليهم السلام.

معجزة كل نبيٍّ تتناسب مع زمانه

وقد أشار تعالى إلى أنه قد خصّ كل نبي بمعجزة تتناسب مع ما غلب في زمانه واشتهر، فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السلام

السحرُ، جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقة قومه، ولما كان الغالب في زمن عيسى عليه السلام الطب، جعل معجزته من جنس تلك الطريقة، وهي إحياء الموتى، وإبراءُ الأكْمَهَ ـ أي الأعمى ـ والأبرص، ولما كان الغالب في أيام الرسول عليه السلام الفصاحةُ والبلاغةُ، جعل معجزته موافقة لذلك الزمان، وهو فصاحة القرآن، فلما كان العرب لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع كونها أليقَ بطباعهم، فلأن لا يؤمنوا بغيرها من المعجزات من باب أولى، ولهذا أمر اللهُ الرسولَ ﷺ ألَّا يستجيب لطلبهم، وأن يعرض عنهم، وبيَّن له أنه ليس عليه إلَّا تبليغ الدعوة والإنذار، وإلى ذلك يشير قوله تقدست أسماؤه: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أي هلَّا أنزل الله على محمد معجزة ظاهرة ساطعة تدل على صدق نبوّته؟! قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي ليس عليك إلا الإنذار، ولكل أُمة نبيٌّ يهديها ويرشدها إلى الحق، وإلى طريق السعادة، فمَن اهتدى فلنفسه ومَن ضلَّ فعليها.

علم الله الشامل المحيط

ثم تلتها الآيات الكريمة، تـذكر للمشركين علمَ اللهِ الواسـعَ الشامل، الذي أحاط بكل شيء معرفةً وخلْقاً وصُنعاً، فما يغيب عنه سبحانه وتعالى مثقالُ ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، وسواءٌ في علمه تعالى الصغيرُ والكبير، والشجرة والحبة، والجبل والذرَّة، الكلُّ في علمه سواء، وكيف يغيب عنه شيء، وهو جلَّ وعلا قد علم ما في أرحام الأُمهات من بنين وبنات؟ يعلم ما تحمله كل أُنثى في بطنها هل هو ذكرٌ أم أُنثى؟ تامٌّ أم ناقص؟ حسنٌ أم قبيح؟ يعْلم كل شجرة، وكل ثمرة، وكلّ قطرةٍ تنزل من السماء، فتغيبُ في مجاهل الأرض، ويعلم ما يُظهره

غذاؤه؟ وهل سيستمرُّ في بطن أُمه إلى التمام، أم سيكون سقطاً بعد مضيٍّ أيام؟ كيف تخفى عليه أحوال الإنسان، وكيف يغيب عنه ما أكلت الأرض وأفنت من الأجسام والأبدان؟!! ولهذا جاءت الآيات توضِّح علمه الشامل الكامل، كبرهانٍ حِسيٍّ على البعث والنشور.

وقولُه تعالى: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ ليس قاصراً على ما تحمله الأُمهات في بطونهنّ، بل هو عام يشمل كل أُنثى من المخلوقات، من امرأةٍ، وناقةٍ، وبقرة، وشاةٍ، وكل أُنثى من المخلوقات الآدميات وغير الآدميات، لأن لفظة «كل» تفيد العموم، فعلمه واسع، وخلقه شامل، يعلم الجنين وهو في بطن الأُم، غائب عن الأنظار، أهو ذكرٌ أم أُنثى، كامل الخلق أم ناقص، حسن أم قبيح، طويل أم قصير، وغير ذلك من الأحوال الحاضرة، والمترقبة فيه.

معنى غيض الأرحام

وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ فمعناه: ما تنقصه الأرحام، أرحام الأُمهات بإلقاء الجنين قبل التمام، كأن تلده لستة أشهر، أو سبعة أشهر، أو ثمانية أشهر، أو تلده سقطاً غير متكامل الخلق، مأخوذ من الغيض وهو النقص ﴿ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي وما تزدادُ على الأشهر التسعة، قال ابن عباس: ﴿ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ﴾ بالوضع لأقل من تسعة أشهر، وما تزداد بالوضع لأكثر من تسعة أشهر، وروي عنه أيضاً أن ما تغيضه الأرحام هو السقط الناقص الذي لم يتكامل خلقه سقط من بطن أُمه ميتاً، وبالازدياد: الولدُ التَّامُ الخلقِ.

ثم قال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أي كل شيء من الأشياء عند الله تعالى، بمقدار محدود، وبأجَلٍ معدود، لا يزيد عنه ولا

الإنسان وما يخفيه، من أسرار ونَوَايا، حتى الهواجسُ والخواطر التي ترد على قلبه يعلمها جلَّ وعلا، فكيف تغيب عنه أفعال العباد وأعمالهم، وحركاتهم وسكناتهم، وهو الرقيب على كل نفس بما كسبت!! وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ، وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ المَتَعَالِ. سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ القَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ باللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾.

الآيات برهان على البعث

وإنما وردت الآيات كبرهان ساطع قاطع، على قدرة الله عزّ وجل على إعادة الإنسان بعد الموت، وإحيائه بعد الفناء، لإثبات عقيدة «البعث والنشور» التي أنكرها المشركون واستبعدوها بل اعتقدوا استحالتها، حين قالوا: ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾؟ وقالوا: كيف يستطيع الله أن يخلقنا ويعيدنا، بعد أن نصبح رفاتاً ورميماً، وتغيب عظامنا وتختلط ذرّاتها البالية بتراب الأرض؟ كما حكاه عنهم القرآن الكريم في قوله تقدست أسماؤه: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ ﴾ أي غابت أجسامنا واختلطت ذرّاتها بتراب الأرض ﴿ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾؟ أي هل سنبعث ونعود إلى الحياة مرة ثانية؟ ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ. قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ فجاءت الآيات هنا لتقيم الأدلة والحجج والبراهين، على قدرة الله في الإنشاء والإبداع، والخلق والتصوير، فإن الكبير المتعال الذي يعلم كل ذرّة في البر، وكل قطرة في البحر، والذي يعلم الجنين في أول مراحل تكوينه، كيف يتخلق، وكيف يتصور، وكيف يصل إليه

الملائكة موكلون بحفظ البشر

ثم تلتها الآيات الكريمة، وهي تُبيِّن وتوضِّح رحمة الله بالعباد، حيث أوكل بهم ملائكة تحرسهم وترعاهم، وتكتب أعمالهم، وتقيهم من شر الشياطين ومردة الجن، ولولا هؤلاء الملائكة لتخطفت الشياطين بني آدم واغتالتهم، لأنهم أعداء ألدّاء للبشر، فقد جعل الله الملائكة كالجند والحرس لهم وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ والمعنى: للإنسان ملائكة حفظة موكَّلةٌ به تتعاقب في حفظه، من أمامه وخلفه، يحفظونه من الأخطار والمضار، وفواجع الليل والنهار، **قال مجاهد**: «ما من عبدٍ إلا وله مَلَكٌ يحفظه من الجن، والإنس، والهوام، في نومه ويقظته» وفي الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فيجتمعون في صلاة الفجر، وفي صلاة العصر..» الحديث وقال ابن عباس: «وكَّلَ الله بالإنسان ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قَدَرُ اللهِ خلّوا عنه»(١) وقال كعب الأحبار: «لولا أن الله وكَّل بكم ملائكة يذبّون عنكم في مطعمكم، ومشربكم، وعوراتكم، إذاً لتُخطفتم»(٢) ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ والمعنى: أن الله تعالى لا يزيل نعمته عن قوم، ولا يسلبهم إيّاها، إلا إذا هم بدَّلوا أحوالهم الجميلة بأعمال قبيحة، وانتهكوا محارم الله، وقابلوا النعمة بالجحود، والفضل بالكفران، وهذه من سنن الله الكونية والاجتماعية، أن الله لا يبدل النعمة ولا يسلبها من قوم، إلا

---

(١) انظر تفسير ابن كثير المختصر ٢/٢٧٣.

(٢) ذكره الحافظ ابن كثير عن كعب الأحبار ٢/٢٧٣.

ينقص، في الخلق، والرزق، والقدر، والكيف، والكَمّ، الأمطار بمقدار، والأرزاقُ بمقدار، والرياح بمقدار، والثمار بمقدار، والأعمار بمقدار ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ ولو اختلّت المقادير لفسد نظام الكون. وقوله تعالى: ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ المتَعَالِ ﴾ أي يتساوى عنده جلَّ وعلا ما غاب عن الحِسِّ والبصر، وما كان مشاهداً مرئياً بالنظر، وما خفي عن العباد وما شهدوه، فعلمه تعالى شامل للخفي والمرئي، والمعلوم والمستور، لا يعزب عنه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، وهو ﴿ الْكَبِيرُ المُتَعَالِ ﴾ أي العظيم الذي هو أكبر من كل شيء، المتعالي على كل شيء، الذي قهر العباد، وخضعت لعظمته الرقاب.

السرُّ والجهر عند الله سواء

وزيادة في الإيضاح والبيان، لعلمه الشامل الكامل، ومعرفته بأحوال العباد، ما خفي منها وما ظهر، قال تعالى: ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ القَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ به ﴾ أي يستوي في علمه تعالى ما أضمرته القلوبُ، وما نطقت به الألسنة، ومن همَس بالكلام سرّاً، أو نطق به جهراً، ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ أي ويستوي في علمه كذلك مَن هو مستتر في ظلام الليل يعمل القبائح، وهو في غاية الاستتار والاختفاء، ومَن يأتي بها في وضح النهار، لا يستخفي من عمله القبيح، بل يجاهر به ويفاخر، والسارب في اللغة: الذاهب في سَرْبه ـ أي طريقه ـ لا يستخفي عن الأنظار، قال الأزهري تقول العرب: سربت الإبلُ أي مضت في الأرض ظاهرة حيث شاءت، ومعنى الآية: سواء كان الإنسان مستخفياً في الظلمات، أو كان ظاهراً في الطرقات، فعلم الله تعالى محيطٌ بالجميع.

إذا كفروا تلك النعم، وارتكبوا المعاصي، فعند ذلك يغير الله أحوالهم، فينقلهم من العز إلى الذل، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السعادة إلى الشقاوة، كما قال سبحانه عن كفّار مكة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرَاً، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُم دَارَ البَوَارِ ﴾؟ ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ أي ما لهم مَن يدفع عنهم العذاب والبلاء، إذا أراد الله بهم الشقاء، اللَّهمّ لا تهلكنا بغضبك، ولا تقتلنا بعذابك، ونجِّنا قبل ذلك، برحمتك يا أرحم الراحمين.

الآيات الكونية العجيبة في هذا الوجود

وتتناول السورة بعد ذلك، آيات الله الباهرة، المنبثّة في هذا الكون، لتقيم الحجة تلو الحجة، والبرهان بعد البرهان، على قدرة الله ووحدانيته، وتنير الطريق لأُولئك الذين عَشِيَتْ عيونُهم عن رؤية هذه الدلائل، فأشركوا مع الله غيره، وعبدوا حجارة لا تستجيب ولا تسمع، ولا تضرّ ولا تنفع، ولا تُغني عن عابدها شيئاً. من هذه الدلائل الكونية، السموات والأرض، والليل والنهار، والسُّحُب والأمطار، والبرق والرعد، والصواعق المدمرة التي تنشأ بقدرة الله من احتكاك السحب بعضها ببعض، والناس عن التفكّر في هذه الآيات الكونية غافلون، يعتبرونها أُموراً عادية، وأحوالاً طبيعية، ولو أمعنوا فيها النظر لرأوا عجائب وغرائب، تدل على قدرة الله العليّ الكبير، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفَاً وَطَمَعَاً، وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ. وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبَ بِهَا مَنْ يَشَاءُ، وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ، وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ ﴾.

الآية الأولى البرقُ

وقد ذكر الباري جلّ وعلا في هذه الآيات الكريمة أُموراً أربعة من الآيات الكونية العجيبة.

الأول: البرقُ، وهو قوله تعالى: ﴿ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ والبرقُ هو ما يُرى من النور اللامع، ساطعاً من خَلَل السحاب، ولا شك أنه آية عجيبة على قدرة الله تعالى، وبيان ذلك أن السحاب يتكوّن من أجزاء رطبةٍ مائية، ومن أجزاء هوائيةٍ ونارية، والغالبُ فيها الأجزاء المائية، والماء جسم باردٌ رطب، والنار جسم حار يابس، فخروج البرق من خلل السحاب آية باهرة، ولهذا قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ أي هو تعالى بقدرته يريكم هذا البرق اللامع من هذا السحاب المتكاثف، فيخرج من الظلمة نوراً، ومن البخار ماءً عذباً فراتاً، ويجعل هذا السحاب يحمل الأطنان الضخمة من الماء، الذي فيه حياة النفوس والأشياء، وقوله تعالى: ﴿ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ أي خوفاً من الصواعق، وطمعاً في نزول الغيث، قاله ابن عباس رضي الله عنه، قال المتنبي:

فَتىً كَالسَّحَابِ الجَوْنِ يُخْشَىٰ ويُرْتَجى   يُرجَّى الحَيَا مِنْهَا ويُخْشَى الصَّواعِقُ

وقيل: يخاف المطر مَن له فيه ضرر كالمسافر، والمزارع الذي درس الحبَّ وجمع القطن، ويطمع في نزوله مَن له فيه نفع، كمَن وضع البذر في الأرض، أو احتاج إلى سقي الثمر.

الآية الثانية السحاب

الثاني: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ أي يخلق شيئاً فشيئاً السحب الكثيفة

ويسوقها بقدرته، وهي محمّلة بالماء الكثير، فيها الحياة والنفع، للزرع والضرع، فلو فكّر الإنسانُ كيف حمل هذا السحابُ ـ وهو بخار خفيف ـ هذه الكميات الكبيرة من الماء، وربما كان فيها آلاف الملايين من الأطنان، لعرف شيئاً من قدرة الله الباهرة، ثم كيف ينزل هذا المطر من السحاب قطراتٍ قطراتٍ، متلاحقة متتابعة، ويبقى منهمراً ساعات ساعات، أو يدوم أياماً معدودات، ولا ينصبُّ دفعةً واحدة لئلا يتلف الزرع، ويقضي على الثمر، ويؤذي العباد، فسبحان مَن أنزله برحمته قطراً مدراراً، سحّاً فراتاً، ولم يجعله ملحاً أجاجاً!!

الآية الثالثة الرعدُ

الثالث: من الدلائل المذكورة في هذه الآية الكريمة «الرعدُ» وإليه يشير قوله جلّت عظمته: ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ أي يسبِّح الرعد له تسبيحاً مقترناً بحمده والثناء عليه، وتسبِّح له الملائكة خوفاً من عذابه، وتسبيحُ الرعد حقيقةٌ أخبر عنها القرآن، فنحن نؤمن بها وإن لم نفهم تلك الأصوات، فهو تعالى لا يخبر إلاَّ بما هو حقٌّ، ولا عجب في ذلك فكل ما في الكون يسبّح المولى جلّ وعلا ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمَاً غَفُورَاً ﴾[1] وكان ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق دعا فقال: «اللّهمّ لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافِنا قبل ذلك»[2] وعن أبي هريرة أنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان مَن يسبّح الرعد بحمده، والملائكة

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ٤٤.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي والنسائي وأحمد في المسند، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٧٤.

من خيفته». وفي الحديث «إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله، فإنه لا يصيب ذاكراً»[1].

الآية الرابعة الصواعق

الرابع: من الدلائل المذكورة في هذه الآية الكريمة «الصواعق» وإليه يشير قوله تقدست أسماؤه: ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها مَن يشاء﴾ والصواعق إنما تحدث باحتكاك السحاب بعضِه ببعض، وما يحمله من شحنات كهربائية، فعند اصطدام هذه الشحنات تحدث الصاعقة، فتخرِّب وتدمِّر، وأمرها من أغرب الأُمور، إذ إنها تتولَّد من السحاب، وقد جمع الله في السحاب بين الرحمة والعذاب، فهو يحمل المطر، ويحمل الصواعق، وفي الماء الإحياء، وفي الصواعق الإفناء، والجمع بين النقيضين من العجائب كما قال الشاعر:

جَمْعُ النَّقِيضَيْنِ مِنْ أَسْرَارِ قُدْرتِهِ ... هَـذَا السَّحابُ بـِهِ مـاءٌ بـه نَـارُ

فما أجلَّ وأعظم قدرة الله، إذْ أخرج من السحاب الماء، وأخرج منه الصواعق المدمِّرة.

قال الفخر الرازي في التفسير الكبير: «واعلم أن أمر الصاعقة عجيب جداً، وذلك لأنها تارة تتولد من السحـاب، وإذا نزلت من السحاب، فربما غاصت في البحر، وأحرقت الحيتان في لجّة البحر، والحكماء بالغوا في وصف قوتها، ووجه الاستدلال أن النار حارة، وطبيعتها ضدُّ طبيعة السحاب، لأن السحاب جسم مركب من أجزء رطبة مائية، والماء جسم بارد رطب، والنار جسم حار، وظهور الضدِّ من

(١) الحديث أخرجه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً وذكره الحافظ ابن كثير ٢/٢٧٤ في تفسيره.

الضدِّ التام على خلاف العقل، فلا بدَّ من صانع مختار، يُظهر الضدَّ من الضدِّ، وكان ينبغي أن تكون الصواعق أضعف من طبيعة النيران الحادثة عندنا، لكنه ليس الأمر كذلك، فإنها أقوى نيران العالم، فثبت أنها بتخصيص الإلَه الجبار»[1].

سبب نزول الآية الكريمة

وقد ذكر المفسِّرون في سبب نزول هذه الآية، أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً إلى جبار من فراعنة العرب، فقال للصحابي: اذهب فادعه لي، فقال يا رسول الله: إنه جبارٌ عاتٍ، قال: اذهب فادعه لي، فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ، فقال له: مَنْ رسولُ الله؟ وما اللهُ؟ أمن ذهب هو، أم من فضة، أم من نحاس؟ فرجع إلى رسول الله عليه السلام فأخبره بما قال الرجل، وقال: يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، فقال له: ارجع إليه ثانية، فذهب فقال له مثلها قال: أخبرني عن إلَه محمد أمن ذهب هو، أم من فضة، أم من نحاس؟ - يقول ذلك سخرية واستهزاء - فأعاده إليه الثالثة، فأعاد عليه ذلك الكلام، فبينما الرجل يكلمه، إذ بعث الله عليه سحابةً حيال رأسه، فرعدت فوقعت منها صاعقة، فذهبتْ بقحف رأس الكافر، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ، وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ، وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ ﴾[2]. ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ ﴾ أي هو تعالى شديد القوة والبطش والنكال، فيمن طغى وعتا وتمادى في كفره.

(١) التفسير الكبير للإمام الرازي ١٩/٢٧.

(٢) رواه ابن جرير الطبري ١٣/١٢٥ وأخرجه الحافظ البزار والموصلي، وانظر تفسير ابن كثير ٢/٢٧٤.

تصوير رائع لعبَّاد الأوثان

ثم أخبر تعالى عن عَبَدة الأوثان، أنهم يعبدون حجارة صمّاء بكماء، لا تنفع ولا تضر، ولا تستجيب لداعيها وعابدها، وسواء مَن دعاها أو دحاها فقال تقدست أسماؤه: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ، وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ، وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ والآية أُسلوب بديع في تصوير حال هؤلاء المشركين مع أصنامهم، فقد شبههم تعالى بتصوير في منتهى الوضوح والجمال، شبههم بصورة إنسان عطشان، اشتد عطشه فهامَ على وجهه يبحث عن الماء، فلما أبصر الماء من بعيد، أخذ يصرخ ويناديه طالباً من الماء أن يحضر إليه ليشربه، ويمدُّ يديه صارخاً مستغيثاً، وهو لا يستجيب له لأنه جماد لا يشعر بعطشه، كذلك هؤلاء الذين عبدوا هذه الأحجار يدعونها وهي لا تستجيب لهم، ويا له من تصوير بديع رائع يأخذ بالألباب!!

التهكّم بالآلهة المزعومة

وبعد أن سفهت الآيات عقول المشركين، في عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع، وطلبهم من الأوثان ما يطلبه الداعي المؤمن من الرحمن، من كشف الضـرّ، وطلب الرزق، واستنـزال الرحمـة، وطلب المغفرة، وضربت لهم الأمثال بالأحمق الذي اشتد عطشه، فهو ينادي الماء ليصل إلى فمه، والماءُ جماد لا يحسُّ ولا يسمع، جاءت الآيات بعدها لتقرير عقيدة التوحيد، بأُسلوب المناظرة والمحاورة، لإِقامة الحجة عليهم في حماقتهم في عبادتهم لتلك الحجارة الصمّاء، وتركهم لعبادة الواحد الأحد، القادر على كل شيء، المدبِّر لشئون العباد، الذي بيده النفع

والضُرُّ، والإحياء والإماتة، والخلقُ والأمر، وهو القائم على كل نفسٍ بما كسبت، بينما تلك الآلهة المزعومة، من الأوثان والأصنام، عاجزون عن تحصيل المنافع والمضار لأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، فكيف يجعلونها آلهة ويعبدونها مع الله؟ وبأسلوبٍ رفيعٍ من بديع البيان، يسخر القرآن من عقولهم، ويسفّه أحلامهم، في تعلقهم بتلك الحجارة المنحوتة، التي نحتوها بأيديهم، ثمَّ أضفوا عليها من صفات ذي العزّة والجلال، ما يجعلها في مقام الإلّه الكبير المتعال، وعكفوا عليها يعبدونها من دون الله، وهذا هو منتهى السفه والخبال، إذ كيف يُساوى بين القادر والعاجز، والحيِّ والجماد، والخالق والمخلوق؟ وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَواتِ والأَرْضِ؟ قُلِ اللهُ، قُلْ أَفَتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعَاً وَلَا ضَرَّاً؟ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ؟ أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ؟ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ؟ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ ﴾.

تلقين الحجة وإفحام الخصم

وهذا الأسلوب هو أسلوب تلقين الحجة، وإفحام الخصم بأبسط أُمور الجدل والمناظرة، والمعنى ﴿ قُلْ ﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿ مَنْ رَبُّ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي قل لهؤلاء المشركين: مَن خالق السموات والأرض ومدبر أمرهما؟ فإنهم لا يستطيعون أن يقولوا: آلهتنا هذه الأصنام التي نعبدها هي التي خلقتهما، والسؤال هنا سؤال تهكّم وسخرية، وإزراء بعقولهم لعبادتهم للأصنام، وسوف لا يستطيعون الإجابة ﴿ قُلِ اللهُ ﴾ أي قل لهم تقريعاً وتوبيخاً: اللهُ خالقهما ومبدعهما ومنشؤهما

﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً ﴾ أي قل لهم ـ إلزاماً لإقامة الحجة عليهم ـ أجعلتم لله شركاء، وعبدتموهم من دونه، وهم لا يقدرون على نفع أنفسهم، ولا على دفع الضُرِّ عنها؟ فكيف يستطيعون نفعكم، ودفع الضرّ عنكم؟

تمثيل بديع بالأعمى والبصير

ولما ذكر تعالى هذه الحجة الظاهرة القاطعة، على بطلان ما يدَّعون، ذكر أن الجاهل بها يكون كالأعمى، والجهلُ بمثل هذا الأمر الجليّ كالظلمات، والعلمُ بها كالنور، ولهذا أردفها بقوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾؟ أي هل يستوي الكافر الأعمى الذي لا يرى طريقه، فيخبط في الحياة خبط عشواء، بالمؤمن البصير، المستنير بنور الله الذي يعبد ربه على بصيرةٍ ويقين وإيمان؟ فكما لا تستوي الظلمات والنور، كذلك لا يستوي المؤمن والمشرك، فالفارق بين الحق والباطل، واضحٌ وضوح الفارق بين الأعمى والبصير، والفارق بين الإيمان والضلال، كالفارق بين النور والظلام، ثم أردفها تعالى بما هو أظهر وأوضح فقال: ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهةً خلقوا مخلوقاتٍ كالتي خلقها الله، حتى التبس الأمر عليهم، فلا يدرون خلق اللهِ من خلق آلهتهم؟ وهو تهكم لاذعٌ بالسفيه الجاهل، فإنهم يرون كل شيء من خلق الله، ويرون هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئاً قطُّ، ثم بعد هذا كلِّه يعبدونها من دون الله، وذلك أسخف وأحطُّ ما تصل إليه عقول المشركين، وبعد أن أقام الحجة عليهم، وأفحمهم بالبرهان الساطع، جاءهم بهذه النتيجة الظاهرة التي

لا يملكون لها دفعاً، فقال تقدست أسماؤه: ﴿قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ أي الله وحده هو الخالق لهذه المخلوقات، وهو المبدع لهذه الكائنات، وكل ما سوى الله فباطلٌ وضلال.

مَثَلان للحق والباطل

وبعد أن ذكر تعالى في الآيات السابقة أن في الأرض دعوتين: دعوة الحق، ودعوة الباطل، وذكر أن دعوة الله هي دعوة الحقِّ، وأن دعوة ما يعبدون من دونه هي دعوة الباطل، ذكر بعدها مثلين من روائع الأمثلة، ضربهما تعالى للحق وأهله، والباطل وحزبه، ليتضح الفرق بين الهدى والضلال، والكفر والإيمان، فقال تقدست أسماؤه: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدَاً رَابِيَاً، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾.

والآية ليست خبراً عن نزول الماء من السماء، ثم امتلاء الأودية به والشعاب، إنما هي مثلٌ يضربه الله عزّ وجل، ليبيّن الفارق بين الماء النافع، والزبد الطافي الذي لا خير فيه ولا نفع.

أما المثل الأول: فهو مثلٌ للحق في ثباته، والباطل في ذهابه واضمحلاله، فقد مثَّل تبارك وتعالى للإيمان والحق، بالماء النافع الذي ينزل من السماء، فتسيل به الأودية، كلٌّ على حَسَب سَعَته وضيقه، وهذا الماء يجرف في طريقه الغثاء، يطفو على وجهه في صورة الزبد، وهو نافشٌ منتفخ، والماء من تحته ساكنٌ هادىء، ولكنه يحمل الخير

والحياة، بينما الزبد يفور ويُزبد، ثم لا يلبث أن يذهب ويتلاشى، ذلك مثلُ الحق والباطل، فالباطل يطفو ويعلو، ويبدو رابياً منتفخاً، ثم بعد أن يهدأ السيل، إذا به غثاء وجفاء، لا يبقى منه شيء، لأنه لا حقيقة له، بينما الماء يبقى لأن فيه روحَ الحياة.

أما المثل الثاني: فهو في تلك المعادن التي خلقها الله لعباده، منها الذهب والفضة وهما للزينة والجمال، ومنها النحاس والحديد والرصاص للحاجة والمتاع، فهذه المعادن التي تُصهر وتُذاب، فإن الخبث يطفو عليها أيضاً، ولكنه بعدُ خبثٌ يذهب، ويبقى المعدن في نقائه، فجعل الله مَثَل خبثه كزَبَد الماء، فلما ذكر تعالى هذا الزبد الذي لا يظهر إلا عند اشتداد جري الماء، ذكر الزبد الذي لا يظهر إلا بالنار، فإذا أُذيب المعدن انفصل عنه نوع من الزبد والخبث، فجعل الله ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيء يذهب ويضمحل، وكذلك الهدى والحق جاء من عند الله، فمَن استمسك بالحق وعمل به، بقي له كما يبقى ما ينفع الناسَ في الأرض، وكذلك الحديد لا يستطاع أن يُعمَل منه سكين ولا سيف، حتى يدخل في النار فتأكل خَبَثه، ويخرج جيده فينتفع به، فكذلك يضمحل الباطل، فإذا كان يوم القيامة، وأُقيم الناس، وعُرضت الأعمال، يزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق. وممَّا يدل على أن الآية وردت مورد التمثيل قوله تعالى في آخرها: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ في الأَرْضِ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ ﴾.

كلامٌ بديع للفخر الرازي

قال الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير:

«لما شبَّه تعالى المؤمن والكافر، بالأعمى والبصير، وشبَّه الكفر والإيمان بالظلمات والنور، ضرب للإيمان والكفر مثلاً آخر، قال تبارك وتعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ ومن حقِّ الماء أن يستقر في الأودية، المنخفضة عن الجبال والتلال، بمقدار سعة تلك الأودية وصغرها، ومن حقِّ الزَّبَد الذي يحتمله الماء فيطفو ويربو عليه، أن يتبدَّد في الأطراف ويبطل، ولما ذكر تعالى هذا الزبد، الذي لا يظهر إلا عند اشتداد جري الماء، ذكر الزبد الذي لا يظهر إلَّا بالنار، وذلك لأن كل واحدٍ من المعادن السبعة إذا أُذيب بالنار، لابتغاء حليةٍ أو متاع يحتاج إليه الإنسان في مصالح البيت، فإنه ينفصل عنه نوعٌ من الزبد والخَبَث، ولا يُنتفع به بل يضيع ويبطل ويبقى الخالص.

والحاصلُ أن الوادي إذا جرى طفا عليه زَبَدٌ، وذلك الزبد يبطل ويبقى الماء، والمعادن السبعة إذا أُذيبت لأجل اتخاذ الحليّ أو الأمتعة، انفصل عنها خَبَث وزبد، فيبطل ويبقى ذلك الجوهر المنتَفَعُ به، فكذلك هنا أنزل الرحمن من سماء الكبرياء والإحسان، ماءً وهو القرآن، والأوديةُ قلوبُ العباد، وشبَّه القلوب بالأودية، لأن القلوب تستقر فيها أنوار علوم القرآن، كما أن الأودية تستقر فيها المياه النازلة من السماء، وكما أن كل واحد، فإنما يحصل فيه من مياه الأمطار ما يليق بسعته أو ضيقه، فكذا هنا كلُّ قلب، إنما يحصل فيه من أنوار علوم القرآن، ما يليق بذلك القلب، من طهارته وخبثه، وقوة فهمه، أو قصور فهمه، وكما أن الماء يعلوه زبد من المعادن المُذابة، ويخالطها خَبَث، ثم إن الزبد والخَبَث يذهب ويضيع، ويبقى جوهر الماء وجوهر المعادن، كذا ههنا بيانات

القرآن، تختلط بها شكوكٌ وشبهات، ثم إنها بالآخرة تزول وتضيع، ويبقى العلم والدينُ والحكمةُ في العاقبة، فهذا هو تقرير المثل ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأمثَالَ ﴾[1]». أقول: رحم الله الإمام الفخر الرازي، فقد أجاد في بيانه وأفاد، وكان بحراً يحتاج إلى مَن يغوص في أعماقه، ليستخرج منه اللآلىء والدرر الثمينة، فجزاه الله عن دينه وكتابه خير الجزاء.

الحديث عن الأبرار والفجَّار

وبعد أن أفاضت الآيات في ذكر البراهين، وضرب الأمثلة على ضلال المشركين، وسعـادة المتقين المخلصين، وبيّنت الفارق بين الهدى والضلال، كالفارق بين النور والظلام، والأعمى والبصير، جاءت الآيات بعد ذلك، لتكشف لنا عن أحوال السعداء، وأحوال الأشقياء، وما يكون عليه الفريقان، من سرور ونعيم، أو عذابٍ وجحيم، وبدأت بالمؤمنين الأبرار، الذين استجابوا لدعوة الله، وإلى ما دعاهم إليه من الإيمان، والتوحيد، وإخلاص العمل لله رب العالمين، فنالوا سعادة الدنيا وعزّ الآخرة، ثم ثنَّتْ بالفريق الثاني، وهم الأشقياء الفجّار، الذين أعرضوا عن هداية الله، وتنكبوا عن الطريق السوي، فنالوا خزي الدنيا والعذاب الدائم في الآخرة، وفي هذين الفريقين يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الحُسْنَىٰ ﴾ أي لهم الحسنى وهي الجنة دار المتقين ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ، أولَئِكَ لَهُم سُوءُ الحِسَابِ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَادُ ﴾.

---

(١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ: ٣٥/١٩.

نعيم المحسنين في الآخرة

والآية بيان واضح لما سيكون عليه أهل السعادة وأهل الشقاوة في الآخرة، وقد ذكر تعالى جزاء المحسنين وأوجز فيه، ولكنه أسهب في بيان جزاء المجرمين، فذكر أنواعاً أربعة من العذاب والعقوبة، أما المؤمنون المستجيبون لدعوة الله فقد قال فيهم: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ قال ابن عباس: هي الجنة وما فيها من النعيم، مما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فمَن دخل الجنة نال كل مبتغاه، وفاز بكل نعيم، لأن الحسنى - في كلام العرب - هي التي بلغت الغاية في الحُسْن، والمراد بها الجنة كما قال ابن عباس وغيره، وهي المنزلة الرفيعة، والمنفعة الخالصة عن شوائب المضرّة، الدائمة الخالية عن الانقطاع، المقرونة بالإجلال والإكرام، ومما يؤيد ذلك ما جاء في الحديث الشريف: «مَن يدخل الجنة يحيا فيها لا يموت، ويُنعَّم فيها لا ييأسُ، لا تَبْلَى ثيابُه، ولا يفنى شبابه.. قيل يا رسول الله: ما بناؤها؟ قال: لَبِنةٌ من ذهب، ولَبِنة من فضة، ومِلاَطُها - الطين الذي يمسك الأحجار ويشدُّ بعضها ببعض - المسكُ، وترابها الزعفرانُ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت»[1].

وفي الحديث الآخر: «إن أدنى أهل الجنة منزلةً، لمن ينظر إلى جِنانه، وأزواجه، ونعيمه، وخدمه، وسُرره، مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله مَن ينظر إلى وجهه غدوة وعشياً - أي صباحاً ومساءً -» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[2].

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا وإسنادُه حسن، وانظر الترغيب والترهيب للمنذري ٤/٥١٢.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في سننه والبيهقي والطبراني، وروي عن ابن عمر موقوفاً، وانظر جامع الأُصول ١٠/٥٣٣.

عقاب المجرمين وأنواعه

هذا بعض نعيم الأتقياء، أما الأشقياء الذين لم يستجيبوا لدعوةِ الله، وكذبوا رُسُل الله، فقد عدَّد تعالى من جزائهم أربعة أنواع من العقوبة:

الأول: الحسرةُ والأسى، وذلك أنهم يتمنون فداء أنفسهم من العذاب، بكل ما في الأرض من زخرفٍ ومال، ولكنْ هيهات أن يقبل منهم الفداء، لأنهم ماتوا على الكفر والضلال، وإليه الإشارة بقوله سبحانه ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾.

الثاني: شدة الحساب والعذاب، فإنهم يؤخذون بالصغير والكبير، والفتيل والقطمير، فلا يُغفر لهم من سيئاتهم شيء، ولا يُقبل من حسناتهم شيء، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سَوءُ الحِسَابِ﴾ يعني أسوأ أنواع العقوبة والجزاء.

قال الحسن البصري: «يُحاسبون بذنوبهم كلها، لا يُغفر لهم منها شيء».

الثالث: سجنهم الدائم في الجحيم، مع الخلود المؤبَّد، فلا أمل في الخروج، ولا تنفيس عن الكربة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مسكنهم ومقامهم الدائم الأبدي، الذي يأوون إليه يوم القيامة، هو نار جهنم.

الرابع: الإذلال والإهانة طيلة المكث والدوام، فلا يخفف عنهم من العذاب شيء، ولا يجدون ما يُسكِّن ألمهم وحزنهم برهةً من الزمن، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَبِئْسَ المِهَادُ﴾ أي بئس المستقرُّ والفراش نار جهنم.

سبب الهلاك عمى البصيرة

ولمَّا أفاض سبحانه وتعالى في ذكر عقاب الأشقياء المجرمين، أردفه ببيان السبب في حصول هذا البلاء لهم، فقد كانوا في الدنيا عُمياً عن رؤية الحق، لا يستجيبون لداعي الهُدى، ولا يفكِّرون في المستقبل الذي ينتظرهم، فلذلك عموا عن رؤية الآيات والنُّذر، والأعمى إذا مشى من غير قائد، ربما وقع في البئر أو تلف في المهالك، أما البصير فإنه يكون آمناً من التردّي والهلاك، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواالأَلْبَابِ ﴾ والمراد بالأعمى هنا هو أعمى البصيرة لا أعمى البصر، وهو الذي تخبط في ظلمات الجهل والضلال، وعاش في الدنيا بلا عقل ولا لبٍّ هائماً على وجهه كالحيوان، ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ أي إنما يتعظ ويعتبر بآيات الله ذوو العقول السليمة، الذين تحصنوا بحصن الإيمان.

الأوصاف الحميدة التسع للأبرار

ثم شرع تبارك وتعالى في ذكر أوصاف أولئك السعداء، ذوي الألباب والعقول السليمة فقال تقدست أسماؤه: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ، وَلَا يَنْقُضُونَ المِيثَاقَ. وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ. وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ، وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً، وَيَدْرَءُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَىٰ الدَّارِ. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ، وَأَزْوَاجِهِمْ، وَذُرِّيَاتِهِمْ، وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَىٰ الدَّارِ ﴾.

ذكرت الآيات الكريمة من أوصاف المؤمنين الأبرار، الذين لهم حسنى الدار، تسعة أوصاف وهي:

الأول: الوفاء بالعهد، والعهد هنا عام يشمل جميع عهود الله، وهي أوامره ونواهيه التي وصَّى بها عباده، وإليه الإشارة بقوله جلّ ثناؤه: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ ﴾ فيدخل فيه التزام جميع الفروض، وتجنب جميع المعاصي.

الثاني: المحافظة على الميثاق، وهو ما قطعوه على أنفسهم من عهود ومواعيد، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ بخلاف أهل النفاق، فعلامتهم إخلاف الوعد، ونقض العهد، وقد قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وَعَد أخلَف، وإذا ائتمن خان»[1] وفي الحديث الصحيح: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[2].

الثالث: صلة الأرحام، والإحسان إلى الأنام، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ ويدخل في هذه الصلة عيادةُ المريض، وإفشاءُ السلام، والتبسُّمُ في وجه أخيك المسلم، وكفّ الأذى عن الناس، ودفع المضار حتى عن الحيوان، فقد أخبر عليه أفضل الصلاة والتسليم عن امرأة « دخلت النار بسبب هرّة حبستها، لا هي أطعمتها، ولا هي سقتها، ولا هي تركتها تأكل من خَشَاشِ الأرضِ حتَّى ماتت»[3] ورجل سقى كلباً رآه يكاد يموت من

(١) الحديث أخرجه البخاري ١/٨٤ ومسلم رقم ٥٨ في الإيمان والترمذي رقم ٢٦٣٤.
(٢) الحديث أخرجه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط. الترغيب والترهيب ٤/١١.
(٣) الحديث أخرجه البخاري ومسلم، وانظر جامع الأصول ٤/٥٢٥.

العطش، فنزل بئراً فملأ خفّه وسقاه فشكر الله له فغفر له، قالوا يا رسول الله: وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال عليه السلام: «في كل كبدٍ رطبة أجـر».

الرابع: الخشية من الله، وهي الخوف من عـذابه، وإجـلال وتعظيم شرعه ودينه، والوقوف عند حدوده، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾.

الخامس: محاسبة النفس قبل الحساب؛ وتذكر الموقف الرهيب بين يدي أحكم الحاكمين، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ﴾.

السادس: الصبر بجميع ضروبه وأنواعه، ويشمل الصبر على أداء الـطاعات، والصبـر على تـرك المشتهيـات، والصبـر على المكـاره والمصائب، والغموم والأحزان، طلباً لرضى الرحمن، لا ليقال: ما أزهده وما أصبره وما أورعه؟ بل رضى بقضاء الله، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ أي طلباً لمرضاة الله، لا لغرضٍ دنيء من الأغراض الفاسدة كحبّ الشُهرة، وحبّ الثناء.

السابع: المحافظة على الصلاة بحدودها، وخشوعها، وآدابها، وأركانها، والإتيان بها على الوجه الكامل في أوقاتها، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾.

الثامن: أداء الزكاة لمستحقّيها، والإنفاق في سبيل الله، على الفقراء والمحاويج والمساكين، في السرِّ والجَهْر، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً ﴾.

التاسع: من الأوصاف السنيّة التي وصف الله بها عباده الأبرار، مقابلة الشر بالخير، ودرء السيئة بفعل الحسنة، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً وكرماً، وصفحاً وعفواً، وقد رتب المولى جلّ وعلا على هذه الأوصاف الحميدة، فوزهم بالعاقبة المحمودة، وهي الجنة دار السرور والحبور، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ أُولئك لَهُمْ عُقْبَى الدار ﴾ أي الدار الحميدة التي لا دار تشبهها في الحُسن والصفاء، والأنس والسرور، التي وعد الله بها المحسنين المتقين، وهي مسكنهم ومستقرهم.. ثم فسَّرها تعالى زيادة في التعريف والتشريف فقال: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ، وَأَزْوَاجِهِمْ، وَذُرِّيَاتِهِمْ، وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَىٰ الدَّارِ ﴾.

ومعنى «عدن» في اللغة: الإقامة، مأخوذٌ من قولهم عَدَن بالمكان إذا أقام فيه طويلاً، فمعنى الآية أنها جنات إقامة خالدة، يدخلها أولئك الأبرار، ويدخلها كذلك مَن كان صالحاً من آبائهم ونسائهم وأولادهم، ليأنسوا بلقائهم، ويتمَّ بهم سرورهم، وإن لم يكونوا يستحقون هذه المنازل الرفيعة العالية، كما قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَتَهُمْ ﴾ وإنما يفعل الله ذلك بهم زيادة في تكريمهم، ثم إن لهم إكراماً آخر بيَّنه تعالى بقوله: ﴿ وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَىٰ الدَّارِ ﴾ أي تهنئهم الملائكة، وتسلِّم عليهم من كل باب من أبواب الجنة، قائلين لهم: ﴿ سَلَامٌ عَلَيكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ أي بسبب صبركم على الشدائد والمكاره والمِحَن، فلئن تعبتم فيما مضى فقد استرحتم الساعة ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَىٰ

الدَّارِ﴾ أي نعمت الجنة مأوى لكم، ونعمت هذه العاقبة الحميدة عاقبتكم، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: أي تدخل عليهم الملائكة من ههنا وههنا للتهنئة، يدخلون عليهم مسلِّمين مهنِّئين لهم بما حصل لهم من الله، من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام، في جوار الصدِّيقين والأنبياء والرسل الكرام[1].

مقابلة لطيفة بين الفريقين

ولما ذكر تبارك وتعالى صفات المؤمنين الأبرار، أعقبها بذكر صفات المجرمين الأشرار فقال تقدست أسماؤه ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ، أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ هكذا بإيجاز دون إسهاب، حكم الله عليهم بالشقاء والدمار، لأنهم على عكس صفات المؤمنين الأبرار، فهم ناقضون للعهد، مفسدون في الأرض، يقطعون الأرحام، ويأكلون الحرام، ويعيثون في الأرض بالبغي والإجرام، فلهم اللعنة الدائمة، وسوء العاقبة والمآل، وقرن بينهما في الذكر ليظهر الفارق الكبير بين عاقبة المتقين، وعاقبة المجرمين.

سعةُ الرزقِ ليس دليل السعادة

وبعد أن ذكر ـ جلَّت عظمته ـ صفاتِ الكَفَرَة الأشرار، الذين لهم اللعنةُ ولهم سوء الدار، أعقبها بدفع شبهةٍ قد ترد على أذهان بعض الضعفاء، وهي: إذا كان هؤلاء الكفّار أعداءَ الله، فكيف فتح الله عليهم أبواب النِعَـم واللذات في الدنيا؟ هذه نفسُها الفكرة التي طالما ردَّدها

(١) مختصر ابن كثير ٢/٢٧٩.

المشركون، واختمرت في أذهانهم، حتى قالوا ما قصَّه علينا القرآن الكريم ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾.

فجاءت الآيات هنا في هذه السورة لتدفع تلك الشبهة، وتُزيل الوساوس التي تستولي على النفس في بعض الفترات، جاءت لتوضِّح أنه تعالى قد يبسط الرزق على البعض، ويضيِّقه على البعض، ولا تعلق له بالكفر والإيمان، فقد ترى الكافر موسَّعاً عليه دون المؤمن، وترى المؤمن مضيَّقاً عليه دون الكافر، فالدنيا دار امتحان وابتلاء، وليست دار التكريم والجزاء، ولهذا قال تقدست أسماؤه: ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسِّع ويضيِّق على مَن يشاء من عباده، حسب الحكمة والمصلحة، ثم قال تعالى: ﴿ وَفَرِحُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ أي فرح المشركون بما نالوا في هذه الدنيا من السعة والبسطة، فرحوا فرح بطر وأشر، لا فرح غبطةٍ وشكرٍ لله على إنعامه، وذلك لا يوجب الفرح، لأن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً حقيراً، يتمتع به الإنسان أياماً قلائل، ثم يعقبها حسرات لا نهاية لها، فكيف يفرح العاقل بمثل هذا الشيء التافه؟ ولهذا ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاع ﴾ أي نزر قليل، وشيء حقير بالنظر للآخرة.

تحقير للمخدوعين بزينة الدنيا

وفي قوله تعالى: ﴿ وَفَرِحُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ خبرٌ عن المشركين، وفي ضمنه ذمٌّ وتسفيه، لمن خدعته الدنيا بزينتها وفتنتها، وبهرجها اللامع، وما يدري أن وراءها السُّمَّ الزعاف، ولذلك نسي آخرته، وعكف على الدنيا وكأنها معبودُه الذي يهواه.. هذه هي الدنيا تخدع ثم

تصرع، وتقتل عُشاقها وأحبابها، ولو علم هؤلاء العاشقون حقيقتها ما فُتنوا فيها، ولقد أحسن مَن قال:

فَلَوْ كَانتِ الدُّنْيَا جَزَاءً لِمُحْسِنٍ إذاً لم يكنْ فيها مَعَاشٌ لِظَالمِ
لقد جَاعَ فيها الأنبياءُ كَرَامةً وقدْ شَبِعَتْ فيها بُطُونُ البَهَائِمِ

وما أجمل ما قاله ﷺ في بيان قدر الدنيا ومنزلتها عند الله حيث قال ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدِلُ عند اللهِ جناحَ بعوضةٍ، ما سقىٰ كافراً مِنها شربة ماء»(١) وليس معنى هذا أن يترك المؤمن الدنيا فلا يعمل لها، ولا يأخذ بحظوظه الجسدية منها، بل المراد ألَّا تشغله عن الحياة الآخرة، فيعمل للفانية وينسى الباقية، ويصبح عبداً لهذه الدنيا، همُّه منها نيلُ الحطام، وجمعُ المال من حلالٍ أو حرام، فنعمت الدنيا إذا كانت عوناً للإنسان على طاعة مولاه، وبئست الدنيا إذا شغلته عن العمل للآخرة.

طلب المشركين لمعجزات أُخرى

ثم حكى تعالى نوعاً آخر من قبائح الكَفَرَة، وضلالهم وعنادهم، فقد قالوا لرسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم: إن كنتَ يا محمد رسولاً فائتنا بآيةٍ ومعجزةٍ قاهرة ظاهرة، مثل معجزات موسى وعيسى وصالح عليهم السلام!! وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾؟ أي يقول المشركون هلَّا أُنزل على محمد معجزة من عند ربه، كمعجزة موسى في فلق البحر،

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وروى أحمد في المسند أن النبي ﷺ مرَّ بشاةٍ ميتة، قد ألقاها أهلُها، فقال: «والذي نفسي بيده، للدنيا أهونُ على الله من هذه على أهلها» انظر الترغيب والترهيب ٤/١٧٣.

ومعجزة عيسى في إحياء الموتى، وأمثال ذلك؟ وقد ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أي هو تعالى العالم بمَن يستحق الهداية فيهديه، وبمَن يستحق الضلالة فيضلّه، والآية جرت مجرى التعجب، فكأنه يقول: ما أعظم عنادكم!! فهذه الآيات الباهرة الساطعة التي ظهرت على يد رسول الله ﷺ ألا تكفيكم، حتى طلبتم غيرها من المعجزات؟! ولكنْ لا عجب فإن مَن أشقاه الله لا تنفعه الآياتُ والنذر!!

طمأنينة القلب عند سماع آيات القرآن

ثم ذكر تعالى صفات مَن هداه الله إلى طريق الإيمان والسعادة، فذكر من صفاتهم التوبة والإنابة، وطمأنينة القلب، وسكينته عند تلاوة كتابه، ويقينهم بصدق ما جاءهم به محمد ﷺ من الأخبار والآيات البيِّنات، وبذلك رسخت في قلوبهم السكينة والطمأنينة، فلم ينشغلوا بهذه الدنيا الفانية كما شُغل الكفّار، بل جدُّوا في طاعة ربهم، فصدَقوا في الإيمان، وأخلصوا العمل للرحمن، وفيهم يقول تقدست أسماؤه: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ، أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ. الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يريد أنهم إذا سمعوا القرآن، خشعت قلوبهم واطمأنت» فيقينهم بأن القرآن من عند الرحمن، يوجب حصول الطمأنينة لهم، بأن الله سبحانه واحد لا شريك له، وأنه تعالى صادقٌ في وعده ووعيده، وبأن محمداً نبيٌّ حق مرسلٌ من عند الله.

وجيء بصيغة المضارع لا الماضي ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ ﴾ ولم يقل: واطمأنت، لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره، لأن المضارع يفيد

التجدُّد والحدوث، فهم دائماً في طمأنينةٍ وسكينةٍ، لا يشعرون بقلق واضطراب من سوء العقاب، على عكس الـذين غفلوا عن الله، فاضطربت نفوسُهم، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم.

تذكيرهم بالنعمة العظمى

ولما كانت بعثة خاتم النبيِّين، هي النعمة العظمى على العرب وعلى الناس أجمعين، ذكَّرهم تعالى بفضله وإنعامه عليهم بإرسال الرحمة المُهداة سيد الأولين والآخرين، ولكنَّ المشركين لم يعرفوا قدر هذه النعمة، فكفروا بربهم، وكذَّبوا رسوله، وأبوا أن يستجيبوا لدعوة الرحمن، ويا لها من شقاوةٍ وخسران!! وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ أي مضت قبلها أُمم كثيرة: ﴿ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ وهكذا قابلوا النعمة بالجحود والكفران، من تعاستهم وشقاوتهم، والغرض من الآية تثبيت نبوّة محمد ﷺ، وتأكيد رسالته التي أنكرها المشركون، فهم آخر الأُمم وأنت خاتم الأنبياء، ثم تسليته عليه الصلاة والسلام على ما يلقاه من قريش من الجحود والعناد، فليس هو أول نبي يُكذَّب، بل سبقه رُسُل كذبهم قومهم، وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

اقتراحات عجيبة من كفّار مكة

وتمضي السورة الكريمة لتكشف لنا الأستار، عن موقف الكفّار من دعوة سيد المرسلين، فلقد بالغوا في السخرية والاستهزاء، وأمعنوا في الغيِّ والضلال، حتى وصل بهم الحال إلى أن ينالوا من القرآن

الكريم بالقدح والطعن، وطلبوا من رسول الله عليه السلام أن يأتيهم بمعجزة غير هذا القرآن، واقترحوا عليه اقتراحات هي إلى اللجاج والعناد، أقرب منها إلى التصديق والإيمان، فقد روي أن أهل مكة، قعدوا في فناء الكعبة، فأتاهم رسول الله ﷺ وعرض عليهم الإسلام، فقال له رؤساؤهم كأبي جهلٍ، وعقبة بن أبي معيط، وعبد الله بن أُمية المخزومي: إن كنت صادقاً في دعوى النبوّة، فسيِّر لنا جبال مكة حتى ينفسح علينا المكان ويتسع، واجعلها سهولاً ورياضاً، واجعل لنا فيها أنهاراً تجري في أطراف مكة، حتى نزرع فيها ونسقي، وأحيي لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحقٌّ ما تقوله أم باطل؟ ـ فقد كان عيسى يُحيي الموتى ـ أو سخِّر لنا الريح حتى نركبها ونسير في البلاد، فقد كانت الريح مسخَّرةً لسليمان، ولستَ بأهون على ربك من سليمان، فأنزل الله رَدّاً عليهم فيما اقترحوا، هذه الآيات البيِّنات، وهي قوله تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنَاً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ، أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ، أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَىٰ، بَلْ للهِ الأَمْرُ جَميعَاً، أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَىٰ النَّاسَ جَمِيعَاً، وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوْا قَارِعَةٌ، أَوْ تَحُلُّ قَرِيبَاً مِنْ دَارِهِمْ، حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ، إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ. وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ، فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾؟ وجوابُ «لو» في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنَاً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ ﴾ محذوف، حُذف لدلالة السياق عليه، والتقديرُ: لكان هذا القرآن، لكونه غايةً في الإيجاز والإعجاز، ونهاية في التذكير والإنذار.

واختار الزجّاج أن الجواب محذوف تقديره «لما آمنوا» لغلوّهم في المُكابرة والعناد، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ المَلَائِكَةَ، وَكَلَّمَهُمُ المَوْتَىٰ، وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلَاً، مَا كَانُوا لِيُؤمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ

اللهُ ﴾[1] ومعنى قوله سبحانه: ﴿ سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ ﴾ أي زالت ومشت من أماكنها ﴿ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ ﴾ أي شُقِّقت فجعلت أنهاراً وعيوناً ﴿ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَىٰ ﴾ أي خوطب به الأموات، حتى أجابوا وتكلموا بتلاوة القرآن عليهم، والجواب لَمَا كان غير هذا القرآن، الذي جاء بالمعجزات، والذي يصنع خوارق العادات.

كلام الحافظ ابن كثير

قال الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنَاً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ، أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ، أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَىٰ... ﴾ أي لو كان في الكتب الماضية، كتابٌ تسير به الجبال عن أماكنها، أو تُقَطَّع به الأرضُ وتنشق، أو تُكلَّم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجنُّ عن آخرهم ـ إذا اجتمعوا ـ أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به، جاحدون له، ثم قال تعالى: ﴿ بَلْ للهِ الأَمْرُ جَمِيعَاً ﴾ أي مرجع الأُمور كلِّها إلى الله عزّ وجل، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وقولُه سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوْا ﴾ أي من إيمان جميع الخلق، ويعلموا ويتبينوا ﴿ أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَىٰ النَّاسَ جَمِيعَاً ﴾ أي لو شاء الله لهدى إلى الإيمان جميع الخلق، فإنه ليس ثمةَ حُجَّةٌ ولا معجزة، أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس، من هذا القرآن الذي لو أنزله الله على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبيٍّ إلاَّ

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١١.

وقد أُوتي من الآيات، ما آمن على مثله البشرُ، وإنَّما كان الذي أُوتيتُه وحياً أوحاه اللهُ إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثَرَهم تابعاً يومَ القيامة»[1] قال ابن كثير: معناه أن معجزة كل نبي انقرضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَق على كثرة الردّ، ولا يشبع منه العلماء»[2] انتهى كلام الحافظ ابن كثير.

غلوٌّ واستكبار وطغيان

يا عجباً لهؤلاء المشركين المكابرين، هذا الكتاب المُعجِز، الذي جاءهم به نبيٌّ أُميٌّ، لا يعرف قراءةً ولا كتابة، تنطق حروفه وكلماته بصدقه، وفصاحة بيانه، وسطوع برهانه، على أنه تنزيل رب العالمين، ألم يكفِهم هذا القرآن شاهداً على صدق محمد ﷺ حتى طلبوا معجزة غيرَ القرآن؟! فلو كان هناك كتاب يأتي بالمعجزات، ويصنع الأعاجيب، فيُزيل الجبال، ويشقق الأنهار، ويكلّم الأموات والأحجار، حتى تنطقَ وتشهد بصدقه، لكان هذا القرآن، فكيف أعرضوا عن الإيمان به، وطلبوا من محمد معجزةً أُخرى غيرَ معجزة القرآن؟

حقاً إنه الغلوُّ في المكابرة، والعنادِ، والطغيان، والجريُ وراء وساوس الشيطان!! والمرادُ من قوله تعالى: ﴿ بَلْ لِلهِ الأَمْرُ جَمِيعاً ﴾ هو الردُّ على اقتراح المشركين فيما عرضوه على سيد المرسلين، من مطالب وأغراض، يعني أن الله ـ عزَّ سلطانُه ـ لم يجبهم إلى ما اقترحوا من الآيات، لأنه هو المالك لجميع الأُمور، والمتصرّف في جميع

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن ٥/٩ ومسلم في كتاب الإيمان رقم /١٥٢/ وذكره ابن الأثير في جامع الأصول ٥٣٣/٨.
(٢) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢٨٢/٢.

المخلوقات، إن شاء فعل، وإن لم يشأ لم يفعل، وليس لأحدٍ أن يتحكم عليه في أفعاله وأحكامه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وهُمْ يُسْأَلُون﴾ ولا يفعل إلَّا ما تقتضيه الحكمة، فلو أُجيبوا إلى ما طلبوا ثم لم يؤمنوا، لاستحقّوا عذاب الاستئصال وهلكوا عن آخرهم.

رأيٌ لبعض المفسرين في الآية

ويذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوْا ﴾ معناه أفلم يعلم ويتبيَّن، ويستدلون على هذا المعنى بقول الشاعر:

ألم ييأسِ الأَقْوامُ أنِّي أنَا ابنُه   وإنْ كنتُ عن أَرْضِ العَشِيرة نائياً

أي ألم يعلموا، وأنكر الفرّاء والكسائي هذا القول، حتى قال الكسائي: «ما وجدتُ العرب تقول يئستُ بمعنى علمتُ البتَّة» والأرجح والأظهر في هذا أن معنى اليأس على حقيقته في الآية الكريمة وأنه بمعنى القنوط والمعنى: أفلم يقنط وييأس المؤمنون، من إيمان أولئك الكفار، ويعلموا أن الله لو شاء هدايتهم لهداهم؟ فليس الأمر إلا للهِ العليّ الكبير. ثم خوَّف الله المشركين وتوعَّدهم، بنزول أنواع البلايا والنقم، وطمأن نبيّه والمؤمنين بإحلال العذاب بأعدائهم فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ أي داهية تقرع أسماعهم، وتقلق مضجعهم ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ، حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ، إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ ﴾ أي تنزل هذه النكبة والداهية قريباً من ديارهم، حتى يحين وقت هلاكهم، الذي حدَّده الله لهم إن لم يؤمنوا، كما قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً ﴾(١). وختم الله

---

(١) سورة الكهف آية رقم ٥٩.

الآيات الكريمة بتسلية رسوله ﷺ عمّا يقابله به المشركون من السخرية والاستهزاء، فبيَّن له أنها سنة الأُمم مع رسلهم، ما من نبي ولا رسول إلا وقد سخر منه قومه الكافرون الجاحدون، فأعزّه الله وخذلهم، ونجّاه وأهلكهم وتلك سنّة الله في خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ، فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾؟ والمعنى: كيف كان عقابي وجزائي لهم على الكفر والتكذيب؟ ألم يكن فظيعاً شديداً؟ وهكذا أنتقم لأوليائي من أعدائي، لأقرَّ أعينهم بهلاك الظالمين المكذبين.

تشنيع على المشركين في عبادة غير الله

وبعد ذلك البيان الساطع عن إعجاز القرآن، وطلب كفّار مكة معجزة غيره، جاءت الآيات البيِّنات تقرعهم بالحجة الناصعة، والبرهان النيِّر، وتقيم الحجة تلو الحجة، والبرهان بعد البرهان، على سفههم وجهلهم وقبيح صنيعهم، في عبادة أحجار صمّاء، لا تسمع ولا تدفع، ولا تستجيب النداء، فكيف رضوا أن يجعلوها آلهة مع الله، يرجون نفعها ويخافون ضرَّها، ويطلبون منها الرزق والشفاعة والأجر؟ وكيف ساوَوْا بين الإِله القدير، والوثن الحقير؟ فعبدوا هذه الأحجار، واستنكفوا عن عبادة الواحد القهّار؟!

وبأسلوب فيه التعجيبُ والتوبيخ، والازدراءُ بعقولهم، يخاطبهم القرآن الكريم في هذه الآيات البيِّنات، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ؟ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ، قُلْ سَمُّوهُمْ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ؟ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ؟ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ، وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ. لَهُمْ

عَذَابٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ، وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ ﴾. والمعنى: هل الله الحفيظُ، الرقيبُ على أعمال العباد، العالمُ بكل المعلومات، القادرُ على كل الممكنات، الذي يعلم ما يعمله العاملون من خيرٍ وشر، ولا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، كالأصنام التي يعبدونها، لا تسمعُ، ولا تبصر، ولا تعقل، ولا تكشف ضرّاً عنها ولا عن عابديها؟ قال الحافظ ابن كثير: ومعنى الآية الكريمة: أفمَن هو حفيظٌ رقيبٌ عليم، قائم على كل نفسٍ منفوسة بما كسبت من خير وشر، كالأصنام التي يعبدونها؟ وحُذِفَ هذا الجوابُ اكتفاءً بدلالةِ السياق عليه، وهو قوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ ﴾ أي عبدوها معه من أصنام وأوثان(١).

وقال الفخر الرازي: «والجواب مضمرٌ في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ ﴾ والتقديرُ: أفمَن هو قائم على كل نفس بما كسبت، كشركائهم التي لا تضرُّ ولا تنفع؟ ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُوْرٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ وما جاء جوابُه لأنه مضمر في قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ ﴾ فكذا هنا»(٢).

الغرض تسفيه عقول الكفّار

والغرض من الآية تسفيه عقولهم وأحلامهم، فقد جعلوا الإِلَهَ السميعَ البصيرَ القدير، كالصَّنمِ العاجز الحقير، والعجيبُ في الأمر أنهم

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٢٨٣.
(٢) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي ١٩/٥٦ وهذا الرأي الذي ذهب إليه ابن كثير والرازي هو الذي رجحه الفراء حيث قال في معاني القرآن: وتُرك جوابُه لأن المعنى معلوم، وقد بيّنه بعد هذا بقوله: ﴿ وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ ﴾ كأنه قيل: هل اللهُ كشركائهم؟ وهذا رأي الجمهور.

صنعوا هذه الأصنامَ بأيديهم ونحتوها، ثمَّ عكفوا علَيها فعبدوها، وطلبوا منها الرزق، والعون، وهي أعجزُ من أن تخلق ذُباباً، فضلاً عن أن تخلق إنساناً، أو تجيب دعوةَ مكروب، وصدق الله العظيم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوْا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ ﴾ ولما قرَّر هذه الحجة، زاد في الإيضاح والبرهان، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أي قل لهم يا محمد سمُّوا لنا هذه الآلهة المزعومة، وصفُوهم لنا، لننظر هل لهم من أوصاف الألوهية شيء؟ وفي قولهِ: ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ غاية في الإنكار والاستحقار، كأن الأمر بلغ من الحقارة، ألاَّ يُعرفَ ولا يُذكر، ولا يُوضع له اسم، فهو يخاطبهم ويقول لهم: سمُّوا لنا هذه الأصنام إن شئتم، أهي أربابٌ أم عبيدٌ؟ أهي خالقة أم مخلوقة؟ ألها حياةٌ أم هي مَوَاتٌ؟ ما شأنها؟ ما فضلها؟ ما مقدار عظمتها وسلطانها حتى عبدتموها؟

إن العاقل يأنف أن يعبد مخلوقاً مثله، فكيف رضيتم أن تعبدوا جماداً وهي أخسُّ وأحقر من الإنسان؟ وسواء سمّيتموها آلهة أو لم تسمُّوها، فإنها في الحقارة بحيثُ لا تستحقُّ أن يلتفت العاقل إليها!!

ثم زاد تبارك وتعالى في التوبيخ والتحقير لهم فقال: ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ، أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ﴾؟ والمعنى: هل تخبرون الله بشركاء وآلهة موجودة في الأرض، لا يعلمها سبحانه وتعالى؟ أم تسمّونهم شركاء، بظنٍّ باطل فاسدٍ، لا حقيقة له، لفرط الجهل وسفاهة العقل؟ وهذا الاحتجاج من أعاجيب الأساليب التي اختصَّ بها القرآن الكريم المعجز، فللّهِ درّ شأن التنزيل.

تزيين الشيطان لهم سوء صنيعهم

ثم انتقل من المحاورة والمناظرة، إلى بيان الداعي الحقيقي لهم، إلى عبادة هذه الأصنام والأوثان، ألا وهو السَّفه والطيش، الذي جرَّهم إليه الشيطان، بتزيين القبيح، وتحسين الشيء المنكر، حتى نزلوا إلى الحضيض، بعبادة مَن لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عن عابده شيئاً، ولهذا قال تقدست أسماؤه: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ، وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ والمعنى: بل زيّن لهم الشيطان ذلك الكفر والضلال، ومنعوا عن طريق النور والهدى، ومَن يضلله الله فما له أحد يهديه.. و«بل» في كلام العرب للإضراب، ومعناه الانتقال من كلام إلى كلام، ومن دليلٍ إلى آخر، وكأنه تعالى يقول: دع ذكر الدليل، فإنه لا فائدة فيه، لأن الشيطان زيَّن لهم هذا العمل القبيح، فلا ينتفعون بذكر هذه الدلائل، ولا يستجيبون لداعي العقل والرشد، لأنهم ضلّوا طريق الخير والسعادة. ثم أخبر تعالى بما أعدّه لهم من العذاب والنكال في الدنيا والآخرة فقال تقدست أسماؤه: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ، وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ﴾.

أي لهؤلاء المشركين، الذين عبدوا غير الله، عذاب عاجل شاقٌ في هذه الحياة الدنيا، بالقتل والتشريد، والأسر والإذلال، واللعن والذم، ولعذاب الآخرة أثقل وأشد ألماً وإهانة من عذاب الدنيا، وليس لهم مَن يحميهم أو ينقذهم من عذاب الله.

نعيم المتقين في الجنة

ولما ذكر تعالى جزاء الكفرة المجرمين، أتبعه بذكر ثواب المؤمنين المتقين، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا، تِلْكَ عُقْبَىٰ الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَعُقْبَىٰ الكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ والمثلُ هنا يرادُ به الصفة العجيبةُ الغريبة، التي هي في الحُسْن والجمال كالمثل، ومعنى الآية الكريمة: صفة الجنة العجيبةِ الشأن، التي وعد الله بها عباده المتقين، أن أنهارها تجري من تحت قصورها وغرفها، في غير أخاديد، وثمرها دائم لا ينقطع، وظلها كذلك لا تنسخه الشمس ولا يزول ولا يحول، وهذه الجنة بما فيها من النعيم الدائم عاقبة المتقين الأبرار، ومآلهم ومسكنهم، أما عاقبة الكفّار الفجّار فهي النار وبئس المصير.

وصف تعالى جنة الخلد بصفاتٍ ثلاث:

الأولى: أن الأنهار تجري من تحتها أي من تحت قصورها ومساكنها، ولما يكون القصر مشرفاً على البحر أو النهر، يكون أبهج للنفس وأسعد.

الثانية: أن أكلها دائم أي ثمارها وفواكهها لا تنقطع، وجنات الدنيا لا يدوم ورقها وثمرها ومنافعها، أما جنات الآخرة فثمارها دائمة غير منقطعة، كما قال تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾.

الثالثة: أن ظلها دائم أيضاً، والمراد أنه لا حرَّ هناك ولا برد، ولا شمس ولا قمر، ولا ظلمة ولا كدر، ونظيره قوله تعالى: ﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ، وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ فالسرور دائم، والظل دائم، وقد قال ﷺ: «إن في

الجنة لشجرةً يسير الراكبُ السريع في ظلها مائة عامٍ لا يقطعها»، واقرءوا إن شئتم ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾[1]. اللَّهمّ إنّا نسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل.

إسلام بعض أهل الكتاب

ثم تمضي السورة الكريمة، وهي تبيِّن لنا عقائد أهل الكتاب، وعقائد المشركين في شأن هذا القرآن، فمن أهل الكتاب ـ وهم اليهود والنصارى ـ مَن أنارَ الله بصيرته فاهتدى، وآمن بالرسول وبما أنزل الله عليه، كعبد الله بن سلام والنجاشي وأصحابه، وهؤلاء وأمثالهم يفرحون بهذا القرآن، لما في كتبهم من الشواهد على صدقه، والبشارة ببعثة خاتم الأنبياء، النبيّ الأُميّ العربي، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وفي هؤلاء يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ، وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾ أي ومن الطوائف المتحزبين ضد الإسلام ـ وهم أهل أديانٍ شتَّى ـ مَن ينكر بعض القرآنِ، مكابرةً وعناداً، مع يقينهم بصدقه، لأنه موافق لبعض شرائعهم ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ، إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ أي قل يا محمد معلناً دعوتك ورسالتك: إنما أُمرتُ بعبادة الله وحده، وإلى عبادته جلَّ وعلا أدعو الناس، وإليه مرجعي ومصيري.

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٢٨٩ وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه البخاري ومسلم بدون الآية بلفظ «إن في الجنة شجرة يسير الراكبُ في ظلها مائة عام لا يقطعها».

طعنهم على الرسول في أمر النكاح

ولقد طعن بعض المشركين وأهل الكتاب في نبوّته عليه الصلاة والسلام، وعابوا الرسول بكثرة الزوجات، وقالوا: لـو كان رسولاً من عند الله، لما كان مشتغلاً بأمر النساء، بل كان مُعرِضاً عنهنّ، مقبِلاً على العبادة والزهد، مُعْرِضاً عن الدنيا وما فيها من شهوات، فردَّ الله عليهم تلك الشبهة السقيمة التي طعنوا فيها بنبوته ﷺ بقوله تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَةً، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ والمعنى: لست يا محمد ببدعٍ من الرسل، ولستَ أولَ رسولٍ يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، وينكح النساء، بل سبقك رُسُل كرامٌ تزوجوا وكان لهم من زوجاتهم ذرية وأولاد، فعلامَ يعيبك هؤلاء الظالمون؟ ولماذا يطعنون في نبوّتك، ولستَ أنت وحدك الذي عدَّد الزوجات، ونكح النساء؟ فقد كان لداود عليه السلام مائة امرأة ـ كما ثبت في صحيح البخاري ـ وكان لولده سليمان أكثر من ذلك، وهم من أنبياء بني إسرائيل، وهذه سنّة الرُّسُل من قبلك تزوّجوا فكان لهم ذريّة وأولاد، فما لهم يعيبون عليك ذلك؟

ردٌّ على شبهة أُخرى

وقوله عزّ وجل: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَـةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ ردٌّ لشبهة أُخرى أثارها المشركون، وهي: إذا كان محمد رسولاً فلماذا لم يأتنا بما طلبناه منه من المعجزات؟ فأجاب تعالى بأن أمر المعجزة ليس للرسول، وإنما هو مفوَّض إلى مشيئة الله، فإذا شاء الله أظهرها على يده، وليس لرسول أن يأتي قومه بمعجزة إلا إذا أذن الله فيها، ولا

اعتراض لأحدٍ عليه في ذلك، ثم قال تعالى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أي لكل أمر قضاه الله وقت محدَّد، وزمن معيَّن، لا يتعداه، وقد طلب المشركون من رسول الله، أن يأتيهم بالعذاب الذي كان يخوِّفهم ويتوعدهم به، فأخبر تعالى أن لكل شيء أجَلاً محدوداً، لا يتقدم عليه ولا يتأخر، فتأخر نزول العذاب ليس إخلافاً للوعد، وإنما هو كما قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً ﴾.

معنى النسخ والتبديل في اللوح المحفوظ

وتمضي السورة الكريمة، لتبيِّن لنا القدر المحتوم، الذي حدَّده الله في الأزل، فالله جلّ وعلا يبدِّل ويغيِّر من الأحكام ما يشاء، حسب الحكمة والمصلحة، وينسخ من صحف الملائكة ما يشاء، فيُغني ويفقِر، ويُعزّ ويُذل، ويدفع البلاء بالتضرّع والدعاء، ولكن عنده شيء لا يتبدَّل ولا يتغيَّر، هو علمه تعالى الذي أثبته في اللوح المحفوظ، وإلى هذا يشير قوله تقدست أسماؤه: ﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ ﴾ فالمحو والإثبات، والتبديلُ والتغيير، إنما يجري في الشرائع والأحكام وصحف الملائكة الكِرام، أما ما أُثبتَ في اللوح المحفوظ، مما جرى به القلم، فهذا قد فُرِغ منه، وجرى به العلم الأزلي، فالشقيّ شقي من الأزل، والسعيد سعيد من الأزل، وهذا معنى قول ابن عباس: يبدِّل الله ما يشاء فينسخه، إلا الموت والحياة، والشقاء والسعادة، فإنه قد فرغ منها، والمراد بأُمِّ الكتاب في الآية هو «اللوحُ المحفوظ» فعند الله كتابان: أحدهما الكتاب الذي يكتبه الملائكة على الخلق، فهذا محل المحو والإثبات، والكتاب الثاني هو اللوح المحفوظ، وهو الذي سجِّل فيه جميع الحوادث والأشياء، وهذا الذي لا يتبدل أو يتغير.

كلام نفيس للمفسِّر ابن عطية

قال ابن عطية رحمه الله: (والذي يتلخص من هذه الآية، أن الأشياء التي قدَّرها الله في الأزل وعلمها، لا يصحُّ فيها محوٌ ولا تبديلٌ بحالٍ مَّا، وهي التي كتبت في أُم الكتاب، وسبق بها القضاء، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس وغيره من أهل العلم، وأما الأشياء التي أخبر الله تعالى أنه يُبدِّل فيها وينقل، كغفر الذنوب بعد تقريرها، وكنسخ آيةٍ بعد تلاوتها، ففيها يقع المحو والإثبات، فيما يقيِّده الحَفَظَة ونحو ذلك، وأما إذا ردَّ الأمر إلى القضاء والقدر، فقد محا الله ما محا، وثبَّت ما ثَبَّت. .

قال: وقد رُوي عن عمر وابن مسعود أنهما كانا يقولان في دعائهما: «اللَّهمَّ إن كنت كتبتنا في ديوان الشقاوة، فامحنا وأثبتنا في ديوان السعادة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أُم الكتاب» فهذا منهما دعاء في غفران الذنوب، وعلى جهة الجَزَع منهما، أي اللَّهمَّ إن كنّا شقينا بمعصيتك، وكتبتَ علينا شقاوةً بها، فامحها عنّا بالمغفرة والطاعة، ولم يكن دعاؤهما البتَّةَ في تبديل سابق القضاء)[1].

مهمة الرسول تبليغ الدعوة

ثم تمضي الآيات الكريمة تبيِّن مهمة الرسول عليه الصلاة والسلام، وتأمره بالصبر وتحمل الأذى في سبيل الله، فحسبه أنه داعٍ إلى الله، ولما كان المشركون يجابهون الرسول ﷺ بالسخرية والاستهزاء، ويقابلونه بالصدِّ والعناد، ويطلبون منه أن يأتيهم بالعذاب، الذي كان يتوعَّدهم به، وكان صلوات الله عليه يضيق صدره أحياناً، من

---

(١) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ١٨٢/٨.

موقف هؤلاء المشركين المعاندين، ويتمنى أن يرى من عقاب الله وانتقامه، ما يزجرهم عن السخرية والاستهزاء، فقد جاءت الآيـات توضِّح له مهمته التي أُرسل بها، ألا وهي تبليغ الدعوة، وأما الجزاء والحساب فمردّه إلى رب الأرباب ﴿ وَإِنْ مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ، أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ، وَعَلَيْنَا الحِسَابُ ﴾.

والمعنى: إن أريناك يا محمد بعض الذي وعدنا أعداءك، من الخزي والنكال في الدنيا، أو أريناك مصارع الظالمين، حتى نقرَّ عينك بهلاكهم، أو توفيناك قبل أن ترى عقاب الله فيهم، فالواجب عليك تبليغ رسالة ربك، وأداء أمانته، وعلينا حسابهم وجزاؤهم. ثم ضربت الآيات مثلاً له ﷺ، وذلك بما يفتحه الله على المسلمين، من استيلائهم على ديار المشركين، حتى تنتقص بلاد الكفار، وتزداد رقعة المسلمين، وذلك من أظهر الأدلة، على أن الله تعالى مُنجزٌ وعده لرسوله عليه السلام، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا، وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾ وكأنه تعالى يقول: أو لم يشاهد هؤلاء الكفار، ما يحدث في الدنيا، من الاختلافات والاضطرابات، خرابٌ بعد عمارة، وموتٌ بعد حياة، وذلٌ بعد عزٍّ، ونقصٌ بعد كمالٍ، فإذا كانت هذه التغيرات مشاهدةً ومحسوسةً، فما الذي يؤمِّنُهم أن يقلب الله الأمر على هؤلاء الكَفَرَة، فيجعلهم ذليلين بعد أن كانوا عزيزين، ويجعلهم مقهورين بعد أن كانوا قاهرين؟

قال ابن عباس: نقصُ الأرض بالفتوحات الإسلامية، وظهور الإسلام على الشرك، وروي عنه أيضاً أن نقصها بموت أشرافها وعلمائها وكُبَرائها، وقال مثله مجاهد أيضاً، وأنشد بعضهم:

الأرضُ تحيَا إذا ما عَاشَ عالمُهَا   مَتَى يمتْ عَالمٌ مِنْها يَمُتْ طَرَف
كالرَّوْضِ تحيَا إذا مَا الغَيْثُ حَلَّ بِهَا   وإنْ أَبىٰ عَادَ فِي أكنافِهَا التلف

قال الحافظ ابن كثير: والقولُ الأول أظهر، وهو أن المراد ظهور الإسلام على الشرك، قريةً بعد قرية، وكقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ القُرَىٰ. . . ﴾[1] وهو اختيار ابن جرير الطبري، وتختم السورة الكريمة، بشهادة الله عزّ وجل لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام، بالأمر العظيم الهام، الذي كذبه به المشركون وناوَؤُه، ألا وهو موضوع «النبوّة والرسالة» الذي كان المحور الرئيسي لهذه السورة الكريمة، بعد موضـوع الحشر والنشر، فيعلن الله جلّ وعلا شهادته الكبرى بأن محمداً عبده ورسوله، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وكفى بشهادة الله له شهادة ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً، قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدَاً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ ﴾.

اللّهمّ ارزقنا محبته واتباعـه، واجعلنا من أنصاره وأشياعه وأتباعه، في الدنيا والآخرة يا رب العالمين، والحمد لله في البدء والختام.

* * *

تم الجزء الخامس من كتاب «قبس من نور القرآن»
ويليه الجزء السادس، ولله الحمدُ في البدء والختام

---

(١) سورة الأحقاف آية رقم ٢٨.

الفهرس

قبس

من نور القرآن الكريم

دراسات قرآنية
٦

قبس من نور القرآن الكريم

من

سورة إبراهيم والحجر والنحل والإسراء

دراسة تحليلية موسعة بأهداف ومقاصد السور الكريمة

بقلم
خادم الكتاب والسنة
الشيخ محمد علي الصابوني
الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد الذي خصَّه الله بالمعجزة الكبرى، والآية العظمى «القرآن الكريم» وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا هو الكتاب السادس في سلسلة «دراسات قرآنية» في ضوء السور الكريمة «إبراهيم، الحجر، النحل، الإسراء» وهي دراسة موضوعية تحليلية هادفة، القصد منها تنوير القلوب والبصائر، بما تناوله الكتاب المعجز، الذي نزل على قلب خاتم المرسلين، بلسان عربي مبين.

وإننا إذ نشكر الله عزّ وجلّ أن وفَّقنا لخدمة كتابه، لنُبْرِز ما فيه من روائع الحِكَم والأحكام، ونُظهر أسرار إعجازه وبيانه، نسأله تعالى أن يمنَّ علينا بالتيسير والتسهيل، لما قصدناه في هذه الدراسات القرآنية، التي تتناول المواضيع التي تعرضت لها السور الكريمة، ليستوعب الأخ المسلم فهم ما حَوَته هذه السور المباركة من مقاصد وأهداف.

والله نسأل أن يرزقنا الصدق والإخلاص، في القول والفعل والعمل، وأن ينفع بهذه الدراسات إخواننا المؤمنين، إنه خير مسؤول، وأعظم مأمول، وصلىٰ الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الشيخ محمّد علي الصّابوني

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَة إبرَاهِيم

مَكيَّة وآيَاتهَا إثنتَان وَخمسون آيَـة

أهداف السورة الكريمة

● سورة إبراهيم من السور المكية التي نزلت في بدء الدعوة الإسلامية، ورسول الله ﷺ في مكة المكرمة يجابه قوى الشر والطغيان، ويعلن دعوته الربانية، التي شرَّفه الله بحمل أعبائها، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

● وهي تتناول موضوع العقيدة الإسلامية في أُصولها الكبرى «الإيمان بالله عزّ وجل، والإيمان بالرسالة المحمدية، والإيمان باليوم الآخر» الذي كذَّب به المشركون، ويكاد يكون محور السورة الرئيسي هو «الرسالة والنبوّة» التي كانت مثار الجدل بين طواغيت مكة، منذ أن بُعث سيِّد المرسلين، فأنكروا أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام رسولاً مرسلاً من عند الله، واستبعدوا أن يكون الرسول من البشر، وأن يُخصَّ بهذا الشرف العظيم رجلٌ يتيم فقير، لا يملك من مظاهر الغنى والثراء، ما يؤهله لهذا المنصب الجليل، دون أن يكون من زعمائهم وكبرائهم ورؤسائهم!!

● لذلك جاءت السورة تتحدث بشيء من التفصيل ، عن «النبوّة والرسالة» وعن مهمة الرسل الكرام، وتبيِّن بوضوح وجلاء وظيفة الرسول، ومهمته التي بعث من أجلها، وتوضِّح معنى وحدة «الرسالات السماوية» فالأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، جاءوا لتشييد صرح الإيمان، وتعريف الناس بالإلّه الحق، والرب المعبود، الذي تعنو له الوجوه، وبُعثوا جميعاً لغاية

واحدة هي التوحيد، وإنقاذ البشرية من ظلمات الجهالة، إلى نور العلم والعرفان، فدعوتهم واحدة، وهدفهم واحد، وإن كان بينهم اختلاف في الفروع والأحكام، لأن هذه الأحكام تختلف باختلاف العصور والأزمان ﴿ الَر. كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ. اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾.

- وتحدثت السورة الكريمة عن رسالة نبي الله الكريم «موسى بن عمران» عليه الصلاة والسلام، فذكرت دعوته لقومه إلى توحيد الله عزّ وجل، وأن يعبدوا الله ويشكروه على أياديه ونعمه الظاهرة والباطنة عليهم، وضربت لهم الأمثال بالمكذبين للرسل، من الأُمم السابقة كقوم نوحٍ، وعادٍ، وثمود، والمؤتفكات، حين جاءتهم الرسل بالدعوة الصافية النقية، فردُّوا عليهم رسالتهم، وكذَّبوا بما جاءوهم به من عند الله، حتى انتقم الله لهم منهم فأهلكهم ودمَّرهم، وجعلهم عبرة لمن جاء بعدهم من الأُمم والأجيال ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، قَوْمِ نُوحٍ، وَعَادٍ، وَثَمُودَ، وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ، وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾.. الآيات.

- ثم تناولت السورة الكريمة موضوع الرسل مع أقوامهم، على مرِّ العصور، وكرِّ الدهور، وحَكَت ما جرى بينهم وبين الأُمم المعاندين، من محاورات ومناورات، وجدل وخصام، انتهت بنصرة الله عزّ وجل لرسله، وللمؤمنين من أتباعهم، وبإهلاك الله للظالمين ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا، أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ، ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وخَافَ وَعِيدِ. وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾.

- وتحدثت السورة عن مشهد من مشاهد الآخرة، يلتقي فيه المجرمون

الأشقياء بأتباعهم الضعفاء، ويدور بينهم حوار طويل، ينتهي بتكدس الجميع في نار جهنم، يصطلون بسعيرها، ويُحرقون بلظاها، فلم ينفع الأتباعَ ما يوجِّهونه إلى سادتهم الرؤساء، من الشتائم واللعنات، فالكل في دركات السعير ﴿ وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعاً، فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ، سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا، مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾.

- وتحدثت السورة عن تلك «الخطبة البتراء» التي سيخطبها إبليس اللعين في أتباعه يوم القيامة، بعد أن يتكدَّسوا جميعاً في أطباق جهنم، وتنهال عليه اللعناتُ من أتباعه الضالين، الذين أغواهم حتى أعرضوا عن هداية الله، فيقف فيهم خطيباً بتلك الخطبة الشهيرة، ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وحسرة فوق حسرتهم، وينطق لهم بالحقيقة ناصعة واضحة جليّة، ينحى فيها باللائمة عليهم ويقول ما حدَّث عنه القرآن: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأمرُ، إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ، وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ، إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ أي ما أنا بمنقذكم من عذاب الله، ولستم بمنقذين لي من العذاب ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

- وتتحدث السورة بعد ذلك عن «كفّار مكة» الذين أكرمهم الله بالنعمة العظمى «بعثةِ خاتم المرسلين» السراجِ المنير محمد بن عبد الله، فجحدوا النعمة وقابلوها بالكفران والطغيان، فبدَّل الله حـالهم، وأتعب بالهم، وجعلهم عبرة للمعتبرين ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ القَرَارُ ﴾.

- وتختم السورة الكريمة ببيان مصير الظالمين، والأهوال المفزعـة يوم القيامة، وما فيها من أحداث تنخلع لها القلوب، وتشخص لها الأبصار، والموقف الرهيب بين يديْ الجبار، ملك الملوك جلّ وعلا الذي يُدين

الخلائق، ويحاسب الناس، وكل ذلك لإثبات الجزاء والمعاد في يوم الحشر الأكبر ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ، لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ، وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ.. ﴾ الآيات.

تفصيل بعد الإجمال

هذه هي أهداف السورة ومقاصدها الأصلية، ولنعد بعد الإجمال إلى التفصيل والبيان. يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ الۤر. كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ، لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ شهادةٌ صادقة من رب الأرباب، لعبده ورسوله محمد ﷺ بأنه رسولٌ صادق، مرسل بكتاب منيرٍ، لإخراج الناس من ظلمات الجهل والضلال، إلى نور الهداية والإيمان، وقد أيَّده الله بهذا الكتاب المعجز، كبرهان واضح على صدقه عليه السلام، في دعوى النبوّة والرسالة، فالكتاب هادٍ، والرسول واسطة ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاَغُ المُبِينُ ﴾.

وإذا كان الله جلّت عظمته قد بعث إلى العرب خاصة وإلى الناس كافة هذا الرسول الكريم، بهذا الكتاب المعجز، الساطع في آياته، الواضح في برهانه، فلقد قضت حكمته، وشاءت رحمته، أن يبعث إلى كل أمةٍ من أُمم الأرض، رسولاً مرشداً هادياً، بلُغَتِها ولسانها، يبلغها دعوة الله، حتى لا تضيع البشرية في متاهات الحياة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ أي بلغة قومه ﴿ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾.

وكما بعث الله خاتم المرسلين بالهدى ودين الحق، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، كذلك بعث الله موسى الكليم، إلى بني إسرائيل، هادياً مرشداً، لينقذهم من ظلمات الضلالة، ويذكِّرهم بنِعم الله الجليلة، ليعبدوه ويشكروه، ويعرفوا عِظم النعمة عليهم، وخصَّ موسى بالذكر لكثرة معجزاته، ولكون أُمته أكثر الأُمم بعد أُمة محمد عليه

الصلاة والسلام، وليبيِّن تعالى أن غاية الرسل واحدة، مهما تباينت عصورهم، وتنوعت شرائعهم، ألا وهو الهداية إلى صراط الله، وإنقاذ الأمم والشعوب من ظلمات الشرك والضلالة ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

تذكير بني إسرائيل بنِعَم الله الجليلة

وتمضي السورة الكريمة تذكِّرنا بنعمة الله على بني إسرائيل، فلقد بقوا في الذل والهوان، مستعبدين مستضعفين، يسومهم فرعون وزبانيتُه سوء العذاب، فيذبِّحون الأبناء، ويستحيون النساء، فيستعملونهنّ في أخسِّ الأعمال، خادمات وجاريات، في بيوت الأقباط، وقد أراد الله أن ينقذهم من بطش فرعون وظلمه، وجبروته وقهره، فبعث لهم نبياً كريماً هو موسى عليه السلام، وكان ذلك بداية الفرج ورفع الظلم عنهم، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ، إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، يَسُومُونَكُمْ سُوْءَ العَـذَابِ، وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَـاءَكُمْ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَـظِيمٌ ﴾. ومعنى قولـه سبحانـه ﴿ يَسُومُـونَكُمْ سُوْءَ العَـذَابِ ﴾ أي يذيقونكم أسوأ أنواع العذاب، وقد ذكر تعالى بعض هذا العذاب فقال: ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ أي يذبِّحون الأبناء الذكور، ويتركون البنات على قيد الحياة، للخدمة والامتهان.

سبب ذبح الأبناء الذكور

قال المفسرون: وكان سبب قتل الذكور، أن فرعون أخزاه الله، رأى في منامه رؤيا، فزع لها، رأى أن ناراً من بيت المقدس قد خرجت،

حتى أتت على مصر، فأحرقت كل ما فيها من بيوت الأقباط، ودمَّرت القصور والدُور، فقصَّها على مَن حوله من الكهنة، فقالوا له في تعبير تلك الرؤيا: إنَّ مولوداً يولد في بني إسرائيل، يكون ذهاب ملكك على يديه، فأمر عند ذلك بقتل كل مولود ذكر، وأمر بترك الإناث، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ ومعنى الاستحياء تركهنّ على قيد الحياة، لم يتركهنّ الطاغية رحمةً بهنَّ، وإنما تركهنّ للخدمة والاستعباد، ليكنَّ جواري في البيوت والقصور، وفيه تعريضهنّ للبغاء والفساد، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أي في تلك المحنة ابتلاءٌ لكم من ربكم عظيم، إذ يتعرض الأبناء للإفناء، والبنات للفساد بهتك أعراضهنّ، حينما لا يبقى مَن يَحْميهنَّ من الرجال.

شكر النعمة يزيد في العطاء

ثم ذكَّرهم موسى ـ بعد هذا الفضل والإنعام، بتخليصهم من فرعون وزبانيته ـ بواجب الشكر لله تعالى، فإن النعمة والإحسان، يستوجبان الشكر والامتنان، وبالشكر تدوم النِّعَم، وبكفرانها تزول، ومَن جحد النعمة استحق الحرمان، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ. وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً، فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾.

وقولُه سبحانه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ هو من تتمة كلام موسى حكاه عنه القرآن، والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل، حين أعلم ربكم، إعلاماً واضحاً بيِّناً، لا شبهة فيه، قائلاً: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أي لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي ﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾

أي ولئن جحدتم نعمتي بالكفر والعصيان، فإن عذابي شديد لمن جحد وكفر، وفي الآية وعدٌ ووعيد، وترغيب وترهيب. وحقيقة الشكر الإقرارُ والاعترافُ للمُنْعِم بالفضل، والثناءُ عليه، ثم وضعُ النعمة في موضعها، واستعمالُها فيما خلقت له، فنعمةُ العلم بتعليم الجاهل، وتذكير الغافل، ونعمةُ المال بصرفه في وجوه البرّ والإحسان، ونعمة الصحة بمساعدة الضعفاء، وعَوْن العجزة.

منفعة الشكر تعود على الإنسان

وقد بيَّن لهم موسى أن منافع الشكر، ومضار الكفر، إنما تعود على الإنسان نفسه، فاللهُ سبحانه لا تنفعه طاعة، ولا تضرُّه معصية، لأنه هو الغني الحميد، فلو كفر أهل الأرض جميعاً، لم يُنقصوا من جلال الله وسلطانه مثقال ذرّة، ولو أطاعوه جميعاً لم يزيدوا في مُلكه وسلطانه مثقال ذرّة، إنما النفع والضرر يلحق الإنسان العاجز الضعيف ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعَاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وفي قول موسى: ﴿ فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وصفان جليلان للرحمن:

الأول: أنه ﴿ غنيٌّ ﴾ وهذا يتضمن تحقيرهم، وعظمته جلَّ وعلا، فإنَّ مَن كان غنياً عن العباد لا يتأثر بالكفر.

الثاني: أنه ﴿ حَمِيد ﴾ ومعناه المستحق للحمد في ذاته، فهو المحمود على كل حال، وإن كفر به مَن كفر.

وهذان الوصفان يتضمنان عظمة المعبود، وذلّة العابد، وفي ضمنها توبيخ وتسفيه لمن كفر بالله، وعصى أمره، وكأنه يقول: إنَّ كفركم بإلَهٍ جليل، مستوجبٍ للمحامد كلها، مستغنٍ عن الخلق جميعهم، هو غاية السَّفه والخذلان!!

الوعيد للطغاة المكذبين

ثم يأتي دور الوعيد والإنذار، فيذكِّرهم موسى بماجرى للأُمم السابقة، ممّن كفر بالله وكذَّب رسله، ماذا أصابهم من العذاب والدمار، وكيف انتقم الله منهم، لأنهم استهزءوا بدعوة المرسلين، وكفروا بربِّ العالمين؟ فيقول موسى ناصحاً ومذكِّراً: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ؟ قَوْمِ نُوحٍ ، وَعَادٍ، وَثَمُودَ، وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ، فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ، وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾.

ذكر تعالى من الأُمم المهلكين ثلاثة أقوام وهم: (قوم نوح، وعاد، وثمود) وقد أهلك الله قوم نوح بالغرق، وعاداً بالريح الصرصر العاتية، وثمود بالصيحة المدمِّرة، وقد تقدم حديث هلاكهم على وجه التفصيل في سورة الأعراف، وذكر تعالى هلاكهم مجملاً في سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا، وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾. وأمَّا معنى قوله تعالى: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي وضعوا أيديهم على أفواههم مبالغة في السخرية والتكذيب، وتوضيح هذا أنهم لمَّا سمعوا كلام الأنبياء، عجبوا منه وضحكوا، على سبيل السخرية، فعند ذلك ردُّوا أيديهم فوضعوها على أفواههم، كما يفعل ذلك مَن غَلَبه الضحكُ، فوضعَ يده على فمه.

الحوار بين الرسل والأقوام

وتتحدث الآيات عن المحاورة التي جرت بين الرسل وأقوامهم

المكذبين، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ؟ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ، وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى؟ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا، تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ تقول لهم الرسل: يا عجباً أفي وجود الله ووحدانيته شكٌّ؟ الأمرُ أوضح وأجلى من الشمس في رابعة النهار، وهو لا يحتمل الشك لظهور الأدلة عليه، ولهذا لفتوا الأنظار إلى براهين وجوده بقولهم: ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي منشؤهما ومبدعهما على غير مثالٍ سابق، وكأنهم يقولون لهم: إن العقل السليم يقضي بوجود الإآله الحكيم، فالصنعة تدل على الصانع، فمَن الذي أوجد هذه السموات والأرض، وأبدع خلقها؟ ثم وصفوه تعالى بكمال الرحمة، والكرم، والجود فقالوا: ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ، وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أي يدعوكم إلى الإيمان ليطهركم من الذنوب ويدخلكم الجنان، ويمتعكم بالحياة السعيدة إلى منتهى آجالكم.

ومع هذه البراهين الساطعة على وجود الله ووحدانيته، ورحمته ولطفه، يقابلهم المجرمون هذه المقابلة الوقحة بالجحود والتكذيب ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بشرٌ مثلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾.

يقولون في ردِّهم على الرسل: ما أنتم إلا بشر مثلنا، لا فضل لكم علينا، تريدون بدعوتكم هذه أن تصرفونا عن عبادة الأوثان التي كان عليها آباؤنا، فائتونا بحجة واضحة بيِّنةٍ على صدق دعواكم؟ فيما تزعمونه من أن الله أرسلكم إلينا؟

وتمضي الآيات البيِّنات وهي تطالعنا بما تمَّ من الحوار بين الرسل والأتباع، وبما ردَّ به الرسل الكرام على أقوامهم، بعد أن جابهوهم

بالتكذيب، وقابلوهم بالصدِّ والإعراض، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ. وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾.

الشبهات التي أثارها المشركون والردُّ عليها

أقام المشركون في وجه دعوة الأنبياء حواجز، وأثاروا عِللاً عليلة، ظناً منهم أنها حجج قوية، يستطيعون بها دفع رسالة المرسلين، فذكروا أربع شبهات:

الأولى: الشكُّ والارتيابُ في وجود ربِّ الأرباب جلَّ وعلا، وإليه الإشارةُ بقولهم: ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾.

الثانية: زعمهم أن الرسل ينبغي ألّا يكونوا من البشر، وإليه الإشارة بقولهم: ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾.

الثالثة: تمسكهم بطريقة التقليد للآباء، وأنه هو الطريق الصحيح، وإليه الإشارة بقولهم: ﴿ تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾.

الرابعة: إنكارهم لمعجزات الأنبياء، وطلبهم لمعجزات يقترحونها، وإليه الإشارة بقولهم: ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾.

الرد على الشبهة الأولى

أما الشبهة الأولى فقد ردَّ عليهم الرسل فيها بالحجة الدامغة، التي تقصم ظهر الباطل، وهي أن دلائل وجود الله ووحدانيته، أظهرُ وأشهر من أن تحتاج إلى إقامة دليلٍ وبرهان، فكلُّ ذرّة في الكون ناطقة بوجوده، وكل

حركةٍ وسَكَنةٍ شاهدةٌ بوحدانيته، وما أحسن قول القائل:

فَيَا عَجَبَاً كَيْفَ يُعْصَىٰ الإِلَٰهُ ... أَمْ كيفَ يَجْحدُهُ الجَاحِدُ
وَللهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ ... وَتَسْكِينَةٍ أَبَدَاً شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

إذا كانت الشمس طالعة ساطعة، فهل يَحتاج المرءُ إلى دليلٍ على وجود النهار؟ ولهذا جاء جواب الرسل على تلك الشبهة السقيمة قاطعاً واضحاً ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾؟ أي أفي أُلوهيته ووحدانيته شك؟ وهو تعالى المبدعُ والخالق لكل ما في الأكوان، من سماءٍ وأرض، وجبال وبحارٍ، وأشجار وأنهار، وأفلاك وأقمار، وإنسان وحيوان، ونبات وجماد؟ كلُّ هذه الآثار، ألا تدلُّ على وجود الواحد القهّار؟ سُئل بدوي عن دليلٍ على وجود الله، فقال بفطرته السليمة: يا سبحانَ الله أو يحتاج ربنا إلى دليلٍ وبرهان على وجوده!! ثم أنشأ يقول:

البعرةُ تدلُّ على البعير، وآثار الأقدام تدل على المسير، أفسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذات أمواج، ألا تدل على اللطيف الخبير؟ إنه منطق الفطرة أنطقه الله عزّ وجل به، ولهذا نجد الرسل هنا يلفتون الانتباه إلى أن الأمر بدهي، لا يحتاج إلى أكثر من النظر في ملكوت السموات والأرض، ليستدل الإنسان من الصنعة على الصانع، ومن المخلوق على الخالق ﴿ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾؟ أي خالق هذا الكون ومبدعُه ومخترعُه على غير مثالٍ سابقٍ.

الردّ على الشُّبهة الثانية

أما الشبهة الثانية فقد ردُّوا عليهم بالإيجاب ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي صدقتم في قولكم إننا بشر، فنحن لسنا ملائكة، نحن بشر مثلكم في الخلق والتصوير، ولكنَّ الله ميَّزنا عنكم بالوحي والنبوّة، وخصَّنا بهذا الشرف، فجعلنا رسلاً إلى الناس، والحكمةُ تقتضي أن نكون مثلكم بشراً، فإن الله يبعث الجنس إلى الجنس، ولو كنتم ملائكة لبعث الله إليكم رُسُلاً من الملائكة كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ، لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً ﴾[1].

الردّ على الشُّبهة الثالثة

أمَّا الشبهة الثالثة وهي شبهة التقليد للآباء، فإن العقل يرفضها، والمنطق السليم يأباها، ولذلك نجد الرسل الكرام لا يردُّون هنا عليها، لأنه إذا ثبت بالدليل القاطع صدقَ الأنبياء، فلا حاجة إلى بيان سَفَهِ تقليد الآباء، والتقليد الأعمى لا يليق بالعقلاء.

وقد حكى القرآن الكريم في موطن آخر الرد على هذه الشبهة فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ، قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أي ما وجدنا عليه آباءنا ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾[2] أي أيتبعونهم ولو كانوا أغبياء مجانين، لا يهتدون إلى طريق الخير والسعادة؟! وكفى بهذا تسفيهاً وتجهيلاً لمن احتج بتقليد الآباء بغير بصيرة!!

أما الشبهة الرابعة فقد ردَّ عليهم فيها الرسل بقولهم: ﴿ وَمَا كَانَ

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ٩٥.

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٧٠.

لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي لا ينبغي لنا أن نأتيكم بمعجزة مما اقترحتموه من عند أنفسنا، إلا بمشيئة الله وإذنه، وما جئناكم به من المعجزات كافية في إثبات صدقنا، وما زاد على ذلك فمرجعه إلى الله، إن خلقها وأظهرها فله الفضل، وإن لم يُظهرها فله العدل ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي فَدَعوا الجدل وتوكلوا على رب الأرباب.

تهديد المشركين للرسل

ولما أجاب الرسل على شبهاتهم، ولم يتركوا لهم حجةً يتمسكون بها، وشعر أولئك الجاحدون المعاندون بالهزيمة والغلبة، أخذوا في السفاهة والتخويف والوعيد ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا، فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ. وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ، وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ. يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ، وَيَأْتِيهِ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ، وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ هكذا يُقابل المجرمون رُسُلهم، في تبجح وسفهٍ، مهدِّدين متوعِّدين ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ وهذا شأن الطغيان في كل زمان ومكان، إذا شعر الخصم بالغَلَبَة، وأفحمته الحجة، سارع إلى البطش والتنكيل، والوعيد والتهديد، ليستر بذلك هزيمته، ويُشعِر النَّاسَ بأن الحق بجانبه.

ولمَّا تجرءوا على الرسل بهذه السفاهة، معتزِّين بكثرتهم وقوتهم، لم يجد الرسل إلا اللجوء إلى الله وحمى الرحمن ليدفع عنهم شرَّ هؤلاء الفَجَرَة المجرمين.

نصرةُ الله لأنبيائه ورسله

ويطوي السياق ما دار بعد ذلك من الحديث، ويوقفنا أمام هذا

المشهد المهول، في نصرة الله لأنبيائه ورسله المكرمين ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسْكِنَنَّكُم الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أي ذلك النصر للرسل، وذلك الإهلاك للظالمين، لمن خاف عظمتي، وخاف عذابي ووعيدي، فأية قوة في الأرض تستطيع أن تنال من رُسُل الله، إذا كان الله معهم ونصيراً لهم؟ ثم قال تعالى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ والمعنى: استنصر الرسل بالله على قومهم، وطلبوا نصره وعونه، وخاب وخسر وهلك كل طاغيةٍ متجبّر، معاند للحق، ومعنى الاستفتاح: طلب النصر، وأن يفتح الله لهم على أعدائهم، والسين والتاء للطلب أي طلبوا النصر فجاءهم النصر، أما أعداء الرسل فقد أُبيدوا وأُهلكوا بعذاب عاجل، أما العذاب الآجل الذي ينتظرهم فذاك أدهى وأمرُّ، ولهذا قال تعالى: ﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ، وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾، أي أمام ذلك الكافر جهنم تنتظره، وسوف يُسقى في النار شراباً من ماء صديد، قال مجاهد: هو القيح والدم، وهو عُصارة أهل النار ﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أي يبتلعه ويشربه قهراً، ولا يكاد يستسيغه لسوء طعمه وقبحه وكراهته ﴿ وَيَأْتِيهِ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ أي لو كان هناك موتٌ لمات، ولكنْ هيهات، فقد حكم الله عليه بالخلود في دار الجحيم ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ وفي الحديث الشريف: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا، لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمَن يكون طعامه»[1]؟ أي كيف بمَن كان الزقوم طعامه، لا طعام له سواه!؟

اللَّهمَّ أجِرْنا من عذاب النار، يا عزيزُ يا غفَّار، يا أرحم الراحمين.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي والنسائي في سننهما وقال الترمذي: حسن صحيح وانظر جامع الأُصول ١٠/٥١٦.

ضياع أعمال الكفّار

وتمضي الآيات وهي تضرب الأمثال، لأولئك الكَفَرَة الفجّار، الذين جحدوا وحدانية الله، وكذَّبوا رسله، وتوعَّدوهم بالفتك والبطش، والإخراج من الأوطان، فتذكر أن أعمالهم قد ذهبت وضاعت، وبطلت وتلاشت، فلا ينتفعون بشيء منها أصلاً، وتضرب لهم المثل بالريح الشديدة العاصفة، تأتي على الرماد، فتطيِّره وتفرِّق أجزاءه، بحيث لا يبقى لذلك التراب أو الرماد أثرٌ ولا خبر، كذلك أعمال الكفار تذهب يوم القيامة هباءً منثوراً وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾. والمراد بأعمال الكفّار، هي المكارم والمآثر التي فعلوها، يطلبون بها الأجر، من صلة الأرحام، وإغاثة الملهوفين، وعون المظلومين، وعتق الرقاب، وإطعام الفقراء والمساكين، وأمثالها من أعمال البرّ والإحسان، فقد شبهها تعالى في ضياعها وحبوطها، برمادٍ - يعني تراب - طيَّرته الريح في يوم اشتدت فيه العواصف، فلم تُبقِ له أثراً، ذلك لبنائها على غير أساسٍ من الإيمان، والإخلاص، والتوحيد، ولهذا قال: ﴿ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ أي لا يستطيعون تحصيل ثواب ما عملوا، لإحباطه بالكفر، كما لا يستطيع أن يحصل الإنسان على شيء من الرماد الذي طيرته الريح، وهناك تعظم حسرتهم وندامتهم، لأن أعمالهم قد مُحِقتْ، ولهذا قال: ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ أي الخسران الكبير الذي لا خسران يوازيه، لأنه ضاع بالكلية.

خسرانهم يوم الحشر الأكبر

ثم تنتقل الآيات لتبيِّن شقاءهم وخسرانهم، يوم الحشر الأكبر، يوم يُعرضون على ربهم جميعاً، الزعماءُ والرؤساء، والأتباعُ والضعفاء، والأسيادُ والعبيد، الكلٌّ حاضرون أمام ملك الملوك، جبار السموات والأرضين، لا تخفى عليه منهم خافية، ويجري الحساب، وتوضع الموازين، وينجلي الموقف عن شقاء المجرمين ، وتكدسهم في جهنم جميعاً، القادةُ والأتباع، والرؤساء والبُـلَهاءُ ، يدخلون جهنم ذليلين مهينين، خاشعين خاضعين، وقد كانوا في الدنيا متعالين متكبرين، وإذا بهم اليوم في خزي الـدار، ولعنة الجبـار، وموقف المهـانة، وذل الفضيحة، وهناك تظهر خسارتهم الكبرى، ويعضُّون أصابع الندم، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَبَرَزُوا لِلهِ جَمِيعَاً، فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا، مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾.

معنى الآية الكريمة

ومعنى قوله سبحانه: ﴿ وَبَـرَزُوا لِلهِ جَمِيعَاً ﴾ أي خـرجوا من قبورهم لموقف الحشر، وظهروا للحساب والجزاء، لا يسترهم عن الله ساتر، مهما كثروا واختلط بعضهم ببعض. . وإنما جيء بلفظ الماضي ﴿ وَبَرَزُوا ﴾ مع أنَّ هذا إنما يكون في الآخرة، تحقيقاً للوقوع، فإن كل

ما أخبر الله تعالى عنه فهو حقٌّ وصدقٌ، فصار كأنه قد حصل، ودخل في الوجود، لأنه أمرٌ مقطوعٌ به، ونظيره قوله تعالى: ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ﴾ فهو حكاية عمَّا سيقع في الآخرة ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلذينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ المراد بالضعفاء: الأتباعُ والعوام، وَ﴿ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ هم السادة والكبراء.

قال ابن عباس: المراد أكابرهم الذين استكبروا عن عبادة الله تعالى فضلُّوا وأضلّوا أي قال الأتباع والعوام، للسادة الكبراء، والقادة الأشقياء، الذين أضلّوهم في الدنيا ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ﴾ أي كنّا أتباعاً لكم، نأتمر بأمركم، وننتهي بنهيكم، وكنّا لا نخالفكم في شيء، بل نطيعكم في كل ما تريدون ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾؟ أي هل يمكنكم دفع عذاب الله عنّا؟ فقد كنتم في الدنيا سادتنا وقادتنا، وكنّا لكم أذناباً وأتباعاً، فخلِّصونا ممّا نحن فيه من الشقاء والعذاب ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ أي قال القادة معتذرين: لو أراد الله بنا الخير، وهدانا للإيمان، لهديناكم إليه، ولكن شقينا وضللنا فأضللناكم، فلا ينفعنا اليوم العتابُ ولا الجزع، وهذا اعتراف منهم بالعجز والندم، ثم قالوا: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ﴾ أي يستوي علينا الجزع والصبر ﴿ مَا لَنَا من محيص ﴾ أي ليس لنا مهرب ولا ملجأ من عذاب الله، أرادوا إقناطهم من دفع العذاب بالكلية، وأن عتابهم وتوبيخهم لهم لا فائدة فيه.

رُوي عن عبد الرحمن بن أسلم أن أهل النار يقولون: إنما نالَ أهلُ الجنةِ الرحمةَ بالصبر على طاعة الله تعالى، فتعالوا نصبر، فصبروا خمسمائة سنة فلم ينفعهم، فقالوا تعالوا نبكِ ونتضرع إلى الله تعالى، كما كان المؤمنون يتضرعون إليه في الدنيا لعلَّ الله يرحمنا!! قال:

فضجُّوا في البكاء والعويل خمسمائةِ سنة أُخرى، فلم ينتفعوا فقالوا عند ذلك: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾[1].

قال الحافظ ابن كثير: والظاهر أن هذه المناظرة والمراجعة، إنما تكون في النار بعد دخولهم إيّاها، وليست في موقف العرض، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ، فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ؟ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا، إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العِبَادِ ﴾[2] ويا له من موقفٍ مُخْزٍ لأعداء الله!!

خطبة إبليس في النار

ثم تمضي الآيات لتطالعنا بمشهد آخر، من مشاهد الخزي للكَفَرَة الفجّار، وهو مشهد رهيب، يقف فيه «إبليس» في جهنم خطيباً، يخطب بأشياعه وأتباعه، من الكَفَرَة المجرمين، والعصاة المذنبين، بعد أن تنهال عليه اللعنات من كل جانب، فيقف فيهم مرتجلاً لتلك الخطبة البتراء، التي يقول فيها الحقيقة على مسمع أهل النار، ليزيدهم حسرة إلى حسرتهم، وحزناً فوق حزنهم، وهي خطبة شهيرة ذكرها لنا القرآن: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ، إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ، وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/٢٩٥.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٩٥.

هذه هي خطبة إبليس في أتباعه في أطباق جهنم، يقول فيها الحقيقة لأول مرة، دون خداعٍ أو كذب، يُعْلِمهم فيها أنه كان في الدنيا مُخادِعاً وكاذباً معهم، وقد اتفق المفسرون على أن هذه خطبة إبليس في أشياعه وأتباعه ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ ﴾ أي لما فُرغ من الحساب ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار ﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ ﴾ أي وعدكم وعداً صادقاً أن في اتباع رسله النجاةَ والسلامة ﴿ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ أي ووعدتكم أن لا بعث ولا نشور، ولا حساب ولا عقاب، فكذبتكم وخدعتكم ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ أي ما كان لي عليكم قدرة وتسلط وقهر، فأقهركم على الكفر والمعاصي، إلا دعائي لكم إلى الضلالة بالوسوسة والإغواء، فأطعتموني وعصيتم ربكم ﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي لا ترجعوا بالملامة عليَّ اليوم، بل لوموا أنفسكم، فإن الذنب ذنبكم، ثم قال لهم: ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ أي لست بمنقذكم ومُخَلِّصكم من عذاب الله، كما لا تقدرون على إنقاذي من عذابه ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمون مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمين لَهُم عَذَابٌ أَلِيم ﴾ أي أنا أتبرأ منكم في عبادتكم لي من دون الله، فإن المشركين لهم عذاب شديد ومؤلم.

وبمقابلة هؤلاء الأشقياء يأتي الحديث عن المؤمنين الأتقياء وما نالوه من السعادة في دار الخلد والنعيم، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾.

أي تجري من تحت غرفها وقصورها أنهار الجنة؛ أنهارُ اللَّبن، والعسل، والماء السلسبيل، وأنهار الخمر التي هي لذةٌ للشاربين، كما

ذكر تعالى في سورة محمد بقوله سبحانه: ﴿ فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ، وأنهارٌ من لَبَنٍ لم يتغيَّرْ طَعْمُهُ، وأنهارٌ من خَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّارِبينَ، وأنهارٌ من عَسَلٍ مصَفًّى.. ﴾ الآية.

مثل كلمة الإيمان وكلمة الكفر

وبعد ذلك البيان المستفيض، عن حال الأشقياء والسعداء، الذين تحدثت عنهم الآيات الكريمة، ضرب الله مثلاً لكلمة الإيمان، وكلمة الكفر، بالشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة، فالمؤمن مثله كمثل الشجرة الطيبة، التي طابت تربتها، وطاب شكلها ورائحتها، فطاب ثمرها وفاكهتها، ورسخت أُصولها في الأرض، وامتدت أغصانها في الهواء، وأعطت الثمار زاهيةً، ناضجة، وافية، والكافر مثله كمثل شجرة الحنظل الخبيثة، التي استؤصلت من جذورها، واقتلعت من الأرض لعدم ثبات أصلها، فلا خير فيها، ولا نموَّ لها ولا بركة، بل سرعان ما تَزْوى وتضمحل، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً، كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا، وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ذلك مثل المؤمن، الذي آمن فاهتدى، وعمل الصالحات، فأثمرت شجرة الإيمان كل خيرٍ وسعادة له، ولأُسرته وأبنائه، ورَبَتْ ثمرات عمله الصالح، كرامةً في الدنيا، وفَلَاحاً في الآخرة. أما الكافر فمثله كمثل الشجرة الخبيثة، التي لا ثَبات لها ولا قرار، ولا فائدة منها ولا نفع، تربتها خبيثة وثمرها خبيث، كثر شوكها، وغارَ ماؤها، واقتلعت أُصولها من جذور الأرض، فلم تعد تنبت شيئاً، وفي ذلك يقول القرآن

الكريم: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ، اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَار. يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ، وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾. ذلك هو مَثَلُ الإيمان والكفر، والهدى والضلال، ومَثَلُ العمل الصالح الذي ينمو لصاحبه، والعمل الفاسد الذي يذهب أدراج الرياح.

قال ابن عباس: الكلمة الطيبة «لا إله إلاّ الله» والشجرة الطيبة قلبُ المؤمن، شبَّه تبارك وتعالى ما يكسبه المؤمن، من بركة الإيمان وثوابه، بالشجرة الطيبة التي رسخ أصلها، وطابت تربتها، وامتدت أغصانها، فأثمرت وأينعت بكل فاكهةٍ لذيذة، وبكل ثمرٍ نضيج، وآتت أُكُلها في كل وقتٍ وحين، فالمؤمن كلما قال: «لا إله إلا الله» صعدت إلى السماء، ثم جاء خيرها ومنفعتها، والكافر لا يُقبل عملُه، ولا يصعد إلى الله تعالى، لأنه ليس له أصلٌ في الأرض ثابت، ولا فرعٌ في السماء صاعد (١).

معنى التثبيت في الآخرة

وأما التثبيت الذي أشارت إليه الآية الكريمة ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَفِي الآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ، ويَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ فهو تثبيته عند سؤال المَلَكَيْن له في القبر، حين يُقال له: مَنْ ربُّك؟ وما دينك؟ ومَن نبيّك؟ كما ورد بذلك الحديث الصحيح، فقد روى البخاري عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمُ إذا سُئِل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٩٦.

محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾[1].

فتثبيته في الدنيا هو ثباته على كلمة التوحيد، وعلى الإيمان، فلا يزيغ في الدنيا ولا يُفتن، وتثبيته في الآخرة هو تلقينه الحجة، ونطقه بالشهادة عند السؤال في القبر، فيقول: ربي اللهُ، وديني الإسلامُ، ونبيِّـي محمد ﷺ، وقد كان صلوات الله وسلامه عليه إذا فرغ من دفن الرجل، وقف عليه وقال لأصحابه: «استغفـروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل»[2] وفي مسند الإمام أحمد، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازةِ رجلٍ من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولمَّا يُلحد، فجلس رسول الله وجلسنا حوله، كأنَّ على رءوسنا الطيرَ، وفي يده ﷺ عودٌ ينكت به الأرض، فرفع رأسه ثم قال: «استعيذُوا بالله من عذاب القبر، وكرَّرها مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل به ملائكة من السماء، بيضُ الوجوه، معهم كفنٌ من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء مَلَكُ الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرةٍ من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِيْ السقاء ـ أي فم السقاء ـ فيأخذها ثم تأخذها الملائكة منه، فيجعلونها في ذلك الكفن، وذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك، فيصعدون بها، فلا يمرّون بها على ملأٍ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟

(1) رواه البخاري ومسلم انظر جامع الأُصول ٢/٢٠٣.
(2) أخرجه أبو داود في السنن، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٩٩.

وذَكَر في الحديث أن روحه بعد أن تنتهي إلى السماء السابعة، يقول الله لملائكته: «اكتبوا كتاب عبدي في علِّيين، وأعيدوه إلى الأرض، فتُعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيُجلِسانه، فيقولان له: مَن ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فينادي مُنادٍ من السماء أن صَدَق، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من طيبها وروحها، ويفسح له في قبره مدَّ البصر..»[1] الحديث فهذا هو التثبيت في الآخرة.

تبديل أهل مكة نعمة الله

وبعد هذا البيان عن مآل أهل الشقاوة وأهل الإيمان، يأتي الحديث عن كفار أهل مكة، الذين أكرمهم الله ببعثة هذا النبي الكريم، فكفروا النعمة، وكذبوا بآيات الله، فأبدلهم الله بالأمن خوفاً، وبالعزّ ذلًّا، وبالغنى فقراً، وضربهم بالقحط سبع سنين، وفيهم يقول ربُّ العزّة جلّ وعلا: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوْا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرَاً، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ القَرَارُ. وَجَعَلُوا للهِ أَنْدَادَاً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ، قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هم كفّار مكة، بدَّلوا نعمة الله كفراً، وأحلّوا قومهم دار البوار»[2] فقد أسكنهم الله حَرَمَه الآمن، وجعل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٩٧.

(٢) الحديث أخرجه البخاري عن ابن عباس من رواية عطاء عنه، وانظر تفسير ابن كثير ٢/٢٩٩.

عيشهم في سعة، وبعث فيهم محمداً ﷺ، فلم يعرفوا قَدْرَ هذه النعمة، وكفروا به وكذبوه، فابتلاهم الله بالقحط والجدب، حتى أكلوا الجلود والوبر، ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ ﴾ أي أنزلوا قومهم دار الهلاك والدمار، وهي جهنم يذوقون حرَّها وسعيرها، وبئست جهنم مستقراً لهؤلاء الفَجَرَة الكفّار.

دعوة المؤمنين إلى فعل الخيرات

ثم تنتقل الآياتُ بعد الحديث عن الكافرين، الذين كذّبوا رسالة سيد المرسلين، إلى الحديث عن المؤمنين، فتأمرهم بإقامة الصلاة، والإنفاق في سبيل الله، لينقذوا أنفسهم من عذاب الآخرة، ويتخلصوا من هَوْل ذلك اليوم العصيب، الذي لا ينفع فيه مالٌ ولا قريب، فإن أمام الإنسان أهوالاً وكُرَباً، لا ينجو منها إلَّا بالعمل الصالح، الذي يبتغي به الإنسان وجه الله، وفي ذلك يقول جلّ ثناؤه: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرَّاً وَعَلاَنِيَةً، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلاَلٌ ﴾ لقد أمر الباري جلّ وعلا عباده المؤمنين، بالقيام بطاعته، والإحسان إلى عباده، وفعل الخيرات والصالحات، وحذَّرهم من التهاون والإهمال، والتفريط في جنب الله، فهنا عملٌ ولا حساب، وهناك حساب ولا عمل، فالعاقل مَن تزوّد من دنياه لآخرته، والشقيّ مَن رحل من الدنيا بلا زاد، والمراد بإقامة الصلاة: المحافظةُ عليها وأداؤها في أوقاتها، بحدودها، وركوعها، وخشوعها، وسجودها، وسائر الفرائض والأركان، لا مجرد أداء الصلاة التي هي جسد بلا روح، وصورة بلا حقيقة، فإن تلك صلاة الغافلين، الذين لا يعرفون قدر هذه الصلاة، وقد قال الله سبحانه في الصلاة التي تقرِّب المؤمن من الله: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ، إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ، وَلَذِكْرُ اللهِ

أَكْبَرُ ﴾. وقولُه سبحانه: ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ أي من قبل أن يأتي يوم القيامة، العصيب الشديد، الذي لا ينفع الإنسانَ فيه شيء من أُمور الدنيا، إذ لا مبايعة فيه ولا صداقة، ولا فداء ولا شفاعة، كما قال سبحانه: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال أبو عُبَيدة: البيعُ هنا يُراد به الفداءُ، والخِلالُ هي الصحبةُ والصداقةُ والمعنى: لا ينفع الإنسان صداقة أحد، ولا يستطيع أن يفدي نفسه من عذاب الله، حتى ولو كان له ملء الأرض ذهباً.

وحمل بعض المفسرين الآية على ظاهرها فقالوا: إن يوم القيامة لا يكون فيه بيع ولا شراء، ولا صداقة ولا قرابة، فكأنه تعالى يقول: أنفقوا أموالكم في الدنيا، حتى تجدوا ثواب هذا الإنفاقِ في مثل هذا اليوم، الذي لا تحصل فيه مبايعة، ولا فداء، ولا صداقة، وهذا المعنى مروي عن مقاتل، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ، وَلَا خُلَّةٌ، وَلَا شَفَاعَةٌ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[1].

نِعَمُ اللهِ على عباده لا تُحصى

ثم انتقلت الآيات لإقامة الأدلة والبراهين، على وجود رب العالمين، ولتذكِّر العباد بما أغدق الله عليهم من النِعَم، ليحمدوه ويشكروه، ويُقرّوا له بالفضل والإنعام، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٤.

اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾.

ذكر تعالى في هذه الآيات البيِّنات سبعة أنواع من الدلائل على قدرته ووحدانيته:

الأول: خلقُ السمواتِ والأرضِ، وما أبدع فيهما من أنواع الخلق والتصوير، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـواتِ وَالأَرْضَ ﴾ أي أبدعهما واخترعهما على غير مثالٍ سابق، وذلك دليل وجود الخالق، وكمال علمه وقدرته.

الثاني: إنزالُ المطرِ من السماء، وإخراجُ الزروع به والثمار، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءَ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ ﴾.

الثالث: تسييرُ السفنِ العظيمة في البحار، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ والفُلْكُ: هي السفنُ الضخمة، الموقرةُ بالرجال والأثقال، تسير على سطح الماء بقدرة الكبير المتعال.

الرابع: جريانُ الأنهار في كثير من البلدان، تشقّ الأرض من قطر إلى قطر، ليشرب منها الناس ويسقوا ويزرعوا، وبخاصة في البلاد التي تقلُّ فيها الأمطار[1]، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴾.

الخامس: تذليلُ الشمس والقمر، يجريان بدقة وانتظام لمعايش الناس ومصالحهم، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

(١) مثل بلاد مصر فإن الأمطار فيها قليلة وهي تعتمد في الزراعة والسقي والشرب على نهر النيل، وهو رحمة من الله على أهل البلاد، فسبحان الكريم المنَّان.

دَائِبَيْنِ ﴾ ومعنى «دَائِبَيْنِ» أي باستمرار دون انقطاع أو فتور، فالشمس تُنير بالنهار، ولولاها لما حصلت الفصول الأربعة، ولَمَا نَمَا الـزرع وخرجت الثمار، بل ما عاش إنسان أو حيوان، والقمر ينير بالليل، وتُعرف به الشهورُ والأعوام، ولولاه لغرقت الأرضُ بماءِ البحار، فهو سبب للمدِّ والجزر، فسبحان الإلّه القدير، الواحد القهّار!!

السادس: تعاقبُ الليلِ والنهار، هذا يأتي وذاك يمضي، الليلُ للسكن والراحة، والنهارُ للحركة والمعاش، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾.

السابع: تأمينُ كل ما يحتاج إليه الإنسان، من الماءِ، والهواءِ، والغذاء، والكساء، والمسكن، والمركب، وسائـر الحاجـات، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أي هيَّأ لكم كل ما تحتاجون إليه في حياتكم، مما يُصلح أحوالكم ومعاشكم، مما سألتموه بلسان الحالِ أو المقال. ثم بيَّن تعالى أن نِعَمَ الله على عباده غير متناهية، ومع كل هـذه النِعَم التي لا تكاد تُحصى، فإن الإنسان جاحدٌ لفضل الله، منكرٌ لنعمائه وأياديه، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ أي إنه مبالغ في الكفر والجحود، ظالمٌ لنفسه بتعدِّيه حدودَ الله، والنعمةُ المذكورة في الآية الكريمة، يُراد بها النعَم، فهي اسم جنس، وليست للمفرد، والمعنى: وإن تعدّوا نِعَم الله لا تحصوها. ولنُمعِنِ النظر في التعبيـر القرآني المجيد، فإنه ورد بصيغة «فعولٌ» و«فعَّال» وكلاهما من صيغ المبالغة، فلم يرد النص بلفظ «إن الإنسان لظالم كافر» وإنما ورد بلفظ ﴿ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ للتنبيه على شدة ظلمه، وكفرانه لنعمة الله، وهذا من أسرار القرآن البديعة.

التفكر في نعمة الطعام

وليتأمل العاقل في قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ليرى فيض نِعَم الله على عباده، بحيث لا يُحصيها عدٌّ، ولا يضبطها حدٌّ، ولنضرب على ذلك مثلاً واحداً، فإنك إذا أخذت اللقمة الواحدة، لتضعها في فمك، فانظر كم سبقها من نِعَم؟ وكم وراءها من فضلٍ وإنعام؟ أمَّا ما تقدّم هذه اللقمة، فانظر كم سخَّر الله لها من أيدٍ عاملة، وأشياء لا تصلح إلاَّ بها، من الفلاح الذي يزرع الحب، والماء الذي ينزل من السماء، والشمس التي تعطيها الحرارة والدفء لينمو الزرع، ثم الطحّان الذي يطحن الحب، والخبّاز الذي يخبز الطحين، والآلات التي تُستعمَل في الحصاد والطحن، ثم بعد أن ينضج هذا الرغيف، ويصبح بين يديك صالحاً للأكل، تفكَّرْ فيما خلق الله لك من الأسنان التي تقطع، والأضراس التي تمضغ، واللُّعاب الذي يساعد على تقليب اللقمة حتى تصبح صالحة للبلْع، ثم القوى التي أوجدها الله في بدنك، المُعينة على الجذب والإمساك، والهضم والدفع، والمعامل الكيمياوية التي هي داخل جهاز الهضم، حتى تقلب هذا الغذاء إلى دم نقي يندفع من المعدة إلى الشرايين، ومنها إلى القلب، ثم إل سائر البدن، ليبقيَ عليك نعمةَ الحياة، ولتدوم فيك الدورة الدموية التي هي سرُّ هذه النِعمة (نعمة الحياة) هذا كله يجري من أجل لقمةٍ واحدة، فكيف لو فكرت في جميع ما حباك الله به من سائر النِعَم؟ هناك تعرف معنى قوله جلّ وعلا: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾!!

كلمات من تفسير الظلال

يقول الإمام الشهيد السيد قطب رحمه الله تعالى، في كتابه «في

ظلال القرآن» عند تفسير هذه الآيات الكريمة: ﴿ اللهُ الَّـذِي خَلَقَ السَّمَوات والأَرْضَ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ.. ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ يقول ما نصه: «وهنا يُفتح كتابُ الكونِ على مصراعيه، فتنطق سطورُه الهائلةُ، بنِعَم الله التي لا تُحصى: السمواتُ والأرضُ، الشمسُ والقمر، الليلُ والنهارُ، البحار والأنهـار، الأمطارُ والثمار، هذه الصفحاتُ الكونية المعروضةُ على الأنظار، ولكنَّ البشر لا ينظرون ولا يعتبرون، ولا يقـرءون ولا يتدبـرون، ولا يحمدون ولا يشكرون، إن الإنسان لظلوم كفّار، يجعل للهِ أنداداً، وهـو الخالق الرازق، مسخِّرُ الكونِ لهذا الإنسان، والمشهد الهائل المعروض هنا لأيادي الله وآلائهِ، تسير فيه خطوطُ الريشةِ المبدعة.. أفكلٌّ هذا الكون الهائل، مسخَّرٌ لذلك المخلوق الصغير؟

السموات ينزل منها الماء، والأرض تتلقاه ثم تُخرج به الثمار، والبحر تجري فيه الفلك بأمر الله مسخّرة لحمل الأقوات والأرزاق، والأنهار تجري بالحياة دافقةً في مصلحة الإنسان، والشمسُ والقمر دائبان لا يفتران، والليل والنهار يتعاقبان، أفكلٌّ ذلك للإنسان، ثم لا يذكر ولا يشكر!؟

اللّهمّ اجعلنا ممّن ذكر وشكر، ولا تجعلنا ممّن جحد وكفر، يا رب العالمين.

* * *

دعوات إبراهيم المباركات للبلد الحرام

ثم تمضي الآيات البيِّنات، تطالعنا بمشاهد بديعة، وصور رائعة، من حياة خليل الرحمن، إبراهيم عليه السلام، وما جاء به من التوحيد الخالص، الذي هو سرُّ الدعوة وحقيقة الإيمان، فإبراهيم هـو أب الأنبياء، وهو الجدُّ الأكبر لرسول الله ﷺ، إذ كان نبيّنا من ولد إسماعيلَ، وإسماعيلُ هو ابن إبراهيم، فيكون إبراهيمُ هو الجدّ الأعلى لرسول الله عليه الصلاة والسلام، وقد استجاب الله دعوة إبراهيم أن يبعث في أُمة العرب، رسولاً عربياً، من نسله وذريته، فبعث الله خاتم المرسلين، محمداً صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، بالملّة الحنيفية السَمحَة، التي هي ملّة الخليل إبراهيم، وخصَّ إبراهيم بخصائص ومزايا فريدة، فجعله أباً للأنبياء، وإماماً للأتقياء، وقُدوةً لمن بعده من المرسلين، واختاره من بين الرسل بالخُلَّة والاصـطفاء، وبعث من نسله خـاتم الأنبياء، ولنستمع إلى هذه الدعوات المباركات، التي دعا به خليل الرحمن، بعد أن انتهى من بناء البيت العتيق، مركز التوحيد ومصدر الإيمان ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً، وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي

زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ. رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ، وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ. الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ، إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي، وَلِوَالِدَيَّ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ هذه هي الدعوات المباركات، التي دعا به الخليل إبراهيم عليه السلام، في ذلك المكان الطاهر، فاستجاب الله دعاءه، لأنها دعوات خرجت من قلب خاشع مُنيب، فتفتحت لها أبواب السماء، وأكرم الله بها أبا الأنبياء، إبراهيم عليه أفضل الصلاة والتسليم. دعا إبراهيم ربَّه في هذه الآيات البيِّنات، بسبع دعوات، وكلُّها دعواتٌ مباركات:

الدعوة الأولى «نعمة الأمن والأَمَان»

الأولى: طلب من الله نعمة الأمن والأمان لأهل البلد الحرام ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾ والمراد بالبلد هنا «مكة المكرّمة» حرسها الله، بدليل قوله بعده: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ والبيتُ العتيق في مكة، وطلبُ إبراهيم لنعمة الأمن في هذا الدعاء، يشير إلى أنه أعظم أنواع الخيرات بعد نعمة الإيمان، يدل عليه قوله سبحانه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ، وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ فلا يمكن أن يتأتى مع الخوف سعادة وهناء، وقد سئل بعض العلماء: الأمنُ أفضلُ أم الصحة؟ فقال: الأمنُ أفضلُ، والدليلُ عليه أن شاةً لو انكسرت رجلُها فإنها تصحُّ بعدة مدة، ثم إنها تُقبلُ على الرعي والأكلِ، ولو أنها رُبطَتْ في موضع، ورُبِطَ بالقرب منها ذئبٌ، فإنها تمسك عن العلف، ولا

تتناوله حتى تموت من شدة الخوف، فدلَّ ذلك على أن الخوف والفزع، أشد من الألم الحاصل للجسد.

الدعوةُ الثانية «نعمة الإيمان»

الثانية: من دعوات الخليل إبراهيم، طلبه أن يرزقه الله التوحيد، ويصونه عن الشرك هو وذريته وأولاده، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ أي جنِّبني وأولادي عبادة الأصنام، والغرض من هذه الدعوة تثبيته وذريته على ملّة التوحيد والإسلام، وذلك أعظم مطلب عنده عليه السلام، والأمن والإيمان هما أسمى مطالب المؤمن المتبصّر في دينه.

الدعوةُ الثالثة «تعلّق القلوب بالبيت الحرام»

الثالثة: طلبُه أن يعمر الله هذه البقعة من الأرض، بالعابدين والعاكفين، والطائفين بالبيت العتيق، وأن تتعلق بها قلوب المؤمنين، حتى تكون دائماً عامرة بأهل الصلاح والدين، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ قال ابن عباس: لو قال «أَفْئِدَةَ النَّاسِ» لازدحمت عليه فارس والروم، والناس كلهم، ولكنه قال: ﴿ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ ﴾ أي بعض الناس وهم المؤمنون الصالحون، العُبّاد الزهّاد، كما طلب لسكان مكة، والمجاورين فيها، أن يرزقهم من جميع أنواع الثمرات ﴿ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾.

الدعوةُ الرابعة «إصلاح الظاهر والباطن»

الرابعة: طلبه أن يُحسن الله سريرته، ويجعله مرضياً عند الله،

وإليه الإشارة بقوله: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ وغرضُ هذا الدعاء أن يجعل الله باطنه خيراً من ظاهره، لأن الله تعالى لا ينظر إلى الصور والأجساد، إنما ينظر إلى القلوب والأعمال، كما صحَّ بذلك الخبر عن رسول الله ﷺ حيث قال: « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[١].

الدعوات الثلاث الباقيات

خامساً: ثناؤه على الله على ما وهب له من البنين، بعد أن بلغ سنَّ الشيخوخة، وإكرامه تعالى له باستجابة الدعاء بولادة إسحاق وإسماعيل ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، إِنَّ رَبِّي لَسَمِيْعُ الدُّعَاءِ ﴾.

سادساً: دعاؤه أن يجعل الله فيه وفي ذريته، مَن يحافظ على إقامة الصلاة، ويجعلها شعاراً له، لأنها أهم أركان الدين، وبدون الصلاة يختلّ الإيمان ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَتِي، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾.

سابعاً: طلب المغفرة له ولوالديه، وللمؤمنين والمؤمنات، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وهذه هي نهاية سؤله، وغاية قصده، أن تُغْفر ذنوبه وذنوب أتباعه ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وِلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ ﴾ استجاب الله دعوات إبراهيم الخليل، فأكرم أهل هذه البلاد، بالأمن والاستقرار، وسعة الرزق ورغد العيش، وجعل بيته العتيق مهوى أفئدة الناس، يأتون إليه من كل فجٍّ عميق.

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري ١٧١/٩ ومسلم برقم ٢٥٦٣ في البرّ والصلة، وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٥٢٣/٦.

«قصة هاجر مع إسماعيل عليهما السلام»

قَدِمَ إبراهيم عليه السلام بولده الرضيع «إسماعيل» وأمته «هاجر» من أرض فلسطين، ووضعهما في ذلك المكان القفْر، عند دوحةٍ قرب زمزم، وكان ذلك بأمر الله عزّ وجل لحكمة يريدها المولى جلّ وعلا، ولما عزم على العودة إلى أرض فلسطين، لحقته أُم إسماعيل فقالت يا إبراهيم: أين تتركنا في هذا المكان القفر، الذي ليس به سمير ولا أنيس؟ وجعلت تخاطبه وهو لا يلتفت إليها، مخافة أن تمنعه عن تنفيذ أمر الله، فقالت له عند ذلك: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: اذهب إذاً فلن يضيِّعنا الله، فلما ابتعد عنها أخذ يدعو ربه بهذا الدعاء الخاشع المُنيب: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِـدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ ثم انطلق يقطع الصَّحَارى حتى عاد إلى وطنه الأول في أرض فلسطين. وكان قد ترك لهما كيساً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، فأخذت «هاجر» تأكل من التمر، وترضع وليدها، وتسقيه من الماء، حتى إذا نفد الشراب، أخذت تبحث له عن ماء، فوجدت الصفا أقرب جبل يليها، فقامت عليـه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلما لم ترَ أحداً هبطت من الصفا، ثم سَعَتْ سَعْيَ الإنسان المجهود، حتى وصلت إلى جبل المروة فصعدت عليه فلم ترَ أحداً، فأخذت تهرول وتسعى بين الصفا والمروة سبع مرات ـ قال ابن عباس: فذلك سعي الناس اليوم ـ حتى إذا أشرفت على الهـلاك، وتلاشت قِواها، سمعت صوتاً من بعيد، فقالت: قد سمعـتَ فأغثنا إن كان عندك غواث، ثم نظرت فرأت رجلًا جميل الطلعة عند مكان زمزم، فهرولت نحوه تظنه بشراً، فإذا به المَلَك جبريل عليه السلام بصورةٍ

بشرية، فضرب الأرض فإذا بالماء يفور كأنه عيونٌ دافقة، ثم قال لها: لا تخافي الضياع، فإن لله ههنا بيتاً يبنيه هذا الغلام وأبوه ـ وأشار إلى تلٍّ مرتفع قرب زمزم ـ وإن الله لن يضيِّع أهله. هذه خلاصة تلك الحادثة العجيبة، والذكرى الخالدة، التي أراد الله من ورائها أن يعمِّر بيته العتيق، استجابة لدعوة الخليل ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾.

تحذير الظالمين من الحساب والجزاء

وبعد الحديث عن أبي الأنبياء، إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي دعا إليه التوحيد والإِيمان، والذي تفتخر به جميع أهل المِلل والأديان، لأنه رافع راية التوحيد، ومحطِّم الأصنام، جاء الحديث عن المعاد والجزاء والحساب، الذي هو أهمُّ الأركان بعد الإِيمان بالله، فذكر تعالى حال الناس في ذلك اليوم الرهيب، الذي تشخصُ فيه الأبصار، من شدة الفزع والدهشة والهَوْل، إذ يلتقي فيه العباد على صعيد واحد، مؤمِنهم وكافِرهم، برّهم وفاجرهم، لينال كل إنسان جزاءه العادل، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ، لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ، وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ. وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ، أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ. وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ، وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ. وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ، وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ، وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ ﴾.

بعض أهوال الآخرة

لقد ذكر تعالى في هذه الآيات طرفاً من أهوال وشدائد الآخرة،

تسليةً للمظلوم، وتهديداً للظالم، كما قال ابن عُيينة، فيوم القيامة هو يوم العدالة، يوم يُؤخذ للمظلوم من الظالم، ويُقتصّ للمقتول من القاتل، ويؤخذ كل إنسان بجريرته، ويتمنى الظالم أن يرجع إلى الدنيا ليعمل صالحاً، ولكن هيهات، فقد ذهب وقت العمل، وجاء وقت الحساب ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ ومعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾ أي تبقى أبصارهم مفتوحة مبهوتة، لا تتحرك الأجفان من الفزع والهلع، ولا تطرف العين من شدة الجزع، كحال المجرم الذي يُساق إلى حبل المشنقة، ثم قال تعالى: ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي مسرعين لا يلتفتون إلى شيء مما حولهم، قد رفعوا رءوسهم في ذل وخشوع، لا يطرفون بأعينهم من الخوف والجزع، وذلك يدل على دوام تلك الحيرة والدهشة في قلوبهم ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ أي قلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء من الخواطر والأفكار، كأنها نسيت كل ما نالته من نعيم، بسبب هَوْل الحساب، قال قتادة: الأفئدة خالية، لأن القلوب قد خرجت من أماكنها فأصبحت لدى الحناجر كما قال سبحانه: ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ، وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾، والغرضُ تصوير حال هؤلاء الظالمين يوم القيامة، بحال من فقد عقله ورشده، وطار صوابه، لكارثة فادحةٍ حلَّت به، فلم يعد يُبصر ما حوله، وأصبح مبهوتاً مدهوشاً.

طغيان أهل مكة وما حلَّ بالظالمين

ولئن طغى هذا الظالم وبغى في هذه الحياة الدنيا، فستأتيه ساعةٌ يعضُّ فيها أصابع الندم، ويتمنى أن يعود إلى الدنيا ليطيع ربه، ويتدارك أمره بصالح العمل، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ

العَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ، نُجِبْ دَعْوَتَكَ، وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ قال تعالى ردّاً عليهم بأسلوب التأنيب والتوبيخ: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ أي ألم تحلفوا أنكم باقون في الدنيا لا تنتقلون إلى دار أُخرى؟ وتعتقدون ألَّا بعث ولا حشر ولا نشر؟ ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ، وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾ أي وسكنتم في ديار الظالمين بعد أن أهلكناهم، فهلَّا اعتبرتم بمساكنهم؟ وتبيَّن لكم كيف أهلكناهم ودمرناهم، ولكنكم لم تتعظوا ولم تعتبروا بتلك الأحداث والعِبَر، فكيف تطلبون العودة إلى الدنيا بعد فوات الأوان؟ ألا فليعتبر الظالمون، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وعاقبة الظالمين وخيمة، وما أحسن قول الشاعر:

لَا تَظْلِمَنَّ إذَا ما كُنْتَ مُقْتَدراً ... فَالظُّلْمُ آخِرُهُ يَأْتِيكَ بِالنَّدمِ
تنامُ عَيناكَ والمظلومُ منتبهٌ ... يدعو عليكَ وعينُ اللهِ لم تَنَمِ

ثم قال تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ، وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ، وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ ﴾ أي مكر المشركون مكرهم العظيم، الذي استفرغوا فيه جهدهم، بالنبي ﷺ حين أرادوا قتله، وإطفاء نور الله من الأرض، وعند الله جزاء هذا المكر الخبيث، وإن كان مكرهم من القوة والتأثير، بحيث يؤدي إلى زوال الجبال، ولكنَّ الله حفظ رسوله، وعصمه ووقاه من شرّهم، وردَّ كيدهم في نحورهم ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا.. ﴾ الآية.

وعدُ الله لا يُخلف وانتقامه قريب

ولما كان المشركون يهزءون من رسول الله ويسخرون، حينما كان يتوعدهم بعذاب الله، ويخبرهم بقرب النصر والظفر له ولأتباعه

المؤمنين، وكانوا إذا سمعوا ذلك زادوا في العتوّ والضلال، ويقولون على سبيل السخرية متى هذا الوعد إن كنت من الصادقين؟ ومتى تظفر وتنتصر علينا؟ جاءت الآيات الكريمة لتخبرهم أن وعد الله لا يُخلف، وأن انتقامه من أعدائه وأعداء رسله قريب، وإنما أخَّر نزوله لذلك اليوم الرهيب، الذي سيأتيهم لا محالة، وعندئذٍ يرون العذاب والبلاء الذي كانوا يهزءون به ويستعجلون نزوله، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ. يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ، وَبَرَزُوا لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ. سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ، وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ. لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ. هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ، وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾.

وقفة الخَلَائق للحساب أمام أحكم الحاكمين

والآيات الكريمة تصوِّر هول ذلك اليوم الشديد، حين تتبدل فيه الأرض والسموات، فتتبدل هذه الأرض بأرضٍ أُخرى، وتتبدل السموات بسمواتٍ أُخرى، ويخرج الناس من قبورهم فزعين، يُساقون إلى أرض المحشر، ليقفوا أمام أحكم الحاكمين، لا يسترهم ساتر، ولا يقيهم واقٍ، لأنهم أمام الواحد القهّار ﴿ وَبَرَزُوا لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ وقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان: «يُحْشَرُ الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي ـ أي كالخبز الأبيض في بياضها ـ ليس فيها معلمٌ لأحد»[1].

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٣٢٣/١١ ومسلم في البعث والنشور رقم ٢٧٩٠.

قال ابن مسعود: (تُبَدَّلُ الأرض بأرضٍ كالفضة نقيَّةٍ، لم يُسفك فيها دمٌ، ولم يُعملْ عليها خطيئة)[1].

وروي عن ابن عباس أن الأرض هي نفس الأرض، وإنما تغير صفاتها، فتسوَّى الجبال، وتُقلع الأشجار، وتنشق الأنهار، وتتناثر الكواكب، فهو تغيير صفات لا تغيير ذات، وأنشد قول القائل:

وما النَّاسُ بالنَّاسِ الَّذِينَ عَهِدتَهُمْ   وَمَا الدَّارُ بالدَّارِ التي كنتَ تعلَمُ

وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب تبصر المجرمين مربوطين بالقيود والأغلال ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهي مادة شديدة الحرارة، منتنة الريح، تطلى بها الإبل الجربى فيحرق الجرب بحرارته وحدّته، وتعلو وجوهَهم نارُ جهنم، وتحيط بهم من كل جانب.

ختام السورة بلاغ وإنذار

وقد ختم الله السورة الكريمة بالتبليغ والإنذار للكَفَرَة الفجّار، حتى لا يبقى لهم عذر عند الله فقال سبحانه: ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ، وَلِيُنْذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ، وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ كانت عائشة أُم المؤمنين، إذا قرأت القرآن فمرّت على ذكر أهل النار، انهمرت من عيونها الدموع خوفاً من عذاب الله، ودخل عليها رسول الله ﷺ ذات يوم فوجدها تبكي، فقال لها: «ما يُبكيك يا عائشة؟»، قالت: ذكرتُ النار فبكيتُ، فهل تذكرون يوم القيامة أهليكم؟ فقال: «يا عائشة أما

(١) انظر جامع البيان للطبري ١٣/٢٥٠.

في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحداً، عند الميزان حتى يعلم أيخفّ وزنه أم يثقل؟ وعند تطاير الصحف حتى يعلم أيأخذ كتابه بيمينه، أم بشماله، أم من وراء ظهره؟ وعند الصراط إذا وُضِع بين ظَهْريْ جهنم»[1]

اللّهمّ أجِرْنا من نار جهنم، وقِنَا عذابك يوم تبعث عبادك، برحمتك يا أرحم الراحمين.

* * *

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه، وانظر جامع الأُصول في أحاديث الرسول لابن الأثير ١٠/٤٧٤.

سُورَةُ الحِجْر

مَكيَّة وآيَاتهَا تسعٌ وتسعونَ آيَة

أهـــداف الســـورة الكريمة

● سورةُ الحِجْر من السور المكية، التي نزلت قبل الهجرة النبوية، وأهدافها الأساسية كأهداف السور المكية، تثبيت العقيدة الصافية، من توحيد الله عزّ وجل، والإيمان بالرسل، والكتب السماوية، والاعتقاد بالبعث والجزاء، والجنة والنار، الذي كان سبباً لإعراض المشركين.

● ومحورُ السورة الكريمة، يدور حول مصارع الطغاة المجرمين، المكذبين لرُسُل الله في شتى الأزمان والعصور، ولهذا ابتدأت السورة الكريمة بالإنذار والوعيد، ملفَّعاً بظلٍّ من التهويل والتهديد ﴿ الٓر. تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ. رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ. ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

● وعرضت السورة الكريمة لدعوة الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، ووضَّحت موقف أهل الشقاوة والضلال من الرسل الكرام، فما من نبي بعثه الله إلاَّ سخر منه قومه الضالّون، من لدن بعثة شيخ الأنبياء «نوحٍ» عليه السلام، إلى بعثة خاتم المرسلين، وقد بيَّنت السورة أن هذه هي سنة المكذبين، في كل وقتٍ وحين ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ. وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ. كَذَلِكَ نَسْلُكُه فِي قُلُوبِ المُجْرِمِينَ. لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾.

● وعرضت السورة الكريمة إلى الدلائل الساطعات، والآيات الباهرات،

المنبثة في صفحات هذا الكون العجيب، الذي ينطق بآثار اليد المبدعة، يد الخلَّاق جلَّ وعلا، ويشهد بجلال عظمة الخالق العليّ الكبير، بدءاً من مشهد السماء المحكمة البناء، فمشهد الأرض المُحاطة بالبحار، فمشهد الرياح اللواقح للسحاب، فمشهد الحياة والموت، فمشهد الحشر والنشر، وغير ذلك من الآيات، وكلُّها دلائل ناطقة بعظمة الله وجلاله، وشاهدة على قدرته ووحدانيته ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ. وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾.

● وعرضت السورة الكريمة للحديث عن قصة «البشرية الأولى» قصة الهدى والضلال، ممثَّلة في خلق آدم عليه السلام، وعدوّه اللَّدود إبليس اللعين، وما جرى من سجود الملائكة لآدم، واستكبار إبليس عن السجود، واعتراضه على أمر الله، وتوعُّده لذرية آدم بالإغواء والإضلال ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي، فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ المَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾.

● ومن قصة آدم تنتقل السورة الكريمة إلى ذكر قصص بعض الأنبياء والمرسلين، تسليةً لرسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم، وتثبيتاً لقلبه الشريف، حتى لا يتسرب إليه اليأسُ والقنوط، من جرَّاء استهزاء المشركين، فله أُسوةٌ بمَن سبقه من الأنبياء الكرام، فتذكر قصة إبراهيم، ولوطٍ، وشعيب، وصالح، صلوات الله عليهم أجمعين، وتذكر ما حلَّ بأقوامهم المكذبين.

● وتختم السورة الكريمة بتذكير الرسول ﷺ بالنعمة العظمى عليه، بإنزال هذا الكتاب المبين، المعجزة الخالدة لسيد المرسلين، وتأمره بالصبر والسلوان على ما يلقاه من أذى في سبيل تبليغ الدعوة، وتبشره بقرب

النصر له وللمؤمنين ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ. وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾. هذه مقاصد السورة، وهذه إيحاءاتها، ولنرجع بعد هذا الإجمال إلى التفصيل، لنستعرض ما فيها من آيات التنزيل.

تفصيل بعد الإجمال

يقول الباري جلّ ثناؤه وتقدست أسماؤه: ﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ. رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ ابتدأت السورة بهذه الحروف المقطَّعة «ألف» «لام» «را» للإشارة إلى إعجاز القرآن، والتنبيه للخلائق أجمعين أن هذا الكتاب المُعجز، منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، فعجزُ البشرِ عن الاتيان بمثله، من أعظم الدلائل على أنه تنزيل رب العالمين، ثم قال تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ أي هذه آيات القرآن، الكامل في الفصاحة والبيان، المتعالي عن الطاقة البشرية، الواضح الجليّ الذي لا خَلَل فيه ولا اضطراب ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ أي ربما تمنى الكفّار أن لو كانوا في الدنيا مسلمين، يتمنّون ذلك حين يرون فضل الله ورحمته بالمؤمنين، ويخرج العُصاة من النار بشفاعة سيد المرسلين، فيتمنّون أن يكونوا مسلمين، كما رُوي من حديث أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إذَا كان يوم القيامةِ، واجتمع أهلُ النَّارِ في النَّارِ، ومعهم مَن شاء الله من أهل القِبْلَة، قال الكفَّارُ للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار؟ فيتفضل الله تعالى بفضل رحمته، فيأمر بإخراج كل مَن كان من أهل القبلة

فيخرجون منها، فحينئذٍ يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين، وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾(١).

وعيد وتهديد للمشركين

ثم توعَّد الله هؤلاء الكفّار الفجّار بسوء المصير، فقال جلّت عظمته: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ والمعنى: دعهم يا محمد في غفلتهم، يأكلون كما تأكل البهائم، ويستمتعون بهذه الدنيا الفانية، ويشغلهم الأمل بطول الأجل، عن التفكّر فيما يُنجيهم من عذاب الله، فسوف يعلمون عاقبة الغيِّ والضلال، حين يَصْلَون حرَّ جهنم.

ثم بيَّن تعالى أن هلاك الطغاة المكذبين، له أجل مؤقت عند الله لا يتقدم عليه ولا يتأخر فقال سبحانه: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ. مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ أي لا يتقدم هلاك أُمة قبل مجيء أوانه، ولا يتأخر عنهم، فلا ينبغي أن يغتر العاقل بهذا الإمهال، لأن العذاب مدّخر للمجرمين، كما قال سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ القُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا، وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً ﴾(٢).

صور من السخرية والتهكّم في وجه الرسول

وتمضي السورة الكريمة، وهي تطالعنا في آياتها البيِّنات، بصور عجيبة من تعنّت المشركين، واستهزائهم بسيد المرسلين، الذي جاءهم بالهدى والدين، فيصفونه بالسحر، والكهانة، والجنون تارة، ويتهمونه بالكذب على الله تارة أُخرى ـ لأنه قال لهم: أنا رسول الله، ويطلبون

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني وانظر مختصر تفسير ابن الكثير ٢/٣٠٨.
(٢) سورة الكهف آية رقم ٥٩.

منه ﷺ أن يأتيهم بالملائكة ليشهدوا له بالرسالة، إلى غير ذلك من ضروب السخرية والاستهزاء، تماماً كما فعل أسلافهم المجرمون من قبل، وفي ذلك يقول، ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ. لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالمَلاَئِكَةِ، إِنْ كُنْتَ مِن الصَّادِقِينَ. مَا نُنَزِّلُ المَلاَئِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ. إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ. وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ. كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ المُجْرِمِينَ. لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾.

وقولُ المشركين لسيد الرسل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ يعني القرآن، مع أنهم لا يؤمنون بالقرآن، ولا يُصَدِّقون برسالته، إنما قالوه على سبيل السخرية والتهكم، كأنهم يقولون: أنت الذي تزعم أن الله أوحى إليك، وأن القرآن نزل عليك؟ ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي إنك حقاً لمجنون، أكَّدوا الخبر بـ «إن» و«اللام» مبالغة في الاستخفاف والاستهزاء، بمقامه الشريف عليه السلام، ولم يقولوا له: أنت مجنون، بل قالوا: «إنك لمجنون» إمعاناً في الغي والضلال، تماماً كما قال السفهاء من قبلُ لرسلهم، وعلى رأسهم فرعون الطاغية الجبار، حين قال عن موسى: ﴿ إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون ﴾ وكما قال قوم شعيب: ﴿ إِنّكَ لأَنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾؟ ثم قالوا مستبعدين لدعوى الرسالة: ﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالمَلاَئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي هلَّا جئتنا بالملائكة لتشهد لك بالرسالة، إن كنت صادقاً في دعوى أنك رسولٌ مرسل من عند الله؟ وذلك هو منتهى السَّفَهِ والوقاحة في مخاطبتهم لرسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم.

قال تعالى ردّاً عليهم، وتجهيلاً لهم فيما طلبوا: ﴿ مَا نُنَـزِّلُ

المَلاَئِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ، وَمَا كَانُوا إِذَاً مُنْظَرِينَ ﴾ أي لو نَزَّلنا الملائكة كما اقترحوا لأهلكناهم بعذاب شامل، نستأصلهم به، ولم نمهلهم أبداً، إذ جرت سنّة الله في خلقه ألاَّ يُنْزِل الملائكة، إلا لمن يريد إهلاكهم، فكيف يطلبون ما فيه عذابهم وهلاكهم؟

تكفّل الله حفظ كتابه

ثم بيَّن تعالى لهم بالدليل القاطع، صدق هذا القرآن، فالله الذي أنزله، هو الذي قد تكفَّل بحفظه، فلم يستطعْ أحدٌ على الزيادة فيه ولا النقصان، وفي ذلك يقول جلّ ثناؤه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ولننظر بعين الإمعان، إلى الفارق الكبير بين الكتب السماوية، وبين القرآن المجيد، فإن الله تعالى وَكَّلَ حفظها إلى أهلها فقال: ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ ﴾ فبدَّلوا وغيَّروا، وجرى فيها الزيادة والنقصان، وقال عن القرآن: ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ فلم يستطع أحد، ولن يستطيع أحدٌ، كائناً مَن كان، أن يتلاعب في هذا القرآن، لأن الله تعالى تكفّل بحفظه، وقد يسَّر حفظه على المؤمنين، فهو مكتوب في السطور، ومحفوظ في الصدور، وذلك سرٌّ من أسرار القرآن العظيم.

تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام

ثم سلَّى الله نبيّه محمداً ﷺ عمَّا يلقاه من أذى المشركين، ووضَّح له أن هذه سنّة الأنبياء في أُممهم، فما أتى رسولٌ من الرسل إلى قومه، إلَّا كذبوه وسخروا منه واستهزءوا به، وأن الرسل صبروا حتى انتقم الله لهم من المجرمين، بتدميرهم وإهلاكهم ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ﴾ أي في فِرَق وأُمم الأولين ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ. كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ المُجْرِمِينَ ﴾ أي كذلك

نُدخل الباطل، ونجعل الاستهزاء والشـرك داخلاً في قلوب الكَفَـرَة المجرمين، ليزداد عذابهم ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي لا يصدِّقون بهذا القرآن، وقد مضت سُنَّتُنا في إهلاك أعداء الرسل، فما أقرب هؤلاء من الهلاك والدمار؟ ثم كشف تعالى الستار عن خفايا أسرار المشركين، وما انطوت عليه نفوسهم من المكابرة والعناد، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ والمعنى: لو فُرض أننا أعطيناهم مطلوبهم، وصعدنا بهم إلى السماء، فرأوا عجائب خلق الله، وشاهدوا المُلْك والملكوت، ورأوا بأُم أعينهم الملائكة، لما آمنوا ولا صدَّقوا، ولقالوا ـ على سبيل العناد والمكابرة ـ لقد سُدَّت أبصارنا، وسحرنا محمد، فخيَّل إلينا الصعود إلى السماء، وما هو إلا سحرٌ مبين، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ وهذا بيان لشدة كفرهم وعنادهم، كمَن يرى الشمس في وضح النهار ساطعة مضيئة، ثم يقول: لا شمس ولا نهار، وإنما هو وهمٌ وخيال، نعوذ بالله من الكفر والضلال.

آثار قدرة الله في الكون

ثم انتقلت السورة الكريمة، إلى بيان دلائل قدرة الله ووحدانيته، فيما أبدع في هذا الكون المنظور، الذي ينطق بعظمة الخالق، في كل ما بثَّ فيه من أنواع المخلوقات العجيبة، في سمائه وأرضه ونجومه وأقماره، وجباله ووهاده، وبحاره وأنهاره، وأشجاره وأطياره، وفي سائر تلك المبدعات، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ

السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ. والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ. وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ. وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ. وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ، فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ. وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الوَارِثُونَ ﴾. فقد أشارت الآيات الكريمة إلى السماء وما زيّنها به من الكواكب المنيرة، وإلى الأرض وما أنبت فيها من أنواع الزروع والفواكه والثمار، وإلى الرياح التي سخَّرها الله لتلقيح السحاب حتى تتنزَّل منه الأمطار، وهذه حقيقة علمية حديثة ما كان يعرفها البشر قبل هذا الزمان، أشار إليها القرآن في آياته البيِّنات، وهي أن الرياح تلقح السحاب فيدرُّ منه الماء، وتلقح الأشجار فتتفتَّح من أكمامها الأزهارُ والثمارُ، فالريح كالفحل للسحاب والشجر، فهي تحمل أعضاء الذكورة والأُنوثة، من شجرة إلى شجرة، ويتم التلقيح بواسطة هذه الريح، ولنقف قليلاً عند قوله سبحانه: ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ لنرى روعة الإبداع بدقة وإحكام، في كل ما أوجد الله، وخلق في هذا الكون، فكل شيء موزونٌ بميزان الحكمة الإلَهية، المطر بميزان، والهواء بميزان، والرياح بميزان، والنباتُ بميزان، والثمرات بميزان، كلُّ شيءٍ محدَّدٌ ومقدَّر، فلو كثر المطر لأفسد ودمَّر، ولو قلَّت كميَّته لتعطل الزرع وتضرَّر، ولو زادت الرياح في هبوبها لكانت الأعاصير والعواصف التي تقلع الشجر، فسبحان مَن جعل كل شيء بمقدار موزون، رحمة بالبلاد والعباد، وصدق الله العظيم ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾.

قصــة بدء الخليقة

ثم تمضي السورة الكريمة لتتحدث عن قصة «بدء الخليقـة» مصوراً في خلق آدم عليه السلام، أبي البشرية، الذي هو مظهر من مظاهر القدرة الربانية، فإن خلق الإنسان من تراب آية من الآيات الباهرة، التي تدل على قدرة الخالق المبدع الحكيم، إذ كيف يوجد من الطين إنسان سوِيّ، له قدرة الحركة، والمشي، والكلام، والعقل، والتفكير، والتراب جماد لا حسَّ فيه ولا شعور، ولكنها قدرة الله التي تقول للشيء كن فيكون، وصدق الله العظيم ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾.

إن قصة خلق آدم هي قصة البشرية بأسرها، وقد كرَّم الله هذا النوع البشري، حين خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، فسجدوا له جميعاً إلا إبليس «كان من الجن ففسق عن أمر ربه» وقد أفاض عليه من أسرار قدرته، وبـدائع حكمتـه ما جعله أهـلاً للاستخلاف في الأرض، والتكريمُ لآدم تكريم لذريته، والاحتفاء به احتفاء بهذا النوع الإنساني، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. وَالجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ. وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ

سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ المَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إلاَّ إبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ يَا إبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ؟ قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإنَّكَ رَجِيمٌ. وَإنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾.

سجود الملائكة لآدم تكريمٌ له ولذريته

نبَّه تعالى على عظيم شأن آدم ورفعة قدره، فمع أنه مخلوقٌ من الطين، إلاَّ أنه تعالى خصَّه بخصائص جعلته في مقام الحفاوة والتكريم، وجعل فيه من الأسرار العليَّة، ما أوجب سجود الملائكة الأبرار الأطهار له، وما ذلك إلا تكريماً لهذا النوع البشري كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ وسجودُ الملائكة له، هو سجودُ تحيةٍ وتكريم، لا سجود خضوعٍ وعبادة، فإن العبادة لا تجوز إلا للهِ الواحد الأحد.

والصلصالُ في اللغة: الطينُ اليابسُ الذي يُسمع له صلصلة أي صوتٌ إذا نُقِرَ، والحمأُ المسنونُ: هو الطينُ الأسودُ المنتنُ المتغيِّرُ.

قال المفسرون: خَلَقَ اللهُ آدم عليه السلام من طين، فصوَّره وتركه في الشمس أربعين سنة، فصار صلصالاً كالخذف، وصار له صوت إذا نُقِر، ثم نفخ فيه الروح فإذا به إنسان كامل الخلق سميعٌ بصير. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئَاً مَذْكُوراً ﴾. ولعلَّ سائلاً يسأل: كيف قال تعالى هنا: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ وقال في مكان آخر: ﴿ إنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾[1] التي تدل على أن آدم

(١) سورة آل عمران آية رقم /٥٩/.

مخلوق من تراب، وقال في آية أُخرى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ﴾[1] التي تدل على أنه مخلوق من الطين؟ فكيف تنوعت الأخبارُ والمخلوق واحد هو آدم؟

الأطوار والأدوار التي مرَّ بها خلق آدم

والجواب عن ذلك أن خلق آدم عليه السلام مرَّ بمراحلَ وأطوار أربعة ولا تعـارض بينها: المرحلة الترابية، المرحلة الطينية، المرحلة التكوينية، ثم مرحلة نفخ الروح.

أمـا المرحلة الأولى «المـرحلةُ التـرابيـة» فهي أسـاس الخلق والتكوين، فقد كان مصدرُ نشأة آدم وأساسُ تكوينه هو التراب، وذلك حين تعلقت إرادة الله جلَّ جلاله بخلق آدم، أمر الملائكة أن يجمعوا تراباً من أنحاء الأرض، ومن أنواع تربتها العديدة، فجمعوا ذلك فكان هذا التراب هو الأصل في خلق آدم، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾[2] ويدل على هذه المرحلة الحديثُ الشريف: «إن الله تبارك وتعالى خلق آدم من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قـدر الأرض، منهم الأحمر، والأبيض، والأسودُ، وبينَ ذلـك، والسَّهْلُ، والحَـزْنُ ـ أي الصعب القاسي ـ والخبيثُ، والطيب»[3].

(1) سورة صٓ آية رقم ٧١.
(2) سورة الروم آية رقم ٢٠.
(3) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٢٩٤٨ وأبو داود في السُنَّة رقم ٤٦٩٣ وانظر جامع الأُصول ٤/٣١.

المرحلة الطينيَّة

المرحلة الثانية: «الطينية» أمر الله الملائكة، فجبلوا هذا التراب بالماء، فأصبح طيناً لازباً أي متماسكاً، يلتصق بعضه ببعض، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ إنَّا خلقناهم من طينٍ لازب ﴾ بقي «آدم» عليه السلام بشراً بصورةٍ طينية، مدة طويلةً من الزمن، حتى جفَّ ويبس، فأصبح له صوت، يشبه الفخار إذا نُقِر باليد، وهو المراد من لفظ «الصلصال» في هذه السورة الكريمة ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من حمإٍ مسنون ﴾ أي خلقناه من طين يابس أسود، متغيِّرٍ في الرائحة والشكل، وفي قوله سبحانه: ﴿ خَلَقَ الإنسانَ من صلصالٍ كالفخار ﴾ والصلصالُ: الطينُ اليابسُ الذي يصلصل أي يُسمع له صوتٌ، فإذا طُبخ هذا الطين فهو الفخار، كما قال أهل اللغة.

المرحلة التكوينية

المرحلة الثالثة: «مرحلة التكوين» وهي تكوينه بالصورة الآدمية بدون روح، وقد بقي مدة أربعين سنة كما يقول المفسرون جسداً بلا روح، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿ هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ وقد كان آدم أجوف الخلق، طويلاً مفرطاً في الطول، ثم تناقصت ذريته، كما ورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «خلق اللهُ آدم عليه السلام وطوله ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن»(١).

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/٢ في الاستئذان، ومسلم في الجنة برقم ٢٨٤١ وانظر جامع الأصول ٣١/٤.

المرحلة الأخيرة نفخ الروح

المرحلة الرابعة: «مرحلة نفخ الروح» ثم توجهت إرادة العليّ الكبير، لجعل هذا الطين بشراً سويّاً، وإنساناً سميعاً، ناطقاً، بصيراً، فنفخ فيه من روحه، فإذا هو خلقٌ عظيم، في أحسن صورة وأكمل تقويم، وهذه آخر المراحل بالنسبة لخلقه، وإليها يشير قوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ولما نُفختْ فيه الروحُ، سجدتِ الملائكةُ جميعاً له ـ سجودَ تحيةٍ وتكريم ـ بأمر الربِّ العظيم، ولكنَّ إبليس امتنع عن السجود، بحجة أنه أفضلُ وأشرفُ من آدم، وتكبَّر على أمر ربه، فطرده الله ولعنه، وأبعده عن مكان القدس ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾.

وهكذا كلُّ مَن تواضع للهِ رفعه، ومَن تكبَّر على الله وضعه، وما أحسن قول الشاعر:

تواضَعْ تكنْ كالبدرِ لاَحَ لِنَاظرٍ   على صَفَحَاتِ الماءِ وهو رفيعُ
ولا تَكُ كالدُّخَانِ يعلو بنفسهِ   إلى طَبَقاتِ الجوِّ وهو وَضِيعُ

لم يكن إبليس من الملائكة على الصحيح من الأقوال، فهو من نارٍ وهم من نور، ولكنه كان بين صفوفهم، فتوجَّه إليه الخطاب بالسجود لآدم بأمر رب الأرباب كما قال سبحانه: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾؟ فهناك أمر خاص له بالسجود لآدم، أما حقيقته فهو جنيٌّ وليس من الملائكة بنص القرآن الكريم ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ وفسقُه هو خروجه عن الطاعة، وعدمُ امتثاله لأمر الله، فلذلك استحق اللعنة والطرد والحرمان، وقد استكبر عن السجود

بسبب تلك الفلسفة الخرقاء، والحماقة الرعناء، حيث قال: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ فكيف يسجد العظيم للحقير، والرفيع للوضيع؟ ولم ينظر إلى السر الذي أودعه الله في آدم، وإلى الأمر الإلّهي الذي كلّفه الله به، وقد شقي إبليس بسبب آدم، ولذلك صار عدواً لآدم ولجميع ذريته، وثارت فيه غريزة حبِّ الانتقام.

طلب إبليس إمهاله إلى يوم البعث

لمَّا طرد الله إبليس من السموات العلى، ولعنه لعنةً أبديةً، بسبب امتناعه عن السجود لآدم، وعرف أنه شقي، وخسر آخرته وسعادته، بسبب آدم، طلب اللعينُ من رب العزّة والجلال، أن يؤخره في هذه الحياة الدنيا، وأن يمهله إلى يوم البعث والنشور، ليأخذ ثأره من آدم، ويشفي غليله من ذريته بإغوائهم وإضلالهم، كما شقي هو وضلَّ، فقال ما حدّثنا عنه القرآن الكريم: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي - أي أمهلني - إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ، وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ، إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ. لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾.

أراد اللعين إبليس بقوله: ﴿ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أن ينجو ويتخلص من الموت، لأنه إذا بُعث الناسُ لا يبقى موتٌ، فيكون بذلك قد نجا من سَكَرات الموت وشدائده، وبقي حيّاً إلى يوم القيامة، ولكنَّ الله عزّ وجل ما أجابه إلى مطلوبه، بل حدَّد له أجَلاً، هو انتهاء حياة الخلائق، عن سطح هذا الكوكب الأرضي، فلا بدَّ أن يموت إبليس كما

يموت الإنس والجن، ولهذا جاء الجواب من العليّ الكبير ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ أي قال الله جواباً له على سؤاله: إنك يا إبليس من المؤجلين والممهلين، إلى حين موت جميع الخلائق، وذلك قبل يوم البعث والنشور، لأنه بموت الناس تكون قد انتهت مهمته.

كيد خبيث لإغواء بني آدم

ولما ضمن اللعين بقاءه إلى نهاية الدنيا، أقسم بعزّة الله وجلاله أن يغوي جميع ذرية آدم، لأنه شقي بسبب أبيهم، فأراد أن ينتقم من ذريته وأبنائه، فقال ما قصَّه علينا القرآن الكريم: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي بسبب إغوائك وإضلالك لي، لأُزينَنَّ لذرية آدم المعاصي والآثام، ولأضلنّهم عن طريق الإيمان والهدى أجمعين، إلا مَن استخلصتَه من عبادك، واصطفيتَه لطاعتك ومرضاتك، فلا قدرة لي على إغوائه.. وقد ردَّ الباري تبارك وتعالى عليه بقوله: ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ، إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ. لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي قال الله تعالى: هذا طريقٌ مستقيمٌ واضح، مصيرُه إليَّ، وهو أنك لا تستطيع إغواءَ أهل الأرض، فلا قدرة لك على المؤمنين المتقين، إنما سلطانك على الكَفَرَة المجرمين ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ، إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أي إن عبادي المؤمنين لا قوة لك على إضلالهم، لكنْ مَن غوى وضلَّ من الكافرين فلك عليهم تسلط، لأن الشيطان إنما

يتسلط على الشاردين عن الله، كما يتسلط الذئب على الشاردة من الغنم.

ومن هذه الآيات البيِّنات، ندرك شدة عداوة إبليس لذرية آدم، فلقد أقسم وعزم على إضلال العباد جميعاً، ثم استثنى من ذلك عبادَ الله المخلَصين، الذين أخلصهم الله بالهداية والإيمان، والعصمة والتوفيق، ومن هنا وجب على أبناء آدم أن يُعادوا مَن عاداهم، وأن ينتبهوا إلى مكر الخبيث وطرق إغوائه، فهو لا يفتر عن عداوتهم والكَيْد لهم.

تحذير البشر من كيد إبليس

وقد حذّرنا الباري جلّ وعلا في آيات كثيرة من طرق فتنته، وأساليب كيده وخبثه، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ ﴾ يعني إبليس ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ وقال جلّت عظمته: ﴿ يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجَنَّةِ، يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فمَن كان عدواً لك ينبغي أن تحذره وتتقي شرَّه، لا أن تصادقه وترافقه، وتسير بنصحه وتوجيهاته!!

دار النعيم ودار الجحيم

وقد جعل الله في الآخرة دارَين: داراً لها ثمانية أبواب وهي الجنة، يدخلها المؤمنون المتقون، الذي أخلصهم الله لطاعته ومَرْضاته، وداراً لها سبعة أبواب، وهي جهنم، يدخلها الأشقياء المجرمون أتباع الشيطان، كما قال سبحانه في هذه السورة: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ. لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ أجارنا الله منها

بفضله وكرمه، إنه أرحم الراحيمن. رُوي أن النار سبعةُ أطباق بعضها فوق بعض، وكل طبقة لها باب يدخل منه أهلها به، أولُّها جهنَّمُ، ثم لَظَىٰ، ثم الحُطَمة، ثم السَّعِيرُ، ثم سَقَر، ثم الجحيمُ، ثم الهاويةُ، روي ذلك عن علي وابن عباس رضي الله عنهما.

الأمنُ والأمان في دار السلام

وبعد الحديث عن أهل الشقاء والجحيم، يأتي الحديث عن أهل السعادة والنعيم، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب، ليكون أحفز للعمل، وأنشط لبلوغ الأمل، فالنفس إذا سمعت ذكر النار فزعت، وإذا سمعت ذكر الجنة طمعت، فتجدُّ وتجتهد رغبةً فيما عند الله من الأجر والفضل، ولهذا عقَّب الله تعالى بعد ذكر أهل النار بذكر أهل الجنة، وما لهم فيها من النعيم الدائم الخالد، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيونٍ. ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ. لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ، وَما هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ أي لا يصيبهم في الجنة إعياء ولا تعب، ولا يُخرجون منها أبداً، لأن نعيمهم خالد، وبقاءهم دائم. ذكر تعالى من نعيم أهل الجنة البساتين الناضرة، والعيون المتفجرة، والأنهار الدافقة، والسلامة والأمن، وذهاب الغلّ والحقد، والبغضاء، والشحناء من الصدور، وعدم التعب والنصب في دار الحبور، والخلود الدائم في دار النعيم، لأنها دار السعادة والصفاء، جعلنا الله وأياكم من أربابها، وختم لنا ولكم بخاتمة السعادة، إنه هو البرّ الرحيم.

رحمة الله وفضله على عباده

ثم تلتها الآيات تتحدث عن واسع رحمة الله، وعظيم فضله وإحسانه على عباده، فمع كثرة ما يرتكبة البشر، من مخالفةٍ وعصيان،

لأمر الله العلي الكبير، تبقى رحمتُه غامرة لهم، وفضلُه وكرمُه سابغاً عليهم، فهم يتقلَّبون في رياض نعمته، وينعمون بواسع رحمته، وحتى لا يُسلم الإنسان قياده للشيطان، ويدخل إلى قلبه اليأسُ والقنوط، إذا هو أذنب، وأخلَّ بشيء من أوامر الله ونواهيه، جاءت الآيات لتدخل الأنس والسرور، وتجعل الأمل واسعاً فسيحاً أمام العبد المؤمن، وأنه مهما كثرت منه المعاصي والذنوب، فلا ينبغي أن يقنط من رحمة الله، فإن الله غفار الذنوب، ورحمته سبقت غضبه، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ﴾ والآية جمعت بين مقاميْ: الرجاء، والخوف. ومعناها: أعلِمْ يا محمد عبادي المؤمنين، بأني واسع المغفرة والرحمة، لمن أصلح عمله وتاب، وأخبرهم أن عذابي شديد، لمن أصرَّ على الكفر والجحود، ومات على غير الإيمان.

سبب نزول الآية

وقد وردَ في سبب نزول هذه الآية، أن النبيَّ عليه الصلاة والسلام، مرَّ بنفرٍ من أصحابه، وهم يضحكون، فقال أتضحكون والنارُ بين أيديكم؟ لا أراكم تضحكون، ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحِجْرِ ـ وهو مقام إسماعيل بجوار الكعبة المشرفة ـ رجع ﷺ القَهْقَرىٰ فقال: إني لمَّا خرجتُ، جاءني جبريل عليه السلام، فقال: يا محمدُ، إن الله يقول: لم تُقنِّطُ عبادي؟ ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ﴾[1].

ويشهد لذلك ما رُوي في الحديث القدسي عن النبي ﷺ أنه

---

(١) الحديث أخرجه ابن جرير في جامع البيان ١٤/٣٩ وذكره الرازي في التفسير الكبير ١٩/١٩٥ وابن كثير ٢/٣١٤ عن ابن أبي رباح عن بعض الصحابة.

قال: «لمّا قضىٰ اللهُ الخلقَ كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»(١) وفي رواية «تغلبُ غضبي». وفي الآية لطيفةٌ من بدائع اللطائف، فقد أضاف تعالى العباد إلى نفسه ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ وهذه الإِضافةُ إضافة تكريم وتشريف، مع أنهم في موطن العصيان والذنب، ثم قال: ﴿أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فوصف نفسه بالمغفرة والرحمة، بصيغة المبالغة، ولم يقل الغافر الراحم، بل قال ﴿الغفور الرحيم﴾ أي الكثير المغفرة، العظيم الرحمة، فإن صيغة (فعول) و(فعيل) من صيغ المبالغة، ثم انظر إلى جمال التعبير وسموِّه، حين أخبر تعالى عن العذاب، فلم يقل: وأني المعذِّب المؤلم، بل قال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ﴾ فأخبر سبحانه عن واسع رحمته، ونسب الألم إلى العذاب ولم ينسبه إلى نفسه مبالغةً في التلطف بالعباد، فهو الغفور الرحيم بالاسم والوصف، وعذابه هو العذاب الأليم بالوصف دون الاسم، وكل ذلك لترجيح جهة العفو والرحمة، فما أجلَّ وأسمى تعبير القرآن!!

قصة إبراهيم مع ضيوفه

وبعد هذا البيان الوافي عن واسع رحمته، وعظيم لطفه وإحسانه، جاء الحديث عن قصة خليل الرحمٰن، إبراهيم عليه السلام، مع ضيوفه الكرام، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله عز وجل، لإهلاك قوم لوطٍ، فمروا بطريقهم على إبراهيم ليبشروه بالبشارة السارة، بمولودٍ له سيأتيه على ما كان عليه من الشيخوخة والهرم، وعلى ما كانت عليه زوجته من

(١) الحديث أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، وفي روايةٍ للبخاري «إن الله لمّا قضى الخلق، كتب عنده فوق عرشه، إن رحمتي سبقت غضبي» وانظر جامع الأصول ٤/٥١٩.

العقم وكبر السنِّ، وفي قصته دروس وعبر، وفي ذلك يقول جلّت عظمته: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمَاً، قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ. قَالُوا لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ. قَالَ أَبَشَّرْتُمونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الكِبَـرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ؟ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالحَقِّ فَلاَ تَكُنْ مِنَ القَانِطِينَ. قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾.

ووجه ارتباط هذه الآية بما قبلها، أن الآية السابقة منعت المؤمن من القنوط ـ وهو اليأس من رحمة الله ـ وهذه الآية بيّنت على لسان أب الأنبياء، أن القنوط من رحمة الله، لا يحدث إلاّ من الكافر، الغافل عن الله، الذي استحوذ عليه الشيطان، فأضلَّه وأغواه، ثم خذله واستعبده، أما القلب العامر بالإيمان، المتَّصل بالرحمٰن، فلا يدخِل إليه بؤسٌ ولا يأس.

ضيوف إبراهيم كانوا ملائكة

لقد جاء هؤلاء الضيوف إلى إبراهيم عليه السلام، بصورة غلمانٍ مردٍ حسان، وسلموا عليه بتحية الإسلام، فردَّ عليهم السلام، ثم سارع كعادته إلى تقديم الطعام لهم، ظناً منه أنهم ضيوف، ولم يعلم أنهم ملائكة من السماء، قدموا لإهلاك قوم لوط، الفسقة الفجرة، فلما قدَّم لهم الطعام ولم يأكلوا منه، فزع منهم ولم يُخفِ عنهم هذا الفزع، بل جاهرهم به: ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي إنا منكم فزعون خائفون، لماذا لا تأكلون؟

وكان من عادة الناس، أن الضيف إذا دخل البيت ولم يأكل، فذلك علامة أنه جاء يريد الشرَّ، فلذلك سارعوا إلى تأمينه وتطمينه، وأخبروه بالحقيقة: ﴿قَالُوا لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَليمٍ﴾ أي لا تخف فإنا ملائكةٌ ولسنا بشراً، جئنا لنبشرك بمولود غلام، واسع العلم،

عظيم الذكاء، يلد لك من امرأتك «سارة» وكانت هذه البشارة بإسحق، وذلك بعد مولد إسماعيل بمدة طويلة.

تبشيره بالغلام المولود

هناك اطمأنت نفسه، وذهب عنه الفَزَع، وعرف أنهم ملائكة، فأخذ يستفسر منهم بطريقِة التعجب والاستغراب، كيف يأتيه الولد، وهو في سنٍّ يقارب المائة والعشرين، وامرأته كبيرة هرمة وهي بعدَ ذلك عقيم؟ ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونِ﴾ أي أتبشروني بولادة غلام وأنا في حالة الكبر والهرم؟ فبأي أعجوبة تبشرونني؟ فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه في العادة أمر عجب، بل هو ضربٌ من المستحيل ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ القَانِطِينَ﴾ أي بشرناك باليقين الثابت، والأمر المحقق، فلا تستبعده ولا تيأس من رحمة الله، فإن الله لا يعجزه شيء ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ إستفهام فيه معنى الإنكار، أي لا يقنط من رحمة الله، إلا الذين أخطأوا طريق المعرفة والصواب، ولم يعرفوا قدرة الله، كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا القَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ ومراد إبراهيم نفي القنوط عن نفسه على أبلغ وجه، أي ليس بي قنوط من رحمته تعالى، وإنما أريد أن أتأكد هل سيكون المولود من زوجتي العقيم، أم من زوجة أخرى أتزوجها؟ وينتهي الأمر عند هذا، فالأمر مقطوع به ومبتوت، ثم يلتفت إبراهيم عليه السلام، ليسألهم عن السبب الذي قدموا من أجله، غير موضوع بشارته بالولد ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المُرْسَلُونَ﴾ أي ما شأنكم وما أمركم الهام، الذي جئتم من أجله أيها الرسل الكرام؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ. إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا

لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الغَابِرِينَ﴾ أي الهالكين المدمَّرين، الباقين في العذاب مع المجرمين.

كان مجيئهم لأمرين اثنين: الأول بشارة إبراهيم بالمولود الجديد، والثاني إخبار لوط بإهلاك قومه بالعذاب الشديد.

قصة نبي الله لوط عليه السلام

وتمضي السورة لإكمال حلقات قصة نبي الله الخليل «إبراهيم» عليه السلام، مع قصة ابن أخيه «لوط» عليه السلام، فبعد أن بشرت الملائكة إبراهيم بتلك البشارة السارة، انطلقت متجهة نحو قرى قوم لوط لإنزال عذاب الله بالقوم المجرمين، فقد كان أهلها فسقةً فجرة، لا ينزجرون عن فعل القبيح الذي درجوا عليه، وصار لهم عادة مألوفة، ألا وهي «اللواطة» أقبح القبائح، وأرذل الرذائل، حيث ينزو الذكر على الذكر، ويأتي الرجلُ الرجلَ في دبره، مع أن مثل هذا العمل المنكر، تعافه طبائع الحيوانات والبهائم، فضلاً عن الإنسان الذي كرَّمه الله بالعقل والفهم، ولولا أن الله عز وجل أخبرنا عن فعلهم الشنيع، ما كان يخطر على البال أن يحدث مثل هذا المنكر، الذي تقشعر له الأبدان، وكان قوم لوط هم أول من ابتكر هذا الإجرام، وفعل هذا العمل المخلَّ بالمروءة والشرف، ولهذا قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطَاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ؟ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ. إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُون﴾[(١)].

قال عَمْرُو بنُ دينار: «ما نَزَا ذَكَرٌ على ذَكَر، حتى كان قومُ لوطٍ الخبثاء».

(١) سورة الأعراف آية رقم ٨٠ و٨١.

دخول الملائكة على لوط عليه السلام

وتحكي السورة لنا هنا، دخول الملائكة على لوط عليه السلام، وقد جاءوا لإهلاك أولئك المجرمين، وجاءوه بصورة شباب مردٍ حسان الوجوه، فلذلك خاف عليهم وأنكر دخولهم عليه، دون سابق معرفة، وهو عليه السلام لا يكره الضيوف، وإنما يخشى عليهم من العدوان، لا سيما وقد جاءوه بهذه الصورة البهية، فتيانٌ مردٌ حسان، وقومه السفهاء يعشقون الغلمان ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ. وَأَتَيْنَاكَ بِالحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ، وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ، وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ. وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ، أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾.

أما إنكاره لدخولهم عليه ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ فلأنه لم يعرفهم، لأنهم جاءوه بصورةٍ بشرية، ولم يأتوه بصورتهم الملكيَّة، ولذلك تعجَّب منهم وخشي عليهم، فقال لهم ما قال، والمعنى: إني لا أعرفكم، ولا أعرف من أيِّ الأقوام أنتم؟ ولأيِّ غرضٍ دخلتم عليَّ؟ فعند ذلك عرَّفوه بأمرهم، وأخبروه بأنهم ملائكة الرحمٰن، جاءوا لإهلاك قومه المجرمين(١) ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرونَ﴾ أي جئناك بالعذاب الذي كان فيه قومك يشكُّون، وهو ما كنت تعدهم به فيهزءون ويسخرون ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي جئناك بالأمر اليقيني من عذابهم، الذي لا شك فيه، فلا مجال للمناقشة والمجادلة، وإنا لصادقون فيما نقول.

(١) كان قوم لوط يسكنون في قرى عديدة، أعظمها «سدوم» و«عامورة» في أطراف شرق الأردن، وكان عددهم يزيد على أربعمائة ألف، وهم الذين قلب الله ديارهم، بسبب تلك الجريمة المنكرة اللواطة، ولم ينج منهم أحدٌ، فليعتبر المفسدون.

خروج لوط مِن القرية قبل نزول العذاب

خشيت الملائكة أن يرقَّ قلبه على قومه، فيطلب تأجيل العذاب، فأخبروه بأنه أمرٌ محققٌ، صدر من الرحمٰن، فلا يُردُّ ولا يؤخر، ثم أمروه بأن يخرج سريعاً في جناح الليل، قبل أن يبزغ الفجر، وأن يصحب معه أهله وبناته، وأن يقدِّمهم أمامه، لئلا يتأخر أحدٌ عن اللحاق به، وأن يسيروا من أرض سدوم إلى جهة بلاد الشام، وهذا معنى قوله تقدست أسماؤه ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي في جزءٍ من الليل وطائفة منه ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ أي كن من ورائهم، وسر خلفهم لتطمئنَّ عليهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي لا يلتفت أحد منكم وراءه، لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم من البلاء فيرتاع ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي سيروا حيث يأمركم جبريل، إلى جهة بلاد الشام، إلى أرضٍ لم يعمل أهلها مثل هذا العمل الشنيع، وهكذا أراد الله أن ينقلهم من هذه البلاد الظالم أهلها، لأنه سيقلبها على من فيها، ويجعل عاليها سافلها، ويدمرها عن بكرة أبيها ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ، أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ أي أخبرنا وأوحينا إلى لوط أن أولئك المجرمين، سَيُستأصلون عن آخرهم، حتى لا يبقى منهم أحد، وذلك عند دخول الصباح يتم هلاكهم ودمارهم، بحيث لا تبقى منهم عين تطرف، وذاك قضاءٌ مبرم.

وتمضي الآيات تتحدث عن سماع قوم لوط بالضيوف، فقد أقبلوا يسرعون الخُطىٰ، فرحين مستبشرين بنوعٍ من الصيد ثمين، لم يهرعوا لضيافتهم وإكرامهم كما هو شأن الكريم الفاضل، إنما جاءوا ليقضوا وطرهم الخبيث مع هؤلاء الضيوف، ولم يدروا أنهم ملائكة جاءوا لإهلاكهم ودمارهم ﴿وَجَاءَ أَهْلُ المَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ. قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ. وَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ. قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العَالَمِينَ.

قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ. لَعَمْرُكَ إنهم لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ والتعبير هنا على هذا النحو، يكشف عن مدى البشاعة والشناعة، التي وصل إليها القوم، في الدَّنس والفجور، يكشف عن هذا الانحطاط القذر، الذي تردَّى إليه هؤلاء السفهاء المجرمون، في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعات، مستبشرين بالعثور على شبان يعتدون عليهم، علناً وجهاراً، دون رادع من حياء أو خجل، أو مروءة وشهامة، هذه العلانية يترفع عنها الحيوان، بينما أولئك السفهاء المجرمون، يجاهرون بها ويتلمظون، وهي حالة من الارتكاس معدومة النظير، فأما «لوط» فوقف مكروباً يحاول أن يدفع عن ضيوفه وعن شرفه، وقف يستثير النخوة الآدمية فيهم، ويستجيش وجدان الشهامة، وهو يعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة، لم يعد فيها نخوةٌ ولا شعور إنساني، ولكنه في كربه وشدته يحاول ما يستطيع ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ. وَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ أي لا تهينوني بالاعتداء عليهم، ولا تُلحقوا بي الخزي والعار، ولكن ماذا كان جواب أولئك الفجار؟ ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العَالَمِينَ﴾ أي ألسنا قد نهيناك أن تعارضنا في أحدٍ من الناس إذا قصدناه بالفاحشة؟ ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ومراده عليه السلام بقوله «هَؤُلَاءِ بَنَاتِي» أي هؤلاء نساءُ البلد، فتزوجوا بهن إن كنتم تريدون قضاء الشهوة، ونسبهنَّ إليه «بَنَاتِي» على اعتبار أن كل نبي يعتبر أباً لأمته، قال تعالى لرسوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ والعَمْرُ هو العُمُر والحياة، أي أُقسِمُ بحياتك يا محمد إن قوم لوط، لفي ضلالتهم وجهلهم يتردَّدون ويتخبطون.

قال الحافظ ابن كثير: أقسم تعالى بحياة نبيِّهِ صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع، وجاه عريض له عليه

السلام، قال ابن عباس: «ما خلق الله، وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد، وما سمعتُ الله أقسم بحياة أحد غيره ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا» ثم أخبر تعالى ما حلَّ بالفجرة المجرمين فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ. فَجَعَلْنَا عَالِيهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ أي حجارة من طين مُتَحجِّرٍ، فيه آثار النار والدمار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ. وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ أي إن فيما حلَّ بهؤلاء المجرمين من الدمار، لدلالات وعلامات للمعتبرين، المتأملين بعين البصيرة والبصر، وإن هذه القرى المهلكة، لبطريقٍ واضح لم يَنْـدرس، يراهـا المجتازون في أسفارهم، أفلا يتعظون ويعتبرون؟ وهكذا قلب الله بهم القرى وأبقى آثارهم ظاهرة للعيان، يراها الناس في أسفارهم ورحلاتهم، وهم في طريقهم من الحجاز إلى الشام، وهكذا كانت نهاية أولئك المشئومين.

قصة أصحاب الأيكة قوم شعيب

وتمضي السورة الكريمة تقصُّ علينا بإيجاز دون إسهاب، قصة أهل مدين قوم شعيب، وهم أصحاب الأيكـة ـ أي الشجر الكثيف الملتف الأخضر ـ وقد كانوا ينعمون بالحياة السعيدة الرغيدة، وكانوا تجاراً يجمعون بين التجارة والزراعة، وأراضيهم كانت بساتين فيحاء، كثيرة الأشجار وافرة الثمار، وفيهـا الحدائق الغنّـاء، فلذلك سمُّـوا بأصحاب الأيكة، وقد بعث الله إليهم نبيَّه الكريم «شعيباً» عليه السلام، ولكنهم رفضوا نعمة الله، وكذَّبوا رسوله، فأهلكهم الله بالرجفة وبعذاب اليوم الظلة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ. فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ، وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ والمعنى: إن حال

وشأن أهل مدين، قوم شعيب، أنهم كانوا ظالمين، بتكذيبهم شعيباً، وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، وعتوهم عن أمر الله، وبذلك استحقوا العذاب!!

وتأتي قصتهم هنا بإيجاز، لأنها قد ذكرت في سورة الأعراف، وسورة هود مفصلة، ومن طريقة القرآن الكريم، أنه يذكر في بعض السور، قصص بعض الأنبياء بإسهاب، وفي مكان آخر يشير إشارة خاطفة إلى أخبارهم مع أقوامهم، ليستكمل حلقات القصة، من أجل العظة والعبرة، وقد يوجز في بعض السور، ويطنب في البعض الآخر، وكلٌّ ذلك من الأساليب البديعة التي تستدعي لفت الانتباه، ولا تدخل إلى النفس الملل والسآمة، ولم يذكر قصة نبي من الأنبياء كاملة في سورة واحدة، إلا في قصة يوسف، لأن الألوان العجيبة، والمشاهد المثيرة في قصته عليه السلام، تستدعي ذكر قصته بالكمال والتمام، وقصة شعيب هي القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة، بعد قصة آدم وإبليس، وقصة إبراهيم ولوط، وتأتي هذه بعدهما، فهي القصة الثالثة.

قِصة نبي الله صالح عليه السلام

ثم يأتي الحديث عن قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود، وهم المشهورون بأصحاب الحِجْرِ، والحِجرُ وادٍ بين المدينة والشام، وآثاره باقية يمر عليها المسافرون في طريقهم، وتُعرف بمدائن صالح، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِينَ. وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ. فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وإنما جمع الله المرسلين في إخباره عن قبيلة ثمود فقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ مع أنهم كذَّبوا نبيهم صالحاً، لينبه على «وحدة الرسالة» وأن في تكذيب واحدٍ من الرسل، تكذيباً لجميع الرسل، لأن رسالتهم واحدة، ودعوتهم واحدة، فمن كذَّب واحداً منهم فكأنه كذَّب الجميع.

وقد كانت قبيلة ثمود تعبد الأوثان، وتكفر بالإلّه الواحد الديان، فدعاهم نبيهم صالح إلى عبادة الله، وترك عبادة الأوثان، فسخروا منه واستهزءوا، وطلبوا منه على سبيل التعجيز أن يشقَّ لهم الصخر، فيُخرج لهم منها ناقة عشراء ـ أي حاملاً ـ وتلد فتضع مولودها أمام أعينهم فجاءهم بمعجزة الناقة، وكانت برهاناً ساطعاً على صدقه، ودليلاً قاطعاً على نبوته، ومع ذلك استمروا على الكفر والضلال، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ والمعنى أريناهم معجزاتنا الدالة على قدرتنا، وصدق نبينا، فلم يعتبروا ولم يتعظوا، قال ابن عباس: كان في الناقةِ آياتٌ: خروجُها من الصخر، وقربُ ولادتها عند خروجها، وعِظَمُ خلقها فلم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها ودرِّها، حيث كان اللبن يكفي العشيرة، فلم يتفكروا ولم يعتبروا، فلما طغوا وعقروا الناقة أهلكهم الله بصيحةٍ من السماء من فوقهم، ورجفةٍ شديدة من تحت أقدامهم، فأصبحوا جثثاً هامدة، لا أرواح فيها ولا حراك، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ. فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

الإبداع في خلق السموات والأرض

وبعد بيان هلاك الظالمين، انتقلت الآيات الكريمة لتتحدث عن إبداع الله لهذا الكون، وعن حكمة ما خلق اللهُ فيه من سمواتٍ

وأرضين، وبحار وأنهار، وشموس وأقمار، وما أوجد فيه من أنواع المخلوقات العجيبة التي تأخذ بالأبصار، فكلُّ هذه العجائب إنما هي من خلق الواحد القهار، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَواتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحقِّ، وَإِنَّ السَّاعَةَ لآَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ﴾ والآيات عرضت في معرض تنشيط الرسول ﷺ لتبليغ دعوة ربه، وصبره على الأذى في سبيله، وأن له بمن سبقه من الرسل أسوة، فكلهم أوذي وكلُّهم كُذِّب، والله عز وجل ما خلق هذه الكائنات إلا بالحقِّ والعدل، وإن القيامة آتية لا محالة، فيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ﴾ أي أعرض عن هؤلاء السفهاء، وعاملهم معاملة الحليم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ﴾ وهذا كالتعليل لوجوب الصبر.

نعمة الله على رسوله بإنزال القرآن

وتنتقل السورة لتذكِّر الرسول ﷺ بالنعمة العظمى عليه، بإنزال هذا القرآن العظيم، الجامع لكمالات الكتب السماوية، الذي خصَّ به أشرف رسله، وخاتم أنبيائه، ليكون ختام مسك، كما ختم بمحمد رسالاته السماوية، وتأمره بخفض الجناح لأتباعه المؤمنين، وعدم الانخداع بما عليه الكفرة من متاع الدنيا العاجل، فإنما هو بريقٌ خادع، وظل زائل، عما قريب يزول، وحسبُه أن الله أكرمه وشرَّفه بإنزال هذا الكتاب المنير ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنَ العَظِيمَ. لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ المُبِينُ. كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ المُقْتَسِمِينَ. الَّذِينَ

جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

والمراد بالسبع المثاني في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِي﴾ سورة الفاتحة، لأنها سبع آيات باتفاق، وسميت «مثاني» لأنها تثنَّى مرة بعد مرة، وتكرر قراءتها في كل ركعة من ركعات الصلاة، وهي أم القرآن، لأنها قد حوت معاني القرآن العظيم، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال، ولهذا قال النبي الكريم: «والذي نفسي بيده، ما أُنزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها، هي السبعُ المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته»[1]، وعطفُ القرآن العظيم على السبع المثاني، من عطف العام على الخاص، تشريفاً وتنبيهاً على جلالة قدر المذكور. وقال أبو بكر: مَنْ أوتي القرآن، فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي، فقد صغَّر عظيماً، وعظَّم حقيراً.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمِينَ. الَّذِينَ جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ﴾ أي أنزلنا عليك يا محمد القرآن، كما أنزلنا على اليهود والنصارى التوراة والإنجيل، فآمنــوا ببعض كتابهم وكفروا ببعضه، فانقسموا إلى فرق وأقسام، وجعلوا القرآن أجزاء متفرقة، وقالوا فيه أقوالاً مختلفة، فما وافق كتابهم وأهواءهم آمنوا، وما خالفها كذبوا به، وهذا القول مرويٌّ عن ابن عباس، كما جاء في البخاري عنه قال: «هم أهل الكتاب، جزَّءوه أجزاءً، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه»[2] وهذه تسليةٌ للرسول عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم له.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١٩/٧ في فضائل القرآن، ومالك في الموطأ ٨٣/١ في الصلاة.

(٢) انظر الحديث في جامع الأُصول ٢٠٦/٢ وهو من رواية البخاري.

أمره ﷺ بتبليغ الدعوة والجهر بها

ثم قال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ. وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

لقد أمر تقدست أسماؤه رسوله ﷺ بالجهر بتبليغ الدعوة، والإعراض عن أهل الكفر والضلال، وبشَّره بإهلاك أعدائه المستهزئين وكانوا خمسة من رؤساء الطواغيت، فكفاه الله شرَّهم، وقطع دابرهم، وقد كان صلوات الله عليه يضيق صدره منهم لاستمرارهم في الاستهزاء والتكذيب، فنجّاه الله منهم، وختمت السورة الكريمة بالأمر له عليه السلام بتسبيح الله وتمجيده، والمواظبة على عبادته إلى انتهاء الأجل، طاعةً لله وزلفى ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ والمراد باليقين في الآية الموت، والله أعلم.

تمّت بعونه تعالى سورة الحجر

* * *

سُورَةُ النَّحْلِ

مَكيَّة وآياتها ثمان وعشرون ومائة

أهداف السورة الكريمة

● سورة النحل من السور المكية، التي تعالج موضوعات العقيدة الكبرى «الألوهية، والنبوة، والبعث، والنشور» وإلى جانب ذلك تتحدث عن دلائل وحدانية الله، وقدرته العجيبة، في ذلك العالم الفسيح، في السموات والأرض، والجبال والبحار، والسهول والوديان، والماء الهاطل من السماء، والنبات النامي في الأرض، والفلك التي تجري في البحار، والنجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل، إلى آخر تلك المشاهد العجيبة، التي يراها الإنسان في حياته، ويدركها بسمعه وبصره، وهي صورٌ حية مشاهدة، دالة على وحدانية الله تبارك وتعالى، وناطقة بآثار قدرته، التي أبدع الله بها الكائنات، في كل ذرة من ذرات هذا الوجود

وفي كُلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ   تَـدُلُّ على أنه واحِـدُ

● سميت هذه السورة الكريمة «سورة النحل» لاشتمالها على تلك العبرة البليغة، التي تشير إلى عجيب صنع الخالق جلَّ وعلا، وتدل على الألوهية والوحدانية، بذلك الصنع العجيب، فالنحل خلقٌ من مخلوقات الله، يشبه الذباب في الصورة والتكوين، ولكنها تعمل بإلهامٍ بديع أودعه فيها الخالق العظيم، وتعمل بدقة عجيبة، يعجز عن مثلها العقل الإنساني، سواءً في بناء خلاياها، أو في اقتسام العمل المنظَّم بينها، أو في طريقة إفرازها العسل، الذي فيه شفاء للناس، وهي تتخذ من الجبال والشجر بيوتاً لها، وتأكل من رحيق الأزهار ما يلذُّ لها، وكلُّ ذلك بوحي وإلهام من

العلي الكبير، وقد ذُكرت فيها هذه العجائب، ليتفطن الإنسان إلى قدرته تعالى، وعجيب صنعه، في هذه الحشرة الضعيفة، التي لو اجتمع مهندسو العالم، لحارت أفكارهم في بناء تلك البيوت الهندسية، بتلك الدقة العجيبة ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً، وَمِنَ الشَّجَرِ ومِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً، يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فسبحان الإِلّه اللطيف الخبير!!

● ولكثرة ما ذكر تعالى فيها من النعم الجليلة، التي أفاضها الله على عباده، سمَّاها بعض السلف «سورةَ النِّعَم» اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ البَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً﴾ وقوله تقدست أسماؤه: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً﴾ إلى آخر ما هنالك من آيات كريمة، تشير إلى ترادف نعم الله على عباده، ليشكروه، ويعبدوه، ويطيعوه.

● ومن التذكير بالنعم، تنتقل الآيات للتذكير بالمنعم، فتتحدث عن الخالق، المدبر، الحكيم، الذي أبدع الكائنات، وخلق المخلوقات، وتقارن بين الإِلّه الحقِّ الذي لا تُحصى نعمه، وبين الأصنام المزيفة التي لا تبصر ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع، ولا تملك من أمر الخلق شيئاً ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ ثم يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُون. أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ، وَمَا يَشْعُرونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

● وهدفت السورة إلى تقرير مبدأ «الوحدانية» وحدانية الله جلّ وعلا، وذلك بلفت الأنظار إلى قدرة الواحد القهار، فخاطبت كل حاسة في الإنسان، وكل جارحةٍ في كيانه البشري، ليتجه بعقله إلى ربه وخالقه ومدبر أمره، ويستنير بما يرى من آثار صنع الله، على عظمته وبديع حكمته جلَّ وعلا،

ولذلك تتابعت الآيات الكريمة، تخاطب العين لترى، والأذن لتسمع، والعقل ليتدبر، وحشدت الكونَ كلَّه، سماءه وأرضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، وبحاره وأنهاره، ونباته وثماره، وعرضته أمام الأنظار، مكشوفاً، ملموساً، محسوساً، تكاد كل ذرّة فيه تنطق للّه بالوحدانية ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ، وَالأَبْصَارَ، وَالأَفْئِدَةَ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. أَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ؟ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

- **وفي سبيل تقرير الحقيقة الكبرى «حقيقة الألوهية» التي غفل عنها المشركون، ذكرت السورة مثلين اثنين:**

المثل الأول: مَثَلُ العبدِ المملوك، العاجزِ عن التصرف في شئون نفسه، الذي ليس له إرادة ولا ملك، مع سيده القويِّ القادر، الذي يتصرف فيه كيف يشاء، فإذا كان البشر لا يسوُّون بين المالك والمملوك، والسيد والعبد، فكيف يسوُّون بين ربِّ الكائنات، وبين الأصنام والجمادات؟ وفي ذلك يقول المولى جلّ وعلا: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً، فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً، هَلْ يَسْتَوُونَ؟ الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أما المثل الثاني: فهو حسيٌّ من واقع الحياة، يكاد يدركه الأبله، وهو مثل الأبكم الذي لا ينطق، والمشلول الذي لا يتحرك، مع الخطيب المصقع، والقوي القادر، الذي يفتن الناس ببيانه، ويسلب عقولهم بقوة برهانه، هل يستويان؟ وإليه يشير تقدست أسماؤه بقوله: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ أي أخرس ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ أي ثقيلٌ عالةٌ على سيده ومالكه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ، وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؟.

ويا له من مثل رائع، يفرق بين الهدى والضلال، وعبادة الرحمٰن، وعبادة الأوثان؟!

● وتناولت السورة الكريمة الأمم الطاغية، التي كفرت بنعم الله، فسلب الله عنها الأمن والاطمئنان، وأذاقها مُرَّ الهوان، وحرمها رغد العيش، بعد أن كانت ترفل في ثياب العز والرفاهية، وتلك هي نتيجة الكفر والطغيان ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدَاً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ، فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

● وفي مقابل صورة الجحود والكفر، ذكرت السورة الكريمة نموذجاً للطاعة والشكر، ومثَّلت له بحياة إبراهيم الخليل، ذلك العبد الذاكر، الصابر، الشاكر، الذي اختصَّه الله بالاصطفاء والخلة، وأمر سيد المرسلين، بالاقتداء بهديه وسيرته، في طاعته وعبادته وتقواه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتَاً للهِ حَنِيفَاً، وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكِينَ. شَاكِرَاً لأَنْعُمِهِ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً، وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾.

● وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالصبر على تحمل الأذى في سبيل الله، لأن الداعي كالطبيب ينبغي عليه أن يتحمل أذى وسفه المريض، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿أُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ. وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ. وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُحْسِنُونَ﴾ وهكذا بَدأت السورة بتوحيد الله، وختمت بالدعوة إلى الله، ليتناسق البدء مع الختام، في أروع صورةٍ وأجمل بيان.

تفصيل وبيان للسورة الكريمة

وبعد الإجمال يأتي الحديث بالتفصيل والبيان، عن هذه السورة الكريمة «سورة النحل» فقد أشارت إلى قرب الساعة، والتأكيد على مجيء القيامة، التي طالما أنكرها المشركون، واستبعدوا ما كان يخوِّفهم به الرسول عليه السلام من نزول العذاب، فقد كان كفار مكة إذا سمعوا الرسول ﷺ يتوعدهم بالعذاب، يقولون سخريةً واستهزاءً: ﴿عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحِسَابِ﴾(١) أي عجِّل لنا هذا العذاب الذي تتوعدنا به، فإنا نريد أن نستلذَّ به قبل مجيء يوم القيامة، فأنزل الله على رسوله هذه الآيات البينات: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والمراد بأمر الله - على رأي جمهور المفسرين - «القيامة» وما فيها من أهوال وشدائد، وإنما جاء بصيغة الماضي ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ﴾ لتحقق وقوع الأمر لا محالة، فإن الخبر إذا كان حقاً مقطوعاً به، يُعبَّر عنه بصيغة الماضي، على جهة التأكيد، كأنه لوضوحه والثقة به قد وقع، ويحسن ذلك في خبر الله تبارك وتعالى لصدق وقوعه، وكلامُ الحقِّ جلَّ وعلا يتنزه عن الخلف، ولهذا قال سبحانه بعده: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي فلا تتعجلوا هذا العذاب الذي أوعدكم به محمد، كقوله

---

(١) سورة صٓ آية رقم ١٦.

تقدست أسماؤه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ، وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ العَذَابُ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

ثم نزَّه تبارك وتعالى نفسه عمَّا يصفه به الظالمون، وعن إشراكهم معه الأنداد والأوثان فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس، وتعالى وتمجَّد، عن أن يكون له شريك في ملكه، أو يعبد معه غيره من الأصنام والأوثان!!

الوحي الإلّهي للرسل الكِرام

ثم ذكر تعالى الوحي والنبوة، وما خصَّ به بعض عباده من التشريف بإنزال الوحي عليهم، بواسطة الملائكة المقربين فقال تقدست أسماؤه: ﴿يُنَزِّلُ المَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾.

والمراد بالروح هنا الوحيُ الإلّهي، وسُمي روحاً لأن القلوب تحيا به، كما تحيا الأبدانُ بالأرواح، ومما يؤيد ذلك قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَاً مِنْ أَمْرِنَا، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾[2] ومن فضل الله على العباد، ورحمته بهم، أن تداركهم ببعثة الرسل الكرام، وأنزل وحيه السماوي عليهم، ليكونوا وسطاء بينه وبين عباده، ومثلُ الوحي كمثل النور للبصر، والروح للبدن، فالجسدُ مواتٌ مظلم كثيف، فإذا اتصل به الروح، صار حياً نورانياً لطيفاً، وقد أشار إلى ذلك المولى جلّ وعلا بقوله: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتَاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٥٣.

(٢) سورة الشورى آية رقم ٥٢.

فِي النَّاسِ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[1]؟ وما أحسن قول الشاعر:

يا خَادِمَ الجسمِ كمْ تَسْعَىٰ لِخِدْمَتِهِ أتطلبُ الرِّبْحَ فيمَا فيهِ خسْرانُ
أَقْبِلْ على النّفسِ واستكمِلْ فضائلها فأنتَ «بالرُّوحِ» لا بالجسْمِ إِنْسَانُ

فبالقرآن والوحي تكمل المعارف الإلٰهية، وتشرق في القلب الأنوارُ الربانية، فيحصل عند ذلك التخلص من ظلمة الجهالة، والانتقال من حضيض البهيمية، إلى أوج الكمال الإنساني، وبه يكمل حال الجسد، وليس الغرض الأصلي من إنزال الوحي، إلا تعريف العباد صفات هذا الربِّ المنعم، وربطهم بالخالق الحكيم، الذي هو مصدر كل فضلٍ وإحسان، ليوحِّدوه ويعبدوه ويشكروه، ولهذا قال سبحانه: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي أمرتُ الرسل بتذكير العباد، بأنه لا معبود بحق إلا الله، فاتقوا عذابي، وخافوا انتقامي، ولا تشركوا معي أحداً.

الآيات الكونية في خلق الإنسان

ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على وجوده، وقدرته، ووحدانيته، فقال تقدست أسماؤه ﴿خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ، وَمَنَافِعُ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢٢.

وهذه الآيات سيقت لإقامة الدلائل على جود الخالق جلّ وعلا، وكمال قدرته وحكمته، وقد فصَّل الباري هذه الأدلة أجمل تفصيل، فبدأ بالعالم العلوي، وما فيه من بدائع الخلق والتكوين، ثم بالإنسان وما ميَّزه الله به من حسن الصورة، وكمال العقل، ثم بأحوال الحيوان، ثم بأحوال النبات، وهذا الترتيب جاء في غاية الحسن والجمال.

ولمَّا كان الإنسان هو أشرف هذه المخلوقات، وهو المُكلَّف من بين سائر العوالم، وقد أوجد الله له هذه الدنيا ليعمرها بطاعته وعبادته، وهيأ له فيها كل أسباب العيش والراحة، ولكنه جحد النعمة، وتكبَّر على ربه، وأخذ يجادل ويخاصم بالباطل، ولذلك فقد وصفه المولى جلّ وعلا بالمعاندة والمكابرة، والمجادلة لربه، مع أنه مخلوق من شيءٍ ضعيف ﴿خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ أي خلقه من مادةٍ مهينة ضعيفة هي المنيُّ الذي ينطف من الإنسان، فإذا هو خصيم لربه، منكر فضل خالقه، واضح الخصومة، وقد خُلق ليكون عبداً لا ضداً، ولكنها طبيعة العناد والجحود، والتمادي في كفران النعمة.

وقد نبّه البـاري الإنسان على توالي نعمه عليه، ليقوم بواجب الشكر، ويترك طريق الغطرسة والكبر، فقال تقدست أسماؤه: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون﴾ والمراد بالدفء ما يستدفىء به الإنسان من البرد، من الأكسية، والأصواف، والأوبار، التي يصنع منها الملابس والبُسُط، والفرش، ثم قال سبحانه: ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾ أي ولكم فيها متعة وبهجة، حين ترجع من المرعى، وحين تسرع لترعى ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾ أي إلا بجهد ومشقة تصعب على النفس ﴿إن ربكم لرءوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما

لا تعلمون﴾ ولنمعن النظر في هذه الآيات البيِّنات، فقد عدَّدَ تعالى منافع هذه الحيوانات، التي خلقها الله للإنسان، فمنها الغذاء والكساء، والدرُّ واللبن، ومنها الزينة والجمال، ومنها المحمل والمركب، وقد ختم الله الآيات بقوله: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ وهو ختم في غاية الحكمة والإبداع، وبالأسلوب الذي يتقبله الفكر البشري في ذلك الـزمان، والقرآن حكيم في ألفاظه وبيانه، كما هو حكيم في نظمه وتشريعه، وقد خاطبهم بما يدركون ويفهمون، فلو قال لهم: هذه هي الخيل، والبغال، والحمير وسائل للركوب، وستكون هناك وسائل غيرها، من سيارات، وقاطرات، وعربات لا تجرُّها حمير، وسيكون هناك طائرات نفّاثة، ومراكب فضائية، إلى غير ما هنالك من وسائل للركوب، لسخـروا وأنكروا، لأن عقولهم لا تتحمل ذلك، فجاءهم بهذا التعبير الرائع: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ ليشمل كل ما يتمخَّضُ عنه العلم من وسائل حديثة، ويهيىء القلوب والأذهان لها، ونسبها تعالى بالخلق إليه، لأنها من صنع الإنسان الذي خلقه الله، وميَّزه بالعقل والفهم، ومنحه هذه الحواس، فتصحَّ أنَّها من خلق الله، لأنها من تعليمه وإرشاده، فللَّه ما أسمى القرآن! وما أروع إشاراته وعباراته!!

آيات الله الكونية في النباتات والثمار

وبعد أن ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الحيوانات والأنعام، أعقبه بذكر سائر النعم العظام، وما فيها من بدائع الصنع، وروائع الخلق، وكلُّها آياتٌ كونية، تشير إلى قدرة الله، وعظمته، ووحدانيته، فقد نظَّم الله الكون أبدع تنظيم، وهيَّأَ للإنسان أسباب العيش، فوق سطح هذا الكوكب الأرضي، أنزل المطر من السحاب، فأخـرج به النبات والثمار، وأجرى به الأنهار، وخلق الشمس والقمر، والليـل

والنهار، وجعل السفن تجري بقدرته في البحار، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ، وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ، وَالزَّيْتُونَ، وَالنَّخِيلَ، وَالأَعْنَابَ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

والمراد بقوله سبحانه: ﴿أنزل من السماء ماءً﴾ أي أنزل المطر بقدرته الباهرة من السحاب، فإن السماء في اللغة العربية هي: كلُّ ما علاك فأظلَّك، ويدلُّ على أن المطر ينزل من السحاب قوله سبحانه: ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً، ثم يؤلف بينه، ثم يجعله ركاماً، فترى الودق يخرج من خلاله﴾ أي فترى المطر يخرج من خلال السحاب، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾ والمعصراتُ هي السُّحب باتفاق علماء أهل اللغة، فلا تعارض بين أخبار القرآن، وبين حقائق العلوم الكونية.

فوائد المطر المتعددة

ثم ذكر تعالى فوائد هذا المطر، الذي أنعم به على البشر، وقسمه إلى قسمين: قسم لشرب الإنسان والحيوان، وقسم لسقاية الزروع والأشجار، ومن الأشجار تخرج الفواكه والثمار، غذاءً لبني آدم، والكل مرجعه إلى نفع الإنسان، ولهذا امتنّ الله علينا بقوله: ﴿لكم منه شراب، ومنه شجر فيه تسيمون﴾ أي لكم من هذا الماء ما تشربونه، عذباً فراتاً يُذهب حرارة العطش، ولكم منه ما تَسْقُون به الزروع والأشجار لترعى منها أنعامكم كما قال سبحانه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالجِبَالَ

أَرْسَاهَا. مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾[1] ثم فصَّل تبارك وتعالى ما ينشأ عن هذا المطر من أنواع النبات والشجر فقال تقدست أسماؤه: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ، وَالزَّيْتُونَ، وَالنَّخِيلَ، وَالأَعْنَابَ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صنوفها، وطعومها، وألوانها، وروائحها، وأشكالها، فمن الذي خالف بين هذه الطعوم والألوان والأشكال؟ مع أن التربة واحدة، والماء الذي يسقي هذه الأرض واحد؟ كيف خرج البرتقال والليمون، والرُّطب والعنب، والتفاح والرمان، والبطيخ والحنظل، في أرض واحدة؟ بعضُها حلو، وبعضها حامض، والبعض مرٌّ علقم؟ ولهذا ختم الباري الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في إنزال الماء، وإخراج الثمرات، لدلالة واضحة، وعبرة ساطعة، على وحدانية الله وقدرته، لقوم يُفكِّرون بعقولهم، ويستدلون على وجود الخالق الحكيم.

نظرة تفكر واعتبار

ختم الله الآية بقوله «يتفكرون» لأن المقام مقام تفكر وتدبر، والأمر يحتاج إلى أن نستعمل الفكر، ونمعن النظر، في هذه الآيات الكونية البديعة، ألا ترى أن الحبة الواحدة، والنواة الصغيرة، إذا وضعت في الأرض، ومرَّ عليها زمنٌ معيَّن، لحقها من رطوبة الأرض ما تنتفخ به، فينشق أعلاها فتصعد منها شجرة إلى الهواء، وأسفلُها يغوص منها في عمق الأرض شجرة أخرى، هي المسمَّاة بعروق الشجرة، تمتد أصولها وعروقها في الأرض، ثم ينمو الأعلى ويقوى ويشتد، فتخرج

---

(١) سورة النازعات آية رقم ٣١ - ٣٣.

منها الأوراق والأزهار، والأكمام والثمار، وتمتد العروق في الأرض لتمدَّ الشجرة بالغذاء والماء، وتتركها حلة بهيجة أمام الأبصار، فسبحان الله الواحد القهار، الذي أخرج من هذه الحبوب الصغيرة، تلك الأشجار الباسقة، والحدائق الغناء، وجعل فيها من جميع أنواع الفواكه والثمار، ما يُحيِّر الأبصار، وصدق الله حيث يقول: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا، أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[1] أي يشركون معه غيره، مع أنه وحده هو الخالق الرازق!!

آيات الله الكونية في خلق الليل والنهار

ثم لفت تعالى الأنظار، إلى خلق الليل والنهار، وتعاقبهما بنظام محكم في غاية الدقة والإحكام، وتسخير الشمس والقمر، لتحقيق مصالح البشر، وما أوجد الله في هذا الكون البديع من أنواع الأفلاك والكواكب، والنجوم الثوابت والسيارات، التي تدور في أرجاء السموات، نوراً وضياءً يهتدي الناس بها في ظلمات الليل، وكلٌّ منها يسير في فلكه الذي جعله الله فيه، يسير بحركةٍ معيَّنة مقدرة، لا يزيد عنها ولا ينقص، والجميع تحت قهره وسلطانه، وتسخيره وتقديره، وذلك آية الآيات، الدالة على وحدانية الله عز وجل، وقدرته، وحكمته، ووجوده، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

نعم إنها آياتٌ باهراتٌ، ودلائلُ ساطعاتٌ، وبراهينُ واضحات، تدل على عظمة الله وجلاله، وتحتاج إلى عقول سليمة، وأذهان ثاقبة،

(١) سورة النمل آية رقم ٦٠.

لتعرف عظمة هذه النعم الجليلة، التي أنعم بها على بني الإنسان، فالليل والنهار يتولدان من دوران الأرض حول الشمس، وتتولد عن ذلك الفصول الأربعة، والشمس والقمر يجريان بتقدير العزيز الحكيم، بحساب دقيق محكم متقن كما قال سبحانه: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ فمن الذي سخَّر الليل والنهار، والشمس والقمر، لمصالح البشر؟ أليس هو الإله المنعم المتفضل، الذي لا تُحصى نعمه وآلاؤه؟ ولو انطفأت شعلة الشمس عن الأرض، فهل يمكن العيش فوق سطح هذا الكوكب الأرضي؟ فسبحان من خلق وسخَّر، وأحكم ودبَّر، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى!!

آيات الله الكونية في خلق البحار والأنهار

وإكمالاً للنعمة، ذكر الله تعالى البحار، وما فيها من عجائب الخلق والكون فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا، وَتَرَىٰ الْفُلْكَ﴾ أي السفن ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ، وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وتسخيرُ البحر من آيات الله الباهرة، ومنافعه كثيرة، ففيه السمك طعامُ الإنسان، وفيه اللؤلؤ والمرجان، حلية وزينة للنساء، وعلى سطحه تسير السفنُ الكبيرة تحمل الأثقال والرجال، والماءُ بطبيعته سائل مائع، فكيف حمل هذه الأثقال فوق سطحه، ولم تغص إلى قراره؟ إنه تسخير المولى جلَّ وعلا ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ البَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً﴾ ولولا تسخيره تعالى وتذليله لَطَغَى البحر فأهلك الحرث والنسل، وقضى على الأخضر واليابس، ولولا تسخيره لاختلطت مياه البحار بمياه الأنهار فأفسدت حياة بني آدم، ولكنه

سبحانه بفضله وتسخيره وتذليله، جعل بينهما حاجزاً وحجراً محجوراً، كما جعل في الأرض جبالاً شامخات، وطرقاً وأنهاراً، ونجوماً يهتدي بها الناس في ظلمات الليل، فسبحانه من إلّه قدير، وإليه المرجع والمصير.

البراهينُ على وجود الله ووحدانيته

وتمضي السورة الكريمة لإقامة الأدلة والبراهين، على وحدانيته تعالى وقدرته، بعد أن ذكَّرت العباد بنعمه وأياديه وإحسانه، ولتضع مقارنةً لطيفة بين من عَبَد الرحمٰن، وبين من عبد الأوثان، فقد أثبتت الآيات السابقة بالدلائل الباهرة، والبيِّنات الزاهرة، أنه تعالى هو المتفضِّل بجميع النعم، وهو المعطي لكل هذه الخيرات، فكيف يحسن بالعاقل، أن يشتغل بعبادة موجودٍ سواه، لا سيما إذا كان ذلك الموجود جماداً لا يفهم، ولا يقدر على شيء، وليس له من الخلق والتكوين أيُّ أثر؟ وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ. أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

نبَّه تعالى في هذه الآيات على عظمته، وأنه لا تنبغي العبادة إلاَّ له، وأقام البرهان النيِّر الساطع، على بطلان عبادة غير الله تعالى، والمعنى: أتسوُّون بين الخالق للسموٰات والأرض، والإنسان والحيوان، والنبات والبحار، والجبال والأنهار، وبين من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يقدر على خلق شيء أصلاً؟ كيف تشركون هذا الصنم

الحقير، مع الخالق القدير؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تدركون خَطَأَ ما أنتم فيه من عبادة غير الله؟

إن هذا الأمر لا يحتاج إلى تدبر وتفكر ونظر؟ فإنه أظهر من الشمس في رابعة النهار، ويكفي أن تنتبهوا بعقولكم لتدركوا أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم، فهذه الأصنام جماداتٌ محضة، وليس لها فهمٌ ولا قدرة، ولا إرادةٌ ولا اختيار، فكيف تشركونها مع الـواحد القهار؟!

نِعمُ الله على عباده لا تُحصى

ثم ذكَّرهم تعالى بفضله وإحسانه، بما أغدق عليهم من أنواع النعم فقال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إذا أردتم أن تعدُّوا نعم الله التي أفاضها عليكم، لا تطيقوا عددها فضلاً عن أن تطيقوا شكرها، فالعبد وإن أتعب نفسه في القيام بالطاعات والعبادات، وبالغ في شكرها، فإنه لا يؤدي حقَّ هذه النعم، لأنها كثيرة وأقسامها وشعبها واسعة عظيمة، ولهذا ختم تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي غفور لما صدر منكم من تقصير، رحيم بالعباد حيثُ ينعم عليهم، مع تقصيرهم وعصيانهم.

وحتى ندرك بعض أسرار هذه الآية ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ نضرب هذا المثل البسيط، إنَّ كل جزءٍ من أجزاء البدن في الإنسان، لو ظهر فيه أيُّ خلل، لتنغَّص العيش على صاحبه، وتمنى أن ينفق كل الدنيا حتى يزول عنه ذلك الخلل، فلو أصيب بقرحةٍ في المعدة، أو حبس في البول، أو عُسْر هضم، ودام معه ذلك، لأصبحت حياته كلُّها كَدَراً، ولم يهنأ في طعام ولا شراب، ولو تخرَّبَتْ معه

الكُلية، أو تشمَّع معه الكَبِد، أو ضاقت معه الشرايين، فلم تعد تضخُّ الدم إلى القلب والرئتين، لشَعَر بآلامٍ يتمنَّى معها الموتَ على البقاء في الحياة.

ثم إنه تعالى ـ من حيثُ لا يشعر الإنسان ـ يدبِّر له أحوال بدنه، على الوجه الأكمل والأصلح، مع أنه لا يعلم بوجود ذلك الجزء، ولا بكيفية مصالحه، ولا بدفع مفاسده، فمن الذي سخَّر له هذه المعامل الدقيقة، تشتغل في جسده بدقةٍ وإحكام؟ في العين المبصرة، والأذن السامعة، وجهاز الهضم، وجهز التنفس، وفي الدورة الدموية، وجهاز المناعة والدفاع، وفي الشرايين والأوردة، وفي سائر ما في الإنسان من دقائق الخلق والتكوين؟ إنه الرحمٰن جلّ وعلا الذي لا تُحصى نعمه وصدق الله العظيم ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(١) فليكن هذا المثال حاضراً في ذهنك، ثم تأمّل في جميع ما خلق الله في هذا العالم، من المعادن، والنبات، والحيوان، وجعلها مهيَّأة لانتفاعك بها، حتى تعلم أن عقول الخلق تفنى في معرفة حكمة الرحمٰن في خلق الإنسان، فضلاً عن سائر وجوه الفضل والإحسان، وعند ذاك تدرك سرَّ الآية الكريمة!!

بين الإلٰه الحقِّ والآلهة المزعومة

ثم ذكر تعالى من آثار قدرته وعظمته، معرفته بدقـائق أسرار الإنسان، وأنه تعالى لا تخفى عليه خافية، بينما الأصنام التي يعبدونها لا تدرك شيئاً ولا تستجيب لنداء، ولا تعرف من عبدَها ممن دَحَاها ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا

(١) سورة إبراهيم آية رقم ٣٤.

يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُون. أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ، وَمَا يَشْعُرُون أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

والمعنى أن الإلّه يجب أن يكون عالماً بالسرِّ والعلانية، وهذه الأصنام جمادات لا معرفة لها بشيء أصلاً، ثم إنها مخلوقة، نحتها البشر بأيديهم، فكيف تحسن عبادتها؟ وكيف تكون آلهةً تُعبد من دون الله؟ وزيادة في التقبيح والتشنيع على من عبدها قال سبحانه: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي تلك الأصنام التي أضْفَوا عليها صفات الألوهية، أمواتٌ لا أرواح فيها، وهي لا تسمع ولا تبصر، ولا ترى ولا تدرك، لأنها جمادات لا حياة فيها، فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها، لما فيكم من الحياة؟ ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي وما تشعر هذه الأصنام متى تُبعث مع عابديها؟ وفيه تهكم لاذع بالمشركين، لأنهم عبدوا جماداً لا يحسُّ ولا يشعر.

سبب ضلال الكفار البغي والاستكبار

ثم ذكر تعالى صفات الإلّه الحق، الذي ينبغي أن تعنو له الوجوه، وبيَّن سبب ضلالات المشركين، وهي استكبارهم عن عبادة الرحمٰن، وإصرارهم على طاعة الأوثان، فقال تقدست أسماؤه: ﴿إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ، فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ، وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ. لَا جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ. لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ومعنى قوله تعالى ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ﴾؟ أي تنكر وحدانية الله عز وجل ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي متكبِّرون عن قبول الحقِّ، والإذعان للّه بالنطق بكلمة التوحيد. والعجيب في أمر هؤلاء المشركين أنهم جمعوا بين الضلال والإضلال، فقد كانوا يجلسون على

مداخل الطرقات في مكة، ينفِّرون الناس عن الدخول في دين الإسلام، ولهذا تحمَّلوا وزرهم ووزر من أضلوهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم، ألا ساء ما يزرون﴾ أي بئس الحمل الذي حملوه من الذنوب والأوزار، ليكون قائداً لهم إلى النار، وفي الحديث الصحيح: «مَنْ دَعَا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مثل آثام من اتَّبعه، من غير أن ينقص من آثامهم شيء»(١).

مخازي المشركين وتآمرهم على الرسول ﷺ

ثم تمضي السورة الكريمة، وهي تطالعنا بصور ومشاهد من مخازي المشركين، وتآمرهم على صاحب الرسالة، ومكرهم الخبيث لإطفاء نور الله، ولكنَّ الله ردَّ كيدهم في نحورهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم، وهذه سنّة اللهِ في رسله وأنبيائه، أنه ينصرهم ويهلك أعداءهم، ويُنجي عباده المؤمنين، وفي ذلك تسليةٌ للرسول وأتباعه، وقد صوَّر تعالى إفساده لما أبرموه من المكر بالرسل، بهذا التصوير والتمثيل الرائع، في هذه الآيات البينات ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذين مِنْ قَبْلِهِمْ، فَأَتَىٰ اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ القَوَاعِدِ، فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَأَتَاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرونَ. ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ، وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ؟ قَالَ الَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ، إِنَّ الخِزْيَ اليَوْمَ وَالسُّوْءَ عَلَىٰ الكَافِرينَ. الَّذينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ، فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ، بَلَىٰ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، فَلَبِئْسَ مَثْوَىٰ المُتَكَبِّرِينَ﴾.

(١) هذا طرف من حديث رواه مسلم والترمذي، وانظر جامع الأصول ٩/٥٦٦.

تصوير رائع للهلاك والدمار

ولعمرُ الحقِّ إنه لتصوير رائع في غاية الجمال، لحال أولئك المفسدين، الذين أرادوا المكر بالرسول ﷺ بالقتل أو الأغتيال، وقصدوا توهين عرى الدين بما ألصقوه به من شبهات وأباطيل، وكلُّ ذلك بقصد صدِّ الناس عن الدخول في الإسلام، فقد شبههم تعالى بحال قومٍ بنوا بنياناً قويَّ الدعائم، شديد البنيان، فأتى الله بنيانهم من قواعده وأسسه، فلما اندكت القواعد، وقع السقف، وكانوا تحته فهلكوا وبادوا عن بكرة أبيهم، كذلك حال هؤلاء الأشقياء المجرمين، تآمروا وخطَّطوا ودبَّروا، فكان نتيجة هذا المكر أنه عاد عليهم بالوبال والدمار، و «من حفر بئراً لأخيه أوقعه الله فيه» كما جاء في الأمثال.

وقولُه تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ ومعلوم أن السقف لا يسقط إلَّا من الأعلى، للتنبيه على أنهم كانوا تحته، ثم سقط عليهم السقف، ولرفع الاحتمال الذي يكون ناشئاً من قولهم: انهدم بناءُ فلان عليه، يريدون ذهب ملكُه وعزُّه، فلما قال: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ دلَّ هذا الكلام على أنهم كانوا تحته، وأفاد أن الأبنية قد تهدَّمت وهم ماتوا تحتها، وزيادة في التهويل قال تعالى: ﴿وَأَتَاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي جاءهم الهلاك والدمار، من حيث لا يخطر على البال، والآية بعد ذلك مشهد كامل، لما حلَّ بهم من العذاب الشامل، وصورةٌ توحي بالدمار والهلاك للظالمين، وللسخرية من مكر الماكرين، وتدبير المدبرين، الذين يقفون لدعوة الله ويحسبون مكرهم لا يُردُّ، وتدبيرهم لا يخيب، والله من ورائهم محيط.

عذاب الآخرة أشد وأخزى

هذا عذابهم في الدنيا، أما عذابهم في الآخرة فأشدُّ وأخزى ﴿ثُمَّ

يَوْمَ القِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي يُذلُّهم ويُهينهم ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾؟ أي يقول لهم على وجه التوبيخ والتقريع: أين هؤلاء الشركاء الذين كنتم تخاصمون وتجادلون عنهم، وتعادون الأنبياء من أجلهم؟ أَحْضِروهم ليشفعوا لكم؟ وهو أسلوب سخريةٍ وتهكمٍ بهم، وبآلهتهم المزعومة ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ، إِنَّ الخِزْيَ اليَوْمَ وَالسُّوْءَ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ أي يقول الدعاة والعلماء، شماتةً بأولئك الأشقياء: إن الذلَّ والهوان، والعذاب والفضيحة اليوم، على من كفر بالله، وعبدَ معه ما لا يضرُّ ولا ينفع.

قبض الملائكة لأرواح الكفار

ثم بيَّن تعالى حالهم، حين تقبض ملائكة العذاب أرواحهم الخبيثة، وهناك يلجأون إلى التضرع والاستسلام، على خلاف عادتهم في الدنيا من العناد والمكابرة، ويزعمون كذباً أنهم ما كانوا يفعلون القبيح، ولا يعملون السوء، لعلهم يتخلصون من العذاب، ولكن هيهاتَ فإن الكذب لا ينطلي على علَّام الغيوب، فلذلك يفضحهم الله ويزيد في عذابهم، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ، فَأَلْقَوْا السَّلَمَ﴾ أي انقادوا واستسلموا ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوْءٍ﴾ أي يقولون: ما أشركنا ولا عصينا، كما يقولون يوم المعاد: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال تعالى ردَّاً عليهم: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بلى قد كذَّبتم وعصيتم، والله عالمٌ بما كنتم عليه في الدنيا، فلا ينفعكم هذا الكذب، ثم صرَّح بعده بالعقاب الذي ينتظرهم فقال تقدست أسماؤه: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، فَلَبِئْسَ مَثْوَىٰ المُتَكَبِّرِينَ﴾ والمعنى: ادخلوا جهنم ماكثين فيها أبداً، فلبئست جهنم مقراً ومسكناً للمتكبرين عن عبادة الله.

تكريم المؤمنين الأبرار

وبمقابلة هؤلاء الكفرة الأشقياء، يأتي الحديث عن المؤمنين الأتقياء، وما أكرمهم الله به من أنواع التكريم في دار النَّعيم، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا خَيْراً، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ، وَلَنِعْمَ دَارُ المُتَّقِينَ. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ، كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ المُتَّقِينَ. الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ، يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ، ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وانظر إلى هذه المقابلة اللطيفة، بين السعداء والأشقياء، والأبرار والفجار، فإن أولئك الأشقياء المجرمين، كانوا إذا قيل لهم: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا أساطير الأولين، وهؤلاء المؤمنون الأبرار، إذا سئلوا ماذا أنزل ربكم على رسوله؟ قالوا خيراً أي أنزل عليه الخير والهدى والقرآن، ولهذا أكرمهم الله بدخول الجنان.

قال المفسرون: هذا كان في أيام موسم الحجيج، يأتي الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره، وعمَّا أنزل الله عليه، فيقولون: إنه ساحرٌ، وكاهن، وكذَّاب، وما جاء به إنما هو أساطير الأولين ـ أي خرافات وترهات السابقين ـ فيأتي المؤمنين ويسألهم عن محمد، وعمَّا أُنزل عليه، فيقولون: إنه رسول الله حقاً، وقد أنزل الله عليه الهدى والفرقان، قال تعالى في جزاء هؤلاء المتقين: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ وليسرحْ خيالُك في هذا الذي يشاءونه، مما أكرمهم الله به، فلا يشتهون شيئاً إلا أعطاهم الله إياه، ولا يخطر على بالهم شيءُ إلَّا حقَّقه الله لهم، فضلاً منه وكرَماً، كما قال سبحانه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ، وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ﴾ وقد ورد في الحديث «إنَّ المؤمن ينظر إلى الطير في الجنة فيشتهيه، فيقع بين يديه مشوياً» رواه البيهقي، وفي الصحيح: «من يدخل الجنة يُنعَّم ولا يَبْأسُ، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»(١).

وعيد المكذبين المجرمين بنار الجحيم

وبعد هذا البيان المستفيض، عن حال الأبرار وحال الفجّار، ومصير كلٍّ من السعداء والأشقياء، عاد الكلام إلى تقريع المشركين وتوبيخهم، على تماديهم في الباطل، واغترارهم بالدنيا فقال تقدست أسماؤه: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ المَلَائِكَةُ، أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

والمعنى: هل ينتظر هؤلاء الكفار، الذين أصرُّوا على التكذيب والاستهزاء برسل الله، إلا أن تنزل بهم ملائكة العذاب، لقبض أرواحهم، أو يأتيهم أمر ربك بعذاب الاستئصال وبالنكال والأهوال؟ فعند ذلك يرتدعون وينزجرون عن كفرهم وضلالهم؟ قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي كذلك صنع من قبلهم من المجرمين، حتى نزل بهم العذاب المعجَّل، أفليس في مصير المكذبين قبلهم عظةٌ وعبرة؟ ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي وما ظلمهم الله بذلك العقاب، فإنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ولكنهم ظلموا أنفسهم بأن

(١) الحديث أخرجه مسلم في صفة الجنة برقم ٢٨٣٦.

ظلموا وفسقوا وفجروا، فاستوجبوا ما نزل بهم من البلاء والعقاب ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ أي أصابهم عقوبات كفرهم، وجزاء أعمالهم الخبيثة ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا به يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي نزل بهم على وجه الإحاطة والشمول، جزاء سخريتهم واستهزائهم، وهو العذاب الأليم الذي استأصل شأفتهم.

يُقال في اللغة العربية: حاق به البلاء بمعنى أحاط به من كل جوانبه، بحيث لم يُفلت ولم ينج منه. والآية تصوير للعذاب الشامل المحيط، الذي نزل بأولئك المجرمين، بسبب بغيهم وعدوانهم، والعجيب في أمر الناس أنهم يرون ما حلَّ بمَن قبلهم، ممّن يسلكون طريقهم، ثم يظلون سادرين في الغيِّ، غير متصورين أن ما أصاب غيرهم يمكن أن يصيبهم، وأن سنّة الله في الانتقام من الظالمين تمضي وفق ناموسٍ مرسوم، وأن المقدمات دائماً تعطي نتائجها!

احتجاج المشركين بالقضاء والقدر

وتطالعنا السورة الكريمة، بصور أخرى من سفاهات وحماقات المشركين، فإنهم يحاولون أن يبرِّروا جرائمهم، وإشراكهم، وأفعالهم القبيحة، بالقضاء والقدر، فيقولون: اللهُ قدَّر ذلك علينا، والله قضى بذلك علينا، فليس علينا مسئولية، لأن أعمالنا وقعت بقضاء سابقٍ من الله، ونحن مسيَّرون لا مخيَّرون.. إلى غير ما هناك من الافتراءات والأباطيل، فقد أحالوا إشراكهم وتحريمهم لبعض الأطعمة والذبائح، وما كانوا ابتدعوه واخترعوه على إرادة الله ومشيئته، فلو شاء الله ـ في زعمهم ـ ألَّا يفعلوا شيئاً من هذا لمَنَعهم من فعله.

وهذا محض الكذب والافتراء على الله جلَّ وعلا، وهو وَهْمٌ وخطأٌ

في مفهوم «المشيئة والقدر» فالله ـ تقدست أسماؤه ـ لا يريد لعباده الشرك، ولا يرضى لهم أن يحرِّموا ما أحلَّ لهم من الطيبات، وإرادته هذه بيَّنها على ألسنة الرسل، في شرائعه السماوية، وما بعث اللهُ الرسل، ولا أنزل الكتب، إلاّ لتوضيح المنهج المستقيم الذي يجب أن يسير عليه الناس، ولنستمع إلى الآيات البيِّنات، وهي تحكي أقوال هؤلاء المشركين، والردَّ الساطع الواضح عليهم، حيث يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا، وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا البَلَاغُ المُبِينُ؟ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ، فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ، فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ. إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

الاحتجاج بالقدر لدفع المسئولية باطل

هذه هي مقولة المشركين، وهي مقولة الجاهلية في كل زمان ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾[1] وهنا يقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا، وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهي الكلمة التي يردِّدها الجاهلون في كل عصر، إذا عاتبتَ أحدهم لماذا لا تصلي؟ يجيبك حتى يأذن الله، لَمَ تشربُ الخمر وهي أم الخبائث؟ يقول: اللهُ قدَّر عليَّ ذلك، كيف أقدمت على قتل أخيك المسلم؟ يجيب: هذه مشيئة الله، وهذا قدرُ الله، عجيبٌ والله أن يحتج

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨.

هؤلاء السفهاء بالقضاء والقدر في فعل الشر، ولا يحتجون بالقضاء والقدر في عمل الخير، لا يُدخِلُ الإنسان يده في جيبه ليخرج المال، فيتصدق به على الفقراء والمساكين، ويقول: الله قدَّر ذلك عليَّ، ولا يبني الغني مسجداً للّهِ ويقول: هكذا قدَّر الله عليَّ، بل ينسب الإنسان فعل الخير إلى نفسه، فيقول: أنا أحسنتُ، أنا تصدقتُ، أنا بنيتُ المساجد، وفتحتُ المدارس على حسابي الخاص، أما عمل القبيح والشر فينسبه إلى القدر فيقول: هكذا قدَّر الله عليَّ، وهل الله جل وعلا قدَّر الشرَّ فقط، ولم يقدِّر الخير على الإنسان؟ إن الاحتجاج بالقضاء والقدر بهذا الأسلوب، كذبٌ وافتراءٌ على الله، ولهذا ردَّ الله عز وجل على المشركين في سورة الأنعام بقوله: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ ورَدَّ عليهم هنا بقوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي افتروا مثل هذا البهتان، واحتجوا مثل ذلك الاحتجاج الباطل ثم قال: ﴿فَهَلْ عَلَىٰ الرُّسُلِ إِلَّا البَلَاغُ المُبِينُ﴾: أي ليس على الرسل إلا التبليغ لأوامر الله، والله ينتقم من الظالمين المفترين.

نظرة تأمل في عقيدة القدر

وهنا لا بدَّ لنا من وقفةٍ قصيرة، عند عقيدة الإيمان بـالقضاء والقدر، فإنها باعثُ عملٍ لا باعثُ خمول، وليس في القضاء والقدر، معنى الإكراه والإجبار لأحدٍ من البشر، كما يظن بعض الجاهلين، فإن الله تبارك وتعالى قد رفع المسئولية والإثم، عمَّن أُكْره على فعلٍ من الأفعال، حتى الكفر الذي هو أعظم الذنوب، فإنه غير مؤاخذ به إن كان قد فعله مكرَهاً، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بالإِيمَانِ﴾ فكيف يُكره تعالى إنساناً على عملٍ، ثم

يعاقبه عليه؟ وكيف يقضي عليه بارتكاب المحرَّم، ثم يعذِّبه عليه؟ إن هذا مستحيل، بل لا يتصور في عدالة الله، الذي بعث الرسل، وأنزل الكتب لهداية البشر، لئلا يتيهوا في ظلمات الحياة.

وزبدةُ القول في أمر «القضاء والقدر» أن الله جلَّ وعلا قبل أن يخلق البشر، علم ما سيكون منهم من خير أو شر، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية، وعَلِمَ من سيؤمنُ ومن سيكفر، فسجَّل علمه هذا في اللوح المحفوظ، فلا يحدث شيء في الكون، إلاَّ وقد علمه الله من الأزل، فقضاؤه وقدرُه تابعٌ لعلمه، وعلمُه سبحانه ليس عذراً للإنسان يمكنه أن يحتج به، ليتهرب من المسئولية، بل إن الله عز وجل أعطى للإنسان الاختيار، وأمر ونهى، وحذَّر وأنذر، وبعث الرسل هداةً مرشدين، وأنزل الكتب لإنارة السبيل، فمن آمن فباختياره، ومن كفر فباختياره أيضاً ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ وقال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ، إمَّا شَاكِرَاً وَإِمَّا كَفُورَاً﴾ وما ترك من هدايته وإرشاده أمة من الأمم كما قال سبحانه هنا في الرد على المشركين: ﴿ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطَاغوت، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ، فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ﴾..

وخلاصة الموضوع:

أولاً: إن القضاء والقدر تابعٌ لعلم الله عز وجل، فما عَلِمه الله من أحوال الإنسان على وجه التفصيل، هو الذي قد جرى به القلم، وهو الذي قد تمَّ تسجيله في اللوح المحفوظ، فلا يتبدل ولا يتغيَّر، وهذا الذي سُطِّر وسُجِّل هو المسمَّى «بالقضاء والقدر».

ثانياً : الإنسان في جميع أقواله، وأعماله، وأفعاله، له إرادة وله اختيار، وليس عليه من أحدٍ إكراه ولا إجبار، وبهذا الكسب والاختيار، يثاب الإنسان على فعله أو يعاقب، ومتى أُكره الإنسان زالت عنه المسئولية، وهذا ما يشهده كل مخلوق من نفسه، عندما يُقدم على عمل، يقدم عليه بإرادته واختياره، ولا يشعر بأن هناك من يُكرهه على فعله، ولهذه الحقيقة يعترف المجرمون يوم القيامة بالذنب، ويُقرون بالمسئولية ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ. فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(١).

ثالثاً : الله عز وجل من رحمته بالعباد، أرسل لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب السماوية، وأنار لهم الطريق، ووهبهم العقل، وترك لهم الاختيار، في سلوك طريق الخير أو الشر، وأبان لهم ذلك في كتابه العزيز فقال تقدست أسماؤه: ﴿ مَـنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحَاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ. لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّـهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾(٢) صدق الله العظيم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة: «والاحتجاج بالقدر حجةٌ داحضةٌ باطلة، باتفاق كل ذي عقل ودين، من جميع العالمين، ولهذا لمَّا قال المشركون: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ ردَّ الله عليهم بقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ عِنْـدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُـوهُ لَنَا﴾؟ والمشركون يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجـة باطلة، فـإن

(١) سورة الملك آية رقم ١١.

(٢) سورة الروم آية رقم ٤٤ ـ ٤٥.

أحدَهم لو ظلمه الآخرُ، أو أراد قتل ولده، أو الزنى بزوجته، أو أصرَّ على الظلم فنهاه الناس عن ذلك، فقال: لو شاء الله لم أفعل هذا، لم يقبلوا منه هذه الحجة، ولا يقبلها هو من غيره، وإنما يحتج بها المحتج، دفعاً للَّوم عن نفسه، بلا وجه مشروع»(١).

إنكار المشركين للبعث والنشور

وتمضي السورة الكريمة، وهي تحكي لنا أمراً آخر من غرائب وعجائب المشركين، فقد أنكروا البعث، واستبعدوا وقوعه، بل اعتقدوا استحالته، فحلفوا أغلظ الأيمان وأوكدها على عدم وقوعه، إذ كيف يعود الإنسان بشراً سوياً، بعد أن أصبح رفاتاً ورميماً؟ وبعد أن أكلت الأرض جسده، وأبلت عظامه؟! وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه إخباراً عنهم ﴿وَأَقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ، بَلَىٰ وَعْدَاً عَلَيْهِ حَقّاً، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فيهِ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ. إِنَّما قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

والمعنى: حلف المشركون بالله، أغلظ أنواع الأيمان، مبالغين في التغليظ والإنكار، فقالوا: واللهِ لا يبعث الله من يموت، استبعاداً منهم للبعث، واعتقاداً باستحالته، بعد البلىٰ، وتفرق الأشلاء، واستحالة اللحوم والعظام إلى رفات وذرات، وقد ردَّ الله عليهم هذا الزعم الكاذب فقال: ﴿بَلَىٰ وَعْدَاً عَلَيْـهِ حَقّاً﴾ أي بلى والله لا بدَّ من بعثهم وإعادتهم بعد الموت، وعدَ اللهُ بذلك وعداً قاطعاً ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون قدرة الله، فينكرون البعث والنشور، ثم ذكر تعالى الحكمة من البعث والمعاد فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ،

(١) نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي بشيء من الإيجاز.

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُـوا كَاذِبِينَ﴾ أي سيعيدهم أحياء بعد الموت، ليكشف لهم ضلالهم في إنكارهم للبعث، وليحقّق العدل بين العباد، فيدخل المؤمنين الجنة، والكافرين النار، وليظهر كذب الكفار يوم الحشر والحساب، فيفتضحوا على رؤوس الأشهاد.

استبعادهم للبعث بعد الفناء

لقد كانت قضية البعث والجزاء، هي دائماً مشكلة العقيدة، عند كثير من الأقوام، منذ أن أرسل الله رسله للناس، يأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، ويُخوفونهم عذاب الله، يوم البعث والحساب.

وهؤلاء المشركون من قريش، أقسموا أغلظ الأيمان، لا يبعث الله من يموتُ، فهم يُقِرُّون بوجود الله، ولكنهم ينفون عنه بعث الموتى من القبور، يرون هذا البعث أمراً عسيراً، بل شيئاً مستحيلاً، بعد الموت والفناء، وتفرق الذرات والأشلاء! وغفلوا عن معجزة الحياة الأولى.. كيف أوجد الله الإنسان من نطفةٍ مهينة، من شيء حقير لا يذكر؟ غفلوا عن طبيعة القدرة الإلّهية، التي تقول للشيء كن فيكون، ولهذا جاء الرد القاطعُ الفاصل، من رب العزة والجلال، لهؤلاء الجاحدين الغافلين: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي لا يحتاج الأمر إلى كثير عناء، بل هو سهل هيِّن، على الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السمـاء، وليس هنـاك مشقـة في الخلق والتكـوين، بل يكفي إذا أردنا شيئاً ـ مهما عظم وكَبُر ـ أن نقول له مرَّة واحدة «كن» فيوجد في الحال، على وجه التمام والكمال، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[1] والبعث شيء من هذه الأشياء، يتمُّ

(١) سورة القمر آية رقم ٥٠.

حالما تتوجه الإرادة إليه من غير إبطاء، فما لهؤلاء المشركين ينكرون قدرة رب العالمين، وقد أوجدهم من العدم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً!!

ثواب المهاجرين في الآخرة

وتمضي السورة الكريمة، لتذكر جزاء المؤمنين، الذين هجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله، وفراراً بدينهم من أذى المشركين، وتركوا الأولاد والأموال، رغبةً في رضى الرحمٰن، ليسلموا بدينهم، هؤلاء سيكون جزاؤهم عظيماً، وثوابهم كبيراً، وهو سكناهم دار النعيم، مخلَّدين فيها لهم فيها ما يشتهون، من الحور والولدان، ولذائذ الطيبات في الجنان، مع الراحة والسعادة والنعيم الخالد، الذي لا ينقطع ولا يزول، بسبب إيمانهم وصبرهم، وإلى ذلك يشير قوله تقدست أسماؤه: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا، لَنُبَوِّأَنَّهُمْ في الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتوَكَّلُوْنَ﴾.

وكأن الآيات تقول للمشركين: هؤلاء الذين ظلمتموهم وعذبتموهم في الدنيا، من أجل إيمانهم بالله، وتصديقهم بالآخرة، سترون ما سأكرمهم به من جزيل الفضل والإنعام!! فهؤلاء المؤمنون الصادقون، الذين هجروا ديارهم وأموالهم، وتعرَّوْا عما يملكون وما يحبون، وضَحُّوا بديارهم والإنس بعشيرتهم، إذا كانوا قد خسروا الديار، فـ ﴿لَنُبَوِّأَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي فلنسكننهم خيراً مما فقدوا ﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي ثوابهم في الآخرة أعظم وأكبر، من كل ما يُتصور ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان الناس يعلمون ذلك.

قال الحافظ ابن كثير: والحسنة في الدنيا رُوي عن مجاهد أنها

الرزق الطيِّب، وقال ابن عباس: بوأهم الله المدينة المنوَّرة، فجعلها لهم دار هجرة، قال: ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم، فعوَّضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً للّه، عوَّضه الله خيراً منه، وكذلك حصل، فإن الله مكَّــن لهم في البلاد، وحكَّمهم على رقاب العباد، وصاروا أُمراء حكاماً، وجعلهم للمتقين إماماً.

مهمة الرسل تبليغ الدعوة

ثم عاد السياق إلى مهمة الرسل، وإلى بيان وظيفتهم الأصلية، من الدعوة إلى الله، وتبيين أحكامه وشرائعه للناس، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا، نُوحِي إِلَيْهِمْ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ، إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. بِالبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فقد أشارت الآيات الكريمة إلى ثلاثة أمور:

الأول : أن الرسل الذين بعثهم الله إلى العباد، هم من البشر لا من الملائكة، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلَّا رجالاً نوحي إليهم﴾ والحكمة تقتضي أن يكونوا من البشر، حتى يمكن الأخذ عنهم.

الثاني : أن هؤلاء الرسل الكرام ليسوا من عامة الناس، بل هم من الأشراف، من أهل المدن والأمصار الكبيرة، فهم ذوو حسب وشرف، اختارهم الله لتبليغ رسالته، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿بِالبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ أي أرسلناهم بالبينات الواضحات، والحجج الساطعات، وبالكتب المتفرقة التي هي وحي السماء.

الثالث : الأمر الثالث أن مهمة الرسول هي الشرح والتوضيح لآيات الله وأحكامه، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفكرون﴾.

وهكذا رسالة كل رسول إنما هي التوضيح والبيان.

تحذير وإنذار للمشركين الفُجَّار

لا يزال الحديث عن المشركين المستكبرين، المتعالين على الله وعلى رسله، وهم لا يزالون سادرين في غيهم وضلالهم، يستكبرون ويمكرون، لإطفاء نور الله، والآيات تتوعد وتنذر هؤلاء الظالمين، تخوِّفُهم من مكر الله، الذي لا يأمنه أحدٌ في ساعة من ليل أو نهار، وتذكِّرهم بشديد عقابه، أن ينزل بهم، وهم غافلون لا يدرون من أين أتاهم، والله الحليم الرحيم، يمهلهم، لعلَّهم يرعوون عن غيِّهم وضلالهم، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَيِّئَاتِ، أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بهِمُ الأَرْضَ، أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ، فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ، فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

والمعنى: هل أمن هؤلاء الكفار، الذين مكروا برسول الله، واحتالوا لقتله في دار الندوة، وسعوا لإيذائه وإيذاء أصحابه، بطرقٍ من المكر والاحتيال، هل أمنوا أن يخسف الله بهم الأرض كما فُعل بقارون؟ أو أن يأتيهم العذاب فجأة، في حال أمنهم واستقرارهم، من حيث لا يخطر ببالهم، ومن حيثُ لا يدرون ولا يعلمون؟ ثم قال تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي يهلكهم أثناء أسفارهم

للتجارة، واشتغالهم بالبيع والشراء، فإنهم لا يعجزون الله، سواءً كانوا في سفر أو حضر ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي يهلكهم حال كونهم خائفين، مترقبين لنزول العذاب، وذلك شديد على النفس، ثم بيَّن تعالى رأفته ورحمته بالعباد، وأنه لا يعاجلهم بالعقوبة مع استحقاقهم لها فقال: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي إن سبب حلمه عن أولئك الظالمين، رحمته ورأفته بالعباد.

ما معنى المكر من الله عز وجل؟

والمكرُ في اللغة: هو السعي بالفساد على سبيل الإخفاء، وهو من العباد قبيح، لأنه إيذاء وإضرار، ومن الله حسنٌ لأنه جزاء على العدوان ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ ولا يوصف الله بالمكر، إلا على سبيل المقابلة والجزاء، كما قال سبحانه: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ، وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾[1] أي جازاهم على مكرهم، بأن أحبط سعيهم، وردَّ كيدهم في نحورهم، وهذا الفعل غير قبيح.

وقد ذكر تعالى في تهديد هؤلاء الماكرين بالرسول والمؤمنين أموراً أربعة:

الأول : خسفُ الأرض بهم، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ﴾.

الثاني : مجيءُ العذاب عليهم من السماء فجأة، كما فُعل بقوم لوط، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾.

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٥٤.

الثالث : إهلاكهم أثناء أسفارهم للتجارة، بعيدين عن الأهل والوطن، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

الرابع : أن يهلكهم فرقة بعد فرقة، وجماعة بعد جماعة، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي تنقص، وقال بعض المفسرين: التخوُّفُ هنا: يُراد به الخوفُ، أي يأخذهم حال كونهم خائفين، مترقبين لنزول العذاب، وهذا شديد على النفس.

عجائب الكون

وبعد هذا البيان عن طغيان الإنسان وجبروته، وتوعُّدِ الله بالعذاب الشديد للمستكبرين المفسدين، يأتي الحديث عن الكون وما فيه من مخلوقات وجمادات، وحيوانات ونباتات، وشموس وكواكب، وملائكة وعوالم، الكلُّ قد خضع لجلال الله، وسبَّح بحمده، وسجد لعظمته وسلطانه، سوى هذا الإنسان الكافر، فإنه وحده هو الذي تكبَّر على ربه، واستنكف عن عبادته وطاعته، والكل من حوله خاضع ساجد للّه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ، يَتَفَيَّؤُ ظِلَالُهُ عَنِ اليَمِينِ وَالشَّمَائِلِ، سُجَّداً للهِ، وَهُمْ دَاخِرُونَ. وللهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوات وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ، وَالمَلَائِكَةُ، وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

هكذا يصور القرآن الكريم الكون العظيم، الذي يوحي بالإيمان والخشوع، ويرسم المخلوقات خاضعة خاشعة طائعة، ويضم إليها ما في السموات وما في الأرض من دابة، ويضيف إلى ذلك الحشد الكوني

الملائكة، فإذا بنا أمـام مشهد عجيب من المخلوقـات، والظلال، والدواب، ومعهم الملائكة، في مقام خشوع وخضوع، وعبادة وسجود، لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يستنكفون، ولا يتعالى على ربه إلا هذا الإنسان الجاحد الكافر، هو وحده الشاذ في هذا المقام العجيب.

إفراد الله بالعبادة والتعظيم

وتمضي السورة الكريمة، تأمر العباد بالعودة إلى الله، وترك عبادة ما لا ينفع ولا يضر، من بشر أو حجر أو شجر، وتقرر وحدة الإِلّه، ووحدة الخالق، ووحدة المنعم، فالله وحده هو الخالق، وهو الرازق، والبشر ـ فضلاً عن الحجر ـ لا يملكون من أمر الخلق، والرزق شيئاً، بل إن الإنسان ليفزع إلى ربه وقت الشدة، وينسى ما كان يعبد من دون الله، فلا يليق إذاً بالعبد، أن يتوجه بقلبه ومشاعره، إلى غير الخالق المنعم المتفضل، الذي خضع لعظمته كل ما في الكون، وعنت له الوجوه، وذلّت له الرقاب، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ، فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ. وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً، أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ؟ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ. ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ، إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ، فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ أي له جلَّ وعلا العبادة والطاعة والانقياد، تاماً واجباً ثابتاً، لأنه هو الإِلّه الحقُّ، الذي يجبُ أن تكون له الطاعة خالصة، ولهذا قال بعده: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ﴾ أي: أفغير هذا الإِلّه القدير تخافون وتحذرون، ولا نفع ولا ضُرَّ إلَّا بيده؟ فالإِلّه الذي

ينبغي أن يُعبد، هو الذي يملك النفع والضر، وبيده الغنى والفقر، ومنه يكون الإحياء والإفناء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ أي إذا أصابتكم شدة ومصيبة، من فقرٍ ومرض وبأساء، فإليه وحده ترفعون أصواتكم بالدعاء: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي وإذا استجاب الدعاء، ورفع عنكم البلاء، عاد فريق منكم إلى الكفر والإشراك، وهكذا طبيعة البشر، يدعون ربهم في البلاء، وينسونه وقت الرخاء، وقد جاء الوعيد والتهديد فقال سبحانه: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي ليجحدوا نعمته تعالى من كشف الضر والبلاء، وليتمتعوا بدار الفناء، فسوف يعلمون عاقبة ذلك العمل الشنيع!!

من سفاهات أهل الجاهلية

وتنتقل الآيات لتذكر لنا طرفاً من أفعال أهل الجاهلية، فقد كانوا يحرِّمون على أنفسهم بعض الأنعام، لا يركبونها ولا يذوقون لحومها، باسم الآلهة المزعومة التي سيَّبوها لهم، كما كانوا يتركون نصيباً من الزروع والأنعام تقرباً إليها، والله هو الذي رزقهم هذه النِّعَم، وليست هي من رزق الآلهة المزعومة ليردُّوها عليها، إنما هي من رزق الله، الذي يدعوهم إلى توحيده، فيشركون به سواه ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ، تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أي ويجعلون للأصنام التي لا يعلمون ربوبيتها، والتي لا علم لها، لأنها جمادات، نصيباً من الزروع والثمار والأنعام، وقد أقسم تعالى بأنهم سيسألون عن هذا الافتراء والكذب يوم القيامة فقال ﴿تالله لتسألنَّ عمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرون﴾ وهو سؤال توبيخ وتقريع.

وهكذا تبدو المفارقة العجيبة، بين تصوراتهم وتصرفاتهم في تلك

الأمور، الرزق كله من الله، والله عزّ وجل يأمرهم ألَّا يعبدوا سواه، وهم يخالفون أمره فيتخذون الأصنام آلهة، ويأخذون من رزقه، فيجعلونه فيما نهاهم عنه، وهكذا تتعارضُ وتتناقض أفعالهم وتصرُّفاتهم!!

كراهيتهم للبنات ونسبتهن إلى الله عز وجل

وهناك ما هو أعجب وأغرب في أعمال المشركين وتصرفاتهم، فقد كانوا يكرهون البنات كراهية شديدة، حتى ليستحي الواحد منهم أن يظهر أمام الناس، إذا ما وُلدت له أنثى، من شؤمها ونظرتهم الوضيعة لها، كأنما هي وصمة عار، ينبغي التخلص منها بأية حال، وهذا ما سوَّل لهم وأد البنات ـ أي دفنهنَّ وهنَّ أحياء ـ ومع هذا فقد نسبوا للّه البنات، فقالوا: الملائكة بناتُ الله، وهذا هو منتهى العسف والظلم والجور، إذ كيف يجعلون لله ما يكرهونه؟ وينسبون إليه ما يستحيون منه؟

ولنستمع إلى هذه الآيات البينات، وهي تحكي لنا هذه العجائب والغرائب، من أخبار أجدادنا العرب، في تناقضهم وتصورهم الجاهلي، ونظرتهم الوضيعة نحو البنات: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلهِ البَنَاتِ ـ سُبْحَانَهُ ـ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ. وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً، وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَىٰ مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّر بِهِ، أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ، أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ؟ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

ومعنى الآيات الكريمة: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلهِ البَنَاتِ﴾ أي ومن جهل هؤلاء المشركين وسفاهتهم، أن جعلوا الملائكة بناتِ الله، فنسبوا إلى الله البنات ولهم البنين، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزَّه الله وتعظَّم عن هذا الإفك والبهتان، وهي جملة اعتراضية للردِّ عليهم، ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين، وهذا حيفٌ في القسمة وظلم وعدوان، إذ كيف يجعلون لأنفسهم البنين وللّه

البنات؟ ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي وإذا بُشِّر أحد هؤلاء الجاهليين، بولادة بنتٍ أنثى، صار وجهه مكتئباً من الهمَّ والحزن، كأنَّه أسود البشرة ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مملوءٌ غيظاً وغمَّاً من شدة ما هو فيه من الحزن ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أي يختفي من عشيرته وقومه، خوفاً من العار الذي يلحقه بسبب البنت، كأنَّها مصيبة وبلية، وليست هبةً إلَهية، ثم يفكِّر ما يفعلُه ﴿ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ ﴾ أيمسك هذا المخلوق وهو البنت، على الذل والهوان، لا يورِّثها، ولا يعتني بها، ويُفضِّل أولاده الذكور عليها؟ ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾؟ أي أم يدفنها حيَّةً في التراب ليتخلص من شؤمها وعارها؟ أفمن يكرهونه هذه الكراهية، ويأنفون لأنفسهم عنه، يجعلونه للّه؟ ما أقبح هذه القسمة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي بئس ما صنعوا، وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوه إليه، حيث جعلوا لخالقهم البنات ـ وهي عندهم بهذه المهانة والحقارة ـ وأضافوا إليهم البنين!!

الأنثى نعمة وليست نقمة

هذه هي نظرة أهل الجاهلية، إلى هذه النعمة المهداة لهم من العلي الكبير، وهذه النظرة الجاهلية لا تزال بعض آثارها إلى زماننا اليوم، إذ ينظر بعض الآباء الجهلاء، إلى البنت على أنها بليَّة، وليست عطية، وهي النظرة التي صوَّرتها لنا إحدى النساء المفجوعات، حين هجر زوجها البيت، وترك الزوجة والأولاد، لمجرد أن زوجته ولدت له أنثى فأنشدت تقول:

مَا لأَبِي حَمْزَةَ لَا يَأْتِينا يَظَلُّ في البَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضْبَانَ أَنْ لَا نَلِدَ البَنِينَا حِكْمَةُ رَبِّي ذِي الجَلَالِ فِينَا
وَإِنَّما نُعْطِي الذي أُعْطِينَا

ولو عقل هذا الأب الجاهل، لعاد باللائمة على نفسه، قبل أن يعود باللَّوم على زوجته، فهو الذي وضع البذرة في رحم المرأة، وهو الذي ألقى إليها هذه النطفة، ألقاها إليها أنثى، فوضعت له أنثى، ولو ألقاها إليها ذكراً، لولدت له ذكراً، هذا إذا كان سيحاكم بمنطق العقل، فمن بذر في الأرض قمحاً، لا يخرج له شعير، ومن وضع نواة النخيل، لا يخرج له قصب السكر، فكما يزرع الزارع يخرج الزرع، وإذا كان يريد معرفة الحقيقة، على الوجه الشرعي، الصحيح السويّ، فالأمرُ أمرُ الله، والمشيئةُ مشيئته، هو الذي يهب الذكور والإناث، ويعطي الزوجين ما شاء هو تعالى، لا ما شاء الأبوان، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ لِلهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ. أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً، إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1] هذه هي الحقيقة يجلِّيها لنا القرآن، بأوضح عبارة، وأجمل بيان، ولا لوم على أحدٍ من الزوجين.

يقول شهيد الإسلام سيد قطب رحمه الله في كتابه «في ظلال القرآن»:

«والأنثى هبةُ الله للرجل كالذكر، وما يملك أحدٌ أن يصوِّر في الرحم أنثى ولا ذكراً، وما يملك أن ينفخ فيه حياة، وما يملك أن يجعل من النطفة الساذجة إنساناً سوياً، وإن مجرد تطور النطفة من علقةٍ إلى بشر، ليكفي لاستقبال المولود ـ أياً كان جنسه ـ بالفرح والترحيب وحسن الاستقبال، لأنها معجزة الله تتكرر، فكيف يغتمُّ من يُبشَّر بالأنثى، ويتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به؟ وهو لم يَخْلُق ولم يصوِّر، إنما كان مظهر القدرة في حدوث المعجزة الباهرة؟ وهنـا تتجلى النظرة

(١) سورة الشورى آية رقم ٤٩ ـ ٥٠.

الكريمة التي بثَّها الإسلام في النفوس والمجتمعات تجاه المرأة، بل تجاه الإنسانية، فما كانت المرأة هي المغبونة وحدها في المجتمع الجاهلي، إنما كانت الإنسانية هي المغبونة والمظلومة «الأنثى نفسٌ إنسانية، إهانتُها إهانةٌ للعنصر الإنساني، ووأدُها قتلٌ للنفس البشرية، وإهدار لشطر الحياة، مصادمةٌ لحكمة الخلق الأصيلة، التي اقتضت أن يكون الأحياء جميعاً من ذكر وأنثى».

حلم الله على العباد

وبعد هذا البيان المستفيض عن قبائح أهل الجاهلية، يأتي الحديث فائضاً بالرحمة موضحاً حلم الله على عباده، يشدُّ المؤمن نحو ربه، فمع طغيان المشركين، وعتوهم وتمردهم على أوامر الله، وإشراكهم معه من لا يضرُّ ولا ينفع، من أوثان وأصنام، فإن الله تعالى لم يُعجِّل لهم العقوبة، بل أمهلهم وأخَّرهم حلماً منه تعالى، لعلهم يرجعون إلى رشدهم، فيتوبون من الكفر، ويكفُّون عن المعاصي، ولو آخذهم بما يعملون لأهلك أهل الأرض جميعاً، ولكنه تعالى حليم تواب، يغفر الذنب ويقبل التوب، وهو الرحيم الودود، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ، مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي ما ترك على الأرض أحداً يدبُّ على ظهرها من إنسان وحيوان ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أما الأجل الذي حدَّده الله، فهو أجل انتهاء الأعمار، أو أجل الهلاك والدمار، كما قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا، وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَوْعِدًا﴾[1] ومعنى قوله سبحانه: ﴿فإذا جاء

(١) سورة الكهف آية رقم ٥٩.

أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ أي لا يتأخرون برهة يسيرة من الزمن ولا يتقدمون عليها.

والآية الكريمة بيان لحلم الله تعالى، ورأفته ورحمته بالعباد، فهو الذي خلقهم ورزقهم، وأنعم عليهم بأنواع النعم، والبشر هم وحدهم الذين يفسدون في الأرض ويظلمون، وينحرفون عن الله ويشركون، ويطغى بعضهم على بعض، ويؤذون غيرهم من مخلوقات الله، والله تبارك وتعالى يحلم على هذا الإنسان ويرأف به، ويُمهله ولكن لا يُهمله، فهي الحكمة تصاحبها القوة، والرحمة يصاحبها العدل، حتى إذا زاد الطغيان، وفسد الإنسان، دمَّرهم الله عز وجل، كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

الرسول موضِّحٌ للقرآن ومفصِّل

وتنتقل الآيات بعد ذلك، لتبيِّن مهمة الرسول الذي بعثه الله رحمةً للعالمين، وأنزل عليه الكتاب المبين، هدى وضياءً للمتقين، فقد ختم الله رسالات السماء ببعثة سيد الأنبياء ﷺ، كما ختم الكتب السماوية بالقرآن العظيم، الذي فيه الهدى والشفاء، والنور والضياء، ولكنَّ الناس لم يعرفوا قدر هذه النعمة فكذب بعضهم القرآن، وجحد وحدانية الرحمٰن، فصار بينهم الاختلاف والنزاع، كما اختلف من سبقهم من الأمم، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

والمراد بالكتاب القرآن العظيم، معجزة محمد الخالدة، وحجته الباقية إلى قيام الساعة، والرسول ﷺ موضِّح ومبيِّنٌ لما في هذا القرآن، ومن الناس من اهتدى به ومنهم من ضلَّ، فهو رحمةٌ لقوم وشقاوة على آخرين كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ، والَّذِينَ لاَ

يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[1] ولهذا قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الاستدلال على وحدانية الله بنزول المطر

ثم تلتها الآيات الكريمة، وهي تفصِّل وتوضِّح، دلائل قدرته تعالى ووحدانيته، وتذكر البرهان بعد البرهان، والدليل بعد الدليل، على تفرده تعالى بالخلق والتدبير، وكل هذه الدلائل التي ذكرها القرآن عظاتٌ وعِبَر، تغذي القلب بالإيمان، والعقل بالعرفان، وبعد أن ذكر تعالى في الآية السابقة، إنزال الكتاب المبين، وفيه حياة الروح، أتبعه بإنزال الماء من السماء، وفيه حياة الأجسام، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ فكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة، كذلك أحيا الأرض الميتة، بإنزال الماء عليها من السماء، بعد طول اليبس والجدب ولما كان نزول المطر في غاية الظهور، وحياةُ الأرض بالمطر مشاهدة لا يخالف فيها عاقل، فبيْنَا هي هامدة جرداء، إذ هي منبتةٌ خضراء، تهتزُّ بالنبات، لم يحتج الأمر إلى التفكر، ولا إلى نظر الفكر والقلب، بل يكفي الإنسان أن يُنبَّه تنبيهاً خفيفاً إليها، وأن يسمع القول فقط ليرى أثر العبرة، لذلك ختم الله الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

الاستدلال بخروج اللبن من الأنعام

ثم ذكر تعالى دليلاً آخر، من عجائب أحوال الحيوانات، التي

(١) سورة فصلت آية رقم ٤٤.

خلقها الله لنا للأكل والمركب، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سائغاً لِلشَّاربين. وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً، إِنَّ فِي ذٰلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ والأنعامُ هي الأصناف الأربعة، وهي «الإبلُ، والبقرُ، والغنمُ، والمَعْزُ» والعبرة فيها باهرة، تشير إلى عجيب صنع الخالق، وتدل على عظمة الإلٰه القدير، بهذا الصنع العجيب، فهذا اللبن الذي تدرُّه ضروعُ الأنعام، كيف وُجد؟ وكيف تكوَّن؟

إن الحيوان إذا تناول الغذاء، وصل ذلك العلف إلى معدته وكرشه، وهناك تكون عملية الهضم الأولى، فما كان منه صافياً انجذبَ إلى الكَبِد، وما كان كثيفاً نزل إلى الأمعاء، ثم ما يحصل منه في الكبد يتفاعل فيه فيصير دماً، ويكون ذلك الدم مخلوطاً بالصفراء والسوداء، وزيادة الماء، أما الصفراء فتذهب إلى المرارة، والسوداء إلى الطحال، والماء إلى الكلية ومنها إلى المثانة فيخرج منه البول، وهذا هو الهضم الثاني، وأما ذلك الدم فإنه يدخل في الأوردة، وهي العروق النابتةُ من الكبد، وهناك يكون الهضم الأخير، وبين الكبد والضرع ـ ثدي الحيوان ـ عروق كثيرة، فينصبُّ الدم في تلك العروق إلى الثدي، وهو لحم غددي رخو، فيقلب الله تعالى الدم عند انصبابه في الثدي إلى لبن أبيض، سائغ الشراب، لذيذ الطعم، فسبحان الله ما أعظم قدرته، وألطف حكمته لمن تأمل وتفكر!! ولهذا ختم الله الآيات بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ذلك لأن الأمر يحتاج إلى تفكر وتدبر، وإشغالٍ للعقل، فاللبن مستخلص من بين فرثٍ ودم، والفرث ما يتبقَّى في الكرش بعد الهضم، ثم يخرج بعد ذلك فضلات، والدم يذهب إلى كل خلية في الجسم، فإذا صار إلى غدد اللبن في الضرع، تحوَّل إلى

لبن صَافٍ، ببديع صنع الله العجيب، هذا ما يذكره علماء الطب، فهل كان محمد ﷺ يعلم هذه الحقائق الدقيقة التي ما عرفها الناس إلا منذ زمنٍ قريب، وهو نبيٌّ أميٌّ لم يقرأ ولم يكتب؟ وصدق الله العظيم ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصَاً سَائِغَاً لِلشَّارِبِينَ﴾.

عجائب قدرةِ الله في خلقه

وتمضي السورة الكريمة وهي تذكر عجائب قدرة الله جل وعلا، فيما خلق وأبدع، في هذه الحشرة الصغيرة التي تسمَّى «النحلة» فإنها آية الآيات، وعجيبة العجائب، فإن النحل تعمل بإلهامٍ من الفطرة التي أودعها إياها الخالق العظيم، وهي تعمل بدقة عجيبة، يعجز عن مثلها العقل البشري المفكِّر، سواءً في بناء خلاياها، أو في تقسيم العمل بينها، أو في تنظيم شئونها الداخلية، أو في طريقة إفرازها لذلك العسل المصفَّى، الذي فيه شفاء للناس، وهي تتخذ بيوتها في الجبال، والشجر، والأكوار التي يبنيها لها الناس، وقد ذلَّل الله لها سُبُل الحياةِ، بما أودع في فطرتها من العمل الدقيق، فهي تأكل من الأزهار ما يلذُّ لها ثم تصنع منه الشمع والعسل، وترجع إلى أكوارها بعد أن تقطع مسافات شاسعة، في البراري والأودية والجبال، دون أن تخطىء طريقها.

وقد ذكر تعالى في هذه السورة هذه العجائب، ليتفطن الإنسان إلى قدرته جل وعلا وعجيب صنعه، في هذا الحيوان الضعيف، الذي لو اجتمع مهندسو العالم لخارت أفكارهم في بناء تلك البيوت الهندسية بتلك الدقة العجيبة، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتَاً، وَمِنَ الشَّجَرِ، وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً، يَخْرُجُ

مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتفَكَّرُونَ﴾.

والمراد بالوحي هنا: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ الإلهامُ، والهدايةُ، والإرشاد، أي ألهمها وأرشدها إلى مصالحها، وإلى طريقة صنع العسل، فهو تبارك وتعالى الذي ألهمها في فطرتها وأرشدها إلى ذلك العمل الجليل، الذي يعجز عنه عباقرة العالم، فإن طريقة بناء بيوتها المسدَّسة التي تضع فيها العسل، تكاد تكون من العجائب الغريبة، إذ كيف نظَّمت هذه البيوت، وكيف رتبت العمل بينها؟ هذه للبناء، وتلك للتهوية، وأخرى لامتصاص رحيق الأزهار، وهناك جندٌ وحرسٌ، للحماية والدفاع، وكأننا في ثُكْنةٍ عسكرية، كل جنديٍّ فيها له عملٌ مخصوص، وقد جعل الله بيوت النحل في هذه المواطن الثلاثة: إما في الجبال وكواها، وإما في متجوَّف الأشجار، وإمَّا فيما يعرش لها الناس ويبنون، وهي الكوى والأكوار من الطين وغيره وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتَاً، وَمِنَ الشَّجَرِ، وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾.

وكما ألهمها الباري جل وعلا صنع تلك البيوت، ألهمها كذلك صنع العسل، فسخَّر لها الأشجار والأزهار، تأكل منها ما يلذُّ لها وتشتهيه، وبين هذه الأزهار والثمار، حلو، ومرٌّ، وحامض، فإذا جنته وابتلعته أحاله الله بقدرته، إلى عسلٍ لذيذ الطعم، حلو المذاق، شهي المنظر، فيه شفاء للناس ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ أي ادخلي الطرق في طلب المرعى، مسخَّرة مذلَّلةً لك لا تضلِّين في الذهاب أو الإياب، ثم قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أي يخرج من بطون هذه النحل، أنواعٌ من العسل، ما بين أبيض، وأصفر، وأحمر، وغير ذلك من الألوان

الحسنة، على اختلاف مراعيها ومأكلها، وفي هذا العسل دواءٌ لكثير من الأمراض، كما أثبت الطبُّ الحديث ذلك، فإن العسل غذاء وعلاج، وفيه شفاء من بعض الأمراض، قال بعض العلماء: لو قال: فيه الشفاء للناس لكان دواءً لكل داء، ولكنه تعالى قال بصيغة التنكير: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أي يشفي بعض الناس على حال دون حال، كما يشفي غيرُه من الأدوية في بعض الحالات، فالإنسان يـأكله كغذاء، ولكنـه في الوقت نفسه دواءٌ مع الغذاء، وقد لا يشعر الإنسان كيف شفي من علته إذا كان يتناول العسل، ولمَّا كثر الشفاء به، صار خليطاً ومعيناً للأدوية والمعاجن، وكثيراً ما ينصح الأطباء مرضاهم بتناول العسل، والمؤمن يزيد إيمانه عندما يرى الطبَّ الحديث، جاء مؤيداً ومؤكداً لما أخبر عنه القرآن، قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وهو ليس بحاجة إلى هذا التأييد، فعنده من قوة اليقين ما يُغنيه عن قول الأطباء، ولكنه الشهادة الصادقة من غير المسلمين، بصدق هذا الوحي الذي جاء به خاتم المرسلين ﷺ، ولو جاء الأمر على خلاف ما أخبر عنه القرآن، لكان هناك مجال للشك أو الريب من ضعفاء الإيمان.

قصة الأعرابي مع الرسول ﷺ

ولنستمع إلى هذه الحادثة العجيبة، التي رواها لنا الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما، وهي حادثة تدعو إلى الدهشة والاستغراب، إذ يصف الرسول ﷺ علاجاً ودواءً لمريض، لا يناسبه ذلك الدواء ـ حسب الظاهر ـ ولكنه في الحقيقة، هو البلسم الشافي لذلك المرض، فقد روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: إن أخي استطلق بطنه ـ أي أصيب بمرض الإسهال ـ فقال له الرسول الكريم: «اسقه عسلاً» فسقاه عسلاً،

ثم جاء فقال يا رسول الله: سقيتُه عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً ـ أي زاد معه الإسهال ـ قال: اذهب فاسقه عسلاً، فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال يا رسول الله: ما زاده ذلك إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ في المرة الثالثة: «صدق اللهُ وكذب بطنُ أخيك، إذهب فاسقه عسلاً، فسقاه عسلاً فبرىء» أخرجه الشيخان.

والرَّوعةُ في هذا الحديث الشريف، يقينُ الرسول ﷺ أمام ما يبدو حقيقةً واقعية، من زيادة استطلاق بطن الرجل، وزيادة مرض الإسهال معه كلما سقاه عسلاً، فالواقع يخالف الخبر في الظاهر، وقد انتهى هذا اليقين بتصديق الواقع له في النهاية، وبشفاء الرجل بعد المرة الثالثة، وهكذا يجب أن يكون يقين المسلم بكل قضية، وبكل حقيقة وردت في كتاب الله الجليل، مهما بدا في ظاهر الأمر مخالفةُ الواقع لها، فهي أصدق من ذلك الواقع الظاهري، لأنها خبر العليم الخبير.

قال العلماء: كان هذا الرجل عنده فضلات وأخلاطٌ في بطنه، فلما سقاه عسلاً ـ والعسلُ حار ـ تحلَّلت فأسرعت في الاندفاع، فزاده ذلك إسهالاً، فاعتقد الأعرابي أن هذا العلاج يضرُّه، فعاد إلى الرسول يخبره بما حدث، فأمره مرة ثانية أن يسقيه عسلاً، فلما سقاه ازداد بطنه اندفاعاً واستطلاقاً، لازدياد التحليل والدفع، فجاء مرتعداً يرتجف يخشى على أخيه من الموت، فقال له في المرة الثالثة: اسقه عسلاً، صدق الله وكذب بطن أخيك، فلما سقاه اندفعت الفضلات الفاسدة، المضرة بالبدن، وحينئذٍ استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام، ببركة إشارته عليه أفضل الصلاة والسلام، وهذا كله تصديق لخبر القرآن ﴿فِيهِ شَفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ اللهم ارزقنا الإيمان واليقين، واشفنا بشفائك، وداونا بدوائك واجعلنا من عبادك الصالحين يا أرحم الراحمين.

عجائب وأطوار خلق الإنسان

وتمضي الآيات الكريمة ـ بعد ذكر عجائب أحوال الحيوانات ـ إلى ذكر عجائب أحوال البشر، فتذكر طفولة الإنسان، وشبابه، ثم شيخوخته وهرمه، فكما خلق ضعيفاً في سمعه، وبصره، وقوته، لا يملك أن يدفع عن نفسه، لضعف بنيته، وسذاجة عقله، كذلك يرتد إلى مثل الطفولة، من العجز والنسيان، وضعف العقل والتفكير، وهذا من دلائل الخلق والتكوين، فإن الإنسان عاجزٌ أمام قدرة الله، فكيف يتكبر على ربه؟ ويستنكف عن عبادة خالقه؟ وهو المخلوق من نطفة من ماء مهين؟ وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ العُمُر، لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئَاً، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى الذي خلقكم من العدم، ثم يتوفاكم عند انتهاء الأجل، ومنكم من يعود إلى الخرف والهرم، حتى ينسى ما كان يعلم، ويصبح كالطفل في نقص القوة والعقل، وهو تعالى العالم بتدبير الخلق، القادر على ما يشاء، فكما قدر على توهين قوى الإنسان، بعد الشدّة والصلابة، فإنه قادرٌ على إحيائه بعد الموت، وإعادته إلى الحياة مرة أُخرى.

والمرادُ بأرذل العمر في الآية الكريمة: الهرمُ، والشيخوخةُ، وما يرافقهما من ضعف القوة، والخرف، وسوء الحفظ، وقلة الفهم، حتى

يصبح كالطفل الصغير، لا يعي خيره ومصلحته، وهذا موضع اعتبار، لذلك الإنسان الجبار، الذي يغتر بملكته العقلية وقوته البدنية، فكأن الآية تقول: أنت يا ابن آدم ضعيف من البداية إلى النهاية، فكيف تتعالى على ربك، وتنكر قدرته عليك؟! ولهذا كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الهرم، والرد إلى أرذل العمر، وكان يدعو بهذا الدعاء «أعوذ بك من البُخل، والكسل، والهرم، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات»[(١)].

قال عكرمة رضي الله عنه: «من قرأ القرآن فاستظهره لم يُرَدَّ إلى أرذل العمر»[(٢)].

تصريف الله لشئون الخلق

وتمضي السورة الكريمة وهي تطالعنا بظاهرة واقعية، من صميم واقع الحياة، فالذي قدَّر الأعمار، هو سبحانه الذي قسَّم الأرزاق، وحدَّدها لعباده، فهذا غنيٌّ وذاك فقير، وهذا مالك وذاك مملوك، ولا دخل للعقل والنبوغ في مسألة الرزق، فإنا نجد أجهل الخلق، وأقلَّهم عقلاً وفهماً، تنفتح عليه أبواب الدنيا، ويُغدق الله عليه الرزق، ونرى أعقل الناس وأكثرهم نبوغاً وذكاءً، فقير ذات اليد، لا يملك من حطام الدنيا إلا الشيء القليل، الذي لا يكاد يفي بحاجته، ولو كان أمر الغنى بسبب جهد الإنسان وعقله، لوجب أن يكون الأذكى والأعقل، هو الأغنى والأفضل، ولكنها قسمة الرزاق، الذي قسم الأرزاق، فأغنى وأفقر، ولله درُّ الإمام الشافعي حيث يقول:

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ ٣٨٨/٨ فتح الباري.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٤٦٨/٤.

ومن الدليل على القضاء وحكمه   بؤسُ اللبيبِ وطيبُ عيشِ الأحمقِ

ولنستمع إلى الآيات البينات، وهي تبين لنا تصريف الإلّه لشئون الخلق، بما فيه العظة والاعتبار، والحكمة والمصلحة، في التفاوت في الأرزاق بين أفراد البشر، حيث قال تقدست أسماؤه: ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ، فَهُمْ فِيهِ سَوَاء، أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾؟

والغرض من الآية شيئان:

الأول : بيـانٌ أن الرزق قسمةٌ من الرزاق، فاوت فيه بين العباد، لتتحقق حاجاتُ الناس ومنافعهم، ويكون بعضهم مسخرين لبعض، يقوم كل إنسان بعملٍ يخدم فيه غيره، ولو كان الناس كلهم أغنياء، لفسد نظام الحياة، وتعطلت المصالح البشرية، فمن الذي يزرع، ويبني، ويقوم باستخراج النحاس والحديد من المناجم؟ ومن الذي ينظِّف المجاري، ويكنس الطرقات، ويقطع الصخور من الجبال، لولا حاجته إلى المال؟ وإلى هذه الحكمة تشير الآية الكريمة في سورة الزخرف: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَـا، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَـوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً﴾(١) أي ليكون بعضهم مسخراً لخدمـة البعض، لتنتظم شئـون الحياة، فهـو من التسخير بمعنى الاستخدام، لا من السخرية بمعنى الاستهزاء!!

(١) سورة الزخرف آية رقم ٣٢.

الثاني : الإنكار على المشركين، فيما زعموه من الشركاء للّه رب العالمين، وهم يعترفون أنهم عبيدٌ له، يقول تعالى لهم: أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم معكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى تعالى بمساواة عبيدٍ له، ومشاركتهم له في الألوهية والتعظيم؟ قال ابن عباس: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم معهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟ وكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟ ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾؟ أي أيشركون معه غيره وهو المنعم المتفضل عليهم؟

وقال قتادة: هذا مثلٌ ضربه الله، يقول: هل منكم من أحدٍ يشاركه مملوكه في زوجته وفي فراشه؟ فكيف تعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإذا لم ترضوا لأنفسكم هذا، فالله أحقُّ أن يُنزَّه منكم.

نعمة البنين والأحفاد

ثم ذكَّرهم تعالى بنعمة الذرية والبنين، والزوجات والأولاد، والأصهار والأحفاد، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، أَفَبِالبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾؟

ونعمة البنين والأولاد، لا تقلُّ عن نعمة المال، بل تفوقها جمالاً وقدراً، فالإنسان يَفْدي ولدَه بماله، وهو يَدَّخر أبناءه لشيخوخته، ولو خُيِّر بين ذهاب ماله أو ذهاب أبنائه، لاختار ذهاب المال من غير تردُّد، ولهذا ذكَّرهم تعالى بهذه النعمة، وقدَّم ذكر الزوجات لأنهن الأصل في وجود

النسل، وهنَّ سَكَنٌ للرجل، ومن هنا تبدأ الصلة الحيَّةُ بين الجنسين ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ أي خلقهن من جنسكم وأصلكم، ليحصل الائتلاف والمودة والرحمة بينكم ثم قال: ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ أي جعل لكم من هؤلاء الزوجات الأولاد والأحفاد، والأحفادُ هم أولاد البنين والبنات، سموا حفدة لأنهم يسارعون في خدمة أجدادهم وطاعتهم، وفي هذه اللمسة الكريمة إثارة للشعور بمقدار هذه النعمة الجليلة، فالإنسان الفاني يشعر بالراحة والامتداد في الأبناء والأحفاد، وكأنه لم تنطفىء شعلته، بل هي مستمرة باستمرار ذريته ونسله، ثم أتبع هذه النعم بنعمة الإحسان والفضل والرزق فقال: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي رزقكم من أنواع اللذائذ، من الحبوب والفواكه والثمار، ما يكون لكم عوناً على هذه الحياة، ثم ختم الآية بسؤالٍ فيه إنكار وتوبيخ فقال تقدست أسماؤه: ﴿أَفَبِالبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ؟ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾؟ ألا ما أشدَّ جحودَ الإنسانِ لنِعَم الرحمٰن!!

عبادة المشركين للأحجار واستنكافهم عن عبادة القهار

وبعد هذا البيان المستفيض، حول نعم الله التي لا تحصى على عباده، وما غمرهم به من واسع فضله وإحسانه، حيث أغدق عليهم الخيرات، ورزقهم البنين والبنات، وأنبت لهم الزرع، وأخرج لهم الضرع، وهيَّأ لهم كلَّ ما يحتاجون إليه على سطح هذا الكوكب الأرضي، ومع هذا عبدوا غيره، وجحدوا فضل الله، وجعلوا له من خلقه شركاء معه، وذلك هو منتهى السَّفه وسوء التفكير، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه مزرياً بهم وموبخاً: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقَاً مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئَاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ. فَلَا تَضْرِبُوا لِلهِ

الأَمْثَالَ، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنه لعجيب حقاً أن تنحرف الفطرة إلى هذا الحد، فيعبد الإنسان جماداً، أو كوكباً وشمساً، أو حجارة صماء، لا تسمع الدعاء والنداء، ثم يطلب منها العون والرزق، وهي عاجزة عن ذلك لنفسها، فضلاً عن غيرها، ويترك الله الخالق الرازق، المالك لجميع الموجودات، فلا يتوجه إليه بدعاءٍ أو عبادة!!

وهل يُقصد المخلوق الضعيف، ويُترك الخالق القادر؟ ولهذا جاء التعبير فيه توبيخ واستنكار ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي يعبدون ما لا يقدر على إنزال مطر، ولا على إخراج شيء من النبات والثمر، ثم قال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي وليس بمقدورهم ذلك بحالٍ من الأحوال، حتى ولو أرادوا ذلك، فكيف وهم لا يسمعون ولا يبصرون؟ ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ﴾ أي لا تُمثِّلوا للّهِ الأمثال، ولا تشبِّهوا له الأشباه والنظائر، فإن الله تعالى لا مِثْلَ له، ولا شبيه، ولا نظير، ولا يمكن أن يتساوى الصنم العاجز مع الإلّه القدير، ولهذا ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي هو العالم بكل الخفيات، وأنتم لا تعلمون عظمة الإلّه الخالق.

مثلان في بطلان عبادة الأوثان

وبعد أن ذكر تعالى سفاهة المشركين، في عبادتهم لغير الله القوي الكبير، أعقبه بذكر مثلين، للسيد المالك الرازق، وللملوك العاجز، الذي لا يملك ولا يكسب، بغرض التوضيح لبطلان عبادة الأوثان، التي لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تستجيب ولا تسمع.

أما المثل الأول فمأخوذٌ من واقع الحياة، فقد كان لهم عبيدٌ

مملوكون، لا يملكون شيئاً ولا يقدرون على شيء، وهم لا يُسوُّون بين السيد المالك، والعبد المملوك، فكيف يُسوُّون بين سيد العباد، ربِّ الأرباب، وبين هذه الآلهة المزعومة؟ وإلى هذا يشير قوله تقدست أسماؤه: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدَاً مَمْلُوكَاً، لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقَاً حَسَنَاً، فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرَّاً وَجَهْرَاً، هَلْ يَسْتَوُونَ؟ الحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُم لَا يَعْلَمُونَ﴾.

توضيح المثل الأول

والمعنى: مثلُ هؤلاء في إشراكهم، كمثل من سوَّى بين عبدٍ مملوك، عاجزٍ عن التصرف، وبين سيِّدٍ حرٍّ مالك، يفعل ما يشاء لا سلطان لأحدٍ عليه، فإذا كان هذا لا يليق، مع أنهما متساويـان في البشرية، فما الظنُّ برب العالمين، حيث يشركون به أعجز المخلوقات وهي الأصنام؟ وقوله جل ثناؤه: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾؟ أي هل يستوي العبيد والأحرار، الذين ضُرب لكم بهما المثال؟ فالأوثان كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، والله هو العليُّ الكبير، المالك المتصرف في الكون، وهو على كل شيء قدير، فهل بينهما مقارنة أو موازنة؟

توضيح المثل الثاني

وأما المثل الثاني فهو يصوِّر الرجل الأبكم، الضعيف البليد، الذي لا يدري شيئاً ولا يعود بخير، مع الرجل القوي القادر، المتكلم الآمر، الداعي إلى الخير، وهو على هدى واستقامة من أمره، فإذا كان العاقل لا يسوِّي بين هذا وذاك، فكيف تمكن التسوية بين العلي الكبير، والصنم الحقير، وإلى هذا المثل يشير قوله تقدست أسماؤه: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ، لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى

مَوْلَاهُ، أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ ، وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؟ وإنه حقاً لمثلٌ واضحٌ في بيانه، ساطع في حجته وبرهانه، كأنه يقول: هل يتساوى هذا الأخرس الصامت، مع ذلك الرجل البليغ، المتكلم بأفصح بيان، وأقوى حجة وبرهان، وهو مستنير بنور القرآن؟!

الصفات الأربع التي وصف بها القرآنُ الأوثانَ

لقد وصف تعالى أصنام المشركين، التي جعلوها آلهة مع رب العالمين، بصفات أربع، تكشف أمام الأنظار، سخافات المشركين الكفار، وذلك بطريق التمثيل الرائع.

الصفة الأولى : الأبكم، ومعناه الأخرس الذي لا يستطيع النطق لعاهة في لسانه، فهو لا يستطيع أن يعبِّر عمَّا في جَنَانه، فكيف يفهم الإنسان مقصوده ومراده؟

الصفة الثانية : العجز التام، والنقصان الكامل، في قدرته وتصرفه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

الصفة الثالثة : ثقله على صاحبه ومالكه، فهو عالة يحتاج إلى من يخدمه ويرعى شئونه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وهو كَلٌّ على مولاه﴾ أي ثقيل عالة عليه.

الصفة الرابعة : عدم الانتفاع منه في قضاء حاجة من الحاجات، فضلاً عن قضاء المهمات، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾.

وقد ختم الله جلّت عظمته المثل بهذا الختم البديع فقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؟ أي هل

يتساوى الأبله الأبكم، مع الرجل الفصيح البليغ، القوي العاقل؟

كلامٌ بديع للعلّامة ابن القيم رحمه الله

قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«ذكر الله تعالى مثلين:

فالمثلُ الأولُ: ضربه لنفسه سبحانه والأوثان، فالله هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عبيده، سراً وجهراً، ليلاً ونهاراً، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، يقول: كيف يجعلونها شركاء إليَّ، ويعبدونها من دوني، مع التفاوت العظيم، والفرق المبين.

وأما المثل الثاني فالصنم الذي يُعبد من دونه، بمنزلة رجل أبكم - أي أخرس - لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، ومع هذا لا يقدر على شيء البتة، أينما أرسلته لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة، والله سبحانه حي قادر، متكلم، يأمر بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم، وهذا وصفٌ له بغاية الكمال والحمد»[1].

وبعد هذا التمثيل الرائع، جاء التعقيب المباشر، الذي يوحي بعظمة الله وجلاله، وقدرته وسلطانه، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ، أو هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي وما أمر قيام القيامة في السرعة والمجيء، إلَّا كنظرةٍ سريعة خاطفة بطرف العين، أو هي أقرب من ذلك ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لأنه الإلّه القادر على كل شيء، الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

---

(١) عن كتاب أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ١/١٦١.

نعمة العلم والحواس للبشر

ثم تمضي السورة الكريمة، وهي تذكِّر العباد بنعم الله الجليلة، التي أنعم بها عليهم، من نعمة الخلق والإيجاد، ونعمة السمع والبصر، ونعمة العقل والعلم، ونعمة الإدراك والفهم، وسائر الحواس التي وهبها الله للإنسان، وجعلها سلماً لإدراك المعارف، حتى يشكر ربه على تلك النعم، التي أفاضها عليه ربُّ العزة والجلال، ويحمده ويعبده في جميع الأحوال، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه منبهاً ومذكراً: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ، والأَبْصَارَ، وَالأَفْئِدَةَ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فالإنسان يخرج من بطن أمه، وهو خالٍ من العلم، والفهم، والشعور، والإدراك، ليس عنده قوة للمشي، ولا قدرة على الكلام، وليس عنده من الملكات العقلية والعلمية ما تخوِّله الدفاعَ عن نفسه، فضلاً عن السيطرة على هذا الكون، وتسخيره له ولمصالحه، بواسطة الاكتشافات والاختراعات، التي تحتاج إلى قدرةٍ، وقوةٍ، وعلمٍ، وذكاء، ولهذا فإن الملك الوهَّاب جلَّ وعلا، قد وهبه هذه الحواس، التي بها يمكنه الاستفادة من كنوز هذا الكون، التي خبأها الله في بطون الأرض، وفي جنبات هذا الوجود، ولم يجعله كالحيوان لا يدرك إلا شهوةَ المأكل والمشرب، وليس له ملكة عقلية يكتسب بها أنواع

المعارف والعلوم، ولهذا جاء الامتنان على الإنسان بخلق هذه الحواس والمدارك ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ أي أخرجكم من أرحام الأمهات، وأنتم خلقٌ ضعيف، لا تعرفون شيئاً أصلاً، لا تعلمون مصالحكم ومضاركم، ولا تعرفون كيف تزرعون، وتبنـون، وتسكنون؟ ولا كيف تستخـرجون المعـادن من مناجمهـا، وتستفيدون منها في حياتكم، ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه وآلائه فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي خلق لكم السمع الذي تدركون به الأصوات، والبصر الذي تدركون به المرئيات، والأفئدة وهي العقول التي تكشفون بها المخبآت، وتعرفون بواسطتها أسرار الكائنات، لعلكم تشكرون ربكم على نعَمِه الجليلة، التي أنعم بها عليكم، فالإنسانُ في أصل خلقه ضعيفٌ، وقد أفاض عليه القويُّ المتين، من فيوضات رحمته وقوته، ما يجعله خليقاً بعمارة هذا الكون.

من عجائب خلق الطير

وثمّة عجيبة أخرى من آثار القدرة الإلّهية، يراها الناس فلا تلفِتُ انتبَاهَهم، ولا يتدبرونها، وهي مشهد عجيب معروضٌ أمام الأنظار، وفيها موضعٌ للعظة والاعتبار، مشهد الطيور مسخراتٍ في جو السماء، تعلو وتنخفض، وتطير وترتفع، وتقطع مسافات شاسعة، في حركـة دائبة، بين السماء والأرض، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

والمعنى: ألم يشاهد هؤلاء المنكرون لوجود الله، هذه الطيور مذلَّلات للطيران، في ذلك الفضاء الواسع بين السماء والأرض؟ ﴿مَا

يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ﴾ أي ما يمسكهن عن السقوط، عند قبض أجنحتهن وبسطها، إلا الله سبحانه وتعالى!! ثم ختم تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في هذا الصنع لعبراً وعظات، وعلامات باهرات، لقوم يصدِّقون بالله، ويؤمنون بوحدانيته ووجوده.

اختراع الطيران بطريق معرفة أحوال الطير

وأمرُ الطير أمرٌ عجيب، يستدعي التبصر والتأمل، فهذا الحيوان الطائر، سواءً كان صغيراً كالعصفور، أو كبيراً كالصقر، والوزِّ، والبوم، فإن طيرانه في الهواء مع ثقل جسمه شيء غريب، إذ إنه يحلِّق عالياً ولا يسقط، وليس تحته ما يدعمه، ولا فوقه ما يمسكه، إنما أمسكته قدرة الله اللطيف الخبير، وبواسطة الطير، وشكلها، وكيفية طيرانها، اخترع الناس الطائرات، فجعلوا لها جناحين كالطير، تنقبض وتنبسط؛ ومقدِّمة محدَّبة كرأس الطائر، حتى تشق الهواء، ومؤخرة كالذنب، فسبحان من جعل من الطير آلة ينسج على نسلها الإنسان، فيصنع الطائرة، وهي من حديد، ولكنها على شكل الطير يقطع بها المسافات البعيدة، نعمة من الكبير المتعال، الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم، ولو لم ير الإنسان الطير محلقاً فوقه يطير بين السماء والأرض، لما استطاع أن يخترع الطائرة، ولما فكَّر أصلاً في إمكان الطيران في أجواء الفضاء، ولكنها حكمة الله ليرينا كيف نستفيد من حركات هذا الطير الصغير!

قال الإمام الرازي: «وفي الآية دليلٌ على كمال قدرة الله تعالى وحكمته، فإنه لولا أنه سبحانه خلق الطير خلقةً معها يمكنه الطيران، وخلق الجوَّ خلقةً معها يمكنه الطيران فيه، لما أمكن ذلك، فإنه تعالى أعطى الطير جناحاً يبسطه مرة، ويكسره أخرى، مثل ما يفعله السابح في

الماء، وخلق الهواء خلقةً لطيفةً رقيقة، يسهل بسببها خرقُه والنفاذُ فيه، ولولا ذلك لما كان الطيران ممكناً».

نعمة السكن في الأوطان

ثم تنتقل السورة بعد ذلك، لتذكير العباد بنعمة الأمن والسكن والاستقرار، في الأوطان والأسفار، وما يَسَّره لهم من أنواع النعم الظاهرة والخفية، من سكنٍ ومتاعٍ، وأكنان وظلال، ولباسٍ ورياش، كلُّ ذلك ليهيىء لهم السكن والراحة في السفر والحضر ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً، تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ، وَمِنْ أَصْوَافِها، وَأَوْبَارِهَا، وَأَشْعَارِهَا، أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ﴾.

ولنقف قليلاً عند هذا النصِّ القرآني، الرائع في التعبير والتصوير ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيوتِكُمْ سَكَناً﴾ فليس البيت للنزاع، والشقاق، والخصام، إنما هو للسكينة، والراحة، والاستقرار، وهكذا يريده الإسلام، للسكينة النفسية، والراحة، والأمن والهدوء، ومن ثَمَّ يضمن الإسلامُ للبيت حرمته، ليضمن لساكنه أمنه وسلامَهُ واطمئنانه، فلا يدخله داخلٌ إلا بعد الاستئذان، ولا يقتحمه أحد على غفلةٍ من أهله ولو باسم السلطان، لأن الله جعله حمىً، وأمناً لساكنه كما جعل بيته الحرام حمىً لداخله.

وهذه بيوتُ الإقامة للساكن في الوطن، تبنى من الحجر والمدر، ليستقر فيها الإنسان، وأمَّا في السفر، فقد جعل لنا بيوتاً خفيفةً لطيفة،

من الجلد أو الشعر، تنتقل مع الإنسان من مكان إلى مكان كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي جعل لكم هذه الخيام والمضارب، المصنوعة من جلود الأنعام أو أشعارها، تستخفون حملها ونقلها في أوقات السفر والحَضَر، ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي وجعل لكم من أصواف الغنم، ووبر الإبلِ ، وشعر الماعز، ما تلبسونه وتفترشونه في بيوتكم، وما تتمتعون به في هذه الدنيا إلى انتهاء الأجل، وهكذا نبَّه الباري جلَّ وعلا، على نعمة الراحة والسَّكن، ونعمة الأمن والاستقرار، ونعمة اللباس والفراش، في هذه الآيات الجليلة، ليشكره العباد على نعمه وأياديه، وفضله وإحسانه، وبالشكر تدوم النِّعم.

نعمة الظلال والملابس

وإكمالاً لتعداد النعم، التي ذكرها الله في الآيات السابقة، من نعمة السَّكن، ونعمة السمع والبصر والكلام، ونعمة العلم والعقل، ونعمةِ الأثاث واللباس، يأتي الحديث عن نعمة الظلال، ونعمة الحصون والمعاقل في الجبال، ونعمة الثياب التي تقي من الحر والبرد، والدروع التي تدفع خطر الحرب، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الجِبَالِ أَكْنَاناً، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ، وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ، كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ المُبِينُ. يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا، وَأَكْثَرُهُمُ الكَافِرُونَ﴾.

وإنما ذكر تعالى نعمة الظلال، لأن بلاد العرب شديدةُ الحر، وحاجتهُم إلى الظِلِّ كحاجتهم إلى المأكل والمطعم، ولا تُعرف قيمةُ

الشيء إلا بضدِّه، فهم بحاجة إلى الظلِّ يستروحون بـرْدَه وأُنسه، وبخاصةٍ لمن كان كثير التَّرحال، ينتقل من مكان إلى مكان، طلباً لمرعى الإبل والغنم، فهذا عنده ساعة يستظل بها تحت ظلال الأشجار، أو ظلال الكهوف والجبال، خيرٌ من فاخر الطعام تحت الشمس المحرقة، ولهذا السرِّ ذكر تعالى نعمة الظلال فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ وَجَمَع الظلالَ هنا لتشمل ظلال الأشجار، وظلال الجبال، وظلال البيوت والمساكن، وظلال الكهوف والملاجىء، وظلال السحاب في بعض الأحيان، فكلها ظلال من نعم الله على العباد، ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ والأكنان جمع كِنٍّ مثلُ حِمْلٍ وأحمال وهو ما يُكِنُّ الإنسان ويحميه ويقيه من العواصف، والرياح، والأمطار، وحرارة الليل والنهار، ففي الجبال ملاجىء تقي الإنسان شرَّ عوادي الزمان، وفيها ما يصلح بيوتاً للسكن والاستقرار، ونظراً لارتفاعها تكون أبرد في الليل والنهار من سائر الأماكن.

نعمة الثياب والدُّروع

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ والسرابيلُ جمع سربال، وهو القميص أو الثوب الذي يلبسه الإنسان، يدفع به الحرَّ أو البرد عن نفسه، واكتفى تعالى بذكر الحرِّ عن البرد، لدلالة ضدِّه عليه، فكل ما يقي من الحر يقي من البرد، ولأنه أمسُّ في بلاد العرب والحجاز، والبردُ فيها معدوم في الأكثر، وهذه السرابيلُ بمعنى الثياب، منها ما يكون من القطن والكتان، وهذه تلبس لرفع الحرارة، ومنها ما يكون من الصوف والأشعار والأوبار، وهذه تقي من البرد في الشتاء ثم قال تعالى: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ أي ودروعاً تشبه الثياب، تتقون بها

شرَّ أعدائكم في الحرب، والسربالُ عامٌّ يقع على ما يكون من قطنٍ، أو صوف، أو حديد، والمراد به هنا الدرع الذي يقي أذى ضرب السيف أو الرمح والسيف، وهو الذي علَّمه الله لنبيه الكريم داود عليه السلام، كما قال سبحانه: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ، لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ، فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾؟ ثم ختم الله الآية الكريمة بقوله: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ اللهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي مثل هذا الإنعام الجليل، يتم الله نعمته عليكم بما تستعينون به على أمركم، لتعرفوا فضله وإنعامه، وتستسلموا لحكمه وأمره.

ولما كانت هذه النعم لسَكَنِ الإنسان وراحته، وأمنه وسعادته، وكلها يوحي بالطمأنينة والسكن، ناسب أن يختم الآية بما يدلُّ على الاستسلام، والسكن والركون فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

جحود البشر لفضل المنعم

ثم تمضي السورة الكريمة، تُبيِّنُ كُفْرانَ النَّاس لنعمِ اللهِ، مع كثرة ما أغدق عليهم من الفضل والإحسان، ولكن طبيعة الإنسان تأبى إلا الجحود والكفران، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرونَهَا، وَأَكْثَرُهُمُ الكَافِرُونَ﴾ أي يعرفـون أن الله هو المنعم المتفضِّل عليهم، ثم ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، وأكثر الناس جاحدون لوحدانية ربهم منكرون لوجوده، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ والحساب على هذا الكفر ليس هنا في هذه الدار، وإنما هو في دار البعث والنشور، لأن الله تعالى جعل الدنيا دار العمل، وجعل الآخرة دار الجزاء، فهنا عملٌ ولا حساب، وهناك

حساب ولا عمل، ولا شيء ينفع الإنسان حينئذٍ ولا ندم، ولهذا عقَّبه تعالى بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شهيداً ثم لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا، وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ. وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا العَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ، وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ. وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ، قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ، فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القَوْلَ، إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ. وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُون﴾.

النبيُّ شاهدٌ على أمته يوم القيامة

والشهيد الذي يشهد على كل أمة هو نبيّها، يشهد عليها بما ردَّتْ عليه وأجابته حين بلَّغها دعوة ربه، وهناك تسودُّ وجوه الظالمين الكافرين، فهم ساكتون واجمون، لا يؤذن لهم في حجة ولا استشفاع، ولا يُطلب منهم أن يسترضوا ربهم بقولٍ أو عمل، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يؤذن لهم في الكلام بعد شهادة نبيّهم عليهم، ولا يُسمح لهم أن يسترضوا ربهم بطلب العفو، فقد فات أوان الاسترضاء والعتاب، وجاء وقت الحساب والعقاب.

يُقال في اللغة العربية: استعتبني فلانٌ فأعتبتُه أي استرضاني فقبلت عذره وصفحت عنه، وهذا كما قال تعالى: ﴿هَـذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ. وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾(١).

ثم أخبر تعالى أن عذاب الآخرة ليس فيه إمهال ولا تخفيف فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا العَذَابَ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ

(١) سورة المرسلات آية رقم ٣٥ و ٣٦.

وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي ولا هم يمهلون ويؤخرون طرفة عين، بل يأخذهم العذاب سريعاً، ويُدحرجون في جهنم جميعاً، وهناك في ذلك الموقف المخزي لأعداء الله، تتبرأ منهم آلهتهم أحوج ما يكونون إليها ﴿وَإِذَا رَأَىٰ الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ﴾ أي هؤلاء الذين عبدناهم من دونك، وهم الذين زينوا لنا الشرك والضلال ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي قالت لهم الآلهة: كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي ألقوا الاستسلام والانقياد لحكم الله، بعد الإباء والاستكبار في الدنيا، إذ ليس لهم هناك حيلة ولا دفع ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي بطل أملهم في آلهتهم المزعومة.

مضاعفة العذاب للمشركين في الآخرة

وينتهي الموقف بمضاعفة العذاب، لأولئك المشركين الضالين، فلا ناصر لهم اليوم، ولا مجير ولا معين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ، زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ وهكذا بدل أن يُخَفَّف عنهم العذاب، يُضاعف ويُزاد، لكونهم كانوا مغرقين في البغي والفساد، وتلك هي سنّة الله ولن تجد لسنّة الله تبديلاً!!

وإنما ضاعف الله تعالى للكفار العذاب، لأنهم كانوا يهزءون ويسخرون من الأنبياء والمؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مرُّوا بهم يتغامزون﴾ فجازاهم الله على كفرهم بعذاب النار، وضاعف لهم العذاب لسخريتهم بالمؤمنين الأشراف.

المقام الرفيع لسيد الرسل والأنبياء

وتنتقل الآيات بعد ذلك، لبيان الشرف العظيم، والمقام الرفيع، لسيد الرسل محمد ﷺ في ذلك الموقف العصيب، الذي يكذِّب فيه الشركاءُ شركاءهم، ويستسلمون للّهِ متبرئين من دعوى عبادة الضالين لهم، يأتي السياق ليبرز شأن هذا الرسول، ومكانته الرفيعة عند الله، وعظمة الكتاب الذي أنزل عليه، فهو خاتم المرسلين، وكتابُه أشرف الكتب السماوية، وقد جمع الله فيه علوم الأولين والآخرين، لأنه خاتمة الكتب، كما أن رسول الله ﷺ خاتم النبيين، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدَاً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدَاً عَلَىٰ هَؤُلَاءِ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدَىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلمُسْلِمِينَ﴾.

والمراد بالشهيد الذي يشهد على الأمة، هو نبيُّها ورسولُها، الذي شاهد أحوالها، شاهد كفرَها وإيمانَها، وهُداها وضلالها، فكل نبيٍّ يشهد على أمته يوم القيامة بما أجابته من إذعانٍ أو كفران، ويقوِّي هذا القولَ، أن الله قرن بين شهادة الرسل على أقوامهم، وشهادة النبي ﷺ على أمته، حيث قال جل ثناؤه: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدَاً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ وتكون هذه الآية الكريمة، شبيهة بقوله جلّ وعلا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ

بِشَهِيدٍ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾(١) والقرآن يُفسِّر بعضه بعضاً.

وقيل: إن المراد بالشهيد في الآية الكريمة، هو جوارح الإنسان وأعضاؤه، تشهد عليه بما فعل في الدنيا، وهي عشرة: «العينـان، والأُذُنان، واليَدَان، والرِّجْلانِ، والجِلدُ، واللِّسانُ» قالوا: إن الله ينطق هذه الأعضاء، لتكون شاهدة على الإنسان، وأيّدوا قولهم هذا بأن الله تعالى قال في الآية «من أنفسهم» وليس الشاهد على الإنسان من نفسه إلّا هذه الأعضاء، كما قال سبحانه: ﴿الْيَـوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِم لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٢).

في القرآن شفاء وبيان

ثم أخبر تبارك وتعالى عن عظمة القرآن، وجلاله، وما حواه في طيَّاته من نفائسَ ودرر، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدَىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

والمعنى: ونزلنا عليك يا محمد القرآن العظيم، نوراً وضياء، وبياناً شافياً واضحاً، فيه كل ما يحتاج الناس إليه من أمور الهداية والدين، فلا حجّة لهم بعده ولا معذرة، وهو هدى للقلوب، ورحمة للعباد، وبشارة للمسلمين المهتدين.

---

(١) سورة النساء آية رقم ٤١.

(٢) القول الأول هو الأرجح، لأن الله تعالى قال: ﴿ويومَ نبعث في كل أمة شهيداً﴾ فذكر الأمة ولم يقل: ﴿ويوم نبعث في كل إنسان﴾ ـ وإن كان الرأي الثاني قوياً وله شواهد من الآيات الكريمة والله أعلم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: قد بُيِّن لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء، فهو النور المبين.

وتوضيح هذا القول، أن القرآن العظيم، اشتمل على كل علمٍ نافع، من قصص وأخبار من مضى، وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناسُ إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم، وما يصلحهم ويسعدهم، فهو الكتاب التامُّ الشافي، الذي جمع بين هداية القلوب، وصلاح الأبدان، وتنظيم شئون الحياة على أكمل الوجوه، وصدق الله ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ فهذا التعميم يدل على الشمول، ثم قال: ﴿وَهُدَىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

آيةٌ جمعت الفضائل والخيرات

وكشاهدٍ وبرهان، على شمول هذا القرآن، وأنه كتاب هدايةٍ وإصلاح، وسعادة وفلاح، لمن تمسك بتعاليمه، واستنار بنور ضيائه، جاءت الآيات بعدها لتلخص مهمة هذا الكتاب، الذي فيه تبيان كل شيء، في كلمات وجيزة، وعبارات قليلة، جامعة لأصول الدين، ومتطلبات الحياة، من أخلاق وآداب، ومعاملات وأحكام، وتربيةٍ وإصلاح، وهداية وإرشاد، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ، وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَىٰ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ، وَالبَغْيِ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قال ابن مسعود: «هذه أجمعُ آية في القرآن لخيرٍ يُمتثل، ولشرٍّ يُجتنب» فقد تناولت كل الفضائل الدينية والاجتماعية، فرغبت فيها وحضَّت عليها، وحذرت من كل القبائح والشرور والآثام، فنهت عنها

ونفَّرت منها، ولهذا جعلها الخطباء في آخر خطبهم، كموعظةٍ جامعة مانعة يختمون بها موعظتهم، ويذكِّرون الأمة بواجب التقيد بأمر الله ونهيه، الذي جُمع في هذه الآية الكريمة في ألفاظ يسيرة، وقد أمرت بثلاثة أمور، ونهت عن ثلاثة أمور:

الأمر الأول: العدل، وهو تحقيق العدالة في جميع الأشياء.

فالعدل الذي أشادت به الآية ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ عامٌّ يشمل العدل في الأحكام والمعاملات، وفي الفروض والواجبات، العدلُ مع البنين والبنات، والعدلُ مع الأصدقاء والأعداء، والعدلُ مع القريب والغريب، والعدلُ مع الزوجات والمملوكات، وسائر ما يفيده لفظُ العدل، من عدالةٍ ومساواة.

والعدلُ الذي أمر به الرحمٰن عباده، هو الذي يكفل لكل فرد، ولكل جماعة، ولكل أمة، قاعدةً ثابتةً راسخة، لا تميل مع هوى، ولا تتأثر بودٍّ أو بغض، ولا تتبدل مع الظروف، مسايرةً لصهرٍ أو نسب، ولغنى أو فقر، ولقوة أو ضعف، إنما تسير على منهجٍ واحدٍ هو الذي أمر به الله جل وعلا في تعامل المسلم مع غيره.

الأمر الثاني: الإحسان في جميع ضروبه وأشكاله.

والإحسان الذي أمر به الرحمٰن، كذلك هو عام شامل، يشمل الإحسان إلى البشر، وإلى النبات، والحيوان، وإلى الضعفاء والفقراء، وإلى من تقلهم الأرض وتُظِلُّهم السماء، فالإحسان أوسع مدلولاً مما تعارفه الناس، من الإحسان إلى الفقراء والمساكين، فكلُّ عملٍ طيب إحسان، والأمر بالإحسان يشمل كل عملٍ وتعامل، في علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بأسرته، وعلاقته بالجماعة، وعلاقته بالبشرية، حتى

العلاقة بين الإنسان والحيـوان، يجب أن يكون فيها الإحسان، كما أرشدنا إليه مربي الإنسانية، سيدنا محمد رسول الله حيث قال: «إنَّ اللهَ كتب الإحسانَ على كل شيء، فإذا قتلتم فأحْسِنُوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحَة، ولْيُحدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»[1].

الأمر الثالث: مواساة الأقرباء بالبذل والعطاء، وتخفيف آلامهم بالإنفاق، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وإيتاءِ ذي القُرْبَى﴾ وخصَّهم بالذكر اهتماماً بهم، توثيقاً لصلة الأرحام، فإيتاء القريب صلةٌ وإحسان تفوق الإنفاق على غيرهم.

وأما التي نهى عنها الله عز وجل فهي ثلاثة أيضاً وهي: الفحشاء وهو كل فعل قبيح تناهى في القبح والشناعة، كالزنى، واللواطـة، والخمر والميسر، وسائر الأعمال المخلة بالمروءة والشهامة، والمنكر وهو الذي يستقبحه الشرع وتنفر منه الطباع السليمة، والبغي وهو العدوان على حرمات الناس ودمائهم وأموالهم، وسائر المنكرات ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ روي أن «أكثم بن صيفي» لمَّا بلغه خبر الرسول ﷺ، انتدب شخصين ليلتقيا برسول الله عليه السلام فيسمعَا كلامه، ثم يخبرانه بحقيقة أمره ودعوته، فلما قدما على رسول الله ﷺ سألاه: مَن أنتَ؟ وما أنت؟ فقال: أنا محمد بن عبد الله، وأنا رسولُ الله، ثم تلا عليهما الآية الكريمة: ﴿إنَّ الله يأمُرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاء ذي القربى وينهى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فرجعا إلى صاحبهما، فلما قرءا عليه الآية الكريمة قال لهما أكثم: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن مساوئها، فكونوا في هذا الأمر

---

(١) رواه مسلم.

رءوساً، ولا تكونوا فيه أذناباً»[1] أي كونوا من السبّاقين إلى الإسلام وإلى مكارم الأخلاق.

توجيهات القرآن للوفاء بالعهود

وبعد ذلك الإجمال عن فضائل الخصال، التي أمر الله تعالى عباده بها، يأتي الحديث مفصلاً عن هذه الفضائل والمكارم، في مجموعة من التوجيهات والإرشادات الربانية، التي بها صلاح المجتمع، وسعادة الإنسانية، وأمن واستقرار الشعوب والأمم، فيأمر تعالى بالوفاء بالعهود، والاستقامة على شريعة الله، في العبادات، والمعاملات، والأخلاق، والسلوك، والالتزام بكل وعدٍ وبكل عهد، فإن المؤمن تقيٌّ وفيٌّ، صدوق أمين، إذا حدّث صدق، وإذا وعد وفى، وإذا ائتمن على شيء لم يخن فيه، وتلك هي الأمور التي توثِّق دعائم المجتمع، وفي هذا يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ، وَلَا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ، أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ، وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَتُسْأَلُنَّ يَوْمَ القِيَامَةِ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فقد أمر تعالى في هذه الآيات البينات بالوفاء بالعهود، والوفاءُ بالعهود هو الضمان لبقاء عنصر الثقة، في التعامل بين الناس، وبدون هذه الثقة، لا يقوم مجتمع، ولا تُبنى حضارة، ولا تنهض أمة ولا تعز ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ، وَلَا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ

(١) ذكر هذه القصة الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/٣٤٣.

بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ونقضُ الأيمان هو نقضُ البيعة مع الخليفة والسلطان، وإهدار الأيمان التي حلف بها المسلم، عند البيعة والالتزام بالعهد، فكلٌّ ذلك من الأسباب المخلَّة بشريعة الله، إذ كيف يحلف المؤمن على أمر، ثم ينكث في حلفه ويمينه، ولا يلتزم بمقتضى اليمين الذي أشهد الله عليه فيه!؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ أي جعلتم الله شاهداً ورقيباً على ذلك العهد ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي عالم بأفعالكم وأحوالكم، وسيجازيكم عليها يوم القيامة، وفي الآية تهديد ووعيد.

مثلٌ من بدائع الأمثال للنَّاقض للعهد

ولا يكتفي القرآن بتوجيه المؤمنين، إلى الأمر بالوفاء بالعهد، والنهي عن النقض، إنما يستطرد لضرب الأمثال، وتقبيح حال الناكثين، في أبدع صور التمثيل، يمثِّل لهم ذلك بصورة امرأة حمقاء، ملتاثة العقل ضعيفة الرأي والعزم، تغزل غزلاً ثم تنقضه، وتتركه قطعاً محلولة، مبعثرةً هنا وهناك، تقضي وقتها فيما لا فائدة فيه، إلا التعب والعناء، وسوء التصرف والغباء، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً﴾ أي غزلته وفتلته فتلاً محكماً، وبعد أن تعبت فيه حلَّته أنكاثاً وأنقاضاً ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ أي تتخذون أيمانكم خديعة ومكراً تخدعون بها الناس ﴿أن تكون أمـة هي أربى من أمة﴾ أي لأجل أن تكون طائفة، أعزَّ وأوفر جاهاً ومكانة من غيرها.

قال مجاهد: «كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعزَّ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك».

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي إنما هذا ابتلاءٌ وامتحان من الله لكم، ليظهر المطيع من العاصي، وأما الجزاء فسيكون في الآخرة عند لقاء الله.

هذا مثلٌ رائع ضربه القرآن الكريم لمن نقض العقد، ونكث العهد، وما أبدعه من تمثيل!! وما يرضى إنسانٌ كريم لنفسه، أن يكون مثل هذه المرأة الحمقاء، الضعيفة العقل والتفكير، التي تقضي حياتها فيما لا يعود عليها بشيء من النفع.

وكان بعض النَّاسِ يُبرِّر لنفسه نقضَ عهده مع الرسول ﷺ، زاعماً أن محمداً ومن معه قلَّةٌ ضعيفة، بينما قريش كثرةٌ قوية، فنبَّههم القرآن إلى أن هذا ليس مبرِّراً لأن يتخذوا أيمانهم غشاً وخديعة، فيتخلوا عنها، بسبب كون أمة أكثر عدداً وقوةً من أمة، وطلباً للمصلحة مع الأمة الكثيرة.

هل يباح نقضُ المعاهدات الدولية؟

يقول سيد قطب عليه الرحمة والرضوان: «ويدخل في مدلول النص، أن يكون نقض العهد تحقيقاً لِمَا يُسمَّى الآن «مصلحة الدولة» فتعقد دولةٌ معاهَدَةً مع دولة، ثم تنقضها بسبب أن هناك دولة أقوى في الصف الآخر، تحقيقاً لمصلحة الدولة!!

فالإسلامُ لا يُقرُّ مثل هذا المبرِّر، ويجزم بالوفاء بالعهد، وعدم اتخاذ الأيمان ذريعةً للغشِّ والدَّخَل، ذلك في مقابل أنه لا يُقرُّ تعاهداً ولا تعاوناً على غير البرِّ والتقوى، ولا يسمح بقيام تعاهد أو تعاون على الإثم، والفسوق، والعصيان، وأكل حقوق الناس، واستغلال الدول

والشعوب، وعلى هذا الأساس قام بناء الجماعة الإسلامية، وبناء الدولة الإسلامية، فنَعِمَ العالمُ بالطمأنينة والثقة، والنظافة في المعاملات الفردية والدولية، يوم كانت قيادة البشرية إلى الإسلام»[1].

الاختلاف في العقيدة لا يبرر نقض العهد

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والآية الكريمة توحي بأن الله لو شاء لخلق الناس باستعدادٍ واحد، وجعلهم أهلَ ملَّة واحدة، لا يختلفون ولا يفترقون في أمر الدين والإيمان، ولكن اقتضت حكمته أن يتركهم لاختيارهم، ناسٌ للسعادة، وناس للشقاوة، فيضلُّ من يشاء، ويهدي من يشاء، وسوف يسألهم الله عن عملهم يوم القيامة الذي هو يوم الجزاء، وكأنه يقول: لا ينبغي أن يكون الاختلافُ في العقيدة سبباً في نقض العهود، وإهدار الحقوق.

وتمضي السورة تؤكِّد وتوثِّق، ما أبرمه المسلمون من عهود، مع القريب والغريب، والصديق والعدو، فتأمر بالوفاء، وتنهى عن اتخاذ الأيمان للغش والخديعة، لأن ذلك يزعزع الثقة بدين الإسلام، ويزلزل العقائد، والمعاملات بين أفراد المجتمع، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ، فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا، وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللهِ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾ أي لا تعقدوا الأيمان وتجعلوها خديعة ومكراً، تغرُّون بها الناس، لتحصلوا على بعض منافع الدنيا الفانية، فتزلَّ أقدامكم عن طريق الاستقامة بعد رسوخها فيه.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/٢١٩٢.

قال الحافظ ابن كثير: هذا مثلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزلّ عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة، لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فيمتنع بسببه عن الدخول في الإسلام»[1].

الحياة السعيدة للمؤمن الصالح

ثم تمضي السورة الكريمة، وهي تقرِّرُ الحياة الطيِّبةَ السعيدة، لكل من أطاع الله وعمل الصالحات، من ذكرٍ أو أنثى، والجزاء الكريم في دار النعيم، للمؤمن الصالح الذي أخلص النيَّة والعمل للّه، فقد جعل الله تبارك وتعالى، هذه الحياة الدنيا ميداناً للتنافس والتسابق إلى الخيرات، والعاقل من غنم من حياته الفانية، لتلك الدار الباقية، فجدَّ واجتهد في طاعة الله، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحَاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ونلحظ في الآية الكريمة شرطاً مهماً للحياة السعيدة، التي وعد الله بها المؤمنين والمؤمنات، هذا الشرط هو الإيمان، فبدون الإيمان يكون العمل زاهقاً وباطلاً، لأن الله لا يقبل عمل الكافر كما قال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾[2].

فالإيمان هو الأصل والأساس، والعمل الصالح هو البناء الذي يرتفع فوق ذلك الأساس، وكما لا يقوم بُنيان من غير أساس متين،

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/١٤٢.
(٢) سورة الفرقان آية رقم ٢٣.

فكذلك لا يُقبل عملٌ بدون إيمان راسخ، ولهذا قال جلّت عظمته هنا: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾.

ثمرة الإيمان أمران عظيمان

ثم رتّب تبارك وتعالى على ذلك أمرين هامين، ثمرةً لذلك الإيمان والعمل الصالح، وهما:

الأول: الحياة الطيبة السعيدة، وإليها الإشارة بقوله سبحانه: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ وهي الراحةُ، والطمأنينة، والسعادة التي تغمر قلب المؤمن، الذي ذاق طعم الإيمان، فيستشعر فضلَ اللهِ عليه، فيما وهبه له من حواس، ورزقه من صحة ومال، ويشعر بالسعادة والقناعة والرضى، وتلك أعظم ثمرةٍ يقطفها المؤمن من ثمار الإيمان.

وقد ذهب بعض المفسرين، إلى أن المراد بالحياة الطيبة، النعيم الذي يكون في الجنة مما لا يخطر على قلب بشر، وهو قول الحسن البصري، فقد قال رضي الله عنه: «لا تطيب الحياةُ لأحدٍ إلا في الجنة، لأنها حياةٌ بلا موت، وغنى بلا فقر، وصحةٌ بـلا سقم، وسعادة بلا شقاوة»(١) ولكنَّ الظاهر من الآية الكريمة، أن الحياة الطيبة هي في الدنيا ـ وهو قول جمهور المفسرين ـ لأن الله تبارك وتعالى، نبَّه على الجزاء في الآخرة بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فدلَّ على أن الحياة الطيبة هنا في الدنيا، ولو كانت في الآخرة لكان في الكلام تكرار، وذلك ينافي بلاغة القرآن، وما أسعد المؤمن، وما أطيب حياته، وهو يرى في المصيبة تصيبه، برداً وسلاماً، ونعمة واطمئناناً! كما

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٤٦.

كان عمر رضي الله عنه يقول: ما أصابتني مصيبةٌ إلا وجدتُ فيها ثلاث نِعمٍ:

الأولى : أنها لم تكن في ديني.

الثانية : أنها لم تكن أعظم مما كانت.

الثالثة : الجزاء الذي أعدَّه الله للصابرين، ثم تلا: ﴿وَبَشِّر الصَّابِرِينَ. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا للّه، وإنا إليه راجعون. أولئـك عليهم صلوات من ربهم ورحمـة، وأولئـك هم المهتدون﴾[1].

فإذا كان المؤمن يرى في المصيبة نِعَماً عديدة، فكيف تكون حياته؟ وكيف تكون سعادته؟ لا شك أنه لا يشعر بقلق واضطراب، وحزن وكمَدٍ، كما يشعر به من خلا قلبه من الإيمان، وليست السعـادة بكثرة المال كما يظنه بعض الناس، وما أجمل قول الشاعر:

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمْعَ مَالٍ   وَلَـكِنَّ الـتَقِـيَّ هُـوَ الـسَّـعِـيـدُ

الأمر الثاني: هو ما ادَّخره الله لعبده المؤمن، من الأجر الوافي العظيم، والكرامة والنعيم، في دار الخلود، مما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر، كما قال سبحانه: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2] وإلى هذا الأجر والثواب أشارت الآية الكريمة بقوله تقدست أسمـاؤه: ﴿ ولَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا من فضل الله على عبده المؤمن، أن يكافئه بأفضل الجزاء، على أحسن الأعمال، مع التجاوز له عن السيئات، فما أكرمه من جزاء!!

---

(١) سورة السجدة آية رقم ١٧.

المؤمن في حصنٍ حصين من الشيطان

ولما كانت سعادة المؤمن، باتصال قلبه بالرحمٰن، والبعد عن وساوس الشيطان، جاءت الآيات الكريمة بعد ذلك، تُقرِّر، أن حماية الله وحفظه للعبد، إنما تتحقق عن طريق هذا القرآن، وتلاوة المؤمن له صباح مساء، حتى يكون في مأمنٍ من نزغات الشيطان، الذي يُضلُّ أتباعه وأولياءه، بوساوسه وأباطيله، وأما المؤمن فلا يستطيع أن يغويه الشيطان، لأنه في حصنٍ حصينٍ، وملجإٍ أمين، لأنه في حمى الرحمٰن ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ، وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.

زعمهم أن القرآن تعليم البشر

ثم تمضي السورة الكريمة، وهي تقرر موقف الكفرة الجاحدين، من هذا القرآن العظيم، هؤلاء الذين سيطر عليهم الشيطان، فأخضعهم للشهوات والملذات، فساروا بقيادة الشيطان، تحت لوائه وتوجيهاته، هؤلاء الضالون الجاحدون، يتهمون رسول الله عليه السلام بأبشع تهمة، يتهمونه بالتلاعب بالقرآن، والكذب والافتراء على الرحمٰن، وينسبون هذا الكتاب المعجز، في بيانه وأحكامه وتشريعه، إلى رجل أعجمي لا يعرف اللغة العربية، يزعمون أن محمداً ﷺ تعلَّم منه هذا القرآن، وهذا من أعجب العجب، أن يكون الأعجميُّ الذي لا يكاد يُبين، معلِّماً لأفصح اللغات كما زعموا، وكلُّ ذلك إنما اخترعوه، بقصد الطعن في القرآن، والنيل من صاحب الرسالة محمد بن عبد الله، بالتشكيك في دينه وكتابه وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ

آيَةٍ ـ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ـ قَالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ. قُلْ نَزَّلَهُ رَوْحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَهُدَىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ. وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت إذا نزلت آية فيها شدَّة، ثم نسخت بما هو أيسر، قال كفار قريش: والله ما محمد إلَّا يسخر من أصحابه، يأمر اليوم بأمر، وينهاهم غداً عنه، وإنه لا يقول ذلك إلا من عند نفسه، فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي كذاب، تكذب على الله، وتنسب إليه ما لم يقل، وما درى هؤلاء الجهلاء، أن مثل آيات هذا الكتاب، كمثل العلاج والدواء، يُعطى منه للمريض جرعات حتى يماثل الشفاء ثم يُستبدل بما يُصلحه من أنواع الأطعمة والغذاء، فكذلك أحكام القرآن، تتمشى مع مصالح البشر، وما ينفعهم دنيا وآخرة، والأشنع من هذه التهمة، ! ادِّعاؤهم أن الرسول عليه السلام، كان يتلقى هذا القرآن من رجل نصراني اسمه «جبْرُ الرُّومي» وهذا الرجل الذي كان يجلس عنده النبي ﷺ بعض الوقت أعجمي اللسان لا يعرف العربية، فكيف يمكن لمن لسانه أعجمي، أن يعلم محمداً هذا الكتاب العربي المبين؟ ومن أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا الكتاب، المعجز في فصاحته وبيانه، ولهذا قال تعالى رداً عليهم ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ والمعنى: إن لسان الذي يزعمون أنه علَّمه هذا القرآن، وينسبون إليه التعليم أعجمي، وهذا القرآن عربي في غاية الفصاحة والبيان، فكيف يتصور هذا؟ هذا أمرٌ مستحيل، بل هو محض الكذب والبهتان، ولكنها المكابرة والعناد من أولئك المكذبين المستهزئين.

الكذب صفة من لا يؤمن بالله

وبعد ذلك الاتهام للنبي عليه السلام، بالافتراء والكذب على الله، جاءت الآيات توضِّح أن من جحد آيات الله، لا يوفقه الله ولا يهديه إلى طريق الخير والإيمان، ومن كذب على الله سدَّ الله عليه باب الهداية، وجعله يتقلَّب في الجهالة والضـلالة، ولا يمكن للكـاذب المفتري أن يسعد برضى الله، وهؤلاء المشركون لمّا بالغوا بالسخرية والتكذيب، والجحود لآيات الله، كيف يشرح الله صدورهم للإيمان؟ وكيف يهديهم لفهم أسرار هذا القرآن؟ وهم على ما هم عليه من الكفر والجحود، والسخرية والاستهزاء؟ وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ، لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُـمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم يُبيِّن تبارك وتعالى حقيقة المفتري الكذاب، وهو الذي لا يؤمن بآيات الله، وما هم إلاّ هؤلاء الضالون المكابرون، الذين كذبوا سيِّد الخلق، وجحدوا وجود الله، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّما يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾.

وهذه الآية ما هي إلَّا ردٌّ صريح، على المفترين على الله من كفار قريش، وتبرئةٌ لساحة النبي عليه السلام، مما نَسَبَه إليه المشركون من الكذب والافتراء، وكأنَّ الآية تقول: ليس محمدٌ بمفترٍ ولا كذاب، لأنه

إنما يفتري الكذب على الله شرارُ الخلق، ولا يصدر هذا الافتراء، إلاَّ من مثل هؤلاء الذين لا يؤمنون، ولا يمكن أن يصدر من محمد النبي الصادق الأمين!! والكذب جريمة فاحشة، لا يُقدم عليها مؤمن، فضلاً عن سيِّد الأنبياء والمرسلين.

جريمة المرتد عن الإسلام

ثم تمضي السورة الكريمة، وهي تحدثنا عن جريمة المرتد عن دين الله، الذي كفر بعد الإيمان، وضلَّ بعد الهدى، وآثر الحياة الفانية على الحياة الباقية، فهذا هو الشقي الخاسر، الذي باع دينه بعرضٍ من الدنيا حقير، وقد استثنى تباركت أسماؤه من «جريمة الردة» المُكْرَهَ على الكفر، ولكنَّ قلبه مطمئنٌ بالإيمان، فإن هـذا لا يدخـل في زمرة الأشقياء، المحرومين من رحمة الله، لأنه مجبرٌ مكره، والله تبارك وتعالى لا يعاقب من كان مكرَهاً على أمرٍ لا رضى له فيه ولا اختيار، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ، إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالكُفْرِ صَدْراً، فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ، وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَـعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَسَمْعِهِمْ، وَأَبْصَارِهِمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ. لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ والآيةُ هنا فيها تغليظ لجريمة المرتد، لأنه عَرَفَ الإيمانَ وذَاقَه، ثم ارتدَّ عنه، إيثـاراً للحياة الـدنيا على الآخرة، لذلك فقد عاقبه الله، بالغضب الشديد، والعذاب العظيم، والحرمان من دخول الجنة، ووصَمَه بالغفلة وانطماس القلب، والطبع على سمعه وبصره، والحكم عليه بأنه في الآخرة من الخاسرين، ولم

يكن مثل هذا العقاب، للكافر المجاهر بكفره، فإنه أخفُّ عقوبةً من المرتدِّين.

رفع الجناية عن المكرَهِ على الكفر

ولقد لقي المسلمون الأوائل في مكة من الأذى والبلاء، ما لا تطيقه الشمُّ الرواسخ من الجبال، فكان بعضهم يكوى بالنار وبالحديد المحمي، وبعضهم يُعرَّى من الثياب، ثم يُبطح على الأرض، فوق الرمال اللاهبة، وتحت الشمس المحرقة، وتُوضع على صدره صخرةٌ عظيمة، ويُقال له: لا تزالُ هكذا حتى تكفر بمحمد، كما فُعل ببلال رضي الله عنه وأرضاه، وهو يقول: أحدٌ، أحدٌ تحت وطأة العذاب، وبعضهم يُمنع عنه الطعام والشراب، حتى يكاد يقتله الجوع والعطش، وهو لا يجيبهم إلى ما أرادوا، وكان البعض لا يستطيع الصبر، فيُظهر لهم الكفرَ والرجوع عن الإسلام، تخلصاً من العذاب، ولكنَّ فؤاده ممتلىءٌ إيماناً ويقيناً، كعمَّار بن ياسرٍ، الذي عذَّبه المشركون عذاباً شديداً، حتى أعطاهم بعض ما أرادوه، فأظهر الكفر بلسانه، نجاةً لروحه من الهلاك.

روى ابن جرير الطبري بسنده، أن الآية نزلت في «عمَّارِ بنِ ياسر» أخذه المشركون فعذَّبوه عذاباً لا يُطاق، حتى قاربهم في بعض ما أرادوا - وفي بعض الروايات أنه سبَّ النبيَّ، وذكر آلهتهم بخير - ثم جاء إلى النبي ﷺ وهو يبكي، فقال له رسول الله ﷺ: «كيف تجدُ قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان والحمد للّه، فقال: إن عادوا فعُدْ» فأنزل الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[1].

(١) انظر جامع البيان للطبري ١٤/١٨٢.

العزيمةُ أفضل من الرخصة

والآية وإن كانت قد رخَّصت لِلمكرَه إظهار كلمة الكفر، بشرط أن يكون قلبه عامراً بالإيمان، إلَّا أن الأفضل والأولى كما قال العلماء أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى ذلك إلى قتله، فإنه يكون شهيداً، وهذه هي العزيمة، وأما الرخصة فقد أباحها الله للضعفاء، الذين لا يتقوَّون على تحمل العذاب ﴿إلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾.

أما من كفر بلسانه وقلبه، وأعطى المشركين ما أرادوه منه من الكفر، فانسلخ من ربقة الإسلام، فهذا هو المرتد الخاسر، الذي تجري عليهم أحكام الردَّة والعياذ بالله، وهو المخلد في نار الجحيم، الذي قال فيه: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ، فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ، فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

وقد ذكر تبارك وتعالى من صفات هذا الشقي الخاسر هنا خمس صفات هي: الغضبُ من الله، وحرمانه من الهدى، والعذاب العظيم، والطبع على قلبه، وجعله من الغافلين كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالكُفْرِ صَدْرَاً، فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. ذَلِكَ بِأَنَّهُم اسْتَحَبُّوا الحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ. لَا جَرَمَ أنهم في الآخرة هُمُ الخاسِرُون﴾.

من روائع القصص في التاريخ

وإليكم هذه القصة الرائعة، من قصص البطولة والفداء، للصحابي الجليل «عبدِ اللهِ بنِ حُذَافَةَ» رضي الله عنه وأرضاه فقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمته له، أنه لما وقع أسيراً في يد الروم،

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٧.

جاءوا به إلى ملكهم، فعرض عليه النصرانية، وقال له: تَنَصَّرْ وأنا أُشركُكَ في مُلكي، وأزوِّجُك إبنتي!! فقال له رضي الله عنه: لو أعطيتني جميعَ ما تملكُ، وجميعَ ما تملكهُ العربُ، على أن أرجع عن دينِ محمد ﷺ طَرْفَةَ عينٍ ما فعلتُ، فقال: إذاً أقتلْكَ، فقال: أنتَ وذاكَ، قال: فأمر به فصُلب ـ أي وُضع على عمود مربوطاً بالحبال ـ وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به الملِك فأُنزل ثم أمر بقدر كبيرة من نحاس فأُحميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر إلى ما يُصنع به، فإذا هو عظامٌ تلوح، وعرض عليه النصرانية فأبى، فأمر به أن يُلقى فيها، فرُفع في البكرة ليُلقى فيها، فبكى، فطمع فيه ودعاه، فقال: ما يبكيك؟ فقال: إني إنما بكيتُ لأن نفسي إنما هي نفسٌ واحدة، تُلقى في هذا القدر الساعة في الله، وقد أحببتُ أن يكون لي بعدد كل شَعرَة في جسدي، نفسٌ تعذب هذا العذاب في الله..

فلما رأى صلابته سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يقربه ولم يأكل منه ـ وقد كاد يهلك من الجوع والعطش ـ ثم استدعاه فقال له: ما منعك أن تأكل منه؟ فقال: إنه قد حلَّ لي، ولكن لم أكن لأشمِّتك بي، فقال له الملك: قَبِّل رأسي وأنا أطلق سراحك، فقال: وتطلق معي جميع أسرى المسلمين؟ قال: نعم، فقبَّل رأسه، فأطلقه وأطلق معه جميع أسرى المسلمين، فلما رجع إلى المدينة المنورة، وبلغ عمر قصته وخبره، قال عمر رضي الله عنه: «حقٌّ على كل مسلم أن يقبِّل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام فقبَّل رأسه وقبّله المسلمون»[1].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣٤٨.

الهجرةُ تمحو الذنوب والآثام

ثم تتابعت السورة وهي تتحدث عن أُناسٍ من المسلمين ضعاف، فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب، ولكنهم هاجروا بعد ذلك، عندما أمكنهم الخلاصُ، ووافتهم الفُرصة، فحسن إسلامهم، وجاهدوا في سبيل الله، صابرين على تكاليف الدعوة، محتسبين للأجر والثواب، فهؤلاء يبشرهم الله أنه سيغفر لهم ويرحمهم، ويعفو عن زلَّتهم، بعد الهجرة والجهاد، والانتظام في سلك المؤمنين المجاهدين، وفيهم يقول تقدست أسماؤه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنوا، ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الجزاء في اليوم الرهيب

ثم يأتي بعد ذلك، الحديثُ عن ذلك اليوم العصيب الرهيب، الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب، ولا يفيد فيه مال ولا ولد، ويأتي فيه كل إنسانٍ، وحيداً فريداً، ليس معه أحد يجادل عنه، أو محامٍ قدير يدافع عنه، بحجةٍ واضحة تدفع عنه العذاب، لأنه يوم تُشغل فيه كلُّ نفسٍ بحالها، ولا تلتفت إلى غيرها، وفي ذلك اليوم الرهيب يكون

---

(١) انظر تفسير الحافظ ابن كثير ٢/٣٢٨ المختصر.

جزاء المحسنين والمسيئين، إمّا إلى النعيم، وإمّا إلى الجحيم، والحاكم فيه ربُّ العزة والجلال ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا، وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وهو تعبيرٌ يُلقي ظلال الهول، على ذلك اليوم العسير، الذي يَشْغل كلَّ امرىءٍ بنفسه، يريد نجاتها من عذاب الله ﴿يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[1].

جحود أهل مكة للنعمة

ثم تنتقل الآيات تصوِّر حال أهل مكة في طغيانهم وضلالهم، وتكذيبهم لسيد المرسلين، فتضرب لهم المثل بقريةٍ كانت في سعةٍ ورخاء، وأمنٍ واطمئنان، وسعادةٍ ونعيم، ولكنها جحدت نعمة الله، فبدَّل الله حالها، وغيَّر مسارها، فسلبها نعمة الأمن والاطمئنان، وأذاقها آلام الخوف والجوع والحرمان، وحلَّت بها الكوارث والمصائب، والبلايا والنكبات، وفي ذلك يقول جلّ ثناؤه: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ، فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ذلك هو مثلُ أهل مكة، أمام نعمة الإسلام، وبعثة النبي عليه الصلاة والسلام، فقد جعل الله لهم حرماً آمناً، وهم في جوار البيت العتيق، والناسُ من حولهم يُتخطَّفونَ، وأهلُ مكة في حراسة الله وحمايته، آمنون مطمئنون، رزقهم يأتيهم هنيئاً سهلاً، من كل مكان، مع الحجيج وقوافل المسافرين والعمَّار، كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَىٰ إِلَيْهِ

---

(١) سورة عبس آية رقم ٣٤ إلى ٣٧.

ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا﴾[1]؟ وهم ينعمون بالأمن والطمأنينة، والعيش الهنيء الرغيد، ولكنهم ما عرفوا قدر هذه النعمة العظيمة ـ نعمة بعثة هذا النبي العظيم محمد ﷺ ـ فكفروا به، وبالغوا في إيذائه، فعذَّبهم الله بالقحط والجدب، والجوع والحرمان، سبع سنين عصيبة حتى أكلوا الجِيَفَ والعِظَام، بدعوة النبي عليه الصلاة والسلام: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنيِّ يوسف» فاستجاب الله دعاءه، ورماهم بالجوع والقحط في تلك السنوات العِجاف.

وممَّا يؤكد أن المثل يراد به أهلُ مكة ـ كفارُ قريش ـ أن الله تعالى أتبع الآية بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ، فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وهو قول ابن عباس وجمهور المفسرين. واللباسُ ما يلبسه الإنسان، ولكنه في الآية الكريمة، عبَّر به تعبيراً رائعاً بأبدع صور البيان، شبَّه ذلك اللباس من حيثُ الكراهية، بالطعم المرِّ البشع، الذي ينفر منه الإنسان، على طريقة الاستعارة المكنية، وحذف المشبَّه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الإذاقة ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ واللباس لا يُذاق، ولكنه الإبداع في التعبير، بأساليب العرب الرشيقة، كما قال البحتري في وصف الربيع:

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلْقُ يَخْتَالُ ضَاحِكاً مِنَ الحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَا

وكماقال الشاعر:

لاَ تَضْحَكِي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ المَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَىٰ

فكل ذلك من تفنُّنِ العرب في أساليب البلاغة والبيان، وبأسلوب العرب نزل القرآن.

---

(١) سورة القصص آية رقم ٥٧.

شكر النعم واجب على المؤمنين

ولمَّا ذكر كفر أهل مكة لنِعَم الله، وما حلَّ بهم من النكبات والبلايا، أمر تعالى المؤمنين بشكر نعمه التي أسبغها عليهم، ليزيدهم من فضله وإنعامه، فبالشكر تدوم النعم، ثمَّ بيَّن لهم أن كلَّ ما حرَّمه الله، فإنما هو لخيرهم ومصلحتهم، لأن الله لا يُحرِّم إلا ما فيه مضرة في الدين والدنيا، وما فيه أذى للجسم والروح، وذلك من رحمته بعباده، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّباً، واشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ، إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ. إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ وَالدَّمَ، وَلَحْمَ الخِنْزِيرِ، وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ، فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وبعد هذا البيان عن الحلال والحرام، يُعقِّب القرآن الكريم في آياته البينات، على أولئك الذين تخطوا حدود ما شرع الله، فأحلوا وحرَّموا من تلقاء أنفسهم، دون حجة قاطعة من كتاب أو وحي، أو بيِّنة واضحة من عقلٍ منير، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ، وَهَذَا حَرَامٌ، لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الكَذِبَ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ قلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

واستطردت السورة الكريمة الحديث عن اليهود، الذين عاقبهم الله بسبب إجرامهم وعصيانهم، بتحريم بعض الطيبات، عقوبةً لهم، لا لأنها في الأصل حرامٌ، ولكن بسبب البغي والإجرام ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

الله واسع المغفرة لعباده

وإتماماً للنعمة، وإظهاراً لواسع فضل الله عز وجل على العباد، فقد جاءت الآيات توضِّح، أن من عصى الله بشتَّى طرق العصيان، من شركٍ، أو مُنكر قبيح، أو معصيةٍ وذنب، ثم تاب وأناب، وأصلح العمل بعد ذلك الزلل، فإن الله يغفر له، ويسعه برحمته، ويعفو له عن زلته، بشرط التوبة والإصلاح، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ، ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ أي جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه، أو غير متدبرين لسوء العاقبة، لغلبة الشهوة عليهم، وهذا حال أكثر الناس، قال سفيان الثوري: جهالته أن يلتذَّ بهواه، ولا يبالي بمعصية مولاه، وقال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، والآية تأنيسٌ لجميع العصاة والمذنبين، وفتح لباب التوبة إلى يوم الدين.

دعوة إبراهيم دعوة التوحيد الخالص

وتمضي السورة الكريمة، وهي توضِّح حقيقة دعوة إبراهيم الخليل، صلوات الله وسلامه عليه، الذي يفتخر به العرب، لأنه جدهم، ويُقرُّون بحسن طريقته، ووجوب الاقتداء به، ويفتخر به كذلك اليهود والنصارى، لأنه أبو الأنبياء، وإمام الحنفاء، وحامل لواء التوحيد، وباني صرح الإيمان، وكلُّ الأمم تعظِّمه وتحترمه، حتى زعم اليهود أنه على ملَّتهم ودينهم، وادَّعى النصارى أن إبراهيم كان نصرانياً منهم،

فنزل القرآن يخبر عن الحقيقة جليَّةً واضحة ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً، وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾[1].

وهنا في هذه السورة الكريمة، أوضح الله منهاجه، وبيَّن ما كان عليه من توحيد الله عز وجل ورفض عبادة الأوثان والأصنام، ليكون ذلك رداً على المشركين، وعلى أهل الكتاب، الذين يخالفون منهجه وتشريعه، ويدَّعون أنهم على ملّة الخليل إبراهيم عليه السلام، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً، قَانِتاً للهِ حَنِيفاً، وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكِينَ. شَاكِراً لأَنْعُمِهِ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً، وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾.

خمس صفات في الثناء على إبراهيم

وصفه تعالى في هذه الآيات بخمس صفات، تشير إلى علو منزلته، ورفعة شأنه:

الصفة الأولى: أنه كان أمة، أي كان وحده أمة من الأمم، يعدل أمة كاملة، في صفات الخير والطاعة والكمال، كأنه جمع الفضائل والمحاسن التي تجتمع في الأمم، وكما قال القائل:

لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ   أَنْ يَجْمَعَ العَالَمَ فِي وَاحِدِ

فهو في برِّه، ودينه، وصلاحه، واستقامته على شريعة الله، كأنه أمة وحده، كما قال ابن عباس: كان عنده من الخير، ما كان عند أمة، ولهذا قال تعالى مثنياً عليه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾.

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٦٧.

الصفة الثانية: الخشوعُ والخضوع، والطاعة والإنابة، التي عمرت ذلك القلب المؤمن حتى صار نموذجاً للهداية والطاعة، والشكر والإنابة للّه رب العالمين، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿قَانِتاً لِلهِ حَنِيفاً﴾ أي طائعاً، خاشعاً، عابداً «حنيفاً» أي متجهاً إلى الحق، مائلاً إليه، قال ابن كثير: القانتُ: هو الخاشع المطيع، والحنيفُ: المنحرفُ قصداً عن الشرك إلى التوحيد.

الصفة الثالثة: أن إبراهيم هو الذاكر الشاكر، فهو عبدٌ قد أخلص نفسه للّه، وباعها في طلب مرضاته، اختاره الله لخلته، فسمي «خليلَ الرحمٰن» كان شاكراً في النعماءَ صابراً في الضراء، وقد ابتلي بأنواعٍ من البلاء، ابتلي بذبح ولده، وبإلقائه في النار، وبالهجرة من الوطن، فكان مثلاً رائعاً في العبودية، كما كان مثلاً في الصدق والوفاء، والشكر والثناء، ولهذا جعله الله إماماً يقتدى به، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿شَاكِرَاً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيم﴾.

الصفة الرابعة: ما جعل الله له من الذكر الحسن، والمقام الرفيع في الدنيا والآخرة، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

قال قتادة: حبَّبه الله إلى جميع الخلق، فكل أهل الأديان يُقرُّون بفضله، ويعترفون بمآثره، اليهودُ والنصارى والمسلمون، وخصوصاً كفار قريش، فإن فخرهم وعزهم كان بإبراهيم الخليل، باني البيت العتيق، وذلك ما جعل جميع الطوائف تنتسب إليه، إجابة لدعوته: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِين﴾.

الصفة الخامسة: أمرُ الله عز وجل لمحمد سيد الأنبياء، باتباع ملته، والسير على منهجه، والتمسك بشريعته الحنيفية السمحة ﴿ثُمَّ

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وكفى بهذه الصفات والخصال الجليلة فضلاً، وإظهاراً لقدر إبراهيم الرفيع عند الله، ومكانته لديه. ولما كانت الأُمة المحمدية، ممثَّلة في شخص نبيِّها الكريم محمد بن عبد الله، هي أحقُّ الأمم بالانتساب إلى أب الأنبياء، إبراهيم الخليل صلوات الله عليه، وقد أُمر نبينا بالاقتداء به، ولهذا فقد برأ الله إبراهيم ومحمداً من ضلالات اليهود والنصارى، فيما اخترعوه من مناسبات وأعياد، مع أن هذه الطوائف تزعم أنها على شريعة إبراهيم، وذلك هو محض الكذب والافتراء، على أب الأنبياء، فقد جعل اليهود السبت يوم عيدهم، والنصارى جعلوا يوم الأحد يوم راحتهم وعيدهم، وزعموا أن ذلك هو شرع إبراهيم، وقد نزل القرآن بتكذيبهم وردِّ افتراءاتهم فقال تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَىٰ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ والمعنى: لم يكن تعظيم يوم السبت وترك العمل فيه، من شريعة إبراهيم، ولا من شعائر دينه، وإنما جُعل تغليظاً على اليهود، لاختلافهم في الدين، وعصيانهم أمر الله، حيث نهاهم عن الاصطياد فيه فاصطادوا، فمسخهم الله قردة وخنازير، وسيفصل بينهم الله يوم القيامة، ويرون عاقبة البغي والعدوان.

الدعوة إلى الله بالحكمة

وبعد هذا التوضيح والبيان، في انحراف أهل الكتاب عن شريعة إبراهيم الخليل، أمر الله رسوله الكريم أن يدعو اليهود، والنصارى، والمشركين، وسائر الناس، إلى دين الله وشرعه، بتلطف ويسر، وبأسلوب الحكمة التي تُقنِعُ العقول، والموعظةِ الحَسَنَةِ، التي تنير الصدور، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ

بِالْحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ﴾ والمعنى: ادع الناس يا محمد إلى دين الله، وشريعته القدسية، بالأسلوب الحكيم، مع اللطف واللين، بما يؤثِّر فيهم وينجع، لا بالقسوة والشدة، والزجر والتأنيب، وجادل المخالفين بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة والمناظرة، بالحجج والبراهين، وليس عليك هدايتهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحسابُ، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابِرِينَ﴾.

والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة هي أحد أسس التربية الإيمانية، التي كُلِّف بها نبينا الكريم، والدعاةُ من بعده والمصلحون، وهي عنصرٌ هامٌّ في إصلاح الأمراض الاجتماعية، فإن النفس البشرية لها تمرُّدٌ وتكبر، فما لم يسلك الإنسان الطريقة الحكيمة في معالجتها، عصت وبغتْ وتمردتْ، فعلى الداعي الناصح، أن يدعو بالرفق واللين، من غير فظاظة ولا تعنيف، والموعظةُ الحسنة هي التخويف والتحذير، والتلطف بالشخص بأن تُجلَّه وتنشّطه، وتجعله يقبل النصح برضى واطمئنان.

الصبر وتحمل أذى الجاهلين

وختمت السورة الكريمة، بأمر الرسول بتحمل الأذى، والصبر على سفاهة الجاهلين، ورعاية العدل والإنصاف في جميع الأمور والأحكام، مع الخصوم والأعداء، فإن الداعي لا بدَّ أن يناله شيء من الأذى والمكروه، فما لم يكن متدرعاً بالصبر، ورحابة الصدر، أخفق في دعوته، ولم يصل إلى غرضه ومبتغاه ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ، وَلَا

تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ وهكذا ينير القرآن الطريق للدعاة المرشدين، والهداة المصلحين، ليسلكوا السبيل القويم في إصـلاح المجتمع، ومعالجةِ الأمراض الاجتماعية، فإن مـرض القلب أخطر من مـرض الجسد، ومعالجته تحتاج إلى صبرٍ، وحلمٍ، وأناة، وبدون ذلك لا نجاح ولا فلاح، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

انتهت بعونه تعالى وتوفيقه سورة النحل

* * *

سُورَةُ الإِسْرَاء

مَكيَّة وآيَاتها إحدى عَشَرَة ومَائـَة

أهداف السورة الكريمة

● سورة الإسراء من السور المكية، التي تهتم بشئون العقيدة، وأصول الإيمان، شأنها كشأن سائر السور المكية، التي تتحدث عن أسس العقيدة الإسلامية وأصول الدين، وتعالج فكرة الإيمان بوحدانية الله عز وجل، وما يتبعها من أمر الرسالة والنبوة، وأمر الحساب والجزاء والبعث والنشور، ولكنَّ العنصر البارز في هذه السورة الكريمة هو «شخصية الرسول» ﷺ وما أيّده الله به من المعجزات الباهرة، والحجج الساطعة، الدالة على صدق رسالته عليه الصلاة والسلام.

● تعرضت السورة الكريمة لمعجزة الإسراء، التي كانت مظهراً من مظاهر التكريم الإلّهي، لخاتم الأنبياء والمرسلين، وآية باهرة تدل على قدرة الله جلَّ وعلا في صنع الغرائب والعجائب، فإن قطع مسافةٍ طويلة، تحتاج إلى شهرين، في أقلَّ من ليلةٍ واحدة، أمرٌ معجزٌ خارق للعادة في ذلك الحين، حيث لم يكن سيارات، ولا طائرات، ولا مراكب فضائية تقطع في ساعات هذه المسافات الخيالية.

● وتحدثت السورة عن بني إسرائيل، وما كتب الله عليهم من التشرد والذل والهوان في الأرض مرتين، بسبب فسادهم وطغيانهم، وعصيانهم لأوامر الله عز وجل، وما نزل بهم من أنواع العقاب والبلاء ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ في الكِتَابِ، لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْن، وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبيراً . فَإِذَا

جَاءَ وَعْدُ أُوْلاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادَاً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ، فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ، وَكَانَ وَعْدَاً مَفْعُولاً . .﴾ الآية.

- ثم انتقلت للحديث عن بعض الآيات الكونية العجيبة، التي تدل على العظمة والوحدانية، وعن النظام الدقيق الذي يحكم الليل والنهار، ويسير وفق ناموسٍ ونظام ثابتٍ لا يتبدل ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ، وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً، لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ . .﴾ الآيات.
- ثم انتقلت السورة لتوضيح بعض الآداب الاجتماعية، والأخلاق الفاضلة الزكية، التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن، ليكون هناك المجتمع المثالي الفاضل، في أخلاقه، وآدابه، ومعاملاته، الذي ينشده الإسلام ﴿وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ، وَالمِسْكِينَ، وَابْنَ السَّبِيلِ، وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرَاً، إِنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورَاً . .﴾ الآيات.
- وتحدثت السورة الكريمة عن موضوع «البعث والنشور» الذي كثر حوله الجدال، فأقامت الأدلة والبراهين على إمكانه، وأنه حق لا مندوحة منه ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامَاً وَرُفَاتَاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقَاً جَدِيدَاً؟ قُلْ كُوْنُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدَاً. أَوْ خَلْقَاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا؟ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . .﴾ الآية.
- ثم انتقلت للحديث عن القرآن العظيم «معجزة محمد الخالدة» فبيَّنت عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله، وذكرت تعنُّتَ المشركين في اقتراحاتهم التي عرضوها على النبي ﷺ كشرطٍ للإيمان به، حيث طلبوا منه أن يفجِّر لهم الأنهار، ويزيل عنهم الجبال، ويجعل لهم مكة حدائق وبساتين غناء، أو يصعد أمامهم إلى السماء فيأتيهم بكتاب من عند الله، قد سُطِّر فيه أن محمداً رسول الله ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ، فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً، أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ، أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ،

وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً﴾؟.

- **وختمت السورة الكريمة بتعظيم الله وتمجيده، والإيمان بوجوده ووحدانيته، وتنزيهه عن الشريك، والزوجة، والولد، لأنه الواحد الأحد، وتقديسه وتنزيهه عن صفات العجز والنقص ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ، أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى، وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا، وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً. وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَلَمْ يَكُنْ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ، وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾. وهكذا بدأت السورة بالتسبيح والتنزيه، وختمت بالتقديس والتمجيد، ليتناسق البدء مع الختام، على أبدع صور البيان.**

معجزة الإسراء والمعراج

ولنبدأ بالتوضيح والتفصيل لسورة الإسراء، بعد ذلك الإيجاز والإجمال، مستمدين من الله عونه وفتحه.

ابتدأت السورة الكريمة بذكر تلك المعجزة العظيمة «معجزة الإسراء والمعراج» التي كانت لسيد الرسل محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وقد كانت حادثة الإسراء من أعظم معجزاته ﷺ التي سجّلها القرآن في كتابه الخالد بحروفٍ من نور، وسطّرها لتظلَّ خالدةً باقية، تُتلى على كرِّ الدهور ومرِّ الأزمان، تشير إلى مكانة هذا النبي العظيم، وعلوِّ قدره ومنزلته عند الله، حيث لم يكن مثل هذا الاحتفاء والتكريم لأحد من البشر سوى النبي العربي الهاشمي، الذي خصَّه الله بالعروج إلى مكان القدس للمناجاة، وأسرى به من البلد الحرام إلى المسجد الأقصى، ليريه من آياته الكبرى، وليلتقي بالأنبياء والمرسلين فيصلي بهم إماماً، وذاك تشريف ما بعده تشريف، واحتفاءٌ ما بعده

احتفاء بسيد الرسل والأنبياء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً، مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَىٰ، الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ والإسراء معناه: السفرُ ليلاً، مأخوذ من السَّرَىٰ وهو المشيُ في الليل، والسير في ظلمة الليل كما قال الشاعر:

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْـلاً إلى حَرَمٍ ... كَمَا سَرَىٰ البَدْرُ في دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ
وَبِتَّ تَـرْقَىٰ إِلَى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَـةً ... مِنْ «قَابَ قَوْسَيْنِ» لَمْ تُدْرَكْ وَلَمْ تُرَمِ

الإسراء كـان يقظة بالجسد والروح

والإسراء برسول الله ﷺ كان بجسده وروحه، يقظةً لا مناماً، حقيقةً لا خيالاً، دَلَّ عليه أن الله تقدست أسماؤه بدأ السورة بتنزيهه عن صفات النقص، التي تعتري المخلوقين، فهو الإلّه القادر الذي يصنع الأعاجيب ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ أي تنزَّه وتقدَّس الإلّه العليُّ الشأن عمَّا لا يليق بجلاله، الذي أسرى بعبده أي سافر به، وانتقل به في جزء من الليل، وطائفة من ساعات الليل، والعبدُ اسم لمجموع الجسد والروح.

قال الحافظ ابن كثير: والتسبيحُ إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش لتكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم، وقد ذكر تبارك وتعالى الزمان، والمكان، ليدل على أنها رحلة حقيقية، وحادثة واقعية، ليست خيالاً ولا مناماً، فالزمانُ هو الليل ﴿لَيْلاً﴾ وقد ورد بلفظ التنكير، لبيان تقليل مدة الإسراء، وأنه سبحانه قطع به المسافات الشاسعة البعيدة، في جزءٍ وطائفةٍ من الليل، وكانت المسافة مسيرة أربعين ليلة، قُطعت في هذه المدة اليسيرة، أمَّا المكان فهو من «البلد الأمين» ـ مكة ـ

شرَّفها الله، إلى «بيتِ المقدس» في أرض فلسطين ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ أي من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، وسُمِّي بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام، والغاية من هذه الرحلة، الاحتفاء بسيد الأنبياء، والتكريم لإمام المرسلين ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي لنري محمداً آياتنا العجيبة، ونطلعه على ملكوت السموات والأرض، فيرى عظمة خلقنا، وبديع صنعنا، إن الله هو السميع لأقوال محمد، البصير بأفعاله، فلهذا خصَّه بهذه الكرامات والمعجزات، احتفاءً وتكريماً لنبيه وحبيبه محمد ﷺ.

ولو كانت حادثة الإسراء قصة منامية، لما ذكرها الله في كتابه العزيز، بهذا التصوير والتحديد، ولما كذَّبه المشركون، فإن كل واحدٍ منَّا يرى في منامه ما هو أعجب وأغرب، ولا يكذبه الناس، ولكنها آية من آيات الله الباهرة، وهي نُقلة عجيبة بالقياس إلى مألوف البشر، أما بالنسبة إلى قدرة الخالق العظيم جلَّ وعلا، فإنما تجري كلمح البصر، لأن الله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، هكذا نؤمن بأن الله أسرى بعبده محمد ـ كما أخبرنا القرآن ـ حقيقة لا خيالاً، يقظة لا مناماً، بجسده وروحه، وكانت معجزة الإسراء تكريماً لسيد الأنبياء عليه أفضل الصلاة والتسليم.

الربط بين الرسالات السماوية

وبمناسبة الحديث عن المسجد الأقصى الذي كان إليه الإسراء بسيد الأنبياء، وللربط بين رسالة «محمد» ورسالة «موسى» عليهما السلام، يأتي الحديث في هذه السورة الكريمة، عن «موسى الكليم» مع بني إسرائيل، وما في قصته من أحداث غريبة عجيبة، تستدعي

الانتباه والنظر، والتفكر في عاقبة بني إسرائيل، وما جرى عليهم من المصائب والمحن، بسبب ارتكاسهم في الغيِّ والضلال، وعصيانهم لأوامر الله العلي الكبير، وكما أكرم الله محمداً بالإسراء والمعراج، فقد أكرم موسى بالتكليم والمناجاة، وأنزل عليه التوراة نوراً وهدى لبني إسرائيل، ولكنَّ اليهود لم يقدِّروا هذه النعمة الجليلة، فكفروا وطغوا وأفسدوا، فسلَّط الله عليهم شرار الخلق «المجوسَ» فخرَّبوا الديار، وسفكوا الدماء، ورمَّلوا النساء، وعاثوا في الأرض فساداً، وهكذا ينتقم الله من الظالمين بالظالمين، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدَىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً. ذُرِّيَةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ، إِنَّهُ كَانَ عَبْدَاً شَكُوراً. وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ، وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيرَاً. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُوْلاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ، فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَكَانَ وَعْدَاً مَفْعُولاً. ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ، وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ، وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾.

سيرة بني إسرائيل

وهذه الحلقة من سيرة بني إسرائيل، لم تذكر في القرآن إلا في هذه السورة، وهي تتضمن نهاية بني إسرائيل التي صاروا إليها، ودالت دولتهم وذهب مجدهم وسلطانهم بها، وتكشف عن العلاقة المباشرة، بين مصارع الأمم، وفشوِّ الترف والفساد فيها، وفاقاً لسنة الله تعالى ـ التي سيذكرها في هذه السورة بعد قليل ـ وهي أنه إذا قدَّر الله الهلاك لأهل قرية، جعل إفساد المترفين فيها سبباً لهلاكها وتدميرها ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً، أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا، فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ، فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾.

وإنما ذكر تبارك وتعالى «نوحاً» في قصة بني إسرائيل، ليذكِّرهم بواجب الشكر، فإنهم من ذرية ذلك العبد الشكور «نوح» عليه السلام ـ جدهم الأكبر ـ الذي حُمل آباؤهم معه في السفينة، ولم يحمل معه فيها إلا المؤمنين، والنعمةُ على الآباء نعمة على الأبناء، ولهذا قال تعالى: ﴿ذُرِّيَةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ، إِنَّهُ كَانَ عَبْدَاً شَكُوراً﴾ أي يا ذرية ويا أبناء المؤمنين، الذين كانوا مع نوحٍ في السفينة: لقد نجينا آباءكم من الغرق، فاشكروا الله على فضله وإنعامه، فإن جدكم نوحاً كان كثير الشكر للّه، فاقتدوا به في الصلاح والدين، والشكر لرب العالمين.

إفساد اليهود في الأرض

ومع التذكير والتحذير، الذي ذكَّرهم الله به في التوراة، فإن بني إسرائيل أمعنوا في الغي والضلال، والإفساد والإجرام، ولم يشكروا الله على نعمه، ولم يعرفوا قدر النعمة التي أولاها لهم، فاستمروا على الكفر والعصيان، فعاقبهم الله شرَّ عقاب، وانتقم منهم أعظم انتقام ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ، وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ والمعنى: أخبرناهم وأعلمناهم في التوراة، بما يحدث منهم من إفسادٍ وإجرام، وأنذرناهم عاقبة هذا الفساد، ليرتدعوا وينزجروا، فما نفع التذكير، ولا أفاد التحذير، وأوحينا إليهم بما قضيناه عليهم من الإفساد في الأرض مرتين، وطغيانهم فوق الأرض المقدسة طغياناً كبيراً، يكون من ورائه شرٌّ وبلاء مستطير.

وهذا القضاء إخبارٌ من الله عز وجل بما يكون منهم، حسب ما وقع في علمه الإلٓهي من حالهم ومآلهم، لا أنه قضاءٌ قهريٌّ عليهم،

تصدر عنه أفعالهم[1]، فالله تعالى لا يُجبر أحداً على معصية، ولا يأمر أحداً بفاحشة أو فساد، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا، قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]؟ أي أتفترون على الله وتكذبون من تلقاء أنفسكم؟

وإنما علمه سابق على الأحداث، وما أخبر عنه فهو واقع لا محالة، مع بقاء الإرادة والاختيار للبشر ـ ولقد قضى الله لبني إسرائيل في الكتاب، الذي آتاه الله لموسى، أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، وليعلُنَّ علواً كبيراً أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس، وكلما بغوا فجعلوا الارتفاع على الناس وسيلة للإفساد، سلَّط الله عليهم من يقهرهم ويذلهم، ويسومهم سوء العذاب، ويدمرهم تدميراً.

قال ابن عباس: أول الفساد قتلهم لنبي الله زكريا عليه السلام، والفسادُ الثاني قتلهم لنبي الله يحيىٰ عليه السلام والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الإفساد الأول ليس بقتل زكريا فحسب، بل هو بأنواع البغي والإجرام، فقد قتلوا الأنبياء، وسفكوا الدماء، وتعظَّموا وتكبَّروا، واستحلّوا محارم الله، فذلك هو الإفساد للمرة الأولى، وقتلهم لزكريا كان من ضمنه، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُوْلَاهُمَا،

(١) هذا هو الحقُّ في موضوع الإخبار بالقضاء، فإنه إخبارٌ عن علم الله بما سيحدث منهم، لا قضاء إجبار وإكراه على الفساد دون أن يكون لهم فيه إرادة أو اختيار، فإن الله تعالى أعدل من أن يجبر أحداً على عملٍ من الأعمال ثم يعاقبه عليه، وهذا ما قرره الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ حيث قال: أي تقدمنا إليهم وأخبرناهم وأعلمناهم بما في الكتاب أنهم سيفسدون في الأرض مرتين!.

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٨.

بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادَاً لَنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ، فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ، وَكَانَ وَعْدَاً مَفْعُولاً﴾.

والمعنى: إذا جاء وعد أُولى المرتين من الإفساد، سلَّطنا عليكم من عبيدنا أناساً جبارين، أولي قوةٍ وبطش، وتعذيب وتنكيل، وقوله سبحانه: ﴿فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ﴾ أي تردَّدوا وطافوا وسط دياركم، يروحون ويغدون، لا يخافون من أحد ﴿وَكَانَ وَعْدَاً مَفْعُولاً﴾ أي عقاباً حتماً، وجزاءً مبرماً، لا يقبل النقض، لأنه وعدُ المنتقم الحكيم.

وهؤلاء الذين سلطهم الله على بني إسرائيل هم من المجوس «بختنصَّر المجوسي» السفَّاح ملِك بابل وزبانيتُه قتلوا من بني إسرائيل ما يربو على سبعين ألفاً، وأفسدوا وخرَّبوا ودمَّروا، وأسروا منهم أعداداً كبيرة، وهذا مروي عن سعيد بن جبير وغيره من كبار التابعين، ولا غرابة في ذلك فإن الله يسلط الكافر الفاجر، على المؤمن إذا عمل بمعصية الله، كما كتب عمر بن الخطاب في وصيته للجند والجيش وهم يقاتلون الروم في بلاد الشام، فقال لهم: «وإياكم والمعاصي وأنتم تجاهدون في سبيل الله، فإنها أخوف ما أخاف عليكم، ولا تقولوا: إن عدونا شرٌّ منا فلن يُسلَّط علينا، فربَّ قومٍ سُلِّط عليهم من هو شرٌّ منهم، كما سُلِّط على بني إسرائيل لما انتهكوا محارم المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً».

هذا هو وعد الله الذي قضى به على بني إسرائيل، أن يُسلِّط عليهم ـ عند الإفساد الأول ـ عباداً من عباده أولي بأسٍ شديد، وأولي بطش وقوة، يستبيحون الديار، ويروحون ويغدون فيها باستهتار، ويطئون من فيها بلا تهيب ﴿وَكَانَ وَعْدَاً مَفْعُولاً﴾ لا يُخلف ولا يكذب.. حتى إذا ذاق بنو إسرائيل الويلات، ويلات الغلب، والقهر، والذل، فرجعوا إلى

ربهم، وأصلحوا أحوالهم، أدال الله لهم من أعدائهم، ومكَّن للمستضعفين من المستكبرين ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ، وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرَاً﴾ أي رددنا لكم الدولة والغلبة عليهم، لمَّا تبتم وأنبتم، وأصلحتم أحوالكم مع الله، وجعلناكم أكثر رجالاً وأعداداً من عدوكم، لتستعيدوا قوتكم، وتبنوا دولتكم.

ثم تتكرر القصة من جديد، فيعود اليهود إلى الإفساد، ويعود عليهم العذاب والنكال، بشكل أشدَّ وأفظع ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أي الكرة الآخرة ويعني به المرة الثانية من الإفساد ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَلِيَتَبِّروا مَا عَلَوْا تَبْيراً﴾ أي بعثنا من ينتقم منكم، فيجعلوا الذل والمهانة والمساءة بادية على وجوهكم، وليدخلوا بيت المقدس فيخربوه كما خرَّبوه أول مرة، وليدمِّروا ويهلكوا ما غلبوا عليه تدميراً، فقد سلَّط الله عليهم بعد إفسادهم للمرة الثانية من شرَّدهم في الأرض، ودمَّر ملكهم تدميراً، ويعقب القرآن على سياق القصة، بأن هذا العقاب قد يكون سبباً للعودة والإنابة إلى الله فيقول سبحانه: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ، وَإِنْ عُدْتُّمْ عُدْنَا، وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلكَافِرِينَ حصيراً﴾ أي لعل الله أن يرحمكم، ويغفر لكم ما صدر منكم إن تبتم وأنبتم، وإن عدتم إلى الإفساد والإجرام، عدنا إلى العقوبة والانتقام، وجعلنا جهنم سجناً ومحبساً للكافرين المجرمين، لا يجدون فيها مخلصاً، ولقد عادوا في زمن النبي ﷺ للإفساد، فسلّط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة العربية كلها، ثم عادوا إلى الإفساد منذ أمدٍ قريب، فسلّط الله هتلر حتى جرّعهم غصص العذاب، وقتل منهم من قتل، وأحرق من أحرق، تصديقاً لوعد الله القاطع الذي لا يخل.

نعمة نزول القرآن على أمة محمد ﷺ

ثم تمضي السورة الكريمة ـ بعد ذلك البيان المستفيض، عمَّا حلَّ ببني إسرائيل من ألوان العذاب والتنكيل، بسبب بغيهم وإجرامهم ـ فتتحدث للمسلمين عن نعمة نزول هذا القرآن العظيم، ليستمسكوا بحبله، ويعتصموا بهديه، ويستنيروا بنوره وضيائه، وكما أنزل الله على بني إسرائيل التوراة فيها هدى ونور، فكذلك قد أنزل على المؤمنين هذا الكتاب المبين، هدى وضياءً، ورحمة لمن آمن به، وعمل بأوامره ونواهيه، وإذا لم يُقدِّر اليهود نعمة التوراة، فالواجب على المؤمنين أن يقدِّروا نعمة القرآن، ويعلموا أنَّ به فلاحهم ونجاحهم، وسعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ، أَنَّ لَهُمْ أَجْرَاً كَبِيراً. وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عذاباً أَلِيمَاً﴾.

والحديث عن بني إسرائيل في الآيات السابقة، جاء تمهيداً للحديث عن القرآن العظيم، تنبيهاً للعباد على أن طاعة الله، واتباع هدي رسله، توجب للإنسان كل خير وكرامة، وأن معصيته توجب كل عقوبةٍ وإهانة، والعاقل من اهتدى بهداية الله، فأشرق في قلبه نور الإيمان، وأعرض عن طاعة الشيطان، فهذا القرآن هو المخلِّصُ، وهو

المنقذ من عذاب الله، والهادي إلى الصراط المستقيم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي يرشد للطريقة التي هي أقوم الطرق وأعدلها، فهو الدواء والعلاج للأمراض الاجتماعية، والنفسية، والاقتصادية، والسياسية، لأنه جمع قواعد وأصول السعادة الدنيوية والأخروية، كما قال الرسول الأعظم ﷺ في وصف هذا القرآن: «كتابُ الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهُدَىٰ في غيره أضله اللهُ، وهو حبلُ الله المتينُ، وهو الذكر الحكيمُ، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صَدَق، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراطٍ مستقيم»(١).

العجلة من طبائع البشر

ومن طبيعة الإنسان التعجل وعدم التمهل، وقد يدعو على نفسه وعلى أهله وأولاده بما لا يحبُّ، ومن رحمة الله أنه تعالى لا يستجيب لهذا الإنسان العجول في دعائه بالشر، كما يستجيب له في دعائه بالخير، ولو استجاب له لهلك، أو أصابه ما لا تحمد عُقباه، ولهذا قال تقدست أسماؤه: ﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ، بِالْخَيْرِ، وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ والمعنى: يدعو الإنسان بالشر على نفسه كما يدعو لها بالخير، ولو استجيب له في ذلك لهلك ودُمِّر، وهذا لما جُبل عليه من العجلة.

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه برقم ٢٩٠٨ من حديث الحارث الهمداني، ورواه الدارمي وأحمد في المسند جامع الأصول ٨/٤٦١.

قال ابن عباس: هو دعاء الرجل على نفسه وولده، عند الضجر، بما لا يحبُّ أن يُستجاب له، يقول: اللهم اهلكْه، اللهمَّ دمِّره، ونحو ذلك.

وتحتمل الآية معنى آخر كما ذكره الفخر الرازي وهو: «أن الإنسان قد يبالغ في الدعاء، طلباً لشيء يعتقد أن خيره فيه، مع أن ذلك الشيء يكون مصدر شرِّه وضرره، وهو يبالغ في طلبه لجهله بحال ذلك الشيء، وإنما يُقدم على مثل هذا العمل، لكونه عجولاً مغتراً بظواهر الأمور، غير متفحص عن حقائقها وأسرارها»(١).

آية الليل والنهار

ومن الآيات القرآنية، تنتقل السورة الكريمة إلى الآيات الكونية، لتذكِّر العباد بنعم الله الدينية والدنيوية عليهم، فالآيات القرآنية مصدر الهدى والرشاد، والآيات الكونية لمصالح ومنافع العباد، وقد أحكم الله نظام هذا الكون إحكاماً دقيقاً، وجعل فيه الآيات والعبر، فالليل والنهار من الآيات الباهرة، الليلُ لسكن الإنسان وراحته، والنهار لسعيه ومعيشته، وكل منهما يسير بنظام دقيق ثابت، يدل على وجود المدبر الحكيم، الخالق العليم، الذي هيّأ للإنسان سبيل العيش على سطح هذا الكوكب الأرضي، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ، وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً، لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً. وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٦٢/٢٠.

يَلْقَاهُ مَنْشُوراً. اقْرَأْ كِتَابَكَ، كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ الليل آية بما فيه من الظلام، والنهار آية بما فيه من النور والضياء، ولولا تعاقب الليل والنهار لما تحققت راحة وسعادة الإنسان، وقد جعل الله الليل سكناً، يسكن في كل شيء من الإنسان، والحيوان، والنبات، والدواب، وجعل النهار للانتشار، والتقلب لطلب المعيشة في الأسفار. ومصالح الدنيا لا تتم إلا بالليل والنهار، فلولا الليل ما حصل السكون والراحة، ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف في وجوه المعاش، فسبحان الواحد القهار. !

ومعنى قوله سبحانه: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي طمسنا الليل فجعلناه مظلماً لتسكنوا فيه ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي جعلنا النهار آية باهرة، جعلناه مشرقاً بالنور ليحصل به الإبصار، ثم قال تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ﴾ أي لتطلبوا في النهار أسباب معيشتكم ولتعلموا عدد الأيام والشهور والأعوام، بتعاقب الليل والنهار، فالليل للراحة والسكون، والنهار للسعي والكسب ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ أي وكل أمرٍ من أمور الدنيا والدين، بيناه للناس أحسن تبيين، وليس شيء في هذا الكون متروك للمصادفة والطفرة، وإنما هو بتدبير، وتقدير، وإحكام.

فوائد تعاقب الليل والنهار

ذكر تبارك وتعالى من فوائد تعاقب الليل والنهار ثلاثة أمور:

الأول : السكون بالليل راحةً للبدن، والسَّعيُ بالنهار طلباً للرزق، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً، لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

الثاني : معرفة الأيام، والشهور، والأعوام، ومعرفة أوقات الحج والصيام، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾.

الثالث : التنبيه إلى وجود مدبِّر حكيم، يسيِّر الكون بنظام دقيق، من غير خلل ولا اضطراب، فلو دام النهار لهلك الناس، ولو دام الليل لما كان هناك زروع ولا ثمار، ولا سعي ولا عمل، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾.

كل إنسان مرتبط بعمله

ثم ذكر تبارك وتعالى أن النظام الكوني الذي يحكم الليل والنهار، يرتبط به سعي الناس، وعملهم من خير وشر، وجزاؤهم على الخير والشر، ويرتبط به عواقب الهدى والضلال، فقال جلّت عظمته: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أي جعلنا عمله ملازماً له، لزوم القلادة للعنق، والسوار للمعصم، والطائر هنا استعارةٌ لعمل الإنسان، وقد خاطب الله العرب بما يعرفون، إذ كانوا يتيامنون ويتشاءمون بالطير سارحةً وبارحة، فأخبرهم تعالى بأوجز لفظ، وأبلغ إشارة، إلى أن جميع ما يلقى الإنسان من خير وشر، ملازمٌ له لا ينفك عنه، حتى يلقى جزاءه في الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾ أي يرى عمله ظاهراً مكشوفاً لا يملك إخفاءه، ويقول الله تعالى له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ أي كافيك اليوم أن تكون شاهداً على نفسك حاكماً عليها، قال الحسن البصري: يا ابن آدم لقد أنصفك ربك، عَدَل والله من جعلك حسيب نفسك.. اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، يا رب العالمين.

إرسال الرسل رحمةٌ إلٓهية

وتمضي السورة الكريمة وهي تبيِّن رحمة الله بالعباد، بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، وحكمه العادل في أن الإنسان لا يؤاخذ بذنب غيره، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه، فهي «التبعة الفردية» والمسئولية الشخصية، التي تربط كل إنسان بنفسه، إن اهتدى فلها، وإن ضلَّ فعليها، وما من نفس تحمل وزر أخرى، وما من أحدٍ يُخفِّف حمل أحد، إنما يُسأل كلٌّ عن عمله، ويُجزى كلٌّ بعمله، وذلك هو كمال العدل في قانون الله عز وجل، الذي لا يُحابَىٰ فيه شخص على حساب شخص، ولا يُحمل من إنسان على إنسان، لأن ذلك يجانب الحقَّ والعدل، الذي جعله الله معيار الحساب والجزاء، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزرَ أُخْرَىٰ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾.

والمعنى: من آمن واتبع الحقَّ، واهتدى باقتفاء هَدْي المرسلين، فإنما يجني عاقبته الحميدة لنفسه ومن ضلَّ عن الحق، وزاغ عن سبيل الهدى والرشاد، فإنما يجني على نفسه، ولا يعود وبال ذلك إلا عليه، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا يحمل أحدٌ ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه.

كل إنسان يُجازى بما جناه

هذا هو العدل الإلَهي، والحكم السماوي الذي قرره الله في كتبه، وعلى ألسنة رسله، ولا تعارض ولا تَنافي بين هذه الآية الكريمة، وبين قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ فإن هذه الأثقال التي حملوها فوق أوزارهم، هي في الحقيقة من كسب أيديهم ومن صنيعهم، فإن الدعـاة إلى الضلالـة، عليهم إثم ضلالهم في أنفسهم، وإثمُ من أضلُّوه ودعوه إلى معصية الله، فلولا أنهم حسَّنوا إليه القبيح، وزينوا له المنكر، لما ضلَّ ذلـك الإنسان عن طـريق الله المستقيم، فهم قد تسببوا لضلاله، والمتسبِّب أخٌ للمجرم في الذنب، وشريكٌ له، كالذي يعين القاتل على القتل، والسارق على السرقة، يشاركهما في الإثم والإجرام، وهذا من عدل الله بعباده، وقد قال صلوات الله عليه: «ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»(١).

لا عقاب إلَّا بعد الإنذار

وقد شاءت رحمة الله، ألَّا يأخذ الإنسان بالآيات الكونية، المبثوثة في صفحات هذا الوجود، الناطقة بوجوده ووحدانيته، وألَّا يأخذه بعهد الفطرة، الذي أخذه على بني آدم في ظهور آبائهم، فإن ذلك العهد قد يُنسى، إنما يرسل إليهم الأنبياء والمرسلين، مذكِّرين ومنذرين، لتقوم عليهم الحجة، ولا يبقى لأحدٍ عذر يوم القيامة، ولهذا ختم الله الآية الكريمة بقوله جل ثناؤه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ أي وما كنا معذبين أحداً من الخلق، حتى نبعث لهم الرسل هداةً مرشدين، يبلغونهم

(١) الحديث أخرجه مسلم في العلم رقم ٢٦٧٤ والترمذي وأبو داود، وانظر جامع الأصول ٥٦٦/٩.

أوامر الله، ويرشدونهم إلى طريق الهداية والفلاح، وهذه رحمة من الله أن يُعْذِر إلى العباد، قبل أن يأخذهم بالعذاب، والله سبحانه أحقُّ من يقبل العذر، إن كان هناك وجه شرعي مقبول من جهة العبد، فقد روى الإمام أحمد في المسند، أن رسول الله ﷺ قال: «أربعةٌ يحتجون يوم القيامة: رجلٌ أصمٌّ لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق ـ أي مجنون ـ ورجلٌ هَرِمٌ ـ أي كبرت سنُّه حتى أصيب بالخَرَف ـ ورجل مات في فترة، فأما الأصمُّ فيقول: ربِّ قد جاء الإسلامُ وما أسمعُ شيئاً، وأما الأحمق فيقول: ربِّ قد جاء الإسلام والصبيانُ يحذفونني بالبعر، وأما الهَرِم فيقول: لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربِّ ما أتاني لكَ رسولٌ. . فيأخذ الله مواثيقهم ليطيعنَّه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار ـ أي يمتحنهم سبحانه بأمرهم بدخول النار ـ قال ﷺ: «والذي نفسُ محمد بيده، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً»(١).

إهلاك الطغاة المفسدين من الأمم

ثم تنتقل السورة الكريمة، لبيان سنّة الله في إهلاك الظالمين، وأخذ أهل القرى بالعذاب العاجل في الدنيا، عندما يرتعون في الفسق والمجون، ويبغون في الأرض ويفسدون، فيهلكهم الله ويدمِّرهم، ويأخذهم بأشدِّ أنواع العذاب، الصالحون والطالحون، لأن الشرَّ والمنكر إذا فشا وانتشر، فذلك علامة فساد الأمة وتحللها، وتركهم لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فعند ذلك يكون العذاب عاماً، والبلاء شاملاً ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً، أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا، فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ، فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً. وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ القُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ، وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾.

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٤/٢٤.

سؤال وجواب

وهنا سؤال لا بدَّ من الجواب عليه، وهو كيف قال تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيهَا﴾؟ وهل يأمر الله بالسوء والشر، حتى يأمر المترفين بالفسوق والفجور؟

والجواب من وجهين:

أولاً : ثبت بالنصِّ القرآني القاطع، أن الله منزَّه عن السوء ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، أَتَقُولُونَ عَلَىٰ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟.

ثانياً : في الآية شيء محذوف يدلُّ عليه السياق، والمحذوف هو مفعول الأمر وهو الطاعة أي أمرناهم بطاعة الله ففسقوا فيها، كما تقول: أمرتُه فعصاني، فأنت لم تأمره بالعصيان إنما أمرته بطاعتك فعصى أمرك، ومعنى الآية الكريمة: وإذا أردنا إهلاك قوم من الأقوام، أمرنا الرؤساء والقادة والمنعَّمين فيها بطاعة الله، فعصوا أمرنا، وخرجوا عن طاعتنا، وفسقوا وفجروا، فاستحقوا العذاب بالفسق والطغيان، فدمَّرناهم وأهلكناهم إهلاكاً كاملاً. وهذا القول مرويٌّ عن ابن عباس وسعيد بن جبير، قال ابن كثير: أمرهم بالطاعات، ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة. هذا هو الفهم السليم لآيات القرآن الكريم، وحُكي قول آخر عن ابن عباس أن معنى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي سلَّطنا أشرارها، فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب، قال وهي كقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا..﴾.

التحذير من الترف

والمراد تحذير الأمة من الترف، والاستهتار بالقيم والمقدسات، والولوغ في الأعراض والحرمات، فإذا لم يجـدوا من يضرب على أيديهم، عاث الفجار في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة، وأشاعوها بين الناس، فحلَّ بالأمة العذاب والدمار. روي أن النبي ﷺ دخل على أم المؤمنين زينب رضي الله عنها، وهو فَزِعٌ يقول: لا إلّه إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فتح اليوم من رَدْم يأجوجَ ومأجوج مثلُ هذه، ـ وحلَّق بالسبَّابة والإبهام ـ إشارة إلى الفتن التي تحدث في آخر الزمان ـ قالت يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث»[١].

الإنسان له حرية الإرادة والاختيار

ثم انتقلت السورة الكريمة، توضح الأمور، وتبيِّن الحقائق، وتردّ على سفاهات الجاهلين، الذين يقولون لو شاء الله لنا الهداية لاهتدينا، ولو أراد لنا الخير والصلاح لكنَّا صالحين، فذكر تعالى أنه ترك للناس حرية الاختيار، بعد أن أرشدهم إلى السبيل، وأرسل لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، فلم يترك لهم عذراً، فمن شاء أن يعمل للجنة فالطريق ميسَّرٌ، ومن أراد أن يكون حطباً لجهنم، فالطريق أيضاً له ميسَّرٌ، والله يعطي الإنسان من القدرة، والقوة، والإرادة، والاختيار، ما يجعله يسلك الطريق الذي يحبه، الذي يوصله إلى النعيم أو إلى الجحيم، ولا غصب ولا قهر ولا إكراه ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً. وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً. كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاء مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً. انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين.

بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً . لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾ هكذا يبيِّن الله بكل جلاء ووضوح، أنه قد ترك للإنسان الاختيار، فهو حرٌّ أن يختار الجنة أو أن يختار النار، فمن لم يكن له همٌّ إلا الدنيا أعطاه الله ما قدَّره له، لا كل ما يريد، ثم كان مصيرُه جهنم، يدخلها مهاناً حقيراً مطروداً من رحمة الله، والذي يريد الآخرة لا بدَّ أن يسعى لها سعيها، فيجد في طاعة ويجتهد، ينتهي إليها مشكوراً، يتلقى التكريم في دار النعيم، وذلك جزاء من أحسن عملاً، وهكذا قطع الله الطريق على المجادلين في آيات بالحجة الدامغة، والبرهان الناصع.

الآداب الإسلامية الحميدة

ثم يأتي دور التوجيه إلى الآداب الإسلامية الفاضلة، التي بها يسمو المجتمع، وتسعد الأمة، ويعيش الإنسان عيشة العزة والكرامة، لأن الأمة إنما تسمو بآدابها، وتوزن بأخلاقها، وإذا هبطت الأخلاق، تلاشت الأمة وضاعت، وانحدرت إلى هاوية الجحيم.

وقد بدأت الآيات الكريمة بتوجيه الإنسانية إلى الإيمان بالله وتوحيده، وبر الوالدين، والإحسان إلى الفقراء، والأيتام والمساكين، وتحريم قتل الأولاد خشية الفقر، وتحريم سفك الدماء، والوفاء بالعهد، وإيفاء الكيل والوزن، والتحذير من الوقوع في أعراض الناس دون تثبت والنهي عن الخيلاء والكبر، وفي ذلك يقول جلَّتْ عظمته وتقدست أسماؤه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ، أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا، فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ، وَلَا تَنْهَرْهُمَا، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا

كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً. رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ، إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾.

حقُّ الله مقرون بحق الوالدين

جمع تعالى بين حقِّ الله وحقِّ الوالدين، لينبه على عظيم حقهما على الولد، فإنهما تعبا وشقيا من أجل سعادته وراحته، فعليه أن يقابل الجميل بالجميل، والإحسان بالإحسان، لا سيما عند بلوغهما الشيخوخة والكِبَر، فإن رعايتهما في هذا الوقت ألزم وأوجب، والتعبيرُ يوحي بالشفقة والحنان، ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا﴾ فللشيخوخة دلالتها وإيحاؤها، فكأنهما في هذه السنِّ أصبحا كالطفلين الصغيرين، يحتاجان إلى حماية ورعاية، وكلمة «عندك» تصوِّر معنى الالتجاء والاحتماء، فقد ذهبت عنهما القوَّةُ، والحيويةُ، والشدَّةُ، وجاء دورُ العجزِ، والضعف، والكَلال، ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ﴾ فقد أصبحا لعجزهما لاجئين إلى من يحميهما، كما كان الولد في صغره يحتاج إلى حماية أبيه وأمه.. ثم قال تعالى: ﴿ فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ وكلمة «أفٍّ» تدل على السآمة والضَّجر، وهي اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر، فإذا كانت هذه اللفظة التي هي أقل مراتب الإساءة قد نُهي عنها، فكيف بالشتم أو الضرب أو اللعن؟ ثم حذره ممَّا هو أعظم فقال: ﴿وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾ والنَّهرُ: الزجرُ بصياح أو إغلاظ كما قال سبحانه: ﴿وأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾ ومعنى الآية: لا تقل للوالدين أقلَّ كلمة تظهر الضجر ككلمة أفٍّ، ولا تزجرهما بإغلاظٍ فيما لا يعجبك منهما ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمَاً﴾ أي قولاً حسناً ليِّناً طيِّباً، بأدبٍ ووقار واحترام ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي تواضع لهما بتذلل وخضوع ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أي أدع لهما

بالرحمة، وقل في دعائك: يا ربِّ ارحم والديَّ وأكرمهما، كما أحسنا تربيتي في صغري.

ما أسمى هذا الأسلوب البياني، الذي عرضه القرآن، في تصوير تواضع الإنسان لوالديه ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ فقد شبَّه الذل بطائر له جناح، فإذا طار فتح جناحيه ونشرهما، وإذا كفَّ عن الطيران قبضهما إليه، فشبَّه شدة التواضع لهما، بقبض الجناح، ولم يكتف بذكر الجناح بل أضافه إلى الذلِّ، ليشعره بالانكسار والخضوع بين يديهما كأنه لذله جناح مكسور، وإنه لتصويرٌ بالغ الروعة والجمال، بأبدع صور التعبير، بطريق الاستعارة المكنية كما يقول علماء البيان.

الإحسان إلى الضعفاء والمساكين

وبمناسبة الإحسان إلى الوالدين، يأمر تعالى بالإحسان إلى الضعفاء والمساكين، والأرامل والأيتام، فالناسُ كلهم عبيدُ الله، وأحبُّ الناس إلى الله أنفعهم لعباده ﴿ وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ، وَالمِسْكِينَ، وابْنَ السَّبيل، وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً. إنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إخْوَانَ الشَّيَاطِينِ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ وينهى القرآن عن التبذير، والتبذيرُ - كما يفسره ابن مسعود - الإنفاق في غير حقٍّ، وفي غير وجوه المنفعة.

قال مجاهد: «لو أنفق إنسانٌ ماله كلَّه في الحق، وفي وجوه الخير لم يكن مبذراً، ولو أنفق مدَّاً في غير حقٍّ كان مبذراً».

وقال قتادة: التبذير الإنفاقُ في معصية الله، وفي الفساد. فليس التبذير إذاً في الكثرة والقلَّة في الإنفاق، إنما هو في موضع الإنفاق، ومن ثَمَّ كان المبذِّرون إخوان الشياطين، لأنهم ينفقون في الباطل، وينفقون في المعصية، وينفقون في الشر، فهم رفقاء الشياطين،

في السَّفه والغيِّ والفساد ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ أي جاحداً لنعمة الله، وكذلك إخوانه.

وإذا لم يجد الإنسان ما يعطف به على الفقراء والمساكين، وطُلب منه الإحسان، ولم يكن لديه ما يعطيه أو يواسي به الفقير والمسكين، فليكن هيناً ليناً في صرف هؤلاء، بالابتسامة، وبالكلمة الطيبة، وبالقول الجميل ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا، فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾.

والمعنى: إن أعرضت عن ذوي القربى والمساكين، لأنك لم تجد ما تسدُّ به حاجتهم، فعدهم وعداً حسناً، وقل لهم قولاً ليناً، مثل أن تقول: إن جاءنا رزقُ الله، فسنصلكم إن شاء الله، ورب كلمة فاقت عطاءه، وكما أمر الله بالإنفاق والإحسان، نهى عن الشح والبخل، وذم الإسراف والتبذير ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ، فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾.

وهذه الآية على وجازتها أرستْ أصولَ الاقتصاد، فالتوسُّطَ في الإنفاقِ هو الذي يحفظُ الإنسان من العَوَز والحاجة، ويضمن له الحياة الهنيئة السعيدة، والتوازنُ بين الدَّخل والإنفاق، هو القاعدة الكبرى في المنهج الإسلامي، فلا بخل ولا شُحَّ، ولا سَرَف ولا تبذير، وخيرُ الأمور أوساطها.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ أي تصبح قعيداً عديم المال، يلومك الناس ويذمونك، محسوراً أي منقطعاً عن الإنفاق والتصرف، والحسيرُ في اللغة: الدابة تعجز عن السير، فتقف ضعفاً وعجزاً، فكذلك من أسرف ماله وبذَّره، انقطع من المال، كمن ينقطع في سفره بانقطاع مطيته.

قتل الأولاد خشية الفقر جرم عظيم

وقد كان بعض أهل الجاهلية يقتلون البنات خشية الفقر والإملاق، فجاءت الآيات تحذِّر من هذا العمل الوحشي القبيح، فالرزَّاق هو اللهُ، وما دام الرزق بيد الله، فلا خوف على كثرة النسل إذاً، طالما تكفَّل الله برزق عباده ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً﴾ أي إن قتلهم ذنب عظيم، وجرم كبير، لا يفعله إنسانٌ عاقل.

وكانوا يقتلون البنات بطريق الوأد، ويتركون البنين، لعجز البنات عن الكسب، وقدرة البنين على القتل والغارة، وأيضاً فقد كانوا يخشون أن تُزوَّج لغير الأكفاء بسبب الفقر، وذلك عارٌ شديد عندهم، وكلُّ هذه الأسباب مرفوضةٌ شرعاً وعقلاً، فإن الأولاد نعمة، وقتلُهم وحشيَّةٌ من أعمال الجاهلية.

التحذير من فاحشة الزنى

ثم يأتي النهي عن الزنى بعد النهي عن قتل الأولاد، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ والفاحشة هي العمل القبيح الذي تناهى في الشناعة والقبح، وقد ورد النصُّ القرآني بلفظ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ ولم يقل سبحانه: ولا تزنوا، لأنه أبلغ منه وأشمل وأوسع، حيث أفاد النهي عن مقدماته، كاللَّمس، والقبلة، والنظرة، والخلوة، وسائر ما يدعو إلى مقارفة هذه الفاحشة، فالنهي عن القرب أبلغ من النهي عن الفعل، وربَّ نظرةٍ ولَّدت حسرة، وجرَّت إلى ويلات وبلاء، كما قال الشاعر:

كَمْ نَظْرَةٍ فَتَكَتْ في قَلْبِ صَاحِبِها   فَتْكَ السِّهَامِ بِلاَ قَوْسٍ وَلاَ وَتَرِ

ولهذا السرِّ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ أي اجتنبوا الزنى، وابتعدوا عن كل أسبابه ودواعيه، ممَّا يجُرّكم إليه ويوقعكم فيه، وفي الربط بين قتل الأولاد والزنى صلةٌ ومناسبة، فإن الزنى قتلٌ في صورة أخرى، لأن الزاني يصب ماء الحياة في غير موضعه، يتبعه غالباً الرغبة في التخلص من آثاره بقتل الجنين بإسقاطه قبل أن يتخلق، وبعد أن يتخلق للتخلص من تبعته أو خوفاً من الفضيحة، أو يكون من اللقطاء لا يعرف له أباً ولا أماً، فيعيش لحياة شريرة أو حياةٍ مهينة ويصبح خطراً على المجتمع.

وما من أمة فشا فيها الزنى، إلاَّ صارتْ إلى انحلالٍ ودمار، وليس أدلُّ على ذلك من هذا الطاعون الخبيث، كوليرا العصر، وهو «مرض الإيدز» الذي هو أخطر بلاء على البشرية، وهو نتيجة لهذه العلاقات الجنسية الأثيمة، التي فشت في المجتمع الأوروبي والأمريكي، وهو نذير بخطر كاسح يأتي على الأخضر واليابس، ويدمِّر الأمم والمجتمعات، نعوذ بالله من هذا البلاء والوباء.

جريمة القتل تدمِّر المجتمع

ثم تنتقل السورة للحديث عن جريمة القتل، وهي جريمةٌ اجتماعية خطيرة، تدمِّر بنيان المجتمع، وتجلب القلق والذُّعر، وتُهدِّد الأمن والاستقرار، وتجعل البشر كالوحوش الضارية، يفترس القويُّ الضعيف، ويسطو القادر على العاجز.

والإسلامُ دين الحياة، ودينُ السلام، فقتلُ النفس عنده كبيرةٌ تلي الشرك بالله، فالله جلّ وعلا واهبُ الحياة، وليس لأحدٍ غيرِ الله أن

يسلبها من الإنسان، إلا في الحدود التي رسمها المولى جلَّ وعلا، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً، فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ، إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾.

فالنَّفسُ الإنسانيةُ حَرَمٌ لا يُمسُّ، وحَرَامٌ إزهاقُها إلَّا بالحقِّ، والحقُّ هو الذي شرعه الله جلَّ وعلا بطريق القصاص، أو بطريق العقوبة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ووضحه رسول الله عليه الصلاة والسلام في الحديث المروي في الصحيحين: «لا يحلُّ دم امرىءٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، إلَّا بإحدى ثلاثٍ: النَّفسِ بالنَّفس، والزاني المحصن، والتاركِ لدينه المفارقِ للجماعة»[1].

وبغير هذا الحق فجريمةٌ لا تغتفر، كما نبَّه عليه سيد البشر، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «لَزوالُ الدنيا عند الله، أهونُ من قتل مسلم»[2].

وفي الحديث الآخر: «ليس من نفسٍ تُقْتَلُ ظُلماً، إلَّا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ منها ـ أي وزرٌ من إثم قتلها ـ لأنه أوَّلُ من سَنَّ القتْلَ»[3].

والحالات التي تُقتل فيها النفس بالحقِّ هي ثلاث لا تزيد عليها:

---

(١) الحديث رواه الشيخان «البخاري ومسلم».
(٢) الحديث رواه الترمذي والنسائي، وانظر جامع الأصول ١٠/٢٠٨.
(٣) الحديث رواه البخاري ومسلم والترمذي. جامع الأصول ١٠/٢٠٩.

أما الأولى فهي القصاصُ العادل.

وأما الثانية فهي دفعٌ للفساد الاجتماعي في انتشار الفاحشة، وهي لونٌ من ألوان القتل كما ذكرنا.

وأما الثالثة فهي دفعٌ للفساد الروحي، وهي الردَّة عن الإسلام، الذي يشيع الفوضى في الجماعة، ويهدِّد أمنها ونظامها، وإنما يُقتل المرتدُّ لأنه دخل في جسم الجماعة المسلمة، واطلع على أسرارها فخروجه بعد ذلك تهديدٌ لها، وخطرٌ عليها.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾ أي ومن قُتل ظلماً بغير حقٍّ شرعيٍّ يوجب قتلَه، فقد جعلنا لولي أمره ووارثه، سلطةً على القاتل بالقصاص منه، أو أخذ الدية، أو العفو ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ، إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ أي فلا يتجاوز ما حدَّه اللهُ له، استغلالاً لهذا السلطان، بأن يقتل غير القاتل، ممن لا ذنب له، كما كان يقع في الثأر الجاهلي، حيث يقتلون بالواحد اثنين أو عشرة، ويقتلون من أقاربه من لم يرتكب جرماً، سوى أنه من أسرة القاتل، فمثلُ هذا ظلمٌ وطغيان ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ ينصره الله، وينصره الحاكم على خصمه، فليكن عادلاً في قصاصه.

النهي عن إتلاف أموال اليتامى

ثم بعد النهي عن إتلاف النفوس، يأتي النهي عن إتلاف الأموال، وبخاصة مال اليتيم، فإنه بحاجة إلى حماية ورعاية، لا إلى من يطغى عليه فيسلبه قُوتَه وماله، وما أحوج الطفل الذي فَقَدَ حنان أبيه، إلى من يكفكف دمعته ويرعاه؟ ويُثمِّر له ماله، ويدفع عنه عوادي الأيام، فهو يتيم وهو ضعيف، ومن واجب المجتمع حماية الضعيف، ولهذا وصَّى الله عز وجل به، وحذَّر من أكلِ ماله، بل من قربه على وجه الإضاعة

والإفساد، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾.

والمعنى: لا تتصرفوا بمال اليتيم، إلاّ بالطريقة التي هي أحسن، وهي حفظُه وتثميره، حتى يبلغ اليتيم سن الرشد، ويحسن التصرف في ماله، كما قال سبحانه: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا، فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ ثم أمر تبارك وتعالى بالوفاء بالعهد، وهو كل عهدٍ بينك وبين الناس، وبينك وبين الله، ومنها عهد رعاية مال اليتيم ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ أي يسأل عنها الإنسان يوم القيامة، هل وفَّاها أم لا؟.

الأمر بوفاء الكيل والوزن

وبعد الوفاء بالعهد، يأتي الحديث عن الوفاء بالكيل والوزن، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أي إذا أتممتم الكيل لمن تبيعونه من غير تطفيف ولا بخس، ووزنتم بالميزان السويّ بلا احتيال ولا خديعة فإن ذلك خيرٌ لكم في الدنيا، حيث تُشهرون بالأمانة، وأحسن عاقبة ومآلاً في الآخرة، حيث تنالون رضى الله.

والطَّمعُ في الكيل والوزن، قذارةٌ وصَغَارٌ في النفس، وغشٌّ وخيانةٌ في التعامل، يزعزع الثقة بأفراد المجتمع، ولهذا أوعد الله بالعذاب الشديد عليه، حيث قال جل ثناؤه: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ؟ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؟

حواس الإنسان أمانة يُسأل عنها يوم القيامة

ثم تنتقل الآيات الكريمة، إلى التحذير من إساءة الظنّ بالمسلمين، وعدم التسرع بالحكم على إنسان، أو اتهامه قبل أن يتثبت من الأمر، فإن أمانة الجوارح والحواس أمانةٌ يسأل عنها الإنسان يوم القيامة ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ، وَالبَصَرَ، وَالفُؤَادَ، كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ وفي الحديث الصحيح: «إياكم والظنَّ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث»[1] وبئس مطية الرجل «زعموا».

التحذير من الخيلاء والكبر

وتختم هذه التوجيهات الإلّهية، التي دعت إلى الفضائل والآداب، ومكارم الأخلاق، إلى التحذير من الكبر والخيلاء، فلا يليق بالإنسان وهو العبد الضعيف العاجز أن يتكبر، وهو معروف البداية والنهاية ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ، وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً. كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾.

والمعنى: لا تمش في الأرض مشية المتكبر المختال، المعجب بنفسه، فإنك ضعيف هزيل، لا يليق بك الكبرياء فلن تستطيع بمشيتك أن تخرق الأرض فتجعل فيها شقوقاً، ولا أن تبلغ الجبال بتطاولك فتصل إلى ذراها؟ وهو أسلوب تهكمي رائع.

والكبرياء لا تليق إلا بالله جلَّ وعلا، كما في الحديث القدسي الشريف: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، من نازعني فيهما قصمته ولا أبالي»[2] وقد أحسن الشاعر حين قال:

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١٧١/٩ ومسلم برقم ٢٥٦٣.

(٢) الحديث أخرجه مسلم برقم ٢٦٢٠ وأبو داود برقم ٤٠٩٠.

وَلاَ تَمْشِ فَوْقَ الأَرْضِ إِلاَّ تَوَاضُعَاً فَكَمْ تَحْتَهَا قَوْمٌ هُمُو مِنْكَ أَرْفَعُ؟

وقال آخر:

تَوَاضَعْ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لاَحَ لِنَاظِرٍ عَلَى صَفَحَاتِ المَاءِ وَهُـوَ رَفِيعُ
وَلاَ تَـكُ كَالـدُّخَانِ يَعْلُو بِنَفْسِـهِ إِلَى طَبَقَـاتِ الجَوِّ وَهُـوَ وَضِيـعُ

رأى رجل من الصالحين شخصاً يمشي متكبراً، قد أعجبته نفسه، فهو يزهو ويتبختر، فقال له: قف، أتدري من أنت؟ أتعرف بدايتك ونهايتك لماذا كل هذا العُجب والخيلاء؟ أولك نطفةٌ قذرة ـ أي مهينة ـ وآخرك جيفةٌ قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة ـ أي النجاسة ـ فاستحيا الرجل وخفض رأسه ومشى، وفي الحديث الصحيح: «من تواضع للّه رفعه، ومن تكبّر على الله وضعه».

الإشراك بالله عقوبته الخلود في جهنم

وتمضي السورة الكريمة ـ بعد ذكر تلك الآداب والفضائل ـ إلى ذكر العقيدة الإسلامية الصافية، التي هي أساس كل تكليف، وأصل كل فضيلة، ومصدر كل خيرٍ وإحسان، فتنهى عن الشرك، وتحذِّر من عاقبته الوخيمة، لأن في الإشراك بالله جحوداً لفضله وإحسانه وتنكراً لعظمته وجلاله، فهو وحده الخالق، وهو وحده الرازق، فكيف يجعل الإنسان لهُ شريكاً في ملكه؟ وسواء كان هذا الشريك حجراً أو بشراً، وسواءً كان ولداً أو ملكاً، أو أيَّ وجه من وجوه الشركاء والأنداد، فقد حذَّر الله منه، ونهى عنه، وجعل عقوبته الخلود في نار جهنم، لأنه أعظم الكبائر والذنوب، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ، وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ، فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾ أي ذلك الذي تقدَّم، من الآداب والأخلاق والأحكام، ممَّا

أوحاه إليك ربك يا محمد، من المواعِظ البليغة، والحِكَم الفريدة، ولا تشرك مع الله غيره من وثنٍ، أو بشر، أو حجر، فتُلقى في نار جهنم، يلومك ربك وتلومك نفسك، وتصبح مطروداً مبعداً من كل خير، مع الذل والهوان.

نبَّه تعالى إلى أن التوحيد هو رأس الأمور وأساسها، وهو مبداها ومنتهاها، والأعمال بدونه باطلة داثرة.

زعمهم أن الملائكة بنات الله

وبـأسلوبٍ يدل على الاستنكـار، والتهكم بعقول المشـركين، يخاطبهم القرآن الكريم فيقول تقدست أسماؤه: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ، وَاتَّخَذَ مِنَ المَلاَئِكَةِ إِنَاثَاً؟ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمَاً﴾.

والمعنى: هل خصَّكم اللهُ بالذكور واختار لنفسه البنات؟ وكيف يجعل لكم الأعلى والأفضل من النسل والذرية ويختار لنفسه الأدنى؟ وهو أسلوب تهكميٌّ لاذع، فقد زعم المشركون أن الملائكة بنات الله - تعالى الله عن الصاحبة والولد علواً كبيراً - وهم يكـرهون البنـات ويقتلونهن خوف الفقر أو العار، ومع ذلك لا يستحون أن يقولوا الملائكة بنات الله!! فهل أصفاهم الله بالبنين المحبوبين، واتخذ لنفسه الإناث المكروهات؟ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمَاً﴾ أي إن هذا الأمر منكر، عظيم في شناعته وبشاعته، عظيم في جرأته ووقاحته.

نفورهم عن التوحيد والإيمان

ويُبين القرآن الكريم طغيان المشركين، ونفورهم عن الإيمان، وعن اتِّبَاعِ آياتِ الرحمٰن، فمع كثرة ما نوَّع الله لهم من المواعظ،

والحجج، والبراهين، بقيت نفوسهم شَارِدَةً عن الله، مستعصيةً عن قبول الحق، لا تتعظ ولا تلين، وإلى ذلك يشير قوله تقدست أسماؤه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا، وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾.

والمعنى: ولقد بينا في هذا القرآن، العِبَر والأمثال، والحِكم والمواعظ، والوعد والوعيد، وسلكنا في إيضاحها طرقاً شتى، وأساليب متنوعة ليتعظوا ويعتبروا بما فيه من الحجج النيِّرة، والبراهين الساطعة، فينزجروا عما هم عليه من الشرك والضلال، وما يزيدهم هذا البيان والتذكير، إلا نفوراً عن الحق، وإعراضاً عن نور القرآن.. والنفورُ من أوصاف الدوابِّ الشرسة، الشديدة الجموح، وقد شبههم القرآن بهذا التشبيه الرائع، ليصورهم في أذهان المخاطبين، وكأنهم دوابٌّ شاردة كقوله سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾(١) أي كأنهم حمرٌ وحشيَّةٌ نافرة، هربت فزعاً من رؤية الأسد.

تقرير الوحدانية بالأدلة العقلية

وتنتقل الآيات بعد ذلك، لتقرير وحدانية الله عز وجل، وإبطال مزاعم المشركين في وجود آلهة مدَّعاة، زعموا أنها شركاء مع الله، في الألوهية والربوبية، وهذه الآلهة المزعومة، إن هي إلَّا خلقٌ من خلق الله، سواء كانت نجماً أو كوكباً، إنساناً أو حيواناً، نباتاً أو جماداً فهي لا تملك من الحَوْل والطَّوْلِ، والقوة والقدرة، ما يجعلها تنافس الله في الربوبية، ولو كان لها تلك القوة القاهرة، والسلطان القويّ، لطلبت مغالبة الله عز وجل، لتسلبه ملكه وسلطانه، وهذا من أظهر الدلائل،

(١) سورة المدثر آية رقم ٤٩ ـ ٥١.

على تفرُّد الله عز وجل بالوحدانية، والربوبية، والمُلك فهو الواحد القهار، الكبير المتعال، الذي يُسبِّح له كل ما في الوجود، من صامتٍ وناطق، وإنسان وجماد، وكوكب وذرة، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ، إِذاً لَابْتَغَوا إِلَىٰ ذِي العَرْشِ سَبِيلاً. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً. تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ، وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ والآية الكريمة وردت على سبيل الفرض والتقدير، فإن «لو» في لسان العرب: حرفُ امتناع لامتناع، فالقضية كلها ممتنعة، وليس هناك آلهة مع الله كما يزعمون ويدَّعون!!

والمعنى: لو فرضنا أن مع الله آلهة أخرى كما زعم المشركون، لطلب هؤلاء طريقاً إلى مغالبة الواحد المتعال، ذي العزة والجلال، ليسلبوا منه ملكه، كما يفعل ملوك الدنيا وسلاطينها حيث يكون بينهم منافسة على الحكم والسلطان، والغالب القاهر هو المنتصر على خصمه حتى يستتبَّ الملك له، فهذا هو المعنى المقصود من قوله سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً﴾ أي إذاً لطلبوا قهر الله والاستيلاء على ملكه وسلطانه[1]. ثم قال سبحانه

---

(١) هذا أحد وجهين من أقوال المفسرين في الآية الكريمة، وهو مروي عن سعيد بن جبير وغيره من أئمة السلف، وهنا وجه آخر أن المعنى: لو كان الأمر كما تقولون، لكان أولئك المعبدون يبتغون سبيلاً إلى التقرب إليه، بعبادته وطاعته، ويطلبون الزلفى لديه، وهو اختيار ابن جرير وابن كثير، وهو مروي عن قتادة، والوجه الذي ذكرنا أظهر وأوضح ـ كما يقول العلّامة أبو السعود ـ لأنه هو المناسب لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ فإنه صريح في الإنكار لا في الإسرار والله تعالى أعلم.

منزهاً نفسه عن الشريك، والمنافس، والنظير: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ أي تنزّه الله وتقدّس، عما يقول أولئك الظالمون، وتعالى وتمجَّد عما نسبوه إليه من الزور والبهتان من الزوجة والشريك والولد، فإن مثل هذه الفرية ظاهرة البطلان، وقد جاء لفظ «العلو» بعد عنوان بلفظ «ذي العرش» في أعلى مراتب البلاغة والبيان، لأنه المناسب للعظمة والجلال.

ثم ذكر تعالى من دلائل تفرده بالألوهية والوحدانية، أن كل ما في الكون يُسبِّحه ويقدسه، في كلِّ حصاةٍ وكلِّ حجر، وكل شجرة وكلِّ ورقة، وكلِّ زهرة وكلِّ ثمرة، وكلِّ دابةٍ وكلِّ حشرة، وكلِّ زاحف، وكلِّ سابح، وكلِّ ناطقٍ وكل صامت، الكلُّ مع الملأ الأعلى في تسبيح وتمجيد ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أي تُسبِّح له جميع الكائنات، بلسان الحال أو بلسان المقال، ومن فيهن من المخلوقات، من مَلَكٍ، وإنسٍ، وجان ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي وما من شيء في هذا الوجود، إلّا وهو ناطق بعظمة الله، شاهدٌ له بالوحدانية، السمواتُ تُسبِّح الله في زرقتها، والحقول في خضرتها، والبساتين في نُضْرتها، والأشجارُ في حفيفها، والمياهُ في خريرها، والطيورُ في تغريدها، والشمسُ في شروقها وغروبها، والسُّحُب في أمطارها، والكل شاهد له بالوحدانية:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي ولكن لا تفهمون تسبيح هذه الأشياء، لأنها ليست بلغاتكم ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ أي لا يعاجل من عصاه بالعقوبة لحلمه سبحانه، غفور لمن تاب وأناب لأنه هو التواب.

سخريتهم بالرسول وتشويشهم عند تلاوة القرآن

وتمضي السورة الكريمة لتتحدث عن كبراء قريش، في افتراءاتهم على القرآن، وأقوالهم الشنيعة فيه وفيمن أُنزل عليه، فقد كانوا يستمعون إلى القرآن، ولكنهم لإغراقهم في الكفر والطغيان كانوا يجاهدون أنفسهم ألاَّ يتأثروا به، أو ترقَّ قلوبهم لآياته البينات، ويجتهدون للطعن فيه بشتَّى وسائل الطعن والتشويه، فكان بعضهم كلما سمع رسول الله ﷺ يقرأ القرآن، يرسل إليه من يقوم عن يمينه وشماله، ليصفِّق ويُصفِّر ويخلط عليه بالأشعار، ولذلك فقد جعل الله على قلوب هؤلاء السفهاء أغلفةً كالأغطية، فلا تفقهُ القرآن ولا تفهمه، وجعل لهم في آذانهم كالصَّمم، فلا تعي ولا تدرك ما فيه من نور وضياء، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً. وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نفُوراً. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ، إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً. انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا، فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ والأكنَّةُ جمع كِنَان، وهو الغطاء الذي يستر الشيء، والمعنى: إذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجاباً خفياً، يحجب عنهم فهم القرآن، وإدراكَ أسراره وحكمه، وجعلنا على قلوبهم أغطيةً لئلا يفهموا آيات القرآن، وفي آذانهم صمماً يمنعهم من وصول نور بيِّناته، وإذا وحَّدتَ الله، فرَّ المشركون ونفروا، من استماع كلمة الإيمان والتوحيد، ثم قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ أي نحن أعلم باستماعهم للقرآن وبسبب هذا السماع حين يستمعون لقراءتك يا

محمد، فما غرضهم أن تستنير قلوبهم بنور آياته البينات، وإنما غرضهم السخرية والاستهزاء، فهم يتناجون بينهم، ويتحدثون سراً عن الناس فيقول بعضهم لبعض: ما تتبعون إلَّا رجلًا مسحوراً، قد سُحر فاختلط عليه عقله، وزال عن حد الاستواء، فهو يهذي بهذا القرآن.

قصة الطواغيت الثلاثة من زعماء قريش

روى الحافظ ابن كثير في تفسيره «أن أبا سفيان، وأبا جهل، والأخنس بن شريق، خرجوا ليلةً ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحدٍ منهم مجلساً يستمع فيه وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون لـه، حتى إذا طلع الفجر تفـرقوا، وجمعتهم الطريق فتلاوموا، فقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعضُ سفهائكم لأوقعتم في نفسه الشكَّ، وظنَّ أن ما يقوله محمَّدٌ حق، فعلوا ذلك ثلاثة أيام، كل يوم يخرجون ليستمعوا لقراءة النبي ﷺ ثم قالوا: لا نبرح حتى نتعاهد ألَّا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرَّقوا، فلما أصبح الأخنس أخذ عصاه ثم خرج، حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: يا أبا حنظلة أخبرني عن رأيك فيما سمعتَ من محمد؟ فقال يا أبا ثعلبة: واللهِ لقد سمعتُ أشياءَ أعرفُها وأعرف ما يُراد بها، وسمعتُ أشياء ما عرفتُ معناها ولا ما يُراد بها، قال الأخنس: وأنا واللهِ كذلك.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعتَ من محمد؟ قال: ماذا سمعتُ؟ لقد تنازعنا نحنُ وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى كنا كفرسَيْ رهان - يعني لا يسبقوننا ولا نسبقهم في الفضائل - حتى إذا تجاثينا على الركب، افتخروا علينا فقالوا: منا

نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدِّقه، فقام عنه الأخنس وتركه»(١).

وهكذا يظهر مكابرة المشركين وعنـادهم، فهم يعلمون الحقَّ ويكابرون، ويسمعون القرآن ولا يؤمنون، لأن عيونهم عميت عن رؤية نوره الساطع، وقلوبهم مغطَّاةٌ بحجب كثيفة، فلا تدرك أسراره، ولا تفهم أحكامه، وكما حال الله بينهم وبين فهم القرآن، فقد حال بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام.

قصة العوراء امرأة أبي لهب

رُوِيَ عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها قالت: جاءت العوراء أُم جميل، امرأةُ أبي لهب، إلى رسول الله ﷺ، ولها ولولة ـ أي صوت ـ وبيدها فِهْرٌ ـ أي حجر رقيق حاد كالسكين ـ وهي تقول:

مُذَمَّمَا أَبَيْنَا وَدِينَهُ قَلَيْنَا وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا

تقصد بقولها «مذمَّماً» محمداً ﷺ، وقد كان السفهاء من قريش يهجون الرسول بهذا اللفظ.

ورسولُ الله ﷺ جالسٌ وأبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر يا رسول الله: لقد أقبلت هذه العوراء، وأنا أخاف أن تراك، فقال له ﷺ: «إنها لن تَرَاني» وأخذ يقرأ هذه الآيات الكريمة: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ قال: فجاءت حتى قامت على رأس أبي بكر، وأخذ اللهُ بصَرَها فلم تر النبي ﷺ فقالت يا

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣٨١/٢ وقد ذكر هذه القصة «محمد بن إسحق» في السيرة النبوية بسنده عن محمد بن مسلم بن شهاب عن الزهري بالسياق الذي ذكره الحافظ ابن كثير.

أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجاني، فقال أبو بكر: لا وربِّ هذا البيتِ ما هجاكِ فانصرفت وهي تقول: لقد علمتْ قريشٌ أني بنتُ سيِّدها».

شبهتهم حول البعث والنشور والرد عليها

ثم تنتقل السورة الكريمة، لتردَّ على شبهات المشركين من كفار مكة، في إنكارهم المعاد والبعث والقيامة، فقد استبعدوا أن يردهم الله إلى حال الحياة بعد أن صاروا عظاماً ورفاتاً، وقالوا إن الإنسان إذا مات جفَّت أعضاؤه، وتناثرت وتفرَّقت أشلاؤه وعظامه، واختلطت بتراب الأرض، فكيف يعقل اجتماعُها وعودتها إلى الحياة بأعيانها مرة أخرى؟ وقد حكى القرآن هذه الشبهة وردَّ عليها بقوله تقدست أسماؤه: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً، أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً؟ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً. أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُر فِي صُدُورِكُمْ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا؟ قُل الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ، وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ؟ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً. يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾.

ردَّ القرآن سفاهتهم وجهالتهم، بأنصع حجةٍ، وأقوى برهان، فكأنه يقول لهم: إنكم تستبعدون أن يجدِّدَ الله خلقكم، ويردكم بعد الموت، إلى رطوبة الحيِّ وغضاضته، فلو كنتم أبعد شيء من الحياة، لو كنتم حجارةً يابسة، أو حديداً صَلْداً ـ وهذه أبعد شيء من الحياة من رطوبة الحيِّ، لما فيها من القساوة والصلابة ـ فإن الله قادرٌ على أن يردَّكم إلى الحياة مرة أخرى، لسبب بسيط هو أنكم تجهلون نشأتكم الأولى، فقد كنتم في العدم فأحياكم الله، فكيف لا يقدر على إعادتكم بعد تفتيت أوصالكم، الذي أنشأكم إنشاءً، قادرٌ على أن يردكم أحياءً، بل أفرضوا ما هو أبعد في التصور والاستحالة، أن تكون أجسامكم من

حجارة أو حديد، أو ما هو أوغل في البعد عن الحياة، مما يعظم في صدوركم، ولا تتصوره عقولكم، فسيبعثكم الله؟! فكيف تغفلون عن قدرة العلي الكبير، الذي يقول للشيء كن فيكون!! ولكن هؤلاء القوم لا ينتفعون ولا يقنعون ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾؟ أي فسيحركون رءوسهم ويهزونها سخرية واستهزاءً قائلين: متى سيكون هذا البعث والإحياء ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ أي قل لهم يا محمد لعلَّ وقته يكون قريباً..

ثم بيَّن تعالى موعد البعث والنشور فقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنونَ إِنْ لَبِثْتم إِلَّا قَلِيلاً﴾ وهكذا أفحمهم الله بأقوى حجة وأوضح بيان.

التلطف بالقول مع المعاندين

وبعد ذلك البيان الساطع في تفنيد شبه المشركين، وإقامة الأدلة والبراهين، على إمكان البعث والنشور، تأتي الآياتُ لتأمر المؤمنين، بالرفق والتدرج عند إيراد الحجة على المخالفين، وأن يتلطَّفوا معهم بالقول، ولا يعاملوهم بمثل أفعالهم وأقوالهم، فالجاهل لا بدَّ أن يُقابل بصدرٍ رحب من العاقل، وبخاصة المؤمن الداعية، فإنه كالطبيب ينبغي أن يكون لطيفاً ليناً مع المريض، لينقذه من خطر الداء القاتل، فيصبر على أذاه، ويتحمل سفهه وجهله، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾ والمعنى: قل يا محمد لعبادي المؤمنين يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلمة الطيبة، ويختاروا من الكلام ألطفه وأحسنه ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي إن الشيطان يُفسد

بينهم، ويُهيج بين الناس الشرَّ، ويُشعل نار الفتنة، بالكلمة الخشنة المنكرة يُفلت بها اللسان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾ أي إن الشيطان ظاهر العداوة للإنسان، من قديم الزمان، يتلمَّس سَقَطات لسانه، ليحدث العداوة والبغضاء بين البشر، فاحترسوا من شرِّه، والكلمة الطيبة تسدُّ عليه الثغرات، وتقطع عليه الطريق.

عاقبة المحسن والمسيء

ثم يأتي الحديث موضحاً عاقبة المؤمن والكافر، والمحسن والمسيء، فالدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، وهناك يلقى الإنسان جزاء ما قدّم ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾.

والغرضُ من الآياتِ الكريمة تسليةُ النبي ﷺ، بتوضيح أن مهمته التبليغ فقط، وليس مسئولاً عن اهتداء الناس أو ضلالهم، والرد على المشركين حيث استبعدوا أن يكون محمد رسولاً، وقالوا: كيف يكون يتيم أبي طالب نبياً من الأنبياء؟ وكيف يكون الفقراء الضعفاء أصحابه دون الأكابر والرؤساء ثم ذكر تبارك وتعالى أنه خصَّ كل رسول بخصلةٍ من خصال الفضل والخيرية، فخصَّ إبراهيم بالخُلَّة وموسى بالتكليم، وسليمان بالملك العظيم وتعليمه لغة الطير، ومحمداً بالإسراء والمعراج، وجعله سيد الأولين والآخرين، كما خصَّ داود بتسبيح الجبال معه، وأعطاه الزبور المشتمل على الحكمة وفصل الخطاب.

الآلهة التي عبدوها لا تضر ولا تنفع

وترجع الآيات بعد ذلك، لتسفيه عقول الذين اتخذوا آلهةً من دون

الله، أشركوهم مع الله في الألوهية، وتأتي بأسلوب التحدي السافر للمشركين، تطالبهم أن يدعوا الآلهة المزعومة لكشف الضر عنهم، أو تحويله إلى غيرهم، إن أراد الله بهم البلاء والعذاب ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِهِ، فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

والمعنى: إن الذين تدعونهم آلهة من دون الله، لا يستطيعون رفع البلاء عنكم، ولا تحويله إلى غيركم وتلك الآلهة هم أنفسهم يبتغون القرب إلى الله، ويتوسلون إليه بالطاعة والعبادة، وهم بعبادتهم للّه يرجون رحمته، ويخافون عقابَهُ، ويتسابقون إلى رضاه فكيف تعبدونهم معه؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي عذابه تعالى شديد، جديرٌ بأن يحذره الإنسان، ويخاف من وقوعه.

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: «كان ناسٌ من الإنس يعبدون ناساً من الجنِّ، فأسلم الجنُّ، وتمسك هؤلاء بدينهم» فذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾[1] وقال ابن عباس: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة، والمسيحَ، وعزيراً، وهم المراد بالآية الكريمة[2] فكأن الله تعالى يقول: هؤلاء الذين تعبدونهم، هم يتوسلون إلى الله بصالح الأعمال، ويطلبون رحمته ومغفرته ورضوانه، فكيف يليق بكم أن تعبدوا مخلوقين مثلكم، هم بحاجة إلى رحمة الله؟

(١) انظر فتح الباري على صحيح البخاري ٨/٣٩٧.
(٢) رواه الطبري عن ابن عباس وذكره ابن كثير ٢/٣٨٤.

نهاية الطاغين المكذبين

ثم بيَّن تبارك وتعالى نهاية الأقوام الطاغين، والأمم المكذبين، وأن سنَّة الله في إهلاك الظالمين، لا بدَّ أن تتحقق، قبل مجيء يوم القيامة، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ، أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً، كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُوراً﴾.

والمعنى: أنه ما من قريةٍ من القرى الكافرة، التي عصت أمر الله، وكذَّبت رسُلَه، إلَّا وسيهلكها اللهُ، إما بالاستئصال الكلي، كما أهلك قوم عاد وثمود، أو بالعذاب الشديد لأهلها، بأخذهم بالجوع والقحط، أو بالفيضانات والزلازل، كان ذلك الأمر حكماً مسطَّراً في اللوح المحفوظ لا يتغيَّر، وفي الآية وعيدٌ وتهديد للظالمين، حتى لا يغتر أحدٌ بإمهال الله عز وجل لهم، فالله يمهل ولا يُهمل، وإذا أخذ الظالم أخذه أخذ عزيز مقتدر.

عدم تحقيق المقترحات رحمة بهم

وتمضي الآيات الكريمة، وهي تبيِّن حكمة الله عز وجل في عدم إجابة المشركين لما اقترحوا من الآيات، فقد طلبوا من رسول الله عليه السلام، أن يزيل عنهم جبال مكة، ويجري فيها الأنهار، وأن يقلب لهم الصفا ذهباً، ولو أجابهم الله إلى ما طلبوا ثم لم يؤمنوا كان هلاكهم محققاً كما هلك من قبلهم من الأمم، حين طلبوا من أنبيائهم بعض المعجزات، فلما جاءتهم ولم يؤمنوا أهلكهم الله بعذاب الاستئصال، وهذه الأمة مرحومة بنبيِّها، وقد قضى ـ والله ـ وحكم أن يُخرج من أصلاب المشركين، من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً، ولذلك لم يجبهم إلى ما

طلبوا وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا، وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾.

والمعنى: ما منعنا من إرسال المعجزات والخوارق التي طلبها قومك، إلا تكذيب من سبقهم من الأمم، حيث اقترحوا ثم كذَّبوا فأهلكهم الله ودمَّرهم، ولولا أنا قد حكمنا بعدم إهلاك قومك بعذاب الاستئصال إكراماً لك يا محمد، لأجبناهم إلى ما طلبوا، ثم ذكر تعالى نموذجاً عن المهلكين ممن طلبوا الآيات والخوارق ثم كذَّبوا بها «كثمود» قوم صالح فقال سبحانه: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي أعطينا قوم صالح الناقة، آية بيِّنة واضحة، ومعجزةً ساطعة، كما طلبوا، فكفروا بها وجحدوا فأهلكناهم ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾ أي ما نرسل بالأحداث الكونية من الزلازل، والفيضانات، والرعد، والصواعق، والخسوف والكسوف إلا تخويفاً للعباد ليرجعوا إلى ربهم وينيبوا له. قال ابن عباس: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، فأوحى الله إليه إن شئت أعطيناهم ما سألوا فإن كفروا هلكوا، وإن شئتَ أن نستأني بهم؟ فقال: بل استأن بهم يا رب، فنزلت الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ..﴾ الآية.

ما رآه ﷺ من العجائب في الإسراء والمعراج

ثم تمضي السورة الكريمة وهي تتحدث عن الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ، وهي رؤيا عين وليست برؤيا منام، وهي ما رأى في ليلة الإسراء من العجائب، حيث رأى من آيات ربه الكبرى، وكانت فتنةً للمشركين ولضعفاء الإيمان، حتى ارتد بعضهم عن الإسلام، وقد كان رسول الله ﷺ حين عُرج به، رأى البيت المعمور، وسدرة المنتهى،

والجنة والنار، ورأى في النار شجرة خبيثة هي شجرة الزقوم، رآها في أصل الجحيم، وقد كانت تلك الأحداث العجيبة، التي رآها رسول الله عليه السلام ابتلاءً للناس، ولما أخبرهم رسول الله بشجرة الزقوم كذبه المشركون، حتى قال أبو جهل متهكماً ساخراً: هاتوا لنا تمراً وزُبْداً، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول: تزقَّموا، فلا نعلم الزقوم غير هذا، وإلى ذلك يشير قوله تقدست أسماؤه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ، وَالشَّجَرَةَ المَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي أحاط علمُه وقدرته بالناس، وهم في قبضته وتحت قهره وغَلَبته، وعصمك وحماك من شرِّهم، فالآية إخبار له ﷺ أنه محفوظٌ من الكفر، آمنٌ من القتل، ومن كل مكروهٍ عظيم، قال مجاهد والحسن: عصمك الله منهم، فبلِّغ رسالة ربك. وأما الشجرة الملعونة فهي «شجرة الزقوم» كما روى البخاري عن ابن عباس: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ قال: «هي رؤيا عينٍ أُريهَا رسول الله ﷺ ليلة أسري به ﴿وَالشَّجَرَةَ المَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ﴾ قال: هي شجرة الزقوم»(١) ثم قال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ أي ونخوِّفهم بأنواع الآيات والنكبات الزاجرة، فما يزيدهم ذلك إلا تمرداً وطغياناً.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري وأحمد، وانظر فتح الباري ٣٩٨/٨ قال أبو حيان في البحر المحيط ٥٥/٦: «هي شجرة الزقوم، لما نزل أمرها في سورة الصافات، قال أبو جهل وغيره: هذا محمد يتوعدكم بنارٍ تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تُنبت الشجر، والنار تأكل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر بالزبد، ثم أمر أبو جهل جارية له فأحضرت تمراً وزبداً، وقال لأصحابه تزقموا، فافتتن بهذه المقالة بعض الضعفاء».

قصة خلق آدم وحسد إبليس له

ثم تلتها الآيات وهي تتحدث عن قصة خلق آدم، وأمر الملائكة بالسجود له، وامتناع إبليس واستكباره عن السجود له، وتوعده بإضلال ذرية آدم، ووجه المناسبة بين الآيات السابقة وهذه الآيات، أن المشركين لما نازعوا الرسول في النبوة، واقترحوا عليه الآيات، وكان الدافع لهذا هو الكِبرُ والحسد، والبغيُ والطغيان، فقد حسدوا الرسول ﷺ على ما آتاه الله من النبوة، والدرجة الرفيعة، وكذلك إبليس حمله الكبر والحسد على الامتناع عن السجود لآدم، فناسب ذكرُ قصته بعد ذكر قصة أولئك الطغاة المتجبرين من كفار مكة، فالسبب واحد، والدافع واحد، ولهذا جاء التعقيب بذكر قصة آدم مع إبليس، في قوله جل ثناؤه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ، قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً؟ قَالَ: أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ، لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَتَهُ إِلَّا قَلِيلاً. قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً. وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ، وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ، وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾.

امتناع إبليس من السجود لآدم وحقيقته أنه من الجن

وإبليسُ لم يكن من الملائكة على الرأي الصحيح المشهور[1]،

---

(١) هذا ما رجحه المحققون من المفسرين، أن إبليس لم يكن من الملائكة وإنما هو جنيٌّ، وقد أُمر بالسجود لآدم حين أُمرت الملائكة، فأطاعت الملائكةُ، وعصى هو وتكبر، فطرده الله من الملأ الأعلى، ولعنه لعنةً أبدية، وقد تقدم في سورة البقرة قول =

وإنما كان من الجن كما قال سبحانه في سورة الكهف: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ولكنه لمَّا كان في جملة الملائكة ومعهم لما أُمروا بالسجود لآدم، صار مكلفاً بالسجود له، وهناك أمر خاصٌّ من رب العزّة والجلال لإبليس بالسجود لآدم، ويدل عليه قوله سبحانه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي ما منعك من السجود حين أمرتك؟ وقد بيَّن تعالى في هذه الآيات الكريمة سبب امتناع إبليس اللعين فقال تقدست أسماؤه: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ، قَالَ: أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً؟﴾ أي أأسجد أنا العظيم الكبير، لهذا المخلوق الضعيف الحقير، الذي خُلق من الطين؟ كيف يصحُّ للعالي أن يسجد للداني؟ وهذا حسدٌ وغرور من إبليس، يجعل اللعين يذكر الطين، ويغفل عن سرِّ النفخة الربانية في هذا الطين ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ ولكن الحسد أعمى بصيرته، وأحرق قلبه، فغفل عن ذلك السرِّ الذي أودعه الله في آدم، ومن أجله أمر الملائكة بالسجود له عليه السلام.

عزم إبليس على إغواء بني آدم

ويزيد إبليس في الاستعلاء والطغيان، والتكبر على أوامر الرحمٰن، فيقول في غطرسةٍ وتبجُّحٍ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾؟ أي أترى هذا المخلوق الذي فضَّلته عليَّ، وجعلته أكرم مني عندك؟ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ أي أنظرتني وأبقيتني حقاً إلى يوم البعث ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي لأستأصلنَّ ذريته بالإغواء والإضلال، ولأستولينَّ عليهم، وأملك زمامهم، وأجعلهم في قبضة يدي، أصرِّف أمرهم كما أشاء، إلا قليلاً منهم، وهم عبادك المخلصون.

= الحسن البصري: «ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين» وذكرنا أربعة أدلة شرعية تدل على أنه لم يكن من الملائكة.

قال تعالى ردّاً عليه: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً﴾ أي اذهب يا إبليس فقد أنظرتُك، فابذل جهدك فيهم، وحاول محاولتك معهم، فمن أطاعك من ذرية آدم، فإن جزاءك وجزاءَهم نارُ جهنم، جزاءً وافراً كاملاً، لا ينقص منه شيء، والأمرُ هنا أمرُ إهانة، وكأنه يقول له: اجهَدْ جهدك فقد أنظرناك.

الوسائل الخسيسة التي يستعملها إبليس لإضلال البشر

لحكمةٍ يريدها الله عز وجل ـ وله الحكمة البالغة في الخلق والتقدير ـ أطلق لإبليس ـ بريد الشرِّ والغوايه ـ الزِّمامَ، ليحاول محاولته مع بني الإنسان، ولكنه تعالى زوَّد البشر بالعقل والإرادة، والتمييز بين الخير والشر، والهدى والضلال، ليكون لديهم ما يقاومون به مكر إبليس وخبثه وكيده، ثم قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ أي حَرِّكْ من أردتَ أن تستفزَّه فتخدعه، بدعائك له إلى الفساد ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي اجمع لهم أعوانك وجنودك من كل راكبٍ وراجل، وهو تمثيلٌ لتجميع قوىٰ الشر على بني آدم ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي شاركهم في أموالهم وأولادهم، بتزيين كسب المال الحرام وإنفاقه في المعاصي، وتحسين اختلاط الرجال بالنساء، حتى يكثر بينهم الزنى والفجور ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ أي عدهم بالوعود الخادعة، والأماني الكاذبة، فلن تستطيع أن تغوي إلا أتباعك المجرمين، بهذه الوسائل والأساليب الخسيسة، أما عبادي المؤمنين فلن تقدر على إغوائهم وإضلالهم ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي إن عبادي المخلصين ليس لك عليهم تسلط بالإغواء ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ أي كفى أن يكون الله عاصماً وحافظاً لهم من كيدك وشرك.

أبواب الرحمة مفتوحة أمام العباد

وتمضي السورة الكريمة ـ بعد ذلك البيان المستفيض عن وساوس الشيطان وطرق إغوائه وإضلاله ـ فتفتح أبواب الرجاء في وجوه العباد، لئلا يقنطوا من رحمة الله، إذا ما أغواهم الشيطان بطرق مكره وخداعه، فوقعوا في المعاصي، أو انتهكوا بعض المحارم، وتذكِّرهم بنعمِهِ جلَّ وعلا وإحسانه إلى عباده، وبآثار قدرته ووحدانيته، فهو الرب الرحيم، الذي يَقبلُ توبةَ العبد المنيب، إذا تاب إلى ربه واستقام، وهو الذي يدفع عن الإنسان الشدة والكرب، وقت الضيق والبلاء، ويستجيب لعبده الدعاء ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الفُلْكَ فِي البَحْرِ، لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً. وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى البَرِّ أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً. أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البَرِّ، أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً، ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً؟. أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ، فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ، فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ، ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً. ؟﴾.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿يُزْجِي لَكُمُ الفُلْكَ فِي البَحْرِ﴾ أي يُسيِّر لكم السفن في البحر، ويسوقها من مكان إلى مكان، وجعلُ هذه السفن الضخمة الكبيرة تجري فوق سطح الماء، آية من آيات الله الباهرة، إذ

كيف حمل هذا الماء ـ وهو مادة سائلة رقيقة ـ هذه السفن التي هي كالأبراج فوق سطحه ولم تغص فيه؟ والحصاة إذا قذفناها في الماء غاصت إلى قعره، فكيف حمل الماء هذا الفلك المشحون؟ إنها قدرة الله التي تسيِّر الكون وما فيه بنظام دقيق محكم، ولولا أن الله سخَّر البحر لعباده لما استطاعوا أن يركبوا متنه، ولكنها الرحمة الإلّهية، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ أي هو بكم رحيم، ولذلك سهَّل لكم أسباب الانتقال، وحمل الأثقال.

التجاء المشركين إلى الله وقت الشدة والضيق

ثم ذكَّرهم تعالى برحمته وقت وقوعهم في الضيق والشدة، وأنه لا منجي لهم وقت الكرب والبلاء إلا اللهُ ربُّ العالمين، وذلك عندما تعصف الرياح، ويفاجئهم الغرق وهم فوق ظهر البحر، تتقاذفهم الأمواج، ويشعرون بالخطر يُحدق بهم، فإنهم يلجأون إلى الله متضرعين منيبين، وينسون ما كانوا يعبدونه من أوثان وأصنام، لاعتقادهم أنه لا يكشف الضرَّ إلا الله، فهم يتجهون إليه وحده في لحظة الخطر، لا يدعون أحداً سواه، ثم إذا نجَّاهم وكشف عنهم الضر، عادوا إلى الكفر والعصيان، ونسوا فضل الرحمٰن ﴿وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُرُّ فِي البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلَّا إِيَّاهُ﴾ أي ذهب عن أوهامكم وخواطركم كل من كنتم تعبدونه من الآلهة، ولم تجدوا لكم مغيثاً إلا الله ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى البرِّ أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ أي فلما نجَّاكم من الكرب، وأنقذكم من الغرق، نسيتم ربكم، ورجعتم إلى الضلال بعبادة غيره، وهذا شأن الإنسان الكافر الجاحد لنعم ربه.

الإنسان في قبضة الله في كل لحظةٍ وآن

يقرر القرآن هذه الحقيقة، وهي أن الإنسان يلجأ إلى الله وقت الشدة، وينساه وقت الرخاء، وإذا ما نزلت به نكبة، أو أصابته مصيبة، فزع وتضرع إلى الله، حتى إذا كشفها الله عنه عاد يبغي ويفسد في الأرض، وأنه وقت الكرب لا يذكر إلا الله، ينسى كل معبودٍ، وكلَّ شيء تقرب إليه في الدنيا، ولكنَّ الإنسان في قبضة الله عز وجل، في كل لحظةٍ وآن، سواءً كان في البرِّ أو في البحر، فكيف يأمن من عذاب الله، ولهذا جاء الوعيد والإنذار ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البَرِّ، أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً، ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾؟.

والمعنى: هل أمنتم أيها الناس حين نجوتم من الغرق في البحر، أن يخسف الله بكم البر، بزلزالٍ أو بركان، أو يمطركم بحجارةٍ من السماء، فيهلككم كما فعل بقوم لوط؟ ولا تجدون من ينقذكم من عذاب الله ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ، فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ، فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ، ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾؟

والمعنى: أم هل أمنتم أن يعيدكم الله في البحر مرة ثانية، فيرسل عليكم ريحاً شديدة مدمِّرة، تقصف الصواري، وتغرق المراكب، فيغرقكم بسبب كفركم، ثم لا تجدوا من يأخذ لكم بالثأر منا، أو يطالبنا بتبعة إغراقكم؟

إنها الغفلة من الناس عن ربهم، يظنون أنهم في مأمنٍ وحرزٍ من عذاب الله، يأمنون بطشه وانتقامه، ولا يعلمون أنهم في كل ساعةٍ وحين في قبضته تعالى، سواءً كانوا في بحرٍ أو بر، وسواءً كانوا في صحة أو مرض، فانتقام الله من العصاة المكذبين قريب، وبطشه شديد.

تكريم الله عز وجل للنوع الإنساني

وبعد هذا البيان المستفيض، عن جحود الإنسان وإعراضه عن ربه، ونسيانه لفضله وإحسانه يذكِّرهم القرآن الكريم بتكريم الله عز وجل لهذا النوع الإنساني، وتفضيلهم على سائر المخلوقات لينيبوا إلى ربهم، فيقوموا بواجب الشكر، ويعبدوه ويعظموه، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ إنه التشريف والتكريم لآدم وذريته، خلقهم على أحسن الهيئات وأكملها، يمشون منتصبين على أرجلهم، يأكلون بأيديهم، والحيوانات تمشي على أربع، منكوسة الوجه نحو الأرض، وتأكل بفمها، وليس لها عقل، بينما الإنسان شرَّفه الله وكرَّمه بالعقل، والعلم، والنطق، والفهم، وسخَّر له جميع ما في الكون، وجمع له بين الخلق من الطين، والنفخة الربانية، فصار جامعاً بين السماء والأرض، ومهيَّأً لحمل الأمانة، التي عرضها الله على السموات والأرض، فعجزت عن حملها، وحَمَلها هذا الإنسان السميع العاقل فهذا طرفٌ من تكريم الله تعالى لبني آدم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ومن التكريم أيضاً حملهم على ظهور الدواب والسفن، في البر والبحر ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ﴾ ثم ما أنعم به عليهم من لذيذ المطاعم والمشارب ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال مقاتل: جعل الله طعام الإنسان السمن والعسل، والزبد واللحم، والفواكه والخضار، وجعل رزق الحيوان التبن والشعير والعلف، ثم ختم تعالى الآية بقوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ أي فضلناهم عى أصناف المخلوقات من الجن، والبهائم، والوحش، والطير، والدواب، فسبحان المعطي الوهّاب!!

الحساب والجزاء في الآخرة للمحسن والمسيء

وبعد هذا التشريف والتكريم، يـأتي دور الحساب والجـزاء، فيذكِّرهم تبارك وتعالى بيوم الحشر والمعاد، حين يُنادى كلُّ إنسان بكتاب عمله، ليُسلَّم له وينال جزاءه، وهناك يظهر الربح والخسران، ويتميز الشقي والسعيد ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ، وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ والمراد بالإمام هنا كتاب عمل الإنسان، بدليل قوله تعالى عقبه: ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه﴾ وقوله في سورة يٓس: ﴿وكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾.

ومعنى الآيـات الكريمة: يوم ننادي كل إنسان بكتاب عمله ليُسلَّم إليه، وينال جزاءه، فمن أعطى كتاب عمله بيمينه فهو السعيد الناجح، يقرأ كتابه بفرح واستبشار ويقول: ﴿هَاؤُم اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ فهـو فرح مسرور، ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب والبصيرة، فهذا هو الشقي الخاسر، فهو هنا يتخبط على غير بصيرة ولا نور، وهو في الآخرة أشد عمى وضلالة، وبعداً عن الهداية.

محاولة المشركين لفتنته عليه السلام عن الاستمرار في الدعوة

ثم يأتي الحديث عن أمر النبوة، وعن شخصيـة الرسـول ﷺ وموقف القوم منه ومن دعوته، فلقد أراد الأشقياء من كفار قريش، أن يصرفوا الرسول عن دعوته، وأن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه، بطريق الخداع، والمكر، والتلبيس، وحاولوا محاولات كثيرة، ليثنوا

رسول الله ﷺ عن المضيِّ في دعوته، منها مساومتهم له أن يعبدوا إلّهه، مقابل أن يترك تسفيه آلهتهم، والتنديد بما كان عليه آباؤهم من الضلالة، ومنها مساومة بعضهم أن يجعل أرضهم وبلادهم حراماً كالبيت العتيق الذي حرَّمه الله، ومنها طلبُ بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء، وأشار عليه بعضهم أن يُبدِّل آيات الوعيد بآيات البشارة، إلى غير ما هنالك من اقتراحات سخيفة، أرادوا بها فتنة النبي عليه السلام، ولكنَّ الله تعالى عصمه وحباه، وذكَّره بنعمته وفضله عليه فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً. وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً. إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾.

عصمة الله لرسوله ﷺ

الآية الكريمة فيها بيانٌ لعصمة الله لرسوله ﷺ، من المحاولات اليائسة التي بذلها رؤساء قريش لصرفه عن الدعوة، فالرسول عليه السلام مؤيَّدٌ من عند الله، محفوظ بحفظه ورعايته، معصوم من الافتراء والكذب على الله، ولولا أنَّ الله امتنَّ عليه وعصمه، من مكر وخداع المشركين، لنالوا شيئاً من مبتغاهم، فإن النفس البشرية قد تلين وقد تضعف، أمام المناورات التي تتزيَّا بزيِّ الإصلاح، وقد يُخدع الإنسان بالكلام المعسول، ولكنَّ الرسول عليه السلام له وضع خاصٌ، غيرُ ما عليه الناس من التأثرات النفسية، وهو أنه مؤيد من عند الله بالحجج والبينات ومعصومٌ من الذنوب والموبقات، فلا يمكن أن يعصي أمر الله أو يخالف شرعه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ

إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ ومعناه لولا حماية الله وعصمته لك، لملتَ إليهم شيئاً قليلاً، ولسايرتهم على ما طلبوا، ولكنَّ الله حرسك وحماك. فالآية بيان للنعمة والعصمة، وليست تقريراً للوقوع في الفتنة، فهم أرادوا ولكنَّ الله حماه، ومعلوم في اللغة العربية أن «لولا» حرف امتناعٍ لوجود، بمعنى أنه لولا اللطف والعناية الربانية، لمال إلى مهادنتهم ومسايرتهم، ولكن المهادنة لم تحدث بسبب اللطف الإلّهي[1]، كما قال تعالى عن قوم شعيب: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ فلم يحدث الرجم لوجود الرهط والعشيرة فكذلك هنا يقول: لولا العصمة لوقعتَ في الفتنة، فالآية إذاً تذكيرٌ له عليه السلام بنعمة الله الجليلة. قال في تفسير الكشاف والمعنى: «لولا تثبتنا لك وعصمتنا، لكنت قاربتَ أن تميل إلى خدعهم ومكرهم، وهذا تهييجٌ من الله له وفضل تثبيت»[2].

تهديده بمضاعفة العذاب

ثم قال تعالى: ﴿إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ وهذا أيضاً على سبيل الافتراض، بمعنى أنك يا محمد لو ملت إليهم أدنى ميل، وسايرتهم إلى ما طلبوا، لضاعفنا لك عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة، لأن الذنب من الكبير، جرم عظيم،

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط ٦/٦٤ ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ جواب «لولا» يقتضي إذا كان مثبتاً امتناعه لوجود ما قبله، فمقاربة الركون لم يقع منه ﷺ فضلاً عن الركون، والمانع من ذلك هو تثبيتُ الله تعالى له، وجواب لولا هو قوله﴿لقد كدت تركن﴾ ومثله قول الشاعر:

لَـوْلَا الأَمِيـرُ وَلَـوْلَا فَضْـلُ طَـاعَتِـهِ ... لَقَـدْ شَـرِبتُ دَمـاً أَحْلَى من العَسَـلِ

(٢) انظر تفسير الكشاف ٢/٤٦٥.

يستحق عليه مضاعفة العذاب، كما قال تعالى لنساء النبي: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[1]والغرض إذاً من الآية بيان فضل الله على الرسول، في تثبيته على الحق، وعصمته من الفتنة، ولو تخلى عن عصمته طال إليهم بعض الشيء، وليس في الآية ما يُنقص من قدر الرسول، هذا خلاصة ما قاله أهل التحقيق من المفسرين.

وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ معصوماً من الله، ولكنْ هذا تعريفٌ للأمة، لئلا يركن أحدٌ منهم إلى المشركين، في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه»[2].

محاولتهم محاصرته عليه السلام ثم قتله

ولقد عزم المشركون على إخراج النبي ﷺ من مكة، وحاولوا في بعض المرات أن يقتلوه، ولكنَّ الله الكبير المتعال حماه من شرِّهم، وحفظه ووقاه، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ، لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا، وَإِذاً لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً. سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا، وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾.

والمعنى: وإن كاد المشركون بمكرهم وإزعاجهم أن يخرجوك يا محمد من أرض مكة، والاستفزازُ الإزعاج بسببٍ من الأسباب، للحمل على الخروج من الوطن وغيره، ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي لو أخرجوك لم يلبثوا بعد خروجك إلاَّ زمناً يسيراً، حتى

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٣٠.
(٢) جامع الأحكام للقرطبي ١٠/٣٠٠.

يهلكهم الله ويدمِّرهم بعذاب الإبادة، كما فعل تعالى بالأمم السابقة ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي هذه عادةُ الله مع الذين يخرجون رسلهم من الأوطان، أن يهلكهم ويبيدهم ويستأصل شأفتهم ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ أي لن تجد لها تبديلاً ولا تغييراً، فلو أخرجوك لحاق بهم الهلاك.

قال ابن عباس وقتادة: «همَّ أهل مكة بإخراج النبي ﷺ من وطنه، ولو فعلوا ذلك ما أُمهلوا، ولكنَّ الله تعالى منعهم من إخراجه، حتى خرج بنفسه بأمر الله تعالى».

وهذه الآية تشير إلى قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ، أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ، وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾ لقد عزموا على طرده وإخراجه، ولكنَّ الله عصمه وحماه، لما سبق في علمه تعالى من إمهالهم، وعدم أخذهم بعذاب الإبادة كالأمم قبلهم، ولو أخرجوه لما تأخر هلاكهم، وفق سنّة الله التي لا تتبدل، ولكنه خرج بأمر الله العلي القدير.

المقام المحمود لسيد المرسلين

ومن ثَمَّ يأتي الأمر لرسول الله عليه السلام، أن يمضي في طريقه، يصلي لربه، ويعبد الله في أمنٍ وأمان، ويقرأ القرآن على أصحابه، ويعلمهم ما بعثه الله به من الهدى والنور المبين، ويدعو الله أن يدخله المدينة المنورة، التي أُمر بالهجرة إليها سالماً، وأن يخرجه من مكة سالماً، ووعده بالمقام المحمود، في ذلك اليوم المشهود، الذي يفزع فيه الخلائق إلى الرسل والأنبياء، من أجل الشفاعة، فلا

يجدون لها إلا محمداً رسول الله، وإنه لشرف ما بعده شرف، أن يخص الله هذا النبي العظيم بالفضل الجسيم، وفي ذلك يقول ربنا تقدست أسماؤه: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ، وَقُرْآنَ الفَجْرِ، إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً. وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ، عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ قال ابن عباس: المقامُ المحمود هو مقام «الشفاعة العظمى» لسيد الخلق، و«عسى» من الله واجبة، أي ليست للترجي بل للتحقيق.

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِـدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أي حافظ يا محمد على الصلاة في أوقاتها، من زوال الشمس إلى ظلمة الليل ﴿وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ أي وأقم صلاة الفجر واقرأ فيها كتاب ربك، فإن صلاة الفجر تشهدها ملائكة الرحمٰن، ثم أمره بعد الصلاة بالتضرع والدعاء لرب الأرباب، أن يحفظه من شر الأشرار وكيد الفجار، وأن يخرجه من مكة سالماً، ويدخله المدينة آمناً ﴿وقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ، وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ، وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ أي اجعل لي يا رب قوة ومنعة، تنصرني بها على أعداء دينك، وتشدُّ أزري بها، فأنت وحدك المعين والناصر، وقد استجاب الله دعاءه، فنصره على الأعداء، وأعلا دينه على سائر الأديان، وبشَّره بالعز والنصر والتمكين، والعودة إلى البلد الأمين، ليحطِّم الأصنام والأوثان، ويعلن عبادة الرحمٰن ﴿وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ، إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ أي مضمحلاً متلاشياً لا ثبات له ولا استقرار، لأن الباطل عارضٌ، سرعان ما يزول كشعلة الهشيم، ترتفع عالياً ثم تخبو سريعاً.

القرآن شفاءٌ ورحمةٌ

وبمناسبة ذكر الحق والباطل، تأتي الآيات البينات مشيدة بالقرآن العظيم، الذي هو الحقُّ وبالحقِّ نزل، وفيه شفاءٌ إلى القلوب من أمراض الجهل والضلال، وتطهيراً للنفوس من الشُّح والحسد، والهوى والدنس، وفيه النور والهدى والضياء، لمن أراد طريق السعادة والهناء، أما الذين في قلوبهم ظلمات الضلالة والشرك، فهو عليهم عمى، وهو لهم شقاوة وخسران، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ ما هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾.

هذا القران العظيم، هو معجزة محمد الخالدة، أنزله الله نوراً وهدى وضياء، فيه شفاء للنفوس العليلة، من الأمراض القلبية والاجتماعية، كالعقائد الفاسدة، والأخلاق الذميمة، أزال الله به الريب، وكشف عن غطاء القلب، فصار لأمراض القلوب، كالشفاء لعلل الأبدان، وكما اهتدى به أقوام ففازوا وسعدوا، كذلك ضلَّ به أقوام فخسروا وشقوا، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدَىً وَشِفَاءٌ، والَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَىً﴾[1] ولهذا قال تعالى هنا: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ أي ولا يزداد الكافرون به، إلا شقاءً ودماراً، فإن من أعرض عن هدايته، بقيت فيه الأمراض والأسقام، وظلَّ يتخبط في الشكوك والأوهام.

وليس الشفاء في الآية الكريمة، قاصراً على الأمراض القلبية، كالحسد، والبغضاء، والجهل، والسفه، والكِبر، والرياء، بل هو أيضاً شفاء للأمراض الجسمانية، لما في قراءته من التيمن والبركة وحصول

---

(١) سورة فصلت آية رقم ٤٤.

الشفاء من المرض، كما جاء في صحيح البخاري أن رجلاً في قبيلة لُدغ فرَمَاه بعضُ الصحابة بسورة الفاتحة فشفاه الله، وأعطوه أجراً ثلاثين شاة، فلما أُخبر النبي ﷺ قال: «إنَّ أحقَّ ما أخذتم عليه أجراً كتابُ الله»[1].

وعن بعض السلف أنه قال: «من لم يستشفِ بالقرآن فلا شفاه الله» وتسمى سورة الفاتحة «الشافية» لأن في تلاوتها على المريض، شفاءً من الأسقام، وما أحسن أن يلتقي التداوي بالدواء مع التداوي بالقرآن!! ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال الفخر الرازي: «الأرواح والنفوسُ مختلفة، فبعضُها مشرقةٌ صافية، يظهر فيها من القرآن نورٌ على نور، وبعضُها ظلمانيةٌ كدرة، يظهر فيها من القرآنِ ضلالٌ ونَكَالٌ».

الناس أمام هداية القرآن

وبعد هذا البيان عن أثر القرآن في قلوب الناس، يأتي الحديث عن الأشقياء الكفار الذين أعرضوا عن هداية الله، ولم تستنر قلوبهم بنور

(١) روى البخاري في كتاب الطب ١٠/١٦٩ عن عبد الله بن عباس أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ مروا بماءٍ فيهم لديغ، فعرض لهم رجلٌ من أهل الماء، فقال: هل منكم من راق، فإن في الماء رجلاً لديغاً؟ فانطلق رجلٌ منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء ـ أي شرط عليهم أن يعطوه بعض الغَنَم ـ فبرأ، فجاء بالشاء إلى أصحابه، فكرهوا ذلك وقالوا: أخذت على كتاب الله أجراً!! حتى قدموا المدينة، فقالوا يا رسول الله: أخذ على كتاب الله أجراً، فقال رسول الله ﷺ: إن أحقَّ ما أخذ عليه أجراً كتاب الله» ورواه أبو داود بأوسع من هذا، وفي رواية الترمذي أن الغنم كانت ثلاثين شاة.

كتابه المبين، وهذا هو الصنف الثاني من البشر، الذين كان القرآن عليهم شقاءً ووبالاً، وعنهم يتحدث القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسَاً. قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ، فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ والمراد بالإنسان ههنا الجنسُ الذي كفر بالله، الذين قال الله فيهم في الآية السابقة: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

والمعنى: وإذا أنعمنا على هذا الإنسان الظالم بأنواع النعم، من صحةٍ، وأمنٍ، وغنى، أعرض عن طاعة ربه وعبادته، وابتعد عنه تكبراً وغروراً، وإذا أصابته الشدائد والمصائب، أصبح يائساً قانطاً من رحمة الله، والآية تمثيل لطغيان الإنسان، فأذا أصابته النعمة بطر وتكبَّر، وإذا أصابته الشدة أيس وقنط، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ أي قل لهم: كل واحدٍ يعمل على منهجه وطريقته، في الهداية أو الضلالة، فإذا كانت نفس الإنسان مشرقةً صافية، صدرت عنها أفعال كريمة فاضلة، وإن كانت نفسه كافرة فاجرة، صدرت عنها أفعال سيئة شرِّيرة، وكما قيل «وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضح» ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ أي ربكم هو العالم بمن اهتدى إلى طريق الرشاد، وبمن ضلَّ عنه، وسيجازي كل إنسان بعمله.

الروح من أمر الله عز وجل

ومن القرآن روح الحياة، إلى روح الأبدان يقول القرآن الكريم: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾.

روي أن كفار مكة، بعثوا إلى اليهود في المدينة المنورة،

يسألونهم عن أمر محمد، هل هو نبيٌّ أم لا؟ وقالوا لهم: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل؟ - يعنون محمداً ﷺ - فبعثوا لهم: سلوه عن فتية فُقدوا في أول الزمان، وعن رجل بلغ مشرق الأرض ومغربها، وعن الروح، فإن أجابكم عن الثلاثة فهو نبيٌّ، وإن سكت عن بعض فهو كذّاب، فنزل في شأن الفتية: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾؟ ونزل في شأن الذي بلغ المشرق والمغرب ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرَاً﴾ ونزل في الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ فظهر لهم صدق نبوته عليه السلام.

لقد كان سؤالهم عن معرفة حقيقة الروح، ما هي؟ وكيف تتولد؟ وممَّ خُلقت؟ وكيف تدخل الجسد وتنتشر فيه؟ وإذا مات الإنسان فأين تذهب الروح؟ فجاء القرآن الكريم بالجواب القاطع الواضح: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي قل لهم يا محمد: أنا لا أعرف، ولا أحد من البشر يعرف حقيقة الروح، فهي مما استأثر الله عز وجل بعلمها، واختص بمعرفتها، وهي سرٌّ من الأسرار لا يعلمها إلا الواحد القهار، وإذا كان حال العلم بأقرب الأشياء إلى الإنسان وهي نفسه هكذا، فما ظنك بالأبعد الذي غاب عن حواس الإنسان، ولهذا ختم الله الآية بقوله: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

وليس في هذا حَجْرٌ على العقل البشري أن يعرف ويتأمل، ولكنَّ فيه توجيهاً له أن يعمل في حدوده، ولا يخبطَ خَبْط عشواءَ في أمور لا يدرك كنهها، كالذات العلية، ذات الله جلَّ وعلا، وما أخبر عنه من مغيَّبات، فحسبُ الإنسان عجزاً ألَّا يعرف أخصَّ شيءٍ من جنبيه، ألا وهي الروح التي تسري في بدنه، فإنه يقف حسيراً عاجزاً أمام ذلك السرِّ

اللطيف، لا يدري ما هي الروح، ولا كيف جاءت، ولا كيف تذهب، ولا أين كانت، ولا إلى أين تصير، وهذا دليلُ عجز الإنسان وضعفه.

وإذا كان الرسول عليه السلام عاجزاً عن معرفة كل شيء في الحياة، وهو رسولٌ يوحى إليه، فما بالك ببقية أفراد البشر، ولهذا عقَّب تعالى بيان فضله على رسوله بتعليمه أمور الوحي والدين، والله قادرٌ على أن يسلبه منه إذا شاء، لو خالف حكمه وأمره، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً. إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾.

والمعنى: لو أردنا لمحونا هذا القرآن، الذي هو مِنَّةُ الرحمٰن في صدرك يا محمد، ثم لا تجد من يردُّه عليك، ولكنْ رحمةً من الله تركه محفوظاً في صدرك، لتبلغه للناس، وهذا من فضل الله الكبير عليك، حيث اختصك بالنبوة والرسالة، وجعلك خاتم المرسلين، وسيد الأولين والآخرين.

القرآن هو معجزة محمد الخالدة

وبعد هذا البيان المستفيض، عن الرسالة والرسول، وعن الوحي والروح، وما أراد به المشركون من الأسئلة الغامضة المحرجة، بقصد التشكيك في رسالته عليه السلام، والطعن في دين الإسلام.. جاءت الآيات الكريمة تحكي صدق رسالته ﷺ، بما أيَّده الله به من المعجزات الباهرة، والدلائل الساطعات، ومن أعظمها وأجلِّها هذا القرآن العظيم، الباقي بقاء الدهر، الذي عجز العالم عن الإتيان بمثله، وأنه من أكبر النعم التي أنعم الله بها على رسوله، فهو نبيٌّ أميٌّ لم يتلقَّ علماً في مدرسة، ولا تتلمذ على يد أحد من العلماء النوابغ، فمن أين جاء بهذا

القرآن، وهو الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة؟ إنها رحمة الله وفضله على رسوله، الذي أبقى له بسبب القرآن ذكراً إلى آخر الدهر، ورفع له به قدراً، لم ينله أحد قبله ولا بعده، وإذا كان فصحاء اللسان وبلغاؤهم، عجزوا عن الإتيان بسورةٍ واحدةٍ مثله، فلأن يكون غيرهم أعجزَ عن أن يأتوا بمثل جميعه من باب أولى، ولهذا تحدَّى الله الخلائق أجمعين، الإنس والجن، والنبغاء والفصحاء، وأخبر خبراً جازماً قاطعاً، بأنهم لو اجتمعوا جميعاً، وتعاونوا مشتركين على أن يأتوا بمثل هذا القرآن العظيم، لما قدروا ولا استطاعوا، وذلك نهاية التحدي في الإعجاز ﴿قُلْ لَئِنِ اجتَمَعَتِ الإنْسُ وَالجِنُّ، عَلَىٰ أَنْ يَأْتوا بِمِثْلِ هَذَا لقُرْآنِ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرَاً﴾ أي ولو تعاون الثقلان عليه، وحاولوا بكل قواهم وجهودهم، على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لما أطاقوا ولما استطاعوا، وأدرج تبارك وتعالى الجنَّ مع الإنس في التعجيز، ليكون ذلك أبلغ في العجز، فلم يكتف باجتماع الإنس، حتى ضمَّ إليهم الجن، وطلب منهم أن يستعين بعضهم ببعض لهذا الأمر العظيم ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ وَالْجِنُّ﴾ أي لو فُرض والتقوا جميعاً، واتحدوا واتفقوا على معارضة القرآن، بما فيهم أرباب الفصاحة والبيان، لما قدروا على معارضته.

سرُّ الإعجاز في القرآن الكريم

فهذا القرآن ليس مجرد ألفاظٍ وتراكيب، يحاول الإنس والجنُّ أن يحاكوها، إنما هو شيء معجز، كسائر ما يُبدعه الله من المخلوقات، يعجز الخلائق عن أن يصنعوا مثلها، هو كالروح من أمر الله، لا يدرك الخلق سرَّه الشامل الكامل، وإن أدركوا بعض خصائصه وآثاره ولذلك ما

استطاع أحدٌ من أرباب الفصاحة، وملوك البيان، أن يدعي أنه قادرٌ على محاكاته، رغم التحدي الصارخ لهم، الذي يستفزُّهم لمعارضته، ويدفعهم إلى الحفاظ على كرامتهم، بردِّ ذلك التحدي المتكرر، بالإتيان بمثل سورةٍ منه، أو عشر سور، أو بالإتيان بمثل هذا القرآن، مع الاستعانة بجميع الإنس والجان، فما كان منهم إلا أن يلقوا السلاح، ويعترفوا بالعجز، ويقول قائلهم: «والله لقد سمعتُ من محمد كلاماً، ليس من كلام الإنس ولا الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه» وروي في سبب نزول هذه الآية، أن جماعةً من قريش، قالوا لرسول الله ﷺ: جئنا يا محمد بآية غريبة، ومعجزةٍ بيِّنة تدل على صدقك، غير هذا القرآن، فإنا لو شئنا لأتينا بمثل هذا القرآن فنزلت الآية الكريمة: ﴿قُلْ لَئِن اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ قال العلاّمة ابن عطية رحمه الله: «وفهمتِ العرب بخلوص معرفتها في مِيَز الكلام، ودربتها به، ما لم نفهمه نحن، ولا كلُّ من خالطته حضارة، فهموا العجز عنه ضرورةً ومشاهدة، وعَلِمَه الناس بعدهم استدلالاً ونظراً، فهم مع هذه الأفهام أقرُّوا بالعجز، ولجأ الفرسان منهم إلى السيف، ورضي بالقتل والسِّباء، وكشف الحُرَم، وقد كان يجد المندوحة عنه بالمعارضة..»(١) ولهذا السبب قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾.

والمعنى: لقد وضَّحنا للناس الحجج والبراهين وبيَّنَّا لهم الحقَّ بالآيات والعِبَر، وبالأمثال الواضحة النيِّرة، ما يزيل عنهم الشكوك

(١) عن المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية.

والأوهام، ومع هذه البراهين القاطعة، والحجج الواضحة، أبى أكثر الناس إلاَّ جحوداً وإنكاراً، وإعراضاً واستكباراً «وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إلاَّ البَلَاغُ المبِينُ».

اقتراح المشركين للآيات والخوارق

ثم تتابعت الآيات تذكر نموذجاً لعناد المشركين، واستكبارهم وجحودهم، بعد كل تلك الحجج والبراهين، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعَاً. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجيراً. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمتَ عَلَيْنَا كِسَفَاً، أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ والمَلَائِكَةِ قَبيلاً، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ، أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابَاً نَقْرَؤُهُ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي، هَلْ كُنْتُ إلَّا بَشَرَاً رَسُولاً﴾؟

لما تبيَّن للمشركين إعجازُ القرآن، ولزمهم الحجَّةُ وغُلِبوا، أخذوا يتعلَّلون باقتراح الآيات والخوارق، فعل الحائر المبهوت المحجوج، واقترحوا عليه الآياتِ الستِّ، التي ذكرها الله عز وجل هنا، كشرطٍ لهم للإيمان، وهي:

الأولى : أن يُخرج لهم عيناً غزيرة من الماء، من شأنها النبوع من غير انقطاع، لأن مكة شحيحة المياه، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ أي عين ماء غزيرة.

الثانية : أن يكون له حديقة وبستان، تجري فيها الأنهار، وفيها أشجار النخيل والعنب والفواكه والثمار، وإليه الإشارة بقوله

سبحانه: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً﴾ والتعبيرُ بقوله: ﴿أو تكون لك جنة﴾ كأنهم يقولون له: هبْ أنك لا تفجِّر الأنهار من أجلنا، ففجرها من أجلك ومن أجل حديقتك.

الثالثة : أن يأخذهم بعذاب من السماء، فيسقط عليهم السموات قطعاً متفرقة، كما كان يتوعدهم بذلك، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ ومعنى كِسَفاً أي قطعاً متفرقة متناثرة.

الرابعة : أن يحضر ربُّ العزة والجلال، ومعه الملائكة الكرام، ليشهدوا لمحمد ﷺ بصدق الرسالة، وأن يروا الله والملائكة عياناً بأم أعينهم، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً﴾ أي نراهم معاينةً من غير حجاب، ويشهدون لك بأنك رسول الله، وأن الله بعثك رسولاً إلينا.

الخامسة : أن يكون لمحمد قصرٌ مشيد من الذهب، لا من الحجارة والطين، ليكون ذلك كبرهان على محبة رب العالمين، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ والزُّخرف هو الذهب الوضَّاء الثمين.

السادسة : أن يصعد محمد إلى السماء، فيأتي كلَّ واحد منهم بكتابٍ من عند الله، قد كتب له فيه بقلم القدرة، أن محمداً عبده ورسوله، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ أي تصعد في معارجها ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ﴾ أي نقرأ فيه أنك بحقٍّ مرسل من

عند الله، وقد أمره تعالى أن يجيبهم بقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً﴾؟ أي سبحان ربي هل أنا إلهٌ حتى تطلبوا مني أمثال هذه المطالب؟ ما أنا إلا رسول من البشر، ولست أدّعي الألوهية حتى آتيكم بما تطلبون.

هذه هي اقتراحات المشركين من سيد المرسلين، جعلوها شروطاً للإيمان به والتصديق برسالته، وهي كلها حماقات وسفاهات، تدل على مقدار ما وصلوا إليه من عنادٍ واستكبار، وطيشٍ وحماقة.

اجتماع رؤساء قريش بالرسول ﷺ

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إن رؤساء قريش اجتمعوا عند الكعبة فقالوا: ابعثوا إلى محمد فكلِّموه وخاصموه، حتى تُعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومِك قد اجتمعوا ليكلِّموك، فجاءهم سريعاً ـ وكان حريصاً على رشدهم ـ فقالوا يا محمد: إنا واللهِ لا نعلم رجلاً من العرب، أدخلَ على قومه ما أدخلتَ على قومك، لقد شتمتَ الآباء، وعبتَ الدِّينَ، وسفَّهتَ الأحلامَ، وفرَّقتَ الجماعة، فإن كنت إنما جئت بهذا تطلـب مالاً، جعلنا لك ما تكون به أكثرَنا مالاً!! وإن كنت إنما تطلب الشَّرف فينا سوَّدناك علينا!! ـ أي جعلناك شريفاً وسيداً علينا ـ وإن كنت تريد النساء زوجناك أجمل بناتنا، حتى تكون أكثرنا نساءً!! وإن كان هذا الذي يأتيك رئيّاً من الجنِّ، بذلنا أموالنا في طلب الطبِّ حتى نبرئك منه، أو نغدر فيك!! فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتُكم أطلبُ أموالكم، ولا الشَّرف فيكم، ولا المُلْك عليكم، ولكنَّ الله بعثني رسولاً إليكم، فإن تقبلوا منِّي ما جئتكم به فهو

حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبر لأمر الله عز وجل، حتى يحكم الله بيني وبينكم!!

فقالوا يا محمد: إن كنتَ غير قابلٍ منا ما عرضنا عليك، فقد علمتَ أنه ليس أحد من النَّاس أضيق بلاداً، ولا أشدَّ عيشاً منا، فسل ربَّك أن يُزيح عنا هذه الجبال، فتصبح سهولاً ومزارع، ويجري لنا فيها الأنهار، ويبعث من مضى من آبائنا، حتى نسألهم أحقٌّ ما تقول؟ وسله أن يجعل لك قصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة تغنيك عنا، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات البينات: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعَاً. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً﴾ الآيات.

ثم قال تعالى مبيناً عنادهم ومكابرتهم، وراداً على شبهتهم العليلة، أن الرسول ينبغي أن يكون من الملائكة، لا من البشر حتى يؤمنوا به ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرَاً رَسُولاً؟ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ، لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَاً رَسُولاً﴾ أي لو كان أهل الأرض ملائكة، يمشون على سطحها، لنزلنا عليهم رسولاً من الملائكة، لأن الجنس يألفه الجنس، ولكنَّ أهل الأرض بشر، فلذلك أرسلنا الرسول بشراً منهم.

شهادة الله لرسوله بالنبوة

ثم عرضت السورة الكريمة، لبرهان نيِّرٍ واضح، يدل على صدق رسالة محمد عليه السلام، ألا وهو شهادة الله عز وجل له بأنه رسوله، وكفى بها شهادة، كما ذكرت أن أمر الهداية والإيمان إنما هو بيد الرحمٰن، فمن شاء هداه، ومن شاء أضلَّه، وفي ذلك يقول تقدست

أسماؤه: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً. وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً، مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً. ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا، وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾؟

وحشرُ الكافر على وجهه معناه سحبه على وجهه إلى نار جهنم، يمشي على وجهه منكوساً بدل أن يمشي مستوياً على قدميه، وهي حقيقةٌ أخبر عنها القرآن: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾ أي تَجرُّهم الزبانيةُ من أرجلهم، فتبقى وجوههم تُجرجَرُ على الأرض، حال كونهم فاقدي الحواس، لا يرون، ولا ينطقون، ولا يسمعون، وقد سُئل رسول الله ﷺ فقيل يا رسول الله: كيف يمشي الكافر على وجهه؟ فقال: أليس الذي أمشاه في الدنيا على رجلين، قادراً أن يمشيه في الآخرة على وجهه؟ قال قتادة: بلى وعزَّة ربنا»[(١)] وصدق الله العظيم ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَر. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[(٢)].

إثبات الحشر والمعاد

ثم ذكَّرهم تعالى بعظيم قدرته، وباهر حكمته، في موضوع البعث والنشور، فقال تقدست أسماؤه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَىٰ

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند، وأصله في الصحيحين من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) سورة القمر آية رقم ٤٨.

الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً﴾ فإن الله الذي خلق هذا الكون العظيم، بسمواته وأرضه، وجباله وبحاره وأنهاره، ونجومه وأقماره، قادر على إعادة جسد الإنسان بعد فنائه، فإن من قدر على الإحياء، قدر على الإعادة بالمنطق الرشيد ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ؟ بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ﴾(١).

ثم تلتها الآيات تتحدث عن أولئك الذين اقترحوا على الرسول عليه السلام، تلك المقترحات المتعنتة، من قصور الذهب، وجنّات النخيل والأعناب، والينابيع المتفجرة بالمياه العذبة، أنهم بخلاء أشحاء حتى لو أن الرزق الذي عند الله، أسند إليهم وَوُكِلَ حفظُه لهم، لأمسكوا وبخلوا خوفاً من نفاده، فكيف لو كان أمر النبوة والرسالة بأيديهم؟ أو كان أمر تدبير شئون الخلق إليهم؟ ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي، إذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ، وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً﴾ أي بخيلاً شحيحاً منوعاً.

الآيات والمعجزات التي أيّد الله بها موسى عليه السلام

ثم أخبر تعالى عن الآيات الباهرات، التي أيّد الله بها نبيّه موسى ابن عمران عليه السلام، وهي دلائل قاطعة على صدق نبوته، ومع ذلك رآها فرعون وجماعته، فما ازدادوا بها إلا شقاءً وضلالاً، وجحوداً وعناداً، فكثرة الخوارق لا تنشىء الإيمان في القلوب الجاحدة، وها هو موسى قد أوتي تسع آيات بينات، ثم كذب بها فرعونُ وقومه، فحلَّ بهم الهلاك جميعاً، فلو أعطينا قومك ما طلبوا من المقترحات ثم لم يؤمنوا

(١) سورة يّس آية رقم ٨١.

لاستحقوا عذاب الاستئصال، فلا تلتفت إليهم، ولا تهتمَّ بمقترحاتهم ومطالبهم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُوراً. قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ، وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً. فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ، فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً. وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً. وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ أما الآيات التسع وهي المعجزات التي أيَّد الله بها موسى، فهي كما قال ابن عباس: «العصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم» آياتٍ مفصَّلات، كما أشارت إلى ذلك آية الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ، وَالجَرَادَ، وَالقُمَّلَ، وَالضَّفَادِعَ، وَالدَّمَ، آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ، فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾[1] فهذه بعض الآيات التي أرسلها الله على الأقباط أتباع فرعون الجبار.

المحاورة بين موسى وفرعون

وانظر إلى هذه المقابلة اللطيفة، والمحاورة التي جرت بين نبي الله موسى عليه السلام وفرعون الطاغية الجبار، فإن موسى لما عرض عليه كلمة التوحيد، ودعاه إلى الإيمان وترك الظلم والطغيان، رأى في دعوته جرأةً وخروجاً على آداب اللياقة، في مخاطبة الملوك والعظماء ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾ فما يستطيع الطغاة من

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٣٣.

أمثال فرعـون، أن يسمعوا مثل هذه الكلمات الصريحة، إلَّا إذا كان المتحدث لا يملك قواه العقلية، فهو يهذي لأنه مسحور، أو به مسٌّ من الجنِّ، وأما موسى فقد كان قوياً بالحقِّ الذي أرسله الله به، مطمئناً إلى نصرة الله له، وأخذه للطغاة المتجبرين ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ، وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ أي أعتقد أنك هالكٌ مدمَّر، جزاء تكذيبك بآيات الله، وأنت تعلم أنه لا أحد يملك هذه الخوارق إلا الله رب العالمين، وإنها لواضحة مكشوفة منيرة للبصائر، حتى لكأنها البصائر نفسها، تكشف الحقائق وتجلِّيها أمام الأنظار.

عندئذ يعـزم الطاغيـة أن يزيـل موسى والمؤمنين من الأرض ويُبيدهم، ويلجأ إلى قوته المادية بجبروت وطغيان ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعَاً. وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفَاً﴾ أي فإذا جاء وعد يوم القيامة، جئنا بكم جميعاً للحساب والجزاء، المؤمن والكافر، والبر والفاجر. وهكذا كانت عاقبة التكذيب بالآيات وأورث الله الأرض عباده المؤمنين.

ختام السورة الكريمة

وكما أيَّد الله نبيه موسى بالآيات والخوارق، فكذلك أيَّد حبيبه المصطفى بالقـرآن المعجز، المتضمن للحقِّ في أنبـائه، وأخبـاره، وأحكامه ﴿وبالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرَاً وَنَذِيراً. وَقُرْآنَاً فَرقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ ثم يأتي دور الوعيد والتهديد للمكذبين لهذا القرآن ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا، إِنَّ

الَّذِينَ أُوْتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ، إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ للأَذْقَانِ سُجَّداً، وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً. وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعَاً﴾ أي سواء عليكم آمنتم أم لم تؤمنوا، فإن أهل العقل والبصائر، من صالحي أهل الكتاب، كانوا إذا سمعوا آيات الرحمٰن، خرُّوا على وجوههم ساجدين للّه رب العالمين، من فرط تأثير القرآن في قلوبهم.

وتختم السورة الكريمة بتمجيد الله وتحميده، كما بدأتها بتسبيحه وتنزيهه، ليتلاءم البدء مع الختام، وينسجم المشهد غاية الانسجام، الذي يوحي بجلال الله وعظمته، وقدرته وسلطانه ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيَّاً مَا تَدْعُو فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى، وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ، وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا، وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً. وَقُلِ الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ، وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾. لا إله إلا الله والله أكبر، والحمد للّه رب العالمين.

تمّ بحمد الله وعونه الجزء السادس من كتاب قبس من نور القرآن الكريم، ويتلوه الجزء السابع وأوله سورة الكهف، والحمد لله في البدء والختام.

* * *

الفهرس